موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلَّدُ الرَّابعَ عشَرَ

سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163

نُخبةٌ مِنْ علماء مجمع القرآنِ الكريمِ بالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعُ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: 88]

مُناسبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كراهةُ الحقّ تقودُ إلى الاستكبارِ والتَّعالي

كانت دعوةُ شعيبٍ الهاديةَ المُرشدةَ بعد أن بيَّن لهم الحُجَّةَ الدّالَّة على رسالته، ولقد آمن بعضُهم، وأعرضَ غيرُهم، فلمّا قرَّر تلك الكلماتِ وما فيها منَ الحقِّ الواضحِ؛ قال: رؤساؤهمُ المُسيطرون الَّذين استكبروا، وأنِفوا من تصديقِه وقَبولِ قولِه: لا بدَّ من أحدِ أمرين: إمّا أنْ نُخرجَك، ونُخرجَ أتباعك من هذه القَرْيَة، وإمّا أن تعودَ إلى ملَّتِنا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: منَ المِلْءِ، أي: ما أخَذَ الإناءُ منَ الماءِ، وشابٌّ مالئُ العينِ: إذا كان فخمًا حَسَنًا، والمَلأُ: أشرافُ الناس ووجوهُهُمْ[2]. أو: همُ الجَماعةُ منَ الناس يجتمعون ليتشاورُوا، ويتحادثُوا[3] أو: همُ الرؤساءُ والعِلْيَةُ، ومقدَّمُو القوم الذين يُرجعُ إلى قولهم، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم مِلاءٌ بما يُحْتاجُ إليه[4]. والمَلَأُ أيضًا التمالُؤُ، والتَّعاونُ. مالأْتُ فلانًا على الأمر، أي: كنتُ معه في مشورته[5] ساعدته عليه، وظاهرتُه، وشايعتُه[6].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/316، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2899.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ملأ).
(3) الخليل، العين: (ملأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ملأ).
(5) الخليل، العين: (ملأ)، والصاحب ابن عباد، المحيط في اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ملأ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ملأ).

والملأُ في الآية المباركةِ: كبارهُم، وأشرافُهم، ورؤساؤهم، وعِلْيَتُهمُ الذين اجتمع رأيُهم على إنكار رسالاتِ نبيِّ اللّه شعيبٍ عليه السلام ورفضِ دعوته.

2) ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: "الكاف والباء والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الصِّغَرِ"[1]، و"كُبْرُ كلِّ شيءٍ: عِظَمُه"[2]، وهو نموُّ حجْم الشَّيء، أو زيادتُه بالنِّسبة لحجمه، أو لِحَجْم غيره، ثم كلُّ كبير، فهو كِبَرُ عِظَم، أو كِبَرُ رياسة[3]. والاستكبارُ: التَّعظُّمُ، والتَّجبُّرُ، وبَطَرُ الحقِّ، والامتناعُ عن قَبولهِ، معاندةً، وتكبُّرًا[4]. فهو إذًا الحالةُ التي يتخصَّص بها الإنسانُ من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى نفسَه أكبرَ من غيره، وأعظمُهُ التكبُّرُ على اللّه بالامتناع عن قَبول الحقِّ والإذعان له بالعبادة، والاستكبارُ يقال على وجهين: أحدهما أن يَطْلُبَ الإنسانُ أن يكون كبيرًا، والثاني أن يتشبَّع، فيُظْهِرَ من نفسه ما ليس له، أو يرى نفسه أكبرَ من غيره بما أنعم اللّه عليه من مال وجاهٍ، وهذا هو المذمومُ، وعليه ما ورد في القرآن الكريم[5].

وبه وبجماعِ ما حرَّرنا من معانٍ يُفسَّرُ معنى اللَّفظة في الآية المباركة، لإعجاب كبارِ القوم، ورؤسائِهم بأنفسهم، وتعظُّمِهم عنِ الإصغاء إلى الحقِّ معاندةً وتعاليًا، وتجبُّرِهم على ضعفاء قومِهم.

3) ﴿شُعَيۡبٗ﴾: "الشّين والعين والباء أصلان مختلفان أحدُهما يدلُّ على الافتراق، والآخرُ يدلُّ على الاجتماع"[6]. وشعيبٌ: اسمُ النَّبيِّ عليه السلام، وهو تصغيرُ شَعْبٍ، أو شِعْبٍ، وشَعْبٌ الذي هو مصدر لشعبْتُ الشَّيءَ[7]، أمّا الشِّعْبُ؛ فهو أكبرُ من القبيلةِ، وقيل: الحيُّ العظيمُ يتشعَّب منَ القبيلة، وقيل: هو القبيلةُ نفسُها[8]، ويكون بمعنى الانتشارِ والتَّفرُّقِ والتَّفرُّعِ[9]. والشِّعبُ: ما انفرجَ بين الجبلَين[10]، وشَعَبْتُ بينهم بالتَّخفيف: أصلحتُ، وكلُّ ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(2) الخليل، العين: (كبر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كبر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (كبر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعب).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شعب).
(8) ابن سيده، المحكم: (شعب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شعب).
(10) ابن سيده، المحكم: (شعب).

ورد من معاني الاجتماع، والإصلاحِ يناسبُ معنى اسم نبيِّ الله شُعَيب ﵇، فهو المُصلح، والدّاعي قومَه إلى الاجتماعِ والانقيادِ إلى رسالات ربِّ العالمين.

4) ﴿ءَامَنُواْ﴾: الهمزةُ والميمُ والنّون أصلان أحدُهما: التَّصديقُ[1]. فالإيمانُ: التَّصديقُ، والطمأنينةُ، وزوالُ الخوف[2]، ويرادُ به إذعانُ النَّفس والانقيادُ للحقِّ على سبيل التَّصديق[3]. ومعنى اللَّفظة في الآية المباركة يتضمَّن هذه الدِّلالاتِ من حيث إنَّ أتْباعَ شعيبٍ ﵇ آمنوا به، وصدَّقوه، وانقادوا لما جاء به منَ الحقِّ، ونَصروه، ولم يخذلوه، فصَدَقَ عليهم وصفُ المؤمنين.

5) ﴿قَرْيَتِنَآ﴾: القاف والرّاء والياء، أصلٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومن ذلك سُمّيت القَرْيَةُ؛ لاجتماع النّاس فيها[4]. فالقَرْيَة: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، وأصلُه من قَرْيِ الماء، أي: جمْعُه[5]. والقَرْيَة منَ المساكن والأبنية: الضّياعُ، وقد تطلقُ على المُدُن، وهي كلُّ مكان اتَّصلتْ به الأبنيةُ، واتُّخِذ قرارًا منَ المدن وغيرِها[6]. وهو المعنى المرادُ في الآية المباركة، وقريةُ شعيب ﵇ هي (الأَيْكَة) وهي (تبوك)[7].

6) ﴿لَتَعُودُنَّ﴾: "العَوْدُ: تثنيةُ الأمرِ عودًا بعد بدءٍ"[8]، وهو أصلٌ فيه[9]، فهو الرُّجوعُ إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقولِ والعزيمة[10]، وكثيرًا ما يأتي (عادَ) بمعنى (صار)[11]. وهذا المعنى لا يستدعي الرُّجوعَ إلى حالة سابقةٍ، بل يقتضي الانتقالَ إلى حالة مستأنَفة[12]. وقد يُطلق العودُ، ويراد به الابتداءُ، وفُسِّرَ به لفظُ (العَود) في الآيتين (88 و89) من سورة الأعراف التي نحن بصددها، والمعنى: (لتدخلُنَّ)

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (أمن).
(3) الراغب، المفردات: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(5) الراغب، المفردات: (قرى).
(6) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (قري).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/6.
(8) الخليل، العين: (عود).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(10) الراغب، المفردات: (عود).
(11) الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر: 2/186.
(12) الكفويّ، الكليات، ص: 657.

و(دخلنا) في الآيتين[1]. والمعنيان الأخيران (الصَّيرورة، والابتداء) هما الأقربُ إلى تفسير لفظ العَود في الآية المباركة، وإن كان معنى الرُّجوع قد ارتضاه بعضُ المفسِّرين على معنى التَّغليب، وأنَّ المخاطَبَ قومُهُ لا هو[2]. وفي الخطاب أماراتٌ تمنع هذا الفهمَ، ومنها عطفُهم على ذكر النبي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾. فالظاهرُ أنَّه المعنيُّ أصالةً، وهمُ المَعنيّون بالتَّبعيَّة لما أنَّهم ظاهروه، واستجابوا له.

7) ﴿كَٰرِهِينَ﴾: الكاف والرّاء والهاء: أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على خلاف الرضا والمحبَّة، والكُرْهُ: المشَقَّةُ، والكَرْهُ: أنْ تُكلَّفَ الشيءَ، فتعملَهُ كارِهًا[3]. وتكرَّه الشَّيءَ: تسخَّطَهُ، وفعلَه على تكارُهٍ[4]. فالكَرْهُ: المشقَّةُ التي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحْمَلُ عليه بإكراهٍ. والكُرْهُ: ما ينالُ من ذاته، وهو يَعافُه، وهو على نوعين: أحدهما: ما يُعافُ من حيث الطَّبعُ، والآخرُ: ما يُعافُ من حيث العقلُ أوِ الشَّرعُ؛ ولهذا يصحُّ أن يقول الإنسانُ في الشَّيءِ الواحد: إنّي أريدُهُ، وأكرَهُهُ، بمعنى: أني أريدُه من حيث الطَّبعُ، وأكرهُه من حيث العقلُ[5]. وكُرْهُ شعيبٍ عليه السلام - لِما دعاه قومُه إليه - كُرْهُ طبعٍ، وكرْهُ عقلٍ، وكرْهُ شرعٍ، وهذا يناسبُ مقامَ اصطفائه نبيًّا، وتكليفِه بالرِّسالة.

المعنى الإجْماليُّ:

تكذيبُ المُستكبرين من قوم شُعَيبٍ عليه السلام له وتطاوُلُهم عليه

هذه أوَّلُ آيات محاورةِ الكافرين ومجادلَتِهم نبيَّ اللّٰه شعيبًا عليه السلام، وبيانِ عجْزهم، وضَعْفِ حجَّتهم، واجترائِهم عليه، باللُّجوء إلى منطق الوعيد والتَّهديدِ، وقوَّةِ الرَّدع؛ إذ قال جماعةُ الكبراء والرُّؤساء منهم الذين تجبَّروا، وعتَوا، وتمالَؤوا على الباطل، واستكبروا على

(1) الزبيدي، تاج العروس: (عود).
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/219، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (عود).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كره).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (كره).
(5) الراغب، المفردات: (كره).

أهليهم، وعنِ الإيمان باللّه والانتهاءِ إلى أمره، والتَّسليمِ له باتِّباع نبيِّه المُرسَل هدايةً، ورحمةً، وإنكارِ رسالته التي بُعث بها وردِّ دعوتِه - لِلنَّبيِّ شعيبٍ ﷺ وأتباعِه: لَنَطرُدَنَّكم، أو لَنُقْصيَنَّكم من بلدتنا، أو لَتَصيرُنَّ في شِرعتنا، وتدخلُنَّ في ديانتنا. وهو جواب المفحَم عنِ الحجَّة، والصّائرِ إلى الشدَّة، المُزدهي بالقوَّة، المُزدانِ بالكِبْر، المُتوقِّع كثرةَ المؤمنين بالنَّبيِّ، المُتحسِّبِ له[1]، فرَدَّ مُنْكِرًا مُتَعَجِّبًا: أوَ تُجْبِروننا، ولو كنّا كارهين لها لبطلانها ؟ أو رافضين للإخراج، أو المصيرِ إلى ما طلبتم ؟

وتهدي الآيةُ المباركة: إلى ذمِّ العِلْيَةِ المستكبرين المنكِرين للحقِّ المُصرّين على الباطل، الرّافضين للهداية، والرَّشاد، والموعظةِ الحسنة، المُتطاولين على مَنْ جاءهم مبشِّرًا ونذيرًا، وبيانِ سُنَّةٍ بشريَّةٍ قوامُها: أنَّ الظَّلَمَةَ والمتكبِّرين يجادلون بالباطل، وإنْ أعْيَتْهُمُ البراهينُ، وأفحمتْهُمُ الحُجَجُ، وبدلَ أن يُسلِّموا بالحقِّ، ويُذعنوا إليه، فيستريحوا، ويُريحوا؛ يَفزعون إلى القوَّة بطردِ أهلِ الحقِّ ونَفْيِهم، أو إكراهِهم على قَبول الباطل بالعذاب والنَّكال[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

قــولُ المُتـعـالي المُستكبرِ قبيحٌ فظيعٌ مُستشنَع

﴿۞قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ اسْتِئْنافٌ مَبنِيٌّ على سُؤالٍ يَنْساقُ إلَيْهِ المَقالُ، كَأنَّهُ قيلَ: فماذا قالوا لشعيبٍ ﷺ بَعْدَما سَمِعوا مِنهُ المَواعِظَ؟ فأُجيبَ: قالَ أشْرافُ قَوْمِهِ المُسْتَكْبِرونَ مُتَطاوِلينَ عَلَيْهِ: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾؛ بُغْضًا لَكم ودَفْعًا لِفِتْنَتِكُمُ المُتَرَتِّبَةِ على المُساكَنَةِ والجِوارِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/5.
(2) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 9/205.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/248.

وفَصَلَ جُمْلَةَ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ عن ﴿قَالَ أَوَلَوْ﴾، ولم يعطف بالفاء، أو الواو جَرْيًا على طَريقَةٍ مُتَّبَعَةٍ في القُرْآنِ في حِكايَةِ المُحاوَراتِ بحذْفِ العاطفِ في سياقِ المُحاوَرَة؛ كَراهيَةَ تَكْريرِه بِتَكْريرِ أفْعالِ القَوْلِ[1].

عادةُ القرآن أنَّ سياقَ المحاورة مَدعاةٌ لفصل الجُمل عن بعضها

سرُّ تعريفِ الملأ:

وعرَّف ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ بـ(أل) العهديةِ تخصيصًا لهم وتعيينًا، وتعبيرًا عن شدّة عُتوِّهم، وتعنّتِهم، واستعصائِهم، وفداحةِ ما هم عليه من سوء حالٍ.

في تعيينِهم بيانٌ لشدّة تعنُّتِهم واستعصائِهم

نكتةُ الوصف بالموصول:

أكَّدَ التَّعريفُ واصفًا بالمَوْصوليّة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لما تومئ إليه الصّلةُ من وجه صُدورِ هذا الكلام منهم، أي: إنَّ استكبارَهم هو حاملُهم على هذا الردِّ القاسي الفظِّ الغليظِ على نبيّهم، وإنَّ احتقارَهُمُ المؤمنينَ هو الذي أصّلَ عندهم رفضَهم الإيمانَ بالنّبيّ، وبرسالته.

التأكيدُ بالموصول ترسيخٌ لوجه صُدورِ القول منهم

إيثارُ الوصف بالاستكبار دون غيرِه:

إيثارُ وصْفِهِمْ بِالِاسْتِكْبارِ دونَ الكُفْرِ، مع أنَّهُ لَمْ يُحْكَ عنهم هنا خطابُ المُسْتضعَفينَ، حَتّى يكون ذِكْرُ الاستكبارِ إشارةً إلى أنّهم اسْتَضْعَفوا المؤمِنينَ، كما اقْتَضَتْهُ قِصَّةُ ثمودَ، فاخْتيرَ وصْفُ الاستكبارِ هُنا لمناسَبَةِ مُخاطَبَتِهِمْ شُعَيْبًا بِالإخْراجِ أوِ الإكْراهِ على اتِّباعِ دينِهِمْ، وذَلِكَ مِن فِعْلِ الجَبّارينَ أصْحابِ القوَّة[2].

فعلُ الملأ في فظاظة الخطاب صنيعُ الجبابرة المُستكبرين

وجهُ إرادةِ النّبيِّ دون غيره:

إسنادُ كافِ الخطابِ إلى فعل الإخراج في مخاطبة شعيب عليه السلام، ثمّ التّصريحُ باسمه معرَّفًا بالعَلَميَّة، ومقدَّمًا على المؤمنين به، تلويحٌ بِالقَصْديَّة، فهو مصدرُ التأثير، والخطورةِ، بيانًا، وقوَّةَ حجةٍ، وللتّنبيه على أصالتِهِ عليه السلام في ذَلِكَ، وتَبَعيَّتِهِمْ لَهُ فيهِ.

النّبيُّ شعيبٌ عليه السلام مكمنُ التأثير في قومه، والخطورة عليهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/401.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/5.

من يُضِلُّ القومَ ساداتُهم وكبراؤهم، وهم أصحابُ القرار

دلالةُ الحرف ﴿مِن﴾:

(مِنْ) في ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ تبعيضيّةٌ تنفي كونَهم أغلبيةً، وتُشيرُ إلى أنّ قادةَ القوم وكبراءَهم هم الذين تصدَّوا لمهمّة المجادلة والمنافحةِ عن ملّتهم؛ بمسمعٍ منَ القوم الذين خاطبَ جميعَهم.

توجيهُ استعمالِ الضّمائر وعوْدِها:

لا بدّ للنّاس من هادٍ، وإن تَمَالَأَ القومُ على الشِّرعةِ الباطلةِ

الهاء العائدةُ على شعيبٍ ﷺ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ تُفصِحُ عن نسبة النّاس إلى من يريدُ بهمُ الهداية، والخيرَ، والرّشادَ، لا الإضلالَ، والاستعبادَ، فضلًا عن أنّ شُعيبًا ﷺ أشرفُهم وأعلاهم نَسَبًا، فحُقَّ لهم أن يُنسبوا إليه، فبتلك النّسبةِ يُعَزُّ الرّفيعُ، ويرتفعُ الوضيعُ، وجريانُ ذلك على ألسنة الرُّسل لأقوامهم، مُتلقًّى بالتَّجِلَّةِ والاحترام والإعظامِ بَلْهَ القَبولِ، يقولُ كلُّ نبيّ لقومه: (يا قوم)، ولا يُظهِرُ ياءَ الإضافة الدّالّةَ على المتكلّم تواضعًا، وغَمطًا للنّفس بالغضّ عن رؤيتها، يقابلُها نسبتُهمُ القَرْيَةَ والملّةَ إليهم بإسناد الضّميرِ (نا) في كلٍّ من: ﴿قَرْيَتِنَآ﴾، ﴿مِلَّتِنَاۚ﴾؛ لما فيه من معنى المُمالأة على التملّك؛ لظنّهم أنّهم رؤساءُ شِرعتها الباطلةِ، ومنهجِها الدُّنيويِّ النَّفعيِّ القاصرِ، والمُتصرّفون بشؤونها، وأحوالِ أهلها.

بيانُ الفصل بين القَرْيَة ومُتعلّقِها:

غاية المشركين إبعادُ شعيبٍ عن مركز التّأثيرِ ومن آمنَ به، فهمُ المقصدُ والغايةُ

توسيط فاصلٍ بين القَرْيَة، وبين متعلَّقها (فعلُ الإخراج) في قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ - مع أهميتها عندهم بوصفها ميدانَ تسلّطِهم، وممارسة غواياتهم - ترسيخٌ للعناية بالمُنذِرِ؛ لكونه مهادَ التهديد، ومنتهاهُ.

نكتةُ توسيطِ النّداء بالاسم الظّاهر لنبيِّهم:

وتَوْسيطُ النِّداءِ باِسْمِهِ ﷺ بين المَعْطوفَيْن في قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ والتَّهديدِ النّاشِئَ عن غايَةِ الوَقاحَةِ

والطُّغيانِ[1]، وخِطابُهم إيّاهُ بِالنِّداءِ جارٍ على طَريقَةِ خِطابِ الغَضَبِ، كَما حَكى اللّه قَوْلَ آزَرَ خِطابًا لِإبْراهيمَ ﷺ: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم: 46]. وقد أساؤوا الأدبَ معه، حيث نادَوْه باسمِه العَلَميِّ، وتهكَّموا به[2]، ففي هذا النداء وجهُ مباعدةٍ بينهم وبينه اقتضتِ النّداءَ، وفيه ما لا يُشعِرُ بالاحتشام معه، فضلًا عنِ الاحترام بَلْهَ الإكرام، وأنَّ مِن معناه: أنْ لو كانوا في رويّةٍ منَ الفكر وأناةٍ منَ الرأي لما قالوه.

رسّـــخُـــوا تـهـديـدَهـم بـالـتّـصـريـح بـالاسـم؛ قلةَ أدبٍ منهم ووقاحةً وتماديًا في الظُّلْم

سرُّ تعْديةِ لفظِ العَوْد بـ ﴿فِى﴾:

وعُدّي (عاد) في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ بـ (في) الظّرفية وليس بـ(اللام)، أو (إلى) مع أنه يتعدّى بهما؛ تنبيهًا على أنّ الملّةَ صارت لهم بمنزلة الوعاءِ المحيطِ بهم[3]. وهو يوائِمُ تفسيرَ فعْلِ (العَوْدِ) بالدِّخول في الملّة، والصّيرورةِ فيها.

أفادتِ الظَّرفيّةُ أنَّ ملّتَهم صارت مَوْئِلَهم الذي لا يقدِرون على الفِكاكِ منه

بلاغةُ حَشْدِ المؤكّدات:

يناسب جوَّ الإصرارِ والتّعنّتِ حَشْدُ المؤكِّداتِ المصاحبةِ للأفعال؛ إذ أكّدوا التَّوَعُّدَ بالتَّأْكيدِ القَسَميِّ، وتَرْديدِ الفعلين في حَيِّزه؛ باستعمال لام القَسَم ونونِ التَّوْكيدِ لِلمُبالَغَةِ والاِعْتِناءِ بالحُكْم[4]، وليوقنَ شُعيبٌ ﷺ بأنَّهم مُنْجِزو وعيدِهم بفعلِ أحدِ الأمرَين لا مَحالَةَ، ولذلك قرنوا العَوْدَ بالقَسَم، فقالوا: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾، وليس (تعودُنَّ) بغير لامٍ.

تـعـنّـتُـوا في باطلهم وسَدَرُوا في غـيِّـهـم مُهدِّدينَ بتنفيذِ الوعيدِ

نكتةُ تقديمِ القَسَم:

لَمّا كانَ المَقامُ توعّدًا وتهديدًا؛ كانَ ذِكْرُ الإِخْراجِ مِن أَرْضِهِمْ أَهَمَّ، فلِذَلِكَ قَدَّموه مُقْسَمًا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَعْقَبوهُ بِالمَعْطوفِ بِحَرْفِ العطف (أو) الدّالِّ على التّخيير.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/2.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/173.
(3) القِنَّوْجي، فتح البيان: 4/410.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/4.

سرُّ حذْفِ متعلَّقِ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

حــرصُ الـقـوم على إيقاع الفُرْقة بين شعيبٍ عليه السلام وأتـبـاعِـه، ولـو كـانوا يصدّقون لآمنوا به

قَوْلُه: ﴿مَعَكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ﴾، ومُتَعَلَّقُ آمَنوا مَحْذوفٌ، أيْ: (بِكَ)؛ لِأنَّهم لا يعتقدون الإيمان بشُعيب عليه السلام، ولا يَصِفونَه وإيّاهم بِالإيمانِ الحَقِّ في اعْتِقادِهِمْ، ولا يرتضونَ إيمانًا به من أحدٍ؛ ولذلك استغنَوا بالمذكور (مع) الدّالّ على المُصاحَبَة بدلًا من (باء) الإلصاق الدّالّةِ على تَعَلُّقِ أحَدِ المَعْنَيَيْنِ بِالآخَرِ(1). ويجوزُ أن يكون مردُّ عدم ذكر مُتعلَّق ﴿ءَامَنُواْ﴾ المُقدَّر بالجارّ والمجرور (بك) إلى تقدُّم ذِكْرِ ما دلَّ عليه، وأغنى عنه في الآية السّابقة ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾، فلو أرادوا التّصريحَ بالمتعلّق لكرّروا إعادتَه من بيانه، ولو قالوا ذلك؛ لتضمَّن اعترافَهم برسالته ولوقَعوا في الحَرَج.

كما أنّهم قابلوا حذفَ المُتعلَّق تنزيهًا له أنْ يُذكرَ في مقام الإنكار والاستكبار حين خاطبهم في تتمّة الآية السّابقة بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ﴾ [الأعراف: 87] بحذف المُتعلَّق حين تحدّثوا إليه عن أتباعه، صَلَفًا، واستكبارًا، ومجاراةً للأسلوب بالمثل.

ثم أنهم حريصون على إيقاع الفُرْقة بينه وبين أتباعه، وذكرُ المُتعلَّق تصريحٌ بمتانة الصِّلة وقوّة العلاقة؛ وهذا ممّا يَغيظهم، ويستخرجُ سخائمَهم، ويُضرمُ نيرانَ حِقدهم.

بلاغةُ الاستفهام في ﴿أَوَلَوۡ﴾:

تعجُّبَ شعيبٌ مــن قـولـهـم مُـثـبـتًـا قــوّةَ إيمانه ومعرفتَه بمقصودِهم

الِاسْتِفْهامُ في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في التَّعَجُّبِ تَمْهيدًا لِبَيانِ تَصْميمِهِ عليه السلام ومَن مَعَهُ على الإيمانِ؛ وليَعْلَمَ قَوْمُهُ أنَّهُ أحاطَ خَبَرًا بِما أرادوا من تَخْييرِهِ والمُؤْمنينَ مَعَهُ بَيْنَ الأمْرَيْنِ(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/7.

والهمزةُ فيه لإنكار الوقوع[1]، وللتّوقيف على شُنعةِ المعصية بما أقسموا عليه[2].

توجيهُ التّعريض في جملة الفاصلة:

حمْلُ المرء على الباطل بالإكراه فيما بان الحقُّ فيه اعتداءٌ

في كَلام شعيبٍ عليه السلام تَعْريضٌ[3] بِحَماقَةِ خُصومِه؛ إذْ يُحاوِلونَ حَمْلَهُ على مِلَّتِهِمْ بِالإكْراهِ، مَعَ أنَّ شَأْنَ المُحِقِّ أنْ يَتْرُكَ لِلحَقِّ سُلطانَهُ على النُّفوسِ، ولا يَتَوَكَّأُ على عَصا الضَّغْطِ والإكْراهِ، ولِذا قالَ اللّه تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256]؛ فإنَّ التِزامَ الدّينِ عَنْ إكْراهٍ لا يَأْتي بِالغَرَضِ المَطْلوبِ مِنَ التَّدَيُّنِ، وهو تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وتَكْثيرُ جُنْدِ الحَقِّ والصَّلاحُ المَطْلوبُ[4].

نكتةُ التّعْبير بِـ(لو) في الفاصلة:

إصـرارُ المشركين عـلى صنيعِهـم يـثـيرُ الـعـجـبَ والغرابةَ

(لَوْ) في قوله: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ وصْلِيَّةٌ تُفيدُ أنَّ شَرْطَها هو أقْصى الأحْوالِ الَّتي يَحْصُلُ مَعَها الفِعْلُ الَّذي في جَوابِها، فيَكونُ ما بَعْدَها أحْرى بِالتَّعْجيبِ، فالتَّقْديرُ: أتصيّروننا إلى مِلَّتكم ولَوْ كُنّا كارِهينَ، والجملةُ في مَوْقِعِ الحالِ، والواوُ واوُ الحالِ، أيْ: في حال كرهنا، والحرفُ (لَوْ) لِلشَّرْطِ، وحَذْفُ جوابِهِ لِدَلالَةِ ما قَبْلَهُ عَلَيْه، قصدَ المُبالَغَةِ، والوَصْلُ بالواو والرَّبطُ بها في مَقام التَّأْكيدِ. وقيل: إنَّ الواوَ عاطِفَةٌ على شَرْطٍ مَحْذوفٍ هو ضِدُّ الشَّرْطِ المَذْكور. وقيل: هي لِلاسْتِئْنافِ، وهذه المواقعُ تُؤْذِنُ بِأنَّ الشَّرْطَ الَّذي بَعْدَها شَرْطٌ مَفْروضٌ هو غايَةُ ما يُتَوَقَّعُ مَعَهُ انْتِفاءُ الحُكْمِ الَّذي قَبْلَها[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/248.

(2) أبو حيان البحر المحيط: 4/345.

(3) التّعريض: هو اللّفظُ الدّالُّ على الشيّء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقيّ ولا المجازيّ، ومعناه قريبٌ منَ الكناية، وربما التبس على كثير منَ الفضلاء. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية: 380.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/7.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8، و3/306.

دلالةُ صيغةِ اسم الفاعل:

ثبوتُ صفة كراهةِ انصياعه إلى قومه بمنزلة الأمرِ الحاصلِ المُستقرّ

ولأنّ كارِهَ الشَّيْءِ لا يقاربُه إلّا مَغْصوبًا، عَدَلَ عنِ الصيغة الفعليّة فيه إلى اسم الفاعل؛ ليدلَّ على ثبوت صفة كراهةِ الانصياع إليهم، ودوامِها فيهم، وأنّ أمرَ الكُرْهِ بمنزلة الحاصل الثابت المستقرّ.

وجهُ الاستئناف في جملة الشّرط:

في الشّرط تقريرٌ لما أُطلق من كلامٍ مستغرَبٍ

وقد يجري مَوْقِعُ الشَّرْطِ في الفاصلة على اسْتِعْمالٍ محتملٍ هو أن يقعَ اسْتِئْنافًا بيانيًّا جوابًا لِسُؤالٍ، مُحَقَّقٍ أوْ مُقَدَّرٍ، يَتَوَهَّمُهُ المُتَكَلِّمُ مِنَ المُخاطَبِ فيُرِيدُ تَقْديرَهُ، فلا يَقْتَضي أنَّ شَرْطَها هو غايَةٌ لِلْحُكْمِ المَذْكورِ قَبْلَهُ، بَل قَدْ يَكونُ كَذَلِكَ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستكبار والاستنكاف:

لِغَيِّهم كانوا يَرون أنفسَهم أكبرَ من غيرهم من غيرِ استحقاقٍ

الاستنكاف: تكبّرٌ في تَركه أَنَفَةٌ، وترفّعٌ، ومعناه الانقباضُ والامتناعُ عنِ الشيء حميّةً، وعزّةً[2]، وليس فيه معنى الطّلب، وإنّما يَتوهّم المُستنكِفُ النّقصَ في المستنكَفِ عنه[3]. والتّكبرُ: هوَ أن يرى المَرْء نَفسَه أكبرَ من غَيره، والاستكبارُ: طلبُ ذَلِك بالتّشبّع وهوَ التّزيّنُ بِأَكْثَرَ ممّا عِنْده؛ فهو طلبُ الكِبْر بغير استحقاق له بالامتناع عن قَبول الحقّ تكبّرًا، وتعاظُمًا[4]. وكذلك كان القومُ متعالين، مُتجبّرين مُستخفّين بقومهم بغيرِ استحقاقٍ، فناسب إيثارُ لفظِ الاستكبار هذا المعنى؛ فإنَّ الكِبْرَ لا يكونُ إلا بغير الحقّ، وهو مذمومٌ بكلّ حال.

القَرْيَة، والمدينة:

الفرقُ بين القرية والمدينة في القرآن الكريم هو أنَّ القريةَ تدلُّ على مجتمع متجانسٍ متّفقٍ على شيء واحد، سواء كان خيرًا أو شرًّا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/307.
(2) الخليل، العين: (نكف).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/261.
(4) الكفويّ، الكليات، ص: 28.

القَـرْيَـة: تـدلُّ عـلى مجتمع متـجـانـسٍ، والمدينـة: تـدلُّ عـلى مجتمعٍ خليطٍ

والمدينةُ تدلُّ على مجتمع خليطٍ من الخير والشّرّ أو الكُفر والإيمان، وهذا الفرقُ يتبيّن باختلاف السّياق والسِّباق، وزمنِ الوصف، ووجهةِ نظرِ منْ يَصِفُ. وورد لفظُ (القرية) مُنَكَّرًا، أو معرَّفًا، أو مضافًا، أو مُثَنًّى في القرآن نحوًا من سبعٍ وثلاثين مرّةً، بينما ورد لفظُ (المدينة) معرَّفًا فيه نحوًا من أربع عشرة مرّةً.

وتخصيصُ القُرى بإرسال الرّسل فيها دون البوادي، يُنبئُ أنَّ مرادَ اللّه تعالى من إرسال الرّسل هو بثُّ الصّلاح لأصحاب الحضارةِ التي يتطرّقُ إليها الخللُ بسبب اجتماع الأصنافِ المختلفةِ، وأنَّ أهلَ البوادي لا يخلون عنِ الانحياز إلى القُرى والإيواء في حاجاتِهم المدنيّة إلى القُرى القريبة[1].

الجَمَاعَة، والملأ، والنَّفر، والرّهْط، والشِّرذمة، والقوم:

المـلأ أشـرافُ القـوم الَّـذيـن يـتـزعّـمـونَـهـم، ويـقـومُـونَ بأمُورِهم

المَلأ: الأشرافُ الَّذين يملؤون العُيون جمالًا والقلوبَ هَيْبَة، ويجوزُ أن يكون الملأ الجَماعَةَ الَّذين يقومونَ بالأمور، من قَوْلهم: هوَ مَليء بِالأمر؛ إِذا كانَ قادرًا عَلَيْهِ. والمعنيان يَرجعان إلى أصلٍ واحِدٍ وهوَ المَلْءُ. والنَّفرُ: الجَماعَةُ نَحْو العشَرَة من الرِّجال خاصَّة ينفرون لقِتال وما أشبهَه، ومنه قَوْلُه ﷻ: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: 38]، ثمَّ كثروا حَتَّى سُمّوا نَفرًا وإِن لم ينفِروا. والرَّهطُ: الجَماعَةُ نَحْو العشَرَةِ يرجعونَ إلى أبٍ واحِد. أمّا الشِّرذمةُ؛ فهم البَقيَّةُ منَ البَقيَّة والقطفُ منْهُ، قالَ اللّه ﷻ ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ [الشعراء: 54]، أي: قِطْعَةٌ وبَقيَّة؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن أضلّ مِنْهُم الكثيرَ، فبَقيت مِنْهُم شِرذمة، أي: قِطْعَةٌ[2].

والقَوْم: هوَ اسْم لجَماعَة الرِّجال؛ لأنهم القَوّامون بِأُمور النِّساء،

(1) عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: (قري، مدن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.

(2) العسكريُّ، الفروق اللغوية، ص: 280 - 281.

وهوَ مُخْتَصٌّ بِجَماعَة الرِّجال؛ لِأَنَّهُ إِمّا مصدرٌ نُعِتَ بِهِ، فشاعَ في الجَمع، أو جمع (قائِم)، كَزَوْرٍ، وزائرٍ. والقَوْم: مؤنَّثةٌ ولذَلِك تُصغَّر على قوَيمة[1]. وأوثرَ لفظُ الملأ في الآية لكون المقصودِ أشرافهم الذين يقومون بأمورهم.

الرُّجُوْع، والعَوْد:

في معنى الصّيرورة، والابتداء نفيٌ مِنَ العودِ إلى ملّة الكافرين

الرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كان منه البدءُ، أو تقديرُ البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، ومنه الرّجعةُ في الطّلاق، وفي العود إلى الدّنيا بعد الممات[2]. ورَجَعَ عَوْدُه على بَدْئِه، أي: رَجَعَ في الطَّريق الَّذي جاءَ مِنْهُ[3]. أمّا العودة: فعلى الرّغم من احتمال أحدِ معانيه الرُّجوعَ إلى الشّيء بعد الانصراف عنه[4]، إلا أنّه يحتملُ أن يجيء بمعنى الصّيرورة[5]، وقد يُطلقُ مرادًا به الابتداءُ[6]، فاختار السّياقُ الكريم ما يحتملُ معنى الصّيرورة والابتداء اللّذَين ينفيان عودةً إلى ملّة الكافرين، على ما يحتملُ العودَ إلى ما كان منه في بدءٍ.

(الدّين، والملّة، والشّريعة):

الملَّةُ مَذْهَبُ الجمَاعَة، واسمٌ لجُملة الشَّرِيعَةِ المبلَّغةِ على لسان الأنبياء عليهم السلام

الملَّة اسْمٌ لجُملة الشَّريعَة، وقيل: الملَّةُ مَذْهَبُ جماعَةٍ يحمي بعضُهم بَعضًا عِنْد الأُمور الحادِثَة[7]، أو هو اسمٌ لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله[8]، والدّينُ اسْمٌ لما عَلَيْهِ كلُّ واحِد من أهلها، فهوَ الطّاعَة العامَّةُ الَّتي يُجازي عَلَيْهِ بالثّواب مثل قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19][9].

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 728.
(2) الراغب، المفردات: (رجع).
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 479.
(4) الراغب، المفردات: (عود).
(5) الزمخشري، الفائق: 2/186، والكفويّ، الكليات، ص: 657.
(6) الزّبيدي، تاج العروس: (عود).
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220.
(8) الراغب، المفردات: (ملل).
(9) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220 - 221.

فالدّينُ ما يَذهبُ إليه الإنسانُ، ويَعْتقدُ أنه يقرّبهُ إلى اللّه وإن لم يكنْ فيهِ شرائعُ مثلُ دين أهلِ الشِّرْك.

المـلّـةُ تـضـافُ إلى الأنبياء ولا تُضاف إلى الله، والدّينُ بخلافِه

والفرقُ بين الملّة وبين الدّين: أنّ الملّة لا تضاف إلّا إلى النّبيّ عليه السلام الذي تُسندُ إليه، نحوَ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف: 38]، ولا تكادُ توجدُ مضافةً إلى اللّه، ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ ﷺ، ولا تُستعملُ إلا في جملة الشّرائع دونَ آحادها، لا يقال: ملّة اللّه، ولا يقال: ملّتي وملّةُ زيدٍ، كما يقال: دينُ اللّه ودينُ زيد. وتقالُ الملّةُ اعتبارًا بالشّيء الذي شرعه اللّه، والدّينُ يقال اعتبارًا بمن يُقيمُه إذا كان معناه الطّاعة[1]، فالدّين مَنْسوبٌ إلى اللّه تعالى، والملَّةُ إلى الرَّسول، والمذهبُ إلى المُجْتَهد[2].

المِلَّةُ تُقالُ بِاعْتِبَارِ الـدُّعَـاءِ إِلَـيْـهِ، وَالـدّيـنُ بِاعْتِبَارِ الطَّاعَةِ والانقيادِ والتَّسليم

وتُقالُ المِلَّةُ بِاعْتِبار الدُّعاء إِلَيْهِ، والدّينُ بِاعْتِبار الطّاعَة والانقياد لَهُ، فهوَ أوسعُ مجالًا؛ إذ يُطلقُ على الحقّ والباطِل أيْضًا، ويشملُ أصولَ الشَّرائِع وفروعَها؛ لأنّه عبارَة عَن وضعٍ إِلَهيٍّ سائقٍ لِذَوي العُقول باختيارهم المَحْمودِ إلى الخَيْر بِالذّات، قلبيًّا كانَ أو قالَبيًّا، كالاعتقاد، والعلم، والصَّلاة، وغيرِ ذلك[3].

المـلّـةُ مَـذْهَـبُ الـجـمـاعـة الـذي يـحـقّـقُ مـصـالـحَـهـم ويُـديـمُ استكبارَهـم، ورياستَهم

أمّا الشَّريعَةُ؛ فهيَ الطَّريقَةُ المَأْخوذُ فيها إلى الشَّيْء، ومن ثمَّ سُمّي الطَّريقُ إلى الماء شَريعَةً ومَشرعة، وقيل: الشّارِعُ لِكَثْرَة الأخْذ فيهِ، والدّينُ ما يُطاع بِهِ المعبودُ، ولكُلّ واحِد منّا دين، ولَيْسَ لكلّ واحِدٍ منّا شَريعَةٌ، والشّريعةُ في هَذا المعنى نَظيرُ الملَّة إلّا أنّها تفيدُ ما يفيدُهُ الطَّريقُ المَأْخوذ ما لا تفيدُه المِلَّةُ، ويُقال: شرعَ في الدّين شَريعَة، كَما يُقال: طرقَ فيهِ طَريقًا، والمِلَّةُ تفيدُ اسْتِمْرارَ أهلها

(1) الراغب، المفردات: (ملل).
(2) الكفويّ، الكليات، ص: 443.
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 443.

عَلَيْها[1]. ولذلك ناسبَ إتيانُ لفظِ (الملّة) في سياق الآية الكريمة؛ لِما يحملُه من معنى التَّمالُئِ والتّعاضُدِ على ما اجتمعوا عليه منَ الباطل، ولكونِه مَذْهَبَ الجماعةِ الذي يستجلبُ لهمُ المصالحَ ويديمُ استكبارَهم، ورياستَهم، فلا غرابةَ منِ استمرارهم عليه، وحمايةِ بعضِهم لبَعض عِنْد الأُمور الحادِثَة، ومنها رسالةُ نبيّ اللّه شعيبٍ عليه السلام، وعدلَ عنِ استعمال الدّين والشّريعة إلى ملّة الكفرِ ابتداءً.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 222.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: 89]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ شُعيبٍ عليه السلام الثّباتَ على دينِه ومسوِّغاتِه

هذا الجواب الثّاني من شُعيبٍ عليه السلام يؤكّد لهم فيه أنّ مطلبَهمُ العودَ لن يكون أبدًا، مهما حاولوا الإيذاءَ والتّهديدَ[1]، ويصرّحُ بأنه لا يفعل ذلك؛ لأنّه افتراءٌ على اللّه. وأصلُ الباب في النّبوّة والرّسالةِ صدقُ اللّهجة، والبراءةُ من الكذب، فالعودُ في ملّتِهم يُبطلُ النبوَّةَ، ويزيلُ الرِّسالةَ[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾: افترى فلانٌ الكذبَ: اختلقَه. والفِريةُ: الكَذِبُ، والقَذْفُ[3]، وأصلُه من قطعِ الشّيءِ، ثمّ يُفَرَّعُ منه ما يقاربُهُ[4]، والفرِيُّ: المختلَق المصنوعُ[5]، وكذلك استُعمل في القرآن الكريم بمعنى الكَذِب، والشِّرْكِ، والظّلم، وبمعنى اختلاقِ ما لا حقيقةَ له[6]، وهو معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

2) ﴿وَسِعَ﴾: الوُسْعُ: أصلٌ يَدُلُّ اجتماعُ حروفه على خلاف الضّيق، والعُسْرِ[7]. والوُسْعُ: جِدةُ الرَّجُلِ، وقُدرة ذاتِ يده، وطاقتُه[8]،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2899.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/316.
(3) الخليل، العين: (فري).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).
(5) ابن منظور، اللسان: (فري).
(6) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فري).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(8) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (وسع).

والواسِعُ: من صفات اللّه تعالى الذي وسِعَ رزقُه جميعَ خلْقِه، ووسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ، وهو المُحيطُ بكل شيء من قولهم: وسِعَ كلَّ شيء علمًا، أي: أحاط(1). وهو تعبيرٌ عنِ الشمول التامِّ، وبه يُفسَّر معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

3) ﴿تَوَكَّلْنَا﴾: الواو، والكاف، واللام: أصلٌ صحيح يَدُلُّ على اعتماد غيرك في أمرك. والتوكُّلُ منَ الوُكَلَة، والوُكَلُ: الرّجل الضّعيفُ، يقولون: هو وُكَلةٌ تُكَلَةٌ، ومعناه: إظهارُ العجز في الأمر، والاعتمادُ على غيرك، وتجعلُه نائبًا عنك، وتصرِّفُ الأمرَ إليه، وتسلِّمُهُ وتتركُه(2)، ومنه: الوكيلُ: الحافظُ، والكفيل، والمتوكّلُ على اللّه يعلم أنه كافلٌ رزقَه، وأمرَه؛ فاطمأنَّ قلبُه على ذلك، ولم يوكِل أمرَهُ إلى غيره(3). وجماعُ هذه المعاني توائم قصْديةِ اختيارِ هذه اللّفظة في سياق التّسليم، والإيمانِ المطلقِ لشعيبٍ ﷺ ومن آمنَ به لِلّهِ تعالى، وتفويضِهم إيّاهُ أمرَهم.

4) ﴿ٱفْتَحْ﴾ ﴿ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: فاتحةُ كلِّ شيء: مبدؤُه، ومنه: فاتحةُ الكتاب(4). والفتحُ: نقيضُ الإغلاق، وهو أصلٌ صحيحٌ، هذا مجملُ دلالتِه، ثم يُحملُ عليه سائرُ ما في هذا البناء. فهو: الحُكْمُ(5)، والقضاءُ، والنّصرُ، والفصلُ، والظَّفَرُ، وفتحَ عليه كذا؛ إذا أعلَمَهُ، ووقَّفَهُ عليه(6). وإنّما قيل للقاضي: فتّاح في بعض اللَّهجات؛ لأنّه يحكمُ بين الخصوم، ويَنصرُ المظلوم(7). وبه فُسِّر لفظُ الفتح في الآية الكريمة عند علماء التّفسير واللغويين(8)، ولا يَعْدِمُ ذلك احتمالَ المعاني الأخرى فيه.

5) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الحاء، والقاف أصل واحدٌ يدلُّ على إحكام الشّيء وصحّتِه(9)، وأصلُه: المطابقةُ، والموافقةُ(10). والحقُّ نقيضُ الباطل، وهو: إيجابُ الحكم(11)، وصدقُ الحديث،

(1) الأزهري، التهذيب: (وسع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وكل).
(3) الأزهري، التهذيب: (وكل).
(4) الراغب، المفردات: (فتح).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فتح).
(7) السمين عمدة الحفاظ: (فتح).
(8) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (فتح).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(10) الراغب، المفردات: (حق).
(11) الخليل، العين: (حق).

واليقينُ بعد الشكِّ، والإحكامُ، والتّصحيحُ[1]، والإثباتُ[2]. ومن جميل مظاهر قَصْديَّةِ الانتقاء القرآني للألفاظ أن تكون لفظةُ (الحقِّ) متضمّنةً للمعاني المُعجميّةِ التي وردتْ تَفْسيراتٌ لها.

المعنى الإِجْماليِّ:

ثباتُ شعيبٍ عليه السلام ومن معه على الحقِّ واستنصارُهم بربّهم

بالغَ عليه السلام في قَطْعِ أمَلِهم، وطمَعِهم معترضًا عليهم بقوله بصيغة التّحقيق: قدِ اختلقنا ما لا حقيقةَ له على اللّه، وأعظَمْنا الفِرْيَة عليه إن صِرْنا إلى دينكم، ودخلنا شِرعتكم بعد أنْ نجّانا اللّه، وخلَّصَنا منها بما فطرَ النّاسَ عليه من توحيده والإخلاصِ له، وبالعصمةِ عنِ الشِّرْك ولَوْثَتِهِ، ثم بالاصطفاءِ للبلاغ عنه رسالتَه، وأنّى يكون لنا ذلك؟ وأصلُ النّبوّة والرِّسالةِ صِدْقُ اللّهجةِ، والبراءةُ من كل كذبٍ، وما طلبتموه يُبطلُ النّبوّةَ، ويزيلُ الرِّسالةَ[3]. وعودتُنا في ملتكم لا تكونُ إلا أنْ يشاءَ اللّه ما لا نعلمُ، فهو المحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، "فردَّ الأمرَ إلى مشيئته وعلمه، فإنّ له سبحانه في خلقه علمًا محيطًا، ومشيئةً نافذةً وراء ما يعلمه الخلائقُ، فامتناعُنا منَ العَوْدِ فيها هو مبلغُ علومنا ومشيئتنا، وللّه علمٌ آخر ومشيئةٌ أخرى وراء علومنا ومشيئتنا؛ فلذلك ردَّ الأمرَ إليه"[4]. ويليق بأدب التّسليم والانقياد هذا الإعراضُ عنِ المعاندين، والتّوجّه إلى مناجاة ربِّ العالمين بأن يحكم بينه وبين قومه، ويقضي بما يدلُّ على أنّهم على الحقِّ، وهم على الباطلِ، فإنّه العادل الذي لا يجورُ أبدًا[5].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى تمثّلِ فضائلِ الأنبياء والرّسلِ منَ الثبات على الحقِّ، والتّسليم المطلقِ للّه، والانقيادِ التّامِّ إليه،

(1) الأزهري، التهذيب: (حق).
(2) ابن سيده، المحكم: (حق).
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/316.
(4) ابن القيِّم شفاء العليل: 1/412.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/448، والآلوسي، روح البيان: 3/203.

والاتّصافِ بأدب الخطاب معه، ولا عَجَبَ؛ فقد كان رسولُ اللّه ﷺ إذا ذَكرَ شعيبًا؛ قال: «ذاك خطيبُ الأنبياء»[1]؛ لحسن مراجعتِه قومَه فيما يرادُ بهم[2]، فلا يصحُّ منهم، وهم أهلُ الحقّ أن يتنكّروا، ويَقبلوا الباطلَ بدلًا عنه بعد أن أنارت أرواحَهم فيوضاتُ ألطاف الباري، ولامستْ قلوبَهم تَجَلّياتُ قدرته.

وممّا تُرشد إليه: استحبابُ الاستثناءِ في كلّ ما عزم عليه المؤمن مُسْتَقْبلًا، وإن لم يُرِدْه أو حتى يفكّر فيه، ووجوبُ التّوكل على اللّه عند تهديد العدوّ وتخويفه، والمُضيّ في سبيل الحق، وتهدي أيضًا إلى مَشْروعيَّةِ الدّعاء وسؤالِ اللّه تعالى الحُكمَ بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لأنّ اللّه تعالى يحكمُ بالحقّ، وهو خير الحاكمين[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ لفظ الافتراءِ دون غيرِه:

ثباتُ الرّسل واستحالةُ كفرهم، التّعبيرُ بالأشدّ يدفعُ ما يستحيل وقوعُه

اسْتَأْنَفَ شعيب عليه السلام في قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مُرْتَقيًا في الجَوابِ، مبيّنًا اسْتِحالَةَ الصّيرورة في مِلَّةِ الكُفْرِ بِأنَّ العَوْدَ إلَيْها يَسْتَلزِمُ اختلاقُه كَذِبًا عَظيمًا لا يُقادَرُ قَدْرُهُ. وجَوابُ الشَّرْطِ مَحْذوفٌ لِدَلالَةِ ما قَبْلَهُ عَلَيْهِ[4]، وقيل: هو قَسَمٌ على تقدير حذف اللام، والتّقدير: واللّه لقدِ افترينا على اللّه كذبًا إنْ عُدنا[5].

علّةُ التّعْبير بضمير المتُكَلِّم:

شـدَّةُ اتّباع المؤمنين له، ومشاركتِهم إياه في شؤونِهم كُلِّها

وجاءَ بِضَميرِ المُتَكَلِّمِ المُشارِكِ في كُلٍّ من قَوْلِه: ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾ و﴿عُدْنَا﴾ و﴿نَجَّنَا﴾ و﴿نَّعُودَ﴾ و﴿رَبُّنَا﴾ و﴿تَوَكَّلْنَا﴾؛ دليلًا على شدّة اتّباع المؤمنين له، ومشاركتِهم إيّاه في العسر، واليسر، وهذا التّعبير يدلُّ على حكمة

(1) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: 2/620، وسكت عنه الذهبي في "التلخيص".
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/567.
(3) الجزائري، أيسر التفاسير: 9/205.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 1/586.

شعيب عليه السلام وفطنتِه، وتواضعِه ورفقِه بهم، حيث يتحدَّث مع قومه بأسلوبٍ يقرِّبه منهم، ولا يستفزُّهم، أو يُغضبُهم، ويجعلهم يشعرون بأنّه منهم، وأنّ دعوته لهم ليست من أجل مصالحَ شخصيّةٍ أو غرور أو تفاخُر، بل من أجل ما فيه خيرُهم وإصلاحُ أحوالهم.

بلاغةُ مصدريّة الكذب وتنكيرِه:

استغرق قومُ شعيب في الكذب فمارسوا كلَّ أنواعه، وأشدَّه

إتباعُ الافتراء باللّفظ المرادف له ﴿كَذِبًا﴾ ونصبُه على المفعول المطلق المبيّن لنوعه، والحاملُ قصدُ إبعاد الوقوع فيه، وإطلاقُه مجرّدًا من أل التّعريف، والفاعل، ومنَ الزّمن، دليلُ استغراقه كلَّ أنواع الكذب؛ وليقابلَ جمْعَ المؤكِّداتِ المتضمنة في أفعال وعيدِهم، وتهديدِهم.

بلاغةُ الرَّبط بين الشّرط وجوابه:

أُنزلَ الافتراءُ منزلةَ الواقعِ المتحقّقِ مبالغةً

في قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ جاء الرَّبطُ بَيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِهِ رَبْطَ التَّبْيِينِ والِانْكِشافِ؛ لِأنَّهُ لا يَصِحُّ تَعْلِيقُ حُصولِ الِافْتِراءِ بِالعَوْدِ في مِلَّةِ قَوْمِهِ، فإنَّ الِافْتِراءَ المَفْروضَ بِهَذا المعنى سابِقٌ مُتَحَقِّقٌ، وإنَّما يَكْشِفُهُ دخولُهم في مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، فعند ذاك يَتَبَيَّنُ الافتراءُ على اللّه كَذِبًا، فالماضي في قَوْلِهِ: ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾ ماضٍ حَقيقيٌّ يقتضيه اقترانُه بـ ﴿قَدِ﴾، التي أفادت معه معنى إنزال الافتراء في حال العوْد - وذلك ما لا يكون منهم - منزلةَ الواقع المتحقّق[1]، أو هو ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنه لم يقع لكنّه جُعِلَ كالواقعِ للمبالغة[2].

فائدةُ التّعْبير عنِ الافتراء بصيغة الافتعال وتقديمِه:

في صيغة الافتعالِ ترسيخٌ للمبالغةِ في الفعل

ويناسِبُ المبالغةَ الصوغُ بِمبْنى الافتعال لترسيخ المبالغة في الفعل، فهو من زيادة المبنى الدّالّة على زيادة المعنى، وتَقْديمُه على الشَّرْطِ؛ لِأنَّهُ في الحالَتَيْنِ لا تَقْلِبُهُ ﴿إِنۡ﴾ لِلِاسْتِقْبالِ، أمّا الماضي

(1) السمين الدر المصون: 5/381.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/24.

الواقِعُ شَرْطًا لـ ﴿إِنْ﴾ في قَوْلِه: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾، فهو بِمَعْنى المُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّ (إنْ) تَقْلِبُ الماضي لِلمُسْتَقْبَلِ عَكْسَ (لَمْ)[1].

بلاغةُ الكنايةِ في فعل الإنجاء:

تأكيدُ المفارقة، وإثباتُ عِظَمِ الهداية، تفظيعٌ للعَوْد

ذكرَ الإنْجاءَ في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾؛ لِدَلالَتِه على الاهْتِداءِ، والإعْلانِ بأنَّ مُفارَقَةَ الكُفْرِ نَجاةٌ، وأنّ الكفرَ هلكةٌ ومواتٌ، وعذابُ ضميرٍ، فيَكونُ في الكَلامِ إيجازُ حَذْفٍ، أَوْ كِنايَةٌ[2].

إيثارُ التّعْبير بلفظ نجّى دون غيرِه:

الوعدُ بالإخراج يناسبُه التّمهّل، والتلبّث

التّعْبيرُ بلفظ (نجّى) المضعَّف دون (أنجى) الفعلِ المُعدّى بالهمزة في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾؛ لأنّ (نجَّى) تستعملُ للتمهّل والتلبّث في التّنجية التي قد يسبقُها ابتلاءٌ وتمحيصٌ يستحيلُ معها العودةُ إلى ما كان عليه قبلَ النجاة؛ فهو زيادةٌ في تيئيسهم منَ العَوْد الذي يدعونه إليه، ويتهدّدونه عليه إن لم يفعل، و(أنجى) للإسراع، وتهديدُهم لم يكن فيه خطورة على حياة شعيب عليه السلام ومن معه، فهو وعيدٌ بالإخراج فقط؛ فناسبه التّمهُّلُ والتلبّثُ، مع أنّه جاء بصيغة التّشديد للمبالغة في الفعل، والعنايةِ بالمُنْجين، في حين نرى التّعْبيرَ بالفعل المُعدّى بالهمزة في قصة سيّدنا إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ [العنكبوت: 24].

وفي لفظ ﴿نَجَّىٰنَا﴾ - كذلك - براءةٌ من شعيبٍ عليه السلام، حيث يبيّنُ لقومه أنّه قد أدَّى رسالته التي أُرسل بها إلى قوم مدين، وأنه لا يتحمَّلُ ذنْبَ ما يفعلون من كفرٍ وظلمٍ وفسادٍ، وأنّ الأمرَ كلَّه بيد اللّه سبحانه وتعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8، والكناية: "تركُ التّصريح بذكر الشيّء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور الى المتروك". يُنظر: السكاكي، المفتاح: 1/402.

علّةُ التّعْبير بالبَعْديّة:

والبعديّةُ في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ لَيۡسَتۡ قَيۡدًا لـ ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾، ولا هي موجِبٌ كَوْنَ العَوْدَةِ في مِلّتِهِمْ دالًّا على كَذِبِه في الرِّسالة، بَل هَذِهِ البَعْدِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ ﴿عُدۡنَا﴾ يُقْصَدُ مِنها تَفْظيعُ هَذا العَوْدِ، وتَأْييسُ الكافِرينَ مِن عَوْدِ شُعَيْبٍ وأَتْباعِهِ إلى مِلَّةِ الكُفْرِ[1].

غايةُ شُعيبٍ عليه السلام تأييسُ الكافرين من عَودِه في ملّتهم

نكتةُ إتْباعِ ﴿بَعۡدَ﴾ بـ ﴿إِذۡ﴾:

إتْباع ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ بـ ﴿إِذۡ﴾ الظَّرفِ المخصّصِ للمضيّ في أصل وضعه يناسبُ سردَ الأفعال الماضية التي سبقته وتبعته؛ ولِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لا يَقْصِدُهُ العاقِلُ، فيُلْقي نَفْسَهُ في الضَّلالِ والتَّعَرُّضِ لِلعَذابِ بعد أن مسَّتْ شَغافَ قلبِهِ وروحِهِ أنوارُ الهدايةِ[2]، واطْمَأَنَّ قلبُهُ لصفوِ الدّرايةِ بكرامةِ العنايةِ حتى لا يوكَلَ إلى نفسه، والمضارع هنا دالٌّ على ديمومةِ عدمِ المصيرِ إلى ملّة الكفر، واستمرارِه في الحال، والاستقبال.

العاقلُ من مسَّتْ شَغافَ قلبِهِ وروحِهِ أنوارُ الهداية فلا يكابرُ

فائدةُ لامِ الجُحود:

اللام في: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ هي أصلُ لامِ الجُحودِ الَّتي في نَحْوِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال: 33]، التي تفيد النّفيَ والإنكار، وتكونُ بمنزلة تأكيد النّفيِ الواقعِ على الفعل، وتَراكيبُ لامِ الجَحودِ كُلُّها مِن قَبيلِ قَلْبِ مِثْلِ هَذا التَّرْكيبِ لِقَصْدِ المُبالَغَةِ في النَّفْيِ، بِحَيْثُ يُنْفى أَنْ يَكونَ وُجودُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ مَجْعولًا لِأَجْلِ فِعْلِ الكفر، أيْ: فهو بَريءٌ مِنهُ بِأَصْلِ الخلقَةِ؛ ولِذَلِكَ سُمّيَتْ جُحودًا[3].

نفيُ الشِّرْك عنهم مدعاةٌ للمبالغة؛ لِعِظَمِه من ذنبٍ

سرُّ التّعْبير بالمشيئة دون غيرِها:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ جميلُ أدبِ الخطاب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294.

القرآنيّ؛ الممثّلِ بخطاب الأنبياء والرُّسل مع ربّ العزّة وفي تَفْويض أَمْرِهِ ومَن معَهُ إلَيْهِ سبحانه، وذلك منهجُ مَن أدّبه اللّه، وتلكم عادةُ القرآن في إظهارها، قال تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ولم يقل: إنك أنت الغفور الرحيم، والمعنى: إلّا أنْ يُقدِّرَ اللّه لَنا ما لا نعلم، مع أنّ عبارته في مفتتح الآية الكريمة تَقْطعُ باستحالة ارْتداده بَعْدَ النُّبوّة.

تَقْييدُ عَدَمِ العَوْدِ إلى الكُفْرِ بِمَشِيئَةِ الله، يَسْتَلزِمُ تَقْييدَ ما سواه بها

وتَقْييدُ عَدَمِ العَوْدِ إلى الكُفْرِ بمَشيئَةِ اللّه يَسْتَلزِمُ تَقْييدَ الدَّوام على الإيمانِ بِمَشيئَته؛ لِأنَّ عَدَمَ العَوْدِ إلى الكُفْرِ مُساوٍ لِلثَّباتِ على الإيمانِ، وهو تَقْييدٌ مَقْصودٌ مِنهُ التَّأدُّبُ وتَفْويضُ العِلم بِالْمُسْتَقْبَلِ إلى اللّه، والكِنايَةُ عَنْ سُؤالِ الدَّوام على الإيمانِ مِنَ اللّه تعالى كَقَوْلِه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[1]، والوحدة الإسنادية ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ من صور الحال الدّالّة على القَصْر الذي يكون الحالُ فيها هيئةً ثابتةً في صاحبها.

فائدةُ إيثار لفظِ الرّبوبية في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾:

شعيبٌ في حالة حوارٍ نُصحيٍّ معهم، ومعنى الإصلاحِ هنا يُناسبُ غايتَه

الربُّ هو المالك، والخالق، والمدبّر، والمُنعم، والمُتمّم[2]، والمربّي سُمّي بذلك؛ لأنّه مُصلحٌ راعٍ[3]، فـ"الربُّ: المصلحُ للشّيء، واللّه جلّ ثناؤه الرّبُّ؛ لأنه مصلحُ أحوالِ خلقه"[4]، وعلى معنى الرّعاية والإصلاح؛ فإنّه يناسبُ ورودَ اللَّفْظِ في الآية المباركة، مع أنَّ المعاني الأخرى جميعَها تصدقُ فيها؛ لأنَّ شعيبًا في حالة حوارٍ نُصحيٍّ معهم، ومعنى الإصلاح في هذا الموضعِ يُناسب غايتَه.

إيثارُ لفظِ الربِّ مُضافًا:

الإتْيانُ بِوَصْفِ الرَّبِّ وإضافَتُهُ إلى ضَميرِ المُتَكَلِّمِ المُشارَكِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (رب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رب).

(نا) إظْهارٌ لِحَضْرَةِ الإطْلاقِ، وتَعْريضٌ بِأنَّهَ مَوْلى الَّذينَ آمَنوا[1]، واستحضارُه ثلاثَ مرات، إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ لِزيادَةِ إظْهارِ وصْفِهِ بِالرُّبوبيَّةِ، وتَأْكيدِ التَّعْريضِ المُتَقَدِّمِ، حَتّى يَصيرَ كالتَّصْريحِ.

اللـــه مَــولى المؤمنين، ومدبِّرُ أمورِهم

تناوبُ التّعْبير بأسماءِ الله وصفاتِه:

المبادلةُ في التّعْبير بين (الرَّبِّ) وبين الاسم الجليل (اللّه) الوارد - في الآية نفسِها - أربعَ مرّات جاءت ترسيخًا لوحدانيّته، وأنّه ملجَأُ المؤمنين الذي لا يغفلون عن ذكره في الرّخاء، والشّدّة، وقد يرادُ بقصديّة اختياره، وتخصيصِه بالتكرار قرينَ اسم اللّه الجليل التّعريضُ بهم على تكبّرهم واعتدادِهم بأنفسهم غرورًا وأنفةً بوصفِهم ساداتٍ، ورؤساءَ وأشرافًا مُطاعين في قومهم قهرًا، وتسلّطًا، والمعنى: (إن كنتم ساداتٍ مُطاعين في قومكم - بحسب دلالةِ الربّ اللّغويّة -، فنحن ربُّنا المُطاعُ اللّه).

اللــــهُ ملـجَأُ المؤمـنين الـذي لا يغفُلون عن ذكرِه في الرّخاء، والشّدّةِ

بلاغةُ المَجاز في لفظ السَّعة:

السَّعَةُ في قولِه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ مُستعمَلةٌ مجازًا[2] في الإحاطة بكلّ شيءٍ؛ لأنَّ الشّيءَ الواسِعَ يكونُ أكثَرَ إحاطةً، والإحاطةُ أنسبُ لمقام الألوهيّة؛ إذ لا يخفى عليه تعالى شيءٌ، ولا يجري في الكون شأنٌ إلا بأمره، وعلمِه، ودرايته.

الإحاطةُ أنسبُ لـوصفِ الخالق العليم

نكتةُ انتصابِ ﴿عِلْمًاۚ﴾ على التّمييز:

قولُهُ: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ تَفْويضٌ لِعلم اللّه، فهو أَعْلَمُ بِمُراده منهم، وانتصبَ ﴿عِلْمًاۚ﴾ على التّمييز المُحَوَّلِ عن الفاعِلِ، وعدلَ عن هذا الأصل؛ لقصد الاتّساع والشّمول والمبالغة، وليكونَ فيه

وصفُ الله بما هو أهلٌ له على سبيل الاتّساعِ والشّمولِ والمبالغةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/10.

(2) المجاز: "هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلّم من الحكم لضربٍ من التأويل إفادةً للخلاف لا بوساطة وضع. كقولك: أنبت الربيع البقل"، يُنظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 1/393، وهو أيضًا: العدول باللفظ عمّا يوجبه أصل اللغة، ويقابل الحقيقة، يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ص: 590.

إجمالٌ، ثم تفصيلٌ فيكونَ أوقعَ في النّفس؛ لأنّ الآتي بعد الطّلب أعزُّ مِنَ المُنساق بلا طلبٍ[1]، وفي ذلكم الاهتمامُ، ورفعُ توهّمِ الإبهام، الذي يدفعه أيضًا التّواؤمُ بين (الكليّة)، و(الوُسْع) في ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾.

سرُّ توكيدِ التّفويض:

طلبُ الإعانةِ مِنَ العليم مظهرٌ للتّسليم والإيمانِ الصّادق والثّقةِ الكاملةِ بالله

أكّدَ التّفويضَ بملازمِهِ (التَّوكُّل) في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾، وهو تسليمٌ يَقْتَضي طَلَبَ الخَيْرَ والإعانَةِ وتثبيتِ الإيمان به، وكفايةِ شرِّ من يتوعّدُهم به، وفيه مطلقُ التّسليم والاتّكالِ المناسب لسَعةِ العلم، والإحاطةِ بكلّ شيء، وهو يدلُّ على الإيمان الصادقِ والثّقةِ الكاملةِ بالله ﷻ، وأنَّ المؤمنَ يسلِّم أمرَه كلَّه إلى الله، ولا يشركُ به أحدًا في ربوبيّتِه وألوهيَّته، والتّفويضُ هو تركُ الحكم لله فيما يختاره لعبده من خير الدّنيا والآخرة، والرضا بقضائه وقدرِه، والاستعانةُ به في كل شأنٍ من شؤونه.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجْرُورِ:

التَّوكّلُ لا يكون إلا على الله تعالى وحْدَه، وبتركِ الحُكم لله فيما يختاره لعبده

جاء تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل ﴿تَوَكَّلۡنَاۚ﴾؛ ليرسّخَ هذا المعنى، وليفيدَ الاخْتِصاصَ لِمَعْنى التَّوْحيدِ ونَبْذِ غَيْرِ الله، ولتقرير تقديمِ قصد المعبود على فعل العبادة، كالذي جاء في مبادئ وحي الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾. وهذا التّقديمُ للمتَوَكَّلِ عليه على فعلِ التّوكّل يستلزمُه مبدأُ التسليم، والتفويض؛ لدلالته على الاختصاص، وذلك عادةُ القرآن مع فعل التّوكّل؛ لأنّ التوكّل لا يكون إلا على الله وحدَه.

علّةُ تقديمِ الفاعلِ على الفعل:

ولِعِظَم شأنِ التَّوكّل أكّدَ معنى التَّخصيص بصوغٍ مماثلٍ قدّمَ فيه ما يفسَّر به ضميرُ فاعلِ الفتح على فعله ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ﴾، وتحويلُ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/317 - 319.

الجملة إلى الاسمية طلبٌ لثبوت الإجراء وتحقّقه، وهو دعاءٌ وطلبٌ منَ اللّه تعالى، فتقديمُ الفاعل على الفعل يدلُّ على التّواضع والخضوع والإنابة إلى اللّه ﷻ، وعلى دأْبِ الأنبياء والصّالحين في التّضرّعِ إلى اللّه تعالى بأسمائه وصفاته، فيدلُّ على التّشريف والتّكريم للّه تعالى، والتّوجُّه إليه بأحسنِ ما يُسمَّى به.

شأنُ التّوكلِ عظيمٌ، لا يُصرَفُ إلّا في حقِّ ربِّ العالمين

فائدةُ تكرارِ الظّرف (بين):

تكرارُ الظّرف (بين) في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ زيادةٌ في تأكيد التّمييز بينه وتابعيه من جهة، وبين قومه بعد أنْ أدرك عنادَهم، وإصرارَهم على الكفر من جهة أخرى، ولمباعدة الشُّقّة بين الفريقين بخلاف قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾ [الأعراف: 87] فهو هناك ما زال في موضع المُحاورة والدّعوةِ إلى اللّه، ولم يأته ردُّهم.

لا بدّ منَ التّمايزِ بين النّبيّ وأتباعه، وبين القومِ الكافرين

بلاغةُ الجناس في الآية:

الجناسُ[1] غيرُ التّامِّ في (ربنا - بيننا - بين)، والجناسُ الاشتقاقيّ في (افتح - الفاتحين) أحْدَثا ميلًا للنَّفس نحوَ التّشوّقِ والإصغاء، وأكسبا التّعْبيرَ جمالًا وبهاءً وحُسنًا، بحُلْو النَّغمة، وتجانسِ الألفاظِ، واتّحادِ الجَرْسِ، وتناسُقِ الإيقاعِ.

التّشويقُ والإصغاءُ مدعاةٌ للتّأثير وإصلاحِ النّفوس

سرُّ ختامِ جُملة الفاصلةِ بالمصدرِ والجَمع:

ختمَ بالمصدر الدّالّ على مطلق الخيريّة، والفتح، وجمع المذكر السّالم الدّالِّ على إرادَة الحدثِ في قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ هو كقَوْلِه: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أيْ: وأَنْتَ خَيْرُ النّاصِرِينَ، وخَيْرُ الحاكِمينَ هو أفْضَلُ أهْلِ هَذا الوَصْفِ، وهو الَّذي يَتَحَقَّقُ فيه كَمالُ هَذا الوَصْفِ فيما يُقْصَدُ منهُ وفي فائِدَتِه بِحَيْثُ لا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الحَقُّ بِالباطِلِ، ولا تُرَوَّجُ عَلَيْهِ التُّرَّهاتُ، والحُكّامُ مَراتِبُ كَثِيرَةٌ، فتَبَيَّنَ وجهُ

تحقّقُ كَمالِ الوَصْفِ أصلٌ في عدم اشتباه الحقّ عنده بالباطِلِ

[1] هو: "اتّفاق اللّفظَيْنِ في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما"، يُنظر: المؤيد العلوي، الطراز: 3/196.

التَّفْضيلِ في قَوْلِه: ﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾، وكَذَلِكَ القياسُ في قَوْلِهِ: خَيْرُ النّاصِرينَ، خَيْرُ الماكِرينَ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَذِب، والإفك، والافتراء:

الكَذِب: اسْم مَوْضوع للخَبَر الَّذي لا مُخبرَ لَهُ على ما هوَ بِه، وأصلُه في العَرَبيَّة التَّقْصيرُ، سَواء كانَ فاحشَ القُبْح، أو غيرَ فاحشِ القبْح.

الافـتراء اختلاقُ الكذبِ والإخبارُ به

أما الإفك: فهوَ الكَذِبُ الفاحِشُ القبْح، مثلُ الكَذِب على اللّه ورَسوله، أو على القُرآن، ومثلُ قذفِ المحصنة وغيرِ ذَلِك ممّا يفحشُ قُبْحُه[2]، وأصلُه في العَرَبيَّة الصّرْفُ، وممّا جاء منه في القُرْآن ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، أي: يُصرفون عَن الحقّ[3].

وأمّا الافتراء: فالقَطْعُ على كذبٍ والإخبارُ بِه، واخْتلاقُ قدرِ كذبٍ والإخبارُ بِهِ؛ لِأن أصل افترى قطع، فالافتراء هو اختلاقُ ما لا حقيقةَ له[4]، وافتعالُ ما لا يَصحُّ أن يكون، ويُسمّى الافتراءُ تقوُّلًا؛ لِأنَّهُ قَولٌ متكلَّفٌ[5].

وبهذا التفريقِ فالافتراءُ يناسبُ سياقَ الآية؛ لأنّه اختلاقٌ لما لا حقيقةَ له، ولا أصلَ، وما لا يَصحُّ أن يكون، وما لا يَصحُّ أن يكونَ أعمُّ ممّا لا يجوز أن يُقال وما لا يجوز أن يُفعل[6].

الوُسْع والإحاطة:

الوُسْع: إحاطةٌ تـامّـة قـدرَ مَا تسعُ من قُـوّة، وطاقةٍ، وإمكانٍ

الوُسْع: الإحاطةُ بكل شيء علْمًا، فلا يخفى عليه منه شيءٌ ولا يضيق عليه علمُ جميع ذلك، وهو مأخوذ منَ الوُسْع، وهوَ قدرُ ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 45.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 46.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 47.
(5) الكفويّ، الكليات، ص: 154، و710.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 154.

تسعُ لَهُ القوَّةُ، والطّاقةُ، والإمكانُ[1]، والواسِعُ بِمَعْنى أنه المُحيطُ بالأشياء علمًا من قَوْله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[2]. وفي الوُسْعِ معنى الإحاطَةِ التّامَّةِ؛ لِأنَّ الإناءَ الواسِعَ يُحيطُ بأشياءَ أكْثَرَ ممّا هوَ دونَهُ، أي: وسِعَ عِلمُهُ كلَّ شَيْء، بِحَيْثُ لا يضيق علمُه عَن شَيْءٍ، أي: لا يقصرُ عَنِ الاطِّلاعِ على أخْفَى الأشْياء[3]؛ وليَدُلّ على أنَّهُ عَلِمَ الماضيَ والحالَ والمُسْتَقْبَلَ، وعَلِمَ المَعْدومَ الذي لم يكُن أنَّهُ لَوْ كانَ كَيْفَ كانَ يَكونُ[4].

أما الإحاطةُ: فأصلُها منَ الإحاطة بالشّيء، أي: الإحداقُ به، بمنزلة الحائط الذي تُحاط به الدّار فتُحْدَقُ به[5]، وهيَ إدْراكُ الشَّيْء بِكَمالِه ظاهرًا وباطنًا، والاستدارةُ بالشَّيْء من جَميع جوانبه، والإحاطةُ بالشّيء عِلْمًا هو أن يُعلَمَ وجودُه، وحسنُه، وقدرُه، وكيفيّتُه، وغرضُه المقصود به، وبإيجاده، وما يكون هو منه، وذلك ليس إلّا للّه تعالى. ومنه قوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12][6]. فالوُسْعُ بهذا أشملُ منَ الإحاطة، فهو الإحاطةُ التّامّةُ، ولهذا ناسبَ سياقَ خفاء تصوّرِ مآلات الأمور والمصائر، وناسبه إطلاقُ لفظِ المشيئة، والتّسليمِ المطلَق للّه في تقديره وتصرّفِه في الكون.

الفَتْح والفَصْل:

الفَتْح هوَ الفَصْل بَين الشَّيْئَيْن ليظْهر ما وراءهما، ومِنْه فتحُ الباب، ثمَّ اتُّسع فيه، فقيل: فتح إلى المعنى فتحًا؛ إذا كشفه، وسُمّيت الأمطارُ فُتوحًا، والفاتحُ الحاكِمُ، وقد فتح بَينهما، أي: حَكَم، ومِنْه

الـفـتـحُ حـكـمٌ يتضمَّن إبانـةً مقرونةً بظَفَرٍ، فهو أخـصُّ منَ الفصل

(1) ابن جرير جامع البيان: 18/367.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/301.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/318.
(5) ابن جرير جامع البيان: 2/284.
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/127، والكفويّ، الكليات، ص: 56.

قَوْله تعالى: ﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]، وقيل: هو النَّصْرُ، والظّفَر، والحكم، وإزالةُ الإغلاق، وفَتَح القَضيَّةَ فتحًا، فصلَ الأمرَ فيها، وأزال الإغلاق عنها[2]. أما الفصلُ؛ فهو إبانة أحد الشَّيئين مِنَ الآخر حتى يكونَ بينهما فُرْجةٌ، ومنه الفصلُ بين النّاس بالحكم[3]. وبذا فالفتح أخصُّ منَ الفصل، فهو حكمٌ يتضمن إبانةً مقرونةً بظَفَر ونصْرٍ، وهو ما يناسبُ سياقَ الآية المباركة المتضمّنةِ حكايةَ المبالغة في الظلم من قوم مدين، والإصرارِ عليه قولًا وفعلًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 150.

(2) الراغب، المفردات: (فتح).

(3) الراغب، المفردات: (فصل).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾ [الأعراف: 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الانتقالُ مِنَ التّهديد العامِّ لشعيب ومَن معه، إلى توجيه تهديدٍ خاصٍّ للذين اتّبعوه

لمّا بيَّن عِظَمَ ضلالتهم بتكذيب شعيبٍ؛ ثنّى البيانَ بأنّهم لم يقتصروا على ذلك، حتى أضلّوا غيرَهم، ولاموهم على متابعتِه، فقال كبراؤهم لأتباعهم - تثبيطًا عنِ الإيمان -: لئن اتّبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون[1]؛ لينتقلوا مِنَ التّهديد العامّ لشعيب عليه السلام ومن معه إلى تخصيص الذين اتّبعوه بتهديدٍ خاصٍّ، وواضحٌ أنه للمؤمنين الذين آمنوا باللّه تعالى استجابةً لدعوة شعيب ليستغلّوا ضعفَهم، وهمُ الكبراء، مؤكّدين خسارتَهم بسبب اتّباعِهم لشعيب[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّبَعْتُمْ﴾: "التاء والباء والعين أصلٌ واحدٌ لا يشذُّ عنه من البابِ شيءٌ، وهو التُّلُوُّ، والقَفْوُ. يقال: تَبِعْتُ فلانًا؛ إذا تَلَوْتُهُ، واتَّبَعْتُهُ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتُهُ"[3]، فالتّابعُ: التّالي. والتَّتَبُّعُ: فعلُك شيئًا بعد شيءٍ، تقول: تتبّعتُ علمَه، أي: اتّبعتُ آثاره[4]. والاتّباعُ: أن يسيرَ الرجلُ، وأنت تسيرُ وراءَهُ[5]، أي: تقتفي أثَرَهُ، ويكون تارةً بالجسم، وتارةً بالارتسام والائتمار[6]، وكثير مِنَ المعاني التي ذُكرت مرادةٌ في اللّفظة مناطِ الشّرح، فأصحابُ شعيبٍ، تَلَوْهُ، ولحقوه، وائْتمروا بأمْرِه نصرةً وتأييدًا.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/319، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/115.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2900.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) الخليل، العين: (تبع).
(5) الأزهري، التهذيب: (تبع).
(6) الراغب، المفردات: (تبع).

2) ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: "الخاء والسّين والراءُ أصلٌ واحد يدلُّ على النّقص"[1]، والخُسران: النّقصانُ، والضَّلالُ، والهَلَكَةُ، والإبعادُ منَ الخير[2]، وقد يكون الخُسرانُ متعلّقًا بالمُقتنيات الدّنيويةِ والتّجارات البشريّةِ، وقد يكونُ متعلّقًا بالمقتنيات النّفسيّةِ كالصّحة، والسّلامة، والعقلِ والإيمانِ، والثّوابِ، وهو الذي جعله اللّه تعالى الخُسرانَ المُبينَ، وكلُّ خسران ذكره اللّه تعالى في القرآن الكريم؛ فهو على هذا المعنى الأخير[3]، ومنه لفظُ الآية الكريمة فخسرانُهم عقوبةٌ، وهلكةٌ لأنفسهم؛ لسوء تصرّفِهم بأَنْعُم اللّه عليهم، وقد يرادُ به تهديدُهم بخسرانهم متعلّقاتِهم الدّنيويّةَ.

المعنى الإِجْماليُّ:

إصرارُ كبراء القوم على غَيّهم بعدَ يأْسِهم من مطاوعة أتباع شعيبٍ عليه السلام لهم

بعدَ أنْ وجد قومُ شعيبٍ حُجَّتَهُ ساطعةً، ودليلَهُ دامغًا - ولم يستطيعوا مجاراتَهُ في المجادلة، وأيقنوا ثباتَ مَن حولَه معه على دينهم - أصرّوا على كفرهم وإعراضِهم بالتَّوَجُّهِ إلى خطاب عامّة الحاضرين من قومِهم، الباقين على الكفر؛ تحذيرًا لهم من اتّباع شعيبٍ عليه السلام وتنفيرًا لهم وتثبيطًا عنِ الإيمان به؛ خشيةَ أن تحيكَ في نفوسهم سلامةُ دعوته، وصدقُ رسالته، وصفاءُ نصيحتِهِ[4]، فيطاوِعوه، ويهتدوا، وفي خطابهم تهديدٌ، ووعيدٌ، استمرَؤوه ليؤكّدوا طبيعةَ الاستكبار فيهم، ويُثبتوا ضعفَ حُجَّتهم، وتهافتَ أدلتهم.

وترشدُ الآيةُ إلى ذمِّ المُصرّينَ على كُفْرِهم، الصّامّينَ آذانَهم عن قَوْلَةِ الهدايةِ والحقِّ المبين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(2) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).
(3) الراغب، المفردات: (خسر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ وصْلِ الآية بما قبْلَها:

انتهاءُ المحاورة قَمِنٌ بالفصل

عُطِفَتْ جُمْلَةُ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولَمْ تُفْصَل كَما فُصِلَتِ الَّتي قَبْلَها؛ لِانْتِهاءِ المُحاوَرَةِ المُقْتَضيَةِ فصْلَ الجُمَلِ في حِكايَةِ المُحاوَرَةِ[1]، ولاختلاف الجهة المرادة بالحديث، فهم قوم المتكلّم ومشايعوه وأتباعه ودهماء العامّة الذين معه.

نكتةُ التّعريف بالموصول:

زِيادَةُ ذَمِّ المَلَأِ بِوَصْفِ الكُفْرِ مقْصدٌ يناسبُ صنيعَهم

تعريفُ المَلَأ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِالمَوْصولِ وصِلَتِهِ وصفًا دونَ أنْ يَكْتَفيَ بِحَرْفِ التَّعْريفِ العهدي المُقْتَضي التّخصيصَ والكمالَ في هذا الوصف - إيذانٌ بأنَّ المَلَأَ الثّاني هو المَلَأُ المَذْكورُ قَبْلَهُ؛ لِقَصْدِ زيادَةِ ذَمِّ المَلَأ بِوَصْفِ الكُفْرِ، وتحقيرهم كَما ذُمَّ فيما سَبَقَ بِوَصْفِ الِاسْتِكْبارِ وحُقِّروا[2].

سِرُّ الوصفِ بالكفر دون غيرِه:

تعدُّدُ الأوصاف، للإحاطة بِسَيِّئِ الخِصال، وتَفْصيلِ الصّورة للمعتَبِر

ووَصْفُ المَلَأ بِالكُفْرِ لِمُناسَبَةِ الكَلامِ المَحْكيِّ عَنْهم، الدّالِّ على تَصَلُّبِهِمْ في كُفْرِهِمْ، كَما وُصِفوا في الآيَةِ السّابِقَةِ بِالِاسْتِكْبارِ لِمُناسَبَةِ حالِ مُجادَلَتِهِمْ شُعَيْبًا، كَما تَقَدَّمَ، فَحَصَلَ مِنَ الآيَتَيْنِ أنَّهم مُسْتَكْبِرونَ كافِرونَ[3].

بلاغةُ صِيغة الافتعال في فعل الاتّباع:

تهديدُ المَلَأِ لأتباع شعيب، وإصرارهم على زحزحتهم عن إيمانهم

المُخاطَبُ في قَوْلِهِ: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا﴾ هُمُ الحاضِرونَ حينَ الخِطابِ لَدى المَلَأ، فحُكِيَ كَلامُ المَلَأ كَما صَدَرَ منهم، والسّياقُ يُفَسِّرُ المَعْنيّينَ بِالخِطابِ، أعْني عامَّةَ قَوْمِ شُعَيْبٍ الباقينَ على الكُفْرِ[4]، ويناسبُ وعيدَهم وقوّةَ تهديدِهم، وإصرارَهم على ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/13.

الإتيانُ بالفعل متعدّيًا بالهمزة مضعَّفًا بصيغة الافتعال: ﴿ٱتَّبَعۡتُمۡ﴾؛ للمبالغة، وشدّةِ التّكلّف؛ لدلالة بعض معانيه على الاتّخاذ، والمطاوعة، تلميحًا إلى عدم اتّخاذِه نبيًّا، وعدم مطاوعته إلى دعوته.

بلاغةُ حشْدِ المُؤَكِّدات:

تحشيدُ المؤكّدات يناسبُ شدّةَ القسَم ويُمهّدُ للعقوبة

المؤكِّداتُ: اللّامُ في ﴿لَئِنِ﴾ موطِئَةٌ لِلقَسَم، و﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جَوابُ القَسَم، وهو دَليلٌ على جَوابِ الشَّرْطِ المَحْذوفِ، كَما هو الشَّأْنُ في مِثْلِ هَذا التَّرْكيبِ، وهو جوابٌ حُشِّدتْ فيه المؤكِّدات؛ ليناسب شدّةَ القسَم، ويُمهّدَ لما سيأتي بعدها من عقوبة، وتصدّرت (إنّ) المُؤكّداتِ، ثم أُتْبِعتْ بـ (إذًا)؛ لإفادة توكيدِ الوعدِ[1].

علّة التّعْبير بـ ﴿إِذٗا﴾:

رَهْنُ الخَسارَةِ بِاتِّباعِ النَّبيِّ تَلَهُّفٌ لِلغَلَبَةِ عَلَيْهِ

أُتْبِع (إنّ) بـ ﴿إِذٗا﴾ الدّالّةِ على الجواب والجزاء؛ لتوكيد الوعد، وقوّته، وربطِ خسارتِهم بعدم الاتِّباع؛ ذلك أنّ ذكرَ ﴿إِذٗا﴾ يدلُّ على أنّ ما بعدها مشروطٌ حصولُه بحصول ما قبْلَها، وفيه إيحاءٌ بلهفتِهم للغلبة على شعيب ﷺ، فضلًا عن أنّ مقامَ التّحدّي، وشدّةَ المواجهة تقتضي ذكرَها[2].

علّةُ التّعْبير عنِ الخسارة باسْمِ الفاعل:

من كذّبَ الرُّسلَ فخسرانُه مُتحقّقٌ لا محالة

وجاء بلفظ الخسارة بالصّيغةِ الاسميّةِ على هيئة اسمِ الفاعل ليدلَّ على أنّ الخسرانَ قد حصَلَ وتمَّ، وثبتَ وصفًا لهم حصولًا مستقرًّا ثابتَ الوقوع لا محالةَ، ولقَصْد الدّلالةِ على الحدوثِ في الحال[3]، ولذلك أعقبَها بالعقوبةِ مباشرةً في مُفتتح الآية بعدها دون مُهلةٍ، أوِ انتظارٍ، مؤكِّدًا إياها باللّام لمزيد دلالةٍ على تحقّقِ الخُسران، وحَتْميَّةِ وقوعه، وأنَّ هذا التّعبيرَ يدلُّ على أنّ الخسارة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/279.
(2) السامرائي، التعبير القرآني، ص: 294 - 295.
(3) فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص: 41 - 44.

هي حالةٌ دائمةٌ ومستمرّةٌ لهؤلاء المكذّبين، فهم خاسرون في الدّنيا والآخرة.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكفر، والشِّرْك:

الكُفرُ جحدٌ للوحدانيّةِ، والرِّسَالةِ، والرَّسولِ، فهو وصفٌ أعمُّ منَ الشِّرْك

الكفر: اسمٌ جامعٌ لعديد الذّنوب، وهو يقعُ على ضروبٍ منه، والكافر الجاحدُ لأنعُم الله التي لا تُحصى، وهو على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجحدُ الوحدانيّةَ، أوِ النّبوّةَ، أوِ الشّريعةَ، أو ثلاثتَها، وقد يقال: كفرَ لمن أخلّ بالشريعة، وترك ما لزمَه من شكْرِ الله[1]. في حين أنَّ الشِّرْك: إثباتُ شريكٍ لله، وذلك أعظمُ كُفْرٍ، أو مراعاةُ غيرِ الله في بعض الأمور فيما يُتَعبَّدُ به، أوِ التّسويةُ بين الله الخالق وبين أيِّ مَخْلوق غيره[2]، فهو: ضربٌ واحد منَ الذّنوب على عِظَم شأنه، وفداحةِ وصفِه؛ لذا فهو أخصُّ، ومن هنا فاختيارُ لفظِ الكافرين الدّالِّ على العموم يناسبُ سياقَ الآية المباركة من حيث إنّ الكافرين المُستكبرين المُتعنّتين جاحدون للوحدانيّةِ، والرِّسالةِ، والرّسولِ؛ فناسبَهمُ اللّفظُ الأعمُّ؛ إذ يصدقُ الكفرُ عليهم بجحود واحدٍ من أمور الإيمان كلّها.

(1) الراغب، المفردات: (كفر).
(2) الراغب، المفردات: (شرك).

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العقوبةُ نتيجةٌ طبيعيّةٌ بعد استفراغ الجُهدِ بالإبلاغ

عند مقالهم الذي تضمَّن التَّهديدَ العامَّ لشعيبٍ ومن معه، تمَّ توجيهُ تهديدٍ خاصٍّ للذين اتّبعوه، كمُلَ حالُهم في الضّلال أوّلًا، وفي الإضلال ثانيًا، فاستحقّوا الإهلاكَ (بالرَّجْفَة)، وهي الزَّلْزَلَةُ الشّديدةُ المُهلكةُ[1]، فكانتِ العقوبةُ نتيجةً طبيعيّةً بعد الإبلاغ، والتّحذيرِ، والنّصحِ، والتّنبيهِ؛ ليتّعظَ المُسيءُ، ويرعويَ الزّائغُ، ويُرْشَدَ المُتّبعُ الضلالَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾: الأخذ خلافُ الإعطاء، وهو التّناولُ[2]، والأصلُ في الهمزة، والخاء والذال: حوزُ الشّيء، وجمعُه، وتحصيلُه[3]، وقيل: الأصلُ: القهرُ والغلبةُ، واشتُهِرَ في الإهلاك، والاستئصالِ[4]، يقالُ: أُخِذَ فلانٌ بذَنْبِه، أي: حُبِسَ، وجوزي عليه، وعوقِبَ به[5]، وأغلبُ هذه المعاني تتضمّنُها لفظةُ الأخذ في الآية الكريمة كالقهرِ والغلَبة، والإهلاك، وكلُّها مجازاةٌ لسوء فِعالهم، ومُعاقبةٌ لهم.

2) ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾: (رجف) أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ ومنه رَجَفَتِ الأرضُ، والقلبُ[6]، وهو: الاضطراب الشّديدُ، والحركة[7]، ومنه أعمَّ بعضُهم، فقال: الرَّجْفَة كلُّ عذاب أُنزلَ، فأخذ قومًا؛ فهو: رجفةٌ، وصيحةٌ، وصاعقةٌ[8]، وخصَّص آخرون، فقالوا: الرَّجْفَة: الزَّلْزَلَةُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/319.
(2) الأزهري، التهذيب: (أخذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (أخذ).
(5) ابن الأثير، النهاية: (أخذ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجف).
(7) الراغب، المفردات: (أخذ).
(8) الخليل، العين: (أخذ).

معها الخَسْفُ[1]، وكلاهما محتمِلٌ في لفظ الرَّجْفَة الواردِ في الآية الكريمة، فهي الصواعقُ، والصَّيْحَةُ، والزّلازلُ، والأخيرةُ الأرجحُ[2].

3) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: (جثم) أصلٌ صحيح يدلُّ على تجمُّع الشّيء، ولزومِه مكانًا لا يَبْرَحُ، وجَثَمَ بالأرضِ لَزِمَها ولَبَدَ عليها، وجثَمَ الطائرُ إذا قعَدَ، ولطئَ بالأرضِ، أي: تلبَّد بها، ولصق، وحُبِسَ فيها[3]. وقيل: هو الوقوعُ على الصّدر، والوجه[4]، وبه فُسِّرت اللّفظةُ في الآية الكريمة، قيل: بركوا في دارهم، وأصبحوا جُثثًا خامدةً ملقاةً على وجوهها[5].

المعنى الإجْماليُّ:

الـجـزاءُ من جنسِ العمل

جزاءُ المُعرِضِ عن الهداية، المعاندِ للحقّ، أن يجازَى بذنبه، ويُعاقبَ على فِعْلِه، وتحقَّ عليه كلمةُ العذاب؛ فكانَ أنْ أخذتْهم زلزلةٌ شديدةٌ مُهلكة، أحاطتْ بهم، فأصبحوا في مواضعهم التي يسكنون بها خامدين، منْكَبّين على وجوههم؛ جزاءَ ظلمهم وطُغيانهم وكفرِهم، وصاروا هم المُخرَجين منَ القَرْيَة، وكأنّهم لم يقيموا فيها بعد أن كانوا يدعون إلى ذلك الإخراج لشعيب والمؤمنين معه؛ استكبارًا وظلمًا، فجاءَ العذابُ من جنس وعيدهم شديدًا مُهلِكًا، لا فوتَ فيه، ولا عَوْدَ[6].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ عقوبة الكافر المُستكبر عنِ النصح آتيةٌ لا محالةَ، لذا فالواجب قَبولُ النَّصيحة في الدّين، والإذعان لأمر ربِّ العالمين[7]، وتحقُّقِ قاعدةِ أنَّ الجزاء من جنس العمل.

(1) الأزهري، التهذيب: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/13.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (جثم).
(4) ابن منظور، اللسان: (جثم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جثم).
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/319، والآلوسي، روح المعاني: 3/204.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 5/156.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في مطلع الآية:

عقّب قولَهم بالرَّجْفة دون مُهلة لشدّة كفرهم

الفاءُ في: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ للتّرتيب، والتَّعْقيب، أيْ: كانَ أَخْذُ الرَّجْفَة إيّاهم عَقِبَ قَوْلِهمْ لِقَوْمِهِمْ ما قالوا دون مُهلة؛ لتناسبَ ختامَ الآية قبلها ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ المتضمِّنَ الدّلالةَ على الحدوث في الحال، كما بَيَّنّا.

بلاغةُ المجاز في لفظ الأخذ:

العقوبةُ بالقهْر تناسبُ كبيرَ جُرْم الكافرين، وعظيمَ قُدْرَة الله

أَصلُ الأَخْذِ تَناوُلُ شَيْءٍ بِاليَدِ، ويُسْتَعْمَلُ مَجازًا في مِلكِ الشَّيْءِ، بِعَلاقَةِ اللُّزوم، ويُسْتَعْمَلُ أيضًا في القَهْرِ[1]، وعقوبتُهم بالقهر بتصوير الأخذ على أنّه تناولٌ باليد يناسبُ عظيمَ قدرة الباري ﷻ، ومُطْلَقَ سلطانِه؛ فلا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

توجيهُ المتشابه في التّعْبير عنِ العذاب:

تنزيلُ العقاب تأكيدٌ للسُّنَن والآياتِ، والتّعجيلُ عظةٌ لمن يُطيلُ الأملَ

عبّرَ بـ(الرَّجْفَة) هنا وقبلُ في الآية (78)، وفي ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [العنكبوت: 37]، في حين عبّر بـ(الصَّيْحَة) في قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 67، 94] ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [الحجر: 73، 83]، و﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [المؤمنون: 41]؛ وجَمْعُ ما بينهما بأنّ الرَّجْفَةَ - الزَّلْزَلَة الشّديدة - في المبدأ، والصَّيْحَةَ في الأثناء، أو لكونها من مبادئها؛ فأسند هلاكَهم إلى السّبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى[2].

كان مناسبًا إسكاتُهم بالصَّيْحَة لما تهكّموا

لما تهكّموا بنبيّ الله شعيب ﵇ بقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] جاءت الصَّيْحَةُ، فأسكتَتْهم[3]، ولذلك أشارَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/448.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/448 - 449.

إلى عَظَمَةِ هَذِهِ الصَّيْحَة بِإسْقاطِ عَلامَةِ التَّأْنيثِ منَ الفعل أخذ[1]، وقيل: لما جاءت في قصّة شعيب عليه السلام مرّةً الرَّجْفَةُ، ومرّةً الظُّلّة، ومرّةً الصَّيْحَة؛ ازداد التّأنيثُ حُسْنًا؛ لمناسبته ما بعده[2].

لمّا استهزؤوا، عبّرَ عن عذابهم وأخْذهم هنا بأعمَّ ممّا وردَ في غيرِ هذه الآية

وجهُ تخصيص سورة هود بما وقع فيها أنه ذكر قبْلَها من مُرتكبات قوم شعيب وسوءِ ردّهم على نبيّهم عليه السلام ما لم يردْ مثلُه في آية سورة الأعراف، والمتأمّلُ قولَهم له: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩١﴾ [هود: 91]، يوقنُ بأنَّ ردّهم هذا منَ الاستهزاء والإساءةِ وشنيع المقابلة لجليل وعظِه عليه السلام لهم ورأفتِه في دعائه إياهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: 84]، وقولِه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86]، وقولِه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ [هود: 88]، وقولِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ﴾ [هود: 89] وقولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، فما أجَلَّ تلطّفَ هذا النّبيّ الكريم في دعائه إياهم، وما أشنعَ ردَّهم عليه! فلهذا عبّر عن عذابهم وأخْذهم هنا بأعمَّ ممّا ورد في غير هذه الآية، ولمّا لم يَردْ في غيرها مثلُ هذا في الدّعاء والجواب؛ ناسبه اللّفظُ الأخصُّ؛ رعيًا لإحراز النّظم الجَليل[3].

علاقةُ إفراد الدّار وجمعِها بنوع العذاب:

الصَّيْحَةُ منَ السّماء وعمّت الأرضَ والسّماءَ، فهي أبلغُ منَ الرَّجْفَة وأقوى

إنّ الإفرادَ والجَمع في (دارهم)، و(ديارهم) مقترنٌ بذكر الرَّجْفَة والصَّيْحَة، فحيثما ذُكرتِ الرَّجْفَة؛ أُفردتْ معها الدّارُ، فإن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/325 - 326.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/252.
(3) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/201.

كان المذكورُ الصَّيْحَةَ؛ جُمِعَتْ ولا غرابة؛ لأنّ الصَّيْحَة منَ السّماء، فهي أبلغُ منَ الرَّجْفَة، وأقوى، فكلٌّ اتَّصل بما هو لائقٌ به[1]. والصَّيْحَة أعمُّ حيث عمّتِ الأرضَ والجوَّ، والزَّلزَلَةُ لم تكن إلا في الأرض، فذكرَ الدّيارَ هناك غيرَ أنّ هذا ضعيف؛ لأنّ الدّار والدّيار موضعُ الجثوم لا موضعُ الصَّيْحَة والرَّجْفَة، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم[2]، فالصَّيْحَةُ من حيث الكُلّيَّةُ تُطْلَق على ما كان منَ العذاب بالرَّجْفَة وغيرها، وإذا عبرنا بالرَّجْفَة لم يتناول لفظُها إلا ما كان عذابًا بها، فناسبَ عمومُ الصَّيْحَة جمعَ الدّيار مناسبةَ تركيب النَّظم، وناسبَ خصوصُ الرَّجْفَة إفرادَ الدّار[3].

الرَّجْفَةُ تعمُّ الدُّور فكأنّها دارٌ واحدة، والصَّيْحَةُ يُتصوَّرُ فيها عدمُ النّفاذ إلى المحصّن منَ الأبنية

وأُفرِدتِ الدّار مع الرَّجْفَة، وجُمِعَتْ مع الصَّيْحَة؛ لكون الرَّجْفَة هي للأرض، والدّورُ مقامةٌ عليها فبارتجافِ الأرض ترتجفُ الدّور وكلُّ من عليها إلّا من شاء الله؛ فبهذا تعمُّهم الرَّجْفَةُ، فتكونُ كالدّار الواحدة؛ إذ لا فرق وقتئذٍ بين دارٍ ودار، ولا منعَةَ من ثَمَّ للحيطان والأسوار.

أمّا الصَّيْحَة الآتية من علٍ؛ فقد يُظَنُّ - ولو في الوَهْم دون العلم - أنّ القصورَ المحصّنة، والجُدُرَ المشيَّدة، والأبنيةَ المُحْكَمة، ربّما لم تنفذ منها الصَّيْحَة؛ لأنّها صَوْتٌ، فهنا اقتضى البيانُ جمعَ الدّيار احترازًا من هذا التَّوهُّم ودفعًا له، وفي وقائع الأمم حضاراتٌ سادَتْ ثمّ بادَتْ، ما قوّضها ولا قضى عليها إلا نسيانُ الخالق، والكفرُ بالمعبود، والإعراضُ عن رسالات الله تعالى، فطوبى لمن سمع وأجاب.

قصديّةُ التّعْبير بلفظ الدَّار مفردًا:

في ضِيق الدَّار ومحدوديّتِها تصغيرٌ لشأن المُهلَكين مقابلَ دعواهم

التّعْبير بالدّار مفردًا ﴿دَارِهِمْ﴾ فيه قصدٌ إلى تصغير شأنهم مقابلَ ادّعائهم أنها قريتُهم؛ لما في الدّار من ضيق ومَحْدوديَّةِ سعةٍ

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 77.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/56.
(3) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/201.

قياسًا بالقَرْيَة، ولذلك قدّمها مع حرف الجرّ (في) الظّرفيّة الدّالّةِ على الاحتواء على العقاب في الزمان، والمكان؛ لأهميّتها عندهم، ومن عادة العرب أنهم "يقدّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهِمّانِهم ويَعْنيانهم"[1]؛ لاختصاص الجثومِ في الدّار دون القَرْيَة.

وقد يُراد بالإفراد الجنسُ، أي: في دارهم، كما في [هود: 67، 94]؛ لأن الدّار جزءٌ منَ المدينة، فذكرَ الجزءَ، وأراد الكلَّ[2]، وفيه إيحاءٌ أنّ دورهم في غشيان العذاب إيّاهم فيها كلِّها سواءٌ، فهي كالدّار الواحدة قلّةَ غَناءٍ وانهيارَ مَنَعَة، ولأنها لما صارت لهم قبورًا؛ عُذِّبوا بها، فهي كالقبر الواحد، والتّعْبيرُ بالدّار موحٍ بأنّ دائرتها التي اشتُقَّ اسمُها منها عادت دائرةً عليهم، فأُتوا من حيث لم يحتسبوا، وعادتْ سواءً دورُهم وقبورُهم.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

جثموا مقيمين عقوبةً لهم كالطّائر اللّاطئ كأنّهم جُثثٌ مُلقاةٌ على الأرض

الجاثِمُ: المُكِبُّ على صَدْرِهِ في الأرْضِ مَعَ قَبْضِ ساقَيْهِ، كَما يَجْثو الأرْنَبُ، وهو استعارةٌ[3] للمقيمين، من قولهم: جثم الطّائر؛ إذا قعد ولطئَ بالأرض[4]، ثم اشتُقّ منَ الجثوم الإقامةُ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بمعنى: مقيمين على سبيل الاستعارة التّصريحيّةِ التّبعيّةِ في المشتقّ (اسم الفاعل) الدّالِّ على الدّوام والاستمرار، وهذا التّعبيرُ يدلُّ على أنَّ أهلَ القرية الذين كذّبوا شعيبًا ﷺ، وتمادَوا في ظلمهم وكفرهم، قد أصابهم عذابُ الله تعالى بالصّيحة التي أهلكتهم، وأخذتْهم بغتةً، فبقَوا في دارهم ميّتين، لا حَراك لهم ولا حياة، كأنّهم جُثثٌ مُلقاةٌ على الأرض.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/34.
(2) القونوي، حاشية القونوي: 8/449.
(3) الاستعارة: هي تصييرك الشيَّءَ الشيَّءَ وليس به، وجعلك الشيَّءَ للشيء وليس له، بحيث لا يلحظ فيه معنى التّشبيه صورة ولا حكمًا، يُنظر: المؤيّد العلوي، الطراز: 1/106.
(4) الراغب، المفردات: (جثم)، والآلوسي، روح المعاني: 2/157.

وقيل: لَمّا كانَ ذلِكَ أشَدَّ سُكونًا وانْقِطاعًا عَنِ اضْطِرابِ الأعْضاءِ؛ اسْتُعْمِلَ في الآيَةِ كِنايَةً عَنْ هُمودِ الجُثَّةِ بالمَوْتِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ تَشْبيهَ[1] حالَةِ وُقوعِهِمْ على وُجوهِهِمْ حينَ صُعِقوا بِحالَةِ الجاثِمِ تَفْظيعًا لِهَيْئَةِ ميتَتِهِم، والمعنى: أنَّهم أصْبَحوا جُثَثًا هامِدَةً مَيِّتَةً على أبْشَعِ مَنْظَرٍ لِمَيِّتٍ[2].

وفي التركيب وجهُ كنايةٍ أو تشبيه

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّجْفَة، والزَّلْزَلَة، والصَّيْحَة، والصّاعقة:

الرَّجْفُةُ والزَّلْزَلَةُ: عذابان أرضيّان، والصّاعقةُ: عذابٌ سماويٌّ، والصَّيْحَةُ بينهما

الرَّجْفَة الحركةُ الشّديدة، والاضطرابُ الشديد[3]، وهي قرينةٌ بالأرض؛ ولذلك قيل: هي الزَّلزَلَةُ معها الخسفُ[4]، ومعنى الشّدّة في الرَّجْفِ يجعلها أخصَّ منَ الزَّلزَلَة التي تَصْدُقُ على مجرّد الاهتزاز والاضطراب[5]، فقد تكون حركةً في الأرض خفيفةً. أمّا الصَّيْحَة فشيءٌ مغايرٌ؛ إذ هي الصَّوتُ الشَّديد الذي تنخلع له القلوب، ويتقطّع منه النّياطُ؛ حيث تعمُّ الأرضَ والجوَّ، والزَّلزَلَةُ لم تكن إلّا في الأرض[6]، فالصَّيْحَةُ من حيث الكُلّيَّةُ تُطلق على ما كان منَ العذاب بالرَّجْفَة وغيرِها، وإذا عبّرنا بالرَّجْفَة؛ لم يتناول لفظُها إلا ما كان عذابًا بها[7].

والصّاعقةُ الهدّةُ الكبيرةُ، وتأتي على ثلاثة وجوه: (الموت، والعذاب، والنار)، وهي بذا أعمُّ منَ الرَّجْفَة، والصَّيْحَة، فإنّ لنزولها صيحةً شديدةَ القوة ترجف من هولها الأفئدةُ، وتضطرب الأعصابُ، وربما اضطربتِ الأرضُ، وتصدَّع ما فيها من بنيان[8].

---

(1) التشبيه: "هو الجمع بين الشَّيئين، أو الأشياء بمعنًى ما بواسطة الكاف ونحوها"، يُنظر: المؤيّد العلوي، الطراز: 1/136.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

(3) الراغب، المفردات: (رجف).

(4) الأزهري، التهذيب: (رجف).

(5) الراغب، المفردات: (رجف).

(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/56.

(7) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/201.

(8) المراغي، تفسير المراغي: 8/201.

(جثمَ)، و(جثا):

هـولُ العقوبة أحالتْهم جثثًا هامدةً

هما حالتان منَ الجلوس، بيْد أنّ الجَثْمَ لَطْءٌ بالأرض، والتصاقٌ ووقوعٌ على الصَّدْر والوجْهِ، أمّا الجَثْوُ: فهو جلوس على الرُّكَب طلبًا للخصومة[1]، أو لهول المطلع، فلا يستطيعون قيامًا[2]، وجثا الرجل؛ إذا جلس جلسةَ الذّليل الخائفِ[3] ومن عادة العَرَبِ: أنَّهم إذا كانوا في مَوْقِفِ ضَنْكٍ وأمْرٍ شَديدٍ، جَثَوْا على رُكَبِهِمْ[4].

والجثومُ يناسب سياقَ العقوبة في الآية الكريمة؛ إذ ما كان منهم جلوسُ خوف وترقّب، بل أصبحوا جثثًا هامدة، كما مرّ ذكرُهُ.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/174، وابن منظور، اللسان: (جثو).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7/108.
(3) ابن جزي، التسهيل: 1/483.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/475.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾ [الأعراف: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقريرُ الخسارة الحقيقيّةِ في الدّنيا والآخرة

لمّا هدَّد الرؤساءُ المتغطرِسون المؤمنين بالخسران إنِ استمرّوا على اتّباعهم لشعيبٍ ﵇؛ ذكر اللّه سبحانه أنّ أولئك المكذّبين هم الخاسرون حقًّا وصدقًا، فقد خسروا أنفسَهم، فكفروا، وضلّوا، وخسروا ديارَهم، فهُدِّمتْ، وخسروا يومَ القيامة، فكانوا حطبَ جهنَّم، وهم فيها خالدون(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: الغين والنون والياء أصلان يدلُّ أحدُهما على الكفاية، ومنه: غَنيَ القومُ في دارهم: أقاموا، كأنّهم استغنَوا بها(2)، وغَنيَ القومُ في المحلّة والمكان، طالَ مُقامهم فيهما مستغْنين بهما، وتقول للشّيء إذا فني: كأن لم يَغْنَ بالأمس، أي: كأن لم يكن(3)، وفُسِّرتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة بمعنى: لم يُقيموا فيها(4)، أي: فنَوا حتى كأنهم لم يكونوا.

المعنى الإجماليُّ:

وصفُ آثار عقوبةِ الكافرين

مِلاكُ هذا الوصف المجازاةُ بالعقوبة من جنس العمل، فالذين هدَّدوا شعيبًا ومَن آمن معه بالإخراج، وتوعّدوا بالخسران مَنْ يتبعُهُ من قومهم، ويميلُ إلى وِرْدِ عَذْبِ منهلِه، وظلالِ رحمة رسالتِه، كانوا كأنَّهم لم يَنْعَموا بالعيش في ديارِهم، بل كأنّهم لم يعيشوا، ولم يكونوا،

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2901.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (غني).
(4) الأزهري، التهذيب: (غني).

ثم كُرِّر القولُ مع وصفهم بالخاسرين لتعظيم المذلّة لهم، وتفظيعِ ما يستحقون منَ الجزاء على جهلهم، وإصرارِهم على الكفر، ومعاندتِهم، ومزيدِ بيانٍ لابتلائهم بشُؤْمِ قولتهم؛ فكنتم الخاسرين لمجدكم، وشرفِكم، ورياستِكم، وثرواتِكم وكلِّ ما فيه منفعتُكم(1).

وترشد الآيةُ الكريمة إلى أنّ جزاء الظّالم المستبدّ من جنس فِعاله، والاستبدادُ مآلُه إلى الفناء، والخسرانِ في الدنيا، وهو ظلماتٌ يوم القيامة؛ فالحذرَ الحذرَ منه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصل في الآية:

تناسبُ المبالغةُ في الـردّ عليهم جُـرمَ تكذيبهم شعيبًا عليه السلام

جملةُ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ مُسۡتَأۡنَفَةٌ ابۡتِدائيَّةٌ؛ إذ لما فرّع كلامَه بأخذهم بطريق الاستئصال على قولِهم المُؤدّي إلى الهلاك على الوجه المذكور، لم يبقَ شيءٌ ممّا يتعلّقُ ببيان حالهم، فلا جَرَمَ كان قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ كلامًا مستأنفًا جيء به للمبالغة في الردّ عليهم بتخصيص العذاب والخسران بالمكذبين، وأنّ المُصدّقين بمعزلٍ عنه(2)، فهو استئنافٌ لبيان ابتلائِهم بشؤم قولِهم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾، أو بتكذيبِهم شعيبًا عليه السلام، أو لبيان كيفيةِ أَخۡذِ الرَّجۡفَة؛ إذ تعليقُ الحكم بالمشتقّ يدلُّ على عليّةِ مأخذِ الاشتقاق، كما هو المعروفُ بالاتفاق(3).

علّةُ التّعريف بالموصول:

جـزاءُ التّكذيبِ الاضمحلالُ

التَّعۡريفُ بالمَوۡصوليّة للإيماءِ إلى وجۡهِ بناءِ الخَبَر، وهو أنَّ اضۡمِحۡلالَهم وانۡقِطاعَ دابِرِهِم كانَ جَزاءً لَهم على تَكۡذيبِهِمۡ شعيبًا(4).

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/252، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/252.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/262.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/13.

سرّ تقديم الموصول:

تقديم الموصول يقوّي الحُكْمَ

تَقْديمُ الموصول على فعله ﴿كَانُواْ﴾ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ إذا اعْتُبِرَتْ ﴿كَانُواْ﴾ فِعْلًا؛ فهو تَقْديمٌ لإفادَةِ تُقَوّي الحُكْمَ، وإنِ اعْتُبِرَتْ (كانَ) بِمَنزِلَةِ الرّابِطَةِ - وهو الظّاهِرُ - فالتَّقَوّي حاصِلٌ مِن مَعْنى الثُّبوتِ الَّذي تُفيدُهُ الجُمْلَةُ الِاسْميَّةُ[1].

بلاغةُ التّشبيه في الآية:

استأصل الله شأفتَهُمْ ومحا آثارهم فكأنّهم لم يكونوا

مَعْنى ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾: تَشْبيهُ حالَةِ اسْتِئْصالِهِمْ وعَفاءِ آثارِهِمْ بِحالِ مَن لَمْ تَسْبِقْ لَهم حَياةٌ، أو لَمْ تَكُنْ إقامَةٌ؛ لِلدَّلالَةِ على انْمِحاءِ آثارِهِمْ، كَما قالَ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾، وللتّشبيه جماعُ دلالاتٍ من تنبيهٍ، وإنكارٍ، وتعجّبٍ. ووجْهُ الشَّبه طبيعةُ ما أصابَهم من رجفةٍ، ولَيْسَ حالَةَ مَوْتِهِمْ؛ لِأنَّ ذَلِكَ حاصِلٌ في كُلِّ مَيِّتٍ ولا يَخْتَصُّ بِأمْثالِ مَدْيَنَ، وهَذا مِثْلُ قَوْلِهِ - تعالى -: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾[2].

نكتةُ تكرار جملة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾:

في التّكرير إيقاظٌ للقلوب، وتنبيهٌ للسّامعين؛ ليتّقوا مثيلَ شركهم وتكذيبهم

التّكرار لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ تكرارُ جملة، وهو أبلغُ من تكرار المفرد، وغايتُه التَّعْديدُ وإيقاظُ السّامِعينَ، وهم مُشْرِكو العَرَبِ، لِيَتَّقوا عاقِبَةَ أمْثالِهِمْ في الشِّرْك والتَّكْذيب على طَريقَةِ التَّعْريض، كَما وقَعَ التَّصْريحُ بِذَلِكَ في قَوْلِهِ - تعالى -: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾[3]، فهذا الاستئناف، والتكريرُ مبالغةٌ في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيهٌ لرأيهم، واستهزاءٌ بنصحهم لقومهم، واستعظامٌ لما جرى عليهم[4]؛ إذ من عادة العرب الاستئنافُ من غير عطف في الذمّ، والتّوبيخ، فيقولون: أخوك الذي نهبَ، أخوك الذي هتَك سترَنا[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 2/131.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 5/155.

بلاغةُ التّعريض في الآية:

تكذيبُ شعيبٍ عليه السلام هو سببُ النّدامة والخُسران

في التّعبير بالاسْم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ تعريضٌ بتعظيم شأن غيرِ الخبر والإشارةِ إلى نوع الخبر، وأنّه من جنس الخسران، وذلك أنَّ شُعيبًا نبيٌّ يؤدّي تكذيبُه إلى الخيبة والخسران، لكنّ هذا الإيماءَ إلى نوع الخبر ليس مقصودًا لذاته، بل هو وسيلةٌ إلى التّعريض بتعظيم شأن غيره، وهو شعيب عليه السلام؛ لأنَّ تكذيبَه هو سببُ خسرانه، ولفظُ شعيب واقعٌ في سياق الصّلة لا في سياق الخبر، فالتّعريضُ إذًا لتعظيم شأن غيرِ الخبر، وهذا التّعريضُ أقوى في التّأثير في المخاطَب مِنَ التصريح؛ لأنه يوجِّهُ انتباهَه إلى خطورة التّكذيبِ وعاقبتِه، ويحثُّه على اتّباع الحقّ، وفي هذا القول إشارةٌ إلى قدرة اللّه على معرفة ما في صدور الخلْق وإخبارِهم به.

بديعُ التّعبير بضمير الفصل:

إظهارٌ لسفهِ قولِ الملأ، وتهافتِ آرائهم، وتَحْذيرٌ لأمْثالِهِمْ مِنَ الوُقُوعِ في الضَّلال

ضَميرُ الفَصْلِ في قَوْلِه: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يُفيدُ الحصر، والقَصْرَ وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أيْ: دونَ الَّذينَ اتَّبعوا شُعَيْبًا، وذَلِكَ لِإظْهارِ سَفَهِ قَوْلِ المَلَأ لِلعامَّة: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ تَوْقيفًا لِلْمُعْتَبِرينَ بِهِمْ على تَهافُتِ أقْوالِهِمْ وسَفاهَةِ رَأْيِهِمْ، وتَحْذيرًا لِأمْثالِهِمْ مِنَ الوُقوعِ في ذَلِكَ الضَّلالِ[1]. وبه - والحصر أعني - اكتفى عنِ التَّصريحِ بإنجائه صلى الله عليه وسلم ومن معه[2].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الخسران:

أرادوا نفعَ أنفسِهم في زعمِهم فألحقوا بها الضّرر

وَصَفَ جلّ شأنه فِعْلَهم بالخُسْرانِ؛ لِأنَّ حَقيقَةَ الخُسْرانِ نُقْصانُ مالِ التّاجِرِ، والتّاجِرُ قاصِدُ الرِّبْحِ، وهو الزّيادَةُ، فإذا خَسِرَ؛ فقَدْ باءَ بِعَكْسِ ما عَمِلَ لِأجْلِه، ولِذَلِكَ كَثُرَ في القُرْآنِ اسْتِعارَةُ الخُسْرانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/7.

لِعَمَلِ مَنْ يطلبون نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ بِالتَّخَلُّصِ مِن أَضْرارٍ في الدُّنْيا مُحْتَمَلٍ لَحاقُها بِهِمْ مِن جَرّاءِ سوء أفعالهم، فيقعون في أَضْرارٍ مُحَقَّقَةٍ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ، فالخُسْرانُ مُسْتَعارٌ لِحُصولِ الضُّرِّ مِن حَيْثُ أُريدَ النَّفْعُ، والمُرادُ بِهِ هُنا التَّحْذيرُ مِن أَضْرارِ ما حصل لهم في الدُّنْيا مِن جَرّاءِ غَضَبِ آلِهَتِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الظّاهِرَ أَنَّهم لا يَعْتَقِدونَ البَعْثَ، فإنْ كانوا يَعْتَقِدونَهُ، فالمُرادُ الخُسْرانُ الأَعَمُّ[1]، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ لكونها في اسم مشتقّ هو: (الخاسرون)، فالاستعارة بدءًا في المصدر (الخسران)؛ إذ شبّه خسرانَ الكافرين لدنياهم وآخرتهم المستلزمَ لعقابهم بخسران التاجر لتجارته، وقد كدَّ فيها، وأفنى رأسَ ماله عليها، بجامع (انعكاس المأمول من العمل المكدّ)، ثم اشتُقَّ منه اسمُ الفاعل (الخاسرون) على سبيل الاستعارة التّصريحيّةِ التبعيّة في المشتقّ.

أو في الخُسْرانِ اسْتِعارَةٌ تَخْييلِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الخُسْرانَ مُتَعارَفٌ في التِّجاراتِ، وهَذا الكَلامُ ورَدَ مَوْرِدَ الإنْصافِ، حَيْثُ لَمْ يُصَرِّحْ بِأَنَّهُمُ المُؤْمِنونَ بِالباطِلِ الكافِرونَ بِاللَّه ﷻ، بَلْ أَبْرَزَهُ في مَعْرِضِ العُمومِ، لِيَهْجُمَ بِهِ التَّأَمُّلُ على المَطْلوبِ[2].

دلالة لام الجنس في الخبر:

خسران الكفّار بلغ الغاية في ذلك

ويُستفاد عِظَمُ الخسران من تعريف الخبر بلام الجنس؛ ليدلّ على أنهم الكاملون في الخسران[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/113، و9/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/18، والاستعارة التَّخْييليَّةُ: إثباتُ لازم المشبّه به لِلمُشَبَّهِ. فهذه قرينة المكنيّة: التي هي لفظ المشبّه به المستعار في النّفس لِلمُشَبَّهِ، والمحذوف المدلول عليه بشيء من لوازمه.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/480.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [الأعراف: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مفارقةُ شعيب الدّار والعشيرة بعد إصرارِ قومه على الكفر

لما صارت دارُ مدين محلَّ غضبِ اللّه؛ دفع ذلك شعيبًا إلى الهجرة عنها، كما كانت عادةُ مَن قبْلَه منَ الأنبياء عليهم السلام، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾[1]؛ لعلْمِه عليه السلام أنهم قد أصرّوا على الكفر إصرارًا، وآذَوا المؤمنين، فأعرض عنهم مع ما في كلامه من إشارة إلى محبّته لهم ابتداءً، وطلبِ الهداية لهم، ولكنهم كفروا، فلم يحزنْ عليهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) أصل صحيح يدلُّ على قربٍ[3]، وقد يكون بمعنى الإدبار "ولّى الرجل، أي: أدبرَ"[4]. فالتولية تكون إقبالًا، وتكون انصرافًا، وولَّى عنه، وتولّى عنه: أعرضَ، ونأى، وأدبر[5]. أي: إذا عُدّيَ اللفظُ بـ(عن) لفظًا وتقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض وتركِ القربِ، وهذا معناه في الآية الكريمة. وإذا عُدّي بنفسه؛ اقتضى معنى الولاية[6].

2) ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾: (بلغ) أصل واحدٌ يعني: الوصول إلى الشيء، تقول: بلغتُ المكان، إذا وصلتُ إليه[7]. والبلوغ والبلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المَقْصَد، والمُنتهى مكانًا، أو زمانًا، أو أمرًا منَ الأمور

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/8.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 9/480.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) ابن منظور، اللسان: (ولي).
(6) الراغب، المفردات: (ولي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).

المقدَّرة[1]. وهو: ما يُتبلَّغ، ويُتوصَّلُ به إلى الشّيء المطلوب[2]. فبَلَغَ الشّيءُ يَبْلُغُ: وصَلَ وانتهى. فالإبلاغ: الإيصالُ[3]، وهو المعنى الذي يحتمله لفظُ الآية؛ دلالةً على إيصال الرِّسالة والانتهاء بها إلى أقصى المقصد.

3) ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾: الإرسالُ في اللغة: التّتابع[4]، فـ" الراء والسين واللام أصلٌ واحدٌ مطّردٌ منقاس يدلُّ على الانبعاث، والامتداد"[5]. والرَّسْلُ: الذي فيه استرسال ولين، وأصلُه الانبعاثُ على التُّؤَدَةِ، ومنهُ الرسولُ المنبَعِثُ[6]. والإرسالُ: التّسخير، والتّوجيه[7]. ورسالةُ الرسولِ ما أُمر بتبليغه عنِ الله[8]، وهذا معنى اللّفظ الوارد في الآية الكريمة.

4) ﴿وَنَصَحۡتُ﴾: "النون والصاد والحاء، أصلٌ يدلُّ على ملاءمةٍ بين شيئين، وإصلاحٍ لهما"[9]، وقيل: هو من أحد أمرين: الإحكامِ، والإخلاصِ، من قولهم: نصحتُ له الودَّ، أي: أخلصتُه. وهو تحرّي فعلٍ، أوقَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبه[10]. ونصحت له: أخلصتُ، وصدقت، وتوبةٌ نصوحٌ: صادقةٌ[11] بالغةٌ في النّصح، وهي أن يندمَ على الذّنب الذي أصاب، فيعتذرَ إلى الله تعالى بالاستغفار، ثم لا يعودَ إليه، كما لا يعودُ الحليبُ إلى الضَّرع. والنُّصحُ نقيضُ الغشّ، ونصيحةُ المسلمين إرشادُهُم إلى مصالحهم[12]، وعلى ما ذُكر معنى اللّفظة في القرآن الكريم هو بذلُ الرأي مخلصًا، والإرشاد والتّوجيه بما فيه خيرُ المنصوحين.

---

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(2) ابن الأثير، النهاية: (بلغ).
(3) ابن منظور، اللسان: (بلغ).
(4) الأزهري، التهذيب: (رسل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(6) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (رسل).
(7) ابن سيده، المحكم: (رسل).
(8) مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط: (رسل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصح).
(10) الراغب، المفردات: (نصح).
(11) الأزهري، التهذيب: (نصح).
(12) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية: (نصح).

5) ﴿ءَاسَىٰ﴾: أسيَ: حزن[1]، فالهمزة والسّين والياء: أصلٌ دالٌّ على الحزن[2]، وحقيقتُه: إتْباعُ الفائت بالغمّ، يقال: أسيتُ عليه، وأسيتُ له[3].

المعنى الإجْماليّ:

انقيادُ شعيب عليه السلام لأمر الله فيما أنزل بقومه، والتّسليمُ لحكمِه

فأعرض شعيبٌ عنهم - حينما أيقن بحلول العذاب بهم - مذكِّرًا إيّاهم بنصحِهِ وإنذارِهِ وعدم التّقصير معهم بإيصاله رسالاتِ التوحيد والهداية لهم، وبذلِه الوُسْعَ، والجُهدَ في النّصح والإشفاق، فلم يُصدِّقوا، وأعرضوا مصرّين، وتمرّدوا معانِدين، فلم يتركوا سبيلًا للحزن الشّديدِ عليهم[4]، وأنَّى له الحزنُ على مستحقّي العذاب؟ فالإعراضُ تسليمٌ، وتركُ الحزن رضًا وامتثال، وحريٌّ بالأنبياء هذي الخصالُ.

كما ترشد الآية الكريمة إلى عدم الحزن على ما يُصيب الكافرين من عقوبات، فإنّها بمشيئة اللّه، وتقديرِه، وليس لأحدٍ الاعتراضُ على حكمه، وإلى مَشْروعيَّةِ توبيخ الظالمين بعد هلاكهم، كما فعل رسول اللّه ﷺ بأهل القَليب، وكما فعل صالحٌ وشعيبٌ عليهما السلام بقومهما.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ إيثارِ الفاء في مطلع الآية:

مناطُ الامتثال الإعراضُ عن محاجة قومه فورَ إنزال العقوبة بهم

الفاءُ في: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ تفيدُ التّرتيب، والتَّعْقيبَ، فحين هَلَكوا تولّى عنهم نبيُّهم شعيب عليه السلام؛ إذ كان إعراضُه عنهم عَقِبَ عقوبَتِهم دون مُهلةٍ.

(1) الخليل، العين: (أسي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسي).
(3) الراغب، المفردات: (أسا).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/24.

التّولّي عنهم إعراضٌ ونبذٌ للقرب منهم حسًّا ومعنًى

دلالةُ تعديةِ فعلِ التّولّي بـ(عن) والعطفِ بالواو:

عُدّي فعلُ التّولّي بـ(عن)؛ ليقتضيَ معنى الإعراض، وترك القُرب[1]، والواو العاطفةُ للتّشريك بين التّولّي والقول.

فائدةُ المجاز توبيخُهم، والتّبرُّؤ منهم

وجهُ المجاز في لفظِ التّولّي:

يُحتَمَلُ أنْ يَكونَ التّولّي مَجازًا بِقرينَةِ الخِطابِ، أيْ: فأعْرَضَ عَنِ النَّظَرِ إلى القَرْيَةِ بَعْدَ الرَّجْفَة، أوْ أعرض عنِ التّحسّر والحُزْنِ عَلَيهِمْ واشْتَغَلَ بِالمُؤْمنينَ، فعَلى الوَجهِ الأوَّلِ يَكونُ قَوْلُهُ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ مُسْتَعْمَلًا في التَّوبيخِ لَهم، وعَلى الوَجْهِ الثّاني يَكونُ مُسْتَعْمَلًا في التَّبَرُّؤِ منهم[2].

التّبرّؤ مصيرُ كلّ من يُكذّب الرّسلَ، ويكفرُ برسالات ربّه

سِرُّ نداءِ شعيب قومه بعنوان القوميّة:

نداءُ شُعيبٍ عليه السلام قَوْمَهُ في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ نداءُ تَبَرُّؤٍ من عَمَلِهِمْ، وهو مِثْلُ نداء النَّبيّ ﷺ[3] بَعْدَ وقْعَةِ بَدْرٍ حينَ وقَفَ على القَليبِ الَّذي أُلْقيَ فيهِ قَتْلى المُشْرِكينَ، فناداهم بِأسْماءِ صَناديدِهِمْ، ثُمَّ قالَ: "لَقَدْ وجَدْنا ما وعَدَنا رَبُّنا حَقًّا، فهَل وجَدْتُمْ ما وعَدَكم رَبُّكم حَقًّا؟"[4].

في الإبلاغ إعلامٌ برسالاتِ ربّ العالمين

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الإبلاغ:

التّبليغ، والإبلاغ: جعلُ الشّيء بالغًا، أيْ: واصِلًا إلى المَكانِ المَقصودِ، وهو هنا استِعارةٌ للإعلام بالأمرِ المَقصودِ عِلمُهُ، فكأنَّهُ يَنْقُلُهُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ[5]، ومناطُ الإعلام هنا رِسالاتُ ربِّ العالمين إيصالًا وتفهيمًا، ونُصْحًا.

---

(1) الراغب، المفردات: (ولي).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

(3) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: الأرنؤوط: 8/468 - 469، انظر الأحاديث رقم: (4864)، و(4958)، و(6145)، وهو في المسند بنحوه من حديث عمر رقم: (182)، ومن حديث عائشة رقم: (26361).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.

بلاغةُ مقابلةِ الصِّيغ:

في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ قابلَ تحقُّقَ الإبلاغ المُصاغِ بهيئة الماضي المقرون بـ ﴿لَقَدۡ﴾ المتّصلة بلامِ القَسَم، وعطفَ فعل النّصح بالصّيغة نفسِها متعدّيًا باللّامِ المُنبئة بخُلوص النَّصيحة إليهم بالاستفهام الاستنكاريِّ ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾؛ للتَّبَرُّؤِ مِنَ التَّقْصيرِ في مُعالَجَةِ كُفْرِهِمْ، وهو يُؤْذِنُ بِدَفْعِ تَوَهُّمِ التَّقْصيرِ في الإبْلاغِ والنَّصيحة لِانْعِدامِ ظُهورِ آثارهما فيهم[1].

أنبياءُ الله مبرّؤون مِنَ التّقصيرِ في الإبلاغ

أَوْ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ شُعَيْبٌ مُخاطِبًا نَفْسَهُ على طَريقَةِ التَّجْريد؛ إذْ خَطَرَ لَهُ خاطِرُ الحُزْنِ عَلَيْهِم، فدَفَعَهُ عَنْ نَفْسِه بأنَّهم لا يَسْتَحِقّونَ أنْ يُؤْسَفَ عَلَيْهِمْ، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقَوْلِه: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾.

مِن تسليمِ الأنبياء لله تعالى دفعُ خاطرِ حزنِهم على الكافرين

ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ مَوَجَّهًا إلى نَفْسِه في الظّاهِر، والمَقْصودُ نَهْيُ مَن مَعَهُ مِنَ المُؤْمِنينَ عَنِ الأسَى على قَوْمِهِم الهالِكِينَ، إذْ يَجوزُ أنْ يَحْصُلَ في نُفوسِهِمْ حُزْنٌ على هَلْكَى قَوْمِهِمْ وإنْ كانوا قَدِ اسْتَحَقّوا الهَلاكَ[2].

براعةُ عطفِ الأفعالِ، والأسماء:

بديعُ تآلفِ الألفاظ في القَصص القرآني ودقّة مناسبتها للسّياق

عطفَ الماضي ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ على الماضي ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ هنا وفي قصة صالح، وعدلَ إلى عطف المضارع ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ [الأعراف: 62] على المضارع ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾ [الأعراف: 62] في قِصّة نوح، وعطفَ الاسمَ ﴿نَاصِحٌ﴾ [الأعراف: 68] على الاسم ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾ [الأعراف: 66] في قصة هود ليقابل الماضيَ بالماضي، والمضارعَ بالمضارع، والاسمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

بالاسم، وهو من بديع التّناسقِ اللّفْظيِّ في القرآن الكريم، ودقيقِ تآلف لفظه، وكذلك لأنَّ قصة نوح وهود وقعت في ابتداء أدائهما الرِّسالة، فعبّر عنهما بفعل التبليغ المستقبل ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، وفي قصة صالح وشعيب وقع في آخر ما قَصَّهُ اللّه عنهما منَ الرِّسالة وبعد وقوع العذاب، فعبّر عن فعل التّبليغ فيهما بالماضي ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾(1).

علّةُ جمْعِ لفظ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

الجمعُ باعتبار المعاني المختلفة، أو ما أُوحي إليه وإلى الأنبياء في الأزمان المتطاولة

عبّر بالجمع عنِ الرِّسالة هنا ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وفي جميع القَصص في هذه السورَةِ إلا في قِصَّةِ صالح ﷺ، فعدل إلى الإفراد في قَوْلِه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ فالتّعْبيرُ بالجَمع من ثلاثة أوجهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: باعتبار ما أوحي إلى نَبيِّ اللّه في الأزمان المتطاولة.

الوجهُ الثّاني: باعتبار المعاني المختلفة التي جاء بها شعيبٌ وغيرُه منَ الأنبياء عليهم السلام، منَ الأمر والنّهي والزّجر والوعظ والتّبشير والإنذار.

الوجهُ الثّالِثُ: باعتبار ما أوحي إلى نَبيِّ اللّه وإلى مَن قبْلَه منَ الأنبياء، فجميعُهم يدعون إلى توحيد اللّه وطاعته(2)، فقد حكى سبحانه وتعالى عنهم بعدَ الإيمان باللّه والتّقوى أشياءَ أَمَروا قَوْمَهم بها، إلا في قِصَّةِ صالح، فإنّ فيها ذكرًا للنّاقة؛ فصار كأنّها رسالة واحدة(3)، فالكلام فيها ليس على الرِّسالة الدّينيةِ السّماويّة، وإنّما على (النّاقة) المعجزة؛ فالمقصودُ بالرِّسالة هو التّحذيرُ من قتل النّاقة، ولذلك أفردَها ليناسب الحديثَ عنها.

توجيهُ الإضافةِ في لفظ الربّ:

النّبيُّ شعيبٌ عليه السلام هو المكلَّفُ بإبلاغ الرسالات

أضاف الربَّ إلى ياء النّفس ﴿رَبِّي﴾ دون ضمير المشاركة (نا) كما في الآية (89)؛ لكونه المَعنيَّ بشأن إبلاغ الرّسالات لهم والمُكلَّفَ

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 83.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/261.
(3) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 84.

به، والكلامُ هناك للتبرّؤ منَ العَوْدِ في مِلَّتِهِم، وهو شاملٌ شُعيبًا عليه السلام ومَنْ آمن به، فناسبتِ الإضافةُ إلى الضمير في المقامَيْن.

سرُّ تعديةِ فعلِ النَّصيحة باللّامِ:

ألزَمَ فعلَ النَّصيحة اللّامَ في قوله: ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾؛ مبالغةً ودلالةً على إمحاض النَّصيحة، وأنها وقعتْ خالصةً للمنصوح له مقصودًا بها جانبُه لا غيرَ، فرُبَّ نصيحة ينتفع بها النّاصح، فيقصد النّفعين جميعًا، ولا نصيحةَ أمحضُ من نصيحة اللّه تعالى ورسله عليهم السلام[1]، والأصل في النَّصيحة أن تكون بأمر يعود عليه وعليك، فهذه نصيحة لك وله، ولكن حينما تقول: نصحت لك، أي: إنَّ النَّصيحة ليس فيها مسألة خاصّة بك، بل كلّ ما فيها لِصالِح من تُبلِّغه.

لا نصيحةَ أمحضُ وأنفعُ من نصائح الله تعالى ورسلِه

دلالةُ الفاء في مطلع الاستفهام:

الفاءُ في: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ للتّعقيب، أو لِلسَّبَبِيَّةِ[2]، أو"هي لِلتَّفْريع على قَوْلِه: ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾؛ إذْ فرَّعَ الِاسْتِفْهامَ الإنْكاريَّ على ذَلِكَ؛ لِأنَّهُ لَمّا أبْلَغَهم، ونَصَحَ لَهم، وأعْرَضوا عَنْهُ؛ فقَدِ اسْتَحَقّوا غَضَبَ مَن يَغْضَبُ لِلَّه، وهو الرَّسولُ، ويَرى اسْتِحْقاقَهُمُ العِقابَ، فكَيْفَ يَحْزَنُ عَلَيْهِمْ لِما أصابَهم مِنَ العُقوبَةِ"[3]، فهؤلاء القومُ غيرُ حقيقِين أن يُحزن عليهم، وأيُّ شقاءٍ وعقوبةٍ أبلغُ من أن يَصلوا إلى حالة يَتبرأُ منهم أنصحُ الخلق لهم؟

الإعراضُ بعد الإبلاغ والنّصَحِ سببُ غضبِ الله وبراءةِ رسوله منهم

نكتةُ التّعْبير عنِ الأسى بالمضارع:

الأسى: شِدَّةُ الحُزْنِ، والمُضارِعُ مُفْتَتَحٌ بِهَمْزَةِ التَّكَلُّمِ، فاجْتَمَعَ هَمْزَتانِ، وإنّما اخْتيرَ المستقبل مع الظاهر الماضي؛ لإرادةِ الاستمرار على عدم التآسي، ولا يبعدُ أن يكون لحكاية الحال الماضية[4]؛ ليناسب جُمّاعَ التّعْبير

تأكيدُ تحقّقِ عدمِ الأسى واسْتِمْراريَّتُه

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/450.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/450.

عن أفعاله بالماضي (تولّى، أبلغتكم، نصحت لكم)، ويرسّخَ تقدير معنى التّحقّق، وغرضُ الالتفات من هذه الأفعال المتعاقبة إلى الفعل المضارع لتأكيدِ تحقّق عدم الأسى، واستمراريتِه على ذلك، والدّلالةِ على ثبات موقفه الإيمانيّ من أولئك مهما كانت قرابتُهم، فإنَّ وقفَه للّه، وهو فيه أسوةٌ يُقتفى أثرُه، ويُتَّبَعُ هَدْيُه، فموقفه ثابتٌ على تجدّد ما يُذكّر بهم؛ لأنّ سيرتَه وهديَه الرّسالةُ كلّها، وهي حاضرةٌ لا تغيب.

بلاغةُ الإظْهارِ في مَقامِ الإضْمارِ:

وصفُ شعيب قومه بالكفر حَيْدةٌ عنِ الحزن عليهم

قَوْلُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ، فعَدَلَ عن قوله: (عليهم)؛ ليَتَأتّى وصْفُهم بِالكُفْرِ زيادَةً في تَعْزِيَةِ نَفْسِه وتَرْكِ الحُزْنِ عَلَيْهِمْ[1].

علّةُ تنكير القوم ونسبته:

لما كذّبوا وجَحَدوا كان عقابَهم الإعراضُ والتّبرؤُ

عدمُ نسبة القوم إلى نفسه بالياء ونسبته إلى الكافرين في قَوْلِه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾، ومجيئه بصيغة التّنكير قصدَ التَّبرّؤ منهم، والإعراضِ عنهم فما عادوا بعد اليوم قومًا له، ولأنه لم يرضَ بكفرِهم وظلمِهم وشِرْكِهم، وكان يدعوهم إلى التّوحيد والإيمان والعدلِ، فلم يشأ أن يكون منهم أو معهم، وقد يكون ذلك؛ لأنَّ اللّه تعالى أراد أن يبيّن حالَ قوم شعيب بعد أن كذَّبوا رسولَه، وتجبّروا على طاعته، وأن يُظهرَ الفرقَ بين شعيب وقومِه، فشعيبٌ كان رسولًا أمينًا، وقومُه كانوا قومًا كافرين.

نكتةُ التّعْبير عنِ الكافرين بِصيغة اسمِ الفاعل:

صار الخُسران وصفًا ثابتًا لهم لسوءِ صنيعِهم

ناسبَ مجيءُ الكافرين جمعًا على هيئة اسم الفاعل الفاصلةَ في الآية السابقة ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ ليدلَّ على الملازمةِ، والاستمرار، والحدوث حدوثًا ثابتًا مستقرًّا، وكأنه قد صار وصفًا لهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف: 94]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإشارةُ إلى أحوال سائرِ الأمم مع أنبيائِهم إجمالًا

إنّ اللّه تعالى لما عرّفنا أحوالَ هؤلاء الأنبياء، وأحوالَ ما جرى على أممهم؛ كان من الجائز أن يُظنَّ أنّه تعالى ما أنزل عذابَ الاستئصال إلّا في زمن هؤلاء الأنبياء فقط، فبيّن في هذه الآية أنَّ هذا الجنسَ منَ الهلاك قد فعله بغيرهم، وبَيَّن العِلَّة التي بها يفعل ذلك[1].

ثمّ إنّه تعالى لما ذكر ما حلَّ بالأمم السّالفة من بأسه وسطوته عليهم آخرَ أمْرِهِم حين لا تُجدي فيهمُ الموعظةُ؛ ذكر تعالى أنّ تلك عادتُه في أقوام الأنبياء؛ إذا أصروا على تكذيبهم[2]. فـ" أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالًا، إثرَ بيان الأمم المذكورة تفصيلًا"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّبِيٍّ﴾: نبا الشّيء ينبو: ارتفع. فـ (نبا) أصلٌ يدلُّ على ارتفاع الشّيء عن غيره[4]، والنّبيُّ في لغة العرب الطريقُ، والمرتفِعُ قَدْرُهُ، والمشرَّفُ على سائر الخلق[5]؛ لرفعة محلّه عن سائر الناس[6]، والنّبوّة: إذا استُعملت مرادفةً للرسالة، ولوحظ فيها معناها؛ فهي سِفارةٌ بين اللّه وبين ذوي العقول من عبادِهِ؛ لإزاحة عِللهمْ في أمرِ معادِهم، ومعاشهم. وقد يُهمزُ النّبي، فيكون أصله منَ النبأ عن اللّه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/320.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/118.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/156.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبو).
(5) الأزهري، التهذيب: (نبا).
(6) الراغب، المفردات: (نبى).

تعالى، أي: الإخبار؛ لكونه مُنبِئًا بما تسكن إليه العقولُ الذَّكيَّةُ، والنّبيّ بغير همزٍ أبلغُ(1)، وهو الأصلُ فيه، ومعنى اللّفظة في الآية لا يخرجُ عن دلالتِها اللّغوية منَ الارتفاع قدْرًا، وشرفًا، ومنزلةً، ومحلًّا.

2) ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: من بَئِسَ، وهو أصل واحدٌ يدلّ على الشّدّة وما ضارعَها(2). من: حربٍ، ومشقّةٍ، وضَرَرٍ، ومكروهٍ، وضراعةٍ للفقر، والبائسُ: الرجلُ النازلُ به بَليَّةٌ، أو عُدْمٌ(3)، أو فقْرٌ، والبأساء: ضدّ النّعماء، وقيل: هي الجوع(4)، وقيل: ما يصيبُ في الأبدان من أمراض(5)، وكلُّ هذه المعاني محتملةٌ وواردةٌ في تفسير لفظة ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ في الآية الكريمة؛ لأنّ بئس كلمةٌ تُستعمل في جميع المذامّ(6)، وإن كانت دلالةُ الإصابة بالبدن أقربَ؛ إذِ اتّفق عليها أغلبُ المفسّرين.

3) ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: الضَّررُ: نقصانٌ يدخلُ في الشّيء(7)، والضّاد والرّاءُ ثلاثةُ أصول، منها: خلافُ النّفع، ويُحملُ عليه كلُّ ما جانسه، أو قاربَهُ(8)، وهو منَ الضُّرّ (بالضمّ)، أو الضَّرّ (بالفتح)، فكلُّ ما كان من سوء حالٍ وفقرٍ في بدنٍ من مرض وغيره؛ فهو ضُرٌّ، وما كان ضدًّا للنفع؛ فهو ضَرٌّ(9). ومنهم من جعلهما لغتين بمعنًى واحد يدلُّ على: سوء الحال؛ إمّا في نفسِه لِقلّةِ العلم، والفضل، والعفّة، وإمّا في بدنه لِعَدَم جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرة من قلّة مالٍ، وجاهٍ(10). والضَّررُ: الضّيق. والضَّرّاء: النّقص في الأموال والأنفس(11)، أي: يصيبُهم من فقرٍ وعازةٍ، وهو ما يحتمله معنى اللّفظ الوارد في الآية الكريمة فضلًا عن تضمُّنِه معنى مطلق سوءِ الحال وما يندرج تحته منِ احتمالاتِ ما هو خلافُ النّفع.

---

(1) الراغب، المصدر نفسه: (نبى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بئس).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (بأس).
(4) الأزهري، التهذيب: (بأس).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/449.
(6) الراغب، المفردات: (بؤس).
(7) الخليل، العين: (ضر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(9) الأزهري، التهذيب: (ضر).
(10) الراغب، المفردات، والزبيدي، التاج: (ضر).
(11) الأزهري، التهذيب، وابن سيده، المحكم: (ضر).

4) ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: (ضرع) أصل يَدُلُّ على اللّين في الشّيء[1]، وكلّ المعاني الأخرى المشتقّة منه منساقةٌ إليه، فالضَّرَعُ: النّحيف الدقيق، والتّضرُّعُ: التَّذَلُّل، والخضوع، والتّخشّع، والابتهال، والاستغاثة[2]، وكلُّ ذلك يحتمِلُه معنى اللّفظة؛ (فالتضرّع) دعوةُ اللّه بإظهار شدّةِ الفقر، والتّذلل، والخضوعِ، والمبالغةِ في السّؤال، والرّغبةِ[3]، مُتشاركين في ذلك[4].

المعنى الإجْماليِّ:

ذِكــرُ تعـذيب الأمــم المكـذّبة الخالية تذكرةً وعظةً

سُنّةُ اللّه في الكَونِ أنّه ما بعثَ في قرية من نَبيٍّ مبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى دين اللّه القويم، وشِرعتِه، ومنهاجِه، فأعرضَ أهلُها وسكّانُها - إلا جازاهم اللّه ابتلاءً وعقوبةً بالشدّة، والمشقّةِ، والفَقْرِ، والبليّةِ، والجوعِ، والحاجةِ، والأمراض والأسقام، والضّيق وغيرها؛ لكي يلجؤوا إلى اللّه أذلّاءَ خاضعين حاطّين أردية الكِبْرِ، والعزَّة، والتّعالي، ففي ذلك تنبيهٌ لهم، وتحذيرٌ؛ ليعلموا أنَّ سلبَ النّعمة عنهم أمارةٌ على غضبِ اللّه عليهم من جرّاء تكذيبِهم رسولَهم فلا يهتدون.

وترشدُ الآية الكريمة إلى وجوب الموعظة، والاعتبارِ بقصص الأمم الخاليةِ، المُنبئةِ عن أسباب هلاكهم وخُسرانهم ليتجنّبَها العقلاءُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل بالواو:

في عطْف الأعمّ عـلى الأخــصّ عظةٌ، وعبرةٌ

عَطفَتِ الواوُ جُمْلَةَ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ على جُمْلَةِ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف: 85] عَطْفَ الأعَمِّ على الأخصِّ؛ لِأَنَّ ما ذُكِرَ مِنَ القَصَصِ ابْتِداءً مِن قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59] كُلُّهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرع).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، اللسان: (ضرع).
(3) ابن منظور، اللسان: (ضرع).
(4) الراغب، المفردات: (ضرع).

القَصْدُ منهُ العِبْرَةُ بالأُمَمِ الخاليَةِ ومَوْعِظَةٌ لِكُفّارِ العَرَبِ، فلَمّا تَلا عَلَيْهِمْ قَصَصَ خَمْسِ أُمَمٍ، جاءَ الآنَ بِحُكْمٍ كُلّيٍّ يَعُمُّ سائِرَ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ على طَريقَةِ قياسِ التَّمْثيلِ، أوْ قياسِ الاسْتِقْراءِ النّاقِصِ، وهو أشْهَرُ قياسٍ يُسْلَكُ في المَقاماتِ الخِطابيَّةِ(1).

وجهُ الاعتراض، أوِ الاستئناف في الجُمل المتعاقبةِ:

الاعــــتراضُ: تــنــبــيــهٌ عـلى موقعِ الموعظةِ مــنَ الـقـصـص المذكورةِ

هَذِهِ الجُمَلُ إلى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ كالمُعْتَرِضَةِ بَيْنَ القَصَصِ؛ لِلتَّنْبيهِ على مَوْقِعِ المَوْعِظَةِ، وذَلِكَ هو المَقْصودُ مِن تِلكَ القَصَصِ، فهو اعْتِراضٌ لِبَيانِ المَقْصودِ مِنَ الكَلامِ، وهَذا كَثيرُ الوُقوعِ في اعْتِراضِ الكَلامِ(2).

الاستئنافُ بيانٌ لأخــذِ الأمــم الماضية بشُؤم كفرهم

كما تحتملُ هذه الجُملُ كونَها اسْتِئْنافيَّةً سيقت لبيان أخذِ الأمم الماضية بشُؤم كفرهم على وجه الإجمال، إثرَ بيانِ ما نزل على الأمم المذكورة تفصيلًا(3).

نكتةُ تعديةِ فعل الإرسال بـ﴿فِي﴾:

إرسالُ الأنبياء يكون في القَرْيَةِ وإلى أهلها

عُدّيَّ أرْسَلنا بِـ﴿فِي﴾ دونَ (إلى) أو (على)؛ لأنَّ المُرادَ بِالقَرْيَةِ حَقيقَتُها، وهي لا يُرْسَلُ إلَيْها، ولا يُرسل عليها مسلّطًا، وإنَّما يُرْسَلُ فيها إلى أهْلِها، فالتَّقْديرُ: وما أرْسَلنا في قَرْيَةٍ مِن نَبيٍّ إلى أهْلِها إلّا أخَذْنا أهْلَها، فهو كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾ [القصص: 59](4). والمقصودُ به هو الظَّرفيةُ، فالتّقدير: وما أرسلنا نبيًّا في قوم من قرية، أي: لأهل قرية. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ [المائدة: 20]، أي: جعل من بينكم أنبياءَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/451.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.

معنى حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

التَّنْصِيصُ على العُمومِ المُسْتَفادِ مِن وُقوعِ النَّكِرَةِ في سِياقِ النَّفْيِ

(مِن) حرفٌ مَزيدٌ لِلتَّنْصيصِ على العُمومِ المُسْتَفادِ مِن وُقوعِ النَّكِرَةِ في سياقِ النَّفْي. وفي سياقه إضمارٌ، والتَّقدير: ما أرسلنا في قرية من نبيٍّ، فكُذّب، أو كذّبه أهلُها(1).

سرُّ التّعْبير بالاستثناء المُفرّغ:

حالٌ من أرسلَ اللهُ إليهم الرُّسل أخذُهم بالبأساء، والضَّرّاء

الاسْتِثناءُ مُفَرَّغٌ في قوله: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ مخصَّص للتّوكيد؛ لأنّه دالٌّ على أنّ ما قبل ﴿إِلَّآ﴾ يتفرّغ للعمل فيما بعدها، ولا يشغله عنه شيءٌ، والمعنى: ما أَرْسَلنا نَبيًّا في قَرْيَةٍ في حالٍ مِنَ الأحْوالِ إلّا في حالِ أنّنا أخَذْنا أهْلَها بِالبَأْساءِ، والضَّرّاءِ(2).

بلاغةُ المَجاز في لفظ الأخْذ:

الأخذُ إصابةٌ بمكروه لا يُدفع، وأذًى لا يُمنع؛ غلبةً وقهرًا

والأخْذُ في قوله: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ مَجازٌ في التَّناوُلِ والإصابَةِ بِالمَكْروه الَّذي لا يُسْتَطاعُ دَفْعُهُ، وهو مَعْنى الغَلَبَة، كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42](3).

بلاغةُ الإيجاز بالحذف:

تخويفُ القُرى بإصابتهم بالمكروه وإنزالِ العقوبة سعيٌ إلى تركِ العِنادِ والمكابرة

وقَعَ في الكَلام إيجازُ حَذْفٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ فإنَّهُ يَدُلُّ على أَنَّهم لَمْ يَضَّرَّعوا قَبْلَ الأخْذِ بِالبَأْساءِ والضَّرّاء. فالتَّقْديرُ: وما أَرْسَلنا في قَرْيَةٍ مِن نَبيٍّ إلّا كَذَّبَهُ أَهْلُ القَرْيَة، فخَوَّفْناهم؛ لَعَلَّهم يَذِلّونَ لِلّهِ، ويَتْرُكونَ العِنادَ والمكابرة(4).

سرُّ إتباع البأساء بالضَّرّاء:

أردف البأساءَ بالضَّرّاء؛ ليجمعَ بين ما يحتملُه سوءُ الحال ممّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.

السّوء يصيبُ الأبدانَ، والأحوالَ، والله يختبرُ عباده بالشّدائد قبل الرَّخاء

يصيبُهم في أبدانِهم من آفة، أو مرض، وبين ما يصيبُهم من فقر وحاجةٍ، ونقصٍ في الأموال، وقدّم ما النّفسُ أعنى به.

تقديمُ البأساء على الضَّرّاء في الآية يدلُّ على أنّ البأساء أشدُّ منَ الضراء، وأنّ اللّه تعالى يختار لعباده ما هو أنفعُ لهم، وأقربُ إلى إصلاحهم؛ فالبأساء هي المصائبُ التي تصيب النّاسَ في أجسادهم وأموالهم وأولادهم، كالحروب والجوائحِ والزّلازلِ والجفاف، والضّراءُ: هي المصائبُ التي تصيبُ النّاسَ في أنفسهم وقلوبهم، كالفقر والجوع والخوفِ والحزنِ، فإذا أخذ اللّه تعالى قومًا بالبأساء، فإنَّ ذلك يكونُ دافعًا قويًّا لهم للتّوبة والإنابة إلى ربهم، وللاستغفار والدّعاء، وللاستعانة بالصّبر والصّلاة.

وقد يكون تقديمُ البأساء على الضّراء في الآية يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى يختبرُ عبادَه بالشّدائد قبل الرّخاء، ويزيلُ عنهمُ الغفلةَ بالتّذكير، ويحثُّهم على الشّكر بالإنعام، فإذا أخذ اللّه تعالى قومًا بالضّراء؛ فإنّ ذلك يكون سببًا لهم للاستغناء باللّه عن كلّ شيءٍ، وللاقتصاد في المعيشة، وللاحتسابِ في المصائب[1].

فائدةُ التّعْبير بـ(لعلّ):

لم يكنِ الله تعالى ليأخذَهم قبل التّنبيه وهو العَدْلُ

و(لَعَلَّ) تَعْليليَّةٌ بمعنى (كي)[2]، جُعلَتْ عِلَّةً لِابْتِداءِ أَخْذِهِمْ بِالبَأْساءِ والضَّرّاءِ قَبْلَ الاسْتِئْصالِ[3]، وفي ذلك تنبيهٌ على أنّ الأخذَ المذكورَ لم يكن في ابتداء الإرسال بل بعد التَّنْبيه، والإيقاظِ بالشّدائد، والإمهال[4]، وبعد تحقّق البلاغ وقيام الحجّة وانقطاع المعذرة وتيقّنِ العلم، كما في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: 14].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 252/7، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/449.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/452.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/227.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/452.

التّذلّلُ إلى الله اعترافًا بالذّنْب والتّوبة منه طريقُ النّجاة

القصدُ استمرارُ التّخشُّع منَ القوم في الأحوال كلِّها، والمبالغةُ في التّذلّل والضَّراعة

الإدغام وجهُ إيجازٍ يناسبُ سياقَ الحديث عن قرية

بلاغةُ الكنايةِ في لفظ التَّضرّع:

مَعْنى ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ يَتَذَلَّلونَ؛ لِأَنَّ الضَّراعَةَ التَّذَلُّلُ والتَّخَشُّعُ، وهو هُنا كِنايَةٌ عَنِ الاعْتِرافِ بِالذَّنْبِ والتَّوْبَةِ مِنهُ[1].

توجيهُ صِيغة فعلِ التّضرّع:

جيءَ بالفعل ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ على مبنى المضارعة بصيغة الافتعال مُشدّدًا؛ قصدًا إلى استمرار التّخشّع منَ القوم في الحال، والاستقبال، والمبالغةِ في التّذلل والضَّراعةِ إلى اللّطيف الخبير.

توجيهُ متشابهِ لفظِ الفعل:

أصل الفعل ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: (يَتَضَرَّعونَ)؛ قُلبتِ التاء ضادًا، وأدغمت في الضّادِ، وجيء به في [الأنعام: 42] بالفكّ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ لموافقته ما بعده ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ [الأنعام: 43]. فمستقبل (تضرّعوا) يتضرّعون[2]؛ مراعاةً للمناسبة، فالعربُ تراعي مجاورة اللّفظ فتحملُ اللّفظَ على مجاورِه للمضارعة اللّفظية[3]. وفيه ملمحٌ معنويٌّ، تحريرُه: أنَّ فكّ الإدغام جاء في سياقِ وصفِ أمم، فلا يتعيّن أنْ يكون ما ذُكِّروا به من محنٍ وشدائدَ، وبأساء وضرّاء بالغًا حدّ الزَّلزَلَة، كالذي ذُكر بالإدغام في الأعراف، وأيضًا فالذي في الأعراف هو ما قبل الإبادةِ والاستئصال، ليس بعده، فتعيّن أن يكون شديدًا بالغًا الغايةَ في الزّجر والتّخويف؛ وذلك من كمال نُصحهم؛ فإذا لم يَرْعَووا؛ فالاستئصالُ إذًا، أمّا الإدغام الَّذي يُعدُّ أحدَ وجوه الإيجاز؛ فجاء به في سياق الحديث عن قريةٍ، وإن كان المرادُ العمومَ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/227.
(2) الكرماني، البرهان، ص: 171.
(3) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/455 - 456.
(4) الشثري، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغيّة، ص: 151.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال، والبعث:

الإرسـالُ وحيٌ مـنَ الـلـه إلى الأنبياء؛ لينذروا العبادَ

البعث في اللغة: الإثارة والتّوجيه المصاحبُ لِلتَّنْبيهِ[1]، ثم " إنّه يجوزُ أن يُبعثَ الرّجلُ إلى الآخر لحاجة تخصّه دونك، ودون المبعوث إليه، كالصّبيّ تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرسلتُه؛ لأنّ الإرسال لا يكونُ إلا برسالة وما يجري مجراها"[2]. فالبعث قد يستغني عمّا تستلزمه أطراف الإرسال الثلاثة: (المُرسِل، والمُرسَل، والمرسَل إليه) من (رسالة) لَفْظيَّةً كانت أو مَعْنَويَّةً، في حين أنَّ الإرسال يتطلّبها، وإرسالُ اللّهِ الأنبياءَ إنّما هو وحيُه إليهم أن أنذروا عبادي[3]؛ ولذلك كان لفظ الإرسالِ أنسبَ لسياقِ الآية الكريمة.

الرّسول والنَّبيّ:

الرِّسَالةُ مرتبطةٌ بـالـرَّسُـول فهو من أُوحـيَ إِلَيْهِ بـشـرعٍ وأُمِـرَ بتبليغِه

شاع في التّفريق بينهما: أنّ الرَّسولَ أخصُّ مِنَ النّبيّ؛ لأنّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، وهناك من ذهب إلى أنّ النّبيّ هو من أوحيَ إِلَيْهِ بشرع خاصٍّ به، وأمّا الرّسولُ؛ فهو من أوحيَ إليه بشرع وأُمرَ بتبليغه، أو أنّ النّبي هو الذي يُبعث لمتابعة رسالةٍ سبقتْه، أو التَّهْييءِ لرسالة ستأتي بعده، ولكنّ الرِّسالة غيرُ مرتبطة به، بل مرتبطةٌ بالرَّسول الذي بُعث بها، أو سَيُبْعَثُ، ولهذا فإنّ اللّه ﷻ قدَّر ألّا تنتهي حياةُ الرُّسل إلا بعد إتمام الرِّسالة، على حين أنّ النّبيَّ قد يُقتل قبل أن تتمّ الرِّسالة أو تنتشر بين الناس، ويؤيّدُ هذا أنَّ كثيرًا من أنبياء بني إسرائيل قد قُتلوا في المراحل الأولى للدّعوة التي كانوا يقومون بها، وهذا ما تؤكّده الآياتُ القرآنيّةُ التي تصف بني إسرائيل بأنّهم قتلةُ الأنبياء بغير حق[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 268.

(3) الأزهري، التهذيب: (رسل).

(4) ابن تيمية، النبوات: 2/714، وابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية: 1/155، وعودة خليل، التطوّر الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن دراسة دلالية مقارنة، ص: 128 - 130.

الضَّرّاء، والبأساء:

البأساءُ ضرّاءٌ مَعها خوفٌ، وأصلها البَأْس، وهوَ الخَوْف، يُقال: لا بَأْس عَلَيْك، أي: لا خوفَ عَلَيْك، وسُمّيتِ الحَرْبُ بَأْسًا لِما فيها من الخَوْف[1]. وقيل: البأساء ما يصيب الأبدانَ من مرض، والضَّرّاءُ النّقصُ في الأموال والأنفس، وما يصيب الإِنْسانَ من فقْرٍ وحاجةٍ[2].

البأساءُ تصيبُ الأبدانَ، والضَّرّاءُ تصيبُ الأحوالَ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 198.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/449.

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾

[الأعراف: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ عادةِ اللهِ الجاريةِ في الأوّلين واللّاحقين

"لَمّا لم يتضرَّعوا صادقين من قلوبهم مُعترفين بالحقّ لأهله - كما يحقّ له - استدرجهم بإدرار النِّعم، فقال مشيرًا إلى طول مدّةِ الابتلاء واستبعادِهم لكشف ذلك البلاء: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا﴾"[1]، فبيَّن تعالى أنّ تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمطٍ واحدٍ، وإنّما يدبّرهم بما يكونُ إلى الإيمان أقربَ؛ لأنّ ورودَ النّعمة في البدن والمال بعد البأساء والضَّرّاء، يدعو إلى الانقيادِ والاشتغال بالشّكر[2]، فهو بيانٌ منه تعالى لأمّة منَ الأمم؛ إذ بعث فيها نبيَّها الذي يدعوها إلى الإيمان باللّه تعالى وحده، ويدعوها إلى الخير الذي يصلُحُ به حالُهم في الدّنيا والآخرة، ويَقدَمونَ على اللّه يوم القيامة بالعمل الصّالح، فيجزيهم جزاءَه وفقًا لما قدَّموا[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَّلۡنَا﴾: (بدل) أصلٌ واحدٌ منَ البَدَلِ والبِدْلِ، وهو قيامُ الشّيءِ الذّاهب، يقال: بَدّلتُ الشَّيءَ؛ إذا غيَّرتَه عن حاله، وإنْ لم تأتِ له ببديل[4]، والبدلُ الخَلَفُ، والإبدالُ، والتّبديل، والتّبدُّلُ، والاستبدالُ: جعلُ شيءٍ مكانَ آخر[5]، وتبدُّلُ السيئة بالحسنة أن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/11.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/321.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2903.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (بدل).

يعمل المذنبُ أعمالًا صالحةً تُبطل ما قدّمه من إساءَةٍ، ويعفو الله تعالى عن سيئاته، ويحتسِبَ بحسناته[1]. ومعنى الإبدال في الآية الكريمة تغييرُ السّيئات إلى حسناتٍ، وجعلُ إحداها مكان الأخرى، والسّيئات هنا: هي ماساءَهم منَ البأساء والضَّرّاء، والحسناتُ هنا هي ما استُدرجوا به من تنعيم، وتصحيح بدنٍ، وسَعةِ رزق، وإطالةٍ في مُدَدِ الإمهال استدراجًا، مع المعافاة والبَسْطَة، حتى تبدّل حالُهم الأول، ومضوا على ذلك زمانًا.

2) ﴿ٱلسَّيِّئَةِ﴾: من سَوَءَ، والسّينُ والواو والهمزة بمعنى القُبْح، ومنه سُمّيت السّيئةُ سيّئةً، والنّار سوأى؛ لقُبح مَنْظَرِها[2]، وقُبح فِعْلَتِها. والسّوءُ: كلُّ ما يَغمُّ الإنسانَ منَ الأمور الدُّنْيَويَّة والأُخْرَويَّة، ومنَ الأحوال النَّفْسيَّةِ والبدنيّة والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ، وفَقْدِ حَميم، وجدْبٍ، وضيقٍ، وخيبةٍ[3]. وبِجُمّاع ما وردَ من تفسيرات بالأمور الدّنيوية يوجَّهُ معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

3) ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾: المحاسنُ منَ الأعمال ضدُّ المَساوئ، وحروفُه من أصل واحد، فحواه ضدُّ القبح[4]، وضدُّ الإساءة[5]، ويُعبَّر بها عن كلّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تنال الإنسانَ في نفسه، وبدنه، وأحواله من خَصْبٍ، وسَعَةٍ، وظَفَرٍ، وثوابٍ[6]. وكلُّ ما جاء في القرآن منه يُفسَّرُ بالطيّب المُستحلَى، أو المستحبِّ صورةً كان، أو مُقامًا، أو قولًا، أو أداءً، أو تصرّفًا، أو معاملةً منَ الناس[7]، وبذلك يُفسَّرُ معنى اللّفظ في الآية الكريمة.

4) ﴿عَفَواْ﴾: من (عَفَوَ) وهو أصلان يدلّ أحدهما على ترك الشّيء، ومنه تركُك الشّيءَ حتى يكْثُر، ويطولَ، وينمو[8]، ومنه إعفاءُ اللِّحى بأن توفَّرَ، وتُكثَّرَ، ومنه عفتِ الرياحُ الآثارَ إذا درسَتْها، ومحتْها بأن تُتْرَكَ من غير تَعَهّدٍ حتى خفيت على مرّ الدّهر[9]. أو هو منَ القصد، فعفوتُ عنه، قصدتُ إزالةَ ذنبه صارفًا عنه، فالعَفْوُ هنا محوُ الذَّنب، وتركُ

(1) الراغب، المفردات: (بدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(3) الراغب، المفردات: (سوأ).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(5) الأزهري، التهذيب: (حسن).
(6) الراغب، المفردات: (حسن).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(9) الراغب، المفردات: (عفا).

العقوبة[1]. وفُسِّرَ العفوُ في الآية الكريمة بالتّركِ حتى كَثُروا، ونَمَوا، وكأنَّهم طبقةٌ تغشى وجْهَ الأرضِ[2]، ويُحتمل التّفسيرُ بِاللّازِم، وهو طولُ الأمد وبُعدُ العهد.

5) ﴿مَسَّ﴾: الميم والسّينُ أصل صحيح يدلُّ على جَسِّ الشّيء باليد، تقول: مَسِسْتُه، أَمَسُّهُ، ومَسَسْتُهُ، أَمُسُّه، والمَمْسوسُ من الماء، ما نالته الأيدي[3]، والمسُّ: يقالُ فيما يكون معه إدراكٌ بحاسَّة اللّمس، ومنه يُقال في كلّ ما ينالُ الإنسانَ من أذًى[4]، ثم استُعير لِلضَّرْب، والأخذ، والعقوبةِ، وإيقاعِ الضُّرّ، ونحوِه[5]، ومعناه في الآية الكريمة ما نالَ القومَ مِنَ الضَّرّاء والبأساء.

6) ﴿وَٱلسَّرَّآءُ﴾: السّين والرّاء يَجمع فروعَه خفاءُ الشّيء، وما كان من خالِصِه، ومستقرّه[6]، فالسَّرّاء: الدّنيا الواسعةُ، والراحةُ[7]، والفَرَحُ[8]، وأرضٌ سرّاءُ، أي: طيّبةٌ[9]. والسَّرّاء: السّرور[10]، وفي مضمار ما قُدّم من معانٍ فُسّرتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة.

7) ﴿بَغۡتَةً﴾: (بغت)، أصلٌ بمعنى مفاجأةِ الشّيءِ[11]، والبَغْتُ: مفاجأةُ الشّيء من حيث لا يُحتسب[12]، وتُقرنُ بشديدٍ أو مكروه[13]، وعليه فمعنى اللّفظةِ: المفاجأةُ بالأخذ.

المعنى الإِجْماليُّ:

لما استمروا بكفرهم؛ رددناهم إلى حالتهم الأولى من رخاءٍ وسَعة وصحّةٍ؛ امتحانًا واختبارًا وإمهالًا لهم، واستدراجًا ليزدادوا ضلالًا؛ فإذا رأوا ذلك؛ تعلّلوا لما أصابهم من البؤس والضّرّ بأنَّ ذلك التّغيّرَ الذي أصابَ آباءنا الأولين إنّما هو شأن الدهر،

(1) الأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات: (عفا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(4) الراغب، المفردات: (مسس).
(5) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مسس).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(7) ابن الأثير، النهاية: (سرر).
(8) الخليل، العين: (سر).
(9) ابن منظور، اللسان: (سرر).
(10) أبو الحسن الهنائي، المنتخب من غريب كلام العرب، ص: 247.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(12) الراغب، المفردات: (بغت).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغت).

الامتحانُ بالرَّخاء بعد الشِّدّة

وعارضٌ من عوارضه أن يداولَ الضَّرّاء والسَّرّاء بين الناس، وأنه قد أصاب أسلافَهم من قبلهم، ولم يَجِئْهم رُسُلٌ(1)، فكانت عاقِبَةُ ذلك أن أصابهم الله بعذاب مدمّر فجأة، وهم فاقدو الإحساس بما سيحلُّ بهم.

وتُرشد الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الجهل بسُنن الله وعادته في خلقه؛ مفتاحٌ للغيّ والزَّيغ، وسبيلٌ للإفساد بين البشر، وإلى أنَّ الابتلاء بالشّدة قد يُصْبَر عليه، ويحتملُ مشاقَّه الكثيرون، فأمّا الابتلاء بالرّخاء؛ فقليلٌ من يصبرُ عليه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجْهُ الاستفتاح بـ ﴿ثُمَّ﴾:

المبالغةُ في التَّضرّع مَظِنّةُ سَعةِ الوقت، والإلحاحِ في الطّلب

استُفْتِحتِ الآيةُ بحرفِ العَطْفِ (ثمّ) الدّالِّ على التَّراخي، تحقيقًا لمعنى التَّمهّل، وعدمِ التَّعجيل، وليناسبَ المبالغةَ في التَّضرّع الذي دُعوا إليه، ودلالته على الاستقبال، ولتمكين الاستدراجِ أنْ يبلغ مداه، فهما مَظِنَّةُ سَعة الوقت، والإلحاحِ في الطلب.

إيثارُ لفظِ المكان لجرِّ السّيئة بدل الباء:

في لفظ (مكان) إشعارٌ بتمكّن البأساء منهم؛ شدّةً، ورهْبةً

عَدَلَ عَنْ جَرِّ السَّيِّئَةِ بالباءِ إلى لَفْظٍ يُؤَدّي مُؤَدّى باءِ البَدَليَّةِ، وهو لَفْظُ ﴿مَكَانَ﴾، فهو محل الباء، أي: بمكان السَّيِّئَةِ، وفي لفظ ﴿مَكَانَ﴾ إشعارٌ بتمكّن البأساء منهم، كأنّه صار للشّدّة عندهم مكانٌ، وأعربَها بعضُهم ظرفًا، أي: في مكان(2)، فيُنْصب على الظَّرْفيَّةِ مَجازًا عَنِ الخَلَفيَّة، يُقالُ: خُذْ هَذا مَكانَ ذَلِكَ، أيْ: خُذْهُ خَلَفًا عَنْ ذَلِكَ؛ لأَنَّ الخَلَفَ يَحُلُّ في مَكانِ المَخْلوفِ عَنْهُ، أيْ: بَدَّلناهم حَسَنَةً في مَكانِ السَّيِّئَةِ(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/18 - 19.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/281.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.

بلاغةُ التّضمين في الآية:

استبدالُ السّيئةِ بالحسنةِ منحٌ وعَطاءٌ

ولفظ (بَدَّل) في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾، مُتَضَمِّنٌ مَعْنى أعْطى النّاصِبِ لِمَفْعولَيْن، وهُما هُنا الضَّميرُ المَحْذوفُ والحَسَنَةُ، أيْ: أعْطَيْناهُمُ الحَسَنَةَ في مَكانِ السَّيِّئَةِ، ومَعْنى كَوْنِها في مَكانِها أنَّها بَدَلٌ مِنها؛ ذلك أنَّ ﴿مَكَانَ﴾ مَفْعولٌ بِهِ لِبَدَّلنا لا ظَرْفٌ، والمعنى: بَدَّلنا مَكانَ الحالِ السَّيِّئَةِ الحالَ الحَسَنَةَ، فالحَسَنَةُ هي المَأْخوذَةُ الحاصِلَةُ في مَكانِ السَّيِّئَةِ المَتْروكَةِ، والمَتْروكُ هو الَّذي تَصْحَبُهُ الباءُ في نَحْوِ: بَدَّلتُ زَيْدًا بِعَمْرٍو؛ فزيدٌ مأخوذ وعمرو متروك[1]، وإنّما حملها على معنى الإعطاء، وهو لازمُ معناها مع أنّه مجازٌ؛ لأنّ معنى التّبديل لا يلائمه مكانُ السّيئة؛ إذ التّبديلُ يقع على السَّيِّئَةِ دون مكانها[2].

وقد يراد جُمّاعُ المعنيين، فاستبدال السَّيِّئَةِ بالحسنةِ إعطاءٌ وعطاءٌ، وتحريرُ ذلك: أنّ استعمال الفعل (بَدَّل) في هذا الموضع فيه قصدٌ إلى معنًى معيّن لا يتأتّى من دون ذكره، إلّا أنّ تعديتَهُ بغير الحرف المستعمَلِ معه عادةً، فيه ضربٌ مِنَ التَّوسّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومُؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةَ أصلِ معناه، وباستعمال حرف الجرّ الذي يتطلّب فعلًا آخر يصبحُ للمعادلة وجهان متكاملان؛ إذ يؤدّي الفعلُ أصلَ معناه بالتَّصريح به، ويقتضي حرفُ الجرّ معنى الفعل الذي يطلبه بالتّضمين.

وهذا التّفسير هو طريقةُ فُقَهاء أهلِ العَرَبيَّةِ؛ لأنّهم يجْعلون للفعل معنًى مَعَ الحَرف، ومعنًى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيُشْرِبون الفعلَ المتعدّيَ به معناه، وهذه قاعدةٌ شريفةٌ جليلةُ المقدار تستدعي فطنةً ولطافةً في الذِّهْنِ[3].

(1) الشهاب، عناية القاضي: 4/193، والآلوسي، روح المعاني: 5/10.

(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/452.

(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 2/258.

وجهُ التّعريف في (الحسنة، والسّيّئة):

أُعْـطُـوا حـالَـةً حَسَنَةً بَطِيئَةَ النَّفْعِ لا تَبلُغُ مَبْلَغَ البَرَكَةِ

التَّعْرِيفُ في (الحسنة، والسّيّئة) في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ تَعْرِيفُ الجِنْسِ، وهو مُشْعِرٌ بأنَّهم أُعْطوا حالَةً حَسَنَةً بَطيئَةَ النَّفْعِ لا تَبْلُغُ مَبْلَغَ البَرَكَةِ. و﴿حَتَّىٰ﴾ غايَةٌ لِما يَتَضمَّنُهُ ﴿بَدَّلْنَا﴾ مِن اسْتِمْرارِ ذَلِكَ وهي ابْتِدائيَّةٌ، والجُمْلَةُ الَّتي بَعْدَها لا مَحَلَّ لَها، و﴿عَفَواْ﴾ كَثُروا، يُقالُ: عَفا النَّباتُ، إذا كَثُرَ ونَما، وعَطَفَ ﴿وَّقَالُواْ﴾ على ﴿عَفَواْ﴾، فهو من بَقيَّةِ الغايَةِ[1].

إيثارُ التّعْبير بالمسِّ دون الأخذ:

الضّرّاء والسّرّاء حـالان تتغيّران بحسب الأزمـانِ والأحوالِ

قصديّةُ التّعْبير بالمسّ في قوله: ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾ دون الأخذ في الآية؛ إذ التّعبيرُ بالمسِّ يدلُّ على أنَّ الضّرّاء والسّرّاء هما حالان تتغيران بحسب الأزمان والأحوال، ولا يستقرّان على شخص أو قوم دائمًا، ولأنّه عبَّرَ أوّلًا فيما أجراه عليهم منَ البأساء والضَّرّاء ليَضَّرَّعوا بالأخذ لشدّة إيلامه وصعوبةِ وقْعه وبُعدِ غائره، ثمَّ لمّا عَفَوا بعد استدراجٍ بالسَّرّاء والكثرة والنّماء، فنسوا ما كانوا فيه قبلُ من ابتلاء الشّدائد والخطوب والفاقة؛ لم يبقَ في أذهانهم من الابتلاء الأول إلا بقيّتُه المُعبَّرُ عنها بالمسّ استخفافًا بها وتهوينًا لها؛ إذ طال عليهم الأمدُ فقستِ القلوب، وإنّ الإنسان كما قال اللّه تعالى: ﴿لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: 6 - 7]، فضلًا عن أنّ الأخذ لا يلائمُ السَّرّاء؛ لكونه غلبَ في مواضع المعاتبة، والمعاقبة، ويشير إلى أنَّ الضّرّاء والسّرّاء هما ابتلاءان منَ اللّه تعالى لعباده، ليمتحنَهم بين الشّكر والصّبر؛ فقد مسّ آباءَهم الضّرّاءُ في بعض الأحيان، فلم يصبروا عليه، ولم يَستغفروا ربّهم، ولم يتوبوا إليه، ومسّهم السّرّاءُ في بعضها، فلم يشكروا نعمةَ اللّه عليهم، ولم يزيدوا في طاعته، ولم يتّقوا عذابَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/18.

علّةُ تأخير السَّرّاء عنِ الضَّرّاء:

وافـقَ النَّظْمُ ترتيبَ المُصاب، وسببَ الرَّخاء والعذاب

وجه تأخير السَّرّاء عنِ الضَّرّاء في قوله: ﴿وَقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾؛ للإشعار بأنها تعقُبُها، وقيل: الغايةُ الموافقةُ لما أصابهم أوّلًا من ضرّاء ثم سرّاء،[1] فقابلَ وفاق ترتيب المُصاب، ثم إنّ الابتلاء بالضَّرّاء يُرادُ به الإيقاظُ والتّنبيهُ والإفاقةُ، والإردافُ بالسَّرّاء استدراجٌ، فمن مأْمَنِه يُؤْتى الحَذِرُ.

بلاغةُ الطّباق في الآية:

في الطباق مزيدُ إيضاحٍ للمعنى

السَّرّاء ضِدُّ الضَّرّاء، والحسنةُ ضدّ السَّيئة، وهما من طباق الإيجاب الذي يجمعُ بين لفظين متقابلين في المعنى، ويُفصحُ عن دلالة الرَّبط المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحِ المعنى، وبيانِه، وتحقيقِ التّوازن والانسجام بين اللّفظين.

دلالةُ الفاء المصاحبة للَفْظِ الأخذ:

لـم يـبـقَ بعد ابـتـلائـهـم إلّا أنْ يـأخُـذَهُـم بـالـعـذاب أشدَّ الأخذ

الفاءُ في قَوْلِه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والتَّعقيبِ عَنْ قَوْلِه: ﴿عَفَواْ وَّقَالُواْ﴾ باعتبار أنّهم لّما لم يعرفوا كونَ ذلك ابتلاءً من اللّه تعالى لعباده، ولم يبقَ بعد ابتلائهم بالحسنات والسَّيِّئاتِ إلا أنْ يأخذهم بالعذاب - فأخذَهم أشدَّ الأخذ، وأفظعَه؛ لأنَّ نزول العذاب بلا شعور أشدُّ العذاب، ولا سيّما حين انتظارِ نزول أصناف النَّعماء والسَّرّاء[2].

الإخْبارُ عَنِ البَغْتَةِ بِالمَصْدَرِ:

بالغَ في تعذيبهم بالإتيان به فجأةً

البَغْتَةُ: مَصْدَرٌ فيه مَعْنى المَجيءِ عَنْ غَيْرِ إشْعارٍ ولا إعْلامٍ ولا ظُهورٍ، وهو مُنْتَصِبٌ على الحالِ؛ لصحّة تأويله ظاهرًا بِاسْمِ الفاعِلِ، والإخْبارِ بِالمَصْدَرِ لِقَصْدِ المُبالَغَةِ[3].

---

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/452.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/453.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/190.

عدمُ الشّعور بالعقاب المفاجئِ آلَمُ، وأقسَى

بديعُ التّعْبير بالجُملة الاسميّة:

جُمْلَةُ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنى بَغْتَةً، واختيْرَتِ الجملةُ الاسميّةُ المُقدّمُ فيها المبتدأُ على المسند الفعليّ؛ لتقوّي الحكم، ولتأكيدِ عدم شعورهم[1]، وثبوتِ العقوبة عليهم، ويناسبه مَبْنَى المضارع الدالِّ على استمرار فعلِ عدم الشّعور في الحال والمستقبل، واستغنى بجملة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ عن محذوف تقديره (بنزول العذاب)[2]، فهو أبلغُ من ذكره.

انسجامُ الفواصل مع أخواتها من الآيات الخالفة، والسّابقة دليلُ دقّةِ النّظم، وقصديّة التأليف

براعةُ التّناسبِ بين ألفاظ الفواصل:

وللفواصل في الآيات (88 - 95) مجتمعةً ومتفرقةً تناسبٌ عجيبٌ بيانُه:

في آيات المحاورة والمجادلة (88 - 89) كانَ شعيب ﷺ ومن معه كارهين لما أُجْبروا عليه، فناسبه لفظُ ﴿ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ الدّالُّ على النّصر، والتّمكين.

وفي آيات العقوبة الخاصّة (90 - 93) جاءت الفاصلة ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ مناسبةً لـ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ و﴿كَٰفِرِينَ﴾، فالمعطَى واحد قوامُه وصفُ العقوبة.

أما في آيات العقوبة العامّة (94 - 95) لهم ولغيرهم، فقابل نفيَ الفعل ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ بصيغة التّعليل طبيعةَ العقوبة المناسبة لهم ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

فما ألطفَ تناسبَ الفواصل في الآي، وأدقَّ انتظامها على رَتَلٍ واحد، توهج إحداها الأخرى، وتُنير معناها!

ثمّ إنّ كلّ فاصلة تناسبُ سياقَها: فلفظة ﴿كَٰرِهِينَ﴾ وقعت في

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/453.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/25.

سياق أفعال الاستكبار، والإخراج، والعود، فهي أفعالٌ حقيقٌ بها أنْ تُكره، في حين وردت لفظة ﴿ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ في سياق أفعال نفي الافتراء، والعود، ومقابلتها بأفعال التّصديق، النّجاة، والتّسليم، والتّوكل، والفتح، فناسبها لفظُ (الفتح)؛ لأن جزاءَ نصرِ اللّه النصرُ.

وكذلك الآيات الأُخر، فالكفرُ والإصرارُ على عدم الاتّباع خسرانٌ، و﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾، و﴿جَٰثِمِينَ﴾، عقوبةٌ، و﴿كَذَّبُوا۟﴾، و﴿لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾، هم ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، و﴿رِسَٰلَٰتِ﴾، وإنكارها كُفرٌ، و(بالبأساء والضَّرّاء) قرينتان بالتضّرع، والتّدرّج مِنَ السيئة، فالحسنة، فالضَّرّاء، فالسَّرّاء، ثم الأخذ، والبغتة تقابلها العقوبة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ - فانطباق الفاصلة مع معنى الآي، وانسجامها مع رسيلاتها من الآيات الخالفة، والسّابقة دليلُ دقّةِ النظم، وقصديّة التأليف.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللّمس، والمَسّ، والجَسّ:

المَــسُّ إصــابـةٌ مدركةٌ مقصودةٌ مآلُها إلى التّأثّر

اللّمس: إدراكٌ بظاهر البَشرة فهوَ لصوقٌ بإحساس، وهو أعمّ مِمّا هوَ باليَد، وقد يُقال لطلب الشَّيْء وإن لم يوجد. والمسّ: الإصابة، وهو في اللُّغَةِ التقاءُ الشّيئين من غير فصل، أو الجمع بين الشّيئين على نهاية القُرْب، ويُقال فيما مَعَه إِدْراكٌ بِحاسَّةِ اللّمس؛ فحقيقتُه اللّمس باليد، ونُقِلَ مِنَ الإحساس إلى المعاني، ليكنّى بِهِ عَن النِّكاح والجُنون، وقد يُقالُ في كلّ ما ينال الإنْسانَ من أذًى[1].

فالمسُّ اتصالُ الشّيء بالبَشرة بحيث تَتَأثَّرُ الحاسّة به، واللّمس كالطلب له؛ ولذلك يقال: ألمسُه فلا أجدُه[2]. ويقال: المسُّ أقلُّ تمكنًا مِنَ الإصابة، وكأنه أقلُّ درجاتها[3].

(1) الراغب، المفردات: (مسس، ولمس)، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/231، والكفويّ، الكليات، ص: 799.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/90.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/396.

ومن هنا فالمسُّ واللّمس والجَسّ متقاربٌ، إلا أن الجَسّ عامٌّ في المحسوسات، والمسُّ فيما يخفى ويدِق، والمسّ واللّمس بظاهر البَشرة[1].

وقيل: اللّمس: لا يكون عن قصد. والمسُّ: يكون مقصودًا، أو غيرَ مقصود، تقول: (تماسّ الحجران) ولا يقال: (تلامسَ الحجران)[2].

الشّعور، والإحساس:

الشّعور إدراكُ الشّيءِ من وجهٍ يدِقُّ ويخفى

يرادُ بالشّعور عِلمُ الشّيءِ عِلْمَ حِسٍّ، منَ الشِّعار - وهو ما وليَ الجسدَ منَ الثياب؛ لأنه يمسُّ الشّعر الذي على البَشَرة -، ومشاعر الإنسان حواسُّه، أما الإحساس؛ فهو العِلمُ بالحواسّ، وهو عِلمٌ لا شبهة فيه[3]. فالشّعور: إدراكُ الشّيء من وجهٍ يدقُّ، مشتقٌّ منَ الشِّعار، وهو ثوبٌ يلي الجسدَ[4]. أما الإحساسُ؛ فيراد به العلمُ المؤكّد القاطعُ؛ لأنه مُدركٌ بِالحَواسِّ[5]. فالإحساس: التّأكّد والتّيقّن، أمّا الشّعور؛ فهو العلمُ الدّقيق الخفيّ، وهو أنسبُ للفظةِ ﴿بَغْتَةً﴾ في الآية الكريمة.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/231.
(2) البسيلي، التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، ص: 565.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر)، والزمخشري، الكشّاف: 1/175، و422.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/53.
(5) محمد محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 89.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من ذكر المكذِّبين للرّسل إلى بيان أسبابِ إغداقِ البركاتِ

لم يكن أخذُهم بغتةً فعلًا حصل دون تمهّلٍ، وكان تبصيرًا وإنذارًا، فناسبه جوُّ التّرغيبِ، والدّعوةُ، وترسيخُ مبدأ المُجازاةِ فالإنكار، والعذاب (السّرّاء - والضّرّاء، السّيّئة - الحسنة، قد مسّ آباءَنا) يُقابلُه ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا﴾ فتحٌ في العطاء لا حدَّ له.

وكذلك مناسبةُ لفظِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بصيغة المضارع الدّالِّ على تجدّدِ ارتكابِهم الموبقات لسياق الآيةِ الكريمةِ بعدَها الدّالِّ على التّحذير والتّخويف، ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم﴾ البأس، والشّدّة، والغضب متى شاء، وأين شاء، وكيف شاء تعالى وعزّ، فلمّا تجدّدَ لديهم الفعلُ، واستمرّوا عليه؛ حذّرناهم، وذكّرناهم بعقابنا.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾: الواوُ والقافُ والياءُ: تدُلُّ على دَفعِ شَيءٍ عن شَيءٍ بغَيرِه[1]، ويوجَّهُ عمومُ معناه إمّا على الحفظِ، وإمّا على الحذرِ، وكلاهما يعودُ الى المعنى الأصل، فوَقاهُ اللّهُ وِقايةً، أي: حفظه[2]، وصانه، وحماه، وستره. وفي التَّنزيلِ العَزيزِ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11][3]. والاسم: التَّقوَى، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وقا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، أي: هو أهْلٌ أن يُتَّقى عِقابُه، وأهلٌ أن يُعمَلَ بما يؤدّي إلى مغفرتِه[1]. ورجلٌ تقيٌّ، وجمعه أتقياء، معناه: أنّه موقٍ نفسه منَ العذاب والمعاصي بالعمل الصّالح[2].

فالتّقوى إذًا: جعلُ النّفس في وقايةٍ ممّا يُخافُ، وهو في تعارف الشّرعِ حفظُ النّفسِ عمّا يُؤثِمُ، وذلك بتركِ المحظور[3]، والخوف من عقاب اللّهِ إن حصل انحرافٌ[4]، وهو مقصدُ اللّفظة، ومُؤدَّى معناها.

2) ﴿بَرَكَٰتٍ﴾: أصلُ الباء والرّاء والكاف واحدٌ دالٌّ على ثباتِ الشّيءِ[5]، ومع أنّ لفظَ البركة محتملةٌ هذا المعنى من حيث إنّها: ثبوتُ الخير الإلهيِّ في الشّيء، إلّا أنّ ثمّةَ معنًى شائعًا أدّتهُ؛ وهو الزّيادةُ والنّماءُ، وانحازَت إليه جلُّ معاني اللّفظة، جاء في العين[6]: "البَرَكَةُ: الزّيادة والنّماء"، وهي: الكثرةُ في كلِّ خيرٍ، والمبارك: الّذي يَأتي من قِبَله الخيرُ الكثيرُ، ومنه قَوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 155][7]؛ تنبيهًا على ما يفيضُ عليه منَ الخيرات الإلهيّة[8]. ومعنى الإفاضة قد يكون مأخوذًا منَ البركَة، وهي: أن يَدُرَّ لَبَنُ النّاقَةِ وهي بارِكَةٌ فتُقامَ، فتُحلَب[9]؛ أي: يفيض. وقد يُلمحُ في أصل معناها الاجتماعُ المصحوب بالزّيادة. والبَرَكاتُ: السَّعادَة، ومنه ما قيل في التَّشَهُّد: (السَّلام عليك أيّها النَّبيّ ورحمةُ اللّه وبركاتُه)؛ لأنّ مَن أسعَدَه اللّهُ بما أسعدَ بِهِ النّبيَّ ﷺ؛ فقد نالَ السَّعادَةَ المُبارَكَةَ الدّائمةَ[10]، أو المعنى: أثبِتْ له وأدِمْ ما أعطيته منَ التّشريف والكرامة[11]. وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه لفظُ (تبارك) فهو تنبيهٌ على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكرِ (تبارك)[12].

(1) ابن سيده، المحكم: (وقي).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).
(3) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(6) الفراهيديّ، العين: (برك).
(7) الأزهريّ، التّهذيب: (برك).
(8) الرّاغب، المفردات: (برك).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (برك).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(12) الرّاغب، المفردات: (برك).

فالبركةُ إذًا: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشّيء واستمرارُه مع لطفٍ، والخيرُ الإلهيُّ يصدرُ من حيث لا يُحسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحصَى، ولا يُحصَر، وبه فُسِّرَتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة[1]، مع احتمالِها جماعَ ما وردَ فيها من معانٍ، وفاقَ مفهومِ عدم إحصاء خيراتِه وحصرها.

3) ﴿يَكۡسِبُونَ﴾: مِن (كسب) الكافُ والسّينُ والباءُ أصلٌ صَحيحٌ، وهو يدُلُّ على ابتغاءٍ، وطَلَبٍ، وإصابَةٍ، فالكَسبُ مِن ذلك[2]، وهو: الطّلبُ، والسّعيُ في طلب الرّزقِ والمعيشةِ[3].

فالكسب: ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المال، وقد يُستعمَلُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنّه يجلبُ منفعةً، ثمّ استُجلِبَ به مضرّةٌ، ويُقالُ فيما أخذه لنفسه، ولغيره، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولين، فيُقال: كسبتُ فلانًا كذا[4]. وهو أيضًا: جَمعُ الشّيءِ وتحصيلُه شيئًا بعد شيءٍ بجُهدٍ ما آخذًا من حيث كان: كما تأخذُ الجوارحُ فرائسَها مرّةً بعد أخرى، وكما يُجمَعُ المالُ من مظانّه شيئًا بعد شيء. ومنه: الكَسب: طَلَبُ الرّزق، وتحصيلُه[5]، أو العملُ على الحصول على مرغوبٍ فيه، ومنه: الاستمتاع بشيءٍ محبوبٍ للنّفس تلذّذًا ومتعةً. ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة ما ارتكبوه من ذنوبٍ، وما اقترفوه من آثامٍ.

المعنى الإِجْمالِيُّ:

الـتّرغـيـبُ بالإيمان إنـذارٌ لـلـمـعـرضـين، وبـشـارةٌ للمؤمنين

يذكرُ اللّهُ لو أنَّ كفّارَ مكّةَ وغيرَهم من أهل القرى وما حولها، أو القرى الّتي أُرسِلَت إليها الرّسلُ، آمنوا باللّه، وصدّقوا رسلَه، وانقادوا لما أمرَ، وأدَّوا ما أوجبَ اللّهُ عليهم، واجتنبوا ما حرّم، وأعرضوا عمّا

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(3) الفراهيديّ، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(4) الرّاغب، المفردات، والجرجانيّ، التّعريفات: (كسب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).

نهى طاعةً وامتثالًا، لأغدقنا عليهم عطايا السّماءِ غيثًا، ورحماتٍ لم تُعهد، وأوسعنا عليهم هباتِ الأرض رزقًا، ومنافعَ، ومديدَ خيراتٍ لم تُشهد فضلًا منه سبحانَه، ونعمةً تتوالى وتُنمَى وتمتدُّ وتثبتُ. فيوضاتُ خالقٍ عزَّ وصفُ عطائهِ، واستحال إدراكُ آلائه. ومصداقُ ذلك إطلاقُ فعلِ الفتحِ، وتوسيعُ جهته بمُطلَقِ الأرض والسّماء من غير تقييدٍ، لكنّهم أعرضوا مُكذِّبين، وصدّوا معاندين، وتمادَوا في ضلالهم المبين، فحلَّ عليهم شديدُ العقاب استحقاقًا، وأثرًا لازمًا، لما ارتكبوا منَ المعاصي، وسوءِ الفعالِ، وحصائدِ الذّنوبِ، ومرتكباتِ الآثامِ الّتي أورثتهم إعراضًا عنِ الهداية، وإصرارًا على الكفر.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ الإيمانَ قرينُ التّقوى، ومُلازمُها، وهو مُتمِّمُ القبول، وسبيلُ القربِ، وتحصُّلِ ألطافِ الرّبِّ، وفيه ترغيبٌ للّذين آمنوا بالنّبيّ محمَّد ﷺ، فهما سببُ السّعادةِ في الدّارين، وأنّ الكفّارَ قد يُبسَطُ لهم الرّزقُ، وتُمَدُّ لهم أسبابُ الخير، وأبوابُ النّعمِ على سبيل الاستدراج[1]، وفي الآية دليلٌ على أنَّ استنزالَ الرزقِ يكون بالطّاعة، وحرمانَهُ بالمعصية والإثم، ومصداقُه حديث رسول الله ﷺ: «إنّ العبدَ ليُحرمُ الرّزقَ بذنبٍ يصيبهُ»[2]، فحرمانُ البركات، وإنزالُ العقوبات هو مُؤدَّى دنيءِ فعالهم؛ كذبًا وكفرًا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

جملة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: 94]، أي: ما أرسلنا نبيًّا في قريةٍ، فكذَّبه أهلُها إلّا نبّهناهم، واستدرجناهم، ثمّ

ما أُخذوا بالعذاب إلّا بكسب أيديهم، وسوء فعالهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط، ص: 133.

(2) أحمد بن حنبل، المسند: 5/277، الأحاديث رقم: (280 - 282)، والكَرَجيّ القصّاب، نكت القرآن الدّالّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، ص: 397.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/281.

عاقبناهم[1]، أو: هي اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوف عليه جيءَ به للمسارعة إلى بيان أنّ الأخذَ المذكورَ إنّما هو بما كسبَت أيديهم[2].

سرُّ التّعبير بـ ﴿وَلَوۡ﴾:

التّكذيبُ شأنُهم، والجحودُ ديدنُهم

لمّا كان الكلامُ بما أفهمَته (لو) حرف الشّرط غير الجازم في قوّةِ أنّهم لم يؤمنوا، من حيث إنّها تفيدُ الامتناعَ؛ عبّر - في تناسقٍ بين الألفاظ وتناسبٍ - بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾، أي: كان التّكذيبُ ديدنَهم وشأنَهم؛ فلذلك لم يصدّقوا رسلَنا في شيءٍ[3].

دلالةُ اقترانِ الشّرط بـ ﴿أَنَّ﴾:

نزولُ البركاتِ قيدُ الإيمان، لو آمنوا قبلُ لفُتِحَت عليهم أبوابُ البركات

وشرط (لو) الامتناعيّة يحصلُ في الزّمن الماضي، ولمّا جاءَت جملةُ ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ مُقترِنًا شرطُها بحرف (أنَّ) المفيد للتّأكيد والمصدريّة، وكان خبرُ (أنَّ) فعلًا ماضيًا، توافر معنى المضيّ الدّالِّ على التّحقّقِ في جملة الشّرط، والمعنى: لو حصل إيمانُهم فيما مضى؛ لفتحنا عليهم بركاتٍ[4].

نكتةُ إضافةِ ﴿أَهۡلَ﴾ إلى ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

الإضافةُ تشملُ عمومَ المُخبَرِ عنهم، وتعريضٌ بإنذار الكفرة، وبشارة المؤمنين

إضافة ﴿أَهۡلَ﴾ إلى ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ تفيدُ عمومَه بقدر ما أُضيفَ هو إليه؛ ليشملَ جميعَ سكان القرى الّتي أُرسِلَ فيها الأنبياءُ، وليدلَّ على أنّهم كانوا مُتّحدين في الكفر والطّغيان، وهو تصريحٌ بما أفهمَهُ الإيجازُ في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: 94] بحذف الأهلِ، وتعريضٌ بإنذار الّذين كذّبوا محمّدًا ﷺ من أهل مكّةَ، وتعريضٌ ببشارة أهل القرى الّذين يؤمنون كأهل المدينة[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/20.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/336.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/20 - 21.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.

دلالةُ تعريفِ الألف واللّام:

عـهـديّـةُ الـلّامِ تـعـنـي الـقـرى السّابقةَ المُهْلَكةَ، أو المُـنـذَرةَ من مكّةَ وما حولها

الألفُ واللّامُ في القرى عهديّةٌ إشارةً إلى (القُرَى) المُهلَكةِ الّتي دلّ عليها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: 94][1]، فهي للعهد الذِّكريّ، والقرية وإن كانت مفردةً لكنّها في سياق النّفي، فتُفيد معنى الجمعِ.

ويجوزُ أن تكون اللّامُ للعهد الخارجيِّ إشارةً إلى مكّةَ وما حولها، ووجهُهُ أنَّه تعالى لمّا أخبرَ عنِ القرى الهالكةِ بتكذيب الرّسلِ، وأنّهم لو آمنوا؛ سلموا وغنموا، انتقل إلى إنذار أهلِ مكّةَ وما حولها ممّا وقع بالأمم والقرى السّابقة[2].

جنسيّةُ الـلّامِ تـعـنـي عـمـومَ القرى، من غير تقييد

ويجوزُ أن تكونَ الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ للجنس[3]، والمعنى: ولو أنَّ أهلَ القرى أينما كانوا، وفي أيِّ بلاد سكنوا، آمنوا واتّقَوا؛ لصَبَّ اللّهُ عليهم البركاتِ صَبًّا، ولكن كذّبوا بالآيات والأنبياء، ولم يؤمنوا، ولا اتّقَوا، فأخذهم اللّهُ بالعذاب بسببِ ما كانوا يكسبون منَ الذّنوبِ الموجبةِ لعذابهم[4].

سرُّ العطفِ في الآية:

تقوى الله تعالى ظـاهـرًا وباطنًا قـرينُ الإيـمـان، وبهما تُستنزلُ البركات

عطْفُ فعلِ التّقوى على فعل الإيمان بواو التّشريك في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ دليلُ اقتران الفعلين، وتلازمهما، فالإيمانُ يخصُّ الباطنَ، والتّقوى تخصُّ الظّاهرَ، وهما - معًا - سبيلُ فتح اللّه أبوابَ الخير لهم من كلِّ وجهٍ، وإنزالِ البركات، ولا يكفي الإيمانُ وحدَه.

دلالةُ الاستعارة في لفظ الفتح:

في (فتحنا) استعارةٌ تبعيّةٌ مُستلزِمَةٌ للتّمثيليّة؛ فقد شبّه تيسيرَ

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/588، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/10.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/133.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/259.

اقترانُ الإيمان بالتّقوى فتحٌ عميمٌ، يسيرُ التّناولِ، سهلُ الوصول إلى المبتغى

البركات بفتح الأبواب، وصرَّح بالمشبّه به (الفتح)، وحذف المشبّه (اليُسر) مع وجود قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الحقيقيّ وهو (البركات)، ووجهُ الشّبه بين المستعار منه، والمستعار له سهولةُ التّناول، ويجوزُ أن يكونَ هناك مجازٌ مُرسَلٌ، والعلاقةُ (لزومُ التّيسير)[1].

وقد يكون الفتحُ استعارةً للتّمكين، فتكون تعديةُ فعلِ الفتح إلى البركات استعارةً مكنيّةً بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه، أو تشبيه إنزالِ الخيراتِ بخروج النّاسِ من أبوابها أفواجًا[2]، وعمادُ هذه الاستعاراتِ تشبيهُ عطاءِ اللّهِ الكثيرِ، ويُسْرِ تَناولِهِ بفتح الأبواب.

توجيهُ قراءةِ التّضعيف:

مِن كرم المنّانِ المبالغةُ في الفتح

قرأ الجمهورُ ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ بالتّخفيف، وقرأه ابنُ عامر وأبو جعفر من بعض طُرقه بتشديد التّاء (لفَتَّحنا)[3]؛ للمبالغة في الفتح بكثرتِه، وزيادتِه، ومضاعفتِه[4].

سرُّ إطلاق فعلِ الفتح دون قيد:

نفيُ تقييدِ الفتح بظرفٍ سعةٌ في المنّةِ تناسبُ فعلَ الإيمان والتّقوى

في إطلاق فعلِ الفتحِ في قوله: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وتوسيعِ جهته، وإعمامِه بمطلق السّماء والأرض مُصدَّرًا بـ ﴿مِّنَ﴾ الدّالّة على ابتداء الغاية المكانيّة؛ بيان لاشتمال كلِّ موضع، وجانب، من دون تقييد، كما قُيِّدَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: 66] مع تضمّنها المبالغة في شرحِ السَّعَةِ والخَصب، إلّا أنّه مقيّدٌ بالظّرفين، ولذلك فُسّر ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [المائدة: 66] بنزول المطر،

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/330، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/158، والآلوسي، روح المعاني: 9/10.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2906.

(3) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 257، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/258.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/230 - 9/21.

و﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: 66] بخروج النَّبات[1]، فامتدادُ مصدرِ الفتحِ دون قيدٍ سَعةٌ في الفضل، وكرمٌ في العطاء، يناسبان اقترانَ فعلي الإيمان والتّقوى وعلوّ شأنهما.

الفتحُ مآلٌ قرينٌ لفعلي الإيمان والتّقوى

نكتةُ توكيد الفتح:

اللّامُ في ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ جوابُ لو الشّرطيّة أفادَت تأكيدَ الفتح بوصفه مُؤدًّى لازمًا لفعلي الإيمانِ والتّقوى، مصاحبًا لاجتماعهما في المرء، أمارةً على علوّ منزلتِه، وارتفاع شأنِه، علوًّا يناسب الإغداقَ بالبركات دون قيد؛ فتحًا مثوبةً من لدن عزيزٍ كريمٍ.

الإنـزالُ من عَلٍ فيضُ إحسانٍ، وهبةُ منّانٍ

توجيهُ تعدّي الفتح بـ(على):

(على) في قوله: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾؛ للاستعلاء، وأفاد تعدّي فعل الفتحِ بها معنى الإنزالِ والفيضِ، والعطاءِ الواسعِ، وسعةِ الشّيءِ المُنَزَّلِ، وقوّته؛ فاللهُ تعالى عالٍ على عباده، يفتحُ عليهم ما يشاءُ، من أين شاء[2]، وقد يتعدّى فعلُ الفتح باللّام ليفيدَ الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: 1]، وبالباء ليفيدَ معنى السّببيّة والمصاحبة، كقوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١﴾ [القمر: 11][3].

تكثيرُ البركات مبالغةٌ في الجزاء

فائدةُ تنكيرِ البركاتِ وجمعِها:

وأفاد ذلك الإتيانُ بالبركات مجموعةً بصيغة التّنكير الدّالّ على الكثرةِ، والعمومِ، وعدمِ التّعيين[4]، وبِمَبنَى اسم المصدر؛ لتوكيد المبالغة.

من هباتِ الرّحمن تنوّعُ أصناف البركات

والمقصودُ منَ الجمع تعدّدُها، باعتبار تعدّدِ أصنافِ الأشياءِ المباركة، وجماعُ معناها هو الخيرُ الصّالحُ الّذي لا تبعةَ عليه في

(1) ابن عادل، اللّباب: 7/435.
(2) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 172 - 173.
(3) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 172.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.

الآخرة، فهو أحسنُ أحوالِ النّعمةِ، ولذلك عبّرَ في جانب المغضوبِ عليهم المُستدرَجين بلفظ الحسنة بصيغة الإفرادِ في قوله: ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾، وفي جانب المؤمنين بالبركات مجموعةً[1].

بلاغةُ الاستثناءِ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

الإهلاكُ بسبب ما كانوا يكسبونه منَ الآثام علّةُ حَجبِ البَركاتِ عنهم

قولُه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ استثناء نقيض المقدَّم، وهو شرطُ (لو)، فإنّ التّكذيبَ هو عدمُ الإيمان، وجملةُ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ مُتسبِّبةٌ على جملة: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾، وهو مثلُ نتيجةِ القياسِ؛ لأنّه مساوٍ نقيض التّالي؛ لأنّ أخْذَهم بسببِ ما كانوا يكسبونه منَ الآثام والذّنوب فيه عدمُ فتحِ البركاتِ عليهم.

إيثارُ فعلِ الأخذ:

الاستئصالُ عذابٌ يناسبُ التّكذيبَ، وجحودَ العطاء

المرادُ بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أخْذُ الاستئصالِ، والإهلاكِ الواقعِ على وجه التّحقيقِ بصيغة الماضي، غيرَ ممهلين إيّاهم جزاءَ مقابلتهم واسعَ عطائنا بالتّكذيب. فالفاء للتّرتيب والتّعقيب والسّببيّة من غير مهلةٍ، والباء للسّببيّة، و(ما) موصولٌ مُبهمٌ يناسبُ مديدَ كذبِهم.

علّةُ التّعبيرِ عنِ الأخذ بصيغة التّعظيم:

شدّةُ العذابِ بحسب عِظَمِ الذّنب، وسوءِ الكسب

لمّا كان التّكذيبُ موضعَ الجلافة والجمود الّذي هو سببٌ لعدم النَّظر في الدّليل، كان الجزاءُ شدّةَ العذابِ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ بما لنا منَ العظمة مُؤدًّى بضمير التّعظيم (نا)؛ بسبب ما ﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، أي: بجبلّاتهم الخبيثة منَ الأعمال المناسبة لها[2].

توجيهُ اقترانِ الماضي بالمضارع:

كسبُهم كفرًا وعصيانًا حتميٌّ، مارسوه ودأبوا عليه

و﴿كَانُواْ﴾ في قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ تدلُّ على المضي والانقضاء، أي: بسبب ما كسبوه منَ الكفر والعصيان[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21 - 22.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/22.

واسْتِمْرارِهِمْ وتَجَدُّدِهِمْ على ذلك في الحال والاستقبال، بدلالة مَبنَى المضارعة ﴿يَكۡسِبُونَ﴾.

بلاغةُ الالتفاتِ في الفاصلة:

الالْتِفاتُ من أساليب القرآنِ البلاغيّةِ الّتي تدلُّ على روعة البيانِ وتنوّعِ المعاني، ففي الالتفات منَ المُضيِّ إلى المضارع تثبيتٌ لحالهم الرّاسخِ فيه جحودُهم، المُتحقّقِ مَعَهُ سوءُ أفعالِهم، وليناسبَ ما سُيتبعُ من تحذيراتٍ: بياتًا، وضحى، وتدبيرًا.

كسبُهم الآثام راسخٌ حذّرهم اللهُ منه مرارًا، وتَكرارًا

بديعُ التّقابل في الآية:

ومن جميل التّقابلِ اللّفظيّ والدّلاليّ في الآية الكريمة ترتيبُه تعالى على الإيمان والتّقوى فتْحَ البركاتِ، ورتَّب على التّكذيبِ وحدَهُ، وهو المقابلُ للإيمان، الهلاكَ، ولم يذكر مقابلَ التّقوى؛ لأنّ التّكذيبَ لم ينفعْ معهُ الخيرُ، بخلاف الإيمانِ فإنّه ينفعُ، وإن لم يكن معه فعلُ الطّاعات[1]. فالإيمانُ والكذبُ تضادٌّ إيجابٍ يُعوَّلُ عليه في علم البديع في توكيدِ المعاني وتقريرِها وتثبيتِها في النّفوس، زيادةً على تزيين اللّفظِ، وتحسين النّظم، وكشف القيمةِ الجماليّةِ الّتي تسهمُ في تنشيط فعلِ التّأويلِ، وتكثيف النّظرِ الذّهنيّ للوقوف على حدود المعنى العميقِ للعبارات، فبضدِّها تتميّزُ الأشياءُ.

لا نفعَ للخير مع الكذب، بخلاف الإيمان فإنّه نفعٌ مُطلَقٌ

براعةُ تناسبِ الفواصل:

ومن بديع تناسب فواصل الآي: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾، ﴿نَآئِمُونَ﴾، ﴿يَلۡعَبُونَ﴾، ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾، تصويرُ المعنى: وكأنّ مِلاكَ كسبهم نومُ غفلة، ولعبٌ ولهوٌ؛ فما يُتوقّعُ أن تكونَ النّتيجةُ غيرَ أنّهم لا يسمعون؟

مَن سَدَرَ في الغفلة واللّهو لا يسمعُ التّنبيه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧﴾

[الأعراف: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنكارُ الله عليهم في جعلِهِمُ السّرّاءَ والضّرّاءَ سببًا للأمن من مَكرِهِ

لَمّا كانوا قد ضَلّوا ضلالًا بعيدًا في غَلَطِهِم في جَعلِهِمُ السَّرّاءَ والضَّرّاءَ سبَبًا للأمنِ مِن مَكرِ اللّه، قالَ مُنكِرًا عليهم أمنَهم، عاطِفًا لَهُ على ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ لأنَّهُ سببُ الغَلَطِ، وهو سَبَبُ الأمنِ، فقالَ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾[1]، فتجدُ فعلَ الإنكارِ فيهم، والجحودِ، وكفرانِ النّعمة ذَنبًا عَظيمًا يؤدّي إلى الخسران، وذلك يستلزمُ التّذكيرَ، ومزيدَ الوعظ والتّنبيه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَأَمِنَ﴾: معنى التّصديقِ أصل في (الإيمان)، ونشيرُ هنا إلى معانٍ أُخر مشتقّةٍ من دلالة أصلٍ هي: الأمانةُ الّتي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها: سكونُ القلب[2]، وسكونُ القلب نقيضُ الخوف؛ ولذلك قيل: الأمنُ ضدُّ الخوف[3]، فأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النّفسِ وزوالُ الخوفِ بسكون القلب، ويأتي غيرَ متعدٍّ، ومعناه: صار ذا أمنٍ[4]، وهو معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

2) ﴿بَيَٰتٗا﴾: (بَيَتَ) الباء والياء والتّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو المأوى والمآبُ ومَجمَعُ الشّملِ[5]. وتجنحُ هذه المعاني إلى الليل بوصفه مألَفَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/12.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(3) الفراهيديّ، العين: (أمن).
(4) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بيت).

المآبِ، والتّجمعِ، والإيواء. وقد سُمّي البيتُ بَيْتًا؛ لأنّه يُباتُ فيهِ[1]، فأصلُ البيت: مأوى الإنسانِ في اللّيل[2]، ومن هنا ارتبطَ لفظُ (البيات) باللّيل، فالبيتوتة: الدُّخولُ في اللّيل، وبيّتوا هذا العَمَلَ بَياتًا، أي: عملوه ليلًا، تقول: بِتُّ أصنَعُ كذا؛ إذا كان باللّيل، وظَلِلتُ أصنع كذا؛ إذا كان بالنَّهار، وأتاهُم الأمرُ بَياتًا، أي: أتاهم في جَوفِ اللّيلِ[3]، وباتَ الرّجلُ؛ إذا سَهِرَ اللّيلَ كُلَّه في طاعَةٍ أو مَعصيةٍ، وكلُّ ما فُكِّر فيهِ أو خيضَ فيه بِلَيل؛ فقد بُيِّتَ، ويُقال: هذا أمرٌ دُبِّر بلَيل وبُيِّتَ بلَيل بِمَعنى واحِد. ومنه قَولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النّساء: 108][4]، فالبياتُ والتّبيُّتُ: قصدُ العدوِّ ليلًا[5]، وقصدُ العذاب ليلًا هو معنى البيات في الآية الكريمة.

3) ﴿نَآئِمُونَ﴾: (نوم) النّون والواو والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمودٍ، وسكونِ حركةٍ[6]، ويُقال: نام الرّجلُ يَنام نَومًا فهو نائمٌ؛ إذا رَقَد[7]. وكُلُّ شَيء سَكن فقد نام[8]، واستَنامَ، أي: سكن، واطمأنّ، ونامَتِ السّوقُ: كَسَدت[9]. وأُطلِقَ النّوم: على النُّعاس والاضطجاع[10]، فالنّوم: هو استرخاءُ أعصاب الدّماغ برطوبات البخار الصّاعد إليه، وقيل: هو أن يتوفّى اللّهُ النّفسَ من غير موتٍ، وقيل: النّوم موتٌ خفيفٌ، والموتُ نومٌ ثقيلٌ[11]، وكلُّ شيءٍ قد سكن فقد نام ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ [النّبأ: 9]، وليس في القرآن منَ التّركيب إلّا النّومُ بمعناه المعروف[12]، وبه تُفسَّرُ اللّفظةُ في الآية الكريمة.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

أيظنُّ أهلُ القُرى أنّهم في منجاةٍ ومأمنٍ من عذاب اللّه؟ وفي هذا استنكارٌ، وتعجيبٌ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بيت).
(2) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(3) الفراهيديّ، العين: (بيت).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بيت).
(5) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوم).
(7) الفراهيديّ، العين: (نوم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نوم).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (نوم).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نوم).
(11) الرّاغب، المفردات: (نوم).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نوم).

التّحذيرُ منَ الغفلة، والرُّكون إلى الدّعة، والإضرارِ على الإعراض

بحالهم من أمْنِهِمُ العقابَ، وتقريعٌ لهم، وتوبيخٌ على اطمئنانهم منَ العذاب، وعَدَم اعتبارهم بما حلَّ بمَن قبلهم، وجَهْلِهِمْ، والإخْلادِ إلى الدَّعةِ، والرّاحةِ، والاستغراقِ في النّوم، من غير وازعِ خيرٍ يؤزُّ، أو خشيةٍ تُخبِتُ، أو نفسٍ لوّامةٍ توقظُ منَ الغفلة.

وترشدُ هذه الآيةُ الكريمةُ والّتي تعقبها: إلى حرمة الغفلةِ، والحذرِ منَ السُّدورِ في الغيِّ، والانغماسِ في اللّهو، وتهدي إلى لزوم الذّكر صباحَ مساءَ، والانسياقِ إلى عزائم الطّاعاتِ، وصَفوِ النَّفحاتِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بالاستفهام:

أنكر عليهم جنوحَهم إلى الدَّعَة والغفلة برغم سوء مرتكباتهم

أعادَ تعالى التّهديدَ بعذاب الاستئصالِ، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، وافتُتِحَ بالاستفهام اعتناءً؛ لأنّ له صدرَ الكلام، وهو استفهامٌ بمعنى الإنكارِ عليهم، والوعيدِ[1]، وتذكيرِهم، وتنبيههم، فهو استفهامُ تنديدٍ بفعلتهم، فهم غيرُ آمنين، لكن حالهم توهم أنّهم أمِنوا، فاللّه تعالى ينبّههم إلى أنّه أمانُ الغافل الّذي لا يعرفُ أنّه يعاندُ اللّه[2]، أو لإنكار الواقع واستقباحه، أو لإنكار الوقوعِ ونفيه، أو بمعنى التّوبيخ، ومدارُه أمنُ كلِّ طائفةٍ ما أتاهم منَ البأس لا أمنُ مجموعِ الأمم، ويُظهرُ هذا المعنى التّصريحَ بالمظهر ﴿أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ بدلَ إضماره[3].

تكذيبُهم النّبيَّ أمارةُ الغرور، ومدعاةٌ للعجب

(أوَ) بمعنى التّعجيبِ المترتِّبِ على حكاية تكذيبهم وأخذهم، واستفهامُ التّعجيبِ هو من غرورهم وأمنهم غضبَ القادرِ العليمِ[4]، بتصرّفٍ ليس من شأنه أن يقعَ منَ العاقل[5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2908.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/11.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/432.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/25.

يتعدّى الإنكارُ القومَ الجاحدين

وقد يكون الاستفهامُ على جهة التّوقيفِ والتّوبيخِ والإنكارِ والوعيدِ للكافرين المعاصرين للرّسول ﷺ أن يَنزِلَ بهم مثلُ ما نَزَلَ بأولئك[1].

دلالةُ حرفِ الفاء:

ذكــرُ حـالـهـم مـسـتـتـبـعٌ لا محالةَ العجب منهم

(الفاء) في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ عاطفةٌ أفادَت التّعقيبَ مع السّبب، والتّرتّبَ الذّكريَّ، فإنّه لمّا ذكرَ من أحوالِ جميعهم ما هو مثارُ التَّعجيبِ من حالهم أعقبَه بما يدلُّ عليه معطوفًا بفاء التّرتّبِ، ومحلُّ التّعجيب هو تواطؤُهم على هذا الغرور[2].

وتحتملُ الفاءُ العطفَ على محذوفٍ تقديره على الوجه الأوّل: أغرَّ أهلَ تلك القرى ما كانوا فيه من نعمةٍ حين كذّبوا الرُّسلَ، فأمنوا أن يأتيهم بأسُنا؟ إلخ، وعلى الثّاني: أَجَهِلَ أهلُ مكّةَ وغيرها منَ القرى الّتي بلغَتها الدّعوةُ - ومثلها مَنْ ستبلغُها - ما نزلَ بمَن قبلهم، وغرّهم ما هم فيه من نعمةٍ، فأمنوا أن يأتيهم عذابُنا وقتَ بياتهم - أو إتيان بيات - وهو الهجومُ على العدوّ ليلًا، وهو بائت؟[3].

وتحتملُ الفاء أيضًا الاستئنافيّة؛ ذلك أنَّ ألفَ الاستفهام دخلَت على فاء العطفِ مع منافاة العطفِ للاستئناف، فهي مُقحَمةٌ؛ لتقرير معنى الإنكارِ أو التَّقرير، فتدخل بين الشّرط والجزاء والمبتدأ والخبر والحال وعاملها[4]. وتوسّطُ الهمزة بين الكلامين المتعاطفين لإفادة إنكارِ جمعِ الثّاني مع الأوّل، أو وقوعه بعده متراخيًا، أو غيرَ متراخٍ[5]، ووجهُ العطف أقربُ.

توجيهُ الاعتراضِ في الآية:

المــرادُ عـمـومُ القرى، أو مكّةُ وما حولها

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ وقع اعتراضًا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/432.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/25.
(4) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/478.
(5) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/430.

بين المعطوف والمعطوف عليه[1]، فيشمل المعنى عمومَ القُرى، وقيل: المرادُ بالقُرى: مكّةُ وما حولها؛ لأنّهم كذّبوا النّبيَّ محمّدًا ﷺ،[2] فيكون العطفُ على الآيةِ الأقربِ في هذه الحالةِ أنسَبَ[3].

ويترجَّحُ العطفُ على الأوّل، وهو قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: 91]؛ لأنّ مَساقَ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ مساقُ التّكرير والتّأكيد، فهو إلى جملة الاعتراضِ أقربُ، بخلاف ما قبله، فإنّه لبيانِ حالِ القرى وقصّةِ هلاكِها قَصدًا، فالعطفُ عليه أنسبُ، وإن كان هذا أقربَ[4].

إيثارُ التّعبيرِ بلفظ ﴿بَيَٰتًا﴾:

من أشدّ العذابِ الـواقـع وقت الغفلة والمأمن

و﴿بَيَٰتًا﴾ نصب على الظّرف بتقدير مضاف؛ أي: وقت مبيتهم باللّيل، ويحتملُ أن يكونَ هذا في موضع الحال[5]، وذلك وقتُ الغفلةِ والنّوم، فمجيءُ العذاب في ذلك الوقت، وهو وقتُ الرّاحةِ والاجتماع، في غاية الصّعوبة؛ لكونه أتى وقتَ المأمنِ[6]، ويجوزُ أن يكونَ مصدرَ بَيّتَ، أو باتَ، ونصبه على أنّه مفعولٌ مُطلَقٌ لـ ﴿يَأۡتِيَهُم﴾ مُبيِّنًا لنوعه، فمرادُهُ التّوكيدُ.

بلاغةُ حاليّةِ الفاصلة:

بـيـانُ حالـهـم شـدّةُ الغفلة، والـرّكـونُ إلى الـدّعـة، وكـونُ أخذِهم على غِرَّة

جملة: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ حالٌ من ضميرهم البارز أو المستتر في ﴿بَيَٰتًا﴾؛ لتأويله بالصّفة كما سُمِعَت، وهو حالٌ متداخلةٌ حينئذٍ (المفرد، والجملة)، أو أمن أهل القرى إنكارًا بعد إنكارٍ للمبالغة في التّوبيخ والتّشديد، ولم يقصدِ التّرتيبَ بينهما، فلذا لم يُؤتَ بالفاء[7]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/253.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/12.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/430.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/432.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/12، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/430 - 431.

فقوله: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ حالٌ مُبيِّنةٌ لغاية الغفلةِ وكونِ الأخذِ على غرّةٍ، كما قال فيمَن عُذِّبوا: فأخذناهم بغتةً[1].

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

في الاستعارة بيانٌ لشدّة العذاب، وعِظَمِ العقاب

في ألفاظ (البأس، والبيات، والإتيان) استعارةٌ تحريرُها في الآتي: إذا كان المُرادُ منَ البأس الاستعارةَ لشدّة الحَربِ، كما أنّ المُرادَ منَ البيات حالةٌ من حال الحَربِ، هي أشدُّ على المغزوّ، فكان ترشيحًا للاستعارة التّمثيليّة[2].

واستُعيرَ الإتيانُ لحدوث الشَّيءِ وحصولِه بعد أن لم يكن؛ تشبيهًا لحلول الشّيءِ بوصول القادم من مكانٍ إلى مكانٍ بتنقّل خطواته[3]؛ تنقُّلًا يزيلُ معه العوائقَ، وهو معنى يتضمّنُ الفجأةَ، والمباغتةَ بشديد.

علّةُ التّعبيرِ عنِ الإتيان بالمضارع:

التّعبيرُ عنِ الحدث وكأنّه مُشاهَدٌ فيه تفكُّرٌ وعِظةٌ واستغرابٌ وتعجّبٌ من كفر أهل القرى

جاء فعلُ الإتيانِ بصيغة المضارع؛ لأنّ المرادَ حكايةُ أمنِهم الّذي مضى من إتيان بأسِ اللّه في مستقبل ذلك الوقت[4]، وفيه استغرابٌ وتعجُّبٌ من كفر أهلِ القرى رغم مشاهدتِهم لآيات اللّهِ وبعثةِ رسولِه.

بلاغةُ الإطنابِ في الآيات:

مواطنُ التّنبيهِ مظنّةُ التّكرار والتّوكيد

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ إطنابٌ، غرضُهُ الموعظةُ من خلال توكيد المعنى وتثبيته في النّفس[5].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/25.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21 - 22.
(5) المراغيّ، علوم البلاغة، ص: 201.

﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾

[الأعراف: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ حلولِ العذابِ عليهم وقتَ النّشاط والحركة

لَمّا كانَ رُبَّما قالَ جاهِلٌ: لَو جاءَهم، وهم أيقاظٌ، لَأمكَنَ أن يُدافِعوا؛ قالَ: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾[1]، وفيه تأكيدُ الإنذارِ في الآية السّابقة بالتّكرارِ اللّفظيِّ؛ لثني التَّعجيب والاستنكار، والإحاطة بصوره ترهيبًا وتخويفًا.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ضُحٗى﴾: (ضحى) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على بروز الشّيءِ، وهو الوقتُ البارزُ المنكشفُ[2]. ومنه: أضحَى الشَّيءَ: أظهرَه، وأبداه[3]. والضَّحوُ: ارتفاعُ النّهار. والضُّحى: فويق ذلك. والضّحاء - ممدود - إذا امتدَّ النّهار[4]، وقيل: الضّحى: حين تطلُعُ الشّمس، وتشرقُ، فيصفو ضوؤُها، وقيل: هو إذا علتِ الشّمسُ إلى رُبع السّماء فما بعده[5]. وقيل: هي انبساطُ الشّمس وامتدادُ النّهار، وسمّي الوقتُ به[6].

وخلاصة ما قيل في الضّحى: إنَّها انكشافُ الشّمس وانبساطُ الضّوءِ انبساطًا شاملًا بلا ساتر، والّذي جاء في القرآن الكريم من هذا التّركيب كلّه هو ضحى الشّمس الّذي ذُكِرَ، ووقتُه[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/13.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضحى).
(3) ابن سيده، المحكم: (ضحو).
(4) الفراهيديّ، العين: (ضحو).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ضحا).
(6) الرّاغب، المفردات: (ضحى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضحو - ضحى).

2) ﴿يَلۡعَبُونَ﴾: (لعب) كلمتان منهما تتفرَّعُ كلماتٌ؛ إحداهُما: اللّعِبُ المعروفُ، والأخرى اللُّعابُ: ما يسيلُ من فمِ الصّبيّ[1]. واللَّعِبُ ضدُّ الجِدِّ[2]. ولعب فلانٌ: إذا كان فعلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا[3]. وخلاصةُ معنى اللّعبِ: أنّه اضطرابٌ وتسيّبٌ في ما يصدرُ عنِ الشّيء بسبب تجمّعِ حيويّتِه أو نشاطِه، كلُعاب الصّبيِّ من غزارة حيويّة باطنه، وهو اضطرابٌ وعدمُ انضباط، ومنه أُخذَ اللَّعِبُ ضدّ الجِدّ، وهو تسيُّبٌ في الحركة، واضطرابٌ؛ أي: عدمُ استقامةٍ، أو عدمُ قصدٍ في الاتّجاه والتّصرّف، وهذا يؤكّدُ أنَّ في اللّعب معنى العبثيّة الّتي هي عدمُ القصد والجدوى، ومنه قيل: لكلِّ مَن عمل عملًا لا يجدي عليه نفعًا: إنّما أنت لاعبٌ[4].

المعنى الإجْماليِّ:

تقريرُ الاستنكار، وتكرارُ التّعجيب

الآية تأكيدٌ، وتعجيبٌ مصحوبٌ بالتّقريع من أن يَشغَلَكُم اللّهو عن عظامِ النّوازلِ، والأخذِ بحبال الهدايةِ، وأسبابِ الرّشادِ والدّرايةِ؛ استخفافًا واستهزاءً، فيأتيكم العذابُ وقت غفلتِكم، وانشغالِكم بِلَهْوِكُم مع ارتفاع ضوءِ الشّمسِ نهارًا.

وقد يكون المرادُ خوضَهم في كفرهم؛ لكونه لعبًا أيضًا يَضرُّ ولا ينفعُ[5]؛ إذ يُقال لكلّ مَن كان في شيءٍ لا يُجدي، أو في ضلالٍ: (إنّما أنت لاعبٌ)، فشرُّ قلوبِ الخلقِ هو القلبُ اللّاهي الغافلُ الجاحدُ لآلاء اللّه، المُكذِّبُ برسلهِ عليهم السلام[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعب).
(2) ابن سيده، المحكم: (لعب).
(3) الرّاغب، المفردات: (لعب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لعب).
(5) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 10/22.
(6) شيبة الحمد، تهذيب التّفسير وتجريد التّأويل: 5/242.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّكرارِ في الآية:

إرادةُ التّوبيخِ الشّديدِ، ودفعٌ لتوهُّمِ إمكانِ ردِّ العذابِ، وهم أيقاظٌ

تكرَّرَ لفظُ ﴿أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ تكرارًا لفظيًّا لما في ذلك منَ التّسميعِ والإبلاغِ والتّهديدِ والوعيدِ بالسّامع ما لا يكون في الضّمير لو جاء: (أو أمنوا)؛ فإنّه متى قصدَ التّفخيمَ والتّعظيمَ والتّهويلَ جيءَ بالاسم الظّاهرِ[1]، وفيه إنكارٌ بَعدَ إنكارٍ للمبالغة في التّوبيخ الشّديد، ولذلك لم يقُل: (أو ضحًى وهم يلعبون)[2]، كما قال في: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]، فالسّياقُ في تلك الآيات يناسبُ مقامَ التّفصيلِ؛ تفصيلِ القَصَص، ومضامينها، وسياقُ مُفتتحِ الأعراف الإجمالُ، ويناسبُ التّفصيلَ التّكرارُ بالتّوكيد اللّفظيّ.

وفيه دفعُ توهّمِ مَن يدّعي - جاهلًا - أنّ البأسَ لو جاءَهم، وهم أيقاظٌ؛ لأمكَنَ أن يدافعوا، فأكّدَ مُفصحًا عن إمكان اجتماعِ الوقتين أو انفرادِهما، فإنّه لا فرقَ عندَه في ذلك[3]، عَزَّ وَجَلَّ وتعالى عمّا يدَّعون.

مقامُ الوعيدِ يقتضي التّنبية بالإعادة

والمقامُ كذلك مقامُ تهديدٍ ووعيدٍ واستثارةٍ لمخاوف أهلِ القرى، فاقتضى هذا المقامُ إعادةَ ألفاظٍ كان يمكن فهمُ معناها بِدون إعادتها؛ لأنّ هذه الإعادةَ هي بمنزلةِ الدّقاتِ المتوالياتِ الّتي تثيرُ الانتباهَ بسبب مخالفتِها لما يقتضيه المألوفُ في الأسماع.

توجيهُ قراءةِ العطفِ بـ(أَوَ):

في العطف وجهُ إباحةٍ، أو تخييرٍ، أو إضرابٍ؛ بمعنى: استواءِ ضروبِ العذابِ

قرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ: ﴿أَوَأَمِنَ﴾ بفتح الواو وإظهار الهمزتين بإدخال ألف الاستفهام على حرف العطف، وقرأ ابنُ كثير ونافع وابن عامر: (أَوۡ أَمِنَ) بسكون الواو وإظهار الهمزتين على أنّه عطفٌ بـ(أو)، والّتي هي لأحد الشّيئين، المعنى: أَفَأَمِنوا هذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.

أو هذا، كما تقول: أجاءَ زيدٌ، أو عمرو، فيعمُّ الإباحةَ، كقوله تعالى مثلًا: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24]، والتّخيير كقولك: جالِسِ الحسنَ، أو جالِسِ ابنَ سيرين[1]، أو تكون (أو) للإضراب عمّا قبلها من غير إرادةِ إبطالِ الأوّلِ، والمعنى: استواء هذه الضّروبِ منَ العذاب، ويكون المعنى: أفأمنوا إحدى هذه العقوبات[2].

في الجمع بين القراءتين مُؤدَّى تعاقبِ إنكارين، وتعجيبٍ من أحد الحالين

والجَمعُ بين القراءتين يؤدّي معنى العطفِ مع الإباحة بعلاقةٍ تفسيريّةٍ تتضمّنُ إنكارًا بعدَ إنكار، فالعطفُ بسكون واو (أو) عطفٌ على التّعجيب؛ أي: هو تعجيبٌ من أحد الحالين، والمعنى: أأمنوا ذلك الإتيان أو هذا؟ وهو لا يمنعُ الجمعَ بين الأمنين؛ أي: إنْ أمنتم ضربًا منها لا تأمنوا الآخر، أمّا العطفُ بالواو مقدَّمةٌ عليه همزةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ فهو عطفُ استفهام ثانٍ بالواو المفيدة للجمع، فيكون كلا الاستفهامين مدخولًا لفاء التَّعقيب[3].

في عود الاستفهام قصدٌ إلى التّفخيم والتّعظيم والتّهويل

وأُعيدَ الاستفهامُ، وما يتعلَّقُ به لنكتةِ وضعِ المظهرِ موضعَ المُضمَرِ؛ إذ متى قصدَ التّفخيمَ والتّعظيمَ والتّهويلَ؛ جيءَ بالاسم الظّاهر، وفيه حمل وسطِ الكلامِ على ما قبلَه، وما بعدَه من حيث دخولُ همزةِ الاستفهامِ على الفاء لغَرَض المشاكلة، والمطابقة في اتّفاق اللّفظِ بدخول الهمزة على الكلّ، أو تكون الواو للتّقسيم؛ أي: تقسيم الاستفهام إلى استفهامين[4].

ولا شكَّ أنَّ تأديةَ معنيين فيه سَعَةٌ وقوّةٌ أكبرُ من تأدية معنًى واحدٍ؛ إذ في كليهما إعجازٌ قرآنيٌّ تنوعّتِ فيهِ الأساليبُ، واتّفقتِ المعاني.

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/433، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/253 - 254.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322.

(3) رضا، تفسير المنار: 9/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23، وفاتنة السّكنيّ، تفسير القرآن بالقراءات القرآنيّة العشر، ص: 249 - 250.

(4) رضا، تفسير المنار: 9/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23، وفاتنة السّكنيّ، تفسير القرآن بالقراءات القرآنيّة العشر، ص: 249 - 250.

سرُّ التّعبير باسم الفاعل، والفعل المضارع:

صبيانيّةُ العقولِ مظنّةُ الغفلةِ ودَوامِ اللّهو واللّعب

لمّا كان النّومُ شيئًا واحدًا يغمرُ الحواسَ، ويفضي إلى الاستقرار، عبَّر بالاسم الدّالّ على الثّبات فقال: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾، فهم من أهل النّومِ والغفلة، وهو وصفٌ مُلازمٌ لهم لدوامِهم عليه، ولمّا كانتِ اليقظةُ موجبةً للحركة؛ عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾؛ أي: يتجدَّدُ لعبُهم شيئًا فشيئًا في ذلك الوقتِ، وفيه تقريعٌ لهم على طريقة (الكناية) بنسبتِهم إلى أنّهم صبيانُ العُقولِ، لا التفاتَ لهم إلى غيرِ اللّعبِ[1].

فالاسمُ يقتضي الثّبوتَ؛ والنّائمُ ساكنٌ، والفعلُ يقتضي التّجدّدَ؛ واللّعبُ حركةٌ تتجدّدُ شيئًا فشيئًا[2].

جملةُ الفاصلة بين المجاز والاستعارة:

هؤلاء القوم بين لاهٍ لغفلته، أو مُشتغلٍ بما لا نفعَ فيه

يجوزُ في جملة: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أن يكون مجازًا مُرسَلًا؛ أي: يلهون من فرط الغفلة، ويحتملُ أن يكون هناك استعارةٌ؛ أي: يشتغِلون بما لا نفعَ فيه؛ كأنّهم يلعَبون[3].

بلاغةُ الطّباقِ في الآية:

لا يردُّ بأسَ اللهِ تعالى قومٌ نائمون أم صاحون، لاعبون أم جادّون

خصَّصَ الإتيانَ بزمني الضّحى والبيات على طريقة الطّباق دون غيرهما؛ تعبيرًا بالبيات عن زمن سكونِهم، وهم فيه في غاية الغفلةِ، وبالضّحى عن زمن اجتماعِهم فيه؛ لِأنَّهُ أوَّلُ ظهورِهم وبعدَه يتفرّقون في أشغالهم، أو هو الوقتُ الّذي يغلبُ على المرء فيه التّشاغُلُ باللّذّاتِ، أو التّشاغلُ بأمور الدّنيا، فهي لعبٌ ولهوٌ، أو التّشاغلُ بما لا ينفعُهم كأنّهم يلعبون، ويحتملُ خوضَهم في كفرهم؛ لأنّ ذلك كاللّعبِ في أنّه لا يضُرُّ ولا ينفَعُ[4]، فكلٌّ منَ الوقتين لم يقع في فكر أحدٍ منهم التّصويرُ إلى مدافعته[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74 - 75.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/237.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/12.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/237، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/8.

وقيَّد التّعجيبَ من أمنهم مجيءَ البأسِ بوقتي البيات والضّحى من بين سائر الأوقات، وبحالي النّوم واللّعب من بين سائر الأحوال؛ لأنّ الوقتين أجدرُ بأن يُحذرَ حلولُ العذابِ فيهما، لأنّهما وقتان للدّعة، فالبياتُ للنّوم بعدَ الفراغِ منَ الشُّغل، والضُّحى للعب قبل استقبالِ الشُّغلِ، فكان شأنُ أولي النُّهى المُعرِضين عن دعوة رسلِ الله ألّا يأمنوا عذابَه، بخاصّةٍ في هذين الوقتين والحالين[1].

وقتا البيات والضّحى، والنَّوم واللّعب مظنّةٌ للدَّعة، ولذا يجدُر الحَذَرُ فيهما

بلاغةُ التّعريض:

وفي هذا التّعجيب تعريضٌ بالمشركين المُكذِّبين للنّبيّ ﷺ أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالأمم الماضية، فكان ذكرُ وقتِ البيات، ووقتِ اللّعب، أشدَّ مناسبةً بالمعنى التّعريضيِّ؛ تهديدًا لهم بأن يصيبَهم العذابُ بأفظع أحواله؛ إذ يكون حلولُه بهم في ساعة دعتهم وساعة لهوهم نِكايةً بهم[2].

لا يأمنَّ مُكذِّبٌ بالنّبيّ محمّد ﷺ أن يحلَّ به ما حلَّ بأولئك الكافرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾

[الأعراف: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا كانَ ضَلالُهم - الَّذي نَسَبوا فيه الأمرَ إلى غَيرِ أهلِهِ - أشنَعَ ضلالٍ؛ لِتَضمُّنِهِ التَّعطيلَ، وما يَجُرُّ إليهِ مِنَ الأباطيلِ؛ كَرَّرَ الإنكارَ عليهم على وجهٍ أشدَّ مِنَ الأوَّلِ، فقالَ مُسَبِّبًا الإنكارَ عمّا أثبَتَ هذا الكلامُ مِنَ العَظَمَةِ الَّتي لا يتمارى فيها ذو لُبٍّ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾.

وتكرارُ الإنكارِ إشعارٌ بِعِظَمِ الذّنبِ، وإيذانٌ بالعقوبة، وإشارةٌ إلى استحقاقها بعد إهمالِ التّنبيهاتِ، والإعراضِ عنِ التّحذيرات.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكۡرَ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ كلمتان: إحداهما بمعنى: الاحتيال والخداع[1]، فهو احتيالٌ في خِفية بغير ما يُضمِرُ[2]، أو صَرْفُ غيره عمّا يقصِدُه بحيلة، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ، وذلك أن يُتحرّى بذلك فعلٌ جميلٌ، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يُتحرّى به فعلٌ قبيحٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النّمل: 50]، وقال بعضُهم: من مكرِ اللّه إمهالُ العبدِ وتمكينُه من أعراضِ الدّنيا[3]. فمَكرُ اللّه إيقاعُ بَلائه بأعدائِه دونَ أوليائِه، وقيلَ: هو استِدراجُ العَبدِ بالطّاعاتِ، فيَتَوَهَّمُ أنَّها مَقبولَةٌ، وهي مردودةٌ[4]، فالمَكرُ منَ اللّه: جَزاءٌ، سُمّيَ باسم مَكرِ المُجازَى، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا﴾ [الشّورى: 40]، فالثّانية ليست بسيّئة في الحَقيقة، ولكنّها سُمّيت سَيِّئةً للجَزاء، وكذلك قَولُه جلّ وعزّ: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: 194]، فالأوّلُ: ظلمٌ، والثّاني:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(2) الفراهيديّ، العين: (مكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكر).
(4) ابن الأثير، النّهاية: (مكر).

ليسَ بظُلمٍ، ولكنَّه سُمّيَ باسم الذَّنب؛ ليُعلَمَ أنّه عِقابٌ عليه، وجَزاءٌ به، ويَجري مَجرَى هذا قَولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النّساء: 142] و﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 15][1]. وقيل: هو تدبيرٌ يُخفَى، ويُختَزَنُ لأحداثٍ، أو أُمور؛ لتقعَ في المستقبل على نحو ما. فاختزانُ هذه الخطوات المَعَدَّةِ للمستقبل هو المكرُ، ومأخذُ هذا منَ الأصل، ويكون ذلك التّدبّرُ لخيرٍ أو لشرٍّ، ونسبتُه إلى اللّه تعالى بهذا المعنى لا تحتاجُ إلى تأويلٍ، فهو من صفات اللّه الفعليّةِ الخبريّةِ، لكنّها صفةٌ لا تكون إلّا بقيدٍ، فلا يُوصَفُ اللّهُ بها على الإطلاق إلّا مقيّدةً، وهي إذا كانَت في مقابلةِ مَن يفعلون ذلك؛ فهي كمالٌ، وإن ذُكِرَت مُطلقةً؛ فلا تصحُّ بالنّسبة للّه ﷻ، ولهذا لا يصحُّ إطلاقُ وصفِه بالماكر، أو المستهزئ، أو الخادع، بل تُقيِّدْ؛ فنقول: ماكرٌ بالماكرين، مُستهزئٌ بالمنافقين، فتقيِّدها؛ لأنّها لم تأتِ إلّا مُقَيَّدَةً[2]. وكلُّ ما في القرآن منَ التّركيب فهو بهذا المعنى[3].

فالمكرُ في الآية المباركة تدبيرُ اللّه، وجزاؤه للكافرين.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

تقريرُ التّحذير، وتأكيدُ الإنـذار، وعاقبتهما

لزيادة التّقرير كرَّرَ مُستفهمًا ومُتعجّبًا: أفأمن أهلُ القرى المكذّبةِ مَكرَ اللّهِ وإمهالَه لهم؛ استدراجًا لهم بما أنعم عليهم في دنياهم عقوبةً لمكرهم؟ قَصدًا إلى زيادة التّحذيرِ، والإنذارِ من أمنهم ما لا يُؤمَنُ، مُغترّينَ بالذّنوب، آنسين بالموبقات، فرحين بالسَّعةِ، والإملاءِ، والتّمكينِ، وطولِ الأمل، والإمهالِ، المورثين غفلةً، ودَعةً، واسترسالًا في المعاصي، اتّكالًا على واسع رحمتِه، ومديد مغفرتِه.

وكلُّ ذلك استدراجٌ لهم بما أنعمَ عليهم مع إقامتهم على الكفر،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكر).
(2) ابن تيميّة، التّدمريّة، ص: 26، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 673.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).

وتذكيرٌ وعظةٌ بأنَّ ما حلَّ بأولئك القوم من عذابِ اللّه يُماثلُ هيئةَ مكرِ الماكرِ بالمَكور، فلا يحسَبوا الإمهالَ إعراضًا عنهم، وليحذَروا أن يكونَ ذلك كفعلِ الماكرِ بعدوِّه[1]؛ ليترتّب على ذلك خسرانَهم أنفسَهم، وفقدانَ ما فيه نفعهم في الدّنيا والآخرة.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: أنَّ العبدَ لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه منَ الإيمان، بل لا بدَّ من وجلٍ أن يُبتلَى بسلبِ ذلكم منه؛ فقلوبُ النّاسِ بين أصبعين من أصابع الرّحمن يقلبُهما كيف شاء، وينبغي له ألّا يزالَ داعيًا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبتّ قلبي على دينك)، ولا ينبغي له المصيرُ إلى أمن مكر اللّه تعالى؛ اغترارًا بالنّعم، فذلكم سبيل الخسران[2].

وإلى أنَّ ما يأتي منَ الوعيد لأهل الكفر جزاء جنسِ إعمالهم، يرادُ منه أيضًا تحذيرُ المسلمين ممّا يُشبهُ تلك الأعمالَ بقدرِ اقترابِ شَبَهِهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

التَّعبير بـ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ دون غيرها:

تكريرُ الإنكارين السّابقين قصدًا إلى زيادة التّحذير والإنذار

جاء العطفُ بالفاء وإسنادُ الفعلِ إلى الضّمير؛ لأنّ الجملة المعطوفة تكريرٌ لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، وتأكيدٌ لمضمون ذلك، فناسبَ إعادةَ الجملةِ مصحوبةً بالفاء[4]، وهو تكريرٌ إنكاريٌّ؛ لزيادة التّقرير[5]؛ تقريرِ التّعجيب من غفلتهم، وتقريرِ معنى التّعريض بالسّامعين منَ المشركين، مع زيادة التّذكيرِ بأنّ ما حلَّ بأولئك من عذابِ اللّه يماثلُ هيئةَ مكرِ الماكرِ بالمكور، فلا يحسبوا الإمهالَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ص: 298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/25.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.

إعراضًا عنهم، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكرِ بعدوِّه[1]، فالتّكريرُ في ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ لمجموع الإنكارين السّابقين جمعًا بينَ التّفريقِ قصدًا إلى زيادة التّحذير والإنذار[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (المكر):

المـكـرُ إيـذانٌ بـالاسـتـدراج المؤدّي إلى الأخذ دون شعورٍ أو تحسّبٍ، وباعثٌ على الخوف والتّرقّب

﴿مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ مصدرٌ أُضيفَ إلى الفاعل، وهو استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخْذه من حيث لا يحتسبُ ولا يشعرُ، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر اللّه، كالمحارب الّذي يخافُ من عدوّه الكمينَ والبياتَ والغيلةَ[3]، والمرادُ بها بيانُ إتيان بأسِه تعالى في الوقتين المذكورين، ولذلك عُطِفَ الأوّلُ والثّالثُ بالفاء، فالإنكارُ فيهما متوجِّهٌ إلى ترتُّبِ الأمنِ على الأخذ المذكور، وأمّا الثّاني فمن تتمةِ الأوّلِ[4]، أو هي استعارةٌ تمثيليّةٌ للإمهال والإنعام في حال الإمهال، شبَّهَ حالَ الإنعامِ مع الإمهالِ، وتعقيبَهُ بالانتقام بحال المَكْرِ[5].

سرُّ إضافة المكرِ إلى لفظ الجلالة:

أدّى المكرُ معنى عقوبة الذّنب

إضافةُ (المكر) إلى لفظ الجلالة (اللّه): هي إضافةُ مخلوقٍ إلى الخالق، كما تقول: ناقةُ اللّه، وبيتُ اللّه، والمرادُ فِعلٌ مُعاقبٌ به مكرَ الكفرة، وأُضيفَ إلى اللّه لمّا أدّى معنى عقوبةِ الذّنب؛ فإنَّ العربَ تُسَمّي العقوبةَ على أيِّ جهةٍ كانت باسم الذّنبِ الّذي وقعَت عليه العقوبةُ[6].

نكتةُ تكرارِ لفظِ المكر:

وقوعُ المكر بهم أمرٌ محقَّقٌ

كرَّرَ المَكرَ مُضافًا إلى اللّه تحقيقًا لوقوع جزاءِ المَكرِ بهم، وتوكيدًا لذلك[7]، فالتّكرارُ توكيدٌ، وترسيخٌ للمعنى، ويدلُّ على توحيد اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23 - 24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/12.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/433، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.

تعالى في مكرِه وقدرتِه على إصابة مَن يشاءُ بما يشاءُ مِنَ العذاب والبلاء، وأن لا مانعَ له ولا مُعقِّبَ.

علّةُ التّصريحِ بالأمنِ منَ المكر:

المكرُ راجعٌ إلى العقوبة الآخرة، وعذابُها لا ينقطع

صرّح بالأمن منَ المكر، وليس منَ البأس؛ لأنّ المكرَ خسرانٌ، وحلولُ البأسِ بهم غيرُ متيقّنٍ منهم، مَن أمِنَهُ ليس كمَن أمِنَ المَكرَ والإمهالَ؛ ولأنّ المكرَ راجعٌ إلى العقوبة الآخرة، وعذابُها لا ينقطعُ، والمكرُ في الدّنيا، فمَن أمِنَ المكرَ؛ فهو الخاسرُ حقيقة[1].

بلاغةُ التّذييلِ في المختتم:

سببُ خسرانِ أهلِ القرى أَمْنُهم مكرَ الله

قولُه: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مُترتِّبٌ عن التَّعجيب ومُتفرِّعٌ منه في قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنّ المقصودَ منه تفريعُ أنَّ أهلَ القرى المذكورين خاسرون لثبوت أنّهم أمِنوا مكرَ اللّه، والتّقدير: أفأمنوا مكرَ اللّه فهم قومٌ خاسرون، وإنّما صيغَ هذا التّفريعُ بصيغةٍ تعمُّ المخبَرَ عنهم وغيرَهم؛ ليجري مَجرَى المثلِ، ويصيرَ تذييلًا للكلام، ويدخُلَ فيه المُعَرَّضُ بهم في هذه الموعظةِ، وهُمُ المشركون الحاضرون، والتّقديرُ: فهم قومٌ خاسرون، إذ لا يأمَنُ مكرَ اللّهِ إلّا القومُ الخاسرون[2].

فائدةُ الاستثناءِ المفرّغ:

عدمُ الأمنِ مُقتصِرٌ على الخاسرين، ومخصوصٌ بهم

أفاد الاستثناءُ المفرَّغُ في قوله: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ حصرَ عدمِ الأمنِ بالخاسرين، وقصرَه عليهم، واختصاصَه بهم، فجعلَه في قوّةِ المثبتِ، فلا يأمنُ المكرَ إلّا هم.

براعةُ نفي المضارع بـ (لا):

نفيُ الفعل المضارع ﴿يَأۡمَنُ﴾ بـ(لا) غيرَ مقيَّدٍ بزمنٍ فتحَ احتمالَ إمكانِ النّفيِّ في الحال، والاستقبالِ، وديمومتَه، والاستمرارَ عليه،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/237.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.

مَن لا يعرفُ سبيلَ ربِّه فهو أخسرُ الخاسرين

يعزّزُه جملةُ ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الدّالّة على حدوث الخسران، وثبوتِه وصفًا ملازمًا لهم، فهم لغفلتِهم وجهلِهم لا يعرفون ربَّهم، فلا يخافونَهُ، ومَن هذه سبيلُهُ، فهو أخسرُ الخاسرين في الدّنيا والآخرة؛ لأنّه أوقعَ نفسَه في الدّنيا في الضّررِ، وفي الآخرة في أشدِّ العذابِ[1].

بديعُ الاستعارة في لفظ الخسران:

أضاعوا ما فيه نفعُهم، وخيرُهم، وهدايتُهم بسوء اعتقادهم

الخسرانُ - هنا - هو إضاعةُ ما فيه نفعُهم بسوء اعتقادهم، شُبِّه ذلك بالخسران وهو إضاعةُ التّاجر رأسَ مالِه بسوء تصرّفِه، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ لكونها في اسم مشتقٍّ ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنّهم باطمئنانهم إلى السّلامة الحاضرة، وإعراضِهم عنِ التّفكّرِ فيما يعقبُها منَ الأخذ الشّبيه بفعل الماكر، قد خسروا الانتفاعَ بعقولهم، وخسروا أنفسَهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المكر والكيد:

عبّر بالمكر دون الكيد؛ لأنّ الكيدَ احتيالٌ بغير ما يُبدي، والمَكرُ: احتيالٌ بغير ما يُضمرُ، والكيدُ في الحرب حلالٌ، والمكرُ في كلِّ حالٍ حرامٌ[2]، وقيل: الكيدُ أقوى منَ المَكرِ؛ لأنّه يتَعَدَّى بنفسِه، والمَكرُ يتعدّى بحرفٍ، والَّذي يتَعَدَّى بنفسِه أقوى[3].

فناسبَ استخدامُ لفظِ المكرِ دون الكيد في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لكون الآية تُحذِّرُ أهلَ القرى من عذاب الله تعالى الّذي لا يشعرون به حتّى يأتيهم بغتةً، وأنّ هذا العذابَ هو نتيجةُ ما كانوا يكسبون من كفرٍ وطغيانٍ، ولا يصحُّ أن يستخدمَ لفظُ الكيدِ في هذا المقام؛ لأنّه لا يليقُ بجبروتِ الله تعالى وقهرِه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322.
(2) الفراهيديّ، العين: 5/370.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 771.

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ
أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾

[الأعراف: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حصولُ العِبرةِ لجميع المكلَّفين في مصالح أديانِهم وطاعتِهم

لمّا بيّنَ - تعالى فيما تقدّمَ منَ الآيات - حالَ الكفّارِ الّذين أهلكَهُمُ اللّهُ بالاستئصالِ مُجمَلًا ومُفصَّلًا؛ أتبعَهُ ببيانِ أنّ الغرضَ من ذكرِ هذه القَصَصِ حُصولُ العِبرةِ لجميع المُكلَّفين في مصالحِ أديانِهم وطاعاتِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِ﴾: (هدي) الهاءُ والدّالُ والحرفُ المعتلُّ أصلان؛ أحدُهما: التّقدُّمُ للإرشاد، والآخرُ بَعثَةُ لطفٍ. فالأوّلُ قولُهم: هديتُهُ الطّريقَ هِدايَةً؛ أي: تقدَّمتُهُ لأُرشدَهُ. ويُنشعَبُ هذا فيُقال: الهُدى: خلافُ الضّلالةِ، والأصلُ الآخرُ الهَديَّةُ: ما أهدَيتَ من لطفٍ إلى ذي مودَّةٍ[2]. فهَداه: دَلَّه على الطَّريقِ[3]، والهُدى: الرّشادُ والدّلالةُ، وهَدَيتُهُ الطّريقَ والبيتَ هِدايَةً؛ أي: عرَّفتُه، وهي لغةُ أهلِ الحجازِ، ويُقال: هَداهُ اللّهُ للدّين هدًى؛ فيتعدّى باللّام، وقيل: هَدَيتُهُ إلى الطّريق وإلى الدّار، فيُعدّي الفعلَ بـ(إلى)[4]، فالهدى: الصِّراطُ الَّذي دَعا اللّه سبحانه إليه هو طريقُ الحقِّ[5]، والاهتداءُ يختصُّ بما يتحرّاه الإنسانُ على طريق الاختيارِ، والمهتدون: الّذين تحرّوا

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (هدى).
(5) ابن سيده، المحكم: (هدي).

هدايتَه، وقبلوها، وعملوا بها[1]، ولغةُ أهلِ الغَور: هَدَيتُ لك؛ أي: بَيَّنتُ لك، وبها نزلت: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: 128][2]، فهَداهُ لَهُ: دَلَّه عليه، وبَيَّنَه له[3]. وتبيّنُ الوجهة، أو تَبيينُها بالتّقدُّم أو الكشف، والدّلالة عليها، وأغلبُ ما وردَ في القرآن منَ الفعل هو بمعنى التّوجيه إلى سبيل الرّشدِ خاصّةً[4]، وبهذا فمعنى اللّفظة في الآية: أو لم يتبيّنوا، ويرشدوا.

2) ﴿يَرِثُونَ﴾: (ورث) الواو والرّاءُ المكسورةُ والثّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، هي الورثُ، وهو أن يكونَ الشّيءُ لقومٍ، ثمّ يصيرُ إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[5]؛ فالإيراث: الإبقاءُ للشّيء[6]، وأورَثَهُ مالَه؛ أي: تَركه لَهُ[7]، والوارثة والإرث: انتقالُ قُنيةٍ إليك عن غيرك من غير عقدٍ، ولا ما يجري مَجرَى العقد[8]. و(الوارِثُ) صِفةٌ من صِفات اللّه تعالى، وهو الباقي الدّائِمُ بعدَ فناءِ الخَلق؛ إذ يَفنَى مَن سِواه، فيَرجعُ ما كانَ مِلك العِبادِ إليه وحدَه لا شريكَ له[9].

وحوزُ الإنسانِ ما كان يملكُه آخرُ بعد موتِ هذا الآخر استحقاقًا بالشّرع، وسائرُ ما في القرآن منَ التّركيب عدا ما هو منَ الوراثة بمعنى: حوْزُ تركةِ الميّتِ أو قسطٍ منها، فهو بمعنى: أن يؤولَ إليه ما كان بيد غيره بخلافةٍ فيه، أو تقلّبِ حالٍ، أو بمعنى: أن تكونَ العاقبةُ له فيه؛ تشبيهًا بأيلولة الموروث إلى الوراث[10].

ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: يخلفون أهليهم، وتؤولُ إليهم الأرضُ.

3) ﴿نَطْبَعُ﴾: (طبع) الطّاءُ والباءُ والعينُ أصلٌ يدلُّ على نهايةٍ يَنتَهي إليها الشّيءُ حتّى

(1) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(2) الفراهيديّ، العين: (هدي).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (هدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هدى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(6) الفراهيديّ، العين: (ورث).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ورث).
(8) الرّاغب، المفردات: (ورث).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (ورث).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورث).

يُختَمَ عندَها(1)، وأصلُه مِنَ الطَّبع: وهوَ الوسَخُ الشّديدُ، والصّدأُ يكثرُ على السَّيفِ(2)، ثُمَّ استُعمِل فيما يُشبِهُ ذلك مِنَ الأوزارِ والآثامِ وغَيرهما مِنَ المَقابِحِ(3).

والطَّبعُ: الختمُ على الشّيء، وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها(4)، وطَبَعَ اللّهُ على قلبِ الكافِر - نعوذ باللّه منه - أي: صوّرَه بصورةٍ ما، وختمَ عليه، وغشّاه، وغطّاهُ، واستوثقَ من ألّا يدخلَهُ شَيءٌ، ومنَعه ألطافَه، فلا يعي وعظًا، ولا يصلُ إليه هدًى ولا نورٌ، ولا يوَفَّقُ لخيرٍ(5).

ولفظُ الطّبعِ في الآية الكريمة من هذا الختم على القلب - والعياذ باللّه - الّذي يمنعُ الإنسانَ ألطافَه فلا يعي وعظًا، ولا يصلُ إليه هدًى ولا نورٌ، ولا يوَفَّقُ لخيرٍ.

المعنى الإجْمالِيُّ:

التّعجيبُ من حـالِ المُمَكّنينَ فـي الأرض، وتحذيرهم

الآيةُ الكريمةُ مسوقةٌ مساقَ التّعجيبِ من حال الأمّةِ الحاضرةِ بوصفها الوارثة لجميعِ الأممِ وغيرها، ممَّن آلَت إليهم الأرضُ بعدم الاهتداءِ بما حلَّ بمَن قبلَهم منَ الأمم، والاتّعاظِ بما أصابَهم، وكيفَ غابَ عنهم، ولم يُرشدوا إلى سنن اللّهِ فيهم ؟ مع أنَّ شأنَنا فيهم كشأننا فيمَن سبقوهم، وأنَّهم خاضعون لمشيئتنا لو نشاءُ أهلكناهم بذنوبهم، ومنعناهم ألطافَنا بالختم على قلوبِهم حتّى يعلوها الرّانُ والدّنسُ، فلا يعونَ وعظًا، ولا يُبْصِرونَ هدًى أو نورًا، ولا يوَفّقون إلى خيرٍ، ولا يسمعون سماعَ انتفاعٍ، وإنّما يسمعون فقط ما تقومُ به الحجّةُ عليهم(6).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(2) الفراهيديّ، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (طبع).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(4) الفراهيديّ، العين: (طبع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(6) اللاّحم، عون الرّحمن: 9/226.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: الاعتبار بقصصِ الأممِ الغابرةِ، وأخبارِهم، ومآلاتِ مصائرِهم، ففي ذلكم تثبيتٌ للمؤمنين، وتحذيرٌ ووعيدٌ للكافرين، وإلى أنَّ مَن أوضحَ اللّهُ له سُبلَ الهدى، وضربَ له الأمثالَ في الهالكين بذنوبهم، وأصرَّ على كفره، وسَدَرَ في غيِّه، ولم يرعوِ، سيطبعُ اللّهُ على قلبه، فيَنبوا سَمعَهُ عن صوت الحقِّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في المطلَع:

الاستفهامُ للإنكار والتّوبيخ، والتّقرير، دخلَ على واو العطف، الّتي عُطِفَت على جملة: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ لاشتراكِ مضمونِ الجملتين في الاستفهام التَّعجبيِّ، فانتقلَ عنِ التّعجيب من حالِ الّذين مضَوا إلى التّعجيب من حال الأمّةِ الحاضرةِ من شدّةِ ضلالتِهم؛ إذ عُدِموا الاهتداءَ والاتّعاظَ بحالِ من قبلهم منَ الأمم، ونسوا أنَّ اللّه قادرٌ على استئصالهم إذا شاءَه[2].

عجبٌ أمرُ أمّةٍ لا تتّعظُ بحوادثِ مَن سَبَقوا

دلالةُ الموصولِ في الآية:

الموصولُ بمنزلة لام التّعريف العهديّ، وقد يُقصَدُ بالّذين يرثون الأرضَ كلُّ أمّةٍ خلفَت أمّةً قبلَها، فيشمل عادًا وثَمودَ، فقد قال لكلٍّ منهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف: 74]، ولكنّ المشركين منَ العرب يومئذٍ مقصودون في هذا ابتداءً بالموصول بمنزلة لام الجنس[3].

الّذين يرثون الأرضَ هم كلُّ أمّةٍ خلفَت أمَّةً قبلَها

سرُّ إظهارِ الوصف:

أظهرَ - مُسهبًا في وصفهم - بدل الإضمار، ولم يقُل: (يهدِ لهم)؛ تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف، وإشارةً إلى بلادتهم لعدم البحثِ

لو تأمّلوا حالَهم بعدَ البأسِ لاتّعظوا والتمسوا طريقَ الهداية

(1) مجموعة من الباحثين، التّفسير المحرّر: 6/389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26.

عنِ الأخبار؛ ليعلموا منها ما يضرُّ وما ينفعُ، فلا يكونوا كالبهائم، فإنّهم لو تأمّلوا أحوالَهم وأحوالَ مَن ورثوا أرضَهم وأحوالَ الأرض؛ لكفاهم ذلك في الهداية إلى سواء السّبيل(1).

نكتةُ تعدية الفعل (يهدي) باللّام:

تأكيدُ الاختصاص، وتضمينُ معنيين، وتقويةُ التّعلُّقِ، وإبعادُ شكِّ إثباتِ فائدةِ الهدايةِ لغير المهدِيِّ

الحكمةُ في تعدية الفعل (يهدي) إلى مفعوله (الّذين) باللّام، وليس بنفسه، أو بالحرف (إلى): أنَّ (الهداية) هي الدّلالةُ على الطّريق الموصل للغاية، وقد تعودُ فائدتُه عليك؛ أي: إنَّك قد هَدَيت غيرَك لصالحك، وقد تكون الهدايةُ، وهي الدّلالة على فعل الخير، لأمر يعودُ على الّذي هَدَى وعلى المَهديّ معًا، لكن إذا كانتِ الهدايةُ لا تعودُ إلّا لك أنت - وهذا ما تؤدّيه اللّام - ففي ذلك دفعُ شبهة المصلحة، والشّكّ في النّيّات، وهي أنسبُ لليقين، ثمّ الإقناع(2)، فاللّام للاختصاص، وتؤدّي معنى تقويةِ تعلُّقِ معنى الفعلِ بالمفعول، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ [لقمان: 14]، وقوله تعالى: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم: 5].

في التّعدية باللّام تبيينٌ، وتوضيحٌ، وإرشادٌ

وتركيبُ اللّام مع الفعل حدّدَ وجهًا دلاليًّا له بطريق المجازِ، أو التّضمينِ وهو التّبيينُ، والتّوضيحُ، والإرشادُ، والمعنى: ألم نهدِ مبيّنين، موضّحين، مرشدين، أو ألم يهدِ، ويبيّن لهم راشدين؟ واستعمالُ الهدايةِ في مطلق الإرشاد مجازٌ، أو استعارةٌ كقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6](3).

وقيل: إنّ تعديةَ فعلِ الهدايةِ باللّام؛ إمّا لتنزيلها منزلةَ اللّام، كأنّه قيل: أغَفَلوا، ولم يُفعَلِ الهدايةُ لهم؟ وإمّا لأنّها بمعنى التّبيين، والمفعولُ محذوفٌ، والفاعلُ على التّقديرين هو الجملةُ الشّرطيّةُ؛ أي: أوَلَم يُبَيَّنْ لهم مآلُ أمرِهم(4)؟

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4262.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/25 - 26، والشّهاب، الحاشية: 4/334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/27، وداود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 36.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.

دلالةُ الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

المقصودُ بالأرض عمومُها

الألفُ واللّامُ في الأرض للجنس؛ أي: يرثون أيَّ أرضٍ كانت منازلَ لقومٍ قبلهم، وهي بهذا المعنى اسمُ جنسٍ يصدقُ على شائعٍ متعدِّدٍ، فتعريفُه تعريفُ الجنس، والمعنى: أو لم يهدِ للّذين يرثون أرضًا من بعد أهلها؟

لفظُ (الإرث) بين الحقيقة والمجاز:

الكلامُ موجَّهٌ لأهل مكّةَ، أو المرادُ مطلقُ الخلافةِ في الأرض

يُطلَقُ الإرثُ مجازًا على مماثلة الحيّ ميّتًا في صفات كانت له من عزٍّ، أو سيادةٍ؛ لأنّه إنْ أُريدَ بالكلام أهلُ مكّةَ؛ فالإرثُ هنا بمعناه المجازيِّ، وإنْ أُريدَ أهلُ مكّةَ والقبائلُ الّتي سكنَت بلادَ الأمم الماضيةِ فهو مُستعمَلٌ لمُطلَقِ الخلافة، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105][1]، وظاهرُه التّسميع لمَن كان في عصر الرّسول ﷺ من مشركي قريش وغيرهم[2]؛ أي: لمّا كان إرثُهم غيرَ مُستغرِقٍ للزّمان أتى بالجارّ، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾[3]، فهو مُؤكِّدٌ لمعنى (الإرث)؛ إذ يُرادُ منه تذكيرُ السّامعين بما كان فيه أهلُ الأرض الموروثة من بُحبوحة العيش، ثمّ ما صاروا إليه منَ الهلاكِ الشّاملِ العاجلِ، تصويرًا للموعظة بأعظم صورةٍ، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129][4].

نكتةُ التّعبير بالمصدر المُنسبك:

تحقيقُ مشيئةِ الله لا رادَّ لها إن شاءَ تعالى وأراد

و﴿أَن﴾ المصدريّة في قوله: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ﴾ تدلُّ على التّحقيق؛ لأنّها (أن) المخفّفةُ منَ الثّقيلة، واسمُها ضميرُ الشّأن محذوفٌ، وما بعدها مؤوّلٌ بمصدرٍ مُنسبِكٍ من لفظ خبرِها إن كان مفردًا مُشتقًّا، أو منَ الكون إن كان خبرُها جملةً، فموقع ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم﴾ في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26 - 27.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/352.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26 - 9/27.

موقع فاعل ﴿يَهۡدِ﴾؛ أي: أو لم يتّضحِ للوارثين إصابتُنا إيّاهم بذنوبهم لو شئنا ذلك[1]، وفي التَّعبير بالمصدر المنسبكِ قوّةٌ في الدّلالة على الحدث وتأكيدٌ لتحقّقه، والتّقدير: في أيّ وقتٍ أردنا ﴿أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾؛ أي: إصابةً نمحقُهم بها كما فعلنا بمَن ورثوا أرضَهُم[2].

لا يصدَّنَّ اللهَ إن شاء عارضٌ عنِ الإصابة بالذّنوب في أيِّ زمن

دلالةُ فعلِ الشّرطِ على الماضي:

﴿لَّوۡ﴾ في قوله: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ حرفُ شرطٍ يفيدُ تعليقَ امتناعِ حصولِ جوابه لأجل امتناعِ حصولِ شرطه: في الماضي، أو في المستقبل، وإذ قد كان فعلُ الشّرط هنا مضارعًا كان في معنى الماضي؛ إذ لا يجوز اختلافُ زمني فعلي الشّرط والجواب، وإنّما يخالفُ بينهما في الصّورة لمجرّدِ التّفنّن؛ كراهةَ تكريرِ الصّورةِ الواحدةِ، وفي هذا تهديدٌ بأنَّ اللّه قد يصيبُهم بذنوبهم في المستقبل؛ إذ لا يصدُّه عن ذلك غالبٌ[3].

العبادُ مخيّرون، ومشيئاتُهم سببُ عقابهم

دلالةُ الباءِ في لفظ ﴿بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾:

الباءُ في ﴿بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ للسّببيّة، وليسَت لتعديةِ فعل ﴿أَصَبۡنَٰهُم﴾[4]، وهي تقوّي دلالة أنّ المشيئةَ ليسَت مشيئةَ اللّه سبحانه فقط، بل هي أيضًا مشيئةُ العباد الّذين ميّزهم بالاختيار، ولذلك لم يقُل: (لو نشاء أصبناهم لذنوبهم)؛ وذلك رحمة منه، بل جعل العقابَ بالذّنوب الّتي يختارونها هم[5].

دلالةُ الاستئناف بالمضارع:

وقوله: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ استئنافٌ من باب

---

(1) الصّافّي، الجدول في إعراب القرآن: 5/20، ويجوز أن يكون الفاعلُ ضميرًا مستترًا يعود على لفظ الجلالة، ويصبح المصدرُ المؤوّلُ مفعولًا به، كما يجوز أن يكون ضميرًا يعودُ على ما يُفهَمُ من سياق الكلام، أي: أو لم يهدِ ما جرى للأمم السّابقة، والمصدرُ المؤوّلُ مفعولٌ.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/27.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4263 - 4264.

طبعُ اللـهِ على قلوبهم مستمرٌّ آنًـــا فــآنًـــا ما استـمـرّوا على زيغهم

حصولُ الطَّبعِ حتميُّ الوقوعِ، لا أنّه وعدٌ على وجه التّهديد

العطفِ في الجمل، فهو معطوفٌ على مجموع الجملةِ المصدَّرةِ بأداة الاستفهام[1]؛ أي: العطفُ على أخبار الأممِ الماضيةِ والحاضرةِ، والتّقدير: وطبعْنا على قلوبهم، ولكنّه صيغ بهيئة المضارع؛ للدّلالة على استمرار هذا الطّبع وازدياده آنًا فآنًا[2].

وقد يكون معطوفًا على فعلٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه معنى ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ﴾، كأنّه قيل: يغفُلون عنِ الهداية، ونطبعُ على قلوبهم، أو على جملة ﴿يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ﴾[3]، وقيل: هو عَطفٌ على المعاصي؛ إذِ المرادُ به الاستقبال[4]، أو تجعل (الواو) للاستئناف والجملةُ مستأنفةٌ؛ أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي، فهو استئنافٌ مُنقطِعٌ عمّا قبله؛ لأنّ قولَه: (أصبنا) ماضٍ، و﴿نَطۡبَعُ﴾ مستقبل؛ إخبارًا عن وقوع الطّبعِ لا أنّه مُتوَعِّدٌ به، ويبقى التّوعُّدُ بما سبق ذكره من عذابٍ كالصّيحة، والرّجفة، والغرق ونحوه[5]، والغايةُ إثباتُ حصولِ الطّبعِ على قلوبهم؛ أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم، ونختِمُ عليها، بسبب اختيارهم الكفرَ على الإيمان[6]. وقيل: المرادُ الإصابةُ إمّا بالإهلاك وإمّا بالطّبع؛ أي: إن لم نهلكْهم بالعقاب؛ نطبعْ على قلوبهم، فهُم لا يَسمَعونَ؛ وذلك لأنّ الإهلاكَ لا يجتمعُ مع الطّبعِ على القلب؛ فإنّه إذا أهلكَه يستحيلُ أن يطبعَ على قلبه[7]، وهذا من بديع سعةِ احتمالاتِ التّركيب القرآنيّ، ومآلاته في تنوّع المعاني، وتعدّدِ الدّلالات الممكنة فهمًا لسياق الآية المباركة.

ومنعَ جَمعٌ مِنَ المفسرين عطفَ جملة: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134 - 135.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/500.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/500.
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/390، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134 - 135، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/338.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/152، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.

وجـــهُ مـنـعِ العطفِ إفضاؤه إلى نفي الطّبع عنهم فَـهُـم لا يَسمَعون سماعَ تفهّمٍ واعتبارٍ

جملة ﴿أَصَبۡنَٰهُم﴾؛ لأنّه في سياقه جواب ﴿لَّوۡ﴾ لإفضائه إلى نفي الطّبع عنهم، فهُم لا يَسمَعونَ سماعَ تفهُّمٍ واعتبارٍ[1]، أو أنَّ هؤلاء الّذين ورثوا الأرضَ من بعد أهلِها قد طبع على قلوبهم، فلذلك لم تجدْ فيهم دعوةَ محمّدٍ ﷺ منذ بُعِثَ إلى زمن نزولِ هذه السّورة، فلو كان جوابًا لـ ﴿لَّوۡ﴾ لصار الطّبعُ على قلوبهم[2]، وجعل له بعضُهم وجهًا؛ بأنّ كونه مطبوعًا عليه إنّما يحصلُ حالَ استمراره وثباته على الكفر؛ فهو يكفر أوّلًا، ثمّ يصيرُ مطبوعًا عليه في الكفر، فلم يكن هذا منافيًا لصحّة العطف[3]، أو أنَّ الكلامَ في الّذين يرثون الأرضَ في العصر الحاليّ، أو المستقبل على الإطلاق، وليس في قوم معينين طبعَ اللّه على قلوبِهم بالفعل[4]، فلمّا كان هذا تخويفًا للمَوجودين بعد المُهلَكين، ومنهم قريشٌ وسائرُ العربِ الّذين يُخاطَبون بهذا القرآنِ، فكأنّ المَخوُفَ به لم يقعْ بعدُ، عَطَفَ على (أصبنا) قولَه: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: بإزالة عقولِهم حتّى يكونوا كالبهائم، ولِذلك سَبَّبَ عنه قولَه: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾؛ أي: سماعَ فهمٍ[5].

بلاغةُ المجازِ في لفظ الإصابة:

الإصابةُ بالذّنوب إهلاكٌ لهم

وقوله: ﴿أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾؛ أي: بجزاء ذنوبهم، وسيّئاتهم، أو بسبب ذنوبهم، وقيل: يجوز أن يُضمّنَ أصَبناهُم معنى أهلكناهم، فلا حاجةَ إلى تقدير المضاف، وهو من مجاز الإضمارِ أو التّضمين[6]، ويكون المعنى: أصبناهم مُهلكين بذنوبهم.

سرُّ الالتفاتِ بين لفظي (الإصابة)، و(الطّبع):

سرعـةُ الـهـلاكِ واستمرارُ الطّبع يـنـاسـبُ حـالـةَ كفرهم

عبّر عن الإصابة بالماضي إشارةً إلى سرعة الإهلاك مع كونه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/25 - 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/153.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/27.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353، والآلوسي، روح المعاني: 3/207.

شيئًا واحدًا غير مُتجزئ، ثمّ التفتَ مُعبِّرًا عنِ الطّبع بالمضارع؛ للدّلالة على استمرار هذا الطّبع وازدياده، وإيماءً إلى التّجدّدِ، بحيث لا يمرُّ زمنٌ إلّا كانوا فيه في طبعٍ جديدٍ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الطّبع):

نُقِشَ الفسادُ على قلوبهم فلا تقبلُ معه الخيرَ والعملَ الصّالحَ

نطبعُ استعارة من طبع السّكةِ ونقشِها بصورةٍ، أو كتابةٍ لا تقبلُ غيرَها[2]، ولا يُستعمَلُ الطّبعُ على القلوب إلّا في الشّرّ، والمرادُ به أنّها وصلَت منَ الفساد إلى حالةٍ لا تقبلُ معها خيرًا[3]، كالطّبع الّذي يفعلُه الصّانعُ بالخاتم أو الختم على الشّيء المطبوع، والمرادُ به هنا أنَّ اللّه تعالى جعل على قلوب المكذِّبين طبعًا يمنعُهم من فهمِ الحقِّ وقَبولِه، وأنَّ هذا الطّبعَ هو نتيجةُ ما كانوا يكسبون من تكذيبٍ وإصرارٍ على الضّلال. وجملة (على قلوبهم) للاستعلاء، وكأنّه يغطّيها مُستوعِبًا إيّاها.

سرُّ وصلِ جملة: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾:

مَن يصيبُهُ اللهُ بذنبه، ويَختِمْ على قلبه؛ يُعاقَبْ بتبلُّدِ الإحساس

جملة: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ معطوفةٌ بالفاء على (نطبع)، مُتَفَرِّعَةً عليه[4]، وهي جوابُ ﴿لَّوۡ﴾؛ أي: صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم، والطَّبْعِ على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم مَن أرسلَه اللّهُ إليهم منَ الوعظ والإعذار والإنذار سماعَ تفقّهٍ وتدبّرٍ واتّعاظٍ[5].

نكتةُ التّعبيرِ عنِ السّماع بالمضارع:

فعلُ عدمِ السّماعِ ملازمٌ لهم، مُتجدّدٌ فيهم كلَّ زمنٍ، وذلكم طبعُ المُكابر

عبّر عنِ السّماع بالمضارع المنفيّ بـ (لا)؛ دلالةً على تجدّد الفعلِ فيهم مرّةً بعد مرّةٍ، وأنّ عدمَ السّمع مُستغرِقٌ الحال والاستقبال. ونفيُ السَّماعِ مَعْنَاهُ: نفيُ القبولِ والاتّعاظِ المترتِّبِ على وجود السَّماعِ، جعلَ انتفاءَ فائدتِه انتفاءً له[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/27.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/260.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.

علّةُ إيثارِ لفظ السّمع على العقل:

المرادُ بالسّمع النّافع منه وليس إطلاقهُ

وإنّما قال: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، ولم يقُل: (لا يعقلون)؛ لأنّ المرادَ هنا السّمعُ النّافعُ لا مطلقُ السّمع[1]، أو المرادَ بالسّماع فهمُ مغزى المسموعات لا استكاك الآذان، بقرينةِ قوله: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[2]، والّذي يتأمّلُ في الآيات السّابقة يراها تحذِّر النّاسَ بأساليبَ متنوّعةٍ حكيمةٍ منَ الغفلة عنِ العظات والعِبر، وتحضُّهم على التّخلصِ منَ الأمن الكاذب، والشّهوات المُردية، والمتع الزّائلة[3].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الطّبع، والختم، والنّقش، والرّين، والإقفال:

الطّبعُ: أعمُّ منَ الختم وأخصُّ منَ النّقش[4]، والرَّينُ أيسرُ مِنَ الطّبع، والطَّبعُ أيسرُ مِنَ الإقفال، والإقفالُ أشدُّ ذلك كلِّه[5].

القلب، والفؤاد:

إصابةُ القلبِ الرّقيقِ منتهى العذاب

القلبُ أخصُّ منَ الفؤاد في الاستعمال؛ لأنّه معنى منَ المعاني يتعلَّقُ به، ويشهدُ له قولُ النّبيِّ ﷺ: «أتاكُم أهل اليَمن، هم أرَقُّ قُلوبًا، وألَيَنُ أفئِدَةً»[6]، فوصَفَ القُلوبَ بالرّقّةِ والأفئدةَ باللّين، وكأنَّ القلبَ أخَصُّ في الاستعمال؛ ولذلك قالوا: أصبتَ حَبَّةَ قلبِه وسويداءَ قلبِه[7]، ولخصوص القلب أوثرَ في الآية.

---

(1) ابن عرفة تفسير ابن عرفة: 2/239.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/338.
(4) الرّاغب، المفردات: (طبع).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(6) أحمد بن حنبل، المسند: 28/625.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 9/143، والزّبيديّ، تاج العروس: 4/69.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: 101]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا تكرّرَ ذكرُ القرى الّتي كذّب أهلُها رسلَ اللّه بالتّعيين وبالتّعميم صارَت للسّامعين كالحاضرة المشاهدَةِ الصّالحةِ لأن يُشارَ إليها، فجاء اسمُ الإشارة لزيادة إحضارِها في أذهان السّامعين من قوم محمّد ﷺ؛ ليعتبروا حالَهم بحال أهل القرى، فيروا أنّهم سواءٌ، فيفيئوا إلى الحقِّ[1]، ولمّا انقضى ذلك على هذا الوجه العظيم والنّظم الأبلغِ الأحكم، وكانَت هذه القرى بحيث تعرفُها العربُ ويرونها، أشارَ إليهم حثًّا على الاعتبار بهم[2].

القرى هذه معروفةٌ عند العرب، فأشار اللهُ إليهم حثًّا على الاعتبار بحالهم

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقُصُّ﴾: (قصَّ) القافُ والصّادُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تتبعِ الشّيءِ، من ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ؛ إذا تتبّعته. ومن ذلك اشتقاقُ القصاص في الجراح، وذلك أنّه يُفعلُ به مثلَ فِعلِه بالأوّل، فكأنّه اقتصّ أثرَه. ومنَ الباب القصّةُ والقصصُ، كلُّ ذلك يُتَتَبَّعُ فيُذكر[3]. فالقِصَّةُ معروفةٌ. يُقالُ: في رأسه قِصَّةٌ؛ أي: جملة منَ الكلام ونحوه[4]. وقولُه تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]؛ أي: أحسنَ البَيان[5]، وهي: الأمرُ والحديثُ. وقدِ اقتَصَصتُ الحديثَ:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصَّ).
(4) الفراهيديّ، العين: (قصَّ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قصَّ).

رويتُه على وجهه[1]. فالقصص: الخَبَر المقصوص[2]، والأخبارُ المتتبّعة[3]. واقتصصتُ الحديثَ: رويتُه على وجهه، فهي أحداثٌ، أو أمورٌ لها أصلٌ، وتتوالى على نحوٍ مترابطٍ إلى نهايةٍ ما، أو هي من قَصِّ الخَبَرِ؛ أي: حكايتُه متتابعةٌ بحسب ما سُمِع، أو وقع، كقصص الرّسلِ مع أقوامهم، والقُرَى مع أهلها ومصائرهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: 130]؛ أي: آياتُ اللّه في الكون: خلقُ السّموات والأرض، وتسخيرُ ما في الأرض والأفق للإنسان، وإرسالُ الرّسلِ بالبيّنات لتعريف الإنسان بربِّه، وعبادتِه إيّاه، وآدابِ عبادِ اللّه في حياتهم، وبالبعثِ والحسابِ والجزاءِ، وكلُّ تلك أمورٌ ينبغي التزامُها[4]، وهذا معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

2) ﴿أَنۢبَآئِهَاۚ﴾: (نبأ) النّون والباء والهمزة قياسُه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ. ومنه قيل للنّبأ: الخبر؛ لأنّه يأتي من مكانٍ إلى مكانٍ[5]. فالنّبأ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل: نبأٌ؛ حتّى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة، وحقُّ الخبر الّذي يُقال فيه: نبأٌ؛ أن يتعرَّى عنِ الكذب، كالتّواتر، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النّبيّ ﷺ، ولتضمّنِ النّبَأ معنى الخبر، يُقال: أنبأتُه بكذا، كقولك: أخبرتُه بكذا، ولتضمّنه معنى العلمِ قيل: أنبأتُه كذا، كقولك: أعلمتُه كذا[6]. فالنّبأُ يُستعمَلُ في ما الأصل فيه مجهولٌ لأحد الطّرفين[7].

وكلُّ نبأٍ في القُرآن فهو الخَبَرُ إلّا قوله: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: 66] فإنّ المُرادَ الحجَجُ.

والنّبأ والأنباءُ لم يَرِدا في القُرآن إلّا لما لَهُ وقعٌ، وشأنٌ عَظيمٌ[8]، وبذا تفسّرُ اللّفظةُ في الآية الكريمة.

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قصص).
(2) ابن سيده، المحكم: (قصص).
(3) الرّاغب، المفردات: (قصص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(8) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 886.

3) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: (بَيَنَ) الباءُ والياءُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، وهو بعدُ الشّيء، وانكشافُه، فالبينُ الفراقُ، وبان الشّيءُ وأبان؛ إذا اتّضحَ، وانكشفَ[1]. والبَيِّنُ منَ الرّجال: الفَصيحُ[2]. والبَيان: الفَصاحة. واستبنتُ الشَّيءَ: تأمّلتُه حتَّى تبَيَّن، وتبيّنتُ الأمر: تأمّلتُه، وتوسَّمتُه، وتثبّتُ منه[3]. وبانَ الصّبحُ: ظهرَ، وسُمّي الكلامُ بيانًا؛ لكشفه عنِ المعنى المقصود إظهاره. وسُمّي ما يُشرَحُ به المجملُ، والمبهمُ منَ الكلام بيانًا[4]. والبينُ: الفَصلُ بَين الأرضين. والبين: قَدرُ مدِّ البَصرِ مِنَ الطَّريق[5]. ومنَ الفصل والتّمييز جاء معنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصولَ المتميّزَ من غيره يلفتُ النّظرَ، وهو المعنى الّذي جاءَت به كلُّ مفرداتِ التّركيبِ القرآنيّةِ عدا الظّرف (بين)[6]. والبيّنةُ: الدّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو محسوسةً[7]. والبيّنات: هي الّتي أنزلها اللّهُ، وأظهرها على يدي أنبيائه، منَ الحُجَج والدّلائل، والمعجزات الظّاهرات الواضحات في نفسها، أو في كونها من عند اللّه، والّتي تقتضي التّسليمَ بلا جدال[8].

المعنى الإجْماليُّ:

الخطابُ للنّبيّ محمّد ﷺ؛ أنّا قصصْنا عليك وعلى أمَّتِك منَ الأخبار العظيمة الهائلة للقرى الغابرة عِبرةً، تَعِظُ المتَّعظينَ، وتردَعُ الكافرينَ، فقد كانَت تأتيهم الرّسلُ بالدّلائل، والبراهين، والمعجزاتِ الواضحاتِ، فكان حالُهم بعد مجيئِها كحالهم من قبلُ، حين كانوا

القَصصُ القرآنيُّ يحصلُ به عِبرةٌ للمعتبرين وازدجارٌ للظّالمين، والمآلاتُ جزاءٌ من جنس العمل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الفراهيديّ، العين: (بين).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بين).
(4) الرّاغب، المفردات: (بين).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بين).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).
(7) الرّاغب، المفردات: (بين).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).

يتسامعون بكملة التّوحيدِ ممّن قبلَهم فيكذبونها[1]، أو فما كانوا ليؤمنوا بما سبقَ في علم اللّه يومَ أخذَ الميثاقَ أنّهم يكذّبون به، ولم يؤمنوا به؛ لاستحالة التّغيّر فيما سبق به العلمُ الأزليُّ[2]، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءَتهم به الرّسلُ في حالٍ منَ الأحوال، ولا وقتٍ منَ الأوقات بما كذَّبوا به من قبل مجيئِهم، بل هم مُستمرّون على الكفر، مُتشبّثون بأذيال الطّغيانِ دائمًا[3]، مدّةَ عمرِهم بما كذّبوا به أوّلَ ورودِه عليهم حين جاءَتهم الرّسلُ لتمرّسهم بتكذيب الصّادقين، ولم تؤثّرْ فيهم دعوتُهم المتطاولةُ والآياتُ المتتابعةُ[4]، أو فما كان ليهديهم للإيمان عقوبةً لهم على ردّهم الحقَّ أوّلَ مرّةٍ، وذلك مصداقُ الطّبع على القلب، والختم عليه؛ إذ تتحجّرُ القلوبُ، وتستوي حالتا التّبليغ والإنذار بالبيّنات أو عدمها[5].

وما أفادَتهم البيّناتُ أن يؤمنوا بشيءٍ قد بدرَ منهم تكذيبُه في ابتداء الدّعوة[6]، ليجعلَ اللّهُ حجابًا على قلوبهم وعقولهم، فيخفى عليهم طريقُ الحقِّ وينأون عنه، أو أنّهم أُخِذَ عليهم الميثاقُ، فآمنوا كرهًا، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعًا، فلو ردّوا إلى الدّنيا مرّةً لكفروا أيضًا، فما كانوا ليؤمنوا في الرّدِّ بما كذّبوا به أوّلًا؛ لأنّ شُؤمَ المبادرةِ إلى تكذيب الرّسلِ سببٌ للطّبع على القلوب والإبعادِ عنِ الهدى[7].

فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيةِ تلك المعجزات بما كذّبوا قبل رؤيتِها، يعني: أوّلَ ما جاؤوهم فاجؤوهم بالتّكذيب، فأتوا بالمعجزات، فأصرّوا على التّكذيب[8].

ومغزى الآيةِ الكريمةِ وإرشادُها تسليةُ النّبيِّ محمّد ﷺ بأنَّ ما لقيه من قومه هو سنّةُ الرّسل السّابقين، وأنّ ذلك ليس لتقصيرٍ منه، ولا لضعفِ آياته، ولكنّه للختم على قلوبِ كثيرٍ من قومه[9] وتقريرٌ للوحي، وإثباتٌ لنبوّته ﷺ؛ لأنّ تلكم القصص لا تُتلَقّى إلّا بوحي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/183.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/11.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/419.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/26.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط، ص: 138.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.
(7) المغراويّ، التّدبّر والبيان: 11/416.
(8) الشّهاب، عناية القاضي: 4/337.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.

إلهيٍّ[1]، وعقوبةُ مَن ردَّ الحقَّ، أو أعرضَ عنه فلم يقبله، وأصرَّ على ذلك فإنّه يُصرفُ عنه، ويُحالُ بينه وبينه، ويقلّبُ قلبُه عنه[2].

ومن هنا فلا ينبغي ردُّ المسموع بطرًا وكبرًا ومعاندةً لعلّه يكون حقًّا، فيضعُ عنك نفعه، وتفقدُ أثرَه، وينزعُ عنك خيره، فوجودُ البيّناتِ مهما كانَت قويّةً وواضحةً غيرُ كافٍ في إيمان مَن لم يَشأِ اللّهُ هدايتَه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

الآيــةُ خلاصةُ القَصص المحكيّة قبلها تفصيلًا وإجمالًا

جملة ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مستأنفةٌ استئنافَ الفَذْلكة؛ أي: خلاصةُ ما فُصِّلَ قبلها، ومجمله منَ القصص من قوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59]، ثمّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: 94][4]، فقُفّي به على جملة قصصِ الرّسلِ عليهم السلام الّتي تقدَّمَت، وما عُطِفَ عليها من بيان حكمِها وفقهِها، فكانَت خلاصةً لها[5].

التّعبيرُ بـ ﴿تِلۡكَ﴾ دون غيرها:

صيغةُ البُعد؛ للتّبعيد عن ساحة عزّ القرب

ولمّا كان أهلُ تلك القُرى جديرين بالبعد عنهم والهرب منهم؛ عبّرَ عنهم بأداة البعدِ، فقال: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ أي: محالُّ القبائلِ الخمسِ، وهي قرى قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيب، ويجوز أن يكون البعدُ لعظمة ما حصلَ لأهلها منَ العذاب، ويؤيّدُه قولُه مبيِّنًا حالها: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾[6]، أو إشارةً إلى بُعد هلاكها وتقادمه[7]؛ فصيغةُ البُعد للتّبعيد عن ساحة عزّ القرب[8].

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير، ص: 213.
(2) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/413.
(3) الجزائريّ، أيسر التّفاسير، ص: 213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/29.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.
(8) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/457.

القصدُ الإخبارُ بالقصص، أو تعظيمُ القرية ومهلكها، والتّحسّرُ عليها عِظَةً وعِبرةً

بلاغةُ الإخبارِ بالاسم والفعل:

يجوز في ﴿تِلۡكَ﴾ أن تكون ابتداءً، و﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ نعتًا، والخبر ﴿نَقُصُّ﴾ يؤيّدُه أنّ القصدَ إنّما هو الإخبارُ بالقَصص[1]، أو أنّ ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ هي خبرُ الابتداء ﴿تِلۡكَ﴾، وفي ذلك معنى التّعظيم لها ولمهلكها، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2] فإنَّهُ ابتداءٌ وخبرٌ، وكأنّ في اللّفظ معنى التّحسّر على القرى المذكورة، والمعنى: نقصُّ عليك من أنباء الماضين لِتَتَبَيَّنَ العِبرَ، وتَعْلَمَ المَثُلاتِ الّتي أوقعَها اللّهُ بالماضين، ثمّ ابتدأ الخبرَ عن جميعهم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾[2]، وفيه استحضارُ القرى في الذّهن بحيث صارَت كالمُشاهَدِ للسّامع، فكانَتِ الإشارةُ إليها إشارةَ عِبرةٍ بحالها، وذلك مفيدٌ للمقصودِ منَ الإخبار عنها باسمها لِمَن لا يجهلُ الخبرَ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ [التّوبة: 35]؛ أي: هذا الّذي تشاهدونه، وتُكوَوْنَ به هو كنزكُم، وهم قد علموا أنّه كنزُهم، وإنّما أُريدَ منَ الإخبار بأنّه كنزُهم إظهارُ خطأِ فعلِهم، ويجوزُ أن يكونَ القُرى بيانًا لاسمِ الإشارةِ[3].

القَصصُ مواطنُ إثباتٍ، واستدلالٍ

دلالةُ الحاليّة في جملة القصّ:

وتحتملُ جملةُ: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ الحاليّة منَ القرى، وفائدتُه الامتنانُ بذكر قَصَصها، فهو كالتّقييد بالصّفة في قولك: هو الرّجلُ الكريمُ، وللاستدلال على نبوّة محمّد ﷺ؛ إذ علّمه اللّهُ من علم الأوّلين ما لم يسبق له علمُه[4].

علّةُ التّعبيرِ عنِ القصّ بالمضارع:

وعبّر بالمضارع ﴿نَقُصُّ﴾ عنِ الماضي؛ أي: (تلك القرى قصصنا)،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/433.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/434.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29 - 30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.

والأنباءُ هنا إخبارُهم مع أنبيائهم ومآل عصيانهم[1]؛ لأنّ هذه الآيةَ نزلَت مع تلك القَصص لا بعدها[2]، وفيه وعدٌ بالزّيادة من ذلك، لما دلَّ عليه المضارعُ ﴿نَقُصُّ﴾ منَ التّجدّد والاستمرار، والتَّعريض بالمعرضينَ عنِ الاتّعاظ بأخبارها[3]، والمعنى: قد قصصنا عليك ﴿مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾، ونحن نقصُّ عليك أيضًا منها مفرَّقًا في السّور[4].

زيادةُ القَصصِ سبيلٌ للمواعظ، والتّخويف

بيانُ وجهِ العطفِ بجملة ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ﴾:

أتى بالجملة الثّانية ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ﴾ معطوفةً مع أنّها مفسِّرةٌ للأولى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ﴾؛ لأنّ القصصَ لم تقعْ بكلِّ الأشياءِ بل ببعضها، فالعطفُ دالٌّ ومُؤذِنٌ بمعطوفٍ عليه لم يُذكَر[5] إيجازًا، واقتصادًا، واكتفاءً بالمهمِّ منَ الكلام المفيد للاعتبار، والعطفُ أيضًا لمناسبة ما في كلتا الجملتين من قصد التّنظيرِ بحال المُكذِّبين بالنّبيّ محمّد[6] ﷺ.

في الكلام محذوفٌ منَ القصّة عُدِلَ عن ذكره

ولمّا كان المقامُ العجبَ منَ التّكذيبِ بعد ذلك البيانِ كان ربّما تخيّلَ متخيّلٌ أنّهم لم يُؤتوا بالبيان الشّافي؛ فشهدَ اللّهُ تعالى للرّسل عليهم السلام تصديقًا لمَن قالَ منهم: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ﴾ [الأعراف: 105]، بقوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ أي: والحالُ أنّه قد ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾؛ أي: أهل القرى؛ لأنّهم المقصودون بالذّات[7].

دلالةُ حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

و﴿مِن﴾ تبعيضيّة، فثمّةَ أنباء غير ما ذُكِرَ هنا، وطويَ ذكرُها لعدم الحاجةِ إليها في التّبليغ[8]، وذلك أنّ العاقلَ هو مَن يكفيه أدنى

في تبعيضيّة ﴿مِن﴾ بيانٌ للاقتصاد بذكر الأنباء

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/239.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.

شيء؛ لذا هوّل الأمرَ بأنّ أخبارَها تفوتُ الحصرَ، وأنّ ما قصَّ منها يكفي المعتبرَ، فقال: ﴿مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾؛ أي: أخبارِها العظيمةِ الهائلةِ المطابقةِ للواقع شيئًا بعد شيء، كما يَفعَلُ مَن يَتَتَبَّعُ الأثرَ[1].

دلالةُ الضَّميرِ ومغزى تأنيثه:

رؤيـةُ القـرى مدخلٌ في معرفة أخبارِ أهلِها

والمرادُ بالقرى وضمير أنبائها: أهلُها، كما دلّ عليه الضّمير في قوله: ﴿رُسُلُهُم﴾[2]، وأنَّثَ الضّميرَ؛ لأنّ لرؤية القرى أنفسِها مَدخَلًا في معرفة أخبارِ أهلِها[3].

توجيهُ تعريف البيّنات وجمعها:

إظهارُ البيّنات مصاحبٌ مع كلِّ مُرسَلٍ حجّةً وبرهانًا

جمع (البيّنات) وتعريفها باللّام العهديّة يُشيرُ إلى تكرّر البيّنات مع كلِّ رسولٍ[4]؛ ليكونَ حجّةً للرّسول على قومه، وبرهانًا على إلهيّة الرّسالة، وصدق التّكليف.

دلالةُ الفاءِ الدّاخلة على (ما):

نفي إيمانِهم مع مجيء الرّسل إليهم مبلّغين، وقبل ذلك وبعده

(الفاء) في قوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾؛ لترتيب الإخبارِ بانتفاء إيمانِهم عنِ الإخبار بمجيء الرّسلِ إليهم بما من شأنه أن يحملَهم على الإيمان[5]، والضّميرُ في ﴿كَانُواْ﴾ وفي ﴿لِيُؤۡمِنُواْ﴾ عائدٌ على (أهل القرى)، وأنّ (الباء) في (بما) ليسَت سببيّةً؛ فالمعنى: أنّهم انتفَت عنهم قابليةُ الإيمانِ وقتَ مجيءِ الرّسلِ بالمعجزات بما كذّبوا به قبلَ مجيءِ الرّسلِ بالمعجزات، فحالُهم واحدٌ قبل ظهور المُعجزات وبعد ظهورها لم تجد عنهم شيئًا[6].

نكتةُ إسناد نفي الإيمان إلى الضّمير:

القصدُ بالضّمير أهـلُ القـرى باعتبار الأَغْلَبِيَّة

أسندَ نفيَ الإيمان إلى ضمير جميع أهلِ القرى باعتبار الغالب،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/354.

وهو استعمالٌ كثيرٌ، وسيخرجُ المؤمنون منهم بقوله: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بجملة ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾:

صفةُ الإيمان تنافي التّعنّت والإصرارَ على الكفر

صيغةُ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ المجموعُ فيها: الفعلُ الماضي النّاقصُ الدّالُّ على تحقّق الفعل، والمضارعُ الدّالُّ على تجدّد فعل عدم الإيمانِ منهم، ولامُ الجحود تفيدُ المُبالَغَةَ في النَّفْي، وتَأْكيدَهُ، للدّلالة على أنّهم ما صلحوا للإيمان؛ لمنافاته لحالهم منَ التَّصميم على الكفر، والتَّصلُّبِ فيه، والطَّبعِ على قلوبهم[2]، ففي الإتيان بلام الجحودِ في (ليؤمنوا)؛ للمبالغة في نفي القابِليَّةِ والوقوع، وهو أبلغُ من تسلّطِ النّفي على الفعل بغير لام[3]، والمعنى: فاستمرَّ عدمُ إيمانِهم، وتمكَّنَ منهم الكفرُ في حين كان الشّأنُ أن يقلعوا عنه[4].

علّةُ إيثارِ (ما) الموصولة:

بالغوا في الكذب وتمادَوا حتّى تعدَّوا حدودَه

(ما) في جملة: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ﴾ موصولةٌ، والعائدُ منصوبٌ محذوفٌ؛ أي: بما كذّبوه، ويجوزُ أن تكونَ مصدريّةً[5]، ولاختيار (ما) المبهمة قصديّةٌ في سعة الكذب وعدم محدوديّته، يؤكّدُه حذفُ الضّمير، والتّقدير: (بما كذّبوه)؛ إذ جحدوا كلَّ شيءٍ، وكذّبوا بكلِّ شيء، فالحذفُ أدلُّ على الزَّجر من مُطلَقِ التَّكذيب وأوفقُ لمقصود السّورة[6].

فشأن (ما) الموصولة أن يُرادَ بها غيرُ العاقل، فلا يكون ما صَدَقَ (ما) هنا هو الرّسلَ، بل (ما جاءَت به الرّسلُ)، فلذلك كان فعلُ (كذّبوا) هنا مُقدَّرًا مُتعلّقُهُ لفظُ (به)، كما هو الفرقُ بين كذّبَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/135، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/26.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/354.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30 - 31.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/354.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.

وكَذّبَ به، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ [الأعراف: 64]، وقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأنعام: 66][1].

سرُّ التّعبيرِ بالجارّ ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾:

من جحودهم أنّهم كذّبوا الرّسلَ قبل مجيئهم بالآيات، وفي أثناء مجيئهم

لمّا كان تكذيبُهم غيرَ مُستغرقٍ للزّمان الماضي؛ أدخلَ الجارّ، فقال: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾؛ أي: قبلَ مجيءِ الرّسلِ إليهم، أو بتكذيبهم الواقعِ (منهم) للرّسل فيما أتوا به عنِ اللّه من قبلِ الأخذِ بغتةً، أو من قبل مجيءِ الرّسلِ بالآيات، فإنّهم أوّلُ ما جاؤوهم فاجؤوهم بالتّكذيب، فجوزوا على تكذيب الحقِّ من غير نظرٍ في دليلٍ بالطّبع على قلوبهم، فأتَوهم بالمعجزات، فأصرّوا على ذلك التّكذيب، ووقَفوا لذلك الطّبعِ مع حظوظِهم، ومنعَتهم شماخَتُهم وشدّةُ شكائمِهم عنِ الإيمان لئلّا يُقالَ: إنّهم خافوا أوّلًا فيما وقعَ منهم منَ التّكذيب، فكانوا فيه على غيرِ بصيرةٍ، أو إنّهم خافوا ثانيًا ما قرَّعَتهم به الرّسُلُ منَ الوعيد، فدخلوا جُبنًا فيما يعلمون بُطلانَه، فكان تَزيينُ هذا لهم طبعًا على قلوبهم، فكأنّه قيل: إنّ هذا العجبَ هل يقعُ في مثل ذلك أحدٌ؟ فقيل: نَعَم، مثلَ ما طبعْنا على قلوبِهم حتّى صارَت مع الفهمِ لا تَنتَفِعُ، فكأنّها لا تفهمُ، فكأنّها لا تسمعُ[2].

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في تعدية فعلِ التّكذيب:

الاستغناءُ بالمذكور، وتجنّبُ تكرار المذكور إحرازٌ للبلاغة

وحذفَ المتعلّقَ (به) مع ﴿كَذَّبُواْ﴾، وأظهرَه في سورة يونس ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يونس: 74]؛ لأنّه لمّا تقدّمَ في قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 86]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ [الأعراف: 87]، ثمّ قال بعدُ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ﴾ وقع الاكتفاءُ بما تقدّمَ من قوله: ﴿بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 87]، والّذي أُرسِلَ به هو

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/77.

الّذي طلبَ منهم الإيمانَ به، فحصل المقصودُ، فلو قيل أخيرًا: (به) لكان تكرارًا، فاقتضى الإيجازُ وإحرازُ البلاغةِ حَذْفَهُ؛ لِحُصولِهِ كَما حُذِفَ من قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ [الأعراف: 87] مع أنّه مرادٌ، فحذفَ الموصولَ وصلتَه ورابطَها، إذِ التّقدير: وطائفة لم يؤمنوا بالّذي أُرسِلتَ به؛ لحصول ذلك ممّا تقدّم.

وأمّا قولُه في يونس: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يونس: 74] فإنّه لمّا تقدّمَ هنا ما لم يَتَقَدَّمْ هناك، فلم يكن بدٌّ منَ الإتيان بالضّمير ليحصلَ ما وقع منَ التّكذيب، ولترتبطَ الصّلةُ بالموصول(1)، فحذفَ المتعلّقَ هنا إيجازًا؛ لأنّه قد سبق ذكرُ تكذيب أهل القرى، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94]، وقد سبق في ذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]، ولهذا لم يُحذَفْ مُتعلَّقُ فعل ﴿كَذَّبُواْ﴾ في سورة يونس، والمعنى: ما أفادتهُمُ البيّناتُ أن يُؤمنوا بشيءٍ كان بدرَ منهُمُ التّكذيبُ به في ابتداء الدّعوةِ، فالمضافُ المحذوفُ الّذي دلَّ عليه بناءُ ﴿قَبۡلُۚ﴾ على الضّمِّ تقديرُهُ: من قبلِ مجيءِ البيّناتِ(2).

التّعبيرُ بـ ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾ دون غيره:

إظهارُ الفاعل مراعاةٌ للتّناظر والتّقابل، وتنبيهٌ على خطورة الذّنب

صرّحَ بلفظ الجلالةِ ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾، وأضمرَ في سورة يونس: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: 74]؛ لكونه مناسبًا، ومرتبطًا بما افتُتِحَ به الآيةُ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا﴾ [يونس: 74] فأخبر تعالى بإنعامه على عباده المهتدين بنعمة الرّسلِ إحسانًا وامتنانًا، ولتقومَ الحجّةُ على الخلق، وأضافَ الفعلَ إلى ضمير التّعظيم، فناسب ذلك ما بنى عليه وارتبطَ به من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾؛ مراعاةً

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/212 - 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.

للتّناظر والتّقابل على خلاف آية الأعراف الخالية من هذا المَلمَح في مَطلَع الآية: في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ فناسبَ الإظهارُ المُفتتحَ[1]؛ لما في إسناد الطّبع إلى الاسم العَلَم من صراحة التّنبيهِ على أنّه طبعٌ رهيبٌ لا يغادرُ للهدى منفذًا إلى قلوبهم كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 11] دون أن يقولَ: هذا خَلقي، ولهذا اختيرَ له الفعلُ المضارعُ الدّالُّ على استمرارِ الختمِ وتجدُّدِهِ[2].

دلالةُ فاصلةِ الآيةِ:

في الفاصلة تسليةٌ للنّبيّ محمّد ﷺ

وفي قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إلى آخر الآية، تسليةٌ للنّبيّ محمّد ﷺ؛ بأنّ ما لقيه من قومه هو سنّةُ الرّسلِ السّابقين، وأنّ ذلك ليس لتقصيرٍ منه، ولا لضعفِ آياته، ولكنّه للختم على قلوبِ كثيرٍ من قومه[3].

بلاغةُ الالتفات منَ المتكلّم إلى الغائب:

فيه التّخويفُ والتّهديدُ، والتّشويقُ والإثارةُ، والتّوسيعُ والتّحريضُ

الالتفاتُ منَ المتكلّم ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ إلى الغائب ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾؛ للتّخويف، والتّهديد، والتّشديد على عِظَم فعل الطّبع؛ إذ لا هداية تُرجى، ولا توبةَ تُؤمّل، وفيه التّشويق والإثارة: فإنّ المتكلِّمَ يشوقُ المستمعَ إلى سماع قصصِ المكذِّبين، ويثيرُ اهتمامَه بالأحداث الّتي حدثَت لهم، ويجعلُه يتساءل عن مصيرهم وسبب الطّبع على قلوبهم، وفيه التّوسيع والتّحريض: فإنّ المتكلِّمَ يوسِّعُ المعنى من قصص المكذِّبين المذكورين في سياق السّورة إلى قاعدةٍ عامّةٍ تشملُ كلَّ مَن كفر بالآيات والرّسول، ويحرِّضُ المستمعَ على التّفكّر في عظمة قدرةِ اللّه تعالى وشدّةِ عذابه.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/212 - 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.

توجيهُ متشابهِ ألفاظ: (الكافرين)، و(المعتدين)، و(المجرمين):

تأكيدُ التّعريف بحال الجاحدين ممّن سبق، وشمولُهم جميعًا بالوصف

قال في الأعراف: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال في يونس: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤﴾ [يونس: 74]؛ لأنّ آيةَ الأعراف لمّا تقدَّمَها قصصٌ قد جرى فيها تفصيلُ ذكرِ مُكذِّبي الأمم أنبياءهم، وكيف ردّوا عليهم، وخاطبوهم به، فحصل من هذه الآيات مِنَ التّعريف بحال هؤلاء الأممِ في هذه القَصص بذكر غيرِهم ممَّن سلكَ مسلكَ مَن تقدّمَهم منَ المذكورين ما ناسبه وصفُهم بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، يؤكّدُه أنّ الألفَ واللّامَ فيه للجنس، المفيد للاستغراق؛ أي: جميعُ الكافرين ممّن ذُكِرَ وغيرهم[2]، وأمّا آيةُ يونس فلم يتقدّم قبلها تفصيلٌ، ولا إفصاحٌ بمخاطبة نبيٍّ ومواجهته بمثل ما في آيات الأعراف، ولا فيه بسطُ قصّةٍ منها، بل أوجزَ معنى ما انطوَت عليه تلك القصّة موردًا إيّاها على سبيل الإجمال، فناسبه وصفُهُم بـ ﴿ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤﴾ [يونس: 74] ومن قبله في أوَّلِ السّورَةِ كَذلكَ بـ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣﴾ [يونس: 13]، وإنّما لم يقع إفصاحٌ بكفرهم مع أنّهم كفّارٌ؛ فلكونه محصَّلًا من مجمل ذكرِهم إلّا أنّ جليلَ مناسبةِ النّظمِ مُقتضٍ ما ورد عليه كلُّ ما في السّورتين، وقصَدَ إلى التَّعبير عنِ المشار إليهم منَ المُهلَكينَ بـ(الإجرام) - وهو أكبرُ وقعًا من الاعتداء -؛ ليطابقَ وصفَهم بالظّلم؛ والمرادُ به تكذيبُهم الرّسلَ وكفرُهُم بما جاؤوهم به، فلم يكن ليطابقَ ذلك الوصفَ الاعتداءُ، ولم يوصفوا أيضًا بالكفر؛ إذ لم يقع به إفصاحٌ فيما تقدَّم، فكان وصفُهم بالإجرام أنسبَ[3].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/213.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّبأ والخبر:

النَّبأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحصُل بهِ عِلمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، وحقُّه أن يَتَعرَّى عنِ الكَذِب، كالمُتَواتِرِ وخَبَرِ الله وخَبرِ الرّسولِ ﷺ[1]، وينبغي أن يقيَّدَ بالخفيِّ؛ أي: الّذي كان خفيًّا.

فالفرقُ بين النّبأ والخبر أنّ النّبأ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المخبَر، في حين أنّ الخبرَ يجوزُ أن يكونَ بما يعلمه وبما لا يعلمه، فيجوز أن تقولَ: تُخْبرني عمّا عندي، ولا تقول: تنبئني عمّا عندي، وبذا فهو يُستعمَلُ في ما الأصل فيه مجهول لأحد الطّرفين[2]، ولكون أخبارِ القرى المذكورة في هذه السّورة الكريمة لا يعلمُها النّبيُّ ﷺ ولا قومُه، ناسبَ الإتيانُ بلفظ "الأنباء" دون لفظ الأخبار.

المجيء، والإتيان:

المجيءُ أعمُّ منَ الإتيان؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والإتيانُ قد يُقال باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول، ويُقال: جاء في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا[3]، فعبَّر في الآية الكريمة بـ (المجيء) باعتبار ما حملته رسلُ هؤلاء الأقوام لهم منَ الهدى، والحججِ البيِّناتِ الدّالّةِ على صدقهم، فناسب إطلاقَه، دون لفظ الإتيان.

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 1/443.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).

(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).

﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف: 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا كان نقضُ العهد أفظعَ شيءٍ، ولا سيّما عند العرب، قال عاطفًا على ﴿فَمَا كَانُواْ﴾: ﴿ وَمَا وَجَدۡنَا﴾[1]، إذ بعد خطابِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ إيناسًا، وعِبرةً لقومه أطلعَه على الطّبائع الغالبة في البشر؛ كي لا يضيق ذرعًا بأحوال مَن أُرسِل إليهم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَدۡنَا﴾: (وجد) وفي لغةٍ (وَجِدَ بكسر الجيم) مضارعه يَجِدُ، وفي لغة (يَجُدُ) بضمّ الجيم[3]. والواو والجيم والدّال يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيُّ يُلفيه[4]. ووجدتُ الشّيءَ: أصبتُه[5]. وأوجَدَهُ اللّه مطلوبهُ: أظفرَه به، ومن معانيه الإيجادُ مِنَ العدمِ[6]. ووجد المطلوبَ: أدركَه[7]، فهو وجودٌ بالحواسّ الخمس[8]، فهو تحصّلُ شيءٍ ذي بال في حَوزةٍ كانَت خاليةً منه كالمالِ والضالة والتّحقّقِ المادّيِّ عن عدمٍ، ومِن صوَرِه العثورُ على الشّيء في الحوزة دون معرفةٍ مسبقةٍ بذلك: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: 75]، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ [آل عمران: 37]، ففيها الفعل (وَجَدَ) تامٌّ معناه: إصابةُ ذاتِ الشّيء؛ أي: العثور عليه في الحيّز، وفي آياتٍ أخرى تكون بمعنى العلم؛ أي: وجود الشّيءِ على صفَةٍ، أو حالٍ؛ أي: العلم بوجودها فيه[9]. وقد ورد الفعلُ وجد، وما تصرَّف منه في آياتٍ كثيرةٍ، والمعنى فيها قريبٌ من بعض، أمّا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/17.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/340.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (وجد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(5) الفراهيديّ، العين: (وجد).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وجد).
(7) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وجد).
(8) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجد).

ما يُنسبُ إلى اللّه تعالى منَ الوجود فبمعنى العلمِ المجرّدِ؛ إذ كان اللّهُ منزّهًا عن الوصف بالجوارح والآلات.[1].

2) ﴿عَهْدٍ﴾: (عَهِدَ) العينُ والهاءُ والدّالُ أصلٌ دالٌّ على معنى واحدٍ، هو الاحتفاظُ بالشّيء، وإحداثُ العهدِ به، والاحتفاظُ هو المعنى الّذي يرجعُ إليه فروعُ الباب[2]. والعَهدُ: الوَصيَّةُ، والمَوثِقُ[3]، ورعايةُ الحُرمَة، والأمانُ، واليَمينُ يحلفُ بها الرّجلُ، والذّمّةُ[4]، ومن هنا فالعهدُ: حفظُ الشّيءِ ومراعاتُه حالًا بعد حال، وسُمّي المَوثِقُ الّذي يَلزَمُ مُراعاتُه عَهدًا. وعهدُ اللّه تارةً يكون بما رَكَزَهُ في عقولنا، وتارةً يكون بما أمرَنا به بالكتابِ، وبالسّنّةِ رُسُلِه، وتارةً بما نلتزمُه وليس بلازمٍ في أصلِ الشّرع، كالنّذور وما يجري مجراها[5].

والعهدُ بمعنى الوصيّةِ والمَوثِقِ - وما إليهما - إلزامٌ يُؤخَذُ من تكرار وقوعِ حدثٍ، أو أمرٍ بانتظامٍ في زمنٍ، أو مكانٍ معيّنٍ؛ إذ يُؤخَذُ من ذلك ضرورةُ الوقوع (عند حلولِ الزّمنِ أو الظّرفِ، ثمّ يُطلَقُ) فالعهدُ هو الميثاقُ واليمينُ الّتي تستوثقُ بها ممَّن يعاهدك، وكلُّ (عَهدٍ) في القرآن فهو المَوثِقُ، أو ما عوهِدَ عليه[6].

3) ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾: (فسق) الفاءُ والسّينُ والقافُ كلمةٌ واحدةٌ بمعنى الخروجِ عنِ الطّاعة[7]. والفِسقُ: التَّركُ لأمرِ اللّه، والميلُ عَنِ الطّاعةِ إلى المعصيةِ، كما فسقَ إبليسُ عن أمرِ ربِّه[8]؛ إذ ردَّ أمرَه، وخرَج، وجار، ومالَ عَن طاعتِه[9]، وفَجَرَ[10]. فالفسوق: الخُروجُ عَنِ الدِّين[11]. وعن حَجرِ الشّرع[12]. ومنَ المجاز فسقَتِ الرّكابُ عن قصد السّبيل: جارَت[13]. وقيل: إنّ

(1) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(2) الفراهيديّ، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عهد).
(3) الفراهيديّ، العين: (عهد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح: (عهد).
(5) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عهد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(8) الفراهيديّ، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (فسق).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فسق).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (فسق).
(11) ابن سيده، المحكم: (فسق).
(12) الرّاغب، المفردات: (فسق).
(13) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فسق).

أصلَ الفُسوقِ الخُروجُ عَنِ الاستِقامة، والجَورُ، وبِهِ سُمّي العاصي فاسِقًا[1]؛ لانسلاخه عنِ الخير، وتركِه لأمر اللّهِ تعالى وعصيانِه وخروجِه عن طريق الحقِّ، وفجورِه[2]. والفسقُ يقعُ بالقليل منَ الذّنوب وبالكثير، لكن تُعورفَ فيما كان كثيرًا. وأكثرُ ما يُقال: الفاسقُ لِمَنِ التزمَ حكمَ الشّرعِ، وأقرَّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامِه أو ببعضِه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فاسقٌ؛ فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمَه العقلُ، واقتضته الفطرةُ[3]، وخروجُ الفاسقِ عن طاعة اللّه تعالى يكون تارةً بكفرٍ، وتارةً بعصيانٍ غير الكفر، فإنّ مَن كان مؤمنًا وفسق بمعصيةٍ دون الكفر؛ فإنّه فاسقٌ بفسقه، مؤمنٌ بإيمانه؛ أي: لم يخرج بفسقه عنِ الإيمان، ولا بلغ حدَّ الكفر. وممّا وُصِفَ بأنّه فسقٌ - من تتبّع الآياتِ الّتي ذُكِرَ فيها اللّفظ -: الظّلمُ، والذَّبحُ على النُّصُب، والأكلُ ممّا لم يُذكَرِ اسمُ اللّه عليه، والاستقسامُ بالأزلام، والإتيانُ بنبأٍ كاذبٍ مثيرٍ للفتنة، والكفرُ بآيات اللّه، وعدمُ الحكم بما أنزل اللّه، والنّفاقُ، ورميُ المحصنات، ومُضارّةُ الكاتب والشّهيد، ومقارفةُ الذّنوب، ولا يخرجُ المرادُ بلفظ الفسق في القرآن الكريم عمّا ذُكِرَ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

إنـكـارُ العـهـدِ أمارةُ الفساد

ما علمنا لأكثر الأمم الّتي أهلكناها من وفاءٍ، والتزامٍ بالعهدِ الّذي وصّيناهم به، منَ الإيمان باللّه ﷻ، وتوحيدِه، وتقواه، واتّباعِ رسله عليهم السلام. والعهدُ هنا يعمُّ كلَّ ما يَصلُح له من عهدٍ فطريٍّ جُبِلوا عليه، وشرعيٍّ بُلّغوا به وأنذروا، وعرفيٍّ ممّا يَلتزِمُه النّاسُ مع بعضهم من مواثيق[5]، بل وجدنا أكثرَهم خارجين عنِ الاستقامة، منسلخين عنِ

(1) ابن الأثير، النّهاية: (فسق).
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (فسق).
(3) الرّاغب، المفردات: (فسق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسق).
(5) رضا، تفسير المنار: 9/35.

الخير، تاركين لأمر اللّه، عاصين له، منتهكين لحرماته، مُعرِضين عن طاعته.

وتهدي الآيةُ إلى: أنّه لا ينبغي الاغترارُ بما عليه أكثرُ الخَلقِ، فالأصلُ اتّباعُ الحقِّ بدليله؛ لأنّ الأكثرية لا عهدَ لهم، ولا ذمّة، فلا تعجب بالباطل وإنْ كثُر متبنّيه، ولا تستوحشِ الحقَّ لقلّة سالكيه، فالعِبرةُ بالكيف لا الكمّ[1]، ولا ينبغي إطلاقُ التّهم، وإعمامُ الأحكام جُزافًا، بل يجب انتقاء الألفاظ المناسبة لذلك، الّتي تعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فإن كان الأكثرون استحقّوا العذابَ لكفرهم ونقضهم لعهودهم، فإنّ هناك أقليّةً آمنَت[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

العـربُ تمقتُ نـقـضَ العـهد فكُرِّرَ لذلك

ولما كان نقضُ العهد أفظعَ شيءٍ، ولا سيّما عند العرب، قال عاطفًا على ﴿فَمَا كَانُواْ﴾ بجملة: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا﴾؛ أي: في عالم الشّهادةِ ﴿لِأَكۡثَرِهِم﴾؛ أي: النّاس[3]، مُرسِّخًا سوءَ خصالهم، ومُؤكِّدًا إصرارَهم على الجُحود والكِبْر.

سرُّ تأكيد الاستغراق:

النّاسُ في الشدّة يـلـجـؤون إلى الله، وفي الرّخاء ينكرون نعمتَه عليهم

أكّد الاستغراقَ فقال: ﴿مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾؛ وفاقًا لما كان عند اللّه تعالى في عالم الغيبِ، وهذا إمّا إشارةٌ إلى الميثاق يوم قال لهم: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172]، وإمّا إلى ما يفعلون حالَ الشّدائدِ منَ الإقلاع عنِ المعاصي والمعاهدة على الشّكر: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22][4].

(1) سليمان اللاّحم، عون الرّحمن في تفسير القرآن: 9/231.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/139.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/77.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/77.

بلاغةُ عطفِ الجملِ:

جملة: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾، وما رُتِّبَ عليها من قوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ تنبيهٌ على رسوخ الكفرِ في نفوسهم، بحيث لم يقلعْهُ منهم لا ما شاهدوُه منَ البيّنات، ولا ما وضعَهُ اللّهُ في فطرة الإنسانِ منَ اعتقادِ وجودِ إلهٍ واحدٍ، وتصديقِ الرّسلِ الدّاعين إليه، ولا الوفاءُ بما عاهدوا عليه الرّسلَ عند الدّعوةِ: إنّهم إن أتَوهم بالبيّنات يُؤمنونَ بها[1].

ما يترتّبُ على العطف تنبيهٌ على رسوخ الكُفر في نفوسهم فلا ينزعُه مُؤثِّرٌ

نكتةُ التّعديةِ باللّام:

وإنما عُدّي عدمُ وجدان الوفاء بالعهد في أكثرهم باللّام؛ للإشارة إلى إخراجِ مُؤمني كلِّ أمّةٍ من هذا الذّمّ، والمرادُ بأكثرِهم، أكثرُ كلِّ أمّةٍ منهم، لا أمّةٌ واحدةٌ قليلةٌ من بين جميع الأمم[2]. فالضّميرُ في ﴿لِأَكۡثَرِهِم﴾ للنّاس على الإطلاق؛ أي: وما وجدنا لأكثر النّاس من عهدٍ، يعني: أنّ أكثرَهم نقضَ عهدَ اللّه وميثاقَه في الإيمان والتّقوى، وإنّ الشّأنَ والحديثَ أنّا وجدنا أكثرَهم فاسقين، خارجين عنِ الطّاعة مارقين، والآيةُ اعتراضٌ. ويجوزُ أن يرجعَ الضّميرُ إلى الأمم المذكورين، وأنّهم كانوا إذا عاهدوا اللّه في ضرٍّ ومخافةٍ: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ [يونس: 22]، ثمّ إذا نجّاهم؛ نكثوا، كما قال قومُ فرعونَ لموسى ﵇: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾، إلى قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: 134 - 135][3].

مؤمنو الأممِ الماضيةِ مكرّمون عند الله

علّةُ التّعبيرِ بـ(الأكثر) دون غيره:

وإنّما حُكِمَ على الأكثر؛ لأنّ بعضَهم قد آمنَ والتزمَ كلَّ عهدٍ عاهد اللّه عليه، أو عاهده اللّهُ عليه، أو تعاهد عليه مع النّاس، ومنهم مَن

في التّغليب احتراسٌ في تحديد الحقائقِ، بما يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/33.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/136.

كان يفي ببعض ذلك حتّى في حال الكفرِ؛ إذ لا يتَّفِقُ أفرادُ أمّةٍ كبيرةٍ على الشّرّ والباطلِ في كلّ شيءٍ، وهذا من دقّة القرآنِ في تحديد الحقائقِ بالصّدق الّذي لا تشوبُه شبهاتُ المبالغة بما يسلبُ أحدًا حقَّه، أو يعطي أحدًا غير حقِّه[1].

أسندَ حكمَ النّكثِ إلى أكثر أهلِ القرى

إذ أسندَ حكمَ النّكثِ إلى أكثر أهلِ القرى؛ تبيينًا لكون ضميرِ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ جرى على التّغليب، ولعلَّ نُكتةَ هذا التّصريح في خصوصِ هذا الحُكم أنّه حكمُ مَذمّةٍ ومَسبّةٍ، فناسبَت مُحاشاةَ مَن لم تَلتصِقْ به تلك المسبّةُ[2]، وهو لونٌ منَ الاحتراس الّذي امتازَ به القرآنُ في عرضه للحقائق، فهو لا يلقي التّهمَ جزافًا، وإنّما يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فإن كان الأكثرون قد استحقّوا الذّمّ لكفرهم ونقضهم لعهودهم، فإنَّ هناك قلّةً آمنت، فاستحقّتِ المدحَ والثّناءَ[3].

بلاغةُ الكنايةِ في نفي الوجدان:

الإشارةُ إلى أنَّ دَيْدنَ الأممِ السّابقةِ عدمُ الوفاءِ بما أوصاهم اللهُ به

نفيُ الوجدانِ في الأوّل كنايةٌ عن انتفاء العهدِ بالمعنى المقصودِ؛ أي: وفائه؛ لأنّه لو كان موجودًا؛ لعَلِمَهُ مَن شَأنُه أن يعلمَه، ويبحثَ عنه عند طلبِ الوفاءِ به، ولا سيّما أنَّ المتكلّمَ بهذا هو الّذي لا تخفى عليه خافيةٌ، فمعنى: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾ ما لأكثرهم، ولأنّ أصلَ الوعد ثابتٌ موجودٌ، ولكنّه لمّا كان تحققُّه لا يظهرُ إلّا في المستقبل، وهو الوفاءُ، جعلَ انتفاءَ الوفاءِ بمنزلة انتفاءِ الوقوعِ، والمعنى على تقديرِ مضافٍ؛ أي: ما وجدنا لأكثرهم من وفاءِ عهدٍ[4].

فكلمةُ ﴿عَهۡدٖۖ﴾ في الآيةِ بمعنى (وفاء) أو (صدق)، وهي كنايةٌ عن صفة. والمرادُ بها هنا أنَّ اللّه تعالى لم يجد لأكثر أهلِ القرى الّتي أهلكها وفاءً بما أوصاهم به من توحيدِ اللّه، واتّباعِ رسلِه وطاعته.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/32.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/340.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32 - 33.

ومن بلاغة الكنايةِ في السّياق الكريمِ أنَّ فيه تشبيهًا بالحذف؛ فقد شبَّه اللّهُ تعالى أفعالَ المُكذِّبين بالأشياء الّتي لا توجد، فقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾ بدلًا منَ التّعبير: بـ "ولم نر"، أو "ولم نشهد"، ونحو ذلك.

وجهُ تعريفِ العهد:

الأمـمُ السّابقةُ نقضَت كلَّ أنواعِ العهدِ المتعارف عليه

العهدُ اسمُ جنسٍ وقعَ في سياق النّفي المؤكَّدِ بـ (من)، وهو يقتضي انتفاءَهُ بجميع المعاني الّتي يصدقُ عليها[1]؛ ليعمَّ كلَّ ما يصلحُ له من عهدٍ فطريٍّ وشرعيٍّ وعُرفيٍّ ممّا يلتزمُه النّاسُ بعضهم مع بعض في تعاهدهم وتعاقدهم[2]، فـ (مِنْ) لاستغراقِ جنسِ العهدِ، ولا تجيءُ هذه إلّا بعد النّفي[3]، ولولاها؛ لجاز أن يتوهّمَ أنّه عهدٌ واحدٌ في المعنى[4].

ومن بلاغةِ التّعبيرِ القرآنيِّ أنّه دلَّ على التّصغير والتّحقير في عموم ما يتعاهَدُ عليه النّاس؛ فقد استخدمَ اللّهُ تعالى كلمةَ ﴿عَهْدٍۖ﴾؛ لبيان أدنى المراتب المطلوبة من هؤلاء القوم المكذِّبين، فإنَّ العهدَ هو أضعفُ مراتب الإيمان، فإذا لم يجده في أكثرهم فلا يتوقّعُ منهم شيئًا آخر.

دلالةُ الخبرِ في جملة الوجدان:

تـعـمّـدوا نـكـثَ الـعـهـد، وتقصدوا الكفرَ والجحدَ

جملة: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ إخبارٌ بأنّ عدمَ الوفاء بالعهد مِن أكثرِهم كانَ منهم عَن عمدٍ، ولكون ذلك معنى زائدًا على ما في الجملة الّتي قبلَها عُطِفَت، ولم تُجعَلْ تأكيدًا للّتي قبلَها أو بيانًا؛ لأنّ الفسقَ هو عصيانُ الأمر، وذلك أنّهم كذّبوا فيما وعَدوا عن قصدٍ للكُفر[5]، ومبتدؤها ضميرُ الشّأن محذوفٌ؛ أي: إنَّ الشّأنَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/33.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/32.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/434.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/255.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/33.

وجدنا أكثرَهم لفاسقين، أو هي النّافية، واللّام في ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾؛ بمعنى إلّا: أي: إلّا فاسقين، خارجين عنِ الطّاعة خروجًا شديدًا[1].

دلالةُ الوجودِ على العلم:

نـوّه بالخبر ليعلمه مَن يسمع

الوجودُ بمعنى العلم بدليل دخول (إن) مخفّفة منَ الثّقيلة، وليستِ العاملة لمباشرتها الفعل، فزالَ اختصاصُها المُقتَضي لإعمالها، وبعدَها مبتدأٌ محذوفٌ هو ضميرُ الشّأن، والجملةُ خبرٌ عنه تنويهًا بشأن هذا الخبر ليعلمَه السّامعون، واللّام الفارقة[2].

في جعْلِ إن نافية إثباتٌ لفسوق ناقضي العهود على طريق التّوكيد

ويجوزُ أن تكونَ (إن) للنّفي، واللّام بمعنى (إلّا)، والتّقديرُ عندَهم: وما وجدنا أكثرَهم إلّا فاسقين[3]، ويكون المعنى: إثباتَ الفسوق في ناقضي العهود، على طريق التّوكيد بتصدّرِ (إن)، أو الاستثناءِ المفرّغِ، وتعزّزُه اللّامُ في ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ الدّالّة على خروجهم عنِ الطّاعة خروجًا شديدًا[4].

بلاغةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم﴾ ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

صوغٌ بمحاسن الكلام طردًا، وعكسًا، وجناسًا، ومقابلةً

فالطّرد والعكس باعتبار مدلول اللّفظِ، وهو أن يُؤتَى بكلامين يقرّرُ الأوّلُ بمنطوقه مفهومَ الثّاني وبالعكس، وفيه الجناسُ التّامُّ بين ﴿وَجَدۡنَا﴾ الأولى وهي بمعنى: ألفينا، والثّانية وهي بمعنى: علمنا، والمقابلةُ بين النّفي والإثبات في سلب الوجود الأوّل وإثبات الثّاني[5].

وهذا النّوعُ منَ الإطنابِ يقابلُه في الإيجاز نوعُ الاحتباك: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾؛ أي: أرسلناه ﷺ بعد الرّسلِ أو بعد الأممِ[6].

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/262.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/136، وابن عادل، اللّباب: 9/243.
و(إن) المخفّفة إذا باشرتِ الفعلَ وجب إهمالُها، ولكنّ العكبريّ والزّمخشريّ أعملاها، والاسمُ عند العكبريّ ضميرُ المتكلّم، وعند الزّمخشريّ ضميرُ الشّأن.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/434، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/26.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 2/262.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/33.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/17.

وقصد إلى الختم بلفظ ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾؛ لأنّ أوّلَ صفاتِهم أنّهم لا عهدَ لهم مع خالقهم، ولا عهدَ لهم مع النّاس، ولذلك لا يُؤمنُ لهم أبدًا[1]، وعبّر بصيغة اسمِ الفاعلِ مُؤكَّدًا باللّام؛ ليدلَّ على ثباتِ الصّفةِ فيهم، وديمومتِها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العهد والميثاق:

العهدُ ميثاقٌ مع عـدم اليـمين، ويـبـيّنُ أدنى درجات الوفاء

الميثاقُ عهدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ، وعاهده: عقد معه عهدًا؛ أي: موثقًا، ولعلّ عدمَ اليمين هو الأصلُ في العهد، ثمّ أُضيفَ إليه اليمينُ - بَعدُ - توكيدًا[2]. والميثاقُ توكيدُ العهد، فهو أبلغُ منَ العهد، يرشدُ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27]؛ أي: من بعد توكيده. كما يُفرَّقُ بين العهدِ والميثاقِ؛ بأنَّ الميثاقَ يتعدّى بحرفٍ، فيُقال: ميثاقٌ به، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: 7]، وأنّ العهدَ يتعدَّى بنفسه، فيُقال: عهدُهُ، كقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: 100].

ومن بلاغة التّعبيرِ القرآنيِّ أن أطلقَ كلمةَ ﴿عَهْدٍ﴾ في هذا السّياق؛ ليبيّنَ أدنى المراتبِ المطلوبةِ منَ الأممِ الماضيةِ المكذِّبةِ فيما جاءَتهم به رسلُهم منَ الحقِّ، فإنَّ العهدَ هو أقلُّ درجاتِ الوفاءِ من كلِّ واحدٍ منهم، وبخاصّةٍ إذا لوحِظَ أنَّ الميثاقَ يُستخدَمُ - عُرفًا - للإشارة إلى اتّفاقٍ جماعيٍّ، وأنّ العهدَ يُستخدَمُ للإشارة إلى اتّفاقٍ فرديٍّ.

(فاسقون)، و(ظالمون)، و(كافرون):

الفسقُ أعمُّ منَ الكفر، والفسقُ يقعُ بالقليل منَ الذّنوب وبالكثير، لكن تُعورِف فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يُقال: الفاسقُ لِمَن التزمَ حكمَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/217.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عهد).

الشّرعِ وأقرَّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فاسق؛ فلأنّه أخلَّ بحكم ما ألزمَه العقلُ، واقتضتْه الفطرةُ، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسق[1]، وأكثرُ ما يُقال: الفاسقُ لِمَنْ أقرَّ بحكْمِ الشّرعِ، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضه، ولذلك جاء السّياقُ الكريمُ في الآية مناسبًا للفظة الفسق.

الفسقُ إقرارٌ بحكم الشّرع وإخلالٌ بأحكامه، والفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسق

(1) الرّاغب، المفردات: (فسق).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ قصصِ موسى وفرعونَ وبني إسرائيل للاعتبار والاتّعاظ

لمّا قصَّ اللّهُ تعالى على نبيّه ﷺ أخبارَ الأنبياءِ السّابقين: (نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشعيبٍ)، وما آلَ إليه أمرُ قومِهم، وكان هؤلاءِ لم يَبْقَ منهم أحدٌ، أتبَعَ ذلك بقصصِ موسى، وفرعونَ، وبني إسرائيل؛ إذ كانَت مُعجزاتُ موسى من أعظم المعجزات، وأمّتُهُ من أكثر الأُمم تكذيبًا، وتَعَنُّتًا، واقتراحًا، وجهلًا، وكان قد بقيَ من أتباعِهِ عالَمٌ، وهم اليهودُ، فقَصَّ اللّه على رسوله ﷺ وعلينا؛ لنعتبرَ، ونتَّعِظَ، ونحذرَ التّشبّهَ بهم، وننزجِرَ عنِ اتّباع نهجهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعَثْنَا﴾: (بعث) أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارةُ[2]، والإرسالُ، والهيجانُ، والتّنبيهُ. ويومُ البَعثِ: يومُ القيامة[3]. وبَعَث عليهِم البلاء: أحلَّه بهم، وهو الحملُ على الشّيء، والاندفاعُ، والإيقاظُ[4].

وخلاصةُ البعث في كلام العَرَب على وجهَين: أحدهما: الإرسال، والإثارة، والآخر: الإحياء منَ اللّه للموتى[5]، والإيجادُ للأعيان، والأجناس، والأنواع[6].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/126.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(3) الفراهيديّ، العين: (بعث).
(4) ابن سيده، المحكم: (بعث).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بعث).
(6) الرّاغب، المفردات: (بعث).

وتحريرُ معاني وروده في القرآن: بَعثُ الموتى منَ القبور، وتوجيهُ رسولٍ أو نبيٍّ، أو ملكٍ، أو حَكَمٍ، أو نقيبٍ، والإثارةُ، والدّفعُ، وإنهاضٌ بعد موتٍ مؤقّتٍ أو نومٍ أو نحوه[1].

ومعناه في الآية الكريمة: توجيهُ نبيِّ اللّه موسى عليه السلام إلى فرعونَ وقومِه.

2) ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾: وهو عَلَمُ جنسٍ لملكِ مصرَ في القديم؛ أي: قبل أن يملكَها اليونان، وهو اسمٌ من لغة القبطِ من (فَرْعن)، وهو كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ. والعتاةُ: الفراعنة. وقد تَفَرْعَنَ، وهو ذو فرعَنَةٍ؛ أي: دهاءٍ ونُكرٍ وكِبرٍ وتجبّرٍ، وفي الحديث: «أخذنا فِرْعَونَ هذه الأمّة»[2]، وقيل: الفِرعَون بلغة القبطِ التّمساح[3]، وقيل: أصله في القِبطيّة (فاراهُ)، ولعلّ الهاءَ فيه مُبدلَةٌ عنِ العين، فإنّ (رَعْ) اسمُ الشّمس فمعنى (فاراه): نورُ الشّمس؛ لأنّهم كانوا يعبدون الشّمس فجعلوا مَلكَ مصرَ بمنزلة نورِ الشّمس؛ لأنّه يُصلِحُ النّاسَ، نُقِلَ هذا الاسمُ عنهم في كتب اليهودِ، وانتقلَ عنهم إلى العربيّة، ولعلّه ممّا أدخلَهُ الإسلامُ[4]، وهو: لقبُ كلِّ مَن مَلَكَ مِصرَ كالعَزيزِ لكلِّ مَن مَلَكَهُ[5]، أو هو نظيرُ (كسرى) لملكِ ملوكِ الفرسِ القُدماءِ، و(قيصر) لملكِ الرّوم، و(نمرود) لمَلكِ كنعانَ، و(النّجاشيّ) لمَلكِ الحبشِ، و(تُبَّع) لمَلك ملوكِ اليمنِ، و(خان) لمَلك التُّرك[6].

3) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: (فسد) أصل يدلّ على الفساد[7]: نَقيضُ الصَّلاح[8]، وفَسَّدَ الشّيءَ: إذا أبارَه[9]. فسَد الشّيءُ: بَطَلَ واضمَحلّ، ويكون بمعنَى تَغَيَّرَ. والفَسادُ: أخذُ المالِ ظُلمًا بِغَير حَقٍّ[10]، وخروجُ الشّيءِ عنِ الاعتدال قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُستعمَلُ في

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (فرعن)، وورد بلفظ: «هذا فِرعَونُ هذه الأُمَّةِ» كنايةً عن أبي جهلٍ، كما روى عبدُ الله بن مسعود، قال: أتَيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله يومَ بَدرٍ، فقُلتُ: قَتَلتُ أبا جَهلٍ، قال: آللهِ الّذي لا إلهَ إلّا هو؟ قال: قُلتُ: آللهِ الذي لا إلهَ إلّا هو، فرَدَّدَها ثلاثًا، قال: اللهُ أكبرُ! الحَمدُ للهِ الّذي صَدَقَ وعدَه، ونَصَرَ عبدَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه، انطلِقْ فأرِنيه، فانطلَقْنا فإذا به، فقال: «هذا فِرعَونُ هذه الأُمَّةِ». رواه الإمام أحمد في مسنده، الحديث رقم: (4247)، واللّفظ له، وأخرجه النّسائيّ في السّنن الكبرى، الحديث رقم: (8670)، وإسناده ضعيف.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرعن).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.

(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (فرعن).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسد).

(8) الفراهيديّ، العين: (فسد).

(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فسد).

(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (فسد).

النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عنِ الاستقامة[1]. وخلاصةُ القولِ في الفساد: إنَّه يشمل إهلاكَ الزّرعِ والنّسلِ؛ أي: الثّروة العامّة والأضرار الّتي تَمَسُّ النّاسَ مباشرة، أو بالغشّ والإهمالِ والارتشاءِ والمحاباةِ والخيانةِ في إدارتها، ويشملُ السّرقةَ، ونَهْبَ المال العامّ، وسَفْكَ الدّماء، وبهذه المعاني كلُّ ما تصرّفَ من هذا اللّفظ في القرآن الكريم[2].

۞ المعنى الإجْمالِيُّ:

خلاصةُ قصّةِ موسى عليه السلام مع فرعون: المفتتح والمآل

في الآية الكريمة انتقالٌ من أخبار الرّسالاتِ السّابقةِ إلى أخبار رسالةٍ عظيمةٍ لأمّةٍ باقيةٍ إلى وقتِ نزولِ القرآنِ، فضَّلها اللّهُ، فلم توَفِّ حقَّ الشّكر[3]، وبعثُ موسى بن عمران بمعجزاتِ اللّه كان بالدّلائل والبراهين والآيات الواضحات، فظلموا أنفسَهم كفرًا بها وجحودًا، وكِبرًا؛ إذ لم يبلغ أحدٌ منَ المُكذّبين منَ السّلطان والتّسلّط والقهر لبني إسرائيل ما بلغه فرعونُ - وملاك ذلك ادّعاؤه أنّهُ الرّبُّ الأعلى[4]، وليس بعد ذلك الكفرِ كفرٌ - وكِبرُهُ مع أشراف قومِه ورؤسائهم. فانظر - أيّها الرّسول - مُتبصّرًا كيف فعلنا بهم، فأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومِه؟ وتلك نهايةُ القوم المفسدين.

وترشدُ الآيةُ إلى النّظر في عاقبةِ المفسدين، والتّدبّرِ في مآل أحوالهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

رسالةُ موسى جاءَت بأعظم شريعةٍ بين يدي الإسلام

انتقالٌ من أخبار الرّسالاتِ السّابقةِ إلى أخبار رسالةٍ عظيمةٍ لأمّةٍ باقيةٍ إلى وقت نزولِ القرآنِ، فضّلَها اللّهُ بفضله، فلم توَفِّ حقَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.
(4) شيبة الحَمْد، تهذيب التّفسير، وتجريد التّأويل: 5/244.

الشُّكرِ، وتلقَّت رسولَها بين طاعةٍ وإباءٍ وانقيادٍ ونِفارٍ، فلم يعاملْها اللّهُ بالاستئصال، ولكنّهُ أراها جزاءَ مُختلِفِ أعمالِها، جزاءً وِفاقًا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

وخُصَّت قصّةُ إرسالِ موسى بالتّفضيلِ لما تحتويه منَ الحوادث العظيمةِ، والأنباء القيِّمة، ولأنّ رسالتَه جاءَت بأعظم شريعةٍ بين يدَي شريعةِ الإسلام، وأُرسِلَ رسولُها هاديًا وشارعًا تمهيدًا لشريعةٍ تأتي لأمّةٍ أعظمَ منها تكونُ بعدَها، فضلًا عن أنّ حالَ المُرسَلِ إليهم أشبهُ بحالِ مَن أُرسِلَ إليهم محمّدٌ ﷺ؛ فإنّهم كانوا فريقين: مؤمن، وكافر، فأهلكَ اللّهُ مَن كفرَ، ونصرَ مَن آمنَ[1].

متشابهُ التّعبيرِ عن لفظي الإرسال، والبعث حذفًا وذكرًا:

تشابهُ القَصص مدعاةٌ للاستغناء بالمذكور منها، دون إعادة فعل الإرسال

في الآية إلماحٌ إلى اختلاف نوعي الإرسال، والفرق: أنّ تلك القصصَ متشابهةٌ في تكذيب الأقوامِ فيها لرسلِهم ومعاندتِهم إيّاهم وإيذائِهم لهم، وفي عاقبة ذلك بإهلاكهم بعذاب الاستئصال، ولذلك عطفَ كلَّ واحدةٍ منهنَّ على الأولى دون إعادة ذكرِ الإرسالِ؛ للإيذان بأنّها نوعٌ واحدٌ، فقال: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [الأعراف: 65]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: 73]، ﴿وَلُوطًا﴾ [الأعراف: 80]، ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: 85]، ثمّ أعادَ في قصّة موسى ذكرَ الإرسالِ للتّفرقة، ولكن بلفظ البعثِ، وهو أخصُّ وأبلغُ من لفظ الإرسالِ؛ لأنّه يفيدُ معنى الإثارة والإزعاج إلى الشّيء المهمّ، ولم يُذكَرْ في القرآن إلّا في بعث الموتى، وفي الرّسالة العامّة؛ أي: بعثَ عدّةً منَ الرّسل، وفي بعثة نبيّنا وموسى خاصّة، وكذا في بعث نقباء بني إسرائيل، وبعث مَن انتقمَ منهم، وعذَّبَهم، وسباهم حين أفسدوا في الأرض، فالتَّعبيرُ بلفظ البعثِ هنا يؤكّدُ ما أفادته إعادةُ العاملِ منَ التّفرقة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.

بين نوعي الإرسال؛ أي: إنَّ لفظَه الخاصَّ مُؤكِّدٌ لمعناه العامّ[1]، ولم يأتِ لفظُ ﴿بَعَثْنَا﴾ إلّا مقيّدًا بقوله تعالى: ﴿بَعْدِهِم﴾؛ وذلك للتّبيين أنّ المبعوثَ من جنس الرّسلِ[2].

دلالةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بيانُ المُهلةِ الزَّمنيّةِ باعتبار مجموع الأممِ الّتي ذُكِرَت قبلَ قصّة موسى

دلَّت ﴿ثُمَّ﴾ على المُهلة مع ترتيب؛ لأنّ موسى عليه السلام بُعِثَ بعدَ شُعيبٍ بزمنٍ، فالمُهلةُ باعتبارِ مجموعِ الأممِ المَحكيِّ عنها قبلُ؛ لأنّ منها ما بينه وبين موسى قرونًا، مثلُ قومِ نوحٍ، ومثلُ عادٍ وثمودَ، وقومِ لوطٍ، فالمُهلةُ الزَّمنيّةُ الّتي دلَّت عليها (ثمّ) متفاوتةُ المقدارِ، مع ما يقتضيه عطفُ الجملةِ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ منَ التّراخي الرُّتَبيِّ، وهو ملازمٌ لها إذا عُطِفَت بها الجملُ، فحرفُ (ثمّ) هنا مُستعمَلٌ في مَعنَيَي المهلةِ الحقيقيِّ والمجازيِّ[3].

نكتةُ تقديمِ شبه الجُملة:

المقدَّمُ مُعتنًى به، والمؤخَّر متشوَّقٌ له

تقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصّريح في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ للاعتناء بالمقدَّمِ والتّشويق إلى المؤخَّر[4].

توجيهُ عود الضّمير (هم):

عودُ الضّميرِ على ذكر الأنبياء، أو ذكر القرى باعتبار أهلها

و(هم) في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾، يعودُ على ذكر الأنبياء عليهم السلام الّذين ذُكِرَت أسماؤُهم من أوّل هذه السّورةِ إلى هذا الموضع[5]، أو يعودُ على القرى باعتبار أهلها، كما عادَت عليهم الضّمائرُ في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾[6].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ في موضع الحال من موسى

---

(1) رضا، تفسير المنار: 9/34 - 35.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/239.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/12.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34 - 9/35.

مفعول ﴿بَعَثْنَا﴾، أو صفةٌ لمصدرِه؛ أي: بعثناه ﵇ مُلتبِّسًا بآياتنا، أو بعثناه بَعثًا مُلتبِّسًا بها، وهي الآياتُ التّسعُ المفصَّلات الّتي هي: العصا واليدُ البيضاء والسِّنونَ ونقصُ الثّمرات والطّوفانُ والجَرادُ والقُمّلُ والضّفادعُ والدَّمُ[1]، فالباء فيه للملابسة[2].

الاستغناءُ بالمذكور اقتصادٌ في العبارة وتكثيرٌ للمعنى بأوْجز لفظٍ

سرُّ تقديمِ الآياتِ:

الآياتُ دليلٌ على صحّة دعوى البعث

صرّحَ بذكر (الآيات) مُقدِّمًا إيّاها اهتمامًا بها بوصفها الدّليل على صحّة دعوى البعث[3]. ودليلُه إسنادُه إلى ضمير التّعظيم إثباتًا لنبوّة موسى ﵇ الدّالّة على صدقه، وإشارةً إلى عظم شأنها، واختصاصها به تعالى، فلا قادرَ عليها إلّاه.

علّةُ إيثارِ لفظ (الملأ):

أشرافُ القوم سدٌّ منيعٌ عن الخير، وهم أوّلُ المكذِّبين بالرّسل

قصدَ إلى اختيار (الملأ) على القوم هنا، ولم يقُل: (إلى فرعون وقومه)؛ لأنّ المَلِكَ ورجالَ الدّولة هم الّذين كانوا مُستعبدين لبني إسرائيل وبيدهم أمرُهم، فإذا خفَّ بطشُ عِلّيَةِ القوم وأشرافِهم؛ هان على العامّة والدَّهماء الاستجابةُ لموسى ورسالته، وليس لسائر المصريين منَ الأمر شيءٌ، ولأنّ أهلَ مصرَ كانوا مُستعبَدين أيضًا، ولكنّ الظّلمَ على بني إسرائيل الغرباء كان أشدَّ[4].

بلاغةُ التَّضمين في قوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾:

ظلمَ قومُ موسى أنفسَهم وغيرَهم بكذبهم، وكفرهم

أصلُ (ظلم) يتعدّى بنفسه كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [آل عمران: 135]، لكنّه ضُمِّنَ هنا معنى: (كذَّبوا بها)، و(كفروا بها) على إرادة جِماع المعنيين؛ لأنّ الظُّلمَ وضعُ الشَّيءِ في غير مَوضِعِه[5]، والاعتداءُ على حقِّ الآخرِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/35.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/12، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.

وكان كفرُهم بالآيات ظلمًا حيث وضعوا الكفرَ في غير موضعِه مكان الإيمان الّذي هو من حقّها لوضوحها[1]؛ فعُدّي بالباء، والتّقديرُ: فظلموا بها كافرين مُكذِّبين؛ لأنّ الكفرَ بالآيات ظلمٌ حقيقة، والظّلمُ اعتداءٌ على الحقّ، فمَن كفرَ بالدّلائل الواضحة المسمّاةِ (آيات) فقد اعتدى على حقّ التّأمّلِ والنّظرِ، ويجوزُ أن يكونَ فظلموا هنا على أصل وضعِه، وتكون الباءُ للسّببيّة، وحذفَ مفعولَ ﴿فَظَلَمُواْ﴾ لقصد العموم؛ والمعنى: فظلموا كلَّ مَن له حقٌّ في الانتفاع بالآيات؛ أي: منعوا النّاسَ منَ التّصديق بها، وآذَوا الّذين آمنوا بموسى لمّا رأوا آياته، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الأعراف: 123 - 124]، وظلموا أنفسَهم؛ إذ كابروا، ولم يؤمنوا، فكان الظّلمُ بسبب الآياتِ؛ أي: بسبب الاعترافِ بها، ويجوزُ أن يكونَ ضُمِّنَ ﴿فَظَلَمُواْ﴾ معنى: كَفَروا[2].

وقيل معناه: وقعوا في مثل الظّلام حتّى وضعوا الأشياءَ في غير مواضعها، فوضعوا الإنكارَ موضع الإقرارِ؛ بسبب رؤيتها؛ خوفًا على رئاستهم ومملكتهم الفانية أنْ تخرجَ من أيديهم[3].

دلالةُ الفاءِ في لفظ النّظر:

المبـادرةُ بالتَّدبّر عند سماعِ خبر كُفرِ قوم فرعون شأنٌ محمودٌ فلا تريّث ولا تمهّل

الفاءُ في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ لتفريع الأمرِ على هذا الإخبار؛ أي: لا تتريّثْ عندَ سماعِ خبرِ كفرهم عن أن تُبادرَ بالتّدبُّر فيما سنقصُّ عليك من عاقبتِهم، والمنظورُ هو عاقبتُهُم الّتي دلَّ عليها قولُه: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: 136]، وهذا النّظرُ نظرُ العقل، وهو الفكرُ المُؤدّي إلى العلم، فهو من أفعالِ القلوب.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35 - 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.

والخطابُ للنّبيِّ ﷺ، والمرادُ هو ومَن يَبْلُغُه، أو المُخاطَبُ غيرُ معيَّنٍ: وهو كُلُّ مَن يتأتَّى منه النّظرُ والاعتبارُ عندَ سماعِ هذه الآياتِ، فالتّقديرُ: فانظرْ أيُّها النّاظرُ، وهذا استعمالٌ شائعٌ في كلِّ كلامٍ موجَّهٍ لغيرِ مُعَيَّنٍ[1].

سرُّ التّعبير بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

حقيقُ السّؤالِ عن حالهم بعدَ عجيبِ ما أبدوه

لّما كان ما آلَ إليه أمرُ فرعونَ وملئِه حالةً عجيبةً، عبّر عنه بـ ﴿كَيۡفَ﴾ الموضوعة للسّؤال عنِ الحال، والاستفهامُ المستفادُ من (كيف) يقتضي تقديرَ شيءٍ؛ أي: انظر عاقبةَ المفسدين الّتي يُسألُ عنها بـ(كيف)[2]، الّتي هي خبرُ كان، وقُدِّم على اسمها؛ لاقتضائه الصّدارةَ، والجملةُ في حيّز النّصبِ بإسقاط الخافضِ؛ أي: فانظر بعين عقلِك إلى كيفيّة ما فعلنا بهم[3].

ولأنّ من أعجبِ العجبِ أن يكونَ سببُ العدل سببًا للظّلم، ولّما كان هذا الظّلمُ أعظمَ الفسادِ؛ سبّبَ عنه قوله مُعجِّبًا: ﴿فَٱنظُرۡ﴾؛ أي: بعين البصيرة ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾؛ أي: آخر أمر ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، فلخَّص في هذه الآية على وجازتِها جميعَ قصّتِهم على طولها[4].

والعاقبةُ: آخرُ الأمر ونهايتُه، وجيءَ به على صيغة اسمِ المصدرِ مبالغةً.

علّةُ إيثارِ لفظِ المفسدين، وإظهاره:

الكفرُ فسادُ القلبِ، وهو أعظمُ الفساد، والتّعبيرُ بالمفسدين يشملُ الظّالمين

المرادُ بالمفسدين: فرعونُ وملؤه، فهو منَ الإظهار في مقام الإضمار تنبيهًا على أنّهم أُصيبوا بسوء العاقبة؛ لكفرهم وفسادهم، والكفرُ أعظمُ الفسادِ؛ لأنّه فسادُ القلبِ ينشأُ عنه فسادُ الأعمالِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/36.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.

وفي الحديث[1]: «ألا وإنّ في الجسد مُضغَةً، إذا صلحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدَت فسَدَ الجسدُ كلُّهُ، ألا وهي القلبُ»"[2].

وعبّر بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ولم يقُل: الظّالمين؛ ليشملَهم وغيرهم ممّن تقدّمَ ذكرُه[3]. ووضعَ المفسدين موضعَ ضميرِهم؛ للإيذان بأنّ الظّلمَ مُستلزمٌ للإفساد[4].

(1) البخاريّ، الجامع الصّحيح، برقم: (52).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/36 - 37.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/239.
(4) حقّي، روح البيان: 3/210.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [الأعراف: 104]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حكايتُه تعالى ما كان من أمرِ أولئك المفسدين الّذين كان مآلُهم تلكم العاقبة

لمّا لخَّص في الآية السّابقة جميعَ ما جاء في قصّة موسى عليه السلام مع فرعونَ وملَئِه بأسلوب التّشويق والتّنبيه؛ قصَّ تعالى ما كان من مبدأ أمرِ أولئك المفسدين الّذين كان مآلُهم تلكم العاقبة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: (علم) العينُ واللّامُ والميمُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على أثرٍ بالشّيء يتميّزُ به من غيره[2]. ومنه: العالِم وهو الَّذي يعمَلُ بما يعلمُ[3].

وكذلك العالَم: اسمٌ للفلك وما يَحويهِ منَ الجواهر والأعراض، وهو في الأصل اسمٌ لما يُعَلَّمُ به كالطّابع، والخاتمُ لما يُطبَعُ به، ويُختَمُ به، وجُعِلَ بناؤُه على هذه الصّيغة لكونه كالآلة، والعالَم آلة[4]. ومنَ الباب: العالَمون، جمع عالَم، لا واحِدَ لعالَم من لَفظه؛ لأنّ عالَمًا جَمعُ أشياءَ مُختَلفةٍ، فإن جُعِلَ عالمٌ لواحِدٍ منها صار جمعًا لأشياءَ متَّفقة؛ وذلك أنّ كلَّ جنسٍ منَ الخلق فهو في نفسه معلَّمٌ وعَلَمٌ. وقال قومٌ: العالَمُ سُمّي لاجتماعه، قال اللّه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، فالعالَمون: الجنّ والإنس، أو: الخلق كلّهم، وكلُّ ما خلق اللّهُ؛ أي: الخلائق أجمعون[5].

(1) رضا، تفسير المنار: 9/36 - 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (علم).
(4) الرّاغب، المفردات: (علم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

❁ المعنى الإِجْماليُّ:

قال موسى مُفتتحًا حوارَهُ مع فرعونَ بعبارةٍ لطيفةٍ وأسلوبٍ حسنٍ: إنّي رسولُ الله، اصطفاني لأجلِ رسالة الرّشاد، مُرسَلٌ إليك وإلى قومك من ربِّ العالمين، خالقِ كلِّ الموجودات، والمِدِّ لها على الدّوام بعطاءاتِ رُبوبيّته.

تفصيلُ أحداثِ قصّةِ موسى بدايةً بالتّعريف بالنّفس، وبمهمّة التّكليف

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى: أنّ مهادَ الدّعوةِ الكلمةُ الطّيّبةُ اللّيّنةُ، والموعظةُ الحسنةُ، وإلى أنَّ في الكون ربًّا واحدًا، وللعالمين إلهًا واحدًا، وهذا قوامُ الوحدانيّةِ، وإلى أنَّ في التّأكيد نفيًا للرّبوبيّة عمّن سواه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

استتبعَ التّشويقَ بقصِّ حكايةِ عاقبةِ المفسدين

بعد هذا التّشويقِ والتّنبيهِ قصّ تعالى علينا ما كان من مبدأ أمرِ أولئك المفسدين الّذي انتهى إلى تلك العاقبة[2]، فقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لتفصيل ما أُجملَ فيما قبله من كيفيّة إظهار الآياتِ وكيفيّةِ عاقبةِ المفسدين ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ﴾؛ أي: إليك ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على الوجه الّذي مرَّ بيانُه[3].

بيانُ تشابهِ حالِ الماضين مع حالِ الحاضرين المُكذّبين بالنّبيّ محمّد ﷺ

وعطفَ قولَ موسى بالواو، ولم يفصل عمّا قبله، مع أنَّ جملةَ هذا القول بمنزلة البيان لجملة ﴿بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾؛ لأنّه لمّا كان قولُه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ حالًا من موسى؛ فقد فُهِمَ أنّ المقصودَ تنظيرُ حالِ الّذين أُرسِلَ إليهم موسى بحال الأممِ الّتي مضى الإخبارُ عنها في المكابرة على التّكذيب، مع ظهورِ آياتِ الصّدق؛ ليتمَّ بذلك تشابهُ حال الماضين مع حال الحاضرين المُكذِّبين بالنّبيّ محمّد ﷺ، فجعلَت حكايةُ محاورةِ موسى مع فرعونَ وملئِه خبرًا مستقلًّا؛

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/48.

(2) رضا، تفسير المنار: 9/36 - 37.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.

لأنّه لم يُحكَ فيه قولُهُ المقارنُ لإظهار الآيةِ بل ذُكِرَت الآيةُ من قبلُ، بخلاف ما حُكيَ في القَصصِ الّتي قبلَها، فإنّ حكايةَ أقوالِ الرّسلِ كانَت قبلَ ذكرِ الآيةِ؛ ولأنّ القصّةَ هنا قد حُكيَ جميعُها باختصارٍ بجُمَل: ﴿بَعَثْنَا﴾، ﴿فَظَلَمُواْ﴾، ﴿فَٱنظُرْ﴾، فصارَت جملةُ: (قال) تفصيلًا لبعض ما تقدَّمَ، فلا تكونُ مفصولةً؛ لأنّ الفصلَ إنّما يكونُ بين جملتين، لا بينَ جملةٍ وبين عدّةِ جملٍ أُخرى[1].

بيانُ متشابهِ العَطفِ، وافتراقِه:

في تشابه العطف واختلافه دقّةٌ في البلاغة تناسبُ سياقَ الآيات

عطفَ بالفاء في قصّة نوح، وعطفَ بالواو في قصّة موسى، وفصَلَ بيانيًّا في القصص الّتي بينهما بما يشبهُ الفصلَ في قصّة موسى في سورٍ أخرى، فأمّا الأوّلُ فعطفَ التّبليغَ فيه على الإرسالِ بالفاء؛ لإفادةِ التّعقيبِ وعدمِ جوازِ تأخيرِ تبليغِ الدّعوة، وأمّا الفصلُ في القَصص بعدَه؛ فلأنّه لمّا صار هذا معلومًا، وكان ما جرى من أمرِ قومِ نوحٍ عِبرةً لقوم هودٍ، وكانا معًا عِبرةً لقوم صالحٍ، وهلمَّ جرًّا؛ حسن في كلِّ قصّةٍ من هذا الفصل على أنّه جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنّ قائلًا يقولُ في كلٍّ منها: ماذا كان من أمر هذا النّبيّ مع قومه؟ كما تقدّم بيانُه، وأمّا الأخيرُ الّذي نحن بصدده فوجهُ العطفِ فيه، وكونُه بالواو هو أنّه قد قفَّى في قصّةِ موسى هنا على ذكر إرسالِه إلى فرعونَ وملئِه بذكر نتيجةِ هذا الإرسالِ وعاقبتِه بالإجمال، وهو قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾، وبُدِئَتِ القصّةُ بعدَه بتفصيل ذلك الإجمال ومقدّمات تلك النّتيجة، فكان المناسبُ أن يعطفَ عليها، لا أن يستأنفَ استئنافًا بيانيًّا لما هو ظاهرٌ منَ الاشتراك بين المقدّماتِ والنّتيجةِ، أو بين التّفصيلِ والإجمالِ، وأن يكونَ العطفُ بالواو لا بالفاء؛ لأنّ الفاءَ تدلُّ على التّعقيب والتّرتيب، وهو لا يصحُّ هنا؛ لأنّه يقتضي أن تكون المقدّماتُ مُتأخّرةً عنِ النّتيجة، وذلك باطلٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/37.

بالبداهة، فتعيّنَ أن يكونَ العطفُ بالواو، وهذه دقّةٌ في البلاغة لا يهتدي إلى مثلها إلّا غواصو بحرِ البيانِ[1].

نكتةُ الابتداءِ بنتيجة القصّة:

تشابهُ القصصِ مفتتحًا وغايةً سوّغ الابتداءَ بنتيجتها

وحكمةُ بدءِ القصّةِ بذكر نتيجتها، والعبرةُ المقصودةُ منها في قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أن تكونَ متّصلةً بما يناسبُها منَ العِبرةِ في القَصص الّتي قبلَها، من حيث إهلاكُ معاندي الرّسلِ ﷺ جحودًا واستكبارًا؛ لتشابهها مبدأً وغايةً[2].

دلالةُ التّصريحِ باسم فرعون:

اللّينُ في الحوار امتثالٌ لله تعالى، وحكمةٌ في النّداء والخطاب

من معاني (فرعون) أنّه لقَبُ مدحٍ لِمَن ملك مصرَ، وصرّح به؛ ليخاطبَه بما يعجبُه امتثالًا لأمر الله تعالى له أن يلينَ في خطابه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: 44][3]، فهو خطابُ إكرامٍ لأنّه ناداه بالاسم الدّالِّ على الملكِ والسّلطانِ بحسب متعارف أمّتِه، فليس هو بترفّعٍ عليه، والظّاهر أيضًا أنّ قولَ موسى هذا هو أوّلُ ما خاطبَ به فرعونَ، كما دلّت عليه سورةُ طه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ [طه: 43][4].

سرُّ التّوكيدِ في حكاية كلام موسى:

توكيدُ الكلام دفعٌ لإمكان إنكاره، ولإظهار صدقِ دعوةِ موسى وثباتِ رسالتِه

وصوغُ حكايةِ كلام موسى بصيغة التّأكيدِ بحرف (إنَّ)؛ لأنّ المُخاطَبَ مَظِنّةُ الإنكارِ، أو التّردّدِ القويِّ في صحّة الخبر[5]. وحرف (إنَّ) يدلُّ على تحقيقِ المعنى وصدقِ رسالته؛ فقد استخدم موسى هذا الحرفَ لإظهار صدقِ دعوته وثباتِ رسالته، ولإبطال شبهاتِ فرعونَ وملئِه، ولتحذيرهم من عاقبة تكذيبه ومخالفته، كما أنَّ قولَ

(1) رضا، تفسير المنار: 9/37.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/38.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/37.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.

موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحملُ في طيّاته تأكيدًا آخر، وهو تأكيدُ أنَّ موسى لا يتكلَّمُ من تلقاء نفسه أو من هواه، بل يتكلّمُ بوحي منَ اللّه تعالى، الّذي هو خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه[1]، وفيه إثباتُ صحّةِ ما جاء به من آياتٍ وبراهينَ، وإقامةُ الحجّةِ على فرعونَ وقومه، وإظهارُ عظمةِ مَن أرسلَه وأمرَه.

علّةُ إخبارِ النّبيِّ بالرّسالة:

الإخبارُ بالرّسالة تربيةٌ للمهابة وإدخالٌ للرَّوع في قلوب المخاطَبين

وجعلَ الرّسالةَ عنوانًا لكلامه بإخباره بأنّه مُرسَلٌ منَ اللّه إليه؛ لأنّ مَن كان مُرسَلًا من جهةِ ربِّ العالمين أجمعين، فهو حقيقٌ بالقبول لما جاءَ به، كما يقولُ مَن أرسلَه الملكُ في حاجةٍ إلى رعيته: أنا رسولُ المَلِك إليكم، ثمّ يحكي ما أُرسِلَ به، فإنّ في ذلك من تربية المهابةِ وإدخال الرّوعةِ ما لا يقادرُ قدرُه[2].

وجهُ إيثارِ صفة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الوصفُ بالرّبوبيّةِ إبطالٌ لاعتقاد فرعون أنّه ربُّ مصرَ وأهلِها

اختيارُ صفةِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الإعلام بالمُرسِلِ إبطالٌ لاعتقاد فرعونَ أنّه ربُّ مصرَ وأهلِها؛ فإنّه قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات: 24]، فلمّا وصفَ موسى مُرسِلَه بأنّه ربُّ العالمينَ؛ شملَ فرعونَ وأهلَ مملكتِه، فتَبطُلُ دعوى فرعونَ أنّه إلهُ مصرَ بطريق اللُّزوم، ودَخَلَ في ذلك جميعُ البلاد والعباد الّذين لم يكن فِرعونُ يَدَّعي أنَّه إلهُهم مثلُ: الفرسِ والآشوريّين[3].

سرُّ جمعِ لفظ العالمين:

الجمعُ يشيرُ إلى إظهار عظمةِ ربِّه، وسَعةِ رحمتِه، وشمولِ قدرتِه وحكمتِه

وأمّا جمعُ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع السّلامةِ؛ فلكون النّاس في جملتهم، والإنسان إذا شاركَ غيرَه في اللّفظ؛ غلبَ حكمُه، وقيل: إنّما جمعَ هذا الجمع؛ لأنّه عُني به أصنافُ الخلائقِ منَ الملائكة والجنّ دون غيرها[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/454.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.
(4) الرّاغب، المفردات: (علم).

وفي قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إظهارٌ لعظمة ربِّه، وسَعةِ رحمتِه، وشمولِ قدرتِه وحكمتِه على كلِّ شيءٍ، وأنّه لا يختصُّ بجهةٍ من شرقٍ أو غربٍ، أو قبيلةٍ، أو جنسٍ، بل هو ربُّ جميعِ المخلوقات.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين إعلانِ موسَى رسالتَه لقومِه، وبيانِ تحقُّقِ مُقْتَضاها بالبَيِّنَةِ الّتي جاءَ بها

لـمّا بيَّنَ موسى عليه السلام أنّه بمُقتضَى الرّسالةِ الّتي بُعِث بها أنّه لا يقولُ إلّا كلمةَ الحقِّ - فملاكُ لوازمِها الحقُّ، وتمامُ تحقُّقِها الصّدقُ - صارَ نظمُ الكلامِ كأنّه قالَ: (أنا رَسولُ اللّهِ، ورسولُ اللّهِ لا يقولُ إلّا الحَقَّ)، ونتجَ عنها استِلزامُ الإتيانِ بالبيّنةِ الظّاهرةِ، والمُعجزةِ الواضحةِ، وفرَّعَ عليها تبليغَ الحُكمِ، وهو قولُهُ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقِيقٌ﴾: مِنَ الحقِّ، وأصلُه واحدٌ يدُلُّ على إحكامِ الشّيءِ وصِحَّتِه[2]. وقد بيَّنا معناها في [الأعراف: 89]، ومعنى ﴿حَقِيقٌ﴾: واجبٌ[3]، وخليقٌ، وجديرٌ[4]، و﴿حَقِيقٌ﴾ على معناه: حَريصٌ على[5]. وكلُّ هذه المعاني مُحتمَلَةٌ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: بنو إسرائيلَ اثنا عَشَرَ سِبطاً، عِدَّة بني إسرائيلَ، وهم بنو يعقوب بنِ إسحاق، لكلِّ ابنٍ منهم سِبْطٌ مِن ولدِه[6]، وإسرائيل: لقب يَعْقوب: وهو عَلَمٌ مُذكَّرٌ عبريٌّ، أصلُهُ "يِسْرائيل"، ومعظمُ أسماءِ التّوراةِ جاءَت بصيغةِ المضارعِ. وقيل: سُمّي بهذا الاسمِ؛ لأنّه أسرى ذاتَ ليلةٍ حين هاجرَ إلى اللّهِ؛ لأنّه انطلقَ إلى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/155.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(3) الخليل، العين: (حق).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حقق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(6) الخليل، العين: (سبط).

حالِه خشيةَ أنْ يقتلَهُ أخوهُ، فكانَ يسري باللَّيلِ ويكمُنُ بالنَّهارِ. وقيل: معناها عبدُ اللّهِ، أو اللّهُ قويٌّ، وقيل: مَعناهُ عبدُ اللّهِ؛ لأنّ (إيل) اسمٌ من أسماءِ اللّهِ بالسُّريانيَّةِ؛ أو صفوةُ اللّهِ، أو سِرُّ اللّهِ[1].

المعنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ موسَى صِحَّةَ ما جاءَ به منَ البَيِّنةِ الواضحةِ، وطلبِ خُروجِ بني إسرائيلَ معه

بلَّغَ موسى عليه السلام فرعونَ أنّه رسولٌ مِن ربِّ العالَمينَ كلِّهم؛ أي: سيّدُهُم، ومالكُهُم، ومُدبِّرُ جميعِ أمورِهم، وأنّه بمُقتضَى هذه الرّسالةِ لا يقولُ على اللّهِ إلّا الحقَّ؛ إذ لا يُمكِنُ أن يبعثَ اللّهُ رسولًا يَكْذِبُ عليه، فهو حقيقٌ بالصّدقِ، والتزامِ الحقِّ في التّبليغ عن ربِّه، ومَعصومٌ منَ الكذبِ والخطأ فيه، وشديدُ الحرصِ عليه بما لهُ منَ الكسْبِ والاختيارِ، فاشتملَ كلامُهُ على عقيدةِ الوحدانيّةِ؛ وهي أنّ للعالَمين كلِّهم ربًّا واحدًا، وعقيدةِ الرّسالةِ المُؤَيِّدَةِ منه تعالى بالعِصمةِ في التّبليغ والهدايةِ[2]، وقد جئتُكُم مِنَ اللّهِ بحجّةٍ قاطعةٍ، وببرهانٍ بيِّنٍ على صدقي فيما أدَّعي منَ الرّسالةِ، كالعصا واليدِ البيضاءِ، ثمّ إنّه عليه السلام لمّا فرَغَ من تبليغ رسالتِه رتَّبَ على ذلك الحكم الطّلبَ إلى فرعونَ أن يُرسِلَ معهُ بني إسرائيلَ مِن أَسْرِهِ وقَهْرِه، وأن يُخَلِّيَ سبيلَهُم لعبادةِ اللّهِ، وكانَ فرعونُ قد استعبدَ بني إسرائيلَ واستعملَهُم في الأعمالِ الشّاقّةِ[3].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أصولِ المُحاورةِ، والجدلِ ومَسالكِ التّأثيرِ فيهما، ومنه إبرازُ صفتَي الحقِّ والصّدقِ فيما يُطرَحُ من شأنٍ. وأنَّ مناطَ التّبليغِ في الأمورِ العِظامِ الحجَّةُ، والدّليلُ، ودامغُ البرهانِ. وتهدي الآيةُ الكريمةُ أيضًا إلى جوازِ ثناءِ الإنسانِ على نفسِه إذا كانَ ذلك في مَقامِ بيانِ الحقِّ، والدّعوةِ إليه، وأنّه مُحِقٌّ بما دعا إليه[4].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 115، وعبد الرّحيم، الإعلام بأصول الأعلام، ص: 38.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/39.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/232.
(4) اللّاحم، عون الرّحمن: 9/244.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ توجيهِ قراءةِ (على):

تَـنـوّعُ الـقـراءةِ سَعةٌ في الدّلالةِ، ومَلْمَحيّةٌ بَيانيّةٌ متنوّعةٌ

اختلفَتِ القراءةُ[1] في قولِه: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّـهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ على وجوهٍ: فقرأهُ جماعةٌ مِن قُرّاءِ المكّيّين والمدنيّين والبصرةِ والكوفةِ: (حقيقٌ عَلَى أن لا أقول)، فهي ياءُ المُتكلِّم دخلَ عليها حرفُ (على)، مع تركِ التّشديدِ؛ بمعنى: أنا حقيقٌ بأن لا أقولَ على اللّهِ إلّا الحقَّ. فوجَّهوا معنى (على) إلى معنى (الباء)؛ لإفادةِ التّمكينِ، كما يُقالُ: (رميتُ بالقوسِ)[2]، يؤيِّدُ ذلك استعمالُ العَربِ (على) بمعنى (الباء) كقولِهم: (أركبُ على اسمِ اللّهِ) وقراءةِ: (حقيقٌ بأن لا أقول)[3]. وقرأ جماعةٌ من أهلِ المدينةِ: (حقيقٌ عليَّ ألّا أقولَ) مُشدَّدةً بالياءِ، والمعنى: واجبٌ عليَّ أن لا أقولَ، وحقٌّ عليَّ أن لا أقولَ[4] على اللّهِ إلّا الحقَّ، وهو أنّه لا إلهَ غيره، أي: توحيدُهُ، وتنزيهُهُ عن الشّريكِ[5]. وفي هذه القراءةِ وجوهُ تخريجٍ: منها أن تكونَ ممّا يُقلَبُ مِنَ الكلامِ لأمنِ اللَّبسِ[6]، والأصلُ: قولُ الحقِّ حقيقٌ عليَّ، فقُلِبَ إلى: أنا حقيقٌ على قولِ الحقِّ[7]. ومنها: المُلازمةُ؛ أي: أنَّ ما لزمَكَ فقد لزمتَهُ، والمعنى: فلمّا كان قولُ الحقِّ حقيقًا عليهِ كانَ هو حقيقًا على قولِ الحَقِّ؛ أي: لازمًا له، أو: أن يُضمَّنَ حَقيقٌ معنى حَريصٍ[8]، والمعنى: حقيقٌ وجديرٌ بألّا أقولَ على اللّهِ إلّا الحقَّ، وحَريصٌ على ذلك فلن أُخِلَّ بهِ[9]، أو ضُمِّنَ حقيقٌ معنى مَكينٍ، وتكونُ ﴿عَلَىٰ﴾

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/305.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/13 - 14.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، رضا، تفسير المنار: 9/38.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/13 - 14.
(5) الواحديّ، الوسيط: 2/392.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/136.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/401.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/137.
(9) رضا، تفسير المنار: 9/38.

استِعارةً للاستِعلاءِ المَجازيِّ[1]. أو للإغراقِ في وصفِ موسى عليه السلام نفسهُ بالصِّدقِ في ذلك المَقام، والمعنى: أنا حَقيقٌ على قولِ الحقِّ، أي: واجبٌ عليَّ قولُ الحقِّ أن أكونَ أنا قائلَهُ والقائمَ بهِ، ولا يَرضَى إلّا بمثلي ناطقًا به[2].

فوصفَ نفسَهُ في ذلك المَقام حتّى جعلَ نفسَه حقيقةً[3]، وهو على هذا استِعارةٌ بالكِنايةِ: شبَّهَ قولَ الحَقِّ بالعُقلاءِ الّذينَ يَختارون مواردَهُم ومصادرَهُم، ورُمِزَ إلى المُشبّهِ بهِ بما هوَ مِن رَوادِفِه، وهو كَونُ ما يناسبُهُ مُتَعَيِّنًا عَليه[4].

دَلالةُ تعدُّدِ وُجوهِ القراءةِ القرآنيّة، على العُدولِ والالْتفات:

يَتجلَّى في القراءةِ القرآنيّةِ الإعجازُ، المتأرجحُ بين الحقيقةِ والمجازِ

وعلى هذه القراءةِ ليسَ في ضميرِ المُتكلِّم مِن قولِهِ: (عليَّ) التفاتٌ، بخلافِ ما لو جُعِلَ قولُهُ: (حقيقٌ) صِفةً لـ ﴿رَسُولٌ﴾، فحينئذٍ يكونُ مُقتضَى الظّاهرِ الإتيانَ بضميرِ الغائبِ، فيقولُ: حقيقٌ عَليه، فيكونُ العُدولُ إلى التَّكلُّمِ التِفاتًا[5]. ويكون معنى الآيةِ الكريمةِ على الوصفيّةِ: (رسولٌ حقيقٌ من ربِّ العالَمين أُرْسِلْتُ على أنْ لا أقولَ على اللّهِ إلّا الحقَّ)[6].

سِرُّ إيثارِ لفْظِ ﴿حَقِيقٌ﴾ على غيره:

قَولُ الحقِّ واجبٌ على الرُّسُل، إذْ يجبُ في حقِّهم الصِّدقُ المحْض

﴿حَقِيقٌ﴾ فعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، صيغةُ مُبالغةٍ مُشتقَّةٌ من (حقَّ) بِمعنى وجَبَ وثَبَتَ؛ أي: مُتَعَيِّنٌ وواجِبٌ عليَّ قولُ الحقِّ على اللّهِ[7]؛ إذ أصلُ مادّةِ الحاءِ والقافِ والقافِ في لغةِ العربِ تدُلُّ على الثّبوتِ وعدمِ الاضمحلالِ، معناه: إنّي رَسولٌ حقيقٌ؛ أي: رسالتي لا شكَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/137 - 138.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/263.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/403.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.

فيها، وأنّي رسولٌ ثابتٌ في ديوانِ المُرسَلين، رسالتي حقٌّ لا شكَّ فيها، وأنّي رَسولٌ مبدأُ رسالتِهِ من ربِّ العالَمين[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدَرِ المُنسَبِك:

في المصدريّةِ توكيدٌ لمعنَى نَفْيِ قولِ غيرِ الحقِّ

﴿أَن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مَصدريّةٌ ناصبةٌ، و﴿لَّآ﴾ نافيةٌ للحالِ، والتّعبيرُ بالمضارعِ تجدُّدٌ استمراريٌّ لنفيِ قولِ غيرِ الحقِّ. والتّعبيرُ بالمَصدرِ المُنسبِكِ أقوى في الدّلالةِ على نفيِ قولِ غيرِ الحقِّ، وإثباتِ قولِ الحقِّ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡحَقَّۚ﴾:

الكلامُ الحقُّ مَقصورٌ على وَحْيِ السّماءِ إلى موسَى، بصِفتِهِ رسولًا

و(ألـ) في ﴿ٱلۡحَقَّۚ﴾ جنسيّةٌ للمُبالغةِ والكمالِ، ويجوزُ أن يكونَ مفعولاً به؛ لأنّهُ يتضمَّنُ معنى حَمَّله، وأنْ يكونَ منصوباً على المصدرِ؛ أي: القولَ الحقَّ، والاستثناءُ مُفرَّغٌ[2]، ودلالةُ الاستثناءِ المُفرَّغِ الدّالِّ على قصرِ الكلامِ الحقِّ على قولِهِ الموحَى بِهِ منَ السّماءِ إليه، وصيغةِ المصدريّةِ، توكيدٌ لقولةِ الحقِّ الّتي حَرَصَ على إطلاقِها موسى عليه السلام مُتخلِّقًا بها، ويعزِّزُ هذا المعنى إتْباعُها بـ ﴿قَدۡ﴾ الدّاخلةِ على الفعلِ الماضي لإفادةِ التّحقيق.

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ، في قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾:

مَقامُ الإنكارِ يَستلزِمُ مَزيدَ التّقريرِ، وعُمْقَ التّأثيرِ

و﴿قَدۡ﴾ في ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾ لتحقيقِ وقوعِ الفعلِ الدّالِّ صوغه ماضيًا على ذلك، وجملةُ ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبلَهُ من كونِهِ رسولاً من ربِّ العالَمين، وكونِه حَقيقاً بقولِ الحقِّ[3]؛ لأنَّ مَقامَ الإنكارِ ممّا يثيرُ سُؤالَ سائلٍ أن يقولَ: هذهِ دَعوى غَريبةٌ تَحتاجُ إلى بَيِّنَةٍ[4].

(1) الشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 4/66.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/406.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.

بَلاغةُ الإيجازِ في جُملةِ الاسْتئنافِ:

لم يكنْ قولُهُ عليه السلام ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وما بعدَهُ مِن جوابِ فِرعونَ إثرَ ما ذُكِرَ هَهُنا، بَل بعدَ ما جرى بينَهُما مِنَ المُحاورَةِ المَحكيَّةِ بقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: 49]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشّعراء: 23]، وقد طَوى هَهُنا ذكرَه للإيجازِ[1]..

اسْتغْنَى بالمذكورِ، ولم يُكرِّرِ اقتصادًا في الكلامِ

سِرُّ تنوُّعِ معانِي البيّنةِ، وتنكيرِها، في سِياقِ الآيةِ الحكيمِ:

البيّنةُ: الحُجَّةُ، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ بها البراهينَ العقليّةَ على صدقِ ما جاءَ به موسى مِنَ التّوحيدِ والهُدى، ويجوزُ أن تكونَ المُعجزةَ الدّالَّةَ على صدقِ الرّسولِ. فعلى الوجهِ الأوّلِ تكونُ الباءُ في قولِه: ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ لتعديةِ فعلِ المَجيءِ، وعلى الوجهِ الثّاني تكونُ الباءُ للمُلابسةِ، والمُرادُ بالمُلابسةِ مُلابسةُ التَّمكُّنِ من إظهارِ المُعجزةِ الّتي أظهرَها اللّهُ له كما في قوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 17]. ويَحتملُ المعنى الأعمُّ الشّاملُ للنّوعين على ما يَحتمِلُهُ كلامُ موسى المُترجَمُ عنهُ هُنا[2]. وتنكيرُ البيّنةِ للتّفخيم، والتّعظيم، والتّصريح بكونِ هذه البيّنةِ المُعجزةِ من عندِ ربِّهم نصٌّ على أنّهم مَربوبونَ، وأنّ فرعونَ ليس ربًّا ولا إلهًا، وعلى أنّها - أي: البيّنة - ليسَت من كسبِ موسى، ولا ممّا يستقلُّ به عليه السلام، وبنى على هذا قولَهُ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: بأن تطلقَهُم مِن أسرِكَ، وتُعتِقَهُم من رقِّ قهرِكَ؛ ليذهبوا معي إلى دارٍ غيرِ ديارِكَ، ويعبدوا فيها ربَّهُم وربَّكَ[3].

في تَنوُّعِ المعانِي والتّنكيرِ، تَوسُّعٌ في دَلالةِ التّركيبِ ومَضامِينِه

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

عبَّرَ عليه السلام في سياقِ حِجاجِه فِرعونَ بقولِه: ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ عمّا جاءَ به مِنَ البراهينِ على صدقِ نبوَّتِه، ولم يقُلْ: بـ(آيةٍ من ربِّكُم)؛ لأنَّ كلمةَ

البيِّنةُ هي البُرهانُ الّذي لا يُشَكُّ فيه، والآيةُ تحتاجُ إلى تفسيرٍ وتوضيحٍ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.

(2) رضا، تفسير المنار: 9/39.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.

(بَيّنَةٍ) أشملُ مِن كلمةِ (آية)؛ إذ هي الدَّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو مَحسوسةً[1]، والآيةُ تحتاجُ إلى تفسيرٍ وتوضيحٍ، والبيّنةُ تكفي بذاتِها لإقامةِ الحُجّةِ، وهي كذلك أعظمُ مِن كلمةِ (آية)، فالبيّنةُ هي البرهانُ الواضحُ الّذي لا يشكُّ فيه أحدٌ، والدّليلُ المُستفادُ من نظرِ العقولِ إلى مُخالفةِ المألوفِ في حادثاتِ المَخلوقاتِ، والآيةُ هي الدّليلُ المُستفادُ من سماعِ الأخبارِ عن غيرِ مُشاهَدةٍ لها، وقد جاءَ موسى عليه السلام ببيّنةٍ من ربِّهِ، وهي المُعجِزاتُ الواضحةُ الّتي أظهرَها لِفرعونَ وملئِهِ، من تغييرِ العصا الّتي تتحوَّلُ إلى ثعبانٍ، واليدِ الّتي تخرُجُ من فتحةِ قميصِ ثوبِهِ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ، فهذه دلائلُ قاطعةٌ وبراهينُ قويّةٌ على نبوّتِهِ وصدقِ رسالتِهِ عليه السلام[2].

دَلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾، وإضافةِ الرَّبِّ:

الحُجَّةُ القاطعةُ مِنَ اللهِ، تُؤكِّدُ وجوبَ الإيمانِ به دونَ سِواه

﴿مِّن﴾ في قولِهِ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مُتعلِّقةٌ؛ إمّا بـ ﴿جِئْتُكُم﴾ على أنّها لابتداءِ الغايةِ مَجازًا، وإمّا مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ وقعَ صفةً لـ(بيّنة) مُفيدةً لفخامتِها الإضافيّةِ المُؤكِّدَةِ لِفَخامتِها الذّاتيَّةِ، المُستفادَةِ مِنَ التّنوينِ التّفخيميِّ، وإضافةُ اسمِ الرَّبِّ إلى المُخاطَبينَ بعدَ إضافتِهِ فيما قبلَهُ إلى العالَمينَ لِتأكيدِ وُجوبِ الإيمانِ به[3].

دَلالةُ التّعبيرِ بالإرسالِ بينَ الحقيقةِ، والاسْتِعارةِ، والمَجازِ:

الإرسالُ إطلاقٌ وتَخليةٌ، أو إذنٌ بالخروجِ المَطلوبِ مِن فِرعونَ

واستعمالُ (الإرسالِ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قد يُرادُ به حقيقةُ معناه؛ أي: أَطْلِقْهُم وخَلِّهِم، وكانَ فِرعونُ قد استخدمَهُم في الأعمالِ الشّاقّةِ، مِثلِ: ضَربِ اللَّبِنِ، ونَقلِ التُّرابِ[4]، أو إنّه استِعارةٌ تَمثيليَّةٌ أو تَبَعيَّةٌ مِن إرسالِ الطّيرِ مِنَ القَفَصِ؛ إذ لا

(1) الرّاغب، المفردات: (بان).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/156.

يَخفَى أنّه ساقِطٌ عن وكرِ القَبولِ[1]، أو هو مَجازٌ لُغَويٌّ في الإذْنِ لبني إسرائيلَ بالخُروجِ المَطلوبِ مِن فِرعونَ[2].

عِلَّةُ التّعْبيرِ بحرف (الفاءِ) في الإرسالِ، في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾:

في استحضارِ الفاءِ تنوُّعٌ في التّوجيهِ، واحتمالٌ لِعديدِ المعاني

(الفاء) في قولِه: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾؛ لتَرتيبِ الإرسالِ، أو الأمرِ به على ما قبلَهُ مِن رسالتِه[3] ﵇، أو لِتفريعِ طَلَبِ تَسريحِ بني إسرائيلَ على تحقُّقِ الرّسالةِ عَن ربِّ العالَمين، والاستِعدادِ لإظهارِ البيِّنةِ على ذلك، وقد بنى موسى كلامَهُ على ما يَثِقُ به مِن صدقِ دعوتِه مَعَ الاستعدادِ لِلتّبيينِ على ذلكَ الصِّدقِ بالبراهينِ أو المُعجزةِ إن طَلَبَها فِرعونُ؛ لأنّ شأنَ الرُّسُلِ أن لا يَبتَدِئوا بإظهارِ المُعجِزاتِ صَونًا لَمقامِ الرّسالةِ عن تَعريضِه للتّكذيبِ[4].

سِرُّ تقْييدِ الإرسالِ بـ﴿مَعِيَ﴾، وأَثَرُها في المعنى:

غايةُ الخروجِ مَعيّةُ الرّسولِ، ومصاحبتُهُ للاسترشادِ بالهدَى والحقِّ

تقييدُ الإرسالِ بـ ﴿مَعِيَ﴾؛ لأنّ المقصودَ مِن إخراجِهم مِن مِصرَ أن يكونوا مع رسولِهم المَبعوثِ إليهم؛ ليُرشدَهُم ويُدَبِّرَ شؤونَهُم[5]، كما أنَّ المُرسلَ هنا هو موسى ﵇ فقط، ودليلُهُ أنّهُ لمّا كانَ معه هارونُ قالَ: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا﴾ [طه: 47][6].

سِرُّ التّسْميةِ بلفظِ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، دونَ (بني يعقوب):

الإشارةُ إلى كلِّ قبائِلِهم، وما جُبِلُوا عليه مِنَ الأخلاقِ

لم يُخاطَبِ اليَهودُ في القُرآنِ إلّا بـ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دونَ (بني يَعْقوب)؛ للإشارةِ إلى كلِّ القبائلِ الاثنتي عشْرةَ مِن أبناءِ يَعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ وسلالتِه، فقد خوطِبوا بهذه النِّسبةِ واحدًا وأربعينَ مَرَّةً، ولنكتةٍ هيَ أنَّهم خوطِبوا بعبادةِ اللّهِ، وذُكِّروا بدينِ أسلافِهِم مَوعِظةً لَهُم وتنبيهًا مِن غفلتِهم، فسمّوا بالإسمِ الّذي فيه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39 - 40.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/19.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39 - 40.
(6) بدر الدّين بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه مِنَ المثاني، ص: 182.

تذكرةٌ بِاللّه[1]، ولأنَّ القرآنَ لم يُرِدْ أن يشيرَ إلى نَسَبِ الإسرائيلين مِن آبائِهم - وبخاصّةٍ يعقوبُ عليه السلام الّذي هو أرومةُ شجرتِهم الّتي يُنسَبونَ إليها، فقد وردَ اسمُهُ في القرآنِ ستَ عشْرةَ مَرَّةً، أوّلُها في سورةِ البقرةِ، وآخرُها في سورةِ ص - بل غالبًا ما أشارَ إلى صفاتِهم، وما جُبِلوا عليهِ مِنَ الأخلاقِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الآيةُ)، و(العلامةُ)، و(البيّنةُ)، و(الحُجّةُ):

عُـدِلَ إلى لفظِ (بِآيَةٍ) لأنَّ فرعون كان يريد مُعجِزةً مَحسُوسَةً

الآيةُ: هي العلامةُ الثّابتةُ، مِن قولِكَ: تأيَّيْتُ بالمَكانِ إذا تحبَّسْتُ به، وتثبَّتُ. فما بِهِ الدَّعْوَى من حَيثُ إفادته للبَيانِ يُسمّى بَيِّنَةً، ومِن حَيْثُ الْغَلَبَة بِهِ على الْخصم يُسمّى حُجَّةً. والعلامةُ ما يكونُ قبلَ وقوعِ الشّيءِ، تقولُ: الغيومُ والرّياحُ علاماتُ المطرِ[2]. وآياتُ اللّهِ: عَجائِبُهُ؛ فإنّه كثُرَ استعمالُهُ بمعنى العلامةِ الإعجازيّةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ [الأعراف: 73][3]، أمّا البيّنةُ فهي الدّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو مَحسوسةً[4].

وبذا يتبيّنُ الاستعمالُ الدّقيقُ للنّصِّ القرآنيِّ في انتقاءِ الألفاظِ المُناسبةِ لمَقامِها؛ إذ قَصَدَ إلى استعمالِ لفظِ (بيّنة) في حديثِ موسى عليه السلام، يريدُ: قد جِئتُكُم بدلالةٍ واضحةٍ عقليّةٍ مَحسوسةٍ، لكنَّ فِرعونَ بتكبُّرِهِ ورأيِهِ المُتفرِّدِ لم يرضَ إلّا بمُعجِزةٍ مَحسوسةٍ عظيمةٍ، فعَدَلَ إلى لفظِ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ في الآيةِ الّتي تليها؛ ليناسِبَ هذا المعنى.

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 115.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 406، وابن محمّد، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/272.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أيا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي - إي).
(4) الرّاغب، المفردات: (بان).

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾

[الأعراف: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين مَجيءِ موسَى بالبيّنةِ والحقِّ، وعِنادِ فرعونَ بطلبِه آيةً حسّيّةً مُعايَنةً

لَمّا قدَّمَ موسى عليه السلام دَعواه، وألقى دليلَهُ، وعرضَ الحُكمَ طولِبَ بالحُجّةِ، والدّليلِ، فاستدعى فِرعونُ منه خَرقَ العادةِ الدّالَّ على الصّدقِ[1]. فمِنَ المعلوم أنَّ مُجرَّدَ الدّعوى لا حُجّةَ فيهِ، ولكن إذا ظهرَ برهانٌ لم يبقَ غيرُ الانقيادِ لما هو الحقُّ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: الصّادُ والدّالُ والقافُ أصلٌ يدُلُّ على قوّةٍ في الشّيءِ قولًا وغيرَهُ. ومنه سُمّي الصّدقُ: خلاف الكَذِب؛ لقوّتِه في نفسِه؛ ولأنّ الكَذبَ لا قوّةَ لهُ، هو باطلٌ. وأصلُ هذا مِن قولِهم شيءٌ صِدْقٌ؛ أي صُلْبٌ. ورُمْحٌ صِدْقٌ[3]. "والصَّدقُ: الكاملُ من كلِّ شيءٍ"[4]. والصِّدقُ: مُطابقةُ القولِ الضّميرَ، والمُخبَرَ عنهُ معًا، ومتى انخَرَمَ شرطٌ من ذلكَ لم يكنْ صِدقًا تامًّا، بل إمّا أنْ لا يوصَفَ بالصّدقِ؛ وإمّا أنْ يوصَفَ تارَةً بالصِّدقِ، وتارةً بالكَذِبِ على نَظَرَينِ مُختَلِفين[5]. وكلُّ تصاريفِ الفعلِ (صَدَقَ) مِنَ الصِّدْقِ ضدّ الكَذبِ[6]. ومنه لفظُ الصّادقينَ في الآيةِ الكريمةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

طلَبُ فِرعونَ من موسَى عليه السلام، تَقديمَ البُرهانِ، تأكيدًا على الإيقانِ

لَمّا عَرَض موسى عليه السلام رسالتَهُ على فِرعونَ، وذكرَ الدّليلَ على صدقِه؛

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/357.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/555.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(4) الخليل، العين: (صدق).
(5) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).

وهو مجيئُهُ بالبيّنةِ والخارقِ المُعجز، استدعى فِرعونُ منه خرقَ العادةِ الدّالَّ على الصّدقِ، وهذا الاستدعاءُ يَحْتَمِلُ أن يكونَ على سبيلِ الاختبارِ، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ على سبيلِ التّعجيزِ لِما تقرَّرَ في ذهنِ فِرعونَ أنّ موسى لا يَقدِرُ على الإتيانِ ببيّنةٍ، والمعنى: إن كُنتَ جئتَ بآيةٍ من ربِّكَ فأحضِرها عندي؛ لِتَصِحَّ دَعواكَ ويَثْبُتَ صِدقُكَ[1].

وتَرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ إلقاءَ الحُجج من دونِ دليلٍ بَيِّنٍ؛ مآلُهُ إلى التّكذيبِ. فالبيّنةُ دليلُ الصّدقِ، والحُجَّةُ دليلُ الحقِّ، وهما سبيلُ الهِدايةِ، وطريقُ الدّرايةِ، وأنَّ الظّالمَ الجاحِدَ لمّا يزلْ يُشكِّكُ بالحقِّ، وإن كانَ مصدرُهُ سماويًّا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ التّعْبيرِ بـ(إنْ)، دونَ (إذا):

الجهرُ بعدمِ اعتقادِ فرعونَ بصِدقِ موسى عليه السلام، أبلغُ في النّفْيِ وأعمُّ

معنى ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ﴾ مِنْ عند مَنْ أرسلَكَ فأتني بها، وأحضرها عندي؛ لتصحَّ دَعواكَ ويَثبُتَ صِدقُكَ[2]. وأتى بـ ﴿إِن﴾ المُقتضيةِ للشّكِّ في مَضمونِ الجملةِ الشّرطيّةِ أو الجزم بنفيها، أو صيرورة ما دخلَ عليه في خبرِ المحالِ، بخلافِ (إذا)؛ للإيذانِ بأنّهُ ليسَ مُعتقِدًا بصدقِ موسى عليه السلام، وأنَّ وقوعَهُ عندَهُ غيرُ مُحقّقٍ، وذلك دليلُ خبثِهِ ومَكرِهِ[3]، وليكونَ النّفيُّ بـ(إنْ) أبلغَ وأعمَّ.

دَلالةُ تنوُّعِ التّعْبيرِ بالمجيءِ مرّةً، وبالإيتاءِ أُخرَى:

في تناوُبِ الاستعمالِ، تفنُّنٌ وقصْدٌ، إلى معنًى دقيقٍ مُرادٍ في السِّياقِ

المجيءُ أعمُّ مِنَ الإتيانِ، ويُقالُ اعتبارًا بالحصولِ، أمّا الإتيانُ فيُقالُ باعتبارِ القصدِ[4]، ولذلك عبّرَ بالمجيءِ ليناسبَ لفظَ ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ﴾ في الآيةِ السّابقةِ، فهو مجيءُ بدءٍ مُتحقّقُ الحصولِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/357.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/138.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/240، وطنطاويّ، الوسيط: 5/345.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

وإن كانَ عندَ موسى عليه السلام فقط، وعبَّرَ بالإتيانِ باعتبارِ القصدِ، فهو في حالةِ طلبٍ وشكٍّ، ولا يناسبُهُ فعلٌ مُتحقِّقُ الحصولِ، وقد يكونُ فيه إظهارُ فِرعونَ في مَظهَرِ المُتشكِّكِ المُرتابِ في سريرتِهِ مِن ادّعاءِ موسى عليه السلام بينَ الصّدقِ وعدمِهِ، ويناسبُ هذا المعنى قَصديَّةَ اختيارِ (إن) المُقتضيةِ للشّكِّ، كما تقدَّم.

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، في السِّياقِ:

في التَّنكيرِ عُمومٌ، نوَّعَ معناها، ووسَّعَ دَلالةَ سياقِ وُرودِها

تنكيرُ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ للتّعليلِ أو للعمومِ[1]، ويُرادُ بها المُعجزةُ، فإنّ أكثرَ مَواردِ الآيةِ في القرآنِ مُرادٌ فيهِ المُعجِزةُ، وأكثرَ مَواردِ البيّنةِ مُرادٌ فيه الحُجَّةُ، ويَصدقُ على قولِ موسى عليه السلام: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، فهي: الحُجَّةُ على إثباتِ الإلهيّةِ، وعلى أحقّيّةِ ما جاءَ به مِن إرشادٍ لقومِه، ففِرعونُ غيرُ مُقتنعٍ ببرهانِ العقلِ، أو قاصرٌ عن النّظرِ فيه؛ ولذلك انتقلَ إلى طلبِ خارقٍ للعادةِ، فالمعنى: إن كُنتَ جئتَنا مُتَمَكِّنًا مِن إظهارِ المُعجزاتِ؛ لأنّ فِرعونَ قالَ ذلكَ قبلَ أن يُظهِرَ موسى عليه السلام مُعجزتَهُ[2].

دَلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

اقْتِرانُ المجيءِ بإظْهارِ المُعجِزاتِ، وبالتّمكينِ منه بالبيِّناتِ الواضحاتِ

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ لِلمَعيّةِ التّقديريَّةِ؛ أي: مُتمكّنًا مِن آيةٍ، أو مِن إظهارِ مُعجزةٍ، أو الباءُ للمُلابسةِ، والمُلابسةُ مَعناها واسِعٌ؛ أي: لك تَمكينٌ مِن إظهارِ آيةٍ[3].

التَّعْبيرُ عنِ الإتيانِ بالمَجازِ المُرسَلِ:

الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَأۡتِ بِهَآ﴾ جوابيّةٌ؛ لتوكيدِ التّرتيبِ، والتّعقيبِ، والسّببيّةِ[4]. واستعمالُ الإتيانِ في الإظهارِ مَجازٌ مُرسَلٌ، فالباءُ في قولِهِ: ﴿بِهَآ﴾ لتعديةِ فعلِ الإتيانِ، وبذلك يَتَّضِحُ ارتباطُ الجزاءِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(4) قباوة، المفصّل في تفسير القرآن، ص: 585.

الإتيانُ تمكُّنٌ في إظهارِ الآياتِ، وتَحدٍّ للمُكابِرِ الّذي لا يُقنِعُهُ دليلٌ

بالشّرطِ؛ لأنّ الإتيانَ بالآيةِ المذكورةِ في الجزاءِ هو غيرُ المجيءِ بالآيةِ المذكورةِ في الشّرطِ؛ أي: إنْ كنتَ جِئتَ مُتمكّنًا مِن إظهارِ الآيةِ فأظهِرْ هذه الآيةَ[1]. ولذلك نكّرَ لفظَ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، وفيه دليلُ تحدّي المُكابِرِ الّذي لا يُقنِعُهُ أيُّ دليلٍ مهما كانَ.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالأخصِّ، في سِياقِ هذا النّصِّ:

التَّعبيرُ بالأَخصِّ تحقيقٌ للصِّدقِ قَولًا وفِعلًا

قولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أخصُّ مِن قولِهِ: "إن كنتَ صادقًا"؛ لكونِهِ إمّا مُعلَّقًا بقولِهِ: ﴿فَأْتِ﴾، فيكون فيه ما يدُلُّ على أنَّ الصّدقَ يكونُ في الأقوالِ والأفعالِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾؛ أي: في دعوى الرّسالةِ في مجيئِكَ بالآيةِ. والظّاهرُ أنَّ موسى عليه الصّلاة السّلام أتى بالمطلوبِ وزيادة؛ لأنّه إنّما طُلِبَ إليه آيةٌ واحدةٌ. وفيه أنَّ الشّيءَ يُستدَلُّ عليه بدليلين[2]. و﴿مِنَ﴾ للتّبعيضِ، وفيه دلالةُ عدمِ التّسليمِ لموسى عليه السلام بالصّدقِ المُطلَقِ، وإن جاءَ بالبيّنةِ الحقّةِ. وهذا شكٌّ آخر في صدقِهِ، بعدَ الشّكِّ في مجيئِهِ بالآيةِ[3]؛ إذ فيه إيماءٌ إلى أنّ في كلامِ فِرعونَ ما يقتضي أنّ فرضَ صدقِ موسى فرضٌ ضعيفٌ كما هو الغالبُ في شرطِ (إنْ)، مع إيهامِ أنّه جاءَ بشيءٍ مُبينٍ يُعتبَرُ صادقًا فيما دعا إليه، فبقي تحقيقُ أنّ ما سيجيءُ به موسى مُبينٌ، أو غيرُ مُبينٍ. وهذا قد استبقاه كلامُ فِرعونَ إلى ما بعدَ الوقوعِ، والنّزولِ ليتأتّى إنكاره إن احتاجَ إليه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/240.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/40.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/123.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧﴾ [الأعراف: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين طلَبِ فرعونَ للآيةِ الحسّيّةِ، وإلقاءِ العصَا لِتكونَ مُعجزةً مرئيّةً

لمّا ساقَ فِرعونُ - شاكًّا - طلبَهُ بتقديمِ البيّنةِ، ناسبَ أن يفاجئَهُ تعالى بإظهارِ الآيةِ البيّنةِ دالًّا على ذلك بالفاءِ المُسبِّبةِ المُعَقِّبَةِ من غيرِ مُهلَةٍ؛ مُعبِّرًا عن فعلِ موسى عليه السلام بقولِهِ: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾، وعَن فِعلِهِ هو سُبحانَه ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: العصا ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَلْقَىٰ﴾: اللّامُ والقافُ والياءُ أصولٌ ثلاثةٌ: أحدُها: طَرحُ شيءٍ. وألقيتُهُ: نَبَذتُهُ إلقاءً[2]. وهو: طَرحُ الشّيءِ حيثُ تَلْقاه؛ أي: تَراهُ، فيُرَى، ويُؤخَذ، ثمّ صارَ في التّعارُفِ اسمًا لِكُلِّ طَرحٍ[3].

2) ﴿عَصَاهُ﴾: العينُ والصّادُ والحرفُ المُعتَلُّ أصلان صَحيحان، إلّا أنّهما مُتَبايِنانِ يدُلُّ أحَدُهُما على التَّجمُّعِ، ويدُلُّ الآخَرُ على الفُرقَةِ. فالأوّلُ العَصا، سُمّيَت بذلِكَ لاشتمالِ يَدِ مُمسِكِها عَلَيها؛ أي: أنَّ اليَدَ والأصابعَ تَجتَمِعُ عَلَيها، أو هو مَأخوذٌ من قَولِ العَرَبِ: عَصوتُ القَومَ أعصوهم، إذا جمعتَهم على خيرٍ أو شَرٍّ. وتُضرَبُ العَصا مثلًا للاجتماعِ، ويُضرَبُ انشقاقُها مثلًا للافتراقِ الَّذي لا يكونُ بعدَهُ اجتِماعٌ[4]. ولعلّ استحضارَها أداةٌ فاعلةٌ في التّعبيرِ، وتوظيفَها رمزٌ مُعبِّرٌ في الاستعمالِ في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ لأداءِ دلالةِ اجتماعِ السّحرةِ بموسى ومَن معَهُ، وافتراقِ الجميعِ عن فِرعونَ.

3) ﴿ثُعْبَانٌ﴾: الثّاءُ والعينُ والباءُ أصلٌ يدُلُّ على امتدادِ الشّيءِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/80.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عصا).

وانبساطِه، يَكونُ ذلكَ في ماءٍ وغيرِه[1]. فثَعَبْتُ الماء أَثْعَبُهُ ثَعْباً؛ أي: فجّرتُهُ فانثَعَبَ، ومنه اشتقَّ المَثْعَبُ وهو المِرْزابُ. وانثعبَ الدّمُ مِنَ الأنفِ. والثُّعبانُ: الحيّةُ الطَّويلُ الضَّخمُ[2]، سُمّي بذلك مِنَ القِياسِ، في انبساطِهِ وامتِدادِهِ خَلقًا وحَرَكَةً[3].

4) ﴿مُّبِينٌ﴾: الباءُ والياءُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، يدُلُّ إمّا على بُعدِ الشّيءِ، وإمّا على انكشافِهِ؛ فبانَ الشّيءُ، وأبانَ إذا اتّضحَ وانكشَفَ[4]. وسُمّي ما يُشرَحُ به المُجمَلُ والمُبهَمُ مِنَ الكلامِ بَيانًا، ويُقالُ: بَيَّنتُهُ وأبَنتُهُ: إذا جعلتَ له بَيانًا تكشِفُهُ[5]. ومِنَ المعنى الأوّلِ استُنبِطَت دلالةُ الفصلِ والتّمييزِ، ويؤولُ معناه إلى الوضوحِ والظّهورِ؛ لأنّ المَفصولَ المُتميِّزَ مِن غيرِهِ يلفِتُ النّظرَ. والانكشافُ، والوضوحُ، والظّهورُ هو المعنى الّذي جاءَت به كلُّ مُفرداتِ التّركيبِ القرآنيّةِ عدا الظّرف (بين)[6]. وبه تُفسَّرُ لفظةُ ﴿مُّبِينٌ﴾ في الآيةِ المُبارَكةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

بَــدْءُ تَـحـدّي مـوسَى لفرعونَ ومَلئِه، بإظهارِ البيّناتِ، وإبرازِ المُعجِزاتِ

ألقى موسى عصاه الّتي كانَت بيدِهِ أمامَ فِرعونَ، فإذا هي ثعبانٌ ظاهرٌ بيّنٌ لا خفاءَ في كونِهِ ثُعبانًا حقيقيًّا كبيرًا يسعى في خِفّةٍ وسُرعَةٍ. ففي كونِ الثّعبانِ مُبينًا وُجوهٌ: الأوّلُ: أنّه تميَّزَ عمّا عملَتهُ السَّحرةُ مِنَ التّمويهِ والتّلبيسِ، وبذلك تَتَميَّزُ مُعجِزاتُ الأنبياءِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ على تمويهِ السَّحرَةِ وتخيّلِهم. الوجهُ الثّاني: أنّهم شاهدوا العَصا قدِ انقلَبَت حيّةً، ولم يَشتَبِه ذلكَ عليهم. الوجهُ الثّالثُ: إنّ ذلكَ الثّعبانَ لمّا كانَ مُعجِزةً لموسى عليه السلام، كانَ من أعظمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثعب).
(2) الخليل، العين: (ثعب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثعب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(5) الرّاغب، المفردات: (بان).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).

الآياتِ الّتي أبانَت صدقَ قولِهِ في أنّهُ رسولٌ مِن ربِّ العالَمين عن قَولِ المُدَّعي الكاذِب[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى: أنَّ انقلابَ خَشَبَةٍ لَحمًا ودَمًا مَبثوثًا بِهِ الحياةُ مِن أعظمِ الإعجازِ؛ إذ يَحصُلُ مِن انقِلابِها ثُعبانًا مِنَ التّهويلِ الّذي يتطلَّبُهُ المَوقِفُ ما لا يَحصُلُ في غيرِهِ[2]، وإلى بيانِ واسعِ قدرةِ اللّهِ، وعظيمِ تصرُّفِهِ في مَوجوداتِ الكونِ الّذي أنشأهُ، وفيها دليلُ نصرةِ اللّهِ لرسلِهِ، والمُصطَفَيْنَ مِن عبادِهِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ التّعْبيرِ بالإلقاءِ في قوله: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ﴾:

الإلـقـاءُ أبـلـغُ قَـصْـدًا في الـدَّلالـةِ، وفيه إشـارةٌ إلى شَجاعةِ مُوسَى وإقْدامِهِ

فالإلقاءُ: طَرحُ الشّيءِ حيثُ تلقاهُ؛ أي: تراهُ[3]، وبذا فهو أبلغُ في الدّلالةِ على القَصدِ مِن غيرِهِ مِنَ الأفعالِ المُشابِهةِ لهُ، مثل: طَرَح، أو رَمَى، ويشيرُ الإلقاءُ إلى أنَّ موسى ﵇ كانَ شُجاعاً في دعوتِه، إذ ألقى عصاه بثقةٍ وإقدامٍ؛ فأظهرَ اللّهُ تعالى قوّةَ موسى وضعفَ فِرعونَ في هذا المَوقِفِ.

نُكتةُ تخْصِيصِ العصَا الحِسّيّةِ، بالمُعجِزةِ الإلهيّةِ:

قـلـبُ الإنـسـانِ يَـسـكُـنُ بـمَـا يألَفُهُ، ويأْنسُ لما يَعرِفُه

إنّما أظهرَ له المُعجِزةَ مِن عصاهُ لطولِ اقترانِهِ بها، ومُصاحبتِهِ إيّاها، فالإنسانُ إلى ما ألفَهُ أسْكَنُ بقلبِهِ. فلمّا رأى ما ظهَرَ في العصا مِنَ الانقِلابِ أخذَ موسى ﵇ في الفرارِ لتحقُّقِهِ بأنّ ذلك مِن قهرِ الحقائقِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ السّكونَ إلى شيءٍ غِرَّةٌ وغَفلةٌ[4]، أو لأنّهُ أضافَها إلى نفسِهِ حين قالَ: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: 18]، ثمّ جَعَلَها مَحلَّ حاجاتِهِ حيث قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18]، ففيه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/159، والخازن، لباب التّأويل: 2/233.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/357.

(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).

(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/555.

إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ أضفتَهُ إلى نفسِكَ، ورأيتَهُ مَحلَّ حاجاتِكَ، فإنّهُ ثُعبانٌ يبتلِعُكَ، ولهذا ﴿أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩﴾ [طه: 19]؛ يعني: أخرجها عن مهمّتها الأصليّة، ولا تتركها في يدك، ولا تتمسّكْ بها ولا تتوكّأ عليها، كما كنت تفعل من قبل، وعلى ذلك فالأمر بإلقائها قبل تحوّلها ثعبانًا، دليلٌ على أنّه ما كانَ قادرًا على أن يجعلَها في يده ثُعبانًا، حتّى يلقها على الأرض فتتحوّل[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ، بقوله: ﴿فَإِذَا﴾:

الـدّلالـةُ على المُـفـاجـأةِ، بحدُوثِ الحادثِ مِن غَيْرِ تَرقُّبٍ

دلَّت ﴿فَإِذَا﴾ المُفاجِئَةُ بقرينةِ الفاءِ على سرعةِ انقلابِ العصا حيَّةً، وعلى حدوثِ الحادثِ عَن غيرِ ترقُّبٍ. وهي ظرفُ مَكانٍ بمَنزِلَةِ ثمّةَ وهناك في هذا المَوضِعِ، أو: هي ظرفُ زَمانٍ في كلِّ مَوضِعٍ[2].

نُكتةُ العُدولِ إلى التّعْبيرِ باسْمِ الفاعلِ في السِّياقِ:

لـفـظُ (مُـبـين) يـدلُّ عـلى شِـدّةِ الظُّـهور والوضُوحِ الّذي لا شكَّ فيه

وصفُ الثُّعبانِ - واشتقاقُهُ مِن ثعبتُ الماءَ فانثعبَ إذا فجَّرتُهُ فانفجرَ[3]، أو: هو مُشتقٌّ من ثَعَبَ؛ بمعنى: جرى جَريًا مُتَّسِعًا، والثَّعْبُ: المَجرَى الواسِعُ، وسُمّي الثّعبانُ بذلك؛ لجريهِ بسرعةٍ من غيرِ رِجْلٍ، كأنّه ماءٌ سائلٌ، ولذا شُبِّهَ به الماءُ الجاري[4] - بأنّه ﴿مُّبِينٞ﴾ الّذي هو اسمُ فاعلٍ مِن (بان)؛ بمعنى: ظهرَ؛ ليدُلَّ على شدّةِ الظّهورِ من أجلِ أنَّ زيادةَ المَبنَى تدُلُّ على زيادةِ المعنى؛ أي: ظاهرٌ أمرُهُ غيرُ مُتخيَّلٍ، وواضحٌ لا لَبسَ فيهِ، لا يُشَكُّ في كونِهِ ثُعبانًا، وهو الحَيّةُ العَظيمةُ[5].

دَلالةُ الجُملةِ الاسْميّةِ بينَ الحقيقةِ والمَجازِ:

تـنـوُّعُ دَلالاتِ التَّعْبيرِ، سَعةٌ في المعنى، وبيانٌ للسِّياقِ

إيثارُ الجملةِ الاسميّةِ ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ﴾؛ للدِّلالةِ على كمالِ سُرعةِ الانقلابِ، وثَباتِ وصفِ الثُّعبانيّةِ فيها، كأنّها في الأصلِ كَذلِكَ[6].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/211 (بتصرّف).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/436، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/592.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/137.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/178.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/123.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.

وحَملُ الخبرِ ﴿ثُعۡبَانٞ﴾ على المبتدأ ﴿هِيَ﴾ العائدِ على (العصا) يكونُ على سبيلِ المواطأةِ والموافقةِ، مثل: الإنسانُ عالِمٌ، أو يكونُ على سبيلِ التّشبيهِ البليغِ الّذي حُذِفَ منه وجهُ الشَّبَهِ، وأداةُ التّشبيهِ، مثل: أبو يوسفَ، أبو حَنيفةَ[1]، والصّحيحُ أنَّ المُرادَ بها الحقيقةُ بأمارةِ الضّميرِ ﴿هِيَ﴾ في السّياقِ؛ أي: أنَّ العصا انقلبَت حيّةً حقيقةً، وبدلالةِ المَواضعِ الأخرى من قصّةِ موسى عليه السلام الدّالَّةِ على التهامِ عصاهُ وابتلاعِها بقوّةٍ وسرعةٍ وبقُدرةِ اللّهِ تعالى ما ألقاهُ سَحرةُ فِرعونَ، وأوهَموا النّاسَ أنّهُ حَقٌّ وهو باطلٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥﴾ [الشّعراء: 45].

سِرُّ تنوُّعِ التّعبيرِ بالألفاظِ المتُقارِبةِ المعنى:

أوصَافُ العصَا مُختلِفاتٌ، تَتناقَضُ في ظاهِرِها، وتَتكامَلُ في حقِيقتِها

عُبِّرَ عنِ الثّعبانِ في آيةٍ أخرى بالحَيَّةِ [طه: 20]، وفي آيةٍ أخرى بالجانّ [القصص: 31]، والجانُّ: هو المائلُ إلى الصّغرِ مِنَ الحَيّاتِ، والثّعبانُ: هو المائلُ إلى الكبرِ منها، والحَيّةُ: جنسٌ يشمَلُ الكبيرِ والصّغيرِ، وشبّهَها بالجانِّ أيضًا لخفّتِها وسرعتِها، ويَحْتَمِلُ أنّه شبَّهَها بالشّيطانِ لقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 27]، ويَحْتَمِلُ أنّها كانَت أوّلًا صغيرةً كالجانِّ ثمّ عَظُمَت فصارَت ثُعبانًا[2]. وعَدَلَ إلى ذلك ليبيِّنَ أنّ هناك فارقًا بينَ مُختلِفاتٍ تتناقضُ في ظاهرِها، ومُختلِفاتٍ تتكاملُ في حقيقتِها، فانقلابُ العصا ثعبانًا مرّةً، وحيَّةً مرّةً ثانيةً، وجانًّا أخرى؛ فكأنَّها تمثّلَت في كلِّ مرّةٍ بمثالٍ يُرعِبُ مَن يراهُ، وفي كلِّ مرَّةٍ لها شكلٌ مَخصوصٌ؛ فهي مرّةً ثعبانٌ، ومرّةً حيّةٌ، وثالثةً جانٌّ، أو تكون ثُعبانًا عندَ مَن يخيفُهُ الثّعبانُ، وتكون حيّةً عندَ مَن تخيفُهُ الحيّةُ، وتكون جانًّا عندَ مَن يخيفُهُ الجانُّ، ليتحقّقَ أنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/242.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/114، والشّوكاني، فتح القدير: 4/114 - 115.

إشاعةَ الإبهامِ هو عينُ البيانِ للمُبهَم[1]. قالَ الزّمخشريُّ: "فإن قلتَ: كيفَ ذُكِرَت بألفاظٍ مُختلِفةٍ: بالحيّةِ، والجانِّ، والثّعبانِ؟ قلت: أمّا الحيّةُ فاسمُ جنسٍ يقعُ على الذّكرِ والأنثى، والصّغيرِ والكبيرِ، وأمّا الثُّعبانُ والجانُّ فبينهما تنافٍ؛ لأنَّ الثّعبانَ العظيمُ مِنَ الحيّاتِ، والجانَّ الدّقيقُ. وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أنّها كانَت وقتَ انقلابِها حَيَّةً، تنقلِبُ حيّةً صفراءَ دقيقةً، ثمّ تتورَّمُ ويتزايدُ جرمُها حتّى تصيرَ ثعبانًا، فأُرِيدَ بالجانِّ أوّلُ حالِها، وبالثّعبانِ مآلُها. الثّاني: أنّها كانَت في شخصِ الثّعبانِ وسرعةِ حركةِ الجانِّ. والدّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: 31]"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النّبْذُ)، و(الطّرْحُ)، و(القَذْفُ)، و(الرّمْيُ)، و(الإِلْقاءُ):

لَفْظُ (الإلْقاءِ) أَنْسَبُ في الاستعمالِ، وأَبْلَغُ في الدّلالةِ على المقصودِ في السِّياقِ

النّبذُ: إلقاءُ الشّيءِ استهانةً به، وإظهارًا للاستغناءِ عنهُ، وطرحُهُ لقِلَّةِ الاعتدادِ به، ولذلك يُقالُ: نَبَذتُهُ نَبذَ النَّعْلِ الخَلَقِ[3]؛ أي: نبذًا مع إهمالٍ، والطَّرحُ: اسمٌ لجنسِ الفعلِ، وهو إلقاءُ الشّيءِ بعيدًا؛ لقِلّةِ الاعتدادِ به[4]. والقَذفُ: الرَّميُ البعيدُ[5] المُطلَقُ دونَ قيدٍ، والإلقاءُ: طرحُ الشّيءِ حيثُ تلقاهُ؛ أي: تراهُ[6].

وبذا يتبيّنُ أنَّ الإلقاءَ أنسبُ لسياقِ الآيةِ الكريمةِ، وأبلغُ في الدّلالةِ على قصديةِ الطَّرحِ القريبِ المَرئيِّ المُشاهَدِ حيثُ تريدُهُ، وحيثُ تراهُ؛ بغيةَ التّأثيرِ.

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4282.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/58.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 297، والرّاغب، المفردات: (نبذ).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 297، والرّاغب، المفردات: (طرح).
(5) الرّاغب، المفردات: (قذف).
(6) الرّاغب، المفردات: (لقي).

(الثُّعبانُ)، (الحيّةُ)، (الجانُّ):

لَفظُ الثّعبانِ أنسبُ هُنا للسّياقِ، لِيحقّقَ تَلقُّفَ الحيّاتِ الّتي ألقاها السَّحرةُ

عَبّرَ عنِ الثّعبانِ في آيةٍ أخرى بالحيّة [طه: 20]، وفي آيةٍ أخرى بالجانّ [القصص: 31]، والجانُّ: هو نوعٌ مِنَ الحيّاتِ دقيقُ الحجم، خفيفُ الحركة، مائلٌ إلى الصّغرِ، أو الصَّغيرُ مِنَ الْحَيّاتِ. والثُّعبانُ: هو المائلُ إلى الكبرِ، والضّخامةِ، والامتدادِ؛ فهو الحيَّةُ الضّخمُ الطَّويلُ، الذَّكَرُ خاصَّةً. والحيّةُ: جنسٌ يشمَلُ الكبيرَ والصّغيرَ. وشبّهها بالجانّ أيضًا؛ لخفتِها وسرعتِها، ويَحْتَمِلُ أنّه شبَّهَها بالشّيطانِ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 27]، ويَحْتَمِلُ أنّها كانَت أوّلًا صغيرةً كالجانّ، ثمّ عَظُمَت فصارَت ثُعبانًا(1).

وقد عَرَضَ الزّمخشريُّ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠﴾ [طه: 20] لتشبيهِ عصا مَوسى مرّةً بالحيّةِ، وأخرى بالجانِّ، وثالثةً بالثّعبانِ، فقالَ: "إنّ الحيّةَ اسمُ جنسٍ يشمَلُ الذّكرَ والأنثى والصّغيرَ والكبيرَ، في حين أنّ بينَ الثّعبانِ والجانِّ تنافيًا؛ فالثّعبانُ: العظيمُ مِنَ الحيّاتِ، والجانُّ: الدّقيقُ منهما"، ثمّ وجَّهَ جمعَهُما في التّشبيهِ بأمرين: الأوّلُ: أنّها تبدأُ دقيقةً كالجانِّ، ثم تتورّمُ وتعظمُ كالثّعبانِ، والثّاني: أنّها في شخصِ الثّعبانِ، وسرعةِ حركةِ الجانِّ(2).

وأيضًا أنَّ ما قارَنَ كلَّ اسم في آيتِه يشيرُ إلى شيءٍ من هذا: فمع الثّعبانِ - وقد وُصِفَ بالعِظَم - ذُكِرَ لَفْظُ ﴿مُّبِينٌ﴾ ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧﴾ [الأعراف: 107] و[الشّعراء: 32]، فالعِظَمُ أحدُ أسبابِ الوضوحِ والظّهورِ، ومع الجانِّ ذُكِرَ الاهتزازُ - الّذي هو لازمُ خفّةِ الحركة - ومع الحيّةِ ذُكِرَ السّعيُّ؛ أي: الجَرْيُ، وهو حركةٌ مُطّرِدَةٌ من أهمِّ مَظاهِرِ الحياةِ(3).

---

(1) ابن سيده، المحكم: 2/95، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/114، والشّوكاني، فتح القدير: 4/114 - 115، وابن منظور، لسان العرب: (ثعب)، (جنن).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/58.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثعب).

فلفظُ الثّعبانِ أنسبُ هنا لسياقِ الآيةِ؛ لكونِ مَشهَد تَلقُّفِ العِصي الّتي تمثلَت في هيئةِ الحيّاتِ الّتي ألقاها السّحرةُ، فملأتِ المكانَ، يناسبُ تلقُّفَها مِن لدنْ حيّةٍ عظيمةِ الخَلقِ، خفيفةِ الحركةِ، وما يصحَبُ ذلك مِن فزعٍ قلوبِهم نتيجةَ رؤيتِهم لهذهِ المُعجزَةِ مُجسَّدَةً في هَيْئَةِ ثعبانٍ، ولذلك جاءَ بما خَلْقُهُ خَلْقُ الثُّعبانِ العَظيمِ؛ أي: الكَبير منَ الحيّاتِ، واهتزازُهُ، وحركتُهُ، وخِفّتُهُ كاهتزازِ الجانِّ وخِفّتِهِ[1].

(1) ابن سيده، المحكم: 2/96، وداود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 165.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا تحولَتِ العصا حيَّةً عظيمةً ظاهرةً للعِيانِ أعقبَ المُعجزةَ بإثرِ الأولى، وأردفَ الآيةَ بالأخرى؛ لأنَّ "كَثرةَ الدّلائلِ توجبُ القوَّةَ في اليقينِ، وزوالِ الشّكِّ مِنَ المُلحِدينَ"[1]، وكانَ موسى آدمَ اللّونِ، أسمرَ البَشرةِ، فجعلَ اللّهُ تحوُّلَ يدِهِ بيضاءَ من غيرِ بَرَصٍ له آيةً، وحُجّةً على صدقِ قولِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

الـرَّبْـطُ بين مُعجزَتَيْ إلقاءِ العصَا ونـزْعِ اليـدِ، لِتأكيدِ سُرعةِ الإتيانِ، بساطِعِ البُرهانِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَزَعَ﴾: النّونُ والزّايُ والعينُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ[3]. ونَزَعْتُ الشّيءَ: قَلَعْتُهُ، والمِنزَعُ: الشّديدُ النّزعِ[4]. ونَزَعَ الشّيءَ: جذبَهُ من مَقرِّهِ كنَزعِ القوسِ عن كبدِهِ[5]. وأزالَ اتّصالَ الشّيءِ بالشّيءِ[6]. والمعنى المحوريُّ لِلَّفْظَةِ اقتلاعٌ بجَذْبٍ قويٍّ للشّيءِ ممّا يلتحِمُ بهِ، أو ينغمِسُ هو فيه لاصقًا به. ومنهُ: الجذبُ إخراجًا[7] بشدّةٍ وعُسرٍ، وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

حكى القرآنُ مُعجِزةً أخرى لموسى عليه السلام تشهَدُ بصدقِهِ: وهي إخراجُ يدِهِ مِن قميصِهِ بعد أن أدخلَها فيه، أو مِن فتحةِ قميصِهِ المفتوحةِ إلى الصَّدرِ، أو من تحتِ إبطِهِ؛ فإذا هي بيضاءُ بياضًا

سُـطـوعُ الـيَـدِ بالبَياضِ، تتابُعٌ للدّليلِ، وإفحامٌ لِصاحِبِ القلْبِ العليلِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(5) الرّاغب، المفردات: (نزع).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).

عجيبًا خارقًا للعادةِ مِن غيرِ أنْ يكونَ بها عِلّةٌ مِن مرضٍ أو غيرِه: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22] و[النّمل: 12]، ولمّا كانَ موسى عليه السلام أسمرَ اللّونِ جاءَ البياضُ في يدِهِ مُخالِفًا لبقيةِ لونِ بشرتِهِ؛ فصارَ بياضُها لافتَ الإنارةِ، جاذبًا للأنظارِ، بضوئِهِ اللّامعِ المُشِعِّ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ المُعجزاتِ أماراتٌ على تأييدِ اللّهِ لرسلِهِ، وأوليائِهِ، وتسليةٌ لقلوبِهم، ودفعٌ للشّكِّ، وإبعادٌ للرّيبِ عن دعوتِهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ النّزْعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَنَزَعَ﴾:

تَصويرُ ظُهورِ حُجّتِهِ الثّانيةِ، بِقَصْدِ إرهابِ فِرعونَ ومَلَئِه

معنى: ﴿وَنَزَعَ﴾: أزالَ اتّصالَ شيءٍ عن شيءٍ، والواو عاطفةٌ، والمعنى هنا: أنّه أخرجَ يدَهُ من جيبِ قميصِهِ بعدَ أن أدخلَها في جيبِهِ[2]، ويعني النّزعُ: إخراجَ اليدِ بعُسرٍ، وشدّةٍ؛ كأنّ هناك شيئاً يُقاوِمُ إخراجَ اليدِ، ومثالُ ذلك قولُهُ: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26][3]، وكأنّه عليه السلام أرادَ تصويرَ ظهورِ حجّتِه الثّانيةِ الدّالّةِ على صِدقِ رسالتِهِ بشيءٍ مِنَ الشّدَّةِ والاقتلاعِ؛ ليُرهِبَ فِرعونَ وأشرافَ قومِهِ المُحيطينَ بِهِ في مَجلسِ مُلْكِهِ.

بَلاغةُ التّتْميمِ، في التّعبيرِ عن بَياضِ اليدِ بقولِهِ تعالى: ﴿بَيۡضَآءُ﴾:

التّنبيهُ على عِظَمِ بَياضِ اليدِ ونُورِها، ولَمعانِها الخارِجِ عنِ العادةِ

معنى ﴿بَيۡضَآءُ﴾؛ أي: بَياضًا خارجًا عنِ العادةِ يَجتمِعُ عليها النّاظرونَ، أو بَيضاءَ للنُّظّارِ لا أنّها كانَت بَيضاءَ في جِبِلَّتِها[4]، ولمّا كانَ البياضُ كالعَيبِ بَيَّنَ اللّهُ تعالى في غيرِ هذهِ الآيةِ أنّها ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [النّمل: 12]؛ أي: مِن غيرِ عَيبٍ مِن بَرَصٍ أو مَرَضٍ[5]. وفي ذكرِ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ تنبيهٌ على عِظَمِ بياضِها؛ إذ لا تكونُ بيضاءَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4282 - 4283.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/27.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160.

للنّظّارةِ إلّا إذا كان بياضُها بياضًا عجيبًا خارجًا عنِ العادةِ، يَجتمِعُ النّاسُ للنّظرِ إلَيه، كما تَجتمِعُ النّظّارَةُ للعَجائِبِ[1]، ففيه تتميمٌ لمعنى البياضِ[2].

فائِدةُ التّعدّي باللّامِ، في سِياقِ الكلامِ:

شِـدَّةُ بَيـاضِ اليدِ، اسْتقرَّ في أنظارِ النّاظرينَ، بإعجازٍ وإغرابٍ

تضمَّنَ قولُهُ: ﴿بَيۡضَآءُ﴾ معنى الفعلِ، كأنّه قيلَ: ابيضَّت اليدُ للنّاظرينَ، واللّامُ للتّعديةِ، وهو يُريدُ به تعديةً خاصّةً لا مُطلَقَ التّعديةِ؛ أي: تَعديةَ الفعلِ القاصرِ إلى ما لا يتعدَّى لهُ بأصلِ وضعِهِ؛ ويكونُ المعنى حينئذٍ تقريبَ المُتعلّقِ لمُتعلّقٍ تقريبًا لا يجعلُهُ في مَعنى المفعولِ بهِ. وقيلَ: إنَّ معنى التَّعديةِ شِبهُ المِلْكِ. وقيل أيضًا: إنَّ اللّامَ بمعنى (عِندَ)، ويَكونُ مُفادُها: أنّها بيضاءُ بَياضًا مُستَقرًّا في أنظارِ النّاظرينَ، ويكونُ الظّرفُ مُستَقِرًّا؛ يُجعَلُ حالًا مِن ضميرِ يدِهِ[3].

معنَى (أل) في لَفْظِ (النّاظرين):

تميّزُ بَياضِ اليدِ، جعلَـها مَرئيّةً ومُبهِرةً، لجميعِ النّاظرينَ إليها

الألفُ واللّامُ في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ للاستغراقِ العُرْفيِّ؛ أي: لجميعِ النّاظرينَ في ذلكَ المَجلِسِ. وهذا يُفيدُ أنّ بياضَها كانَ واضحًا بيّنًا مُخالِفًا لونَ جلدِهِ بصورةٍ بعيدةٍ عن لونِ البَرَصِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نزعَ)، و(أخرجَ):

عبّرَ بالنّزْعِ وكأنّه فـارقَ يـدَهُ من شِـدّةِ مُخالَفةِ لونِها للَوْنِهِ

عبّرَ بالنّزعِ دونَ الإخراجِ إشارةً إلى أنّه يُنْزِلُ نفسَه مَنزِلةَ مَن فارقَ يدَهُ لشدّةِ مُخالَفةِ لونِها للوْنِه[5]، فضلًا عن أنّ دلالة (النّزع)

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40، والتّتميم، والتّمام: هو اعتراضُ كلامٍ في كلامٍ لم يتمَّ معناه. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40 - 41.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/124.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/242.

تعني: إخراجَ اليدِ بعُسرٍ، كأنَّ هناك شيئاً يُقاومُ إخراجَ اليدِ، ومنه - على سبيلِ الجَذْبِ المعنويِّ - قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنّ نزعَ المُلكِ ليس مَسألةً سهلةً؛ ففي الغالبِ يُحاوِلُ صاحبُ المُلكِ التّشبّثَ بملكِهِ، لكنّ الحقَّ ينزعُهُ من هذا المُلكِ[1].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4282 - 4283.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ظُهور المعجزاتِ، وإنكار حاشيةِ فرعون، ما بأَعْيُنِهم يَرَوْنَ

لمّا أتَى بالبيانِ، وأقامَ واضحَ البرهانِ، اقتضى الحالُ السُّؤالَ عمّا أبرَزوهُ مِنَ المَقالِ في جوابِه، فقالَ: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾، فثارَت نفوسُ بطانةِ فِرعونَ وعظماءِ قومِهِ بردِّه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: السّينُ والحاءُ والرّاءُ أصولٌ ثلاثةٌ مُتبايِنَةٌ: أحدُها: خَدْعٌ، وشِبْهُهُ؛ أي: ما خفيَ، ولَطُفَ سببُهُ، وهو إخراجُ الباطلِ في صورةِ الحقِّ، وهو الخَديعةُ[2]، وكلُّ ما كانَ مِنَ الشّيطانِ فيه مَعونةٌ. وهو: الأُخْذَةُ الّتي تأخُذُ العينَ حَتَّى تَظُنَّ أنَّ الأمرَ كما ترى، وليسَ الأصلُ على ما تَرَى[3]. فالسِّحرُ: خِداعٌ وتخييلاتٌ، نحو ما يفعلُهُ المُشعبِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لخفّةِ يدٍ، واستجلابِ مُعاونةِ الشّياطينِ بضربٍ مِنَ التّقرُّبِ إليهم[4]. وأصلُهُ التّخييلُ بما لا حقيقةَ له، ووسيلتُهُ خِداعُ الحواسِّ والقلبِ، وحدَّهُ الفخرُ الرّازيُّ في عُرفِ الشّرعِ بأنّه: المُختَصُّ بكلِّ أمرٍ يُخفَى سَبَبُهُ ويُتَخَيَّلُ على غيرِ حقيقتِهِ، ويجري مَجرَى التّمويهِ والخِداعِ[5]. وهو معنى اللّفظِ في الآيةِ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

الإنكارُ وسيلةُ العاجزينَ عن ردِّ الحُجّةِ؛ لأنّه الأيسرُ في الاستدلالِ

قالَ الجُمهورُ والسّادةُ مِن قومِ فِرعونَ - بعدَ ما رأوا انقلابَ العصا ثُعبانًا واليدَ بيضاءَ، موافقين لقولِهِ قائلينَ مَقالتَهُ، ماضينَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (سحر).
(4) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سحر).

على رأيِه، بعدَ ما رَجَعَ إليه رَوْعُه، واستقرَّ على عَرشِ مملَكتِه -: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[1]، قاصدينَ بهذا القولِ ذمَّ موسى، والحطَّ من قدرِه بوصفِه بالسِّحرِ، مع أنَّ السِّحرَ إذ ذاكَ كانَ في أعلى المَراتِبِ؛ إذ لم يُمكِنهُم مع ما ظهرَ على يدِه نسبةُ شيءٍ إليه غيرَ السّحرِ، وبالغوا في وصفِه ليثبتوا أنّهُ راسخٌ في علمِ السّحرِ، ماهرٌ فيه[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّٰه إذا أرادَ هوانَ عبدٍ لا يزيدُ الحقَّ حُجّةً، إلّا ويزيدُ لذلك المُبطِلِ فيه شُبهةً، فكلَّما زادَ موسى ﷺ في إظهارِ المُعجزاتِ ازدادوا حَيْرةً في التّأويلاتِ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

تـوافُـقُ الـوصْـفِ بـتَـكـرارِ الـكـلامِ، تصديقٌ وإذعانٌ بالطّاعةِ المُطلَقَةِ

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ استئنافٌ جرى على طريقةِ الفصلِ بوصفِها عبارة محاورةٍ جارية بينَ موسى وبينَ فِرعونَ وملئِه[4]. وفِرعونُ كانَ مُشاركًا لهم فيما قالوه؛ لأنّ القرآنَ حكى عن فِرعونَ في قوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [سورة الشّعراء: 34]، والجمعُ بينَهما: أنَّ فِرعونَ وهُم قالوا هذا الكلامَ، فحكى هنا قولَهم وهُناك قولَهُ. أو قالَهُ ابتداءً فتلقَّنَهُ منه الملأُ، فقالوهُ لأعقابِهم، أو قالوهُ عنه للنّاسِ على طريقِ التّبليغِ، كما يفعَلُ الملوكُ؛ يرى الواحدُ منهُمُ الرّأيَ فيُكلِّمُ به مَن يَليهِ منَ الخاصّةِ، ثمّ تُبلغُهُ الخاصّةُ العامّةَ. والدّليلُ عليه أنّهم أجابوهُ في قولِهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[5]، وإعادتُهُم كلامَ فِرعونَ بلفظِهِ للموافقةِ التّامّةِ، بحيث لم يكتفوا بقولِ: نَعم، بل أعادوا كلامَ فِرعونَ ليكونَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/455.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/556.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/41.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

قولُهم على تمامِ قولِه[1] تصديقًا، وتقريرًا لما قالَهُ[2]، وتخصيصُ الملأِ بالذّكرِ مع عُمومِ الرّسالةِ لهُم ولغيرِهم؛ لأنَّ مَن عَداهم كالأتباعِ لَهم[3].

عِلّةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ، فيما تَحويه الآيةُ من عِبارةٍ:

في نِسبَتِه للسّحْرِ الباطِلِ، تَوهُّمُهم إبطالَ مُعْجزتِه وتَفنِيدَها

كانَ السّاحرُ عندَهُم في ذلك الزّمنِ أعلى المَراتِبِ وأعظمَ الرِّجالِ، ولكن وصفَهُم موسى بالسّحرِ مع مُدافعتِهم له عنِ النّبوّةِ ذمٌّ عظيمٌ وحطٌّ[4] لقدرِهِ؛ إذ لم يُمكنهُم في ظهورِ ما ظَهَرَ على يدِهِ نسبةُ شيءٍ إليه غيرَ السِّحرِ، ورسَّخَ هذا المعنى التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ، فأكثرُ استعمالِ لفظِ (هذا) إذا كانَ مِن كلامِ الكفّارِ في التّنقُّصِ والاستغرابِ، كما قال: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: 36]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: 41]، وغيرها. فهُم يَعدِلونَ عن لفظِ اسمِ ذلك الشّيءِ إلى لفظِ الإشارةِ تنقُّصًا وذَمًّا.

بَلاغةُ جماعِ المُؤكِّداتِ، في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

تأكيدُ الوصْفِ بالسِّحرِ، دليلٌ على العِنادِ والنُّكرِ

أكَّدوا نِسبةَ السِّحرِ إليه بدخولِ (إنَّ) و(اللّام)[5]، وبلفظِ اسمِ الفاعلِ الدّالِّ على ثبوتِ السِّحرِ عندَهُم في الفاعلِ، ورسوخِهِ فيهِ، وعزَّزَ هذا المعنى وصفَهُ بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغةِ فعيلِ الّتي تدُلُّ على الثّبوتِ، واللّزومِ. ويَحْتَمِلُ أن يكونَ صيغةَ مُبالغةٍ بمعنى: (كثيرٌ)، أو صفةً مُشبَهةً بمعنى: (دائمٌ)، والمعنى على الاثنينِ أنّهم يَعنونَ أنّهُ عالِمٌ بالسِّحرِ ماهرٌ فيه، قد أخذَ عيونَ النّاسِ بخُدعةٍ، وأظهرَ لهم ما لا عهدَ لهم بمثلِهِ مِن أعمالِ السَّحرةِ[6]. وبالَغوا في وصفِهِ بأن قالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بالِغُ الغايةِ في علمِ السِّحرِ وخُدَعِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/124.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/259.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/262.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/437.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

وخيالاتِهِ وفنونِهِ[1]؛ لينفّسوا عنهُ بعضَ ما لحقَهُ مِنَ الكربِ[2]، ولمّا كانَ ذلكَ خارجًا عمّا ألفَهُ السَّحرَةُ قالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بالِغٌ في علمِهِ إلى حدٍّ عظيمٍ.

مُتشابِهُ اللّفْظِ بينَ آيةِ الأعرافِ (109)، وآيةِ الشّعراء (34):

اختيارُ التّركيبِ في كلِّ آيةٍ، يُشيرُ إلى تناسُبِ سياقِ القوْلِ والجوابِ

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾، وفي الشّعراءِ: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ﴾ [الشّعراء: 34]؛ لأنّهُ لمّا تقدَّمَ في سورةِ الأعرافِ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وقعَ ذكرُ الملأِ مَبعوثًا إليهم مع فِرعونَ؛ فناسبَ ذلك أنْ يُذْكَروا في الجوابِ حتّى يكون في قوّةٍ أن لو قيلَ: (بُعِثَ إليهم وخوطِبوا؛ فقالوا)، ولم يكنْ ليناسبَ (بُعِثَ إليهم وخوطبوا؛ فقالَ فِرعونُ)، كما أنّ المُقابلةَ في هذه الآيةِ وقعَت بينَ موسى مع فِرعونَ وقومِهِ، وفي الشّعراءِ وقعَت بينَ موسى عليه السلام وفِرعونَ فقط[3].

ومِنَ المُتشابِهِ أيضًا ذكرُ اسم (فرعون) هنا، وإضمارُهُ في الشّعراء وطه. والجوابُ: أنَّ الملأَ في السّورتين كانوا المُتولّينَ للجريمةِ مِن تكذيبِ الآيةِ، وردِّ ما جاءَ به موسى عليه السلام، ولم يجرِ ذِكرٌ لفِرعونَ، ولا فيما تَلا الآيةَ في السّورتين، ويتلوها مِنَ المحاورةِ، والمُراجعةِ بينَ المَلإِ وأتباعِهِم إلى قولِهِ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، فلمّا لم يقعْ إفصاحٌ باسمِهِ في هذه الجملةِ مع أنّهُ هو القائلُ على كلِّ حالٍ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ إخبارًا أو استفهامًا إنكاريًّا ناسبَ هذا أن يُفصِحَ باسمِهِ؛ ليرتفعَ الالتباسُ، وهو إمكانُ أن يكونَ القائلُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ غيرَ فِرعونَ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/15.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/214 - 215، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/242.
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/219.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(السِّحرُ)، و(الشّعبذةُ)، و(التّمويهُ):

السِّحرُ اسمٌ لمّا دَقَّ مِنَ الحِيلةِ حتّى لا تُفْطَنَ الطّريقةُ، وهو منَ المُوبقاتِ

السِّحرُ هو التّمويهُ، وتخيّلُ الشّيءِ بخلافِ حقيقتِهِ مع إرادةِ تجوّزِهِ على مَن يقصدُهُ به. وسواء كان ذلك في سُرعةٍ، أو بُطءٍ. وفي القرآن ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه: 66]. وأمّا الشّعبذةُ فما يكونُ مِن ذلك في سرعةٍ، فكلُّ شعبذةٍ سحرٌ، وليسَ كلُّ سحرٍ شعبذةً.

أمّا التّمويهُ فهو تغطيةُ الصّوابِ، وتصويرُ الخطأ صورته. وأصلُه طلاءُ الحديدِ، والصُّفرِ (النّحاس الأصفر) بالذّهبِ، والفضّةِ؛ ليوهِمَ أنّه ذهبٌ، وفضّةٌ. ويكونُ التّمويهُ في الكلامِ وغيرِه، تقولُ: كلامٌ مُمَوَّهٌ؛ إذا لم تُبيّنْ حقائقَهُ، وحَلْيٌ مُمَوَّهٌ؛ إذا لم يُعيَّنْ جنسُهُ. والسِّحرُ اسمٌ لمّا دقَّ مِنَ الحيلةِ حتّى لا تُفْطَنَ الطّريقةُ، وقالَ بعضُهُم: التّمويهُ اسمٌ لكلِّ حيلةٍ لا تأثيرَ لها، ولا يُقالُ تمويهٌ إلّا وقد عُرِفَ معناهُ، والمَقصِدُ منه. ويُقالُ: سِحرٌ، وإن لم يُعرَفِ المَقصدُ منهُ[1]، ومِن هنا فالسِّحرُ هو أنسبُ لسياقِ الآيةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 257 - 258.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ١١٠﴾ [الأعراف: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَتْميمُ مَشهدِ اتّهامِ موسَى بإخراجِ النّاسِ مِنَ الأرضِ، والاستيلاءِ على المُلْكِ

لَمّا استَشعرَت نفوسُهُم ما صارَ إليهِ أمرُهُم مِن إخراجِهِم مِن أرضِهِم، وخلوِّ مَواطِنِهِم منهم، وخَرابِ بيوتِهِم، فبادَروا إلى الإخبارِ بذلكَ، وكانَ الأمرُ كما استَشعَروا؛ إذ أغرقَ اللّهُ فِرعونَ وآلَهُ، وأخلى مَنازِلَهُم منهُم، ونَبَّهوا على هذا الوَصفِ الصَّعبِ الّذي هو مُعادِلٌ لِقَتلِ الأنفُسِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأْمُرُونَ﴾: مع أنَّ للهمزةِ والميمِ والرّاءِ أصولًا أشيعُها: الأمرُ مِنَ الأمورِ، والأمرُ ضِدُّ النّهي[2]، إلّا أنّ مِن معانيهِ التّشاوُرَ، فمُرْني؛ بمعنى: أشِرْ عليَّ. فالائتمارُ: قَبولُ الأمرِ، ويُقالُ للتّشاوُرِ: ائتمارٌ لِقبولِ بَعضِهِم أمرَ بَعضٍ فيما أشارَ بهِ[3]. مَلاكُ الأمرِ إذن أنَّ استعمالَ الأمرِ غلَبَ في الطّلبِ الصّادرِ مِنَ الأعلى إلى مَن دونَهُ، فإذا التُزِمَ هذا كانَ إطلاقُهُ في الآيةِ الكريمةِ على وجْهِ التّلطُّفِ مع المُخاطَبينَ، وأيًّا كانَ فالمقصودُ منهُ الطّلبُ على وجهِ الإفتاءِ والاستشارةِ؛ لأنّ أمرَهُم لا يَتَعَيَّنُ العملُ بهِ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

اتّجاهُ أشرافِ القومِ لتحريضِ شعْبِ مِصرَ على موسَى، واتّهامِه بالسِّحرِ

وتَشاوَرَ المَلأُ في أمرِ موسى، وماذا يَصنعونَ؟ وكيفَ تكونُ حيلتُهُم في إطفاءِ نورِهِ، وإخمادِ كلمتِهِ، وظهورِ كذبِهِم وافترائِهِم؟ وتخوّفوا مِن معرفتِهِ أن يستميلَ النّاسُ بسحرِهِ فيما يَعتقدون، أو يَفترونَ؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358 - 359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (أمر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.

فيكون ذلك سببًا لظهورِهِ عليهم، وإخراجِهِ إيّاهُم مِن أرضِهِم[1].

وفيه مِنَ التّرهيبِ، والتّخويفِ لعامّةِ القومِ ما فيه، وكأنّ لسانَ حالِهِم: ها هو موسى عليه السلام قد وجّهَ إرادتَهُ لسلبِ مُلكِكُم مِنكُم، وإخراجِكُم مِن أرضِكُم بسحرِهِ بأنْ يَستميلَ به بني إسرائيلَ، فيتّبعوه فينتزعَ منكُم المُلكَ، ويستبدَّ به دونَكُم، ويلي ذلك إخراج المَلِكِ وعظماءِ رجالِهِ مِنَ البلادِ؛ لئلّا يناوِئوهُ لاستعادةِ المُلكِ منهُ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مِن أهمِّ أسبابِ ردِّ الحقِّ، وعدمِ قبولِهِ، التّمسُّكَ بالسّلطةِ، ونعيمِها، والمالِ، وزينتِهِ، وفيها إشارةٌ إلى أهمّيّةِ المَشورةِ، والتّأنّي في اتّخاذِ القرارِ[3]، فضلًا عنِ التّلميحِ بأهمّيّةِ أرضِ الوطنِ للإنسانِ؛ فبها خوَّفوهُم، وأرهَبوهُم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ، والمصْدَرِ المؤوّلِ:

قولُهُم ﴿يُرِيدُ﴾ مُضارعٌ يدُلُّ على تجدُّدِ الإرادةِ فيه، وإصرارِهِ على إنفاذِ وعدِهِ، وفاعلُهُ عائدٌ على ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ في الآيةِ السّابقةِ، والتّعبيرُ بالمصدرِ المُنسبِكِ ﴿أَن يُخۡرِجَكُم﴾ (المفعول به) أقوى في الدّلالةِ على حدثِ الإخراجِ، وتأكيدِ تحقُّقِهِ.

تَجدُّدُ الإرادةِ، والإصْرارُ على إنفاذِ الوعْدِ بالإخراجِ، وتأْكِيدُ تحقُّقِهِ

نُكتةُ نِسْبةِ الإخراجِ والأرضِ إليهم، في السِّياقِ الحكيمِ:

نسبةُ الإخراجِ إليهم عن طريقِ كافِ الخطابِ، وعلامةُ جمعِ العُقلاءِ تخصيصٌ للتّحذيرِ بهِم؛ زيادةً في التّخويفِ والتّرهيبِ، ويُرسِّخُ ذلك نسبةَ الأرضِ إليهم ﴿مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ على طريقةِ التّمليكِ، فحرَّضوهُم بأنَّ هذا السّاحرَ سيُفقِدُكُم استقلالَكُم، ويجعَلُكُم مَحكومينَ ببني إسرائيلَ، كما حكمَكُم الهِكْسوسُ مِن

التّحذيرُ مِنَ الإخراجِ، ترهيبٌ لهم، وتحريكٌ للغَيرةِ على الوطنِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/456.

(2) رضا، تفسير المنار: 9/53.

(3) اللّاحم، عون الرّحمن: 9/245.

قبلُ(1)؛ قصدًا إلى التّذكيرِ بأنّها أرضُهُم الّتي استوطنوها، وصارَت لهم مَوطنًا، وتقريبُها مِن أنفسِهِم، وإنساؤُهُم ما كانوا يَلقَوْنَ مِنَ اضطهادِ القِبطِ وإذلالِهِم، شُعورًا مِنهم بِحَراجَةِ المَوقِفِ(2).

العُدولُ عن ذِكْرِ لَفْظِ ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾، بحذْفِه منَ السِّياقِ:

تأكيدُ بُغضِ فِرعونَ وملئِه لموسى، وتعجُّلِهِم في إبرامِ الضُّرِّ له

جاءَ في سورةِ الشّعراءِ إضافةُ لفظةِ ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾ في سياقِ قصّةِ موسى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشّعراء: 35] وحذفُها هنا؛ لأنَّ القصّةَ في سورةِ الأعرافِ بُنِيَت على الاختصارِ فناسبَها الحذفُ(3)، وزادَها في الشّعراءِ؛ لأنّها مِن قولِ فِرعونَ، وهو أحنقُ عليهِ مِنَ الملأِ بجمعِهِم، وأعظمُهم بغضًا له وكراهةً لما جاءَ بهِ موسى، فهو المُتضرِّرُ الأكبرُ مِن دعوتِه، ويَشهَدُ على عِظَمِ حَنَقِهِ تَكرارُه وصفَ السّحرِ في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧﴾ [طه: 57]، فأكَّدَ بذكرِ اللّفظةِ طمعًا في الإصغاءِ لقولِه، والثّباتِ على مَذهَبِهِ الشّنيعِ، ورجاءَ أن يَعتقِدَ الملأُ من قومِه أنَّ آيةَ موسى عليه السلام سِحرٌ لا توقُّفَ فيها، فلم يَقنَعْ بقولِهِ للملئِه: أنّه لَساحرٌ عليمٌ، وأنّهُ يُريدُ إخراجَهُم من أرضِهِم حتّى أصرَّ على ذلك، وأكّدَهُ طمعًا في رضوخِهِم لباطلِهِ بقولِهِ: ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾. فضلًا عن أنَّ حالَ الملأِ مِن قومِهِ لم يكُنْ كحالِهِ؛ ولذلك اكتفوا بقولِهِم لرسولِهِم، وبعضِهِم لبعضٍ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾، فهذا قولُ الملأِ، والّذي وردَ في سورةِ الشّعراءِ قولُ فِرعونَ وزيادة: ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشّعراء: 35]؛ لتبيِّنَ حالَ الملأِ مِن حالِ فِرعونَ(4)؛ فقد كانوا دونَهُ خوفًا وانزعاجًا، وأقلَّ منه حرصًا على الطّعنِ في دعوةِ موسى(5). وذَكَرَ البقاعيُّ أنّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2922.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/42.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/359.
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/215 - 216.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/53.

السّياقَ لمّا كانَ مُخصَّصًا لبيانِ فِسقِهم، أسقطَ قولَهُم ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾؛ إفهامًا لِعَجَلَتِهِم في إبرامِ الأمرِ في ضُرِّه، إشارةً إلى تَغاليهِم في الفِسقِ بِعِلمِهِم أنّهُ مُحِقٌّ، وليسَ بِساحِرٍ[1].

بيانُ تعدُّدِ الوُجوهِ في قولِه تعالى على لسانِهم: ﴿فَمَاذَا﴾:

استعاضَ باللّفظِ الأنْسبِ اقتصادًا، واقتضاءً بيانيًّا وافِي المقصودِ

الفاءُ في ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ سببيّةٌ، و(ماذا) يَحتَمِلُ أن تكونَ كُلُّها استِفهامًا، أو تكونَ مَفعولًا ثانيًا لـ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ على سبيلِ التَّوسُّعِ فيه، بأن حَذَفَ منهُ حرفَ الجرِّ، وأصلُهُ: بِأيِّ شيءٍ، ويكونُ المفعولُ الأوّلُ مُستغنًى عنهُ بالمذكورِ؛ لفهمِ المعنى؛ أي: (أيُّ شيءٍ تَأمُرونَني)، ويَجوزُ أن تكونَ (ما) استِفهامًا مُبتدأً، و(ذا) بمعنى (الّذي) خَبَرٌ عنهُ، و﴿تَأۡمُرُونَ﴾ صِلَةَ (ذا)، ويكونُ قد حُذِفَ منهُ مَفعولَي ﴿تَأۡمُرُونَ﴾: الأوّلُ: وهو ضميرُ المُتكلِّمِ، والثّاني: وهو الضّميرُ العائدُ على المَوصولِ، والتّقديرُ: (فَأيُّ شيءٍ الّذي تَأمُرونَني بِهِ)[2]، فاستعاضَ باللّفظِ الأنسبِ اقتصادًا، واقتضاءً بيانيًّا وافيَ الدّلالةِ والقَصدِ.

مَوقِعُ الفعْلِ المضارعِ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾، ودَلالتُهُ في السِّياقِ:

القولُ الموجَّهُ لفِرعونَ، جدَّدَ فيه استمْرارَ الكيدِ، واسْتِحكامَ العَداوةِ

مَجيءُ الفعلِ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ والاستقبالِ، الحاملِ دلالةَ تجدُّدِ الكيدِ واستمرارِهِ؛ إمّا أن يكونَ مُستأنَفًا من كلامِ فِرعونَ، ويكون بمعنى المشاورة، وإمّا أن يكونَ مِن تمامِ الحكايةِ عن قولِ الملأِ لِفرعونَ وأصحابِهِ، وإمّا له وحدَهُ؛ أي: قالوا لِفرعونَ: فبأيِّ شيءٍ تأمُرُنا؟ وخاطبوهُ بما تُخاطَبُ به الجماعةُ؛ تعظيمًا له كما يُخاطِبُ الرّؤساءُ أتباعهم[3]. فجَرَتْ ضمائرُ الخطابِ في قولِه: ﴿يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ على صيغةِ الجمعِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩﴾ [المؤمنون: 99][4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/81.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/359.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/592، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/359.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/42 - 43.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الأمرِ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾، في السِّياقِ الكريمِ:

تمامُ الخَيبةِ استعانةُ فرعونَ المدَّعي الألوهيّةَ بالمألُوهِين

الأمرُ حقيقتُهُ طَلَبُ الفعلِ؛ ليكونَ المعنى: (ماذا تَطلبونَ أن نفعَلَ)، ولمّا تقدَّمَ في شرحِ المُفرداتِ مِن غَلبةِ استعمالِ الأمرِ في الطّلبِ الصّادرِ مِنَ الأعلى إلى مَن هم دونَهُ؛ فيكون إطلاقُهُ هنا في قولِه: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ يُشعِرُ بأنَّ فرعونَ قد أدركَ أنّ مكانتَهُ قدِ انحطَّت، وأنّهُ نَزَلَ عن كبريائِهِ وغطرستِهِ؛ ليَتَّبِعَ أسلوبَ التَّلطُّفِ مع المُخاطَبينَ، وتطييب قلوبِ مَن حولَهُ، بأنّه لا يَقطَعُ أمرًا إلّا بمشورتِهم، وذلكَ مِن تمامِ الخيبةِ فيه؛ إذ يدَّعي الألوهيّةَ، ثمّ يَستَعينُ بأمرِ المَألوهِ![1] ولا غرابةَ، فهَوْلُ أمرِ زوالِ المُلكِ مَداعاةٌ للتَّلطُّفِ مع الأنصارِ، وإظهارِ جانبِ اللّينِ لهم، وذلك طَبعُ المَكَرَةِ اللِّئامِ متى ما شعروا بالخطرِ، وأحسّوا بالتّهديدِ.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(يُخرِجُكم)، و(يُبعِدُكم):

الإخراجُ انتقالٌ مِن مكانٍ إلى آخرَ بلا عَوْدٍ، وهو أنسبُ للسِّياقِ

الخُروجُ انتقالٌ، يُقالُ: (خرجتُ مِنَ البَصرَةِ إلى الكوفَةِ)، وهوَ مُتنوِّعٌ في نَفسِهِ لُغَةً؛ لأنَّهُ عبارَةٌ عَنِ الانفصالِ من مَكانِهِ الَّذي هوَ فيهِ إلى مَكانٍ قَصَدَه، وذَلِكَ المَكانُ تارَةً يكونُ قَريبًا، وتارَةً يكونُ بَعيدًا، فعلى هَذا السّفرُ أحدُ نَوعي الخُروجِ وضعًا ولغةً، يُقالُ: (سافرَ فلانٌ) مِن غيرِ ذكرِ الخُروجِ، فيجعلونَ الخُروجَ عينَ السّفرِ، أمّا البُعدُ فهو خلافُ القُربِ، وقد يكونُ بمعنى بُعْدِ المَنزِلةِ[2].

فالإخراجُ أنسبُ لسياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ لكونِهِ تعبيرًا صريحًا عنِ الانتقالِ مِن مكانٍ إلى آخرَ، ولا يَحتمِلُ دلالةً أخرى قد تُلبَسُ على السّامعِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4287.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 432.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١﴾ [الأعراف: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْـطُ التّخويفِ مـن أثَـرِ دَعـوةِ مـوسَى، ونُصحِ فرعونَ بإنظارِه وحَشْدِ النّاسِ عليه

لمّا باتَ الأمرُ في دائرةِ التّشاورِ، ومَسالِكِ التّحاورِ، أظهَروا خبايا سرائرِهم، وخفايا نواياهم، مُحكِمين التّدبيرَ، فقد كانَ ملأُ فِرعونَ أهلَ سياسةٍ؛ علموا أنَّ أمرَ دعوةِ موسى لا يَكادُ يَخفى. وأنَّ فِرعونَ، إنْ سجنَه أو عاندَ، تحقّقَ النّاسُ أنَّ حُجّةَ موسى غلبَتْ، فصارَ ذلك ذريعةً للشّكِّ في دينِ فِرعونَ، فرأوا أن يُلاينوا موسى، وطمعوا أن يوجدَ في سَحرةِ مِصرَ مَن يُدافِعُ آياتِ موسى، فتكون الحُجّةُ عليه ظاهرةً للنّاسِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡجِهۡ﴾: أرْجَأْتُ الأمرَ وأرْجيتُه، إذا أخَّرتَه[2]. فالإرجاءُ تأخيرُ ما حَلَّ وقتُه، أو تُوُقِّعَ حلولُه[3]، والإرجاءُ في كلامِ العربِ التّأخيرُ. وقال آخرون: معناهُ احبسْهُ. فقولُه ﴿أَرۡجِهۡ﴾ في الآيةِ الكريمة: أخّرْهُ؛ أي: أخِّرْ أمرَهُ، ولا تَعجَلْ في أمرِهِ بِحُكمٍ، فتَصيرَ عَجَلَتُك حُجَّةً عَليكَ، والمقصودُ أنّهُم حاولوا مُعارَضَةَ مُعجزَتِه بِسِحرِهِم؛ ليكونَ ذَلكَ أقوى في إبطالِ قولِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[4].

2) ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾: الميمُ والدّالُ والنّونُ ليس فيه إلّا مَدينةٌ، إنْ كانَت على فعيلَةٍ، ويَجمَعونَها مُدُنًا[5]، فهي المِصْرُ الجامعُ المُحصَّنُ، وميمُها أصليّةٌ وياؤُها زائدةٌ؛ لأنّها مَأخوذةٌ من قولِهم: مَدَنَ بالمَكانِ يَمْدُنُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجو).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/20 - 22، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدن).

مُدونًا، إذا أقامَ به. ويناسبُ هذا المعنى همزَ القرّاءِ المَدائِن. والقولُ الثّاني: أنّها مَفعِلَةٌ، بمعنى المدينةِ المَملوكَةِ مِن دانَهُ يَدينُهُ. ويكونُ اسمًا للمَكانِ والأرضِ الّتي دانَهُمُ السّلطان فيها؛ أي: ساسَهُم، وقهرَهُم. والقولُ الثّالثُ: أصلُها مَدينةٌ مِن دانَهُ إذا ملكَهُ وقَهَرَهُ[1]، والمُرادُ مِنَ الآيةِ: قرى مِصرَ وريفُها.

3) ﴿حَٰشِرِينَ﴾: الحاءُ والشّينُ والرّاءُ أصلٌ، هو السَّوْقُ، والبَعثُ، والانبعاثُ، مِن بابِ (ضرَبَ ونصَرَ)، والحشرُ الجَمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ[2]، وهو إخراجُ الجماعةِ عَن مَقرِّهِم، وإزعاجُهُم عنهُ إلى الحَربِ ونحوِها، ولا يُقالُ الحشرُ إلّا في الجماعةِ، وهو الخُروجُ في النَّفيرِ إذا عَمَّ[3]، فالحَشرُ سَوْقٌ مِنَ المقارِّ، ويزيدُ عليه الجَمعُ؛ أي: التّضامُّ في المكانِ المَحشورِ إليه. والمقصودُ بِحَشْرِ السّحرةِ في الآيةِ الكريمةِ: جمْعهُم مِن شتَّى بلادِ مِصرَ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

الدّعوةُ لإرجاءِ موسَى وحَشْدِ النّاسِ عليه، بَذْلًا لجُهدِ التّأثيرِ؛ وتَنفيذًا للتّدبيرِ

قالَ الحاضرونَ مِنَ الأشرافِ، أو مَن جمعوهُم ليؤلِّبوهُم على موسى وهارونَ: أمهلْهُ وأخاه هارونَ، وأخِّرْ أمرَهُما، واجعلْ بينَكَ وبينَهُ مَوعِدًا، ولا تَعجَلْ فيه فتصيرَ عجلتُكَ عليكَ لا لكَ. وأرسِلْ في مَدائنِ مَملكتِكَ، ومَدارسِ السِّحرِ في صعيدِ مِصرَ رجالًا مِنَ الشُّرَطِ يُحضِرون إليكَ مَن فيها مِنَ السَّحرةِ - وكانَ الرّؤساءُ السَّحرةُ بأقصى مَدائنِ الصّعيدِ - فإنْ غلبَهُم موسى صَدّقْناهُ واتّبعْناهُ، وإن غلَبوُهُ فإنّهُ ساحرٌ[5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162 - 163، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/412 - 413، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مدن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (حشر).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (حشر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حشر).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/234، والحَمَد، تهذيب التّفسير: 5/247.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ النّاسَ قد يَتوهَّمون أنّهم بالتّدبيرِ، وبَذلِ الجهدِ والتّشميرِ يُغيِّرون شيئًا مِنَ التّقديرِ، ولم يَعلَموا أنّ القَضاءَ غالبٌ، وأنَّ الحُكمَ سابقٌ، وعندَ حُلولِ الحُكمِ فلا سُلطانَ للعِلمِ والفَهمِ، إنَّه أمرُ اللّهِ الواحدِ القهّارِ العلّامِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

تَجريدُ الجُملة مِن حرفِ العطْفِ، بسببِ جَريانِها في طريقِ المُحاوَرة

﴿قَالُوٓاْ﴾: هو حكايةٌ لكلامِ الملأ الّذين شاورهم فرعونُ، أو لكلامِ العامَّةِ الّذين خاطبَهم الملأُ، ويضعّفُهُ أنّ الخِطابَ لفرعونَ، وأنّ المُشاورةَ ليسَت من وظائفِهم. وتجريدُ مُفتتَحِ الآيةِ الكريمةِ من حرفِ العطفِ لجريانِها في طَريقِ المُحاورةِ؛ أي: فأجابَ بعضُ الملأ بإبداءِ رأيٍ لِفرعونَ فيما يَتَعَيَّنُ عليه اتّخاذُهُ. ويجوزُ أن تكونَ جُملةُ: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ﴾ بدلًا من جملةِ: قالَ الملأُ من قومِ فِرعونَ بإعادةِ فِعلِ القولِ، وهو العاملُ في المُبدَلِ منهُ إذا كانَ فِرعونُ هو المقصودَ بقولِهم: فماذا تأمُرون[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بالأمْرِ في ﴿أَرۡجِهۡ﴾:

فعْلُ الأمْرِ تأكيدٌ للتَّلطُّفِ، وسُرعةُ الإجابةِ، دليلُ عِظَمِ شأْنِ الأمْرِ

و﴿أَرۡجِهۡ﴾ فعلُ أمرٍ مِنَ الإرجاءِ، وهو التّأخيرُ، والهاءُ عائدةٌ إلى فِرعونَ، وفيه تأكيدٌ للتّخضُّعِ، والتَّلطُّفِ من لدنْهُ؛ إذ قَبِلَ منهم الحديثَ بهذه الصّيغةِ، وإن كانَ على سبيلِ الاستشارةِ، وهو المعروفُ بتجَبُّرِهِ. وجاءَ ردُّ القومِ المُستشارينَ مُباشرةً جوابًا مُتعجِّلَ الصّيغةِ، مُتأنّيَ التّدبيرِ لقولِه: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾، فالمسألةُ ليسَت هيّنةً؛ لأنَّ فيها نقضَ ألوهيّةِ فِرعونَ، وفي هذا دكٌّ لسلطانِه، وإنهاءٌ لانتفاعِهم هُم من هذا السّلطانِ. وأوّلُ أماراتِ التّأنّي في التّدبيرِ استدعاءُ القومِ الّذين يَفهَمونَ في السّحرِ ليواجِهوهُ بما عندَهُ من سحرٍ، وقبولُ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/556.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.

فِرعونَ لهذهِ المَشورةِ هدمٌ لألوهيّتِهِ؛ لأنّه يدّعي أنّه إلهٌ، ويستعينُ بمألوهٍ هُمُ السَّحرَةُ، والسَّحرَةُ أتباعٌ له[1].

سِرُّ قصديّةِ اختيارِ لفظِ ﴿أَرۡجِهۡ﴾:

انفتاحُ الفعْلِ على أكثرِ مِن احتمالٍ مَعنويٍّ

مِن معاني ﴿أَرۡجِهۡ﴾: أخِّرْهُ ومناظرتَه لوقتِ اجتماعِ السَّحرةِ، أو احبِسْهُ، وذلك مُحتَمِلٌ؛ لأنّكَ إذا حبستَ الرَّجلَ عن حاجتِهِ فقد أخّرتَهُ. رويَ أنّ فِرعونَ أرادَ قتلَهُ، ولم يكنْ يصلُ إليه، فقالوا له: لا تفعلْ؛ فإنّك إن قتلتَهُ أدخلتَ على النّاسِ في أمرِهِ شُبهةً، ولكنْ أرجِئْهُ وأخاهُ إلى أن تحشرَ السَّحرةَ ليقاوموه فلا يُثبتُ له عليكَ حجّةً، ثمّ أشاروا عليهِ بإنفاذِ حاشرين يجمعونَ السَّحرةَ، ظنًّا منهم بأنّهم إذا كثروا غلَبوُهُ، وكشفوا حالَهُ، وقيل: معناه مِنَ الطَّمعِ، مِن رجا يرجو؛ أي: أطمِعْهُ ودعْهُ يرجوكَ[2].

وُجوهُ تعدُّدِ القراءةِ في لفْظِ ﴿أَرۡجِهۡ﴾:

في التّعدُّدِ سَعةُ المعنى، وحُسْنُ البيانِ

اختلفتِ القراءة في ﴿أَرۡجِهۡ﴾، وأشهرُ قراءتيه[3] لأهلِ المدينةِ وبعضِ العراقيّين (نافع، وعاصم، والكسائيّ وأبو جعفر): (أرْجِهِ) بجرِ الهاءِ، والمعنى: أخّرْهُ، فسَهّلَتِ الهمزةَ فيه، ويَحْتَمِلُ أنّها مِنَ الرّجاءِ بمعنى: أطمعْهُ ورجِّهِ ودعْهُ يرجوك، وقراءةُ بعضِ الكوفيّين: (أرجهْ) بتسكينِ الهاءِ. وقرأهُ الباقونَ بالهمزِ ساكنًا: (أرجِئْه) على الأصل، على معنى: أخِّرِ المجادلةَ مع موسى إلى إحضارِ السَّحرةِ الّذين يُدافِعون سِحْرَهُ[4].

عِلّةُ إخفاءِ اسْمِ (هارونَ)، مع أنّه مُرسلٌ مع أخيه، ووَزيرٌ له:

الاسْتِغناءُ بالمَذْكورِ، قَصدٌ إلى معنًى خاصٍّ

عدمُ التّعرضِ لذكرِ اسمِ أخيه هارونَ في سياقِ الآيةِ صريحًا؛

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4287 - 4288.

(2) النّحّاس، معاني القرآن: 3/63، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162.

(3) الخطيب، معجم القراءات: 3/118 - 124، وفي ﴿أَرۡجِهۡ﴾ قراءاتٌ أُخرُ فصّلَ القولَ فيها باستيفاءٍ، يُنظر: السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/409.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/21 - 22، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/437.

لظهورِ كونِه معه بحسبِ ما بيّنتِ الآياتُ الأُخَرُ(1). وفيهِ إشارةٌ إلى أنّهُ طويَ ذكرُهُ في أوّلِ القصّةِ، وقد ذُكِرَ في غيرِ هذه القصّةِ ابتداءً(2).

إيثارُ لَفْظِ الإرسالِ ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾:

العُدولُ عنِ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ (وَابْعَثْ) كما في سورةِ الشّعراءِ وَجْهٌ في الخُصوصِ

الفعلُ (أرسل) أخصُّ في بابِ الإرسالِ منَ البعثِ؛ إذ لا يُقالُ: أرسلَ إلّا فيما كانَ توجيهًا فيه معنى الانتقالِ حقيقةً أو مَجازًا، أمّا بَعَثَ فأوسعُ فإنّهُ يقعُ بمعنى الإرسالِ وبمعنى الإحياءِ، ومنه: البعثُ الأخرويُّ، ففيه اشتراكٌ، فلمّا كانَ الإرسالُ أخصَّ وقَعَ الإخبارُ بهِ أوّلًا في سورةِ الأعراف، ثمّ وقَعَ ثانيًا بالبعثِ في سورةِ الشّعراءِ على التّرتيبِ في مَوضِعِ اللّفظِ المُطّرِدِ مِنَ القرآنِ؛ تنويعًا للعبارةِ، ولا يمكنُ على ما تقرَّرَ من ذلك العكس، ونظيرُ هذا ممّا تقدَّمَ في سورٍ مِنَ القرآنِ الكريم، مثل: ﴿تَبِعَ﴾ [البقرة: 38] و﴿ٱتَّبَعَ﴾ [طه: 123]، ومثل: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: 49] و﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: 141](3).

سِرُّ تَعْدِيةِ فعْلِ الإرسالِ بـ(في) دونَ (إلى):

الإرسالُ للبَحْثِ عنِ السّحرةِ وجلْبِهم للمُبارزةِ، لا لإبْلاغِ أهلِ مُدُنِ مِصرَ

عُدّيَ فِعلُ الإرسالِ بـ(في) دونَ (إلى)؛ لأنَّ الفعلَ هنا غيرُ مَقصودٍ تَعديَتُهُ إلى المُرسَلِ إليهم، بل المَقصودُ منهُ المُرسَلون خاصَّةً، وهوَ المَفعولُ الأوّلُ؛ إذِ المعنى: وأرسِلْ حاشرينَ في المَدائِنِ يَأتوكَ بالسّحرةِ، فعُلِمَ أنّهم مُرسَلونَ للبحثِ والجَلبِ لا لِلإبلاغِ، وهذا قَريبٌ من قولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [المؤمنون: 32]، فلم يُعَدَّ الفِعلُ بـ(إلى)؛ لكونِ الأمّةِ جُعِلَت مَوضِعًا لِلإرسالِ(4).

نُكتةُ جمْعِ المدينةِ على ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾:

قوله: ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(أرسِلْ)(5). والمَدائنُ: جمعُ مَدينةٍ،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/259.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/216.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/412.

الإشارةُ إلى لوازمِ شِدَّةِ التَّحسُّبِ والتّدبيرِ، في إحضارِ مَهَرةِ السَّحرَةِ

وهي بوزنِ فعيلةٍ، مُشتقَّة من مَدَنَ بالمكانِ إذا أقامَ؛ ولأنَّ مَدائِنَ مِصرَ في ذلك الزّمنِ كثيرةٌ[1] عَدَلَ إلى الجمعِ، وقد يُرادُ شمولُ كلِّ المَدائنِ الّتي هي مَقرُّ الخبراءِ بالسِّحرِ؛ وذلكَ مِن لوازمِ شدّةِ التّحسُّبِ، وتمامِ التّدبيرِ، والتّهيّؤِ. وقولُ الحقِّ على ألسنتِهم: ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يدُلُّ على أنّ السِّحرَ كانَ مُنتشِرًا في ذلكَ الزّمانِ، ومُنبثِقًا في المَدائنِ، وأنَّ السَّحرةَ كانوا كثيرين، وقد أتبعَ سُبحانَهُ هذا القولَ على لسانِ الملأِ بقولِه: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾، ويَحْتَمِلُ أنَّ أصحابَ هذه المَشورةِ أرادوا مَدائنَ الصَّعيد، وكانَت مَقرَّ العلماءِ بالسِّحرِ[2].

التَّعْبيرُ باسْمِ الفاعلِ المَجموعِ: ﴿حَٰشِرِينَ﴾:

تَقريبٌ للصِّفةِ مِنَ الدّلالةِ، على إرادةِ ما كُلِّفُوا به مِن فِرعونَ

قولُهُ: ﴿حَٰشِرِينَ﴾ مفعولٌ به، ومفعولُهُ مَحذوفٌ، اكتفى بدلالةِ الظّاهرِ مِن إظهارِه، والتّقديرُ: فأرسلْ في المَدائنِ حاشرينَ، يَحشرونَ السَّحرَةَ[3]. والحاشرون: هُم أصحابُ الشُّرَطِ، أو رجالٌ مِن خاصَّةِ فِرعونَ يَحشرونَ إليه ما في هذه المُدنِ مِنَ السَّحرةِ[4]. ومجيءُ اللّفظِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ جمعَ مُذكَّرٍ سالمًا يُقرِّبُ الصِّفةَ مِنَ الدّلالةِ على إرادةِ الحَدَثِ، على خلافِ جمعِ التّكسيرِ الّذي يُبعِدُها عن إرادةِ الحدثِ، ويقرِّبُها مِنَ الاسميّةِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإرجاءُ)، و(الحَبسُ)، و(الإنظارُ)، و(الإملاءُ)، و(الإمهالُ):

أُوثِرَ لفظُ (الإرجاءِ) دونَ غيرِه مِنَ المفرداتِ الآنفةِ؛ لأنّ فيه معنَى حُصولِ الطّمَعِ

الحبسُ: المَنعُ مِنَ الانبعاثِ، والتّحبيسُ: جَعلُ الشّيءِ مَوقوفًا على التّأبيدِ، يُقالُ: هذا حبيسٌ في سبيلِ اللّهِ، وحبْسُ الرّجلِ عن حاجتِهِ منعُهُ عنِ التّصرُّفِ، ويكونُ لَمَن تمكّنتَ منهُ[5]. والنَّظِرَةُ: الانتظارُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/163، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/24، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/412.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/163.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 144، والرّاغب، المفردات: (حبس).

قليلًا، والتّأخيرُ. والإنظارُ مَقرونٌ بمقدارِ ما يَقعُ فيه النّظرُ، وهو أيضًا تأخيرُ العبدِ ليُنظرَ في أمرِه[1]. والإملاءُ: الإمدادُ، والإمهالُ. ومنهُ قيلَ: للمُدَّةِ الطّويلةِ مَلاوَةٌ مِنَ الدّهرِ، ومَليٌّ مِنَ الدّهرِ[2]. والإمهالُ: عدمُ سرعةِ المُؤاخذةِ، وتركُ الانتقامِ مع القُدرةِ، والإمهالُ مُبهَمٌ، وهو تأخيرُ الأمرِ؛ ليسهُلَ ما يتكلَّفُهُ مِن علمِه[3].

أمّا الإرجاءُ فتأخيرُ ما حَلَّ وقتُهُ أو تُوُقِّعَ حلولُهُ[4]. وهو في كلام العربِ التّأخيرُ أو الحَبسُ. فقولُهُ: ﴿أَرۡجِهۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: أخِّرْهُ؛ أي: أخِّرْ أمرَهُ، ولا تَعجَلْ في أمرِه بحُكْم، فتَصيرَ عَجَلَتُكَ حُجّةً عَليكَ[5].

وإنّما عُبِّرَ بلفظِ الإرجاءِ دونَ غيرِه؛ لأنّ في مادّةِ الإرجاءِ ما يدُلُّ على حصولِ الطّمعِ؛ لأنّ الإنسانَ لا يترجَّى إلّا ما يَطمَعُ في حصولِه، ولهذا قالَ الإمامُ الغزاليّ ﵀: إنّ الطّائِعَ يترجَّى دخولَ الجنّة، والعاصي يتمنّى دخولَها[6]. والحبسُ، والإنظارُ، والإملاءُ، والإمهالُ نوعٌ مَنَ التّأخيرِ؛ لا يَتضمّنُ هذا المعنى الّذي في الإرجاءِ.

(الجمعُ)، و(الحشرُ):

الحَشْرُ: الجَمْعُ بكُرْهٍ معَ السَّوْق، والشّاهدُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: ابعثْ مَن يجمعُ السَّحرَةَ، ويسوقُهُم إليكَ. ومنه: يومُ الحَشرِ؛ لأنّ الخلقَ يُجمَعونَ فيه ويُساقونَ على المَوقفِ. فكُلُّ جَمْعٍ حَشْرٌ، ولا يقتضي الجَمْعُ قيدَ الإكراهِ والسَّوْق؛ ولذلك كانَ القصدُ إلى اختيارِ لفظِ ﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ ليناسِبَ سَوْقَ السَّحرةِ مُكرَهينَ إلى فِرعونَ.

إيثارُ لفظِ (الحشرِ) للسَّحرَةِ دونَ (الجمعِ)؛ لأنّ الخَلْقَ يُسَاقُونَ على المَوْقِفِ

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نظر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202.
(2) الرّاغب، المفردات: (ملا).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202 - 522.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/20 - 22، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/243.

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّأكيد على إحضارِ المَهَرَةِ من السّحرة

بيّنَتِ الآيةُ الكريمةُ قصدَ الإرسالِ إلى المَدائنِ، وهو الإتيانُ بالسَّحرةِ البارعينَ؛ ولذلكَ عبّرَ في مُفتَتَحِ الآيةِ بفعلِ المُستقبَلِ ﴿يَأۡتُوكَ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

حَشْدُ السَّحرة المتمكّنين من السّحر، أُولَى خُطواتِ المُواجهة مع موسَى

ومُهمّةُ هؤلاءِ المتعقِّبينَ جمعُ كلِّ خبيرٍ مُتمكِّنٍ من فنونِ السّحرِ؛ ليغلِبوا موسى، ويَقضوا على سحرِهِ ويُبطِلوا دعوتَهُ؛ لاعتقادِهِم أنّ موسى عليه السلام جاءَ بالسّحرِ، أو أنّهم يَعلَمون صدقَ آياتِه، ويُكابِرونَ.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ السَّحرَةَ كانوا في ذلك الزّمانِ عندَهُم في غايةِ الكَثرةِ، ويدُلُّ على أنّ في طَبعِ النّاسِ المُعارَضةَ، فمَهما أمكَنَت بَطَلَت دَعوى النُّبوَّةِ، وإذا تَعَذَّرَت صَحَّتِ الدَّعوى[1]، وتَهدي أيضًا إلى أنَّ حُجَجَ الباطلِ واهيةٌ، قِوامُها التّضليلُ، ومَلاكُها الافتراءُ، وغايتُها التّجهيلُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ الفعلِ المجزومِ ﴿يَأۡتُوكَ﴾:

الإرسالُ مُتّصِلٌ بالإتيانِ بشدّةٍ ووثاقةٍ، اتّصالَ السّببِ بالمسَبّبِ

عبّرَ بالجزمِ ﴿يَأۡتُوكَ﴾ على جوابِ الأمرِ للدّلالةِ على شدَّةِ اتّصالِ السّببيّةِ بينَ الإرسالِ والإتيانِ، فالتّقديرُ: إنْ تُرسِلْ يَأتوكَ، وقد قيلَ: في مثلِهِ إنّه مَجزومٌ بلامِ الأمرِ مَحذوفةٍ، على أنّ الجملةَ بدلٌ من أرسَلَ بَدَلَ اشتِمالٍ؛ أي: أرسِلْهُم آمِرًا لهم فليأتوكَ بكلِّ ساحرٍ عَليمٍ، إذ فيه مَعنى القَوْلِ، وهذا الاستعمالُ كثيرٌ في كلامِ العَربِ مع فِعلِ القولِ، نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31][2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/44 - 45.

دَلالةُ حرفِ (الباءِ)، في: ﴿بِكُلِّ﴾:

و(الباءُ) في قولِه: ﴿بِكُلِّ﴾، يَحْتَمِلُ أن تكونَ بمعنى (مع)؛ أي: مُصاحِبينَ لكلِّ ساحرٍ عليمٍ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ باءَ التّعديةِ[1]؛ أي: كلِّ ساحرٍ.

دَلالـةِ السِّياقِ على اسْتِجلابِ كُـلِّ ساحِـرٍ عـلـيـمٍ، ممّا يقتضِي توسيعَ مجالِ البحثِ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿بِكُلِّ﴾ الدّالِّ على العُمومِ:

(كلّ) اسمٌ مَوضوعٌ للعُمومِ، والشُّمولِ، ولاستغراقِ أفرادِ المُنَكَّرِ، وهو مُستعمَلٌ في معنى الكثرةِ؛ أي: بجمعٍ عظيمٍ مِنَ السَّحرةِ، يُشْبِهُ أن يكونَ جميعَ ذَلكَ النّوعِ[2]. وقد يكونُ العُمومُ فيه عُمومًا عرفيًّا؛ أي: بكلِّ ساحرٍ تَعلمونَ خبرَهُ وتَظفَرونَ به[3]، وتؤكِّدُ اللّفظةُ أنَّ السَّحرةَ كانوا في ذلك الزّمانِ عندَهُم في غايةِ الكَثرَةِ[4].

المَقصودُ عُمومُ السَّحرةِ ممّن يُظْفَرُ بِهم، أو بجمْعٍ عظيمٍ منهُم

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِكُلِّ﴾:

وفيه إشارةٌ إلى أنّه تعالى يَجعَلُ مُعجزةَ كلِّ نبيٍّ مِن جنسِ ما كان غالبًا على أهلِ ذلكَ الزّمانِ، فلمّا كانَ السِّحرُ غالبًا على أهلِ زمانِ موسى عليه السلام، كانَت مُعجزتُهُ شَبيهَةً في ظاهرِها بالسِّحرِ، وإنْ كانَت مُخالِفةً للسِّحرِ في الحقيقةِ، ولمّا كانَ الطِّبُّ غالبًا على أهلِ زمانِ عيسى عليه السلام كانَت مُعجِزتُهُ مِن جنسِ طبِّ قومِهِ وزمانِهِم، ولمّا كانَتِ الفصاحةُ غالبةً على أهلِ زمانِ نبيِّنا مُحمّدٍ ﷺ كانَت مُعجزتُهُ مِن جنسِ الفصاحةِ[5].

مُعجزةُ كلِّ نبيٍّ مِن جِنْسِ ما شاعَ في زمانِهِ

سِرُّ المجيءِ بصِيغةِ اسْمِ الفاعلِ ﴿سَٰحِرٍ﴾ وصِفتِهِ:

كانَت مَشورةُ أصحابِ الرّأيِ في مَجلِسِ فِرعونَ إحضارَ صنّاعِ السِّحرَ؛ أي: قدِّموا بينَ يدي فِرعونَ بالغَ العلمِ في السّحرِ؛ للدّلالةِ

ثبوتُ صِفةِ مَهارةِ السّحَرَةِ المُجْتَلَبِينَ في السِّحْرِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/163.

على ثبوتِ صفةِ السِّحرِ لديهم، ودوامِها فيهم، وتمرُّسِهم بها؛ ليجتمعَ كلُّ أنواعِ السِّحرِ بهذا الجَمعِ والإحضارِ؛ لتبيُّنَ سِحرَ موسى، وإلّا كانَ ساحرٌ واحدٌ كافيًا، ولكنْ أرادوا بقولِهم: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ اجتماعَ جميعِ أنواعِ السِّحرِ عندَهُ[1]. و﴿عَلِيمٍ﴾؛ يعني: ماهرٍ بصناعةِ السّحرِ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿عَلِيمٍ﴾؛ لأنّهُ صارَ بمَنزلَةِ أفعالِ السَّجايا، والمَقامُ يدُلُّ على أنّ المُرادَ قوّةُ علمِ السِّحرِ لهُ[2].

(السَّحّارُ) هو العَالِمُ بالصَّنعةِ على خِلافِ (السّاحرِ)

تَوجِيهُ تنوُّعِ القراءةِ القُرآنيّةِ، في لفْظِ ﴿سَٰحِرٍ﴾:

واختلفَ القَرَأةُ في قولِه: ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، فقَرَأَ الجمهورُ ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ جريًا على مُناسبةِ ما تقدَّمَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، ومقابلته بـ ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[3]، وحجّتُهم أيضًا قولُهُ: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: 120]، و﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [الشّعراء: 40]، فالسَّحَرَةُ جَمعُ ساحرٍ مثلَ: كَتَبَةٍ، وكاتِبٍ، وفَجَرَةٍ، وفاجِرٍ، واحتَجّوا أيضًا بقولِه: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: 116]، فاسمُ الفاعلِ من سَحَروا ساحِرٌ[4].

وقرأ حَمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ (سَحّار)[5]، على المُبالغةِ في مَعرفةِ السِّحرِ؛ أي: كثيرِ السِّحرِ، واسعُ العلمِ بعملِه، والمعرفةِ بأنواعه، فيكونُ وصفُ ﴿عَلِيمٍ﴾ تأكيدًا لمعنى المُبالَغةِ؛ لكونِه من صيغِها، ليدُلَّ على تناهيهِ فيه، وحِذْقِهِ به، فحَسُنَ لذلك أن يذكرَ بالاسمِ الدّالِّ على المُبالغةِ في السِّحرِ.[6] والعدولُ من "فاعلٍ" إلى "فَعّالٍ" لزيادةِ المُبالغةِ في الوصفِ لما رأوا من قلقِ فِرعونَ وخشيتِه[7]. ولمّا كانَ رسمُ الكلمةِ في المُصحَفِ الإمامِ واحدًا (سحر) بدونِ ألفٍ، احتملَتِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/163.
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/305.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/81.

القراءتين، ووجهُهُما: أنَّ فِرعونَ لمّا طَلَبَ كلَّ ساحرٍ في مَدائنِ البلادِ، خصَّ بالذّكرِ المَهرةَ المُتمرِّنينَ في السِّحرِ المُكثرينَ منهُ، أو أنّ بعضَ مَلئِهِ طَلَبَ هؤلاء فقط؛ لأنّهم أجدرُ بإتيانِ موسى بمثلِ ما جاءَ بهِ مِنَ الأمرِ العظيمِ، كما حكى اللّهُ تعالى عن فِرعونَ في سورةِ طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: 57 - 58]، وطَلَبَ آخرونَ حَشرَ جميعِ السَّحرةِ الرّاسِخينَ في علمِهِ؛ لعلَّهُ يوجدُ عندَ بعضِ المُقتصِدين أو المُقلّينَ مِنَ السِّحرِ ما لا يوجَدُ عندَ المُكثرين منهُ، فبيَّنتِ القراءتان كلَّ ما قيلَ مع الإيجازِ البليغِ[1]. ثمّ إنَّ السّاحرَ هو المُبتدئُ في صناعةِ السِّحرِ، فيتعلَّمُ ولا يُعلِّمُ، والسَّحّارُ هو الماهِرُ الّذي يُتعلَّمُ منه السِّحرَ، وقيلَ: السّاحرُ مَن يكون تأثيرُ سحرِهِ وقتًا دونَ وقتٍ، والسَّحّارُ الّذي يدومُ سِحرُهُ ويَعمَلُ في كلِّ وقتٍ.[2].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/55 - 54.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/234.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾ [الأعراف: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طَلَبُ السّحرة الأجْرَ من حُطام الدّنيَا الفانِي

لما تشوَّفَ السّامعُ إلى خَبرِ السَّحرةِ، قالَ مُجيبًا له استِئنافًا: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: لفِرعونَ، وحَضَروا بينَ يديهِ مُتَوثِّقِينَ لِنفعِ أنفُسِهِم، مُفْهِمِينَ أنّهم غالبونَ، لا مانِعَ لهم مِن ذلكَ إلّا عَدَمُ إنصافِهِم، وهمُّهُم في هذا المَجيءِ الدُّنيا(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأَجۡرًا﴾: الهمزةُ والجيمُ والرّاءُ أصلانِ يُمكِنُ الجمعُ بينَهُما بالمعنى، فالأوّلُ الكِراءُ على العملِ، والثّاني جَبْرُ العَظمِ الكَسيرِ. والمعنى الجامعُ بينَهُما أنَّ أُجرَةَ العامِلِ كأنَّها شيءٌ يُجْبَرُ به حالُهُ فيما لَحِقَهُ مِن كَدٍّ فيما عَمِلَهُ. فالأجرُ والأُجْرَةُ: ما أعطَيتَ مِنْ أجرٍ في عَمَلٍ. ويُقالُ: الأجرُ جَزاءُ العَمَلِ(2). فالأجرةُ إذن: أثَرٌ، أو حصيلةٌ لجُهْدٍ مادّيٍّ فيه صنعةٌ، وهو ما يُحَصِّلُهُ العاملُ من صاحبِ العملِ لقاءَ العملِ(3)، وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾: الغينُ واللّامُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قوّةٍ وقَهْرٍ وشدّةٍ(4)، وسائرُ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الغَلَبِ؛ أي: القهر(5). ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ المباركةِ: القَهرُ، والشِّدّةُ في الغَلَبةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أجر).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).

۞ المعنى الإِجْماليُّ:

مجيءُ السَّحرة، وسؤالُهم عن العِوضِ المادِّيِّ حالةَ الغلبةِ

لّما اجتمعَ السَّحرةُ كانَ أوّلُ مَطالبِهِم الأجرَ والمكافأةَ إذا ما غَلبوا موسى ﵇، وأبطلوا سحرَهُ. وتدُلُّ الآيةُ الكريمةُ على أنَّ كُلَّ الخَلقِ كانوا عالِمينَ بأنّ فِرعونَ كانَ عَبدًا ذَليلًا مَهينًا عاجزًا، وإلّا لَما احتاجَ إلى الاستعانةِ بالسَّحرةِ في دَفعِ موسى ﵇، وتدُلُّ أيضًا على أنَّ السَّحرَةَ ما كانوا قادرينَ على قَلبِ الأعيانِ، وإلّا لَما احتاجوا إلى طَلَبِ الأجرِ والمالِ مِن فِرعونَ؛ لأنَّهُم لو قَدَروا على قَلبِ الأعيانِ، فلِمَ لَمْ يَقلِبوا التّرابَ ذَهبًا؟ ولِمَ لَمْ يَنقُلوا مُلكَ فِرعونَ إلى أنفسِهِم؟ ولِمَ لَمْ يَجعَلوا أنفسَهُم مُلوكَ العالَمِ، ورُؤَساءَ الدُّنيا؟[1]، ودَعاهُمُ الكِبْرُ بأنْ يظنّوا أنّهم سيغلِبونَ بما يَسحرونَ، ولم يَعلَموا أنّ تأثيرَ القُدرةِ فيهم أغلبُ مِن تأثيرِ سحرِهِم، وأنّهُ لا يَردُّ عنهُم ما زوّروهُ في أنفسِهِم من فنونِ مَكرِهِم، فكادوا وكيدَ لهم، فوَجدوا أنفسَهُم مقهورينَ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تبيينِ الفرقِ بينَ مَن يَحملُ المَهمّةَ عقيدةً وشأنًا مُقدَّسًا، يُفني دونَها النّفسَ، والمالَ، والأهلَ، وبينَ مَن يَحملُ المَهمّةَ سبيلَ تكسُّبٍ، وزيادةَ ربحٍ، ومَنفَعَةٍ؛ فإنّ مَن يعمَلُ لغيرِهِ بأجرةٍ ليسَ كمَن يكونُ عملُهُ للهِ، ومَن لا يكونُ له ناصرٌ إلّا بضمانِ الجُعالةِ وبَذلِ الرّشا فعَن قريبٍ سيُخذَلُ[3].

وتهدي أيضًا إلى تجنُّبِ الثّقةِ المُطلَقةِ بالنّفسِ، وعدمِ تسليمِها قيادَ التَّصرُّفِ المُطلَقِ دونَ وازعٍ ورادعٍ. وأنَّ المالَ لا يمكنُ أن يكونَ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ غايةً لعملِ شبهةٍ، وسبيلَ حظوةٍ زائفةٍ، وقُربةٍ زائلةٍ، وفيها تنبيهُ الإنسانِ لهذهِ الدَّقائقِ، وأنْ لا يَغتَرَّ بِكَلِماتِ أهلِ الأباطيلِ والأكاذيبِ[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/164.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/557.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/11.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/164.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ إيجازِ الحذْفِ:

بيانٌ بالإيذانِ في المُسارَعةِ بالإرسالِ، والمُبادرةِ إلى الامْتِثالِ

الواو في ﴿وَجَآءَ﴾ عطفَت جملةَ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾على جملةِ: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾، وفي الكلامِ إيجازُ حذفٍ، وطيٌّ يقتضيهِ المعنى، والتّقديرُ: (قالوا: أرجِهِ وأخاه وأرسلْ إلخ، فأرسلَ فِرعونُ في المدائنِ حاشرين، فحشروا السّحرةَ، ثمّ جاءَ السّحرةُ مِنَ المدائنِ، فحضروا عندَ فِرعونَ)[1]، وحُذِفَ ذِكرُ الإرسالِ؛ لِعلمِ السّامِعِ به ووضوحِهِ من سياقِ القصّةِ[2]، وللإيذانِ بمُسارعةِ فِرعونَ بالإرسالِ ومُبادرةِ الحاشرينَ والسَّحَرَةِ إلى الامتِثالِ[3].

دَلالةُ التَّعْبيرِ عنِ المجيءِ بالماضِي، في ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾:

مَجيءُ السَّحرَةِ حَشْدٌ لِقوَى الشَّرِّ، لمواجهةِ رمْزِ الهدايةِ والخيرِ

قولُهُ: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ فعلٌ ماضٍ يدُلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الفعلِ، وهو حضورُ السَّحَرةِ، وهو: جمعُ ساحرٍ، و(أل) فيه عهديّة؛ أي: السَّحرَةُ المذكورون، وكانَ حضورُ السَّحرَةِ عندَ فِرعونَ في اليومِ الّذي عيّنَهُ مُوسى للقاءِ السَّحرَةِ، وهو المذكورُ في سورةِ طه في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ [طه: 59][4].

سِرُّ إظهارِ المفعولِ بهِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ في الجُملةِ:

المقصودُ مِن مجيءِ السَّحرَةِ مُناوأةُ الحقِّ، وطَمْسُ معالمِ الرّسالةِ السّماويّةِ

إظهارُ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، وهو مفعولٌ به في النَّظمِ؛ للاهتمامِ والعنايةِ بهِ، ودليلٌ على أنَّه المقصودُ من مجيئِهم، فهو المُكافِئُ لهم إن انتصروا، والمُنعِمُ عليهم إن غَلبوا.

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ البيانيِّ:

جملة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ ذكرٌ لقولِهِم بأسلوبِ الاستئنافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/258.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/23.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.

البيانيّ، كأنّهُ جوابُ سائلٍ: ماذا صَدَرَ مِنَ السَّحرَةِ حين مثَلوا بين يَدَي فِرعونَ؟[1] ولم يقُل: فقالوا بالفاء؛ لأنّه على تقديرِ سُؤالِ سائلٍ: ما قالوا إذ جاؤوهُ؟ فأُجيبَ بقولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾؛ أو لأنّه أرادَ لمّا جاؤوا قالوا، فلم يَصِحَّ دخولُ الفاءِ على هذا الوجهِ، وفيها وجهٌ آخر: أنّها في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِن فاعلِ (جاؤوا)، أي: جاؤوا قائلينَ: إنّ لنا لأجرًا[2]، ويُلمَحُ في حذفِ الفاءِ سرعة الاستجابةِ، والامتثالِ.

بيانُ سُرعةِ الاسْتِجابةِ والامتِثالِ، واشْتراطُهُمُ الأجْرَ في مَطلعِ المقالِ

الاسْتِفهامُ التّقريريُّ، وتَوجِيهُ تعدُّدِ القِراءاتِ:

قَرَأ نافعٌ، وابنُ كثير، وحفص، وأبو جعفر[3] ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ ابتداء بحرفِ (إنّ) دونَ همزةِ استفهام، وقرأهُ الباقونَ بهمزةِ استفهامٍ مَفتوحَةٍ قبلَ (إنّ)، وعلى القراءتين؛ فالمعنى يؤولُ إلى الاستفهامِ التّقريريِّ على جهةِ الاستخبارِ؛ أي: استخبَروا فِرعونَ: هل يَجعَلُ لهم أجرًا إن غَلَبوا أو لا؟ فلَم يَقطَعوا عليهِ بذلِك، إنّما استَخبَروهُ، هل يَفعَلُ ذلك؟ سائقينَ الكلامَ مَساقَ الاستفهامِ أدبًا معهُ في طلبِ الإكرامِ، فقالَ لَهم: نَعَم، لكُمُ الأجرُ والقُربُ إن غلبتُم، وهمزةُ الاستفهامِ مَحذوفةٌ تخفيفًا على القراءةِ الأولى[4]. ويجوزُ أن يكونَ المعنى أيضًا على قراءةِ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ بهمزةٍ واحدةٍ على الإخبارِ وإثباتِ الأجرِ العظيمِ، كأنّهم قالوا: لا بدَّ لنا مِن أجرٍ، أو إيجابِ الأجرِ، وإلزامِه، واشتراطِه، كأنّهُم قالوا: بشرطِ أن تَجعَلَ لنا أجرًا إنْ غَلَبْنا؛ لأنّهُم وثقوا بحصولِ الأجرِ لَهُم، حتّى صيّروهُ في حيّزِ المُخبرِ بهِ عن فِرعونَ، ويكونُ جوابُ فرعونَ بـ(نعم)؛ تقريرًا لما أخبروا بهِ عنهُ.

القراءةُ بهمزةٍ واحدةٍ على الإخبارِ، تَحملُ إيجابَ الأجْرِ واشتراطَهُ وحُصولَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/258، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/593، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/414.

(3) ابن الجزريّ، النّشر: 1/418 - 421، 2/305.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.

نُكتةُ تَنْكيرِ الأجْرِ، في قوله تعالى: ﴿لَأَجۡرًا﴾:

التّنكيرُ أمارةُ التّعظيمِ، وإطلاقُ نوعِ الأجرِ وعدَمِ تقْييدِهِ

تنكيرُ ﴿لَأَجۡرًا﴾ في طلبِهِم؛ للتّعظيمِ بقرينةِ مَقامِ المَلِكِ، وعِظَمِ العملِ[1]، وهو كقولِ العربِ: (إنّ له لإبلًا)، و(إنّ له لغنمًا)؛ يقصدونَ الكثرةَ. وإطلاقُ نوعِ الأجرِ وعدم تحديدِه، كأنّهُم قالوا: لا بُدَّ لنا مِن أجرٍ عظيمٍ، وتحليتُهُ باللّامِ المُزحلَقةِ المُؤكِّدةِ؛ لاختصاصِ تعلُّقِهِ بالخبرِ المَحذوفِ لـ(إنّ).

بَلاغةُ حَشْدِ المُؤكِّداتِ، واسْميّةِ الجُملةِ:

بيانُ إثباتِ أعْلَمِيَّتِهِم في السّحْرِ، ويَقينِهِم مِنَ الغلبةِ

قولُهُ: ﴿إِن كُنَّا﴾ شرطٌ جوابُه مَحذوفٌ للدّلالةِ عليه، أو جوابُه ما تقدَّمَ عندَ مَنْ يُجيزُ تقديمَ جوابِ الشّرطِ عليه، وجيءَ به لمُجرَّدِ تعيينِ مناطِ ثُبوتِ الأجرِ لا لتردُّدِهم في الغَلَبةِ. والضّميرُ ﴿نَحۡنُ﴾ تأكيدٌ للضّميرِ في ﴿كُنَّا﴾؛ إشعارًا بجدارتِهم بالغَلَبِ، وثقتِهم بأنّهُم أعلمُ النّاسِ بالسِّحرِ، وأنّهُم هُمُ الغالِبون حتمًا، وفي ضميرِ التّعظيمِ والتّفخيمِ (نحن) تعريضٌ بالكِبْرِ الّذي في نفوسِهم؛ فأكَّدوا ضميرَهُم (نا) بحشدِ المُؤكِّداتِ فضلًا عن اسميّةِ الجملةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ؛ لزيادةِ تقريرِ مَدلولِه، وقولُ فِرعونَ: ﴿نَعَمۡ﴾ إجابةٌ عمّا استَفهَموا عنهُ، أو تقريرٌ لما توسَّموا به على الاحتمالينِ المَذكورينِ آنفًا[2].

بيانُ التّعريضِ، بالتَّخضُّعِ في كلامِ السَّحرَةِ:

جديرٌ بالعالِمِ في أيِّ مجالٍ، أن يترفَّعَ عنِ المُساومةِ والابْتِذالِ

في ردِّ السَّحرَةِ على فِرعونَ بقولِهِم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ دليلٌ على استطالتِهِم عليهِ؛ لاحتياجِهِ إليهِم، وهو استكمالٌ لحالِ التَّخضُّعِ الّذي مارسَهُ فِرعونُ مع مَن حولَهُ؛ خشيةً على زوالِ ملكِهِ، وفيه أيضًا تعريضٌ بما يحصُلُ للعالِمِ بالشّيءِ مِنَ التَّرفُّعِ على مَنْ يَحتاجُ إليهِ، وعلى مَنْ لا يَعلَمُ مثلَ علمِهِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/414، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.

فائِدةُ جمْعِ لفْظِ ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ ودَلالتُه:

الـدّلالـةُ على ظـنِّـهـم، بـأنَّ غلبتَهُم حَتميّةٌ وصْفًا ثابتًا لَهُم

قصدوا إلى التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ جمعَ مُذكّرٍ سالمًا؛ لتقريبِ الصّفةِ مِنَ الدّلالةِ على إرادةِ حَدَثِ الغَلَبةِ، واتّصافِهم بهِ، وثبوتِهِ فيهم.

تَوجِيهُ مُتشابِهِ اللّفْظِ بينَ آيةِ الأعراف (113)، وآيةِ الشّعراء (41):

المُتشابِهُ دليلٌ على تـعـدُّدِ أحوالِ المُخاطَبينَ وتنوُّعِهم

وقولُهُ هنا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ مِن غيرِ همزةِ الاستفهامِ، وقالَ في الشّعراء: (أإنَّ لَنا لأجْراً) [الشّعراء: 41] بهمزةِ الاستفهامِ فيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ ساحرٍ مِن سَحرَةِ فِرعونَ قد انفعلَ انفعالًا أدَّى به مَطلوبَهُ؛ فالّذي يَستَفْهِمُ من فِرعونَ قالَ: (أإنّ)، والشّجاعُ قالَ لفِرعونَ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾. وفي القضيةِ الاستفهاميّةِ لا يَتحتّمُ الأجرُ؛ لأنّه مِنَ الجائزِ أن يَردَّ الفِرعونُ قائلًا: أنْ لا أجرَ لكُم، ولكنّ في القضيةِ الخبريّةِ ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾؛ أي: أنّ بعضَ السَّحرَةِ قد حكموا بضرورةِ وجودِ الأجرِ، وقد شملَتِ القراءتان هذا الاستفهامَ، وهذا الخبرَ[1].

بَراعةُ تَعالُقِ المُؤكّدَاتِ:

بـيـانُ الـكـشْـفِ عَـنْ بُـطـلانِ غَايةِ السَّحرَةِ، ومـقـاصِـدِهِـم الدّنِيئةِ

يكشفُ مَدارُ طلبِ الأجرِ من لدن السَّحرَةِ والتّصريحِ به، والإلحاحِ عليه بجماعِ المُؤكّداتِ أنّ غايةَ علومِهم الباطلةِ المُفسِدَةِ إنّما هو الكسبُ الدّنيويُّ من مالٍ، وقُربةٍ، وجاهٍ. وحقيقٌ بهم أن تكونَ غاياتُهم ذلكَ؛ لأنّ حقيقةَ العلمِ المُبتغَى فيه وجهُ اللّهِ التَّرفّعُ عن رخيصِ الرّغباتِ، ودنيءِ مُغرَياتِ الحالِ، ولذلكَ عندما اتّبعوا الحقَّ، وزَهِدوا عن تِلكُمُ المُغرَياتِ، أبى اللّهُ إلّا أن يصيروا مِنَ المُقرَّبينَ عندَهُ لا عندَ فِرعونَ[2].

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4289.

(2) حقّيّ، روح البيان: 3/214.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفائزُ)، و(القادرُ)، و(الغالبُ)، و(القاهرُ):

الفوزُ: الظَّفرُ بالخيرِ مع حصولِ السّلامَة[1]، والقدرةُ: تكونُ على صغيرِ المَقدورِ وكبيرِهِ، والقَهرُ يدُلُّ على كِبَرِ المَقدورِ. ولهذا يُقالُ مَلِكٌ قاهرٌ إذا أُريدَ المبالغةُ في مدحِهِ بالقُدرةِ، ولا يُقالُ في هذا المعنى مَلِكٌ قادرٌ؛ لأنّ إطلاقَ قولِنا: (قادر) لا يدُلُّ على عظيمِ المَقدورِ، كما يدُلُّ عليهِ إطلاقُ قولِنا: (قاهر).

آثرَ السِّياقُ لفظَ (الغالِبينَ)؛ لِما فيه من معنَى مُكْنَةِ التّمرُّسِ، وقُدرةِ العِلْمِ والتّفرُّسِ

والغَلبةُ: تكونُ بفضلِ القدرةِ وبفضلِ العِلمِ، يُقالُ قاتلَهُ فغَلَبَهُ، وصارعَهُ فغلبَهُ. وذلك لفضلِ قدرتِهِ، وتقولُ: حاجَّهُ فغلبَهُ، ولاعبَهُ فغلَبَهُ؛ بفضلِ علمِهِ وفطنتِهِ. ولا يكونُ القهرُ إلّا بفضلِ القُدرةِ، ألا ترى أنّك تقولُ: ناوأَهُ فقهرَهُ، ولا تقولُ: حاجَّهُ فقهرَهُ، ولا تقولُ: قهرَهُ بفضلِ علمِهِ، كما تقولُ غلبَهُ بفضلِ علمِهِ. والغالبُ القادرُ على كسرِ حدِّ الشّيءِ عندَ مقاومتِهِ باقتدارِهِ، والقاهرُ القادرُ على المُستعصي مِنَ الأمورِ[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (فوز).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 105 - 106.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 114]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين طمَعِ السّحرةِ في الجائزةِ، ووَعْدِ فرعونَ بجزاءِ صَولَتِهم الفائزةِ

لمّا عَلِمَ فِرعونُ بنفعيّةِ مَطالبِهم، وماديّةِ غاياتِهم، أغراهُم بالقُربِ، وطمّعَهُم بالدّنوِّ منهُ؛ فقالَ: مُقرِّرًا: نَعم، ثمّ ألقى - مُؤكِّدًا - مُغرًى دنيويًّا آخرَ هو القُربُ منهُ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: القافُ والرّاءُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خِلافِ البُعدِ[1]. والاقترابُ الدُّنوُّ، والتَّقَرُّبُ: التّدَنّي والتّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ. والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى اللّهِ تبتغي به قُرْبًا ووَسيلةً[2]. ويُستعمَلُ ذلك في المكانِ، وفي الزّمانِ، وفي النّسبةِ، وفي الحَظوةِ، والرّعايةِ، والقُدرةِ. والتَّقرُّبُ: التّحدّي بما يَقتَضي حَظوَةً، وقُربُ اللّهِ تعالى مِنَ العبدِ: هو بالإفضالِ عليهِ والفَيضِ لا بالمكانِ[3].

وكلٌّ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النّساء: 172] و﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران: 45] فهي لقُربِ المَنزلةِ عندَ اللّهِ تعالى عدا [الأعراف: 114] و[الشّعراء: 42] فهما لقُربةِ المَنزلةِ عندَ فرعونَ[4].

۞ المعنى الإجْماليُّ:

سُرعةُ استِجابةِ فِرعونَ، وإغرائِهم بالمَنافِعِ الزّائلةِ، والمطامعِ الآفِلَةِ

قالَ فِرعونُ مُجيبًا مَطلبَهُم - مُؤكِّدًا تَحقُّقَها - بعد أنْ أغروه بالغَلَبةِ: (نعم، وأزيدُكُم بأنْ تظفروا بنعيمِ قُربي وجِواري، فتكونوا أقربَ النّاسِ منّي مَجلِسًا، وأدناهم منّي مَنزلةً، ولكم مِنَ الأجرِ المَنزلةُ الرَّفيعةُ عندي)[5]، فهو يغريهم بالأجرِ المادّيِّ، ويَعِدُهُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).
(2) الخليل، العين: (قرب).
(3) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرب).
(5) الواحديّ، الوجيز، ص: 406.

بالقُربِ المعنويِّ مِن قلبِهِ تشجيعًا لهم على الإجادةِ، وهو وهمٌ لا يعلمونَ أنّ المَوقِفَ ليس مَوقفَ الاحترافِ، والمَهارة، والتّضليل، وإنّما هو مَوقِفُ المُعجزة، والرّسالةِ، والاتّصالِ بالقوّةِ الغالبةِ الّتي لا يستطيعُ الوقوفَ في وجهِها السّاحرونَ، ولا المُتجبِّرونَ، ولا غيرهم مهما بلغَ شأْوهُم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجِيهُ صِيغةِ الجوابِ، بين مَعْنَيَي الاستفهامِ، والإخبارِ:

احتِمالُ أكثرَ من معنًى في الصِّيغةِ المُستعملةِ، دليلٌ على سَعةِ الدّلالةِ وبيانِها

وقولُ فِرعونَ ﴿نَعَمۡ﴾ هو إجابةٌ عمّا استفهَموا، أو تقريرٌ لما توسَّموا: على احتماليَ الاستفهامِ والإخبارِ المَذكورَينِ في توجيهِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾، فحرفُ (نعم) يُقرِّرُ مَضمونَ الكلامِ الّذي يُجابُ به، فهو تصديقٌ بعدَ الخبرِ، وإعلامٌ بعدَ الاستفهامِ، بحُصولِ الجانبِ المُستفهَمِ عنهُ، وبذا يكونُ المَعنيانِ مُحتملَيْنِ(2).

فائدةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ، واسْمِ الفاعلِ:

بيانُ ثُبوتِ الإكرامِ، وتَقريرِ القُرْبِ مِن فِرعونَ في المَقامِ

قولُهُ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ مَعطوفٌ على مَحذوفٍ سدَّ مَسدَّهُ حرفُ الإيجابِ (نعم)، كأنّهُ قالَ إيجابًا لقولِهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾: نَعم إنَّ لكُم لأجرًا، وإنّكم لمِنَ المُقرَّبينَ. وأكّدَ - مُقابلًا توكيدَهُم - بـ(إنّ)، و(اللّام)، وبصيغةِ الجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ، وبتعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، وبصوغِ اسمِ الفاعلِ وجمعِ التّذكيرِ الدّالّينَ على الثّبوتِ وتقريبِ حَدثِ القُربةِ منهُ، والمعنى: إنّي لا أقتصرُ على الثّوابِ وحدَهُ، فإنَّ لكم أن تَحوزوا مع الثّوابِ ما يُستصغَرُ معهُ الثّوابُ، وهو التّقريبُ، والتّعظيمُ، والكرامةُ، والرّفعةُ، والجاهُ، والمَنزِلةُ؛ لأنّ المُثابَ إنّما يتهنّأُ، ويَغتبِطُ بهِ إذا حازَ على ذلك الإكرامِ(3).

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/348.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

عِلّةُ تَجديدِ التّكريمِ، في إجابةِ فِرعونَ للسّحرةِ المغْرُورِين:

تَثنيةُ التّكريمِ مُبالغةٌ في التّرغيبِ، وتأكيدُ العِنايةِ بأمْرِ مُقارَعةِ موسَى

في إجابةِ فِرعونَ للسَّحرَةِ: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ ذَكَرَ لهم أجرين؛ أحدهما ماديٌّ، والثّاني معنويٌّ، وفيه تثنيةُ المُكافأة. وزيادةُ التّكريم: تحريضٌ، وتشجيعٌ لهم، ومبالغةٌ في التّرغيب[1]؛ بأنّ لكُم لأجرًا عظيمًا، وإنّكُم مع ذلك الأجرِ الماديِّ لمِنَ المُقرَّبينَ مِن جانبِنا السّامي، فيجتمع لكم المالُ والجاهُ، وذلك مُنتهَى الدّنيا ومَجدُها، فأكَّدَ لهم نيلَ ما طلبوهُ منهُ، وزادَهُم عليهِ تأكيدًا بعدَ تأكيدٍ؛ لاهتمامِهِ بهذا الأمرِ، وعنايتِهِ بهِ، وتخوفيهِم من عاقبتِه، فإنّهُ لو قالَ لَهم: نَعم، ولم يزِدْ عليها؛ لأفادَ إجابةَ طَلَبِهم، ولو قالَ في مَنحِهِ القُربى: (وتكونون مِنَ المُقرَّبينَ) لكفى، ولكنّهُ عبَّرَ عنها بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ، والمُؤكَّدةِ بـ (إنَّ)، وبتحليةِ الخبرِ باللّامِ المُؤكِّدَة[2].

وُجوهُ تهاوِي دَعوَى الألوهيّةِ، وبطلانِ الغَطرسةِ الفِرعونيّةِ:

إطلاقُ وعْدِ فرعون، تخضُّعٌ مُهينٌ، وعَجزٌ أمامَ المألُوهِين

في مُبادرةِ فِرعونَ لهم بالوعدِ والتّقريبِ منه دليلٌ على شدّةِ اضطِرارِهِ لهم، وأنّه ينافِقُهُم أو يبالِغُ في مُجاملتِهِم تخضُّعًا، وأنّهم كانوا عالِمِينَ بأنّهُ عاجِزٌ، وأنّه مُحتاجٌ إليهم في دَفعِ موسى ﷺ. وهكذا نَجدُ ألوهيّةَ فِرعونَ قد خارَت أمامَ المَألوهِينَ السَّحرَةِ[3].

نُكتةُ التّعريضِ في فاصِلةِ الآيةِ الكريمةِ:

تَقريبُ السَّحرَةِ المُنتفِعينَ، تَعريضٌ بفسَادِ الانْتِهازِيّين

قولُهُ: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ تعريضٌ بفسادِ الحُكمِ؛ لأنّهُ مادامَ حاكِمًا فعليهِ أن يكونَ كلُّ الرَّعيةِ المَحكومينَ بالنّسبةِ إليهِ سواءً، لكن إذا ما كانَ هناكَ مُقرَّبونَ يدخُلونَ تحتَ ما يُسمَّى الرّضا السّاميّ للمَلك؛ فالدّائرةُ الأولى مِنهُم تنهبُ على قدرِ قُربِها، والدّائرةُ الثّانيةُ تنهَبُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/27، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/260.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/56.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4290.

أيضًا، وكذلك الثّالثةُ والرّابعةُ فتجدُ كلَّ الدّوائرِ تُمارِسُ فسادَها مادامَ النّاسُ مُصنَّفين عندَ الحاكمِ. ولذلكَ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ إذا ما جَلَسَ الصّحابةُ يَستمعونَ إليهِ يساوي النّاسَ جميعاً في نظرِهِ حتّى يظنَّ كلُّ إنسانٍ أنّه أولَى بنظرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، ولا يُدني أحداً، أو يُقرِّبُه مِن مَجلسِهِ إلّا مَن شَهِدَ له الجميعُ بأنّهُ مُقرَّبٌ[1].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4290.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾

[الأعراف: 115]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من تقريرِ ضمانِ امتيازاتِ السَّحرةِ، إلى الشّروعِ في المنازَلةِ الخَطِرةِ

لمّا فرَغَ السَّحرَةُ من مُحاورةِ فِرعونَ تشوَّفَ السّامِعُ إلى ما سَيقولونَهُ لموسى عليه السلام، فاستأنفَ الجوابَ حاكيًا قولَهُم: ﴿قَالُوٓاْ﴾[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

بَدْءُ المُنازَلةِ، وطَلَبُ المُبادأةِ، لاستِكشافِ القُدُراتِ عندَ المواجَهةِ

لمّا اجتمَعَ السَّحرَةُ مع موسى عليه السلام في المَشهَدِ العظيم، خيّروهُ بإلقاءِ عصاه أوّلًا، أو إلقاءِ عصيِّهم، وقدَّموا التّخييرَ بإلقائه مُعبِّرين بالفعلِ استهانةً بإلقائِهِ غُرورًا وتعصُّبًا، وليرضوا فِرعونَ بأنّهم فوقَ موسى في الحَلَبةِ عن إلقائِهم؛ لأنّهم يريدونَ أن يعرفوا ما عندَهُ من طاقةٍ، ويُقَدِّروا طاقتَهُم على قدرِها، وعبَّروا عن إلقائِهم هم بالجملةِ الاسميّةِ وتأكيدِها؛ وثوقًا بأنفسِهم وليثبتوا لِفرعونَ أنَّهُم الغالِبونَ[2]، ويَحتَمِلُ أنّهم قدَّموا موسى عليه السلام على أنفسِهم في الإلقاءِ مُراعاةً لحُسنِ الأدبِ، ولعلّ اللّه عز وجل لذلك عوّضَهُم حيث تأدَّبوا مع نبيِّهِ موسى عليه السلام بأنْ مَنَّ عليهم بالإيمانِ، والهدايةِ لمّا راعوا الأدبَ أوّلًا، وأظهروا ما يدُلُّ على رغبتِهِم في ذلك[3]. وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جوازِ الابتداءِ بتقريرِ الشُّبهةِ لِمَنْ يثِقُ بأنّهُ قادرٌ على دَفعِها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ كنظائرِهِ، جوابًا عن سؤالٍ تقديرُهُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2924، ونخبة من العلماء، التّفسير الميّسر، ص: 164.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، والخازن، لباب التّأويل: 2/235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/48.

استمرارُ المُحاوَرة بينَ طرفَي التّخاطُب، في ميدانِ المُبارَزة

فماذا فعلوا بعدَ ذلكَ؟ فقيل: قالوا مُتصدّينَ لشأنِهم مُخاطِبينَ لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾، وفُصِلَت جملةُ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ لِوقوعِها في طريقةِ المُحاورةِ بينَهُم وبينَ فِرعونَ وموسى؛ لأنّ هؤلاءِ الثّلاثةَ المذكورينَ هُم أهلُ الكلامِ في ذلك المَجمَعِ(1).

دَلالةُ التّعْبيرِ بحرفِ التّفْصيل، ﴿إِمَّآ﴾:

تَخييرُ موسَى بالإلقاءِ أوّلًا، مع رغْبَتِهم في العكسِ، مُبادرةٌ منهم للضّربةِ القاضيةِ

﴿إِمَّآ﴾ حرفُ تفصيلٍ يدُلُّ على التّرديدِ، والتّخييرِ بينَ أحدِ شَيئينِ أو أشياءَ. وحالها: إنْ كنتَ مُشترطًا، أو شاكًّا، أو مُخيّرًا فهي مَكسورةٌ، وإنْ كنتَ آمرًا، أو ناهيًا، أو مُخْبرًا فهي مَفتوحةٌ. ومع أنّ التَّقدُّمَ في شؤونِ الشّعوذةِ أنجحُ للبادئ؛ لأنّ بَديهتَها تمضي في النّفوسِ، وتستقرُّ فيها، فتكونُ النّفوسُ أشدَّ تأثُّرًا بها مِن تأثُّرِها بما يأتي بعدَها(2).

إلّا أنَّ مَن يَعْقِب ويكون عملُهُ تاليًا لمَن سَبَقَهُ، فإنَّ فعلَهُ هو الّذي سيترتَّبُ عليه الحُكمُ، ولابدَّ أنْ يكونَ قويَّ الحُجّةِ، بيّنَ التّأثيرِ، وهُم يُريدونَ أنْ يكونوا هُمُ المُعقبينَ، وأنّ موسى الّذي يبدأُ، لكنّ عزّتَهُم تفرضُ عليهم أن يبدؤوا هم أوّلًا؛ لِذلكَ جاؤوا بالعبارةِ الّتي تَحملُ المعنيين: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾(3).

دَلالةُ التّعريفِ بـ (أل)، للفْظِ ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾:

التّوطئةُ بلفظِ (أَن نَّكُونَ)، والختْمُ بـ(نحن المُلْقين)، إشارةٌ للرّغبةِ في البَدْءِ

حقيقةُ أمرِهم تدُلُّ على أنّهُم راغبونَ في التَّقدُّمِ بإلقاءِ ما يَحمِلونَهُ؛ لِما جاءَ في تعبيرِهم عن أنفسِهم، بتغييرِ النّظمِ إلى ما هو أبلغُ، مُعرِّفين ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ الواقع خبرًا، و(أل) فيه مَوصولة، وتوسيط الفصلِ، وتأكيد ضميرِهم المتّصلِ بالمُنفَصل ﴿نَحۡنُ﴾(4). والفرقُ بينَ كونِ الضّميرِ فصلًا وبينَ كونِهِ توكيدًا، بأنّ التّوكيدَ يَرفَعُ التّجوُّزَ عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4290 - 4291.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/28.

المُسندِ إليه، فيلزم التّخصيصَ من تعريفِ الخبرِ؛ والمعنى: (نحن نلقي البتّةَ لا غيرنا)، والفصلُ يُخصِّصُ الإلقاءَ بهم لتخصيصِ المُسندِ بالمُسندِ إليه، فيُعرَّى عنِ التّوكيدِ[1].

سِرُّ التّخْيير بين المتقابِلات:

جَزاءُ أدبِهم مع موسَى بتقديمِهِ عليهم، أن هُدُوا إلى الإيمانِ

في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، يحتمِلُ المعنى أنّهم يُلْمِحونَ بتخييرِهِ هنا في البدءِ إلى مُراعاةِ الأدبِ معَهُ، كما يَفعَلُ أهلُ الصّناعاتِ إذا التقَوا كالمُتناظِرينَ، وكما يَفعَلُ المُناظرونَ قبلَ أن يتحاوروا في الجدالِ؛ فكانَ جزاءُ ذلك الأدبِ أن هُدوا إلى الإيمان، أو يكون إظهارًا للجلادَةِ بأنّ حالَهُم لا يختلِفُ قُدِّموا، أو أُخِّروا[2].

تَقديمُ موسَى عليه السلام ثقةً منهم بأنفُسِهم، واسْتِصغارًا لشأنِهِ:

إبـطـالُ سِـحْـرِ مـوسَى بِـسِـحْـرِ مـثـلِـهِ، شـمـوخٌ بـالـنّـفـوسِ، وتَـطـاوُلٌ بالرّؤوسِ

وقد يكونُ تقديمُ موسى لكونِ مَقامِهم بحضرةِ مَلِكِهم - الّذي يدَّعي الألوهيّةَ والرّبوبيّةَ فيهم، وما طلبوه إليه، وما وعدَهُم به - يَقْتضي أن يَحتقِروا خصمَهُ لا أن يتأدَّبوا معه، كما يتأدَّبُ أهلُ الصّناعةِ الواحدةِ بعضهم مع بعضٍ، ولذلكَ كانَ تخييرُهُم إيّاهُ تحدّيَ ثقةٍ من أنفسِهم بأنّهُم غالبونَ، وإن تأخَّروا، واعتدادًا بسحرِهم، وإرهابًا لموسى عليه السلام، وإظهارًا لعدمِ المُبالاةِ به، مع العلمِ بأنّ المُتأخِّرَ يكونُ أبصرَ بما يقتضيه الحالُ بعدَ وقوفِه على مُنتَهى ما عندَ خصمِه.

أو أنّهم لمّا سَمعوا أنّه ألقى عصاه بحضرةِ فِرعونَ، فصارَت ثُعبانًا واضحًا للعَيانِ، استعدّوا لمقابلتِهِ بعصيٍّ وحبالٍ كثيرةٍ يُخيِّلُ إليه وإلى كلِّ ناظرٍ أنّها ثعابين تَسعَى، فيُبطِلونَ سِحرَهُ بِسِحرٍ مثلِهِ كما قالَ ملكُهُم: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [طه: 58][3].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/511.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/28.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/56.

دَلالة التّقدُّمِ والتأخُّرِ في الإلقاء، على اخْتِبارِ قُدْراتِ الخصْمِ:

أراَدُوا اسْتِضعافَ موسَى، لِيتقاصَرَ عـنِ المواجهـةِ الشّرسةِ معهم

أو أرادوا أنْ يسبُروا مِقدارَ ثِقَةِ موسى بِمَعرفتِهِ ممّا يَبدو منهُ مِنَ استواءِ الأمرَينِ عندَهُ، أو مِنَ الحِرصِ على أن يكونَ هو المُقدَّمَ؛ فإنَّ لاستِضعافِ النّفسِ تأثيرًا عظيمًا في استرهابِها وإبطالِ حيلتِها، وقد جاؤوا في جانبِهِم بكلامٍ يَسترهِبُ موسى ويُهوِّلُ شأنَهُم في نفسِهِ؛ إذِ اعتَنَوا بما يدُلُّ على ذَواتِهِم بزيادةِ تقريرِ الدّلالةِ في نفسِ السّامعِ المُعبَّرِ عنها في حِكايةِ كَلامِهِم بتأكيدِ الضّميرِ[(1)].

سِرُّ العُدولِ إلى المَصْدَرِ المُنْسَبِكِ:

هَـوْلُ المَـوقِـفِ، اسْـتـدعَـى قُـوّةَ التّعبيرِ، وجَزالةَ اللّفْظِ

﴿أَن﴾ في قولِهِ: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ؛ أي: إمّا أن تَفعَلَ الإلقاءَ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ في مَوضِعِ رَفعٍ؛ أي: إمّا إلقاؤُك مُقدَّمٌ، ودخلَت (أنْ)؛ لأنّهُ لا يكونُ الفعلُ وحدَهُ مفعولًا ولا مبتدأً[(2)]. وقد تقدَّمَ أنّ التّعبيرَ بالمصدرِ المُنسبِكِ أقوى في الدّلالةِ على الحَدثِ، ويناسِبُ هولَ الحدثِ استدعاءُ التّعبيرِ الأقوى، واللّفظِ الأدَلِّ.

دَلالةُ الأمْرِ والخبرِ مع ﴿إِمَّآ﴾ التّفصيليّةِ:

تضمُّنُ الكلامِ معنَى الأمْرِ مع (إمَّـا)، وجـوازِ وعـدَمِ جـوازِ دخولِ (أنْ) قبلَ الفِعلِ

قالَ مكّيّ القيسيّ: "إذا كانَ في الكلامِ مع (إمّا) معنى الأمرِ، فلا بدَّ مِن دخولِ (أنْ) بعدَها، وتقديرُهُ: اخترْ أن تُلقي، كقولِك للرّجلِ: (إمّا أنْ تمضي وإمّا أنْ تقعدَ)؛ فإنْ كانَ الكلامُ خبراً ليسَ فيه معنى الأمرِ، لم يجزْ دخولُ (أنْ) البتّةَ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [التّوبة: 106]، وكذلك ما كانَ في معنى الجَزاءِ، وهي مَكسورةٌ في كلِّ ذلكَ"[(3)].

فأدخلَ ﴿أَن﴾ في قولِهِ: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾، وأسقطَها من قولِهِ: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [التّوبة: 106]؛ لأنّها في مَوضِعِ أمرٍ بالاختيارِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/438، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/361.

(3) مكّيّ القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2490.

وهي في مَوضِعِ نصبٍ كقولِ القائلِ: اختَرْ ذا، أو ذا، كأنَّهُم قالوا: اختَرْ أن تُلقي أو أن نُلقي، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ فليسَ فيه أمرٌ بالتّخييرِ، ألا ترى أنَّ الأمرَ لا يَصلُحُ ها هنا، فلِذلِكَ لم يكُنْ فيهِ (أنْ)[1].

قَصْدِيّةُ اختيارِ الحرفِ (إمّا) دونَ (أو):

التّعبيرُ بـ(إمّا) يُشيرُ إلى تساوِي الإلقاءَيْنِ المُخَيَّرِ بينَهما

اختيارُ حرفِ التّفصيلِ (إمّا) دونَ (أو) الّتي للتّخييرِ؛ لأنّ (إمّا) تدخُلُ على كلا الاسمين المُخيَّرِ بينَ مَدلوليهما، وتحتاجُ إلى أن تُتلَى بالواو، و(أو) لا تدخُلُ إلّا على ثاني الاسمين، ولِذلكَ كانَ التّعبيرُ عنِ التّساوي بينَ الإلقاءين المُخيَّرِ بينَهُما مع (إمّا) في قولِ السَّحرَةِ أظهرَ منهُ مع (أو)؛ لأنّ (أو) تُشعِرُ بأنّ الاسمَ المعطوفَ عليه مَقصودٌ ابتداءً.

بَلاغةُ الإيجازِ بحذْفِ المَفعولاتِ:

عادةُ القرآنِ الاستغناءُ بالمَذكورِ في السّياقِ، إيجازًا واقْتِصادًا

وحذفَ مَفاعيلَ ﴿تُلۡقِيَ﴾ ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾؛ استغناءً بالمذكورِ جريًا على عادةِ القرآنِ في الإيجازِ، والاقتصادِ في الكلامِ في مَواطنِه. والتّقديرُ: إمّا أنْ تُلْقيَ (عصاكَ، أو ما عندَكَ أوّلًا)، وإمّا أنْ نَكونَ نَحنُ المُلقينَ (حبالَنا وعصيَّنا، وما عندَنا من دونِكَ). وهذا من مُعجزِ القرآنِ الّذي لا يأتي مِثلُهُ في كلامِ النّاسِ، ولا يَقدِرونَ عليه؛ إذ يأتي اللّفظُ اليَسيرُ بِجمعِ المَعاني الكَثيرةِ[2].

فائِدةُ هَيئةِ لفْظِ ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾:

الدّلالةُ على الإلقاءِ في الحالِ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ في النَّظمِ على صيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لقصدِ الدّلالةِ على حدوثِ فعلِ الإلقاءِ في الحالِ. ولذلك ناسبَ أنْ يعقبَها مباشرةً بالأمرِ الدّالِّ على الحالِ في قولِ موسى عليه السلام ﴿أَلۡقُواْۖ﴾.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/165.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/361.

مُتشابِهُ اللّفْظِ في القصَّةِ، تفنُّنٌ في التّعْبيرِ؛ قَصْدَ تأديةِ المعنى الأثيرِ

بَلاغةُ التّشابُهِ والاختلافِ في الآيِ:

وقالَ تعالى هنا: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾، وقالَ في طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾ [طه: 65]؛ لأنّ كلامَ السَّحرَةِ هذا كانَ في مَوطِنين، أو لعلَّهُ قد تكرَّرَ منهم، وإن كانَ في مَوطِنٍ واحدٍ، أو لعلَّ بعضَهم قالَ هذا، وآخرون قالوا غيرَه، أو لعلَّ المعنى الّذي حُكي عنهُم تؤدّيه العبارتان، فضلًا عن أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الآيتين جرَت وفاقَ فواصلِ تلك السّورةِ ورؤوسِ آياتِها، ولا يناسبُ العكسُ بوجهٍ، فوَجَبَ اختصاصُ كلِّ سورةٍ بما وردَ فيها[1]. وفي ذلك مزيدُ تفنُّنٍ في التّعبيرِ قد يَصِلُ إلى حدِّ الإعجازِ، وذلك أنّ تأديةَ دقائقِ المعنى مُكرَّرةٌ بألفاظٍ مُختلِفةٍ في مُنتَهى العُسرِ، وكثيرًا ما يكونُ مُتعذِّرًا، فلو لم يُؤكَّدِ الضّميرُ المُتَّصِلُ هاهنا بالضّميرِ المُنفَصِلِ لما أفادَ معنى الرّغبةِ في أوّليّةِ الإلقاءِ المُصرَّحِ به في سورة طه، وبذلك عُلِمَ أنّ مُراعاةَ الفاصلتين في المَوضِعين هو الّذي وحَّدَ بينَهُما بجعلِ كلٍّ منهُما دالًّا على رَغبةِ السَّحرَةِ في التَّقدُّمِ والأوليّةِ، فأيُّ خطيبٍ أو كاتبٍ يَقدِرُ على إفادةِ هذا المعنى بأسلوبين مُختلِفين في اللّفظِ مِن غيرِ تصريحٍ به[2]؟

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/218.

(2) رضا، تفسير المنار: 9/57.

﴿قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين مُخايرةِ السَّحرة لموسَى، وفطْنتِه لِتقديمِه لهم في الإلقاءِ، ثقةً بنَصْرِ الله

كانَ في جوابِ موسى إيّاهُم بقولِه: ﴿أَلْقُواْۖ﴾ استخفافٌ بما سيلقونَهُ؛ لأنّه عبّرَ عنهُ بصيغةِ العمومِ والاستخفافِ بأمرِهِم، إذ مكَّنَهُم مِن مُباداةِ إظهارِ تَخييلاتِهِم وسِحرِهِم؛ لأنّ اللّه قوَّى نفسَ موسى بذلك الجَوابِ لِتكونَ غَلَبَتُهُ عَلَيهِم[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: الرّاءُ والهاءُ والباءُ أصلان: أحدُهما يدُلُّ على خَوفٍ[2]، وأرهبَ الرّجلَ ورَهَّبَه: فزَّعَهُ[3]، وهو طولُ الخَوفِ، واستمرارُهُ[4]. والمَخافَةُ فيها مع تَحَرُّزٍ واضطرابٍ. ومعنى ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾؛ أي: حملوهُم على أن يَرْهبوا؛ أي: أخافوهُم وأفزعوهُم[5] مدّةً طويلةً.

۞ المعنى الإجْماليُّ:

المواجَهةُ المُباشَرةُ مع موسَى، بسِحْرِ العيونِ، واسْتِرهابِ النّفوسِ بالسِّحرِ الملعونِ

قالَ موسى عليه السلام للسَّحرَةِ: ألقوا ما أنتُم مُلقونَ، فألقَتِ السَّحرَةُ ما معَهُم مِنَ العصيِّ والحبالِ الغلاظِ، فسَحروا أعينَ النّاسِ، وصَرَفوها عَن إدراكِ حقيقةِ ما فعَلوا مِنَ التّمويهِ، والتّخييلِ، وخيَّلوا إلى أعينِهم بما أحدَثوا مِنَ الخدعِ أنّها تَسعَى، واسترهبوهُم حتّى خافوا، ظنًّا منهُم أنّها حيّاتٌ؛ إذ كانَ تخييلُهُم، وخداعُهُم سِحرًا عظيمًا[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهب).
(3) ابن سيده، المحكم: (رهب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/27.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: بيانِ كيفَ تتجلّى أصدقُ معاني الثّقةِ باللّه، والتّسليم لحكمِه، وتدبيرِه، والرّكون إلى تقديرِه. وتُرشِدُ إلى تأثيرِ السِّحرِ في الأعينِ، والقلوبِ، والأبدانِ بإذنِ اللّهِ تعالى،[1] وأنَّ السِّحرَ لا يغيِّرُ حقائقَ، فلا يجعلُ العصا والحبالَ حيّاتٍ، ولكنّهُ يُؤَثِّرُ في الرّائي في نفسِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تَوجِيهُ العُمومِ في خِطابِ مُوسَى عليه السلام:

﴿قَالَ أَلْقُوْاْۖ﴾ تعبيرُ موسى عليه السلام عنِ الإلقاءِ بصيغةِ العُمومِ بحذفِ المفعولِ تسويغٌ لهُم لما تراغبوا فيهِ من بدءِ الإلقاءِ استخفافًا بما سيُلقونَهُ، وبِأمرِهِم، وازدراءً لشأنِهِم، وقِلّةَ مُبالاةٍ بِهِم، وثقةً بما كانَ بصددِهِ مِنَ التّأييدِ السّماويِّ، وأنّ المُعجِزةَ لن يَغلِبَها سِحرٌ أبدًا[3]، وليُظهِرَ اللّهُ أمرَ نبوَّةِ موسى قوّى نفسَهُ ويقينَهُ، ووَثَقَ بالحَقِّ؛ فأعطاهُمُ التّقدُّمَ، فنَشِطوا وسُرّوا حتّى أظهَرَ اللّهُ الحقَّ وأبطَلَ سَعيَهُم[4]، وكانَ موسى عليه السلام نصحَهُم بعدمِ الدّخولِ معهُ في مَعرَكةٍ هُمُ الخاسرونَ فيها قَطعًا، فقال: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: 61].

التّعبيرُ بصِيغةِ العُمومِ، تَسويغٌ للمُعجِزَةِ، وتأثيرٌ في نفوسِ المُشاهِدينَ

أو هو تهديدٌ؛ أي: ابتدئوا بالإلقاءِ، فسَتَرَونَ ما يَحِلُّ بكُم مِنَ الافتِضاحِ[5]. والحِكمةُ الإلهيّةُ في هذا زيادةُ المُعجِزةِ ظهورًا؛ ليرى النّاسُ صنيعَهُم ويتأمّلوهُ، فإذا فرَغَ من بهرجِهِم، جاءَهُم الحقُّ الواضحُ الجليُّ بعدَ تَطلُّبٍ لهُ والانتظارِ منهُم لِمَجيئِه، فيَكون أوقَعَ في النّفوسِ[6].

---

(1) اللّاحم، عون الرّحمن: 9/245.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2924.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/438.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/456.

دَلالةُ الإيجازِ بالحذْفِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾:

السِّياقُ مُؤْذِنٌ بالمحذوفِ، وحذْفِ مَفعولِ الماضي لظُهورِه

وقولُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ عُطِفَ على مَحذوفٍ للإيجازِ، والتّقديرُ: فألقَوْا، فلمّا ألقَوْا؛ لأنّ قولَهُ: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ يُؤذِنُ بهذا المَحذوفِ، وحُذِفَ مَفعولُ الفعلِ الماضي المَبنيِّ على الضّمِّ المُقدَّرِ على الألفِ المَحذوفة لالتقاءِ السّاكنين: ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾ لظهورِهِ؛ أي: ألقَوا آلاتِ سِحرِهِم، والفاءُ عاطفةٌ على هذا المَحذوفِ و﴿فَلَمَّآ﴾ اسمُ شرطٍ غيرُ جازمٍ[1].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالمَجَازِ:

في المَجازِ قَصْدٌ إلى إظهارِ حقيقةِ السِّحْرِ

في قولِهِ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ نَصٌّ في أنّ لَهُم فِعلًا ما زائدًا على ما يُحَدِثونَهُ مِنَ التَّزييفِ والآثارِ في العصا وسائرِ الأجسامِ الّتي يَصرِفونَ فيها صِناعَتَهم[2]؛ أي: خَيَّلوا إلى الأبصارِ أنّ ما فعَلوهُ لهُ حَقيقةٌ في الخارجِ، والحقُّ أنّه لا حقيقةَ له، ولم يكنْ إلّا مُجرَّدَ صَنعةٍ وخيالٍ[3]. فجَعَلوها مُتأثِّرةً حيلةً بالسِّحرِ بما ألقوا مِنَ التّخييلاتِ والشّعوذةِ. وتَعديةُ فِعلِ ﴿سَحَرُوٓاْ﴾ إلى ﴿أَعۡيُنَ﴾ مَجازٌ عَقليٌّ؛ لأنّ الأعيُنَ آلَةُ إيصالِ التّخييلاتِ إلى الإدراكِ، وهُم إنّما سَحَروا العُقولَ، ولِذلكَ لو قيلَ: سَحَروا النّاسَ لأفادَ ذَلكَ، ولَكِن تَفوتُ نُكتةُ التّنبيهِ على أنّ السِّحرَ إنّما هوَ تَخَيُّلاتٌ مَرئيَّةٌ[4]، وفيهِ أنّ تأثيرَ سِحرِهِم لم يتعدَّ عيونَ الحاضِرينَ.

نُكتةُ ائتلافِ الجَمْعِ، والتّعريفِ بألِ الجِنْسيّةِ في لفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

شُمولُ تأثيرِ السِّحْرِ جميعَ المُحْتَشِدِينَ في المَجْمَعِ

﴿أَعۡيُنَ﴾ جَمعُ قِلّةٍ للعينِ أُريدَ به الكثرةُ؛ لإضافتِهِ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ المُعرَّفةِ بـ(أل) الجنسيّةِ للاستغراقِ العُرفيِّ؛ أي: جميع النّاسِ المُحتشِدينَ هناكَ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/48.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/438.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/456.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/48.
(5) المحليّ والسّيوطيّ، تفسير الجلالين، ص: 587.

بَلاغةُ صِيغةِ الاسْتِفعالِ، في الفعْلِ: ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾:

التّصويرُ البَديعُ في تأكيدِ النُّزوعِ، نحوَ شِدَّةِ السَّعيِّ إلى التّأثيرِ

﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ أرهبوهم إرهابًا شديدًا كأنّهُم استدعَوْا رهبتَهُم بالحيلةِ الّتي هي السِّحرُ العظيمُ[1]، فالسّينُ والتّاءُ في ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ للتّأكيد، وأصلُ الاسترهابِ مُحاولةُ الإرهابِ وطَلَبُ وقوعِهِ بأسبابِهِ، والتّعبيرُ به مُصوِّرٌ بليغٌ، فهو يوحي بأنّهم استجاشوا وجدانَ النّاس قَسرًا، وساقوهم سَوقًا بوسائلَ مُصطنَعَةٍ لا تَستنِدُ إلى واقعٍ سَليمٍ[2]، وأوجدوا رهبتَهُم إيجادَ راغبٍ فيها طالبٍ لها غايةَ الطّلبِ، ولمّا قيلَ ذلكَ كانَ ربّما ظنَّ أنّهُم خافوا ممّا لا يُخافُ من مثلِه، فقالَ تعالى مُبيّنًا أنّهُم مَعذورونَ في خوفِهِم: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾[3]، والمجيءُ يُقالُ اعتبارًا بتحقُّقِ الحصولِ.

عِلّةُ تَنْكيرِ السِّحْرِ، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾:

هَوْلُ السِّحرِ في النَّظَرِ، وتنوُّعُ أدَواتِهِ، أَدْعَى للأثَرِ

و(الباء) للتّعدية، وتنكيرُ (سِحرٍ) يدُلُّ على أنّ السِّحرَ كانَ مَهولًا في نظرِ المُشاهِدينَ، وأنّه أثارَ خوفَهُم ودهشتَهُم، فكأنّهُم لم يروا مثلَهُ من قبلُ، ولذلكَ لم يقُلِ اللّهُ: (وجاؤوا بالسِّحرِ)، أو (وجاؤوا بسِحرِهِم)، ولتنوُّعِ أدواتِهِ، وآلاتِهِ من حبالٍ، وأخشابٍ، وعصيٍّ، وغيرِها، فعمومُهُ أدعى للتّأثيرِ والرّهبةِ.

دَلالةُ وصْفِ السِّحْرِ بالعَظَمةِ:

تعظيمُ شأْنِ سِحْرِهِم، وقُوّةِ تأثيرِه

وصَفَ السِّحرَ بـ ﴿عَظِيمٍ﴾؛ وهو الكبيرُ المَظْهَرُ الضَّخْمُ في فنِّه بصيغةِ الصّفةِ المُشبّهةِ الّتي تفيدُ المبالغةَ؛ لقوّةِ ما خُيِّلَ في أعيُنِ النّاسِ من فنونِ السِّحرِ وألاعيبِهِ، أو لكثرةِ آلاتِهِ، أو لما ظهرَ من تأثيرِهِ في الأعضاءِ الظّاهرةِ الّتي هيَ الأعيُنُ بما لَحِقَها من تخييلِ العِصيِّ والحبالِ حَيّاتٍ، وفي الأعضاءِ الباطِنَةِ الّتي هي العقولُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140.

(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/349.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.

والقلوبُ بما لَحِقَها مِنَ الفَزَعِ والخَوفِ، ولمّا كانَتِ الرَّهبَةُ ناشِئَةً عَن رُؤيَةِ الأعيُنِ تَأَخَّرَتِ الجُملةُ الدّالّةُ عَلَيها[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرَّهبُ)، و(الخوفُ)، و(الرُّعبُ)، و(الهَلَعُ):

إيثارُ لفْظِ (الرَّهَبِ)، باعتبارِ أنّه الخوفُ والفزعُ، المتّسِمُ بالطُّولِ والاسْتِمرارِ

الخوفُ: أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ. وهو توقُّعُ مَكروهٍ عن أمارةٍ مَظنونةٍ، أو مَعلومةٍ، ويضادُّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعمَلُ ذلك في الأمورِ الدّنيويّةِ والأخرويّةِ[2]. والفزعُ مُفاجأةُ الخوفِ عندَ هجومِ غارةٍ، أو صوتِ هَدَّةٍ، وما أشبهَ ذلك، وهوَ انزعاجُ القلبِ بتوقُّعِ مَكروهٍ عاجلٍ[3]، أو انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسانَ مِنَ الشّيءِ المُخيفِ[4]. والهَلوعُ: الَّذي يفزَعُ ويجزَعُ مَنَ الشَّرِّ[5]. والهَلَعُ، والهُلوعُ أسوأُ الجزعِ على ما فسَّرَهُ اللّهُ تعالى في قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ [المعارج: 19 - 21]، ولا يُسمَّى المرءُ هَلوعًا حتّى تجمعَ فيه هذه الخصالُ[6].

أمّا الرَّهَبُ فهو الخوفُ والفزعُ[7]، لكنّهُ خوفٌ مُتّسِمٌ بالطّولِ والاستمرارِ، ولِذلكَ يُقالُ للرّاهبِ راهبٌ؛ لأنّهُ يديمُ الخوفَ[8]، والمَخافة فيه مع تَحَرُّزٍ واضطرابٍ[9].

وبذا تكونُ اللّفظةُ أكثرَ انسجامًا مع سياقِ الآيةِ الكريمةِ، والأنسبَ مِن بين شبيهاتِها في الدّلالةِ على معناها، فمعنى ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾: حملوهُم على أنْ يَرْهبوا؛ أي: أخافوهُم خوفًا شديدًا، وأفزعوهُم مُدّةً طويلةً لكثرةِ السَّحرةِ المُشتركينَ في المُنازلةِ، وكثرةِ ما ألقَوا مِن عِصيٍّ، وغيرِها، ولذلك وُصِفَ سِحرُهُم بأنّه عظيمٌ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/361.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خوف).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(4) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هلع).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(7) ابن سيده، المحكم: (رهب).
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(9) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب).

﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧﴾ [الأعراف: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين إلقاءِ السَّحرةِ للسِّحْرِ المـبـيـنِ، ولَـقْـفِ عـصَا مـوسَى ما يأفِكُونَ

ولمّا تناهى الأمرُ واشتدَّ التّشوّقُ إلى ما صَنعَ موسى ﵇، قالَ مُعْلِمًا عنه عاطفًا: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ أي: مُظهِرينَ لِعظمتِنا على رُؤوسِ الأشهادِ بما لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُضاهيَهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ﴾: الواوُ والحاءُ والياءُ أصلٌ يدُلُّ على إلقاءِ علم في إخفاءٍ، وأصلُ الوحيِ: الإشارةُ السّريعةُ، ولِتضمُّنِهِ السُّرعَة قيل: أمْرٌ وحيٌّ. فالوحيُ: السّريعُ، والإشارةُ، والكتابُ، والرّسالةُ، والصّوتُ. وكلُّ ما ألقيتَهُ إلى غيرِك حتّى عَلِمَهُ فهو وحيٌ كيفَ كانَ، وكلُّ ما في بابِ الوحي فراجعٌ إلى هذا الأصلِ[2]. وأوحَى اللّهُ إليه؛ أي: بعثَه. وأوحى إليه: ألْهَمَهُ[3]. ويشمَلُ الوَحْيَ بالكلامِ المُباشِرِ، وبواسطةِ الرُّسُلِ، والإلهامِ، والإلقاءِ في الرّوعِ، والغرزِ في الطّبعِ. وما ورَدَ في القرآنِ من عمومِ أنواعِ الوحي هو منَ الوحي بأيٍّ منَ الطُّرقِ السّابقةِ، والسّياقُ يوضِحُ الطّريقةَ المُرادةَ[4]. والوحيُ في الآيةِ الكريمةِ بمعنى: الإلهامِ، والإلقاءِ في النّفسِ، والإشارةِ المُتضمِّنةِ للسُّرعةِ.

2) ﴿تَلۡقَفُ﴾: لَقِفْتُ الشّيءَ ألقَفُهُ، وتَلقَّفتُه: تناولتُه بالحِذْقِ؛ فاللَّقفُ: الجيّدُ الالتقافِ، سواء في ذلك تناولَهُ بالفمِ، أو اليدِ[5]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وحي).

(3) الخليل، العين: (وحي).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وحي).

(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لقف).

فاللَّقْفُ: تناولُ شيءٍ يُرمَى بهِ إليكَ، فتأخذَهُ، وتأكلَهُ، وتبتلعَهُ[1] من غيرِ تمهُّلٍ. ومن مجازِهِ تلقّفُ العلمِ؛ أي: تلقّيهِ بسرعةٍ وحِذْقٍ[2]. ومعنى ﴿تَلْقَفُ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: تَبتلِعُ، وتَلتقِمُ التقامًا حقيقيًّا حاذقًا جَيِّدًا شَديدًا سَريعًا جِدًّا[3].

3) ﴿يَأْفِكُونَ﴾: الهمزةُ والفاءُ والكافُ في (أفك) بفتحِ الفاءِ وكَسْرِها أصلٌ واحدٌ، يدُلُّ على قلبِ الشّيءِ، وصرفِهِ عن جهتِهِ بالكذبِ والباطلِ[4]. فالإفكُ: الكذبُ، والصّرفُ، والإثمُ، والصّدُّ عنِ الحقِّ، والقلبُ[5]. فالإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وجهِهِ الّذي يحقُّ أنْ يكونَ عليهِ؛ أي: يَصرِفُ عنِ الحقِّ في الاعتقادِ إلى الباطلِ، ومِنَ الصّدقِ في المَقالِ إلى الكذبِ، ومِنَ الجميلِ في الفعلِ إلى القبيحِ، ومِلاكُ ذلك الاستعمالِ: الكذبُ[6]. ويُستعمَلُ في التّلبيسِ والشّرِّ وقلبِ الحقائقِ قولًا وفِعلًا[7]. وجماعُ هذه المعاني تَحتمِلُها لفظةُ الإفكِ في الآيةِ الكريمةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

وَحْيُ الله لموسَى بإلقاءِ العصَا، وإظهارُ عظِيمِ القُدرةِ لمن عصَى

وأوحى اللّهُ إلى رسولِهِ موسى: أنْ ألقِ عصاكَ ولا تَخفْ إنّكَ أنتَ الأعلى، وهو وحيُ إعلامٍ فيهِ تثبيتٌ للجأشِ، وتبشيرٌ بالنّصرِ، أو: هو وحيُ إلهامٍ أُلقيَ ذَلِكَ في روعِهِ. فألقى ما في يمينِهِ - وهي عصاهُ - فإذا هي تَبتلِعُ كلَّ شيءٍ أتَوا بهِ مِنَ السِّحرِ، من حبالِهم وعصيِّهم واحدًا واحدًا، وتَلتقِمُ بسرعةٍ ما يُموِّهونَ، ويَخدَعونَ بهِ النّاسَ، ويُوهِمونَ أنّهُ حقٌّ وهوَ باطلٌ[8].

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (لقف).
(2) رضا، تفسير المنار: 9/60.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (أفك).
(6) الرّاغب، المفردات: (أفك).
(7) رضا، تفسير المنار: 9/59 - 60.
(8) الخازن، لباب التّأويل: 2/236، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/363.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّ الباطلَ قد يَسحَرُ عيونَ النّاسِ ببريقِهِ لفترةٍ مِنَ الوقتِ، وقَد يَسترهِبُ قلوبَهُم لساعةٍ مِنَ الزّمانِ، حتّى ليخيّلُ إلى الكثيرينَ الغافِلينَ أنّه غالبٌ وجارفٌ، ولكن ما إن يواجِهُهُ الحقُّ الهادئُ الثّابتُ المُستقِرُّ بقوّتِهِ الّتي لا تُغالَبُ؛ حتّى يزهقَ ويزولَ، وينطفئَ كشُعلَةِ الهشيمِ، وإذا بأتباعِ هذا الباطلِ يُصيبُهُم الذّلُّ والصَّغارُ، وهُم يَرونَ صروحَهُم تتهاوى، وآمالَهُم تتداعى، أمامَ نورِ الحقِّ المُبينِ، وإذا بتحدّيهِم الصّريحِ، وتطاولِهِم الأحمقِ يتحوَّلُ إلى استسلامٍ مُهينٍ، وذلٍّ مُشينٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

جُملةُ الوحيِ تابعةٌ لإلقاءِ السَّحرَةِ سِحْرَهُمْ

الواو في ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ عاطفةٌ، وجملةُ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مَعطوفةٌ على الآيةِ الكريمةِ قبلَها ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾، فهي في حيّزِ جوابِ (لمّا)؛ أي: لمّا ألقَوا سَحَروا، وأوحَينا إلى موسى أن ألقِ لهم عَصاكَ[2].

سِرُّ إيثارِ فعْلِ الوَحْيِ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

التّصريحُ بفعْلِ الوحْيِ، تَثبيتٌ لنبيِّهِ الكريمِ، وتَبشيرٌ له بالنَّصرِ المُبِينِ

وسواء كان الوحيُ وحيَ إعلامٍ، أو وحيَ إلهامٍ أُلقيَ في روعِهِ؛ فإنَّ فيه تثبيتًا مِنَ اللهِ في ذَلكَ المُوقِفِ العظيمِ لجأشِ نبيِّهِ الكريمِ وتبشيرًا له بالنّصرِ[3]. وضميرُ التّعظيمِ (نا) إظهارٌ لعظمَتِهِ تعالى على رُؤوسِ الأشهادِ بما لا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يُضاهيَهُ[4].

نُكتةُ إظهَارِ اسْمِ مُوسَى عليه السلام:

إظهارُ اسْمِ المُرسَلِ تشريفٌ، وتثنيةُ تأكيدٍ للتّبشيرِ بالوَحْيِ

﴿إِلَىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ لانتهاءِ الغايةِ المكانيّةِ، وفي التّصريحِ بموسى بعدَ ضميرِ التّعظيمِ تشريفٌ، وإظهارُ مَكانةٍ وعلوٍّ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/350.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/363.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.

مَنزلةٍ لعبدِهِ ورسولِهِ. وحُرِمَ السَّحرَةُ منها في ساحةِ المُبارزةِ؛ إذ أغفلَ تعالى ذكرَهم إهمالًا، ودنوَّ مَنزِلةٍ، وضَعَةَ شأنٍ، فلم يُصرّحْ بِهِم في هذهِ السّاحةِ إلّا في مَوطِنِ التّشريفِ لَهُم عندَ إيمانِهِم وسجودِهِم: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾.

إيثارُ الأمْرِ بقولِهِ: ﴿أَلۡقِ﴾ دونَ فعْلِ الضَّربِ:

الإيحـاءُ أنَّ ما حَدَثَ هو بقُدرةِ اللـهِ لا بفِعْلِ بَشَرٍ

أمرَ اللّٰهُ تعالى موسى في هذا المَوقِفِ بمواجهةِ السَّحرَةِ بفعلِ: ﴿أَلۡقِ﴾، ولم يأمرْهُ بفعلِ: (اضرب)؛ لأنَّ اللّٰه أرادَ أن يُظهِرَ لموسى ولفِرعونَ ولِلمُشاهِدينَ أنَّ العصا الّتي يُلقيها موسى ليسَت عصًا عاديّةً، وإنّما هي عصا مُبارَكةٌ، تتحوَّلُ بإذنِ اللّٰهِ إلى ثُعبانٍ حقيقيٍّ، يتحرَّكُ ويبتلِعُ ما صَنَعَ السَّحرَةُ من حبالٍ وعصيٍّ، ولو قالَ اللّٰهُ لموسى: (اضربْ) لظنّ النّاسُ في ذلك المَشهَدِ المَهيبِ أنَّ العصا هي الّتي تَضرِبُ بقوّةٍ وتَكسِرُ ما تُصادِفُهُ من حبالٍ وعصيٍّ، وهذا لا يُثبتُ أنَّ العصا تحوَّلَت إلى ثُعبان، ولا يُبطِلُ كيدَ ما صَنَعَ السَّحرَةُ مِنَ السِّحرِ.

فائِدةُ التّعْبيرِ بالأمْرِ المُعتلِّ المُنسَبِكِ مع ﴿أَنۡ﴾:

الصِّيغةُ مِصدَاقٌ لسُرعةِ حَدَثِ الإلقاءِ، وقُوّتِهِ

﴿أَنۡ﴾ مَصدريّةٌ في مَوضِعِ نصبٍ بـ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ أي: بأنْ ألقِ، فهي وما بعدَها مفعولُ الإيحاءِ، ويَحتَمِلُ أن تكونَ مُفسِّرَةً لها بِمَعنى: (أي)؛ لتقدُّمِ ما فيهِ معنى القولِ دونَ حروفِهِ وهو الإيحاءُ، فلا يكونُ لها مَوضِعٌ مِنَ الإعرابِ[1]. و﴿أَلۡقِ﴾ فعلُ أمرٍ بُنِيَ على حَذفِ حرفِ العلّةِ إيذانًا بسرعةِ الإلقاءِ الّذي يناسبُ قوّةَ الحدثِ وهَوْلَهُ، ويؤكِّدُهُ حَذفُ أحدِ التّائينِ من لفظةِ ﴿تَلۡقَفُ﴾ على قراءةِ التّشديدِ -كما سيأتي بيانُهُ-؛ وأصلُها تتلقّفُ؛ ليدُلَّ على سرعةِ تلقُّفِها المَقرونِ بالشّدّةِ والمبالغةِ. ويناسبُ الفعلُ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مَشهَدَ سُرعةِ الحَدَثِ، لِتضمُّنِ دلالتِهِ اللّغويّةِ السُّرْعَةَ في الأمرِ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/439، وطنطاويّ، الوسيط: 5/350.

بَلاغةُ الاحْتباكِ، وأثَرُه في السِّياقِ:

ذَكَرَ هنا وفي سورةِ طه بقولِه تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: 69] أمرَهُ لموسى بالإلقاءِ، وفي سورةِ الشّعراءِ قالَ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ٤٥﴾ [الشّعراء: 45] أنّهُ فعَلَ الإلقاءَ الّذي أُمِرَ به، ولم يَذكُرِ الأمرَ، فحَذَفَ مِن كلِّ سورةٍ ما أثبتَ مُقابلَهُ في الأخرى، وهو من قبيلِ الاحتباكِ في السّورِ والاختصارِ المُؤدّي للمعاني المُتعدِّدةِ بأوجزِ عبارةٍ[1].

الإيجازُ في اللّفظِ، والتّنوّعُ في المعاني، من بيانِ التّركيبِ القرآنيّ

وقد دلَّ السّياقُ على جُملَتَينِ مَحذوفَتَينِ؛ إذِ التّقديرُ: فألقاها فدَبَّت فيها الحَياةُ، وانقَلَبَت ثُعبانًا فإذا هي تَلقَفُ، دلَّ على الجُملةِ الأولى الأمرُ بالإلقاءِ، وعلى الجُملةِ الثّانيةِ التَّلقُّفُ؛ لأنّهُ مِن شأنِ الحيوانِ، والعَصا إذا دَبَّت فيها الحَياةُ صارَت ثُعبانًا بِدونِ تَبديلِ شَكلٍ[2].

دَلالةُ إضافةِ العصَا، واسْتِحضارِ الضّميرِ، في ﴿عَصَاكَۖ﴾:

تخصيصُ العصَا بكونِهَا لِموسى عليه السلام، لا لغيرِه

إسنادُ العصا في ﴿عَصَاكَۖ﴾ إلى ضميرِ المُخاطَبِ وهو موسى عليه السلام، والإتيانُ بالضّميرِ ﴿هِيَ﴾ توكيدًا؛ إشارةٌ إلى أنَّ العصا المعنيّةَ هي عصاهُ لا غيرُها، فذَلِكُم أظهرُ لقوّةِ المُعجِزةِ.

دَلالةُ حرْفِ (الفاءِ)، والحذْفِ في السّياقِ:

الإشعارُ بسُرعةِ شُروعِها بالتهامِ ما ألقاهُ السَّحَرَةُ

الفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ فصيحةٌ للعطفِ، والسّببيّةِ، والتّعقيبِ الدّالِّ على سُرعَةِ مُفاجأةِ شُروعِها في التَّلقُّفِ بمُجرَّدِ إلقائِها[3]؛ أي: فألقاها فصارَت حيّةً فإذا هي تلقَفُ، وإنّما حُذِفَ المُقدَّرُ (فألقاها) للإشعارِ بمُسارَعةِ موسى عليه السلام إلى الإلقاءِ، وبغايةِ سُرعةِ الانقلابِ،

(1) رضا، تفسير المنار: 9/59، والاحتباكُ: هو أن يجتمعَ في الكلامِ مُتقابلان، فيُحذَفُ مِن واحدٍ منهما مقابله، لدلالةِ الآخرِ عَليهِ. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 36.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

كأنّ لَقْفَها لِما يَأفِكونَ قد حَصَلَ مُتَّصِلًا بالأمرِ بالإلقاءِ[1]، وهذا يُناسِبُ الحذفَ المُتقدِّمَ الّذي أُشيرَ إليهِ في فعلِ الإلقاءِ.

وهذا الحَذفُ قبلَ الجُملةِ الفُجائيَّةِ صيَّرَها إخبارًا بما تَرَتَّبَ على الإلقاءِ، ولا يكونُ موحًى بها في الذِّكرِ، ومَن يَذهَبُ إلى أنّ الفاءَ في نحوِ: خَرَجتُ فإذا الأسَدُ زائِدَةٌ، يَحْتَمِلُ على قولِهِ أن تكونَ هذه الجُملةُ موحًى بها، والآيةُ الكريمةُ بمُجمَلِها مِن كلامِ اللّهِ؛ يعني داخلًا في الأمرِ فيكون مِن جملةِ الموحَى به في الذّكرِ، إلّا أنّهُ يُقدَّرُ المَحذوفُ بعدَها؛ أي: فألقاها فلَقِفَتهُ[2]. ورجّحَهُ بعضُهُم لقولِهِ تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ [طه: 69][3].

نُكتةُ تَوجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ، في قوله تعالى: ﴿تَلۡقَفُ﴾:

تَعدُّدُ القراءةِ تنوُّعٌ في المعاني، وسَعةٌ في الدّلالةِ

قَرَأ حفص عن عاصمٍ ﴿تَلۡقَفُ﴾ بسكونِ اللّامِ وتخفيفِ القافِ، على صيغةِ الفعلِ المُجرَّدِ؛ أي: تَلتَقِمُ التقامًا حَقيقيًّا شَديدًا سَريعًا جدًّا بما دَلَّ عليه حَذفُ التّاءِ[4]. وفي قراءةِ الجُمهورِ (تلقّف) بفتحِ اللّامِ، وتشديدِ القافِ، وأصلُهُ تَتَلَقَّفُ؛ أي: تُبالِغُ وتتكلَّفُ اللّقفَ. وحَذَفَ التّاءَ؛ ليناسبَ سرعةَ إنجازِ الأفعالِ، وتحقُّقِها في المَشهَدِ. وقَرَأ سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ (تلقّم) بالميمِ، والتّشديدِ، أي: تَبتلِعُ كاللُّقمَةِ، ورويَ أنّ الثّعبانَ استَوفَى تلكَ الحِبالَ والعِصيَّ أكلًا، وأعدَمَها اللّهُ ﷻ[5].

دَلالةُ صِيغةِ المُضارعِ ﴿تَلۡقَفُ﴾:

اسْتِحضارُ صُورةِ تجدُّدِ اللَّقفِ، بتجدُّدِ إفْكِهِم

جاءت صيغةُ المضارعِ ﴿تَلۡقَفُ﴾، وكذلك ﴿يَأۡفِكُونَ﴾ للدلالةِ على التّجديدِ والتّكرير واستحضار صورةِ اللّقفِ الهائلةِ العَجيبةِ؛ أي: فإذا هي يَتَجَدَّدُ تَلَقُّفُها لِما يَتَجَدَّدُ ويَتَكَرَّرُ من إفكِهِم[6]. فالتّعبيرُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/260.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/363.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/246.

(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/271، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/260، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

عنِ الإفكِ بالمضارعِ دلالةُ تجدُّدِ إفكِهم، وتكرّرِهِ مُقابلة لشدّةِ تَلقُّفِ العصا المُنقلِبَةِ.

عِلّةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿مَا﴾ الموصولةِ، والمَصْدَرِ المُنسَبِكِ:

في التَّعبيرِ إبهامٌ يَشِي بالهَولِ، وقُوّةِ الحَدَثِ

﴿مَا﴾ مَوصولةٌ للدّلالةِ على غيرِ العاقلِ لما تَحمِلُه مِن معنى الإبهامِ في محلِّ نصبِ مَفعولٍ بهِ لـ(تَلقف)؛ أي: تَلقَفُ الّذي يَأفِكونَ، والعائدُ مَحذوفٌ؛ أي: ما يَأفِكونَهُ ويُزوِّرونَهُ، أو مَصدريّةٌ؛ أي: تَلقَفُ إفكَهُم، تَسميةٌ لِلمفعولِ بالمَصدرِ[1]، وفي المَصدرِ المُنسبكِ قوّةُ دلالةٍ على عِظَمِ فِعلِ الحَدثِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالإفكِ، في فاصلةِ الآيةِ:

إثباتُ بُطلانِ سِحرِهِم، ووَسْمُ صَنيعِهِم بالافتراءِ

تسميَةُ سحرِهم إفكًا بقولِهِ: ﴿يَأۡفِكُونَ﴾، دليلٌ على أنّ السِّحرَ لا مَعمولَ لهُ، وأنّهُ مُجرَّدُ تَخييلاتٍ وتَمويهاتٍ[2]، وفيه دليلٌ على بطلانِهِ. والتّصريحُ بتلقُّفِ العصا لـ ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ وقصديّةُ اختيارِ لفظِ الإفكِ تعبيرًا عَن سحرِهِم دونَ لفظِ عصيِّهِم إلماحٌ بأنّ صنيعَهُم كلَّهُ افتراءٌ منذُ مَجيئِهِم مِنَ المَدائنِ حتّى لحظةِ دَحضِ السِّحرِ. فالبُطلانُ لِلفعلِ برمّتِهِ، وليسَ للإلقاءِ، والسِّحرِ فقط.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(تلقَفُ)، و(تلقَمُ):

اللَّقفُ البَلْعُ بالحِذْقِ، واللّقمُ الالتهامُ في مُهلةٍ وكَثرةٍ، والأوّلُ أنسبُ لِسياقِ الآيةِ

التَّلَقُّمُ: الالتقامُ في مُهلةٍ[3] مع كثرةٍ[4]. أمّا اللَّقَفُ - بحسبِ ما فُصِّلَ في شرحِ اللّفظةِ - فالتّناولُ، والبَلْعُ بالحِذْقِ، بسرعةٍ ومن غيرِ تمهُّلٍ بالفمِ، أو اليدِ؛ أي: تلتقمُ التقامًا حقيقيًّا جيّدًا حاذِقًا شَديدًا سَريعًا جِدًّا، وبهذا فهوَ يُناسِبُ عِظمَ مَشهَدِ تلقُّفِ ما رَماهُ السَّحرَةُ مِن عصيٍّ، وغيرِها؛ لِكثرتِها من جهةٍ، وتنوُّعِها، وسرعةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.
(3) الحميريّ، شمس العلوم: 9/6100.
(4) الرّاغب، المفردات: (لقم).

أحداثِ المَشهَدِ، وقوّةِ المُعجزةِ، ممّا يحتِّمُ نوعَ ابتلاعٍ حاذقٍ شديدٍ سريعٍ: فعبَّرَ بالتَّلقُّفِ، ولمّا كانَتِ المُهلَةُ قرينةَ الالتقامِ ناسبَ مَجيؤُها مع التقامِ الحوتِ لسيّدِنا يونسَ ﷺ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصّافّات: 142]، وناسبَت دلالةُ الكَثرةِ في اللّفظةِ ضخامةَ الحوتِ، وسعةَ ما يدخُلُ في فمِهِ من كائناتٍ.

(الإفكُ)، و(الصّرفُ)، و(الانقلابُ):

الصَّرْفُ: ردُّ الشّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُهُ بغيرِهِ. ومنهُ تَصريفُ الرّياحِ بتنوُّعِ أحوالِها وصرفِها من حالٍ إلى حالٍ[1]. والقَلْبُ: ردُّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ، وتحويلُ الشّيءِ عن وجهِهِ، وتصريفُهُ، وصرفُهُ عن وجهٍ إلى وجهٍ، مع تغيُّرِ حالِهِ إلى عكسِ ما كانَت، كقَلبِ الثّوبِ، ومنه عبَّروا باللّفظةِ عنِ الرّجوعِ؛ أي: الانقِلاب[2]، وهو انتِقالٌ من حالٍ إلى حالٍ. أمّا الإفكُ فهو قَلبُ الشّيءِ وصرفُهُ عن جهتِهِ بالكَذِبِ، والباطلِ[3]. ومن هنا يَبرزُ الفرقُ بينَ الألفاظِ الثّلاثةِ فالصَّرفُ تحويلٌ من غيرِ شرطٍ كليّةِ التّغييرِ؛ أي: عَكسَ ما كانَ الشّيءُ عليه كما هو الحالُ في القَلبِ. أمّا الإفكُ فتغييرُ الحالِ وصرفُهُ مَقرونًا بالكذبِ وسيلةً لتحقيقِهِ[4]. وهوَ المُناسِبُ التّعبيرِ بهِ؛ لصنيعِ السَّحرةِ، لِكونِ سِحرِهِم بُهتانًا، وكَذِبًا خدعوا فيهِ أعيُنَ النّاسِ.

الإفــكُ تـغـيـيرُ الحالِ وصرفُهُ، مَقرُونًا بالكذِبِ وسيـلـةً لـه كي يتحقّقَ، وهو ما آثَرَه السّياقُ

(1) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(4) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 162 - 164، وابن محمّد، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/272.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسَبةُ بين لَقَفِ عصَا موسَى ما يأفُكون، وبيانِ اضْمِحْلالِ الباطِلِ أمامَ الحَقِّ

لمّا موَّهوا بسحرِهِم أنّهم غلَبوا، أدخلَ اللّهُ تعالى على تَمويهاتِهم قهرَ الحقِّ فطاشَت تلك الحيلُ، وخابَ مِنهُمُ الأملُ[1]، فظُهورُ الحقِّ استِلزامٌ حَتميٌّ لمَشهَدِ الانتصارِ المُتمثِّلِ بتمييزِ صَغارِ أعمالِ السِّحرِ من عِظَمِ قُدرةِ العزيزِ الجبّارِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوَقَعَ﴾: الواوُ والقافُ والعينُ أصلٌ واحدٌ يَرجِعُ إليه فُروعُهُ، يَدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ[2]. والوقوعُ: ثبوتُ الشّيءِ وسقوطُهُ. ووقوعُ القولِ: حُصولُ مُتَضَمَّنِهِ[3]. ووقعَ الأمرُ حصلَ ووُجِدَ[4]. ووَقَعَ الحقُّ؛ أي: ظَهَرَ، وتَبيَّنَ، وثَبُتَ، وحَصَلَ[5]، وكأنّهُ سَقَطَ مِنَ السّماءِ؛ ليكونَ أوقعَ أثرًا، وأدَلَّ معنىً. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ: الوجوبُ، والثّبوتُ، واللُّزومُ[6].

2) ﴿وَبَطَلَ﴾: الباءُ والطّاءُ واللّامُ أصلٌ واحدٌ، وهو ذَهابُ الشّيءِ وقِلَّةُ مُكثِهِ، ولُبثِهِ[7]. وأبْطَلتُ: جِئتُ بكَذِبٍ، وادّعيتُ غَيْرَ الحقِّ. والباطلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ لهُ عندَ الفحصِ عنهُ، والإبطالُ: يُقالُ في إفسادِ الشّيءِ وإزالتِهِ، حقًّا كانَ ذلك الشّيءُ أو باطلًا[8]. وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِن هذا التّركيبِ فهو بمعنى المُهَدَرِ؛ لأنّهُ غيرُ صحيحٍ أو غيرُ نافعٍ[9].

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/557.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقع).
(3) الرّاغب، المفردات: (وقع).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (وقع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/31.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(8) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (بطل).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطل).

ومعنى بَطَلَ في الآيةِ الكريمةِ: أُهْدِرَ، ولم يُفِدْ، ولم يُنْتَفَعْ بهِ، ولم يُعْطِ الثّمرةَ الّتي رَجَوْها، وذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرًا فهو باطلٌ.

المعنى الإجْماليّ:

ظهورُ أمرِ اللهِ، وبُطلانُ أعمالِ السَّحرَةِ

ظَهَرَ الحقُّ، وتبيَّنَ، وثَبَتَ في نفوسِ مَن شَهِدَهُ، وحضرَهُ في أمرِ موسى عليه السلام، وأنّهُ مِنَ اللهِ رسولٌ يدعو إلى الحقِّ، وبَطَلَ ما كانوا يَعملونَ مِن إفكِ السِّحرِ وكذبِهِ، ومخايلِهِ، وحيلِهِ[1]. وذلك أنّ السَّحرَةَ قالوا: لو كانَ ما صَنَعَ موسى سِحرًا لبقيَت حبالُنا وعصيُّنا. فلمّا اختفَت، وتلاشَت في عصا موسى، عَلِموا أنَّ ذلك مِن أمرِ اللهِ، وقُدرتِهِ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الباطلَ مهما أُعِدَّ لهُ، وزُيِّنَ، وتَرعرعَ في مَحضَنِ الكبراءِ، وحفَّتهُ المُغرياتُ، فإنّهُ إلى زوالٍ واضمحلالٍ، ولا بدَّ لرايةِ الحقِّ أنْ تعلو، ولِسلطانِهِ أنْ يَستمكِنَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ فِي الآيةِ الكريمةِ:

تحقيقُ صِدْقِ الكلامِ بعدَ أن كانَ خبرًا

الفاءُ في ﴿فَوَقَعَ﴾ حرفُ عَطفٍ للتّرتيبِ، والتّعقيبِ، والسّببيّةِ. وهو تفريعٌ على ﴿هِيَ تَلْقَفُ﴾. فبعدَ أن كانَ كلامًا خبريًّا يَصِحُّ أن يُصدَّقَ، ويَصِحُّ أن يُكذَّبَ، صارَ بصدقِهِ واقعًا[3].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالوقوعِ على طريقِ الاسْتِعارةِ:

بيانُ الحقِّ الّذي كانَ عليهِ موسَى عليه السلام، وتَثْبيتُه عليه وطَمْأنَتُه

حقيقةُ (الوقوعِ) سُقوطُ الشّيءِ مِن أعلى إلى الأرضِ، ومنه: وقَعَ الطّائرُ، إذا نَزَلَ إلى الأرضِ، واستُعيرَ الوُقوعُ لِظُهورِ أمرٍ رفيعِ القَدرِ؛ لأنّ ظُهورَهُ كانَ بتأييدٍ إلهيٍّ فشُبِّهَ بشيءٍ نَزَلَ مِن عُلوٍّ، وقد يُطلَقُ الوقوعُ على الحُصولِ؛ لأنّ الشّيءَ الحاصلَ يُشبِهُ النّازلَ على الأرضِ، وهي استِعارةٌ شائعةٌ قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾ [الذّاريات:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/31.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/236.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4300.

﴾؛ أي: حاصِلٌ وكائِنٌ، والمعنى: فظَهَرَ الحقُّ وحَصَلَ[1]، ففي التّعبيرِ بِهِ تجسيمٌ لهذا الحقِّ الّذي كانَ عليه موسى، وتثبيتٌ واستقرارٌ لهُ، حتّى لكأنّهُ شيءٌ ذو ثقلٍ نَزَلَ على شيءٍ آخر خفيفِ الوزنِ فأزالَهُ[2].

قوّةٌ في الدّلالةِ، ومُبالَغةٌ في كَمالِ الحقِّ

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، مَصْدرًا مُعرَّفًا:

وعُبِّرَ عنِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بصيغةِ المصدرِ الأقوى في الدّلالةِ على الحَدَثِ مِنَ الفعلِ، و(أل) فيه جنسيّةٌ للمُبالغةِ والكَمالِ[3]، وتعريفُهُ لِكونِهِ حقًّا واضحًا ثابتًا موافقًا للبرهانِ.

الحقُّ ثابتٌ واقعٌ، والباطلُ زائفٌ زائلٌ

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ (الحقِّ) و(الباطل):

وجلّى (الحقَّ) ضِدّهُ (الباطلُ)؛ فمقابلَتُه مع الباطِلِ الّذي جاءَ رِدْفًا لهُ مِن مُناسبةِ اللّفظةِ لرسيلتِها في النّظم، وهو من طباقِ الإيجابِ، الّذي يُفْصِحُ عن دلالةِ الرّبطِ المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحٍ لمعنى النّقيضين في السّياقِ، وبيانِ البونِ بينَ الحَدَثَين. والفائدةُ: شدّةُ الرّسوخِ والتّأثيرِ. فالحقُّ ثبوتٌ، وحصولٌ واقعٌ، والباطلُ إزاءَه زائلٌ[4].

بُطلانُ صَنيعِهم ثابتٌ قبلَ إلقاءِ العصَا، ولم يتجلَّ للنّاظرين إلّا عندَ الإلقاءِ

شُيوعُ اسْتِعمالاتِ أصْلِ الفعْلِ، تنوّعٌ في مَعانِيهِ:

الواو في ﴿وَبَطَلَ﴾: عَطفَت ما بعدَها على ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ يفيدُ معنى التَّحقُّقِ، وشاعَ هذا الإطلاقُ حتّى صارَ الباطلُ كالاسمِ الجامِدِ، فيأتي اسمُ فاعلٍ من بَطَلَ فهو باطِلٌ، فيُساوي المَصدَرَ في اللّفظِ، أو يكونُ مُشتَقًّا مِنَ المصدرِ وهو البُطلانُ، فيكون في الحالَين بمعنى الوصفِ، ويَصِحُّ تفسيرُهُ هنا بالمَعنَيين، فعَلى التّشبيهِ بالمصدرِ يكونُ المعنى: وانتفَت حينئذٍ آثارُ ما كانوا يَعملونَ، وعلى اسم الفاعلِ يكونُ المعنى: واتّصَفَ ما يَعمَلونَ بأنّهُ باطِلٌ، وعلى هذا الوجهِ فإنّ المُرادَ مِنَ الفعلِ مَعنى الظُّهورِ لا الحُدوثِ؛ لأنَّ كَونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/350.
(3) قباوة، المفصّل، ص: 588.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/512.

ما يَعمَلونَهُ باطِلًا وصفٌ ثابتٌ لهُ مِن قَبلِ أن يُلقيَ مَوسى عَصاهُ، ولَكِنْ عندَ إلقاءِ العَصا ظَهَرَ كَونُهُ باطلًا[1].

وَجهُ الإطنابِ في الآيةِ الكريمةِ:

زيادةُ التّركيبِ تقريرٌ لِلمَعنَى، وتأنيسٌ لِلمُسلِمينَ، وتهديدٌ لِلكَفرة الفجَرة

قولُهُ: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ زيادةٌ بعدَ قولِه: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لتقريرِ مَضمونِها، ولِتسجيلِ ذمِّ عملِهم، ونداءٌ بخيبتِهم، تأنيسًا لِلمُسلِمينَ، وتَهديدًا لِلمُشرِكينَ، ولِلكافرينَ أمثالُها[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

الدّلالةُ على الإبهامِ، استخفافٌ بعمَلِهم

﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مَوصولٌ يُفيدُ الإبهامَ، فعَملُهُم لا يُستحَقُّ أنْ يُذكَرَ، ويُفيدُ العُمومَ، وبهِ يَعُمُّ البُطلانُ سِحرَ السَّحرَةِ وسعيَ فِرعونَ وشيعتِهِ[3].

بيانُ التّعبيرِ بـ (كانَ والمضارعِ)، في سياقِ الآيةِ:

أُفْحِمَ السّحرةُ، ودُحِضَ باطلُهم، حتّى نسُوا أنّ لَدَيهِم عمَلًا

ودلَّ التّعبيرُ بـ(كانَ)، و(يعملون) على أنّهم - مَعَ ظهورِ بُطلانِ ما كانوا مُستمرّينَ على عملِه - نسوا عملَهُم بحَيثُ إنّهُ أسدلَ عليهم بابَ العملِ بعدَ أن كانَ لَهُم بِه مَلَكَةٌ وحذقٌ كالجِبِلَّةِ[4]. فالّذي بَطَلَ كانَ عملًا عملوه، وكيدًا كادوهُ، وليسَ شيئًا مادّيًّا أوجدوهُ، كما عُلِمَ مِن سورةِ طه وسورةِ يونسَ؛ أي: فثَبتَ الحقُّ وفَسدَ ما كانوا يَعمَلونَ مِنَ السِّحرِ، والحيلِ، والتّخييلِ وذَهَبَ تأثيرُهُ[5].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(وقعَ)، (ظهرَ)، (بدَا)، (تبيّنَ):

إيثار لفظِ (وَقَعَ) على غيره من الألفاظ، وهو من فعلِ الإلقاءِ

الظّهورُ: كلُّ بارزٍ مُنكشِفٍ مُبْصَرٍ بالبصرِ والبَصيرةِ. وأصلُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/60 - 61.

مِنَ القوّةِ والظُّهورِ[1]. أمّا البروزُ فكلُّ ما ظَهَرَ بعدَ خَفاءٍ[2]؛ واقْتَرَنَ استعمالُهُ بالحروبِ والشّدّةِ. أمّا الفعلُ (بدا) فالظّهورُ ظهورٌ بيّنٌ[3].
وقد اقترنَ في القرآنِ الكريمِ بألفاظٍ دالّةٍ على الإخفاءِ: (أخفى، كتمَ، أسرَّ، أرى) إشارةً إلى أنّ البُدوَّ: ضدُّ الخفاءِ والكتمانِ[4]. أمّا الوقوعُ فثبوتُ الشّيءِ وسُقوطُهُ. ووَقَعَ الحقُّ: ظَهَرَ، وتبيّنَ، وثَبَتَ، وحَصَلَ، وكأنّه سَقطَ مِنَ السّماءِ.

وفي اختيارِ لفظِ (وَقَعَ) مراعاةٌ لفعلِ الإلقاءِ؛ لأنّ الشّيءَ المُلْقَى يقعُ على الأرضِ فكانَ وُقوعُ العصا على الأرضِ، وظُهورُ الحقِّ مُقترَنَين[5]. فقُصِدَ إلى اختيارِهِ؛ ليكونَ أوقعَ أثرًا، وأدَلَّ معنًى على قوّةِ تحقُّقِه، وشدّةِ أثرِهِ ممّا أدَّى إلى إيمانِ السَّحَرَةِ.

(يَعملون)، (يَفعلون)، (يَصنعون):

العَمَلُ كلُّ فعْلٍ يكونُ بقصْدٍ، وهو أخصُّ منَ الفِعْلِ، والصُّنعُ أخصُّ منهما

العَمَلُ: إيجادُ الأثرِ في الشّيءِ. يُقالُ: فلانٌ يَعمَلُ الطّينَ خَزفًا، ويَعمَلُ الخوصَ زنبيلًا، والأديمَ سِقاءً. ولا يُقالُ: يَفعَلُ ذلك؛ لأنَّ فِعلَ الشّيءِ عبارةٌ عمّا وجِدَ في حالٍ كانَ قبلَها مَقدورًا، سواء كانَ عن سببٍ أو لا؛ لأنّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الّتي يَقَعُ منها فِعلٌ بغيرِ قَصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعملُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك، والعَمَلُ يُستعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسّيّئةِ. والفعلُ: التّأثيرُ مِن جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لمّا كانَ بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولمّا كانَ بعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولمّا كانَ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ والجَماداتِ، والعَمَلُ مثلُهُ، والصّنعُ أخصُّ منهما؛ لكونِهِ إجادةَ الفعلِ، فكلُّ صُنعٍ فعلٌ، وليسَ كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ والجَماداتِ كما يُنسَبُ إليها الفعلُ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (برز).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(4) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 107 - 109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134، والرّاغب، المفردات: (عمل)، (فعل)، (صنع).

ومِن وجوهِ التّفريقِ بينَ العَملِ والفِعلِ أنّ العَملَ يُستعمَلُ لما يمتدُّ زمانُهُ، وأمّا الفعلُ فيكونُ دُفعةً واحدةً[1]. وبذا يتحقّقُ أنَّ لفظَ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ أنسبُ لسياقِ الآيةِ هنا لكونِ فِعلِ السَّحرَةِ كانَ بقصدٍ مِنهُم، وأوجدُ أثرًا وإنْ كان وقتيًّا، فضلًا عن كونِهِ فِعلًا مُمتدَّ الزّمنِ بدلالةِ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ.

(بَطَلَ)، (دَحَضَ):

اختيارُ لفظِ (بَطَلَ)، لِكَوْنِهِ أقوَى في الدّلالةِ على بُطلانِ عمَلِهِم

أصلُ الإبطالِ الإهلاكُ، ومنه سُمّي الشُّجاعُ بَطَلًا لإهلاكِه قرنَه. وأصلُ الإدحاضِ الإذلالُ، فقولك: أبطلَهُ، يفيدُ أنّهُ أهلكَهُ، وقولك: أدحضَهُ، يُفيدُ أنّه أزالَهُ. ومنه مَكانٌ دَحْضٌ إذا لم تَثْبُتْ عليه الأقدامُ. وقد دَحَضَ إذا زلَّ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشّورى: 16][2]، ولِذلكَ قُصِدَ إلى اختيارِ لفظِ البُطلانِ؛ لِكونِ تضمُّنِهِ معنى الإهلاكِ أقوى في الدّلالةِ على بُطلانِ عملِهِم، فهو عَمَلٌ أوْرَدَهُم الهَلَكَةَ، فضلًا مُقابلتُهُ مع لفظِ (الحقِّ) المُتحقِّقِ فيه طباقُ الإيجابِ، الّذي يُفْصِحُ عن دلالةِ الرّبطِ المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحٍ لمعنى النّقيضينِ في السّياقِ، وبيانِ البَونِ بينَ الحَدثَينِ، بحسبِ ما تمَّ بيانُهُ في الإيضاحِ البلاغيِّ.

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/604.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ظهورُ الحقِّ، بعْدَ أن غلبَ أهْلَ الباطلِ، وانْقلبُوا صاغِرين

ترتّبَ على وقوعِ الحقِّ تمييزُ الغالِبِ مِنَ المغلوبِ بأنْ أصابَتِ الهزيمةُ المُنْكَرَةُ فِرعونَ، وملأهُ، وسحرتَهُ في ذَلكَ المَجمَعِ العظيمِ، الّذي حَشَرَ النّاسَ له في يومِ عيدِهِم وزينتِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَغُلِبُواْ﴾: الغينُ واللّامُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قوّةٍ، وقَهرٍ، وشدّةٍ[2]. وغَلَبَ على فلانٍ الكرمُ؛ أي: هو أكثرُ خِصالِهِ[3]. ومعناهُ المحوريُّ: شدّةٌ مع عُلوٍّ ما، وعِظَمُ جِرْمٍ، وسائرُ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هوَ مِنَ الغَلَبِ؛ أي: القهر[4]. وهو معنى اللّفظةِ المُفسَّرة.

2) ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾: القافُ واللّامُ والباءُ أصلانِ صَحيحانِ: يدُلُّ أحدُهُما على ردِّ شيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[5]. ومنهُ القَلْبُ: تحويلُكَ الشّيءَ، وصرفُهُ عن وجهِهِ إلى وجهٍ، كقَلبِ الثّوبِ، وقَلبِ الإنسانِ؛ أي: صرفَهُ عن طريقتِهِ. والمُنْقَلَبُ: مصيرُكَ إلى الآخرةِ[6]. فمعنى اللّفظةِ تغييرُ الحالِ وتبدّلُهُ، والأكثرُ أن يكونَ تغييرًا مِنَ الحالِ المُعتادَةِ إلى حالٍ غريبةٍ. ويُطلَقُ الانقلابُ شائعًا على الرّجوعِ إلى المكانِ الّذي يُخرَجُ منهُ، ولأنّ الرّاجِعَ قد عَكَسَ حالَ خُروجِه. وانقلَبَ مِنَ الأفعالِ الّتي تَجيءُ بمعنى (صار)، وقد فُسِّرَت بها اللّفظةُ؛ أي:

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/350.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غلب).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (غلب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(6) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قلب).

صاروا صاغِرينَ[1]. ولا يَمنَعُ ذلكَ مِن تحقُّقِ معنى التّغييرِ، والرّجوعِ، والتّحويلِ في لفظِ الانقِلابِ.

3) ﴿صَٰغِرِينَ﴾: الصّادُ والغينُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارَةٍ. مِن ذَلكَ الصِّغَرُ: ضِدُّ الكِبَرِ. والصّغيرُ: خِلافُ الكَبيرِ. والصّاغِرُ: الرّاضي بالضَّيمِ[2]. وتَصاغرَت إليهِ نفسُهُ، وصَغُرَت في عيونِ النّاسِ: صارَت صغيرةَ القَدرِ والشّأنِ ذلًّا ومَهانةً[3]. والصّاغِرُ: الصّغيرُ قدرُهُ، الرّاضي بالضَّيْمِ، والذُّلِّ، والمَنزلةِ الدّنيّةِ[4]. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ الذّلُّ، والمَهانةُ، وتِلكَ المَذَلَّةُ هي مَذَلَّةُ ظُهورِ عَجزِهِم، ومَذَلَّةُ خَيبَةِ رجائِهِم ما أمَّلوهُ مِنَ الأجرِ والقُربِ عندَ فِرعونَ[5].

المعنى الإجْماليُّ:

صَغَارُ المَغْلُوبِينَ، وذلُّــهُــم بـعـدَ خَيْبَتِهِم

لم يُغلَبِ السَّحرَةُ فقط، بل غُلِبَ مُعسكَرُ الظّالِمينَ جميعِهِم في مَكانِ اجتماعِهِم أو في زمانِ اجتماعِهِم، وعادوا أذلَّةً بما رُزِئوا بهِ مِنَ الخِذْلانِ، والخَيبةِ[6]وعاشَ كلُّ مَن هو ضِدُّ موسى في صَغارٍ، صغار للمُستدعي لِلمُنازَلَةِ، والتّحدّي، وصغار للمُستدعَى إليهما[7]؛ جزاءً على قلبِهِم لِتلكَ الحقائقِ عن وجوهِها، ولا ذلَّ ولا صَغارَ أعظمُ في حقِّ المُبطِلِ مِن ظُهورِ بُطلانِ قولِهِ على وجهٍ لا يكونُ فيه حيلَةٌ[8].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الذّلّةَ، والصَّغارَ، والعارَ، والشّنارَ مَآلُ مُتّبعي الباطل، ومُناصري الظّالِمينَ، وأنّ العاقلَ مَن يتّعِظُ فلا يَغُرَّنّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صغر).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صغر).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صغر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4300.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83 - 84.

في نصرةِ الباطلِ مالٌ، أو جاهٌ، أو قُربٌ مِن سُلطانٍ؛ فإنَّ العاقبةَ لِلمُتّقينَ، المُلازِمينَ طريقَ الحقِّ، وإنْ قلَّ سالِكوه، أو ضَعُفَت قواهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

سَبَبَ تلقُّفُ العصَا لإفْكِهِم مُباشرةً، حُصولَ الغَلَبةِ بعونِ الله وتأييدِه

الفاءُ في ﴿فَغُلِبُواْ﴾ كسابقاتِها عاطفةٌ تفيدُ التّرتيبَ، والتّعقيبَ، والسّببيّةَ، إذ عُطِفَت هذه الآيةُ الكريمةُ على ما قبلَها. وقد عُطِفَ عليها جُملةُ (فغلبوا) بالفاءِ لحُصولِ الغَلبةِ إثرَ تَلقُّفِ العَصا لإفكِهِم مُباشرةً[1]. وضميرُ الرّفعِ فيه عائِدٌ على الجميعِ: من فِرعونَ، وملئِهِ، وقومِهِ، وسحرتِهِ[2].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بِصيغةِ المبنيِّ للمَجهولِ ﴿فَغُلِبُواْ﴾:

تَضمينُ الغَلَبةِ عليهم كَونُها بتأييدٍ وتثبيتٍ ونَصْرٍ مِنَ اللهِ تعالى

جيءَ بِهِ بِفعلِ الغَلَبةِ على صيغةِ المبنيّ للمَجهولِ، ولم يُصرِّحْ بالغالِبِ وهو نبيُّ اللّهِ موسى ﷺ؛ لأنّ ذَلكَ لم يكنْ بكسبِهِ، وصنعِهِ وحدَهُ، بل بتأييدٍ وتثبيتٍ ونصرٍ مِنَ اللّهِ تعالى[3].

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿هُنَالِكَ﴾:

الإلحاحُ لِما وَقَعَ لِلسَّحرَةِ وأنصَارِهِم، مِنَ الهزيمةِ والخِذلانِ

﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ لِلمكانِ صيّرَهُ اللّام للبعدِ مُبالغةً في تفخيمِ ما وقَعَ فيهِ لَهُم مِنَ الهزيمةِ والخِذلانِ، والكافُ حرفُ خطابٍ وبُعدٍ؛ أي: غُلِبوا في المَكانِ الّذي وقَعَ فيه سِحرُهُم[4]، فهذا المكانُ الّذي تَواعدوا فيهِ لِلاجتماعِ يومَ العيدِ، حينَ يتزيَّنُ النّاسُ، ويَجتمعونَ مِن كلِّ فَجٍّ وناحيةٍ وَقتَ الضُّحى هو الّذي غُلِبوا فيه؛ فأفادَ بَداهَةَ مَغلوبيَّتِهِم وظُهورَها لكلِّ حاضرٍ[5]. ويُلمَحُ باستعمالِهِ الدّلالة على بُعدِهِم عنه تعالى، ونأيِهِم عن رحمتِهِ وتأييدِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/61.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/418.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾:

اختيارُ لفظِ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ دونَ (رجعوا) أو (صاروا)؛ لمناسبتِهِ لِلَّفظِ ﴿فَغُلِبُواْ﴾ في الصّيغةِ، ولِما يُشعِرُ بِهِ أصلُ اشتقاقِهِ مِنَ الرّجوعِ إلى حالٍ أدْوَنَ ممّا كانوا عليهِ مِن قَبلُ، فكانَ لفظُ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ أدخَلَ في الفَصاحَةِ[1].

اللّفظُ يبيِّنُ حالَهم المتغيِّرةَ، ويُناسِبُ الفعلَ (فغلبوا)

مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾:

ضميرُ الرّفعِ في ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ إنْ قدّرْنا انقِلابَ الجَمعِ قبلَ إيمانِ السَّحرَةِ، أو جعلْنا (انقلبوا) بمعنى صاروا؛ فهُم في الضّميرِ، وإن قدّرْناهُ بعدَ إيمانِهم فلَيسوا في الضّميرِ ولا لَحِقَهُم الصَّغارُ، وحاشا للّه أن يصفَهُم بِهِ بعدَ إيمانِهم[2]، ورَجحانُ عدمِ شمولِ السَّحرَةِ يُناسِبُ ما بعدَهُ مِن لفظِ الإذلالِ والمَهانةِ ﴿صَٰغِرِينَ﴾ الواقعِ حالًا.

الانقِلابُ لِفرعونَ ومَلئِهِ لا لِلسَّحرَةِ

عِلّةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿صَٰغِرِينَ﴾:

الفعلُ المُصاغُ بهيئةِ اسمِ الفاعلِ ﴿صَٰغِرِينَ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا هو حالُهُم، وأنّهُ تمَّ، وحَدَثَ في الحالِ، واستمرَّ حصولُهُ، وثَبُتَ وصفًا لهم مُستقرَّ الدّلالةِ. وبذا لم يشمَلِ السَّحرَةَ لكونِهم آمنوا، ويُناسِبُ مجيءَ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ بصيغةِ المُطاوعةِ؛ أي: قبولِ الأثرِ، والانصياعِ لهُ، والتّسليمِ بِهِ لفعلِ الصَّغارِ الدّالِّ على الإذلالِ والعَجزِ المُتضمِّنِ لمعنى الانصياعِ للأمرِ.

صَغارُ فرعونَ ومَن معَهُ، هو حالُهُم المُلازِمُ لَهُم

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(انقلبُوا)، (رجعُوا)، (عادُوا):

عُرِّفَ الرّجوعُ بأنّه: الرّجوعُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ فرجَعَ عَوْدُهُ على بدئِهِ، إذا رَجَعَ في الطّريقِ الّذي جاءَ[3]، أو الرّجوعُ بعدَ التّخلي

القلبُ تغييرُ الحالِ وتَبَدُّلُهُ، وقد جاءَ في الآيةِ بمعنَى الصّيرورةِ، ولذلك أُوثِرَ عمّا سِواه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/418.

(3) ثعلب، الفصيح، ص: 312.

عنِ الأمرِ وتركِهِ. أمّا العَودُ فيعني القيامَ بالعَملِ مرّةً أخرى، وأعادَ فلانٌ الأمرَ، لا يُفيدُ إلّا إعادته مرّةً واحدةً[1]؛ فالعَودُ: تثنيةُ الأمرِ عَودًا بعدَ بَدءٍ، بدأ ثمّ عادَ، والعودةُ مرّةً واحدةً. وتقولُ: عادَ فلانٌ علينا معروفَهُ: إذا أحسنَ ثمّ زادَ[2].

فالعَودُ غيرُ الرّجوعِ، فقولُكَ: رَجعَ فلانٌ إلى بيتِهِ؛ يعني: أنّه سَلَكَ في رجوعِهِ إليه طريقَ ذهابِهِ، حتّى وصَلَ إلى ما بدأ الذّهابَ منهُ، ولا يكونُ هذا المعنى هو المُرادَ، إذا قلْنا: عادَ فلانٌ إلى بيتِهِ، بلِ المراد أنّهُ كانَ مِن قَبلُ في بيتِهِ، ثمّ صارَ فيهِ مرّةً ثانيةً[3].

وكلاهما لا يؤدّيان معنى القَلْب: الّذي تبيّنَ معناهُ في الشّرحِ اللّغويِّ بأنّه تحويلُ الشّيءِ، وصرفُهُ عن وجهِهِ إلى وجهٍ آخَر، كقَلبِ الثّوبِ، وقَلبِ الإنسانِ؛ أي: صَرفَهُ عن طريقتِهِ، فمعنى اللّفظةِ تغييرُ الحالِ وتَبَدُّلُهُ، أو أنّه جاءَ بمعنى (صار)؛ أي: صاروا صاغِرينَ[4]. وهذا المعنى مُرادٌ في الآيةِ الكريمةِ؛ لكونِ الانقلابِ ترتَّبَ عليهِ تغيّرُ حالِهِم؛ فإمّا انصرافُ صَغارٍ وذُلٍّ لا عودةَ فيه، وإمّا تحوُّلٌ إلى الإيمانِ كما هو حالُ السَّحرَةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 39، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 478.

(2) الخليل، العين: (عود).

(3) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن، ص: 239 - 240.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.

﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف: 120]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين مُعْجزةِ موسَى، وسُجودِ السّحَرةِ، بقلوبٍ وَجِلَةٍ، ووُجوهٍ نَضِرةٍ

لمّا كان الضّمير مُشتركًا في قولِه تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: 119] جُرِّدَ المؤمنون، وأُفرِدوا بالذّكر[1]؛ لِعظيم ما جاؤوا به من صنيع الصّادق في فعله، الذي لا يأبهُ بالعقوبة، ولا يخشَى الانتقامَ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَٰجِدِينَ﴾ السّين، والجيم، والدّال أصلٌ واحد مطَّردٌ يدلُّ على تطامُنٍ وذلٍّ. يُقال سَجَدَ، إذا تطامَنَ. وسَجَدَ؛ إذا طأطأ رأسَه، وانحنى. ووضع جَبهته على الأَرْضِ. وجعل ذلك عبارةً عنِ التّذلّل لله، وعبادتِه. ولا خضوعَ أعظمَ منه[2]. ووفاقُ ذلك فمعنى السّجود في الآية بيّنُ الدّلالة.

۞ المعنى الإجماليُّ:

سُجودُ السّحَرةِ لله، كان تَحوُّلًا جِذْريًّا مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ

وأُلقي السّحرةُ عندما عاينوا من عظيم قُدرة الله، ساقطين على وجوهِهم سُجّدًا لربّهم؛ إذ لم يتمالكوا ممّا رأوْا من عظيم قُدرةِ الله تعالى فكأنّهم أُلقوا، أو أنّ الله تعالى ألقاهُم سُجّدًا؛ إذ سبَّبَ لهم منَ الهُدى ما وقعوا به ساجدين، أو سجدوا موافقةً لموسى وهارونَ فإنَّهما سجدا لله شكرًا على وقوع الحقِّ فوافقوهما؛ إذ عرفوا الحقَّ فكأنّما ألقياهم[3]. أو أنّ ظهورَ بُطلان سحرِهم، وإدراكَهم بأنّ موسى على الحقِّ، قد حملَهم على السّجودِ لله تعالى. وأنّ نورَ الحقّ قد بهرَهم وجعلَهم يُسارعون إلى الإيمان، حتى لكأنَّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/364.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية: (سجد).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/364.

أحدًا قد دفعَهم إليه دفعًا، وألقاهُم إليه إلقاءً[1]، وإنّما ألقاهُم مُلقي الخوفِ منَ اللّه والشّوقِ إلى الخضوع بين يديه والذّلّ لديه، حين عرفوا أنَّ ما فعله موسى عليه السلام أمرٌ سماويٌّ، فلمّا أيقنوا هذه الحقيقةَ لم يتأخّروا في الاستجابةِ حتى كأنهم خرّوا من غيرِ اختيارٍ ساجدين شكرًا للّه تعالى، ومَهابةً، وانسلاخاً عنِ الكفر، ودليلاً على أقصى غاياتِ الخضوع، فعلَ اللّه ذلك بهم حتى يُبْهَرَ فرعونُ، وملؤُه، وتحيّرَ عقولُهم[2].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّه تعالى يهدي من يشاء بغير حساب. وقلبُ المرءِ معلّقٌ بين إصبَعين من أصابع الرحمن يقلبُه كيفما شاء، ومصداقُ ذلك أنّهم كانوا أوّلَ النّهار كفّارًا سحرةً وفي آخره شهداءَ بررةً، وإذا أراد اللّه بعبد خيرًا أحسنَ خاتمتَه، فترى المرءَ يولد في الإسلام وينشأُ بين المسلمين يبيعُ دينَه بكذا وكذا، وهؤلاء كفّارٌ نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسَهم للّه تعالى[3].

وتَهدي أيضًا إلى فضل العلم، وأهمّيته؛ لأنّ أولئك الأقوامَ كانوا عالِمين بحقيقة السّحرِ واقفين على مُنتهاه، فلمّا كانوا كذلك ووجدوا مُعجزةَ موسى عليه السلام خارجةً عن حدِّ السّحرِ؛ علموا أنّه منَ المُعجزات الإلهيّةِ، لا من جنسِ التّمويهاتِ البشريّةِ، ولو أنّهم ما كانوا كاملين في علمِ السِّحر لَما قَدَروا على ذلك الاستدلالِ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ إطلاق فعْلِ الإلقاءِ، بِصِيغةِ البناءِ للمجهول:

شِدّةُ الانْبِهارِ، بِمُشاهدةِ مُعجزةِ العَليِّ القهّارِ

الواو في ﴿وَأُلۡقِيَ﴾ عاطفةٌ، والإلقاءُ: مستعملٌ في سرعة الهويِّ إلى الأرض، من دون تريُّثٍ ولا تردّدٍ. وبُني فعلُ الإلقاء للمجهول لظهور

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/350.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/84.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/168.

الفاعلِ، وهو أنفسُهم، والتّقديرُ: وألقَوا أنفسَهم على الأرض[1]، أو أنّ سجودَهم ليس برأيهم، لكنه عمليةٌ انبهاريّةٌ ممّا حصل أمامَهم، وهو الانبهارُ بالحقّ، كأنّما ألقاهُم مُلْقٍ لشدّة خُرورِهم؛ إذ لم يتمالكوا ممّا رأَوا، والقصدُ المبالغةُ في سرعة الفعلِ وشدّتِه[2]. وفي ذلك تنبيهٌ على أنّ الحقّ بهرَهم لما رأوه من عظيم القُدرةِ وما تيقّنوا به نبوّةَ موسى آمنوا بقلوبهم، وانضافَ إلى ذلك الاستهوالُ والاستعظامُ والفزعُ من قُدرة اللّه تعالى[3]، فاضطرّهم ذلك إلى السّجود بحيث لم يبقَ لهم تمالكٌ، أو أنّ اللّه ألهمَهم ذلك وحملَهم عليه حتى ينكسرَ فرعونُ بالذين أراد بهم كسرَ موسى وينقلبَ الأمرُ عليه[4]، أو انّهم سجدوا موافقةً لموسى وهارونَ، فقد سجدا للّه شكرًا على وقوع الحقّ فوافقوهما؛ إذ عرفوا الحقَّ فكأنما ألقياهم[5].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ التّمثيليّةِ، في الآيةِ القرآنيّةِ:

شِدّةُ خُرورِهم تُشْبِهُ حالَ مَن أُلقيَ على وجْهِه

في قوله تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ حيث شبّه حالَهم في سرعة الخُرور وشدّتِه حين شاهدوا المعجزةَ القاهرةَ بحال من أُلْقيَ على وجهه، فعبّر عن حالهم بما يدلُّ على حالِ المشبَّه به[6].

سِرُّ العُدولِ إلى العطْفِ بالواو، دونَ غيرِه:

تأكيدٌ لكَوْنِ الإلقاءِ بسببِ انْجلاءِ الحقِّ، وإزهاقِ الباطلِ

قال هنا ﴿وَأُلۡقِيَ﴾ بالواو، ولم يقل ﴿فَأُلۡقِيَ﴾ بالفاء الدالّة على التعقيب كما في آيتي سورتي [طه: 70]، و[الشعراء: 46]؛ لأنّ ﴿وَأُلۡقِيَ﴾ هنا عطفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ﴾ فهو يشاركه بما تُفيده فاؤه من معنى التّعقيب، وكونِه مثلَه أثرًا لبُطلان سحرِ السّحرة، ووقوعِ الحقّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4300 - 4301.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/28.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(6) حقّي، روح البيان: 3/214.

بثبوت آيةِ موسى ﵇، ولو عطفَ عليه بالفاء لدلَّ على كونِ السّجود أثرًا للغلبة والصَّغارِ لا لوقوعِ الحقّ، وبطلانِ كيدِ السّحر، وحينئذ يكون منافيًا لما في سورتَيْ طه والشعراء[1]. فهو إذن في حيّزِ فاء التّعقيب، أي: حصل ذلك كلُّه عقبَ تلقُّفِ العصا ما يأفِكون، أي: بدون مُهلةٍ، وتعقيبُ كلّ شيءٍ بحسَبِه، فسجودُ السّحرةِ متأخّرٌ عن مصيرهم صاغرين، ولكنّه متأخّرٌ بزمن قليلٍ، وهو زمنُ انقداح الدّليل على صدق موسى في نفوسِهم، فإنّهم كانوا أعلمَ النّاس بالسّحر، فلا يخفَى عليهم ما هو خارجٌ عنِ الأعمالِ السّحريةِ[2].

سِرُّ عَهْدِيّةِ الألفِ واللّامِ، وإظهارِ الفاعلِ:

تَخصيصُ السُّجودِ بالسّحَرةِ دونَ الحاضرين

التّقديرُ في: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ الذين كانوا سحرةً. و(أل) عهديةٌ، فهمُ السّحرةُ المعهودون أنفسُهم في ساحة المُنازلةِ، ووقعةِ التّحدّي، وكان هذا السّجود خاصًّا بهم دون بقيّةِ الحاضرين، فلذلك جيءَ به اسمًا ظاهرًا مجرّدًا منَ الضّمير؛ لئلّا يلتبسَ بضميرِ الجماعة الذي قبْلَه في ﴿فَغُلِبُواْ﴾، و﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ الذي هو شاملٌ للسّحرةِ وغيرِهم[3].

نُكْتةُ الإتيانِ بالسُّجودِ على صِيغةِ اسْمِ الفاعلِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُهم تَعبيرٌ عن كَمالِ هيْئتِهم فيه

و﴿سَٰجِدِينَ﴾ حالٌ، والسّجودُ هيئةٌ خاصّةٌ لإلقاء المرءِ نفسَه على الأرض يقصدُ منها الإفراطَ في التّعظيم، وسجودُهم كان للّه الذي عرفوه حينئذ بظهور مُعجزةِ موسى ﵇، والدّاعي إليه بعنوانِ كونه ربَّ العالمين[4].

ويُرسّخُ مجيءُ السّجود على صيغة اسمِ الفاعل مَشْهَدَ حالهم، وشِدَّةَ تحقّقِه، أي: أنّهم أصبحوا بكامل هيئتِهم، وتمامِها في حال سجود، وثبت كأنّه وصفٌ لهم؛ إذ أصبحوا من أهل السّجود. وعبّر هنا وفي

(1) رضا، تفسير المنار: 9/61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.

الشعراء بـ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وفي طه بـ ﴿سُجَّدًا﴾ [طه: 70] مراعاةً لفواصلِ الآي؛ لأنّ آياتِ السّورتين - الأعراف والشعراء - أكثرُها على النّون[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(ألقي)، (خرَّ)، (سَقط)، (هَوِي):

الإلقاءُ سُرعةُ الهُوِيّ إلى الأرض، وهو الأنسبُ للسِّياقِ منَ الألفاظِ الأُخرَى

معنى خرَّ سقط سقوطًا يُسمع منه خريرٌ، واستعمالُ الخرّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السّقوطُ، وحصولُ الصوتِ منهم بالتّسبيح[2]. وهو الهويُّ مِنْ عُلْوٍ إِلَى سُفْلٍ سقوطًا يُسمَع مَعَه صَوْتٌ، ثمَّ كَثُرَ حَتَّى استُعمِل في مُطْلَق السُّقوط[3]. والسّقوط: طرحُ الشّيء من مكان عالٍ إلى مكان منخفضٍ كسقوط الإنسان منَ السّطحِ، ويُلمحُ فيه معنى الرّداءةِ، وقلّةِ الاعتداد به. قال الآلوسي: "وفرّق بعضُهم بين السّقوط والخُرور بأنّ الأول مطلقٌ، والثاني سقوطٌ له صوتٌ كالخرير"[4].

والهُوِيُّ: سقوط من علوٍّ إلى سفل، وأهْواهُ، أي: رفَعَهُ في الهواء وأسْقَطَهُ. أمّا الإلقاءُ فهو: طرحُ الشيءِ حيثُ تَلْقاه، أي: تَراهُ، فيُرى، ويؤخذُ، ثم صار في التّعارف اسمًا لكُلِّ طَرْحٍ[5]. واختياره أنسبُ لسياق الآية والله أعلم؛ لكون الإلقاءِ مستعمَلًا في سرعة الهوي إلى الأرض، من دون تريّث ولا تردّد[6]، وهو يناسبُ انبهارَ السّحرة ممّا حصل أمامَهم، ممّا رأوه منّ الحقّ الذي أظهره الله على يد النّبيّ الكريم موسى عليه السلام، كأنّما ألقاهم مُلْقٍ لشدّة خُرورهم[7]، فشبّه حالَهم في سرعة الخُرور وشدّتِه حين شاهدوا المعجزةَ القاهرةَ بحال من أُلْقيَ على وجهِه[8].

(1) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/417.
(2) الرّاغب، المفردات: (خر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (خر).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/46.
(5) الراغب، المفردات: (سقط)، و(هوى)، و(لقي).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(7) الزمخشري، الكشّاف: 2/141، والشعراويّ، تفسير الشعراوي: 7/4300 - 4301.
(8) حقي، روح البيان: 3/214.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١﴾ [الأعراف: 121]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولما كان النّـاسُ بمعْرضِ التّشوُّق العظيم إلى معرفة قولِ السّحرة بعد فعلِهم[1]، أعلنوها صريحةً، وجهروا بها على رؤوس الأشهاد مدوّيةً، فبان مَوقفُ السّحَرةِ بعْدَ إخْباتِهم للّه تعالى، مُعْلنِين الإيمانَ به دونَ سِواه.

❁ المعنى الإجْمالِيُّ:

تَصريحُ السّحَرة بـالإيـمـانِ، مُشيرٌ إلى الكُفر برُبوبيّةِ فرعونَ المَوهومَةِ

قالوا: آمنّا بربّ العالمين، وصدّقنا بما جاءنا به موسى، وأنّ الذي علينا عبادتُه، هو الذي يملكُ الجنَّ والإنسَ وجميعَ الأشياء، ويدبّرُ ذلك كلَّه[2]، فهو مالكُ أمرِ العالمين ومدبّرُ شؤونِهم، والمتصرّفُ فيهم[3]، ونحن مقرّون بالإيمان به، مُعلنون به أمامَ الأشهاد، مصرّحون بلفظِه، متحمّلون عواقبَه.

وقصدوا من إعلان إيمانِهم بالله لئلّا يظنَّ النّـاسُ أنهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادةُ القبط السّجودُ لفرعونَ، ولذلك وصفوا اللّه بأنّه رب العالمين بالعنوان الذي دعا به موسى ﷺ، ولعلّهم لم يكونوا يعرفون اسمًا علَمًا للّه تعالى، إذ لم يكن للّه اسمٌ عندهم، وقد علمَ بذلك أنهم كفروا بإلهيّةِ فرعون[4].

وتُرشدُ الآية الكريمةُ إلى حتميّةِ الثّبات في مواقف الشّدّةِ، وتحديدِ المصير، والإقدام في مواطن التّخيير بين النّجاة بالتّمسّك بنور الهداية، ودربِ الفلاح، أو الخُسرانِ بتغليب الكِبْرِ، والجحود، والضّلالِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 3/84.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/32.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 5/351.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّعبيرُ بالفعْلِ المَبْنيِّ للمعلومِ، والجُملةِ الفعليّةِ:

الإقرارُ بالإيمان، اسْتلزامٌ لشرائطِه، والتزامٌ بحَقائقِه

وقصدَ إلى الفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ على صيغة المعلوم لكونِ الإيمانِ يستلزمُ النّطقَ به (قولا) فضلًا عنِ التّصديقِ القلبيِّ، وعملِ الجوارح الذي أظهروا بديعَ صورتِه عند سجودِهم. وجاء بالآيتين على صيغة الجملةِ الفعليةِ؛ لكونِ السّحرةِ في حالة هياجٍ وتأثّرٍ متجدّدٍ من هول ما شاهدوه، وعِظَمِ ما أبصروه. فضلًا عن كونِهم في حالِ انتقالٍ عَقَديَ من كفر الى إيمان، وهو أصعبُ حالاتِ الانتقال؛ لكونِه تخلّصًا من أدران اعتقادٍ واعتيادٍ، وسَنَن آباءٍ، وأجدادٍ، وقومٍ ألفوها منهجَ حياةٍ، وسبيلَ علمٍ باطلٍ، وأدواتِ عمل.

الدَّلالةُ الصَّوتيةُ للمدِّ، في الفعْلِ ومَعمُولِه: ﴿ءَامَنَّا﴾:

السّجودُ راحةُ قُرْبٍ، تجلَّتْ في صَوتِ المدِّ على ألْسِنتِهم

ويمنحُ المدُّ في الفعل الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾ وتشديدُ النون إلماحًا بتحقّقِ التّصديق في فعلِ الإيمان، ورسوخِه، واستطالتِه على ألسنتهم راحةً، وطمأنينةً ترتَّبَ على سجودهم. فهم في حالٍ أقرب ما يكونون فيه إلى اللّه تعالى.

إعْلانُ الإيمانِ، بين الفعْلِ المَرْئيِّ، والقَوليِّ:

الحَركةُ في المشاهِدِ المَهُولةِ، تَسْبقُ الكلامَ

إعلانُ إيمانهم جاء بالفعل المَرئي المُشاهَد للجميع سجودًا، ثم بالقول المسموع[1]؛ لكونِ الحركة في المَشاهِدِ المَهولة، والحوادث العظيمةِ تسبقُ الكلامَ في الغالب، فكان السّجودُ، الذي يمثّلُ الحركةَ المعبّرةَ طبعًا - وعادةً في تلك الحِقبةِ - عنِ الإيمان، والتّسليم، والخضوعِ، وتبعَه النّطقُ المُعلِنُ للإيمان باللّه رب العالمين، بعد ذلك.

نُكتةُ تَقْديمِ فعْلِ السُّجودِ، على فعْلِ الإيمانِ:

وهنا يبرزُ سؤالٌ يقتضيه تقديمُ فعل السّجود على فعل الإيمان،

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/9321.

الـرّاجـحُ أنّـهـم آمـنـوا؛ فـخَـرُّوا سـاجـدِيـن، ثـمّ قـامُـوا بـإعْـلانِ الإيمانِ

هل كان السّجودُ قبل الإيمان؟ أم بعده؟ ومع أنَّ النصّ يَظهرُ منه أنهم آمنوا بعد السّجود، ولكن كان الأمرُ يقتضي ألّا يسجدَ أحدٌ إلا لأنّه آمن، لكنَّ الإيمانَ مزيجٌ من عمل قلبيٍّ، ونُطقٍ باللّسان، وتظهرُ آثارُه على الجوارح والأركان، والسّجود عملٌ عضَليٌّ وسلوكٌ عمليٌّ، فكلٌّ منهم آمن بقلبِه فسجدَ[1]، وبهذا يترتّب السّجودُ مع النّطق بالإيمان وإعلانِه؛ لأنّ إعلان الإيمان شيءٌ، مرحلةٌ تاليةٌ لوقْرِ الإيمان في القلب، فكأنهم آمنوا فخرّوا ساجدين، وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان، وكأنّ النّاس سألوهم: ما الذي جرى لكم؟ فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

دَلالةُ بَدلِ الاشْتمالِ ﴿قَالُوٓاْ﴾، من جُملةِ: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾:

تَنوُّعُ احْتِمالاتِ الإعرابِ، اتِّساعٌ في تقديرِ المعنى

جملة: ﴿قَالُوٓاْ﴾ بدلُ اشتمال منَ الملابسة من جملة: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ لأنّ سجودَهم اشتمل على ذلك القول، وهم قصدوا من قولِهم ذلك الإعلانَ بإيمانهم باللّه لئلّا يظنَّ النّاس أنّهم سجدوا لفرعون؛ إذ كانت عادةُ القبطِ السّجودَ لفرعون، ولذلك وصفوا اللّه بأنه ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالعنوان الذي دعا به موسى ﷺ، ولعلّهم لم يكونوا يعرفون اسمًا علَمًا للّه تعالى، إذ لم يكن للّه اسمٌ عندهم، وقد علمَ بذلك أنهم كفروا بإلهيّة فرعونَ[3].

أو هي حالٌ ثانيةٌ بإضمارِ قد، أو بدونِه، ويحتملُ أن يكون استئنافًا بيانيًّا، كأنّه قيل: فما قالوا؟ فقيل: قالوا آمنا بربّ العالمين ربِّ موسى وهارون[4]، أو هو عطفٌ، وحرفُ العطف مقدّرٌ[5].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/10571.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4301.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 19/79.
(5) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 2/832.

تَعريفُ لفْظِ (الرّبّ)، ودلالةُ الباءِ الجارّةِ:

الباء في ﴿بِرَبِّ﴾ للإلصاق المعنويِّ، وعُرِّف الرّبُّ بإضافته إلى المعرَّف بـ(ال) الجنسيّةِ للاستغراق الحقيقيّ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهو مجموع الجنسِ منَ الخلق.

الله ربُّ الخلْقِ والكَوْنِ بِمَوجُوداتِه قاطبةً

تَوجيهُ المتُشابهِ اللّفظِيِّ، في قصّةِ مُوسى والسّحَرةِ:

لم يذكر في سورة طه إيمانَهم بربّ العالمين، وأخّر فيها اسمَ موسى، وقدّم اسمَ هارونَ؛ لمراعاةِ فواصلِ السّور بما لا يعارضُ غيرَه ممّا ورد في غيرها، ولا سيما وقد نزل قبلَها، فالإيمان بربِّ هارون وموسى هو الإيمانُ برب العالمين؛ لأنهما قالا لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16] وهذه عادةُ القرآن، فهو يذكرُ منَ القصص ما يثبّتُ به الإيمانَ، ويتزكّى الوجدانُ، وتحصُل العِبرةُ، وتُؤثّر الموعظةُ، ولا بدَّ في ذلك من تَكْرار المعاني مع التّفنّن في الأسلوب، والتّنويعِ في نظم الكلامِ وفواصلِ الآيِ، وتوزيعِ الفوائد وتفريقِها، بحيث يوجدُ في كلِّ قصّةٍ ما لا يوجدُ في غيرها[1].

تَشابُهُ الآياتِ تَفنُّنٌ في القوْلِ، وقصدٌ إلى بناءٍ نَظْميٍّ مُحْكَمٍ

(1) رضا، تفسير المنار: 9/61 - 62.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

احتراس يزيل لُجّة الجاهلين

زادوا هذا القصدَ بيانًا بالإبدال من ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قولَهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لِئَلّا يُتوهّم المبالغةُ في وصف فرعونَ بأنه ربّ جميع العالمين[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَٰرُونَ﴾: هو اسمٌ أعجميٌّ معرَّبٌ، ورد في القرآن الكريم عشرين مرَّةً، ولم يردْ في شيءٍ من كلام العرب، ولا اشتقاق لَهُ في اللّغة العَربيَّة، وهارونُ اسمُ النّبيِّ أخي موسى[2] عليهما السلام.

المعنى الإجْماليُّ:

الرّبُّ الّذي آمنَ به موسى وهارونُ، هو المعبودُ بحقٍّ

آمنّا بربِّ موسى وهارون الذي أنزل عليهما هذه المعجزةَ العظيمةَ الدّالّةَ على صدقِهما، وعلى ربوبيّتِه وحدَه[3] جل جلاله، وإنّما قالوا: ربُّ موسى وهارون؛ لأنّ فرعونَ كان يدّعي الربوبيّةَ فأرادوا عزلَه[4]؛ لئلّا يَتوهَّم متوهِّمٌ من قوم فرعون المُقرّين بإلهيّته أنّ السّجود له[5].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى ضرورة تبْيين القصدِ منَ الكلام، وإيضاحِ المُرادِ منه؛ دفعًا للإيهام، ورفعًا للإلباس.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العُدولِ إلى التّصريحِ في السِّياقِ:

لفظُ (بِرَبِّ) رفعٌ للإلباسِ، وتبكيتٌ لِمَنْ كفرَ منَ النّاسِ

عُرِّفت لفظةُ ﴿بِرَبِّ﴾ بالإضافة الى موسى وهارون عليهما السلام بالتّشريك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (هرن).
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/88.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/325.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/265.

عن طريق واو العطف، وخُصّا بالذكر تشريفًا لهما، وتفضيلًا، أو لأنّهما القائمان بالدّعوة في تلك الحال[1]، وأحْرِ بهذا الموضع أن يُشرَّفَ المتَّبِعُ، ويُفضَّل، ويُهانَ المُبْتَدِعُ، ويُذمُّ.

وَجْهُ الاحْتراسِ والتّبكيتِ في الآيةِ:

إلـــزامُ فـرعـونَ الـحُـجَّـةَ، بأنّه ليس بـربٍّ، وأنَّ الـرّبَّ هـو الله وحدَه

وتعيَّن في تعريفِ البدلِ طريقُ تعريفِ الإضافة؛ لأنها أخصرُ طريقٍ، وأوضحُه هنا؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون اسمًا علَمًا على الذّات العليّة، وهذا ما يقتضيه تعليمُ اللّهِ اسمَه لموسى حين كلَّمَه فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: 14][2]، فالإضافةُ باعتبارِ حالِ المضاف إليه، وإلا لما تخلّصوا منَ الدّعوى؛ لأنَّ فرعون قد يقول: أنا ربُّ العالمين، الذين من ضِمْنِهِم موسى وهارونُ؛ فتتضمّنُ الإضافةُ معنى الاعتقادِ أي الربَّ الذي يعتقدُ ربوبيّتَه موسى وهارونُ، ويكونُ عدمُ صدقِه على فرعونَ بزعمِه أيضًا ظاهرًا جدًّا، فهو احتراسٌ[3]؛ لأنّ فرعون كان يقول: هو ربُّهم[4]. وهو كذلك تبكيتٌ[5] لفرعون بإلزامِه الحجَّةَ بأنّه ليس بربٍّ، وأنّ الربَّ في الحقيقة هو هذا[6].

نُكتةُ عدمِ الاكتفاءِ بموسَى، وإتْباعِه بهارونَ:

دفعُ توهُّم إرادةِ المعنى اللُّغويّ لِلفْظةِ الرّبِّ

ولم يقتصروا على موسى عليه السلام وأتْبعوه بهارون؛ لدفع توهُّمِ إرادة المعنى اللّغويّ للفظةِ الربّ، أي: التّربيةُ فهو من ربّى موسى في صِغره؛ فإنّ فرعون وإنْ ربّى موسى وهو صغيرٌ، إلا إنّه لم يربِّ هارونَ قطعًا، ولذا قدّم هارونَ في محلٍّ آخرَ ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/169، والشّوكانّي، فتح القدير: 4/115 - 116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(3) الاحتراس، والاحتراز، والتّتميم، والاحتياط: وهو الإتيانُ بكلامٍ لو استُمِرَّ عليه لكان فيه طعنٌ، فيأتي بما يُتحرّز من ذلك الطّعن. ينظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 40.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/242، والآلوسي، روح المعاني: 9/26.
(5) التَّبكيت: التَّقْريع والتَّوبيخ، والغَلَبَةُ بالحُجَّةِ، والإلزامُ بالسَّكْت، للعَجز عَن الجَواب عَنهُ. ينظر: الزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (بكت).
(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 4/115 - 116.

﴿سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 70]؛ لأنّه أدخلُ في دفع التوهّم(1).

بَلاغةُ التّرْديدِ في الآيةِ الكريمةِ:

مَلْمَحُ المبالغةِ في المدْحِ والثّناءِ، ومُفاجأةِ السّامِعِ

اللّفظُ تردّد مرّتين، وفي كلّ مرّة تعلّقَ بلفظٍ غيرِ اللّفظ الذي تعلّق به عند تكراره، وفي ارتباط كلٍّ منهما بلفظٍ جديدٍ تخصيصٌ للمعنى الّذي جسّده اللّفظُ في أوّل آيةٍ كريمةٍ، وتقويةٌ وإحكامٌ لها؛ وليبرزَ على أثرِه نَسقًا صوتيًّا، ومظهرًا إيقاعيًّا في الآيتين قوامُه التّكرارُ المُفضي الى التّوكيد الدّالّ على المبالغة في المدح، والثّناءِ، ومفاجأةِ السّامع، وإدهاشِه، وتكثيفِ المعنى بما يُرسّخُ تغلغلَ الرّبوبيّةِ في قلوب السّحرة، وظهورِ ذلك بلزومِها ألسنتَهم.

سِرُّ إتْباعِ التّراكيبِ بعْضِها بعضًا في السّياقِ:

تَعالُقُ التّراكيبِ علـى التّبعيّةِ تَوضيحٌ، ودفعٌ للتّوهُّمِ

جملةُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بدلٌ من ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أو عطفُ بيان، ويجوزُ أن يكون نعتًا(2)؛ لأنّ فرعونَ كان يدَّعي الرّبوبيّةَ، فأرادوا أن يَعزلوه(3)؛ لدفع توهّمِ إرادةِ فرعونَ، وأنّ السّجودَ كان له حيث كان قومُه الجهلةُ يسمّونَه بذلك، ولو وقفوا على ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لقال فرعون: أنا ربُّ العالمين إيّاي عنَوا؛ فزادوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، فهو إبدالٌ للتّوضيح، ودفعِ التّوهّم، ورفعِ الإشكال، والإشعارِ على أنّ الموجبَ لإيمانِهم ما أجراه على أيديهما منَ المعجزةِ القاهرةِ(4).

تَوجِيهُ مُتشابهِ اللّفظِ، بين هذه الآيةِ ومَثيلاتِها في مواقعَ أُخرَ:

اختلافُ التّقديمِ والتّأخيرِ في الآياتِ المُتشابهةِ، عِنايةٌ واهتمامٌ

وجهُ تقديم موسى هنا وفي [الشّعراء: 47 - 48]، وتقديم هارون في طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 70]، فضلًا عن رعاية

(1) حقّي، روح البيان: 3/214.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/265.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/313، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/28، و4/138، وحقّي، روح البيان: 6/274.

الفاصلةِ، أنَّ التّقديم وقعَ في الحكاية لا في المَحكيِّ؛ فيكونُ صدرَ منهم قولان، قدّموا في أحدِهما اسمَ هارون اعتبارًا بكبَر سِنّه، وقدّموا اسمَ موسى في القول الآخرِ اعتبارًا بفضلِه على هارونَ بالرّسالة وكلامِ اللّه تعالى، ولكون موسى هو المنسوبُ إليه العصا التي ظهرَ فيها ما ظهرَ منَ الإعجاز فهو محطُّ العناية ومناطُ الاهتمام بوصفِه المرسلَ، والمكلّفَ بالتبليغ، والحِجاجِ، وهارونُ كان مناصِرًا وعونًا لموسى في دعوته؛ لكونِه أفصحَ منه نُطقًا، فطلبَ إلى اللّه أن يرسلَه معه عونًا يصدّقُه في رسالته، ويبيّنُ لقومه ما يخاطبُهم به موسى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: 34]، فاختلافُ العبارتين باختلاف الاعتبارَيْن[1].

كما أنّ ذكرَ هارون في سورة طه قد تكرّر كثيرًا وجعله اللّه تعالى شريكاً لموسى في التّبليغ، وكانت جلُّ صيغِ الخطاب إليهما منَ اللّه تعالى، ومن فرعونَ بالتّثنية، على خلاف الأعراف والشّعراء، فناسبَ إشراكُهُ في التّبليغ ذِكْرَهُ مُقدَّمًا[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، و6/242، والآلوسي، روح المعاني: 9/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/263.

(2) السّامرائي، برنامج لمسات بيانيّة، رابط الحلقة على الشّبكة: https://tadars.com/tdbr/eloquence/8749 .

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾

[الأعراف: 123]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انفعالُ المُتَكبِّر على مَن بدّد أوهامَه

بعد ما كان من صنيعِ السّحرة، والتّصريحِ بالإيمان كان أوّلُ ما يخطرُ في البال، ويتوجّهُ إليه السّؤال، ما فعل فرعونُ وما قال؟[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاذَنَ﴾: الهمزةُ والذّال والنّون أصلان أحدُهما العلمُ، والإعلامُ. تقول العربُ: قد أذنتُ بهذا الأمر، أي: علمتُ. وآذنَني فلانٌ أعلَمني. وفعلَه بإذني، أي: بعلْمِي، وبأمري[2]. فالإذنُ في الشّيء: إعلامٌ بإجازتِه والرّخصةُ فيه، بإرادتِه وأمرِه، ولا يكادُ يُستعملُ إلّا فيما فيه مشيئةٌ به، راضيًا منه الفعلَ أم لم يرضَ[3]. ومعنى(آذن) في الآية الكريمة: آمُرَكُم وأُرَخِّصَ لكم.

المعنى الإجْماليُّ:

صُورةُ المُستبِدِّ في تَعْنيفِه السّحَرةَ وتوعُّدِه إيّاهُم بالوَبالِ

قال فرعونُ للسّحرة بعدما هالَهُ فعلُهم، وأثاروا حميّتَه؛ إذْ آمنوا باللّه، وصدّقوا رسولَهُ موسى عليه السلام، لمّا عاينوا من عظيم قُدرة اللّه وسُلطانِه: أصدّقتم بموسى، وأقررتُم بنبوّتِه قبل أنْ آذن لكم بالإيمان به؟ إنَّ تصديقَكم إيّاه، وإقرارَكم بنبوّتِه لَخدعةٌ خدعتُم بها مَنْ في مدينتنا؛ لتخرجوهم منها. فسوف تعلمون ما أفعلُ بكم، وما تلقَون من عقابي إيّاكم على صنيعِكم هذا[4]! فعنّفهم فرعونُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/62.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذِنَ).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذِنَ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/33.

على الإيمان قبل إذنِه، ثمّ ألزمَهم أنَّ هذا كان على اتّفاقٍ منهم،[1] وأنّهم سيُجازَوْن عليه بأشدِّ العذاب.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ الظَّلَمَةَ، والجبابرةَ لا عهدَ لهم، فعلى من شايَعَهم الانتباهُ، ومن نصرَهم الحذرُ من أنْ ينقلبوا عليه، فمُمالأة الظّالم مآلُه الخُسران، ومعاونتُه سبيلُ النّدامة، والحسرةِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

وُقـوعُ الـكـلامِ مُـحـاوَرَةً، دليلُ مِراءِ الكفَرةِ

وجملةُ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ استئنافيةٌ بيانيّةٌ، وفُصِلَتْ لوقوعِها في طريق المُحاورةِ، والسّؤالِ والجوابِ حيث حكى اللّٰه تعالى كلامَ السَّحرة مع فرعونَ بـ(قالوا)، و(قال).

سِرُّ إظهارِ الفاعلِ، لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ في السِّياقِ:

قـصْـدُ إظـهـارِ الـفـاعـلِ في مواطنِ الخَيْبةِ والخُسرانِ إذْلالٌ له

أظهر ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾؛ لأنّ موردَ الذّكر في موطن الخيبةِ والخُسران والعقوبةِ إذلالٌ، ومهانةٌ يناسبُه التّصريحُ، كما ناسبَ الإظهارُ في مواطن المدحِ التّشريفَ، والتّفضيلَ، واللّٰه أعلم، ولأنّه بَعُدَ عن ذكر فرعونَ بآياتٍ فصرّحَ، وقرّبَ من ذكره في سورتَيِ الشّعراء وطه، فأضمرَ وكنّى[2].

تَوجيهُ تعدُّدِ القِراءاتِ القرآنيّةِ في السِّياقِ:

بين الاستفهامِ والإخْبارِ تَشنيعٌ وتَقْريعٌ

وقولُه تعالى: ﴿ءَامَنتُم﴾ قرأهُ الجمهورُ بصيغة الاستفهام - بهمزتَيْن - فمنهم من حقّقَ الثّانيةَ، ومنهم من سهّلَها، ومنَ الفريقين من أدخل قبْلَ الثّانية مدّةً، وقرأهُ حفصٌ عن عاصم بهمزةٍ واحدةٍ[3]، فيجوزُ أن يكون إخبارًا، ويجوزُ أنْ تكونَ همزةُ الاستفهامِ محذوفةً مقدَّرةً، والاستفهامُ للإنكارِ التّوبيخيِّ والتّقريعِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.

(2) الكرمانّي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 83.

(3) ابن الجزريّ، النّشر، ص: 417.

على إذعانِهم للحقِّ، والتّعجّبِ من صنيعِهم، والمُتولّدِ عنه معنى الإبعادِ، والتّهديدِ مجازًا مرسلًا مركّبًا، والإخبارُ مستعملٌ كذلك أيضًا، أي فعلتُم هذا الفعلَ الشّنيعَ، توبيخًا لهم وتقريعًا، لظهور أنّه لا يقصدُ حقيقةَ الاستفهام ولا حقيقةَ الإخبار؛ لأنّ المخاطَبين صرّحوا بذلك وعلِموه، والضّميرُ المجرور بالباء عائدٌ إلى موسى، أي: آمنتُم بما قاله، أو إلى ربِّ موسى[1].

سِرُّ تَعْدِيَةِ الإيمان بالباء ﴿بِهِۦ﴾ واللّام ﴿لَهُۥ﴾:

تخصيص التّصديق بموسَى بـ(اللّام) أكثرُ إغاظةً لفرعونَ

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ للإلصاق المعنويِّ، ويحتملُ أن يعودَ الضّميرُ على اسم الله تعالى، ويحتملُ أن يعود على موسى[2] عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلا الإيمانَيْن متضمّنٌ للآخر، فالإيمان بالله يستلزمُ الإيمانَ برسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يقتضي الإيمانَ بصحّةِ رسالتِه[3]، وقال في سورتي طه، والشّعراء: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ [طه: 71، الشّعراء: 49] ليختصَّ الضّمير بموسى؛ لأنّ تعدية الإيمان باللّام تضمينٌ يفيدُ معنى الاتّباعِ والخضوعِ المعنيّ، وآمنتم به متّبعين له إذعانًا لرسالتِه قبل أن آذنَ لكم؟ ولذلك يتعيّنُ استعمالُ هذا التّضمين في الإيمان بالرّسل، والاتّباعِ لهم كقولِه تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: 47]، ومثلُه قولُه تعالى في حكايةً عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشّعراء: 111] وقولُه حكايةً عن كفّار قريش: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90][4].

وسببُ التّنوّعِ في تعديةِ فعلِ الإيمانِ بالباء مرّة، وباللّام مرّة أخرى أنَّ موسى أغضبَ فرعونَ - كما في سياق سورتَي (الشّعراء، وطه) - في قوّة جدالِه، وإفحامِه بالحُجّة؛ فكان تخصيصُ التّصديق

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/401 - 402.

(4) رضا، تفسير المنار: 9/62 - 63.

به عن طريق (اللام) - في السّورتين - أكثرَ إغاظةً لفرعون[1].

ودليلُ هذه القصديةِ نسبةُ تعليم السّحرِ إليه في السّورتين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه: 71، الشّعراء: 49]، دون ما جاء في الأعراف من زعمِه أنَّ إيمانَ السّحرة باللّه وتصديقَهم بموسى وإقرارَهم بنبوّتِه لحيلةٍ احتالوها هم وموسى؛ ليُخرجوا أهلَ المدينة منها، ويكونوا المستأثرين بخيراتِها.

فصلُ الكلامِ، والتَّعبيرُ بالمصدَرِ المُنسَبِكِ:

بـيـانُ تـأكـيـدِ التّوبيخِ، وتَقويةُ حدَثِ التَّقْريعِ في السِّياقِ

وقولُ فرعون ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ تَرَقٍّ في موجب التّوبيخِ، أي: لم يكْفِكم أنكم آمنتُمْ بغيري حتى فعلتُمْ ذلك عن غير استئذانٍ، وفَصْلُها عما قبْلَها؛ لأنّها تعدادٌ للتّوبيخ[2].

وفيه دليلٌ على وهَن أمره؛ لأنّه إنّما جعل ذنْبَهم مفارقةَ الإذن ولم يجعلْه نفسَ الإيمان إلا بشرط[3].

وقصدَ إلى التَّعبير بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَنۡ ءَاذَنَ﴾ بدلَ المصدرِ الصّريح (إذني)؛ لقوّةِ المُنسبك في الدّلالةِ على حدث التّقريعِ بعدمِ الإذن، وتأكيدِ تحقّقِه، ونسبَه إليهم عن طريق كافِ الخطاب وميم جمعِ العقلاء في ﴿لَكُمۡۖ﴾، واللّام فيه للتَّبليغ جرّتْ الضّميرَ العائدَ على السّحرة سامعي قَول فرعون[4].

بَلاغةُ حشْدِ التَّوكيداتِ والتَّعبيرِ باسْميّةِ الجُملةِ:

تَقريرُ ثبوتِ فعْلِ المكـرِ، وتَغليظُ التّنْكيلِ

﴿إِنَّ﴾ توكيدٌ، و﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارة (ها) فيه لتوكيد التّنبيه، واللام في ﴿لَمَكۡرٞ﴾ مُزحلقةٌ للمبالغة في التّوكيد، والحالِ، وعزّزَ حشدَ هذه التّوكيدات اسميّةُ الجملة، فهي تقريرٌ بثبوت فعْلِ المكرِ

(1) السامرائي، التعبير القرآني، ص: 296.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/440.

(4) لام التَّبليغ: هي الجارّة لاسم السّامع لقَول أو ما في معناهُ، نَحْو: قلت لَهُ، وأذنت لَهُ، وفسّرت لَهُ. ينظر: المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 99.

فيهم، والله أعلم. والغرضُ مِن استدعاء هذه المؤكّداتِ التّمهيدُ لتغليظِ التّنكيل بالسّحرة، وأنّ ما سيلاقونَه من عذاب إنّما هو عقوبةٌ على جُرم محقّقٍ ظهر دليلُه[1].

بَديعُ الجِناسِ الاشتقاقيِّ، في سِياقِ الآيةِ:

المُحَسّنُ البديعيُّ يُقوّي اللّفظَ، ويُرسّخُ معناه

ورسَّخ ثبوتَ فعلِ المكرِ فيهم إردافُه بالجناسِ الاشتقاقيِّ ﴿لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ﴾؛ لِما للاشتقاق من أثرٍ في قوّة اللّفظ، وتفخيمه، ومن ثمَّ توكيدِه؛ إذِ المصدرُ دلَّ على معنى الخديعة والغدرِ، والفعلُ دلَّ على الفعل والإجراءِ، والغرضُ من هذا الجناس هو تأكيدُ فرعونَ أنَّ ما فعله السّحرةُ كان مكرًا باطلًا.

وَجْهُ مَصدريّةِ ﴿لَمَكۡرٞ﴾، وتَصدُّرِ ﴿مَّكَرۡتُمُوهُ﴾ بالماضي:

تَصويرُ تحقُّقِ المَكْرِ وحصولِه بقوّةٍ، وصفٌ للصّراعِ والمُعاناةِ

التَّعبيرُ عنِ المكر بالمصدر أقوَى في الدّلالة على ثبوتِ الحدث، وآكدُ، وأردفَه بالجملة الفعليّةِ ﴿مَّكَرۡتُمُوهُ﴾ المصدّرةِ بالفعل الماضي؛ للدّلالة على تحقُّق المكرِ، وحصولِه، وتجدّدِه؛ فهو ماضٍ استمراريٌّ. وجملةُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ﴾ خبرٌ مرادٌ به لازمُ الفائدة، أي: قد علمتُ مرادَكم؛ لأنّ المخاطَبَ لا يُخْبَرُ بشيءٍ صدرَ منه[2].

بَلاغةُ مَجازِ الظّرفِ للحرف ﴿فِي﴾ منَ الآيةِ:

قَصْدٌ إلى تَحقّقِ التَّعليل في المَكْرِ، وبيانِ فحْواه

﴿فِي﴾ ظرفيةٌ مكانيةٌ، أي: دُبِّر المكرُ، وأُعِدَّ للحيلة، والمواطأةِ التي كانت بينهم وهم في المدينة حين كانوا بها قبلَ الحضور إلى المكان الذي وقعت فيه المحاورةُ[3]. وبذا تكونُ (ال) في المدينة عهديةً حضوريةً أي المدينةَ المعهودةَ التي جئتم منها، أو تكونُ ﴿فِي﴾: ظرفيةً مجازيةً أفادت جعلَ مكرِهم كأنّه موضوعٌ في المدينة كما يوضعُ العنصرُ المفسدُ، أي: أردتُّم إضرارَ أهلها، وبذا لا تكونُ ظرفيةً

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/401.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/267.

حقيقيةً؛ لأنّها لا جدوى لها؛ إذ معلومٌ لكلّ أحدٍ أنّ مكرَهم وقعَ في تلك المدينة. ويرجّحُ الظرفيةَ المجازيةَ التعليلُ الذي بعدها في قولِه: ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾، فاللام تعليليةٌ، وتخرجوا مضارعٌ دالٌّ على عزمِهم على تحقيق الفعلِ بدوامِهم عليه، والمرادُ: بعضُ أهلها، وهم بنو إسرائيل؛ لأنّ موسى جاء طلبًا لإخراج بني إسرائيل منها(1).

نُكتةُ تَقديم ﴿مِنۡهَآ﴾على المفعول ﴿أَهۡلَهَاۖ﴾:

تَقديمُ مَوطنِ العِنايةِ، بوصفِه مَقرًّا للحُكمِ، ومَلْمحًا للدّلالةِ

و(من) لابتداء الغايةِ المكانيةِ، وقدّمت شبهُ الجملة ﴿مِنۡهَآ﴾ على المفعول به ﴿أَهۡلَهَاۖ﴾؛ لكونِها محطَّ العنايةِ، والاهتمامِ، فهي مقرُّ الحكم، وزوالُها زوالُ سلطانِ فرعون وقومِه.

وقولُ فرعون هذا يحتملُ أنّه قاله موافقًا لظنّه على سبيل التّهمة لهم؛ لأنّه لم يكن له علمٌ بدقائق علْمِ السّحر حتى يفرّق بينه وبين المعجزةِ الخارقةِ للعادة، فظنّ أنها مكيدةٌ دبَّرها موسى مع السّحرة، وأنَّه لكونِه أعلمَ منهم أو مُعَلِّمَهم؛ أمرَهم فأتمروا بأمره، كما في قوله ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه: 71]. ويحتملُ أنّه قاله تمويهًا وبهتانًا ليصرفَ النّاس عنِ اتباع السّحرة، وعنِ التّأثّر بغلبةِ موسى إياهم فيُدخلَ عليهم شكًّا في دلالة الغلبةِ واعترافِ السّحرة بها، وأنّ ذلك مواطأةٌ بين الغالب والمغلوب لغايةٍ مقصودةٍ، وهو موافقٌ في قوله هذا، لِما كان أشار به الملأ من قومه حين قالوا: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشعراء: 35]. وأيًّا ما كان الاحتمالُ في قوله فعزمُه على تعذيبهم مصيرٌ إلى الظّلم والغشْم؛ لأنّه ما كان يحقُّ له أن يأخذَهم بالتّهمة، بلْه أن يعاقبَهم على المصيرِ إلى الحجّة، ولكنّه لمّا أعجزته الحُجّةُ صار إلى الجبروت(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54.

بَلاغةُ التّفْريعِ على الإنكارِ، على طريقِ المَجازِ:

في التّفريع قَصْدٌ إلى الإجمالِ، والإبهامِ، والتّهويلِ

فرّع على الإنكارِ والتّوبيخِ الوعيدَ بقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، بصيغةِ المضارعِ التّجدّديِّ، والفاء فصيحةٌ للاستئناف، والسّببيّة، وإدخالُ (سوف) على الفعلِ فيه معنى التّوكيدِ في المستقبلِ، والجملةُ خبرٌ مستعملٌ في التّهديد مجازًا مرسلًا علاقتُه الإطلاقُ، والتقييدُ. وحذفَ مفعولَ تعلمون لقصدِ الإجمالِ في الوعيد، والإبهامِ في العقوبة؛ للتّهويلِ بما سيقع بهم، ولإدخال الرّعبِ في نفوسِهم، ثم بيّنه، وفصّلَه بعد ذلك بجملة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾[1].

التّشابُهُ اللّفظِيُّ بين آيةِ الأعراف (123)، وآيةِ الشّعراء (49):

جمْعُ اللّامِ مع حرفِ التّسويفِ، تحقيقٌ للفعْلِ، وإدناءٌ له منَ الوُقوعِ

قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ابتدأتْ بالفاء وسوف، في آية الأعراف، وزاد لامَ الابتداء المؤدّيةَ معنى التّوكيدِ، في حرف التّسويف في سورة الشّعراء، فقال: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ﴾ [الشّعراء: 49] ولم يذكرْه هنا؛ لأنَّ هذه اللّامَ تدلُّ على تقريب ما خوّفَهم به حتى كأنّه حاضرٌ موجودٌ، فاللامُ للحال، والجمعُ بينها وبين "سوف" التي للاستقبال إنّما هو تحقيقُ الفعل وإدناؤُه منَ الوقوع، وعرضُ القصّةِ في سورة الشّعراءِ أكثرُ تداوُلًا لأحوال موسى عليه السلام في بعثِه وابتداءِ أمره، وانتهاءِ حاله مع عدوّه، فجمعت لفظَ الوعيدِ المبهم مع اللّفظ المُقرّبِ له المُحقّقِ وقوعَه إلى اللّفظ المُفصحِ لمعناه، ثم وقع الاقتصارُ في السّورة التي لم يُقصدْ بها منِ اقتصاص الحالِ ما ذكرَ في سورة الشّعراء على نقصِ ما في موضِعَيِ البسْط والشّرحِ، وهو التّعريضُ بالوعيد مع الإفصاحِ به[2].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54، وقباوة، المفصّل، ص: 589، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 1/401.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/638 - 639، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/64.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف: 124]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعَـلاقـةُ بين توبيخِ المؤمنين، وبين تهديدِهم بأقسَى عُقوباتِ المُجرمينَ

قولُه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾، و﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ تفصيلٌ لإجمال الوعيدِ في آية ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾(1)، وتفريعٌ على عموم الإنكار، والتّوبيخ، والوعيدِ المُبهم فيه(2)؛ إذ لمّا ظهرتِ الحُجّةُ عاد إلى عادة ملوكِ السّوء إذا غُلبوا من تعذيبِ مَن ناوأهم(3).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِلَٰفٖ﴾: الخاء، واللام، والفاء أصول ثلاثة: أحدها التغير(4). ومنه الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله، أو قوله(5). ويقال: فرَس بِهِ شِكالٌ مِنْ خِلافٍ؛ إِذا كانَ فِي يَده الْيُمْنَى ورِجْلِه الْيُسْرَى: بَياضٌ(6). ومنه جاء التضاد في القطع أي: إحداهما من جانب، والأخرى من جانب آخر. (اليمنى من اليدين مع اليسرى من الرجلين مثلًا) كما في [المائدة: 33، الأعراف: 124، طه: 71، الشعراء: 49]. ومعنى اللفظة في الآية المباركة: قطع عضوٍ مغايرٍ للآخر منهم، كاليد من الجانب الأيمن، والرجل من الجانب الأيسر، أو العكس.

2) ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾: الصاد، واللام، والباء أصلان: أحدُهما يدلُّ على الشدّة والقوّةِ، والآخرُ جنسٌ منَ الوَدَك، فالصَّليبُ، هو ودَكُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54 - 55.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: خلف).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلف).

العَظْم. أي: دَسَمُهُ، ودُهْنُه. يُقال: اصطَلَبَ الرجُلُ، إذا جَمَع العظامَ، وطَبَخَها؛ فاستخرج ودَكَها ليأْتدِم به. قالوا: وسُمّيَ المصلوبُ بذلك كأنَّ السَّمْنَ يجري على وجهه[1]. فالمعنيان الأصلُ يدلان على معنى الصّلْبِ الذي هو تعليقُ الإنسان للقِتلة المعروفةِ، بشدِّ صُلبهِ على خشبٍ منصوبٍ، أو: هو من صَلْبِ الوَدَكِ. وسائرُ ما في القرآن مِنَ التّركيب فهو منَ الصَّلْب بهذا المعنى[2].

المعنى الإِجْماليّ:

إعْلانُ العُقوبةِ الجائرةِ، وتحديدُها وَفْقَ الهوَى والجَبروتِ

أقسم فرعونُ بالتنكيل بهم، والتّوعّد لهم بالعذاب، والتّشويهِ، والتّنكيلِ، والموتِ القاسي البطيءِ المُرعب؛ بأنْ يقطعَ من كلّ شقٍّ منهم عُضوًا مغايرًا للآخر، كاليد منَ الجانب الأيمن، والرِّجْل منَ الجانب الأيسر، أو العكسِ، ثم تصليبُ كلِّ واحدٍ منهم وهو على هذه الحالة المشوَّهة تشهيرًا بهم، وتنكيلًا لأمثالِهم؛ ليكونوا عبرةً لمن تحدّثُه نفسُه بالكيد له، أو بالخروج عن سلطانِه، والتّرفّعِ عنِ الخضوع لعظمتِه، وخشي أن يسريَ التّمرُّدُ عليه فشدَّد العقابَ[3].

وإنّما خُصّص القطعُ من خلاف؛ لأنّ ذلك أشدُّ على الإنسان من قطعهما من جهةٍ واحدةٍ؛ إذ قطعُهما من جهة واحدة يبقى عنده شيءٌ كاملٌ صحيحٌ، بخلاف قطعِهما من جهتين مختلفتين فإنه إفسادٌ للجانبين[4].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّ الصَّلب وقطعَ اليد والرِّجل من خلاف عقوبةٌ متأصّلةٌ عند الخلقِ، تلقَّفوها من شرع متقدِّم فحرَّفوها، حتى أوضحَها الله في ملّة الإسلام، وجعلَها أعظمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلب).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(3) رضا، تفسير المنار: 9/63، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/351 - 352.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/128.

العقوبات لأعظمِ الإجرام"[1]، يعني جريمةَ "الحِرابة". وإلى قسوةِ الجبابرةِ في الانتقام، وشدّةِ تنكيلهم بمخالفيهم، ومدى ظُلمِهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّوكيدِ باللّامِ في لفْظِ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾:

المُبالغةُ في التّهديدِ بالعذابِ، والوَعيدِ بالانتقامِ الشّديدِ

اللّام في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ جوابيّةٌ للتّوكيد واقعةٌ في جواب القسم المحذوف، ورُسِّخَ التّوكيدُ بالنّون الثّقيلةِ، والتّشديد، وجملةُ القسَم المحذوفةُ استئنافيّةٌ ضمْنَ مَقولِ القول للمبالغةِ في تحقيق الفعلِ[2].

سِرُّ تَقديمِ لفْظِ ﴿أَيۡدِيَكُمۡ﴾، وجَمْعِها:

التّقديمُ للتّرتيبِ، وتفصيلِ الإجمالِ، وتَعميمِ كلِّ الأيْدِي

وقدَّم الأيدي على الأرجل لقصدِ التّرتيب في القطع، وجاء بهما على صيغةِ جمْعِ القلّةِ مع إرادة التّكثير معرّفًا إيّاهما بالإضافة؛ ليكسِبَهما العمومَ فيعمَّ كلَّ يدٍ، وكلَّ رجلٍ من أيدي السَحَرة، وأرجلِهم[3]، وجملةُ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ بيانٌ لإجمال التّهديد بالعقوبة في الآية الكريمةِ السّابقةِ[4]، وبذا ناسبت فاصلةُ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ اللفظةَ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ من تخصيصٍ للعقوبة.

تَعدُّدُ معاني ﴿مِّنۡ﴾، في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

الإيذانُ بإيقاعِ فعْلِ القطْعِ يقينًا، وتعْيِين كيفيّتِه المألوفةِ

و﴿مِّنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ ابتدائيةٌ، أو للمصاحبةِ، وهي ومجرورُها في حيّزِ النّصبِ على الحالية، أي: لأقطّعنَّها مُخالفاتٍ؛ لبيان موضع القطعِ بالنّسبة إلى العُضو الثّاني، كأنَّ القطعَ ابتداءٌ من مخالفةِ العُضوِ العضْوَ، فهي قيدٌ للقطع، أي: أنَّ القطعَ يبتدئُ في حال التّخالف، وقد عُلِمَ أنَّ المقطوع هو العُضو المخالفُ، فتعيَّن أنّه مخالفٌ لمقطوع آخرَ وإلا لم تُتَصوّرِ المخالفةُ[5]، وتعيينُ هذه الحال؛

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/320.

(2) قباوة، المفصّل، ص: 589.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54 - 55.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54 - 55.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/29، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55، و6/183.

للإيذان بتحقيق الأمرِ وإيقاعِه لا محالةَ بتعيين كيفيّتِه المعهودةِ[1]، ولعلّ اختيارَها دون القطع من وفاق؛ لأنّ فيه إهلاكًا، وتفويتًا للمنفعة، أو لأنها أفظعُ[2]، أو المعنى من أجل الخلاف الذي ظهر منكم[3]. فتكونُ (من) للتّعليل، أي: بسببِ خلافكم لي.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بحرْفِ التّراخِي ﴿ثُمَّ﴾:

تعظيمُ الحالِ فيما عُطِفَ، وتحريكُ النُّفوسِ لاعتْبارِه

لما كان مقصودُ هذه السّورة الإنذارَ، فذكر فيها ما وقع لموسى عليه السلام والسّحرةِ على وجهٍ يهوِّلُ ذكْرَ ما كان من أمر فرعون على وجْهٍ يقرّبُ من ذلك، فعبّر بحرف التّراخي؛ لأنّ فيه - مع الإطناب الذي يكون شاغلاً لأصحابه عما أدهشَهم ممّا رأوه - تعظيماً لأمرِ الصّلب[4]، فأفاد بـ(ثم) معنى خاصًّا، وهو أنْ تكونَ للتّباين في الصّفات والأحكام، وغيرِ ذلك ممّا يحملُ به ما بعدها على ما قبلها من غير قصدِ مهلةٍ زمانيةٍ، بل ليُعلَمَ موقعُ ما يعطفُ بها، وحالُه، وأنه لو انفرد لكان كافيًا فيما قصدَ به. ومنه قولُه تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ [المدثر: 19 - 20]، ولم يُقصَد في شيءٍ من هذا ترتيبٌ زمانيٌّ[5].

دَلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ على توالِي العَذابَيْن، التّقْطيعِ ثمّ التّصْليبِ:

أدّى حرفُ التّراخِي معنَى التّصاعُدِ في وَعيدِ العِقاب

وتكونُ دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ على الارتقاء في الوعيد بالصّلب، والمعروف أنّ الصّلبَ: هو أنْ يُقتلَ المرءُ مشدودًا على خشبة، وعلى هذا يكونُ توعّدَهم بنوعين منَ العذاب. والوعيدُ موجّهٌ إلى جماعتهم، فعُلِم أنه جعلَهم فريقين: فريقٌ يعذَّبُ بالقطع من خلافٍ، وفريقٌ يعذَّبُ بالصّلب والقتل، فعلى هذا ليس المعنى على أنه يصلبَهم بعد أن يقطعَهم، إذ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/29.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 16/231.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/85.
(5) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/221.

لا فائدةَ في تقييد القطعِ بكونِه من خلافٍ حينئذ. ويحتملُ أن يرادَ بالصّلب: الصّلبُ دون قتلٍ، فيكونُ أرادَ صلبَهم بعد القطع ليجعلَهم نَكالا يَنْذعِرُ بهم النّاس، كيلا يُقْدِمَ أحدٌ على عصيان أمرِه من بعد، فتكونَ ﴿ثُمَّ﴾ دالّةً على التّرتيب والمُهلة، ولعلَّ المهلةَ قُصد منها مدّةُ كيٍّ واندمالِ موضعِ القطع، وهذا هو المناسبُ لظاهر قولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ المفيدِ أنَّ الصّلب ينالُهم كلَّهم[1]. وهذا يزيدُ من شدّةِ الإهانةِ والتّعذيب لهم، ومن إظهارِ قوةِ فرعونَ وغضبِه عليهم.

بيانُ مُتشابهِ الألفاظِ بين الآي:

تَعظيمُ الحالِ فيما عُطِفَ، وإثارةُ النُّفوسِ عِظَةً واعْتبارًا

وبيانُ الفرق بين قولِه تعالى هنا: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ وقولِه: في طه، والشّعراء: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: 71، الشعراء: 49]، أنْ لا تعارُضَ بين العاطفَيْن فإنّ العطف بالواو مطلقٌ يصدُقُ بالتّعقيب الذي تدلّ عليه (الفاء)، وبالتّراخي الذي تدلُّ عليه (ثم) والغايةُ ما تقدّمَ من معانٍ خلاصتُها تعظيمُ الحال فيما عطفَ وموقعِه، ومكانتِه، وتحريكُ النّفوس لاعتباره[2]، أو لزيادة غضبِه، واحتراق قلبِه منَ الغيظ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.

(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/221، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/65.

(3) السّامرائي، التّعبير القرآنّي، ص: 297.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾ [الأعراف: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُناسبةُ بين الوعيدِ بالعذابِ والتّقتيلِ، والفرحِ بالمُنقلَبِ إلى الله الجليل

لما كان نوعُ العقاب غريبًا مُرعبًا تشوّقتِ النّفوسُ إلى جوابِهم، أخضوعٌ، وخشيةٌ، أم قوّةٌ، وثباتٌ، فاستأنفه بقولِه: ﴿قَالُوٓاْ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: القاف، واللام، والباء أصلان صحيحان: أحدُهما يدلُّ على خالصِ شيءٍ وشريفِه وقد تقدّم تفصيلُه في الآية (100) من سورة الأعراف لفظةِ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾. أمّا الأصلُ الآخرُ فهو: ردُّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ، وتحويلُ الشّيءِ عن وجهِه، وتصريفِهِ، وصرفِهِ عن وجه إلى وجهٍ، أي: تَغَيُّر حالِه إلى عكسِ ما كانت، كقلب الثّوب، وقلبِ الإنسان، أي: صرفُه عن طريقته. ومنه عبّروا باللّفظة عن الرجوع، أي: الانقلاب. وما تصرّف منها فهي في القرآن بمعنى الرّجوع حقيقةً، أو مجازًا[2].

المعنى الإِجْماليُّ:

بَركةُ بَشاشةِ الإيمانِ، تتجلَّى في الإيقانِ بما عندَ الرّحمنِ

قالوا بجَمْعهم، ولم يرتعِد منهم إنسانٌ، ولا تزلزل عمّا منحَه اللّه به من رُتبة الإيمان بكمال التّسليم، والاتّكالِ على اللّه تعالى، والثّقة بما عنده: إنّا إلى ربّنا الذي ما زال يُحسنُ إلينا بنعمهِ الظّاهرة، والباطنةِ حتى جعل خاتمتَنا أعظمَ النِّعم، لا إلى غيره؛ مُنقلبون بالموت انقلاباً ثابتاً لا انفكاكَ لنا عنه إنْ صلبْتَنا، أو تركْتَنا، لا طمعَ لنا في البقاء في الدنيا، فنحن لا نُبالي بعد علْمِنا بأنا سننقلبُ إذا قُتلنا إلى من يُحسنُ إلينا، أيًّا كان حالُ انقلابنا. فإنّا راجعون إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/85.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).

ثواب ربّنا يومَ الجزاء على ما نلْقاه منَ الشّدائد، أو أنّا ننقلبُ إلى لقاء ربّنا ورحمتِه وخلاصِنا منك ومن لقائك، أو إنّا ميّتون مُنقلبون إلى اللّه فلا نبالي بالموت، إذ لا تقدرُ أن تفعل بنا إلا ما لا بدَّ لنا منه[1].

وتُرشدُ الآية الكريمة: إلى أنَّ الإيمان حين يلامسُ شَغاف القلوب، ويذوقُ المؤمن حلاوتَه، ويستشعرُ نورَ الهداية، بعد ظُلمة الكفرِ؛ فإنه يأنسُ بقُرب ربّه، ويتشوّفُ الى لقائِه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ على الاستئنافِ البيانيِّ:

وقوعُ المضمونِ في سياقِ المُحاوَرة، يَعكسُ حَساسيّةَ الموقفِ وحَرَجِه

فُصلت جملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الاستئنافيةُ البيانيةُ؛ لوقوعها في سياق المُحاورة، وهو جوابٌ عن وعيدِ فرعونَ بأنّه وعيدٌ لا يضيرهم؛ لأنّهم يعلمون أنّهم صائرون إلى اللّه ربِّ الجميعِ[2].

دَلالةُ الجمْعِ في ﴿قَالُوٓاْ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

أهمّيّةُ التَّعبيرِ بصَوتٍ واحدٍ، عن تفويضِ أمْرِهم إلى الله

يشير الجمعُ إلى أنَّ القائلين هم السَّحرةُ الذين آمنوا باللّه وبرسوله موسى ﵇، وذلك بعد أن شهدوا بالحقِّ وتحدَّوْا فرعونَ، وتحمَّلوا تهديدَه وتعذيبَه، فهم يعبِّرون بصوتٍ واحدٍ ثابتٍ دون تردّدٍ أو مواربةٍ عن تفويض أمرِهم إلى اللّه وثقتِهم به، ورجائِهم في رحمتِه ومغفرتِه، وهذا يدلُّ على صدْق إيمانِهم باللّه وصبْرِهم على المصائب التي تنالُهم في سبيل اللّه.

بَلاغةُ الإيجازِ في الجوابِ الصّادرِ منهم:

الإفْصَاحُ عن مَقْصِدِ السّحَرة في التّسليمِ، والتّوكُّلِ على الله العظيمِ

جاء جوابُهم موجزًا إيجازًا بديعًا دالًّا على كمال التّسليم والتّوكُّل على اللّه تعالى والثّقةِ بما عنده؛ لأنه يتضمّنُ أنّهم يرجون ثوابَ اللّه على ما ينالُهم من عذابِ فرعونَ، ويرجون منه مغفرةَ ذنوبِهم،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.

ويرجون العقابَ لفرعونَ على ذلك، أو أنّا ننقلب إلى لقاء ربّنا ورحمتِه وخلاصِنا منك ومن لقائك، أو أنّا ميّتون مُنقلبون إلى اللّه فلا نبالي بالموت إذ لا تقدرُ أن تفعلَ بنا إلا ما لا بدّ لنا منه. وإذا كان المُرادُ بالصّلب القتلَ وكان المرادُ تهديدَ جميعِ المؤمنين، كان قولُهم: إنّا إلى ربّنا منقلبون تشوُّقًا إلى حلولِ ذلك بهم محبّةً للقاءِ اللّه تعالى، فإنَّ اللّه تعالى لمّا هداهُم إلى الإيمان أكسبَهم محبّةَ لقائِه[1].

بَلاغةُ تَقديمِ الجارّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾:

بيانُ أهمّيّةِ تخصيصِ العُبوديّةِ لله المَعبودِ

وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ دلالةُ الاختصاص، أي أنّهم لا يؤمنون بأحدٍ إلا ربَّ العالمين، وأنّه لا انقلابَ الى غيره[2]، وفيه تبرّؤٌ من فرعونَ ومن ربوبيّتِه[3].

بَلاغةُ اتّحادِ الضّمائرِ، في السّياقِ الحكيم:

التّعريضُ بكذِبِ فرعونَ، وإيثارُ ما عندَ اللهِ تعالى على ما عندَه

إضافةُ الرّبوبيّةِ إلى الضّمير (نا) قُربٌ، وتخصيصٌ له بهم، ونأيٌ به عن فرعونَ وملئِه، فيكونون قد عَنوا بقولهم هذا أنفسَهم وحدَها، وأرادوا أنّهم لا يُبالون ما يكونُ من قضائه فيهم وقتلِه لهم؛ لأنّهم راجعون إلى ربّهم، راجون مغفرتَه ورحمتَه بهم، وحينئذ يكونُ تعجيلُ قتلهم سببًا لقرب لقائِه، والتّمتّعِ بحُسن جزائِه، كأنّهم استطابوه شَغفًا في لقاء اللّه. ويجوز أن يكونوا قد عَنوا أنفسَهم وفرعونَ جميعًا، وأرادوا: إنّنا وإياك سننقلبُ إلى ربنا، فلئن قتلتَنا فما أنت بخالدٍ بعدَنا، وسيحكمُ ﷻ بعدله بيننك وبيننَا[4]. وفيه تعريضٌ بكذبه في دعوى الرّبوبيّة، وتصريحٌ وإيثارُ ما عند اللّه تعالى على ما عنده منَ الشّهوات الدّنيوية[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/491.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/66.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/67.

قَصْدِيّةُ التَّعْبير بالجُملةِ الاسْميّةِ، واسْمِ الفاعلِ:

تَحقُّقُ الحُدوثِ، وثباتُه وصْفًا، لأنَّ إليه تعالى المُنتَهَى

يدلُّ التَّعبير بالجُملة الاسميّة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ على يقينِهم من رجوعِهم إلى الله تعالى بالموت انقلابًا ثابتًا، رسّخه التّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ الدّالِّ على الحدوث المُتَحقّقِ، الثّابتِ وصفًا دائمًا لهم في الحال، والاستقبال.

بَلاغةُ المُتَشابِهِ اللّفْظِيّ بين آيةِ الأعراف (125)، وآيةِ الشّعراء (50):

الاسْتِهانةُ بالتَّهدِيدِ الكبيرِ، مُستغْرِقٌ الاسْتهانةَ بما دونَه من تهديدٍ

قال تعالى هنا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ﴾، وفي الشّعراء: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ﴾ [الشّعراء: 50]؛ لأنّ قولَه: ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ مقابلٌ به ما تقدّمَ من قوله: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الشّعراء: 44] لِما اعتقده السّحرةُ أوّلًا من أنَّ له عزةً ونسبوها إليه، فظنّوا أنه يقدرُ على ما يريده ويستبدُّ بفعله، ثمّ لمّا وضَحَ لهم الحقُّ، ورجعوا عنِ اعتقادهم وأيقنوا وعلموا أنَّ القدرةَ والعزّة للّه تعالى وحدَه، وسلّموا لخالقِهم ولم يبالوا بفرعونَ وملئِه فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾، أي: لا ضررَ ولا خوفَ من فرعونَ؛ إذِ العزّةُ للّه وحدَه، ولم يقع من قولهم في الأعراف أولًا مثلُ الواقع هنا، فلم يَجيئوا في الجواب بهذا اللفظ[1].

ويَرشَحُ عن هذا التّفصيل في التّفريق إشراقةٌ بيانيّة تحريرُها: مناسبةُ قوله ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ في الشّعراء لمقام التّفصيل، والتّوسّع من ناحية[2]، ولمقام التّهديد الشّديد، والوعيد المؤكّدِ من ناحية أخرى؛ فإنّ تهديده في الشعراء أشدُّ وآكدُ ممّا في الأعراف فلو أنّهم قالوا في الأعراف (لا ضير) دون الشعراء لَظُنَّ أنّهم هابوا التّهديد الشّديدَ، فلم يَنطقوا بما يدلُّ على عدم الاكتراث؛ إذْ منَ المُعتاد أن يرهبَ الانسانُ التّهديدَ الكبيرَ دون الصّغير، أمّا إذا استهانوا بالتّهديدِ الكبير ولم يكترثوا به، فإنَّ ذلك يدلُّ على أنّهم أقلُّ اكتراثًا

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/222.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/366.

بالتّهديد الأدنى، وأقلُّ رهبةً له، فناسب هذا أن يقولوه في موطن التّهديدِ الشّديد دون الأدنى[1].

بناءُ القصّةِ في (الشّعراء)، على التّفصيلِ، وفي (الأعراف) على الاخْتِصارِ:

الاسْتِغناءُ عن تَكرار (لا ضيرَ)، في أحدِ الموضِعَيْن، يُناسبُ التّفصيلَ والإيجازَ

علّةُ عدم ذكرِ (لا ضير) في الموطنين؛ لأنَّ ذكرَه في موطن التّهديدِ الكبير يُغني عن ذكره في الموطن الأدنى وذلك من باب الأولى، ثمّ إنّ ذكرَه في الموطنين مخلٌّ بالإيجاز؛ إذ إنَّ ذلك مفهومٌ منَ الموطنِ الأوّل، ثم إنّ بناءَ القصّة في الشّعراء، قائمٌ على التّفصيل، وبناءَها في الأعراف قائمٌ على الاختصار، وذلك يقتضي أن يُفصّلَ ما يقضي التّفصيل، ويُختصرَ ما هو معلوم وما لا حاجةَ لذكره[2].

(1) السّامرائي، التّعبير القرآنّي، ص: 297.

(2) السّامرائي، التّعبير القرآنّي، ص: 297.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: 126]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما قدّموا ختامَ مآلِهم، ومصيرِهم وهو الانقلابُ الى اللّه تعالى، بيّنوا أنَّ عقاب فرعونَ لا غضاضةَ عليهم منه؛ لأنّه لم يكن عن جنايةٍ تَصِمُهُم، بل كان على الإيمان بالآيات لما ظهرت لهم[1].

رَبْـطُ التّسليمِ لله، بالتّلْويحِ ببُطْلانِ التُّهمِ، واللّجُوءِ إلى الله الأعْظَمِ

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنقِمُ﴾: النّون والقاف والميم أصلٌ يدلُّ على إنكارِ شيءٍ وعَيبِه، ونَقَمْتُ عليه أنْقِمُ: أنكرتُ عليه فِعلَه، والنِّقْمةُ منَ العذاب والانتقام، كأنَّه أنْكَر عليه فعاقَبَه[2]، ومعنى: نَقَمتُ: بالغْتُ في كَراهة الشَّيْء[3]، ونُكرانِه إما باللسان؛ وإما بالعقوبة[4]. ومعنى اللفظة في الآية الكريمة: ما تُنْكِرُ منا، أو ما تطعنُ علينا، أو: وما تَكْرَه منا، أو: ما تعيبُ منا، أو: ما تَعُدُّ علينا ذنبًا وتؤاخذُنا به[5]. فجِماعُ هذه المعاني مُحْتَمِلَةٌ في اللَّفظة.

2) ﴿أَفْرِغْ﴾: الفاء، والراء، والغين أصلٌ صحيح يدلُّ على خُلوٍّ. ومنه الفَرْغ: مَفْرَغُ الدَّلْو الذي ينصبُّ منه الماء[6]. فالإفراغُ: الصَّبُّ، وأفرَغْتُ الماءَ: صببتُه. وافترغْتُ، إذا صببتَ الماءَ على نفسك. ومنه استعير: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[7]. ولما كان من دلالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نقم).
(4) الرّاغب، المفردات: (نقم).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرغ).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرغ).

الإفراغ: السّعَةُ والسّيلان، كان المعنى في الآية المباركة: أَنْزِلْ صَبْرًا يشْتَمِلُ علينا[1].

3) ﴿صَبْرًا﴾: الصاد، والباء، والراء أصولٌ ثلاثة، أوّلُها: الحَبْس. يُقال صَبَرْتُ نفسي على ذلك الأمر، أي حَبَسْتُها[2]. والصَّبْرُ: نقيض الجَزَع. وهو: الإمساكُ في ضيقٍ، وحبسُ النّفس على ما يقتضيه العقلُ والشّرعُ، أو عما يقتضيان حبسَها عنه، فهو لفظٌ عامّ، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلافِ مواقعِه؛ فإنْ كان حبسُ النّفس لمصيبةٍ سُمّي صبرًا لا غير[3]، والصّبرُ في المصيبة هو معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: الواو، والفاء، والحرف المعتلّ: كلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. ومنه توفَّيْتُ الشَّيءَ واستَوْفَيْته؛ إذا أخذتَه كُلّه حتَّى لم تتركْ منه شيئًا. ومنه يقال للميِّت: تَوفّاه اللّه[4]. وقد عبّر عنِ الموت باستيفاء الأرواح، أي: استعادةُ اللّه تعالى إياها، وعنِ النَّوم بالتّوفّي ماضيًا ومضارعًا للفاعل والمفعول وطلبًا واسم فاعل[5]. فهو: الإماتةُ وقبض الرّوح[6]. وهو معنى اللفظة في الآية الكريمة.

المعنى الإجْمالِيُّ:

قُــوّةُ اليـقـينِ، وتمامُ التّسليمِ؛ سبيلُ حِجاجِ الطُّغاةِ العُتاةِ

قال مؤمنو السّحرة: ما تنكرُ منا يا فرعونُ، وما تجدُ علينا إلّا أن صدّقنا بحُجج ربنا، وبراهينِه، وأدلّتِه التي لا يقدرُ على مثلها أنت، ولا أحدٌ سوى اللّه الذي له ملكُ السّموات والأرض. فبيَّنوا أنَّ الذي كان منهم لا يوجبُ الوعيدَ، ولا إنزالَ النّقمة بهم، ولا المبالغةَ في كراهيتهم، بل يقتضي خلافَ ذلك، وهو أن يُتأسّى بهم في الإقرار

(1) ابن سيده، المحكم: (فرغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (صبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفي).
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفي).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 313.

بالحقّ، والاحترازِ عن الباطل عند ظهور الحُجّة والدّليل، ثمّ فزعوا إلى الله بمسألتِه الصّبرَ على عذاب فرعونَ، وقبضِ أرواحِهم على الإسلام، فقالوا: أنزلْ علينا ما يحبسُنا عنِ الكفر بك، عند تعذيب فرعونَ إيانا، واقبضْنا إليك على الإسلام دينِ خليلِك إبراهيم ﷺ، لا على الشّركِ بك[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى الصّبر على الشّدائد، وتَحمّل الفتن، والمصائبِ؛ فذلك من تمام صدق الإيمان، والتقرُّب منَ العزيز المنّان. وعلى المسلم أنْ يَجْأر الى ربّه في البلايا، ويلجأ إليه في عِظام الرزايا، فهو مفتاحُ الصبر، وموئلُ المصابرة.

وإلى أنَّ السحرةَ المؤمنين يلوِّحون بذلك إلى بُطلان التُّهمةِ المزوَّرة التي اتّهمهُم بها زورًا وبهتانًا؛ لمجرّد القضاءِ عليهم، والتّخلّص منهم، باسم حمايةِ الدّولة منَ المتآمرين عليها والكائدين لها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الواو في ﴿وَمَا تَنقِمُ﴾ عاطفةٌ، و﴿وَمَا﴾ نافيةٌ للتّقريب منَ الحال، و﴿تَنقِمُ﴾ مضارعٌ يحملُ معنى تجدّدِ نقمةِ فرعونَ، واستمرارِ سخَطه؛ ليناسبَ حجمَ أذاه من صنيعِهم، وأساه من فعلِهم، وجاء قولُهم هذا على سبيل الاستهزاءِ، والتّقريع، والتّوبيخ.

تـواصُـلُ غَـضـبِ فرعونَ اللّعينِ، والـتّـصـدِّي لـه بالإيمانِ واليقينِ

بَلاغةُ التَّعْبير بالاسْتثناء المُفَرَّغ في السِّياقِ:

و(من) لابتداء الغايةِ المكانيةِ، و﴿إِلَّآ﴾ حرفُ استثناء، والمصدرُ المنسبكُ ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾ أقوى في الدّلالة على حدثِ الإيمان، وتأكيدِ تحقّقِه، ويجوز أن يكون في محلّ نصبِ مفعولٍ به، أي: ما تعيبُ علينا إلا إيمانَنا، أو أنْ يكون مفعولًا من أجله، أي: ما تنالُ منا وتعذّبُنا

حَـصْـرُ الـنِّـقْـمـةِ عـلـيـهـم بـإيـمـانِـهـم، وقَـصْـرُهـا على اعْتقادِهم بآياتِ ربِّهم

(1) جامع البيان: 13/35، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/170.

(2) المكيّ النّاصري، التّيسير في أحاديث التّفسير: 2/255.

لشيء منَ الأشياء إلا لإيماننا، وعلى كلٍّ من القولين فهو استثناءٌ مفرّغ[1]، أفاد حصرَ النَّقَمِ بإيمانِهم، وهو من قصْر الصّفة على الموصوف على طريق النّفيِ والاستثناء، أو هو استثناءٌ متّصلٌ؛ لأنَّ الإيمان ينقمُه فرعونُ عليهم[2].

بَلاغةُ أُسلوبِ المدْحِ بما يُشبهُ الذَّم:

الإيمانُ بالله فَخارٌ للمؤمنين، وحَسْرةٌ على الكافرين

ففي قولهم ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾ تأكيدُ المدح بما يشبه الذمّ، كأنْ يقول إنسان: ماذا تكره فيّ؟ أصدْقي؟ أأمانتي؟ أجودي؟ أعِلمي؟ كأنّه يعدّد أشياءَ يعرفُ كلُّ النّاس واقعاً أنّها لا تُكره[3]، والمعنى: وما تعيبُ منّا إلا خيرَ الأعمال، وأعظمَ المناقب، وأصلَ المفاخر، وهو الإيمانُ بآيات الله تعالى. وجمالُ بلاغتِه أنَّ فرعونَ تنبّه مُتوقّعًا أمرًا يقتضي العيبَ، والذّمّ بعدَ قولهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾، ففوجِئَ بإثبات مدحٍ لهم، وثناءٍ لصنيعهم ليرْسَخَ فعلُ الإيمان في الذهن، ويَثْبُتَ.

دَلالةُ حرفِ (الباء) في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِ﴾:

الإيمانُ تَصديقٌ، والْتزامٌ، وثباتُ اعْتقادٍ

الباء في ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾ للإلصاق المعنويِّ، ودلالتُها ربطُ الفعل (آمن) بموضوع الإيمان ربطًا وثيقًا، كأنّه ملتصقٌ به، وهي دلالةٌ مناسبةٌ لِما في معنى الإيمان مِن التزامٍ، وثباتِ اعتقادٍ[4]، والباء هنا بما تدلُّ عليه منَ الملابسة، والمصاحَبةِ، والإلصاقِ - تخلعُ على فعل الإيمان وجودَ الأمن في ظلالِ من يؤمنُ به، ويلتمسُ الحمايةَ في صحبتِه، والطّمأنينةَ في ملابستِه[5].

---

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/352.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/56.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4303 - 4304.
(4) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/205.
(5) محمّد الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 211.

دَلالةُ تعالُقِ التّعريفاتِ بالإضافةِ:

عبّر بلفظي ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ بصيغتَيِ تعريفٍ بالإضافة متعالقَين، بإضافة الآيات إلى (الرّبّ) المعرَّفِ بإضافته إلى ضمير التّعظيم (نا) المناسبِ للذّات الإلهيّةِ، وهو أقوى في الدّلالة على تأكيد المدح؛ إذ فيه من تخصيص الآيات، والرّبوبية بهم تودّدًا، وقُربًا، وسموَّ منزلةٍ ما فيه، يعزّزه قولُهم: ﴿جَآءَتۡنَا﴾ بإسناد ضميرِ الآيات إليهم، وكأنّها مخصّصةٌ لهدايتهم، وشرفوا بها، وهي تناسبُ مقام الدّعاء بالصّبر، والتّثْبيتِ.

تَـخـصِـيـصُ الإيمانِ، وتأكيدُ تـعـلُّـقِـه بالله تعالى

سِرُّ تَوجِيهِ التَّعْبيرِ بـ ﴿لَمَّا﴾:

﴿لَمَّا﴾ حرفُ شرطٍ، وتسمّى حرفَ وجودٍ لوجودٍ. ومنهم من يجعلُها ظرفًا للزّمان بمعنى (حين)، وتسمى لمّا الحينية، وتضافُ إلى جملة الشّرط، هذا هو المشهور. ومنهم من يرى أنها حرفٌ للرّبط، فمن جعل (لمّا) ظرفَ زمانٍ جعلَ العامل فيها ﴿مِنَّآ إِلَّآ﴾، ومن جعلها حرفًا جعل جوابَها محذوفًا لدلالة ما قبلَه عليه، أي: (لما جاءتنا آمنا). وفي كلام مؤمني السَّحرة هذا - فضلًا عمّا سبق - تكذيبٌ لفرعونَ في ادّعائِه الرّبوبيةَ، وانسلاخٌ منهم عنِ اعتقادهم ذلك فيه، والإيمانُ بالله الذي هو أصلُ المفاخر والمناقبِ[1].

تَكذيبُ السّحَرة فــرعــونَ في ادّعائِه الرُّبُوبيّة، والـنُّـكُـوصُ عن تأليهِه

دَلالةُ إيثارِ فعْلِ (المجيءِ)، على (الإتيانِ):

عبّر بـ ﴿جَآءَتۡنَا﴾ للآياتِ بدلًا عن (أتتنا)؛ لأنَّ المجيءَ أعمُّ وفيه شدّةٌ، وصعوبةٌ، ومشقّةٌ، والآياتُ كانت فيها منَ الشّدّة، والمشقّة ما تبيّن من أثرها فيهم، حتى خَرّوا سُجّدًا لله ربِّ العالمين[2].

الآيـاتُ المُبصرةُ كـانـت شـاقّـةً عليهم، لِما لها مـن تـأثـيرٍ في التّغييرِ

نُكتةُ تَقديمِ الفاعلِ، وحذْفِ حرفِ النّداءِ:

تقديمُ الفاعل ﴿رَبَّنَا﴾ المعرَّفِ بالإضافة الى ضمير التّعظيم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366.
(2) السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 91.

تَرسيخ اختِصاص فعْل الإفراغِ (أَفْرِغْ) بالله تعالى

(نا) على الفعل ﴿أَفۡرِغۡ﴾، تخصيصٌ للفعل باللّه تعالى، وحصرٌ له به سبحانه؛ فلا قادرٌ على هذا الفعل إلّاه، ولا منعمٌ به عليهم سواه، ولذلك قصدوا في دعائِهم إلى حذف حرفِ النّداء؛ دلالةً على قربِه تعالى منهم.

عِلّةُ تَقديمِ الجارّ على المفعولِ المُطلَق:

من وجوه العِنايةِ بهم، تخصيصُهم بالصّبرِ، وقصْرُه عليهم

ورسّخ هذا المعنى تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ - المؤلَّف من (على) للاستعلاء المعنوي، الحاملِ معنى الإنزال من فوق تضمّنًا للإحاطة، والسّكينةِ، وضميرِ التّعظيم (نا) - على المفعول المطلق ﴿صَبۡرٗا﴾؛ لتخصيص الصّبرِ بهم، وقصْرِه عليهم، وللعنايةِ بهم، فمِن مقاصدِ المُتحدّثين أنّهم يقدِّمون في كلامهم الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببيانِه أعْنَى، وإن كانا جميعًا يُهِمّانِهم ويُعنيانِهم.

بَلاغةُ الالتفاتِ في الخِطابِ:

بيانُ شِدَّةِ افْتِقارِهم، وتفويضِ أمْرِهم إليه تعالى

تركوا خطابَ فرعونَ، وقطعوا الكلامَ معه، والتفتوا إلى خطاب الجنابِ العليّ، بصيغةِ الدّعاء: ﴿أَفۡرِغۡ﴾ أمرًا منَ الأدنى الى الأعلى، أي: أنْزِلْ صبرًا يشْتَمِلُ علينا[1]. ليدلَّ على شدّة افتقارهم إليه تعالى في هذا الموقف العصيب، مُفوّضين الأمرَ إليه، طالبين إليه تعالى أن يُثبّتهم على هذه المحنة بالصّبر، مُعبِّرين عنه بأبلغ أنواعِه بمجيءِ لفظ: ﴿صَبۡرٗا﴾ مصدرًا منكّرًا؛ مبالغةً في طلب الصّبر، فكأنّهم طلبوا الصّبر كلَّه، بكمالِه، وتمامِه.

نُكتةُ إيثارِ فعْلِ الإفراغِ ﴿أَفۡرِغۡ﴾ دونَ غيرِه:

طلبُ الصّبرِ كان اسْتِعدادًا لِما سَينزلُ عليهم مِنَ عذابِ فرعونَ

عبّرَ بالإفراغِ، وهو صبُّ الماء الكثير منَ الدّلو ونحوِه، حتى يفيضَ، ويغمرَهم[2]؛ استعدادًا منهم لما سينزلُ بهم منَ العذاب من

(1) ابن سيده، المحكم: 5/505.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/171، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/267، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/68.

عدوِّ اللّه، وتوطينًا لأنفسِهم على التّصلّب في الحقّ، وثبوتِ القَدمِ على الإيمان[1].

دَلالةُ الكِنايةِ، وجِماعِ الاستعاراتِ، عن شِدّةِ اضْطِرارِهم إلى الله:

تداخلُ الصّورِ، تنفسحُ به دَلالاتُ السّياقِ لمعانٍ شتَّى

ولأنّ وعيدَه مما لا تُطيقه النّفوسُ سألوا اللّه أن يجعل لنفوسهم صبرًا قويًّا، يفوقُ المتعارَفَ فقالوا: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾، أي: عُمَّنا كما يعمُّ الماءُ مَن أُفرغ عليه، وهي هنا استعارةٌ[2]؛ إما أن تكون تبعيةً و﴿صَبۡرٗا﴾ قرينةٌ. شبّه إنزالَ الصبر، وإكثارَه عليهم بإفراغ الماء في الفيضان، والغمرِ؛ لأنَّ إفراغَ الماء هو صبُّه بالكلّيّة منَ الإناء فيكونُ غامرًا لما يُصبُّ عليه. ثم قيل: ﴿أَفۡرِغۡ﴾ بدلَ (أنزلْ، وأكثرْ) على الاستعارة التّبعيّة، أو هي استعارة مكنيّة؛ إذ شبّه الصّبرَ بالماءِ في أنّه مُطهّرٌ منَ الأوزار كما أنَّ الماء مُطهّرٌ منَ الأحداث. وجعل إيقاعَ الإفراغ قرينةَ الاستعارة بالكناية؛ لأنّ الإفراغَ إنّما يُستعملُ في الماء، على طريقة الاستعارةِ المكنيّة، وشبّه خلقَه في نفوسِهم بإفراغ الماء منَ الإناء على طريقة التّخييلية، فإنَّ الإفراغ صبُّ جميعِ ما في الإناء، والمقصودُ من ذلك الكنايةُ عن قوّة الصّبر؛ لأنّ إفراغ الإناء يستلزمُ أنّه لم يبقَ فيه شيءٌ ممّا حواه، فاشتملت هذه الجملة على استعارة مكنيةٍ، وتخييليةٍ، وكنايةٍ[3].

أو هي استعارةٌ تمثيليةٌ؛ إذ شبّه حالَهم واللّهُ يفيضُ عليهم بالصّبر بحال الماءِ يُصبّ، ويُفرَغُ على الجسم فيعمُّه كلَّه ظاهرَه، وباطنَه، فيُلقي في القلب بردًا، وسلامًا، وهدوءًا، واطمئنانًا. وعبّروا عن إلهامِهم إلى الصّبر بالإفراغ استعارةً لقوّة الصّبر، فاستعيرَ الإفراغُ هنا للكثرة مع التّعميم والإحاطةِ[4]، أي: اصببْ صبًّا ذريعًا،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/267.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.

(3) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 4/276، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/56.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/499.

والمعنى: هَبْ لنا صبرًا واسعًا وأكثِرْه علينا حتى يفيضَ، ويغمرَنا كما يُفرَغُ الماء إفراغًا[1].

سِرّ فاعليّةِ حذْفِ حرفِ العلّةِ:

إبْرازُ دَلالةِ طَلبِ الإسـراعِ في تحقُّقِ الفعْلِ

ودعوا لأنفسِهم بالوفاة حال ثبوتِهم على الإسلام، وكونِهم مسلمين غيرِ مُحرّفين ولا مبدّلين ولا مفتونين؛ إيذانا بأنّهم غيرُ راغبين في الحياة، ولا مُبالين بوعيدِ فرعونَ[2]. وعبّروا عن ذلك بحذف حرف العلّة من فعل الأمر، ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ والاستغناءِ عن إعادة الفاعل بالمذكور طلبًا لسرعة تحقُّقِ الفعل.

بَلاغةُ التَّعْبير بلفْظِ اسْمِ الفاعلِ، والجُملةِ الفعليّةِ:

تحقّقُ الحُدوثِ، وطلبُ التّوفّي على الإسلامِ، لضمانِ حُسْنِ المصيرِ

وذِكرُهمُ الإسلامَ في دعائِهم يدلُّ على أنَّ اللّه ألهمَهم حقيقتَه التّي كان عليها النّبيّون والصّديقون من عهد إبراهيمَ عليه السلام، فكان دعاؤهم بأنْ يتوفّاهمُ اللّه على حالتِهم، وهي الّتي يجمعُ لفظُ الإسلام تفصيلَها[3]، ولذلك عبّروا عن وصْفِهم بصيغة اسم الفاعل الدّالِّ على تحقّقِ حدوثِه فيهم، وثبوتِهم عليه، وعبّروا عنِ الدّعاء - إجمالًا - بالجُملتين الفعليتَين: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ لحاجتِهم إلى تجدّدِه كلَّ حين، ولحظةٍ؛ ليناسبَ تجدّدَ وعيدِ فرعونَ المتكرّرِ، وتهديدِه المستمرِّ لهم.

غَرَضُ صِيغةِ النّداءِ مع الأمْرِ في سِياقِ الطّلبِ منَ الله الدّعاءَ:

الدّعاءُ مبعثُ راحةٍ وطُمأنينةٍ للنّفسِ

فهذا الدّعاءُ يجري على اللّسان مجرَى المثلِ، عند وقوعِ البلاءِ، والمحنِ لِما يثيرُه في النّفس منَ الطّمأنينة التي يُحسُّ بها من هَدَأَ جسمُه بماءٍ يُلقى عليه، وهذه الرّاحةُ تُشبهُها تلك الرّاحةُ النّفسيّةُ، ينالُها من مُنِحَ هِبةَ الصّبرِ الجميل[4].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/595.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/57.
(4) بدوي أحمد، من بلاغة القرآن، ص: 168.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإفراغُ)، و(الهبوطُ)، و(الإنزالُ)، و(الصبُّ):

الإفــراغُ يُـفيـدُ سَعةَ الـشّيءِ، وكــثرتَــه، وانْصِبابَه، وهو آثـرُ في السِّياقِ من غيره

الهبوطُ نزولٌ يعقبُه إقامةٌ، ومنه قولُه تعالى ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]، وقولُه تعالى ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38]، ومعناه انزلوا الأرضَ للإقامة فيها. ولا يقال هبط الأرضَ إلّا إذا استقرَّ فيها، ويقال نزولٌ وإنْ لم يستقرَّ[1]. والهبوط: الانحدارُ على سبيل القهر، كهبوطِ الحجر، والمنحدر، وإذا استعمل في الإنسان الهبوطُ فعلى سبيل الاستخفافِ بخلاف الإنزالِ، فإنّ الإنزالَ ذكرَه تعالى في الأشياء الّتي نبّه على شرفِها، كإنزال الملائكة، والقرآنِ، والمطرِ، والحديدِ، والمَنِّ والسَّلوى، وغيرِ ذلك، والهبوطُ ذكرَ حيث نبَّه على الغضِّ من الشّيءِ، نحو: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]؛ بقول موسى عليه السلام مُستنكرًا على بني إسرائيل بطَرَهم نعمةَ اللّه، بأن يهبطوا أيَّ مدينة، فسيجدون فيها كثيرًا ممّا اشتهَوْا منَ البقول والخُضَر، والقِثّاء، والحبوبِ التي تؤكلُ، والعدسِ، والبصلِ في الحقول والأسواق.

أمّا إفراغ الإناء فهو صبُّ ما فيه بالكلّية، فكأنّهم طلبوا إلى اللّه كلَّ الصّبر لا بعضَه[2]، فالإفراغ يفيدُ سَعةَ الشّيء، وكثرتَه، وانصبابَه، وهو صبٌّ برويّةٍ، فيستغرقُ الجسمَ كلَّه، أي: صبرًا تامًّا كثيرًا، يغمرُنا كما يُفْرَغ الماءُ، وليس كالصبِّ الذي فيه قوّةٌ، وشدّةٌ[3]؛ ممّا يشيرُ إلى روعة انتقاءِ هذا اللّفظ في سياق الآية الكريمة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/171.
(3) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 1/38.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ التّأزُّمِ بينَ السّحَرةِ وفرعونَ، وتحريضِ حاشيتِه له على اسْتِئصالِهم

لمّا استنكف فرعونُ أنْ يُقرَّ بعجْزِه، ويعترفَ بقصورِ قُدرته، توعَّدَ موسى وقومَه - بعد ممالأة الحاشيةِ له في الباطل - بما عكسَ اللّه عليه تدبيرَه، وغلبَ عليه تقديرَه[1]، وذلك تأثُّرًا بمعجزة موسى وموعظةِ الّذين آمنوا من قومه، وثباتِهم على الحقّ، وقوّةِ حُجّتهم[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَذَرُ﴾: جاء معنى اللّفظة في المُعجمات العربية بمعنى التَرْكِ، فذَرْهُ تَرْكاً، أي اترُكْهُ[3] ويذرُ فلانٌ الشّيءَ، أي: يقذفُه لقلّة اعتدادِه به، وهو التَّرْكُ؛ إذ هو مفارقةٌ للشّيء، وانفصالٌ، أو تخلٍّ عنه[4]، وكلُّ ما في القرآن منَ التّركيب فهو بمعنى (الترك)[5] الشّديد.

2) ﴿وَنَسْتَحْىِۦ﴾: الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدُهما خِلافُ المَوْت، وهو الحياةُ والحَيَوان، وهو ضِدُّ الموت والمَوَتان[6]، والحَيُّ من كل شَيْء: نقيضُ المَيِّت[7]، واستحييت أسيري: تركتُه حيًّا، وفي الحديث: «اقتُلوا شيوخَ المُشْرِكينَ واسْتَحْيوا شَرْخَهم»[8]، وكلُّ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 1/559.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/57.
(3) الخليل، العين: (وذر).
(4) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيي).
(7) ابن سيده، المحكم: (حيي).
(8) أبو داود، السنن، برقم: (2670)، والترمذي، السنن: برقم: (1583)، وأحمد، المسند: برقم: (20157)، وضعَّفه الألباني، ضعيف الترمذي، برقم: (1583).

ما في القرآن مِنَ التّركيب هو من الحياة ضدّ الموت، عدا التّحيّةَ والحياءَ. ومنه قولُهم: يستحيون النساء، أي: يستبْقونَهنَّ أحياءَ، مِنَ الاستحياء: إبقاءُ الشخص حيًّا أي عدمُ قتله،[1]، وهو معنى المُفردة في الآية الكريمة.

3) ﴿قَٰهِرُونَ﴾: القاف والهاء والراء كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على غَلَبة وعُلوّ. يقال: قَهَرَه يَقهرُه قَهْرًا، والقاهرُ: الغالبُ، وهو من أسماء اللّه تعالى، فالغالب على الحقيقةِ هو اللّهُ وحْدَه سُبحانَه؛ فقد قهر وغلب عبادَه أجمعين، حتى إنَّ أعْتى الخَلْقِ يتضاءَلُ ويتلاشى أمامَ قَهرِ اللّهِ وجَبَروتِه، وأقْهَرَ الرَّجُل: إذا صُيِّر في حالٍ يذلُّ فيها، وقُهِر: إذا غُلِبَ[2]، وأخذَهم قَهْرًا، أي: من غير رضاهم، والقهرُ: الغلبةُ، والإذلالُ معًا والأخذُ من فوق. وأقهره: سلَّط عليه مَن يقهرُه[3]. وأمّا صِفةُ القَهرِ في الخَلقِ، فغالبًا ما تكونُ مَذمومةً؛ لقيامِها على الظُّلم والطُّغيانِ، والتسَلُّطِ على الضُّعَفاءِ والفُقَراءِ. ومعنى (القهر) في الآية المباركة فضلًا عمّا تقدَّم من معانٍ: غلبَه وأخذَهُ من فوْقُ، وسلّط عليه قوَّته فلم يكن عنده فُسْحَةُ الاختيار أو هوادتُه، فهو ينصاعُ راغمًا، للدّلالة على ما كان يفعل فرعونُ ببني إسرائيلَ، وأنّه متمكّنٌ منهم، وهم موضعُ قهرِه واحتقارِه فهم أقلُّ من أن يَهتمَّ بهم[4].

❁ المعنى الإِجْماليُّ:

دورُ حَاشِيةِ السُّوءِ، وبِطانةِ الفسادِ، في تأليبِ الحاكمِ على الظّلم

وقال جماعةٌ من أشراف قوم فرعونَ له: أتدَعُ موسى وقَوْمَهُ من بني إسرائيل أحرارًا آمنين؛ ليُفْسِدوا رعيّتَك في أرض مصرَ، بدعوتِهم إلى عبادة ربّهم دونَك، وإدخالِهم في دينهم، أو جعْلِهم

(1) كما ورد في القرآن الكريم في سور: البقرة: 49، والأعراف: 127، 141، وإبراهيم: 6، والقصص: 4، وغافر: 25، ويُنظر: الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قهر).
(3) الفراهيدي، العين، والرّاغب، المفردات: (قهر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قهر).

تحت سلطتِهم ورياستِهم، وتتركُه يرفضُ آلهتَك فلا يعبدُك ولا يعبدُها؟ فأجابهم فرعونُ بقوله: إنّما يتقوّى موسى بقومه، فنحن نسعَى في تقليل عدد قومِه بقتل الرجال، وإبقاءِ النّساء على قيد الحياة؛ لتقلَّ شوكتُه، ثم بيَّن فرعونُ - لحاشيته المُنتفعةِ - أنّه قادرٌ على ذلك بالقُدرة، والتسلّطِ[1]، مُسْتَعْلٍ عليهم بالغلبةِ، والسّلطانِ، قاهرٌ لهم كما كان من قبلُ، فلا يستطيعون إفسادًا في أرضنا، ولا خروجًا من حظيرة تعبيدنا[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ بطانةَ السّوءِ للملوكِ أصلُ الفساد، ومبدأُ الخراب، ببثِّ الفتنة، وتزيينِ أعمالِ ملوكهم، وتغطيتِهم عيوبَهم، وغايتُهم تنفيذُ مآربِهم، وتحقيقُ مصالحِهم، والحرصُ على منافعهم، وفيها تصويرٌ لتمادي الظّلمةِ في غيِّهم، وإصرارِهم على باطلِهم بإظهار شدّةِ بطشِهم، وعظيمِ قهرهم، حين تُصَمُّ الآذانُ عن سماعِ قولِ الصّدقِ، والإذعانِ الى منطق الحقِّ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

العُدولُ عنِ الفصْلِ إلى الوصْلِ في السِّياقِ:

الإيذانُ بالخُروجِ مِنَ المُحاوَرة، استكمالًا لِما وقعَ من مُناوَرةٍ

الواو عاطفةٌ، وجملةُ: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أو على جملة: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109]، وإنما عُطفت ولم تُفصلْ؛ لأنها خارجةٌ عنِ المحاوَرة التي بين فرعونَ ومن آمن من قومِه بموسى وآياتِه؛ لأنّ أولئك لم يعرّجوا على ذكر ملأ فرعونَ، بل هي محاورة بين ملأ فرعون وبينَه في وقتٍ غيرِ وقت المحاورة التي جرت بين فرعون والسّحرةِ، فإنّهم لمّا رأوا قلّةَ اكتراث المؤمنين بوعيد فرعونَ، ورأوا نهوضَ حُجّتهم على فرعونَ وإفحامِه، وأنه لم

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/237 - 2/238، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/69.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/70.

يَحِرَ جوابًا، راموا إيقاظَ ذهنِه، وإسعارَ حميّته، فجاؤوا بهذا الكلام المثيرِ لغضب فرعونَ، ولعلّهم رأوا منه تأثّرًا بمعجزة موسى وموعظةِ الذين آمنوا من قومه، وثباتِهم على الحق، وقوّةِ حُجّتهم[1].

نُكتةُ (أل) في تعريفِ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾:

مَنعُ الإلباسِ، والتّعريضُ بحالِهم، لِبيانِ خُطورةِ مقالِهم

(أل) في ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ عهديَّةٌ، وأكّد تعريفَهم بالجملة الحالية ﴿مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لكي لا يلتبسَ بعموم الملأ الحاضرين، أو أنَّ مِنَ الملأ من صار إلى صفِّ موسى عليه السلام، وفيه تعريضٌ بحالهم: أنّهم تبعٌ للباطل.

بَلاغةُ التَّعْبير بالاستفهام، في ثنايَا الكلامِ:

فَحْوَى كلامِ الملأِ التّحريضُ على إهلاكِ موسَى وقومِه كافّةً

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ﴾ مستعملٌ في الإغراء، والتّحريضِ بإهلاك موسى وقومِه، والإنكارِ على الإبطاء بإتلافِهم، حتى لا يكونَ لهم خروجٌ عن دين فرعونَ، والمقصودُ بقومه مَنِ اتّبعه من بني إسرائيل، فيكونُ الاستفهامُ على هذا استفهامَ إنكارٍ، وتعجّبٍ، أو: هو استخبارٌ، والغرضُ منه أن يعلموا ما في قلبِ فرعونَ من موسى ومنْ آمن به[2]، وفيه أيضًا تعريضٌ بوجوبِ التّعقّبِ، والاستئصالِ[3].

نُكتةُ إسْنادِ فعْلِ التّركِ ﴿أَتَذَرُ﴾ واقعًا على موسَى:

الإشارةُ إلى أنّ موسَى عليه السلام، سببُ هدايةِ قومِه وتَحرُّرِهم

وقولُه: ﴿مُوسَىٰ﴾ مفعول ﴿أَتَذَرُ﴾، أي: تتركُه للإفساد ولا تأخذُ على يده، وأسندَ فعلَ التّرك إلى موسى عليه السلام، مُظهرًا إيّاه مع أنّه لم يكن يعبدُ فرعون من قبلُ؛ لأنّه هو سببُه، والمقصودُ بذلك مَنْ كفرَ بفرعونَ، وآمن باللّه[4].

وَجْهُ ذكْرِ أشرافِ قومِ فرعونَ اسمَ (موسى) مُجَرّدًا:

تجريدُ التّسميةِ غرضُه التّحقيرُ والتّنقيصُ من شأنِه

أورد أشرافُ قوم فرعون - في سياق ما ظاهرُه النُّصحُ والمشورةُ له - اسمَ (موسى) عليه السلام مجرّدًا من أيّ لقبٍ بقصْدِ التّحقيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/57.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.

(3) الإندونيسّي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/419.

(4) قباوة، المفصّل، ص: 590.

والاستهزاءِ والتّنقيصِ من شأنِه ومنزلتِه، وإظهارِ الاستغناءِ عنه، وعدمِ الاعتبارِ له. فلم يسمّوه برسول اللّه، أو نبيِّ اللّه، أو حتى ساحرٍ أو كاذبٍ، بل ذكروه باسمه المجرّد فقط، دون أيِّ صفة تدلُّ على شرفِه أو عيبِه، وكان هذا من طريقة فرعونَ وأتباعِه في التّعاملِ مع موسى عليه السلام، فكثيرًا ما نادَوْه باسمِه فحسبُ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ [الإسراء: 101]، وقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩﴾ [طه: 49]، وقوله: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧﴾ [طه: 57]، ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]، ونحوِها.

نُكتةُ التَّعْبير باللّامِ على طريقِ المَجاز:

بِالغُلُوِّ في الافْتراءِ، بجَعْلِ تَركِ موسَى وقومِه لِعلّةِ الفسَادِ

قومُ موسى هم من آمن به، وأولئك هم بنو إسرائيل كلّهم ومن آمن منَ القِبط. واللام في قوله: ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾ لامُ التّعليل، وهو مبالغةٌ في الإنكار، إذ جعلوا تركَ موسى وقومِه مُعلّلا بالفساد، وهذه اللّام تسمّى لامَ العاقبة، وليست العاقبةُ معنًى من معاني اللام حقيقةً ولكنّها مجاز؛ شبّه الحاصلَ عقِبَ الفعل لا محالةَ بالغرض الذي يُفعلُ الفعلُ لتحصيله، واستُعيرَ لذلك المعنى حرفُ اللام عوضًا عن فاء التّعقيب كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]، والإفسادُ عندهم هو إبطالُ أصولِ ديانتِهم وما ينشأُ عن ذلك من تفريق الجماعةِ، وحثِّ بني إسرائيلَ على الحرية، ومغادرةِ أرض الاستعبادِ[1].

سِرُّ حذْفِ مفعولِ الإفسادِ، في قوله تعالى: ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾:

قد لا يُذكرُ المفعولُ به؛ للتّعميمِ أو إنزالِه مَنزلةَ اللّازمِ

والمرادُ بالإفساد ما يشملُ الدّينيَّ والدُّنيويَّ، ومفعولُ الفعل محذوفٌ للتّعميم، أو أنّه منزّلٌ منزلةَ اللّازم، أو يقدّرُ (يفسدوا): بدعائِهم النّاسَ إلى مخالفة فرعونَ وتركِ عبادتِه، أو الخوفِ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.

أن يقتلوا أبناءَ القِبط ويستحْيوا نساءَهم على سبيل المُقاصّةِ منهم، كما فعلوا هم ببني إسرائيلَ[1].

دَلالةُ (أل) التّعريفِ، في لفْظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ عهديّةٌ حضوريّةٌ، وهي مِصْرُ مملكةُ فرعون، وموطنُ سُكنى بني اسرائيل، ومحلُّ إقامتِهم[2]، فهي من إطلاق العامِّ المرادِ به الخصوصُ.

الأرضُ المعهودةُ، مــن إطــلاقِ الـعـامِّ المـرادِ به الخُصوصُ

تَوجِيهُ دَلالاتِ الفعْلِ ﴿وَيَذَرَكَ﴾:

أغــرَى المــلأُ فرعونَ، وأنكرُوا تركَ موسى على تمرُّدِه

قوله: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفٌ على ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾ فهو داخلٌ في التّعليل المجازيِّ؛ لأنّ هذا حاصلٌ في بقائِهم دون شكٍّ، ومعنى تركهم فرعونَ، تركُهم تأليهَه وتعظيمَه، ومعنى تركِ آلهتِه نبذُهم عبادتَها ونهيُهُمُ النّاسَ عن عبادتِها[3]، وهو إغراءٌ منَ الملأ لفرعونَ على موسى، وإنكارٌ أن يتركه مُقيمًا على مخالفتِه، والواوُ في قوله: ﴿وَيَذَرَكَ﴾: نائبةٌ عنِ الفاء، ونُصِبَ على جواب الاستفهام بالواو، والنَّصبُ بإضمار (أن) تقديره: أيكون منك تركُ موسى، ويكونُ تركُه إياك وآلهتَك[4]، أو عطفٌ على ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعْهم، وكان ذلك مؤدّيًا إلى ما دعوْه فسادًا وإلى تركِه وتركِ آلهته، فكأنّه تركَهم لذلك. وفيه إشارةٌ منَ الملأ إلى تخويف فرعونَ منِ انفضاضِ النّاس من حولِه، وسلْبِ مُلكه.

بَلاغةُ ائْتلافِ اللّفظِ مع المعنى في التَّعبير بالفعْلِ (يذرُ):

الفعْلُ (يذر) منَ الأفعالِ القُرآنيّةِ المُـفْـصِـحـةِ عن دَلالتِها بدِقّةٍ

بَلاغةُ ائْتلافِ اللّفظِ مع المعنى[5]، منَ الصّور البلاغيّةِ المندرجة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366، والآلوسي، روح المعاني: 9/28 - 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 2/396.
(5) ائتلاف اللفظ مع المعنى، أو موافقة اللفظ للمعنى، ويسمّى النّظمَ: وهو أن تكون الألفاظ موافقةً للمعاني، ولائقةً لمقصود الكلام، فتختارُ الألفاظُ الجَزلة والعباراتُ الشديدة للفخر والحماسة، وتُختار الكلماتُ الرقيقة والعبارات اللّينة للغزل ونحوه. يُنظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 319.

تحت المحسّنات المعنويّةِ، فقال هنا (يذرُ) ولم يقل (يدعُ)؛ لأنّ الأوّل يُستعملُ في مقام التّهديد والوعيد، لما فيه من معنى الدّفع والقذفِ، أمّا الثّاني فيُستعملُ في مقام الكُره والبغضِ، لما فيه من معنى التّوديع.

وَجْهُ القِراءاتِ القُرآنيّةِ في ﴿وَيَذَرَكَ﴾:

تَلوُّنُ الدّلالةِ في هذه الجُملةِ، بتَلَوُّنِ التّأويلِ المُستفادِ

قُرِئَ: (ويذرُك) بالرفع عطفًا على ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾، بمعنى: أتذرُه، وأيذرُك، يعني: تُطلقُ له ذلك، أو يكونُ استئنافًا، والجملةُ على تقدير الاستئناف معترضةٌ مؤكّدةٌ لمعنى ما سبق، أي: تذرُه وعادتُه تركُك، ولابدّ من تقدير (هو)، كما في احتمال الحال ليدلَّ على الدّوام، أو حالًا على معنى: أتذرُه وهو يذرُك وآلهتَك. وقُرِئَ: (ويذرْك) بالجزم، كأنه قيل: (يفسدوا، ويذرْك)، كقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾. وقُرِئَ: (ونذرَك)، بالنون والنّصب، أي: يصرفُنا عن عبادتك فنذرُها[1].

دَلالةُ تَقديمِ فعْلِ ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾ على ﴿وَيَذَرَكَ﴾:

تَغليبُ العِلّةِ العامّةِ على الخاصّةِ، من بيانِ هذه الآيةِ

المرادُ البدءُ بالعلّة العامّة وهي الإفسادُ، ثم أتبعوها بالخاصّة ليدلّوا على أنَّ ذلك التّركَ من فرعونَ لموسى وقومِه هو أيضًا يؤولُ إلى شيءٍ يختصُّ بفرعون، قدحوا بذلك غيظًا من موسى وقومِه، ليكونَ ذلك أبقَى عليهم؛ إذ هم الأشرافُ وبتركِ موسى وقومِه بمصر يذهبُ ملكُهم وشرفُهم[2].

نُكتةُ جمْعِ ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾:

تَعدُّدُ الآلهةِ مَلحوظٌ، في مختلفِ العُصورِ والأقطَارِ

و(الآلهة) جمع إله، ووزنُه على (أَفْعِلَة)، وكان القِبْطُ مشركين يعبدون آلهةً متنوّعةً منَ الكواكب والعناصرِ، وصوَّروا لها صورًا

(1) وهذه القراءات الثّلاث المذكورة من القراءات الشاذّة، ولم يُقرأ في المتواتر إلاّ بالياء والنَّصب. يُنظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/142 - 143، والآلوسي، روح المعاني: 9/29.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.

عديدةً مختلفةً باختلاف العصورِ والأقطار[1]. فقولُه: ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾ معبوداتُك، والظّاهرُ أنّ فرعونَ كان له آلهةٌ يعبدُها، أو أنَّ الإضافةَ هي على معنى أنّه شرع لهم عبادةَ آلهةٍ، وجعل نفسَه الإلهَ الأعلى، فقوله على هذا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: 24]، إنّما هو بمناسبةٍ بينَه وبين سواه منَ المعبودات[2].

دَلالةُ تَوجِيهِ القراءةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾:

تناوُبُ المعنى بين عـبـادةِ الـنّـاسِ فـرعـونَ، أو ما يَعبدُه فرعونُ

وقُرِئَ في الشاذِّ: (إلاهَتَكَ) أي عبادتَك، والتّذلّلَ لك[3]. وفُسِّرَ ذلك بأمرين، أحدُهما: أنَّ المعنى وعبادتَك، فيكونُ إذ ذاك مصدرًا، قال ابنُ عبّاس: "كان فرعون يُعبَدُ ولا يَعبُد"، والآخرُ: أنَّ المعنى: ومعبودَك، وهي الشَّمسُ التي كان يعبدُها، والشّمس تمسي الإلاهَةَ علمًا عليها ممنوعةَ الصرف[4].

سِرُّ تناوبِ اسْتعمالِ الفعلَيْن، على طريقةِ المُشاكلةِ، والجناسِ التّامِّ:

من بـديـعِ نظْمِ القرآنِ وتناسُقِ ألفاظِه، ما يُؤكِّدُ إعجازَه

في قولِه تعالى ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ فنُّ المشاكلة[5]؛ إذ إنَّ استعمالَ الفعل (تذرُ) بالنّسبة لفرعون فإنّه يعني التّواني عن عقاب موسى، وأمّا استعمال الفعل (يذرَ) بالنّسبة لموسى فإنه يعني التَّخلّي عن فرعون، وآلهته ليعبُدَ اللّه إلهًا واحدًا[6]، وهو جناس تامّ مماثل، تطابقَ فيه اللّفظان، واختلف المعنَيانِ.

فائِدةُ السّينِ، وتشْديدِ فعْلِ القتلِ ﴿سَنُقَتِّلُ﴾:

السّين في ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ حرفُ تسويفٍ يفيدُ توكيدَ وقوعِ الفعل، وقُرِئَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.
(5) المشاكلة: هي أن تذكرَ الشّيّءَ بلفظ غيره لوقوعه في صحبته. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 621.
(6) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/419.

تَوكيدُ الفعْلِ، مع النُّزوعِ إلى المُبالغةِ وشِدَّةِ الإجراءِ

المضارعُ (سَنَقْتُلُ) بالتّخفيف، وهي قراءةُ المدنيين، وابنِ كثير بفتح النون، وإسكانِ القاف وضمّ التّاء من غير تشديد، وقرأ الباقون ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بضمّ النّون وفتح القاف وكسر التاء وتشديدِها[1] على المبالغةِ في القتل مبالغةَ كَثْرةٍ، واستيعابٍ، وتدريجٍ متجدّدٍ. والمعنى: سنستمرُّ على ما كنّا عليه من تعذيبِهم وتقطيعِهم، وتقتيلِهم ما تناسلوا[2]، ونتعقّبُهم أين ما حلّوا كما كنّا نفعلُ من قبل؛ ليُعلمَ أنّا على ما كنّا عليه منَ القهرِ والغلبةِ، ولا يُتوهّم أنّه المولودُ الذي حكمَ المنجّمون، والكهنةُ بذهاب مُلكنا على يده[3]، وليُقتلَ رهطُه الذين يقع الإفسادُ بواسِطتهم. وإنّما لم يعاجلَ موسى وقومَه بالقتال؛ لأنّه كان مُلِىءَ من موسى رُعبًا[4].

وهذه الآية الكريمة تدلُّ على أنَّ فرعونَ ذبح أولادَ بني إسرائيل تذبيحتين:

التَّذبيحةُ الأولى: التي كانت سببًا لجعْلِ أمِّ موسى موسَى في التّابوت، كما هو مفصّلٌ في سور من كتاب اللّه، حيث قال لها: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: 7]، وخوفُها عليه، أي: من قتل فرعونَ للأولاد؛ حذرًا منه من ذلك الغلام الذي سيزول ملكُه على يديه.

وتذبيحُ الأولاد الثّاني: هو بعد أن جاءهم موسى نبيًّا من اللّه، كما صرَّح اللّه به هنا، وأوضحه في سورة غافر في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ [غافر: 25][5].

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/271.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/29.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.
(5) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/99.

إيثارُ لفظِ ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ على لفظِ (رِجَالَهُمْ):

لفظُ (الأبناءِ) يَشملُ من كان مولودًا منَ الذّكورِ، ومن سيُولدُ منهم

المرادُ بالأبناء الرّجالُ بقرينة مقابلتِه بالنّساء، والضّميرُ المضافُ إليه عائدٌ على موسى وقومِه، فالإضافةُ على معنى (من) التّبعيضيّةِ[1]، والتَّعبير بـ"الأبناء" فيه عمومٌ في اللفظ؛ ليشملَ من كان مولودًا منَ الذّكور، ومن سيولدُ منهم، وهو يقصدُ الإفناءَ والإبادةَ والتّطهيرَ العِرقي للنَّسْلِ الإسرائيليّ.

قال الرّازيُّ: "اتَّفَقَ المفسِّرون على أنَّ هذا التّهديدَ وقعَ في غيرِ الزَّمانِ الأوَّلِ"[2]. ويعني بالزَّمانِ الأوَّلِ: زمنَ وِلادةِ موسى عليه السلام، وإنّما عدلَ عن قتل موسى إلى قتل الأبناء؛ لعلْمِه أنّه لا يقدرُ عليه[3].

التَّعبيرُ عن فعْلِ ﴿وَنَسْتَحْيِۦ﴾، على طريقِ المبالغةِ والتّتْميم:

بَالغُوا في اسْتِبقاءِ النِّساءِ؛ للخدمةِ، وللتّسرِّي بهنّ

والاستحياءُ مبالغةٌ في الإحياء، فالسّين والتّاء فيه للمبالغة، وإخبارُه مَلَأَهُ باستحياء النّساء تتميمٌ لا أثرَ له في إجابة مقترح مَلَئِه؛ لأنّهم اقترحوا عليه أن لا يُبقيَ موسى عليه السلام وقومَه، فأجابَهم بما عزمَ عليه في هذا الشّأن، والغرضُ مِن استبقاء النّساء أن يتخذوهنّ سراريَ وخدمًا[4].

بَلاغةُ أُسلوب الطِّباقِ، والأُسلوبِ الحكيم:

الدّلالةُ على ذِلّةِ بني إسرائيلَ، وعدَمِ يقينِهم بأنّ موسَى موعودٌ به

في قولِه تعالى: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وقولِه: ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ طباقُ إيجابٍ بين (نقتّل)، و(نستحيي)، يُفصِحُ عن دلالة الرّبطِ المؤدّي إلى مزيدِ إيضاحِ المعنى، وبيانِه. وقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ منَ الأسلوب الحكيم، وإن صدر منَ الأحمق؛ لأنّ الجوابَ المطابقَ للملأ عن قولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾: إنّا سنقتلُه وقومَه، ونسبي ذراريَهم. ولو أتى بهذا الجواب لظهرَ عجزُه لبني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/342.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/146.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.

إسرائيل؛ لأنّه إذا ترك قتلَ الأبناء، وشرعَ في قتلِ الرّجال، لتوُهِّمَ أنّ ذلك للخوف منهم، وأنّ موسى عليه السلام هو الموعودُ، فلمّا صرح بالعَوْدِ إلى ما كانوا عليه منَ القهر: بإبقاءِ الرّجال، وقتلِ الأولاد، واستحياءِ النساء، دلَّ على ذلّةِ بني إسرائيل، وأنّ موسى عليه السلام غيرُ الموعودِ به. يعني: لا تلتفتوا إليه أيّها القِبطُ، وداوموا على ما كنتم عليه من قتل الأولاد، واستحياءِ النّساء، ولا تعتمدوا عليه، يا بَني إسرائيلَ، ولا تعتضدوا به، فأنتم بعدُ أذلّاءُ مقهورون[1].

مجيءُ الأفعالِ على صِيغةِ المضارع:

أدامَ عليهمُ العذابَ، بتَجدُّدِ فعْلِهم، واستمرارِ غَيِّهم

وعبّر عن أفعال العقوبةِ بالمضارع على إرادة تجديدِ الفعل، وإدامتِه، ومن ثمَّ ديمومةُ العقاب، وقدّمَ فعلَ التّقتيلِ على الاستحياءِ لأولويّته، وأهمّيته عنده بوصفِ الرّجال مصدرَ الخطورة، ومنبعَ التّهديد.

تَوجيهُ التّذييلِ في مُختتَمِ الآيةِ:

أوهمَ فرعونُ قومَه، أنّه لم يُعاقبْ موسَى لعدَمِ خوْفِه منه

الجملةُ الاسميّةُ ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ كالتّذييل، لما قبلَها[2]، ويُراد بها المنزلةُ والتَّمكّنُ منَ الدُّنيا، و﴿قَٰهِرُونَ﴾ يقتضي تحقيرَ أمرهم، أي: هم أقلُّ من أن أهتمَّ بهم[3]، كأنّه يوهمُ قومَه أنّه إنّما لم يحبس موسى عليه السلام ولم يمنعْه لعدم التفاته إليه، ولعدم خوفِه منه[4]، فغلبتُه لا أثرَ لها في مُلكنا واستيلائنا، ولئلّا يتوهّمَ العامّةُ أنّه المولودُ الذي تحدَّث المنجّمون عنه بذهابِ مُلكنا على يده، فيُثبّطَهم ذلك عن طاعتنا ويَدعوهم إلى اتّباعِهِ[5].

سِرُّ التّوكيدِ في الفاصلةِ، في هذه الآيةِ:

أكّد الجملةَ بـ(إنّ) وأضافَه إلى ضميره (نا) على طريق العظمةِ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/521.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/521.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/173.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.

مُلمحًا باستطاعتِه، وتمكّنِه، وأتى بفعل القهْرِ على صيغة اسم الفاعل للتّعبير عن تحقُّقِ الحدثِ، وتمثّله فيه وصْفًا لازمًا، ورسّخ هذا الثّبوتَ واللّزومَ صيغةُ الجملةِ الاسميّةِ؛ ليكونَ ذلك اعتذارًا منه لملَئِه عن إبطائِه باستئصال موسى وقومِه؛ بثًّا للطّمأنينة في قلوبِهم، وشفاءً لِما في صدورِهم من أحقادٍ، وضغائنَ على موسى ومن معه.

اجْــتِــمَــاعُ المُؤَكِّداتِ، اعتذارٌ مــن فـرعـونَ عــن إبـطـائِـه بـاسْـتِـئـصـالِ موسَى

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الفاصلةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ مستعملٌ مجازًا في التّمكّنِ منَ الشّيء، فهي فوقيّةٌ مجازيةٌ وليست حقيقيةً، فهي مستعارةٌ لاستطاعةِ قهْرِهِم؛ لأنَّ الاعتلاءَ على الشّيءِ أقوى أحوالِ التّمكّن من قهْرِه، فهي استعارةٌ تمثيليةٌ[1]، أوِ استعارةٌ تبعيّةٌ؛ إذ شبّهَ فوقيّةَ المكانةِ بفوقيّةِ المكان بجامعِ العُلوّ[2].

التَّعْبيرُ بالفَوقيّةِ عنِ الاستطاعةِ، وقُوّةِ التّسلُّطِ، والقَهْرِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يذَرُ)، و(يدَعُ)، و(يترك):

التّوديعُ: تركُ النّفس عنِ المجاهدة، وفلانٌ في دَعةٍ: إذا كان في خفضِ عيْشٍ، وأصلُه منَ التّرك، ومنَ الدَّعة، بحيث تركَ السّعيَ لطلب معاشِه لعناءٍ، وعُبِّر عنِ التّرك به في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضّحى: 3]، كقولك: ودّعت فلانًا، نحو: خلّيتُه. وتركُ الشّيءِ: رفضُه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا[3]، ويذرُ فلانٌ الشّيءَ، أي: يَقذفُه لقلّة اعتدادِه به، وهو التَّرْكُ؛ إذ هو مفارقةٌ للشّيء، وانفصالٌ، أو تخلٍّ عنه[4]، وهو أنسبُ لكمال مفارقةِ موسى عليه السلام لفرعونَ.

يــــذَرُ بمعنى يُفارقُ أو ينفصلُ أو يــتــخـلَّـى، وهــو هــنـا آثَـرُ مِـنَ الـلّـفْـظَـيْنِ الآخَرَيْنِ

يُزاد على ذلك: أنَّ (يذرُ) يُستعملُ في مقام التّهديد والوعيد،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/403.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/403.
(3) الراغب، المفردات: (ودع)، و(ترك).
(4) الراغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).

لما فيه من معنى الدّفع والقذفِ، أمّا (يدعُ) فيُستعملُ في مقام الكُره والبُغض، لما فيه من معنى التّوديع. فتأمّل معنى الأوّل في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥﴾ [الطور: 45] وتأمّلْ معنى الثاني في قولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحى: 3] والتّشديد فيه للمبالغة؛ لأنّ من ودّعك مفارقًا، فقد بالغ في تركك[1].

(1) أحمد الأمير جاهين، من صور البلاغة القرآنية في سورة الأعراف، بحث منشور - كلية الدراسات الإسلامية بأسوان، العدد الثاني، 2019م، ص: 163.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما سمع قومُ موسى قولَ فرعونَ وتضجَّروا منه، قال موسى لقومه: استعينوا باللّه واصبروا؛ تسكينًا لهم، وتسليةً[1]. فأوصاهم بالتَّوكّلِ والصّبرِ على البلاءِ والأذى، لنَيْلِ عاقبةِ التّقوى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾: العونُ: الظّهيرُ على الأمر[2]. والاستعانةُ: طلبُ العون[3]. وقد جاء من هذه الصيغة الأخيرةِ صيغةُ الطّلب، وصيغةُ المطلوب منه العَوْنُ. (المستعان): الظهيرُ؛ فهو يُقَوّي أي يُمدُّ بالقوَّة. ومنه الإعانةُ. وبهذا المعنى سائرُ ما جاء في القرآن منَ التّركيب[4].

المعنى الإجْماليُّ:

التّوكّلُ والاستعانةُ باللّه والصّبرُ، تَنالُ به الأمّةُ الميراثَ والتّمْكينَ في الأرضِ

لمّا نزل ببني إسرائيل ما نزل شَكَوا إلى موسى ﷺ ما حلَّ بهم فأوصاهُم بالاستعانة باللّه على فرعونَ وقومِه فيما نزل بهم منَ البلاء؛ فإنَّ اللّه هو الكافي لكم، واصبروا على ما نالَكم منَ المكاره في أنفسِكم وأبنائِكم إنَّ الأرضَ كلَّها للّه تعالى يورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ. وهذا إطماعٌ من موسى ﷺ لبني إسرائيلَ أن يُهلك اللّهُ فرعونَ وقومَه ويُملّكَ بني إسرائيلَ أرضَهم وبلادَهم بعد إهلاكِهم؛ فإنَّ النّصرَ والظَّفَرَ للمتّقين على عدوّهم، أو أراد الجنّةَ يعني إنّ عاقبةَ المتّقين الصابرين الجنّةُ[5]. ومرادُه ﷺ أنَّ العاقبة ستكونُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/29.
(2) ابن سيده، المحكم: (عون).
(3) الراغب، المفردات: (عون).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عون).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/238.

لكم بوراثةِ الأرض، ولكنْ بشرطِ أن تكونوا منَ المتّقين له تعالى بإقامةِ شرعِه، والسّيرِ على سُنّته في نظام خلقِه، وليس الأمرُ كما تتوهّمون ويتوهَّم فرعونُ وقومُه من بقاء القويِّ على قوّته، والضّعيفِ على ضعفه، أو أنَّ الآلهةَ الباطلةَ ضَمِنت لفرعونَ بقاءَ مُلكه، على عظمتِه وجبروتِه وظلمِه[1].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّ اللّه تعالى هو المرجعُ عند التَّحيُّر في الأمور؛ فلْيكن رجوعُكم إليه، وتوكّلُكم عليه، وتعرّضوا لنفحات يُسره؛ فإنّه حَكَم لأهل الصّبر بجميل العُقبى[2]. فبالاستعانة به، والصّبرِ تواجَهُ المصائبُ، وتُتجاوزُ النّوائبُ، وتنقضي الابتلاءاتُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ العُدول عنِ الوصْلِ إلى الفصْل:

إفادةُ شِبْه كَمالِ الاتّصال؛ بسببِ كَوْنِها واقعةً جوابًا لقوْلِ قومِه

أُخْليت جملةُ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ عنِ الواو وأُدخلت على التي قبلَها؛ لأنّها جملةٌ مُبتدأةٌ استئنافيةٌ بيانيّةٌ، وأمّا ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ فمعطوفةٌ على ما سبقَها من قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾[3]. وهي صورة من صور الفصل لشِبْه كمالِ الاتّصال؛ لكونها واقعةً جوابًا لقول قومِه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الذي أجابوا به عن وعيد فرعونَ، فكان موسى معدودًا في المُحاوَرة، ولذلك نُزِّل كلامُه الذي خاطب به قومَه منزلةَ جوابٍ منه لفرعونَ؛ لأنّه في قوّة التّصريح بقلّة الاكتراث بالوعيد، وبدفْعِ ذلك بالتوكل على اللّه.[4].

دَلالةُ مَعانِي حروفِ الجرِّ، في السِّياق:

اللّامُ للتّبليغِ، والباءُ للاستعانةِ، وكِلاهما مُهمٌّ في الإفادةِ مع غيره

واللّام في ﴿لِقَوْمِهِ﴾ حرفُ جرٍّ للتّبليغ، والباء في ﴿ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ﴾ حرف جرٍّ للاستعانة، أي: طلبُ العَونِ منَ اللّه.

(1) رضا، تفسير المنار: 9/71.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/559.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.

عِلّةُ عدَمِ نداءِ موسَى قَومَه، بقولِه: (يا قومِ) مُباشرةً:

يُلْحظُ في السّياق الكريم أنَّ قولَ موسى لقومه - موصيًا لهم بالاستعانة الرّبانيةِ -: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ مباشرةً، دون أن يناديَهم بقوله: (يا قوم)، كما ورد ذلك عنه ﷺ في عدد منَ المواقف، مثل: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة: 54]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾ [المائدة: 20]، وغيرهما؛ إذ يمكنُ أن يكون السّببُ في هذا التّوجيه المباشرِ الخالي منَ النِّداء هو أنه أراد أن يجعلَ كلامَه عامًّا لكلّ من يسمعُه من المؤمنين من قومه والكافرين من غيرِهم، وأن يبيِّنَ أنَّ هذه النّصيحةَ ليست خاصةً بقومه فحسبُ، بل هي عامةٌ لكلِّ من يريدُ الخيرَ والفلاحَ. وقد كان من دأبِ النّبيّ الكريم موسى ﷺ أن يدعوَ قومَ فرعونَ إلى الإيمان باللّه والتّوبةِ إليه، فربّما كان يرجو أن يهدي اللّهُ بعضَهم بكلامه المباشرِ دون تخصيصِه بقومه، على حدِّ قولِ القائلِ - سَهْلِ بنِ مالكٍ الفَزاري - في المثل المشهورِ: "إيّاكِ أعني واسْمعي يا جارَة".

إرادتُه أن يجعلَ كلامَه عامًّا لكلِّ مَن يَسْمعُه

سِرُّ حذْفِ مفعولِ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾:

جملة ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ عطفٌ على قول موسى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾، وحُذفَ متعلّقُه؛ ليعمَّ جميعَ مشمولاته، كانتظار فرَجِ اللّه ونصْرِه، الذي هو عبادةٌ، والصَّبرِ في المُناجزات[1].

إعْـمـامُ جميعِ المَـشْـمـولاتِ المُمكنةِ، المُدرجةِ في معنَى الصّبرِ

نُكتةُ تقْديمِ ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ على ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾:

قدَّمَ فعلَ الاستعانة باللّه، وأمرَهم بها أوّلًا؛ لأنَّ من عرفَ أنه لا مدبِّرَ في العالم إلا اللّه تعالى انشرح صدرهُ بنور معرفةِ اللّه تعالى، وحينئذٍ يسهلُ عليه أنواعُ البلاء؛ ولأنّه يرى عند نزول البلاء أنّه إنّما

تَربيَةُ النّفوسِ لِتحمُّلِ أنواعِ البلاءِ، منهجُ الأنبياءِ من غابرِ الزّمانِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442.

حصل بقضاء اللّه تعالى، وتقديرِه، واستعدادُه عند نزول قضاءِ اللّه يخفّفُ عليه أنواعَ البلاء(1).

بَلاغةُ التّعْبيرِ عن معنَى التّوكّلِ بالأُسلوبِ الحكيم:

خِطابُ موسَى تَطْمينٌ لِقُلوبِهم، وتبشيرٌ لهم بنصْرِ الله إيّاهم

قوله: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ منَ الأسلوب الحكيم، أي: ليس كما قال فرعونُ ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾؛ فإنَّ القهرَ والغلبةَ لمن صبرَ، واستعان باللّه، ولمن وعدَه اللّه توريثَ الأرض(2). وقد عبّر عنه بالتّوكّل في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: 84]؛ لأنَّ حقيقةَ التّوكّل طلبُ نصر اللّه وتأييدِه في الأمر الذي يُرغبُ حصولُه، وذلك داخلٌ في الاستعانة وهو يستلزمُ الصّبرَ على الضُّرّ لاعتقادِ أنّه زائلٌ بإذن اللّه، وخاطبَ موسى عليه السلام قومَه بذلك تطمينًا لقلوبهم وإيناسًا، وتبشيرًا لهم بنصر اللّه إيّاهم(3).

بَلاغةُ التّعْبيرِ بالكِناية:

تَرقُّبُ زوالِ اسْتِعبادِ فرعونَ لهم؛ بِشارةٌ وتَسْليةٌ

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾كنايةٌ تلويحيّةٌ(4) عن ترقّبِ زوالِ استعبادِ فرعونَ إيّاهم، قُصِدَ منها تسليتُهم، وصرفُ اليأس النّاشئَ عن مشاهدة قوّةِ فرعونَ وسلطانِه، بأنَّ اللّه الذي خوّله ذلك السّلطانَ قادرٌ على نزعِه منه؛ لأنّ مُلك الأرض كلِّها للّه، فهو الذي يقدّرُ لمن يشاء مُلكَ شيءٍ منها وهو الذي يقدّرُ نزعَه. فالمرادُ منَ الأرض هنا الدّنيا؛ لأنه أليقُ بالتّذييل وأقوى في التّعليل، فهذا إيماءٌ إلى أنّهم خارجون من مصرَ وسيملكون أرضًا أخرى(5). وقرأ الحسنُ ورويت عن حفصٍ - وهي قراءةٌ شاذّةٌ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/173.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/521.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59 - 60.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/524.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.

- (يورِّثُها) بتشديد الرّاء على المبالغة. وقُرئ (يورَثُها) بفتح الراء مبنياً للمفعول، والقائمُ مقامَ الفاعل هو (مَنْ يشاء)[1].

دَلالةُ (أل) التّعريفِ في لفْظِ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

يجوز أن تكون (أل) للعهد ويرادُ بها أرضُ مصرَ خاصّة، كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْأَرْضَ﴾، أو أن تكونَ للجنس بمعنى أرض الدنيا، فيتناولَ أرضَ مصر لأنّها من جنس الأرض[2]، وهو الأظهرُ بحسبِ ما مرّ في الفقرة البلاغيّة السّابقة، وقد يرادُ بها أرضُ الجنة[3].

الأرضُ يُرادُ بها أرضُ مصرَ، أو يرادُ بها أرضُ الدّنيا، وبها يتحدّدُ معنَى (ألْ)

معنَى اللّامِ في شِبْهِ الجُملة ﴿لِلَّهِ﴾:

اللّام في ﴿لِلَّهِ﴾ للمُلك؛ فالأرض ومن فيها، وما فيها مُلكٌ للّه فهو تعالى مالكُ المُلك، يتصرّف بها كيفما شاء، ويهبُ مُلكَها لمن يشاء، وينزعُه ممّن يشاء، وهو العزيز الحكيم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26].

اللهُ تعالى مالكُ الدّنيا بمَشمُولاتِها، ولا شَيءَ يَنِدُّ عن سُلطانِه

عِلّةُ الفصْلِ في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾:

وجملةُ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ للأمر بالاستعانة باللّه والصّبرِ، أي: افعلوا ذلك؛ لأنَّ حكمَ الظلم لا يدومُ، ولأجل هذا المعنى فُصلتِ الجملةُ[4].

التّذييلُ والتّعليلُ للأمْرِ بالاستعانةِ بالله

بيانُ التَّعْبيرِ بالتّعريضِ:

التّعريضُ في جملة: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾؛ لترغيب العبادِ بهذه الصّفات، فبدلَ أن يقول: كونوا عبادًا مؤمنين، ومتّقين. قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾، فهو تعريضٌ للحرص على الإيمان والتّقوى والتّحلّي بهما[5].

التّرغيبُ بالصّفاتِ المُدْرَجةِ في الآيةِ، والحِرْصُ على التّحلِّي بها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/425.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/143.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.
(5) أحمد الأمير جاهين، من صور البلاغة القرآنيّة في سورة الأعراف، ص: 166.

نُكتةُ التّعْبير بالموصول ﴿مَن﴾ في السِّياق:

يَتولّى الرّياسة بشرٌ

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ جاءت ﴿مَن﴾ موصولًا اسميًّا مخصَّصًا للعاقل مناسبًا لفعل الرّياسة، والمُلك، بوصف متولّيهما عاقلًا.

إيثارُ المَضارع في فعْلِ المشيئة ﴿يَشَآءُ﴾:

مَشيئةُ الله في إيـراث الأرض دائـمـةٌ، لأنّـه قيّومٌ في كَوْنِه

الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ دالٌّ على الإيراث في الحال، والاستقبال؛ فناسبَه المضارعُ الدّالُّ على دوام مشيئتِه فيها؛ تمكينًا للحُكم، ونزعًا.

سِرُّ تعريفِ العِبادِ بالإضافة في ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾:

نِسبةُ العِبادةِ إليـه تـعـالى، تَـشـريـفٌ وتَخصِيصٌ

تعريفُ ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾ في قوله: ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ بإضافتِه إلى ضميره تعالى تخصيصٌ، مع تشريف مآلِه إلى الاستحقاقِ، ولذلك بَعَّضَهُ بـ﴿مِنۡ﴾، وتخصيصُ التّعريف بالإضافة أقوى في الدّلالة وأبينُ. وحقَّقَ الرّبطَ في الجملة الجناسُ بين ﴿مَن﴾ الموصولةِ، و﴿مِنۡ﴾ الجارّةِ.

بَلاغةُ حُصولِ الغلبة بالتّذْييل، والكنايةِ الرّمْزية:

تَعليلٌ ثانٍ للأمر بـالاسـتـعـانـةِ والـصّـبـرِ، وحُصولُ الغلبةِ لِمـوسَى ومـن يَتْبَعُه

وجملةُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ، فيجوزُ أن تكون الواو اعتراضيةً، أي: عاطفة على ما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾ من معنى التّعليل، فيكونَ هذا تعليلًا ثانيًا للأمر بالاستعانة والصّبر، وبهذا الاعتبارِ أوثِرَ العطفُ بالواو على فصل الجملة مع أن مقتضى التّذييل أن تكون مفصولةً[1]. وقوله ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ إشارةٌ إلى ثبوت وصْفِ التّقوى فيهم. وفي الجملة كنايةٌ رمزيةٌ؛ إذ أُطلقَ اللّفظُ، وأُريدَ لازمُ معناه، وهو حصولُ الغلبة والفوزِ لموسى عليه السلام ومن يتبعُه، وهي كنايةٌ عن صفة، وفيها نوعُ خفاءٍ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/523 - 524.

دَلالةُ التّعريفِ بـ (ألْ) للفظِ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾:

التّعريفُ أمارةُ حُسْنِ الانتهاءِ، بأحْسَنَ من أوّلِه

تعريفُ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ باللام يرادُ به انتهاءُ أمرِ الشّيء بأحسنَ من أوّله، ولعلَّ التّعريفَ فيها من قبيل العِلْم بالغلبة. وذلك لأنّ كلَّ أحد يودُّ أن يكون آخرُ أحواله خيرًا من أوّلها لكراهة مفارقةِ المُلائم، أو للرّغبة في زوال المُنافرِ، فلذلك أُطلقتِ العاقبةُ معرفةً على انتهاء الحال بما يسرُّ ويُلائمُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: 132]. فالمرادُ بالعاقبة هنا عاقبةُ أمورهم في الحياة الدّنيا ليناسبَ قولَه ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾[1]. وهي بِشارةٌ بأنّ الخاتمةَ المحمودةَ للمتّقين منهم ومنَ القِبط، وأنّ المشيئةَ متناوِلةٌ لهم.

تَوجيهُ قِراءةِ النَّصب في ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾:

من بَديعِ التّقابُلِ اللّفظِيِّ في التّعْبيرِ القُرآنيِّ، ما يخدمُ المعنى ويُجَلِّيه

وقُرِئَ (والعاقبةَ) بالنّصب، عطفًا على الأرض[2]، و﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ خبرُها، فيكونُ قد عطفَ الاسمَ (العاقبة) على الاسم ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾، والخبرَ ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ على الخبرِ ﴿لِلَّهِ﴾، فهو منْ عطف الجُمل[3]، وهو من لطيفِ التّقابل اللّفظيِّ في التّعبير القرآنيِّ.

بَلاغةُ عُمومِ جُملتَي الفاصلةِ:

عُمومُ اللّفظِ تَذْييلٌ للكلامِ، حِرصًا على تَحقيقِ الوصْفِ

جيءَ بجُملتيْ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بلفظين عامّيْن، هما: ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾، و﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، لتكونَ الجملتان تذييلًا للكلام، وليحرصَ السّامعون على أن يكونوا منَ المتّقين. وقد عُلم من قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أنَّ من يشاءُ اللّه أن يورثهم الأرضَ همُ المتّقون إذا كان في النّاس متّقون وغيرُهم، وأنّ تمليكَ الأرض لغيرهم إمّا عارضٌ، وإما لاستواءِ أهلِ الأرض في عدمِ التّقوى[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/143، وهي قراءة شاذة تُنسب لابن مسعود رضي الله عنه.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/272.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.

إيـقـاعُ أمْـرَيـن، وبِـشـارتَـين، في سِياقٍ واحدٍ

بَديعُ المُقابلةِ اللّفظيةِ، والمَعنويّةِ:

أمّا اللّذان أمرَ موسى ﷺ بهما فالأوّلُ: الاستعانةُ باللّه تعالى، والثاني الصّبرُ على بلاء اللّه، وأمّا اللّذان بشّرَ بهما فالأوّلُ قولُه إنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده وهذا إطماعٌ من موسى ﷺ قومَه في أنْ يورثَهم اللّهُ تعالى أرضَ فرعونَ بعد إهلاكه بما يتضمّنُه معنى (الإرث) من جعْلِ الشّيء للخَلَف بعد السَّلَف، والثّاني قولُه: ﴿وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ويحتملُ المرادُ أمرَ الآخرة فقط، أو أمرَ الدنيا فقط: وهو الفتحُ، والظَّفَرُ، والنّصرُ على الأعداء. ويحتملُ مجموعَ الأمرين[1].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/173.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين وصيّةِ موسَى لقومِه، وردِّه بأنّ ما اسْتَبطَؤوه منَ النّصرِ قريبٌ

لمّا تشوَّف السّامعُ إلى ما كان من جوابهم، أشار تعالى إلى أنَّ قلقَهم كان وصل إلى حدٍّ لا صبرَ لهم معه بقولِه مستأنفاً: ﴿قَالُوٓاْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُوذِينَا﴾: الهمزة، والذّال، والياء أصلٌ واحد، وهو الشّيء تتكرَّهُهُ ولا تَقِرُّ عليه. تقول: آذَيْتُ فلاناً أوذيه[2]، مَعْنويًا بالقول المؤلم، وحسيًّا بالضرب ونحوِه، وكلُّ ما جاء في القرآن منَ (الأذى والإيذاء) فمعناه الإيلامُ النّفسيُّ (التكرّه)، أو البدنيُّ غيرُ المُبَرِح[3].

2) ﴿يُهۡلِكَ﴾: الهاء واللام والكاف: يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط. ومنه الهلاك: السُّقوط، ولذلك يقال للميت هَلَكَ[4]. والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يصيرُ عاقبتُه إلى الهَلاكِ[5]. وهو على ثلاثة أوجهٍ: افتقادُ الشّيء عنك، وهو عند غيرك موجودٌ، وهلاكُ الشّيء باستحالةٍ وفسادٍ، والموتُ[6].

وقد استعمل القرآن لفظَ الهَلاك في الموت المُعتاد، أي: لا أخذَ عذاب، وفي معنى الإفناء مؤاخذةً[7]، وهو معنى اللّفظة في الآية المباركة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/88.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(5) الخليل، العين: (هلك).
(6) الرّاغب، المفردات: (هلك).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هلك).

3) ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ﴾: الخاء واللام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها: أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، وهو: الخَلَف، أي: ما جاء بعدُ. ويقولون: هو خَلَفُ صِدْقٍ من أبيه، وخَلْف سَوْءٍ من أبيه(1).

فخلفَ فلانٌ فلانًا، قام بالأمر عنه؛ إما معه وإما بعده. والخليفةُ: مَنِ استُخلف مكانَ مَنْ قبلَه، وقام مقامَه، وناب عنه إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموتِه؛ وإما لعجزه؛ وإما لتشريف المستخْلَف. وعلى هذا الوجه الأخير استخلف اللّه أولياءَه في الأرض. وإنَّما سُميِّت الخلافةُ خلافةً؛ لأنَّ الثّاني منَ الخلفاء يَجيءُ بَعد الأوّلِ قائماً مقامَه. والخالِفةُ: الأمّة الباقية بعد السّالفةِ(2)، وهو معنى لفظةِ الاستخلاف في الآية الكريمة.

المعنى الإجْماليُّ:

أثـرُ الأنـبـيـاءِ في التّثبيتِ، يَظهرُ في لحظاتِ فُتورِ الـهِـمَـمِ لـدَى الأُممِ

استذكر قومُ موسى ما أصابهم من الأذى على يد فرعونَ وملئِه، وهو ما لحقَهم منَ الاستعباد، وقتلِ الأولاد، وتكليفِهم الأعمالَ الشّاقةَ عليهم في خدمة فرعونَ، وما توعَّدهم به بعد بعثةِ موسى منَ الإذلال، والإبعادِ، والتّهديد بالتّقطيع والصَّلْب وقتلِ الأبناء، وكأنّهم أرادوا التَّعريض بنفادِ صبرهم، وأنَّ الأذى الذي مسّهم بعد بعثةِ موسى لم يكن بدايةَ الأذى، بل جاء بعد طولِ مدّةٍ منَ الإنهاك والتَّنكيل، فلذلك جمعوا في كلامهم ما لَحقَهم قبل بعثةِ موسى عليه السلام. ولا يدلُّ قولُهم ذلك على كراهة مجيء موسى؛ لأن ذلك يؤدّي إلى الكفر وإنّما قالوه؛ لأنّه كان وعَدَهُم بزوال المضارِّ عنهم، فظنّوا أنها ستقعُ على الفور، فقولُهم ذلك استعطافٌ لا نُفْرةٌ. فأجابهم عليه السلام بصيغة الرّجاء منَ اللّه ليقوّي قلوبَ أتباعِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلف).

فيصبروا على الأذى، فإنَّ المرجوَّ من فضل ربّكم أنْ يُهلك عدوَّكم الذي سخّرَكم وآذاكم بظُلمِه، ويجعلَكم خلفاءَ في الأرض التي وعدَكم إياها، ويمنعُكم فرعونُ منَ الخروج إليها، فينظرَ سبحانه كيف تعملون بعد استخلافِه إيّاكم فيها؛ هل تشكرون النّعمةَ أم تكفرون؟ وهل تُصلحون في الأرض أم تُفسدون؟ ليجازيَكم في الدّنيا والآخرة بما تعملون[1].

وتُرشدُ الآية الكريمة: إلى أنَّ المتصرّف الأوحدَ في هذه الأرض هو اللّه تعالى، الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ، وهو الذي يورثها مَنْ يشاء مِنْ عباده، والعاقبةُ الحسنةُ التي ينتهي إليها التّنازعُ بين الأمم للمتّقين، الذين يراعون سُنَنه في أسباب إرثِ الأرضِ كالاتّحاد، وجمعِ الكلمة، والاعتصامِ بالحقّ، وإقامةِ العدل، والصّبرِ على المكاره، والاستعانةِ باللّه، ولا سيما عند الشّدائدِ، ونحوِ ذلك مما هدى إليه وحيُه، وأيّدتْه التّجاربُ[2]. وعلى المسلم أنْ يَستبشرَ ويتفاءلَ بعد أن وثقَ بربّه، وسلَّم إليه مقاليدَ أمره؛ لأنّه تعالى لا يأتي منه لعباده إلّا الخيرُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

قَصْدِيّةُ الفصْلِ بالاستئنافِ البيانيِّ في الآيةِ الكريمةِ:

وَجْهُ الفصْلِ على طريقِ الحكايةِ، أو شِبْهِ كمالِ الاتّصال

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، حكايةُ جوابِ قوم موسى إياه، فلذلك فُصلت جملةُ القول على طريقة المُحاوَرة، وهذا الخبرُ مستعملٌ في الشّكاية واسْتِثارَتِهم موسى ليدعوَ ربّه أن يفرّج كربَهم[3]، أو هو من قبيلِ شبْهِ كمالِ الاتّصال جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ في الجُملة السّابقة مفادُه: ماذا قالوا؟ ولهذا فُصلتْ عمّا قبلَها.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/368، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/72، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61.

(2) رضا، تفسير المنار: 9/71.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61.

سِرُّ التَّعْبير بالفعْلِ المَبْنيِّ للمجهول ﴿أُوذِينَا﴾:

بيانُ قوّةِ الأذَى الّذي أصابَهم، والحَيْدَةِ عن تَعْيينِه

عبّر بالفعل المبنيّ للمجهول ﴿أُوذِينَا﴾؛ لكونِ مرجعِ الأذى ونوعِه غيرَ معيَّنٍ، وللتّعبير عن قوّة الأذى، وهو ما لحِقَهم منَ القتل والاستعباد، وتكليفِهم الأعمالَ الشّاقة عليهم في خدمة فرعونَ، وما توعَّدهم به بعدَ بعثةِ موسى من تقطيع الأيدي والأرجل من خلافٍ والصّلبِ على جذوع النَّخل، وقتلِ الأبناء وإبقاءِ النّساء أحياءَ؛ للخدمة والامتهانِ.

نُكتةُ التَّعريض بنَفادِ الصّبرِ، بعْدَ طُولِ القَهْرِ:

الدّنيا امتحانٌ لا ينفعُ معه إلّا الصّبرُ الجميلُ

وكأنّهم أرادوا التَّعريض بنفاد صبرِهم، وأنَّ الأذى الّذي مسّهم بعد بعثة موسى لم يكن بدايةَ الأذى، بل جاء بعد طول مدّة في الأذى، فلذلك جمعوا في كلامِهم ما لحقَهم قبل بعثة موسى[1].

بَديعُ التّناوُبِ في اسْتِعمالِ: (الإتيانِ)، و(والمجيءِ):

قَصْدُ الإطنابِ، والإيماءُ إلى اعتبارِ الحُصولِ، أو قصْدِه

لمّا كان الإتيانُ هو المجيءُ بسهولة، فهو أخصُّ من مُطلق المجيءِ، فعبّروا عنه ليجريَ مجرَى التّحزّن؛ لعدم الاكتفاءِ بما كنّى لهم عليه السلام لفرطِ ما عراهُم، وفظاعةِ ما اعتراهم، والمقامُ يقتضي الإطنابَ؛ فإنَّ شأن الحزينِ الشّاكي إطالةُ الكلام رجاءَ أن يُطفئَ بذلك بعضَ آلامه، أو هو استبطاءٌ منهم لما وعدَهم عليه السلام منَ النّجاة والظّفرِ، والأوَّل أولَى[2].

وذكرَ المجيءَ بعد الإتيان للتّفنّن، والبعدِ عنِ التّكرار اللَّفظيِّ، وكراهةَ إعادةِ اللّفظ؛ إذ جعل الفعلَ المعبّرَ عنه حين علّق به (قبل) بصيغةِ المضارع المُقترنِ بـ (أنْ) الدّالّة على الاستقبال والمصدريّة؛ لمناسبة لفظِ (قبل) لأنّ ما يضافُ إلى (قبل) مستقبلٌ بالنّسبة لمدلولِها، وجعلَ حين علِّق به (بعد) بصيغة الماضي المقترن بحرف

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/88، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/30.

(ما) المصدريّةِ؛ لأنَّ (ما) المصدريّةَ لا تفيدُ الاستقبالَ ليناسبَ لفظَ (بعد)؛ لأنّ مضافَ كلمةِ (بعد) ماضٍ بالنّسبة لمدلولِها(1).

لفظُ (المجيء) أعمُّ منَ لفظِ (الإتيان) في السِّياقِ:

يُعبّر بالإتيان باعتبارِ القصْدِ غيرِ المُتحقّقِ، وبالمجيءِ بعكْسِ ذلك

وهذا الصّوغُ البيانيُّ يتعدَّى قصدَ التّفنّن، وكراهةَ التّكرار إلى قصديّةِ ائتلافِ اللّفظ، وتناسُبِهِ في سياق ورودِه بمقتضَى المعنى اللّغويِّ، ذلك أنَّ المجيءَ أعمُّ منَ الإتيان، ويقال اعتبارًا بالحصول، أما الإتيانُ فيقال باعتبار القصْدِ وإنْ لم يكن منه حصولٌ(2)؛ ولذلك عبّر بالإتيان باعتبارِ القصْدِ غيرِ المُتحقّقِ، وناسبَه دلالةُ الاستقبال المتحصّلةُ من صيغةِ المضارع المقترنِ بـ (أن)، وعبّر بـ (المجيءِ) لكونِ مجيءِ موسى عليه السلام قد تحقّق حصولُه، وناسبَه صيغةُ الماضي الدّالُّ على تحقّقِ وقوعِ الفعل، والمقترنِ بحرف (ما) المصدريّةِ غيرِ المفيدةِ للاستقبال، فضلًا عن أنّهم قد عانَوْا بعد مجيءِ موسى من صنوف التّهديد، والوعيدِ بالعذابِ ما هو أشدُّ ممّا عانَوْه قبل مجيئِه، فناسبَ لفظُ (المجيءِ) شدّةَ الظّرف المُصاحبِ للتّصديق بموسى عليه السلام، والكفرِ بفرعونَ من وعيدٍ بالتّقطيع، والصّلب، وتقتيلِ رجالِهم، واستحياءِ نسائهم(3)، ومن ثمَّ قهرَهم، وناسبَ لفظَ الإتيانِ المترتّبَ على ما هو أخفُّ منَ العقوبات(4).

بَلاغةُ التَّعْبير بالطِّباقِ، في السِّياقِ:

تَحقّقَ به تأكيدُ عِظَمِ المُعاناة، واسْتِمراريّةِ الأذَى

قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ طباقٌ مع ﴿وَمِنۢ بَعۡدِمَا جِئۡتَنَاۚ﴾(5)، تحقَّق به تأكيدُ استمراريّةِ الأذى هذا الأمدَ البعيدَ؛ إيماءً بشدّة وقعِه عليهم، وعزَّز الطّباقُ تبيينَ المعنى بصورةٍ أوضحَ وأقوَى، ورسّخ هذا المعنى ما أدّاه التّقابلُ بين كلماتِ الجُملتين في سياق

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61 - 62.
(2) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) وقد سرد أبو حيّان في البحر المحيط: 4/368، صنوفَ الأذى الّذي تعرَّضوا له بمزيد تفصيل وتوضيح.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/368.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/115.

التَّعبير من إحداثِ نوعٍ منَ التّداعي النّفسيِّ المُستدرِّ للتعطّف، ولذلك ناسبَه تعبيرُ موسى ﷺ بفعل الرّجاء ﴿عَسَىٰ﴾، وإسناد لفظِ الرّبِّ إليهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ تخصيصًا، وتشريفًا، وتسليةً، فلا يدلُّ قولُهم على كراهةِ مجيءِ موسى ﷺ، أو أنه يستدعي نفوسًا نافرةً، لسلوك بني إسرائيلَ هذه السّبيلَ في غير قصّةٍ[1]؛ لأنَّ ذلك يؤدّي إلى الكفر، وإنّما قالوه؛ لأنّه كان وعَدَهم بزوال المَضارِّ، فظنّوا أنّها ستزولُ على الفور، فقولُهم ذلك استعطافٌ لا نُفْرةٌ[2]، بل يمكنُ أنْ يكونَ قصدُهم الاعترافَ باتّصافهم بالصّبر مطلقًا، ومساواةَ حالِهم في ذلك قبل مجيئِهم كحالِهم بعد مجيئِه، فأخبروا أنّ شأنَهم وديدنَهم الصّبرُ[3].

نُكتةُ التَّعْبير بفعْلِ الرّجاءِ ﴿عَسَىٰ﴾:

التّأدُّبُ مع ذي الجلالِ، سببٌ في التّمكينِ والاسْتِخلافِ في كلِّ حالٍ

ساق الكلامَ مساقَ الرّجاء دون الجزم تأدّبًا مع اللّه تعالى، أو للجريِ على سُنن الكُرماءِ. ودونَ التّمنّي لكونه طلبًا لفعلٍ محبوبٍ ممكنٍ مرجوِّ الحصول، ويوشكُ أن يقعَ، وليس مستحيلًا، بل هو في مثل هذا الموضع قطعٌ في إنجاز الموعودِ والفوزِ بالمطلوب، والغايةُ دفعُ الاتّكال على أعمالِهم؛ ليزدادوا منَ التّقوى والتّعرّضِ إلى رضى اللّه تعالى ونصْرِه، فضلًا عمّا تقدَّمَ من معنى إثابتِهم، وتأنيسِهم على صبرهم[4]. وفيه تحضيض لهم على العزمِ على الشّكر، عند حلول النِّعم، وزوال النِّقم[5].

فعسى للتّحقيق فهو تصريحٌ بما رمزَ إليه منَ البِشارة من قبلُ وكشفَ عنه، وهو إهلاكُ فرعونَ واستخلافُهم بعدَه في أرض

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/368.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/243.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4309.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/460.

مصرَ، ولعلّه أتى بفعل الطّمع لعدمِ جزمِه بأنّهم المُستخلَفون بأعيانِهم أو أولادُهم[1].

بَلاغةُ إضْمارِ الفاعلِ مُقدّمًا بلفظِ ﴿رَبُّكُمْ﴾:

تَخصيصُ القُدْرة عـلى الإهـلاكِ والاسْـتِـخـلافِ باللهِ وحدَه

أُضمر الفاعلُ مع فعْلَي: الإهلاكِ، والاستخلافِ، استغناءً بالمذكور مُقدَّمًا بلفظِ ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ لتخصيص القُدرة على ذلك به وحدَهُ. وفي ذلك استتمامٌ لأدب الخطابِ النّبويِّ من موسى عليه السلام مع اللّه ﷻ الذي ابتدأه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمَصدَرِ المُنَسَبِك:

تـأكـيـدُ تـحـقُّـقِ الـجـزاءِ، وبيانُ قُوّةِ اللهِ في المَنْعِ والعطاءِ

عبَّر عن فعل الإهلاك بالمصدرِ المُنسبكِ: ﴿أَن يُهْلِكَ﴾؛ إيماءً بكونِه في حُكم المُتحقِّق، فضلًا عن بيان قوّته.

سِرُّ نِسبةِ العَدوِّ إلى القومِ ﴿عَدُوَّكُمْ﴾، بِصيغةِ الجمْعِ:

بـنُـو إسـرائـيـلَ هـمُ المُـتـضـرّرُون مـنَ الـتّـعـذيـبِ الـفِـرعـونـيِّ ولم يَنتصحوا

نسبَ عداوةَ فرعونَ وملَئِه إليهم بقوله: ﴿عَدُوَّكُمْ﴾، معبّرًا عنه بوصفِ الجمع (العدوّ) للتّكثير؛ لكونِهم المُتضرّرينَ الأكبرَ، استعبادًا، وإذلالًا، وتعذيبًا، وعقوباتٍ، والأهمُّ من كلِّ ذلك انحرافُ عقائدِهم بعبادة غيرِ اللّه الواحدِ الأحدِ؛ فهو الخُسرانُ الأعظمُ[2].

عِلّةُ اصْطِفاءِ لفْظِ ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾:

تأكيدُ ما سوفَ يـكـونُ، حـالـةَ الـطّـاعـةِ للّه، وفـيـه الـتّـسـلـيّـةُ لمن يَهتدِي

قصدَ إلى لفظِ (الاستخلاف) عنِ اللّه في مُلك الأرض، وإقامةِ الخلافة، بالسين والتّاء لتأكيد الفعلِ، أي: جعلَهم أحرارًا غالبين ومُؤسّسين مُلكًا في الأرض المقدّسةِ[3].

وفيه تصريحٌ بما كنّى عنه، وتوكيدٌ للتّسلية على أبلغِ وجهٍ، وفيه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/368.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.

إدماجُ معنى من عادَى أولياءَ اللّٰه تعالى فقد بارزه بالمحارَبةِ[1]، وحقَّ عليه الدَّمارُ، والخسارُ[2].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالمُقابلةِ في السِّياقِ الحكيم:

المُقابلةُ التّركيبيّةُ من حُسْنِ النَّظْمِ، وبديعِه

في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من بديع المقابلةِ التركيبيّةِ، والتّناسُبِ مع الآية الكريمة السّابقةِ لها ما فيه؛ فقولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ مناظرٌ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾، وقولُه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُناظِرٌ إلى قولِه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿كَيْفَ﴾:

الاسْتِفْهامُ لطلبِ تعْيين الحالِ، أو دونَه للدّلالةِ على مُجرّدِ الكيفيّةِ

يجوزُ في ﴿كَيْفَ﴾ كونُها استفهامًا لطلبِ تعيينِ الحالِ منصوبةً على المفعول المطلق النائبِ عن مصدر، وعملُها بيانُ النّوع، والتوكيدُ، والتّقديرُ: أيَّ عملٍ تعملون. ويجوزُ كونُها مجرّدةً عن معنى الاستفهام دالّةً على مجرّد الكيفيّة، فهي مفعولٌ به لـ ﴿فَيَنظُرَ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6]، وقولِه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَٓيَٰتِ﴾ [المائدة: 75][4].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المُضارِعِ:

تَجدُّدُ الحدَثِ في المستقبَلِ، تحريضٌ على الاستكثارِ منَ الطّاعةِ

جاء بالفعلين في الآية الكريمة: ﴿فَيَنظُرَ﴾، و﴿تَعْمَلُونَ﴾ مضارعَيْن؛ لكونِهما ممّا يستلزمُ التّجدّدَ في الحدث مستقبلًا، والمعنى: التّحذيرُ من أن يعملوا ما لا يُرضي اللّٰه تعالى، والتّحريضُ على الاستكثار منَ الطّاعة ليستحقّوا وصفَ المتّقين، تذكيرًا لهم بأنّه عليمٌ بما يعملونه[5]، وهو سبحانه لا ينظرُها ليعلمَها - حاشا

(1) فيه إشارة إلى الحديث القدسيّ، الذي يقول فيه الله سبحانه: «مَن عادى لي وليًّا فقَدْ آذَنْتُه بالحَرْبِ». البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (6502).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/30.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.

(4) قباوة، المفصّل، ص: 591، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.

اللّه - فهو عالمُها، ولكنّه لا يريدُ أن يحكُمَ بعلْمِه على خلقه، ولكن يريدُ أن يحكُمَ على خلقِه بفعلِهم، وبما يظهرُ للنّاس مِنْ سابقِ علمِه، وسبحانه عالمٌ أزلاً بكلِّ من يَهدي ومن يَضل[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ليتَ)، (عسَى):

عسَى تُفيدُ الرّجاءَ، و(ليتَ) تُفيدُ التّمنِّي، والرّجاءُ أقوَى مِنَ التّمنّي

التّمنّي: أن تطْلُبَ أمراً مستحيلاً أو يكونَ في الحصول عليه عُسْرٌ، ولكنّك تريدُ الإشعارَ بحبّك له فقط، فأنت إذا قلتَ: ليت الشبابَ يعودُ، فهذا أمرٌ لا يكونُ، ولكنّك تعلنُ حبّك لمرحلة الشّباب، وقُصارى ما يُعطيه أسلوبُ التمنّي: أنْ يُعْلِمنا أنّك تحبُّ هذا المتمنَّى. لكن هل يتحقّقُ، أو لا يتحقّقُ، فهذه ليست واردةً.

ومعنى الرّجاء: أنَّ ما بعدها يكونُ مرجوَّ الحصول، فهو شيءٌ محبوبٌ يوشكُ أن يقع. وهكذا نعرفُ أنَّ الرجاءَ أقوى منَ التّمنّي، وأداةُ التّمنّي (ليت)، وأداةُ الرّجاء (عسى)، فإذا قلت: عسى اللّه أن يُكرمَك فهذه أقوى؛ لأنّ ربّنا لا يُعجزُه شيءٌ عن إكرام إنسانٍ، فسُبحانه من ناحية القوّة له مطلقُ القُدرة فلا شيءَ يُعطّلُه، أو يسْتَعْصي، أو يتأبّى عليه، فإذا ما قال الحقُّ عن نفسِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ فقد انتهتِ المسألةُ، وتقرّر الوعدُ، وتحقّقَ، وهذا ما يُقال عنه رجاءٌ محقّقٌ. وأقوى ألوانِ الرّجاء أنْ يَعِدَ الحقُّ بالإكرام، أو بالرّحمة. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2]، فـ«عسى» من اللّه واجبٌ؛ لأنّ الكريم إذا أطمعَ في خيرٍ فهو بمنزلةِ الوعدِ منه؛ لتعلُّق النّفسِ به، و(عسى من اللّه) في القرآن تعني التَّحقيقَ؛ كما قال ابنُ عباس ﵄: "(عسى) منَ اللّه واجبٌ"[3].

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4310.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4308 - 4309.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 3/1018، والطّريفي، التّفسير والبيان لأحكام القرآن: 2/908.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]

العَلاقةُ بين ظُلْمِ آل فرعونَ، وجَريانِ سُنّةِ الله باستِدراجِهم للهلاكِ الماحق

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآية شروعٌ في تفصيلِ مبادي الهلاكِ الموعودِ لفرعونَ وقومِه، وإيذانٌ بأنّه تعالى لم يُمَهِلْهم بعد ذلك، ولم يكونوا في أمنٍ ودَعَةٍ، بل رُتّبت أسبابُ هلاكِهم، فتحوّلوا من حالٍ إلى حالٍ، إلى أنْ حلَّ بهم عذابُ الاستئصالِ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: السَّنَةُ: العامُ القحطُ، وهو: الجَدْب، وأكثرُ ما تستعمل السَّنةُ في الحول الذي فيه الجدبُ، يقال: أَسْنَتَ القومُ: أصابتهم السّنةُ، وفُسِّرتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة بالقُحوط، والأزمةِ، والجدبِ، حَتَّى ذهبت ثمارُهم، وذهب من أهل الْبَوادي مَواشيهمْ[2].

وهذا هو اللّفظُ الوحيدُ من بين مفردات التّركيب القرآنيةِ الذي يقضي السّياقُ بكونِه بمعنى القحط، والمقصودُ ضرورةً (زمنُ القحط)؛ لأنَّ القحطَ لا يتبيّنُ إلا بمرور فصلٍ منَ العام يُخلفُ فيه المطرُ والزرعُ معتادٌ حصولهُما، فكلمة سَنة معناها (زمنُ القحط)، ثم أُطلق لفظُ سَنةٍ عن قيد القحطِ واستُعمل بمعنى الزّمن ثمّ الحولِ، وسائرُ مفرداتِ التّركيب القرآنيةِ هي السّنةُ بمعنى الحولِ، وجمعِها[3].

2) ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: الثاء والميم والراء أصلٌ واحد، وهو شيءٌ يتولّد عن شيءٍ متجمّعًا، ثم يُحمَلُ عليه غيرُه استعارةً. فالثَّمَر معروفٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/263.

(2) ابن سيده، المحكم: (تسع)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سنه).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سنه).

هو: حملُ الشّجر[1]، وهو: اسمٌ لكلِّ ما يُتَطعّمُ من أحمال الشّجر، وما ينعقدُ على أطراف الشّجرِ من حَمْله إذا بلغ يَنْعَه. ويقال لكلِّ نفعٍ يصدرُ عن شيءٍ: ثمرةٌ، وليس في القرآن منَ التّركيب إلا كلماتُ (ثمرة)، (ثَمَر) (ثمرات) (أثمُر)، وكلُّها يعني بها الحَبَّ الذي يُحصدُ منَ الزرع، أو الجَنَى الذي يُجْنَى من شجر الفاكهةِ ونحوه[2].

3) ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: الذّال والكاف والراء أصلان، أحدُهما: ذَكَرْتُ الشّيءَ، خلافُ نسيتُه، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيْءِ وتَذكُّرُه، ثم حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسان، أي: جَرْيُ الشّيءِ على لسانك[3]. والذِّكْرُ: ما ذكرْتَه بلسانك وأظهرْتَه. والذِّكْرُ: الصَّلاةُ للّه تعالى، والدعاءُ، والثّناءُ، والذكْرُ قِراءَةُ القُرْآن، والذِّكْرُ: التّسبيحُ، والذِّكرُ: الشُّكْرُ، والذِّكْرُ: الطّاعَةُ[4]. ويأتي الذّكرُ بمعنى الوعظِ؛ لأنّه إذا تذكَّرَ قد يزدجرُ[5]، ويحتملُ لفظُ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ جُماعَ هذه المعاني.

المعنى الإِجْماليُّ:

الـشّــروعُ في تفْصيلِ صُورة الهلاكِ الموعودِ، بـدْءًا بالقحْطِ وقِلّةِ الثّمارِ

يخبرُ اللّهُ بأنَّه اختبرَ أتباعَ فرعونَ وامتحنَهم بالجَدْب والقحْط والجوعِ سنةً بعد سنةٍ، وضيقِ المعيشة، وانتقاصِ الثّمرات، وإتلاف الغَلّاتِ بالآفات، لعلّهم يثوبون إلى رُشدِهم ويتذكّرون ضَعْفهم أمام قوّةِ خالقِهم، ويرجعون عمّا هم فيه منَ الكفرِ والعصيانِ؛ فإنَّ الشّدائدَ من شأنِها أن ترقّقَ القلوبَ، وتُصفّيَ النّفوسَ، وتُلجئَ إلى الضّراعةِ للّه، وتُرغِّبَ فيما عنده ﷻ منَ الخير، وتدعوَ إلى اليقظةِ والتّفكير ومحاسبةِ النّفس على الخطايا اتقاءً للبلايا.

والمرادُ بآل فرعونَ قومُه وأتباعُه، فهم مؤاخذون بظلمه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثمر).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثمر).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).

وطغيانِه؛ لأنّ قوّته الماليةَ والجندية منهم، وقد خلقَهمُ اللّه أحرارًا وأكرمَهم بالعقل والفطرةِ التي تكرهُ الظّلمَ والطغيانَ بالغريزة، فكان حقًّا عليهم ألّا يَقبلوا استعبادَه لهم وجعْلَهم آلةً لطغيانِه، ولا سيما بعد بعثةِ موسى عليه السلام ووصولِ دعوتِه إليهم، ورؤيتِهم لما أيَّده اللّه به منَ الآيات[1].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة: إلى تنبيه الأمّة للنَّظر فيما يحيطُ بها من دلائلِ غضبِ اللّه؛ فإنَّ سَلْبَ النِّعمة للمُنعَم عليهم تنبيهٌ لهم على استحقاقِهم إعراضَ اللّه تعالى عنهم[2].

وفيها أنَّ على الإنسان أن يتذكّر أنّه الخليفةُ في الأرض، وأنّه غيرُ أصيلٍ في الكون حتى يظلّ العالمُ مستقيماً، لكنِ الذي يفسدُ العالَمَ أنّ الإنسان حينما تستجيبُ له أسبابُ الحياة، وسُننُها الكونيّةُ ويحرثُ ويبذرُ ويُطلعُ الزّرعَ، ويُشعلُ النار ويستخرجُ المياه منَ الآبار ينسى أن كلَّ ذلك أسبابٌ، ولا يتذكرُ المُسبِّبَ إلا حينما تمتنعُ عليه الأسبابُ؛ لأنّها مقوّماتُ الحياة، فإذا امتنعتْ مقوّماتُ الحياة يقول الإنسانُ: يا ربّ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ تصْديرِ الجُملةِ بالقسَمِ:

بيانُ حالةِ العِقابِ الإلهيِّ، وإظهارُ خطَرِه بالقَسَمِ على حُصولِها

الواوُ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾ استئنافيةٌ، واللّامُ للتّوكيد، و(قد) لتحقيقِ وقوعِ الفعلِ الماضي (أخذ) المُحقَّقِ وقوعُه بصيغتِه، وفي هذا المُفتتح شروعٌ في تفصيل مبادئِ الهلاك الموعودِ به، وإيذانٌ بأنّهم لم يُمهَلوا حتّى تحوّلوا من حالٍ إلى حالٍ، إلى أنْ حلَّ بهم عذابُ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/239، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/357.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4313 - 4314.

الاستئصال، وتصديرُ الجملة بالقسَم لإظهار الاعتناءِ بمضمونِها[1]، وتأكيدِه، وتعظيمِ شأنه[2].

دَلالةُ (اللّام)، وضَميرِ التّعظيم:

ورسّختِ اللّام التّوكيديّةُ، و﴿وَلَقَدۡ﴾ التّحقيقيّةُ، وإسنادُ فعلِ الأخذِ إلى ضمير التّعظيم، والتّفخيم (نا) هذه العنايةَ، والاهتمامَ، والتّعظيمَ.

قـوّتِ المُؤكِّـداتُ العِـنايـةَ بـالمَضـمُـونِ الفـارقِ، في تـاريـخِ هـؤلاءِ القومِ المُفسِدِين

سِرُّ التّعْبير بالأخذِ على طريق المجازِ، أوِ الاسْتِعارة:

الأخذ: هنا مجازٌ في القهْرِ والغلبةِ، ويصحُّ أنْ يكون هنا مجازًا في الإصابة بالشّدائدِ؛ لأنّ حقيقةَ الأخذ: تناولُ الشّيء باليدِ، وتعدّدت إطلاقاتُه، فأُطلقَ كنايةً عنِ المُلك. وأُطلقَ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً للقهرِ والغلبةِ، وللإهلاكِ؛ إذ استعارَ الأخذَ للابتلاء[3].

الأخـذُ قـهـرٌ وغـلـبةٌ وإصابةٌ بالشّدائدِ

دَلالةُ التّصريحِ باسْمِ فرعونَ، وإضافةِ آلِه إليه:

إنَّ موردَ الذّكرِ في مواطن الخيبةِ، والخُسرانِ، والعقوبةِ إذلالٌ ومهانةٌ يناسبُه التّصريحُ بالمغلوبِ المقهورِ المُتألّه على اللّه تعالى بكِبْره. والمرادُ بـ ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أتباعُه، وإضافةُ الآل إليه وهو لا يضافُ إلّا إلى الأشراف والكبراء؛ لِما فيه منَ الشّرف الدّنيويِّ الظّاهرِ وإن كان في نفس الأمرِ وضيعًا[4].

وَجْهُ التّعريض، المُفِيدُ للمَهانةِ

قَصْدِيّةُ جَمْعِ لفظِ ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ في السّياق:

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ جمعُ سَنةٍ بمعنى الجَدْبِ لا بمعنى الزّمن المقدَّر منَ الدّهر؛ لأنَّ السّنةَ في كلامِ العربِ إذا عُرّفت باللّام يُراد بها سَنةُ الجَدْبِ، والقحْطِ، فتكونُ حينئذٍ علمَ جنسٍ بالغَلَبة، ومن ثمَّ اشتقّوا منها: أَسْنَتَ القومُ، إذا أصابهم الجَدْبُ والقَحْطُ، وجاءت على صيغة الجمعِ بمعنى: القُحوطِ باعتبارِ كثرةِ مواقعِها، أي: أصابَهم

إصـابـتُـهـم بـالـقَـحْـطِ، وفي كـلِّ بُلدانِهم، دليلُ غضبِ الله عليهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/263، والآلوسي، روح المعاني: 9/31.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/63.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/31.

القَحْطُ في جميع الأَرَضين والبلدان، فالمعنى: ولقد أخذناهم بالقُحوطِ العامّةِ في كلِّ أرضٍ[1].

نُكتةُ العُدولُ عن معنَى ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ الحقيقيِّ على طريقِ الاستعارةِ:

الأخذُ بالسّنينَ جَدْبٌ مُطبِقٌ، وجَفافٌ مُرْهِقٌ، لمن حاربَ الله ورُسُلَه الكرامَ

وهو بذا استعارةٌ تصريحيّةٌ عُدلَ بها عنِ المعنى الحقيقيِّ للسّنة، وهو الحولُ، إلى الجدْب، والقحطِ[2]. وأكثرُ ما تُستعملُ في مقام العددِ والإحصاءِ[3].

سِرُّ تَنكيرِ لفْظِ ﴿وَنَقْصٍ﴾، وقطْعِه عنِ الإضافةِ:

تَحْقيقُ معنَى التّكثيرِ، للدّلالةِ على شِدَّةِ الضِّيقِ في كلِّ حالٍ

وقولُه تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ومعنى نقْصِ الثّمرات: قلَّةُ إنتاجها قلةً غيرَ معتادةٍ لهم، أو هو نصٌّ على شدَّة الضّيق في كلّ حال، فتنوينُ ﴿وَنَقْصٍ﴾ للتّكثيرِ ولذلك نُكِّر، ولم يُضف إلى ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لئلا تفوتَ الدّلالةُ على الكثرةِ، فالقحطُ ينتابُ المزارعَ والحقولَ، ونقصُ الثّمرات ينتابُ الجنّاتِ[4].

نُكتةُ التّعْبيرِ بِصيغةِ التّرجّي، وفعْلِ المُطاوعةِ:

قَطعُ عُذرِ عدَمِ التّذكُّرِ، وترغيبٌ بالعَزمِ عليه

و(لعلّ) للرّجاء، أي: مرجوٌّ تذكّرُهم؛ لأنّ المصائبَ والأضرارَ المقارنةَ هي لتذكيرِ موسى إياهم بربّهم، وتسريح فرعونَ عبيدَه، أمّا اللّه تعالى فهو يعلمُ أنّهم لا يتذكّرون، ولكنّه أراد الإملاءَ لهم، وقطعَ عُذرِهم[5]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ اللّه تعالى إنّما يقضي بالجَدْبِ، ونقصِ الثّمرات، لُطفًا منه تعالى في رجوع الخلْقِ عنِ المعصيةِ[6]. وجاء بالفعل ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بصيغة المطاوعةِ؛ للدّلالة على طلبِ حصولِ الفعل بقوّةٍ، والتّرغيبِ بالعزم عليه؛ لعُسْرِ تحقّقِه من جهة، ولعظيم آثارِه من جهة أخرى، فهي مفتاحُ أنوار

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/31، و15/182، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/63.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/16.
(3) رضا، تفسير المنّار: 9/76.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/76، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64.
(6) الخلوتي، روح البيان: 7/46.

الهدايةِ. وجملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ في موضع التّعليل لجملةِ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ﴾ فلذلك فُصلتْ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الآلُ)، و(الأهلُ):

(الآلُ) خاصّةُ الرّجُلِ من جهةِ القرابةِ، و(الأهلُ) خاصّتُه من جهةِ النّسبِ

(الأهل) يكونُ من جهة النّسب، والاختصاص، فمن جهة النّسبِ، قولُك: أهلُ الرجل، لقرابته الأَدْنَيْنَ. ومن جهة الاختصاص، قولُك: أهلُ البصرة، وأهلُ العلم. فأهل الرجل: من يجمعُه وإياهم نسبٌ أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعةٍ وبيتٍ وبلدٍ، وأهلُ الرّجلِ في الأصل: من يجمعُه وإياهم مسكنٌ واحد، ثم تُجوِّز به، فقيل: أهلُ الرجل لمن يجمعُه وإياهم نسبٌ، وتُعورف في أسرة النّبي ﷺ مطلقًا إذا قيل: أهلُ البيت. و(الآل) خاصّةُ الرّجل من جهة القرابة، أوِ الصّحبة تقولُ: آلُ الرجل لأهله، وأصحابِه. ولا تقولُ: آلُ البصرة، وآلُ العلم. وقالوا (آل فرعون) أتباعُه وكذلك (آل لوط). وإذا صَغّرتِ العربُ (الآل) قالت: أهلُ. فيدلُّ على أنّ أصلَ (الآلِ) (الأهلُ). وقال بعضُهم: (الآلُ) عيدانُ الخيمة وأعمدتُها، وآل الرّجل مُشبَّهون بذلك؛ لأنَّهم معتمدُه[2].

فـ(آل الرّجل) أهلُ بيتِه، وأقاربُه الذين يُضافون إلى اسمه، ويؤولُ أمرُه إليهم، وهو لا يضافُ إلا إلى أعلامِ شُرفاءِ قومِهم، وكبرائِهم كالأنبياء، والملوكِ، والرّؤساءِ، ثمّ أُطلق على أهل الاختصاص بهم، أو جميعِ أتباعهم، ومن هنا قال بعضُ العلماء: إنّ آلّ النبي ﷺ يُطلق على جميع أتباعِه، وإنَّ هذا هو المرادُ بالصّلاة على آل النّبيّ في التّشهد وغيرِه. وخُصَّ بالإضافةِ إلى أعلامِ النّاطقين دون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/63.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281، والرّاغب، المفردات: (أهل).

النّكراتِ، ودونَ الأزمنة، والأمكنةِ. يقال: آل فلان، ولا يقال: آل رَجُلٍ، ولا آلُ زمان كذا، أو موضعِ كذا، ولا يقال: آل الخياط، بل يضاف إلى الأشرفِ الأفضلِ، يقال: آل الله وآل السّلطان، والأهلُ يضافُ إلى الكلّ، يقال: أهلُ الله وأهلُ الخياط، كما يقال: أهلُ زمنِ كذا وبلدِ كذا[1].

ولذلك كان اختيارُ لفظِ ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ ليشمل ملأَهُ، وشرفاءَ قومه، وكبراءَهم، وجميعَ أتباعِه ومَنْ آلَ إليه في دينٍ، أو مذهبٍ، أو نسبٍ؛ لأنّ الآل لا تُطلقُ إلّا على الأتباع كلِّهم، مع إيمانِهم بالمتبوع، واتّباعِ منهجه، وشريعتِه، وسيرتِه[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (آل)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/74 - 75.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/140.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين عِـقـابِ قَـوْمِ فرعونَ بالقَحْطِ والـنَّـقْـصِ، وبيانِ صَلَفِهم وغُرورِهم

ابتُلوا بالجَدْب ونقص الثَّمرات؛ رجاءَ التذكير، فلم يقع المرجوُّ، وصاروا إذا أُخْصِبوا وصَحُّوا قالوا: نحن أحِقَّاءُ بذلك، وإذا أصابهم ما يسوؤُهم تشاءَمُوا بموسى، وزعموا أنَّ ذلك بسببه[1]، فبيَّن تعالى أنَّهم مع تلك المحن عليهم، والشَّدائد، لم يعتبروا بهذا الامتحان، ولم يزدادوا إلَّا تمرُّدًا وكُفْرًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ و﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾: (طير) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خِفَّة الشَّيء في الهواء، ثمَّ يُستعار ذلك في غيره، وقولهم: تَطيَّر مِنَ الشَّيء، اشتقاقُه مِنَ الطَّير، كالغُراب وما أشْبهه. وقَوْلهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ [النّمل: 47] تَشاءَمْنا، وَقيل للشُّؤم: طَائِر وطَيْر وطِيَرة؛ لأنَّ العَرَب كان مِن شَأْنِهَا عِيَافَةُ الطَّير، وزجْرُها، والتَّطَيُّر ببارحها، وبنَعيق غِرْبانها، وأَخْذِها ذاتَ اليَسار إذا أَثَارُوهَا، فَسَمَّوا الشُّؤمَ طَيرًا، وطائِرًا، وطِيَرَةً؛ لِتشاؤُمِهم بهَا وبأفعالها، ومِنَ الباب: طائرُ الإنسان، وهو عملُه الذي قُلِّدَه، والطَّائر: مِنَ الزَّجْر في التَّشَؤُّم والتَّسَعُّد، والتَّطايُرُ: التَّفَرُّقُ والذَّهابُ[3]، وقيل: الشَّقاءُ، والسَّعادَةُ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/369 - 370.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/170.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المُحكم: (طير)، والغزنويّ، باهر البرهان: 1/527.
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (طير).

و﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾: حَظُّهُم مِنَ الخَيرِ والشَّر، والمعنى: إنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ حَظًّا مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ قد قَضَاه اللّه، فَهْوَ لازِمٌ عَنُقَه(1).

فمعنى (التَّطَيُّر): التَّشاؤم، وأُخِذَ من زَجْر الطَّير، أو من مُفارقة الشَّيء مَقَرَّه إلى الهواء، ومِنَ المفارقة إلى غير محدَّد استُعمِل في الحظِّ مِنَ الخير، أو الشَّر، أو النَّصيب غيرِ المعروف أو المُحَدَّد سَلفًا(2).

المَعنى الإجْماليُّ:

سُوءُ تقديرِ آلِ فرعونَ لمعانِي التّفاؤُلِ والتّشاؤُمِ، وتَناسِي أنّ الأمْرَ كلَّه بيَدِ الله

فَإِذا جاءَتْ آلَ فرعونَ الحسنةُ مِنَ الغيثِ، والرَّخاءِ، والخِصْب، والسَّعة، والعافية، والسَّلامة مِنَ الآفات، وغيرِ ذلك قالُوا: نحن مُستَحقُّون لها ونحنُ أَهْلُها، على العادة التي جرتْ لنا في سَعة الأرْزاق، وصِحَّة الأبدان. ولم يَرَوا ذلكَ مِن فضل اللّه عليهم فيشْكُرُوه على إنعامه، وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ مِنَ القَحْطِ، والجَدْب، والمرض، والبلاء، وغيرِ ذلك، ورَأَوا ما يكرهون في أنفسهم، يتشاءَمُوا بِمُوسى ومَن مَعَهُ، ويقولوا: لم يُصِبْنا البلاءُ إلَّا حينَ رأيناهم، وما ذلك إلَّا بِشُؤم موسى وقومِه، وإنَّما نَصِيبُهم مِنَ الخِصْب، والجَدْب، والخير، والشَّرِّ كلِّه، مِنَ اللّه لا مِن غيره، ولكِنَّ أَكْثَرَ قوم فرعونَ لا يَعْلَمُون أنَّ ما أصابَهم مِنَ اللّه تعالى(3)، وليس للعباد مَدْخَلٌ في ذلك، فتراهم يُضيفون الأشياءَ إلى أسبابٍ يتوهَّمُونَها(4).

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى نفْي الشُّؤم، والتَّطَيُّر، وإبطالِهما؛ ليَعلمَ النَّاسُ أنَّ ما يُصيبهم من السَّيِّئات لا يُصيبهم بشُؤم أحدٍ يكون فيهم، وينبغي لِمَن أصابته سيئةٌ أن يبحث عن سببها من

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (طير).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طير).
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/239.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.

نفسه، ولا يكتفي بإسنادها إلى شُؤم غيره ممَّن ليس له فيها عمَلٌ ولا كسْبٌ؛ لأنَّ السَّيِّئة تُصيبُ الإنسانَ - بما تقدَّم شرحُه آنفًا - مِن تقصيره، وخروجه بجهله أو هواه عن سُنَّة الله في الْتِماس المنفعة مِن أبوابها، واتِّقاء المضارِّ باتِّقاء أسبابها[1].

وأفادتِ الآيةُ أيضا ضرورةَ الاتِّعاظ بالرَّخاءِ أو بالشَّدائد، فلا ينبغي أن يَزْدادَ المرءُ بالرَّخاء، والخِصْب غُرورًا وبطرًا، وبالشَّدائد والمحن عِنادًا ومُكابرةً، فينسبَ أسبابَ البركات إلى غير المُنعِم جلَّ وعزَّ، ويُصِرَّ على ذلك مِن دون توبة[2]، والمعلومُ في أحوال النَّاس أنَّهم في حال الشِّدَّة يكونون أضرعَ خُدودًا، وألينَ أعطافًا، وأرقَّ أفئدةً[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ اخْتِيارِ حروفِ الجرِّ، وتقديمِ الضَّميرِ:

قَصْدُ النَّظْمِ الخاصِّ، تَفريعُ الكلامِ، واسْتِحقاقُ الحسنةِ

الفاء في: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ حرفُ عطفٍ، جاء لتفريع هذا الخبر على جملة: ﴿أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: فكان حالُهم إذا جاءتهم الحسنة... إلخ، والمعنى: فلم يتذكَّروا، ولكنَّهم زادوا كُفرًا وغُرورًا[4]، و﴿فَإِذَا﴾ شرطيَّة للتَّكرار، واللَّام في قوله: ﴿لَنَا﴾ للاستحقاق، كما تقول: السَّرجُ للفَرَس، أي: هذه الحسنة حَقٌّ لنا؛ لأنَّهم بغرورهم يحسَبون أنَّهم أحْرياءُ بالنِّعم، أي: فلا يَرون تلكَ الحسنةَ فضلًا مِنَ الله ونِعمة[5]، وأكَّد معنى ظنِّهم استحقاقَ الحسنةِ تقديمُه مع ضمير التَّعظيم المجرورِ (نا)، على اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦۖ﴾.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 5/219.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/144.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

الإشارةُ إلماحٌ بالغفلةِ أوِ الإنكارِ، له أثرُه في توجيهِ الدّلالةِ

التَّعبير باسم الإشارة: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدَّالِّ على الإبهام، إلماحٌ بإنكارهم مصدرَ هذه الحسنات، وعدم إحاطتِهم بِكُنْهِ موفورِ العطايا، وحقيقةِ هذه النِّعم على الوجه الَّذي أرادَهُ المُنْعِمُ جلَّ في عُلاه وابْتَغاهُ، مُعدِّدًا وجوهَهُ ومظاهرَهُ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمجيءِ بِصيغةِ الماضِي، والإصَابَةِ بالمضارعِ:

تَحقُّقُ مجيءِ الحسنةِ، وتَجَدُّدُ السَّيّئةِ، وتَعَدُّدُ مصادرِ كلٍّ منهما

عَبَّر عن مجيءِ الحَسَنة بالفعل الماضي: ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾؛ دلالةً على وقُوعِها، وتَحقُّقِ مجيئِها، وانقضائِها انقضاءً حقيقيًّا؛ إذ غلب أن يكون فعلُ الشَّرطِ مع (إذا) فعلًا ماضيًا؛ لكون الماضي أقربَ إلى اليقين في الحصول مِنَ المستقبل، وبنى فعلَها للمعلوم؛ لأنَّ مصْدَرَها مِنَ الله تعالى لا غير، وبنى فعلَ السَّيِّئة للمَجْهول: ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾؛ لتعدُّدِ مصادرِ كَسْبِها، ولاسيما النَّفْس، ومِصداق ذلك قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: 79]، وجاء بها بصيغة المضارع للدّلالة على تجدُّدِها لهم؛ لإصرارهم على الغَيِّ، والكُفْران، والجُحُود، ومِصْداقُه الآيةُ الكريمة بعدَها: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

دَلالةُ التَّعْبيرِ عنِ الحسنةِ بـ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾، وعنِ السَّيِّئةِ بـ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾:

مفهومُ الحسنةِ والسَّيِّئة، في نَظَرِ قوْمِ فرعَونَ السَّادِرين في الغَيِّ

ورد التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾، بقدوم الحسنة بالمجيء، والتَّعبير بوقوع السَّيِّئة بالإصابة؛ للدّلالةِ على الفرقِ بينَ الحسنةِ والسَّيِّئة في نظر قوم فرعون، فالحسنةُ عندَهم: هي ما يتمنَّوْنَه ويطلبونَهُ ويُحبُّونَهُ، والسَّيئةُ في مفهومهم: هي ما يكرهونَهُ ويخافونَهُ ويَفرُّون منه.

كما أنَّ التَّعبير بقدوم الحسنة بفعل بالمجيء يدلُّ على أنَّ الحسنة

تأتي مِنَ اللّه تعالى بإذنه ورحمته وفضلِه، وأنَّ المؤمنين يستقبلونها بالشُّكر والحمد والرِّضا.

أمَّا التَّعبير بوقوع السَّيِّئة بفعلِ الإصابة فيدلُّ على أنَّ السَّيِّئةَ تأتي مِنَ اللّه تعالى، كذلك بحكمته وقُدرته وعَدْله، وأنَّ المجرمين يصابون بها بسبب ذنوبهم وجرائمهم وظلمهم، وهو مصداقُ ما قرَّره اللّهُ تعالى بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: 79]؛ فما أصاب الإنسانَ من خير ونِعمة فهو مِنَ اللّه تعالى وحدَه، فضلًا وإحسانًا، وما أصابه من جَهْد وشِدَّة فبسبب أعماله السَّيِّئة، وما اقترفتْه يداه مِنَ الخطايا والسَّيِّئات.

سِرُّ تعريفِ (الحسنةِ)، وتنْكيرِ (السَّيِّئةِ):

التَّعريفُ جاءَ لإفادةِ الجِنْسِ قصدًا إلى التَّكثير، والتَّنكيرُ لِبيانِ القِلَّةِ

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾، وفيه عُرِّفَتِ ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ بأل المعرِّفة لحقيقة الجنس؛ لتكونَ والنَّكرةُ سواءً، ووقوعُها ووقوع النكرةِ في سياق الشَّرط في هذه الآية يعمُّ كلَّ حسنة وكلَّ سيِّئة. والحسنة والسَّيِّئة هنا مُرادٌ بهما الحالةُ الحسنة والحالةُ السَّيِّئة[1]. فتعريفُ الحسنة، وتنكير السَّيِّئة فنٌّ عجيبٌ مِن فنون عِلْم المعاني؛ إذ عرَّف الحسنةَ باللَّام لإفادة الجنس قصدًا إلى التَّكثير، ونكَّر السَّيِّئة لبيان القِلَّة[2]، وللدّلالة على حالِ قوم فرعون الذين كانوا ينسُبون كلَّ خيرٍ إلى أنفسهم ويستحِقُّونه، وينسُبون كلَّ شَرٍّ إلى موسى عليه السلام وأتباعِه ويتشاءمون به، وهذا يُظهِر جحودَهم وكُفرَهم وغرورَهم بأنفسهم، وعدمَ اعترافِهم بقُدرة اللّه تعالى وحِكمته في تدبير الأمور. كما أنَّ تعريف الحسنة وتنكير السَّيِّئة يُبْرِز التَّضادَّ بينَ المؤمنين والكافرين في رؤية الأشياء، فالمؤمن يرى كلَّ شيء مِنَ اللّه تعالى، فإذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

(2) جاهين، من صور البلاغة القرآنيَّة في سورة الأعراف، ص: 172.

أصابته نعمةٌ فهو يشكر اللّه عليها ويستخدمُها في طاعته، وإذا أصابته مصيبةٌ فهو يصبرُ عليها ويستغفرُ مِن ذنبه، ولا يقول إلَّا ما يُرضي ربَّه، أمَّا الكافر فيرى كلَّ شيءٍ مِن نفسه، أو مِن غير اللّه، فإذا أصابته نعمةٌ فهو يفخر بها ويستعلي بها على خَلْق اللّه، وإذا أصابته مصيبةٌ فهو يَجْزَع ويَقْنَط ويَلُومُ مَن خالَفَه، ولا يقول إلَّا ما يُغضِبُ ربَّه.

دَلالةُ اقترانِ المُعرَّفِ بحرف التَّحقيقِ، واقترانِ المُنَكَّر بحرفِ الشَّكِّ:

سَعةُ إحسانِ اللّه، إيحاءٌ بكثرةِ وقوعِ الحسناتِ، ونُدْرة وقوعِ السَّيِّئاتِ

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ قُرِنَ تعريفُ الحسنة بأداة التَّحقيق ﴿فَإِذَا﴾ الشَّرطيَّة المفيدةِ للتَّكرار؛ لأنَّ الغالب في (إذا) الدّلالة على اليقين بوقوع الشَّرط، أو ما يقرب مِنَ اليقين، ووقوعُ جنسِ الحسنة كالواجب؛ لكثرته واتِّساعه، فالحسناتُ، أي: النِّعم، كثيرةُ الحصولِ، تتابعهم متواليةً؛ مِن صحَّةٍ، وخِصْبٍ، ورخاءٍ، ورفاهيَّةٍ؛ لأنَّ إحسان اللّه هو المعهود الواسع العامُّ لخَلْقه، والأصلُ الثَّابتُ: غلبةُ رحمةِ اللّه وفضلِه على سخطه وعقابه، بحيث إنَّ إحسانه لخَلْقه عامٌّ حتَّى في حال الابتلاء، ولأنَّ الحسنة أمرٌ محبوبٌ، فكلُّ أحدٍ يتمنَّاها، فيكونُ تعلُّق الإرادةِ بإحداثها بالذَّات؛ لأنَّ العنايةَ الإلهيَّة اقتضت سَبْقَ الرَّحمة، وعمومَ النِّعْمَة قبل حصول الأعمال.

وجِيءَ في جانب السَّيِّئة في قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ بحرف الشَّك (إنْ)؛ لأنَّ الغالب أن تدلَّ (إنْ) على التَّردُّد في وقوع الشَّرط، أو على الشَّكِّ، والنُّدور؛ ولكون الشَّيءِ النَّادرِ الحصولِ غيرَ مجزوم بوقوعه، ومشكوكًا فيه؛ جِيءَ في شرط إصابة السَّيِّئة بحرف (إن)، لنُدْرة وقوعِ السَّيِّئات، أي: المكروهاتِ عليهم، بالنِّسبة إلى الحسنات، فلا يقع إلَّا شيءٌ منها؛ لأنَّه أمرٌ مَذْمُوم، كلُّ أحدٍ يَحْذَره، ولعدم القصد لها وتعلُّقِ الإرادة بإحداثها إلَّا بالتَّبع والعَرَض؛ فإنَّ

النِّقمة بمقتضى تلك العناية إنَّما تُستَحَقُّ بسبب الأعمال السَّيِّئة، والشَّرِ الحاصل مِنَ النَّاس(1).

بَلاغةُ التَّعريضِ في الآية:

التَّعبيرُ عن قساوةِ آلِ فرعونَ، وسُوءِ تصرُّفهم؛ للإلماحِ إلى غَباوتِهم

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾: يتضمَّن هذا التَّعبيرُ إغراقًا في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإنَّ الشَّدائد تُرقِّق القلوب، وتُذلِّل العرائكَ، ولاسيَّما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثِّر فيهم، بل زادوا عُتوًّا وانهماكًا في الغيِّ(2). وفي ذلك تعريضٌ بأنَّ نِعَم اللّه كانت متكاثرةً لدَيهم، وأنَّهم كانوا مُعْرِضين عنِ الشُّكر، وتعريضٌ بأنَّ إصابتهم بالسَّيِّئات نادرةٌ، وهم يعُدُّون السَّيِّئات من جَرَّاء موسى ومَن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافر بالنِّعمة، وظالم لموسى ومَن معه، ولهذَينِ الاعتبارَين عُرِّفتِ ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ تعريفَ الجنس المعروف في عِلْم المعاني بالعهد الذِّهنيِّ، أي: جاءتهم الحسنات؛ لأنَّ هذا الجنسَ محبوبٌ مألوفٌ كثيرُ الحصول لدَيهم، ونُكِّرَتْ ﴿سَيِّئَةٞ﴾ لنُدْرَة وقوعِها عليهم، ولأنَّها شيءٌ غيرُ مألوفٍ حلُوْلُه بهم، أي: وإنْ تُصبهم أيَّةُ سيِّئة(3).

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ والجِناسِ:

إيضاحُ المعنى وبيانُه، لمَيْلِ النَّفسِ نحوَ التَّشوُّقِ والإصْغاءِ

﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ ضِدُّ ﴿سَيِّئَةٞ﴾، وهما مِن طباق الإيجاب الذي يُفصِح عن دلالة الرَّبط المؤدِّي إلى مزيدِ إيضاحِ المعنى وبيانه.

وفي ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ و﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، أحدثَ ميلًا للنَّفس نحو التَّشوُّقِ والإصغاء، فضلًا عن إكساب التَّعبير جَمالًا وحُسنًا.

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/144 - 145، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/30، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370، وابن عادل، اللُّباب: 9/276، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/77، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64 - 65، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.

(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/30.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

نُكْتَةُ التَّعْبير بصِيغة التَّفعُّلِ، في قوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾:

التَّطيّرُ ظلمٌ للواقعِ، وجَورٌ على الحقِّ

و﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: أصلُه يتطيَّروا، أُدغمت التَّاءُ في الطَّاء لقُرْب مخرجِهما، واشتقاقُ التَّطَيُّر مِنَ الطَّير؛ كالغُراب وشِبْهِه، وسُمِّي الشُّؤمُ ضِدُّ اليُمْنِ طيرًا وطائرًا؛ تسميَةً للمدلول باسم ما يدلُّ عليه، فإنَّهم يجعلون الطَّير والطَّائر أَمَارةً ودليلًا على شُؤْم الأمر، وبناءُ التَّفعُّل فيه للتَّجنُّب، أي: لبُعد الفاعل عن أصله، كَتَحَوُّبٍ، أي: تَجنُّبٍ وتباعُدٍ مِنَ الحُوْبِ، وهو الإثم[1]، أو أنَّهم صاغوه على وزن التَّفعُّل، لما فيه مِن تكلُّفِ معرفةِ حَظِّ المرءِ بدلالة حركاتِ الطَّير، أو هو مُطاوعة؛ سُمِّيَ بها ما يحصل مِنَ الانفعال مِن أثر طيران الطَّير، وكان العربُ إذا خَرجُوا في سَفَرٍ لحاجةٍ، نظروا إلى ما يُلاقيهم أوَّلَ سيْرِهم مِن طائرٍ، فكانوا يزعُمون أنَّ في مُروره علاماتِ يُمْنٍ وعلاماتِ شُؤْمٍ[2].

سِرُّ تَغْلِيبِ لفْظِ (الطِّيَرةِ) على (التَّشاؤُمِ):

تَوَقُّعُ الضُّرِّ أَدْخلُ في النُّفوسِ، مِن رجاءِ النَّفْعِ المأنُوسِ

غلبَ لفظُ الطِّيرةِ على التَّشاؤم خاصَّة؛ لأنَّ للأثر الحاصل مِن دلالة الطَّيران على الشُّؤم دلالةً أشدُّ على النَّفْس؛ لأنَّ توقُّعَ الضُّر أدْخَلُ في النُّفوس مِن رجاء النَّفع. والمرادُ به في الآية: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ أنَّهم يتشاءمون بموسى ومَن معه، وقالوا: ما أصابَنا ما أصابَنا إلَّا بشُؤمهم ونَحْسِهم، فاستُعمل التَّطَيُّر في التَّشاؤم بدون دلالة مِنَ الطَّير؛ لأنَّ قوم فرعون لم يكونوا ممَّن يَزْجُر الطَّير، فيما علمنا مِن أحوال تاريخهم، ولكنَّهم زعموا أنَّ دَعْوَة موسى عليه السلام فيهم كانت سببَ مصائبَ حلَّت بهم، فعُبِّر عن ذلك بالتَّطيُّر على طريقة التَّعبير العربيِّ[3].

(1) حقي، روح البيان: 3/217.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/66.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالباءِ، في: ﴿بِمُوسَىٰ﴾:

التَّطَيُّرُ بالهُدَى النَّاصعِ، والوحْيِ السَّاطِعِ، سَفاهةٌ وضلالةٌ

الباءُ بعدَ فِعْلِ التَّطَيُّرِ هي باء السَّببيَّة، تدخل على مُوجِبِ التَّطَيُّر، وهو قوله: ﴿بِمُوسَىٰ﴾، وعُطِف عليه: ﴿وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾، أي: مَن آمنوا به؛ لأنَّ قوم فرعون يَعُدُّون مُوجِبَ شُؤْم موسى هو ما جاء به مِنَ الدِّين الخارج عن أعرافهم وتقاليدهم؛ لأنَّه لا يُرضِي آلهتَهم ودينَهم، ولولا دِينُه لم يكن مشؤومًا، كما قالت ثمود: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [هود: 62][1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بأداةِ الاسْتِفتاحِ والتَّنبيهِ:

إبرازُ كَمالِ العِنايةِ بالمضمونِ، من شأنِه إيضاحُ الدّلالةِ المتَاحَةِ

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ من قِبَله تعالى؛ لردِّ مقالتِهم الباطلةِ، وخرافاتهم مِنَ التَّشاؤم بموسى ومَن معه، وإحقاقِ الحقِّ في ذلك، أي: ليس سببُ خيرهم إلَّا عنده تعالى، وهو حُكْمُه ومَشيئتُه المُتَضمِّنةُ للحِكَم والمصالحِ، أو ليس سببُ شؤمِهم - وهو أعمالُهم السَّيِّئة - إلَّا عندَه تعالى، أي: مكتوبةٌ لدَيه، فإنَّها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم، لا ما عداها[2]. وتصديرُه الرَّدَّ عليهم بأداة الافتتاح والتَّنبيه: ﴿أَلَآ﴾؛ للتَّنبيه والاهتمامِ بالخبر الواردِ بعدَه، وتوكيدِه، وإبرازِ كمالِ العنايةِ بمضمونِه؛ تعليمًا للأُمَّة، وتعريضًا بمشركِي العرب[3]، إذِ المرادُ بها: توجيهُ ذِهْنِ القارئ لما يُلْقَى بعدَها؛ حتَّى لا يفوتَه شيءٌ منه، أي: ألَا فلْيَعْلَموا أنَّ الشُّؤمَ الذي نسبوه إلى موسى، وعَدُّوه مِن آثار وُجوده فيهم، هو عند الله تعالى، لا عند موسى ومَن معَه[4].

وناسبَ كَذِبَهم في موضعي: (مجيء الحسنة، والإصابة بالسَّيِّئة)، الاستئنافُ على وجه التَّأكيد: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾، أي: قَدَرُهم الذي سَبق في الأزل مِنَ الخير والشَّرِّ، فلا يَزداد ولا يَنقُص[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/66.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/264.
(3) قباوة، المُفصَّل، ص: 592، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/77.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.

بَلاغةُ المجازِ، والإظهارِ في مقامِ الإضمارِ، في قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

الشَّيءُ المُتَصرَّفُ فيه كالمُستقِرِّ في مكانٍ، وهو كذلك للمُبالغةِ في الذَّمِّ

و﴿عِندَ﴾ مستعمَلةٌ في التَّصرُّف مجازًا؛ لأنَّ الشَّيء المُتَصرَّفَ فيه كالمستقِرِّ في مكان، أي: سببُ شؤمِهم مُقدَّرٌ مِنَ اللهِ[1]، المَلِكِ الذي لا أمرَ لغيره، وقد قَدَّر كلَّ شيء، فلا يَقْدِر على المَجِيء به غيرُه أصلاً[2]. وفي الجُملة: إظهارٌ في مقام الإضمار؛ إذ قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُل: (عندي)؛ مبالغةً في ذمِّهم، بوصْفِهم أنَّهم لا يعلمون، وتعظيمًا وتَلَذُّذًا بذِكْر الاسم الشَّريف، أي: الذي له القدرةُ الكاملةُ، والعِلْمُ الشَّامل[3].

وَجْهُ تَعَدُّدِ القراءاتِ، في قولِه: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾:

تَحقُّقُ وقوعِ الفعْلِ، وثُبُوتُه فيهم، دليلٌ على تأصُّلِ هذا الأمْرِ عندَهم

وقُرِئَ شاذًّا: (تَطَيَّرُوا) بالتَّاء وتخفيف الطَّاء، فعلًا ماضيًا، وهو جواب: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ ليكون فِعْلُ الشَّرط مضارعًا، وفعلُ الجزاءِ ماضيَ اللَّفظ[4]، وتُفيد صيغةُ مُضِيِّه تَحقُّقَ فعلِ التَّطَيُّر بمِن أُصيبَ بالسَّيِّئة، أو سيُصابُ بها، وانقضاءَه، وثبوتَه فيهم.

بَلاغةُ التَّصريحِ بلفْظِ: (الطَّائر)، على طريقِ الاستعارةِ:

تسميّةُ المدلولِ باسْمِ الدَّليلِ، بناءً على أنَّهم يَستدلُّون بالطَّيرِ على الشُّؤْمِ

الطَّائر: اسم للطَّير الذي يثار ليُتَيَمَّن به أو يُتشاءم[5]، وهو مأخوذ من زَجْر الطَّير، فسُمِّيَ ما عند الله مِنَ القَدَرِ للإنسان طائرًا؛ لمَّا كان الإنسان يعتقد أنَّ كلَّ ما يصيبه إنَّما هو بحسب ما يراه في الطَّائر، فهي استعارة[6] تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ عبَّر عمَّا عند الله تعالى بالطَّائر، تشبيهًا له بالطَّائر الذي يُستدلُّ به على الخير والشَّرِّ، أو سببُه شؤمُهم عند الله تعالى، وهو أعمالهم السَّيِّئةُ المكتوبةُ عنده، فإنَّها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم لا ما عداها، فالطَّائر عبارةٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 6/464.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/443، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370. وهي قراءة شاذة.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(6) الشّريف الرّضّي، تلخيص البيان، ص: 76، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443.

عنِ الشُّؤم، على طريق تسمية المدلول باسم الدَّليل؛ بناءً على أنَّهم يستدلُّون بالطَّير على الشُّؤم[1]، فاستُعير هنا للسَّبب الحقِّ؛ لحلول المصائب بهم بعلاقة المُشاكلة، لقوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾، فشُبِّه السَّببُ الحَقُّ - وهو ما استحقُّوا به العذابَ مِن غضب الله - بالطَّائر[2].

سِرُّ أُسلوبِ القَصْرِ، بالأداةِ ﴿إِنَّمَا﴾:

سُـــوءُ حـــالِ الـقـومِ، عِـقـابٌ مِـــنَ الـلـه الـعـظـيـم، لا مِن عندِ موسَى الكليمِ

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصر، قَصَرَتِ الصِّفةَ على الموصوف، وجيء بها للمبالغة في التَّوكيد، والقَصْرُ المُستفادُ منها إضافيٌّ، أي: سوءُ حالهم عِقابٌ مِنَ الله، لا مِن عندِ موسى ومَن معه، فلا ينافي أنَّ المؤمنين يعلمون أنَّ سببَ حلولِ المصائب بأهل الشِّرك المعاندين للرُّسل، هو شِركُهم وتكذيبُهمُ الرُّسلَ، فهم يعلمون ذلك بأخبار الرُّسل، أو بصدق الفِراسة وحُسْن الاستدلال. فأمَّا المشركون وأضرابُهم مِن أهل العقائد الضَّالَّة، فيُسندونَ صدورَ الضَّرر والنَّفع إلى أشياءَ تُقارِنُ حصولَ ضُرٍّ أو نفع، فيتوهَّمون تلك المقارنةَ تسبُّبًا، ولذلك تراهم يتطلَّبون معرفةَ حصولِ الخير والشَّر مِن غير أسبابها، ومِن ذلك الاستقسامُ بالأزلام[3].

قَصْديَّةُ التَّعْبيرِ بالاعتراضِ، والاسْتِدراك:

تـوكـيـدُ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَـطَّـيَّـرُوا﴾ لما سَبَق، وتحقيقٌ لما لَحِق

جملة: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معترِضةٌ؛ ولذلك فُصِلَت، والاستدراكُ المُستفادُ من ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ عمَّا يوهِمُه الاهتمامُ بالخبر الذي قبله؛ لاقترانه بأداة الاستفتاح، واشتماله على صيغة القصر: مِن كون شأنِه أن لا يجهلَه العقلاءُ، فاستدركَ بأنَّ أكثر أولئك لا يعلمون، فهو توكيدٌ لما قبله، وتحقيقٌ لما بعدَه بالحصر، فالضَّمير في قوله: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى الذين ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾، وإنَّما نفى

(1) حقِّي، روح البيان: 3/218.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.

العلمَ عن أكثرهم تنبيهًا على أنَّ قليلًا منهم يعلمون خِلاف ذلك، أي: يعلمون أنَّ ما أصابهم مِنَ الخير والشَّرِّ مِن جهة اللَّه تعالى، أو يعلمون أنَّ ما أصابهم مِنَ المصائب والبلايا ليس إلَّا بما كسبتْ أيديهم، ولكنَّهم يُشَايعُون مقالةَ الأكثرين[1]، فلا يعملون بمقتضى عِلْمهم عِنادًا واستكبارًا[2].

إطلاقُ الجَهلِ، ونَفيُ العِلْمِ بمشْمولاتِه، من بليغِ البيانِ

بَلاغةُ الإضْمارِ استغناءً بالمذكورِ عنِ المستورِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إيجازٌ؛ بحَذْف ما دلَّ السِّياقُ عليه، والتَّقدير: ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أنَّ طائرَهم عند اللَّه[3]، واستغنى بالمذكور اقتصادًا لفظيًّا، وإطلاقًا للجهل، ونفيًا للعِلْم بمشمولاته، وفي إسناد عدمِ العِلْم إلى أكثرهم؛ إشعارٌ بأنَّ قلَّةً منهم تعلم ذلك، ولكنَّها لا تعملُ بمقتضى علمها[4].

مِن دَقيقِ النَّظْمِ إتمامُ الجَهلِ، وبيانُ عدَمِ العِلْمِ

مُناسبةُ الفاصلةِ لسِياقِ الآيةِ:

ناسبت فاصلةُ الآية: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُفتَتَحها، بنسبة الحسنة والسَّيِّئة كذبًا وجهلًا، وناسبت أيضًا مُفتتحَ الآيةِ التي بعدَها؛ إذ حَسِبوا أنَّ ما أتى به موسى سِحرٌ، وهم بما جاء به لا يؤمنون، وذلك تمام الجهل، وعدمِ العلم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَجيءُ والإصابةُ:

المجيء: الحصول والإصابة، وإنَّما عَبَّر في جانب الحسنة بالمجيء؛ لأنَّ حصولَها مرغوبٌ، فهي بحيث تُتَرقَّب كما يُتَرقَّب

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.

(2) حقّي، روح البيان: 3/218. ولابن عطيَّة ثلاثة توجيهات أخرى في لفظة: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾، استبعدها أبو حيَّان، وذكر أنَّ فيها تجوّزًا في العبارة، أعرضنا عن ذكرها لتجنّب المشتبه مِنَ التَّفسيرات، ممَّا يُثار حولَه الخلاف، يُنظر: ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370.

(3) الإندونيسّي، الشَّامل: 1/421.

(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.

المجيءُ حُصولٌ مرغوبٌ، والإصابةُ مُفاجِئةٌ

الجَائِي، وعَبَّر في جانب السَّيِّئة بالإصابة؛ لأَنَّها تحصُل فجأةً مِن غير رغبة ولا تَرَقُّب[1]، فالمجيءُ مع الحسنة مجيءٌ مُجرَّدٌ مِنَ العُنف والشِّدَّة، ومع السَّيِّئة إصابةٌ، تعني: البطشَ والرَّدْع[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64.
(2) قباوة، المفصَّل، ص: 591.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين تَطيُّرِهم بالحقِّ ورسولِه، وإعلانِهم الكُفرَ مهما كان الدّليلُ

حَكَى اللهُ عنهم نوعًا آخَرَ مِنَ الجَهل والضَّلالة، وهو أنَّهم لم يُميِّزُوا بينَ المعجزاتِ والسِّحْر، وجعلوا آياتِ موسى مِن باب السِّحْر، فلا يُقبلُ منها شيء[1]؛ ممَّا يعني: أنَّ الأخذ بالسِّنين، ونقصِ الثَّمرات، لم يزدهم إلَّا طغيانًا وتَشَدُّدًا في كُفْرهم وتكذيبهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ طُغيانِ قومِ فرعونَ الصُّراحِ، وقَطْعِهم على أنفُسِهم بالكُفرِ البَواحِ

يخبر اللهُ تعالى عن قومِ فرعونَ قولَهم: إنَّك إنْ تَجِئْنا بكلِّ نوعٍ مِن أنواع الآيات التي تَستَدِلُّ بها على أَحقّية دعوتِك؛ لأجل أنْ تَصْرِفَنا بها - بدِقَّة ولُطفٍ في التَّأثير - عمَّا نحن عليه مِن ديننا، ومِن تسخيرنا لقومِك في خِدمتنا، فما نحن لكَ بمصدِّقينَ، ولا لرسالتك بمتَّبِعينَ[3].

ويدلُّ منطقُهم هذا على منتهى العِناد والجُحود؛ برفضهم الدَّليل السَّاطع بنوره الواضِح، ورفضِهم كلَّ سُبلِ الإقناع؛ لأنَّهم أعلنوا الإصرارَ على التَّكذيب، حتَّى ولو أتاهم نبيُّهم بألف دليلٍ ودليل، وأخذتهم العِزَّةُ بالإثم، فأَبَوا أيَّ لونٍ مِن ألوان التَّفكير والتَّدبُّر[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/177، وابن عادل، اللُّباب: 9/279.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/78.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358 - 359.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ عَوْدِ الضَّمير، وعَطْفِ الجُملةِ:

مُقابلةُ المصائبِ بالغُرورِ، والنّوازلِ بالاستكبارِ الكَفورِ

الضَّمير في: ﴿وَقَالُواْ﴾ عائدٌ على آل فرعون[1]، والجُملة معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، فهم قابلوا المصائبَ - التي أصابهم اللهُ بها ليذَّكَّرُوا - بازديادِ الغُرور، فأيسوا مِنَ التَّذكُّر بها، وعاندوا موسى حين تحدَّاهم بها، فقالوا: مهما تأتنا به مِن أعمال سِحْرِكَ العجيبةِ، فما نحنُ لكَ بمؤمنين، أي: فلا تُتْعِب نفسَكَ في السِّحْرِ[2].

دَلالةُ تنوُّعِ المعاني وتَعدُّدِ التَّوجيهاتِ، في تَركُّبِ: ﴿مَهۡمَا﴾:

اشْترطُوا على أنفُسِهم، تأكيدًا لعدمِ الإيمانِ؛ وإصرارًا على النُّكْرانِ

في تركُّب لفظ ﴿مَهۡمَا﴾، خلاف بينَ العلماء، وأشهر الآراء فيه: أوّلًا: أنَّها مُركَّبة مِن (ما) المتضمِّنة لمعنى الشَّرط والجزاء، زِيدَت عليها (ما) الثَّانية، ورُكِّبَتْ معها؛ توكيدًا لمعنى الشَّرط، فهي زائدةٌ لازمة[3]، أو لزيادة معنى الإبهام[4]، وقُلِبَتْ ألفُ (ما) الأولى هاءً؛ استثقالًا لتوالي الأمثال، وتكرير المتجانِسَين، وللتَّشابه الصَّوتي بينَ الهاء والألف، مِن صفةِ همس، وتقاربِ للمَخرج[5]. وتفيد دلالةُ هذا التَّوجيه إصرارَ آلِ فرعون على الجُحود والنُّكران، بالشَّرط المتلبِّس بالتَّوكيد.

ثانيًا: أو أنَّها مكوَّنة مِن اسم الفعل (مَه)، رُكِّبَتْ معها (ما) الشَّرطيَّة، ويكون المعنى: أُكْفُفْ ما ﴿تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[6]، أو كُفَّ عن أن تأتينا بأيةِ آيةٍ فلن نُصدِّقك،

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68.

(3) وهو رأي الخليل، وتابعه جمهور العلماء مِن نحويين، ومفسِّرين. ينظر: سيبويه، الكتاب: 3/59 - 60، والواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 2/398.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/480.

(5) رياض الخوَّام، (مهما) في الدَّرس النَّحويّ، ص: 9 - 10.

(6) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/269، وعزاه إلى قوم لم يسمّهم؛ وبذا تكون نسبة النَّحويين الرَّأيَ إليه غير دقيقة، يُنظر: الخوّام، (مهما) في الدَّرس النَّحويّ، ص: 20 - 22.

بتضمُّن معنى الرَّدع مُزادًا على الجُحود والكُفران؛ ممَّا يعني أنَّ هناك إصرارًا وعنادًا على عدم الإيمان[1]؛ لأنَّ (مَه) كلمةٌ يُصَوِّتُ بها النَّاهي[2].

ثالثًا: أو هي اسمٌ مُضَمَّن معنى الشَّرط، وأصلُها: (ما) الموصولة، أو النَّكرةُ الدَّالَّة على العُموم، ورُكِّبتْ معها (ما) لتصييرها شرطيَّةً، وجُعلتِ الألفُ الأولى هاءً؛ استثقالًا لتكرير المتجانِسَين، ولقُرب الهاء مِنَ الألف، فصارت: ﴿مَهۡمَا﴾، ومعناها: (شيءٌ ما)، وهي مُبهَمَة؛ فيؤتى بعدَها بـ﴿مِنۡ﴾ التَّبيينيَّة، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: إن تأتِنا بشيء مِنَ الآيات، فما نحن لكَ بمؤمنين[3].

نُكتةُ رفْعِ ﴿مَهۡمَا﴾ على الابتداءِ، أو نصْبِها على الاشتغالِ:

استِغراقُ العمومِ، يأتي لِترسيخ نَفْيِهم الإتيانَ أيًّا كان كُنْهُه

و﴿مَهۡمَا﴾ اسمُ شرطٍ جازِمٌ مَبْنِيٌّ على السُّكون في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والتَّقدير: (أيُّما شيءٍ تأتينا به)، وخَبرُه الشَّرطُ، وجوابُه: ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، ويجوز كَونُها في محلِّ نَصْب لفعل محذوفٍ يدلُّ عليه فعلُ الشَّرط: ﴿تَأۡتِنَا بِهِۦ﴾ المذكور؛ فيكون مِن باب الاشتغال، ويُقَدَّر الفعلُ متأخِّرًا عنِ اسم الشَّرط، والتَّقدير: أيَّ شيءٍ تحضرنا تأتينا به[4].

إيثارُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ المجزومِ، في فعْلِ الشَّرطِ:

التَّلميحُ إلى عدمِ مُبالاتِهم، وترسيخ إصْرارِهم على الكِبْرِ والعِنادِ

﴿تَأۡتِنَا﴾ عطفُ بيانٍ، أو تفسير لـ ﴿مَهۡمَا﴾، ولذلك جُزِمَ بحذف حرف العلَّة[5]، وكأنَّ في الحذف إلماحًا بلا مُبالاتهم بما سيأتي به موسى، وعَدَلَ عن لفظ المجيء إلى لفظ الإتيان؛ لأنَّ المجيء يُقال باعتبار الحصول، أمَّا الإتيانُ فيُقال باعتبار القَصْد، وقد أشرنا إلى

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4318.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/264.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/146، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/371، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68.
(5) الشِّهاب، عناية القاضي: 4/354.

ذلك آنفًا، والموضع مَظِنَّة القصد، مناسبٌ لصيغة المضارع الدالِّ على الاستقبال، أي: وإنِ استمرَّ إتيانُكَ بالآيات وتجدَّدَ؛ وذلكم مبلَغُ المكابرة والعناد.

نُكْتَةُ تذْكيرِ الضَّميرِ وتأنيثِه، في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بِهَا﴾:

مُراعاةُ اللَّفظِ مِن حُسْنِ النَّظْمِ وبديعِه

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ للتَّعدِيَة، وذَكَّر الضَّمير فيه، وأنَّثه في ﴿بِهَا﴾ رعيًا للطيفة فيه؛ وهي أنَّ الضَّمير الأوَّل لـمَّا عاد إلى ﴿مَهْمَا﴾ - ولفظُه مُذَكَّر - ذُكِّر رَعيًا لجانب اللَّفظِ لإبهامه، والضَّمير الثَّاني إنَّما رجع إليه بعدَ ما بُيِّنَ بقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾، فأُنِّثَ بهذا الاعتبار؛ للمحافظة على جانب المعنى(1).

سِرُّ التَّعْبير بحرفِ التَّبْيين ﴿مِنْ﴾، وأثرُه في البيانِ:

الاسْتِهزاءُ والتَّعنُّتُ والمُكابرةُ، مع الإصرارِ على الكُفرِ، دَواعٍ للهلاكِ

﴿مِنْ﴾ التَّبيينيَّةُ و﴿ءَايَةٍ﴾، كلاهما لبيان إبهام ﴿مَهْمَا﴾، وسَمَّوا ما جاء به موسى آيةً باعتبار الغرضِ الذي تحدَّاهم به موسى حينَ الإتيانِ بها؛ لأنَّ موسى يأتيهم بها استدلالًا على صدق رسالته، وهم لا يَعُدُّونها آيةً، ولكنَّهم جارَوا موسى في التَّسميَة؛ قاصدينَ بذلك الاستهزاءَ، والتَّلهِّي، والسُّخْريَة، والتَّهكُّم؛ إذ زعموا أنَّها نوعٌ مِنَ السِّحْر، كما يُنْبِئُ عنه قولُهم: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾، ولو قالوا ذلك اعتقادًا لم يُردفوها بقولهم: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾، وبقولهم: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(2)، وكلُّ هذه مقدِّماتٌ تُبْرِزُ الإهلاكَ الذي قال الله فيه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف: 129](3).

فائِدةُ فِعليَّةِ الجُملةِ، والتَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾:

إظهارُ كَمالِ طُغيانِهم، وغُلُوِّهم، وإصْرارِهم على الكُفْرِ

اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ للتَّعليل، وعَبَّروا بالمضارع للدّلالة على نسبة تجديد فعل السِّحْر إليه، وفي التَّعبير بالضَّمير

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 6/532، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/264 - 265.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/146، والنَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/307، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68 - 69.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4318، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/359.

- ولم يقولوا: (لتَسْحَرَ بها) - إشارةٌ إلى أنَّهم مَحطُّ قصدٍ دون غيرهم، و(الباء) للاستعانة، وتعبيرهم بالجُملة الفعليَّة ترسيخٌ لتَجَدُّد حَدَثِ سِحْرهم، بحسب ظنِّهم، وفيه إظهارٌ لكمال الطُّغيانِ، والغُلوِّ، والإصرارِ على الكُفر، وتسميَةِ الإرشاد إلى الحَقِّ بالسِّحْر تسكيرٌ للأبصار[1].

ثبوتُ انْتِفاءِ الإيمان، بتعليقِه بموسَى عليه السلام

بَلاغةُ التَّعْبير بالمؤَكِّداتِ، واسميَّةِ الجُملةِ، وتقديمِ الجارّ والمجرورِ:

الفاء في ﴿فَمَا﴾ جوابيَّة للتَّرتيب، والتَّعقيب، والسَّببيَّة، رابطةٌ لجواب الشَّرط. واللَّام في ﴿لَكَ﴾ للفَرْق بين إيمان التَّصديق، وإيمان النَّجاة[2]. وجملةُ: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مفيدةٌ المبالغة في القَطْع بانتفاء إيمانهم بموسى؛ لأنَّهم صَدَّروا الجُملةَ بـ ﴿نَحْنُ﴾، وجاؤوا في كلامهم بما حوته الجُملةُ الاسميَّة التي حَكَتْهُ، مِنَ الدّلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامِه، وبما تُفيدُه (الباء) مِن توكيد النَّفي، وما يُفيده تقديمُ مُتعلَّق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ مِنِ اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به، المنفي باسمه[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/264 - 265.
(2) قباوة، المفصَّل، ص: 592.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370 - 371، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/69.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حُلولُ العقوباتِ الفادحةِ، جزاءُ جرائرِ الكفرةِ الفاضِحةِ

حين أخبروا عن أنفسهم أنَّهم لا يؤمنون بشيء ممَّا يجيء به موسى، مِنَ الآيات التي هي في زَعْمِهم مِنَ السِّحْر، نزلت بهم مِنَ الله ﷻ أصنافُ العقوبات(1). ولمَّا جنَّسُوا فنونَ المخالفاتِ، ونوّعوا أصنافَها؛ جنَّسَ عليهم العقوباتِ، فلا إلى التَّكفير عادوا، ولا إلى التَّطهير تَصَدَّوا، وعُوقبوا بصرف قلوبهم عن شُهود الحقائق؛ وذلك أبلغ ممَّا اتَّصل بظواهرهم مِن فنون البلايا، نعوذ بالله مِنَ السُّقوط عن عين الله(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على دَوَران الشَّيء على الشَّيء، وأن يُحَفَّ به ثمَّ يُحْمَل عليه(3)، والطُّوفان: الماءُ الذي يَغْشَى كلَّ مكانٍ، ويُحيط به(4)، وقيل: الطُّوفان المَوْت(5)، ويُقَال لشِدَّة سَوادِ اللَّيْل: طُوفان(6). والطُّوفان مِن كُلِّ شَيءٍ: ما كان كثيرًا مُطِيفًا بالجَماعة كلِّها، كالغَرَقِ الذِي يَشْتَمِلُ على المُدُن الكَبِيرَة، والمَطر، والقتل الذَّرِيع، والموت الجارف(7)، فالطُّوفان: كلُّ حادثة تُحيط بالإنسان.

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/271.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/560 - 561.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/51.
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (طوف).
(7) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/164، والنَّحاس، معاني القرآن الكريم: 5/217.

وعلى ذلك قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133]، وصار متعارفًا في الماء المتناهي في الكَثْرة؛ لأجل أنَّ الحادثة التي نالت قومَ نوح كانت ماءً، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: 14][1]، وبه فُسِّرتِ الآيةُ الكريمة عند أغلب المفسِّرين، قال الزَّمخشريُّ: "الطُّوفان ما طاف بهم وغلبهم مِن مطرٍ أو سيل"[2].

2) ﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾: يجوز أن يُجْعَل أصلًا فيُشْتَقُّ مِن فعله: جَرَدَ الأرض، ويصحُّ أن يُقال: إنَّما سُمِّيَ لجَرْدِه الأرضَ مِنَ النَّباتِ، يقال: أرضٌ مجرودة، أي: أُكِلَ ما عليها حتَّى تجرَّدتْ[3]، والجراد يأكل خَضِرَ الأرض التي يمرُّ بها، ويتركُها جَرْداء[4].

3) ﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾: وهو الدُّبَى الذي لا أجنحة له[5]، أو دَوَابُّ أصغَرُ مِنَ الْقَمْل[6]، أو هي الصِّغار مِنَ الجَراد الذي ليس له أَجْنِحَة، وتُسَمَّى: الجنادِب[7]، أو هي دوابُّ صغارٌ مِن جنس القِرْدان، إلَّا أنَّها أصغرُ منه[8]، أو صِغار الذَّرّ[9]، ومع اختلاف تحديد نوع هذه الحشرة، إلَّا أنَّها لا تَخرج بمجموعها عنِ الاتِّفاق على كونها حشرةً مُضِرَّةً مُؤذِيَةً، أَكَلَتْ كلَّ ما كان أبقى الجرادُ[10].

4) ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾: جمع ضَفْدَع، أو ضُفْدَع، أو ضُفْدُع، أو ضِفْدَع، وهي: دابَّةٌ نهريَّة[11]، أو حيوانٌ برمائِيٌّ مِنَ الفقاريَّات، دقيقُ العظام، ذو نقيق، ليس له ذيل، سريع السِّباحة (للمذكَّر والمؤنَّث)[12]، وقد أُرسِلَت على قوم فرعون الضَّفادِع تَدْخل في ثيابهم وفي طعامِهم[13].

5) ﴿وَٱلدَّمَ﴾: الدَّمُ معروف، وأصله: دَمَيٌ، أو دَمْيٌ، أو دَمَى، أو دَمًا[14]، وهو: مائعٌ أحمرُ

(1) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/146.
(3) الرّاغب، المفردات: (جرد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جرد).
(5) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/392.
(6) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(7) الأنباريُّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/222، والكَفويُّ، الكلِّيَّات، ص: 738.
(8) النَّحاس، معاني القرآن: 3/70.
(9) الرّاغب، المفردات: (قمل).
(10) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/392.
(11) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، ص: 742.
(12) مجموعة باحثين، المعجم الوسيط: 1/541، وأحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: 2/1365.
(13) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(14) الخليل، العين: (دمي)، والزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/165، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (دمي).

تمتلئ به أثناءُ بدنِ الحيِّ، فيتجسَّمُ الحيُّ ويتماسك، كالدَّم المعروف في أثناء البدن وعُرُوقه[1]، وهو معنى لفظةِ (الدَّم) في الآية المباركة، أي: أرسل اللّهُ عليهم (الدَّمَ)، فتحوَّلت عيونُهم وأنهارُهم دمًا[2]، أي: جعل مَاءَهم دَمًا[3]، وكانوا يجدون الدَّم في ثيابهم وشرابهم وطعامهم[4].

6) ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾: (فصل) كلمةٌ صحيحة، تدلُّ على تمييز الشَّيء مِنَ الشَّيء وإبانتِه عنه[5]، والفَصْل: إبانةُ أحدِ الشَّيئين مِنَ الآخر، حتَّى يكون بينهما فُرْجَة[6]، وتَميُّزُ الشَّيءِ مِن غيره مع تمام، وتفصيل الشَّيء: تبيينُهُ، أي: جَعْلُه فُصولًا مُتمايزةً، بتمييز أجزائه، وتوضيح جُزْئيَّاته، فيصبحُ موضَّحًا، مُزالَ الإشكال[7].

و﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾، أي: إنَّ بعضها منفصِل مِنْ بعض[8]، أُزيل اتِّصالها، وفُرِّق بينَها، وأُزيلَ اشتراكُها وإشكالُها، فيجيءُ مِن ذلك بيانُها، فهُنَّ مبيَّناتٌ ظاهراتٌ مُتَميِّزاتٌ وواضحاتٌ، أو هُنَّ: مُفَرَّقاتٌ بالزَّمن[9]، فُصِل بين بعضِها وبعضٍ بزمانٍ تُمْتَحَنُ فيه أحوالُهم[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

نِقَمُ اللهِ المتلاحقةُ، الّتي توالَى إنزالُها بالآياتِ الصّاعقةِ الماحِقةِ

لـمَّا تمادَوْا في كفرهم، وصرَّحوا بعدم الإيمان، أرسل اللّهُ عليهم أنواعَ العذاب؛ مِنَ ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الذي غَشَّى المكانَ كلَّه ماءً، و﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾ فأكلتْ عامَّةَ زروعِهم وثمارِهم، و﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾ فتَتَبَّعَ ما بقيَ مِن حُروثِهم وأشجارِهم، و﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ تدخل في طعامهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دمي).
(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/392.
(3) الزجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(4) النَّحاس، معاني القرآن: 3/70.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(6) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فصل).
(8) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(9) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/444، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/148، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (فصل).
(10) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148.

وشرابهم، و﴿وَٱلدَّمَ﴾ فسالَ النِّيلُ عليهم دمًا، وصارت مياههم كلُّها دمًا، وأرسل اللّهُ كلَّ ذلك آياتٍ ظاهراتٍ مُتميِّزاتٍ، الواحدةَ بعدَ الأُخرى، وكانوا مع كلِّ آية مِن هذه الآيات يسألونَ موسى أنْ يرفع عنهم العذابَ، معاهدينَ إيَّاه بالإيمان، فإذا رفعه اللّهُ تعالى عنهم عادُوا جاحدينَ كافرينَ مستكبرينَ عن عبادته؛ لكونهم قومًا مجرمين[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّ ما حصلَ مع آل فرعونَ مِن نَكْثِ العُهود، والمكابرة، والجُحود، يشابهُ حالَ كثيرٍ مِنَ المشركين؛ لإيمانهم وقتَ الشِّدَّة، وكُفْرِهم في الرَّخاء[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الوصْل بالفاءِ، في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾:

الإصابةُ بهذه العقوباتِ الشِّدادِ، نِتاجٌ للعُتوِّ والعِنادِ

الفاء عاطفةٌ للتَّرتيب، والتَّعقيب، والإشعار بسببيَّة ما قبلَه، ولتفريع إصابتهم بهذه العقوبات، على عُتوِّهم وعنادهم[3]، وهي تُفيدُ سُرعة الإرسالِ مِن غير مُهْلة؛ جزاءً لِعُتوِّهم وإصرارهم على الكُفر، فإنَّ العذاب لن يتراخى عنهم[4].

عِلَّةُ صَوْغِ الإرسال ماضيًا، وتعدِّيه بـ(على):

تحقيقُ معنَى التَّسليطِ، وتَفْريعِ العذابِ

التَّعبير بالفعل الماضي يُفيد تَحَقُّقَ وقوعِ الفعل، وعُبِّر عن فعل الإرسال بالتَّسليط مِن قَبيل عموم المجاز[5]، والإرسالُ حقيقتُه: توجيهُ رسولٍ أو رسالةٍ، فيُعَدَّى إلى المفعول الثَّاني بـ (إلى)، ويُضَمَّن معنى الإرسال مِن فوق، فيُعَدَّى إلى المفعول الثَّاني بـ (على)، فحَرْفُ (على) المؤدِّي معنى الاستعلاءِ دلَّ على أنَّ جملة:

(1) الواحديُّ، الوجيز، ص: 409.
(2) اللاَّحِم، عون الرَّحمن: 9/274.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/481، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/69.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/483.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/484.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ مُفرَّعَةٌ تفريعَ العقابِ، لا تفريعَ زيادةِ الآياتِ[1]، و(نا) ضميرُ التَّعظيم المناسب لقُدرته تعالى وعَظَمَتِه.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعولِ:

كَونُ اللّفظِ الأهمِّ، يُعطِيه الأولويّةَ، على خلافِ رُتبتِه الأصليّة

تقديم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المفعول به الصَّريح ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾؛ إذ الأهمُّ الإرسالُ عليهم؛ ولأنَّ للمفعول به الصَّريح طُوْلَ التَّذييل[2]، بتعالق المعطوفات معه فأصبح تعَدُّدُ صنوفِ العذاب وتعالُقُها مع بعضه تراتبًا، وتظافرُها عليهم وكأنَّها وعاءُ عذابٍ واحدٍ تعدَّدت صُورُه.

بَديعُ تنوُّعِ الصِّيغِ الصَّرفيةِ، تعبيرًا عن صنوفِ العذابِ المرئيّةِ:

دَلالاتُ غاياتِ ألوانِ العقابِ، أشدُّ في التّعبيرِ عن صنوفِ العذابِ

فالطُّوفَان: على وَزْن (فُعْلان) جمع طُوفانَة، أو اسمُ جنسٍ مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّواف؛ لأنَّ الماء يَطُوف ويَعُمُّ بالمنازل، أي: تتكرَّر جِرْيَتُه حولَها، أو هو مصدرٌ كنُقصان، ورُجحان فلا يُجمَع، ويقال لكلِّ شيء حادث يُحيط بالجهات ويعمُّ.

والجَراد: على وَزْن (فَعَال)، بمعنى: اسم الفاعل؛ للمُبالغة مِن مصدر: (جَرَدَ)، عُبِّرَ به عن اسم الذَّات لتوكيد المبالغة.

ووزنُ قُمَّلٍ: (فُعَّل) صفة مُشَبَّهة للمُبالغة، مِن مصدر: قَمِلَ، عُبِّرَ به عن اسم الذَّات لتوكيد المُبالغة، وهو اسمُ جنسٍ، أصلُه (قُمْمَلٌ) أُدغِمت الميمُ الأُولى في الثَّانية[3].

وعُبِّرَ بالجمع عنِ الألفاظ للدّلالة على التَّكثير، باستثناء لفظ (الطُّوفَان) على تأويل الجنسيَّة والمصدريَّة. والدَّمُ المُصاغُ اسمَ جنسٍ دالٌّ على عُموم الجنس، قليلِه وكثيرِه.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/69.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/481.

(3) الشِّهاب، عناية القاضي: 4/354، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/481، وقباوة، المفصّل، ص: 593.

والألفُ واللَّام في الألفاظ الخمس عهديَّةٌ، والمعهودُ: العذابُ المُفَصَّل[1]، أو هي: لتعريف حقيقة الجنس[2].

بَلاغةُ مُراعاةِ النَّظيرِ، وما لها من حُسْنٍ وتأثيرٍ:

تَراتُبيَّةُ الألفاظِ وتناسُبُها، وحُسْنُ انْتِظامها؛ من بديعِ التّنسيقِ في السِّياقِ

ورد في الآية مِن ألوان البلاغة ما يُسَمَّى بمراعاة النَّظير[3]، وهو مِن المُحسِّنات اللُّغويَّة المعنويَّة؛ لمراعاة المحاسن المتعلِّقةِ بمفردات الألفاظ، وذلك جَليٌّ في سِرِّ استعمال لفظة: ﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾، وهي لفظةٌ مُسْتَهْجَنَةٌ في غير القرآن، في حين وردت في الآية حَسَنَةً مُستَساغةً، وإنَّما حَسُنَتْ هذه اللَّفظةُ في الآية؛ لأنَّها جاءت مُتدرِّجةً في ضمن كلامٍ متناسبٍ، ولم ينقطع الكلامُ عندها.

وإذا نظرنا إلى حِكْمةِ أسرارِ الفَصاحة في القرآن الكريم، غُصْنا منه في بحرٍ عميق لا قرارَ له، فالآيةُ المُشارُ إليها قد تضمَّنت خمسةَ ألفاظٍ، وهي: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾، و﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾، و﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾، و﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾، و﴿وَٱلدَّمَ﴾، وأَحسَن هذه الألفاظ الخمسة هي: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾، و﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾، و﴿وَٱلدَّمَ﴾، فلمَّا وردت هذه الألفاظُ الخمسةُ بجملتها، قُدِّمَ منها لفظتا: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ و﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾، وأُخِّرت لفظةُ: ﴿وَٱلدَّمَ﴾ آخِرًا، وجُعِلت لفظتا: ﴿وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ﴾ في الوسط؛ ليَطْرُقَ السَّمعَ أوَّلًا الحَسَنُ مِنَ الألفاظ الخمسة، وينتهي إليه آخِرًا، ثمَّ إنَّ لفظة: ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أَحْسُن مِن لفظتي: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ و﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾، وأَخَفُّ في الاستعمال، ومِن أجل ذلك جِيء بها آخرًا، ومُراعاةُ مثلِ هذه الأسرار والدَّقائقِ في استعمال الألفاظ ليس مِنَ القُدْرة البشريَّة[4].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/484 - 485.

(2) قباوة، المفصّل، ص: 593.

(3) مُراعاة النَّظير: هو جمع الأُمور المُتناسبة، أو هو: الجمع في العبارة الواحدة بيَن المعاني التي بينَها تناسبٌ وائتلافٌ ما، لا على سبيل تقابلِ التَّناقض أو التَّضادّ أو التَّضايف. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 614، والصَّعيديّ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 4/583.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 1/169، وجاهين، من صور البلاغة القرآنية، ص: 177 - 178.

سَبَبُ التَّعْبِير بلفظِ ﴿ءَايَٰتٖ﴾، ووصْفِها بأنّها ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾:

الآيــاتُ دَلائـلُ على غضَبِ الله، وبيانٌ لما سلّطَه الله على المناوِئين

وسمَّاها اللّهُ ﴿ءَايَٰتٖ﴾؛ لأنَّها دلائلُ على صِدق موسى، لاقترانها بالتَّحدِّي، ولأنَّها دلائلُ على غضب اللّه عليهم، لتظافرها عليهم حين صمَّمُوا على الكُفْر والعِناد.

وانتصب ﴿ءَايَٰتٖ﴾ على الحال مِن ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ وما عُطِفَ عليه.

﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ اسم مفعول مِن (فَصَّل) المضاعفِ الدَّالِّ على قُوَّة الفَصْل[1]، وأُخْلِصَ الوصفُ ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ ﴿ءَايَٰتٖ﴾ مِن محض التَّنكير، وفي ذلك مِنَ الإيضاح بعدَ الإبهام، ما ليس في التَّعريف بالإضافة.

التَّعْبيرُ عنِ المعنى، على طريقِ الاسْتِعارةِ التَّصريحيَّة:

الــدّلالــةُ على الاكْــتــمــالِ والـتَّـعـدُّدِ، مع الظُّهورِ والتّفرُّدِ

في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيثُ استعار ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ مِن معنى إزالةِ اللَّبْس والاختلاطِ؛ للظُّهور والوضوح في الآيات، فَشَبَّه ظهورَ الآياتِ ووضوحَها وقيامَ حُجَّتِها وتَعَدُّدَها بالأشياء المحدَّدة بحدودٍ وفواصلَ، ثمَّ حذف المُشَبَّهَ به، ورَمزَ له بشيءٍ مِن لوازمه، والعلاقةُ بينهما إزالةُ اللَّبْس في كلٍّ، والسِّرُّ البلاغِيُّ: هو الدّلالة على الاكتمال والتَّعدُّد مع الظُّهور والوضوح[2]. فالفصلُ حقيقتُه: التَّفرقةُ بينَ الشَّيئين، بحيث لا يختلط أحدُهما بالآخَر، ويُستَعار الفصلُ لإزالة اللَّبْس والاختلاطِ في المعاني، فـ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ وصفٌ لـ﴿ءَايَٰتٖ﴾، فيكونُ مُرادًا منه معنى الفصلِ المجازيِّ، وهو إزالةُ اللَّبْس؛ لأنَّ ذلك هو الأنسب بالآيات والدَّلائل، أي: هي آياتٌ واضحاتٌ لا شُبهة في كونها كذلك، لِمَن نَظَرَ نَظَرَ اعتبارٍ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70.

(2) جاهين، من صور البلاغة القرآنيّة في سورة الأعراف، ص: 177 - 178.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70.

أو المرادُ: أنَّها مفصولٌ بعضُها عن بعضٍ، بزمان تُمتحَنُ فيه أحوالُهم، ويُنظرُ: أَيَستَقيمون على ما وَعَدُوا مِن أنفسهم؟ أم ينكُثون؟ إلزامًا للحُجَّة عليهم[1].

أي: لم تحدُث كلُّها في وقت واحد، بل حدثَ بعضُها بعدَ بعض، وعلى هذا: فصيغَةُ التَّفعيلِ للدّلالة على تراخي المدَّة بينَ الواحدة والأُخرى، ويَجِيء على هذا أنَّ العذاب كان أشدَّ وأطولَ زمنًا، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: 48]، وعلى هذا الوجه: فالأنسبُ أن يُجعَل ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ حالًا ثانيةً مِنَ ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾، وأن لا يُجْعَل صفة ﴿ءَايَٰتٍ﴾[2].

إيثارُ التّعْبير بالفاءِ السّببيّة، والفعْلِ المزيد، في: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾:

الفَسادُ طبَعَ القلوبَ، وغَمَسَ أصحابَها في الضّلالةِ والتّكبُّرِ

والفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ للسّببيَّة، وللتَّفريع والتَّرتُّب، أي: فتَفَرَّعَ على إرسال الطُّوفان وما بعدَه استكبارُهم، كما تَفرَّعَ على أَخْذِهم بالسِّنينَ غرورُهُم، فقالوا بأنَّ ذلك مِن شُؤم موسى ومَن معه، فعُلِمَ أنَّ مِن طَبعِ تفكيرِهم فسادَ الوضْعِ، وهو انتزاعُ المدلولاتِ مِن أضدادِ أدلَّتها، وذلك دليلٌ على انغماسهم في الضَّلالة والخِذْلان، وبُعْدِهم عنِ السَّعادة والتَّوفيق، فلا يزالونَ مورَّطين في وَحْلِ الشَّقاوة، فالاستكبارُ: شِدَّةُ التَّكبُّر، كما دلَّت عليه السِّينُ والتَّاء، أي: عَدُّ أنفسِهم كُبَراءَ، أي: تعاظمُهم عنِ التَّصديق بموسى، الذي يُؤدِّي إلى إبطالِ دينِهم؛ إذ أعرضوا عنِ التَّصديق بتلك الآياتِ المُفَصَّلات[3].

بَلاغةُ التَّعْبير بفنِّ التَّذْييل:

تقريرُ الدّلالةِ على ما قبْلَ التّذْييلِ، مِنَ العذابِ المُفَصَّلِ

و﴿وَكَانُواْ﴾: فِعْلُ مُضِيٍّ يُفيد تَحقُّقَ وُقوعِ الخبرِ، وهو وَصْفُ

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/536.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70 - 71.

الإجرام واستمرارُه، و﴿قَوۡمٗا﴾ خبرٌ مُوَطِّئٌ للوصف بعدَه، يُفيد المبالغةَ والتَّوكيد[1]، وجملةُ: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ معطوفةٌ على جُملة: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، فالمعنى: فاستكبَروا عنِ الاعتراف بدلالة تلك الآياتِ وأجرموا[2]، وهي جملةٌ تذييليَّة مُقَرِّرةٌ لدلالة ما قبلَها، يعني: العذابَ المفصَّل[3].

فائِدةُ التَّعْبير عن خَبَرِ إجرامِهم بالجُملةِ الاسْميَّةِ:

ثباتُ الوصْفِ وتمكُّنُه ورُسوخُه فيهم، عِلَّةٌ للاسْتِكبارِ

وصِيغَ الخبرُ عن إجرامهم بصيغة الجُملة الاسميَّة للدّلالة على ثبات وَصْفِ الإجرام فيهم، وتَمكُّنِه منهم، ورسوخِه فيهم مِن قَبل حدوثِ الاستكبار، وفي ذلك: تنبيهٌ على أنَّ وَصْفَ الإجرامِ الرَّاسخ فيهم هو عِلَّةٌ للاستكبار الصَّادرِ منهم، فالفعلُ (كان): دالٌّ على استمرار الخبر، وهو وَصْفُ الإجرام[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(فَصَلَ) و(فَرَّقَ):

الفَصْلُ في الكلامِ، لِما كان مُرتبِطًا مُتسلسِلًا، والفَرْقُ لِما كان بائنًا عمّا يَقترنُ معه

إنَّ الفَصْل يكون في جملة واحدة، ولهذا يقال: فَصَّل الثَّوبَ، وهذا فَصْلٌ في الكتاب؛ لأنَّ الكتاب جملة واحدة، فالفَصْل يكون ضمن كلام متسلسلٍ مرتبطٍ أوَّلُه بآخِره، غيرِ مختلفٍ عنه، ولا ببائنٍ منه، كما هو الحال في الفَرْق، ولذلك يُقال: مِفْصَلُ الرُّسْغ وغيرِه؛ لأنَّ العضو من جملة الجَسد، ولا يُقال في ذلك: مِفْرَق؛ لأنَّه ليس بائنًا، ويقال فرَّق بينَ الأمرين، ولا يقال: فَصَل، وقال بعضُهم: الفَصْل ما كان مِنَ الفَرْق ظاهرًا، ولهذا يقال لما تضمَّنَ جِنْسًا مِنَ الكلام: فصلٌ واحدٌ؛ لظهورِه وتجلِّيه.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71، وقباوة، المفصّل، ص: 593.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/484، والإندونيسّي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/422.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71.

ولـمَّا كان الفَصْل لا يكون إلَّا ظاهرًا، قالوا: فَصَّل الثَّوب، ولم يقولوا: فرَّق الثَّوب[1]، والفَصْلُ أنسب لسياق ورودِ آيات العذاب؛ لكونها جاءت مُفَصَّلاتٍ متسلسلاتٍ مترابطات، إحداها بإثْر الأُخرى، حتَّى عُبِّرَ عن جماعها بالرِّجْز، كما سيأتي في الآية التالية.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 149 - 150.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ [الأعراف: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وحين فاقَ وَقْعُ العذابِ تحمُّلَهُم، وتجاوزَ طاقتَهم، أخذوا يتذلَّلون لموسى عليه السلام ويستعطفونَه[1].

المناسبةُ بين الهلاكِ بالآياتِ، والاسْتِنجادِ بموسَى، لكَشْفِ الرِّجزِ في كلِّ مرّةٍ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَعَ﴾: فُسِّرت اللَّفظة عند تفسير (الآية: 118)، ومعنى ﴿وَقَعَ عَلَيۡهِمُ﴾ في هذه الآية الكريمة بحسب المفسِّرين: حَلَّ[2]، وأصابهم ونزلَ بهم، وثَبَتَ[3].

2) ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾: (رجز) أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ[4]، والرِّجْز: العَذابُ، وكلُّ عذابٍ أُنزل على قومٍ فهو رِجزٌ[5]، وهو: الغضب[6]، والسُّخط[7]، والموت[8]، والطَّاعون[9]، والرَّين على القلب بزيادة الكفر[10]. والظَّاهر مِنَ الآية الكريمة أنَّ المراد بالرِّجْز: العذابُ المتقدِّم ذِكْرُه؛ مِنَ الطُّوفَان والجَراد وغيره[11]، أو المراد منه جِنْسُه،

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/360.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/72.
(3) الواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 2/382، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/373.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجز).
(5) الخليل، العين: (رجز).
(6) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/480.
(7) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/382.
(8) الكرمانيّ، غرائب التفسير: 1/419.
(9) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/179.
(10) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/237.
(11) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/445.

وهو كلُّ عذاب تضْطرب له القلوبُ، أو يضطربُ له النَّاسُ في شؤونهم ومعايشهم، وهو يشمل كلَّ نِقمة وجائحة أنزلها اللّٰه تعالى على قوم فرعون، كالخَمْس المُبَيَّنةِ في هذا السِّياق[1].

3) ﴿ٱدۡعُ﴾: (دعو) أصلٌ واحدٌ، وهو أن تُمِيلَ الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلام يكونُ منك[2]، والدُّعاءُ (بالضَّمِّ ممدودًا): الرَّغبةُ إلى اللّٰه تعالى فيما عنده مِنَ الخير، والابتهالُ إليه بالسُّؤال[3]، وهو التَّضرُّعُ إلى اللّٰه ﷻ في طلبِ أمرٍ، وهو في القرآن كثيرٌ، وسياقاتُه واضحةٌ[4].

4) ﴿كَشَفۡتَ﴾: (كشف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سَرْوِ الشَّيء عنِ الشَّيء، كالثَّوب يُسْرَى عنِ البدن[5]، والكَشْفُ: رفعُكَ شيئًا عمَّا يُواريه ويُغَطِّيه؛ كرفع الغطاء عنِ الشَّيء[6]، فمِن تنحية الغطاء الماديِّ: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ [النمل: 44]، ثمَّ استُعمل في تنحية ما يُغَشِّي معنويًّا: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾[7]، وكَشَفَ الأمرَ يَكْشِفه كشفًا: أظْهَره[8]، وسائر ما في القرآن مِنَ التَّركيب هو من كشف الضُّرِّ والعذابِ والسُّوءِ والآزفةِ[9].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اشْـتِـدادُ وَقْـعِ الـرِّجْـزِ عليهم، سببٌ في اللُّجوءِ إلى الـلـه، والتِماس الفرَجِ لرفْعِ الحرَجِ

لـمَّا وَقَعَ على قوم فرعونَ العذابُ المفصَّلُ، أو الطَّاعون المُرسَلُ عليهم بعدَ ذلك، أو غيره، فاضطربوا اضطراب الأَرْشِيَة[10] في البئر البعيدة القَعْر، وحاصُوا حَيْصَةَ الحُمُرِ المستنفِرة، وفزعوا إلى

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/82.
(2) ابن فارس، المقاييس: (دعو).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (دعو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كشف).
(6) الخليل، العين: (كشف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كشف).
(8) ابن سيده، المحكم: (كشف).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (كشف).
(10) جمع رشاء، والرِّشاء: حبل الدَّلو، يُنظر: الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (رشا).

موسى، وقالُوا: يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ مِنَ النُّبوَّة والجاه، أو بدعائك إليه ووسائلك، أنْ يكشف عنّا العذاب، ويُنحّيَه؛ لِنُؤمنَ لكَ، ونُرْسِلَ معك بني إسرائيلَ كما طلبتَ[1].

وتُرْشِدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ مِن خِذْلان الكِبَر والجحود أنَّ الكافرين إذا شعروا بالهزيمة، أو أحسُّوا بالعذاب، همُّوا لخصومهم يسألونهم: النَّجاة والإحسان إليهم؛ لأنَّهم موقنون أنَّ خصومهم على الحقِّ، ومعترفون بأفضليَّتهم[2]، وتُفْصِح أيضا عن أنَّ لجوءَهم إلى موسى عليه السلام دليلُ اعترافِهم ببطلان ألوهيَّة فرعون، وأنَّ موسى مقبولُ الدُّعاء عند رَبِّه، وهذا مِن تمام أفضليَّته عندهم، وإنْ لم يَكْشِف ربُّه هذا العذابَ فسيستمرُّ ويتواصلُ عليهم، وكلُّ هذه مُقدّماتٌ تُوجِبُ الإيمانَ بالله، لا الإنكارَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التَّفْصيلِ والتّكرارِ:

﴿وَلَمَّا﴾ الواو عاطفة لمطلق الجمع، و﴿وَلَمَّا﴾ شرطيَّةٌ ظرفيَّةٌ للماضي، تُفيد التَّفصيل والتَّكرار. وجملة: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ معترضَة مُقَرِّرة لمضمون ما قبلها، أي: العذابِ المذكور على التَّفصيل[4].

التّقريرُ لمضمونِ ما سبَقَ، إيضاحُ يُفصّلُ ما ذُكِرَ مُتتابعًا في السّياقِ

بَلاغةُ التَّعْبير بلفْظِ: ﴿وَقَعَ﴾، على طريقِ الاسْتِعارَةِ:

عُبِّرَ بلفظ: ﴿وَقَعَ﴾ إشارةً إلى ثِقَل الأمر النَّازل بهم وشِدَّته[5]، فالوقوعُ: حقيقتُه سقوطُ الشَّيء مِن أعلى إلى الأرض، ومنه: وقع الطَّائر، إذا نزل إلى الأرض، واستُعير الوقوعُ لظهور أمرٍ رفيع القَدْر؛ لأنَّ ظهورَه كان بتأييد إلهيٍّ، فَشُبِّهَ بشيءٍ نزلَ مِن عُلوٍّ، وقد

تَثبيتُ حُلولِ العذابِ وتحقُّقِه، وإصابتُهم به وأثرُه

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/252، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/83.
(2) حسين الحسنيّة، هدايات وألطاف مِن سورة الأعراف، ص: 136 - 137.
(3) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 7/4321.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/35.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/244.

يُطلقُ الوقوع على الحصول؛ لأنَّ الشَّيء الحاصلَ يُشْبه النَّازل على الأرض، وهي استعارةٌ شائعةٌ[1].

والمعنى: أصابهم الرِّجْز وحلَّ بهم وثَبَتَ[2]، ففي التَّعبير به تجسيمٌ لهذا الرِّجْزِ الذي حلَّ بهم، وتثبيتٌ واستقرارٌ له، حتَّى لكأنَّه شيءٌ ذو ثِقَل نزل على شيء آخَر خفيفِ الوزنِ فأزاله[3]، ويرسِّخُه حرفُ الجرِّ: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، المُتَضمِّن معنى الاستعلاءِ المعنويِّ المسنَدِ إلى ضميرهم، فقُصِدَ إلى اختيار: ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾؛ ليكونَ أوقعَ أثرًا، وأدَلَّ معنًى على قُوَّة تَحقُّق العذابِ، وشِدَّة أَثَره، ممَّا أدى إلى اضطرابهم، وتنازلِهم مع كِبْرِهم، وخُضُوعِهم معَ تَعَنُّتِهم، مُسْتَنْجِدين بموسى عليه السلام.

دَلالةُ (أل) العَهديّةِ، في لفظِ ﴿ٱلرِّجۡزِ﴾:

حَمْلُ اللَّفظِ على المعلومِ، أولَى مِن حَمْلِه على غَيْرِ المعلومِ

﴿ٱلرِّجۡزُ﴾: يعني العذابَ المُفَصَّل المُوجبَ للاضطراب، فالتَّعريف باللَّام هنا للعَهْد، أي: العذابُ المذكور[4]، واختلف العلماء في المراد به، ورجَّحوا أنَّه الأنواعُ الخمسة المذكورة مِنَ العذاب الذي نزل وحَلَّ بهم؛ لأنَّ لفظ: ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ لفظٌ مُفردٌ مُحلًّى بالألف واللَّام العَهْديَّة، فينصرفُ إلى المعهود السَّابق، والمعهودُ السَّابق هاهنا: الأنواعُ الخمسةُ التي تقدَّم ذِكْرُها، وأمَّا غيرُها - كالطَّاعُون مثلًا - فغيرُ مشهور، وحملُ اللَّفظ على المعلوم أولى مِن حَمْلِه على غيره[5].

احْتِمالاتُ معانِي: ﴿ٱلرِّجۡزِ﴾:

توالِي العذابِ، ألجأَهم إلى الاسْتِنْجادِ بموسَى، والاعترافِ بآياتِ اللهِ المُعجزةِ

لتعدُّد احتمالات معاني: ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ استَغْنى عن ذِكْره في عِداد أنواع العذاب الخمسة، على احتمالِ كونه صنفَ عذابٍ مستقلًّا، وطوى ذِكْرَه هناك للإيجاز، وصرَّح به هنا، على تقدير: (وأرسلْنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/50.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/72، والواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 2/382، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/373.

(3) تمّتِ الإفادة من صَوغٍ قريبٍ من مضمون آية أخرى، يُنظر: طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/350.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/91.

(5) ابن عطيَّة، المُحَرّر الوجيز: 2/445، والفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/179.

عليهم الرِّجْز، ولمَّا وقع عليهم...)؛ تخْصِيْصًا له بالذِّكر؛ "لأنَّ له نبأً عجيبًا، فإنَّه كان مُلْجِئَهُمْ إلى التَّضرُّع بموسى عليه السلام ومُلاينته، والاعترافِ بآياته، ووجودِ ربِّه تعالى"(1).

سِرُّ التَّعْبير بالنِّداءِ، وقَصْديَّةِ إظهارِ المنادَى ﴿يَٰمُوسَى﴾:

الاسْتِعطافُ والاستغاثةُ والجَأْرُ، مَردُّها إلى تلاحُقِ العذابِ الخَطِرِ

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى﴾: تعبيرٌ بالنِّداء، وهو: الدُّعاءُ برفعِ الصَّوت، والغايةُ منه أن يُصغيَ مَن يُنادَى الى أمرٍ ذي بالٍ، والمنادَى هو المطلوب إقبالُه، بحرفٍ مخْصُوصٍ دلَّ على القُربُ هنا، وهو: (الياء)، بما يحملُهُ مِن توكيدٍ ومبالغةٍ؛ إذ فيه يُستثار المنادَى، ويُحرَّك، ويُنبَّهُ إلى ما يُلْقَى إليه مِن أوامرَ ونَواهٍ، فإذا أُلْقِيَ إليه الكلامُ كان مُستَعدًّا لتَقبُّله، ولذلك عَدلُوا إلى التَّعبير بالنِّداء، وإظهارِ المُنادَى، وهو موسى عليه السلام؛ مناسبةً للاسْتِعْطافِ والاسْتِغاثَةِ، جَرَّاءَ ما حلَّ بهم، وإظهارًا لرغبَتِهم في مَطْلَبهم.

سِرُّ تقديمِ الضَّميرِ على المفعولِ به:

تخصيصُ النَّجاةِ بأنفُسهم، وتعجُّلُهم في طَلَبِها، ولَهْفَتُهم إليها

﴿ٱدْعُ﴾: فعلُ أمر مبنيٌّ على حَذْف حرف العِلَّة؛ إيماءً بتعجُّلهم طَلَبَ الدُّعاء، ورغبتِهم في تعجيل موسى عليه السلام بها، والتَّعبيرُ بالجُملة الفعليَّة دليلُ اضطرابِهم، ولَهْفَتِهم إلى الخلاص، وإن كان وقتيًّا، وتَجَدُّدُ طَلَبِهم بالدَّعوة إلى حَدٍّ يزول عنهم العذاب.

وعَبَّروا بالضَّمير: (نا) مِن قوله: ﴿لَنَا﴾، مُقدَّمًا على المفعول؛ تخصيصًا لأنفسهم، وشدَّةَ عنايةٍ بها، لما أصابها مِن أذىً، وترسيخًا للتَّعجُّل بكَشْف الضُّرِّ عنهم.

سِرُّ انْتِقاءِ الضَّميرِ في الإضافةِ إلى موسَى بلفْظِ: ﴿رَبَّكَ﴾:

قولهم: ﴿رَبَّكَ﴾ بإضافة الرَّبِّ إلى موسى، نفيٌ لإقرار أنَّه ربُّهم؛ حيث لم يقولوا: ادعُ لنا ربنا(2)، ولا ينافي قولُهم هذا إيمانَهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.

بأنَّ لموسى ربًّا ورسالةً؛ لأنَّهم كانوا مشركين، وكانوا يُجوِّزون تَعَدُّد الآلهة، واختصاصَ بعضِ الأمم وبعضِ الأقطار بآلهة لهم، فهم قد خامرهم واستقرَّ في نفوسهم - مِن كَثْرة ما رأَوا مِن آيات موسى - أن يكون لموسى ربٌّ له تصرُّفٌ وقُدرة، وأنَّه أصابهم بالمصائب؛ لأنَّهم أَضرُّوا عبيدَه، فسألوا موسى أَنْ يَكُفَّ عنهم ربَّه، ويكون جزاؤه على كَشْف العذابِ الإذنَ لبني إسرائيل بالخروج مِن مصر؛ ليعبدوا ربَّهم(1).

ترسيخُ الجُحودِ، والإقرارُ بالرُّبوبيَّةِ، مع اليقينِ بتصرُّفِ الله وقُدرتِه

سِرُّ تنوُّعِ الدّلالاتِ، في تعدُّدِ معانِي (الباء):

تلوّنُ معاني الحرفِ في السّياقِ، ثَراءً في التّركيبِ، وغِنًى في المعجمِ

الباء في ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ إمَّا أن تكون للمُلابسة، أي: التَّوسُّل، مُتعلِّقة بقوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، والتَّقْديرُ: ادْعُ لنا متوسِّلًا إليه بعهده عندك. وإمَّا أن تكون للقَسَم الاستعطافيِّ، كما يُقال: (بحياتك افعل كذا)، فالمراد: استعطافه عليه السلام لأن يدعوَ ربَّه، أو للقَسَم الحقيقيِّ، وجوابُها قولُه: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾، أي: أقْسَمنا بعهد الله عندَك لئن كشفتَ عنَّا الرِّجْزَ لَنُؤمِنَنَّ لك، وإمَّا أن تكون للإلصاق، أو السَّببيَّة(2)، وإمَّا أن تكون لِتعدِيَة فعلِ الدُّعاء(3)، أو للاستعانة(4).

التَّعْبيرُ عنِ النُّبوَّةِ بالعهْدِ:

النُّبوَّةُ عهدٌ بإكرامِ النَّبيِّ المرْسَلِ، بما آتاهُ الله مِن تَكرمةٍ وفضْلٍ

(ما) في قوله: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ مصدريَّة، والمعنى: بعهده عندكَ، وهو النُّبوَّة، والتَّعبير بالمصدر المنسبكِ أقوى دلالةً وآكَدُ، وسُمِّيتِ النُّبوَّةُ عهدًا؛ لأنَّ الله تعالى عَهِدَ أن يُكرم النَّبيَّ، وهو عَهْدُ أَنْ يستقلَّ بأعبائها، أو لأنَّ فيها كُلفةً واختصاصًا كما بين الـمُتَعاهِدَين، أو لأنَّ لها حقوقًا تُحفظ كما يُحفظ العهد، أو أنَّها بمنزلة عهد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/72.

(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/148، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/179، والشّهاب، عناية القاضي: 4/356، والقونويّ، الحاشية: 8/485، والآلوسي، روح المعاني: 9/36.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/72 - 73.

(4) قباوة، المفصَّل، ص: 593.

ومنشور منه ﷻ، كالذي يُكتب للوُلاة، أو بالذي عَهِدَ إليك أن تدعوَهُ به فيجيبَكَ، كما أجابك في آياتك[1].

أو أن تكون (ما) موصولةً مُبهمةً، أي: ادْعُهُ بالذي علّمكَ ربُّكَ مِن وسائل إجابة دعائك عند ربِّكِ، والجارُّ والمجرور صلةٌ لـ﴿ٱدۡعُ﴾، أو حال مِنَ الضَّمير فيه، يعني: ادع اللّه تعالى مُتوسِّلًا بما عهد عندَك، وهذا يقتضي أنَّهم جَوَّزوا أن يكون موسى مبعوثًا مِن ربٍّ له، بناءً على تجويزهم تَعَدُّدَ الآلهة[2].

نُكْتَةُ العُدولِ عنِ الفعلِ المضارعِ إلى الماضِي: ﴿كَشَفۡتَ﴾:

إبـرازُ غَـيْرِ الحاصِلِ في مَعرضِ الحاصِلِ؛ إظهارًا للرَّغبةِ في وقوعِه

في قوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ﴾ عدولٌ عنِ المستقبل إلى الماضي؛ لإبراز غيرِ الحاصل في معرض الحاصل، إظهارًا للرَّغبة في وقوعه، فإنَّه لـمَّا كان الرِّجْزُ شديدًا مُلجِئًا لهم إلى التَّضَرُّع بموسى عليه السلام، مع عدم دخولهم في دينه، بالغَتْ في نفوسِهمُ الرَّغبةُ في كَشْف ذلك الرِّجزِ عنهم، وكَثُر تصورُهم إيَّاه حتَّى خُيِّلَ إليهم أنَّه حاصل[3].

دَلالةُ اسْتِئنافِ جُملةِ: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ﴾:

دُعاؤُهم مع كُفرِهم الصَّريحِ، يُثيرُ سؤالَ موسَى عن مقابِلِ ذلك الطّلَبِ المُريح

جملة: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ طلبَهم مِن موسى الدُّعاءَ بكَشْف العذابِ عنهم مع سابقيَّة كُفْرِهم به، يُثير سؤالَ موسى أن يقول: فما الجزاءُ على ذلك، واللَّام مُوطِّئَةٌ للقَسَم، وجملة: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ﴾ جوابُ القَسَم[4].

بَديعُ حَشْدِ التَّوكِيدات في الآية:

اللَّام في قولهم: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ﴾، و﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ﴾ جوابيَّةٌ للتَّوكيد، واقعةٌ

(1) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 1/598، والسُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/441، والآلوسي، روح المعاني: 9/36.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/36، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/72 - 73.
(3) الإندونيسيُّ، الشَّامل: 1/422.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.

تعاقبَتْ أصنافُ العذابِ عليهم، فألحُّوا مُؤكِّدِين علـى كـشْفِـهـا عنهم

في جواب قسم محذوف، تقديرُه: نُقْسِم، وجملةُ القَسَم المحذوفةِ فعليَّةٌ استئنافيَّةٌ، تُفيد المبالغة في التَّحقيق.

و﴿لَنُؤۡمِنَنَّ﴾ و﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ﴾: مضارعان اتَّصل بهما النُّونُ الثَّقيلة؛ للمُبالغة في التَّوكيد، وإخراجِ مضمون الفعل عنِ الحال[1]، والتَّعبير بالتَّوكيد مِن مقتضيات شِدَّة الإلحاح الذي يتطلَّبُه مُصابُهم الجَلَلُ، بتعاقب أصنافِ العذاب عليهم، وفي قولهم: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾؛ دلالةٌ على أنَّه طَلَب إليهم الإيمانَ، كما أنَّه طلبَ إليهم إرسالَ بني إسرائيل معه، مِن أن يذهبوا حيث شاؤوا[2].

دَلالةُ التَّضمين في لفظِ الإيمان، في قوله: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾:

التَّـضـمـينُ في انْـصـرافِـه الى إعطاءِ مَعْنيَيْن، أقـــــوَى مــن انصرافِه لإعطاءِ معنًى واحدٍ

وناسب التَّضمينُ حشدَ المؤكِّدات؛ إذ ضَمَّن الإيمانَ معنى الرِّضا، والتَّسليم، والإذعانِ، وكلُّها تتعدَّى باللَّام[3] الجارَّة للضَّمير؛ فرقًا بينَ إيمان التَّصديق، وإيمانِ النَّجاة[4]، لِتُؤدِّيَ دلالة التَّضمين معنى: آمِنوا راضين مُسَلِّمين، مُذْعنين، وهو أقوى مِن إعطاء معنًى واحد.

بَلاغةُ تقديمِ الإيمانِ، في قوله: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾:

الإيــمــانُ هـو الـمـقـصـودُ الأسْـمَـى، والـتَّـوسُّـلُ به مندوحةٌ لـزوالِ الـعـذابِ الحالِّ بهم

قَدَّموا الإيمانَ؛ لأنَّه المقصود الأعظم، النَّاشِئ منه الطَّواعيَة[5]، والإيمانُ: أصلُ الأمورِ وأساسُ الدِّين، والإرسال هو ثمرة الإيمان وشِعارُه، فلا يصحُّ الإرسالُ إلَّا بالإيمان، كما أنَّه عِلَّة بعثِ الرُّسل. ويدلُّ التَّقديمُ - كذلك - على حالةِ الخوفِ والضِّيق التي كانوا فيها، مِنَ العذابات الّتي أصابتْهُم بسبب كُفْرهم وطُغيانهم، وهو مِن جانبٍ آخرَ: يُظهِرُ ضَعْفَ إيمانِهم، وقلَّةَ يقينهم؛ فإنَّهم لم يؤمنوا بالله تعالى بحقٍّ، ولم يتوبوا إليه بصدق، ولم يستقيموا على طاعته

(1) قباوة، المفصّل، ص: 543.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.
(3) الأندونيسّي، الشَّامل: 1/422.
(4) قباوة، المفصَّل، ص: 592.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.

بإخلاص، بل كانوا يرجُون أن يزولَ عنهم العذابُ الذي حلَّ بهم، ثمَّ يعودون إلى ما كانوا عليه مِنَ الشِّرك والظُّلم والعِناد.

سِرُّ قَصْديَّةِ إسْنادِ الكَشْفِ إلى موسَى عليه السلام:

في إسناد الكَشْف إلى موسى حَيْدَةٌ عن إسناده إلى اللّه تعالى؛ لعدم إقرارهم بذلك[1]، فلم يقولوا: (ادع لنا ربَّنا)، بل قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فهُم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلَّا بُعدًا وإعراضًا عن ربِّهم[2].

في عدَمِ إسْنادِ الكشْفِ إلى اللهِ، نفْيٌ للإقرارِ به، وجُحودٌ لكمالِ تصرُّفِه

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ:

ممَّا تمَّ بيانُه في الشَّرح اللُّغويِّ للفظة: ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ أنَّ أصله مِنَ الاضطراب، والعذابِ الموسوم بالغضب، والسَّخَط، والرَّيْن على القلب، وهو يناسب سياقَ عذابِ آلِ فرعون؛ لما يُتصَوَّرُ فيه مِن اضطرابٍ كالزَّلزلة؛ لسُوء ما اقترفوه من تَعنُّت، وجُحود، وإصرارٍ على الكفر.

الرِّجْزُ العذابُ الموسومُ بالسَّخَطِ، والرِّجْسُ، كلُّ شَيءٍ مُستَقْذَرٍ، والأوَّلُ آثَرُ في السِّياقِ

أمَّا: (الرِّجْس) فهو كلُّ شيءٍ مُستَقْذَر، ويُطلق على العذاب، لكنَّ أصله مِنَ الاختلاط المَشُوب بالقَذَر والنَّتْنِ؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ[3].

وسياقُ عذاب آل فرعون لا يناسبه هذا المعنى، فليس الحديث منصبًّا على عذاب لفعلٍ مُستَقْذَرٍ منه، كما وَصَف اللّهُ المنافقين بأنَّهم رِجْسٌ، فقال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥﴾ [التوبة: 95]، وهو"النَّتْنُ والقَذَر، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: 125]، أي: زادتهم نَتْنًا إلى نَتْنِهِمْ"[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.
(2) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 1/561.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (رجس).
(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/417، والدُّوريُّ، دقائق الفروق اللغوية، ص: 290، وزيدان، الفروق اللُّغوية، ص: 548 - 549.

الـــزَّايُ صــوتٌ مَـجـهـورٌ قـويٌّ، والـسِّـين صوتٌ مــهــمــوسٌ ضعيفٌ، ولكلٍّ منهما تَميّزٌ

دَلالةُ صوتِ الزَّاي، في تحقيقِ المعنَى:

اختصَّ الزَّايُ بالعذاب والاضطراب؛ لما فيه مِنَ الجَهْر، والقوّة في الحرف، فهو أقوى مِنَ السِّين لهذه الصِّفة، أمَّا السِّين فَمَهْمُوسٌ، فاختَصَّ بما ليس في معناه شِدَّةٌ، وقُوَّةٌ، وهو القَذَر، النَّـتْنُ، والاختِلاط[1].

(1) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 291.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾

[الأعراف: 135]

العَلاقةُ بين طلَبِ انْكشافِ الرِّجزِ، ونَكْثِهم وغَدَهم بعدَ انْكِشافِه عنهم

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جملة: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ دالَّةٌ على أنَّ موسى دعا اللّه برفع الطَّاعون فارتَفَع[1]، إلَّا أنَّ قومَ فرعون لم يُصِبِ الحقُّ قلوبَهم، ولم يُذْعِنوا لطوارق العذاب والابتلاءات، التي حاقت بهم في كلِّ مناحي الحياة، وأعرضوا عن كلِّ الوعود التي قطعوها على أنفسهم، ونَكَثُوا القَسَم الذي أقسموه لموسى عليه السلام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰلِغُوهُ﴾: (بلغ) أصلٌ واحدٌ، وهو الوصول إلى الشَّيء، تقول: بلغتُ المكانَ، إذا وَصَلتَ إليه[2]، وبلغ الشَّيءُ يبلُغ بُلُوغًا: وصلَ، وانْتهى. وتبلَّغ بالشَّيء: وصل بِهِ إلى مُرَاده[3]، فالبُلوغ والبَلاغ: الانتِهاءُ إلى أقصى المَقْصِد والمُنتَهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا مِنَ الأمور المُقَدَّرة[4].

وخلاصة معناه: وصولُ الشَّيء إلى غاية له: مِن مكان، أو شيءٍ، أو مَدًى مقصودٍ[5]، وهو معنى اللَّفظ في الآية الكريمة.

2) ﴿يَنكُثُونَ﴾: (نكث) أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على نقض شيءٍ[6]، ونكَثَ العهد: نقضَهُ بعد إحكامه[7]، كَمَا تُنكَثُ خيوطُ النَّسَائج بعد إبرامها[8].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/73.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(3) ابن سيده، المحكم: (بلغ).
(4) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (بلغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكث).
(7) الخليل، العين: (بلغ).
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلغ).

أو تُنْقَضُ الخلَقُ مِنَ الأخبية والأكسيَة البالية، فتُغْزَلُ ثانيَةً[1]. فالنَّكْثُ في اللُّغةِ: نقضُ مَا تَعْقِدُه وما تُصْلِحُه[2]، ثمَّ تُعيد إبرامَه.

وسيأتي بيان الفَرْق بينَه وبينَ النَّقْضِ، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التَّركيب - عدا نَكْثِ الغَزْل في آية النَّحل - فهو مِن نَكْثِ الأيمان والعهود أي النَّكث المعنوي[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المــوقــفُ الـجُـحُـوديُّ في مقابَلـةِ كَشْـفِ العذابِ، بالنَّكْثِ والنُّـكـوصِ على الأعقابِ

يخبرُ اللّهُ عن قوم فرعون أنَّه لمَّا كشفَ عنهم العذابَ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، إلى أجل هم مُنتهون إليه في كلِّ مَرَّة منها، وهو عَوْدُ الحال إلى ما كانت عليه، أو في مجموعها، وهو الغَرَق الذي هَلَكوا فيه، إذا هُمْ ينكثون عَهْدَهم، ويَحْنَثون في قَسَمهم في كلِّ مَرَّة؛ أي: فاجَؤُوا بالنَّكْث، وبادروا إلى الحِنْث، بلا رويَّة ولا تَرَيُّث[4]، ولذلك لم تكن إزالةُ العذاب لهم دائمةً، بل هي إلى أجلٍ محدود، فإنَّ اللّه خبَّأ لهم في قَدَره ما هو أشدُّ وأقوى، وهو إغراقهم في البحر[5].

وترشدُ الآية الكريمة إلى سعَة رحمةِ اللّه؛ إذِ استجاب لدُعاء نبيِّه لهم، على الرَّغم مِن انغماسهم في غِيِّ الجُحود، وتماديهم في ضلال التَّعنُّت، وتَجَدُّد الكُفْران. وتهدي أيضا إلى قُبْحِ طَبْعِ النُّكْثِ، ومَذَمَّة مُرتكِبه، وأنَّ المروءة في الوفاء، وبها تُستمطرُ أسبابُ الرِّضا.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

قُـربُ الإجـابـةِ وحـتـمـيَّـةُ تَـحقُّقِها، مِن دلائـلِ رحـمـةِ الله بعبادِه ولو عَصَوْهُ

دَلالةُ الفاءِ، والتَّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿كَشَفْنَا﴾:

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء عاطفة تُفيد التَّرتيب والتَّعقيب بدون مُهْلَة؛ ليَدُلَّ

(1) ابن سيده، المحكم: (نكث).
(2) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/22.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (بلغ).
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/83.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2938.

على قُرب الإجابة بالفاء[1]، أو هي فصيحةٌ: للإفصاح عن شرط مُقدَّر، تقديره: إذا كانوا قد أقسموا ذلك القَسَم فقد نكثوا[2]، و(لَمَّا): شرطيَّةٌ ظرفيَّةٌ للماضي، تُفيد التَّفصيلَ والتَّكرارَ، وعُبِّرَ بالماضي المُسنَد إلى ضمير التَّعظيم ﴿كَشَفۡنَا﴾؛ دلالةً على تحقُّقه، مُتخصِّصًا به ﷻ؛ فالقادر على إيقاع العذاب، قادر على رَفْعه وإزالته.

بَلاغةُ الاسْتِغناءِ بالمذكورِ، في قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾:

الإيجازُ للكلامِ؛ اقْتِصادٌ وبيانٌ مُتحقِّقٌ بالمذكورِ

وقد جاء في نظم هذه الآيةِ كلماتٌ قليلة تحمل معان كثيرة، ففي الكلام حَذْفٌ دَلَّ عليه المعنى في السِّياق، وهو: فدعا موسى ربَّه بالكشف، فكُشِف عنهم الرِّجْزُ، فالمذكور فيه إيجازٌ للكلام؛ اقتصادًا وبيانًا متحقّقًا بالمذكور، فقولُه تعالى: ﴿كَشَفۡنَا﴾ يفيد بيانَ تفضُّل اللّهِ ورحمتِه بهم، وقولُه: ﴿عَنۡهُمُ﴾ يُفيد تخصيصَ رفعِ العذاب عنهم.

دَلالةُ إسْنادِ فعْلِ الكشْفِ، والتَّعبيرِ به على طريقِ التَّشْبيه:

إخبارُ اللهِ تعالى عن نفسه، إسنادٌ حقيقيٌّ، ومعنى تشبيهِ كشفِ الرِّجزِ بالغُمَّة

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾ أسند الكشفَ إليه؛ لأنَّه هو الكاشف حقيقةً، فلمَّا كان من قولهم أَسندوه إلى موسى، وهو إسنادٌ مجازيٌّ، ولمَّا كان إخبارًا مِنَ اللّه أسندَه تعالى إليه؛ لأنَّه إسنادٌ حقيقيٌّ[3]، والتَّعبير عن زوال الرِّجز بـ ﴿كَشَفۡنَا﴾ تشبيهٌ له بالغُمَّة التي تَغُمُّ عليهم، وتُكشَف[4].

بيانُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ، في قوله: ﴿عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾:

أهمّيّةُ كَشفِ الرِّجزِ عنهم؛ لشدَّةِ ما لاقَوْهُ مِن أذًى وإعْناتٍ

قدَّم الجارّ والمجرور ﴿عَنۡهُمُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾؛ لأنَّ المهمَّ عندهم كَشْفُهُ عنهم[5]، كما أنَّ تقديمَ الجار والمجرور في قوله تعالى:

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2938.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2938.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 8/486.

﴿عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾ دونَ أن يُقال: (الرِّجزَ عَنهُمُ) يُشيرُ إلى أنَّ الغرض مِن رفع العذاب عن قوم فرعون ليس لإغاثتهم أو تخفيفِ معاناتهم التي ضَجُّوا منها، بل لإظهار قدرةِ اللّٰه تعالى على إبطال دعواهم المُزَوَّرة؛ بأن لا ضارَّ إلَّا اللّٰه، ولا نافعَ إلَّا هو.

بَراعةُ التَّكرارِ اللَّفظيِّ للمُفْرِدِ والجُملةِ:

التَّصريحُ بلفظِ (الرِّجْز)، تهويلٌ وتـخـويـفٌ، وتقريرٌ للمعنَى المقصودِ

كَرّرَ لفظ ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾ في الآيتين من جهة، وكَرَّر جملةَ ورودِها مِن جهة أُخرى، بقوله: ﴿كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ في الآية السَّابقة، وفي قوله هنا: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾ تصريحًا وتهويلًا[1]، وتقريرًا للمعنى المقصود، وهو كَشْفُ العذابِ المُتَجدِّد هنا، المُتَحقِّق بالجُملة الفعليَّة، وكذلك لـمَّا كان الرِّجْز مِن جملة أُخرى غيرِ مقولةٍ لهم، حَسُنَ إظهارُه دونَ ضميره[2]، وهذا مِن لطيف أَمَارات رحمةِ اللّٰه؛ مصداقًا للحديث القُدُسي: «إنَّ رحمتي سبقت غضبي»[3].

سِرُّ التَّعبير بـ(الأجَل)، دونَ غيرِه:

الأجـلُ إمـهـالٌ مُـتَـعـدِّدُ الدّلالاتِ، مُحدَّدٌ مُقيّدٌ بموعِدٍ

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ﴾ لانتهاء الغاية الزَّمانيَّة، ومجرورها: ﴿أَجَلٍ﴾ متعلَّقان بصفة محذوفةٍ للمصدر المُقَدَّر: (كشفًا كائنًا)، أي: محدَّدًا[4]، فجعل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ من تمام ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾، ومُتعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ منه، أي: فلمَّا كشفنا عنهم الرِّجْز كائنًا إلى أجل، والمعنى: أنَّ العذاب كان مؤجَّلًا. ويُقوِّي هذا التَّأويلَ كَوْنُ جواب ﴿فَلَمَّا﴾ جاء بـ ﴿إِذَا﴾ الفُجائيَّة، أي: فلمَّا كَشَفْنا عنهم العذابَ المقرَّرَ عليهم إلى أجل فاجَؤُوا بالنَّكْث[5]. أو المعنى: إلى حدٍّ مِنَ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.
(3) البخاريُّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (7453)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2751)، وأحمد، المسند: 12/467، 496.
(4) قباوة، المفصّل، ص: 593.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/446، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374، والسّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/436.

الزَّمن هم بالغوه لا محالةَ بضمائرهم التي تجري ظواهرُهم على حَسَبها، فمُعَذَّبون فيه ولا ينفعهم ما تقدَّم لهم مِنَ الإمهال، وكشفِ العذاب إلى حُلُوله[1].

أو أنَّ المراد بالأجل هنا وقتُ إيمانهم وإرسالهم بني إسرائيل معه، أي: عندما رجعوا إلى موسى وسألوه ما سألوه، ويكون المراد بالكَشْف: استمرارَ رفعِ الرِّجْز، كأنَّه قيل: فلمَّا تمادَوْا كَشَفنا عنهم إلى أجل[2]، لكن لا رَفعًا مُطلقًا، بل رَفعًا مُقيّدًا بغاية هي الأجل المضروب لإهلاكهم[3]، فكلُّ كشفٍ للرِّجْز له مُدَّة يعرفها الحَقُّ[4].

فائِدةُ العُدولِ عنِ الوصْفِ بالمفردِ، إلى الوصْفِ بالجُملةِ:

الإيــذانُ بالتَّفخيمِ، المعضُودِ بالقصْرِ، يزيدُ من رُسُوِّ المعنَى وبيانِه

قولُه: ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ في محلِّ جَرٍّ صفةٌ لـ ﴿أَجَلٍ﴾، والوصف بهذه الجُملة أبلغُ مِنْ وَصْفه بالمفرد؛ لتكرُّرِ الضَّمير المُؤْذِن بالتَّفخيم[5]، فضلًا عن دلالة التَّخصيص الذي يُضْفيه الوصفُ، ويُعَزِّزُه ضميرُ الفَصْل المفيد للقَصْر، فالأَجَل مخصَّصٌ بهم، مُقتَصِرٌ عليهم.

نُكْتَةُ التَّعْبير بحرفِ المفاجأةِ: ﴿إِذَا﴾:

نقضُ العَهدِ مِن غيرِ تريُّثٍ، يُوحِي بإضْمارِهم الكُفْرَ، ونُكْثِهم اليمينَ

و﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ حرفيَّةٌ رابطةٌ لجواب الشَّرط للمُفاجَأة والحال، وهي جواب ﴿فَلَمَّا﴾ أي: فلمَّا كشَفْنا عنهم العذابَ فاجَؤُوا بنقض العهد، وبادَروه وقتَ كَشْفِ العذاب، مِن غير تأمُّلٍ ولا توقُّفٍ[6]، وهذا وَصْفٌ لهم بإضمار الكُفر بموسى، وإضمارِ النَّكْث لليمين[7].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) السُّيوطيُّ، نواهد الأبكار: 3/441.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.
(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 7/4322.
(5) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/436.
(6) قباوة، المفصّل، ص: 593.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.

تجدُّدُ نَكْثِهِم مُكابرةٌ بيقين، وإظهارٌ واضحٌ لسَفَهِهِم المَهين

قَصْديَّةُ تقديمِ ضميرِ الفَصْل، والتَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارِعِ:

والضَّميرُ ﴿هُم﴾ مبتدأٌ، خبرُه المضارع ﴿يَنكُثُونَ﴾، الدَّالُّ على تَجدُّد نَكْثِهم، واستمرارِ نقضِهم عهودَهم عادةً، ومُكابرةً، وجُحودًا[1]، ويدلُّ على استمرار حالةِ الغَدْر والخيانةِ التي اتَّسمَ بها قومُ فرعون، بعد أن رفعَ اللّهُ عنهم العذاباتِ التي أصابتهم؛ بسبب كُفرهم وطغيانهم، فقد وَعَدوا موسى عليه السلام أنَّهم سيؤمنون باللّه ويُسَلِّمون إليه بني إسرائيل إذا رفع عنهمُ البلاءَ، ولكنَّهم كَذَبوا وأخلفوا عهدَهم فورَ انقضاءِ المدَّةِ التي حدَّدها اللّهُ لهم.

وقُدِّمَ الضَّميرُ للقَصْر؛ تخصيصًا للفعل بهم، وإظهارًا لسَفَهِهم، وتَعَنُّتِهم، وغَدْرِهم، وللإشارة إلى أنَّ هؤلاء هم نفسُ القوم الذين وَعَدوا موسى بالإيمان، وأنَّه لا يوجد مِن بينِهم مَن اتَّقى اللّه أو صدَقَ موسى، وللإيماء بأنَّ هؤلاءِ لا يتأخَّرون في خيانتهم وإظهار ضلالتهم، بل يفعلون ذلك حالَ رفعِ العذاب عنهم، دونَ تردُّدٍ أو تأنٍ.

النّكْثُ ممقوتٌ؛ لأنّه إفسادُ النّافعِ مِنَ العملِ، وإلغاءُ الصّالحِ منَ الأملِ

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عن نقْضِ العهدِ، على طريقِ الاسْتِعارةِ:

والنَّكْثُ: حقيقتُه: نقضُ المفتولِ مِن حَبْلٍ أو غَزْلٍ، وفَلُّ طاقاتِ الصُّوف المَغْزُول، وخيوطِ الأَكْسِيَة إذا نُكِثَتْ بعدما أُبْرِمَتْ؛ لتُغْزل ثانيةً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النحل: 92]، فاستُعير النَّكْثُ لنقض العهد، وعدمِ الوفاء به بعدَ إحكامِه وإبرامه، كما استُعير الحبلُ للعَهْد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 112].

ففي قوله: ﴿يَنكُثُونَ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ، وهذا مِنْ أحسن الاستعارات[2]؛ إذ كان حالُهم إفسادَ ما كان نافعًا مُحْكَمًا مِنَ العمل، وإرجاعَه إلى عدم الصَّلاح. ووجهُ الشَّبَهِ في هذه الاستعارة:

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/83.

(2) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/437، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.

الرُّجُوع إلى الإفساد بعدَ التَّلَبُّس بمظاهر الصَّلاح ومُقدِّماته، وإن كان ادِّعاءً[1].

بيانُ ارتباطِ الفاصلةِ بما بعدَها:

دَلالةُ المضارعِ على التَّجَدُّدِ، تناسِبُ إيقاعَ العَذابِ

ترتبط فاصلةُ هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ بالآية بعدها؛ إذ خُتِمَت بالمضارع الدَّالِّ على التَّجدُّد والاستمرار؛ فناسبَ الانتقامَ منهم، وإيقاعَ العذابِ الأليمِ بهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نكثٌ) و(نقضٌ):

النَّكثُ تَكرارٌ للإبرامِ، والنَّقْضُ إفسادُ ما أَبرمْتَ، ولا يقتضِي التَّكرارَ

النَّقْضُ: إفساد ما أبرمتَ من حبل، أو عقد، أو بناء[2]، وانتثارُه، وهو ضِدُّ الإبْرام[3]، وهو بهذا لا يقتضي تكرارَ الإبْرام، وإنَّما إفسادُهُ فحَسْب.

والنِّكْثُ (بحسب ما مرَّ بيانُه): الغَزْل مِنَ الصُّوف، أو الشَّعر تُبْرَم وتُنْسَج، فإذا أَخْلَقَتْ النَّسيجةُ قُطِعَتْ قِطَعًا صغارًا، ونُكِثَتْ خيوطُها المبرومة، وخُلِطَتْ بالصُّوف الجديد، ونَشِبَتْ به، ثمَّ ضُرِبتْ بالمطارق، وغُزِلَتْ ثانيةً واستُعمِلَتْ، والذي ينكُثُها يقال له: نَكَّاث، ومن هذا نَكْثُ العهدِ، وهو نقضُه بعد إحكامه، كما تُنْكَثُ خيوط الصُّوف المغزول بعد إبرامه[4].

فالنِّكْثُ (بالكسر): الخيط الخَلَقُ مِن صوفٍ، أو شَعْرٍ، أو وَبَرٍ، سُمِّيَ به؛ لأنَّه يُنْقضُ ثمَّ يُعاد فتْلُه[5].

فهو تَكرارٌ للإبرام بعد نَكْثِه، كَمَا تُنْكَثُ خيوطُ النَّسَائج والأكسية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/264.
(2) الخليل، العين: (نقض).
(3) الرّاغب، المفردات: (نقض).
(4) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (نكث).
(5) ابن الأثير، النِّهاية: (نكث).

البالية لتُغْزَلَ ثَانِيَةً[1]. وقَصْديَّة اختيارِه في سياق الآية الكريمة مِن بديع وجوه النَّظم القرآنيِّ، ودقيقِ صَوْغِه؛ لكون صنيعِ آل فرعون كان تكرارًا للعهد بالإيمان، وإخراجَ بني إسرائيلَ كلَّما وقع عليهم صنفُ عذابٍ، فإذا ما كشَفَهُ تعالى عنهم عادُوا يَنْكُثون ما أبرموا مِن عَهْدٍ.

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (نكث).

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 136]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أخبر أنَّهم فاجَؤُوا النَّكْثَ وكرَّروه، سبَّبَ عنه قوْلَه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾، أي: انتقامًا ليس كذلك الذي كنَّا نؤذيهم به، بل انتقامَ إهلاكٍ، عبرةً واتِّعاظًا[1].

العَلاقةُ بين النَّكْثِ بعدَ انْكِشافِ الرّجزِ، والعقوبةِ الأليمةِ بالإغراقِ في اليمِّ

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾: تقدَّم شرحُ معنى هذه اللَّفظةِ عند الحديث عن لفظة ﴿تَنقِمُ﴾ مِنَ الآية [126]، وخلاصة معناها: أنَّ معنى (نَقَمْتُ): أنكرتُ الفعلَ، والنِّقْمَةُ: مِنَ العذاب والانتقام، كأنَّه أنْكَرَ عليه فعاقَبَه[2]، والانتقام: هو العقوبة الشَّديدة الشَّبيهة بالنَّقْم، وهو غضبُ الحِنْق على ذنبِ اعتداءٍ على الـمُنتَقِم، يُنْكَر فاعِلُه ويُكْره[3].

2) ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾: (الغين، والرَّاء، والقاف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على انتهاء في شيء يبلغ أقصاه، مِن ذلك الغَرَقُ في الماء[4]، فرجلٌ غَرِقٌ وغريقٌ: رَسَبَ في الماء، وابتُلِيَ بالدَّين والبَلْوى؛ تشبيهًا به. والتَّغريقُ: القتلُ[5]، والغَرِقُ: الذي قد غلبَهُ الماءُ[6]، وقيل: الغَرِق: الرَّاسب في الماء، والغريق: الـمَيِّتُ فيه[7]، والإغراق: الإلقاء في الماء

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (نقم).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/74.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غرق).
(5) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (غرق).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (غرق).
(7) ابن سيده، المحكم: (غرق).

المُسْتَبْحِرِ، الذي يغمُرُ المُلْقَى فيه، فلا يَترك له تنفُّسًا[1]. وكلُّ ما جاء في القرآن مِنَ التَّركيب هو مِنَ الغرَق في الماء، عدا ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾ [النازعات: 1][2].

3) ﴿ٱلۡيَمِّ﴾: اليَمُّ: البَحْرُ الّذي لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ولا شَطّاهُ، وَيُقَال: اليَمُّ: لُجَّتُه[3]، ولم يَرتضِ الأزهريُّ قولَ الخليل مِن أنَّ اليَمَّ: ما لا يُدْرَكُ شطَّاهُ، مُستدِلًّا بقوله تعالى في قصَّة أُمِّ موسى عليه السلام: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 39]؛ إذ جعل لَهُ ساحلًا؛ وذهب إلى أنَّه: البَحر، وأنَّ اسم (اليَمّ) يَقَعُ على ما كان مَاؤُهُ مِلْحًا زُعاقًا، وعلى النَّهر الكبير العَذْبِ الماء. وأصله بالسُّريانيَّة: (يَمّا)، وعرَّبَتْهُ العَرَبُ[4]، وذهب الزَّمخشريُّ إلى أنَّه عربيٌّ، واشتقاقُه مِنَ التَّيمُّم، ومعناه: البحرُ الذي لا يُدرك قَعْرُهُ، أو هو لُجَّة البحر ومعظمُ مائِه[5]، أو هو من القِبْطيَّة، أو مِنَ العِبْريَّة، ولعلَّه موجود في هذه اللُّغات، ولعلَّ أصلَه عربيٌّ، وأخذَتْهُ لغاتٌ أُخرى مِنَ العربيَّة. والمراد به هنا: بحرُ القُلْزُم، المُسَمَّى في التَّوراة: بحرَ سُوْفٍ، وهو البحر الأحمر، وقد أُطلق (اليَمُّ) على نهر النِّيل في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [طه: 39] وقوله: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: 7][6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الانتقامُ مِنَ النّاكِثين بإهلاكِهم إغراقًا، وجَزائِهم على تكذيبِهم جَزاءً وِفاقًا

يخبر اللّهُ أنَّه لـمَّا كشف عن قوم فرعونَ العذابَ مرَّات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كُفْرهم، فلمَّا بلغوا الأجل الذي أَجَّلَ لهم، انتقمَ منهم بأن أهلكَهم بالغرَق في بحر لا يُدرَك قُعْرُه؛ بسبب أنَّهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (غرق).
(3) الخليل، العين: (يم).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (يم).
(5) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.

كذَّبوا بآيات اللّه الدَّالَّة على وحدانيَّته وصِدقِ نبيِّه ورسالتِه، وكانوا عن آيات اللّه تعالى غافِلِينَ، ومُعْرِضين عمَّا تقتضيه وتستلْزِمُه مِن عذاب الدُّنيا والآخرة، أو غافلين على حلول النِّقمة بهم[1].

ولذلك عاملهم معاملةَ مَن ينتقم ممَّن أعلن الحربَ على اللّه ورسوله موسى عليه السلام؛ لأنَّه تعالى اختبرهم ثمَّ كشف عنهم ما اختبرهم به؛ رجاءَ أن يتذكَّروا ويعتبروا ويتَّعظوا، فما زادوا إلَّا ظُلمًا، واستكبارًا، وعُتُوًّا، وفسادًا، فليس لهم إلَّا أن يَنزِل بهم العذابُ الأكبر، الذي يكون استئصالًا وإهلاكًا بالغرق؛ وذلك بسبب تكذيبِهم بالآياتِ التي توالتْ لهم آيةً بعد آيةٍ، وغفْلَتِهم عن مغزاها ومعناها، مع أنَّها كانت لهم بمرأى العين والحسِّ، ولكنَّهم غَفَلوا عنها، واستهْواهُم الشَّيطان فَضَلُّوا[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّه تعالى لا يُهلك إلَّا بعد أنْ يُقدِّم العِللَ، ويُوجِّه الآيات، وأنَّ ما أصابهم كان عقوبةً وجزاءً على فعلهم، وتَهدي أيضًا إلى قُبْح الاعتراض على آيات اللّه، ووجوبِ النَّظر والتَّفكُّر وعدمِ الغفلة عن آياته في الرَّخاء والشِّدَّة[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعْبير عنِ الانتقامِ بصِيغةِ الافتعالِ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

في الصِّيغة دَلالةٌ على شِدَّةِ العقوبةِ، وهوْلِ مَشهدِ الهلاكِ

الفاء في: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ للتَّرتيب، والتَّعْقِيب، والسَّببية. والانتقامُ: افتعالٌ دالٌّ على شدَّة العقوبة، وأصلُ صيغة الافتعال أنْ تكون لمطاوعة فعلِ المتعدِّي، بحيث يكون فاعلُ المطاوعة هو مفعول الفعل المجرَّد، وهو مِن لطيف استعمالات القرآن؛ إذ لم يُسمَع أنْ قالوا: نَقَمَهُ فانتقَم، أي: أحْفَظَهُ وأغْضَبَهُ فعاقَبَ، فهذه

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 2/242، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/84.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2939.

(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/173.

المطاوعة أُميتَ فِعْلُها المجرَّد، وعُدِّيَ إلى المعاقَب بـ (مِن) الابتدائيَّة؛ للدّلالة على أنَّه مَنْشَأُ العقوبة وسببُها، وأنَّه مستوجبُها[1].

سِرُّ قَصْديَّةِ التَّعْبير بالإغراقِ دونَ غيرِه:

بيانٌ للانتقامِ، وتفصيلٌ لِمُجمَلِه بالعطْفِ

الإغراق: الإلقاء في الماء المستَبْحِرِ الذي يغمُر المُلْقى، فلا يترك له تنفُّسًا، وهو بيانٌ للانتقام وتفصيلٌ لمجمله، فالفاء في قوله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ للتَّرتيب الذِّكْريِّ، وهو عطفُ مفصَّلٍ على مُجْمَلٍ، كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 54]، وحَمْلُ الفعلِ المعطوف عليه هنا على معنى العَزم، فيكون المعنى: فأردنا الانتقامَ منهم؛ فأغرقناهم[2].

بَلاغةُ التَّعْبير بالمجازِ المُرسَلِ:

أُطلِقَ اسمُ المسبَّبِ على السَّببِ؛ تنبيهًا بعدَمِ انفِكاكِ الانتقامِ عنِ الإرادةِ

وذلك في قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ إذ أَطلق الفعلَ، والمراد إرادتُه، أي: فأردنا الانتقامَ منهم فأغرقناهم[3]، والفاء في ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ للتَّعقيب، والسَّببيَّة، وأُريدَ بالانتقام نتيجتُه، وهو الإهلاك؛ لأنَّ التَّشفِّي في حَقِّه تعالى محالٌ.

والانتقامُ: العقابُ الواقع على مجازاة السَّيِّئة بالسَّيِّئة، وإنَّما أَسندَ الانتقام إلى ذاته؛ لأنَّ الأنبياء وكُلَّ الأولياء كانوا فانينَ عمَّا سوى اللّٰه، باقينَ باللّٰه، فكان اللّٰهُ خليفتَهم في أخذ الانتقام مِن أعدائهم، والمعنى: فأردنا الانتقامَ منهم، أي: مِن فرعونَ وقومِه لـمَّا وَلَغوا في المعاصي والجرائم، فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ عينُ الانتقام منهم؛ وأُطلِقَ اسمُ المسبَّب على السَّبب، تنبيهًا على أنَّ الانتقام لم ينفكَّ عنِ الإرادة، ويجوز أن يكون المراد مطلقَ الانتقام، والفاءُ تفسيريَّةٌ كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/74.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(3) الإندونيسيُّ، الشَّامل: 1/422.

﴿أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54]، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: 45][1]، وعلى كون الإغراق بيانًا للانتقام وتفصيلًا لـمُجْمَله، تكون الفاء في قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ للتَّرتيب الذِّكْريِّ، وهو عطفُ مفصَّلٍ على مجمَلٍ، بحسب ما مرَّ[2].

دَلالةُ تفريعِ الانتقامِ بالإغراقِ، في: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾:

تَفريعُ النَّتيجةِ علـى المقدِّماتِ والفَذْلَكَةِ، هو محلُّ العِبرةِ مِنَ القِصَّةِ

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ مُفرَّعٌ على ما تقدَّم مِن أحداث، تفريعَ النَّتيجة على المقدِّمات، والفَذْلَكَةِ على القِصَّة، فإنَّه بعد أن وصف عنادَ فرعونَ ومَلَئِه وتكذيبَهم رسالةَ موسى، واقتراحَهم على موسى أن يجيء بآية، ومشاهدتَهم آيةَ انقلابِ العصا ثعبانًا، وتغييرَ لونِ يده، ورميَهم موسى بالسِّحْر وسُوءِ المقصِد، ومعارضةَ السَّحَرَةِ معجزةَ موسى، وتغلُّبَ موسى عليهم، وكيف أخذ اللّهُ آلَ فرعونَ بمصائب جعلها آياتٍ على صِدْق موسى، وكيف كابروا وعاندوا، حتَّى أُلْجِئوا إلى أنْ وعدوا موسى بالإيمان وتسريح بني إسرائيل معه، فلمَّا كَشَف عنهم الرِّجْزَ نَكَثوا، فأخبر اللّهُ بأنَّ ذلك تَرتَّبَ عليه استئصالُ المستكبرين المعاندين، وتحريرُ المؤمنين الذين كانوا مستَضعَفين، وذلك محلُّ العِبرة، فلذلك كان الموقعُ في عطفه بالفاء التَّرتيبَ والتَّسبُّب، وقد اتَّبعَ في هذا الختام الأسلوبَ الّذي اختُتِمت به القصصُ الّتي قبل هذه، وفيه تنبيه للسَّامعين إلى الانتقال مِنَ القصَّة إلى العِبرة[3].

سِرُّ العُدولِ عنِ الإطنابِ، إلى الإيجازِ والإجمالِ:

المقامُ هنا مَقامُ الأخْذِ الحاسِمِ، بـعـدَ الإمـهـالِ الطَّويلِ

يسوقُ القرآنُ هنا حادثَ إغراقِ فرعونَ ومَلَئِه بصورة مجملة، فلا يُفَصِّل خطواتِه وأحداثَه كما فصَّلها في مواطنَ أُخرى؛ وذلك

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 6/538، والسُّيوطيُّ، نواهد الأبكار: 3/442، حقِّي، روح البيان: 3/223.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/74، 76.

لأنَّ المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطَّويل، فلا داعيَ إذن إلى طول العرض والتَّفصيل.

والأسلوب الذي جاءت به سورة الأعرفِ من سرعة القضاء أوقعُ في النَّفس، وأرهبُ للحِسِّ، وأزجرُ للقلب، وأدْعَى إلى العِظَة والاعتبار.

نُكْتَةُ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾، دونَ غيرِه:

اليَمُّ مَقصودٌ بوصْفِه بحرًا مخصوصًا، وفيه كان الإغراقُ بالاتّفاق

اليمُّ: مشتقٌّ - في رأيٍ - مِنَ التيمُّم؛ لأنَّ المُستنفعين به يقصدونه بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا، أي: كان إغراقُهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلَّة فكرهم فيها[1]، والتَّعريف فيه للعهد الذِّهنيِّ عند علماء المعاني، المعروفِ بتعريف الجنس عند النُّحاة؛ إذ ليستِ العبرةُ العنايةَ ببحرٍ مخصوصٍ، ولكن بفردٍ من هذا النّوع[2]، وسيأتي بيانُ الفرقِ بينَه وبينَ البحر.

دَلالةُ الباءِ والمصْدرِ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ﴾:

التّكذيبُ بآياتِ اللهِ تعالى، رفضٌ للمنهج، ونأيٌ عن الهدايةِ والرّشادِ

الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ باءُ التَّسبيب[3]، أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلَّة فِكرهم فيها[4]، أو هي للإلصاق المعنويِّ، بإضافة الإغراق إلى الكذب، أي: التصقَ إغراقُهُم بكَذِبهم، فهو إلصاقٌ مجازيٌّ، و(أنَّ) حرف مصدريٌّ، وانسبكَ مع فعله الماضي ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ ليكون أقوى في الدّلالة على كَذِبهم مِنَ المصدر الصَّريح، أو إفرادِ الكذب، وعَبَّر عنِ (الآيات) التّي هي المعجزاتُ بالجمع لتَعدُّدها، ونَسَبَها إلى ضمير العَظَمَة تصريحًا، بنسبتها إليه وحدَه، فهو سبحانَه مُرسلُها ومُظهرُها على يد موسى عليه السلام.

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/446.
(4) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/599.

نُكْتَة التَّعْبِير بالجُملتَيْن: الاسْميَّةِ والفعليَّةِ:

ثباتُ إعْراضِ فرعونَ وآلِه، وتَجَدُّدُ تكْذيبِهم بالوحْيِ والمعجزاتِ

وقد صِيغَ الإخبار عن إعراضهم ونَكْثِهم في الآية الكريمة السَّابقة بصيغة الجُملة الاسميَّة: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ هذا الإعراضَ ثابتٌ لهم، وراسخٌ فيهم، وأنّه هو علَّة التَّكذيبِ المصوغُ خبره بصيغة الجُملة الفعليَّة - في هذه الآية - لإفادة تَجدُّدِه عند تَجدُّد الآيات[1]، وناسبَ ذلك إردافُها بالجملة الفعليَّة المؤكِّدَة: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ لتجدُّد تكذيبِهم برسوخ إعراضهم واستمراره.

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿عَنۡهَا﴾، إلى الآياتِ المُدْرَجاتِ في السِّياقِ:

الغَفْلةُ التّي بمعنى الإعراضِ، هي سَببُ التَّكذيبِ والانْتقاضِ

الظَّاهر عَوْدُ الضَّمير في ﴿عَنۡهَا﴾ إلى الآيات، أي: غَفَلوا عمَّا تضمَّنته الآياتُ مِنَ الهدى والنَّجاة وما فكَّروا فيها، وتلك الغفلة هي سبب التَّكذيب، وقيل: يعود الضَّمير على النِّقمة الدَّالِّ عليها: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾، أي: كانوا عنِ النِّقمة وحلولِها بهم غافلين، والغفلة في القول الأوَّل: عُنِيَ به الإعراضُ عنِ الآيات وعدمُ الالتفات إليها؛ لأنَّ الغفلةَ عنه والتَّكذيبَ لا يجتمعانِ، مِن حيثُ إنَّ الغفلة تستدعي عدمَ الشُّعور بالشَّيء، والتَّكذيبَ به يستدعي معرفتَه، ولأنَّه لو أُريدَ صفةُ الغفلة لكانوا معذورين؛ لأنَّ تلك ليست باختيار العبد[2].

بَراعةُ التَّعْبيرِ بلفظِ ﴿غَٰفِلِينَ﴾، على طريقِ المجازِ:

الدّلالةُ على الإعراضِ عنِ التَّفكُّرِ عمْدًا، والغايةُ التَّعريضُ بمُشركِي العربِ

وَوَصْفُ الكُفَّار بالغفلة - وهم قد كَذَّبوا وردُّوا في صدر الآيات - من حيث إنَّهم غَفَلوا عمَّا تتضمَّنُه الآياتُ مِنَ الهدى والنَّجاة[3]، والغفلة: ذُهول الذِّهْن عن تَذَكُّر شيءٍ، وأُريدَ بها هنا التَّغافلُ عن عَمْدٍ، وهو الإعراض عنِ التَّفكُّر في الآيات، وإبانةُ النَّظر في دلالتها على صِدق موسى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/375.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/446.

وإطلاق الغفلة على هذا مجاز[1]، يعني: أنَّ الغفلة مجازٌ عن عدم الفِكْر، وعن غير المبالاة؛ إذ المكذِّبُ بأمرٍ لا يكون غافلًا عنه لتنافيهما، وفيه إشارة إلى أنَّ مَن شاهد مثلَها لا ينبغي له أن يُكَذِّب بها مع علمه بها[2]، وفي ذلك تعريضٌ بمشركي العرب، في إعراضهم عنِ التَّفكر في صدق الرَّسول ﷺ، ودلالةِ معجزةِ القرآن؛ فلذلك أُعيدَ التَّصريحُ بتسبُّب إعراضِهم في غرقهم، مع استفادته مِنَ التَّفريع بالفاء، في قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡيَمِّ﴾؛ تنبيهًا للسَّامعين، للانتقال مِنَ القصَّة إلى العِبْرة[3].

عِلَّةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ على الخبرِ، والتَّعْبيرُ باسْمِ الفاعل ﴿غَٰفِلِينَ﴾:

الآياتُ مَوطنُ عِنايةٍ، وتَخصيصُ التَّكذيبِ بها دليلُ أهمِّيَّتِها وقَداستِها

قَدَّم الجَارَّ والضَّميرَ العائدَ ﴿عَنۡهَا﴾ على الآيات، على خبر (كان) وهو ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ عنايةً بالآيات، لوضوحها وعِظَمِها، فضلًا عن تخصيص التَّكذيب بها، وعبَّر عن غفلتهم بصيغة اسم الفاعل؛ ليَدلَّ على ثُبوت صفة الغفلة فيهم، ودوامِها لدَيهم، وأنَّ شأنها حاصلٌ ثابتٌ مستقِرٌّ، ويُؤكِّدُه التَّعبير بالفعل: ﴿وَكَانُواْ﴾، الدَّالِّ على تَحَقُّق الحَدَث، والصَّوغُ بالجُملة الفعليَّة الدَّالَّة على تجدُّده، واستمراره فيهم.

ودلَّ سبحانَه بقوله: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ على أنَّهم كذَّبوا بغير شُبهة عَرضت لهم، بل: عِنادًا، أي: جِبلَّة وطبعًا؛ ليكون حالُهم بعدَها كحالهم قبلَها، فكأنَّها لم تأتهم أصلًا، فاستحقُّوا الأخذَ؛ لِتَحقُّق علمِهم بأنَّ الآياتِ لا تُفيدُهم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/357.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.

❁ الفروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البَحْرُ واليَمُّ:

اليَمُّ لُجّةُ البحْرِ الّذي لا يُدرَكُ قَعْرُهُ، وصِفتُه تلاطُمُ الأمواجِ، وهما من مُفرداتِ القرآنِ

ورد استعمال (البحر) في القرآن الكريم في سياق النِّعمة وفي سياق العذاب، وفي غير ذلك، والغالبُ استعمالُه في سياق النِّعمة، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: 14]، وقولُه: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: 12]، وغيرُهما، وقد يتَّصِفُ البحرُ بالسُّكون، وقد يتَّصِف بالهِياج والاضطراب، بمعنى: أنَّه ليس متَّصِفًا بصفة واحدة تَسِمُهُ بالثَّبات.

وبان في الشَّرح اللُّغويِّ لـ (اليَمّ) بأنَّه: البَحْرُ الّذي لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، أو هو لُجَّتُه، ويقعُ على ما كان ماؤُهُ مِلْحًا زُعافًا، وعلى النَّهر الكبير العَذْب الماء، فاليَمُّ يعني: لُجَّة البحر، وهو بالضَّمِّ: الماء الكثير الذي لا يُرَى طرفاهُ، ولا يُدرَك قَعْرُه، وهو: تَردُّد أمواجه، واخْتلاطُها، وكثرتُها، وتلاطُمُها، وفي الحديث: «مَن ركبَ البَحْرَ إذا ارْتَجَّ، فقد بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّة»، وَفي روايةٍ أُخرى: «فَلَا يَلُومن إلا نَفسَه»[1].

وورد لفظُه في بعض معاجم العربيَّة: «إذا الْتَجَّ»، والْتَجَّ الموجُ: إذا عَظُم واختلط، والْتَجَّ البحرُ: تلاطمت أمواجُه، وعظُمَت لُجَّتُه وتموَّج[2].

والقرآنُ الكريمُ يُفسِّرُ بنفسه معنى اللُّجِّيِّ في قوله تعالى: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النّور: 40]، فاللُّجِّيُّ: الواسع الكبير، العظيمُ اللُّجَّةِ، الكثيرُ الماءِ، العميق الذي يبعُد عمقُه، ويعلوه موجٌ[3] يتبع بعضُه بعضًا، حتَّى كأنَّ بعضَه فوقَ بعضٍ، وهو أخوفُ

(1) ينظر الحديث مع اختلاف في الرواية في: أحمد، المسند، الحديث رقم: (22333)، والبخاري، الأدب المفرد، الحديث رقم: (1194)، والبيهقي شعب الإيمان، الحديث رقم: (4725)، وابن حجر العسقلاني، فتح الباري: 6/103.

(2) الزبيديُّ، تاج العروس: (لجج).

(3) الواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 3/322.

ما يكون، إذا توالى مَوجُه وتقارب[1]؛ إذ يركبُ بعضُه بعضًا لشِدَّة تعاقُبِه[2]، وتلاطُم أمواجِه[3].

وَصْفُ اليَمِّ يُناسبُ العِقابَ إغراقًا وهلاكًا، لِمن عُوقِبَ بالإغراقِ

وبهذا يظهر اتِّصافُ اليَمِّ بالعُمْق، وتَردُّدِ الأمواج، وكَثْرتِها، وتلاطُمِها، وتَمَوُّج مياهِها، وهو يناسب تمامًا العِقابَ إغراقًا، لجمع كبيرٍ مِنَ النَّاس، فالعُمْقُ استيعابٌ لهم، وتلاطُمُ الأمواج واصطخابُها عَوْنٌ على ابتلاعهم، في مشهد رُعْبٍ، وإظهارٍ للشِّدَّة، والباسِ في العذاب، فكأنَّها تغوص بهم إلى قَعْرٍ لا خَلَاصَ منه، وتخلطُهم، وتلطمُهم، فلا حَراكَ لهم مِن ثَمَّ، ولا مُقاومة.

ولذلك نجد كلَّ مَواطنِ ورودِ اليمِّ في القرآن قد رافقت مشاهدَ الانتقام والعقابِ إغراقًا، باستثناء مشهدِ الإغراق في سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50] الذي جمع فيه ذِكْرَ قوم موسى عليه السلام وآلِ فرعونَ؛ إذ عَدَلَ إلى استعمال البحر بدلَ اليمِّ؛ مُراعاةً لهم، وحَيْدةً مِن نسبة العقوبة إليهم، لكونه ممَّا يُعبَّر به عن مواطن النِّعَم والخيرات، والله أعلم.

سِرّ التَّعْبير باليَمِّ في حكاية أُمِّ موسَى عليه السلام، مع عدَمِ وجودِ العقوبةِ

عبَّرَ باليَمِّ في حكاية أُمِّ موسى عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 78]، مع عدم وجود العقوبة؛ لأنَّ اليَمَّ يناسبُ الإلقاء في الآية الكريمة؛ لكون تَردُّدِ الأمواج وتَموُّجِها هو الذي يدفع التَّابوت إلى السَّاحل، لا سكونه[4].

ولمَّا كان الخوف على موسى بإلقائه فيما فيه موتُه لا محالةَ، مِنَ الأمور العجيبة التي أراد الله زيادتَها عجبًا؛ لتكون البُشرى

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/284.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/255.
(3) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويِّ: 17/10287.
(4) زيدان، الفروق اللُّغوية، ص: 265.

ناسبَ إلقاءَ موسَى فيما اشتدَّ قَعْرُهُ، وتلاطَمَتْ أمواجُهُ؛ لتكونَ البُشْرَى أَفْخمَ

أعظمَ وأفخمَ؛ ناسبَهُ أنْ يكون إلقاؤه فيما اشتدَّ قَعْرُه، واتَّسَع حجْمُه، وتلاطمت أمواجُه؛ لـمَّا كان الأمر كذلك ناسبه ذِكْرُ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾[1].

وعلى ذلك فإنَّ اليمَّ لم يُستعمَل في القرآن إلَّا في مقام الخوف، أو العذابِ والعقوبةِ، ولم يُستعمَل في مقام النَّجاة، أمَّا البحرُ فعامٌّ، يُستعمَل في مقام الخوف والعقوبة والنِّعم، وذلك مِن خصوصيَّة الاستعمال القُرآنيِّ[2].

(1) سعد، موسوعة الفروق القرآنيَّة: 1/438.

(2) هبيان، من روائع البيان في سور القرآن، ص: 183 - 184.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين إغراق فرعونَ وآلِه، وبين تمكين المستضعَفين، جزاءَ دمارِ الظّلمةِ الباغين

بعد أن بيَّن سبحانَه ما حَلَّ بفرعونَ وقومِه مِنَ الغرق؛ عقوبةً لهم على تكذيبهم بموسى بعد وجود البراهينِ والأدلَّة، الآيةِ تلو الآيةِ الدَّالَّةِ على صِدْقه، ذَكَر هنا ما فعله ببني إسرائيلَ مِنَ الخيرات[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾: (الضَّاد، والعين، والفاء) أصلانِ متباينانِ، يدلُّ أحدُهما على خلاف القُوَّة، وهو: الضَّعْفُ والضُّعْفُ[2]، ويقال: الضَّعْفُ في العقل والرَّأي، والضُّعْفُ في الجسد، ويقال: هما لغتانِ جائزتان في كُلِّ وجه، ويقال: كلَّما فتحتَ بالكلام فتحتَ بالضَّعف، تقول: رأيتُ به ضَعْفًا، وأنَّ به ضَعْفًا، فإذا رفعتَ أو خفضتَ فالضَّمُّ أحسنُ، تقول: به ضُعْفٌ شديدٌ، وفعَلَ ذاكَ مِن ضُعْفٍ شديد[3]، والضَّعْفُ قد يكون في النَّفس وفي البدن وفي الحال، وقيل: الضَّعْفُ والضُّعْفُ لُغتان[4]. وكلُّ ما في القرآن مِنَ الفعل (ضَعُف) ومشتقاتِه، مِنَ الضَّعْف: هو عدم القُوَّة[5]، ومعنى ﴿يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ في الآية الكريمة: يُسْتَعْبَدونَ ويُهَانون[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 9/47 - 48.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضعف).
(3) الخليل، العين: (ضعف)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 116.
(4) الرّاغب، المفردات: (ضعف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ضعف).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.

2) ﴿مَشَـٰرِقَ﴾: (الشِّين، والرَّاء، والقاف) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على إضاءةٍ وفتحٍ، مِن ذلك: شَرَقَتِ الشَّمْسُ، إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت، والشُّروق: طُلُوعها[1]، واسمُ المَوْضِع: المَشْرِق[2]. والمشرق والمغرب: إذا قيلا بالإفراد فإشارةٌ إلى ناحيَتَي الشَّرق والغَرْب، وإذا قيلا بلفظ التَّثنيَة: فإشارةٌ إلى مَطْلِعَي ومَغْرِبَي الشِّتاءِ والصَّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع: فاعتبارٌ بمطلِع كلِّ يومٍ ومَغْرِبه، أو بمطلِع كلِّ فَصْلٍ ومَغْرِبه[3]. وكلُّ ما جاء في القرآن مِنَ التَّركيب هو من معنى طُلُوعِ الشَّمس ولوازِمه، وما إليه، فمِن ذلك: (المشْرِق) أصلُه المكان الذي تَشْرُق منه الشَّمسُ، ويُستعمَل للجِهَة التي تَكْتَنُف ذلك المكانَ مهما امتدَّتْ في جانبيه[4]. وهو المراد بمعنى اللَّفظة في الآية الكريمة.

3) ﴿وَمَغَـٰرِبَهَا﴾: (الغين، والرَّاء، والباء) أصلٌ صحيحٌ، معناه: حَدُّ الشَّيء، والغُرْبة: البُعْدُ، ومنه: البُعْدُ عنِ الوطن، ومن هذا الباب: غُروبُ الشَّمسِ، كأنَّه بُعْدُها عن وجه الأرض[5]، والغَرْب: خِلافُ الشَّرْق، وهو المغرب، وجُمِعَ هو والمشْرِقُ؛ لأنَّه أُرِيدَ أنَّها تُشْرِق كلَّ يَوْمٍ مِن مَوضِعٍ، وتَغْرُب في مَوضِعٍ، إلى انْتِهَاء السَّنَة[6]، والغَرْبُ: غيبوبةُ الشَّمس؛ بانصبابها مِنَ الأُفق وغيابها في أدناه، يقال: غَرَبَتْ تَغْرُبُ غَرْبًا وغُرُوبًا، والمغْرِب: جِهَةُ الغُروب[7]، وهو المراد بمعنى اللَّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿وَتَمَّتْ﴾: (التَّاء، والميم) أصلٌ واحدٌ منقاسٌ، وهو دليلُ الكمال، يقالُ: تمَّ الشَّيءُ، إذا كَمُلَ[8]، وتَتِمَّةُ كلِّ شَيْءٍ: ما يكون تَمامَ غَايَتِه[9]، وتمامُ الشَّيء: انتهاؤُه إلى حَدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه، والنَّاقِصُ: ما يحتاج إلى شيءٍ خارجٍ عنه[10]، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التَّركيب هو بمعنى استيفاءِ الشَّيء حَجْمَه أو كَمَالَه، بحسب ما ذُكِرَ[11]، ومعنى (تمَّ):

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرق).
(2) ابن سيده، المحكم: (شرق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (شرق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شرق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرق).
(6) ابن سيده، المحكم: (شرق).
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (غرب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تم).
(9) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (تم).
(10) الرّاغب، المفردات: (تم).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (تمم).

وُفِّيَ وَعْدُ اللّهِ الذي وَعَدَ بني إسرائيل بتمامه على ما وَعَدَهم، ونَفَذَ قضاؤُه وحَقَّ أمرُه، أي: وفَّتْ كلمةُ اللّه[1].

5) ﴿كَلِمَتُ﴾: (الكاف، واللّام، والميم) أصلان: أحدُهما يدلُّ على نُطْقٍ مُفْهِم، وهو: الكلام، ثمَّ يتَّسِعُون فيُسَمُّونَ الحرفَ الواحدَ مِن حُرُوف الهجاء، واللَّفظةَ الواحدةَ المُفْهِمَةَ كلمةً، والقِصَّةَ كلمةً، والقصيدةَ بطُولها كلمةً[2]، أي: قد تُطلَق مُرادًا بها عندَهم ما يقعُ على الألفاظ المنظومةِ، وعلى المعاني التي تحتها مجموعةً، أو على الجُزء مِنَ الكلام، اسمًا كان، أو فعلًا، أو أداةً، وتُطلَق في الاصطلاح على القول المُفْرد، والقولُ: هو اللَّفظُ الدَّالُّ على معنى[3].

ومعنى الكلمة في الآية الكريمة: ما وعدَهم اللّهُ به مِن إهلاك عَدوِّهِمْ، واستخلافِهِمْ في الأرض[4]، أو أقضيتُه وعِدَاتُه لأوليائه في أعدائه، ومواعيدُه التي لا خُلْفَ فيها[5]، أو أَمْرُه ونهْيُه، ووعدُه ووعيدُه[6]، ووعدُه تعالى إيَّاهم بالنَّصر والتَّمْكِين، أو هي القولُ واللَّفظُ الذي وَعدَ اللّهُ بني إسرائيل على لسان موسى، أو على لسان إبراهيم عليهما السلام. ويَحْتَمِلُ أنَّها إرادةُ اللّهِ في إطلاقهم مِن استعباد القِبْط، وإرادتُه تمليكَهُم الأرضَ المُقَدَّسَة[7]. وإنَّما عَبَّر عنه بالكلمة؛ لأنَّها الأصلُ في الاتِّصاف بالصِّدق والعدلِ، وبها تَظْهَر الآثارُ مِنَ الحِكَم[8].

6) ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾: الدَّمارُ: استئصالُ الهلاك، يقال: دَمَرَ القومُ يَدْمُرُون دَمارًا، أي: هَلَكوا[9]، والتَّدمير: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيء[10]، فالدَّمَارُ: بمعنى الهلاكِ المستأصلِ، وهو المراد باللَّفظة في الآية الكريمة، وليس في القرآن مِنَ التَّركيب إلَّا (التَّدمير) بهذا المعنى[11].

---

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/273.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(4) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/371.
(5) الواحديُّ، الوجيز، ص: 372، 410.
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/181.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.
(8) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/178.
(9) الخليل، العين: (دمر).
(10) الرّاغب، المفردات: (دمر).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (دم).

7) ﴿يَصْنَعُ﴾: (الصَّادُ، وَالنُّونُ، والعَيْنُ) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، وهو عملُ الشَّيءِ صُنْعًا، مع حِذْقٍ في صِنَاعَتِه[1]، فالصُّنْعُ: إجادةُ الفِعْل، ولذلك يُقالُ للحاذِقِ المُجيد: صَنَعٌ؛ لإجادَتِه عَمَلَه، ولا يُنْسَبُ إلى الحيَوانات والجَمادات، كما يُنْسَبُ إليها الفعل، والاصطناع: المُبالَغَةُ في صُنْعِ الشَّيء[2]، فالصُّنْعُ: جَمْعٌ أو تَحْصِيلٌ في هَيْئَةٍ جَدِيدةٍ، بتدبيرٍ واحتيال أو إحكام، ومنه الآية المباركة: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، ففيه تدبيرٌ واحْتيالٌ[3]؛ لأنَّ قِوَام صنيعهم الخِدَاعُ والتَّضليلُ والشَّعوَذة، وكانوا ماهرين فيه مُجيدين.

8) ﴿يَعْرِشُونَ﴾: (العَيْن، والرَّاء، والشِّين) أصلٌ صحيح واحد، مِن عَرَشَ يَعْرِشُ ويَعْرُشُ، ويدلُّ على ارتفاعٍ في شيء مبنيٍّ، ثمَّ يُستعارُ في غير ذلك، ومِنَ الباب: تَعْرِيش الكَرْم: رَفْعُهُ والتَّوثُّق منه، والعريش: بناءٌ مِن قُضبانٍ، يُرفع ويُوثَّق حتَّى يُظلِّل، وعَرْشٌ، وعريش: بناءٌ يُستَظَلُّ به[4]. ويَعْرِشُون: يبنون[5]، والعَرَب تُسَمِّي المَظَالَّ التي تُسَوَّى مِن جريد النَّخل ويُطرَح فوقَها الثُّمامُ: عُروشًا، والواحد مِنْهَا عريشٌ[6].

ومعنى اللَّفظةِ في الآية الكريمة: ما يُنْشِؤون مِنَ الجنَّات ذاتِ العرائش، أو ما كانوا يرفعونه مِنَ البُنيان كَصَرْحٍ، أو ما يُرْفَع مِن دَوالي الكُروم، ويُطلق أيضا على النَّخْلَات العديدة، تُرَبَّى في أصل واحد[7].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيَّنَ سبحانَه مظاهرَ فضْلِه وكرَمِه على بني إسرائيلَ بعد أن بيَّن نهايةَ فرعونَ وآلِه، فبيَّن كيفيَّةَ تمكين القوم الذين كانوا يُستضعَفون في مصرَ مِن فرعونَ ومَلَئِه بالاستعباد وقَتْلِ الأبناء، وسُوءِ العذاب، عن طريق الاستخلاف في مشارق الأرض ومغاربها، التي بارك الله فيها بالخصوبة وسَعة الأرزاق، وبكونها مساكنَ الأنبياء والصَّالحين؛ ليكونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صنع).
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (صنع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرش).
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/227.
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (عرش).
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.

جَزاءُ الصَّابرين، وِراثةُ الأرضِ والتَّمكينُ، وجَزاءُ الكَفرةِ الهلاكُ والعذابُ المُهِينُ

ذلك امتحانًا لهم، واختبارًا لنفوسِهم، وبذلك نَفذتْ كلمةُ اللّهِ الحُسنى، ومضتْ عليهم تامَّةً كاملةً، حيثُ رزقهم سبحانَه النَّصرَ على أعدائهم، والتَّمكينَ في الأرض؛ بسبب صَبْرهم على ظُلْم فرعونَ ومَلَئِه، ودمَّر ما كان يصنع فرعونُ وقومُه، مِن بناء القصور الشَّاهقة والمنازل القويَّة، وما كانوا يرفعونه مِنَ البساتين والصُّروح المُشَيَّدة؛ كَصَرْح هامان وغيره[1].

وممَّا تُرشد إليه الآية الكريمة: ما نُقِل عنِ الحسن البصريِّ أنَّه احتجَّ بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلى آخر الآية، على أنَّه لا ينبغي أن يُخْرَج على مُلوك السُّوء، وإنَّما ينبغي أن يُصْبَر عليهم؛ فإنَّ اللّه تعالى يُدَمِّرهم. ورُوِيَ عنه أيضًا مِن هداياتها: أنَّ النَّاس إذا قابلوا البلاءَ بمثله وكَلَهم اللّهُ إليه، وإذا قابلوه بالصَّبر وانتظار الفَرَج، أتَى اللّهُ بالفَرَج[2].

وكفى بهذه الآية حاثَّةً على الصَّبر، وضامنةً على كلِّ حائزٍ للأجر بالتَّفريج عنِ المظلوم ونَصْرِه، وإهْلاكِ الظَّلُوم وقَهْرِه[3]؛ فإنَّ مَن صبرَ على مُقاساة الذُّلِّ في اللّه، وضعَ اللّهُ على رأسه قَلَنْسُوَةَ العِرْفان، فهو العزيزُ سبحانَه، لا يُشَمِّتُ بأوليائه أعداءَهم، ولا يُضيِّعُ مِن جميلِ عَهْدِه جزاءَهم[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ إيثارِ التَّعْبِير بالإيراث ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾، وكونِه بصِيغةِ الماضِي:

الإرثُ مماثلةُ الحيِّ ميِّتًا في صفاتٍ كانتْ له، أو انتقالُ الحيازةِ من ميّتٍ إلى حيٍّ

الواو حرفُ عطفٍ وَصَلَ بها - رابطًا بالعطف - جملةَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ على جملة ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وسمَّاهُ ميراثًا ولم يُسَمِّه إعطاءً؛ لأنَّهم قالوه بعد موت القِبْط، وكذلك هو الميراثُ، ولأنَّهم نالوه بغير سبب

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/362 - 363.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/447.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/92.
(4) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 1/561.

لهم ولا للقبْط فيه، خِلافَ الإعطاءِ؛ فإنَّهم ينالون ما أُخِذَ بسببٍ وما أُخذ مِن غير سبب[1].

ويُطلَق الإرثُ أيضا مجازًا على مماثلة الحيِّ ميِّتًا في صفات كانت له، مِن عزٍّ أو سيادة[2]، وهذا الإطلاقُ دلَّ على نعمة اللّه على بني إسرائيلَ بأن أورثَهم أرضَ مِصرَ والشَّام، التي هي مِن أفضل بقاع الأرض في الخِصب والبركة، وعبَّر عن فعل الإيراث بالماضي للدّلالة على تَحَقُّقه، وأُضيفَ إلى ضمير التَّعظيم (نا) لتخصيص الفعل به، فهو القادر على نَزْع الملك وإيراثه لمَن يشاء مِن عباده، وليس ذلك عليه بعزيز.

سِرُّ التَّعْبير بلفظِ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، عن بنِي إسرائيلَ:

إظهارُ كمالِ لُطْفِه تعالى بهم، وعَظيمِ إحْسَانِه إليهم

(أل) في ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ عَهْديَّة ذِهنيَّة، والمقصودُ بهم: بنو إسرائيلَ، ومعناها: أنَّه كانت فيهم قوَّةٌ وكثرةٌ وشِدَّةُ عزم على ما يحاولونه ويقومون به[3]، فذُكِروا بهذا العُنوانِ إظهارًا لكمالِ لُطفِه تعالى بهم، وعظيمِ إحسانِه إليهم، في رفعهم مِن حضيض المَذَلَّةِ إلى أَوْج العِزَّة[4]، ورسَّخ هذا المعنى الوصفُ بالموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، بحسب ما سيأتي.

فائِدةُ الوصْفِ بالاسْمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيماءُ إلى عِلَّةِ الخبرِ، والتَّعريضُ ببِشارةِ المؤمنين بمحمَّدٍ ﷺ

في الوصف بالموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره، نُكْتَتان: أولاهما: الإيماءُ إلى علَّة الخبر، أي: أنَّ اللّه مَلَّكَهُم الأرضَ وجعلهم أُمَّة حاكمةً؛ جزاءً لهم على ما صبروا على الاستعباد، غَيْرَةً مِنَ اللّه على عبيده. الثَّانية: التَّعريضُ ببشارةِ المؤمنين بمحمَّد ﷺ، بأنَّهم ستكون لهم عاقبة السُّلطان كما كانت لبني إسرائيل؛ جزاءً لصَبْرِهم على الأذى في اللّه، وإنذارَ المشركين بزوال سُلطان دينهم[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/26 - 27.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.

ففي الوصف به زيادةُ تقريرٍ للغَرَض المَسُوق له الكلامُ، وزيادةٌ في تقرير وقوعه لما في صلة الموصول مِن ظلال دلالاتٍ تُوحي بوقوع حَدَثِ الاستضعاف، فضلًا عمَّا تحملُه مِن معانٍ تتضمَّنُها صلةُ الموصول، بعضُها يُشْعِر بالحَثِّ على الرَّحمة والمعونة والنُّصْرة للمُستضعَفين.

عِلَّةُ بناءِ فعْلِ الاسْتِضعاف: ﴿يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ للمجهولِ:

وُقوعُ مُسَبِّباتِ الضَّعفِ أعمُّ في الدّلالةِ على الضَّعفِ والاحْتقارِ

الاستضعاف: طَلَبُ الضَّعيف بالقَهْر، ثمَّ كَثُر استعمالُه حتَّى قيل: استضعفه، أي: وجدَه ضعيفًا[1]، فالسِّينُ والتَّاء في: ﴿يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ للحُسْبان، مثل: (استنجَبَ)، أو للمُبالغة كما في (استجاب)[2]. إذا قلنا: فلانٌ ضعيفٌ؛ فهو ضعيف في نفسه، وإذا قلنا: فلان مُتضعَّفٌ؛ أي: مُحْتَقَر، فهو أعمُّ مِن أن يكون في نفسه ضعيفًا، أو قويًّا[3]، بمعنى: وقع عليه أنواعٌ مِن مُسبِّبات الضَّعف. وعَبَّر بالماضي النَّاقص للدّلالة على تَحقُّق وقوعه، ورسَّخَهُ مَجيؤُه بالمضارع؛ دلالةً على تجدُّده عليهم، واستمراره، فـ "الجمعُ بينَ صيغتي الماضي والمستقبلِ للدّلالةِ على استمرار الاستضعافِ وتجدُّده"[4].

دَلالةُ وجهَي المجازِ والحقيقةِ، في التَّعْبيرِ عن تمليكِ أطْرافِ الأرضِ:

تمليكُ أبناءِ المُستضعَفِين مِن بني إسرائيلَ، مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، نِعمةٌ غامرةٌ

قوله تعالى: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، أي: جانبيها الشَّرقيَّ والغربيَّ، وهذا يتَّجه إمَّا على المجاز؛ لأنَّه مَلَّكَهم بلادًا كثيرة، وإمَّا على الحقيقة في أنَّه مَلَّكَ ذُرِّيتَهم، وهو سليمانُ بن داود عليهما السلام، ولكنَّ الّذي يليق بمعنى الآية ورُوِيَ فيها، هو أنَّه ملَّكَ أبناءَ المُستضعَفين بأعيانهم مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، يُؤكِّدُه وَصْفُه الأرضَ بأنَّها التي بارك فيها[5].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/375.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/446.

دَلالةُ تقديمِ المَشارقِ على المَغاربِ:

بدأتِ الآيةُ بتقديم (المشارق) على (المغارب) دلالةً على التَّفاؤل والبِشارة، بأنَّ بني إسرائيلَ سيستولون أوَّلًا على أرضِ فرعونَ وقومه مِن جهة المشرق، حيث كانت تطلُعُ عليهم الشَّمس، فالمشارق تدلُّ على أوَّل الأمور وأفضلها، وفي التَّقديم إفادةُ التَّشبيه والتَّضادِّ بينَ حال بني إسرائيلَ قبلَ وبعدَ نَصرِ اللهِ لهم؛ فقد كانوا - قبل إهلاك اللهِ فرعونَ وقومَه - في ظُلمات العبوديَّةِ والذِّلَّة، ثمَّ أخرجهم اللهُ إلى نور الحريَّة والعِزَّة، فكأنَّ شروقَ الشَّمس يدلُّ على تحوُّل حياتهم مِنَ الظَّلام إلى النُّور، ومِنَ الضِّيق إلى الفرَج.

الدّلالةُ على التَّفاؤُلِ والبِشارةِ، بتحوُّلِ الحياةِ إلى الرَّفاهِ والنّضارةِ

السِّرُّ في جمْعِ (المشارقِ) و(المغاربِ):

قوله تعالى: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، وفيها وَرَدَ لفظا (المشارق والمغارب)، وهي جمعٌ باعتبار تعدُّد الجهات؛ لأنَّ الجهة أمرٌ نسبيٌّ، تتعدَّد بتعدُّد الأمكنة المفروضة، والمرادُ بهما إحاطةُ الأمكنة[1]. فالحقُّ تعالى جاء بـ (المشرق والمغرب) بصيغة الجمع؛ ليدلَّ على أنَّ لكلِّ مكانٍ مَشْرِقًا، ولكلِّ مكانٍ مَغْرِبًا، فإذا غربتِ الشَّمس في مكانٍ فهي تُشرق في مكان آخر[2]. وفيه طباق إيجاب بينَ المشارق، والمغارب[3]، أدَّى وظيفةَ الرَّبطِ بين عناصر الآية الكريمة، المؤدِّي إلى مزيد إيضاحٍ وبيانٍ للمعنى.

جمْعُ لفظَي (المشارقِ والمغاربِ) للإحاطةِ بالأمكنةِ؛ باعتبارِ أنّ لكلِّ مكانٍ مَشْرِقًا ومَغْرِبًا

نُكْتَةُ إيثارِ صِيغةِ: (فاعَلَ)، في ﴿بَٰرَكۡنَا﴾:

﴿بَٰرَكۡنَا﴾ جعلنا الخيرَ فيها دائمًا ثابتًا[4]، مستقِرًّا كثيرًا، أدَّاهُ التَّعبير بالماضي على وزن (فاعَلَ) الدَّالِّ على المبالغة والتَّكثير في هذا الموضع، والمضافُ إلى ضمير التَّعظيم تخصيصًا؛ لإنزال

ذِكْرُ الأرضِ المبارَكِ فيها، تَنويهٌ بقداسةِ ما قدّسَه الله وبارَكَ فيه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.
(2) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويِّ: 7/4327.
(3) الأندونيسّي، الشَّامل: 1/423.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/375.

البركة به، و﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا﴾ نعتٌ للأرض، أو للمشارق والمغارب في قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، والثَّاني أولى؛ لتَجَنُّب الفَصْل بالمعطوف بين الصِّفة والموصوف[1]، والوَصْفُ بالجُملة أقوى في الدّلالة مِنَ المفرد.

بَراعةُ التَّعْبير بالتَّمامِ على طريقِ الاسْتِعارةِ، في قوله: ﴿وَتَمَّتۡ﴾:

الاسْتِعارةُ إرادةٌ لإنجازِ الوعْدِ؛ الّذي به تمامُ النِّعمةِ، وكمالُ المُتوقَّعِ

الواو في: ﴿وَتَمَّتۡ﴾ عاطفةٌ، ومعنى (تمَّت): مضَت واستمرَّت ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾، أي: بسبب صَبْرِهم على الشَّدائد التي كابدوها مِن جهة فرعونَ وقومِه[2].

ووجه الاستعارة في: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عدمُ وجود نقصٍ يحتاج إلى التَّمام، وإنَّما المراد: إنجازُ الوعد المتقدِّم لبني إسرائيلَ؛ بإهلاك عدوِّهم وإعلاءِ أمرهم، وإنَّما سُمِّي الإنجازُ تمامًا؛ لأنَّ به تمامَ النِّعمة، وكمالَ المتوقَّع[3]، ولأنَّ الوعد بالشَّيء يبقى كالشَّيء المعلَّق، فإذا حصلَ الموعُود به فقد تمَّ لك الوعدُ وكَمُل[4]، فتمامُ الكلمة تحقُّق وَعْدِها، شَبَّهَ تحقُّقَها بالشَّيء إذا استوفى أجزاءَه. ويَحْتَمِلُ أنَّها كلمةُ اللّه في عِلْمه وقُدْرَته، وهي إرادةُ اللّه إطلاقَهم مِن استعباد القِبْط، وإرادتُه تمليكَهمُ الأرضَ المُقَدَّسَة، كقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [النساء: 171]، وتمامُ الكلمة بهذا المعنى: ظهورُ تعلُّقِها التَّنجِيْزيِّ في الخارج، على نحو قول موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: 21][5].

نُكْتَةُ تَعدِيَة فعْلِ التَّمامِ بـ﴿عَلَىٰ﴾ تَضمينًا:

وعُدِّيَ فعلُ التَّمام بـ﴿عَلَىٰ﴾ للإشارة إلى تضمين ﴿وَتَمَّتۡ﴾ معنى:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(3) الشَّريف الرَّضّي، تلخيص البيان، ص: 76.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/181.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78 - 77.

الإنعام، أو معنى: حقَّتْ[1]؛ ليعطيَ جماعَ دلالة الفِعلَين، أي: تمَّتْ نعمةً، وتمَّتْ مُسْتَحَقَّةً لهم، وهو أقوى مِن إعطاء معنًى واحد، وتحرير ذلك: أنَّ استعمال الفعل (تمَّ) في هذا الموضع فيه قصدٌ إلى معنًى معيَّن، لا يتأتَّى مِن دون ذِكْره، إلَّا أنَّ تعديتَهُ بالحرف على غير عادة استعماله، فيه ضربٌ مِنَ التَّوسُّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومُؤدَّاهُ أنَّ للفعل دلالةَ أصلِ معناه، وباستعمال حرف الجرِّ الذي يتطلَّب فعلًا آخَر، يصبح للمعادَلة وجهان متكاملان؛ إذ يُؤدِّي الفعلُ أصلَ معناه بالتَّصريح به، ويقتضي حرفُ الجرِّ معنى الفعل الذي يطلبُه بالتَّضمين. وقد تقدَّم الحديثُ عن هذا المُعْطى البلاغيِّ عند تفسير الآية [95] من سورة الأعراف.

إعطاءُ جِماعِ دَلالةِ الفِعْلَين، ضَربٌ مِنَ التَّوسُّعِ في المعنَى مع غايةِ الإيجازِ

تَوجِيهُ القِراءةِ القرآنيّةِ، بقولِه: ﴿كَلِمَتُ﴾ بِصيغةِ الجمْعِ:

قوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالإفراد على قراءة جمهور القُرَّاء، أي: وَعْدُه تعالى إيَّاهم بالنَّصر والتَّمكين، كما يُنبئُ عنه قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: 5] أو هي القول، وهو هنا: يحتمل أن يكون المرادُ به اللَّفظَ الذي وَعَدَ اللهُ بني إسرائيلَ على لسان موسى في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 129]، أو على لسان إبراهيمَ، وهي وَعْدُ تمليكهمُ الأرضَ المقدَّسَة.

تعدُّدُ وعودِه تعالى للصّابرين، بالنَّصرِ والتَّمْكينِ

وقَرَأ الحَسَنُ البَصريُّ: (كَلِماتُ) عَلى الجَمْعِ[2]؛ لتَعدُّد المواعيدِ[3]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: 18]، فيكونُ مِن وَصْف الجمع بالمفرد المُؤنَّث، وكونُه نعتًا لمفردٍ مؤنثٍ غيرِ مجموع أبلغُ في الوصف[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.

(2) وهي قراءة شاذة، رُويت في غير المتواتر عن عاصم، وعن أبي عمرو. يُنظر: أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/376، وعبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات: 3/144.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/376.

بَلاغةُ الوصْفِ بلفظِ: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

الحُسْنَى: تأنيثُ الأحسن، صفةٌ للكلمة[1]، ووَصَفَها بالحُسْنى لأنَّه وَعْدٌ بمحبوب[2]؛ لأنَّها صفةُ تشْريفٍ، كما يُقال: الأسماءُ الحُسْنى، أي: كلمةُ ربِّك المُنزَّهة عنِ الخُلْف. ويَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ حُسْنَها لبني إسرائيلَ، وإن كانت سيِّئةً على فرعون وقومه؛ لأنَّ العَدْلَ حَسَنٌ وإنْ كان فيه إضرارٌ بالمحكوم عليه[3].

الحُسْنَىٰ وَعْدٌ بمحبوبٍ؛ لكوْنِها صفةَ تَشريفٍ وتَكريمٍ

الالتفات في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾:

والخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، أُدْمِجَ في ذِكْر القِصَّة تخصيصًا لها بالخطاب، على الالتفات الحاصل مِنَ الغيبة إلى الخطاب[4]؛ لتحقيق معنى: أنَّ الذي حَقَّق نصرَ موسى وأُمَّتِه على عدوِّهم هو ربُّك، فَسَيَنْصُرك وأمَّتَك على عَدوِّكُم؛ لأنَّه ذلك الرَّبُّ الذي نصرَ المؤمنين السَّابقين، وتلك سُنَّتُه وصُنْعُه[5].

الآيةُ بِشارةُ نَصْرِه ﷺ وأُمَّتِه على عَدُوِّهم

سِرُّ العُدُول عنِ التَّذْييلِ إلى العطْفِ:

جملة: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾، والمقصود مِن هذا الخبر هو قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾؛ تنويهًا بفضيلة الصَّبر وحُسْنِ عاقبته، وبذلك الاعتبار: عُطِفَت هذه الجُملة على التي قبلها، وإلَّا فإنَّ كلمة اللَّه الحُسْنى على بني إسرائيلَ تَشْمَل إيراثَهمُ الأرضَ التي بارك اللَّه فيها، فتتنزل مِن جملة: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ إلى آخرها منزلةَ التَّذييل الذي لا يُعْطَف، فكان مقتضى العَطْفِ هو قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾[6].

الاعتبارُ بفضيلةِ الصَّبرِ، وحُسْنِ عاقبتِه، في العاجلِ والآجلِ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/149.
(2) الكرمانّي، غرائب التَّفسير وعجائب التَّأويل: 1/420.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/539.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78، ونفى ابنُ عاشور أن يكون في الخطاب التفاتٌ مِنَ الغيبة إلى الخطاب؛ لاختلاف المُراد مِنَ الضَّمائر.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.

سِرُّ التَّعْبِير بالباءِ السَّببيَّةِ والمَصْدرِ في: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾:

التّعبيرُ عن شدَّةِ صَبْرِهم، وبيانِ فائِدةِ الصَّبرِ، والحثِّ عليه

الباء في: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ للسَّببيَّة، و(ما) مصدريَّة، أي: بِصَبْرِهم على الأذى في ذات الإله، وفي ذلك تنبيهٌ على فائدة الصَّبر، وأنَّ الصَّابرَ صائرٌ إلى النَّصرِ وتحقيقِ الأَمَل[1]، وحسبُكَ به حاثًّا على الصَّبر، ودالًّا على أنَّ مَنْ قَابلَ البلاءَ بالجَزعِ وَكَلَهُ اللهُ إليه، ومَن قابلَهُ بالصَّبرِ وانتظارِ النَّصرِ ضَمِنَ اللهُ له الفَرَجَ[2]، لذا كان التَّعبيرُ بالمصدر المُنسَبِكِ أدلَّ في هذا الموضع؛ لبيان قُوَّة صَبْرِهم. وللإلماحات السَّابقة بتَضَجُّرهم، استُغْرِبَ وَصْفُهم بالصَّبر، وأُجِيبَ عنه بوجهين: إمَّا أنَّ ذلك في أوَّل أمرِهم ثمَّ صَبَرُوا، وإمَّا أنَّ التَّضَجُّر مِن عوامِّهم، والصَّبرَ مِن خواصِّهم، فبِبَركة صَبْرِهم غُفِرَ لعوامِّهم، وصار الجميعُ كأنَّهم صبروا، وحُكْمُ العَوامِّ لحكْمِهم[3].

فائِدةُ التَّعْبِيرِ بالتَّدْمِيرِ عنِ الإهلاكِ:

إطْلاقُ التَّدْمِيرِ على إهلاكِ المصنوعِ مَجازيٌّ، علاقتُه الإطلاقُ

وقولُه تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾، التَّدميرُ: تخريب قصورِهم وأبنيتِهم بالهلاك[4]، فهو التَّخريبُ الشَّديد، وهو مصدرُ (دمَّر الشَّيء)، إذا جعلَه دامِرًا للتَّعدِيَة، مُتَصَرِّفٌ مِنَ الدَّمار - بفتح الدَّال - بمعنى: الإهلاك جميعًا. وجاء به على صيغة الماضي المُضَعَّف (فعَّل)؛ للدّلالة على التَّكثير والمبالغة، وإطلاقُ التَّدمير على إهلاك المصنوع مجازيٌّ، علاقتُه الإطلاقُ؛ لأنَّ الظَّاهر أنَّ التَّدميرَ حقيقتُه إهلاكُ الإنسان[5].

بَلاغةُ تقديمِ الصُّنْعِ، وإظهارِ فاعِلِيْه:

الأهمُّ بالنِّسبةِ إلى التَّدْمِيرِ الصُّنْعُ، وهو مَلمحٌ للمُبالغةِ في الذَّمِّ

ومعنى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾، أي: ودَمَّرنا الذي كان فرعونُ يَصْنَعُه، على أنَّ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ اسمُ كان، و﴿يَصۡنَعُ﴾ خبرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 9/78.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/149.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245 - 246.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/376.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.

مُقَدَّمٌ، وقَدَّمَهُ لكون الأهمَّ بالنِّسبة إلى التَّدمير الصُّنْعُ[1]، وأظْهَرَ الصَّانِعِينَ وصَرَّح بهم - وهم فرعونُ وقومُه - زيادةً في الذَّمِّ؛ لأنَّ مَوْرِد الذِّكْر في مواطن الخيبة والخُسران والعذابِ والعقوباتِ إذلالٌ ومهانةٌ، يناسِبُهُ التَّصريحُ، وعَطَفَ مُصَرِّحًا بقَوْمِهِ إلماحًا باستحقاقهم العقوبةَ معه؛ لكونهم مشارِكِين في صنائعِ الاستبداد والظُّلم والباطل.

بَراعةُ التَّقابُلِ التَّركيبيِّ الاسْتِلزامِيِّ، بينَ الإيراثِ والتَّدْمير:

إيــــراثُ بـنِـي إسرائيلَ الأرضَ، يقتضِي إذهـابَ ما صَنَعَ فرعونُ ومَـلَـؤُه، وعـدمَ بقائِه

قولُه تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ يقتضي ذهابَ كلِّ ما صنعوا، وعدمَ بقائه، وقولُه تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾، يقتضي البقاءَ[2]، فالجامع بينَهما خياليٌّ، أو هو عقليٌّ؛ لما بينَهما مِن تضايف، فإنَّ إيراثَ القوم الـمُسْتَضعَفين علَّةٌ - بحسب الظَّاهر - لتدمير ما يَصْنعُه المستكبِرون[3].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعۡرِشُونَ﴾، بين التّشبيهِ والاسْتِعارةِ:

الصُّورةُ البيانيّةُ في الآيـةِ، تُجَلِّي المعنَى في جمالٍ واتِّساقٍ

﴿يَعۡرِشُونَ﴾ ما كان يبنونَ مِنَ الجنَّات، أو يرفعونَ مِنَ الأبنيَة الـمُشَيَّدةِ في السَّماء؛ كَصَرْح هامانَ وفرعونَ، ومباني الأهرام والهياكل[4]، وهو المناسب لفِعْل ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾، شَبَّه البناءَ المرفوعَ بالعَرْش.

ويجوز أن يكون ﴿يَعۡرِشُونَ﴾ استعارةً لقُوَّة الملك والدَّولة، ويكون ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾ ترشيحًا للاستعارة[5].

وقوله: ﴿يَعۡرِشُونَ﴾ قرأَهُ ابنُ عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَعۡرُشُونَ﴾ بضَمِّ الرَّاء، والباقون بالكسر، وهما لغتان: عَرَش الكَرمَ يَعْرِشُه ويَعْرُشُه، والكَسْرُ لغةُ الحجاز، قال اليزيديُّ: "وهي أفصحُ".

(1) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/488.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/488.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/181.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/79.

وقُرِئَ شاذًا بالغَيْن المُعْجَمة والسِّين المهْمَلة، مِن غَرْس الأشجار، قال السَّمين: "وما أَظُنُّه إلَّا تصحيفًا"[1].

وقرأ إبراهيمُ بنُ أبي عَبْلَة: (يُعَرِّشون) بضَمِّ الياء وفتحةِ العين وراءٍ مُشَدَّدةٍ مكسورة[2]، والتَّضعيفُ دلالةُ الشِّدَّة والمبالغة والتَّكثير.

دَلالةُ الجمْعِ بينَ الماضي والمضارعِ، والعُدولِ في الخبَرِ إلى المضارعِ:

بيـانُ التَّـعْبـيرِ عـنِ الاسْـتـمـرارِ والـتَّـكَـرُّرِ، واسـتـحـضـارُ الصُّورةِ في ذِهْنِ المُخَاطَبِ

عبَّرَ بالفعل: ﴿كَانَ﴾ في الصِّلَتين للدّلالة على التَّحَقُّق، وأنَّ ذلك دأْبُه، أي: ما عُني به من الصَّنائع (يَصْنَعُونَ)، والجَنّات ﴿يَعْرِشُونَ﴾. وأردفه بخبري (كان) على صيغة المضارع؛ للدّلالة على التَّجدُّد والتَّكَرُّر[3]، فجمع بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدّلالة على الاستمرار في الأزمنة الماضية، فالجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدّلالةِ على الاستمرار والتَّجدُّد، فضلًا عن أنَّ عدولَه في خبر كان مِنَ الماضي إلى المضارع جاء لاستحضار الصُّورة في ذِهْنِ المخاطَب، والأصلُ: ما صَنَعُوا، وما عَرَشُوا[4].

آخِرُ ما قصَّ اللهُ مِن نبأِ فرعونَ والقِبطِ، في ذلك الزّمانِ البعيدِ:

حُـسْـنُ بَـراعـةِ الختامِ، انْتقاءٌ لِـمـا بـه يُـخـتَـمُ الكلامُ

قال الزَّمخشريُّ بعد قوله تعالى: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: "وهذا آخر ما اقتصَّ اللّهُ مِن نَبأ فرعونَ والقِبْطِ، وتكذيبِهم بآيات اللّه، وظُلْمِهم، ومعاصيهم"[5]، وعلَّق السُّيوطِيُّ: "وهو من براعة الختام؛ إذ ختم بما آذَنَ بالانتهاء مِنَ الإهلاك، والإغراقِ، والتَّدمير، والميراثِ، وتمامِ الكلمة، وكلُّ لفظةٍ مِن هذه كافيةٌ في حُسْن براعةِ الخِتام"[6].

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/441.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/447، وهي قراءة شاذَّة.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/79.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266 - 267، والأندونيسّي، الشَّامل: 1/423.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/149.
(6) السُّيوطيُّ، قطفُ الأزهار في كشف الأسرار، ص: 1048.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الميراثُ والإعطاءُ:

سُمِّي ميراثًا؛ لأنَّهم نالُوه بغير سَببٍ لهم، بل انتقلَ إليهم عن غيرِهم

وسمَّاه ميراثًا ولم يُسَمِّه إعطاءً؛ لأنَّهم نالوهُ بعد موت القِبط، وكذلك هو الميراث، ولأنَّهم نالوه بغير سببٍ لهم ولا للقِبط فيه، خِلافَ الإعطاء، فإنَّهم ينالون ما أُخِذ بسبب، وما أُخِذ مِن غير سبب[1]، ويُطلَق الإرث أيضا مجازًا على مماثلة الحَيِّ ميِّتًا في صفات كانت له، مِن عزٍّ أو سيادة[2].

التَّمامُ والكمالُ:

التَّكميلُ استيعابُ الأجزاءِ، والتَّتْميمُ قد يكونُ بما وراءَ الأجزاءِ مِن زياداتٍ

تَــمَّ الشَّيءُ: إذا اكتمل، ومِن ذلك التَّميمَة، كأنَّهم يريدون أنَّها تمامُ الدَّواءِ والشِّفاءِ المطلوب[3]، فالتَّمامُ: هو الشَّيء الذي به يتمُّ الشَّيء ويكتَمل، ولهذا قال أصحاب النَّظم: القافيةُ تمامُ البيتِ، ولا يُقال: كمالُ البيت، ويقولون: البيتُ بكماله، أي: باجتماعه، ويُقال: هذا تمامُ حَقِّكَ، للبعض الذي يتمُّ به الحَقُّ، ولا يُقال: كمالُ حَقِّك[4].

فتمامُ الشَّيءِ: انتهاؤُه إلى حَدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه، والنَّاقص ما يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه[5].

والكَمالُ: التَّمام الذي يُجزَّأُ منه أجزاؤُه، تقول: لكَ نِصفُه وبعضُه وكَمالُه، وأكملْتُ الشَّيءَ: أجملتُه وأتممتُه[6]، وهو في اللُّغة: حصولُ ما فيه الغَرَضُ والغايَةُ مِنَ الشَّيء[7].

والتَّكميل: استيعابُ الأجزاء التي لا تُوجد الماهيَّةُ المركَّبة إلَّا بها، والتَّتميم: قد يكونُ بما وراءَ الأجزاءِ مِن زياداتٍ، يتأكَّدُ بها ذلك

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/26 - 27.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تم).
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 263.
(5) الرَّاغب، المفردات: (تمم).
(6) الخليل، العين: (كمل).
(7) الرَّاغب، المفردات: (كمل).

الشَّيءُ الكامل، ويُستأْنَسُ لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: 3]، لـمَّا كانت أركانُ الدِّين وُجِدَ منها الجزءُ الأخيرُ إذ ذاكَ، استُعْمل فيه لفظُ الكمالِ، ولـمَّا كانت نِعَمُ اللّهِ حاصلةً للمؤمنين قبل ذلك اليوم غيرَ ناقصةٍ، استُعمل فيها الإتمامُ؛ لأنَّه زيادةٌ على نِعَم اللّه التي كانت قبلَ ذلك كاملةً، فإنْ تمَّ هذا، ظهرَ وَجْهُ تسميةِ الأوَّل بالتَّكميل؛ لأنَّه يَدفع إيهامَ غيرِ المراد، وذلك كالجزء مِنَ المراد؛ لأنَّ الكلام إذا أوْهَم خِلافَ المُراد، كان كالّذي دلالته ناقصة، بخلاف التَّتميم(1).

التَّمامُ الإِتْيانُ بِـمَـا نَـقَـصَ، والكَمالُ تَمامٌ وزِيَـادَةٌ، فَـهُـوَ أَخَصُّ

والتَّمام يَسْتَدْعِي سَبْقَ نَقْصٍ، بِخِلاف الكَمال، ولذلك عُبِّر به عنِ الإِتْيان بِمَا نَقَص مِنَ النَّاقِص، والكَمالُ: الزِّيادةُ على التَّمام، فَلَا يَفْهَمُ السَّامِعُ - عربيًّا أو غيرَه - مِن رَجُلٍ تامِّ الخَلْقِ إلَّا أنَّه لا نَقْصَ في أَعْضائه، ويَفْهَمُ من (كاملٍ) مَعْنًى زائدٍ على التَّمام، كالحُسْنِ والفَضْلِ، فالكَمال تَمامٌ وزِيادَة، فهو أخصُّ(2).

فالتَّمامُ هو الجزءُ الأخيرُ الذي به يتمُّ الشَّيءُ، فتتمُّ به أجزاؤُه، فيُصبحُ كاملًا(3)، والتَّمامُ يأتي لنَفْيِ النَّقْص، والكمالُ يأتي لنَفْيِ العيْب بأنواعه، والنَّقْصُ نوعٌ مِنَ العيْبِ(4).

وبهذا ناسبَ لفظُ التَّمام سياقَ الآية الكريمة؛ لكونه إتمامًا لوَعْد اللّهِ بإيراث بني إسرائيلَ الأرضَ، وقُصِدَ إلى استعمال الإتمام؛ لأنَّه زيادةٌ على نِعَم اللّه التي كانت قبلَ ذلك كاملةً، وانتهاؤه إلى حَدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه.

---

(1) بهاء الدِّين السُّبكّي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/614 - 615.

(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (تمم).

(3) زيدان، الفروق اللُّغوية، ص: 66.

(4) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 160.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نـجـاةُ بـنـي إسرائيلَ وهلاكُ أعـدائِـهـم، وطلبُهم اتّخاذَ إلـهٍ شـريـكٍ، بمجرّدِ مُجاوَزة البحرِ

تَذكرُ هذه الآيةُ الكريمةُ وما بعدَها ما أحدثَه بنو إسرائيلَ مِنَ الأمورِ الشَّنيعةِ بعدَ أن مَنَّ اللّهُ عليهم بالنِّعَمِ الجِسام، وأراهُم مِنَ الآياتِ العِظَام[1]، بأنْ أهلَكَ عدوَّهُم، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم؛ أتبعَ ذلك بالنِّعْمَة العظمى، وهي أن جاوزَ بهم البَحْرَ مع السَّلَامة[2]، وهي شروعٌ في قصَّةِ موسى عليه السلام مع قومِه معطوفةً على قصَّتِه مع فرعونَ وقومِه على أكملِ وجوهِ العِبْرةِ، مع السَّلامةِ من لغوِ القَصَصِ والتَّاريخ[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: (جوز) أصلان: أحدهما قطعُ الشَّيءِ، وجُزْتُ الموضِعَ، والمكان: سِرْتُ فِيه، وأَجَزْتُه: خَلَّفتُه، وقَطَعْتُه، وأَنْفَذْتُه[4]، وجاوزَه جِوازًا، بالكسرِ: سارَ فيه وسلَكه[5]، وَتجاوَزَ بهم الطَّرِيقَ، وجاوزه جِوازًا، وجاوزَ به: خَلَّفَهُ[6]، وهو عُبُورٌ، أو نفاذٌ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، والطَّريقُ إذا قَطَعْتَهُ من أحد جانبَيه إلى الآخرِ، وسلوكُ الطريق نفاذٌ فيه، ومنه جاوزْتُ الموضعَ بمعنى: جُزْتُهُ، وبِهِ فُسِّرَت

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/32.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/181.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/91.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جوز).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (جوز).
(6) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (جوز).

الآيةُ الكريمةُ، وكلُّ ما في القرآنِ منَ التَّرْكِيْبِ؛ فهو من هذا الجوازِ[1]، وقيل: المعنى: قَطَعْنَاهُ بِهم، وجُزْنَاهُ[2]، وتخطَّيناه[3]. ويبدو - واللّه أعلمُ - أنَّ معاني: خَلَّفْنَاهُم، وجُزنَاه بهم، وقطعْنَاهُ بهم، أنْفذْناهُم منه، وتخَطَّينَاه كلُّها محتَمِلَةٌ، ومرادةٌ.

2) ﴿يَعۡكُفُونَ﴾: (عكف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقابلةٍ وحَبْسٍ[4]، يقالُ: عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ عكْفًا وعُكُوفًا: بإقبالِكَ على الشَّيءِ، لا تصرفُ عنه وجهَكَ[5]. والاعتكافُ في الشَّرع: هو الاحتِباسُ وملازمةُ المسجدِ على سبيل القُربةِ، والعكوفُ: الملازَمةُ بنيَّةِ العِبَادَة[6]، وهو إقبالُكَ على الشَّيءِ والإكبابُ عليه وملازمتُه؛ مواظِبًا لا تصرِفُ عنه وجهَكَ إلى غيرِهِ على سبيل التَّعظيمِ لَه[7]، وكذلك معناهُ في الآيةِ الكريمة[8].

3) ﴿أَصۡنَامٖ﴾: (صنم) كلمةٌ واحدة لا فرعَ لها، وهي الصَّنَم، وهو الشَّيءُ يُتَّخذُ من خشبٍ أو فضَّةٍ أو نحاسٍ فيُعبَدُ[9] باتِّخاذهِ إلهًا من دونِ اللّهِ تعالى، وقيل: هو ما كانَ لَهُ جِسمٌ أو صورةٌ، فإن لم يكن لهُ جِسمٌ أو صورةٌ؛ فهو وَثَنٌ، وسيأتي تفصيلُ الفَرْقِ بينهما في الفروقِ المعجميَّةِ - إن شاءَ اللّهُ[10] - ، أو كانوا يعبدونهُ متقرِّبين بهِ إلى اللّهِ تعالى، وجمعُه: أصنامٌ، وقيل: كلُّ ما عُبِدَ من دونِ اللّهِ، بل كلُّ ما يَشْغلُ عن اللّهِ تعالى يقالُ له: صنمٌ[11]. فالصَّنَم: ما اتُّخِذ إلهًا من دونِ اللّهِ، يُنْحَت من خَشَبٍ، وغيره، ويُصاغُ من فضَّةٍ ونحاس، فلعلَّهُ سُمِّي كذلك لمّا توهَّم فيه عابدوهُ من قوًى خفيَّةٍ ليس لها ظواهرُ تدلُّ عليها[12].

وهو في الآيةِ الكريمةِ ما اتَّخذه القومُ لهم من تماثيلَ للبقر بحسبِ ما وردَ في كُتبِ التَّفسيرِ.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جوز).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/447.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/172.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عكف).
(5) الخليل، العين: (عكف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عكف).
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/447، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/600.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنم).
(10) ابن الأثير، النّهاية: (صنم).
(11) الرّاغب، المفردات: (صنم).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صنم).

4) ﴿تَجۡهَلُونَ﴾: (جهل) أصلان: أحدُهما خلافُ العِلم، ونقيضُه[1]. وعُدَّ الجَهْلُ ضِدَّ العلم؛ لأنَّ الجَاهِلَ خالي الذِّهنِ مِنَ المعلومات[2]. وخلاصةُ معنى الجَهْلِ ثلاثةُ أضرُبٍ: الأوَّل: وهو خلوُّ النَّفسِ مِنَ العلم، هذا هو الأصلُ. والثاني: اعتقادُ الشَّيء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعلُ الشَّيء بخلافِ ما حقُّه أن يفعلَ، سواءٌ اعتقدَ فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يتركُ الصَّلاَةَ متعمِّدًا، والأكثرُ في القرآن أن يُذكرَ على سبيل الذَّمِّ[3]. وكلُّ هذه المعاني محتَمِلَةٌ في لفظ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ في الآية الكريمة.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مُجاوَزةُ موسَى وقومِه البحْرَ، وطلبُهم معبودًا على شاكلةِ عَبَدةِ الأصنامِ الّذين لاقَوْهُم

والمعنى: وقطعْنا ببني إسرائيلَ البَحْرَ بعدَ الآياتِ الَّتي أريناهموها، والعِبَرِ التي عاينوها على يدَي نبيِّ اللّه موسى، فلم تزجرْهم تلك الآياتُ، ولم تعظْهم تلك العِبَرُ والبيِّنات؛ حتى قالوا بعد أن مرُّوا بقومٍ يُقيمون، ويُواظبون على عبادةِ أصنامٍ لهم: اجعلْ لنا مثالًا نعبدُه، وصنمًا نتَّخِذُه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنامٌ يعبدونها. فأنكرَ موسى عليه السلام ذلك عليهم، ونعتَهم بجهلِهم عظَمَةَ اللّهِ، ووجوبَ حقِّهِ عليهم، وأنَّكم لا تعلمون أنَّ العبادةَ لا تنبغي إلَّا للّهِ الواحد الأحد[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَنْ لم يُخْلِصْ قلبَهُ لحقائقِ التَّوحيد تتوقُ نفسُه لنَبْذِ عوالقِ الشِّرك، والرِّيبة[5]. وفيها تسليةٌ لرسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وإيقاظٌ للمؤمنين حتَّى لا يغفُلوا عن محاسبةِ أنفسِهم ومراقبةِ أحوالِهم[6]. ويُؤخَذُ مِنَ الآيةِ أنَّ تغييرَ المنكر خاصٌّ بمن أُرسِلَ إليه

(1) الخليل، العين، ومقاييس اللّغة: (جهل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جهل).
(3) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/80.
(5) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/562.
(6) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/32، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267.

المُغيِّر؛ لأنَّ موسى ﷺ لم يغيِّرْ قومَه بالقوَّة[1]. وتهدي أيضًا إلى أنَّ مِن خِسَّةِ العقول، وانحطاطِ مستوى تفكيرِها عَدَّ القبيحِ حَسنًا، واتِّخاذَ المظاهرِ المزيَّفة قُدْوةً، فتنخلِعُ عن كمالِها في اتِّباع نقائِصِ غيرِها[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العُدولِ بالفعْلِ (جازَ) إلى (جاوَزَ):

صِيغةُ المفاعَلةِ (وجاوزنا)، كانتْ تعظيمًا لِما كان من مُعجزةِ فَرْقِ البَحْرِ

الفعلُ (جَاوَزَ) في ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ بمعنى: جَازَ، فَاعَلَ، بمعنى: فَعَلَ[3]، وساقَهُ على طريقِ المفاعلةِ؛ تعظيمًا له[4]، بزيادةِ الألفِ، وذلك مبالغةٌ لِما كان من معجزةِ فَرْقِ البَحْرِ، بارتفاعِ بعضِ أراضيهِ لعبورِهم، وانخسافِ مائِه، وغَرَقِ فرْعونَ وقومِه فيه[5]، وهو من باب (فَاعَل) بمعنى (فَعَّل)؛ لأن أصل (فَعَّل) إنَّما يقتضي تكليفَ الفعل؛ وصعوبتَهُ[6].

دَلالةُ (الباءِ)، في قولِه: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

تَنوُّعُ معنَى الجُملةِ بين الحاليَّةِ والتَّعْدِيةِ، دليلُ أهمّيّةِ حرفِ المعنَى في السّياقِ

الفعلُ (جاوز) متعدٍّ إلى واحدٍ بنفسِه، وإلى المفعول الثاني بالباء، فإذا قلتَ: جِزْتُ به، فأصلُ معناهُ: أنَّك جزتَهُ مصاحِبًا في الجَوازِ به للمجرور بالباء ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فالباءُ حاليَّةٌ، والمعنى: جاوزنا البَحْرَ مُلتَبِسًا ببني إسرائيلَ، أو جاوزناهُ، وهم فيه، ثم استُعيرَتِ الباء للتَّعديةِ، يقال: جُزْتُ به الطَّريقَ؛ إذا سهَّلتَ له ذلك، وإن لم تَسِرْ معه، فهو بمعنى: أجزتَه، ويكونُ التقدير: جاوزناهم البَحْرَ، بأن جعلناهُ يَبَسًا لهم، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ، أي: قدَّرنا لهم جوازَه، ويسَّرناهُ لهم[7].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/442.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.

(5) قباوة، المفصّل، ص: 594.

(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.

(7) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 1/349: 5/441: 1/349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/79 - 80.

دَلالةُ ضَميرِ التَّعْظيمِ في قولِه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾:

مـنْـحُ الـنّـاجـينَ شَــرَفَ المـعـيَّـةِ الرَّبَّانيَّةِ، إشارةٌ إلى إحاطَـتِـهـم بالعِنايةِ الإلهيّةِ

في قولِه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ يُحدِّثُ اللّهُ ﷻ عن نفسِه بضميرِ المتكلِّم العظيم، فيُبيِّنُ لنا أنَّه كان مُصاحبًا بني إسرائيلَ بمعيَّتِه العظيمةِ الجلَيْلَةِ، حين أمَرهم بعبورِ البَحْرِ حتى جعلَهم يجاوزونَ مكانَ الفلَقِ مِنَ البَحْر، ويصلون إلى البَرِّ بعيدًا عن ساحِلِه، وهذا الإسنادُ منهُ ﷻ صيَّر السَّيرَ محفوفًا بالعناية، والحفظِ، والمعونةِ الإلهيَّةِ، وهذا التَّعْبِيْرُ البديعُ دلَّ على أنَّ اللّهِ ﷻ منحَ بني إسرائيلَ - بقيادةِ موسى ووزيره هارون عليهما السلام حين عبورِ الطَّريقِ في البَحْر - شرفَ المعيَّةِ الرَّبَّانيَّةِ لهم، مُعْتَنِيًا بهم، وحافظًا لهم، ومُعِيْنًا. وكان تثبيتُ اللّهِ لنبيِّه الكريم سابقًا هذا الحدثَ، بعد أن قال أصحابُ موسى - حينَ رأى كلُّ واحدٍ من الفريقين الآخرَ -: إنَّ جَمْعَ فرعونَ مُدْرِكُنا ومُهلِكُنا، فردَّ عليهم نبيُّ اللّه بثقةٍ واطمئنانٍ وثبات: كَلَّا ليس الأمرُ كما ذكرْتُم فلن تُدْرَكوا؛ إنَّ معيَ ربِّي بالنَّصرِ والمعونة والتَّأييد، سيهديني لما فيهِ نجاتي ونجاتِكم: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء: 62].

وَجْهُ القراءةِ بالتَّشْديدِ، في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾:

اللّـفظُ هنا مِنَ التَّجْويزِ المرادِفِ لـلـمُـجـاوَزةِ، وهو من فَصيحِ الألفاظِ

قُرِئَ في الشّاذّ: (وجَوّزنا) بالتَّشديد، وهو مِمَّا جاءَ فيهِ (فَعَّلَ) بِمَعْنَى (فَعَلَ) المُجَرَّدِ، نَحْوُ: قَدَّرَ وقَدَرَ، وليس التَّضعيفُ للتعديةِ[1].

وهو من التَّجويزِ المرادفِ للمجاوزةِ لا ممَّا هو بمعنى التَّنفيذِ، وإلَّا لقيل: وجوَّزنا بني إسرائيلَ في البَحْرِ، ولخلا النَّظمُ الكريمُ عن الإيذانِ بانفصالهم عنِ البَحْر، وبمقارنةِ العنايةِ الإلهيَّةِ لهم عند الجَوازِ كما هو المشهورُ في الفرقِ بين أذهبَهُ، وذهَبَ بِهِ[2].

---

(1) وهي قراءة الحسن، وإبراهيم وأبي رجاء ويعقوب، يُنظر: أبو حيَّان، البَحْر المحيط: 4/376، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/442.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267.

دَلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

و﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ هو المرادُ باليمِّ في الآية السّابقة: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، فالتَّعْرِيْفُ للعهدِ الحضوريِّ، أي: البَحْرُ المذكورُ، كما هو شأنُ المعرفةِ؛ إذا أُعيدَت معرفةً، واختلافُ اللَّفظِ تفنُّنٌ، وتجنُّبٌ للإعادةِ، والمعنى: أنَّهم قطعوا البَحْرَ، وهو بحرُ القُلْزُم، وهو الاسم الَّذي كان يُطلَقُ على البحرِ الأحمرِ قديمًا، وخرجوا على شاطئهِ الشَّرقيِّ[1].

المـرادُ بالبحْرِ، بحرُ القُلْزُم، وهو الاسمُ الّذي أُطلقَ على البحرِ الأحمرِ قديمًا

نُكتةُ العُدولِ مِن لفْظِ (اليمِّ)، إلى لفْظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

عدَلَ السِّياقُ إلى لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾، بدلًا مِنَ (اليَمِّ)؛ تفنُّنًا في العبارةِ، وسبقتِ الإشارةُ إلى اقتران لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ ببني إسرائيلَ؛ لكونه ممَّا يُعَبَّرُ به عَن مواطِن النِّعَم، والخيرات، والنَّجاة، واقترانِ لفظُ (اليَمّ) بآل فرعون لمصاحَبَتِهِ معنى الانتقامِ، والعقاب، والخوف.

تَنويعُ الألفاظِ لونٌ منَ التّفنّنِ، مع دَلالةِ (البَحْرِ) على النَّجاةِ، و(اليمِّ)، على العُقوبةِ

سِرُّ العطْفِ على أوَّلِ القِصَّةِ:

قال عاطفًا على قَوْله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، أو قَوْله: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، وإنَّما جعله السِّياقُ معطوفًا على أوَّلِ القِصَّةِ؛ لأنَّ هذه القصصَ كُلَّها بيانٌ، وفي النَّاس السَّيِّئُ الجَوهرِ الّذي لا تغنيهِ الآياتُ[2].

القَصصُ بيانٌ، وفي النَّاسِ مَنْ لا تُغنِيهِ الآياتُ، ولا تَردَعُه البيّناتُ

دَلالةُ تعْدِيةِ فعْلِ الإتيانِ بـ﴿عَلَىٰ﴾، على طريقِ التَّضْمين:

الفاءُ في: ﴿فَأَتَوۡاْ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيب، والتَّعقيبِ، ولمَّا ضُمِّن ﴿فَأَتَوۡاْ﴾ معنى (مرُّوا) عُدِّيَ بـ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدةِ للاستعلاءِ المجازيِّ؛ لأنَّهم لم يقصدوا الإقامةَ في القوم، ولكنَّهم ألْفَوْهُم في طريقِهم، والقومُ: هم الكنعانيُّون، ويقال لهم عند العربِ: العمالقةُ، ويُعرَفون عند متأخِّري المؤرِّخين بالفينيقيِّين[3].

الإتيانُ المرورُ على القومِ دونَ الإقامةِ عندَهم، وهو مُستعمَلٌ بدقّةٍ في السِّياقِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

تَعْدِيَةُ فعلِ العُكوفِ بـ﴿عَلَىٰ﴾ على طريقِ التَّضمِين:

العُكوفُ فيه شيءٌ من معنَى النُّزولِ، والانْكِبابِ على أصنامِهم

تعديةُ العكوفِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدالِّ على الاستعلاءِ المجازيِّ؛ لما فيه من معنى النُّزول، وتمكُّنه كقَوْلِه: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91][1]، وكأنَّ المعنى منكبُّون عليها، مواظبون على عبادتها.

سِرُّ التَّعْبِير بالمُضَارِع ﴿يَعۡكُفُونَ﴾:

اتِّصافُهم بالفعلِ في الحالِ، مع مَلْمَحِ تجدُّدِ الإقامةِ حوْلَ أصنامِهم

عبَّر عن فعل الاعتكاف بالمُضَارِع الدَّالِّ على اتِّصافهم بالفعل في الحال، وتجدُّدِه فيهم، وأخلصَ النَّكِرةَ ﴿قَوۡمٖ﴾ من محضِ التَّنْكِيرِ الوصفُ بالجُمْلَة الفعليَّةِ ﴿يَعۡكُفُونَ﴾ الدالِّ على استمرارهم عليه، وفي ذلك من الإيضاح بعد الإبهامِ ما ليس في التَّعْرِيْف بالإضافة.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿أَصۡنَامٖ﴾:

أهمّيّةُ دَلالةِ هذا اللّفظِ، بأنّ الأصْنَامَ المنكَّرةَ، مُبتذَلةٌ مُحقَّرةٌ

اختِيرَ طريقُ التَّنْكِيرِ في﴿أَصۡنَامٖ﴾، ووُصِفَتْ بأنَّها ﴿لَّهُمۡۚ﴾، أي: (للقوم) دونَ طريق الإضافة؛ ليُتَوسَّل به إلى إرادةِ تحقيرِ الأصْنَام، وأنَّها مجهولةٌ؛ لأنَّ التَّنْكِيرَ يستلزمُ خَفاءَ المعرفةِ[2].

سِرُّ وصفِ الأصْنامِ بأنّها ﴿لَّهُمۡۚ﴾:

زيادةُ التَّشنيعِ بهم، والتَّنبيهِ على جَهْلِهم وغَوايتِهم

إنَّما وُصِفَتِ الأصْنَامُ بأنَّها﴿لَّهُمۡۚ﴾، ولم يقتصِر على قَوْلِه: ﴿أَصۡنَامٖ﴾؛ لزيادة التَّشنيع بهم والتَّنبيهِ على جَهلِهم وغَوايتهم في أنَّهم يعبدونَ ما هو مُلْكٌ لهم، فيجعلونَ مَملوكَهُمْ إلهَهُم[3].

عِلَّةُ العُدولِ إلى الفصْلِ، في ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى﴾:

تَشوُّقُ النَّفْسِ إلى معرفةِ فِعْلِهم حالَ الرَّخاءِ، وأنّهم أشركُوا وما شَكَرُوا

لما أخبرَ سبحانه بنجاتِهم، ومجاوزتِهم البَحْرَ؛ عَلِمَ السَّامعُ أنَّهم بين أمرين: إمَّا شُكْرٌ، وإمَّا كُفْرٌ، فتشوَّفَ إلى ما كان منهم في حال الرَّخاءِ هل شكروا؟ فأجابَ اللّٰه سؤالَه بقَوْله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: لم يلْبَثْ ذِكْرُهُمْ لَمّا أراهم سبحانه من عظمتِه، وشكْرُهُمْ لَمّا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

أفاضَ عليهم من نعمتِه إلَّا رَيْثما أَمِنُوا من عدوِّهم بمجاوزَتِهم البَحْرَ، حتَّى طلبوا إلهًا غيرَهُ بقَوْلهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[1]. ولمَّا كانت العبارة افتتاحَ مُحاورة، والشّأنُ أنْ تكونَ جُملُها مفصولةً شاعَ فصْلُها. ففُصِلَتْ أيضًا، ولم تُعْطَفْ بالفاء؛ ولو عُطِفت، لجازَ أيضًا[2].

بَراعةُ تَوظيفِ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَى﴾ في الخِطابِ:

النِّداءُ فيه طَلَبٌ للإصْغاءِ لما يقولونَه، إظهارًا لرغْبَتِهم فيما سيطلُبون

ونداؤهم نبيَّهم بقَوْلِهم: ﴿يَٰمُوسَى﴾ مع أنَّه معهم مستعملٌ في طلب الإصغاء لما يقولونَه؛ إظهارًا لرغبَتِهم فيما سيطلبون[3]. ووُظِّفَ النِّداءُ بوصفِه دُعاءً برفعِ الصَّوتِ، غايتُه أنْ يُصغيَ من يُنادَى إلى أمرٍ ذي بالٍ، فيُستثارُ بحرف النِّداء، ويُحرَّك، ويُنبَّهُ؛ توكيدًا، ومبالغةً، فإذا أُلقي إليهِ الكلامُ؛ كان مُستعِدًّا لتَقَبُّلِه.

التَّصْريحُ بالمنادَى ﴿يَٰمُوسَى﴾، جَفاءٌ وغِلْظةٌ، وقلَّةُ تأدُّبٍ:

مُراعاةُ القرآنِ لمقتضَى الواقعِ، جعَلَ الألفاظَ عاكسةً لمفُوظِهم

وسَمُّوْهُ باسْمِهِ جفاءً وغِلْظَةً؛ اعتمادًا على ما عمَّهُمْ من برِّهِ وحِلْمِه غيرَ متأدِّبينَ بما بَهَرَهُمْ من جلالةِ حظِّهِ مِنَ اللّهِ[4]، فدعَوه كما ينادي بعضُهم بعضًا، فلم يقولوا له: يا نبيَّ اللّهِ، أو: يا كليمَ اللّهِ.

بَلاغةُ التَّشْبيهِ في قَوْله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾:

حَضُّهُمْ موسَى على الاسْتجابةِ لهم، وابْتِهاجُهُمْ بما رأَوْا مِنَ القَوْمِ الَّذينَ حلُّوا بينَهُم

والتَّشبيهُ في قَوْله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أرادوا به حضَّ موسى عليه السلام على إجابةِ سؤالِهم، وتحقيقِ مطلبهم، والابتهاجَ بما رأوا من حال القومِ الَّذين حلُّوا بين ظهرانَيْهم، وهم منقطِعون إلى ما يعبدون مِن أصنامٍ، وكفى بهم خِسَّةَ عُقُولٍ عَدُّهم القبيحَ حَسَنًا، واتِّخاذُهم المظاهرَ المُزيَّنَةَ قُدْوَةً، وانخلاعُهم عن كَمالهم في اتِّباع نقائص

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.

(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/104.

غيرهم[1]! ويجوز أنْ تكونَ الكافُ اسمًا في محلِّ نصبٍ صفةً لإِلهٍ، أي: إلهًا مُماثِلًا لإِلهِهم[2].

دَلالةُ تعدُّدِ وُجوهِ احْتمالاتِ إعرابِ (ما)، في قوله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾:

التّنوُّعُ في المعاني، والسّعةُ في الدّلالاتِ، مَلْمحٌ يُميّزُ بيانَ الآياتِ

احتمالاتُ توجيهِ (ما): أن تكونَ كافَّةً لكافِ التَّشبيه عنِ العملِ؛ فإنَّها حرفُ جرٍّ، ولذلك وقعت الجُمْلَةُ بعدَها[3]، والتَّقدير: كآلهتِهم، ويجوز أن تكونَ مصدريَّةً، أي: كما ثبتَ لهم آلهةٌ، فآلهةٌ فاعل بـ(ثبت) المقدَّرِ، ويجوز أن تكونَ موصولةً، وفي قَوْلهم: ﴿لَّهُمْ﴾ ضميرٌ يعودُ إليه، و﴿ءَالِهَةٌ﴾ بدلٌ مِن ذلك الضَّميرِ، تقديرُهُ: كالذي هو لهم آلهةٌ[4].

نُكتةُ العُدولِ إلى الفصْلِ:

الاسْتِئْنافُ تَشوُّفٌ إلى ردِّ موسَى المتَّصِفِ بالشّدَّةِ، والغِلْظةِ؛ مُناسبةً لحالِهِم

ولمّا كان قَوْلهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، قولَ مَن لا يَعُدُّ الإلهَ الّذي فعلَ معهم هذه الأفاعيلَ شيئًا، ولا يستحضرُهُ بوجهٍ، ولما كان هذا منهم عظيمًا؛ استأنفَ جوابَ مَن تشوَّف إلى قولِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم ما هم، بقَوْله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[5]. وفُصِلت، ولم تُوصَل لوقوعِها في جوابِ المحاورة، أي: أجابَ موسى كلامَهم، وكان جوابُه متَّصِفًا بالشِّدَّة والغلظة؛ لأنَّ ذلك هو المناسبُ لحالهِم[6].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالمُضَارِعِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾:

الإشعارُ بأنَّ الجهلَ منهم كالطَّبْعِ والغريزةِ، يُعْرَفُون به، ولا ينفكُّ عنهم

جاءَ بالفعلِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مضارعًا، ولم يقل: (جهلتم)؛ إشعارًا بأنَّ ذلك منهم كالطَّبعِ والغريزةِ، لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا حاضرٍ، ولا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.

(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/4424.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/150.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/182، وأبو حيّان، البَحْر المحيط: 4/377، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/4424 - 43.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

مستقبلٍ، فهي خَلَّةٌ متجدِّدةٌ فيهم(1). والمُضَارِع ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ في محلِّ رفعِ صفةٌ لقومٍ، وهو خبرٌ موطِّئٌ للصِّفةِ يفيدُ المبالغةَ، والتَّوكيدَ(2).

سِرُّ الوَصْفِ بالجَهْلِ المُطْلَقِ، على طريقِ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

توجَّهَ الذَّمُّ عليهم، لِما أبْدَوْا مِنَ السّفهِ الذّميمِ، والجهلِ العميمِ

وتوجَّهَ الذَّمُّ عليهم؛ لأنَّ العِبَادَة نهايةُ التَّعْظيم سواءٌ اعتُقِد في المعبودِ أنَّه إلهٌ، أو اعتُقِد فيه أنَّه مقرَّبٌ من اللهِ، ونهايةُ التَّعظيم لا تليقُ إلَّا بمن يَصْدرُ عنه نهايةُ الإنعام، ولهذا قالَ لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾(3)؛ مُتعجِّبًا مِن قَوْلهم، وموبِّخًا إيَّاهم على أثرِ ما رأوا من الآيةِ العظمى والمعجزةِ الكبرى، فوصفَهم بالجَهْلِ المطلقِ وأكَّده بـ"إنَّ"؛ لأنَّه لا جهلَ أعظمُ ممَّا رأى منهم، ولا أشنع(4). فقد بَعُدَ صنيعُهُم عن العقلِ، فلا يوجدُ أشْنَعَ ممَّا فعلوه، بعد ما رأَوا من الآياتِ الكبرى(5)، ولذلك فهمْ قومٌ ملأَ الجَهْلُ قلوبَهم، وغطَّى على عقُوْلِهم، فصاروا لا يُفرِّقون بين ما عليه هؤلاءِ من ضَلالٍ مُبينٍ، وبين ما تستحقُّه الألوهيَّةُ من صفاتٍ وتعظيمٍ(6).

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الاسميَّةِ: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾:

تَرسيخُ جهْلِهم المطْلقِ، بكونه صفةً ثابتةً في نفُوسِهم

كان وصفُ موسى عليه السلام إيَّاهم بالجَهَالة ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾، مؤكَّدًا بالجُمْلَةِ الاسميَّة، ولفظةِ (إنَّ)، وصيغةِ المُضَارِع، المفيدة للاستمرارِ التَّجدُّدي؛ ترسيخًا لمطلق جهالتِهم بتحقيقِ كونِ الجَهَالةِ صفةً ثابتةً فيهم، وراسخةً من نفوسِهم، ولولا ذلك؛ لكان لهم في باديْ النَّظر زاجرٌ عن مثل هذا السُّؤال، ورادعٌ عن التَّفكير فيه بَلَهَ طَلَبِه، وفيه تَشْديدٌ في العتاب(7).

---

(1) أبو حيَّان، البَحر المحيط: 4/377، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 595.
(3) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/310.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/377، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(7) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

دَلالةُ صِيغةِ الإخبارِ عنِ الجَهْلِ، بينَ التَّصْريحِ والكِنايةِ:

الانْـدِهـاشُ مـن قَـوْلِـهـم وفِـعْـلِـهـم، والتَّـعجُّبُ من فداحةِ جَهْلِهم

الخبرُ في ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ مستعملٌ في معنييهِ: الصَّريح اندهاشًا مِن قَوْلهم الذي يدلُّ على جهلهِم بمعنى عدمِ معرفتهم، أو قصورِ عِلْمِهم. والكنايةِ، مكنًّى به عن التَّعجُّب من فداحةِ جَهلِهم[1]. الذي يصلُ إلى حدِّ الحماقةِ التي هي ضدُّ العقلِ، فما ينبعثُ مثلُ هذا القولِ إلا من الجَهَالةِ والحُمقِ إلى أبعدِ الحدود، الَّذي يتناول فَقْدَ العلم، وسَفَهَ النَّفسِ، وفسادَ العقل، وسوءَ التَّقدير[2].

سِرُّ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ:

خصَّصَ الجَهْلَ بالقومِ العاكِفِين على الأصْـنَـامِ، واستثْنَى قومَه منه

التفتَ من الغيبةِ في: ﴿قَالَ﴾ إلى الخطاب في: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾؛ لأنَّ المُخبَرَ عنهم هم المُخاطَبون، وفي ذلك زجرٌ، وتوجيه[3]. وفيه قصدٌ معنويٌّ أبلغ - واللّه أعلم - وهو أنَّ في عدم الالتفات، أي: التَّعْبِيرُ بالغَيبة: (إنهم قوم يجهلون) تَخصيصًا للجَهْل بالقوم العاكفين على الأصْنَام، واستثناءً لقومه مِنَ الجَهْل، وكأنَّ المعنى - واللّه أعلم -: إنَّهم قومٌ يجهلون، فلا تكونوا مثلَهم، وهو تعبيرٌ لا يناسب سَفَهَ مطلبِهم، وفداحةَ صنيعِهم.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بلفظِ ﴿قَوۡمٞ﴾:

التَّـنـبـيـهُ على أنَّ وصْـفَـهُـم بـالـجَـهَـالـةِ كـالمُـتَـحَـقِّـقِ المعلومِ

في الإتيانِ بلفظ ﴿قَوۡمٞ﴾ وجعْلِ ما هو مقصودٌ بالإخبارِ وصفًا لقوم، تنبيهٌ على أنَّ وصْفَهُم بالجَهَالةِ كالمُتَحَقِّقِ المعلوم الداخل في تقويم قوميَّتهم؛ لأنَّ الخبرَ لظهورِ أمرِه وقيامِ الدَّليل عليه، كأنَّه معلومٌ مُتَحقِّقٌ، فيفيدُ تأكيدَه وتقريرَهُ، ولولاه لم يكن لتوسيط الموصوفِ وجهٌ من البلاغة[4]. ولذلك كان إسنادُ الجَهْلِ إلى القوم أبلغَ من إسنادِه إلى ضميرِ المخاطَبين[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.

(3) قباوة، المفصّل، ص: 595.

(4) الشهاب، عناية القاضي: 4/359، والآلوسي، روح المعاني: 9/41، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.

(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿قَوۡمٞ﴾:

الحُكْمُ بالجَهَالةِ على القوم كلِّهم، تأكيدٌ للتّعجُّبِ مِن حالِهم

وتنكيرُ ﴿قَوۡمٞ﴾ حكمٌ بالجَهَالة على القوم كلِّهم، وفيه تأكيدٌ للتعجُّب مِن حالِ جَهالتِهم، وعمومِها فيهم، بحيثُ لا يُوجَدُ فيهم مَن يشذُّ عن هذا الوصفِ مع كثرتِهم، ولأجل هذه الغرابةِ أكَّد الحكمَ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ شأنَهُ أنْ يتردَّدَ في ثبوتهِ السَّامعُ[1]، وهذا يدفعُ ما ذهبَ إليه بعضُ المفسِّرين من أنَّ طلبَ جعلِ الآلهةِ لم يصدرْ مِن مشاهيرِ بني إسرائيلَ وعظمائِهم كالسَّبعين المختارين، ولكنَّه صَدرَ عن عوامِّهم وجهلتِهم[2].

بَلاغةُ الحذْفِ لمفعولِ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾، وتنزيلُ الفعْلِ مَنزلةَ اللَّازِم:

يَدلُّ الحذْفُ على العُموم، ولِوصْفِهم بالجَهْلِ على أتمِّ صُورةٍ

لمّا تعجَّب عليه السلام من قَوْلِهم هذا بعد ما شاهدوهُ مِنَ الآيةِ الكبرى والبيِّنة العظمى، وغَضِبَ عليه السلام غضبةَ رسولِ ربِّ العالمين، لربِّ العالمين غَيْرةً على ألوهيَّته أن يُشْرِكَ بها قومُه؛ وصفَهم بالجَهْلِ على أتمِّ وجْهٍ، حيثُ لم يذكرْ لهُ متعلّقًا ومفعولًا، فلم يقُلْ: تجهلون ماذا؟ لتنزيلِه منزلةَ اللَّازم، أو لأنَّ حذْفَهُ يدلُّ على عمومِه، أي: تجهلونَ كلَّ شيءٍ، فيدخلُ فيهِ الجَهْلُ بالرُّبوبيَّةِ بالطَّريق الأولى[3].

وليشيرَ إلى أنَّ العلمَ والتَّعقُّل يقودُ كلاهُما إلى اللهِ الواحدِ، وأنَّه ما مِن عِلْمٍ ولا عَقْلٍ يقودُ إلى غيرِ هذا الطَّريق.

سِرُّ العُدولِ عن لفْظِ (لَا تَعلَمُونَ) إلى ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

بيانُ الفرقِ بين عَدَمِ العِلْمِ بالشَّيءِ، وبين الجَهْلِ بالشَّيء

لم يَقُلْ لهم: (لَا تَعلَمُونَ)، بل قال: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾؛ لأنَّ هناك فارقًا بين عدمِ العلم بالشَّيء، وبين الجَهْلِ بالشَّيء، فعدمُ العلْم، يعني: أنَّ الذِّهن قد يكونُ خاليًا من أيِّ قَضِيَّةٍ، أمَّا (الجَهْل)؛ فهو يعني: أن تعلم مناقضًا للقَضِيَّةِ، إذًا فهناك قَضِيَّةٌ يعتقدُها الجاهلُ، ولكنَّها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/310.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/41.

غيرُ واقعيَّةٍ، أمَّا الَّذي لا يعلمُ، فليسَ في ذهنهِ قَضِيَّةٌ، وحين تأتي له القَضِيَّةُ يقتنعُ بها، ولا يحتاجُ ذلك إلى عمليَّةٍ عقليَّةٍ واحدةٍ، مثل الأُمِّي مثلًا الذي لا يعلمُ؛ لأنَّ ذهنَهُ خَالٍ مِن قَضِيَّةٍ، أمَّا الذي يعلمُ قَضِيَّةً مخالِفَةً؛ فهو يحتاجُ مِنَ الرَّسولِ إلى عمليَّتَينِ عقليَّتين: الأولى: أن يُخرِجَ ما في نفسِه من قَضِيَّة الجَهْلِ، والثَّانية: أن يُعطيَ له القَضِيَّةَ الجديدةَ. إنَّ الذي يُرهِقُ العالمَ همُ الجُهَلاءُ لا الأُمِّيُّون؛ لأنَّ الأُمِّيَّ حين تُخْبِرُهُ بمعلومةٍ؛ فليس عندَهُ ما يُناقِضُها، لكنَّ الجاهِلَ عندَهُ ما يُناقِضُها ويخالِفُ الواقِعَ[1].

حقيقةُ شَكِّ بنِي إسرائيلَ، بوَحدانيَّةِ اللهِ الجليل:

وُصِفُوا بالجَهْلِ، ولم يُوصَفُوا بالشِّركِ، لِسفاهةِ أحلامِهم، وقلّةِ وعْيِهم بالحقائقِ

ذهبَ البغويُّ إلى أنَّ طلبَ بني إسرائيلَ لم يكن شَكًّا منهم في وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى وإنَّما معناه: (اجعلْ لنا شيئًا نعظِّمُهُ، ونتقرَّبُ إلى اللّهِ بتعظيمه)، وظنُّوا أنَّ ذلك لا يضرُّ الدِّيانةَ، وكان ذلك لخِفَّةِ عقْلِهم وشِدَّة جَهْلِهم؛ ولذلك وصفَهم موسى عليه السلام بالجَهْلِ تعجُّبًا من قَوْلِهم على إثرِ ما رأوا مِنَ الآياتِ[2]. ولم يصِفْهم بالشِّرك، وبدأ حَشْدَ عباراتِ العِظَةِ والهدايةِ والإرشادِ، والتَّذكيرِ بعظيم فضلِ اللّهِ عليهم - فيما سيأتي من آياتٍ مباركاتٍ - بما أوتيَ مِن بلاغةِ الأنبياءِ، وحُسْنِ أدبِهم، وذلكم أسلوبُ الحوارِ مع الجَاهلِ بخلافِ أسلوبِ خِطاب المُشْرك، ومُجادَلته.

سِرُّ تعاقُبِ القَصَصِ القُرآنيِّ في السّورة:

ليستِ القَصصُ للتَّكرير، فإنَّ كلَّ سياقٍ منها لمشْهدٍ لم يَسْبِق ذكرُهُ من قبْلُ

إنَّ سياقَ كلِّ قصةٍ هو لأمرٍ لم يَسْبِقْ مثلُهُ، فلا تكريرَ في هذه القصصِ، والمقصودُ مِن قصَّةِ موسى عليه السلام وفرعونَ هذا الاستدلالُ الوجوديُّ على قَوْلِه: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف: 102].
فبعدَ الخلاصِ مِن عدوِّهم، بيَّنَ السّياقُ الحكيمُ إسراعَهم في

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4330.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/274، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 3/401.

الكُفْرِ، ونقضَهُم للعُهودِ، واستمرَّ سبحانه في هذا الاستدلالِ إلى آخرِ السُّوَرَةِ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّنَمُ، والتِّمثالُ، والوَثَنُ:

التِّمثالُ مُقيَّدٌ بالعِبَادَةِ والزِّينةِ، والصَّنَمُ مُخصَّصٌ بما له جِسمٌ وصورةٌ، والوَثَنُ أعمُّ

التِّمثالُ لا بدَّ أن يكون مثالًا لشيءٍ، وأنَّه قد يكون للعبادةِ، وحينئذٍ يسمَّى صنمًا، وقد يكون للزِّينة، كالذي نراه على جدرانِ بعض القصورِ المشيدةِ أو أبوابها أو في حدائقِها، وقد يكون للتَّعظيم والتكريم غيرِ الديني كالتَّماثيل التي تُنصَبُ لبعض الزُّعماء، والشَّخصيَّاتِ[2].

والصَّنَمُ: هو ما كانَ له جِسْمٌ أو صورةٌ، فإن لم يكن له جِسْمٌ أو صورةٌ، فهو وَثَنٌ[3]، وقيل: إنَّ الصَّنَمَ هو المعمولُ مِنَ الخَشَبِ، أو الذَّهَبِ، والفِضَّةِ أو غيرِها مِن جواهرِ الأرضِ، أمَّا الوَثَنُ؛ فهو المصنوعُ مِنَ الحِجارةِ، وقيل: ما كان له جِسْمٌ أو صورةٌ فصَنَمٌ، فإن لم يكن له جِسْمٌ أو صورةٌ؛ فهوَ وَثَنٌ، وقد يُطلَقُ الوَثَنُ على الصَّليبِ، وعلى كلِّ ما يَشْغَلُ عنِ اللهِ تعالى[4]، وقيل غيرُ ذلك. وقيل: إنَّ الصَّنَم مصوَّرٌ، فهذا أدْعَى إلى توهُّم سِرٍّ فيه، كما أنَّ اعتبارَ اللَّفظ المصاقبِ للصَّنم، وهو السَّنامُ، يُرجِّحُ أنه جثَّةٌ منصوبةٌ، أمَّا الوَثَنُ؛ فإنَّ احتواءَ الكلمةِ على الفصلِ المعبِّر عنِ التَّكْثيرِ يرجِّحُ أنَّ المُعتَبَرَ فيه أنَّه شريكٌ، أو ثانٍ (أي: تعدُّدُ المعبودِ) تعالى اللهُ عن ذلكَ. فمَلْحظُ الوَثَن أنَّه شَريكٌ، ومَلْحَظُ الصَّنَم أنَّهُ جثَّةٌ مصوَّرةٌ منصوبةٌ، وبهِ يكونُ الوَثَنُ أعمَّ من الصَّنَم[5]. وبذا يكون اختيارُ لفظِ الصَّنَم أنسبَ لسياقِ الآيةِ الكريمة؛ لكونهِ يُناسبُ - ما حُكِي - أنَّها كانت تماثيلَ بقرٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/92.
(3) ابن الأثير، النهاية: (صنم).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (صنم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صنم).

جعلَ، وخلقَ، وصنعَ، وعمِلَ، وفعلَ، وأنشأَ:

الجَعْلُ لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو إيجادٌ، أو تغييرٌ، مصحوبٌ بأثرٍ أو بغيرِه

الجَعْلُ: تَغْيِيرٌ بإيجادِ الْأَثَرِ في الشَّيء، وبِغَيْرِ ذَلِك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: جعلَ الطِّينَ خزفًا، وَجعلَ السَّاكِنَ متحرِّكًا، وَتقول: عَمِلَ الطِّينَ خزفًا، وَلَا تَقول: عَمِلَ السَّاكِنَ متحرِّكًا؛ لِأَنَّ الْحَرَكَةَ لَيست بأثرٍ يُؤَثِّر بِهِ فِي الشَّيء، والجَعْلُ أَيْضًا يكون بِمَعْنى الإحداث[1] والتَّوجُّه والشُّرُوع في الشَّيء والاشتغالِ بِهِ، وتَبَيَّن في شرح المعنى اللُّغوي للَّفظةِ أنَّ تَصرُّفَها في القرآنِ ورد بمعنى: التَّحويلِ والتَّهْيئةِ على وَضْعٍ، أو التَّحويل للهيئةِ بإنشاء هَيْئَةٍ جَديدة، فهو إيجادٌ يتأتَّى منه النَّصْبُ (الإقامة)[2].

في الجَعْلِ معنَى التَّضمين والتَّحصيلِ، وفي الخَلْقِ معنَى التَّقديرِ والأوَّليَّة

يُستَعْمَل الخَلْقُ في إبداعِ الشَّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاء، أي: من غيرِ مثالٍ سابقٍ، ولا يكون إلَّا للّهِ تعالى وأمَّا الَّذي يكونُ بالاستحالة، فقد جعلَهُ اللّهُ تعالى لغيرهِ في بعضِ الأحوالِ كعيسى عليه السلام[3] وفرَّقَ الزمخشريُّ بين الجَعْل، والخَلْق بالقول: "إنَّ الخَلْقَ فيه معنى التَّقديرِ، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمين، كإنشاءِ شيءٍ من شيءٍ، أو تصييرِ شيءٍ شيئًا، أو نقلِه من مكانٍ إلى مكانٍ"[4]. فالخَلْقُ معناهُ الإنْشاءُ والإيجادُ الابتدائيُّ مِنَ العدَمِ من غيرِ مِثالٍ سابقٍ، أمَّا الجَعْلُ؛ فيتضمَّنُ معنى تكوينِ شيءٍ من شيءٍ، أو من أشياءَ، أي: كونُهُ محصَّلًا من آخرَ كأنَّه في ضِمْنِهِ[5].

وهنا يتبيَّنُ قَصْديَّةُ اختيارِ الجَعْلِ دونَ الخَلْقِ في الآية المباركة، فطلبُهُم بجعلِ إلهٍ لهم، إنَّما هو فعلٌ محصَّلٌ ممَّا شاهدوهُ مِنَ الآلهةِ الَّتي كانت تُعبَدُ أمامَهم، فهو إنشاءٌ مِن مثالٍ سابقٍ، وليس إبداعًا مِن غيرِ أصلٍ كما في الخَلْقِ.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جعل).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/3.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/82، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/29.

العَمَلُ إيجادُ الأثَرِ في الشَّيءِ من غيرِ اقتضاءِ العِلْمِ بهِ، والجَعْلُ تغييرٌ بأثَرٍ أو بغيرِهِ

فرَّقَ أبو هلالٍ العسكريِّ بَينَ العَمَلِ والجَعْلِ، فذهبَ إلى أنَّ العَمَلَ: هُوَ إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ من غيرِ علم، والجَعْلُ تَغْيِيرٌ بإيجادِ الْأَثَرِ فِيهِ وبِغَيْرِ ذَلِك. فالعَمَلُ لَا يَقْتَضِي الْعلمَ بما يعمل لَهُ، والعَمَلُ يكون بمعنى الإحداث[1]؛ لأنَّه: إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ مِن غيرِ إحاطة شاملةٍ، أو عِلْم وافٍ بما سيؤولُ إليه حالُه مِنْ بَعْدُ. فهو: كلُّ فعلٍ يكونُ مِنَ الحيوانِ بقصدٍ، دونَ ما كان مِنَ الجمادِ، فهو أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقع منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسب إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك[2].

ولمّا كان قَصْدُ بني إسرائيل إحداثَ إلهٍ من الموجوداتِ سواءٌ كانت حجرًا، أو معدِنًا بأنواعِه، وتغييرُها بإيجادِ أثرٍ لها عن علمٍ بما سيؤولُ إليهِ حالُها فيما بعدُ بوصفِها ستُعْبَدُ من دونِ اللّه، كان العدولُ إلى اختيارِهِ في سياقِ الآيةِ أنسبَ من لفظ: (اعْمَلْ) الَّذي يحملُ مدلولَ عدمِ العلم، أو الإحاطةِ بما سَيؤولُ إليهِ الشَّيءُ قبلَ فِعلِه.

شَرْطُ الصَّنْعِ الإجادةُ، وليس في الجَعْلِ ذلك

الصَّنْعُ: إجادةُ الفعلِ، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ، كما يُنْسَبُ إليها الفعلُ، ولذلك يقالُ للحاذقِ المجيد: صَنَعٌ؛ لإجادته[3]، فهو مضمَّنٌ بالجَودَةِ، وهو: تَرْتِيبُ العَمَلِ وإحكامُهُ على مَا تقدَّمَ مِن علمٍ بِهِ[4].

والعدولُ عَن اختيارِه في الآيةِ الكريمةِ لكونِ موسى عليه السلام ليس ممَّن يُجيدُ صُنْعَ ما طلبوهُ منه حاشاهُ من ذلك، فضلًا عن أنَّهم إنَّما كان همُّهم لحظتها تقليدَ فعلِ القومِ العابدينَ للآلهةِ بأنْ يجعلَ لهم إلهًا شبيهًا بآلهتِهم من غيرِ تفكيرٍ بإجادةِ صُنعهِ، فذلك مَطلبٌ يُعرقِل غايتَهم.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 135.

الفعلُ لفظٌ عامٌّ، وفي طلَبِهم قَصْدٌ، وخُصوصِيَّةٌ

الفعلُ: هو التَّأثيرُ من جهةِ مؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِمَا كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِمَا كان بعلم أو غيرِ علم، وقَصْدٍ أو غيرِ قَصْدٍ، ولِمَا كان مِنَ الإنسان والحيوان والجَمادات[1].

وعُمُوْمُه يُخْرِجُهُ مِنْ قصديَّةِ التَّعْبِيْرِ بِهِ عن طلبِ بني إسرائيلَ وخصوصيَّةِ طلبهم، فضلًا عن عدم تضمُّنِه معنى الإيجادِ، والتَّنْشِئَةِ، والإقامةِ (النَّصب) التي يتضمَّنُهما لفظُ الجَعْلِ.

مِلاكُ أمْرِ الإنشاءِ التَّدرُّجُ، وليس ذلك في الجَعْلِ

الإنشاءُ: إحداثُ الشَّيءِ وإيجادُهُ وتربيتُهُ[2] شيئًا فشيئًا، حتّى يستويَ على سُوقِه، فملاكُ معناهُ التَّدرُّجُ بَدْءًا، وانتهاءً، وهو معنًى غيرُ واردٍ في شأن إقامةِ الإلهِ الَّذي طلبَهُ بنو إسرائيلَ، ولذلك عُدِلَ عنْهُ.

نَخْلُصُ إذًا ممَّا تقدَّمَ عَرْضُهُ مِن مَعانٍ للألفاظ المشابِهَةِ للفظةِ الجَعْلِ إلى قَصْديَّةِ اختيارها في الآية الكريمة، والعدولِ عن مُشابِهَاتها بوصفِ الجَعْل إحداثًا، أو تَغْيِيرًا بإيجادِ الأَثَرِ في الشَّيء وبِغَيْرِ ذَلك، وإنشاءَ هَيْئَةٍ جَديدةٍ، فهو إيجادٌ يتأتَّى منه النَّصْبُ (الإقامة)، وهو مطابقٌ لمرادِ بني إسرائيلَ مِن عملِ الإلهِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾ [الأعراف: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أنْ بدأ موسى ﷺ جوابَه لقومِه بإثبات فَرْطِ جَهالاتِهم بربِّهم، وسَفَاهةِ أنفسِهم، ثنَّى ببيانِ فسادِ ما طلبوهُ في ذاتِه، وكونِه عُرضةً للتَّبارِ والزَّوال، وباطلًا في نفسِه على كلِّ حالٍ، عسَى أنْ تستعدَّ عقوْلُهم لفهمِه، واستبانَةِ قُبْحِه[1].

اتِّباعُ موسَى أُسلوبَ الاسْتِئنافِ المفيدِ للتَّعليل، في التَّذكيرِ ببُطلانِ عبادةِ غيرِ الله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُتَبَّرٞ﴾ (تبر) أصلان متباعَدٌ ما بينهما: أحدُهما الهلاكُ[2]، وَالْآخَرُ جَوْهَرٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، وهو التِّبْرُ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ غَيْرَ مَصُوغٍ، فالتَّبارُ: الهلاكُ والفَناءُ[3]. يُقالُ تَبَرَ الشَّيْءُ - كَضَرَبَ وتَعِبَ وقَتَلَ - وتَبَّرَهُ تَضْعِيفٌ لِلتَّعْدِيَةِ، أيْ: أَهْلَكَهُ، والتَّتْبِيرُ التَّدْمِيرُ، وكلُّ شَيْءٍ كَسَرْتَهُ، وفتَّتَّهُ، فقد تَبَّرْتَهُ، وَمن هَذَا قيل لِمُكَسَّرِ الزُّجاجِ: التِّبْرُ[4]. فالتَّبْرُ: الكسرُ والإهلاكُ[5]، وما في القرآنِ مِنَ التَّرْكِيبِ، كلُّه مِنَ التَّبارِ بالمعنى الذي ذُكِرَ[6]. وقيل: في ﴿مُتَبَّرٞ﴾ ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: باطلٌ، والثاني: مُضَلَّلٌ، والثَّالث: مُهْلَكٌ، وفي تسميّتِه بذلك قولانِ: أحدهما: لأنَّ موسى يُهْلِكُهُ. والثَّاني: لكسْرِه، وكلُّ إناءٍ مكسورٍ متبَّرٌ[7]. وقيلَ: هو الرَّدِيءُ السَّيِّئُ العاقبةِ[8]. ومع احتمالِ هذه المعاني إلا أنَّ: الإهلاكَ، والإفناءَ، والتَّدميرَ أظْهرُ.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97 - 99، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبر).
(3) الخليل، العين: (تبر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (تبر).
(5) الرّاغب، المفردات: (تبر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تبر).
(7) الماوردي، النكت والعيون: 2/255.
(8) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/377.

المَعْنى الإجْماليُّ:

هلاكُ الصَّنيعِ الوضيعِ، وبطلانُ العمَلِ الخسيسِ، المبنيِّ على غيرِ تأسيسٍ

هذا خبرٌ مِنَ اللّهِ - تعالى ذكرُه - عن قيلِ موسى لقومِهِ من بني إسرائيل: إنَّ هؤلاءِ العُكوفَ على هذه الأصْنَام، اللّهُ مُهْلِكٌ ما هم فيه مِنَ العملِ وفاسدِه، ومُثْبِتٌ العذابَ المهينَ عليهم، ومُبْطِلٌ صنيعَهم، من عبادتِهم إيَّاها، واضمحلالَهُ؛ لأنَّهُ غيرُ نافعِهم عند مجيءِ أمرِ اللّهِ وحلولِهِ بساحتِهِم، ولا مدافِعٌ عنهم بأسَ اللّهِ إذا نزلَ بهم، ولا منقذُهم من عذابِهِ؛ إذا عذَّبهم في القيامة[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تحقيقِ المقصودِ من العِبَادَة وهو: أن تصيرَ المواظبةُ على تلك الأعمالِ سببًا لاستحكامِ ذكرِ اللّهِ تعالى في القلبِ، حتى تصيرَ تلكَ الرُّوحُ سعيدةً بحصولِ تلكَ المعرفة فيها، فإذا اشتغلَ الإنسانُ بعبادةِ غيرِ اللّهِ تعالى تعلَّقَ قلبُهُ بغيرِ اللّه، ويصيرُ ذلك التَّعلُّقُ سببًا لإعراض القلبِ عن ذكرِ اللّهِ تعالى وإذا ظهرَ هذا التَّحقيقُ؛ ظهرَ أنَّ الاشتغالَ بعبادةِ غيرِ اللّهِ فانٍ، وهالكٌ، وضائعٌ؛ لكونِهَا تُزيلُ معرفةَ اللّهِ عنِ القَلْبِ، فكانَ هذا ضدًّا للغرضِ ونقيضًا للمطلوبِ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العُدولِ الى أُسلوب الفصْلِ في السِّياقِ:

الاسْتِئْنافُ تعليلٌ لمضْمونِ الجُمْلَةِ، وتجليَّةٌ لمدلولِها

وبعدَ أن ذكَّرهم نبيُّ اللّهِ موسى عليه السلام بسوءِ حالهم من جهلِهم وسفاهةِ أنفسِهم، قال بأسلوب الاستئنافِ المفيدِ للتَّعليلِ والدليل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ بَيَّنَ لهم فسادَ ما طلبوهُ في نفسِه، عسى أن تستعدَّ عقوُلُهم لفهمِه، واستبانةِ قبحِه[3]. وجملةُ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ بمعنى التَّعليلِ لمضمونِ جملة ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ فلذلك فُصِلَت عنها[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/83.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/183.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82.

سِرُّ التَّعْرِيْفِ باسْمِ الإشارةِ، في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

تَمييزُهم بتلكَ الحالةِ البائسةِ الـتّـي كـانـوا مُتلبِّسينَ بها، أكْملَ تَمْييزٍ

الإشارة بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى العاكفين على عبادةِ الأَصْنَام[1]، وفي تعريفِ المُسْنَدِ إليه بالإشارةِ، وتخصيصِهِ بالذِّكر دلالةٌ على أنَّ أولئكَ القوم محْقُوقُونَ بالدَّمارِ؛ لأجل اتِّصافهم بالعُكوفِ على عبادةِ الأَصْنَام[2]، ولتمييزِهم بتلك الحالةِ التي هم متلبِّسونَ بها أكملَ تمييزٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّهم جديرونُ بما يردُ بعدَ اسم الإشارةِ مِنَ الأوصاف، وهي كونُهم مُتَبَّرًا أمرُهم، وباطلًا عملُهُم[3]. ورسَّخ هذا المعنى توكيدُ مضمونِ الجُمْلَةِ بـ(إنَّ)[4]. وهو من حيثُ كونُه ممَّا يُشارُ إليهِ إلى البعيدِ يفيدُ التَّحقيرَ، وجعْلَ تمييزِ المشارِ إليه ذريعةً إلى تحقيرِهِ أبلغَ في التَّحقيرِ[5].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالتَّتْبِيرِ، عَلى صِيغةِ التَّفعيلِ:

المـبـالـغـةُ في الـتَّـعْـبِـيْرِ عن الفعْلِ، يناسِبُ قُبْحَ صَنيعِهم

﴿مُتَبَّرٌ﴾: اسمُ مفعولٍ من بابِ التَّفعيلِ يقالُ: تبَّرَهُ تتْبيرًا، أي: كسَّرهُ وأهلَكهُ، والمعنى: مُكسَّر ومُهْلَكٌ[6]. وتبَّرَهُ بالتَّشديدِ: أهلَكَهُ ودمَّرَه[7]. فهو مبالغةٌ في التَّعْبِيْرِ عن الفعل ليناسِبَ قُبحَ صنيعِهم، وتفيدُ المبالغةَ في المعنى، وتُستخدمُ للتَّعبيرِ عَن حالاتِ الشِّدَّةِ والغَلَبَةِ.

دَلالةُ تقديم المرجِّحِ المعنويِّ على المرجِّحِ اللَّفْظِيِّ:

اقـتـضـاءُ المقامِ الحَصْرَ المستفادَ مِنَ التَّقديمِ، في السِّياقِ الحكيمِ

في إعرابِ قولهِ تعالى: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ وجهانِ، أحدهما: أن يكونَ خبرًا لـ ﴿إِنَّ﴾، والثَّاني: أن يكونَ الموصولُ مبتدأً، و﴿مُتَبَّرٌ﴾ خبرهُ قُدِّمَ عليه، والجُمْلَةُ خبرٌ لـ ﴿إِنَّ﴾ وهو توجيهُ الزَّمخشريِّ، وخالفَهُ أبو

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/377.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543.
(5) زاده، حاشية شيخ زاده: 4/285.
(6) حقّي، روح البيان: 3/225.
(7) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97.

حيَّان[1]. ورُجِّحَ ما ذكرَهُ الزمخشريُّ من جهةِ المعنى؛ لكونِ الأمرِ إذا دارَ بينَ مرجِّحٍ لفظيٍّ ومُرجِّحٍ معنويٍّ، فاعتبارُ المعنويِّ أَوْلى، وذلك لاقتضاءِ المقامِ الحصرَ المستفادَ مِنَ التَّقديم، أي: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ لا ثابتٌ، و﴿وَبَاطِلٌ﴾: لا حقٌّ[2]، وعلى ذلك فللتَّقديم قَصْدٌ.

عِلَّةُ تقديمِ الخبرِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ على المُبْتَدَأ:

المُـعَـرَّضـون للهلاكِ، ليسُوا على شيءٍ البتَّةَ، لأنَّ مصيرَهم ـ لا مَحالةَ ـ إلى النَّارِ

قدَّمَ الخبرَ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ على المُبتدأِ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾؛ ليفيدَ تخصيصَهُ بالمُبتدأ؛ إذ فيه وَسْمٌ لعَبَدةِ الأَصْنَام، وعَلامةٌ شَنِيْعةٌ لاصِقةٌ بهم، كالكَيِّ على الدَّابَّةِ بأنَّهم هُم المُعرَّضُون للتَّبار، وأنَّه لا يَعْدُوهم البتَّةَ، وأنَّه لهم ضربةُ لازبٍ؛ ليحذِّرَهُم عاقبةَ ما طَلَبُوا، ويُبغِضَ إليهم ما أَحَبُّوا[3]. فقَوْلُهُ: ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعمُّ جميعَ أحوالِهم[4].

وفائدةُ تقديمِ الخَبَرِ الإيذانُ بأنَّهم لا يتجاوزون عنِ الدَّمار إلى ما يُضادُّهُ مِنَ الفَوْزِ والنَّجاة على القَصْرِ القَلْبيِّ[5]. ولذلك فهم لَيْسُوا على شيءٍ البتَّة، وأنَّ مصيرَهم إلى النَّارِ لا محالةَ[6]. وليكونَ التَّبار لاحِقًا بأصحابِه لفظًا، وبأعمالِهم معنًى[7].

التَّعْبيرُ بالاشْتقاقِ المضعَّفِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾، على طريقِ الاسْتِعارةِ التَّبعيَّةِ:

بـيـانُ فـسَـادِ حالِهم، وسُوءِ عـاقـبـتِـهـم، لانْحرافِهم عن نَهْجِ الله الحقِّ

تَبَرَ الشَّيءُ، أي: أَهْلَكَهُ، والتَّتْبِيْرُ مستعارٌ هنا لفسادِ الحالِ؛ إذ أطلقَ التَّتْبِيْرَ على الإهلاكِ على طريقةِ الاستعارةِ التَّبعيَّة، فيبقى اسمُ المفعولِ على حقيقتِهِ في أنَّهُ وصفٌ للموصوفِ بهِ في زمنِ الحالِ، ويجوزُ أن يكونَ التَّتْبِيْرُ مستعارًا لسوءِ العاقبة، شبَّهَ حالَهم المُزَخْرَفَ

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/378، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/444.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 4/360، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/442.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82.

(4) الثّعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/73.

(5) الطيّبي، فتوح الغيب: 6/543.

(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/310.

(7) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة: 1/424.

ظاهِرُهُ بحالِ الشَّيءِ البهيجِ الآيلِ إلى الدَّمارِ والكَسْرِ، فيكونُ اسمُ المفعولِ مجازًا في الاستقبالِ، أي: صائرٌ إلى السُّوْءِ(1).

بَلاغةُ التَّعْريف بالموصول ﴿مَّا﴾:

الصِّلةُ تُحيطُ بأحوالِهِم الَّتي لا يُحيطُ بها المتكلِّمُ، ولا المخاطَبون

قولُهُ: ﴿مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ هو حالُهم، وهو عبادةُ الأصْنَام، وما تقتضيه منَ الضَّلالاتِ والسَّيِّئات، ولذلك اختيرَ في تعريفها طريق المَوْصُوليِّة؛ لأنَّ الصِّلة تُحيطُ بأحوالهم التي لا يُحيطُ بها المتكلِّمُ ولا المخاطَبون، والظَّرفيَّة مجازيَّةٌ مستعارةٌ للمُلابسةِ، تشبيهًا للتلبُّسِ باحتواءِ الظَّرف على المظْرُوْفِ(2).

دَلالةُ الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾ في الآيةِ:

إفَادَةُ المبتدأ تَقَوِّي الحُكمِ، لإبراز الفَحْوَى

وليس ﴿هُمۡ﴾ من قوله تعالى في التَّرْكِيْب: ﴿مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ للفصلِ؛ إذ لا موجبَ، لأن يُقال: (إنَّهم متبَّرون) دونَ غيرِهم، بل هو مبتدأٌ؛ فيفيدُ تقوِّي الحكم(3).

جوازُ الوَجْهَين الإعْرابيّين، في قوله: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ﴾:

المبالغةُ في الكلامِ بالإخبارِ، عمَّا هُم فيه منَ البُطلانِ والتَّبارِ

قَوْلُهُ: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ﴾، كقَوْلِه: ﴿مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ من جواز الوجهين الإعرابيَّين، وما ذُكِر فيهما(4). وفي تقديم المُسْنَد: وهو ﴿وَبَٰطِلٞ﴾، على المُسْنَد إليه: وهو ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ما في نظيره من قَوْله: ﴿مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾(5). وفي هذا الكلام مبالغةٌ بالإخبارِ عمَّا هُم فيه بالتَّبار، وعمَّا فعلُوا بالبُطْلان، وتقديمُ الخبرَين في الجَملتَين الواقعتَين خبرًا؛ للتَّنبيه على أنَّ الدَّمارَ لاحقٌ لما هُمْ فيه لا محالةَ، وأنَّ الإحباطَ الكلِّيَّ لازمٌ لما مضى عنهم؛ تنفيرًا وتحذيرًا عن طلبِهِم(6).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82 - 83، و(19/29).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/83.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/445.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.

إفادةُ تقديمِ الخبرِ القَصْرَ على ما هُم فيه منَ الهلاكِ المُحقَّقِ:

إيـرادُ التّـثْبير والبُطلانِ، تعليلًا لإثباتِ الجَهلِ المؤكَّدِ للقَوْمِ

بتقديمِ الخبرِ على المبتدأ، فإنَّه يُفيدُ القَصْرَ المَذْكُورَ، معَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ جَعْلِ هؤلاءِ اسم ﴿إِنَّ﴾ من حيثُ الإشارةُ بها إلى قوم موصوفينَ بالعُكوف على أصنام لهم، فيدلُّ عليه الوصف للمسند، ويفيد القصرَ ولو أُخِّرَ خَبُرٌ المبتدأ[1]. وموجِبُ هذه المبالغات إيقاعُ جملةِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ تعليلًا لإثباتِ الجهلِ المؤكَّدِ للقَوْمِ؛ لاقتراحِهم أنْ يجعلَ لهم موسى إلهًا، وأبلغُ مِن ذلك أنَّ المذكورَ ليس جوابًا لَهُ، بل مقدِّمةٌ، وتمهيدٌ له، وإنَّما الجوابُ قَوْلُهُ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾، وقَوْلُه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾[2]. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ الـهـلاكَ في الـدّاريـن، وإنْ حـسِبَ الـقـومُ خِلافَهُ

ولَمَّا كانَ الشَّيءُ قد يُهْلَكُ في الدُّنيا، أو في الآخرةِ، وهو حَقٌّ، أعلمَهم بأنَّ هذا الهلاكَ إنَّما هو الهلاكُ عندَ اللّهِ أعمُّ من كونِه في الدُّنيا، أو في الآخرة؛ لبطلانِ ما هم فيه، معبِّرًا بالجُمْلَةِ الاسميَّةِ إشارةً إلى أنَّه الآنَ كذلك، وإنْ رُئِيَ بخلافِه[3].

إفادةُ الاسْمِ الموصولِ ﴿مَّا﴾ الإبهامَ والعُمومَ:

الجزاءُ عندَ الله، نِـتـاجُ الـعـمَـلِ الـصّـالـحِ أوِ الطّالحِ

وقولُهُ: ﴿مَّا﴾ في الموضعين: ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ وفي ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ موصولٌ يفيدُ الإبهامَ، فعملُهم لا يستحقُّ أنْ يُذْكَرَ، ويفيدُ كذلك العمومَ، ليعمَّ جميعَ حالهِم الموصوفِ[4]. فبالموصولِ في الموضعين يعمُّ البُطلانُ القَوْمَ العاكفينَ على أصنامِهم، وقومَ موسى عليه السلام.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفظِ ﴿وَبَٰطِلٌ﴾، عَلى هيئةِ اسْمِ الفاعلِ:

الباطلُ اسمٌ لضدِّ الحَقِّ، فالإخبارُ بِهِ كالإخبار بالمَصْدَرِ الأقوى

---

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 4/359.

(2) الطيّبي، فتوح الغيب: 6/544.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/105.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.

التَّعْبِيرُ باسْمِ الفاعِلِ دلالةٌ على حُدوثِ البُطلانِ، وثُبوتِه وصْفًا مُلازِمًا لهم

في الدَّلالة على الحدث مِنَ الفعلِ؛ لإفادةِ المبالغةِ في بطلانه؛ لأَنَّ المقامَ مقامُ التَّوبيخ، والمبالغةِ في الإنكارِ[1]. وشاعَ هذا الإِطْلاقُ حتى صَارَ الباطِلُ كالاسمِ الجَامد، فيأتي اسمَ فاعلٍ من بَطَلَ، فهو باطِلٌ، فيساوي المَصْدَرَ في اللَّفظ، أو يكونَ مشتقًّا من المَصْدَر وهو البُطْلان، فيكون في الحالين بمعنى الوَصْفِ، ويكون المعنى على اسم الفاعل: واتَّصف ما يعملونه بأنَّه باطلٌ وصفًا ثابتًا[2]. فالتَّعْبِيرُ باسم الفاعل دلالةٌ على حدوث البُطْلانِ، وثبوتِه وصفًا ملازمًا لهم، وهو يناسِبُ لفظَ ﴿يَعۡكُفُونَ﴾ في الآية السابقة، والذي يعني: الانقطاعَ إلى الأَصْنَام التي يعبدونها من دونِ اللّٰهِ، وملازمتُهم لها قوَّةُ عبادةٍ، وشدَّةُ اتِّصالٍ، ومبالغةٌ في الاتِّكال، ولذلك عَدَلَ إلى هذه الصِّيغةِ ها هنا بدلَ صيغةِ الفعل المَاضِي في قَوْلِه تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]، التي تعني: تحقُّقَ الفعلِ، ووقوعَه دونَ معنى ملازمةِ الوصف.

سِرُّ الجمْعِ بين المَاضِي والمُضَارِع:

التَّعْبِيرُ عن الاسْتِمرارِ والتَّجدُّدِ، باستِحضارِ الصُّورةِ في ذِهنِ المخاطَبِ

وعبَّرَ بالفعل (كان) في الصِّلة للدَّلالةِ على التَّحقُّق، وأنَّ ذلك دأبُهم، أي: ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾. وأردفَهُ بخبر (كان) على صيغةِ المُضَارِع للدَّلالة على التَّجدُّدِ والتَّكرُّر، وجمع بين صيغتي المَاضِي، والمُضَارِع في قَوْلِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ للدَّلالةِ على الاستمرارِ في الأزمنة المَاضِية، فالجمعُ بين صيغتي المَاضِي والمستقبل للدَّلالة على الاستمرارِ والتَّجدُّد، فضلًا عن أنَّ عدولَه في خبر كان من المَاضِي إلى المُضَارِع جاء لاسْتِحْضَارِ الصُّورة في ذِهْنِ المُخاطَبِ، والأصلُ: ما فعلوا[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/2662 - 67، والإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/423.

ويُفسِّرُ هذا التَّأْصيلُ ما حُرِّر من قصْديَّةِ اختيارِ لفظِ البُطلانِ بصيغة اسم الفاعل ﴿وَبَٰطِلٞ﴾، ومناسبتُه لما بعدَهُ؛ تحقيقًا لثبوتهِ وصفًا، وملازمتِه إيَّاهم.

دَلالةُ زيادةِ التَّرْكِيْبِ في الآيةِ:

تقريرُ مضْمونِ الآيــةِ، مع الـتّـوبـيـخِ والـتّـهـديـدِ، وتـسـجـيـلِ خَيْبتِهم الكُبرَى

قَوْلُهُ: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ زيادةٌ بعد قَوْلِه: ﴿مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾؛ لتقريرِ مضمونِها، ولتسجيلِ ذمِّ عملِهم، ونِداءً بخيبتهم، تأنيسًا للمسْلمين، وتهديدًا للمُشْركين، وللكافِرين أمثالها[1].وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العِبادَةَ لا تنبغي إلَّا للباقي سبحانه الذي لا يجوزُ عليه التَّغيُّرُ، فإذا كان كذلك، كان العملُ له أيضًا ثابتًا باقيًا لا يجوزُ عليه البُطلانُ، وفي تعقيبها لتَدْميرِ آلِ فرعونَ إشارةٌ إلى مُوجب ذلك، وأنَّ كلَّ من كان على مثلِ حالهِم من عبادةِ غيرِ اللّهِ كانت عاقبتُهُ الدَّمارَ[2].

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عن إبطالِ فِعْلِهم بالمُطابقةِ واللُّزومِ:

تَدْميرُ فعْلِهم، تَـدْمـيرٌ لـهـم، وسَـــحْـــقٌ لتأْثِيرِهم

قال ابنُ عرفةَ: "دلَّتِ الآيةُ على إبطال فِعلِهم، وهَلاكِهِ بالمطابقةِ، وعلى إبطالِ الفعل، وهَلاكِهِ باللُّزوم؛ لأنَّه إذا دمَّرَ فعْلَهُم؛ فقد دمَّرَهُم"[3].

اعتبارُ تناسُبِ الفاصِلَتَينِ:

الـتـزامُ الـلَّامِ قبلَ الـواوِ، مِن مَـواطنِ جَـمالِ النَّظْمِ

وفي الفاصلةِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ هنا، وفاصلةِ الآية الكريمة قبلَها ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ التُزِمَت في هاتين الفاصلتين اللَّامُ قبل الواوِ[4]، وعُدَّ هذا الالتزامُ عند البلاغيين من محاسنِ الكلام؛ إذ خلا مِنَ التَّكلُّف المرهق، أو الإقحام المصطنع، والقرآن في أوج البلاغة، فلا يكون سياقه إلّا منسجمًا في ألفاظه وتراكيبه، وفي توزيعاته الصّوتيّة، وموسيقاهُ الدّاخليّة البديعة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/105.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.

(4) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/423 - 424، ومطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ص: 575 - 576.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾

[الأعراف: 140]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العـلاقـة بـين التّـتـبـير والبُطلانِ، وبين استِنكارِ موسَى طلبَ عِبادَةِ لغيرِ الرّحمانِ

الآيةُ الكريمةُ شروعٌ في بيانِ شؤونِ اللّهِ تعالى الموجبةِ لتخصيصِ العِبَادَةِ بِهِ تعالى بعد بيانِ أنَّ ما طلبوا عبادتَهُ ممَّا لا يمكن طلبُهُ أصلًا؛ لكونهِ هالكًا باطلًا،[1] فلمَّا أبلَغَهُم موسى عليه السلام أنَّ الأصْنَامَ الَّتي مرُّوا عليها لا تصلُحُ لأنْ تُعْبَدَ، كان ذلك غيرَ كافٍ لهم لِمَا تقرَّرَ من جهْلِهِم، فربَّما ظنُّوا أنَّ غيرَها ممَّا سوى اللّهِ تجوزُ عبادتُه، فكأنَّ ما قال لا يكفي جوابًا لمثلِ هؤلاءِ، فاستدركَ مُنكرًا متعجِّبًا مِن أنْ يتألَّهَ غيرُهُ بقَوْلِه: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾[2]، مذكِّرًا إيَّاهم بانفرادِهِ سبحانه بإنشائِهِم وإبداعِهِم[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾: (بغي) أصلان: أحدُهما: طلبُ الشَّيءِ، ومنهُ: بغيتُ الشَّيءَ أبغيهِ؛ إذا طلبْتُه، ويقال: بغيتُك الشَّيءَ؛ إذا طلبتُه لك، وأبغَيْتُك الشَّيءَ؛ إذا أعنْتُك على طَلَبِهِ[4]، ومَن قَالَ: أَبْغني كَذَا وَكَذَا، فمعناهُ أَعِنِّي عَلَى بُغائِه، واطلبْهُ معي[5].

وبغيتَ الشَّيءَ؛ إذا طلبتَ أكثرَ ما يجبُ[6]؛ لأنَّ محورَ معناهُ: تزايدُ الشَّيءِ نموًّا وقوَّةً، أو توصُّلًا لاكتمالِ حالِه، ومن التَّزايدِ اتِّجاهًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/268.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/105.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 1/562.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (بغي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بغي).
(6) الرّاغب، المفردات: (بغي).

وتهيُّؤًا لاكتمالِ الحالِ جاء معنى الطَّلب؛ لأنَّه ازديادٌ[1]. وبذا فمعنى اللَّفظةِ في الآيةِ الكريمة: أُعِينكم عَلَى طلبِ إلهٍ، وأطلبُهُ معكم، وقد فُسِّر بـ: أَسِوَى اللّهِ ألتمسُكم إلهًا، وأجعلُ لكم معبودًا تعبدونَه[2]؟

❁ المَعْنى الإجْماليِّ:

دَعوةُ موسَى قومَهُ إلى عبادةِ المُنعِمِ المُتفضِّلِ، لأنَّه لا معبودَ سِواه يُؤمَّلُ

قال موسى عليه السلام لقومه: أَسِوَى اللّهِ المستحقِّ للعبادةِ ألتمسُكم إلهًا، وأطلبُ لكم معبودًا تعبدونَه؟ وهو خالقكم، ومختصُّكم بالنِّعَم، والآيات البَاهرة التي لم يُعْطِها أحدًا غيركم، ومفضِّلُكم على عالَمِي دهْرِكم وزمانِكم بما جدَّد فيكم مِنَ التَّوحيد وهداية الدِّين، على ملَّة إبراهيمَ، وسنَّةِ المرسلين إنَّ هذا منكم لجهلٌ![3] فليس الإلهُ شيئًا يُطلبُ، ويُلتمسُ، ويُتَخيَّرُ، بل الإلهُ هو القادرُ على الإنعام والإفضالِ، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبدَ، ويُطاعَ لا غيرُهُ[4].

وترشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى التَّنبيهِ على سوءِ معاملةِ مَنْ يقابلُ تخصيصَ اللّهِ إيَّاه مِن أمثالِهِ بالفَضْلِ بأنْ يَقْصِدَ أنْ يُشْرِكَ بهِ أخسَّ شيءٍ مِن مخلوقاتِهِ[5]. وذلك مِن أماراتِ الجَهل، وانخرام عُرى المروءةِ بكفرانِ فَضلِ المُنعِمِ، وجحودِ نِعَمِ الجوادِ، وإنكارِ إحسانِ المُنقِذِ مِنَ الزَّيغ، والضَّلالِ.

وفيها إظهارٌ لغَضب موسى عليه السلام للّه، إذ كيف نسِيَ قومُه نعمةَ اللّهِ عليهم، وهي حاضرةٌ يُعاينونها، وعلى ذلك ينبغي أن تكون غَيْرَةُ العَبْدِ على رَبِّهِ، وخالقِهِ، والمتصرِّفِ بأحوالِه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بغي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/84.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/84.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/243.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَكْرارِ فِعْلِ القَوْلِ، مَع تَرْكِ العَطْفِ:

ما بَيْن المقالَيْن بَونٌ، والغايةُ الاهتمامُ بالخبرِ، إيذانًا بتغيُّرِ الخِطابِ

أعادَ لفظَ ﴿قَالَ﴾ مستأنفًا في حكاية تكْمِلَةِ جواب موسى عليه السلام بقَوْله: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ بعد قَوْلِه: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لما بين المقالتَين منَ البَوْنِ والاختلافِ، فالأوَّلُ: راجعٌ إلى مجرَّدِ الإخبارِ ببُطلان عبادةِ الأصْنَام في ذاته، والثَّاني: راجعٌ إلى الاسْتِدْلال على بُطْلانه[1]. فتوجيهُ إعادةِ فِعْلِ القَوْلِ، وكونِه مستأنفًا: إنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ للاهتمام بالخبرِ؛ إيذانًا بتغيُّر الخطاب بأنْ يكون بين الخِطابَين تخالفٌ ما[2]. وحدَّدَ في هذه الآيةِ مَنِ المطلوبُ منهُ جَعْلُ الإلهِ لهم، وهو: موسى عليه السلام بقَوْله: ﴿أَبْغِيكُمْ﴾، والمطلوبُ لأجلِه هذا الجَعْل، وهو اللّهُ تعالى وهو قَوْله: ﴿إِلَٰهًا﴾ وموسى على الحَقِّ، واللّهُ تعالى هو الحَقُّ، وهو الَّذي يحقُّ الحَقَّ، وبين هذين الحَقَّيْن وذَيْنَكَ البَاطِلَيْن غايةُ المباينَة، فلذلك كان هذا جوابًا مستقلًّا مباينًا لما قبلَهُ، بحيثُ لا ينبغي أنْ يُعطَفَ عليه عطفًا، ولا أنْ يُعَدَّ معه عَدًّا، ولهذا أعادَ فيه كلمةَ: ﴿قَالَ﴾[3]. والآيةُ الكريمةُ شروعٌ في بيانِ شؤونِ اللّهِ تعالى الموجِبة لتخصيص العِبَادَةِ به تعالى بعدَ بيانِ أن ما طلبوا عبادتَهُ مما لا يمكنُ طلَبُهُ أصلًا؛ لكونه هالكًا باطلًا، ولذلك وسَّط بينَهما: ﴿قَالَ﴾ مع كونِ كلٍّ منهما كلامَ موسى عليه الصَّلَاة والسَّلَام[4].

إذا طالَ المقُولُ، أُعيدَ فعلُ القولِ، في حكايةِ الأقوالِ:

الانتقالُ مِنَ التَّوبيخِ على سؤالِهم، إلى التَّذْكيرِ بنِعْمةِ اللهِ عليهم

يُعادُ فِعلُ القَوْلِ ﴿قَالَ﴾ في حكاية الأقوالِ إذا طالَ المقُول، أو لأنَّهُ

(1) وهذا التوجيه نقله محمد الطاهر بن عاشور عن ابن عرفة التونسي في (إملاءات التفسير) التي كان يلقيها على طلابه، وهو في تفسيره: 2/247، مع اختلاف في النقل. ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/69.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/70.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/268.

انتقالٌ مِن غرضِ التَّوبيخِ على سؤالهم إلى غرضِ التَّذكيرِ بنعمةِ اللّه عليهم، وأنَّ شكرَ النِّعْمَةِ يقتضي زجْرَهُم عن محاولة عبادةِ غيرِ المنعِم، وهو مِنَ الارتقاءِ في الاستدلال على طريقةِ التَّسليم الجدلي، أي: لو لم تكن تلك الآلهةُ باطلًا؛ لكان في اشتغالِكم بعبادتِهَا، والإعراضِ عن الإله الذي أنعمَ عليكم كفرانٌ للنِّعمةِ، ونداءٌ على الحماقةِ، وتنزُّهٌ عن أنْ يُشاركَهم في حماقتِهم[1].

نُكتةُ الإيغالِ فِي التَّنْكِيْرِ والتَّعْرِيْفِ:

نَـفْـيُ الألـوهـيَّـةِ عـن كـلِّ مـا في الوجودِ، إلّا ذاتَ الـلـه الـواجـبَ الوُجودِ

﴿أَغَيۡرَ﴾ وصفيَّةٌ للمغايرةِ، وهي مِنَ الأسماءِ الموغلةِ في التَّنْكِيْرِ، وفي استعمالها قصدٌ إلى استغراقِ جميعِ موجوداتِ الكونِ، وتعريفُها بالعَلَم المتفرِّد في اللَّفظِ والتَّعْرِيْف: ﴿ٱللَّهِ﴾ نفيٌ للألوهيَّةِ عن كلِّ ما في الوجود إلَّا ذاتُه ﷻ فهو الموصوفُ المتفرِّدُ بهذه الصِّفةِ، والتَّعْبِيْرُ باللَّفظ الموغلِ في التَّنْكِيْرِ في مقامِ الذَّاتِ الإلهيَّة، لا يناسِبُه إلَّا التَّعْرِيْفُ بأبينِ لفظٍ، وأبْلَغِه دلالةً على العَلَميَّةِ على الإطْلاق.

ولفظُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ اسمٌ عَلَمٌ للمعبودِ بحقٍّ، والواجبِ الوجود المستحقِّ للألوهيَّةِ، والتَّوحيد، ولجميعِ المحامدِ بذاته، وصفاته، وأفعاله[2]. "فغيرُ اللّهِ أعمُّ الألفاظِ الدَّالَّةِ على المحدَثات، فهو يشمَلُ أخسَّ المخلوقاتِ، وأعْجَزها عنِ النَّفعِ والضُّرِّ كالأصْنَام، ويشمَلُ أفضلَها وأكملَها كالملائكة والنَّبيِّين عليهم السلام ليثبت أنَّه لا يوجدُ مخلوقٌ يستحقُّ العِبَادَةَ مع اللّهِ تعالى وإن علا قدْرُهُ، وعظُمَ أمرُهُ"[3].

غَرَضُ الاسْتِفهامِ فِي الآيةِ الكريمةِ:

إنكارُ طلَبِهم أنْ يجعلَ لهم إلهًا غيرَ الـلـهِ، وهم مـغـمـورُون في نِعَمِهِ وعَطاياه

قَوْلُه: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾ استفهامُ إنكارٍ، وتوْبيخٍ[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/70.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 595.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.
(4) الواحديّ، التفسير الوسيط: 2/404، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/176 - 177.

وتعجيبٍ من طِلْبَتِهِمْ - مع كونِهم مغمورين في نعمةِ اللّه - عبادَةَ غيرِ اللّهِ[1]، فأنكرَ متعجِّبًا أن يُتألَّهَ غيرُه[2]؛ إنَّ هذا أمرٌ شنيعٌ مُستنكَرٌ.

والخلاصةُ: أنَّ معنى الاستفهامِ أصَالةً في الآية الكريمة الإنكارُ، ويتولَّدُ عنه ما يُناسبُه من معانٍ ثانيةٍ مثلِ: التَّعْجيبِ، والتَّفْريعِ، والتَّجْهيلِ، فكان الاستئنافُ بالقول تفخيمًا لشأن الإنكارِ فيها، وهو استقباحُ اتِّخاذ غيرِ اللّهِ معبودًا مع اللّهِ، أو مخصوصًا بالعِبَادَة[3]، مُشْرَبًا بالمعاني الأُخَرِ تعجُّبًا منِ ابتغائهم معبودًا سوى اللّهِ - تعالى - الذي غمرَهم بنِعَمِه، وأحاطَهم بألوانِ إحسانه[4].

بَلاغةُ تقديمِ المفعولِ، وإنكارِهِ بالهمْزةِ:

سَبَبُ الاخْتِصاصِ بالنِّعْمَةِ، تَخصيصُه بالعِبَادَةِ، دونَ شِرْكٍ

تقديمُ ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾؛ لكونه جوابًا عن ندائهم لموسى عليه السلام إلى عبادة آلهتهم[5]، مِنَ الاختصاصِ بالنِّعْمَةِ الَّتي لم يُعْطِها أحدًا غيرَكم، لتختصُّوه بالعِبَادَة، ولا تشركوا به غيرَهُ[6]. وفيه نوعانِ مِنَ الاختصاص: أحدُهما: بأنَّه هو مَنْ فَعَلَ بكم ما فَعَلَ دونَ غيرِه، وهو مستفادٌ من تقديمِ الفاعلِ المعنوي ﴿وَهُوَ﴾ على الفعل في قَوْله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ﴾، والآخرُ: بتقديم المفعولِ الثَّاني وإنكارِه بالهمزةِ؛ لاختصاصِه بالعِبَادَة[7].

وفي ذلك مبالغةٌ في الإنكارِ، أي: اختصاصُ الإنكارِ بابتغاءِ غَيْرِ اللّهِ إلهًا[8]. ومأخَذُ الاختصاصِ في الحالتين من قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف بتقديمِ ما حقُّه التَّأخيرُ، من فاعل معنويٍّ، أو مفعولٍ.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 3/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/404.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/157.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/545.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83.

إعــــلامُ بـنـي إسـرائـيـل، أنَّ طلبَ هذا الأمْرِ هو الإمْرُ

سِرُّ تأْخِيرِ لفْظِ ﴿أَبْغِيكُمْ﴾، في السِياقِ:

بعد أن قدَّم المقصودَ بالذَّاتِ منَ الإنكار، وهو جعلُ غيرِ اللّه إلهًا، ذكرَ من أرادوا أن يكونَ الواسطةَ في هذا الجَعْل الذي دعا إليه ذلك الجَهْلُ، وهو نفسُه ﵇ بقَوْله: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾؛ ليُعْلِمَهُم أنَّ طلبَ هذا الأَمْرِ: الإمْرُ[1].

من وصَفَ وأنْكرَ وذَكّرَ، فقد أفادَ وأخبرَ، ثمّ أعْذرَ وأنْذرَ

سِرُّ التّدرّجِ في مراحلِ الجوابِ، عن قَوْلهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾:

ما أحسنَ ما خاطبَهم موسى ﵇ وأجابهم! إذ بدأ: بالحُكمِ عليهم بالجَهْل، ثمَّ بالخُسْرانِ والهلاك، ثم ببُطلان عملِهم، ثم بالاستفهامِ الدَّالِّ على الإنكارِ والتَّوبيخ، والقَصْدُ: أنَّ الإلهَ ليس شيئًا يُطلب، ويُتَّخذ، ويُلتَمسُ، بل الإلهُ هو اللّهُ الَّذي يكون قادرًا على الإنعام بالإيجادِ وإعطاء الحياة، وجميع النِّعَم، فهذا هو الذي يجبُ على الخلقِ عبادتُه، فكيفَ يجوزُ العُدُولُ عن عبادتِه إلى عبادَةِ غيرِه[2]؟ وختَمَها بالتَّذكيرِ بإنقاذِهم من بلاءِ استعباد فرعونَ وآلِه في الآيةِ الآتيةِ.

التَّنبيهُ على سُوءِ مُعاملَتِهم؛ في مُقابلةِ تفضُّلِ الـلـهِ عليهم، بعِبادتِهم سِواه

معنَى اخْتِصاصِهم المعنويِّ بالتّفضيلِ في: ﴿فَضَّلَكُمْ﴾:

وفي اختصاصِ اللّهِ لبني إسرائيلَ بنِعَمٍ لم يُعْطِهَا غَيْرَهُم في قَوْلِ موسى لهم: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾ تنبيهٌ على سوءِ معاملتِهم؛ إذ قابلُوا تخْصيصَ اللّهِ إيَّاهم عن أمثالهم بما لم يستحِقُّوهُ تفضُّلًا بأنْ قصدُوا أنْ يُشْركوا بهِ أخسَّ شيءٍ من مخلوقاتِه[3]، وهو الجَمادُ الَّذي لا حياةَ له، ولا عَقْلَ، ولا فؤادَ[4].

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/183، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/378، وابن عادل، اللّباب: 9/296.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/491.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بالجُمْلَةِ الحاليَّةِ:

إنَّ تفضِيلَهم كان معلومًا عندَهم، وهو المناسِبُ للإنكارِ

جملةُ: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في موضعِ الحال، وهي مقرِّرةٌ لوجهِ الإنكارِ، أي: والحالُ أنَّه تعالى خَصَّكم بِنِعَم لم يُعطِها غيرَكم، وحين كان عاملُها محلَّ إنكارٍ باعتبارِ معمولِه، كانتِ الحالُ أيضًا داخلةً في حيِّزِ الإنكارِ، ومقرِّرةً لجهتِه، وظاهرُ صَوْغِ الكلامِ على هذا الأسلوبِ أنَّ تفضيلَهم على العالمين كان معلومًا عندهم؛ لأنَّ ذلك هو المناسبُ للإنكارِ، ويحتملُ أنَّه أراد إعلامهم بذلك، وأنَّه أمرٌ محقَّقٌ[1].

بَلاغةُ تقديمِ الضَّميرِ(هو)، والتَّخصيصُ بالفعْلِ الماضِي:

التَّفضيلُ منَ اللهِ، عَطاءٌ لا حدَّ لِمُنْتهاه

وحصرَ الأمرَ فيه، ثمَّ بيَّنَهُ بقَوْلِه: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحالُ أنَّه: هو وحدَهُ فضَّلَكم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ غيرِكم ممَّن هو في زمانِكم أو قبلَه، أي: لو لم يكن لوجوبِ اختصاصِهم له بالعِبَادَةِ سَبَبٌ سوى اختصاصِهِ لهم بالتَّفضيلِ على سائرِ عبادِهِ الّذين بلَغَهُم عِلْمُهم، ممَّن هو أقوى منهم حالًا وأكثرُ عددًا وأمولًا؛ لكان كافيًا[2].

ومجيءُ المسندِ فعليًّا؛ ليفيدَ تقديمُ المسندِ إليه ﴿وَهُوَ﴾، عليهِ تخصيصَه بذلك الخبرِ الفعليِّ، أي: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾، ولم تفضِّلْكُمُ الأَصْنَامُ، فكان الإنكارُ عليهم تَحْميقًا لهم في أنَّهم مغمورون في نعمةِ اللّهِ، ويطلبونَ عبادةَ ما لا يُنعِم[3].

ودلَّ التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿فَضَّلَكُمْ﴾ على تأكيدِ أنَّ اللّهَ - تعالى، - قد أنعمَ على بني إسرائيلَ بفضلٍ عظيم، وأنَّ هذا الفضلَ قد حصلَ لهم بالفعل، وليس مجرَّدَ وعدٍ أو توقُّعٍ، والغرضُ من هذا التَّعبيرِ إثارةُ حسِّ الشُّكر والامتنان في قلوبِهم، ولتذكيرِهم بنعَمِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84.

عليهم، ولحثِّهم على الطَّاعة والإيمانِ.ومناطُ التَّنبيهِ على سوءِ ما صنعوا؛ إذ قابلوا تخصيصَ اللّهِ تعالى إيَّاهم من بين أمثالِهم بما لم يستحقُّوه تفضُّلًا بالتَّفضيل؛ بأنْ قَصَدُوا أن يُشْرِكوا بهِ أحطَّ شَيءٍ من مخلوقاتِه، وأخسَّه؛ فجعلوهُ شريكًا لهُ تعالى[1]. وليسَ هذا فحسبُ، بل لأنَّ العِبَادَةَ لا يصحُّ أن تكونَ لغيرِ اللّهِ تعالى البتَّة، مهما يكنْ غيرُهُ مكرَّمًا عنده، ومفضَّلًا على كثيرٍ من خَلْقِه، على أنَّ طَلَبَ عبادةِ الأخسِّ دليلٌ على منتهى الخِسَّةِ والجَهْل؛ إذ لا شبهةَ تُوهِمُ قدرَتَه على الإثابةِ، أو التَّقريبِ مِنَ اللّهِ[2] ﷻ.

نُكْتَةُ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، في السّياقِ:

لفظُ العالَمِ يُرادُ بـه تخصيصُ زمانِهم، وتفضيلُهم على أُممِ عَصْرِهم

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لفظٌ عامٌّ يُرادُ به تخصيصُ عالَمِ زمانِهم؛ لأنَّ أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ أفضلُ منهم بإجماعٍ، ولقَوْلِه تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]. اللّهمَّ إلا أنْ يُرادَ بالفضل كثرةُ الأنبياءِ منهم؛ فإنَّهم فُضِّلوا في ذلك على العالمينَ بالإطلاقِ[3].

وتفضيلُهم على أمم عصرِهم؛ بأنَّهم ذُرِّيَّة رسولٍ، وأنبياء، وبأنَّ منهم رُسُلًا وأنبياءَ، وبأنَّ اللّه هداهُم إلى التَّوحيد، والخلاصُ من دينِ فرعونَ بعد أن تخبَّطوا فيه، وبأنَّه جعلَهم أحرارًا بعدَ أن كانوا عبيدًا، وساقَهم إلى امتلاكِ أرضٍ مباركةٍ، وأيَّدَهم بنصرِهِ وآياتِه، وبعثَ فيهم رسولًا؛ ليُقيمَ لهم الشَّريعةَ، وهذه الفضائلُ لم تَجْتَمِعْ لأمَّةٍ غيرِهم يومئذٍ، وإن كان غيرُهم فضَلَهم بسائرِ الخِصَالِ[4]. ويَحْتَمِلُ إرادةُ تفضيلِهم على العالمين مطلقًا، بكثرةِ الأنبياء والمرسلين منهم، والأوَّلُ أظْهرُ؛ لأنَّه عليه السلام احتجَّ عليهم بما عرفوا، فيَبْعُدُ أن يُرادَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/268، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/254، والآلوسي، روح المعاني: 9/42.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/84.

به تفضيلُهم على القرونِ الأولى، وأقوامِ رسُلِهم وعلى مَن سيأتي بعدَهم، وحالُ كلٍّ منهما مجهولٌ عنده وعندَهم، فقد سَألَ فرعونُ موسى عن القرونِ الأولى، فقال: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [طه: 52]، والقرونُ الآخرةُ أولى بذلك، والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بتفضيلِهم على العالمين ما ذكرنا أنَّه عَطَفَ عليهِ أعظمَ مظاهِرِه الحديثةِ العَهْدِ، بقَوْله: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ العالَمِينَ بالكِنايةِ:

شأنُ الفاضِلِ ألَّا يُقلِّدَ المفضولَ، إذْ لا يَستويانِ مثلًا

ومِن جملةِ العالمين: هؤلاءِ القومُ الذين أتَوْا عليهم، وذلك كنايةٌ عن إنكارِ طَلَبِهم اتِّخاذَ أصنامِ مثلِهم؛ لأنَّ شأنَ الفاضلِ ألَّا يُقلِّدَ المفضولَ؛ ولأنَّ اقتباسَ أحوالِ غيرِه يتضمَّنُ اعترافًا منهُ بأنَّ غيرَه أرجحُ رأيًا، وأحسنُ حالًا في تلك النَّاحيةِ[2].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/84.

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾ [الأعراف: 141]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ نِعمةِ اللهِ في التّفضيل، بإنْجائِهم مِنَ العذابِ والتّنكيلِ والتّقتيلِ

أرادَ تعالى أن يذكِّرَهم بقمَّةِ التَّفضيلِ عليهم[1]، بذكرِ مظاهِرِه الحَديثةِ العَهْدِ، وهو الإنجاءُ مِنَ البَلاءِ العظيم[2]. فذكرَ معنى النَّجاةِ مُفصّلًا كيفيَّتَهُ تِعدادًا لنعمةِ النَّجاة التي هي تلْوُ رحمةِ الإنعامِ الَّتي هي تِلْوُ رفعةِ التَّقدُّمِ بالعهدِ، وذلك منتهى الخِطاب في المعنى، يعني: فلمَّا قرَّرهم تعالى على ما اقترفوهُ قبلَ موسى عليه السلام حين أصابَهم مِن آل فرعونَ ما أصابَهم؛ استجدَّ لهم تذكيرًا بنعمةِ نجاةٍ من عقوبةِ مُتقدِّمِ أعمالِهم[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ (سوم) أصلٌ يدلُّ على طلبِ الشَّيءِ.[4] والسَّوْمُ: أنْ تُجَشِّمَ إنسانًا مَشَقَّةً، أو شَرًّا[5]، أَو سوءًا، أَو ظُلْمًا، قَالَ أهلُ اللُّغَة: مَعْنَى ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾: يُولُونَكم سُوءَ الْعَذَابِ، أَي: شديدَ العذَابِ، ويريدُونكم بِهِ[6]. وسامَهُ ذُلًّا: أذاقَهُ[7]. وأكثرُ ما يُستَعْمل في العَذَابِ، والشَّرِّ، والظُّلْم[8]. أو أنَّ معناها مُشتقٌّ مِنَ السَّومِ، يُقَالُ:

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 7/4333.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 1/130.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(5) الخليل، العين: (سوي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سوي).
(8) ابن سيده، المحكم: (سوي).

سُمْتُ فلانًا سِلْعَتي سَوْمًا: إذا قلتَ: أتأخُذُها بِكَذَا منَ الثَّمن؟ إذا كنتَ أَنْتَ تذكرُ ثمَنَهَا[1]. أو مِن سوم الإبِلِ؛ إذا ذهبت، ومِن جِماع الدِّلالتَين يكونُ معنى السَّومِ: الذَّهابَ في ابتغاءِ الشَّيءِ، فهو لفظٌ لمعنًى مركَّبٍ مِنَ الذَّهابِ والابتغاء[2].

ومِن هنا يحتَمِلُ معنى اللَّفظةِ الاستغراقَ في ابتغاءِ الأذى، وذكرَ المفسِّرونَ معاني أخرى للَّفظةِ لا تخرجُ عن دائرة تأسيسِ اللُّغويين، من ذلك قَوْلهُم: "﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ معناه: يحمِّلونَكم، ويكلِّفونَكم"[3]. و"يبغُونَكم أشَدَّ العذابِ وأفظعَه"[4]. وكلُّ ما وردَ من معانٍ للَّفظةِ عند اللُّغويِّين والمفسِّرين محتملةٌ في دلالتِها.

2) ﴿بَلَآءٌ﴾ أصلُهُ مِن بليَ الثَّوبُ، أي: خَلِقَ، ومنه قيل: بلوْتُهُ: اختبرْتُهُ كأنّي أخلقْتُهُ من كثرةِ اختباري له[5]. وبُلِيَ الإنسانُ، وابْتُلي؛ إذا امْتُحِنَ، والبَلاءُ، في الخَيْرِ والشَّرِّ، والبَلْوَى: التَّجْرِبة[6]. وكأنَّما اختبرَت صبرَهُ، وتحمُّلَهُ الاحتباسَ والبقاءَ على وضعٍ شديدٍ[7]. والامتحانُ، والاختبارُ، والتَّجرِبَةُ بالخَيْرِ والشَّرِّ كلُّها معانٍ مرادةٌ في الآيةِ الكريمةِ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الإنـجـاءُ مِـمّا سلّطَه عليهم آلُ فـرعـونَ مـن سُـوءِ العذابِ، وألوانِ الاسْتِـئـصـالِ والإرهابِ

الآيةُ تذكيرٌ بنعمةِ اللهِ على بني إسرائيلَ، مِن إنقاذِهم من أسرِ فرعونَ وقَهْرِه، وما كانوا فيهِ من الهَوانِ والذِّلَّة، وما صاروا إليه مِنَ العزَّةِ والاشتفاءِ من عدوِّهم، والنَّظرِ إليه في حال هوانهِ وهلاكه،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوم).
(2) الرّاغب، المفردات: (سام).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.
(4) حقّي، روح البيان: 3/226.
(5) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(6) الخليل، العين: (بلو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بلي).

وغرقِه، ودمارِه[1]. فاذْكُروا يا بني إسرائيلَ لتعتَبِروا، وتتَّعِظوا، وتشكروا اللّه على نعمِه، وقت أنْ أنجيناكم مِن آلِ فرعونَ الذين كانوا يعذِّبونكم أشقَّ العذابِ وأصعبَهُ، حيثُ كانوا يزهقونَ أرواحَ ذكورِكم، ويستبْقُون نفوسَ نسائِكم ليستخْدِمُوهنَّ، ويستذِلُّوهنَّ، وفي ذلِكم العذابُ، وفي النِّجاةِ منه امتحانٌ لكم؛ لتشكروا اللّه على نِعَمِه، ولتُقْلِعوا عن السَّيِّئاتِ الَّتي تؤدِّي بِكم إلى الإذلالِ في الدُّنيا، والعذابِ في الأخرى[2].

وتنبِّهُ الآيةُ الكريمةُ على أنَّ ما يُصيبُ العبدَ من خيرٍ أو شرٍّ في السرَّاءِ والضرَّاءِ من قبيلِ اختبارِ اللّهِ تعالى فعليهِ أن يشكرَ اللّه على المسارِّ، والصَّبرُ على المضارِّ، ليكونَ من خيرِ المختَبرين[3]. وترشدُ إلى فائدةِ التَّذكيرِ في مثل هذا الموضع بأنَّ مَن أنعمَ اللّهُ عليه بالنِّعَم العظيمةِ الظَّاهرةِ، وخصَّهُ بالأفضالِ المتعدِّدَةِ لا يَليقُ به الاشتغالُ بعبادةِ غيرِه[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ تَكرارِ الآيةِ، والتَّذكيرُ بالعذابِ دونَ النِّعْمَة:

التَّذكيرُ بالعذابِ، أوقعُ في النَّفسِ، مِنَ التَّذْكيرِ بما أَنْعمَ الله

ثمَّ عدَّدَ عليهم النِّعَمَ الَّتي يجبُ مِن أجلِها ألَّا يكفروا بهِ، ولا يرغبوا عبادةَ غيرِه[5]، وذكَّرهم سبحانه بنعمةِ إنجائِهم مِنَ العذابِ والتَّنكيلِ[6]. فالآيةُ وردت سابقًا في سورةِ البقرةِ، والفائدةُ في ذكرِها في هذا الموضعِ كذلك: أنَّه تعالى هو الذي أنعمَ عليكم بهذه النِّعْمَةِ العظيمةِ، فكيف يَليقُ بِكم الاشتغالُ بعبادةِ غيرِه تعالى[7]. وذكَّرَهم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/468.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/79، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/100.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/244.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/184.

بالعذابِ والإنقاذِ منه، دونَ نعمةِ الإيمانِ، والإيراثِ؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ أوقعُ في النَّفس منَ التَّذكيرِ بالنِّعْمَة؛ لما لها من آثارٍ نفسيَّةٍ طويلةِ الأمدِ يصعُب نسيانُها، وعليه يكون الإنجاءُ منهُ أشَدَّ وقعًا على النَّفسِ، مِنَ الإنعامِ غيرِ المترتِّب على تلكمُ المقدِّماتِ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الزَّمانِ (إذ) مع تقْديرِ الفعْلِ:

تَذكيرُ الله تعالى بِنِعْمتِهِ الباهرة، وحِكْمتِهِ القاهرة

و﴿وَإِذۡ﴾ اسمُ زمانٍ، وهو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ ملاحظٌ في الكلامِ، تقديرُهُ: اذكروا، أي: اذكروا وقتَ أن أنجيناكم من آلِ فرعونَ، كما هو في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 86]، فهو هنا اسمُ زمانٍ غيرُ ظرفٍ لفعلٍ، ولمَّا غلبَت إضافةُ أسماءِ الزَّمانِ إلى الجُمل، وكان معنى الجُمْلَةِ بعدَها في معنى المَصْدَرِ، كان التَّقديرُ: اذكروا وقتَ إنجائنا إيَّاكم[1].

والمرادُ مِنَ التَّذكيرِ بالوقتِ تذكيرُهم بما وقعَ فيه من أحداثٍ[2]، أي: اذكروا صنيعَنا معكم في ذلك الوقتِ، وهو تذكيرٌ مِن جهتهِ تعالى بنعمته العظيمةِ[3].

فائِدةُ العُدولِ عنِ الإتيانِ بالمَصْدَرِ الصَّريحِ، إلى الإتيانِ بالفعْلِ:

الإتيانُ بـ(إِذْ) المقتضيةِ للجُملةِ، اسْتِحضارٌ للتَّكوينِ المُستفادِ من هيئةِ الفعْلِ

مجيءُ (إذ) المقتضيةِ للجملةِ استحضارٌ للتَّكوينِ العَجيبِ المستفادِ مِن هيئةِ الفعل؛ لأنَّ الذِّهْنَ إذا تصوَّرَ المَصْدَرَ لم يتصوَّرْ إلَّا معنى الحدث، وإذا سَمِعَ الجُمْلَةَ الدَّالةَ عليه؛ تصوَّرَ حدوثَ الفعلِ وفاعلَهُ ومفعولَهُ ومتعلَّقاته دُفعةً واحدةً، فنشأتْ مِن ذلك صورةٌ عجيبةٌ، فَوِزانُ الإتيانِ بالمَصْدَرِ وِزَانُ الاستعارةِ المفردةِ، ووِزَانُ الإتيانِ بالفعل وِزَانُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489، و9/84.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

سِرُّ تعلُّقِ الإنْجاءِ بالمخاطَبين، ودَلالةُ المَجازِ العَقْليِّ:

ما يَثْبُتُ مِنَ الفَضائِلِ لآباءِ القبيلةِ، يَثْبُتُ لمَن يَلِيهم مِنَ الذُّرِّيَّةِ

أَصلُ الإنجاءِ والنَّجاةِ الإلقاءُ على نَجْوَةٍ مِنَ الأرض، وهي المُرتفعُ منها لِيَسْلَمَ مِنَ الآفاتِ، ثمَّ أُطلِقَ الإنجاءُ على كلِّ فائزٍ وخارجٍ من ضيقٍ إلى سَعَةٍ، وإن لم يُلْقَ على نَجْوة[1]. والمجازُ العقليُّ بالإخبار عن الجماعةِ بما يخصُّ بعضَهم، حيثُ نجا مِن فرعونَ أسلافُهم[2].

وتعلَّقَ الإنجاءُ بالمخاطَبين؛ لأنَّ إنجاءَ سلفِهم إنجاءٌ لهم، فإنَّه لو أبقَى سلفَهم هنالك لَلَحِقَ المخاطَبين سوءُ العذابِ وتذبيحُ الأبناء، أو هو على حذْفِ مضافٍ، أي: أنجينا آباءَكم، أو هو تعبيرٌ عنِ الغائبِ بضميرِ الخِطاب، إمَّا لنكتةِ استحضارِ حالِه، وإمَّا لكونِ المخاطَبين مثالَهم وصورتَهم؛ فإنَّ ما يثبتُ مِنَ الفضائل لآباء القبيلة؛ يثبُتُ لأعقابهم، فالإتيانُ بضميرِ المخاطَب على خلاف مقتضى الظَّاهر على حدِّ ما يُقالُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11]، فالخِطاب ليس بالْتِفاتٍ؛ لأنَّ اعتبارَ أحوالِ القبائلِ يُعتبر للخَلَف ما ثبَتَ منه للسَّلَف[3].

"فلذلك كانت منَّةُ النَّتيجةِ منَّتَين: منَّةً على السَّلف، ومنَّةً على الخلف، فوجبَ شكرُها على كلِّ جيلٍ منهم"[4]. فجازَ تعديةُ فِعلِ التَّنْجيَةِ إلى المخاطَبين؛ لأنَّهم نجَوا بنجاةِ آبائِهم[5].

نُكْتَةُ العُدولِ مِن لفْظِ (نَجَّيناكُم)، إلى ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾:

الإنجاءُ التَّدارُكُ قبلَ وُقُوعِ الهلاكِ، والتَّنْجيةُ التَّدارُكُ بعدَ وُقُوعِه

كلا اللَّفظين بمعنى التَّخليص مِنَ المَهْلَكَة، لكن: معنى أَنْجَاهُ: أخلَصَهُ قبلَ وُقُوعِهِ في المَهْلَكَة؛ ونجَّاه: أخلَصَهُ بعدَ الْوُقُوع[6]. والتَّعبيرُ الغالبُ في القرآنِ في مقامِ الامتنانِ على بني إسرائيلَ

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 1/341.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/32.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/493 - 494.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.
(5) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 237.
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 201.

بتخليصِهم مِن بطْشِ فرعونَ هو لفظ: ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾، وجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضعَّفِ في موضعٍ واحدٍ هو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 49].

وقرأ ابنُ عامر هنا في الأعراف: ﴿أَنجَىٰكُم﴾ - بألِفٍ بعد الجيم مِنْ غير ياءٍ، ولَا نُونٍ، وكذلك هُوَ في مَصَاحِفِ أَهْلِ الشَّام - ؛ على أنَّهُ من تتمَّةِ كلامِ موسى عليه السلام كما يقتضيهِ السِّياقُ، والمعنى: آبتغي لكم إلهًا غيرَ اللّهِ في حالِ أنَّه فضَّلكم على العالمين، وفي زمانِ أنجاكم فيه من آل فرعونَ بواسطتي؟ فابتغاءُ إلهٍ غيرِهِ كفرانٌ لنعمتِهِ، وضميرُ المتكلِّمِ المشاركُ (نا) على قراءةِ جمهورِ القرَّاءِ - بياءٍ ونون وألِفٍ بعدها، وكذلك هو في مصاحفهم - يعودُ إلى اللّهِ وموسى، ومعادُهُ يدلُّ عليه قَوْلُهُ: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ﴾[1]، ويكونُ ملمَحُ التَّشريفِ لموسى عليه السلام فيه ظاهرًا. ويجوزُ أن يكونَ هذا امتنانًا مِنَ اللّهِ اعترضَه بين القصَّةِ ووعدِ اللّهِ تعالى لموسى عليه السلام انتقالًا مِنَ الخبرِ والعِبرةِ إلى النِّعْمَةِ والمنَّةِ، فيكونُ الضَّميرُ ضميرَ تعظيمٍ[2].

بيانُ المتشابِهِ اللَّفْظِيِّ، بين آيةِ الأعراف (141)، وآيةِ البقرة (49):

في الأعرافِ تفصيلٌ للصّراعِ مع آلِ فرعونَ، وفي البقرةِ إجمالٌ وتركيزٌ لوجوهِ الإنعامِ

جاء الفعل في الأعراف: ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ غيرَ مضاعفٍ، لبيان تفصيل المواجهة والصّراع وأنواع العذاب الّتي سلّطها آل فرعون على بني إسرائيل وفي سورةِ البقرةِ لم يذكرْ سبحانه شيئًا مفصَّلًا مِن أحوالِ بني إسرائيلَ مع فرعونَ وآله، سوى الآيةِ المذكورةِ والّتي تليها: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50]؛ لذا استعملَ في سورة البقرة (نجَّى) للتلبُّثِ والتمهُّلِ في التَّنجية، وأمَّا سورةُ الأعرافِ ففيها تفصيلٌ في بيانِ معاناتِهم وأوضاعِهم، وحالاتِهم مع فرعونَ وقومِه ابتداءً مِنَ الآيةِ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/271، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84 - 85.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/85.

الرَّابعةِ بعدَ المئةِ إلى الآيةِ الحاديةِ والأربعين، فقد ذكرَ مزيدًا من معاناةِ بني إسرائيلَ، وذكرَ حالةَ التوتُّر، والقلق، والأذى الذي استمرَّ واقعًا عليهم حتى قال بنو إسرائيل لموسى كما حكى القرآن عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ [الأعراف: 129].

إنَّ إطباقَ تلكَ الحالةِ الشَّديدةِ منَ الأذى والمعاناةِ مع تعنُّتِ فرعونَ، وآلهِ وجبروتِهم؛ كان أدعى في الإسراعِ في إنجاءِ بني إسرائيلَ؛ لذا جاءت صيغة الفعل في سورة الأعراف: (أنجى)، دونَ (نجَّى)[1].

وقد وردَ الفعلُ في سورة البقرةِ ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 49] مضعَّفًا، وعلى هذا جرى خِطابُ بني إسرائيلَ في سورة البقرة في أوَّلِ خطابٍ خُوطِبوا به، ودُعوا إلى عبادة اللّهِ وتصديق مَن قدَّم لهم في أمره، وأخذَ عَليهم العهدَ بالإيمانِ به، فقالَ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40] فأجملَ - النّظمُ القرآنيُّ - ثمَّ فصَّل، فذكرَ نجاتَهم مِن آل فرعونَ، وفَرْقَ البحرِ بهم، ونجاتَهم، وهلاكَ عدوِّهم بالغرقِ، ثم ذكرَ عفْوَهُ عنهم في عبادةِ العِجْل، وتوبتَه عليهم، وبعْثَهم من موتِهم عندَ طَلَبِهم الرُّؤيا، وتَظْلِيلَهُم بالغَمامِ إلى ما ذكرَ تعالى بعدَ هذا[2]. وناسبَ موضعَ البقرةِ التَّضعيفُ؛ لإثباتِهِ بالكثرة، ولو قيل هنا: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم﴾، لما أنبأ بذلك، ولا ناسبَ المقصودَ ممَّا ذُكِرَ، وأيضًا فإنَّ التَّضعيفَ في: ﴿نَجَّيۡنَٰكُم﴾ يناسبُ التَّضعيفَ الواردَ بعدَهُ في السُّورةِ نفسِها في قَوْله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، ولم يكن لفظُ ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ مضاعفًا ليناسب[3].

دلالة كلمتي (نجّى) و(أنجى):

سَعةُ دلالةِ الألفاظِ، دَليلٌ على غِنَى المضمونِ القُرآنيِّ

ويحتملُ أيضًا من بابِ سَعة دلالة الألفاظِ ومعانيها أن تكونَ كلمةُ (نَجَّى) وقتَ نزولِ العذابِ، وكلمةُ (أنجى) يمنعُ عنهم العذابَ،

(1) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/33.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/33.

فالأولى للتَّخليص مِنَ العذابِ، والثَّانية يُبعِدُ عنهم عذابَ فرعونَ نهائيًّا، فَفَضْلُ اللهِ عليهم كان على مرحلتَين: مرحلةِ أنَّه خلَّصهم من عذابٍ واقعٍ عليهم، والمرحلةِ الثَّانيةِ أنَّه أبعدَهم عن آلِ فرعونَ، فمنعَ عنهم العذابَ[1].

استعمال كلمتي (نجّى) و(أنجى):

النّجاةُ منَ البحْرِ كانت سريعةً، ومن آلِ فرعونَ طـالـث بـطُـولِ المحنَةِ

يرِدُ كثيرًا في القرآنِ الكريم استعمالُ (نجَّى) للتلبُّث والتمهُّل في التَّنجيةِ، ويُستعملُ (أنجى) للإسراعِ فيها، فإنَّ (أنجى) أسرع من (نجَّى) في التَّخلُّص من الشِّدَّة والكرب، والبناءُ اللُّغويُّ لكلٍّ منهما يدلُّ على ذلك، والفرقُ بين استعمال اللَّفظين في الآيتينِ الكريمتين أنَّه لمَّا كانت النَّجاةُ من البَحْر لم تستغرقْ وقتًا طويلًا ولا مكثًا؛ استعمل (أنجى)، بخلاف البقاءِ مع آل فرعونَ، فإنَّه استغرق وقتًا طويلًا ومُكثًا، فاستعملَ لَهُ (نجَّى)[2].

دَلالةُ الالتفاتِ في تَعدُّدِ القراءاتِ:

احـتِـمـالاتُ الالْـتِفـاتِ بقدْرِ تلوُّنِ الضّمائرِ، وتـنـوُّعِ الصِّيغِ الصَّرفيّةِ

قرأَ الجمهور: ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ بياءٍ ونون وألف بعدها، وقرأه ابن عامر[3]: ﴿أَنجَىٰكُم﴾ بألِفٍ بعد الجيم من غير ياء ولا نون، على إعادةِ الضَّمير إلى اللهِ في قَوْله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: 140]، فيكونُ من كلامِ موسى عليه السلام وقال بعضهم: إنَّه على قراءةِ الجمهورِ أيضا كذلك على أنَّ ضميرَ ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ لموسى وأخيه هارون عليهما السلام أَوْ لَهُمَا ولمَنْ مَعهما، أو له وحدَهُ عليه السلام مشيرًا بالتَّعظيم إلى تعظيم أمرِ الإنجاءِ، أو إنَّه من كلامِ اللهِ تعالى تتميمًا لكلامِ موسى عليه السلام كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾ [طه: 53] بعد قَوْلِهِ سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ [طه: 53]، وهو كالتَّفسيرِ لقَوْلِهِ سبحانه: ﴿وَهُوَ

---

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 1/325.

(2) السّامرائي، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنّي، ص: 74.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/306، ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز: 2/448، رواية عن ابن عباس أنه قرأ: (وإذ أنجاكم)، وذكر أيضًا أنّ ثمة فرقة قرأت: (نجيناكم).

﴿فَضَّلَكُمۡ﴾[1]. ولهذا الالتفاتِ نظائرُ في التَّنزيلِ وفي كلامِ بُلغاءِ العرب، ومنه قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53]، فأوَّلُ الآيةِ مِن قولِ موسى في جوابِ فرعونَ، وقَوْلُهُ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ التفاتٌ عن الحكايةِ، وانتقالٌ إلى كلامِهِ تعالى عن نفسِه خاطَبَ به مَن أنزلَ إليهم هذا الوحي من خلقِه، تنبيهًا لهم بتلوين الكلامِ، وبما في مخاطبةِ الرَّبِّ لهم كفاحًا مِن التَّأثيرِ الخاصِّ إلى كونِهِ هو المُسْدِي لهذا الإنعام، ويَحْتَمِل أنَّ قراءةَ الالتفاتِ من جملةِ الحكايةِ عن موسى عليه السلام أسندَ الإنجاءَ فيها إلى اللّٰهِ تعالى مع حذْفِ القولِ للعلمِ بِهِ مِنَ القرينةِ، أو بدونِه، أو إلى نفسِه وحدَهُ أو مع أخيه؛ للإشارةِ إلى جعلِهِ تعالى هذا الإنجاءَ بسببِ رسالتِهما وتأييدِهِ تعالى لهما بتلكَ الآياتِ[2].

الجمعُ بين القراءتَين إيجازِ يظهر فيه الإعجاز:

الغَرَضُ مِن تذكيرِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ قومَ موسَى في زمنِهِ

ذُكِرَ أنَّ هذهِ الآيةَ خاطَبَ بها موسى من حضَرَهُ من بني إسرائيلَ، ويرى الطَّبريُّ أنَّ هذهِ الآيةَ خوطِبَ بِهَا اليهودُ الموجودونَ في زَمَنِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ تقريعًا لهم بما فعلَ بأوائِلِهم وبما جازوا به[3]. فأفادتْ قراءةُ: ﴿أَنجَىٰكُم﴾ أنَّ موسى قالَها لقومه في ذلك الوقتِ، وأفادت قراءةُ الآخرين أنَّ محمدًا ﷺ ذكَّر بها قومَ موسى عليه السلام في زمنه، كما في سورة البقرة الآية [49]، وهذه فائدةُ الجمعِ بينَ القراءتَينِ، وهي مِن إعجازِ إيجازِ القرآنِ[4]، وذلك لِتَحْذيرِهم مِن معاندَتِهِ ﷺ والكفرِ به، ورفْضِ اتِّباعِ ما أنزلَ اللّٰهُ عليه، فهم أكثرُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/42.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/84.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.

(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101. وذهب محمّد الطّاهر بن عاشور إلى أنَّ التّعريض بتذكير المشركين من العرب قد انتهى عند قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [الأعراف: 140]، وسورة الأعراف مكّيَّة، ولم يكن في المكّي من القرآن ما هو مجادلة مع اليهود، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84.

النَّاسِ معرفةً بسلطانِ اللّه وجبروته، وإمهالهِ لعبادهِ الجاحدين، ثمّ بطشهِ بهم، فقد سُطِّر في كُتُبِهم ماضي قومِهم، وكيف نصرَهم اللّهُ ونبيّهم موسى عليه السلام وأهلكَ فرعون، وجنودَهُ.

عِلَّةُ نِسبةِ الإنجاءِ، في قوله: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ بِطانةَ فرعونَ، كانت عونًا له على عذابِ القومِ وإذْلالِهم

﴿مِّنۡ﴾ لابتداء الغايةِ المكانيَّة، وأصلُ ﴿ءَالِ﴾ أهلٌ؛ لأنَّ تصغيرَهُ على "أُهَيْل"، وآلُ الرَّجل: أهلُه وخاصَّتُهُ وأتباعُه، وخصَّ بالإضافة إلى أولي الخَطَرِ كالأنبياء والملوك، وفرعونُ لقبٌ لمن مَلَكَ العمالقة، ككسرى وقيصر لِمَلِكَي الفرسِ والرُّوم[1].

وجُعِلتِ النَّجاةُ هنا من آل فرعونَ، ولم تُجْعَل منه، مع أنَّه هو الآمرُ بتعذيب بني إسرائيل، للتَّنبيه على أنَّ حاشيتَه وبطانتَهُ كانت عونًا له على إذاقتِهم سوءَ العذابِ، وفي إنزال ألوان الإذلالِ بهم[2]. ولتولِّيهِم ذلك بأنفسِهم، وليُعْلِمَ تعالى أنَّ أعوانَ الظَّالمين مأخوذون بظلمِهم، وعونِهم للظَّالمين، وبأفعالهِم في المظلومين[3].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الآيةِ الكريمةِ:

المبالغةُ في شِدَّةِ العَذابِ باعتباره مُلازِمًا لهم

﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: يلزمونهم بهِ، وهو التّوجيه الأوّل لمعنى الاستعارة، مِنَ السَّوْمِ في البيع، والشِّراء[4]. بإثباتِ معنى الإلزامِ غيرِ المتعارف عليه للفظِ ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾، وتُوُصِّلَ إليه عن طريق الدَّلالة الإيحائيَّة للَّفظِ الّتي استُخْلِصت من طريق حركة الألفاظ، واستبدالُ ألفاظٍ بها أبلغُ وأكثرُ دلالةً على التَّعْبِيْرِ ضِمنَ الأسلوبِ الاستعاري، وغايةُ ذلك المبالغةُ في شدَّة العذابِ، بكونه ملازمًا لهم. والتّوجيه الثّاني، أنّ وجهَ الاستعارةِ الآخَرَ، يُلحظُ فيه الدَّوامُ، فسامَهُ ذُلًّا: أذاقَه. وهو من مجازِ الرَّعي، لمداومةِ الغنمِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/79، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.
(3) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التنزيل: 1/83.

الرَّعيَ، فينبغي أنْ يُلحظ فيه الدَّوامُ كأنَّه غذاءٌ[1]، وكأنَّ العذابَ غِذاءٌ دائمٌ يُطْعِمُه فرعونُ وآلُه لبني إسرائيلَ[2].

تضمين اسْتِعمال الفعل (سَامَ) في معنى الإعطاء:

جملة: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ حالٌ مِن آل فرعونَ يحصل بها بيانُ ما وقعَ الإنجاءُ منه، وهو العذابُ الشَّديد الّذي كان بنو إسرائيلَ يلاقونه من معاملةِ القِبطِ لهم، ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ يعاملونكم معاملةَ المحقوقِ بما عُومِل به، يقال: سامَهُ خَسْفًا إذا أذلَّه، واحتقرَه، فاستعمل سامَ في معنى أنال، وأعْطى، ولذلك يُعدَّى إلى مفعولين ليس أصلُهما المبتدأَ والخبرَ[3].

استعمال اللّفظ في معاني مختلفة، دليل على ثراء اللّفظ القرآنيّ وغناه الدّلاليّ

وَجْهُ التَّضْمينِ في قولِه: ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾:

فُسِّرت لفظةُ ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ بمعنى: يطلبونكم، لكنَّ الطَّلب متعدٍّ إلى واحد، فلا بُدَّ من تضمينِ فعل يتعدَّى إلى اثنين، وهو التَّكليف، أي: يطلبونكم مكلِّفين إيَّاكم سوءَ العذابِ[4].

المعنَى يطلُبونَكم مُكلِّفِينَكم سُوءَ العذابِ، وهو فعْلٌ عن ترصُّدٍ وقصْدٍ

دَلالةُ تَكرارِ حرفِ السِّين:

تكرَّرَ حرفُ السِّين في قَوْلِه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، وقَوْله: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ أربعَ مرَّاتٍ، وحرفُ السِّينِ مِنَ الحروفِ الصَّامتةِ، والمستفلةِ، والمرقَّقة، وهو صوتٌ مهموسٌ وفيه صفيرٌ، ونلحظ تناسبًا لتكرارِه مع مقام التَّذكير، والمؤاخذةِ بعد النِّعْمَة، وتحديدًا في شأن استحياءِ النِّسَاء لما فيهِ مِن استثارةٍ لغَيْرَة الرِّجَال، فعبَّر عنه بالصَّوتِ المرقَّق، المهموس مراعاةً لمشاعر النِّسَاء، ورجالهم، وإن كان تَكرارًا لقول فرعونَ في الآية [127].

مُناسبةُ السّين لمقامِ التَّذكيرِ، والمؤاخذةِ بعد النِّعْمَةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوم).
(2) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 242.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/492.
(4) زاده، حاشية شيخ زاده: 4/286.

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالسُّوءِ، على صِيغةِ التَّنْكِيرِ والمصْدريَّةِ:

﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أَشَدُّهُ وأفظَعُهُ، وهو عذاب التَّسخير، والجَلْد، والإرهاق، والعملُ بالأشغال الشَّاقَّة، وتسليطُ العقاب الشَّديدِ بتذبيح الأبناءِ وسَبْيِ النِّسَاء، والمعنى: يذَبِّحون أبناءَ آبائِكم، ويستحيونَ نِساءَ قومِكم الأوَّلين[1]. فالسُّوْءُ كلُّ ما يُحْزِن الإنسان، ويغمُّه مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّة، أو الأخروية[2]. ولذلك عبَّر عنهُ بالتَّنْكِيْرِ لِيَسْتَغْرِقَ كلَّ ذلك، وغيرَهُ - واللهُ أعلمُ - وهو صفةٌ أضافَها إلى موصوفِها العذابِ للمبالغة، ورسَّخ المبالغةَ، وأكَّدها مجيءُ هذ الصِّفة بصيغةِ مصدرٍ بمعنى الصِّفةِ المشبَّهة[3]، فالمَصْدَرُ أقوى في الدَّلالةِ على الحدثِ مِنَ الفعلِ، ويناسِبُ ذلك مشهدُ التَّعذيبِ.

استِغراقُ عُمومِ العذابِ، وتوكيدُ المبالغةِ في السِّياقِ

دَلالةُ أُسلوبِ الفصْلِ، في بيانِ أصنافِ العذابِ:

قولهُ: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ بيانٌ، جاء لإيضاح الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾، ولذا ترك العاطفَ[4]، وهو مصداقٌ للحُكم بحتميَّة الفَصلِ في حال كانتِ الجُمْلَةُ التاليةُ معطوفةً على الجُمْلَة السَّابقة عطفَ بيانٍ، فجملةُ: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ والَّتي بعدَها عطفُ بيانٍ لجملة: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، وهذا يكونُ حينما تكونُ الجُمْلَةُ السَّابقةُ ممَّا يُثير في نفسِ المتلقِّي سُؤالًا مقدَّرًا ذهنًا يتردَّدُ في نفسِه، وإنْ كان غيرَ مصرَّحٍ بِهِ في اللَّفظ، فتأتي الجُمْلَةُ التاليةُ لتجيبَ عن هذا السُّؤالِ، وتأتي دونَ أن تُعطفَ بالواو، وعلى أسلوبِ الاستئنافِ.

جُملةُ (يُقَتِّلونَ أَبْناءَكُم) بيانٌ لسابقتِها، وبين الجملتَين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ

دَلالةُ فعْلِ ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بالتَّشْديد، على معنى المبالغَةِ وشِدَّةِ الإجراءِ:

قرأ نافعٌ قولَه: ﴿يَقۡتُلُونَ﴾ بفتحِ الياء، وإسكانِ القاف، وضمِّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/492، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 1/325.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.

(3) قباوة، المفصّل، ص: 596.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/88.

المبالغةُ في القتْل مبـالـغـةُ كـثْـرةٍ واسْـتـيـعـابٍ، وتَدريجٍ وتجدُّدٍ

التَّاء من غيرِ تشديدٍ، وقرأ الباقون بضمِّ الياء، وفتح القاف، وكسرِ التَّاء مشدَّدةً[1]، على المبالغةِ في القتْلِ، وهي مبالغةُ كَثْرةٍ، واستيعابٍ، وتدريج، وتكرار متجدِّد، والمعنى: استمرارُهم على التَّعذيب، والتَّقطيع، والتَّقتيل ما تناسلوا[2]. أمَّا قراءةُ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ بالتَّخفيف؛ ففيها إشارةٌ إلى سهولةِ تناولِ الفعل ومعالجتهِ دونَ مقاومةٍ من الذين وقع عليهم القتْلُ؛ لبَطْش آلِ فرعونَ، ولضَعْفِ بني إسرائيل[3].

وبين القراءتين تَكامُلٌ في الدَّلالةِ عَلى الواقعِ، حيث إنّهم في أوَّلِ الأمرِ كانوا ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بشدَّةٍ وعُنفٍ، ثم برَدَتِ الحدَّةُ شيئًا فشيئًا، فصاروا ﴿يَقْتُلُونَ﴾، دون شدَّةٍ ولا عُنفٍ.

التَّعْبيرُ عنِ القتْلِ على طريقِ المجازِ المرسَلِ:

القـتـلُ شـمَـلَ بـعـضَ الأبـنـاءِ فـقـط، ولـيـس شموليًّا

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقتُه العمومُ؛ إذ إنَّهم قتلوا بعضَ الأبناءِ فقط، فهم لم يقتلوا الأصاغرَ، أو الأكابرَ[4]، على خلافٍ بحسَبِ ما سيأتي.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بِصِيغةِ الاسْتِفْعَالِ في: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾:

إدامـةُ الـفِـعْـلِ، والمـبـالـغـةُ في الإحياءِ، عقوبةٌ لبنِي إسرائيلَ

عبَّر عنِ الاستحياءِ بالمُضَارِعِ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ على إرادةِ تجديدِ الفعل، وإدامتِه، ومن ثَمَّ ديمومةُ العقابِ، فالاستحياءُ: مبالغةٌ في الإحياء، فالسِّين والتَّاء فيه للمبالغةِ، وإخبارُهُ ملاَّهُ باستحياء النِّسَاء، والغرضُ مِن استبقاءِ النِّسَاء على قيد الحياةِ أن يتَّخذوهُنَّ سراريَ وخدمًا[5].

فيكونُ فعلُ استحياءِ النِّسَاء عقوبةً لبني إسرائيل - مع أنَّه في ظاهرهِ نِعْمةٌ لهم - لأَنَّ إبقاءَ النِّسَاء أحياءً والتَّخلُّصَ مِنَ الرِّجال

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/306.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(3) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 241.
(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/32.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.

كان المقصودُ منه الاعتداءَ على أعراضِهن، واستعمالهِنَّ في شتَّى أنواعِ الخدمةِ والامتهانِ، وإذلالهِنَّ بالاسترقاقِ، فبقاؤهُنَّ كذلك بقاءٌ ذليلٌ وعذابٌ أليمٌ، تأباهُ النُّفوسُ الكريمةُ، والطِّباعُ الحُرَّةُ الأبيَّةُ(1).

سِرُّ تقديمِ ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ على ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾، وتخصيصه بالذُّكُور:

الـذُّكـورُ مصدرُ خُـطـورةٍ على فرعونَ، فرأى أنّ منفعةَ قتْلِهِم أظْهرُ

وقدَّمَ فعلَ التَّقْتيلِ على الاستحياءِ لأولويَّتِه، وأهمِّيَّتِه عندَ فرعونَ وقومِهِ بوصفِ الذُّكورِ مصدرَ الخطورةِ، ومنبعَ التَّهديدِ، ولذلك عدلَ إلى تخصيصِهم بالقتلِ وتقديمِه على استحياءِ النِّسَاءِ، فلذَبْحِ الذُّكُورِ دونَ الإناثِ مضرَّةٌ على بني إسرائيلَ من وجوهٍ؛ أوَّلُها: أنَّ ذَبْحَ الأبناءِ يقتضي فناءَ الرِّجَالِ، وذلك يقتضي انقطاعَ النَّسلِ؛ لأنَّ النِّسَاءَ إذا انفردْنَ؛ فلا تأثيرَ لهُنَّ ألبتَّةَ في ذلك، وذلك يفضي في آخِرِ الأمرِ إلى هلاكِ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ. وثانيها: أنَّ هلاكَ الرِّجَالِ يقتضي فسادَ مصالحِ النِّسَاءِ في أمرِ المعيشةِ. وثالثها: أنَّ قتْلَ الولدِ عقيبَ الحملِ الطَّويلِ، وتحمُّلِ الكدِّ، والرجاءِ القويِّ في الانتفاعِ بالمولودِ من أعظمِ العذابِ. ورابعُها: أنَّ الأبناءَ أحبُّ إلى الوالدين منَ البناتِ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ [النّحل: 58 - 59]. وخامسُها: أنَّ بقاءَ النِّسوانِ بدونِ الذُّكرانِ، يُوجِبُ صيرورتَهُنَّ مُسْتَفْرَشاتِ الأعداءِ، وذلك نهايةُ الذُّلِّ، والهوانِ(2). ولذلك كان من أصْعبِ الأمورِ، وأشقِّها أنْ يُقْتَلَ الولدُ أمامَ أبويهِ اللَّذينِ كانا يتأمَّلانِ النَّسلَ منهُ(3)، زِدْ عليه أنَّ القتلَ كان شديدًا، ولذلك عُبِّرَ عنهُ في البقرةِ، بقَوْلِه: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وذلكم أدعى إلى الأذى، والحزنِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (الأبْناءِ) دونَ (الرِّجَالِ):

رجَّحَ المفسِّرونَ أنَّ المرادَ بالأبناءِ هنا الأطفالُ لا البالغونَ؛ لأنَّ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/64، والقمَّاش، جامع لطائف التّفسير: 1/3613.

(3) الرّوينّي، من غريب بلاغة القرآن، ص: 237.

اللَّفظ من حيثُ وضعُه يفيدُ ذلك، ولأنَّ قتْلَ الرِّجَالِ لا يفيدُ فرعونَ وقومَه؛ إذ إنَّهم كانوا يستعملونَهم في الأعمال الشَّاقَّةِ والحَقِيرة، ولأنَّه لو كان المقصودُ بالذَّبْحِ الرِّجَالَ لمّا قامت أمُّ موسى بإلقائه في اليمِّ، وهو طفلٌ صغيرٌ لتنجِّيه مِنَ الذَّبْح. ويرى مفسِّرون آخرون أنَّ المرادَ بالأبناء الرِّجَالُ، لا الأطفال؛ لأنَّ لفظَ الأبناءِ هنا جُعِلَ في مقابَلةِ النِّسَاء، والنِّسَاءُ هن البالغاتُ، والرَّاجح - واللّه أعلم - القولُ الأوَّل لما ذُكِرَ، ولأنَّه أتمُّ في إظهارِ نعمةِ الإنجاء، حيثُ كان آلُ فرعونَ يُقَتِّلون الصِّغارَ قطعًا للنَّسلِ، ويسترقُّون الأمَّهاتِ استعبادًا لهن، ويبقون الرِّجَال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التَّدرُّجِ، وبقاءُ الرِّجَال على هذه الحالة أشَدُّ عليهم مِنَ الموتِ[1].

لفظُ (الأبناءِ) أتمُّ في إظهارِ نِعْمةِ الإنجاءِ، ولأنَّ قتْلَهم يمنعُ من سيقتلُ فرعونَ منَ الفُرصةِ

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ:

مآلُ المواليدِ مِنَ البناتِ أن يَكنَّ نساءً

إطلاقُ كلمةِ (النِّسَاء) في قَوْله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾ على المواليدِ مِنَ البَنات، هو مِنَ المجاز المرسل، باعتبار المآلِ، أو ما سيكونُنَّ عليه؛ فهو من إطلاق الشَّيءِ باعتبارِ ما سيؤولُ إليه[2].

بيانُ مُتشابَهِ العطْفِ ومختَلَفِه، في السِّياقِ:

مضمونُ (وَيُذَبِّحونَ) هنا، كأنَّه صِنفٌ آخرُ مِنَ العذابِ

عُطِفَت جملة ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ على جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ في سورة [إبراهيم: 6] خلافَ البقرة والأعراف؛ إذ فُصِلَت كلٌّ من جملة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ في سورةِ البقرة، وجملة: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ في سورةِ الأعرافِ بدونِ عطفٍ بالواو، على أنَّهما بدلُ اشتمالٍ من جملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ في كلٍّ مِنَ السُّورَتين، فكانَ مضمونُ جملة: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ في سورةِ إبراهيمَ بعطفِها بالواوِ مقصودًا بتَعدادِ صنوفِ العذاب، كأنَّه صِنفٌ آخرُ مِنَ العذاب، وضربٌ آخرُ من المكارِه غيرُ سوءِ العذابِ؛ اهتمامًا بشأنِه، فعَطْفُه من عطْفِ الخاصِّ على العامِّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/492، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.
(2) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.

والأصلُ في العطفِ أنَّه يقتضي المغايرةَ، وعلى كلا النَّظْمَين - في السُّورِ الثَّلاث - قد حصل الاهتمامُ بهذا العذابِ المخصوصِ بالذِّكر، فالقرآنُ حكى مرادَ كلام موسى عليه السلام من ذكرِ العذابِ الأعمِّ، وذكْرِ الأخصِّ للاهتمام به، وهو حاصلٌ على كلا النَّظْمَين، وإنَّما حكاهُ القرآنُ في كل موضِع من هذهِ السُّوَرِ الكريمةِ بطريقةٍ؛ تفنُّنًا في إعادة القِصَّةِ بحصول اختلافٍ في صورة النَّظْمِ مع الحفاظِ على المعنى المحكيِّ، وهو ذكرُ ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ مُجملًا، وذكرُ أفظعِ أنواعهِ مُبَيَّنًا[1].وشبيه بهذا، ما ورد في قولِه تعالى في سورةِ إبراهيـمَ: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5]، وهي أوقاتُ عقوباتٍ، إلى أن قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم: 5] واللَّائق في السِّياقِ أن يعدِّدَ امتحانَهم تعديدًا، يؤذِنُ بِصِدْقِ الجمع عليهِ لتكثيرِ المنَّةِ، فعلَّةُ عدَمِ العطفِ بالواوِ في سورتَي البقرةِ، والأعرافِ كونُ المحكيِّ مِن كلامِ اللهِ -تعالى-، فلم يُرِد تَعدادَ المِحَنِ عليهم؛ رحمةً بِهِم ورأفةً، والَّذي في سورةِ إبراهيمَ مِن كلامِ موسى عليه السلام فعدَّدَ المِحَنَ عليهم، لكونهِ مأمورًا بذلِكَ في قَوْلِهِ: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 5][2].

وعليه فالإتيانُ بالعاطِفِ الظَّاهرِ في: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾؛ ليؤذِنَ بأنَّ إسامتَهم العذابَ مغايرٌ لتذبيحِ الأبناءِ، وسبيِ النِّسَاءِ، وهو ما كانوا عليه من التَّسخير، بخلافِ المذكور في البقرةِ، والأعراف؛ فإنَّ ما بعدَ ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ تفسيرٌ له، فلم يعطِفْ عليه بالواو[3]. فالتَّعذيبُ حاصلٌ عليهم بالذَّبحِ وبغير الذَّبح، أمَّا قَوْلُه: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾، فهو جنسٌ آخرُ مِنَ العذابِ لا تفسيرٌ لما قبلَه[4].

نُكتةُ العُدولِ إلى الوصْلِ، في جُملةِ ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾:

والاستحياءُ استفعالٌ يدلُّ على الطَّلَبِ لِلحياةِ، أي: يبقونهنَّ أحياءً، أو يطلبونَ حياتَهنَّ، ووجُه ذكْرِه هنا في معرِض التَّذكيرِ بما نالهم مِنَ المصائبِ أنَّ هذا الاستحياءَ للإناثِ، كان - ولك أن تجعلَ الجُملَةَ في موضع بدلِ بعضٍ مِن كلٍّ - تخصيصًا لأعظم أحوالِ سوءِ العذابِ بالذِّكر، وهذا هو الَّذي يطابقُ آيةَ [إبراهيم: 6] الَّتي ذكرَ فيها ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/224، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/1911.
(2) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/226، والكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 27.
(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 1/120.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/267.

الكلامُ مُستأنَفٌ مِن جُملةِ البيانِ أوِ البدلِ، للعَذابِ

بالعطفِ بالواو على ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، وليس قَوْلُه: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ مستأنفًا لإتمام تفصيلِ صنيعِ فرعونَ، بل هو من جملةِ البيان، أو البدلِ للعذاب، ويدلُّ على ذلك قَوْلُهُ تعالى مُخبرًا عن صنيع فرعونَ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]، فعقَّب فِعْلَي التَّذبيح والاستحياءِ بقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4][1]. فعطْفُ جملةِ ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ في آياتِ البقرةِ، والأعراف، وإبراهيمَ؛ لكونِ مضمونِهَا باستقلالِه لا يَصْلُحُ لبيانِ سوءِ العذابِ؛ لأنَّ استحياءَ النِّسَاء في ذاته نعمةٌ، ولكنَّه يصيرُ مِن العذابِ عندَ اقترانِه بتذبيحِ الأبناء، إذ يَعلمُ أنَّ مقصودَهم من استحياءِ النِّسَاء استرقاقُهنَّ وإهانَتُهنَّ، فصار الاستحياءُ بذلك القصدِ تهيئةً لتعذيبهنَّ، ولذلك سُمِّي جميعُ ما وقعَ عليهم بلاءً[2].

وَجْهُ التَّعْبيرِ عن القتْلِ والإحياءِ، عن طريقِ الطِّباقِ:

الإفصاحُ عن دَلالةِ الرَّبْطِ المؤدِّي إلى مَزيدِ إيضاحِ المعنَى

في قَوْلِه تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾، وقَوْله: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ طباقُ إيجابٍ بينَ نقتِّلُ، ونستحيي، يُفصِحُ عن دلالةِ الرَّبْطِ المؤدِّي إلى مزيدِ إيضاحٍ في المعنى وبيانِه، وقَوْلُه: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ بيَّنَّا في الآية [127] من الأعرافِ أنَّه من الأسلوبِ الحكيم[3].

سِرُّ العُدولِ عَنِ الماَضِي إلى المُضَارِع، في فِعْلَي القَتْلِ والاسْتِحياءِ:

اسْتِشعارُ المنَّةِ العظيمةِ على بني إسرائيلَ، بما منّ عليهم منَ النّجاةِ

الفعلانِ: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، و﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ قد وقعا وانتهيَا قبلَ نزولِ الآيةِ الكريمةِ مِن زَمَنٍ، والسِّرُّ في العدول إلى المُضَارِعِ فيهما؛ لتصوير تلك الوقائِعِ والأحداثِ أمامَ المخاطَبين من بني إسرائيلَ، وكأنَّها تحدث الآن استشعارًا بالمنَّة العظيمةِ عليهم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/4924 - 93.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/192.
(3) الطيبّي، فتوح الغيب: 6/521.
(4) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.

دَلالةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ، في قولِه: ﴿ذَٰلِكُم﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ البلاءَ أصْبحَ بَعيدًا عنهم، وأصبحُوا بمنأًى عنه تأنيسًا لهم

الواوُ من قولِه: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ للحال والاقتران، و﴿وَفِي﴾ للظرفيَّةِ المكانيَّة، و(ذا) اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ على السُّكونِ في محلِّ جرٍّ، حُذِفت ألفُه في الرَّسم اصطلاحًا، واللَّام: حرفٌ زائدٌ لتوكيدِ البُعْدِ مبالغةً في التَّفخيم، ودفعًا لِتَوَهُّمِ الإضافة، والكافُ: حرفُ خِطابٍ معَ البُعْدِ، والميمُ: حرفٌ لجمْعِ الذُّكُورِ يفيدُ التَّعظيمَ[1].

فأشارَ بأداة البُعْد مقرونةً بالكاف، والميم[2] إلى ما نزل بالمخاطَبين من سوءِ العذابِ (تقتيلًا، واستحياءً)، ويحتملُ أن يشيرَ بهِ إلى التَّنجية، فكأنَّه قال: وفي تنجيتِكم امتحانٌ لكم واختبارٌ، فهل يكونُ منكم وفاءٌ بحسب النِّعْمَة؟[3] أو الاثنين - العذابِ الواقع ونعمةِ الإنجاء - معًا، ويحتملُ التَّعْبِيْرُ باسم الإشارةِ الدَّالِّ على البُعْد، والمقرونِ بإشاراتِ التَّفخيم، والتَّعظيم أن يكونَ لِعظَم هذا البلاء، وأنَّه أصبح بعيدًا عنهم حقيقةً إذ ولَّى زمانُه، وأصبحوا بمنأًى عنه مجازًا بعدم تكرارِه، واستبدالِ بِهِ النِّعَمِ تأنيسًا لهم، وبثًّا للطُّمأنينةِ في نفوسهم.

بَلاغةُ اخْتِيارِ لفْظِ (البلاء):

البلاءُ مَجازٌ مألوفٌ، وحقيقتُهُ المماثِلةُ ببلاءِ الثَّواب

يُطْلَقُ البلاءُ على كلٍّ مِنَ النِّعْمَة، أو المحنةِ[4]، وعلى الاختبارِ بالخيرِ والشَّرِّ؛ قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: 168] وهو مجازٌ مشهورٌ حقيقتُه بلاءُ الثَّواب - بفتح الباءِ مع المدِّ وبكسرِها مع القصر - وهو تخلُّقُه وترهُّلُه، ولَمَّا كانَ الاختبارُ يُوجِبُ الضَّجرَ والتَّعب؛ سُمِّيَ بلاءً، كأنَّه يخلقُ النَّفس، ثم شاعَ في اختبارِ الشَّرِّ؛ لأنه أكثرُ إعْنَاتًا للنَّفس، وأشهرُ استعمالِهِ إذا أُطلِقَ أن يكونَ

(1) قباوة، المفصّل، ص: 596.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 1/130.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/448.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/151.

للشَّرِّ، فإذا أرادوا بِهِ الخيرَ؛ احتاجوا معَهُ إلى قرينةٍ، أو تصريحٍ كقولِ زُهيرٍ(1):

جَزَى اللّهُ بِالإِحْسَانِ مَا فَعَلا بِكُمْ *** فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذي يَبْلُو

فيُطلق غالبًا على المصيبةِ التي تحلُّ بالعبدِ؛ لأنَّ بها يُختبَرُ مقدارُ الصَّبرِ والأناة، والمرادُ هنا المصيبةُ بدليلِ قَوْلِه: ﴿عَظِيمٌ﴾، وقيل: أرادَ بِهِ الإنجاءَ والبلاءَ بمعنى: اختبارِ الشُّكْرِ(2).

بَلاغةُ الاسْتِعارة، في قَوْلِهِ: ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٌ﴾:

ابتلاءُ الله اختبارٌ كاشفٌ للخبايَا الّتي لا يطّلِعُ عليها أحدٌ سِواه

إذ إنَّ أصلَ الابتلاء أنْ يُجرِّبَ المُبْتَلِي المُختَبَرَ؛ لِيَظْهَرَ خَيْرُهُ وشَرُّهُ للمُبتلِي، واللّه تعالى عالمٌ بكلِّ شيءٍ لا يحتاج إلى تجربتِهِ، ولكنَّه لمّا شابَهَتْ معاملتُه العبيدَ بالخيرِ، والشَّرِّ معاملةَ مَن يختبِرُ غيرَهُ بالضَّرِّ، والنَّفع؛ استعارَ الابتلاءَ لهذهِ المعاملةِ(3).

بَلاغةُ أُسلوبِ اللّفِّ والنّشْرِ في السِّياقِ:

العذابُ والنّجاةُ، مُرتبطان بقدَرِ الله وأحكامِه، في الإنعامِ والانْتقامِ

فإنَّ البلاءَ: النِّعْمَةُ على تقدير أنْ تكونَ الإشارةُ إلى الإنجاءِ، والمحنةُ على تقديرِ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى العذاب(4).

دَلالةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿رَّبِّكُمۡ﴾، مُضافًا إلى المخاطَبِ:

التَّعْبيرُ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ، إيقاظٌ للأملِ في نفوسِ المُبْتَلِين

أضافَ الرَّبَّ إلى المخاطَب، والأصلُ إضافتُه إلى المتكلِّم، فيقال: ربي، أو ربنا؛ ليكون تشريفًا بنسبة ذلك العنوان العالي إليهم(5)، بما يشمَلَه مِن مَعْنَى الكَلَأ، والرِّعايةِ، والحفظ، والحماية، والتَّدبير، لقد أرادَ اللّهُ تعالى أن يلقي في حسِّهم وحسِّ كلِّ من يلاقي شدَّةً أنَّ إصابةَ العِباد بالشِّدَّةِ هي امتحانٌ وبلاءٌ، واختبارٌ وفتنةٌ، وأنَّ

(1) ديوان زهير بن أبي سلمى، تح: علي حسين فاعور، ص: 86.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/493.

(3) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/32.

(4) زاده، حاشية شيخ زاده: 4/2862 - 87، واللّف والنّشر: "هو أن تلفَّ شيئين ثم ترمي بتفسيرهما جملةً ثقة بأنّ السامع يردُّ كل واحد منهما ما لَه" مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 526.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/173.

الذي ينتبهُ لتلك الحَقيقةِ يفيدُ مِنَ الشِّدَّة، ويستنشقُ عبيرَ المِنْحَةِ في المِحْنَةِ، فيكونُ في التَّعْبِيْر بوصف الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ إيقاظٌ للأمل في نفوسِ البائسين والمبتلين[1].

بَلاغةُ تَنْكيرِ لفْظَيْ ﴿بَلَآءٌ﴾، و﴿عَظِيمٌ﴾:

التَّنكيرُ تفخيمٌ، وتهويلٌ، لعِظَمِ العقابِ وقَسْوتِه

قولُه: ﴿عَظِيمٌ﴾ صفةٌ لبلاءٍ، وتنكيرُ اللَّفظين دالٌّ على التَّفخيم، والتَّهْويل[2]، والعِظَم بالنِّسبةِ للمخاطَب والسَّامع، لا بالنِّسبةِ إليه ﷻ لأنَّه العظيمُ الذي لا يَستعظِم شيئًا[3]. وفيه إشعارٌ باستحقاقِهم ذلك، واستصلاحِهم بشدَّتِه دون ما هو أيْسرُ منه، وقَرْنُه بالعِظَم لشَياعِه في الأجسام والأنفسِ والأرواح[4].

التَّعْبيرُ عن حِجاجِ بنِي إسرائيلَ، بجِماعِ الحِكْمةِ، وحُلَلِ البلاغةِ:

ما طلبوهُ من نبيِّهم، هو مقابلةٌ للإحْسانِ بالنُّكرانِ

وبهذا تكونُ الآياتُ الكريمةُ قد ردَّت على بني إسرائيلَ - فيما طلبوا - أبلغَ ردٍّ وأحكمَهُ، ووصفتْهُم بما هم أهلُه مِن سوءِ تدبيرٍ، وسفاهَةِ تفكيرٍ، فقد بدأت بإثباتِ جهلِهم بربِّهم وبأنفسِهم، حيث طلبوا إلى نبيِّهم أنْ يجعلَ لهم إلهًا، كما لغيرِهم آلهةٌ، ثم ثنَّتْ بإظهارِ فسادِ ما طلبوهُ في ذاته؛ لأنَّ مصيرَهُ إلى الزَّوال والهلاك، وما كان كذلك لا يصلحُ أن يكونَ إلهًا، ثمَّ بيَّنت بعد ذلك بأنَّ العِبَادَةَ لغيرِ اللّه لا تجوزُ بأيِّ حالٍ؛ لأنَّه هو وحدَهُ صاحبُ الخَلْقِ والأمر، ثم ذكَّرتهم في ختامِها بوجوهِ النِّعم الَّتي أسبغَها اللّهُ عليهم، لتُشْعِرَهُم بأنَّ ما طلبوه إلى نبيِّهم، هو من قبيل مقابَلةِ الإحسان بالجحودِ والنُّكرانِ، ولِتَحْمِلَهُم على أنْ يتدبَّرُوا أمرَهم، ويراجعوا أنفسَهم، ويتوبوا إلى خالقِهم توبةً صادقةً نصوحًا، إنْ كانوا ممَّن ينتفعُ بالعِظات، ويعتبِرُ بالمَثُلات[5].

(1) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 242.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/100.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/254.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 1/130.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(يُذبِّح) و(يُقتِّل):

إحرازُ الإيجازِ في الكلِّ، وورَدَ على ما يجبُ ويُناسِبُ

وردت الأولى في سورة البقرة [49]، والثانية في سورة الأعراف [141]، والذَّبح مُنْبِئٌ عن صفةِ القتلِ وإزهاقِ الرُّوح، وأمَّا اسمُ القتلِ؛ فلا يُفهَمُ منه إلَّا إعدامُ الحياة، وقد يتناول غيرَ المقتولِ من بابِ التَّوسُّع في الإطلاق، فعبَّر أوَّلًا بما يوفي المقصودَ مِنَ الإخبار بصفةِ القتلِ مع إحرازِ الإيجازِ، إذ لو ذكر مطلقَ القتْلِ، وأتْبع الصِّفةَ لما كان إيجازًا، فعدلَ إلى ما يحصُلُ عنه المقصودُ مع إيجازٍ، فقالَ: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وعبَّرَ في سورةِ الأعرافِ بالقَتْلِ؛ لأنَّه أوجزُ مِن لفظِ ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ لأجل التَّضعيفِ؛ إذ لفظُ ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ أثقلُ لتضعيفه، وقد حصلَت صِفةُ القتلِ في سورة البقرة، فأحرزَ الإيجازُ في الكلِّ، وجاءَ على ما يجبُ ويناسِبُ، والله أعلم[1]. وقيل: ليطابقَ بينَ قوله هنا: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، وقَوْلِه تعالى السَّابق في: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: 127][2].

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/33.

(2) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/120.

﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين الإنجاءِ مِنَ العذابِ والاسْتِئصال، وظروفِ المواعَدةِ في الميقاتِ

في الآية الكريمة عودٌ إلى بقيَّة حوادثِ بني إسرائيل، بعد مجاوزتِهم البحرَ[1]، قال السَّعدي: "ولمَّا أتمَّ الله نعمتَهُ عليهم بالنَّجاة من عدوِّهم، وتمكينهم في الأرض؛ أرادَ ﷻ أنْ يُتمَّ نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكامُ الشَّرعية، والعقائدُ المرضيَّة، فواعَدَ موسى عليه السلام"[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾: (وعد) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقَالُ: وَعَدْتُهُ أَعِدُهُ وَعْدًا، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ[3]. وواعَدتَ زيدًا إذا وَعدك ووعدتَه، ووعدتَ زيدًا؛ إِذا كَانَ الوَعْدُ مِنْك خاصَّةً، والمَوْعِد: العَهْد[4]. فـ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ يحتمل أن تكون بمعنى (وَعدْنا) من واحد، وأن تكونَ من اثنين على أصل المفاعَلة، ويكون قِسْطُ موسى في هذا الوعدِ بالمجيءِ للميقاتِ، أو القَبولِ، أو معاهدَتِه اللّهَ[5]، وواعدَ: كان أكثر وعدًا منه[6]، ولأنَّ العهدَ من معاني الوعد، قيل: معنى واعَده: عاهَدَهُ على أن يُوافيَه في موضعٍ، أو في وقت معيَّنٍ[7]، وهو معنى اللفظة في الآية الكريمة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/85.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 302.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (وعد).
(7) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وعد).

2) ﴿مِيقَٰتُ﴾: (وقت) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَدِّ شَيْءٍ وَكُنْهِهِ فِي زَمَانٍ وَغَيْرِهِ[1]، ومِنْهُ الْوَقْتُ: وهو مقدارٌ من الزَّمَانِ معلومٌ، وكلُّ ما قَدَّرت له غايةً، أو حينًا؛ فهو مُوَقَّتٌ، ووَقَتَ لَهُ كَذَا وَوَقَّتَه، أَيْ: حَدَّدَهُ. والمِيْقَات: مصدرُ الوقت، أو المَصِيرُ لِلْوَقْتِ، أو الوقتُ المضروب للشيء، والوعدُ الذي جُعِل له وقتٌ، وقد يقال للمكان الذي يُجعَل وقتًا للشيء، كميقات الحج[2]. والمِيْقَاتُ: ما قُدِّر لعمل، فهو أخصُّ من الوقت[3]. ومعنى المِيْقَات في الآية الكريمة: ما وقَّته له من الوقت لأداء عمل.

3) ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾: (خلف) أُصُولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُهَا أَنْ يَجِيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقُومُ مَقَامَهُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ خِلَافَةً؛ لِأَنَّ الثَّانِي يَجِيءُ بَعْدَ الْأَوَّلِ قَائِمًا مَقَامَهُ[4]. ويُقالُ لِمَنْ خَلَفَ آخرَ، فَسَدَّ مَسَدَّهُ، وقام بالأمر عنه: خَلَفَ، والخِلافةُ النِّيابَةُ عن الآخرِ، إمَّا لغيبةِ المَنُوب عنه، وإمَّا لموته؛ وإمَّا لعجزه؛ وإمَّا لتشريف المُسْتَخْلَف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلفَ اللّهُ أولياءَه في الأرض[5]. وعليه أيضًا أَخْلَفَ موسى هارونَ عليهما السلام وأنابَهُ مكانَهُ في غيبته، ووكَّل إليه ما وكَّلَ مِن مَهَامٍ[6].

المَعْنى الإِجْماليّ:

مُواعدةُ اللهِ موسَى واستخلافُ هارونَ، لمناجاتِه وعوْدَتِه بالألواحِ التّي تضمّنتْ شريعَتَه

أخبر تعالى بامتنانه على بني إسرائيلَ، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمِهِ موسى عليه السلام، وإعطائه التوراةَ، وفيها أحكامُ شرعه وتفاصيله، ويذكر تعالى أنَّه واعده ثلاثين لَيْلَةً، فصامها، فلمَّا تمَّ المِيْقَاتُ؛ استاك بلحاء شجرة، فأمره اللّه تعالى أن يكمِلَ بعشرٍ أربعين ليليةً[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقت).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وقت).
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(6) تم تناول مادّة هذه اللّفظة في الآية الكريمة رقم: (129)، وعند شرح مفردة (الاستخلاف)، وأُعيد شرحها هنا بإيجاز لاختلاف صيغة اللّفظتين.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/468.

ولمَّا أراد الذَّهاب لميقات ربِّه؛ استخلفَ عليهم أخاه الكبير هارونَ عليهما السلام للحُكم بينهم والإصلاحِ فيهم؛ إذ كانت الرِّياسةُ فيهم لموسى، وكان هارونُ وزيرَهُ ونصيرَهُ ومساعدَهُ، كما سألَ ربَّه بقَوْله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 29 - 32]، وأوصاه بالإصلاح فيهم وفيما بينهم، ونهاه عنِ اتِّباع سبيل المُفسِدين في الأرض، الذي يشمَلُ مشاركتَهم في أعمالهم، ومساعدتَهم عليها، ومعاشرتَهم والإقامةَ معهم في حال اقترافها، ولو بعد العجز[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى جواز النَّهي عن شيءٍ يعلمُ أنَّه لا يفعلُه، ويأمرُه بما يعلمُ أنَّه سيفعلُه، عظةً له، واعتبارًا لغيره، وتأكيدًا ومصلحةً للجميع[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوصْلِ دونَ الفصْل، في السِّياقِ الحكيم:

العَوْدُ إلى بقيَّةِ حوادثِ بني إسرائيلَ، بعْدَ مُجاوزَتِهم البحْرَ

الواو عاطفةٌ لمطلق الجمع، والجُمْلَةُ عطفٌ على جملة: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾[3]؛ لأنَّه عودٌ إلى بقيَّة حوادث بني إسرائيل، بعد مجاوزتهم البَحْرَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بلفظ ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾:

ما هو مِنَ اللّه ﷻ وَعْدٌ، هو من موسَى قَبولٌ واتِّباعٌ

والزِّيادة في الفعل بصيغة فاعَلَ للمبالغة في المواعدة[4]، قال الزجَّاجُ: "وواعدنا هنا جيدٌ بالغٌ؛ لأنَّ الطَّاعةَ في القَبول بمنزلةِ المواعدة، فهو من اللّه ﷻ وعدٌ ومن موسى قَبول واتِّبَاعٌ، فجرى مجرى المواعدة"[5]، وعبَّر عنه بصيغة المَاضِي للدلالة على تحقُّق وقُوعِه.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/106.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/178.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(4) قباوة، المفصّل، ص: 596.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/133.

المواعدةُ مُفاعَلةٌ، ولابدَّ من طرفَيْنِ لِحُصولِها

دلالة تَعدُّدِ وُجوهِ القراءةِ، في قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾:

قرأ الجمهور: ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ بألف بعد الواو، وقرأ أبو عمرو، ويعقوب: ﴿وَوَعَدۡنَا﴾ بحذف الألف، فأمَّا القراءةُ بغير ألفٍ فوجهُهُ ظاهرٌ؛ لأنَّ الوعدَ كان من الله تعالى، والمواعدةُ مفاعَلةٌ، ولابدَّ من اثنين. وأمَّا بالألف؛ فله وجوهٌ؛ أحدها: أنَّ الوعدَ وإن كان من الله تعالى فقَبولُه كان من موسى عليه السلام، وقَبولُ الوعد يَشبَهُ الوعدَ؛ لأنَّ القابل للوعد لابَّد وأن يقول: أفعل ذلكَ. وثانيها: لا يبعد أن يكون الآدميُّ يَعِدُ الله، ويكون معناه يعاهدُ الله. وثالثها: أنه أمرٌ جرى بين اثنين فجاز أنْ يُقالَ: واعدنا. ورابعها: - وهو الأقوى - أنَّ الله تعالى قد وعدَ موسى الوحيَ، ويكون موسى وَعَدَ الله المجيءَ للميقاتِ[1].

رجَّح بعضُهم قراءة ﴿وَوَعَدۡنَا﴾؛ لكون المواعدة لا تكونُ إلَّا من البشر، فأمَّا من الله؛ فإنَّما هو التَّفرُّد بالوعد، وأكثر ما تكون المواعدة من المخلوقين المتكافئين، كلُّ واحد منهما يَعِدُ صاحبه[2]. وإنما قالوا هكذا نظرًا إلى أصل المفاعَلة أنَّها تفيد الاشتراكَ في أصل الفعل، وتكون من كلِّ واحد من المتواعدين ونحوهما، لكنَّها قد تأتي للواحد في كلام العرب، كما في قَوْلهم: داويتُ العليلَ، وعاقبتُ اللِّصَّ[3]. فهي مفاعلةٌ على غير بابها، فضلًا عن أنَّ قبول موسى لوعد الله والتزامه، وارتقابَهُ يشبه المواعدةَ[4]، فيكون من باب الموافاة، وليس هو من الوعد والوعيد في شيء[5].

(وَعَـدَ) تُـطْـلَـقُ عن غيرِ طَلَبٍ، و(واعَـدَ) فتُطْلَقُ عن طَلَبٍ

وفي لفظ المواعدة طلبٌ من الله لموسى عليه السلام بذلك، وقد ضربَ الله تعالى لموسى عليه السلام موعدًا لمكالمته، وإعطائه الألواحَ المشتمِلة على

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/356.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/142، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/356.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/100.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/142.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/100.

أصول الشَّريعة فقَبِل ذلك، ثم صَعِد جبل سيناء في أوَّل الموعد، وهبط في آخره، وفَرْقٌ بين الاتفاق على الشَّيء بين اثنين أو أكثر كالتلاقي في مكانٍ معيَّن أو زمان معين، وبين الوعدِ به من واحد لآخر لا يطلب منه شيء لأجل الوفاء، كقولك لآخر: سأدعو اللّه لك في البيتِ الحرام مثلًا، فهذا وعدٌ مَحْضٌ، وذاك يحتمل الأمرين باعتبارين كعبارة الآية[1]. إذ يدلُّ هذا الإجراء على أنَّ اللّه ﷻ وعَدَ موسى أوَّلًا، وبعد ذلك أكَّدَ له هذا الوعد، وأعلن موسى عليه السلام طاعته لتنفيذ الحضور في المِيْقَات المحَدَّد، فكانت بينه وبين ربِّه مواعدةٌ، حدَّد فيها المِيْقَات الزمانيَّ والمِيْقَات المكانيَّ، فجاءت القراءتان للدَّلالة على الحالتين: الوعدِ من اللّه أولًا، والوعدِ التأكيديِّ المقرون بإعلان موسى طاعته أنْ يحضر.

نُكتةُ حذْفِ الموعودِ به:

حـذْفُ الموعـودِ به يَعتمِدُ على القرينةِ، في قَوْله (ثَلاثِينَ لَيْلَةً)

حُذِفَ الموعودُ به لمّا تبيَّنت القرينةُ إيجازًا، واستغناءً بالمذكور، و﴿ثَلَٰثِينَ﴾ منصوبٌ على النِّيابة عن الظرف؛ لأنَّ تمييزَه ظرفٌ للمواعَدِ به، وهو الحضور لتلقِّي الشريعة، ودلَّ عليه ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾؛ لأنَّ المواعدةَ للقاءِ، فالعاملُ ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾ باعتبار المقدَّر، أي: حضورًا مُدَّةَ ثلاثين لَيْلَة[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ الإتمامِ مع التّفْريقِ:

حكمةُ العَددِ الاستئناسُ، أو لِتكونَ تلك العَشْرُ عِبادةً أخرَى فيتكرَّرُ الثَّوابُ

ورد التَّعْبِيْرُ بلفظ الإتمام المزيد بالهمزة متعدِّيًا بالباء في هذا الموطنِ فقط من القرآن، والباءُ فيه لبيان نوع الإتمام، وأنَّه من جنس ما سبقه، فدلَّ التَّعْبِيْرُ على الإتمام، ووسيلته[3]. ولا يصحُّ أنْ تكون هنا للاستعانةِ تأدُّبًا، وسُمِّيتْ زيادة الليالي العَشْر (إتمامًا) إشارةً إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/356، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/85.
(3) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/476.

أنَّ اللّه تعالى أراد أنْ تكونَ مناجاةُ موسى أربعين لَيْلَةً، ولكنَّه لما أمره بها أمره بها مفرَّقةً، إما لحكمة الاستئناس، وإما لتكونَ تلك العَشْرُ عبادةً أخرى، فيتكرَّر الثَّوابُ[1]، أو ليستعدَّ موسى عليه السلام ويتهيَّأ لوعد اللّه، ويكون لنزول التّوراة موقعٌ كبير لديهم، وتشوُّقٌ إلى إنزالها[2].

وهو من التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ، لرفع احتمال أن تكونَ تلك العَشْرةُ من غير مواعَدةٍ، وفائدةُ الوعد بثلاثين أولًا، ثم بعَشْر ليتجدَّد له قربُ انقضاء المواعدة، ويكون فيه متأهِّبًا مُجتمِعَ الرّأي حاضر الذّهن؛ لأنَّه لو وعد بالأربعين أوَّلًا كانت متساويةً، فلمَّا فُصِلت؛ استشعرت النَّفس قربَ التَّمَام، وتجدَّد بذلك عزمٌ لم يتقدَّم[3].

التَّعْبِيرُ بقولِه: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا﴾، استيفاءٌ لما نقصَ منَ الأربعين:

عَلاقةُ اسْتيفاءِ اللّيالي العشْرِ، لمعنى التّمامِ في مُدّةِ المناجاةِ

التَّمَامُ يَسْتَدْعِي سَبْقَ نَقْصٍ بِخِلاف الكَمال، ولذلك عُبِّر به عن: الإتيانِ بِمَا نَقَص من النّاقِص[4]. وتمامُ الشَّيء انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه[5]، ولذلك كان التَّعْبِيرَ ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا﴾ في هذا الموضع، وتكرارُه بـ﴿فَتَمَّ﴾ مناسبًا بدقَّة لنقص اللّيالي العشر ابتداءً، واستيفائها من ثَـمَّ.

عِلَّةُ تخصيصِ الثّلاثينَ والعشْرِ بالانفصال:

الـثَّلاثـون عَـددُ شَهرٍ، ففُصِلتْ لمكانِ الشَّهرِ من قياسِ الزّمنِ

ذكَرَ الثّلاثين وأتمَّها بالعشر، والأربعون قد تكْمُلُ بعشرين وعشرين، أو خمسةٍ وعشرين وخمسةَ عشرَ؛ لأنَّ الثَّلاثين كانت عددَ شهر، فذُكِرتِ الثلاثون منفصِلةً لمكان الشَّهر، وأنَّها ذو القعدة وأتممناها بعشرٍ من ذي الحجَّة، ولهذه القِصَّةِ خُصَّت العشرُ والثَّلاثون بالانفصال[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/86.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 302.
(3) السّيوطي، الإتقان: 3/243.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (تمم).
(5) الرّاغب، المفردات: (تمم).
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 1/36.

ونقل الرازيُّ عن الحسن البصري: بأنَّه ليس المراد أنَّ وعْدَه كان ثلاثين لَيۡلَةً، ثم بعد ذلك وعدَهُ بعَشْرٍ، لكنَّه وعدَهُ أربعين لَيۡلَةً جميعًا، وهو كقَوْله: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196](1).

دَلالةُ قراءةِ (وتمّمْناها):

الـدَّلالـةُ على الـدَّوامِ في فعْلِ التّمامِ

وفي مصحف أُبيٍّ رضي الله عنه (وَتمَّمنَهَا) مشدَّدًا(2). عَدَّاه بالتَّضعيف(3). وأصلُه تمَّ مشدَّدًا من غير ألف(4). والفعلُ المجرَّدُ (تمَّ) المضعَّف المتعدِّي بالباء فيه دلالةُ الدّوام وسببُهُ(5).

سِرُّ التَّكرارِ بجُملةِ إتمامِ الأربعينَ:

التَّكرارُ تأكيدٌ، وإيضاحٌ، وفذلكةٌ، وكلُّها مفيدٌ في البيانِ

الفاءُ في﴿فَتَمَّ﴾ للتفريع، ثم كرَّر الأمر بقَوْله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾، بعد قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا﴾؛ ليبيِّنَ أن (العَشْر) لم تكن ساعاتٍ؛ فالفائدة: إزالةُ توهُّم معنى: أتممناها بعَشْر ساعات(6)، وكرَّر الجُمْلَة تأكيدًا وإيضاحًا(7)؛ لكونها إجمالًا بعد تفصيلٍ لدفع التوهُّم، وهي أيضًا فذلكةُ الحساب، كما في قَوْله: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]. والغايةُ من مجموعها: إزالةُ وهمِ من يتوهَّمُ أنَّ المِيْقَات كان عَشْرين، ثم أتمَّه بعَشْرٍ، فصار ثلاثين(8)، فأزال هذا الإيهامَ بقَوْله: ﴿أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾(9)،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/70.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/446.
(4) الخطيب، معجم القراءات: 3/149.
(5) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/474، 476.
(6) ذكر السَّمين الحلبيّ أنّ الجملة في هذه الحالة تكون للتّأسيس على احتمالِ أنْ يتوهَّمَ متوهِّم بعَشْر ساعات أو غير ذلك. واعتَرضَ على ذلك قائلا: "وهو بعيدٌ جداً". يُنظر: السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/448.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/256، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/450، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86.
(9) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/185، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/314، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86 - 87.

مبيِّنًا أنَّ العَشْر ليست من الثَّلاثين[1]، فنفى تمام الثَّلاثين بالعَشْر أن يكونَ من جملة الثَّلاثين؛ لأنَّ تمام الشَّيءِ بعضٌ منه[2].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالفَذْلَكَةِ، وأثرُها في السِّياقِ:

الفَذْلَكَةُ إعلامٌ بالعدَدِ مُفصَّلًا، ثمّ الإعلامُ به جُملةً

العربُ تكرِّرُ الشَّيء تريد به التَّوكيد، وفائدةُ ذلك الفَذْلَكَةُ في علم الحساب، وهو أن يُعلم العددُ مفصَّلًا، ثمَّ يُعلمه جملةً؛ ليحتاط به من جهتين، وذلك أنَّ العرب لما كانوا لا يعلمون الحساب، وكانوا يحتاجون إلى زيادة بيانٍ وإيضاح؛ فلذلك قال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196]، وقيل: لفظُه خبرٌ، ومعناه أمرٌ، أي: أكملوها، ولا تنقصوها ذلك[3].

وفذلكةُ الحساب، أي: جامعتُه، فالحاسبُ إذا ذَكَرَ عددَين فصَاعِدًا؛ قالَ عند إرادة جمْع الأعداد: فذَلَك، أي: المعدود كذا، فصِيْغَتْ لهذا القولِ صيغةُ نَحْتٍ مثلَ: بسْمَل؛ إذا قال: باسم اللّه، وحوقَلَ؛ إذا قال: لا حولَ ولا قوَّة إلَّا باللّه، فحروفُ فذلكةٌ: متجمِّعةٌ من حروفٍ. لذا غلب إطلاقُ اسم الفَذْلَكَة على خُلاصة جمعِ الأعداد، وإنْ كان اللَّفظُ المحكيُّ جرى بغير كلمة (ذلك)، كما نقول في قَوْله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ إذ استُبْدلَ به لفظُ (تلك)[4].

دلالةُ الفَذْلَكَةِ في الآيةِ:

توزيعُ العَددِ في إبْلاغِه مُنجَّمًا إلى موسَى عليه السلام، بغرَضِ التّيسير والإيناسِ

وفي وجهِ الحاجةِ إلى الفَذْلَكَة في الآية، فضلًا عن دفع الإيهام، التّوكيدُ المفيدُ تقريرَ الحكم في الذّهن، كما تقول: كتبتُ بيدي، وفي قَوْله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، دلَّ على أنّه أراد من موسى عليه السلام، مناجاة أربعين لَيْلَة، ولكنّه أبلغها إليه موزَّعة تيسيرًا[5].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/275.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/256.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 1/12712 - 8.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/228.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/228.

دَلالةُ الإطنابِ بالإيضاحِ بعْدَ الإبهامِ:

مَلْمَحُ الإطنابِ في رُؤيةِ المعنَى في صُورتَيْن مختلفتَيْن، أو تَمكُّنِه في النَّفْسِ تَمكُّنًا زائدًا

وجهُ كونِ الجُملَة إيضاحًا بعد إبهام أنَّها فَصَّلتْ، ثم أجْمَلتْ، قال أهل البيان: إذا أردت أن تُبهِمَ، ثم توضِّح، فإنَّك تُطنِبُ، وفائدته إمَّا رؤية المعنى في صورتين مختلفتين: الإبهام، والإيضاح، أو لتمكُّن المعنى في النَّفس تمكُّنًا زائدًا لوقوعه بعد الطلب، فإنه أعزُّ من المنساق بلا تعبٍ، أو لتكمل لذَّة العلم به، فإنَّ الشَّيء إذا عُلم من وجهٍ ما؛ تشوَّقت النَّفس للعلم به من باقي وجوهه، وتألَّمت، فإذا حصل العلمُ من بقية الوجوه؛ كانت لذَّتُه أشَدَّ من علمه من جميع وجوهه دفعةً واحدة[1].

فائِدةُ الإجْمالِ بعْدَ التَّفصيلِ:

إفادةُ أنّ جميعَ العدَدِ المنصوص عليه، مُرادٌ كلُّه للمُواعدةِ، لا أجزاؤُه فقط

بإعادة لفظ أربعين مع كونه معلومًا من الثَّلاثين والعَشْر، أنَّها أربعون، لنفي اللَّبس؛ لأنَّ العَشْر لما أتتْ بَعْدَ الثَّلاثين التّي هي نصٌّ في المواعدة؛ دخلها الاحتمالُ أنْ تكونَ من غير المواعدة، فأعادَ ذكر الأربعين نفيًا لهذا الاحتمال، وليُعلِم أنَّ جميعَ العدد للمواعدة[2].

سِرُّ التّدقيقِ في ضَبْطِ العدَدِ في الآيةِ:

مُـدَّةُ الثَّلاثينَ ليلةً، بدون زيادةِ العَشْرِ، لا تبلغُ الكمالَ المتُوخَّى

إنَّ معنى قَوْله: ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ بلَغ، وثَبَت، ووقَع، واستقرَّ؛ فهو إشارةٌ إلى أنَّ موسى فعلَه، ووفَّى به؛ لأنَّ الكلامَ كان محتمِلًا هل وفَّى بالعهد أم لَا؟[3] فالتَّمَام هنا مستعملٌ في معنى النَّماء، والتفوُّق، فكان ميقاتًا أكملَ وأفضلَ، كقَوْله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: 154] إلى قَوْله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: 3]، إشارةٌ إلى أنَّ زيادة العَشْر كانتْ لحكمةٍ عظيمةٍ، تكون مُدَّةُ الثَّلاثين بدونها غيرَ بالغةٍ أقصى الكمال، وأنَّ الله قدَّر المناجاةَ أربعين لَيْلَة، ولكنَّه أبرز

(1) السّيوطي، الإتقان: 3/242.

(2) الزّركشّي، البرهان في علوم القرآن: 2/478.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة النّسخة الكاملة: 2/248.

الأمر لموسى مفرَّقًا؛ تيسيرًا عليه، ليكون إقبالُه على إتمام الأربعين باشتياق وقوَّةٍ[1].

بلاغة تضمينٌ (تمّ) معنى (بلغَ):

إذ ضُمِّنَ (تمَّ) معنى: (بلغ)، والمعنى: بلغ ميقاتُ ربِّه تامًّا، وهو أبلغُ في الدِّلالة من تضمين معنى فعل واحد، فكلُّ ما بَلَغَ بأمْرِ اللّه التّمامَ، استوَى لِينتفِعَ به الأنامُ.

سِرُّ حذْفِ تمييزِ لفْظِ ﴿بِعَشۡرٖ﴾ في السِّياقِ:

الإيجازُ يكونُ في السِّياقِ، لِدلالةِ الكلامِ عليه، ولانْتِفاءِ اللَّبْسِ به

حُذِفَتِ الهاء من ﴿بِعَشۡرٖ﴾؛ لأنَّ المعدودَ مؤنَّثٌ[2]، وحُذِف تمييزُها لدَلالة الكلام عليه، أي: وأَتْمَمْناها بعَشْر ليالٍ[3]، فعدل عن تَكرار المعدود ﴿لَيۡلَةٗ﴾ إيجازًا؛ لوضوحِه، وانتفاء اللَّبس في تحديده، والتَّكرارُ في غير موضعه يورث السَّآمةَ والملل.

نُكْتَةُ العُدولِ منَ الإجمالِ إلى التَّفْصيلِ:

الأربعونَ، والثَّلاثونَ والعَشْرةُ قولٌ واحدٌ، ليس بمُختلِفٍ على تفصيلٍ وتأْليفٍ

أجمل تعالى ذكرَ الأربعين في سورة البقرة، وفصَّلها هاهنا[4]. فالأربعون، والثلاثون والعَشْرة قولٌ واحد ليس بمختلفٍ، وإنَّما قال القولين على تفصيلٍ، وتأليفٍ، قال: أربعين في قولٍ مؤلَّفٍ، وقال: ثلاثين مفصَّلًا، يعني: شهرًا متتابِعًا وعَشْرًا، وكلُّ ذلك أربعون، وهذا جائزٌ في كلام العرب[5]؛ إذ هناك أسلوبان في مسألة الأعدادِ، الأوَّلُ: إجماليٌّ، والثاني: تفصيليٌّ، فإنِ اتَّفقَ التَّفصيلُ مع الإجمالِ، فلا توجد شبهةٌ، أو إشكالٌ[6]، وسورة الأعراف مكيَّة، والبقرة مدنية، فهي متأخِّرَة عنها في النُّزول[7]. والحكمةُ فيه أنَّ موسى عليه السلام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/87.
(2) القرطبيّ، الجَّامع لأحكام القرآن: 7/275.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/446.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/275.
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4334 - 4335.
(7) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.

ما إنْ ذهب لميقات ربِّه، حتىّ عبد قومُه العِجل في مُدَّة الثَّلاثين لَيْلَةً. ولم يشأِ اللّهُ أنْ يتركَ موسى عليه السلام ليعود لقومه بعد الثَّلاثين لَيْلَةً، بل أتمَّها بعَشْر أُخَرَ، حتّى لا يعودَ موسى، ويرى ما فعلَهُ قومُه، فكأنَّ العَشْرَ زادتْ على الثَّلاثين لَيْلَةً، ليعطيك الصَّورة الأخيرة الموجودةَ في سورة البقرة، فالمسألةُ في منتهى الدّقَّة[1]. أو أنَّ قومه تأخَّروا عنه في الأجل الأوَّل، فزاده اللّه لتأخُّرِهِم عنه أجلًا ثانيًا ليحضروا، أو: لأنَّ قومَه عبدوا العِجّل بعده، فزاده اللّه أجلًا ثانيًا؛ عقوبة لهم، أو: أنَّ اللّه فعل ذلك به اختبارًا لقومِه؛ ليتميَّز به المؤمنُ مِنَ المنافِق، ويُعرف به المُتَيقِّنُ من المُرتاب[2].

فائِدةُ التَّعْبِير بالمِيْقَاتِ دونَ الوقتِ:

و﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ ما وقَّته له من الوَقْتِ وضربه له[3]. والفَرْقُ بين (المِيْقَات، والوَقْتِ) وإن كانا من جنس واحدٍ أنَّ المِيْقَاتَ ما قُدِّر لعمل، والوَقْتُ قد لا يتقدَّرُ لعملٍ[4]. فالمِيْقَاتُ: هو الوَقْتُ الذي قُدِّرَ أن يُعْمَلَ فيه عملٌ من الأعمالِ، ولهذا قيل: مواقيتُ الحجِّ[5].

ذِكرُ الوقتِ الّذي قُـدِّرَ أنْ يُـعْـمـلَ فيه عَـمـلٌ مِـنَ الأعمالِ

والوَقْتُ: وقتٌ للشّيءِ من غير تقديرِ عمل أو تقريره[6]. وكلُّ عملٍ وحدث يتطلَّب أمرين يُظْرَف فيهما، أي: يكونان ظرفًا له؛ فلا بدَّ له من مكانٍ يحدث فيه، ومن زمانٍ يحدث فيه كذلك، واسمُهما ظرفُ الزمان، وظرف المكان، إلا أنَّ ظرفَ الزَّمان غيرُ قارٍّ، أي: غيرُ ثابتٍ، فقد يأتي الصُّبحُ، ويذهب ويأتي بعده، الظُّهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، لكنَّ ظرف المكان قارٌّ وثابتٌ[7]. فالمِيْقَات أخصُّ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 18/110961 - 1097.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/256.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/257.
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/244.
(6) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/446 - 447.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4338.

من الوَقْتِ[1]؛ لأنَّه يتضمَّن الزمانَ مُقدَّرًا بعمل، أو مقرِّرًا له، متضمِّنًا المكانَ.

نُكتةُ العُدولِ إلى التَّصْريح بلفظِ ﴿رَبِّهِۦٓ﴾، وإضافةِ موسَى ﷺ إليه:

في إظْهارِ هذا الاسْمِ الشَّريفِ، اعترافٌ برُبوبيَّةِ اللهِ له وإصْلاحِهِ له

جاء بلفظ ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ في إتمام الميقات، ولم يُجْره على لفظ ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾، كأن يكون التَّرْكِيبُ: (فتمَّ ميقاتنا)؛ لأنَّ لفظ ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ دالٌّ على أنَّه مُصْلِحُهُ وناظرٌ في أمره، ومالكُه، والمتصرِّف فيه[2]، ففي إظهار هذا الاسم الشريف اعترافٌ بربوبيَّة اللّه له وإصلاحه له[3].وبسبب حُمْقِ بعض قومه حين تأخَّر مغيبُ موسى ﷺ عنهم، في مناجاة اللّهِ بعد الثَّلاثين، فزعموا أنَّ موسى هلك في الجبل[4].

سِرُّ التَّعْبِيرِ باللّيالِي دونَ الأيَّامِ:

اللّيالِي غُررُ الشُّهورِ، وتشمَلُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وهي مَنوطةٌ بالأهلَّةِ

خصَّ الليالي بالذِّكر؛ لأنَّ العَامَ بها، والأيَّام تابعةٌ لها، والمرادُ أربعين لَيْلَةً بأيامها[5]؛ ولأنَّها غررُ الشُّهورِ[6]. والمراد بها ما يشمَلُ اللَّيل والنَّهار في عرفِ العرب عند الإطلاق[7]. فالغالب في الكلام العربي التوقيت بالليالي، ويريدون أنَّها بأيامها؛ لأنَّ الأشهرَ العربية تبتدئ بالليالي؛ إذ هي منوطةٌ بظهور الأهلَّة[8]، فشهور العرب وُضِعَت على سير القمر، والهلالُ إنَّما يهلُّ باللَّيل[9].

وهذا سرُّ التَّعْبِيْر الدَّائم بالليالي لعدم القدرة على تحديدِ الزَّمن بدقَّةٍ بالنَّهار، فالشَّمس تشرق وتغربُ، ثم تعود لتشرقَ، فإذا نظرت إلى قرص الشمس، لا يمكن أن تحدِّدَ في أيِّ وقت من الشَّهر

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/448.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/87.
(5) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/84.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/269، والآلوسي، روح المعاني: 9/43.
(7) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86.
(9) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/81 - 82.

نحن؟ هل في أوَّله أو في وسطه أو في آخرِه، ويتحقَّق ذلك بمجيء اللَّيل مِن خلال النظر إلى القمر، فإذا كان القمر هلالًا، فنحن في أوائل الشَّهر، وإذا كان بدرًا فنحن في وسطه وهكذا[1]. وقيل: لأنَّ الظُّلمةَ أقدمُ من الضَّوء، وخلقَ الليل قبل النَّهار قال اللّه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37][2].وخَصَّ اللّيالي بالذِّكرِ في الآية الكريمة؛ لكون اللَّيْلَةِ أقدمَ من اليوم، وقبلَه في الرُّتبة، ولذلك وقع بها التّاريخُ، وفي ذلك إشارةٌ إلى صلة الصّوم؛ لأنَّه لو ذكر الأيّام؛ لأَمْكَن أن يعتقد أنّه كان يفطر باللّيل، فلمَّا نصَّ على اللّيالي، اقتضت قوَّةُ الكلام أنَّه ﷺ، واصل أربعين لَيْلَة بأيامها[3].

سِرُّ مُواعدةِ اللهِ تعالى لموسَى ﷺ، فُرصةً للاصطفاءِ والقُرْبِ والكلامِ:

النَّفْسُ في اللّيلِ أكثرُ تجرُّدًا للكمالاتِ النّفسانيّةِ

مواعدةُ اللّهِ موسى كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقِّي المناجاة، والنَّفْسُ في الليل أكثر تجرُّدًا للكمالات النفسانية، منها في النَّهار؛ إذ قد اعتادتِ النُّفوس بحسب أصل التَّكوين الاستيناس بنورِ الشمس والنشاطِ به للشُّغل، فلا يفارقها في النَّهار الاشتغالُ بالدُّنيا، ولو بالتفكُّر وبمشاهدة الموجودات، وذلك ينحطُّ في الليل والظُّلمة، وتنعكس تفكُّرات النَّفس إلى داخلها، ولذلك لم تزل الشَّريعةُ تحرِّضُ على قيام الليل، وعلى الابتهالِ فيه إلى اللّه تعالى، على أنَّ الغالبَ في الكلام العربي التَّوقيت بالليالي، ويريدون أنَّها بأيَّامها؛ لأنَّ الأشهرَ العربية تبتدئ بالليالي؛ إذ هي منوطةٌ بظهور الأهلَّة[4].

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عنِ الإصلاحِ بالأمرِ ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾، مع إضْمارِ مفعوله:

المرادُ بالإصلاحِ، إصلاحُ أمُورِ الدّينِ لا أمورِ الدّنيا

﴿وَأَصۡلِحۡ﴾: أمرٌ بالإصلاح، ومفعوله مقدَّر بـ (أصلحْ ما يجب أن يصلُحَ من أمورِ بني إسرائيل)[5]، أي: ارفق بهم، وأصلحْ أمرهم،

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 1/332.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/81 - 82.
(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 1/237.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/151.

وأصلحْ نفسك، أي: كُنْ مُصلِحًا[1]. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ إصلاحُ أمور دينهم لا دنياهم، أو هو منزَّلٌ منزلةَ اللازم من غير تقدير مفعول، وهو يفيد التَّعميمَ، أو معناه: ليكن منك إصلاحٌ، وليس المراد به أيَّ إصلاحٍ كان، بل إصلاح تامٌّ عامٌّ؛ لأنَّه نكرةٌ في سياق النّفي، وقيل: إنَّه لا يناسِب المقامَ[2].

بيانُ نهْيه بلفْظِ النَّهْيِ الصّريحِ، عنِ اتِّباعِ سبيلِ المُفسدِينَ

نُكتةُ التَّعبِير بعدَمِ الاتِّباعِ، بالفعْلِ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ تأكيدًا للمطلوبِ:

﴿وَلَا﴾ طلبيَّةٌ جازمةٌ أفادتِ النَّهيَ، والإرشادَ، وخلَّصت ﴿وَلَا﴾ دلالةَ الفعل إلى الاستقبال، ومجيءُ الفعل على صيغة المُضَارِع المشدَّد للمبالغة في النَّهي، ومعنى قَوْله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ لا تُطِعْ، وتَتَّبِعْ من دعاك منهم إلى الإفساد[3]، ولا تسلكْ سبيلَ العاصين، ولا تكنْ عونًا للظَّالمين[4]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه جعل الإفساد كالطريق المسلوك لهم، كما يقال: هذه طريقةُ فلان، والتقدير: لا تُطِعْ مَن دعاك إليه، كالتَّفسير له، أو لبيان أنَّ موسى نهى أخاه هارون عن اتِّباع المفسدين بدعوةٍ وبدونها[5]. والمقصودُ من هذا الأمر التَّأكيدُ؛ لأنَّ هارونَ - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - لم يكن ممَّن يتَّبع سبيلَ المُفسِدين، فهو كقَوْله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: 260]، وكقولك للقاعد: اقعد، بمعنى: دُمْ على ما أنت عليهِ مِنَ القعودِ[6].

بيانُ التّحْذيرِ مِنَ الفسادِ، بأبْلَغِ صِيغةٍ، وأبيَنَ إرشادٍ

دَلالةُ النَّهيِ، في قَوْله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

وكان جامعًا للنَّهي عن ثلاثِ مراتبَ من مراتب الإفضاءِ إلى الفساد، وهي: العملُ المعروف بالانتساب إلى المُفسِد، وعملُ المُفسِد

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/277.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/212.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/151.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/277.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/212.
(6) الخازن، لباب التّأويل: 2/244.

وإن لم يكن ممَّا اعتادَه، وتجنُّبُ الاقتراب من المُفْسِد ومخالطته[1].

وهي بذلك تتعدَّى مجرَّدَ التأكيد لمضمون جملة ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾؛ تأكيدًا للشَّيء بنفي ضدِّه، مثل قَوْله: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ [النحل: 21]؛ لأنَّها لو كان ذلك هو المقصد منها لجُرِّدت من حرف العطف، واقتصرَ على النَّهي عن الإفساد، فقيل: وأصلحْ لا تفسد[2]. فالأمر لهارون عليه السلام بعدم الاتِّباع، جامعٌ لما يتعيَّن عليه عمله من أعمالهِ في سياسة الأمَّة، وقَوْله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ تحذيرٌ مِنَ الفساد بأبلغ صيغة؛ لأنَّها جامعةٌ بين نهْيٍ - والنَّهيُ عن فعل تنصرفُ صيغتُه أوَّل وهلةٍ إلى فساد المنهيِّ عنه - وبين تعليقِ النَّهي باتِّباع سبيل المُفْسِدين[3].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بـ(الاتِّباعِ)، على طريقِ الاسْتِعارةِ:

الطَّريقُ مُستعارٌ للعمَلِ المؤدِّي إلى الفسَادِ

الاتِّباعُ هنا مُستعارٌ للمشاركة في عمل المُفْسِد، فإنَّ الطّريقَ مُستعارٌ للعمل المؤدِّي إلى الفساد، والمُفْسِدُ من كان الفساد صفتَهُ، فلمَّا تعلَّق النَّهيُ بسلوك طريق المُفْسِدين؛ كان تحذيرًا من كلِّ ما يستروح منه مآلٌ إلى فساد؛ لأنَّ المُفْسِدين قد يعملون عملًا لا فساد فيه، فنهى عن المشاركة في عمل من عُرِفَ بالفساد؛ لأنَّ صدورَهُ عن المعروف بالفساد، كافٍ في توقُّع إفضائه إلى فساد، ففي هذا النَّهي سدُّ ذريعة الفساد، وسدُّ ذرائع الفساد من أصول الإسلام[4].

دَلالةُ الجمْعِ بين الأمرِ والنَّهْيِ:

كُلُّ تَكاليفِ الشّرعِ محصورةٌ في (افْعَلْ)، و(لا تَفْعَلْ)

وفي الآية أمرٌ ونهيٌ: فـ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ أمْرٌ، و﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ نهْيٌ، ونعرف أن كلَّ تكاليفِ الحَقِّ سبحانه وتعالى محصورةٌ في "افعل كذا"، و"لا تفعل كذا"، ولا يقول الحقُّ للمكلَّفين: (افعلوا كذا) إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل، وإن قال لهم: "لا تفعلوا"، فلا بدَّ أن يكونوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/88.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/89.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/88.

(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/212، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/88.

صالحين للفعل، ولعدم الفعل[1]. وأَمْرُهُ إيَّاه بالصَّلاح ونَهْيُهُ عن اتِّباع سبيل المُفْسِدين، هو على سبيل التَّأْكيد، لا لتوهُّم أنَّه يقع منه خلافُ الإصلاح واتباعُ تلك السَّبيل؛ لأنَّ منصِبَ النبوَّةِ منزَّهٌ عن ذلك[2].

دَلالةُ التَّصْريحِ باسْمِ هارونَ ﷺ، والتّمهيدِ له بلفْظِ أخيه:

صرَّحَ تَشريفًا، وتَحنُّنًا، وتذكيرًا بصِلةِ الأخوَّةِ قبلَ صِلةِ الرِّسالةِ

والتَّصْريْحُ بالاسم في مواطن الإنعام تشريفٌ، وإعلاء مكانة، وتعبيرُ الباري عن حيثيَّةِ الأخوّة مقدَّمة على وصايا الاستخلاف بقَوْله: ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ تعطُّفٌ، وتحنُّن، أي: أنّني لي بك صلةُ قرابةٍ ورحِم، قبل أن تكون شريكًا لي في الرِّسالة، فأنا أخٌ لك، وأنت أخٌ لي، ومن حقِّي عليك أن تسمعَ كلامي وتَخْلُفَني، فأخوَّةُ النَّسب مقرونةٌ بأنَّك شريكٌ معي في الرِّسالة[3]. وفي التَّعْبِيْر بلطفِ العبارة، وإشاراتِ القرب دافعًا في تحقيق المهام على التَّمَام، وهارون عطفُ بيانٍ لأخيه، وقُرِئ بالضَّم على النِّداء[4]. وفي تقدير النِّداء معنى: قرب المنادَى.

سِرُّ إضافةِ الاسْتِخلافِ عن طريقِ الياءِ ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾:

دفْعُ توهُّمِ الاسْتِخلافِ المطلَقِ لهارونَ ﷺ

أي: كن خليفتي فيهم[5]. ونسبَ موسى استخلافَ أخيه هارون ﷺ إليه بإضافته إلى ياءِ المتكلِّم: ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾، ولم يقل: (كن خليفةً في قومي)؛ لدفع توهُّم استخلافِه المطلق؛ إذ لا يصحُّ خليفتان في وقتٍ واحد، وإنَّما هو استخلافٌ لغاية محدَّدة.

نُكتةُ تأكيدِ موسَى ﷺ، نِسبةَ قومِهِ إليه: ﴿قَوۡمِي﴾:

بيانُ التَّصريحِ بقُربِهم منه، ومكانتِهم لدَيْه

أكَّد موسى ﷺ نسبةَ قومه إليه عن طريق ياء المتكلِّم: ﴿قَوۡمِي﴾ مصرِّحًا بقربهم منه، ومكانتهم لديه، وأنَّه لا يريد بهم إلا الخيرَ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4337.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4337.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/151. وهي قراءة شاذة لم تُنسب إلى من قرأ بها، ولعلّ الزّمخشريَّ أولُ من ذكرها، وتبعه عليها الرّازيّ في تفسيره، والنّيسابوريّ في التّفسير.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/151.

الذي يريدُه لنفسه، فإذا جاءكم بأمرٍ؛ فاعلموا أنَّه لصالحكم، وإذا نهاكم نهيًا؛ فاعلموا أنَّ موسى هو أوَّل من يطبِّقه على نفسه[1].

عِلَّةُ اسْتِخلافِ هارونَ عليه السلام، وعدَمِ اصْطحابِه:

المـحـبَّـةُ تُـوجِـبُ التّجرُّدَ والانفرادَ

حين ذهب موسى عليه السلام إلى فرعون سأل اللّه تعالى أن يصحب أخاه معه ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 29 - 32]، ولما ذهب لسماع كلام اللّه كان بمفرده؛ لأنَّ الذهابَ إلى الخلق يوجب الوحشةَ، فطلب إلى أخيه صحبته ليخفِّف عنه كُلْفةَ المشقَّةِ، ويقال: إنَّ المحبةَ توجبُ التجرُّدَ والانفراد وألَّا يكون للآخرين مع المحبِّ مساغٌ، ففي ذَهابه إلى فرعون استصحبَ أخاه، ولما كان الذهابُ إلى المِيْقَات، لم يكن للآخرين سبيلٌ إلى صحبته، إذ كان المقصودُ من ذهابه أن يكونَ مخصوصًا بحاله[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عنِ الاسْتِخلافِ بِحُسْنِ النَّسَقِ:

تضَمُّنٌ لمرْسُومِ تعيينٍ من ثلاثِ مـوادَّ مُتلاحِمةٍ متفاصِلَةٍ

وهو من العناصر الجماليَّة المعنويَّة التي تتعلَّق بتتابُعِ المفردات والجمل في الكلام الواحد. فمن البديع في الجمل المتتاليةِ الَّتي جاء بعضُها معطوفًا على بعضٍ أن تكون فيما بينها متلاحمةً تلاحمًا سليمًا مستحسنًا، وأن تكون كلُّ واحدة منها قابلةً لأن تستقلَّ بنفسها لو أُفْرِدَتْ[3]. وفي قَوْله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾. جُمَلٌ ثَلَاثٌ قالها موسى لأخيه هارون، تتضَمَّنُ مَرْسومَ تعيين من ثلاث موادَّ متلاحمةٍ متفاصلةٍ:

المادَّة الأُولى: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾.

المادَّة الثَّانية: ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾، (أي: في إدارتك وخلافَتِكَ لي).

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4337.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/454.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات، ص: 813.

المادَّة الثَّالثة: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، (أي: مَهْما كانت كثرتهم، فاحْزِمْ أمْرَك، ولا تتَّبِعْهُمْ مداريًا لهم). وفي ذلك تنبيهٌ وتذكيرٌ، وإلّا فهارون ﵇ نبيٌّ شريفٌ كريمٌ على اللّه، له وجَاهَةٌ وجلالةٌ، صلوات اللّه وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء[1]. ولا شكَّ في أنَّه لا يخفى عليه ذلك.وقد جمعَ موسى في وصيَّته له مِلاكَ السَّياسة بقَوْله: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ فإنَّ سياسة الأمَّةِ تدور حول محور الإصلاح، وهو جعْلُ الشَّيء صالحًا، فجميع تصرُّفات الأمَّة وأحوالها يجب أن تكونَ صالحةً، وذلك بأن تكون الأعمالُ عائدةً بالخير، والصَّلاح لفاعلها ولغيره[2].

دَلالةُ تعريفِ النَّكرةِ بالإضافةِ، والتَّعْبِيرِ باسْمِ الفاعلِ مَجموعًا:

ثباتُ الصِّفةِ أدْعَى للحذَرِ مِنَ المُفسدِين وسبيلِهم

﴿سَبِيلَ﴾ نكرةٌ، عرَّفها بالمعرَّف بأل الجنسيَّة للاستغراق العرفيِّ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والتَّعْرِيْف به أبْلَغ من التَّعْرِيْفِ بغيره، وجاء به على هيئة اسم الفاعل؛ للدلالة على ثبات الصِّفة فيهم وديمومتها، وهو أدعى للحذر منهم، وتجنُّب اتِّباعهم.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/468.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/87.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبْـطُ بين المواعَدةِ وإتمامِ الميـقـات، وبين نفَحاتِ الوحْيِ والمُناجاةِ في طُورِ سَيناءَ

ولما ذكر سبحانه مواعدةَ موسى واحتياطَه عليه السلام في إصلاح قومه، شرحَ أمْرَهَ حال المواعدة وحالهم بعد غيبتهِ، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾[2]: (كلم) أصلان: أحدهما: يدلُّ على نطق مُفهِم، وهو: الكلام[3] المُدرَك بحاسَّةِ السَّمْعِ، فالكلام يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة[4]. وتكلَّم: تحدَّث[5]. والكلام: القولُ، وكلَّمته: أَوصلتَ إليه ما في نفسي بالصَّوت[6]. وبذا يكون معنى اللَّفظة بَيِّنًا في تكليم اللّهِ موسى، مع لِحَاظِ صدوره بكيفيَّةٍ يشاؤها اللّه تعالى، ويعلمها وحده؛ إذ كلامُ اللّهِ صِفةٌ ذاتيَّةٌ باعتبارِ أصلِ التكلُّم، وفِعليَّةٌ باعتبارِ آحاده، مثل هذه الواقعة.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(2) تم تناول مادة هذه اللّفظة في الآية الكريمة [137] مفردة (كَلِمَة)، وأُعيد شرحها هنا بإيجاز لاختلاف صيغة اللفظين.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(5) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (كلم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كلم).

2) ﴿أَرِنِيٓ﴾: (رأي) أَصْلٌ يَدُلُّ على نظر وإبصار بِعَيْنٍ أو بَصِيرَةٍ[1]. ورأيتُه رَأي العَيْن، أَي: حَيث يَقع البَصَرُ عَلَيْهِ[2]. وتراءى لي الشَّيء، أي: ظَهَرَ حتَّى رأيتُه[3]. والرُّؤْيَة: إِدْراكُ المَرْئي، وذلكَ أَضْرُبٌ بحَسَبِ قُوَى النَّفْس: أوَّلها: (النَّظَرُ بالعَيْنِ) الَّتِي هِيَ الحاسَّة وَمَا يَجْرِي مجْراها، والثاني: بالوهم والتخيُّل، والثالث: بالتفكر، والرابع: بالعقل[4]. وبالرُّؤْيَة البصرية جاء جمهور ما في القرآن من التَّرْكِيْب[5]. وعليه فالرُّؤْيَة المرادة في الآية الكريمة من إبصار العين، وإدراك المرئيّ.

3) ﴿ٱسْتَقَرَّ﴾: (قرر) أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى بَرْدٍ، أي: قَرٍّ، وَالْآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ[6]. وقرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وأصلهُ من القُرِّ، وهو البَرْد، لكونه يقتضي السُّكونَ، والحَرُّ يقتضي الحركة[7]. ومن الأصل الآخر وهو: التَّمَكُّنُ، يُقَالُ: قَرَّ، وَاسْتَقَرَّ[8]. وَصَارَ الْأَمر إِلَى قراره ومستقرِّه: تناهى وَثَبت[9]. وبمعنى الثَّبات هذا (استقرَّ). وكلُّ (مستقرٍّ) بفتح القاف مصدرًا أو مكان استقرار، وبكسرها اتِّصافًا بالاستقرار[10]. وهو معنى اللَّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿تَجَلَّىٰ﴾: (جلي) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقِيَاسٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ انْكِشَافُ الشَّيء وَبُرُوزُهُ[11]. فأصلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظاهر، يقال: أجليْتُ القومَ عن منازلهم، فجلَوا عنها، أي: أبرزْتُهم عنها، ويقال: جلاه، وأمرٌ جليٌّ: واضحٌ. وتقول: أَجْلِ لنا هذا الأمرَ، أي: أوضِحْهُ[12]. وقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾. أي: ظَهَرَ، وبَانَ، وقال الحسن: تجلَّى، أي: بدا للجبل نُورُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رأي).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (رأى).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رأي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(7) الرّاغب، المفردات: (قرر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قر).
(9) ابن سيده، المحكم: (قرر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قرر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جلو).
(12) الخليل، العين: (جلو).

العَرش[1]. جلا الشَّيءُ، والأمرُ وانجلى وتجلَّى بنفسه أو بغيره وجلاه فتجلَّى؛ إذا انكشف وظهر ووضح بعد خفاء في نفسه ذاتيٍّ أو إضافي أو خفاءٍ على مجتليه وطالبه[2].

5) ﴿دَكّٗا﴾: (دكّ) أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى تَطَامُنٍ وَانْسِطَاحٍ، وَمِنْهُ الْأَرْضُ الدَّكَّاءُ: وَهِيَ الْأَرْضُ الْعَرِيضَةُ الْمُسْتَوِيَةُ، وَمِنْهُ النَّاقَةُ الدَّكَّاءُ، وَهِيَ الَّتِي لَا سَنَامَ لَهَا[3]. والدَّكُّ: كَسرُ الْحَائط والجبل[4] وهدْمُهما، ودكَّ الأَرْض دكًّا: سوَّى صعودَها وهبوطَها، ودكّ التُّرَاب: كبسه وسوَّاه[5]. والدَّكُّ: الأرضُ اللَّينة السَّهلةُ، ودُكَّتِ الأرضُ، أي: جُعلت بمنزلة الأرض اللَّينة[6]. فالدَّكُّ هو الضَّغطُ الشَّديد على شيءٍ متماسك من أعلى حتى يتداخل غائرًا ويستوي سطحُه بما حوله وبأسفل منه[7]. وبه تُفَسَّرُ اللَّفظة في الآية الكريمة.

6) ﴿وَخَرَّ﴾: (خرّ) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ اضْطِرَابٌ وَسُقُوطٌ مَعَ صَوْتٍ[8]. فأَصلُه سُقُوطٌ يُسمَع مَعَه خريرٌ، والخريرُ يقال لصوت الماء والرِّيح وغير ذلك ممَّا يَسقط من علوٍّ[9]. ثمَّ كَثُرَ حَتَّى استُعمِل في مُطْلَقِ السُّقُوط[10]. فخَرَّ: سقط، ووَقع، وهوى من علوٍّ إِلَى سفلٍ، وقيل: خَرَّ: مَاتَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجل إِذا مَاتَ خَرَّ[11]. ودلالتُه على لفظة ﴿وَخَرَّ﴾ في الآية الكريمة بعيدٌ - والله أعلم - والمعنى الأنسبُ ما ذُكر قبلُ من معنى السُّقوط المصاحب للصَّوتِ سقوطًا بقوَّةٍ واسترسال، وتكرارٍ في الإلقاء لتسيُّب أثنائه[12].

7) ﴿صَعِقٗاۚ﴾: (صعق) أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى صَعْقَةٍ وَشِدَّةِ صَوْتٍ[13]. والصَّعِقُ: المَغْشيُّ عليه. صَعِق صَعقًا: غُشِي عليه من صَوْتٍ يسمعه أو حِسٍّ أو نحوه[14]. وقيل: صَعِقَ، إِذَا مَاتَ،

(1) الرّاغب، المفردات: (جلو).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/108.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دك).
(4) الخليل، العين: (دك).
(5) ابن سيده، المحكم: (دكك).
(6) الرّاغب، المفردات: (دكك).
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4344، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دكك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خر).
(9) الرّاغب، المفردات: (خر).
(10) الزّبيدي، تاج العروس: (خر).
(11) ابن سيده، المحكم: (خر).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خر).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(14) الخليل، العين: (صعق).

كَأَنَّهُ أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ[1]، واستُبعِد هذا المعنى في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فَإِنَّمَا هُوَ غشْيٌ لَا موت، لقَوْله تَعَالَى بعد هَذَا: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وَلم يقل: فَلَمَّا نُشِرَ؛ لأَنَّه يُقَال للَّذي غُشِي عَلَيْهِ وَالَّذِي يذهب عقلهُ: قد أَفَاق[2]، ومن هنا فمعنى ﴿صَعِقًا﴾ في الآية الكريمة مغشيًّا عليه، وهو يناسب لفظَ الإفاقة كما ذُكِرَ.

8) ﴿أَفَاقَ﴾: (أفق) أَصْلٌ وَاحِدٌ عَلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ[3]. والإفاقة بلوغ نهاية المغشيِّ عليه؛ فكلُّ مغشيٍّ عليه إذا انجلى عنه عارض غيبوبته؛ أفاق واستفاق[4]. والاستفاقةُ: استفعالٌ، من أفاق إذا رجع إلى ما كان قد شَغَلَ عنه، وعاد إلى نفسه، ومنه: إفاقةُ المريض، والمجنون، والمُغْشَى عليه، والنائم[5]. فالإفاقةُ رجوعُ العقلِ والفهم إلى الإنسان بعد ذهابِهما بسببٍ من الأسباب[6]. فيصحو، وينجلي العارضُ عنه[7].

9) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: التَّسْبِيحُ: تنْزِيهُ اللّه تعالى عمَّا لا يَليق به، أي: أُنَزِّهُك يَا ربُّ من كلِّ سُوءٍ وأُبرِّئُك، وأَصْلُه: المَرُّ السَّرِيعُ في الماء، وفي الهَواء، وفي عبادة اللّه تعالى، ثم جعل التسبيح عامًّا في العِبَاداتِ قولًا كان، أو فِعْلًا، أو نِيَّة[8]. وغالبُ ما في القرآن من التَّرْكِيْب تُفسَّر فيه (سَبَّح)، وتصْريفُها: بالتَّنْزِيهِ والبَراءَة من أنْ يُنسَب إليه تعالى ما لا يَلِيْقُ به: كالشَّرِيك، أو الولَد، أو نحوه، وأنْ يَخْلق شَيئًا بَاطِلًا، وأن يُرى بالبَصَرِ، وأنْ تَعْلَمَ ملائكتُهُ مَا لَمْ يُعَلِّمْهُمْ إيَّاه، وأن يَخْفَى عَلَيْهِ مَكْرُ شَرٍّ، وأنْ يَتَخَلَّفَ وَعْدُه[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لما جاء موسى عليه السلام لميقات اللّه تعالى، في الوقت المحَدَّدِ وهو تمام أربعين ليلة، ونال فضيلةَ تكليمِ اللّه تعالى له بدون واسطة، فسمع ما لم يكن يسمَعُ قبل ذلك، من وَحْيِ اللّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(2) الأزهريّ، التّهذيب، وابن سيده، المحكم: (صعق)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/110.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفق).
(4) الخليل، العين: (فوق).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (فوق).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوق).
(8) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبح).

وأمره ونهيه، استشرفَ لرؤيةِ ذات ليس كمثلها شيءٌ من الذَّوات، ولا في صفاتِه التي منها كلامُه ﷻ شيءٌ من الصِّفات، طلب إلى اللّٰه تعالى أن يمنحَهُ شرفَ رؤيته، ولكنَّ اللّٰه تعالى أعلمه بعدم إمكان ذلك، بقوله: لن تراني، أي: لن تقدرَ على رؤيتي في الدُّنيا، ولكي يخفِّفَ عليه ألمَ الردِّ - وهو كليمُه الذي قال له في أوَّل العهد بالوحي إليه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: 41] - أراه بعينيه ومجموعِ إدراكه من تجلِّيه للجبل بما لا يَعْلَمُهُ سواه أنَّ المانعَ من جهته هو، لا من الجود الرَّبَّاني، طلب إليه أنِ انظر إلى الجبل، فإن استقرَّ مكانه إذا تجلَّيتُ له؛ فسوف تراني، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل؛ جعله مستويًا بالأرض، وسقط موسى مغشيًّا عليه، فلما أفاق من غَشْيته؛ نزَّه اللّٰه وسبَّحه وتاب إليه من هذا الطلب، وأقرَّ بأنَّه أولُ المؤمنين باللّٰه من قومه(1).

حُضورُ موسَى الميقاتِ، وحُظوتُه بالتَّكْليمِ، دونَ النّظرِ إلى العزيزِ الحكيمِ

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّه لا يمتنع على نبيٍّ عدمُ العلم بتفاصيل الشؤون الإلهيَّة قبل أنْ يُعلمها اللّٰهُ إيَّاه، وقد قال اللّٰه لرسوله محمد ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤﴾ [طه: 114](2). وتهدي الآيةُ الكريمة أيضًا إلى أنَّ من الإصلاح الأخذَ بالحزم أحيانًا، والأخذَ بالرِّفق، والتَّسامحِ أحيانًا أخرى، ومن الإصلاح عقابُ مستحقِّي العقابِ، ومكافأةِ مستحقِّي الثَّواب، وإكرام مستحقِّي الإكرام.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الحرفِ (لمَّا) على جعْلِ المجيء شَرطًا للتَّكْليمِ:

مجيءُ موسَى في وقتِه، أمرٌ حاصلٌ غيرُ مُحتاجٍ للإخبارِ عنه

﴿وَلَمَّا﴾ اسميَّةٌ شرطيَّةٌ ظرفيَّةٌ للماضي، وجعل مجيءَ موسى للميقات، وتكليمُ اللّٰهِ إيَّاه شرطًا لحرف ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّه كالمعلوم، وجعل الإخبارَ متعلِّقًا بما بعد ذلك، وهو اعتبارٌ بعظمةِ اللّٰه وجلاله، فكان الكلامُ ضربًا مِن الإيجاز بحذف الخبرِ عن جملتين؛ استغناءً عنهما

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/111، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.

بأنَّهما جُعلتا شرطًا لـ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّه جعلَ مجيءَ موسى في الوقت المعيَّن أمرًا حاصلًا غيرَ محتاجٍ للإخبارِ عنه، للعلم بأنَّ موسى لا يتأخَّر ولا يتركُ ذلك، وجعل تكليمَ اللّه إيَّاه في خلال ذلك المِيْقَات أيضًا حاصلًا غير محتاج للإخبار عن حلوله، لظهور أنَّ المواعدةَ المتضمِّنةَ للملاقاة تتضمَّن الكلام؛ لأنَّ ملاقاةَ اللّهِ بالمعنى الحَقيقيِّ غيرُ ممكنةٍ، فليس يحصلُ من شؤون المواعدةِ إلا الكلامُ الصَّادر عن اللّه تعالى وإرادته وقدرته[1].

عِلَّةُ وُرودِ الفعْلِ (جاءَ) وليس (أتَى):

بيانُ المشقَّةِ الّتي واجَـهها موسَى عليه السلام في رِحـلْتِـهِ إلى جبلِ الطّور

سببُ استخدام الفعل (جاء) وليس (أتى) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أنَّ الفعلَ (جاء) دالٌّ على المشقَّة والصعوبة التي واجهها موسى عليه السلام في رحلته إلى جبل طور، حيث كان يسير في الظَّلام والبَرْد، ولا يدري ما مصيرُه، ولا يعرف مكانَ النار التي رآها: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ١٠﴾ [طه: 10]، ويشير إلى المفاجأةِ والدَّهشة التي شعر بها موسى عندما سمع صوتَ ربِّه يخاطبُه من شجرة في الجبل، وأخبره بأنَّه اختاره نبيًّا ورسولًا: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]، أمَّا الفعل (أتى)؛ فيدلُّ على السُّهولة واليسر في المجيء إلى شيء أو شخص، ولا يحمل معاني المشقَّة والدَّهشة التي تتطابق مع حالة موسى.

كما أنَّ استخدام الفعل (جاء) يوافق السّياقَ القرآنيَّ الّذي يصف حالةَ موسى بعد أن كلَّمه ربه، وطلب موسى عليه السلام إلى ربِّه أن يراه، فأجابه ربُّه بأنَّه لا يستطيع أن يراه، وأمره بأن ينظرَ إلى الجبل، فإذا استقرَّ مكانه؛ فسيراهُ، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل؛ جعله دكًّا، وخرَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/89.

موسى صَعِقًا، فهذا يدلُّ على عظمة اللّه تعالى وقدرته وجبروته، وعلى ضعف موسى وحاجته، فالفعلُ (جاء) يتناسَبُ مع هذا المعنى، ويعبِّر عن حالة المشقَّة والصّعوبة التّي واجَهت موسى ﷺ.

نُكتةُ توجيهِ معنَى اللّامِ، في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾:

تنوّعُ معاني الحروفِ، يدلُّ على سَعةِ اللّغةِ، وحِكمةِ بيانِ التّركيبِ

اللّام في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ للاختصاص، فكأنَّه قيل: واختصَّ مجيئُه بميقاتنا، كما تقول: أتيتُه لعشرٍ خلوْنَ من الشَّهرِ[1]. وجعلها ابن هشام بمعنى عند، وجعل ذلك من معاني اللّامِ، وهو أظهر، والمعنى: فلمَّا جاء موسى مجيئًا خاصًّا بالمِيْقَات، أي: حاصلًا عنده لا تأخيرَ فيه، كقَوْله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: 78]، وفي الحديث سُئِل رسولُ اللّه ﷺ أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «الصَّلَاةُ لوقتها»[2]، أي: عند وقتها، ويجوز جعْلُ اللّام للأجل والعلَّة، أي: جاء لأجل ميقاتنا، وذلك لتضمُّن المِيْقَاتِ معنى الملاقاة والمناجاة، أي: جَاء لأجْلِ مُناجاتنا[3]. وحكمةُ البيانِ الّذي تؤدِّيه لام الاختصاص هنا، على تقدير: (واختصَّ مجيئُه بميقاتنا)، تبيانُ كمال انقياد موسى ﷺ، بحيثُ لا يتقدَّم مجيئُه على ذلك الوقتِ، ولو مُدَّة يسيرةً، ولا يتأخَّر[4].

دَلالةُ ضَميرِ المتكلّمِ المعظّمِ نفْسَه:

إشعارٌ بقيمةِ مُناجاةِ موسَى ربَّه، حيثُ كلّمَه تكليمًا

يتحدَّثُ اللّه ﷻ عن نفسِه بضمير المتكلِّم العظيم، إشعارًا بقيمة هذه المقابلة الجلَيْلَة التي كرَّم اللّه بها موسى ﷺ فكلَّمه فيها تكليمًا مباشرةً دونَ واسطةِ رسولٍ من الملائكة ينقل له كلامَ رَبِّه.

بَلاغةُ الالْتفاتِ في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ﴾:

التفتَ من المتكلِّم إلى الغائب بيانًا لمقام الإكرام، والتَّشريف

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/151.
(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (2782)، ومسلم، الصحيح، برقم: (85).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/90.
(4) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/494.

بيانُ مَقامِ الإكرامِ والتَّشريفِ، في ذلك القُرْبِ السَّنِيِّ اللّطيفِ

بالتَّكْليم من غير واسطةٍ، وصوغُه بلفظ الماضِي للدَّلالَة على تحقُّق وقوعه، ورسَّخ هذا الإكرامَ التعقيبُ بقَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي: المحسن إليه بأنواع الإحسان، المتفضِّلُ على قومه بأنواع الامتنان[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ التَّكْليمِ على طريقِ المجازِ:

تناسُبُ كيفيَّتِهِ إرادتَه تعالى، وعِلْمَه، وحِكْمَتَه

إسنادُ التَّكْليم إلى اللّه مجازٌ مستعملٌ في الدَّلالَة على مراد اللّه تعالى بألفاظٍ من لغة المخاطَب به بكيفيَّة يوقِن المخاطَبُ به أن ذلك الكلامَ من أثَر قدرةِ اللّه على وَفْقِ الإرادة ووفق العلم، والحكمة، ونسبتُه إلى اللّه أنَّه صادر بكيفيَّةٍ غيرِ معتادةٍ لا تكون إلَّا بإرادة اللّه أنْ يخالفَ به المعتادَ تَشْريفًا له[2].

سِرُّ العُدولِ من أُسلوبِ الوصْلِ إلى أُسلوبِ الفصْلِ:

مجيءُ الكلامِ على طريقِ المحاورةِ العَطِرَةِ

قَوْلُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾ هو جوابُ ﴿وَلَمَّا﴾ على الأظهرِ، فإن قدَّرنا الواوَ في قَوْله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾ زائدةً في جواب ﴿وَلَمَّا﴾ كان قَوْلُه: ﴿قَالَ﴾ واقعًا في طريق المحاورةِ، فلذلك فصلَ[3]. وفَصَل أيضًا في قَوْله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾؛ لأنَّه واقعٌ في طريق المحاورةِ أيضًا[4]، فهي مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى حين قال موسى ذلك، فكان الجوابُ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، أي: لن تُطيقَ رؤيتي، وأنتَ في هذه النَّشأة، وعلى الحالة التي أنتَ عليها في هذه الدنيا، فنفيُ الرُّؤْيَة منصبٌّ على الحالة الدُّنيوية[5].

سِرُّ جَعْلِ ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، شَرطًا للأداة ﴿وَلَمَّا﴾:

الإيذانُ بأنَّ التَّكْليمَ هو الّذي أطْمَعَ موسَى في حُصولِ الرُّؤْيَةِ

لما كلّمه وخصَّهُ بهذه المرتبة؛ طمَحَتْ هِمَّتُه ﷺ إلى رُتبةِ الرُّؤْيَة وتشوَّق إلى ذلك، فسألَ ربَّه أن يريَهُ نفسَه[6]. وسؤالُه رؤية اللّه تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4345.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/450.

تطلُّعٌ إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهيِّ؛ لأنَّه لما كانتِ المواعدةُ تتضمَّنُ الملاقاةَ، وكانتِ الملاقاةُ تعتمدُ رؤيةَ الذَّات وسماع الحديث، وحصل لموسى ﵇ أحدُ ركني الملاقاة وهو التَّكْلِيمُ، أطمَعه ذلك في الرُّكن الثاني، وهو المشاهدة، وممَّا يؤذن بأنَّ التَّكْلِيم هو الذي أطمعَ موسى في حصول الرُّؤْيَة؛ جعْلُ جملة ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ شرطًا لحرف ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّ ﴿وَلَمَّا﴾ تدلُّ على شدَّةِ الارتباط بين شرطِها وجوابِهَا، فلذلك يكثر أن يكون علَّةً في حصول جوابها، هذا على جعل ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾ عطفًا على شرطِ لَمَّا، وليس جوابَ لَمَّا[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ:

التَّكْلِيمُ يتعلَّقُ بخصائصِ صِفاتِ رُبوبيَّةِ اللهِ لِعبادِهِ

جاء في قَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ وضْعُ الاسم الظَّاهرِ (ربّ) موضعَ الضَّمير، وعدَلَ عنه، ولم يقل: (وكلَّمناه)؛ للدَّلالَة على أن هذا التَّكْلِيم يتعلَّق بخصائص صفات ربوبيَّةِ اللّه لعباده، التي تستدعي أن يعبدوه وحْدَه إلهًا لا شَريكَ له، في حدود شرائعِه، وأحكامه، ووصاياه، وبياناتِه التي نزَّلها إليهم. والإظهارُ فيه الإكرامُ بالتعقيبِ بقَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي: المحسن إليه بأنواع الإحسان، المتفضِّلُ على قومه بأنواع الامتنان[2].

بَلاغةُ الحذْفِ في ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾:

المحذوفاتُ فيها إشارةٌ إلى لَهْفَةِ موسَى، وشِدَّةِ تَشوُّقِه للقاءِ ربِّه

وأوَّلُ المحذوفات: حرفُ النِّداء(يا) الدالِّ على القُرب، وحذفهُ دلالةٌ على مدى شعور موسى ﵇ من قُرب اللّه تعالى منه، فـ"أشار بحذف أداة النِّداء إلى غاية القُرب بالإحسان"[3]. وثانيها: الياء من ربِّ تخفيفًا، وثالثها: الحرف المعتلُّ (الياء) من فعل الأمرِ المجزوم الدالِّ على الدُّعاء ﴿أَرِنِيٓ﴾، ورابعها: ضميرًا المخاطَب (أنت)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/108.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/108.

المستترانِ الفاعلانِ في ﴿أَرِنِيٓ﴾ و﴿أَنظُرۡ﴾. وخامسها: مفعولُ أرني الثاني المحذوفُ لدَلالَة الضمير المجرور عليه في قَوْله: ﴿إِلَيۡكَۚ﴾. وفي حشْدِ هذا الكمِّ من العناصر المحذوفة إشارةٌ إلى لهفةِ موسى، وشدَّةِ تشوُّقِه للقاءِ ربِّه، فاقتصد في الكلام، وأوجز توقًا إلى لُقْياهُ جلَّ في علاه.

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ الثّاني من ﴿أَرِنِيٓ﴾:

المحذوفُ معلومٌ، والاستغناءُ بالمذكورِ عنه زيادةٌ في التأدُّبِ مع الله سُبحانَه

تقديرُ الحذف: أرني ذاتك أنظُرْ إليك، يعني مكِّنّي من رؤيتِك بأن تتجلَّى لي حتى أراك[1]. أو: أرني نَفسَكَ، وإنَّما حذفَ مبالغةً في الأدب، حيثُ لم يواجِهْهُ بالتَّصْريْح بالمفعول[2].كأنَّه يعلمُ أنَّه بطبيعةِ تكوينِه يعرف أنَّه لا يمكن أن يرى اللّه، لكن إن أراه اللّه، فهذا أمرٌ بمشيئة الحَقِّ، وقدَّم موسى الطَّلبَ معلَّقًا بمشيئةِ اللّه وإرادته؛ لأنَّه يعلم أنَّه غيرُ مُعَدٍّ لاستقبال رؤيةِ اللّه؛ لأنَّ تكوينَهُ لا يقوى على ذلك[3]. ولذلك حذفَ المفعولَ الثاني، ولم يصرِّحْ به؛ لأنَّه معلومٌ، وزيادةٌ في التأدُّب مع الخالق (ﷻ)[4].

دَلالةُ جُملةِ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾:

كمالُ أدبِ موسَى عليه السلام في طلبه الرُّؤْيَةَ الّتي تَلِيقُ بذاتِ الله تعالى

ولا شكَّ في أنَّ موسى عليه السلام قد سأل رؤيةً تليق بذات اللّه تعالى، بما اتَّصفَ به من آداب النُّبوَّةِ التّي رفعته إلى هذا المقام، وهي مثل الرُّؤْيَة الموعود بها في الآخرة، فكان موسى عليه السلام يحسَبُ أنَّ مثلها ممكنٌ في الدّنيا، حتى أعلمَهُ اللّهُ تعالى بأنَّ ذلك غيرُ واقعٍ في الدّنيا، ولا يمتنع على نبيٍّ عدمُ العلم بتفاصيل الشّؤون الإلهيّة قبلَ أن يُعلمها اللّهُ إيَّاه، وقد قال اللّه لرسوله محمَّد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114][5].

(1) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/602.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/301.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4342.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/371.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.

بَلاغةُ تقْديمِ ﴿رَبِّ﴾ على فعْلِ الرُّؤْيَةِ:

تـأدُّبٌ في الـخـطـاب، وتـعـطُّـفٌ في الـعِـتـاب، بـالـسّـمـاحِ بـالـكـلامِ دونَ الرُّؤيةِ

في تقديم لفظ ﴿رَبِّ﴾ على قَوْله: ﴿أَرِنِىٓ﴾ تأدُّبٌ في الخطاب معتادٌ من أنبياء الله - عليهم الصَّلَاة والسَّلَام - إذ بدا بذكره باللَّفظ الدَّالِّ على صفات الرُّبوبيَّةِ، المشتملة على التربية، والرعاية، والرحمة، والعطف[1].

دَلالةُ تَكرارِ الرَّاءِ، في ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ﴾:

نُـطـقُ الـرَّاءِ بتَكريرٍ، تعزيزٌ لـلـتّـشـوُّقِ والـلَّـهْـفـةِ، وأنْـسـبُ لمقامِ التَّكْليمِ معه سُبحانَه

حرفُ الرَّاء صوتٌ لثويٌّ مكرَّر مجهور، ويُنطقُ بتكرير ضربات اللّسان على اللّثة تكرارًا سريعًا؛ ولذلك سُمِّي حرف الرَّاء بالصّوت المكرَّر، وتَكرارهُ في هذه الجُمْلَة ثلاثَ مرَّاتٍ، في كلِّ لفظ منها مرَّةٌ واحدة يرسِّخ ما تقرَّر من قَصْديَّة حَشْدِ جَمْعِ المحذوفاتِ في الجُمْلَة من تعجُّل موسى عليه السلام ولهفته للقاء الله تعالى. يُزاد عليه أنَّ حرف الرَّاء شبيهٌ بالحركات، فعند النُّطق به يوجد نوعٌ من حريَّةِ الهواء بسبب الاتِّصال، والانفصال المكرَّرين، ويُحدثُ هذا لِصَوْتِ الرَّاء نوعًا من الوضوحِ السَّمعي، أقوى ممَّا يُحدث مع بقيَّة الأصوات الصَّامتة الأخرى، وممَّا يعزِّز هذا كونُه صوتًا جهوريًّا، ووضوحُ اللفظ وشدَّةُ بيانه بتكرار حرفٍ يحمل هذه الصفاتِ فيه أنسبُ لمقام التَّكْليم مع عظيم الشأن جلَّ وتعالى وتبارك.

دَلالةُ حرفِ الجرِّ المضافِ إلى كافِ الخطابِ:

بـيـانُ عـظـمَـتِه سُبحانَه، وعُلوُّ شـأنِـه عُـلـوُّ العَظَمةِ

أشار إلى عظمته سبحانه، وعلوُّ شأنِه علوُّ العظمة لا المسافةِ بالتَّعدية بحرف انتهاء الغاية ﴿إِلَيۡكَۚ﴾ بعد أنْ أشار بحذف أداة النِّداء إلى غاية القُرب بالإحسان، فقال: ﴿إِلَيۡكَۚ﴾، أي: فأراك[2].

دَلالةُ أداةِ النَّصْبِ ﴿لَن﴾:

يستعمل ﴿لَن﴾ لتأبيدِ النَّفْي، ولتأكيد النَّفْي في المستقبل،

---

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/425.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.

نَفْيُ رُؤيةِ موسَى ربِّه، نفيًا لا طَمَعَ بعدَهُ للسَّائلِ في الإلحاحِ والمراجَعةِ

وهما متقاربانِ، وقد اعتُرِضَ على كونها للتَّأبيد، فتنفي الرُّؤْيَةَ مطلقًا، ووجِّهَ على تعلُّقِ ذلك كلِّه بهذه الحياة المُعبَّر عنها بالأبد، فنفت ﴿لَن﴾ رؤية موسى ربَّه نفيًا لا طمعَ بعده للسائل في الإلحاح والمراجعة، بحيث يَعْلَم أنَّ طِلْبَتَهُ مُتعذِّرةُ الحصول في الحياة الدنيا، فلا دلالة في هذا النَّفْيِ على استمراره في الدار الآخرة[1]. وقيل: إنَّ تأبيدها إضافيٌّ، أي: بالنسبة للدنيا، وفيها تعليلٌ لعدم قدرة موسى على الرُّؤْيَة[2].

عَلَّةُ التَّعْبِيرِ بلفظِ ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾:

النَّظرُ مقدِّمةٌ للرُّؤيةِ، والمقصودُ هو الرُّؤْيَةُ ذاتُها، لِتَضمُّنِها الإدراكَ

قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: (لن تنظر إليَّ) فيكون مطابقًا لقَوْله: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾؛ لأنَّ النظر لما كان مقدِّمةً للرُّؤية؛ كان المقصودُ هو الرُّؤْيَةَ لا النظر الذي لا رؤية معه[3]، فنفى الرُّؤْيَةَ لا مقدمتها، وهو (النظر)، الذي هو: التحديق بالعين[4]. وقَوْله: ﴿أَرِنِيٓ﴾ بمعنى: اجعلني متمكِّنًا من الرُّؤْيَة التي هي الإدراكُ علم أنَّ الطِّلْبة هي الرُّؤْيَة لا النظر الذي لا إدراك معه، فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: لن تنظر إلي[5].

بَلاغةُ الاسْتِدراكِ بلفْظِ: ﴿وَلَٰكِنِ﴾:

رفْعُ توهُّمِ الاقتِصارِ على نفْيِ الرُّؤْيَةِ، بدونِ تعليلٍ ولا إقناعٍ

الاستدراكُ المُستفادُ من ﴿وَلَٰكِنِ﴾ في قَوْله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾؛ لرفع توهُّم المخاطبِ الاقتصارَ على نفي الرُّؤْيَة بدون تعليلٍ ولا إقناع، أو أنْ يتوهَّم أنَّ هذا المنعَ لغضبٍ على السَّائل ولمنقصةٍ فيه، فلذلك يعلم من حرف الاستدراك أنَّ بعض ما يتوهَّمه، سيُرفع، وذلك أنَّه أمرَهُ بالنَّظر إلى الجبَل الذي هو فيه هل يثبُت في مكانه، وهذا يُعْلَم منه أنَّ الجبَل سيتوجَّه إليه شيء من شأن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4343.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/191.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/381.

الجلالِ الإلهي، وأنَّ قُوَّة الجَبَل لا تستقرُّ عند ذلك التَّوجُّهِ العظيم، فيعلم موسى أنَّه أحرى بتضاؤل قواه الفانية، لو تجلَّى له شيءٌ من سُبُحات اللّه تعالى[1].

عَلَّةُ اتّصالِ الاسْتِدراكِ بما قبْلَه:

اسْـتِـعـظـامُ الإقـدامِ على طلبِ الرُّؤْيَةِ في الحياةِ الدّنيَا

لتعظيم أمر الرُّؤْيَة، وأنَّ أحَدًا لا يقوى على رؤية اللّه تعالى إلَّا إذَا قوَّاه اللّهُ بمعونته وتأييده؛ ألا ترى أنَّهُ لَمَّا ظهر أثرُ التَّجلِّي والرُّؤْيَة للجبل اندكَّ؛ فدلَّ ذلك على تعظيم أمرِ الرُّؤْيَة[2]، والمعنى: لا تطلب النَّظرَ إلى مُمتَنَعٍ، ولكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجِفُ بك وبمن طلبت الرُّؤيَةَ لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكًّا بسبب طلبك الرُّؤْيَة؟ لتستعظمَ ما أقدمت عليه بما أريك من عِظَم أثره[3].وفي هذا الاستدراك تسليةٌ لموسى عليه السلام وتلطُّفٌ معه في الخطاب، وتكريمٌ له[4].

وَجْهُ تعليقِ الشَّرطِ، بالحرفِ المشبَّهِ بالفعْلِ (إنْ):

عـنـدَ نُـدْرةِ وُقـوعِ الشَّـرطِ، أو تَـعـذُّرِه، تُستعملُ (إنْ)

علَّق الشَّرطَ بإنْ في قَوْله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾؛ لأنَّ الغالبَ استعمالُها في مقام ندرةِ وقوع الشَّرط أو التَّعريض بتعذُّرِه، ولَمَّا كان استقرارُ الجَبَل في مكانهِ معلومًا للّه انتفاؤهُ؛ صحَّ تعليق الأمر المراد تعذُّر وقوعه عليه بقطْعِ النظر عن دليل الانتفاء[5].

نُكْتَةُ التَّعْبِير بأُسلوبِ التّعريضِ:

بيانُ لَـوْنٍ مِنَ الـكـلامِ، نُظِمَ عـلـى أُسـلـوبٍ عجيبٍ

في قوله: ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ تعريضٌ لتحقُّقِ الرُّؤْيَة؛ لوجود ما لا يكونُ من استقرارِ الجَبَل مكانه حتى يدكَّهُ دكًّا، ويسوِّيه بالأرض، وهذا كلامٌ أُدمجَ بعضُه في بعض، ونُظِمَ على أسلوبٍ عجيبٍ، وصوِّغ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/191.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/154.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/371.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.

بديعٍ، مِلاكه: التخلُّصُ من النَّظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، وتثنية الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النَّظرِ على الشَّريطة في وجود الرُّؤْيَة، أي: قَوْله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ﴾[1]. وذلك إيذانٌ بأنَّ المقصودَ من نظرِه إلى الجَبَل، أن يرى بيقينٍ عجزَ القُوَّةِ البشريَّة عن رؤيته تعالى.وليس قَوْله: ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ﴾ وعدًا بالرُّؤْيَة على الفرض؛ لأن سبقه بقَوْله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أزال طمَعَ السّائل في الرُّؤْيَة، ولكنَّه إيذانٌ بأنَّ المقصود من نظره إلى الجَبَل أن يرى رأيَ اليقين، عجز القُوَّة البشريّة عن رؤية اللّه تعالى بالأحرى، من عدم ثبات قُوَّة الجَبَل، فصارت قُوَّة الكلام: أنَّ الجَبَل لا يستقرُّ مكانه من التَّجلِّي الّذي يحصل عليه، فلست أنت بالذي تراني؛ لأنَّك لا تستطيع ذلك، فمنزلةُ الشَّرط هنا منزلةُ الشرط الامتناعي الحاصل بحرف (لو) بدلالة قرينة السابق[2]، ولذلك عدل عن استعمال السِّين للتَّعبير عن بُعد الرُّؤْيَة باللفظ الدالِّ على البُعْد ﴿فَسَوْفَ﴾[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِصِيغة التَّجلّي، دون غيره:

الصّيغة المنتقاة، ذات دلالة تربط المعنى، بمدد النّور، وفيوضات التّجليّات

يكون التَّجلِّي، والانكشاف، والظّهور بالذّات، وبغير الذّات من صفةٍ، أو فعل يزول به اللَّبْس والخفاء، وفي صيغة التَّجلِّي ما ليس في صيغة الجلاء، والانجلاء من معنى التَّدريج والكثرةِ النّوعيّة أو الشّخصيّة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [اللّيل: 1 - 2] فاللَّيلُ يغشى النَّهارَ، ويستره، ثمّ يتجلَّى النّهار، ويظهر بالتّدريج، وفي الأحاديث أنَّ للرّبِّ تعالى تجلِّياتٍ مختلفةً[4].

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عنِ التَّجلِّي على طريقِ المجاز:

التَّجلِّي حقيقةُ الظُّهور وإزالة الحجاب، وهو هنا مجازٌ، ولعلَّه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/3813 - 82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/108.

أريدَ به إزالةُ الحوائلِ المعتادة التي جعلها اللّه حجابًا بين الموجودات الأرضية، وبين قوى الجبروت التي استأثرَ اللّهُ تعالى بتصريفها على مقاديرَ مضبوطةٍ ومتدرِّجة في عوالم مترتِّبة ترتيبًا يعلمه، وتلك الإزالةُ هي التي استعير لها التَّجلِّي المسندُ إلى اللّه تعالى تقريبًا للأفهام، فلمَّا اتَّصلتْ قُوَّةٌ ربانيَّة بالجَبَل تماثلُ اتِّصال الرُّؤْيَة؛ اندكَّ الجَبَلُ[1]، ولذلك صُعِقَ موسى من انْدكَاكِ الجَبَل لِعِلْمِهِ عليه السلام أنَّه لو توجَّه ذلك التَّجَلِّي إليه؛ لانْتَثَرَ جسمُه فضاضًا[2].

التَّجلِّي إزالةُ الحوائلِ الّتي جعلَها اللهُ حِجابًا بين الموجوداتِ الأرضيّةِ

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِلۡجَبَلِ﴾:

اللَّام في قَوْلِه: ﴿لِلۡجَبَلِ﴾ للاختصاص، وبيَّن بها خصوصيَّتَهُ، وأنَّه تجلَّى قربُه، ولو عبَّر بـ(على) مثلًا؛ لكان أمرًا آخرَ، أي: بأنْ كشفَ للجَبل عمَّا شاء مِن حُجُبِ عظمَتِهِ[3].

القُرْبُ والخصوصيَّةُ، يُحدِّدان مدَى التّجلِّي ودَلالتِه

نُكتةُ الإخبارِ عنِ الجَبَلِ بلفْظِ الدَّكِّ:

الدَّكُّ مصدرٌ، وهو الهدُّ وتفرُّق الأجزاء، كقَوْله ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠﴾ [مريم: 90]، وقد أخبرَ عن الجَبَل بأنَّه جُعِل دكًّا بصيغةِ التَّشديد للمبالغة في الهدِّ، وتفرُّقِ الأجزاء، والمراد أنَّه مدكوك أي: مدقوق مهدوم[4]. فضلًا عن أنَّ قُوَّةَ الجبلِ وشدَّةَ ثباتِه تُحتِّمان انتقاءَ لفظٍ يناسبُ ذلك شدَّةً، وقُوَّةَ تأثيرٍ، قال الرَّاغب: "فلانٌ جبلٌ لا يتزحزح تصوُّرًا لمعنى الثَّبات فيه"[5]. فصِفةُ الجبلِ الثَّباتُ، والاستقرارُ، والرُّكودُ.

المبالغةُ في الهدِّ، وتفرُّقِ الأجزاءِ، دليلٌ على شِدّةِ الفِعْلِ وهَوْلِه

بَلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ، في تَوْجيهِ قراءةِ ﴿دَكَّآءَ﴾:

قرأَ الجمهورُ ﴿دَكّٗا﴾ بالتَّنوين، وقرأ الكسائيُّ، وحمزة، وخلف: ﴿دَكَّآءَ﴾ بمدٍّ بعد الكاف وتشديد الكاف[6]، والدَّكَّاءُ: النَّاقةُ التي لا

بين قراءتَيْ (دكًّا) و(دكّاءَ)، تفنُّنٌ في الأداءِ البيانيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(5) الرّاغب، المفردات: (جبل).
(6) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/271.

سَنام لها، والأرض المستوية، فهو تشبيهٌ بليغٌ، أي: صارَ مكانُ الجبلِ كناقةٍ لا سَنام لها، والظَّاهرُ أنَّ ذلك الذي اندكَّ منه لم يرجع، ولعلَّ آثارَ ذلك الدَّكِّ ظاهرةٌ فيه إلى الآن(1)، فبين القراءتين تفنُّنٌ في الأداء البيانيِّ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالماضِي المشدَّدِ، والصِّفةِ المشبَّهةِ:

المبالغةُ في بيانِ حالِ موسَى عليه السلام إعظامًا لأمْرِ اللهِ

﴿وَخَرَّ﴾ فعلٌ ماضٍ مشدَّدٌ دالٌّ على شدَّة السُّقوط على الأرض، ﴿صَعِقٗاۚ﴾ مشتقٌّ من اسم الصاعقة، صفةٌ مشبَّهةٌ دالَّةٌ على الهيجان، وعدم الثُّبوت، وعلى ما يُكره أمرُه مِن الشَّدائد، والمُعْسِراتِ، والأمورُ العارضة في الغالب الَّتي تحصل ويَسْرُعُ زوالها، وعُبِّر بها للمبالغة في بيان حال موسى عليه السلام عند النَّظر إلى الجَبَل، ورسَّخ معنى الهيجانِ، والاضطرابِ، والشِّدَّةِ التي انتابته مجيءُ الجُمْلَة فعليَّةً؛ لتدلَّ على عدم الثَّبات، والاستقرارِ، وفي ذلك قصْدٌ إلى إظهارِ إعظامِه تعالى أمرَ الرُّؤْيَة، بإرْجَافِ الجَبَل بطالبيها وجعْلِه دكًّا، وصعقهم، مبالغةً في إعظام الأمر، وكيف سبَّح ربَّه ملتجئًا إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمةِ على لسانه، وقال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(2).

إيثارُ التَّعْبِيْرِ بالفعْلِ: ﴿وَخَرَّ﴾:

الخـرُّ سُـقـوطٌ مصحوبٌ بصوت الـتَّـسـبـيـحِ، ولـلـه تَـخِـرُّ كـلُّ الموجوداتِ

معنى خرَّ: سقط سقوطًا يُسمع منه خريرٌ، واستعمالُ الخرِّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السقوط، وحصولُ الصَّوتِ منهُ بالتسبيح(3). ولذلك فهو اللَّفظ المناسب لسياق الآية الكريمة بنصِّ الإشارة الى تسبيح موسى عليه السلام وكأنَّ التَّسبيح لازمَه لحظةَ تجلِّي اللّهِ جل جلاله.

دَلالةُ إظهارِ الحرفِ، وحذْفِه في السِّياقِ:

سُرعةُ الاعـتـذارِ والـتَّـوْبَـةِ، من أسبابِ القَبولِ، ودواعـــــي الوصولِ

الفاء في ﴿فَلَمَّآ﴾ حرفُ عطفٍ يفيد التَّرتيبَ، والتَّعقيب، والعَطف

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/156، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/384.

(3) الرّاغب، المفردات: (خرّ).

من دون مهلةٍ. والإفاقةُ: رجوعُ الإدراك بعد زواله[1]. وعبَّرَ عن سرعة الاعتذار، والتَّوْبَة بحذف الحرف مع قَوْله: ﴿قَالَ﴾.

نُكتةُ التَّعْبِيرِ بالمفعولِ المطلَقِ:

دلالـــةُ لـفـظِ التّسبيحِ، على التَّنزيهِ البليغِ لـلـه تـعـالى، والنِّسبةِ إليه

لفظ ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ يعني: البراءة والتَّنزيهُ من مطلق السُّوْء، وهو منصوب على المَصْدَر، أَي: على المَفْعوليَّة المُطْلَقة، ونَصْبُه بفِعْلٍ مُضْمَر متروكٍ إظهارُه، تقديرُه: أُسبِّحُ اللّهَ سُبْحَانَه تَسْبِيحًا، ونُزِّلَ سُبْحَانَ مَنْزلةَ الفِعْل، وسَدَّ مَسدَّه، فجعل: السُّبحان، في موضع: التَّسبيح، كما قالوا: كفَّرتُ عن يميني تكْفيرًا، ثم جعل: الكُفْران، في موضع: التَّكفير، وفي ذلك دلالةٌ على التَّنزيه البليغ من جَميع ما لا يليقُ به ممَّا يُنْسَبُ إليه تَعَالَى اللّهُ عن ذلك[2]؛ وذلك أنَّ المَفْعُولَ المُطْلَق أقْوى في الدَّلالة على الحَدَثِ من الفعل، وأبلغُ في بيانِ شدَّتِهِ.

إنْشاءُ الثَّناءِ على الله، والتَّنزيهُ عمّا لا يليقُ به، دَيْدنُ النّبيئينَ:

تَنزيهُ اللهِ تعالى مـن أن تَـقْـدِرَ أبصارُنا عليه؛ لأنّـه تـعـالى، لا تُدركُه الأبصارُ

وجاء ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ عوضًا عن فعله، أي: أُسبِّحك، لبيان النوعِ، والتَّوْكيدِ، والتعجُّبِ، والاستغفارِ، وإنشاءِ ثناءٍ على اللّه، وتنزيهٍ عمَّا لا يليق به، لمناسبة سؤاله منه ما تبيَّن له أنَّه لا يليق به سؤاله دون استئذانه، وتحقُّق إمكانه، كما قال تعالى لنوح: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ [هود: 46][3]. وكلمة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ يُراد بها التنزيهُ للّهِ من حدث رؤيتِه تعالى، أي: تنزيهًا لك يا ربِّ أن يراك مخلوقُك؛ لأنَّ الرُّؤْيَةَ قدرةُ بصرٍ على مرئيٍّ، ومعنى: (رأيت الشَّيء)، أي: إنَّ عين البشر قد قدرت على الشَّيء، ولو أنَّنا نحن - المخلوقين - رأينا اللّه بقانون الضَّوء، فهذا يعني: أنَّ أبصارنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.

(2) سيبويه، الكتاب: 1/353، والأخفش الأوسط، معاني القرآن: 1/207، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/499، وابن الأنباري، الزاهر: 1/51، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح).

(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 9/94.

تقدِر على ربِّنا وهذا لا يمكن أبدًا؛ لأنَّ المقدورَ لا ينقلب قادرًا، والقادر لا ينقلب مقدورًا[1].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ عنِ التَّوْبَةِ بالفعْلِ الماَضِي:

المبالغةُ في تحقُّقِ التَّوْبَةِ، وصِدْقِ وقوعِها

قَوْله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ إنشاءٌ لتوْبةٍ من العَوْدِ إلى مثل ذلك دون إذن من الله، وهذا كقول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ [هود: 47]، وصيغة المَاضِي من قَوْله: ﴿تُبۡتُ﴾ مستعملة في الإنشاء، فهي مستعملة في زمن الحال مثل صيغ العقود في قَوْلهم: بعتُ وزوَّجتُ؛ للمبالغة في تحقق التَّوْبَة، وصدق وقوعها[2].

وَجْهُ تخصيصِ التَّوْبَةِ بالله تعالى، وحذْفِ مُتعلِّقِها:

في التّوبةِ مزيدُ خُضوعٍ، وتذلُّلٍ، وتأكيدُ صدْقِها، وعُمومِها

وخصَّصَ التَّوْبَةَ به تعالى دون غيره بإتْباع فعل التَّوْبَة بلفظة ﴿إِلَيۡكَ﴾ مزيدَ خضوعٍ، وتذلُّلٍ، وتأكيد صدقها، ولذلك أضمرَ متعلّق التَّوْبَة فتعمُّ، وتستغرق صنوفها، مع أنَّه قد قيل: إنَّه تاب عن إجرائه تلك المقالة العظيمة من غير إذن فيه من الله تعالى[3]، أو من الجراءة والإقدام على السؤال بغير إذن[4]، فلفظُ التَّوْبَة يحتمل الإطلاقَ، وهو أنسب في مقام الاستغفار، وطلب الصَّفح، والرِّضا.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ عن أوَّليَّةِ الإيمانِ على طريقِ المجازِ كنايةً:

التَّعبيرُ عن قُوَّةِ إيمانِه، والمبالغةِ في وصْفِه

وقَوْلُه: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أطلق الأول على المُبَادِرِ إلى الإيمان، وإطلاقه بهذا النظم مجازٌ شائع مساوٍ للحقيقة، والمراد به هنا وفي نظائره: الكنايةُ عن قُوَّة إيمانه، وشدَّة يقينه، حتى إنَّه يُبادرُ إليه حين تردَّدَ غيرُه فيه، مبالغةً في وصف نفسه عليه السلام.

نُكتةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دلالَةٌ على ثبات الصِّفة فيه، وديمومتها،

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4345.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270.

صارَ الإيمانُ وصْفًا له عليه السلام، ولَقبًا

وكأنَّ الإيمان صار وصفَه، ولَقبَه، أي: الإيمان باللّه وصفاتِه، كما يليق به، ولذلك شبَّه الوصف بأفعال السجايا، فلم يذكر له متعلَّقًا[1].

ورسَّخ هذا المعنى صوغُها بالجُمْلَة الاسميَّة الدالَّةِ على الثبوت والرسوخ، وافتتاحُ الجُمْلَة بضمير المتكلم﴿وَأَنَا۠﴾ تأكيدٌ لتوبته، وصدقِ مراده من تعبيره بأوَّليَّة الإيمان.

مُناسبةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ الإيمانِ لما قبْلَهُ:

شَرطُ الإيمانِ أن يكونَ بالغيبِ، وهو أنسبُ لعدمِ الرُّؤيَةِ

التَّعبير بالإيمان في غاية المناسبة لعدم الرُّؤيَة؛ لأنَّ شرط الإيمان أنْ يكون بالغيب، وكلُّ هذا تبكيتٌ على قومه، وتبكيتٌ لهم في عبادتهم العِجْل وردعٌ لهم عن ذلك، وتنبيهٌ لهم على أنَّ الإلهيَّةَ مقرونةٌ بالعظمة والكِبَر، وهي بعيدة جدًّا عن ذواتِ الجِسَام لما يعلمُ سبحانه من أنَّهم سيكرِّرون عبادة الأصْنَام[2].

وَجْهُ إظْهارِ لفْظِ موسَى عليه السلام، وتَكْرارِه:

الإظهارُ، والتّكرارُ أنسبُ في مقامِ التَّشريفِ، والرِّفعةِ، والسُّموِّ

عُدِلَ بلفظ موسى إلى الإظهار في الآيتين الكريمتين، وتكرَّر أربع مرَّات؛ لما في مقام المواعدة، والتَّكْلِيم من تشريفٍ لا يُطاول، ولا يتأتَّى لأيِّ بشر، إلَّا من اصطفاه اللّهُ تعالى من نبيٍّ، أو رسولٍ، ولا شكَّ في أنَّ الإظهارَ المصحوبَ بالتكرار أنسبُ في مقام التَّشريف، والرِّفعة، والسُّموِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّكُّ والدَّقُّ:

الدَّكُّ تسويةٌ وانعدامٌ للأثرِ، وهو أدَلُّ على شِدَّةِ الهدْمِ، والدَّقُّ تهشيمٌ، وبقاءٌ لِفُتاتِه

ذهب أغلبُ المفسِّرين إلى أنَّ الـ"الدَّكَّ والدَّقَّ أخوانِ"[3]، "والدَّكُّ والدَّقُّ واحدٌ، وهو تفتيت الشَّيءِ وَسَحْقُهُ، وقيل: تسويتُه بالأرض"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/302.

إلا أنَّ بينهما فرقًا، تحريره في الآتي: الدَّقُّ: كلُّ شيءٍ كسرته قطعةً قطعةً، والدِّقاقُ: فُتات كلِّ شيءٍ دُقَّ[1]. فالدَّقُّ: الكسر والرضُّ في كل وَجه. وَقيل: هُوَ أَن تضرب الشَّيءَ بالشَّيء حَتَّى تهشِّمَه[2]. ويلزم الدَّقَّ والضغطَ الشديدَ دِقةُ سُمك الشَّيء أو تفتته أجرامًا دقيقة، أي بالغة الصِّغر، وكذلك يترتب على الضَّغط تفصِّي الحَبِّ من السَّنابل ونحوها[3]، وقد تقدَّم أنَّ معنى الدَّكِّ: جعْلُ الشَّيء مستويًا، فقَوْلهم: دكَّ التُّراب: كبسه وسوَّاه[4]. وهو الضَّغطُ الشَّديد على شيءٍ متماسك من أعلى حتى يتداخلَ غائرًا، ويستوي سطحُه بما حوله وبأسفل منه[5]. وبذا يكون الفارقُ بين اللَّفظين بقاءَ الأثر من انعدامِه، فالدَّقُّ يبقي أثرَ الشَّيء؛ لكونه يحيله بالضغط الشديد والطرق إلى فُتات، فليس شرطًا فيه استواء مادَّته، أمَّا الدَّكُّ فينعدم معه أثرُ الشَّيء بوصفه أصبح مستويًا متداخلًا سطحه مع ما حوله، وأسفل منه.

وجاء في تفسير المنار: إنَّ الفرق بين الدَّقِّ والدَّكِّ: أنَّ الدَّقَّ ما يخبط به الشَّيء ليتفتَّت، ويكون أجزاءً دقيقة، ومنه الدَّقِيقُ، وكان القمح في عصور البداوة الأولى يُدَقُّ بالحجارة، فيكون دقيقًا، ثم اهتدوا إلى الأَرْحِيَةِ التي تسحقُه وتطحنُه، وأما الدَّكُّ؛ فهو الهَدْم والخَبْط الذي يكون به الشَّيء المدكوك مستويًا، يقال: أرضٌ مدكوكة، وطريق مدكوكة، ودَكَّ الحفرة والرَّكيَّةَ (أي: البئرُ غيرُ المطويَّةِ) دفنها وطمَّها[6].

وبذا فاختيارُ الدَّكِّ دون الدَّقِّ أنسبُ للمقام؛ لكون الجبل استوى بالأرض، وصار مساويًا لما حولَهُ من الأرضِ المنبسطةِ، وهو أدلُّ على شدَّة الهدم، والزَّوالِ الذي أصابَ الجبلَ، وقُوَّةِ الحدث الذي لم يتحمَّلْهُ نبيُّ الله موسى عليه السلام فخرَّ مغشيًّا عليه من هول المشهد.

(1) الخليل، العين: (دق).
(2) ابن سيده، المحكم: (دقق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دقق).
(4) ابن سيده، المحكم: (دكك).
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4344، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دكك).
(6) محمد رضا، تفسير المنار: 9/109.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المـنـاسـبـةُ بين المَنْعِ منَ الرُّؤيةِ، وبيانِ رحْمةِ اللهِ بمُوسَى، وتَعْدادِ نِعمِهِ عليهِ

هذه الآياتُ نَزَلَتْ في بيانِ بدْءِ وحْيِ الشَّريعَةِ لموسى عليه السلام[1]، فعندما منعَهُ الرُّؤيةَ بعدَ طلبِهِ إيّاها، وقابلَ ذلكَ بمَحاسِنِ الأفعالِ والأقوالِ تَنْزيهًا، وتَسبيحًا، وتوبةً، تشوَّفَ السَّامعُ إلَى ما قوبِلَ بهِ مَنَ الإكرامِ، فاستأنفَ سُبحَانَه الإخبارَ بأنْ عدَّدَ عليهِ من وجوهِ نِعمِهِ العظيمةِ، وأمرَهُ أنْ يَشتغِلَ بشُكرِها، وهذه تسليةٌ منه تعالَى له، عمّا مَنَعَهُ[2]، فهوَ خطابٌ لِتدارُكِ قلبِ موسى عليه السلام بغايةِ الرّفقِ، كأنّه قالَ: يا موسى، إنّي منعتُكَ شيئًا واحدًا وهو الرُّؤيةُ، ولكنّي خَصَصْتُكَ بكثيرٍ مِنَ الفَضَائلِ؛ إذِ اصطَفَيتُكَ بالرِّسَالةِ، وأكرمتُكَ بشرفِ الحالةِ، فاشْكُرْ هذه الجُملَةَ، واعرِفْ هذه النِّعمَةَ، وكُنْ منَ الشَّاكِرين، ولا تتعرّضْ لمقامِ الشَّكوَى[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾: الصَّادُ والفاءُ والحَرفُ المُعتَلُّ أَصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوصٍ من كُلِّ شَوْبٍ، مِن ذَلِكَ الصَّفَاءُ، وهوَ ضِدُّ الكَدَرِ، وصَفوَةُ كُلِّ شيءٍ خالِصُه وخَيْرُه. والاصطِفَاءُ: الاختيارُ، افتِعالٌ مِنَ الصَّفْوةِ، ومنه: النّبيُّ المُصطفَى، والأنبياءُ المُصْطفُونَ بضمّ الفاءِ: إذا اختاروا، وَمُحَمَّدٌ صَفوَةُ اللّهِ تعالى وخيرَتُهُ من خَلقِهِ، ومُصطَفَاهُ صلَّى اللّهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ[4]، فاصطِفَاءُ اللّهِ بعضَ عبادِهِ قد يكونُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/104.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/359، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/385، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).

بإيجادِهِ تعالى إيّاه صافيًا عنِ الشّوْبِ الموجودِ في غيرِهِ، وقد يكونُ باختيارِهِ وبحُكمِهِ، وإن لم يتعرَّ ذلك مِنَ الأوَّلِ[1]. واختياره كأنَّه أخذَهُ؛ لأنَّه أصفى جِنسِهِ أو أجودُهُ، وبمعنى: (اصطَفَى) المذكورِ كلُّ (اصْطَفَى) ومضارعُها واسْمُ المفعولِ منها في القرآن[2]، وبها فُسِّرتِ اللّفظةُ في الآيةِ الكريمةِ فَضلًا عن معاني الاجتباءِ والاختيارِ[3].

2) ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: الشُّكرُ: الثَّناءُ على الإنسَانِ بمَعروفٍ يُوليكَهُ، وَحَقيقَةُ الشُّكرِ الرِّضَا باليَسيرِ. يَقولونَ: فَرَسٌ شَكورٌ، إذَا كَفَاهُ لِسِمَنِهِ العَلَفُ القَليلُ[4]. والشُّكرُ: عِرفانُ الإحسانِ، ونشْرُه وحمدُ مُوليه[5]. وهو أيضًا: تصوّرُ النِّعمةِ وإظهارُها، ويضادُّهُ الكُفرُ، وهو: نسيانُ النِّعمةِ وسَترُهَا، وهو الاعترافُ بنعمَةِ المُنعِمِ على وَجهِ الخُضُوعِ[6]. وهو أيضًا الثَّناءُ على المُحسنِ بذكرِ إحسانِه، وَقيلَ: هُوَ عُكُوفُ القَلبِ على مَحَبَّةِ المُنعِمِ، والجَوَارِحِ على طاعَتِه، وجَرَيَانُ اللّسَانِ بذِكرِه والثَّنَاءِ عليهِ، وهو مُشاهَدَةُ المِنَّةِ وحفظُ الحُرمَةِ[7]، وهو عِرفانُ الإحسانِ لصاحبِهِ ونَشرُهُ (إظهارُه)؛ إذ هو تعبيرٌ عنِ امتلاءِ النّفسِ ورضاها بما قُدِّمَ لها من خيرٍ، ونجوعِ هذا الخيرِ فيها[8]، والشُّكرُ ثلاثةُ أضْرُبٍ: شُكرُ القلبِ، وهو تصوّرُ النِّعمَةِ، وشُكرُ اللّسانِ، وهو الثَّناءُ على المُنعِمِ، وشُكرُ سائِرِ الجوارحِ، وهو مُكافأةُ النِّعمةِ بقَدرِ استحقاقِهِ[9]، ومَبنَاهُ على خمسِ قوَاعِدَ: خُضُوعُ الشّاكرِ للمَشكُورِ، وحُبُّهُ لَهُ، واعترافُهُ بنِعمتِهِ، والثَّنَاءُ عليهِ بها، وأن لَا يَستَعمِلَهَا فيمَا يكرَهُ، هذه الخَمسَةُ هِيَ أَساسُ الشُّكرِ، وبناؤُهُ عليهَا، فإن عَدِمَ مِنهَا واحدَةً اختَلَّت قاعدةٌ من قواعِدِ الشُّكرِ، وكلُّ مَن تَكَلَّمَ في الشُّكرِ فإنّ كلامَهُ إليها يَرجِعُ، وعليهَا يَدورُ[10]، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِن شُكرِ النِّعمةِ[11].

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفو).
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/247.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(5) الخليل، العين: (شكر).
(6) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (شكر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(9) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (شكر).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

نِعمةُ اصْطِفَاءِ اللهِ لموسَى عليه السلام، وحثّه على الشُّكْرِ علـى الـرّسـالـةِ والتّكلِيمِ

يعني أنّ اللّه تعالى قالَ لمُوسى عليه السلام: إنّي اخترْتُك، واتَّخذتُكَ صَفوةً، وفضَّلتُكَ، واجتبيتُكَ على النَّاسِ جزاءَ مُقابلتِكَ منعَ الرُّؤيةِ حينَ طلبتَها بمَحاسنِ الأفعالِ والأقوالِ تنزيهًا، وتسبيحًا، وتوبةً؛ فعدَّدَ تعالى عليه نِعَمَهُ الّتي أنعمَ بها عليه، وأمَرَهُ أن يَشتَغلَ بشُكرِها، كأنَّه قالَ له: إنْ كنتَ مُنِعتَ مِنَ الرُّؤيةِ الّتي طلبتَ فقَد أعطيتُكَ مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ كذا وكذا، فلا يضيقَنَّ صدرُك بسببِ مَنعِ الرُّؤيةِ، وانظرْ إلى سائرِ أنواعِ النِّعَمِ الّتي خصَصتُكَ بها، وهي الاصطِفَاءُ على النَّاسِ برِسَالاتي وبكلامي مِن غيرِ واسطةٍ؛ لأنّ غيرَهُ مِنَ الرُّسُلِ مُنِعَ كلامَ اللّهِ تعالى إلّا بواسطةِ المَلَكِ[1]، وخُذْ ما أعطيتُكَ مِن شرفِ الاصطِفَاءِ والنُّبوَّةِ والمُنَاجاةِ، وكُنْ مِنَ الرّاسخينَ في الشُّكرِ على ما أنعمتُ بهِ عليكَ، فأنتَ أُسوةٌ، وقُدوةٌ لأهلِ زمانِكَ[2].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنّه يجبُ على الإنسانِ المُؤمنِ حين يتلقَّى قضاءَ اللّهِ فيه أنْ يَنْظرَ دائمًا إلى ما بَقِيَ له مِنَ النِّعَمِ لا إلى ما سُلِبَ منها[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العُدولِ عَنِ الوَصْلِ إلى الفَصْلِ:

وُقـوعُ القَـولِ في مجالِ المُـحاوَرةِ والمـجاَوبـةِ، من فَصيحِ البَيانِ

جملةُ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ استئنافيّةٌ بيانيّةٌ؛ إذِ استأنفَ سُبحَانَه الإخبارَ بما منحَهُ إيّاهُ تسليةً له عمَّا منعَهُ، وأمرًا بشُكرِهِ، مُذكِّرًا إيّاه بنعمِهِ عليه في سِياقٍ دالٍّ على عظيمِ قَدرِهَا، وإيجابِ شُكرِها[4]. وفُصِلَت، ولم تُعطَفْ؛ لِوقوعِ القَولِ في طريقِ المُحاورةِ والمُجاوبةِ[5]،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/247.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/373.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/446.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

فالآيَةُ الكريمةُ مَسُوقةٌ لتسليتِهِ ﷺ عمّا أصابَهُ مِن عدمِ الرُّؤيةِ، فكأنَّه سُبحَانَهُ يقولُ لهُ: إنْ منعتُكَ الرُّؤيةَ فقد أعطيتُكَ مِنَ النِّعَمِ العظامِ ما أعطيتُكَ فاغتنِمْها، ودُمْ على شُكريِ[1].

نُكتَةُ التَّعْبيرِ بالنِّدَاءِ مع إظْهارِ المُنادَى:

مُناسبتُهُ مَقامَ التَّسْليةِ، وإزالةَ الـرّوعِ، ورفْـعَ الشَّأنِ

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ تعبيرٌ بالنِّدَاءِ، وهو: الدُّعَاءُ برفعِ الصّوتِ، والغايةُ منه أنْ يُصغِيَ مَن يُنادَى إلى أمرٍ ذي بَالٍ، والمُنَادَى هو المطلوبُ إقبالُهُ بحرفٍ مخصُوصٍ دلَّ على القُربِ هنا، وهو: (الياء) بما يحملُهُ من توكيدٍ ومُبالغةٍ؛ إذ فيه يُستثارُ المُنَادَى، ويُحرَّكُ، ويُنبَّهُ إلى ما يُلْقى إليه مِن أوامرَ ونواهٍ، فإذا أُلْقِيَ إليه الكلامُ كانَ مُستعِدًّا لتَقَبُّلِه، ولذلكَ عَدَلَ إلى التَّعبيرِ بالنِّدَاءِ. وإظهَارُ المُنَادَى وهو مُوسى ﷺ أنسَبُ لمقامِ العنايةِ بهِ، والتَّسليةِ، والتّأنيسِ وإزالةِ الرّوعِ، وفيهِ مزيدُ تَشريفٍ أنْ يناديَهُ الخالقُ جَلَّ في عُلاهُ باسمِهِ[2].

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في النِّدَاءِ:

نِـداءُ الكليمِ في مقامِ التّكليمِ، تَكليفٌ وتَشريفٌ

ولأنّ النِّدَاءَ هو الكلامُ الدّالُّ على طلبِ الإقبالِ، وأصلُهُ: جَهرُ الصَّوتِ لإسماعِ مَن يُنادَى، أطلقَ على طَلَبِ إقبالِ أحدٍ مَجازًا مُرْسَلًا، ومنهُ هذا النِّدَاءُ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ من خلالِ الكلامِ المُوجَّهِ إليهِ ﷺ من جانبِ اللّهِ تعالى[3].

تَوْجيهُ التّوكيدِ بالحرفِ المُؤكِّدِ (إنّ):

المبالغةُ بالعِنايةِ بــالمــرسَــلِ، والاهتمامِ بحالِهِ وتَميُّزِه

وتأكيدُ الخبرِ في قولِهِ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ بجملةٍ فعليّةٍ متضمّنةٍ ضَميرَ المُتَكلِّمِ؛ للاعتناءِ بشأنِه، وللاهتمامِ بموسى ﷺ بعد أنْ راعَهُ مَشهَدُ الدَّكِّ؛ إذ ليسَ مَحَلًّا للإنكارِ، وليستحثَّهُ تعالى على المطلوبِ

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/373.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/127 - 128.

منهُ[1]؛ أي: اخترتُكَ اختيارًا بَالِغًا كما يُختارُ ما يُصَفَّى مِنَ الشَّيءِ عَن كُلِّ دَنَسٍ[2].

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّعْبيرِ بضَميرِ التَّعْظيمِ:

المبالغةُ في القُرْبِ، تأنيسًا ورِفقًا، بهذا الرّسولِ المُكَرَّمِ

وعَدَلَ عَنِ التَّعبيرِ عَن نفسِهِ بمَظهَرِ العَظَمَةِ بضَميرِ التَّعظيمِ (إنَّا) إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ؛ تأنيسًا لهُ، ورِفقًا بهِ، ومزيدَ دلالةٍ على القُربِ منهُ، والتّشريفِ لهُ، فقالَ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾[3].

سِرُّ اختيارِ لفْظِ ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ دونَ سِواه:

لا يُستعمَلُ الاصْطِفاءُ إلّا في الخَيرِ والامْتنانِ، دونَ الأذَى والهَوانِ

لفظُ (اصْطَفَى) أصلُهُ: اصتفَى وهو افتَعَلَ مِن صَفَا يَصفُو انقَلَبَتِ التّاءُ طاءً لمكانِ الصّادِ، ومعناه: تَخَيَّرتُكَ وخَصَصتُكَ، ولا تُستعمَلُ إلّا في الخيرِ والمِنَنِ، لايُقالُ: اصطَفَاهُ لِشَرٍّ[4]. فالاصطِفَاء صيغةُ مُبالَغةٍ في الإصفاءِ، وهو مُشتَقٌّ مِنَ الصَّفْوِ، وهو الخُلُوصُ ممّا يُكَدِّرُ[5].

تَوجيهُ تَعْدِيَةِ الاصْطِفَاءِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

في الاصْطِفاءِ تفضيلٌ مُلمَحٌ، وثناءٌ مُفصِحٌ

الفعل (اصطفى) يتعدَّى بـ(من) نحو: (اصطَفَيتُك مِنَ النَّاس)، لكنّه ضُمِّنَ معنى (التّفضيلِ، والإيثارِ)، فعُدِّيَ بـ﴿عَلَى﴾؛ أي: فَضَّلتُكَ وآثرتُكَ بالاصطِفَاءِ أو اصطَفَيتُكَ مُفَضِّلًا، ومُوثِرًا إيّاكَ على النَّاسِ مِن أهلِ زمانِكَ بالرِّسَالةِ[6]، فدلَّ على إرادةِ جماعِ المَعنيينَ، وتحريرُ ذلك: أنّ استعمالَ الفعلِ (اصطَفَى) في هذا المَوضِعِ فيه قصدٌ إلى معنًى مُعيَّنٍ لا يتأتّى مِن دونِ ذكرِه. إلّا أنّ تعديتَهُ بغيرِ الحرفِ المُستعمَلِ معهُ فيهِ ضربٌ مِنَ التّوسُّعِ في المعنى مع غايةِ الإيجازِ، ومُؤدَّاهُ أنّ للفعلِ دلالةَ أصلِ معناه، وباستعمالِ حرفِ الجرِّ الّذي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/55، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(6) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 3/128، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/111، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

يتطلَّبُ فعلًا آخرَ يصبحُ للمُعادلةِ وجهان مُتكامِلان؛ إذ يؤدّي الفعلُ أصلَ مَعناهُ بالتّصريحِ بِهِ، ويقتضي حرفُ الجرِّ معنى الفعلِ الّذي يطلبُهُ بالتّضمينِ، وهذه قاعدةٌ شريفةٌ جليلةُ المِقدَارِ تستدْعي فِطْنَةً، ولَطَافَةً في الذّهنِ[1].

دِقّةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، دونَ غيرِهِ:

في لفْظِ النّاسِ، رَفعُ توهُّمِ إرادةِ الاصْطِفَاءِ، على غَيرِهِم

والتَّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فيه دِقّةٌ، وبيانٌ، فلم يَقُلْ: على الخَلْقِ، ولا اصطَفَيتُكَ فقط؛ لأنّه لو قالَ ذلكَ فقد يُفهَمُ الاصطِفَاءُ على الملائكةِ أيضًا؛ لأنَّ الملائكةَ تَسمَعُ كلامَ اللّهِ مِن غيرِ واسِطَةٍ، فَضْلًا عن أنّه أرسلَهُ وأرسلَ غيرَهُ، ولكنّ الاصطِفَاءَ هنا مُحدَّدٌ في دائرةِ الاصطِفَاءِ البشريِّ، وعلى النَّاسِ المُرسَلِ إليهم[2].

دَلالةُ العُمومِ مع إرادةِ الخُصوصِ، في لفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

تفضيلُ موسَى بالرِّسَالةِ مع الكلامِ بغيرِ وَاسِطَةٍ، من أعْظمِ التّكريمِ

وقولُهُ: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لفظٌ عامٌّ فيمَن شارَكَ موسى في الإرسَالِ، فإنَّ الأنبياءَ المُرْسَلينَ كلَّهُم مُشارِكونَ لهُ بكونِهِم رُسُلًا، فـ(أل) فيه جنسيّةٌ للاستغراقِ العُرفيِّ؛ أي: هو مُفضَّلٌ على النَّاسِ يومئذٍ؛ لأنّه رَسُولٌ، ولِتفضيلِهِ بمزيّةِ التّكليمِ، لكنّ معناه الخُصُوصُ؛ أي: على أهلِ زمانِكَ، أو يَبقى على عُمُومِهِ المُطلَقِ؛ ويعني: أنَّهُ خصَّهُ من دونِ النَّاسِ بمَجموعِ الأَمرَينِ: وهو الرِّسَالةُ مع الكلامِ بغيرِ وَاسِطةٍ، وهذا المَجموعُ لم يحصلْ لغيرِهِ. ويُحمَلُ ذلك على وقوعِ الكلامِ في الأرضِ؛ إذ ثَبَتَ أنَّ آدمَ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، وتُؤُوِّلَ على أنّ ذلكَ في الجنَّةِ وكذلك رسُولُنا مُحمّدٌ ﷺ؛ إذ يَظهَرُ من حديثِ الإسراءِ أنّهُ كلَّمَهُ اللّهُ تعالى[3].

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/258.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/359، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4345 - 4346.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/385، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

سِرُّ التّفريقِ بينَ اصْطفاءِ مُوسَى عليه السلام، واصطِفَاءِ غيرِه:

زيــادةُ شــرَفِ الــكــلامِ، مــن بــابِ اصْـطـفـاءِ الاصْطفاءِ

إنَّ الحقَّ جل جلاله قد اصطَفَى غيرَهُ أيضًا مِنَ الرُّسُلِ، كما قالَ سبحانَهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]، فهناك فَرقٌ بينَ اصطِفَاءِ رسالةٍ مُنفرِدَةٍ، وبينَ اصطِفَاءٍ في رسالةٍ، ومعَها شيءٌ زائِدٌ، فالاصطِفَاءُ هنا لُموسى بالرِّسَالةِ كما اصطَفَى غيرَهُ مِنَ الرُّسُلِ علاوةً على شرفِ الكلامِ: ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1].

نُكتَةُ تقديمِ (الرّسالاتِ)، على (الكلامِ):

مُراعاةُ التّرتيبِ، والــتّرقّــي إلى الأشْـرفِ، مَقامًا واصْطفاءً

وقدَّمَ ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ على ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾؛ لأنّ الرِّسَالةَ أسبَقُ في الزَّمانِ، أو لأنّه انتقلَ من شريفٍ إلى أشرفَ[2]؛ أي: ليترقَّى إلى الأشرفِ[3].

تَوْجيهُ قراءَتَي الجمْعِ والإفرادِ، للفْظِ ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾:

الـجـمْـعُ وحْـيٌ إلـيـه مَـرَّةً بعدَ أُخرى، والإفرادُ عـلـى إجْـرائِـه مَجرَى المَصْدَرِ

وقَرَأَ[4] أبو عمرو وابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ على الجمعِ؛ إذِ الّذي أُرسِلَ به ضروبٌ، وذلك أنّهُ تعالى أوحى إليه مَرَّةً بعدَ أخرى، فَصَحَّ جمعُ المَصدَرِ لاختلافِ أنواعِهِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وغيرُهُما ﴿بِرِسَالَتِي﴾ على الإفرادِ[5] الّذي يُرادُ به الجَمعُ، وتجري الرِّسَالةُ هاهنا مَجرَى المَصدرِ الّذي هو الإرسَالُ، فيجوزُ إفرادُها في مَوضِعِ الجمعِ[6]، ودلَّ هذا على أنّ قومَهُ لم يُشارِكوهُ في التَّكليمِ ولا وَاحِدٌ مِنَ السَّبعِينَ[7]، أو يكونُ على حَذفِ مُضافٍ؛ أي: بتبليغِ رِسالَتي؛ لأنّ مدلولَ الرِّسَالةِ غيرُ مدلولِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4345 - 4346.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/385.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/304.
(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 293، وابن الجزريّ، النّشر: 2/306.
(5) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي جعفر وروح، ومثبتة الألف في مصاحف المكيين. يُنظر: الدّانّي، التّيسير، ص: 113، وابن الجزريّ، النّشر: 2/372.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/192.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280.

المَصدَرِ[1]. وقولُهُ: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ هي في مَجموعِها رسالةٌ واحدةٌ، ولكنّ الرِّسَالةَ مع سيدِنا رسولِ اللّه ﷺ استمرَّت جزئيّاتُها ثلاثًا وعشرينَ سنةً في النّزولِ، فكأنّ كلَّ نجم رسالةٌ، أو كلَّ بابٍ مِن أبوابِ الخيرِ رسالةٌ، فهي رِسَالاتٌ مُتعدِّدةٌ، أو أنّ رِسَالَتَهُ جَمَعَتْ رِسَالاتِ السّابقِينَ[2]، أو أنّ المُرادَ أوقاتُ التّبليغِ بأنواعِ الأحكامِ، أو أسفارِ التَّوراةِ[3]، فالجمعُ باعتبارِ تعدُّدِ ما أُرسِلَ بِهِ مِنَ العقائدِ، والعباداتِ، والتّكاليفِ، والإرشاداتِ، والأحكامِ السّياسيّةِ، والحربيّةِ، والمدنيّةِ، والشّخصيّةِ[4]. ووجهُ الإفرادِ الإرسَالُ مَرَّةً واحدةً، أمّا الجمعُ فعلى المُطابَقةِ، والحُجَّةُ لِمَن وَحَّدَ أنَّ اللّه تعالى إنّما أرسلَهُ مَرَّةً واحدةً بكلامٍ كثيرٍ، والحُجَّةُ لِمَن جَمَعَ أنّه طابَقَ بينَ اللّفظينِ لتكونَ رِسَالاتي مُطابِقةً لكلامِي[5].

سِرُّ تَكرارِ حرفِ الجرِّ (الباء) في لفظِ ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾:

التَّكرارُ للمُغايَرة، وللتّنبيهِ على أنّ التّكلِيمَ كانَ مِن دونِ وَاسطةٍ

وكرَّرَ حرفَ الجرِّ توكيدًا، وتنبيهًا على مُغايرةِ الاصطِفَاءِ للتَّكليمِ عنِ الاصطِفَاءِ للرِّسَالاتِ[6]. وللتَّنبيهِ على أنّ التَّكليمَ كانَ مِن دونِ وَاسطةٍ[7].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بفعْلِ الأمرِ ﴿وَكُن﴾:

إيثارُ الأمْرِ لتّأكيدِ الامْتِثالِ، مع مَزيدٍ مِنَ التّأديبِ، والتّقْنيعِ له

وأمَرَهُ تعالى أن يَأخُذَ مَا آتاهُ مِنَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ في الأمرِ بِالأخذِ مَزيدَ تَأكيدٍ وحُصُولَ أجرٍ بالامتثالِ، والمعنى: خُذْ ما آتيتُكَ باجتِهادٍ في تبليغِهِ وجِدٍّ في النَّفعِ به[8]، وكذلك الأمرُ مع الفعلِ ﴿وَكُن﴾؛ أي: مِنَ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/385.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4346.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/259. وقد ضعّفَهُ الشّيخ رشيد رضا؛ لأنّ التّوراةَ ما أوحاهُ مِنَ الشّريعةِ إلى موسى، وهو موضوعُ رسالتِهِ، وتسميةُ الأسفارِ الخمسةِ بالتّوراةِ اصطلاحيّةٌ، وقد يُطلِقونَها على جميعِ كتبِ أنبياءِ بني إسرائيلَ قبلَ عيسى عليه السلام. يُنظر: رضا، تفسير المنار: 9/111.

(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/111، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

(5) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 163.

(6) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/304.

(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.

(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/385.

المُظهِرين لإحساني إليكَ وفَضلِي عليكَ[1]. ولمّا كانَ الشّاكرُ مُستَجلِبًا بشكرِهِ للمزيدِ مِنَ النِّعَم، كما قالَ تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7][2]، أصبحَ ذلكَ نوعًا من زيادةِ التّأديبِ، والتَّقنيعِ له، وحملًا على جادَّةِ السَّلامةِ، ومثالًا لكلِّ أحدٍ في حالِه، فإنَّ جميعَ النِّعَمِ مِن عندِ اللّهِ سُبحَانَهُ بمقدارٍ، وكُلُّ الأمورِ بمَرأًى منهُ تعالى ومَسمَعٍ[3].

سِرُّ تخْصيصِ الفعْلَين به ﷺ:

ولمّا كانَ الاصطِفاءُ مُقتَضيًا لِغايةِ الإقبالِ والنّشاطِ، سبَّبَ عنهُ قولَهُ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾؛ أي: مُخصِّصًا لَكَ بهِ[4]، على تقديرِ الضَّميرِ المُستترِ (أنت) فاعلًا لفعلَيِ الأمر.

ظاهرةُ الجمْعِ بينَ الرّسالةِ والتّكليمِ، خرقٌ للمألوفِ مع الرُّسُلِ

دَلالةُ الجمْعِ بينَ الماضي والأمرِ:

ظاهرُ قولِه: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ يُنتِجُ تحصيلَ الحاصلِ؛ لكونِ الاصطِفاءِ والتَّكليمِ قد أوتيَهُمَا، وأخَذَهُما فكيف يقولُ: خذْ ما آتيتُكَ؟ والجوابُ مِن وجهين: إمّا بالتَّجوُّزِ في لفظِ ﴿فَخُذْ﴾؛ فيكون بمعنى: (اقنَعْ بما آتيتُكَ، ولا تَطلُبْ أكثرَ منه)، وإمّا أنْ تكونَ ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾، مَاضيًا بمعنى المُستقبَلِ؛ أي: (ما يأتيكَ مِنَ الوحْيِ)[5].

الجمعُ تجوُّزٌ في اللّفْظِ، أو يكونُ المُضيُّ بمعنَى المُستقبَلِ

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في قولِه: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾:

استعارَ الأخذَ للرّضى، وحقيقةُ الأخذِ التّناولُ باليَد؛ أي: ارْضَ بما آتيتُكَ[6].

دِقّةُ الاسْتِعمالِ، تدلُّ على ما في ألفاظِ القرآنِ من كمالٍ

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ الإيتاءِ، بينَ المَجازِ المُرسَلِ والحقيقةِ:

﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ قيلَ هو الشَّريعَةُ والرِّسَالةُ، فالإيتاءُ مَجازٌ أُطلِقَ

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، والثّعالبيّ، الجواهر الحسّان: 3/76، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/259.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/251.

(6) الأندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/425.

الإيتاءُ تعليمٌ وإرشادٌ، أو إعطاءٌ على وجهِ الحقيقةِ

على التّعليم والإرشادِ، والأخذُ مَجازٌ في التَّلقّي والحِفظِ، والأظهَرُ أن يَكونَ ما آتيتُكَ إعطاءَ الألواحِ بِقرينةِ قولِه: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، وقد فُسِّرَ بذلكَ، فالإيتاءُ حَقيقةٌ، والأخذُ كذلِكَ، وهذا أليَقُ بِنَظمِ الكَلامِ مع قولِهِ: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾، ويَحصُلُ به أخذُ الرِّسَالةِ والكلامِ وزيادةٌ[1].

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ الثَّاني، مِن قولِهِ: ﴿ءَاتَيۡتُكَ﴾:

في عمومِ الإيتاءِ تفضُّلٌ غامِرٌ، يَنِمُّ عن أسمَى المآثِرِ

استغنى بالمفعولِ الأوّلِ مِن قولِهِ: ﴿ءَاتَيۡتُكَ﴾، وهو الكافُ مِنَ الفعلِ المُعدَّى بالألفِ (آتيت)، ولم يُعَدِّهِ إلى مفعولِهِ الثّاني، وهو الضَّميرُ العائدُ على الاسمِ الموصولِ (ما) لإعمامِ ما آتاهُ، واستغراقِ أنواعِهِ تفَضُّلًا ومنَّةً، يُؤَكِّدُ ذلك التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ (ما) الدّالِّ على العُمُومِ.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ الشُّكْرِ، بصيغةِ اسْمِ الفاعِلِ:

صيغةُ الصِّفَةِ مِنهُ، تَدُلُّ على التَّمَكُّنِ مِنهُ، والرُّسُوخِ فيه

وقولُهُ: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: كُنْ مِنَ العَريقِينَ في صفةِ الشُّكرِ المَجبُولِينَ عليها[2]، مَعدودًا في عِدادِ الشَّاكِرِينَ بأن يكونَ لك إسهامٌ كاملٌ فيهم، وحاصِلُهُ: كُنْ بَليغَ الشُّكرِ؛ فإنَّ ما أنعَمتُ به عليكَ مِن أجَلِّ النِّعَمِ[3]، فالإخبارُ عَن (كُنْ) بقولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: كُنْ شَاكِرًا[4].

دَلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ الشُّكْرِ، في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

في الحذْفِ دلالةٌ على عُمومِ الشُّكْرانِ، لِعَطاءاتِ الرَّحمنِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: "في الشُّكرِ لِنِعمَتي بِها عليكَ وعلى قَومِكَ، وذَلِكَ بِإقامَتِها بقُوَّةٍ وعَزيمةٍ، والعَمَلِ بها، وكَذا لِسائِرِ نِعَمِي، فَإِنَّ حَذفَ مُتَعَلِّقِ الشُّكرِ يَدُلُّ على عُمُومِهِ"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/56.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/112.
(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/112.

جَمالُ الإجْمالِ والتَّفْريعِ في الآيةِ:

مَلْمَحُ التّفنُّنِ في التّعبير، والتّناسُبِ في النَّظْمِ

فرَّعَ على قولِه: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ بقولِه: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، والأوّلُ: تَفريعٌ على الإرسَالِ والتَّكليم، والثّاني: تَفريعٌ على الامتِنانِ، وما صَدَقَ عليه[1]. وفي قولِه سُبحَانَه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إشارةٌ لطيفةٌ، كأنّه قالَ: لا تكُنْ مِنَ الشَّاكِينَ؛ أي: إنْ منعْتُكَ عن سُؤْلِكَ، ولم أُعْطِكَ مَطلُوبَكَ فلا تشكِ إذا انصرفتَ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاصْطِفَاءُ، والاخْتِيَارُ، والإيثارُ، والاجْتِباءُ، والاسْتِخلاصُ، والتَّفْضيلُ[3]:

الاصْطِفَاءُ أخذُ صَفْوِ الشَّيءِ، لخُلُوصٍ مِن كُلِّ شَوْبٍ وكَدَرٍ، وهو آثَرُ في السِّياقِ

الاصطِفَاءُ: مِن صَفَوَ: وهو أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوصٍ مِن كُلِّ شَوْبٍ وكَدَرٍ[4]. والاصطِفَاءُ تَنَاولُ صفْوِ الشَّيءِ، كما أنّ الاختيارَ تَنَاولُ خيْرِهِ، والاجتباءَ: تَنَاولُ جِبايتِهِ[5]. فهو أَخذُ مَا يَصفُو منَ الشَّيءِ[6]؛ لِخلُوِّهِ من كُلِّ شَوْبٍ وكَدَرٍ؛ كاصطِفَاءِ آدمَ، ونوحٍ، وآلِ إبرَاهِيمَ، ومُوسَى وَهَارُونَ، ورسولِنا مُحَمَّدٍ، صلّى اللّه عليهم وسلّم وبارك، فهُم صَفوةُ الخَلقِ، وخيارُهُم[7].

والاختِيَارُ أخذُكَ خيرَ مَا في الشَّيءِ في الحَقِيقَةِ أَو خَيرَهُ عندَكَ[8]، والمُختارُ هُو المريدُ لخيرِ الشَّيئَينِ في الحقِيقَةِ أو خيرِ الشَّيئَينِ عِندَ نَفسِهِ[9]، كَأَنّ المُختَارَ يَنظرُ إِلَى طَرفَينِ، ويميلُ إِلَى أَحدِهمَا[10].

والإيثارُ: هُوَ الاختِيَارُ المُقدَّمُ، فهو تفضيلٌ وتخصيصٌ مع تقديمٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.
(3) سعد، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/183 - 187.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).
(5) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(7) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 130.
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(9) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.
(10) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 62.

وَلذَا يُقَالُ: آثرتُكَ بِهَذَا الثَّوبِ، وَلَا يُقَالُ: اخترتُك بِهِ، وإِنَّمَا يُقَالُ: اختَرتُك لهَذَا الأَمرِ[1].

والاجتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصطِفَاءِ[2]، وهو أيضًا: تناولُ جابتِهِ؛ أَي: وَسطهُ، وَهُوَ المُختَارُ[3].

والاستخلاصُ: الخَاءُ واللَّامُ والصَّادُ أَصلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ تَنقِيَةُ الشَّيءِ وَتَهذِيبُهُ[4]، والخالِصُ كالصّافي إلّا أنّ الخالِصَ هو ما زالَ عنهُ شَوبُهُ بعدَ أنْ كانَ فيه[5].

والتّفضيلُ: الفاءُ والضّادُ واللّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على زِيادَةٍ في شَيءٍ. مِنْ ذَلِكَ الفَضلُ: الزِّيَادَةُ والخَيرُ[6]، فالفضلُ: الزّيادةُ عن الاقتصادِ[7]، وفَضَّلَهُ على غيرِهِ: إذا شَهِدَ لهُ بالفضلِ عليه، وفضَّلَهُ عليه في العطاءِ؛ أي: زادَهُ، وفاضَلَ بينَ الشّيئينِ مُفاضَلَةً وفضالًا؛ أي: حكَمَ بالفَضلِ لأحدِهما[8]، وكُلُّ عَطِيَّةٍ لَا تَلْزَمُ مَن يُعطي يُقَالُ لَهَا فَضْلٌ[9].

وعليه، فالاصطِفَاءُ هو أنسبُ الألفاظِ في الدّلالةِ على المُرادِ مِنَ الآيَةِ؛ لكونِهِ اصطِفَاءً لنبيٍّ مُرسَلٍ لا تشوبُ اسمَهُ وسيرتَهُ شائبةٌ، فهو الصَّفوةُ.

الحمدُ والشُّكرُ:

الحمدُ مُختَصٌّ بالصّفاتِ الذّاتيّةِ، ويأتي ابتداءً، والشُّكرُ مُختَصٌّ بالنِّعَمِ، ويأتي اختِتامًا

الشُّكرُ: تصوُّرُ النِّعمةِ وإظهارُها[10]، والشُّكرُ لا يُقالُ إلّا في مُقابلةِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّ، ص: 124 - 125.
(2) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 130.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلص).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(7) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(8) الحميريّ، شمس العلوم: 8/5209.
(9) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 675.
(10) الرّاغب، المفردات: (شكر).

نعمةٍ، فكلُّ شُكرٍ حَمدٌ، وليسَ كلُّ حَمدٍ شُكرًا، فالحمدُ للّهِ الثّناءُ عليهِ بالفضيلةِ، وهو أعمُّ مِنَ الشُّكرِ[1]؛ لأنّه يكونُ عَن يَدٍ وَعَن غيرِ يَدٍ، وَالشُّكْرُ لَا يكونُ إلَّا عَن يَدٍ[2].

والشُّكرُ أَعمُّ من جِهَةِ أَنواعِهِ وأَسبابِهِ، وأَخَصُّ من جِهَةِ مُتَعلَّقاتِه، فالحَمدُ أَعَمُّ من جِهَةِ المُتَعَلِّقاتِ، وأَخَصُّ من جِهَةِ الأَسبابِ؛ لأَنّك تَحمَدُ الإنسانَ على صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ وعلى عَطَائِه، ولَا تَشكُرُهُ على صِفَاتِه، فلَا يُقَالُ: شَكَرْنا اللّهَ على حَيَاتِه وسَمعِهِ وبَصرِهِ وعِلمِه، وَهُوَ المَحمُودُ بهَا، كَمَا هو مَحمودٌ على إِحسانِه وعَدْلِه. والشُّكرُ يكونُ بالقَلبِ خُضُوعًا واستكانَةً، وباللِّسانِ ثَنَاءً واعترافًا، وبالجوارِحِ طاعَةً وانقيادًا، فهو إظهارُ النِّعَمةِ والإِشادَةُ بِهَا، ويكونُ على الإِحسانِ والنِّعَمِ، فكلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الشُّكرُ يَتَعَلَّقُ بِهِ الحَمدُ، مِن غَيرِ عَكسٍ، وكُلُّ مَا يَقَعُ بِهِ الحَمدُ يَقعُ بِهِ الشُّكرُ، مِن غيرِ عكسٍ، فإِنّ الشُّكرَ يَقَعُ بالجَوَارِحِ، والحَمْدَ باللِّسَانِ[3].

وممّا يَلفتُ النّظرَ أنّ الحمدَ في القرآنِ يأتي بَدْءًا، أمّا الشُّكرُ فيأتي بعدَ ذكرِ النِّعَم مُختَتَمًا بِهِ الآياتُ الكريمةُ، ممّا يدُلُّ على أنّ الحمدَ لِمُطلَقِ الثّناءِ، وأنّ الشُّكرَ يكونُ مُكافأةً لِمَن أولاكَ مَعرُوفًا[4].

ومِن هنا كانَ اختيارُ الشُّكرِ مَقصودًا في مُختتَمِ الآيَةِ الكريمةِ بلفظِ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ لكونِهِ جاءَ بعدَ تَعدادِ نِعَمِهِ تعالى على رسولِهِ مُوسى عليه السلام بالاصطِفَاءِ، والتَّكليمِ، والرِّسَالاتِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (حمد).
(2) ابن سيده، المحكم: (حمد) و(شكر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حمد)، والزّبيديّ، تاج العروس: (شكر).
(4) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 198.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بـيـانُ بـعـضِ مَظاهرِ تشْريفِ مُـوسَى الكليمِ بالرِّسالةِ، بعدَ ذِكْرِ اصْطفائِهِ

ولمّا انقضى ما آنسه سُبحَانَه به، لَفَتَ مُوضِّحًا عظيمَ ما آتاهُ مِن مَظاهرِ التّشريفِ والعظمةِ، مُبيِّنًا تلكَ الرِّسَالةَ، ومُفصِّلًا بعضَ ما كانَ مِنَ النِّعَمِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾: اللَّامُ والواوُ والحاءُ أَصلٌ صَحيحٌ، مُعظَمُه مُقارَبَةُ بَابِ اللَّمَعَانِ. يُقَالُ: لَاحَ الشَّيءُ يَلُوحُ، إِذَا لَمَحَ وَلَمَعَ، وَالمَصدَرُ اللَّوحُ، وهو: الوَاحِدُ مِن أَلواحِ السَّفينَةِ؛ وَهُوَ أيضًا كُلُّ عَظم عَريضٍ. وَسُمِّيَ لَوْحًا لِأَنَّه يَلُوحُ[2]. المعنى المحوريُّ عِرَضُ ظاهرِ الشَّيءِ واستواؤُه مع جفافٍ أو صَلابةٍ. وعِرَضُ الظّاهرِ واستواؤُه يَلزمُهُ زيادةُ ظهورِهِ ولمعانِهِ[3]. وهذا بيانُ علاقةِ اللّفظِ بأصلِه. فاللّوْحُ: كلُّ صحيفةٍ عَريضةٍ مِن صفائحِ الخشبِ والعظمِ، ونحوهما[4]، وبذا يكونُ معنى الألْوَاحِ في الآيَةِ الكريمةِ جمعَ لَوحٍ بفتحِ اللّامِ، وهو قِطعَةٌ مُرَبَّعَةٌ مِنَ الخشبِ، يُكتَبُ عليها[5].

2) ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾: الوَاوُ والعَينُ والظَّاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. فَالوَعظُ: التَّخويفُ. والعِظَةُ المَوعظةُ الاسمُ مِنهُ، وهو تذكيرُكَ إيّاهُ الخيرَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوح).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لوح).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (لوح).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.

ونحوُهُ ممّا يرقُّ له قلبُهُ، ويلينُ مِن ثَوَابٍ وعِقابٍ[1]. والوَعظُ: النُّصحُ والتّذكيرُ بالعَواقبِ[2]، وهوَ أيضًا: زَجرٌ مُقترِنٌ بتخويفٍ[3]. ومِن معانيه أنْ لا تُنشئَ حُكمًا للسّامعِ، بل تَعظه بتنفيذِ ما عُلِمَ له مِن قبل[4]. والموعظةُ على هذا (كلامٌ أو عملٌ) يُنَبَّهُ به الإنسانُ إلى عواقبِ ما يفعلُهُ، أو ما هو مُقْدِمٌ عليه (لِيتوقَّفَ عنه)، كما هو واضحٌ في معنى الوعظِ. وقَيْدُ التَّوقُّفِ يُؤخَذُ مِنَ التّذكيرِ بالعَواقبِ، وكأنّ الأصلَ في معنى التّركيبِ أنَّه خاصٌّ بالزّجْرِ عمَّا له عواقبُ سيّئةٌ حسْب، ثمّ عُمِّمَ في الحضِّ على ما له ثوابٌ[5].

3) ﴿بِقُوَّةٍ﴾: القَافُ والوَاوُ والياءُ أَصلَانِ مُتَبَايِنَانِ، يدُلُّ أحَدُهُما على شِدَّةٍ وخِلَافِ ضَعفٍ، وهو القُوَّةُ، وَالقَوِيُّ: خِلَافُ الضَّعيفِ. وأَصلُ ذَلِكَ مِنَ القُوَى، وَهِيَ جَمعُ قُوَّةٍ مِن قُوَى الحَبلِ[6]. وتُستعمَلُ تارةً في مَعنى القُدرةِ نحو قولِه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، وتارةً للتَّهيُّؤِ المَوجودِ في الشّيءِ، ويُستعمَلُ ذلك في البدَنِ تارةً، وفي القلبِ أُخرَى، وفي المُعاوِنِ مِن خارجٍ تارةً، وفي القُدرةِ الإلهيّةِ تارةً[7]، وما في القرآنِ مِن تركيبِ (القوّة) بمعنى شِدّةِ البدنِ والتئامِ الأثناءِ، وهو ضدُّ الضّعفِ[8]؛ أي: بجدٍّ وصحّةٍ وعزيمةٍ[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

كِتابةُ الألْواحِ مَوعظةٌ وتفصيلٌ، والأمْرُ بأخْذِها بقوّةٍ وقُدْوةٍ

معنى الآيةِ أنّنا أعطيْنا مُوسى عليه السلام ألواحًا، كتبْنا له فيها مِن كلِّ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (وعظ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وعظ).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4348.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(7) الرّاغب، المفردات: (قوى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوو).
(9) الواحديّ، الوجيز، ص: 412.

نوعٍ مِن أنواعِ الهِدايةِ، يحتاجُ إليها في أمرِ دينِه، مَوعظةً مِن شأنِها أن تُؤثِّرَ في القلوبِ ترغيبًا، وترهيبًا، وتفصيلًا لكلِّ نوعٍ مِن أصولِ التّشريعِ، وهي أصولُ العقائدِ والآدابِ، وتفصيلُ أحكامِ الحلالِ والحرامِ والحدودِ، وأمرناهُ بأخذِها بجدٍّ، وصحّة عزيمة، واجتهادٍ، وقوَّةِ قلبٍ، وأن يَأمُرَ قومَهُ أن يأخذوا بأحسنِها - وكلُّها حسنٌ -، بأنْ يحلُّوا حلالَها، ويُحرِّموا حرامَها، ويتدبَّروا أمثالَها، ويَعملوا بمُحكمِها، ويقفوا عندَ مُتشابِهِها، أو يأخذوا بأحسنِ الأمرين منها في كلِّ شيءٍ.

سأريكُم جهنَّمَ، ولْتكنْ على ذكرٍ مِنكُم لِتحذروا أن تكونوا منهُم، أو أريكُم مَنازِلَ القرونِ الماضيةِ في الشّامِ الّذين خالَفُوا أمرَ اللّهِ لِتعتبروا بها. وقِيلَ: أرادَ دارَ فِرعونَ وقومِه، وهي مِصرُ، وقِيلَ: مَصارِعُ الكفّارِ، أو: ما مرُّوا عليهِ إذا سافروا مِن مَنازِلِ عادٍ وثمودَ والقرونِ الّذين أهلكوا[1].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنَّ الكتابَ الإلهيَّ وتشريعاتِهِ يجبُ أخذُها بقوَّةٍ وإرادةٍ وجدٍّ وعزيمةٍ؛ لِتنفيذِ ما هدَتْ إليها مِنَ الإصلاحِ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ:

الـعُـدولُ إلى العطفِ صلةٌ

عُطِفَ على جملةِ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ لأنَّ فيها: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾، والّذي آتاهُ هو ألواحُ الشَّريعَةِ، أو هو المَقصودُ من قولِه: ﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾[3].

التَّعبير بالماضي في ﴿وَكَتَبْنَا﴾، وإضافته إلى نفْسِهِ:

دلالة على وقوعِ الفعْلِ بصِيغةِ التّشْريفِ

التَّعبِيرُ بالماضي دلالةٌ على تحقُّقِ وقوعِ الفعلِ، وأضافَ الكتابة

(1) الواحديّ، الوجيز، ص: 412، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/281 - 282، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/163.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/167.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.

إلى نفسِهِ على جهةِ التّشريفِ؛ إذ هي مَكتوبةٌ بأمرِهِ ووحْيِهِ سواءً كانَ الكاتبُ لها مُوسى أو كتبَها جبريلُ عليه السلام بالقلمِ الّذي كَتَبَ به الذِّكرَ[1]، أو بمعنى: أنّ ذلكَ كانَ بمحضِ قُدرةِ اللّهِ تعالى، وصُنعِهِ من غيرِ فعلِ إنسانٍ، فلا كَسبَ لأحدٍ فيه[2].

نُكتَةُ الالْتفاتِ إلى ضَمِيرِ التَّعظيمِ، في: ﴿وَكَتَبۡنَا﴾:

شَأنُ كِتابةِ الأَلْوَاحِ عظيمٌ، وكتابتُها كانت بِعَظَمتِهِ تعالى

لَمّا كانَ قوامُ أمرِ الآيَةِ السَّابقةِ مَبنيًّا على إظهارِ عطاياه تعالى على مُوسى عليه السلام مَحفوفةً بالتَّشريفِ، والتّأنيسِ، والتَّسليةِ عمّا أصابَهُ مِن عدمِ الرُّؤيةِ، وإزالةِ ما راعَهُ من مَشهَدِ الرُّؤيةِ كانَ مُناسبًا أن يأتي بضَميرِ الإفرادِ (تاء الفاعل لِلمُتكلِّم، وياء المُتَكلِّم)؛ للدّلالةِ على القُربِ، وحينَ انتقلَ إلى مَشهَدِ كتابةِ الأَلْوَاحِ الّذي لا يُشارِكُهُ في كتابتِها أحدٌ، ولِعِظَم شأنِها بوصْفِها شرائعَ دينٍ، وأحكامَ مِلّةٍ، وقوانينَ حياةٍ، ناسبَ ذلك التَّعبيرُ بضَمِيرِ التَّعظيم (نا)، أو كتبْنا الأَلْوَاحَ بعَظَمَتِنا[3].

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾:

التَّنبيهُ على عَظَمتِها واختصاصِها بهذا الاسمِ

عرّفَ ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾؛ لعظمتِها، وتنبيهًا على أنّها لِجَلالةِ ما اختُصَّت بِهِ، كأنَّها المُختَصَّةُ بهذا الاسم، وأعظَمُ من هذا، جَعَلَ قَلبَ النَّبيِّ الأُمِّيِّ لَوحًا قابِلًا لما يُلقَى إليه، جامِعًا لِعُلُوم الأوَّلِينَ والآخِرِينَ[4].

والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ يجوزُ أن يكونَ تعريفَ العهدِ، إنْ كانَ ما آتيتُكَ مُرادًا بِهِ ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ الّتي أُعطِيَها مُوسى في المُناجاةِ، فَساغَ أنْ تُعَرَّفَ تَعريفَ العَهدِ، كأنَّهُ قِيلَ: فخُذْ ألواحًا آتَيتُكَهَا، ثمّ قِيلَ: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، وإذا كانَ ما آتيتُكَ مُرادًا به الرِّسَالةُ والكلامُ كانَ التَّعرِيفُ في الأَلْوَاحِ تعريفَ الذّهنيِّ (تعريف الماهيَّة)؛ أي: وكتبْنا

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/281، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/164.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/164، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.

لهُ في ألواحٍ مُعيَّنةٍ مِن جنسِ ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾[1]، وذَهَبَ ابنُ عطيّةَ إلى أنّها عِوَضٌ مِنَ الضَّميرِ الّذي يُقدَّرُ وَصْلُهُ بينَ الأَلْوَاحِ وموسى ﷺ، تَقديرُهُ: في ألواحِهِ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النّازعات: 39]؛ أي: مَأواهُ[2].

بيانُ أنَّ المكتوبَ أشياءُ مِن كلِّ شيءٍ، لاستيعابِ مَطلوباتِ النّاسِ

دَلالةُ ﴿مِن﴾ بينَ التّبعيضِ والاسْميّةِ:

و﴿مِن﴾ الّتي في قولِهِ: مِن كلِّ شيءٍ تبعيضيّةٌ؛ أي: كتبْنا له أشياءَ مِن كلِّ شيءٍ، مُتعلِّقةٌ بـ ﴿وَكَتَبْنَا﴾ ومفعولُهُ مَحذوفٌ دلَّ عليهِ فِعلُ كتبْنا؛ أي: مَكتُوبًا، ويَجوزُ جَعلُ ﴿مِن﴾ اسمًا بمعنى بَعضٍ، فيكونُ مَنصُوبًا على المفعولِ بهِ بِكَتَبنا؛ أي: كتبْنا لهُ بَعضًا مِن كلِّ شيءٍ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: 16][3].

الاقْتِصارُ على ما يَحتاجونَهُ في دينِهِم، يجعلُه عُمومًا عُرفيًّا، وليسَ مُطلَقَ عمومٍ

دَلالةُ العُمومِ في: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾:

﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ عامٌّ عُمُومًا عُرفيًّا؛ أي: كلُّ ما يحتاجُ إليه مُوسى وقومُهُ في دينِهِم مِنَ الحلالِ والحرامِ والمَحاسِنِ والمَقابِحِ[4] على طريقةِ قولِهِ تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 138] على أحَدِ تَأويلَينِ في أنَّ المُرادَ مِنَ الكتابِ القُرآنُ، وعلى طريقةِ قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]؛ أي: أُصُولَهُ[5]. وقِيلَ: مِنَ التّذكيرِ والتّنبيهِ على عظمةِ اللّهِ وعزِّ سُلطانِهِ[6]، ومِنَ الأحكامِ والوعظِ[7].

سِرُّ الجمْعِ بينَ المَوعِظةِ والتّفصيلِ:

قولُهُ: ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ كالبيانِ للجملةِ الّتي

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/452، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، وعارضَهُ السّمين الحلبيّ بأنّه لا ضرورةَ في هذه الآيةِ تدعو إلى هذا التّوجيه. ينظر: الدُّرّ المصون: 5/452.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/453، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/97.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/193.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/97.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/106.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/259.

قدَّمَها بقولِه: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ وذلك لأنَّه تعالى قسَّمَهُ إلى ضَربَينِ: أحدُهُما: ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾، والآخرُ: ﴿وَتَفۡصِيلٗا﴾ لِما يَجبُ أن يُعلَمَ منَ الأحكام، فَيَدخُلُ في المَوعِظةِ كُلُّ ما ذكرَهُ اللهُ تعالى مِنَ الأمورِ الّتي تُوجِبُ الرّغبةَ في الطّاعَةِ والنَّفرَةَ عنِ المَعصيةِ، وذلكَ بذكرِ الوعدِ والوعيدِ، ولمّا قرَّرَ ذَلكَ أوّلًا أتبَعَهُ بِشَرحِ أقسامِ الأحكامِ وتَفصيلِ الحلالِ والحرامِ فقالَ: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[1]؛ أي: أنَّ الكلامَ لم يأتِ مُجمَلًا، بل يأتي بالتّفصيلِ[2]. والمَوعِظةُ نُصحٌ بإرشادٍ مَشُوبٍ بتحذيرٍ من لَحاقِ ضُرٍّ في العاقبةِ أو بتحريضٍ على جَلْبِ نَفعٍ، مَغفُولٍ عنهُ[3]، وعبَّرَ عنهما بصيغةِ اسمِ المَصدرِ (المَوعظة)؛ لتعني الإتيانَ بالخبرِ على أحسنِ وجهٍ، وأتمِّه نَفعًا وبيانًا، وبالمَصدَرِ (التّفصيل) لِمَا في ذلك مِن قوّةٍ في التَّعبيرِ عنِ الحدثِ، وشدّةٍ في إرادتِهما.

قــرَّرَ ما يُـوجِـبُ الرّغبةَ بالطّاعةِ، ثـــمّ أتـبـعَـهُ بتفصيلِ الحَلالِ والحَرامِ

فائِدةُ تقْديمِ المَوعظةِ على التَّفْصيلِ:

قولُهُ تعالى: ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أخذوا منه أنّه ينبغي للرّسولِ أن يُقدِّمَ المَوعظةَ والتّذكيرَ على التّكليفِ بالشّرائعِ والأحكامِ[4]؛ لكونِها الأولى في طريقِ التّبليغِ، وللإيذانِ بأنّ الاهتمامَ بها أشدُّ والعنايةَ بها أتمُّ، ولكونِها كذلكَ كَثُرَ مَدحُ النّبيِّ ﷺ بالبشيرِ النّذيرِ، وإشعارٌ بأنّ الموعظَةَ ممّا يَجِبُ أن يُرجَعَ إليه في كلِّ أمرٍ يُذكَرُ به، ألَا يَرى إلى أنَّ أكثَرَ الفواصلِ التّنزيليّةِ والرُّدُودِ على هذا النّمطِ نحوَ: (أفلا تتّقون) (أفلا تذكّرون)، وإلى سورةِ الرّحمنِ كيفَ أُعيدَ فيها ما أُعيدَ؛ وذَلكَ لِيَستأنِفَ السّامِعُ بِهِ ادّكارًا واتّعاظًا، ويُجَدَّدَ تَنبيهًا واستيقاظًا[5].

المَوعظةُ أولَى في طريقِ التّبليغِ، والـعـنـايـةُ بها أشدُّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/193.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/98.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/252.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/57.

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿فَخُذۡهَا﴾، على طريقِ المَجازِ:

أخـذُ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إشارةٌ إلى معنَى التّلقّي والحِفْظِ

لم يُعَدَّ فِعلُ الأخذِ بالباءِ في قولِه: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾؛ أي: لم يقُل: (خُذْ بها بقوّةٍ)؛ لأنَّه هنا مَجازٌ في التّلقّي والحفظِ؛ وهو أهَمُّ مِنَ الأخذِ بمعنى التَّمسُّكِ والعَمَلِ، فإنَّ الأوّلَ حَظُّ وليِّ الأمرِ والثّاني حَظُّ جَميعِ الأُمَّةِ. والباءُ في قولِه: ﴿بِقُوَّةٖ﴾ لِلمُصاحَبةِ[1]. ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾: فيه إشارةٌ إلى أنَّ الأخذَ يشيرُ إلى غايةِ القُربِ، والمُرادُ هاهنا صفاءُ الحالِ؛ لأنَّ قُرْبَ المكانِ لا يَصِحُّ على اللهِ سُبحَانَه[2].

نُكْتةُ الحذْفِ، في قولِه: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾:

إيجازٌ، لِدلالةِ الكلامِ على المحذوفِ

في الكلامِ حذفٌ؛ أي: فقلْنا له: خذْها بقوّةٍ؛ أي: بجدٍّ ونشاطٍ.[3]، واستُغني بالمذكورِ إيجازًا لدلالةِ الكلامِ عليه.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بلفْظِ (القوّةِ)، دونَ غيرِه:

القوّةُ كلُّ ما يتأتى به عمل ما يَشقُّ، والعزمُ عليه بمُنتهَى الجِدِّ والحِرْصِ

القُوّةُ حَقيقتُها حالَةٌ في الجِسمِ يَتأتّى لهُ بها أن يَعمَلَ ما يَشُقُّ عَملُهُ في المُعتادِ فَتكونُ في الأعضاءِ الظّاهِرَةِ مِثلَ قُوَّةِ اليَدَينِ على الصُّنعِ الشّديدِ، والرِّجلَينِ على المَشيِ الطّويلِ، والعَينَينِ على النّظرِ لِلمَرئيّاتِ الدّقيقةِ، وتكونُ في الأعضاءِ الباطِنةِ مِثلَ قُوَّةِ الدِّماغِ على التّفكيرِ الّذي لا يَستطيعُهُ غالِبُ النَّاسِ، وعلى حِفظِ ما يَعجِزُ عَن حِفظِهِ غالِبُ النَّاسِ، ومنهُ قولُهم: قُوّةُ العقلِ. والقُوَّةُ هنا في قولِهِ: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ تمثيلٌ لحالةِ العزمِ على العملِ بما في ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، بِمُنتهى الجِدِّ والحِرصِ دونَ تأخيرٍ ولا تَساهُلٍ ولا انقِطاعٍ عندَ المَشَقَّةِ ولا مَلَلٍ، بِحالةِ القَويِّ الّذي لا يَستعصِي عليهِ عَمَلٌ يُريدُهُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ في سورة [مريم: 12][4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99 - 100.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/281.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99 - 100.

بَلاغةُ الالْتِفاتِ إلى خِطابِ مُوسَى عليه السلام:

الموعِظةُ والتّفصيلُ - على وجازتِهما - بما كانتا سببًا ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: لأنّهما - مع كونِهما أمَّهاتٍ وجَوامِعَ - مفصَّلتان، تَرجِعُ إليهما بُحورُ العلم، وتَنشَقُّ منهما يَنابيعُها. ولمَّا كانَ هذا هَكذَا تَسبَّبَ عنهُ حَتمًا قولُهُ تعالى التِفاتًا إلى خِطابِ مُوسى عليه السلام بِخطابِ التّأنيسِ إشارةً إلى أنَّ التزامَ التّكاليفِ صَعبٌ[1].

المــوعِــظـــةُ والتّفصيلُ سَببٌ لـكـلِّ شَيءٍ، انْـبـثـقَ عنه خِطابُ التّأنِيسِ

دَلالةُ أفعالِ الأمْرِ، على نزْعِ الإنسان ممّا ألِفَ واعْتادَ:

ولأنَّ الإنسانَ حينَ يُؤمَرُ أمرًا قد يكونُ الأمرُ مُخالِفًا لرتابةِ مَا ألِفَ، وحين يُنهَى نهيًا قد يكونُ هذا النّهيُ مُخالِفًا لرتابةِ ما أَلِفَ، وبذلكَ ينزِعُ هذا النّهيُ أو ذلك الأمرُ الإنسانَ ممّا أَلِفَ، ويأخذُهُ ويخرِجُهُ عمّا اعتادَ.

بيانُ مُواجَهةِ إلْفِ النّفسِ، بِمُتَطّلباتِ المنْهجِ المُنزَّلِ

إنَّ الإنسانَ في هذه الحالةِ يحتاجُ إلى قوّةِ نفْسٍ تتغلَّبُ على الشّهوةِ الرّتيبةِ الّتي تَخلقُها العادةُ، ولذلكَ فمَن يريدُ أن يُقبلَ على مَنهجِ اللّهِ فعليهِ أن يعرفَ أنّ المَنهجَ سوف يخرِجُهُ ممّا أَلِفَ، ولابدّ أن يُقبِلَ على المَنهجِ بقوَّةٍ وعزمٍ؛ ليواجهَ إلفَ النّفسِ؛ لأنَّ إلفَ النّفسِ قد يقولُ للإنسانِ: لا تفعلْ، والمَنهجُ يقولُ لهُ: افعلْ. فعلى المُؤمنِ أن يأخذَ التّكاليفَ بقوّة؛ لأنَّ شهواتِ النَّفسِ تُحقّقُ متعَ الدّنيا الزّائلةَ، والمنهجُ يعطي متعةً طويلةَ الأجَلِ[2].

جَمالُ الالْتفاتِ، منَ الغَيْبةِ إلى الخِطابِ في السِّياقِ:

مَوضِعُ الالتفاتِ قولُه بصيغةِ الخطابِ ﴿فَخُذۡهَا﴾، بعدَ أن كانَ الحديثُ بصيغةِ الغائبِ (له)؛ لينقُلَ الحدثَ إلى جوِّ الأمرِ مُباشرةً من دونِ مُقدِّماتٍ؛ ليدُلَّ على وجوبِ الالتزامِ بما أُوتِي، وكُلِّفَ بتبليغِهِ قومَه، ولِذلكَ أعقبَهُ بلفظِ القوّةِ الدّالِّ على الجدِّ، والحزمِ، والعزمِ.

تأكيدُ وُجوبِ الْتزامِ الأمْرِ، لأنّه مَعْقِدُ النَّجاةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4348 - 4349.

الأخذُ بقوّةٍ، يَشتمِلُ عليه الأخذُ المُطلَقُ، وفي الإعادةِ زيادةٌ

بَلاغةُ اخْتِيارِ (الفاءِ)، وتَكرارِ لَفْظِ (الأخذِ):

قولُه: ﴿فَخُذۡهَا﴾ يتعيَّنُ أنَّ الفاءَ دالّةٌ على شيءٍ من معنى ما خاطبَ اللهُ به موسى، ولمَّا لم يقعْ فيما وَليته ما يصلحُ لأَنْ يتفرَّعَ عنه الأمرُ بأخذِها بقوّةٍ تعيَّنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَخُذۡهَا﴾ بدلًا من قولِه: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ الأخذَ بقوّةٍ يشتمِلُ عليه الأخذُ المُطلَقُ، وقدِ اقتضاهُ العوْدُ إلى ما خاطَبَ اللهُ به مُوسى إثرَ صَعْقتِه؛ إتمامًا لذلك الخطاب، فأُعيدَ مضمونُ ما سبقَ ليتَّصلَ ببقيتِه، فيكونُ بمَنزِلةِ أن يقولَ: (فخُذْ ما آتيتُكَ بقوّةٍ، وكُنْ مِنَ الشَّاكِرين)، ويكونُ ما بينَهما بمَنزِلةِ اعتراضٍ، ولولا إعادةُ ﴿فَخُذۡهَا﴾ لكانَ ما بينَ قولِه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقولِه: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ﴾ اعتراضًا على بابِه، ولمَّا اقتضى المقامُ هذا الفصلَ، وإعادةَ الأمرِ بالأخذِ، اقتضى حُسنُ ذلك أنْ يكونَ في الإعادةِ زيادةٌ، فأخَّرَ مُقيّدَ الأخذِ، وهو كونُهُ بقوّةٍ، عنِ التَّعلُّقِ بالأمرِ الأوَّلِ، وعلَّقَ بالأمرِ الثّاني الرّابطِ للأمرِ الأوَّلِ، فليسَ قولُهُ: ﴿فَخُذۡهَا﴾ بتأكيدٍ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ نظمُ حكايةِ الخطابِ لموسى على هذا الأسلوبِ مِن نَظْمِ القرآنِ.

من دِقّةِ البيانِ تنوّعُ احْتِمالاتِ الدّلالةِ في السِّياقِ

دَلالةُ الفاء واحْتِمالِ التَّكرارِ للتّوكيد اللّفْظيّ:

ويَجُوزُ أن يكونَ في أصلِ الخِطابِ المَحكيِّ إعادةُ ما يدلُّ على الأمرِ بالأخذِ لِقَصدِ تأكيدِ هذا الأخذِ، فَيكونُ توكيدًا لفظيًّا، والفاءُ مُؤكِّدةٌ، ويكونُ تَأخيرُ القيدِ تَحسينًا للتّوكيدِ اللّفظيِّ؛ ليكونَ مَعَهُ زيادةُ فائدةٍ، وَيكونَ الاعتراضُ قد وَقَعَ بينَ التّوكيدِ والمُؤكَّدِ، وعلى هذا الوَجهِ يكونُ نظمُ الخطابِ على هذا الأسلوبِ مِن نَظمِ الكلامِ الّذي كلَّمَ اللهُ به مُوسى حُكِيَ في القرآنِ على أسلوبِه الصَّادرِ به[1]، والضَّميرُ المؤنّثُ في قولِه: ﴿فَخُذۡهَا﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ باعتبارِ تقدُّمِ ذِكرِها في قولِه: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾. والمَقُولُ لموسى هو مَرجِعُ الضَّميرِ، وفي هذا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/98 - 99.

الضَّميرِ تَفسيرٌ للإجمالِ في قولِه: ﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾، وفي هذا تَرجيحُ كَونِ ماصدَقَ ﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ هو ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، ومَن جَعَلُوا ماصَدَقَ ﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ الرِّسَالةَ والكلامَ جَعَلُوا الفاءَ عاطفةً لقولٍ مَحذوفٍ على جملةِ ﴿وَكَتَبۡنَا﴾، والتّقديرُ عندَهُم: وَكَتَبْنا فَقُلْنا خُذْها بقوّةٍ[1].

نُكتةُ ذِكْرِ القُوَّةِ مع الأخْذِ في هذه الآيَةِ[2]:

الآيَـةُ السّابقةُ إجـمـالٌ في الإيـتـاءِ، وهذه تـفـصـيـلٌ في الإيتاءِ والتّبليغِ

قالَ في الآيَةِ السّابقة: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ بدونِ لفظِ القوَّة، وقالَ هنا: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾؛ لأنَّ الآيَةَ هناك مُنحصِرةٌ في الإيتاءِ فقط، والآيةُ هنا في الإيتاءِ والتّبليغ؛ فقد أَمَرَ اللّهُ تعالى مُوسى ﷺ بأن يأخذَ ما آتاهُ بقوّةٍ، ويُبلِّغَ قومَهُ، والتّبليغُ يحتاجُ إلى قوّةٍ، وجهدٍ، وعزيمةٍ.

كما أنّه في الآيَةِ السّابقةِ إجمالٌ في الأمرِ، وفي الثّانية تفصيلٌ فيه؛ فلمَّا أجملَ في الأمرِ أجملَ في الأخذِ، ولمَّا فصّلَ في الأمرِ فصّلَ في الأمرِ بالأخذِ؛ فناسبَ الإجمالُ الإجمالَ، وناسبَ التّفصيلُ التّفصيلَ، مع ملاحظة أنّ الآيَةَ السّابقةَ جاءَتْ عقبَ إفاقةِ موسى ﷺ بعدَ ما خرَّ صَعِقًا، والصّعقُ وَهنُ القُوى، فناسبَهُ عدمُ الأخذِ بقوّةٍ.

فائِدةُ التّفريقِ بينَ أخْذِ موسَى ﷺ، وأخْذِ قَومِهِ:

التّـكـلـيـفُ كـانَ على موسَى ﷺ أشدَّ؛ لأنّه كلَّفَهُ بالبَلاغِ والأداءِ معًا

وقالَ لموسى: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾؛ أي: بعزيمةٍ قويّةٍ ونيَّةٍ صادِقةٍ، ثمّ أَمَرَهُ اللّهُ تعالى أن يَأمُرَ قومَهُ بأن يأخذُوا بأحسَنِها، وظاهِرُ ذلك أنَّ بينَ التّكليفَينِ فَرقًا؛ لِيكونَ في هذا التّفصيلِ فَائدةٌ؛ بكونِ التّكليفِ كانَ على مُوسى ﷺ أشدَّ؛ لأنَّه تعالى لَم يُرَخِّصْ لهُ ما رَخَّصَ لِغيرِه، وقِيلَ: بل خصَّهُ من حيثُ كَلَّفَهُ البلاغَ والأداءَ، وإنْ كانَ مُشاركًا لِقومِه فيما عَداهُ. وفي قولِه: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾[3]، فَضلًا عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99.

(2) يُنظر في وجوهِ إجابةِ النّكتةِ: هبيان، من روائع البيان: 5/194.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/193.

أنّ الأخذَ بالأحسنِ أقوَى مِن عُمومِ الأخذِ؛ فناسبَ أخذهُم بالأحسنِ، أخْذَه عليه السلام بقوَّةٍ[1].

أخْذُهُ عليه السلام، دلالةُ قُربةٍ، وأخْذُهم دَلالةُ طَاعةٍ

نُكتةُ الفرقِ بين ﴿فَخُذۡهَا﴾، وبين ﴿يَأۡخُذُواْ﴾:

فَرَّقَ أيضًا بينَ ما أمرَ به موسى مِنَ الأخذِ، وبينَ ما أمرَهُ أن يأمرَ به قومَهُ مِنَ الأخذِ، بأنّ أخذَ موسى عليه السلام، مِنَ الحقِّ على وجهٍ من تحقيقِ الزُّلفةِ، وتأكيدِ الوَصلةِ، وأخذَهم أخذُ قَبولٍ مِن حيثُ التزامُ الطّاعةِ[2].

الإشارةُ إلى معنَى التَّمسُّكِ والعملِ، للأخذِ بالهَدْيِ المُكتمِلِ

سِرُّ تَعْدِيةِ (أخْذِ القومِ) بالباءِ، والتَّعْبِيرِ عنه بالمَجازِ:

قولُهُ: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ تعريجٌ على ما هو حظُّ عموم الأمّةِ مِنَ الشَّريعَةِ وهو التَّمسُّكُ بها، فهذا الأخذُ مَجازٌ في التَّمسُّكِ والعملِ، وفي ذلك بيانٌ لسرِّ تعديةِ الأخذِ بالباءِ؛ وذلك لدلالتِها على اللّصوقِ، يُقالُ: أخذَ بكذا إذا تَمسَّكَ به، وقبضَ عليه، كقولِهِ: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ [الأعراف: 150]، وقولِه: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ [طه: 94].

البـاءُ في الحالتَيْن، مُبْرِزةٌ إمّا للحُسْنِ، وإمّا للأخذِ

دَلالةُ (الباءِ) في قوله: ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾:

تَحتمِلُ الباءُ معنى التّوكيدِ؛ أي: أحسنُها، كما في قولِه:

سودُ المَحاجِرِ لا يقرَأنَ بالسُّوَرِ[3].

ويُحتمَلُ أن تكونَ الباءُ للإلصاقِ المعنويِّ، وحينئذٍ فهي: إمّا مُتعلِّقةٌ بـ﴿يَأۡخُذُواْ﴾ بتَضمينِه معنى (يعملوا)، وإمّا هو مِنَ الأخذِ بمعنى السِّيرةِ، ومنهُ أخذُهُم؛ أي: سارَ سيرتَهُم وتخلَّقَ بها[4].

تحقيقُ حُصولِ الامْتِثالِ المذكورِ، عندَ الأمرِ المَبرورِ

فائِدَةُ جزْمِ الفعْلِ ﴿يَأۡخُذُواْ﴾:

وجُزِمَ ﴿يَأۡخُذُواْ﴾ جوابًا لقولِهِ: ﴿وَأۡمُرۡ﴾ تحقيقًا لِحُصُولِ امتثالِهِم

---

(1) هبيان، من روائع البيان: 5/194.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.

(3) هو الرّاعي. وصدر البيت: هُنَّ الحَرائِرُ ربّات أخمِرَةٍ.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/58 - 60.

عندَما يأمُرُهُم[1]، ففيهِ مُطلَقُ التّسليم، ومُنتهَى الإذعانِ لأمرِ مَن بيدِهِ الأمرُ كلُّه.

وُجوهُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾:

سلبُ دَلالةِ صِيغةِ التّفضيلِ، مُبالَغةٌ في الحُسْنِ

قولُهُ: ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾؛ أي: البالغُ في الحُسنِ مُطلَقًا لا بالإضافةِ، وهو المَأمُورُ بِهِ كقولِهِم: الصَّيفُ أحرُّ مِنَ الشِّتاءِ[2]، فهو وصفٌ مَسلوبُ المُفاضَلةِ مَقصُودٌ به المبالَغَةُ في الحُسنِ. فإضافَتُها إلى ضَميرِ الألْوَاحِ على معنى اللّام؛ أي: بالأحسَنِ الّذي هوَ لَها، وهوَ جَميعُ مَا فيها، فكلُّ ما فيها حَسنٌ؛ لِظُهُورِ أنّ ما فيها مِنَ الشّرائعِ ليسَ بينَهُ تَفاضُلٌ بينَ أحسَنَ ودُونَ الأحسَنِ، بل كُلُّهُ مَرتَبَةٌ وَاحِدةٌ فيما عُيِّنَ لهُ، ولِظُهُورِ أنَّهم لا يُؤمنون بالأخذِ ببعضِ الشّريعَةِ وتَركِ بعضِها؛ ولأنَّ الشَّريعَةَ مُفَصَّلٌ فيها مَراتِبُ الأعمالِ، فلو أنّ بعضَ الأعمالِ كانَ عندَها أفضَلَ مِن بعضٍ، كالمَندوبِ بالنّسبةِ إلى المُباحِ، وكالرُّخصَةِ بالنّسبةِ إلى العَزيمةِ، كانَ التَّرغيبُ في العَملِ بالأفضلِ مَذكورًا في الشَّريعَةِ، فكانَ ذَلِكَ مِن جملةِ الأخذِ بها، فَقرائنُ سَلبِ صِيغةِ التّفضيلِ عنِ المفاضلةِ قائِمةٌ واضِحةٌ، وهذه الآيَةُ نظيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُّمر: 55]. والمعنى: وأمُرْ قومَكَ يَأخُذُوا بما فيها لِحُسنِها[3].

دَلالةُ ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾، على الأخْذِ بالأحْسَنِ والامتناعِ عنِ الأقْبحِ:

الأخذُ بالأحْسَنِ، مَأمورُ اللهِ، لإنقاذِ القومِ مِنَ الضّلالِ والفِسْقِ

ويَحتملُ التّفضيلُ اعتراضَ مُباحَين؛ فيأخذونَ الأحسنَ منهما ممّا أجرُه أكثرُ من غيرِهِ، كالصّبرِ والعفوِ والقِصاصِ، والصّبرِ والانتصارِ على طريقةِ النَّدبِ، والحثِّ على الأفضلِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُّمر: 55]، أو بواجباتِها، فإنَّ الواجبَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/34.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/453، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.

أحسَنُ مِن المُباحِ، والمندوبِ، وغيرِهما[1]. قد يُرادُ بالأحسَنِ المأمورُ به فَضْلًا عنِ المَنهيِّ عنهُ؛ لأنَّه أحسَنُ منهُ، وكذلكَ النَّاسخُ بالإضافةِ إلى المنسوخِ ونَحوِ هَذا[2]، وقَيَّدَهُم بالأحسنِ لِيكونَ الحَسَنُ جِدًّا مَانِعًا لَهم مِنَ الوصولِ إلى القَبيحِ، وذلك كالاقتِصاصِ والعفوِ والانتصارِ والصّبرِ. ولمّا كانَ كأنَّهُ قِيلَ: وهَل يَترُكُ الأحسَنَ أحَدٌ؟ فقِيلَ: نَعم، الفاسِقُ يَترُكُهُ، بَل ويَتَجاوَزُ الحَسَنَ إلى القبيحِ، بَل وإلى أقبحِ القَبيحِ، ومَن تَرَكَهُ أهلَكتُهُ، وإن جلَّ آلُهُ، وعَظُمَت جنودُهُ وأموالُهُ[3].

عِلّةُ التَّعْبِيرِ بقولِهِ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

في الجُملَةِ بِشارةٌ وإنْذارٌ، لِتَوخِّي الالتزامِ، ومُجانَفةِ الفِسْقِ

الكلامُ مُوَجَّهٌ إلى موسى عليه السلام فيجوزُ أن يكونَ مُنفصِلًا عَنِ الكلامِ الّذي قبلَهُ، فيكونُ استِئنافًا ابتِدائيًّا: هو وعدٌ لَهُ بدخولِهِمُ الأرضَ المَوعودةَ، ويجوزُ أن تكونَ الجُملَةُ مُتَّصلةً بما قبلَها، فتكُونُ مِن تمامِ جملةِ ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ على أنَّها تَحذيرٌ مِنَ التَّفريطِ في شيءٍ ممّا كُتِبَ لهُ في الألْوَاحِ، والمعنى: سأُبيِّنُ لَكُم عِقابَ الّذين لا يَأخُذُونَ بها[4]، والبشارةُ بإتمامِ الوَعدِ بنُصرتِهم عليهم بطاعَتِهم، والنّذارةُ على تقديرِ مَعصيتِهم، فكأنَّه قِيلَ: إن أخَذُوا بالأحسنِ أرَيتُهم دارَ الفَاسِقين، وأتمَمتُ عليهمُ النِّعَمَةَ ما دامُوا على الشُّكرِ، وإنْ لم يأخُذُوا أهلكتُهم، كَمَا أُهلِكُ الفاسِقينَ مِن بينِ يديهم، فَحَذَّرَهُم لِئَلَّا يَفعَلُوا أفعالَهم إذا استقرَّت بِهِم الدّارُ، وزالَت عنهُمُ الأكدارُ[5].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عن وعْدِ الرُّؤيةِ، على طريقِ الالْتِفاتِ:

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ وتَوجيهٌ له إلى قومِهِ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/453، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/34، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270 - 271، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/278.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/453.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110 - 111.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/111.

الحَمْلُ على الجِدِّ في الامْتِثالِ، بالحثِّ على الطّاعةِ، بأحْسَنِ الفِعالِ

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطريقِ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى التَّكلُّم حمْلاً لهم على الجِدِّ في الامتِثالِ بما أُمِرُوا به، ومُبالغةً للحثِّ على الطّاعة؛ إمّا على نهجِ الوعيدِ والتّرهيبِ على أنّ المُرادَ بـ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أرضُ مِصرَ، وديارُ عادٍ وثمودَ؛ فإنّ رُؤيتَهَا خاويةً على عروشِها، خاليةً مِن أهلِها، مُوجبةٌ للاعتبارِ والانزجارِ عن مِثلِ أعمالِ أهلِها؛ كيلا يَحِلَّ بِهِم ما حَلَّ بأولئكَ، وإمَّا على نهجِ الوعدِ والتّرغيبِ للمُبالَغةِ بحضِّهم على سلوكِ نهجِ الصّالحينَ. على أنَّ المرادَ ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ إمّا أرضُ مِصرَ خاصّةً، وإمّا مع أرضِ الجَبابرةِ والعَمالِقةِ بالشّام، فإنّها أيضًا ممّا أُتيحَ لِبني إسرائيلَ، وكُتِبَ لهم بحسبِ قولِه تعالى: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 21](1).

وُجوهُ التَّعْبِيرِ بفعْلِ الرُّؤيةِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾:

الرُّؤيةُ كِنايةٌ عن الوعْدِ بفتْحِ بلادِ الفاسِقينَ، وعن الدِّيارِ الخاليةِ بعْدَ هلاكِهم

والفعلُ مِن (رأى) البصريّة؛ لأنّها عُدِّيَت إلى مَفعولَين فقط(2)، ويجوزُ أن يكونَ سأُريكُم خطابًا لقوم موسى، فيكون فعلُ أُريكم كنايةً عنِ الحُلُولِ في دارِ الفاسِقينَ؛ والحُلُولُ في ديارِ قَومٍ لا يكونُ إلّا لِلفتحِ والغَلَبَةِ، فالإراءةُ رَمزٌ إلى الوعدِ بفتحِ بلادِ الفاسِقينَ، والمُرادُ بالفاسِقينَ المُشركونَ، فالكلامُ وعدٌ لِمُوسى وقومِه بأن يَفتَحُوا ديارَ الأمِم الحالَّةِ بالأرضِ المُقدَّسَةِ الّتي وَعَدَهُم اللّهُ بها، ولا يَخفى حُسنُ مُناسبةِ التَّعبيرِ عن أولئِكَ الأقوامِ بالفَاسِقينَ على هذا الوَجهِ(3). وقِيلَ المُرادُ بـ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ديارُ الأممِ الخاليةِ مِثلَ ديارِ ثَمودَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/157.

(2) ولو كانَ مِن رؤيةِ القلبِ لتعدّى بالهمزةِ إلى ثلاثةِ مفاعيلَ، وهو مَنقولٌ عن ابن زيدٍ وغيره، والمعنى: سأعْلِمُكُمْ سَيْرَ الأوّلين، وما حلَّ بهم مِنَ النَّكالِ: وقيل: ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ما دَارَ إليه أمرهم، وذلك لا يُعْلَمُ إلّا بالإخبارِ والإعلامِ.قال ابنُ عطيَّة - مُعترِضًا على هذا الوجه -: ولَوْ كَانَ مِن رؤيةِ القلبِ لتعدَّى بالهمزةِ إلى ثلاثةِ مَفاعيل.ولو قالَ قائلُكَ: المفعولُ الثّالثُ يتضمّنُه المعنى، فهو مُقَدَّرٌ؛ أي: مذمومة أو خربة أو مُسَعَّرة - على قولِ مَن قالَ: إنَّهَا جهنّمُ - قِيلَ له: لا يَجُوزُ حذفُ هذا المفعولِ، ولا الاقتصارُ دُونَهُ؛ لأنَّهَا داخلةٌ على الابتداءِ والخبرِ، ولو جُوِّزَ لكانَ على قبحٍ في اللّسان، لا يليقُ بكتابِ اللهِ تعالى. انتهى من ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/308.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/102.

وقوم لُوطٍ الّذين أهلَكَهُم اللّهُ لِكفرِهم؛ أي: سَتَمُرُّونَ عليهم؛ فَتَرَونَ ديارَهُم؛ فَتتَّعِظونَ بسُوءِ عاقبتِهِم لِفسقِهم، وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ لم يَمُرُّوا مع موسى على هذهِ البلادِ[1].

بَديعُ إيثارِ فعْلِ الرُّؤيةِ، على فعْلِ الإدْخالِ:

دُخولُ الأرضِ المُقدَّسةِ لم يَشمَلِ الجميعَ، بل شمَلَ غيرَ المُعاقَبِين بالتِّيهِ

أُوثِرَ فِعلُ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ دونَ نحوِ: (سَأُدخِلُكم)؛ لأنَّ اللّه مَنَعَ مُعظَمَ القومِ الّذين كانُوا مع مُوسى مِن دُخُولِ الأرضِ المُقدَّسَةِ لَمّا امتَنَعُوا مِن قِتالِ الكَنعانيِّينَ كَما تَقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: 26][2].

نُكتةُ اختِيارِ لفْظِ الدّارِ، في قولِه: ﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

تُطلَقُ الدّارُ على ما يكونُ عليه أحوالُ النّاسِ، ومآلاتُهم ومَصائِرُهم

الدّارُ: المكانُ الّذي تسكُنُهُ العائلةُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: 81]، والمكانُ الّذي يَحُلُّهُ الجماعةُ مِن حَيٍّ أو قبيلةٍ كما قالَ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]. وتُطلَقُ الدّارُ على ما يكُون عليه النّاسُ أو المَرءُ من حالةٍ مُستمَرَّةٍ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: 24]، وقد يُرادُ بها مَآلُ المرءِ ومَصيرُهُ؛ لأنّهُ بمَنزلةِ الدّارِ يأوي إليه في شَأنِه[3]. وذَكَرَ الدّارَ لئلّا تَغُرَّهُم مَنعَتُها إذا استقَرُّوا بها فَيَظُنُّوا أنْ لا غالِبَ لهم فيها بوعُورةِ أرضِها وشُهُوقِ جبالِها وإحكامِ أسوارِها[4]. كما أنَّ في إيثارِ لفظِ ﴿دَارَ﴾ وإضافتِها إلى ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إشارةً إلى ما دارَ إليه أمرُهُم مِنَ الهلاكِ بسببِ فِسقِهِم، والدّائرةُ الدّاهيّةُ، تُحيطُ بمَن نزلَت بهم.

دَلالةُ إدْخالِ سينِ الاسْتقبالِ، في: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾:

السّينُ في ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ حرفُ تسويفٍ يفيدُ توكيدَ تحقُّقِ الفعلِ في المُستقبلِ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/102.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/111.
(5) الجلالان، المفصّل، ص: 599.

سِرُّ انْتِقاءِ لفْظِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، دونَ غيرِه:

التّنبيهُ على أنَّ العاقبةَ مُسبَّبةٌ، عنِ الشِّرْكِ وفاسِدِ الأعمالِ

اختيارُ وَصْفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دونَ المُشركِينَ والظّالمِينَ الشّائعِ في التَّعبِيرِ عنِ الشّركِ في القرآنِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عاقبتَهُمُ السُّوأى تَسَبَّبَت على الشّركِ وفاسِدِ الأفعالِ معًا[1].

وأصلُ الفِسقِ: خروجُ الشّيءِ مِن مكانِه ومحلِّه، ومنه: اشتقاقُ الفاسِقِ مِن بني آدمَ؛ لأنّه يَخرُجُ عنِ الشّرعِ، ولمَّا كانَ همُّ كلِّ خارجٍ مِن مُحيطٍ أن يأوي إلى مكانٍ حصينٍ أُوثِرَ لفظتا ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: مَأوَى الخارجينَ عن طاعةِ اللّهِ وشرعِه، ولكنَّهم صاروا كالمُستَجيرِ مِنَ الرّمضاءِ بالنَّارِ، فهُم يَمشونَ إلى هلاكِهم بأقدامِهم، فكانَ حالُهم كحالِ القائلِ[2]:

إلَى حتفي مَشَت قَدمي *** أرى قَدمي أراقَ دَمي

وإذا أرادَ اللّهُ إهلاكَ عبدٍ أهلكَهُ بيدِه، حتّى يخرجَ على نفسِه.

نُكتةُ العُدولِ عن تَسميّةِ الأممِ بأسمائِهِم إلى ذكرِ صفاتِهم:

تَركُ التّسميّةِ أجمعُ وأوْجزُ

العُدولُ عن تسميةِ الأممِ بأسمائِهِم إلى التَّعبيرِ عنهُم بوَصفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أدَلُّ على تَسبُّبِ الوصْفِ في المصيرِ الّذي صاروا إليه؛ ولأنَّه أجمعُ وأوجزُ[3].

عِلَّةُ المُخاطَبةِ بضَمِيرِ الجمْعِ في: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾:

الخطابُ شاملٌ لموسَى عليه السلام ومَن معَهُ، باعتبارِه الرَّمْزَ

وخُوطِبَ بضَمِيرِ الجمعِ باعتبارِ مَن معَهُ مِن أصحابِهِ شُيوخِ بَني إسرائيلَ، أو باعتبارِ جَماعةِ قومِه، فالخِطابُ شاملٌ لمُوسى ومَن معَهُ[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القوّةُ، والقُدرةُ، والشّدّةُ:

إنّ القويَّ هُوَ الَّذي يَقدِرُ على الشّيءِ، وعلى مَا هُوَ أَكثرُ مِنهُ، ولهَذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.

(2) البيت من مجزوءِ الوافر، وهو لأبي الفتح البستيّ، في شرح عقود الجمان: 2/141.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101 - 102.

القـوّةُ تُساوِي القُدرةَ وزيـادةً، وهـي تمثيـلٌ لحالة العَزْمِ للعمَلِ بِما في الألواح، والشِّدّةُ غيرُ ذلك

لَا يجوزُ أَنْ يُقَالَ للَّذي استفرغَ قُدرتَهُ في الشَّيءِ: إنَّه قويَ عَلَيهِ، وإنَّما يُقَالُ لَهُ: إنّه قويَ عَلَيهِ إذا كَانَ في قُدرتِهِ فضلٌ لغيرِهِ، قَالَ بَعضُهُم: القويُّ القَادِرُ العَظِيمُ الشَّأنِ في مَا يَقدِرُ عَلَيهِ[1].

والشِّدَّةُ: في الأَصلِ هِيَ مُبَالَغَةٌ في وصْفِ الشَّيءِ في صلابةٍ، ولَيسَ هُوَ من قَبيلِ القُدرَةِ، ولِهَذَا لا يُقَالُ للّه: شَدِيدٌ[2]، فالشِّدَّةُ تُستعمَلُ في العَقدِ، وفي البَدنِ، وفي قُوى النّفسِ، وفي العَذابِ، ووُصِفَت بها الملائكةُ[3]، وقد تقدَّمَ في شرحِ الألفاظِ أنّ مَعنى (القوّة) شِدّةُ البَدنِ والتئامُ الأَثناءِ، وهو ضدُّ الضّعفِ؛ أي: بجدٍّ، وصحّةٍ، وعزيمةٍ، وهي تُناسِبُ مَقامَ التّبليغِ؛ لأنّه يحتاجُ إلى همّةٍ، وعزيمةٍ، وجُهدٍ، وجدٍّ، ويَصدُقُ على كلِّ ذلك لفظُ القوّةِ وليسَ الصّلابةَ.

والقوَّةُ حَقيقَتُها حالَةٌ في الجسمِ يَتَأتّى لهُ بِها أن يَعملَ ما يَشُقُّ عَمَلُهُ في المُعتادِ، فَتكونُ في الأعضاءِ الظّاهرةِ مِثلَ: قُوَّةِ اليَدينِ على الصُّنعِ الشّديدِ، والرِّجلَينِ على المَشيِ الطّويلِ، والعَينَينِ على النّظرِ للمَرئيّاتِ الدّقيقةِ، وتَكونُ في الأعضاءِ الباطنةِ، مِثلَ: قُوّةِ الدّماغِ على التّفكيرِ الّذي لا يَستطيعُهُ غَالبُ النَّاسِ، وعلى حِفظِ ما يَعجزُ عن حِفظِهِ غالبُ النَّاسِ، ومنه قولُهُم: قُوّةُ العَقلِ. والقُوَّةُ هنا في قولِهِ: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ تمثيلٌ لحالةِ العَزمِ على العملِ بما في﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، بِمُنتَهى الجدِّ والحرصِ دونَ تأخيرٍ ولا تَساهُلٍ ولا انقطاعٍ عندَ المَشقَّةِ ولا مَلَلٍ، بِحالةِ القَويِّ الّذي لا يَستَعصي عَلَيهِ عَمَلٌ يُريدُهُ. ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ في سورة [مريم: 12][4].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 106.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 107.
(3) الرّاغب، المفردات: (شدَّ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99 - 100.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَما تَوعَّدَ اللهُ الفاسقينَ، ذَكَرَ مِن أحوالِهم في الغَيِّ، ما اسْتحقُّوا به وصْفَ الفِسْقِ

لمّا ذَكَرَ ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ذَكَرَ ما يَفعَلُ بهم تعالى مِن صَرفِه إيّاهُم عن آياتِه لفِسْقِهم وخُرُوجِهم عن طَورِهم إلى وَصْفٍ ليسَ لَهُم، ثمّ ذَكَرَ تعالى مِن أحوالِهم ما استحقُّوا به اسْمَ الفِسق[1]، كأنَّه قيلَ: وكيفَ يَختارُ عاقِلٌ ذلكَ؟ فكيفَ بمَن رأى الآياتِ، وشاهَدَ المُعجِزاتِ؟ فَقالَ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾؛ أي: المَسمُوعَةِ والمَرئيَّةِ على عَظَمَتِها بما أشارَت إليهِ الإضافَةُ بالصّرفِ عَن فَهمِها واتِّباعِها، والقُدرَةِ على الطّعنِ فيها بما يُؤَثِّرُ في إبطالِها[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَأَصۡرِفُ﴾: الصّادُ والرّاءُ والفاءُ مُعظَمُ بابِه يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[3]، وردِّه عن وَجهِه[4]، أو ردِّه من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالِه بغيرِه[5]، ومِن فَحوَى ما تقدَّمَ مِن مَعانٍ ذَهَبَ المُفسِّرونَ إلى أنَّ معنى الصّرفِ في قولِه تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾: أَجعَلُ جَزاءَهُمُ الإضلالَ عَن هِدايَةِ آياتي[6]، والمنعَ، والصّدَّ، والدّفعَ عن تعطيلِها، وإبطالِها[7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/388.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(4) ابن سيده، المحكم: (صرف).
(5) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(6) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/376، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صرف).
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.

فمعنى صَرفِهِم عَنها مَنعُهم بالطّبعِ على قُلُوبِهِم؛ فلا يَكادُونَ يَتَفَكَّرُونَ فِيها، ولا يَعتَبِرونَ بها؛ لإصرارِهِم على ما هُم عَلَيه مِنَ التَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ[1].

2) ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾: الرَّاءُ والشِّينُ والدَّالُ أَصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على استِقَامَةِ الطَّرِيقِ[2]، ورشدَ فلانٌ: إذا أصابَ وجهَ الأمرِ والطّريق، فالإرشادُ: الدّلالةُ والهِدايةُ، وهو نقيضُ الغيِّ، والضّلالِ، والخيبةِ[3]. والرُّشْدُ، بالضّمِّ: الاستِقامَةُ على طَريقِ الحَقِّ مَعَ تَصَلُّبٍ فِيهِ[4].

ومِن أسماءِ اللّهِ تعالى (الرّشيد) هو الّذي أَرشَدَ الخَلقَ إلى مَصالِحِهم؛ أي: هداهُم ودلَّهُم عليها، وأحسَنَ تَقديرَهُ فِيمَا قَدَّرَ. وقِيلَ: هو الَّذِي تَنسَاقُ تَدبيراتُهُ إِلى غَاياتِها على سَبيلِ السَّدادِ مِن غيرِ إِشارةِ مُشيرٍ ولَا تَسديدِ مُسدِّدٍ[5]، فهوَ الهادي إلى سواءِ الصّراطِ، والّذي حَسُنَ تقديرُهُ فيما قَدَّرَ[6]، ولا تَخرُجُ دلالةُ لفظةِ ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ عن ما عُرِضَ مِن مَعانٍ.

3) ﴿ٱلۡغَيِّ﴾: الغَينُ والوَاوُ واليَاءُ أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا يدُلُّ على خِلَافِ الرُّشدِ وإِظلَامِ الأَمرِ، والآخَرُ على فَسَادٍ في شَيءٍ، فالأَوَّلُ الغيُّ، وهو خِلَافُ الرُّشدِ، والجَهلُ بالأَمرِ، والانهِمَاكُ في البَاطِلِ، والأَصلُ الآخَرُ: قَولُهُم: غَوِيَ الفَصِيلُ، إِذَا أَكثَرَ مِن شُربِ اللَّبَنِ فَفَسَدَ جوفُهُ[7]، وعقَّبَ ابنُ فارسٍ بأَنَّ الأَصلَ الأَوَّلَ عندَهُ مُشتَقٌّ مِنَ الغَيَايَةِ، وَهِيَ الغُبرَةُ وَالظُّلمَةُ تَغشَيَانِ، كأَنَّ ذَا الغَيِّ قَد غَشِيَهُ مَا لا يَرَى مَعَهُ سَبِيلَ حَقٍّ[8]، وأكَّدَ هذا المعنى عندَ تناوُلِهِ معنى لفظِ الغيِّ في بابٍ سابقٍ بقولِهِ: "الغَينُ، واليَاءُ المُشَدَّدَةُ أَوِ المُضَاعَفَةُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ عَلَى إِظلَالِ الشَّيءِ لِغَيرِهِ"[9]، فالغيُّ: الفسادُ، والضَّلالُ، والخيبةُ، والانهِماكُ في الباطِلِ[10].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (رشد)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/283.
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(5) ابن الأثير، النّهاية، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(6) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (رشد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غي).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (غوي)، وابن الأثير، النّهاية: (غوا).

وهو أيضًا جَهْلٌ مِن اعتِقادٍ فَاسِدٍ، وذلكَ أنَّ الجَهْلَ قد يكونُ مِن غَيرِ اعتِقادٍ[1]، ومَن غَوِيَ حُجِبَ عنِ الرَّشْدِ، وضلالُه مُسبَّبٌ عن هوًى، أو ما هوَ من بابِهِ، وفيه معنى الانجذابِ إلى ما يَترتَّبُ عليهِ الفسادُ فكأنّ فيه درجةً مِنَ التَّعمُّدِ[2].

وعليهِ فسبيلُ الغيِّ في الآيَةِ هو سبيلُ الضّلالِ[3]، ويَحتمِلُ أيضًا معانيَ الفسادِ، والخيبةِ، والانهِماكِ في الباطِلِ.

4) ﴿غَٰفِلِينَ﴾: الغَينُ والفَاءُ واللّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ سَهوًا، ورُبَّمَا كانَ عَن عَمْدٍ[4]. وأَغفَلْتَ الشَّيءَ: تركتَهُ غُفْلًا، وأنتَ له ذاكِرٌ. والمُغَفَّلُ: مَن لا فِطنَةَ ولا إربَ لَهُ[5]. الغَفلةُ: هي سَهْوٌ يَعْتَرِي الإنسانَ مِن قِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ[6]، وفَقْدِ الشُّعورِ بِمَا حَقُّه أَن يُشعَرَ بِهِ، بالذُّهولِ عَنِ الشَّيءِ[7]، والغَفلَةُ انصرافُ العقلِ والذّهنِ عن تذكُّرِ شيءٍ بقصدٍ أو بغيرِ قَصدٍ، وأكثرُ استِعمالِهِ في القرآنِ فيما كانَ عن قَصدٍ بإعراضٍ وتَشاغُلٍ، والمَذمُومُ منها ما كانَ عَن قَصدٍ، وهوَ مَناطُ التّكليفِ والمُؤاخَذَةِ، فأمّا الغفلةُ عن غيرِ قصدٍ فلا مُؤاخَذَةَ عليها، وهيَ المَقصودُ مِن قولِ عُلماءِ أُصولِ الفقهِ: يُمتَنَعُ تَكليفُ الغَافِلِ[8]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ يَصلحُ أَن يكونَ: وَاللّٰه اعْلَم: كَانُوا في تَركِهِمُ الإيمَانَ باللّه، والنَّظَرَ فِيهِ، وَالتَّدبِيرَ لَهُ، بِمَنزِلَةِ الغافِلينَ، وَيجوزُ أَن يكونَ: وَكَانُوا عَمَّا يُرَادُ بهم مِنَ الإثابةِ عليهِ غَافِلين[9]، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الغَفلةِ؛ بمعنى عدمِ التّنبُّهِ وما إليه[10].

المَعنى الإجْماليُّ:

سأحرِمُ المُتكبِّرينَ الّذين يَتطاوَلون في الأرضِ بالباطلِ، ويَرونَ أنفسَهُم أعلَى شأنًا من

(1) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غوى).
(3) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/376.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(5) الخليل، العين: (غفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(9) ابن سيده، المحكم: (غفل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفل).

موضوعُ الآيَةِ
صَرفُ الآياتِ عن كلِّ مُتكبِّرٍ كذَّابٍ، وغافِلٍ مُرتابٍ

غيرِهِم، مع أنَّهم أجهلُ النَّاسِ عقلًا، وأتعسُهم حالًا، بركاتِ الاتّباعِ بمنْعِهِم فَهْمَ كتابي، وصدِّهِم عنِ الإيمانِ بهِ وعن نفعِهِ، وعنِ التَّفكُّرِ في خلقِ السّمواتِ والأرضِ وما فيهما مِنَ الآياتِ والعِبرِ، وعن دلائلِ قُدرتي القائمةِ في الأنفُسِ والآفاقِ؛ فيتركونَ كلَّ علامةٍ تهدي إلى طريقِ الحقِّ، والرّشادِ، والصَّلاحِ، ويتَّبعونَ سبيلَ الغيِّ، والضّلالِ، والفَسادِ؛ لِتكذيبِهِم بالآياتِ، وغفْلتِهِم عنِ الاهتداءِ بها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الآيةُ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ مُصَرَّحٌ بهِ، مَسُوقٌ للتّحذيرِ، أو جوابُ سُؤالٍ مُقدَّرٍ

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ مَسوقٌ لتحذيرِ قومِ مُوسى عليه السلام عن إدامتِهِم العنادَ والإعراضَ عنِ الإيمانِ، والتَّكبُّرَ المُوجِبَ لعدمِ التَّفكُّرِ في الآياتِ الّتي هي مَا كَتَبَ في ألواحِ التَّوراةِ مِنَ المَواعِظِ والأحكامِ أو ما يعمُّها وغيرَها مِنَ الآياتِ التّكوينيّةِ الّتي مِن جُملتِها ما وَعَدَ إراءَتَهُ من دارِ الفاسِقينَ[2]، فالآيَةُ تَكمِلةٌ لِما خاطَبَ اللّهُ به مُوسى وقومَهُ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ كانُوا يَهابُونَ أُولئِكَ الأقوامَ ويَخشَونَهُم[3]، وسِيقَت لبيانِ أنَّ أعداءَ دُعاةِ الحقِّ هُمُ المُستكبِرونَ؛ لأنّ مِن شأنِ التَّكبُّرِ أن يَصرِفَ أهلَهُ عَنِ النّظرِ والاستدلالِ على وجوهِ الخيرِ[4]، أو هو جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ ناشئٍ مِنَ الوعدِ بإدخالِ أرضِ الجَبابرةِ والعَمالِقةِ على أنّ المُرادَ بالآياتِ ما تُلِيَ آنفًا، ونظائِرُهُ، وبالصَّرفِ عنها إزالَةُ المُتكبِّرينَ عن مَقامِ مُعارَضَتِها ومُمانَعَتِها لِوُقُوعِ أخبارِها وظهورِ أحكامِها وآثارِها بإهلاكِهِم على يدِ مُوسى عليه السلام، فكأنّهُم تَساءَلوا كيفَ تُرينا دارَهُم وتَعِدُنا بها؟ وهل لا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/283، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/376.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والآلوسي، روح المعاني: 9/60، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/376.

نهلكُ قبلَ الحُلولِ بها؟ فقِيلَ لهم: سَأُهلِكُهُم[1]، أو تكونُ الجُملَةُ جوابًا لسؤالٍ آخرَ لِمَن يقولُ: إذا دخلْنا أرضَ العَدُوِّ فلعلَّهُم يُؤمنونَ بهدينا، ويَتَّبعونَ دِينَنا، فلا نحتاجُ إلى قتالِهم، فأُجيبُوا بأنّ اللّه يَصرِفُهُم عنِ اتّباعِ آياتِهِ؛ لأنّهُم جُبِلُوا على التَّكبُّرِ في الأرضِ، والإعراضِ عنِ الآياتِ، فالصَّرفُ هنا صَرفٌ تكوينِيٌّ في نفوسِ الأقوامِ[2].

دَلالةُ الفعْلِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾، على حِمايةِ الله لآياتِه ولأَوْلِيائِه:

مِن عِنايةِ اللهِ بموسَى وقومِهِ، صرفُ الأذَى عنهم، وتهيئَةُ أسْبابِ النّصْرِ لَهم

وَعَدَ اللّهُ تعالى مُوسى عليه السلام بإهلاكِ أعدائِه، فمعنى صرْفِهم إهلاكُهم، فلا يَقدِرونَ على منعِ موسى مِن تبليغِها، ولا على مَنعِ المؤمنينَ مِنَ الإيمانِ بها، وهو شبيهٌ بقولِه: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67]، فأرادَ تعالى أن يَمنعَ أعداءَ مُوسى عليه السلام من إيذائِه، ومنْعِه مِنَ القيامِ بما يلزمُهُ في تبليغِ النّبوَّةِ والرِّسَالةِ[3]؛ أي: سأتَوَلّى دَفعَهُم عنكم، فالصَّرفُ على هذا الوجهِ عِنايةٌ مِنَ اللّهِ بمُوسى وقومِهِ بما يُهيِّئُ لَهم مِن أسبابِ النَّصرِ على أُولئكَ الأقوامِ الأقوياءِ، كإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهم، وتَشتيتِ كَلِمَتِهم، وإيجادِ الحَوادثِ الّتي تَفُتُّ في ساعِدِ عُدَّتِهم[4].

سِرُّ قَصِّ الآيَةِ الكريمةِ، على طريقِ التَّعريضِ:

حالُ مُشركِي العربِ الكَفرةِ، كحالِ أُولئكَ الفَاسِقِينَ الفَجَرة

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ من خطابِ اللّهِ تعالى لرسولِه مُحمّدٍ صلى الله عليه وسلم، فتكونُ الجُملَةُ مُعترِضةً في أثناءِ قصّةِ بني إسرائيلَ بمُناسبةِ قولِه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ تعريضًا بأنَّ حالَ مُشرِكِي العربِ كحالِ أُولئكَ الفاسِقينَ[5]، فالكلامُ مع قوم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103 - 104.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/183.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103 - 104.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

رسولِ اللّهِ ﷺ مُتَّصِلٌ بما سبقَ مِن قصصِهم، وهو﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ [الأعراف: 100]، وإيرادُ قصّةِ مُوسى وفِرعونَ للاعتبارِ[1]. وفي قَصِّ اللّهِ تعالى هذا الكلامَ على مُحمّدٍ ﷺ تَعريضٌ بكفّارِ العَربِ بأنَّ اللّهَ دافِعُهُم عن تَعطيلِ آياتِهِ، وبأنَّه مانِعٌ كثيرًا مِنهُم عنِ الإيمانِ بها لَمَا ذكرْناهُ آنِفًا[2].

عِلّةُ اقْتِرانِ فعْلِ الصَّرفِ بالسِّين:

إنّ اللهَ تعالى يُحقِّقُ الصَّرفَ، ويُعجِّلُ فيه بمشيئتِه الغالبةِ

هو حرفُ استقبالٍ وتسويفٍ يُفيدُ توكيدَ تحقُّقِ الفعلِ في المُستقبَلِ[3]، واقترانُ الفعلِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾ بسينِ الاستقبالِ القريبِ تنبيهٌ على أنَّ اللّهَ يُعجِّلُ ذَلكَ الصَّرفَ[4].

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ به:

آياتُ اللهِ مُقدَّمةٌ، باعتبارِ العِنايةِ والاهتمامِ والتَّشويقِ

وتقديمُ شبْهِ جملةِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ على مَفعولِ الصّريحِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾؛ لإظهارِ الاعتناءِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع أنّ في المُؤخَّرِ نوعَ طولٍ يُخِلُّ تقديمُهُ بتَجاوُبِ أطرافِ النّظمِ الجَليلِ[5]، ولِلاهتمامِ بالآياتِ؛ ولأنّ ذكرَهُ أحسنُ عَقِبَ الفعلِ المُتعلِّقِ هو بِهِ[6].

نُكتةُ تَعْريفِ المصْروفِين، بالاسْمِ الموصولِ:

مَنْ تخلَّقَ بِرَديءِ الصِّفاتِ، رِيْنَ على قلبِهِ، ومُنِعَ النَّصْرَ

تَعريفُ المَصرُوفِينَ عنِ الآياتِ بطريقِ الموصوليّةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للإيماءِ بالصّلةِ إلى علّةِ الصَّرفِ، وهي مَا تَضمَّنَتهُ الصِّلاتُ المَذكورَةُ؛ لأنّ مَن صَارَت تلكَ الصّفاتُ حالاتٍ لهُ لن يَنصُرَهُ اللّهُ؛ أو لأنّهُ إذا صارَ ذلك حالَهُ رِينَ على قلبِهِ، فصُرِفَ قلبُهُ عَن إدراكِ دَلالةِ الآياتِ، وزالَت منهُ الأهليَّةُ لِذلِكَ الفهمِ الشَّريفِ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/577 - 578، والآلوسي، روح المعاني: 9/60.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(3) الجلالان، المفصّل، ص: 599.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والآلوسي، روح المعاني: 9/61.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

والأوصافُ الّتي تضمَّنَتها الصّلاتُ في الآيَةِ تَنطَبِقُ على مُشرِكِي أهلِ مَكّةَ أتَمَّ الانطِباقِ[1].

لَطيفةُ التَّعْبيرِ عنِ التَّكبُّرِ، بصِيغةِ التَّفعُّلِ:

كونُهم تكلَّفُوا الكِبْرَ، وما هُم بِكِبارٍ حقًّا، منَ السَّفَهِ والضَّعَةِ

التَّكبُّرُ الاتّصافُ بالكِبْرِ، وقد صِيغَ لهُ الصِّيغةُ الدّالّةُ على التَّكلُّفِ، والتَّعمُّلِ، والتَّكثُّرِ منَ الكبرِ، والمعنى: أنّهُم يُعجَبُونَ بأنفُسِهِم، ويَعُدُّونَ أنفُسَهُم عُظماءَ، ويَجتهدونَ في التَّكبُّرِ عِنادًا وكُفرًا؛ فلا يَأتَمِرونَ لِآمِرٍ، ولا يَنتَصِحُونَ لِناصِحٍ، وذَلِكَ شأنُ مَن يَرَى أنّه أكبرُ من أن يخضعَ لحقٍّ، أو يُساويَ نفسَهُ بشخصٍ، فالتَّكبُّرُ: غمْطُ الحقِّ بعدمِ الخضوعِ له، واحتقارُ النَّاسِ[2].

ومِن لطائفِ اللّغةِ العربيّةِ أنّ مادّةَ الاتّصافِ بالكبرِ لم تجِئْ منها إلّا بصيغةِ الاستِفعالِ، أوِ التَّفعُّلِ إشارةً إلى أنّ صاحبَ صفةِ الكِبرِ لا يكونُ إلّا مُتطلِّبًا الكِبرَ، أو مُتكلِّفًا له، وما هو بكبيرٍ حقًّا[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ التَّكبُّرِ بصِيغةِ المضارِعِ:

تَوْجِيهُ الكلامِ إلى كلِّ مُتكبِّرٍ من دونِ تَحديدٍ

قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ مَجيئُهُ بصِيغةِ المضارِعِ أمارةُ استمرارِهم عليهِ، وتَكرارِهم إيّاهُ. معناه: أنّ ما وَرَدَ في الآياتِ نتيجةَ هذا الاستكبارِ قد لا يَختصُّ به فِرعونُ وقومُهُ فحسْبُ، وإنّما هو مُوجَّهٌ إلى كُلِّ مَنِ اتّصفَ بهذهِ الصّفةِ المذمومةِ إلى يومِ الدّينِ[4].

بَلاغةُ الإطنابِ، بزيادة: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

فضْحُ تكبُّرِهم، والتَّشهيرُ بهم بأنَّ كِبرَهُم مَظروفٌ في الأرضِ

أي: ليسَ هوَ خفيًّا مُقتَصِرًا على أنفسِهم، بل هُوَ مَبثُوثٌ في الأرضِ؛ أي: مَبثوثٌ أثَرُهُ، فهو تكبُّرٌ شائعٌ في بِقاعِ الأرضِ كقولِهِ: ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: 23]، وقولِه: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]، وقولِه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ [الإسراء: 37][5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/170، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/425.

(4) الحسنيّة، هدايات وألطاف من سورة الأعراف، ص: 145.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104 - 105.

دَلالةُ الباءِ، في قولِه: ﴿بِغَيۡرِ﴾:

التَلبُّسُ بالباطلِ وبغيرِ الحقِّ، دَيْدنُ مَن لا يَعرفُ لله وَقارًا

الباءُ للمُلابسةِ؛ والمعنى: أنَّهم يَتكبَّرونَ حالةَ كونِهم مُتلبِّسينَ بغيرِ الحقِّ؛ أي: مُنغمسِينَ في الباطلِ، غيرَ مُستحقِّينَ للحقِّ[1].

وُجوهُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

التّشنيعُ على المُتكبِّرِ؛ بذِكْرِ ما هو صِفةٌ لازمةٌ لَهُ، أو كَونُ غيرِ الحقِّ قيدًا للتَّكبُّرِ

وقولُهُ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ زيادةٌ لِتشنيعِ التَّكبُّرِ بِذِكرِ ما هو صِفةٌ لازِمةٌ لَهُ، وهو مُغايَرَةُ الحقِّ؛ أي: دِينُهُم الباطلُ وظلمُهُم المُفرِطُ، وهي حالٌ لازِمةٌ للتَّكبُّرِ، كاشِفَةٌ لوصْفِهِ؛ إذِ التَّكبُّرُ لا يكونُ بحقٍّ في جانبِ الخَلْقِ، وإنّما هو وصفٌ للّهِ بحقٍّ؛ لأنَّه العظيمُ على كُلِّ مَوجودٍ، كما في الحديثِ القُدسيِّ: «الكِبرياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فمَن نازَعَني واحدًا منهما قَذَفتُهُ في النَّارِ»[2]. وقد يكونُ قولُهُ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قيدًا للتَّكبُّرِ؛ لأنّ إظهارَ الكِبرِ على الغيرِ قد يكونُ بالحقِّ، فإنَّ لِلمُحِقِّ أن يتكبَّرَ على المُبطِلِ، وكذلِكَ التَّكبُّرُ على المُتَكَبِّرِ[3]، بتصوّرِ تكلُّفِ إعلاءِ نفسِه على غيرِهِ أو إكثارِهِ مِنَ الاستعلاءِ عليه بحقٍّ كالتَّرفُّعِ عنِ المُبطلِينَ، وإهانةِ الجبّارينَ، واحتقارِ المُحارِبينَ[4].

دَلالةُ الوصْلِ، والتَّعْبِيرِ بالجُملَةِ الفعْليّةِ:

تجدُّدُ الجُحودِ، بتجدُّدِ الرُّؤيةِ من كلِّ غاوٍ كَنُودٍ

وقولُهُ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ عُطِفَ على قولِهِ: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، فهو في حُكمِ الصّلةِ، والقَولُ فيه كالقَولِ في قولِهِ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 96 - 97][5]، وصِيغَتْ بالجُملَةِ

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/170.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105، والحديث أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: (4090) عن أبي هريرة، باب ما جاء في الكِبرِ: 4/102، ورواه ابنُ عبّاس، كما في سننِ ابن ماجه بلفظِ: ((ألقيتهُ في النّار)): بابُ البراءَةِ مِنَ الكِبرِ والتّواضع، الحديث رقم: (4175): 2/1397.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/4، والآلوسي، روح المعاني: 9/61.

(4) محمّد رضا، تفسير المنار: 9/170.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105.

الفعليّةِ؛ للدَّلالةِ على تَكرارِ الجحودِ وعدمِ الإيمانِ، وتجدُّدِهما بتجدُّدِ رؤيةِ الآياتِ وتَكرارِهما عليهم.

دَلالةُ جزْمِ فعْلَيِ الشّرطِ وجَزائِه:

جـزْمُ الفِعلَين نفيٌّ للإيمانِ، وتأكيدٌ للصَّلَفِ، وترسيخٌ للكُفرانِ

جزمُ الفعلينِ المُضارعينِ ﴿يَرَوۡاْ﴾ فعلًا لِلشّرط "إن"، و﴿يُؤۡمِنُواْ﴾ جوابًا لها، وتوسيطُ ﴿كُلَّ﴾ الدَّالّةِ على العمومِ والكثرةِ نفيٌّ للإيمانِ، وتأكيدٌ لصِفةِ الكِبرِ الّتي تلبَّسُوا بها، وترسيخٌ لشدّةِ المُعارَضةِ، والنُّفورِ عنِ التَّفكُّرِ في آياتِهِ تعالى مهما تكرَّرَت عليهم، وأُعِيدَ أُنموذجُها.

دَلالةُ لفْظِ ﴿كُلَّ﴾ بينَ المَجازِ والحقيقةِ:

الدّلالةُ على الكَثْرةِ بكَوْنِ الآياتِ، لا يُتصوَّرُ لها عددٌ يُحاطُ بِهِ

﴿كُلَّ﴾: لاستغراقِ أفرادِ النّكرةِ، وهي في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ مُستعمَلَةٌ في معنى الكَثرةِ، والمُرادُ بـ﴿كُلَّ ءَايَةٖ﴾ آياتٌ مُتكاثِرةٌ، وفُسِّرَت بالحُجّةِ والدَّليلِ. وإطلاقُ لفظِ ﴿كُلَّ﴾ على الكَثرةِ شائعٌ في كلامِ العربِ، وأصلُهُ مَجازٌ لجعْلِ الكثيرِ من أفرادِ شيءٍ مُشابِهًا لمجموعِ عُمومِ أفرادِهِ، ثمّ كَثُرَ ذلك حتَّى ساوى الحقيقةَ، فصارَ معنى من معاني كلٍّ لا يحتاجُ استعمالُهُ إلى قرينةٍ، ولا إلى اعتبارِ تشبيهِ العددِ الكثيرِ من أفرادِ الجنسِ بعُمومِ جميعِ أفرادِهِ حتَّى إنَّه يَرِدُ فيما لا يُتصوَّرُ فيه عمومُ أفرادٍ، مثل قولِهِ هنا: بـ﴿كُلَّ ءَايَةٖ﴾؛ فإنّ الآياتِ لا يُتصوَّرُ لها عددٌ يُحاطُ به[1].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ، بألفاظِ السَّبيلِ، والرُّؤيةِ، والاتّخاذِ:

تَعالُقُ الاسْتِعاراتِ، بَراعةٌ في التّصْويرِ الفَنّيِّ

لمّا نَفَى عنهمُ الإيمانَ، وهو من أفعالِ القَلبِ، استعَارَ للرُّشدِ والغَيِّ سَبيلَين، فَذَكَرَ أنّهم تاركُو سبيلَ الرُّشد، سالِكُو سبيلَ الغَيِّ[2]، فالسَّبيلُ مُستعَارٌ لوسيلةِ الشَّيءِ بقرينةِ إضافتِهِ إلى الرُّشدِ وإلى الغيِّ، والرُّؤيةُ مُستعَارةٌ لِلإدراكِ، والاتّخاذُ حَقيقتُهُ مُطاوعُ أخَذَهُ بالتّشديدِ، إذا جَعَلَهُ آخِذًا، ثمّ أُطلِقَ على أخذِ الشَّيءِ ولَو لَم يُعطِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35 - 36: 9/105.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

إيّاهُ غيرُهُ، وهو هنا مُستَعارٌ لِلمُلازَمَةِ؛ أي: لا يُلازِمُونَ طَرِيقَ الرُّشدِ، ويُلازِمونَ طريقَ الغَيِّ[1]، والمُرادُ بهذه الاستعاراتِ النُّفورُ عنِ اتّباعِ الرُّشدِ باتّباعِ الغَيِّ، وليسَ هناك على الحقيقةِ طريقٌ يُقصَدُ، ولا فَجٌّ يُسلَكُ[2].

بَديعُ تَراتُبِ النَّظْمِ، وتَسلسُلِ النّقَائِضِ في السِّياقِ:

إظْـهـارٌ لمبـدأِ تَـلازُمِ الأفعالِ، ومُؤدَّى بعْضِها إلى بعضٍ

ذَكَرَ مُوجِبَ الإيمانِ، وهو الآياتُ، وتَرتَّبَ نقيضُهُ عليه، وأَتبَعَ ذَلِكَ بمُوجِبِ الرُّشدِ، وتَرَتَّبَ نقيضُهُ عليه، ثمّ جاءَتِ الجُملَةُ بعدَها مُصَرِّحَةً بسلوكِهِم سبيلَ الغَيِّ ومُؤكِّدةً لِمَفهومِ الجُملَةِ الشّرطيّةِ قبلَها؛ لأنَّه يَلزَمُ مِن تَركِ سبيلِ الرُّشدِ سُلُوكُ سَبيلِ الغَيِّ؛ لأنَّهما إمَّا هُدًى وإمّا ضَلالٌ، فَهُما نَقيضانِ إذا انتَفَى أحَدُهُما ثَبَتَ الآخَرُ[3]، وذلكَ مِن بديعِ نظْمِ القرآنِ في تلازمِ الأفعالِ وتسلْسُلِ عرضِها بالابتداءِ بالأولَى، وما يترتَّبُ عليه، ثمّ التّصريحُ بنقيضِهما في مَشهَدٍ مُترابِطِ المعنى، مُنسَجِمِ اللّفظِ، مُنسبِكِ التّركيبِ يُصوِّرُ - بدقّةٍ - الحالَ والمآلَ، ذلك أنّه تَعالَى لمّا أَخبَرَ بتكبُّرِهِم في الحالِ عَطَفَ عليه فِعلَهُم في المآلِ مِن عدمِ إيمانِهِم بالآياتِ مهما كثُرَت، وعدمِ سلوكِ سبيلِ الرُّشدِ بقصْدٍ منهم، ونَظَرٍ، وتعمُّدٍ، بل إنْ سَلَكوهُ فعَن غيرِ قصدٍ، وإصرارُهُم على سلوكِ سَبيلِ الغَيِّ بغَايةِ الشّهوَةِ، والتَّعمُّدِ، والاعتِمالِ لِسُلُوكِه[4].

بَلاغةُ طِباقِ الإيجابِ والسّلْبِ:

بـيـانُ المعنَـى، ومَزيدُ إيضاحِه في ثنايَا الطِّباقِ المُـدْرَجِ في السِّياقِ

﴿سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ عبارةٌ عن سبيلِ الهُدى والدّينِ الحقِّ والصّوابِ في العلمِ والعملِ، و﴿سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾ ما يكونُ مُضادًّا لذلك[5]، فالرُّشدُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105.
(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 77.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5.

والغَيُّ مِن طباقِ الإيجاب، ولا يتّخِذُوهُ، ويتّخذُوهُ مِن طباقِ السَّلبِ بالإثباتِ والنَّفي، فالرُّشدُ الصّلاحُ وفعلُ النّافع، والمُرادُ به هنا: الشَّيءُ الصّالحُ كلُّهُ مِنَ الإيمانِ والأعمالِ الصّالحةِ، والغَيُّ الفسادُ والضّلالُ، وهو ضدُّ الرُّشدِ بهذا المعنى.

فالمعنى: إنْ يُدرِكُوا الشَّيءَ الصّالحَ لَم يَعمَلُوا بهِ لِغلَبةِ الهوى على قلوبِهم، وإنْ يُدرِكُوا الفَسادَ عَمِلُوا بهِ لِغلَبةِ الهَوى، فالعَمَلُ بهِ حَملٌ للنّفسِ على كُلفَةٍ، وذَلِك تَأبَاهُ الأنفُسُ الّتي نشأت على مُتابعةِ مَرغُوبِها[1]، وفي هذين الطِّباقَين إفصاحٌ عَن دلالةِ الرَّبطِ في الجملتَيْن المؤدِّي إلى مَزيدِ إيضَاحٍ للمعنى، وبيانِه؛ بما يُسبّبُهُ من شدٍّ وجَذْبٍ على النّفسِ المُتلقّيَةِ له قراءةً وتَدبُّرًا، وفي ذَلك تعزيزٌ للوظيفةِ الإبلاغيّةِ للطّباقِ بالوظيفةِ التّأثيريّةِ الّتي يَترسَّخُ من خلالِها المَنهجُ الفِطريُّ السّليمُ للنّفسِ البشريّةِ باتّباعِ سبيلِ الرُّشدِ، ونبْذِ نقيضِه، وزادَ تَعالُقُ الطّباقَين مِن ترسيخِ هذه.

سِرُّ تَكْرارِ ألفاظِ (الرُّؤيةِ)، و(السَّبيلِ)، و(الاتّخاذِ):

في التَّكرارِ اعتبارٌ، واسْتِئنافُ التّنبيهِ، وتجدُّدُهُ، وإيذانُه بالاختلافِ

لمّا كانَ الكلامُ - في وجهِ تفسيرٍ تقدَّمَ ذكرُهُ - مُوجَّهًا لقومِ النَّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ تنبيهًا لهم من سِنَةِ الغفلة، وشَحْذًا لقلوبِهم بتجدُّدِ الموعظة، كانَ تَكرارُ ألفاظِ الرُّؤيةِ، والسّبيلِ، والاتّخاذِ - بمحمولاتِها الدَّلاليّةِ الحقيقيّةِ والمَجازيّةِ المَطروحةِ على طريقِ الاستعارةِ - من لوازمِ الاعتبارِ، واستئنافِ التَّنبيهِ، وتجديدِهِ لِئلَّا يقعوا فيه تعمُّدًا، أو سهوًا وغَفلةً. فرؤيةُ الآياتِ - لِسعةِ دلالتِها - إجمالٌ، أمارتُهُ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كُلَّ﴾ الدّالِّ على العُموم. وطريقُ الرُّشدِ وطريقُ الغَيِّ مُتضادّان مُتناقِضان، والتَّكرارُ مُؤذِنٌ بالاختلافِ، دالٌّ عليه، مُؤكِّدٌ له؛ والمعنى: هذه آياتي الكثيرةُ، وهذا طريقُ الرُّشدِ، وهذا طريقُ الغَيِّ. وتَركُ الرُّشدِ، واتِّباعُ الغَيِّ دليلُ مُناقضةِ الفِطرةِ السّليمةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105 - 106.

فائدةُ التَّعْبِيرِ بالأفعالِ المُضارِعةِ:

التَّعبيرُ في الصِّلاتِ الأربَعِ بالأفعالِ المُضارَعَةِ: ﴿يَرَوۡاْ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ، و﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ مرّتين بالنّفْيِ والإثباتِ وبصِيغةِ الجُملِ الفعليّةِ المُكرَّرةِ بألفاظِها: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ﴾، و﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾، و﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾؛ أفادَت تجدُّدَ أفعالِ الانتهاءِ عنِ الرُّشدِ، والعزمِ على الغيِّ لدَيْهم، واستمرارَهُم عليها، ورسَّخَت من ثَمَّ صفاتِ الكِبرِ، والجُحودِ، والتّكذيبِ عندَهُم، فالجُملُ الأربعُ يُؤكِّدُ بعضُها بعضًا، فيكون في تَكرارِها بالغُ النّهايةِ في التَّحقيقِ[1].

تجدُّدُ أفعَالِ الصّدِّ عنِ الرُّشدِ، والعزمُ على الاستمرارِ على الغيِّ

العُدولُ بالكلامِ إلى الفصْلِ:

وجملةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ توسيمَهُم بتلكَ الصِّلاتِ يُثيرُ سُؤالًا[2]، والمقامُ هنا مَقامُ التَّعليلِ المُضمَّنِ التَّحذيرَ والتَّقريعَ، فالتّكذيبُ صورةُ الكِبرِ، ومُسبِّبٌ عنه؛ وهو أدعى إلى الفَصلِ.

التَّكذيبُ صورةُ الكِبْرِ، ومُسبِّبٌ عنه

سِرُّ التَّعْبِيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استُعمِلَ له اسمُ إشارَةِ المُفرَدِ لتأويلِ المُشارِ إليهِ بالمذكورِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان: 68]؛ أي: مَن يَفعَلِ المَذكورَ، وهَذا الاستِعمالُ كثيرٌ في اسمِ الإشارةِ، وأُلحِقَ بِهِ الضَّميرُ كما تقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61][3].

فائدةُ الإشارةِ، تأويلُ المُشارِ إليه بالمذكورِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالباءِ السَّببيّةِ، في: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ سببيّةٌ؛ أي: كِبرُهُم، وعَدَمُ إيمانِهم، واتّباعُهم ﴿سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾، وإعراضُهُم عن ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ سَبَبُهُ

أفادَتِ الجُملَةُ بيانَ سببِ الكِبْرِ، وجعْلِه سببًا للسَّببِ

(1) الجلالان، المفصّل، ص: 600، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.

تَكذِيبُهُم بالآياتِ، فأفادَتِ الجُملَةُ بيانَ سببِ الكِبْرِ، والإعلامَ بأنّ ذلك الصَّرفَ سببُهُ التّكذيبُ، وما عُطِفَ عليهِ مِنَ الأوصافِ الّتي هي سَبَبُ صَرفِهِم عنِ الآياتِ، فكانَ ذلكَ سَبَبَ السّبَبِ، وهذا أحسَنُ مِن إرجاعِ الإشارةِ إلى الصّرفِ المأخوذِ من ﴿سَأَصۡرِفُ﴾؛ لأنّ هذا المَحمَلَ يَجعَلُ التّكذيبَ سببًا ثانيًا لِلصَّرفِ، وجَعلُهُ سَبَبًا لِلسّببِ أرشَقُ[1].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ إشعارٌ بأنَّ الصّرفَ سببُهُ هذا التَّكبُّرُ، وفي قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ﴾ إعلامٌ بأنّ ذلكَ الصّرفَ سَبَبُهُ التَّكذِيبُ، والجَمعُ بينَهُما أنّ التَّكبُّرَ سَبَبٌ أوّلُ نَشَأَ عنهُ التّكذِيبُ، فَنِسبةُ الصَّرفِ إلى السَّببِ الأوّلِ وإلى ما تَسَبَّبَ عنهُ[2].

عِلّةُ التّعْبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾:

تَـحـقـيـقُ الـتّـسـبـيـبِ، وتـأكـيـدُهُ في السِّياقِ

واجتُلِبَت (أنّ) في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ الدَّالّةُ على المَصدَريّةِ والتّوكيدِ؛ لتحقيقِ سببِ الكِبرِ، وسببِ الصّرفِ وتأكِيدِه[3]، فالتَّعبيرُ بالمَصدَرِ المُنسبِكِ أقوى في الدَّلالةِ على الحَدَثِ مِنَ الفعلِ، وهو يُناسِبُ معنى التَّحذيرِ والتّقريعِ الّذي تتضمَّنُهُ الآيَةُ الكريمةُ.

التَّعْبيرُ عن فعْلِ الكذِبِ، بصِيغةِ الماضِي:

إفادةُ أنَّ وصْفَ التَّكْذيبِ، قديمٌ راسِـخٌ فيهم، والـتَّـعـبـيرُ بـه على الابـتـداءِ لا الإخْبارِ

جُعِلَ المُسندُ فِعلًا ماضيًا ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ لإفادةِ أنَّ وصفَ التَّكذيبِ قَديمٌ راسِخٌ فيهم، فكانَ رُسُوخُ ذلك فيهم سَبَبًا في أنْ خَلَقَ الطَّبعَ والخَتمَ على قُلُوبِهم فلا يَشعُرُونَ بنقائِصِهِم، ولا يُصلِحُونَ أنفُسَهم، فلا يَزالُونَ مُتَكَبِّرينَ مُعرِضِينَ غاوِينَ[4].

ومعنى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنّهم ابتدأوا بالتّكذيبِ، ولم يَنتظرُوا، ولم يَهتَمُّوا بالتَّأمُّلِ في الآياتِ فَداموا على الكِبرِ وما معَهُ، فَصَرَفَ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.

(4) بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.

اللّهُ قلوبَهُم عَنِ الانتفاعِ بالآياتِ، وليسَ المُرادُ الإخبارَ بأنَّهم حَصَلَ منهُم التّكذيبُ؛ لأنَّ ذَلِكَ قد عُلِمَ مِن قولِهِ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾[1].

دَلالةُ جُملتَيِ الإخبارِ، في سِياقِ الآيَةِ:

التّنبيهُ على صَيْرورةِ الكذبِ لهم دَيْدنًا، وأنَّ غفلَتَهُم عن قَصْدٍ

صِيغَت جُملتا التَّكذيبِ والغَفلةِ؛ لِلدَّلالةِ على أنّ ذلكَ الصّرفَ عنِ الآياتِ هو سببُ تكذيبِهِم بها، وغَفلتِهِم عنِ النَّظرِ فيها، والتَّفكُّرِ في دلالتِها، والمعنى: أنَّهم وَقَعَ كَذبُهُم، واستمرَّ وصارَ لهم ذلك دَأبًا وديدنًا، وأنّ مِن شأنِهِم الغَفلةَ عنِ الآياتِ وعن تدبُّرِها، حتّى صارَت لا تَخطُرُ لَهم ببالٍ، فحصلَتِ الغَفلةُ عنها والنّسيانُ لها، حتّى كانُوا لا يَذكُرُونَها، ولا شَيئًا منها[2]، وإنّما كانَت كَذلِكَ إذا كانُوا قدِ التزمُوها (والغفلةَ أعني)، وتقصّدُوا فِعلَها، ولو كانَت عن غيرِ قَصدٍ؛ فإنّها قد تَعتَرِيهِم، وقد تُفارِقُهُم[3].

بَلاغةُ التّقديمِ، والتَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ في السِّياقِ:

الآياتُ مَقصَدُ العِنايةِ، بوصْفِها مَقصَدَ الغَفلةِ

قُدِّمَ الجارُّ ومجرورُهُ: ﴿عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ للعنايةِ بالآياتِ، وبيان كونِها هي مَقصَدُ الغَفلةِ، وصِيغَ الخبرُ باسْمِ الفاعلِ تَرسيخًا لمعنى الغَفلةِ عنِ الآياتِ فيهم؛ أي: أنَّهم وَاظبُوا على الإعراضِ عنها، وتجذّرَ ذلك فيهم، حتّى صاروا بِمَنزِلَةِ الغافلِ عنها[4].

عِلّةُ التّبايُنِ في نِسبةِ الآياتِ إليه تعالى:

تناسُبُ سِياقِ الآياتِ، يَعكِسُ مُستوَى البيانِ السّامِي

افتتحَ تعالى الآيَةَ بنسبةِ الآياتِ إليهِ تعالى بضَميرِ المُتَكَلِّمِ ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾، وخَتَمَ الآيَةَ بنسبتِها إليه بضَميرِ التَّعظيمِ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والعُدولُ عن ضَميرِ التَّعظيمِ في المُفتَتَحِ ليناسبَ التَّعبيرَ في الآيَةِ السّابقةِ لها بصيغةِ المُتَكَلِّمِ ﴿سَأُوۡرِيكُمۡ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، وابن عادل، اللّباب: 9/314.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5.

وقَصَدَ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ في الختامِ لِيناسِبَ الآيَةَ الّتي بعدَها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الغَيُّ، والضّلالُ، والفسادُ:

في الغَيِّ معنَى التَّعمُّدِ والخَيبةِ، والانْجذابِ إلى ما يترتَّبُ عليه الفَسَادُ

إنّ كلَّ غيٍّ قَبيحٌ، وَيجوزُ أَن يكونَ الفَسَادُ لَيس بقبيحٍ، كفسادِ التّفاحةِ بتعفُّنِها، وإذا قُلْنَا: فلَانٌ فَاسدٌ اقتَضى ذَلك أنّه فَاجرٌ، وَإذا قُلْتَ: إنَّه غاوٍ اقتَضى فَسَادَ المَذهَبِ والاعتقادِ[1]. ففي الغَيِّ معنى الانجذابِ إلى ما يترتَّبُ عليه الفسادُ، فكأنّ فيه درجةً مِنَ التَّعمُّدِ[2]، ولذلك أُوثِرَ استعمالُهُ على الفسادِ لِتعمُّدِهم إيّاهُ فعلًا. أمّا الضَّلالُ فمع كونِهِ عنِ الدّينِ، فهو أبلغُ مِنَ الغَيِّ فيه، إلّا أنّه يُستعمَلُ للابتعادِ عنِ الدِّينِ، وعنِ الطّريقِ، وَلَا يُستعمَلُ الغَيُّ إلَّا في الدّينِ خَاصَّةً، فَضْلًا عنِ اختصاصِ استِعمالِ الغَيِّ في الخيبةِ، يُقَالُ: غوى الرَّجَلُ إذا خَابَ في مَطلَبِهِ[3]. وتخصيصُ الاستعمالِ في الدِّينِ، مع مَلمَحِ الخيبةِ يُناسبان سياقَ الآيَةِ الكريمةِ الّتي يدورُ الحديثُ فيها عن آياتِ اللّهِ الخاصّةِ بشريعتِهِ، وأحكامِ دينِهِ. وسُلوكُهم سَبيلَ الغَيِّ مع وضوحِ طريقِ الرُّشدِ مُنتَهى الخيبةِ.

غَفلَ، وذَهلَ، وسَهَوَ، ونَسيَ:

الغَفلةُ عدمُ إدْرَاكِ الشَّيءِ، لِقلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيَقُّظِ، وهي المُؤثِّرَةُ في الآيةِ الكريمةِ

غَفَلَ: الغَينُ والفاءُ واللّامُ أَصلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ سَهوًا، ورُبَّمَا كانَ عَن عَمدٍ[4]. الغَفلةُ: سَهوٌ يَعتري من قِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ؛ وقيلَ: مُتابَعَةُ النَّفسِ على ما تَشتَهيه. والغَفلَةُ: عدمُ إدرَاكِ الشَّيءِ مَعَ وُجودِ مَا يَقتَضِيه، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾ [المؤمنون: 17]؛ أَي: مُهمِلِينَ أمرَهُم. ولمَّا كانَتِ الآيَةُ الكريمةُ ابتدأت

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 214.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غوى).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).

بـالصَّرفِ الّذي يعني المَنعَ، والصَّرفَ، والإبعادَ، ناسبَهُ أنْ تُختَمَ بقولِه: ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ لأنّ مَن منعَهُ اللّهُ ألطافَهُ، وصدَّهُ عن آياتِه كانَ في غَفلَةٍ تامَّةٍ لا تيقُّظَ معها، ولا إدراكَ.

والذَّهْلُ: تَرْكُكَ الشَّيءَ تَتناساه على عَمْدٍ، أو يشغَلُكَ عنه شاغلٌ، ويَدُلُّ عَلَى شُغلٍ عَن شَيءٍ بِذُعرٍ أَو غَيرِهِ، فَهُوَ عدمُ استثباتِ الإِدرَاكِ حَيرةً ودهشةً، وهو: شُغلٌ يُورِثُ حُزنًا ونِسيَانًا[1]. ولمَّا كانَ سياقُ ورودِ اللّفظةِ في مَشهَدِ الآخرةِ العظيم ناسبَهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحجّ: 2]؛ لأنَّه يَجعلُها تَنشَغلُ عن رضيعِها مَذعورةً مَحزونةً مِن هولِ المَنظَرِ[2]. والنّسيَانُ إِنَّمَا يكونُ عَمَّا كَانَ، والسّهوُ يكونُ عَمَّا لم يَكُنْ، تَقول: نَسِيتُ مَا عَرفتُه، وَلَا يُقَالُ: سَهَوْتُ عَمَّا عَرفتُهُ. وإنّما تَقولُ: سَهَوْتَ عَنِ السُّجُودِ في الصَّلَاةِ، فتجعلُ السَّهْوَ بَدَلًا عَنِ السُّجُودِ الَّذِي لم يكُنْ، فالنِّسيَانُ يكونُ لِمَا غابَ بعدَ حُضُورِهِ، والسَّهوُ يكونُ لِمَا عَلِمَهُ الإِنسَانُ، وَلِمَا لَا يعلمُهُ. فالإِنسَانُ إِنَّمَا يَنسَى مَا كانَ ذاكرًا لَهُ، والسّهوُ يكونُ عَن ذِكرٍ، وَعَن غيرِ ذِكرٍ؛ لِأَنَّهُ خَفَاءُ المَعنى بِمَا يمتَنِعُ بِهِ إِدرَاكُهُ. ويُعبَّرُ عن تَركِهِ عَن غَيرِ عِلمٍ: (بالسَّهوِ فيهِ)، ويُعبَّرُ عن تَركِهِ مَعَ العِلمِ: (بالسَّهوِ عَنهُ)[3]، ومِنهُ قَولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: 5].

والسَّهوُ: خطأٌ عَن غَفلَةٍ، أو هو غَفلَةٌ يَسيرَةٌ عَنِ الحافِظَةِ يَتَنَبَّهُ بِأَدنى تَنبِيهِ، والنِّسيانُ زَوَالُهُ عَنهَا كُلِّيَّةً، بِحيثُ يحتَاجُ إِلَى تَحصِيلٍ جَدِيدٍ. وَلذَا عَدَّهُ الأَطبَّاءُ من الأَمراضِ دُونَه. فالنِّسيانُ: هُوَ تَركُ ضَبطِ مَا استُودِعَ إمَّا لِضعْفِ قَلبِهِ، وإمَّا عَن غَفلَةٍ، وإمّا عَن قَصْدٍ حَتَّى يَنحَذِفَ عَنِ القَلبِ. ومن هنا فرَّقُوا بينَ (السَّاهِي والنَّاسِي)؛ بأَنَّ النَّاسِي إِذا ذُكِّرَ تَذَكَّرَ، والسَّاهِي بخِلافِه[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذهل)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506.

(2) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/566.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506، وابن منظور، لسان العرب: (سها).

(4) الرّاغب، المفردات: (نسي)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506، والفيروزاباديّ، تاج العروس: (سهو).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ [الأعراف: 147]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَفاذُ السُّننِ الإلهيَّةِ في الضّالِينَ، وحُبُوطِ أعمالِهِم بسَبَبِ التّكذيبِ وسُوءِ الأعمالِ

لمّا بيّنَ اللّهُ تعالى سُنَنَهُ في ضلالِ البشرِ بعدَ مجيءِ البيّناتِ في كلِّ زمانٍ، ولمّا ذَكَرَ ما لأجْلِهِ صَرَفَ المُتَكَبِّرينَ عَن آياتِهِ بكذبِهم وغفلتِهِم، بيّنَ حالَ أُولئكَ المُكذِّبينَ فقَد كانَ يَجُوزُ أن يُظَنَّ أنّهم يَختلِفونَ في بابِ العِقابِ؛ لأنَّ فِيهم مَن يَعمَلُ بعضَ أعمالِ البرِّ، فقَد يَحسَبُ السَّامِعُ أنَّ أعمالَهُم ستنفَعُهُم؛ أُزِيلَ هذا التَّوهُّمُ ببيانِ حالِ جميعِهم سَواءٌ كانَ مُتكبِّرًا، أو مُتَواضِعًا، أو كانَ قَليلَ الإحسانِ، أو كانَ كثيرَهُ بأنَّ أعمالَهُم لا تنفعُهُم مَعَ التّكذيبِ بآياتِ اللّهِ، ولقاءِ الآخرةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِقَآءِ﴾: اللَّامُ والقَافُ والياءُ أُصُولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُهَا تَوَافي شَيئَينِ. وهو: اللِّقَاءُ: المُلاقَاةُ وَتَوَافي الاثنَينِ مُتَقَابلَينِ[2]، وكلُّ شيءٍ استقبلَ شَيئًا أو صادفَهُ فقد لقيَهُ[3]. واللّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيءِ ومُصادَفَتُه مَعًا، ويُعبَّرُ بِهِ عَن كلٍّ مِنهُمَا، ويُقالُ ذلكَ في الإدراكِ بالحِسِّ، والبَصَرِ، وبالبَصيرةِ. ومُلاقاةُ اللّهِ ﷻ عبارةٌ عنِ القيامةِ، وعنِ المَصيرِ إليه. وسُمِّيَ بـ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلك لالتقاءِ مَن تقدَّمَ ومَن تأخَّرَ، والتِقَاءِ أهلِ السَّماءِ والأرضِ، ومُلَاقاةِ كلِّ أحدٍ بعمَلِهِ الّذي قدَّمَهُ[4]، وهو معنى اللّفظةِ في الآيَةِ الكريمةِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لقا).
(4) الرّاغب، المفردات: (لقي).

2) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: الهَمزَةُ والخَاءُ والرَّاءُ أَصلٌ واحِدٌ إِليهِ تَرجِعُ فُرُوعُهُ، وَهُوَ خِلَافُ التَّقَدُّم. والآخِرُ، والآخِرةُ نَقِيضُ المُتَقَدِّمِ والمُتَقَدِّمَة[1]، ويُعَبَّرُ بالدّارِ الآخرةِ عنِ النّشأةِ الثّانيةِ، كما يُعَبَّرُ بالدّارِ الدّنيا عنِ النّشأةِ الأولى[2]. فـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: صفةٌ غالبةٌ للدّارِ أوِ الحياةِ الّتي بعدَ دارِ الدّنيا، وهي في كلِّ القرآنِ بهذا المعنى عدا ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [ص: 7][3].

3) ﴿حَبِطَتۡ﴾: الحَاءُ والبَاءُ والطَّاءُ أَصلٌ وَاحِدٌ يدُلُّ على بُطلَانٍ أو أَلَم. يُقَالُ: أَحبَطَ اللّهُ عَمَلَ الكَافِرِ؛ أَي: أَبطَلَهُ[4]، وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ[5]، والإحباطُ هُوَ إبطَالُ عملِ البرِّ مِنَ الحَسَنَاتِ بالسّيّئاتِ، وَهُوَ مِن قَوْلِكَ: حَبطَ بطنُهُ إذا فَسدَ بالمأكلِ الرَّدِيِّ[6].

وحَبْطُ العَمَلِ على أضرُبٍ: أحدُها: أن تكونَ الأعمالُ دُنيَوِيّةً فلا تُغني في القيامةِ غنَاءً، والثّاني: أن تكونَ أعمالًا أُخرَوِيَّةً، لكنْ لم يَقصِدْ بها صاحبُها وَجهَ اللّهِ تعالى. والثّالثُ: أن تكونَ أعمالًا صَالِحةً، ولكنْ بإزائِها سيّئاتٌ تُوفي عليها[7]، ومعنى ﴿حَبِطَتۡ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ ما ارتكبُوهُ مِن كِبرٍ وكَذبٍ، فأبطلُوا عملَهُم، هو منَ الوجهِ الأوَّلِ.

4) ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾: الجيمُ والزّايُ واليَاءُ: قِيَامُ الشَّيءِ مَقَامَ غَيرِهِ ومُكَافَأَتُهُ إِيَّاهُ[8]، وجزى يجزي جزاءً؛ أي: كافأَ بالإحسانِ وبالإساءةِ[9]. فالجزاءُ يكونُ ثَوابًا، ويكونُ عِقابًا[10]، وهو: الغِناءُ والكِفَايةُ، وهُوَ مَا فِيهِ الكِفايَةُ إنْ خَيرًا فخَيرٌ وَإنْ شرًّا فَشَرٌّ. وهو: تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تنَاوُلِ شيءٍ أو معالجتِهِ[11]. وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ فهو مِنَ الجزاءِ بمعنى المكافأةِ على الشَّيءِ في الخيرِ والشّرِّ، ويَصدقُ في الثّوابِ والعِقابِ. ومنه جَزَيْتُهُ حقَّهُ: قضيتُه. ومعنى اللّفظِ المَشروحِ مكافأةُ المُكذّبينَ بما كانُوا يَعمَلُون.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(2) الرّاغب، المفردات: (آخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبط).
(5) الخليل، العين: (حبط).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.
(7) الرّاغب، المفردات: (حبط).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(9) الخليل، العين: (جزي).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(11) الرّاغب، المفردات: (جزاء).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الّذينَ كذّبُوا بآياتِنا المُنزَّلَةِ بالحقِّ والهُدى على رُسُلِنا، فلم يُؤمِنوا لَهم، ولا اهتدوا بها، وكَذّبُوا بلقاءِ الآخرةِ، وما يكونُ فيها مِنَ الجزاءِ على الأعمالِ - على الخيرِ بالثّوابِ، وعلى الشّرِّ بالعقابِ - فاتّبعُوا أهواءَهُم، لا يُجزون هنالك إلّا ما كانَ مِن تأثيرِ أعمالِهم، فإنْ كانَ حقًّا وخيرًا زكّاهُ وأصلحَهُ، وإنْ كانَ باطلًا وشرًّا دسّاهُ وأفسدَهُ؛ فإنَّ اللّه لا يَظلِمُ النَّاسَ في الجزاءِ مِثقالَ ذرّةٍ[1]، وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنّ الجاحدَ للحقِّ مع علمِهِ به أقبحُ حالةً مِنَ الجاهلِ بهِ المُقصِّرِ في تعريفِهِ[2]. وهذه الآياتُ أعظمُ زاجرٍ عنِ التَّكبُّرِ، فإنّها بيّنَت أنَّ التَّكبُّرَ يُوجِبُ الكُفْرَ والإصرارَ عليهِ والوَهنَ في جميعِ الأمورِ، وهي ممَّا يَتعجَبُ المُوفَّقُ مِن ارتكابِهِ[3].

بيانُ جزاءِ المُستكبِرينَ المُكذّبينَ، مقابِلَ أعمالِهم بيومِ الدّينِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ ووُجُوهِها:

يَجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مَعطوفًا على جملةِ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾، أو على جملةِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في الآيةِ السّابقةِ، ويجوزُ أن تكونَ تذييلًا مُعترِضًا بينَ القِصّتَينِ، وتكونُ الواو اعتراضيّةً، وأيًّا ما كانَ فَهي لإزالةِ توهُّمِ أنّهم ستنفعُهُم أعمالُهُم مع تكذيبِهم بآياتِ اللّهِ، ولقاءِ الآخرةِ[4]، أو هي استئنافٌ مُرتَّبٌ على جملةِ ما تقدّمه منها، بيّنَ اللّهُ فيه جزاءَهُم على تكذيبِهم وكفرِهِم[5].

دَفعٌ لتوهُّمِ أنَّهم ستنفَعُهُم أعمالُهُم، مع تكذيبِهم بآياتِ اللهِ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/172.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/570.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/169.

الإشارةُ إلى أنّ أعمالَهُم حبطَتْ، بسَببِ التَّكذيبِ

بَلاغةُ العُدولِ، مِنَ الإضْمارِ إلى التّعريفِ بالمَوْصُوليّةِ:

وأُشِيرَ بالمَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ على طريقِ التَّعليلِ أو الإيماءِ إلى أنّ التّكذيبَ هو سببُ خُسرانِهم، وحَبَطِ أعمالِهم بتعريفِهِم بطريقِ المَوصوليّةِ، دونَ الإضمارِ، مَعَ تَقَدُّمِ ذِكرِهِم المُقتَضي بِحَسَبِ الظّاهِرِ الإضمارَ، فخُولِفَ مُقتضى الظّاهِرِ لِذَلكَ[1].

تَخصِيصُ اللّقاءِ بيومِ القيامةِ، إبرازٌ لأهمَيّتِه وجَلالتِه

دَلالةُ التَّعْبِيرِ عنِ اللّقاءِ، بالمَصْدَرِ:

اللّقاءُ مصدرُ لقي الشَّيءَ أو الشّخصَ، ولاقاهُ كالمُلاقاةِ إذا صادفَهُ، أو قابلَهُ، أوِ انتهى إليه[2]، وفي التَّعبيرِ عنه بالمَصدَرِ، وتعريفِهِ بالإضافةِ تخصيصٌ له، وبيانٌ في كونِهِ يومَ القيامةِ.

المعنى لقاءُ وعْدِهِ فيها، وفيه تَنبيهٌ على مَحلِّ افْتِضاحِهم

سِرُّ إضافةِ ﴿وَلِقَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

وإضافة ﴿وَلِقَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يجوزُ أن يكونَ من إضافةِ المَصدَرِ إلى المفعولِ بهِ؛ أي: ولقائِهِمُ الآخرةَ، ومُشاهَدَتِهِم أحوالَها، ومِن إضافةِ المَصدَرِ إلى ظرفِ المكانِ بمعنى (في): ولقاءِ ما وَعَدَ اللّهُ في الآخرةِ ووعيده[3]، وجملةُ ﴿وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لَفظٌ يَتَضَمَّنُ تَهديدًا؛ أي: هُنالِكَ يُفتَضَحُ لَهُم حالُهم[4]، فنَبَّهَ بها على مَحَلِّ افتضاحِهِم وجزائِهِم؛ وعيدًا لَهُم، وأنّها كائِنَةٌ لا مَحالَةَ[5].

التّحذيرُ مِنَ التّكذيبِ بآياتِ اللهِ، ولقاءِ الآخرةِ

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالفِعْلِ (حَبِطَ)، على طريقِ التّشْبِيهِ:

معنى ﴿حَبِطَتۡ﴾: سَقَطَت، وفَسَدَت، وأصلُ الحَبَطِ فَسادُ شيءٍ كانَ صالحًا، قد يُستَعمَلُ في الّذي كانَ أوّلَ مَرَّةٍ فاسدًا؛ إذ مَآلُ العامِلِين واحدٌ، وساغَ أن يُستعمَلَ حَبِطَتْ هنا؛ إذ كانَت أعمالُهُم في مُعتَقَداتِهِم جارِيَةً في طَريقِ صَلاحٍ، فكأنّ الحَبَطَ فيها إنَّما هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/172.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

بِحَسَبِ مُعتَقَداتِهم، وأمَّا بِحَسَبِ ما هي عليهِ في أنفُسِها ففاسدةٌ منذُ أوَّلِ أمرِها[1]. وفيه تشبيهٌ لضياعِ الأعمالِ الصّالحةِ بفسادِ الذّواتِ النّافعةِ، ووجهُ الشّبهِ عدمُ انتفاعِ مُكتَسِبِها منها. والمُرادُ ضياعُ ثوابِها، وما يترقّبُهُ العاملُ مِنَ الجزاءِ عليها والفوزِ بها. والمُرادُ التَّحذيرُ مِنَ التَّكذيبِ بآياتِ اللّهِ ولقاءِ الآخرةِ، لِيعلمَ المُشرِكونَ أنّهم لا تنفعُهُم أعمالُهُم[2].

فائِدةُ العُدولِ إلى الفصْلِ:

يُعدُّ الفصْلُ جوابًا لسُؤالٍ ناشِئٍ عن حُبوطِ العَملِ

وجملةُ: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سُؤالٍ يَنشَأُ عن قولِهِ: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾؛ إذ قد يقُولُ سائِلٌ: كيفَ تَحبَطُ أعمالُهُم الصّالِحةُ؟ فَأُجِيبُ بأنّهُم جُوزُوا كَما كانُوا يَعمَلُون؛ أي: بإبطالِ أعمالِهم، وإنْ عملُوا كلَّ حسنٍ سوى الإيمانِ؛ بسببِ أنّهم أبطلُوا الآياتِ والآخرةَ بتكذيبِهم بها، فإنَّهم لمّا كذَّبُوا بآياتِ اللّهِ كانُوا قد أحالُوا الرِّسَالةَ والتّبليغَ عنِ اللّهِ، فَمِن أينَ جاءَهُمُ العِلمُ بأنَّ لهم على أعمالِهِمُ الصّالِحةِ جزاءً حَسَنًا؛ لأنَّ ذلكَ لا يُعرَفُ إلّا بإخبارٍ مِنَ اللّهِ تعالى، وهُم قد عَطَّلُوا طريقَ الإخبارِ وهو الرِّسَالةُ، ولأنَّ الجَزاءَ إنّما يَظهَرُ في الآخرةِ، وهُم قد كذَّبُوا بلقاءِ الآخِرةِ، فَقَد قَطَعُوا الصِّلَةَ بينَهُم وبينَ الجَزاءِ، فكانَ حَبَطُ أعمالِهِمُ الصّالِحةِ وِفاقًا لاعتقادِهم، فالجزاءُ مِن جنسِ العملِ[3].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالاسْتِفهامِ:

أُدرِجَ الاسْتِفهامُ، لتَقريرِ العُقوبةِ وإثباتِها

قولُهُ: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ؛ يعني: أنَّهُم لا يُجزون إلّا بما يَستحقُّونَ مِنَ العقابِ، أو يَستَوجِبُونَ بسُوءِ فعلِهِم العُقُوبَةَ، وهي قولُهُ: ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: إلَّا بما كانُوا،

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/125.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

أو على ما كانُوا يَعملون[1]، أو هو استفهامٌ بمعنى النَّفي، ولِذلِك دخلَت ﴿إِلَّا﴾، ويبدو أنَّه أرجحُ؛ ولأنّ الاستفهامَ التَّقريريَّ مُوجِبٌ مِن حيثُ المعنى فَيَبْعُدُ دُخُولُ إلَّا عَليه[2]، ويَحتمِلُ الاستفهامُ هنا بنوعيه معانيَ التّخويفِ، والتّشنيعِ، والتّنبيهِ، والإنكارِ.

نُكتةُ الاسْتِفهامِ بالأداةِ ﴿هَلْ﴾:

من معانِي (هل) النّفيُ مَشوبًا به الاسْتِفهامُ، بقرينةِ الاسْتِثناءِ

قولُهُ: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، الاستفهامُ بـ﴿هَلۡ﴾ مُشْرَبٌ معنى النَّفي بقرينةِ الاستثناءِ[3]، فقد يُرادُ بالاستفهام بـ﴿هَلۡ﴾ النّفْيُ، ولذلكَ تدخُلُ ﴿إِلَّا﴾ على الخبرِ بعدَها، نحو: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرّحمن: 60][4].

بَلاغةُ حذْفِ المُضافِ المقدَّرِ في السِّياقِ:

الجزاءُ لا يكونُ نفسَ المَجزِيِّ عليه

و﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مُقدَّرٌ فيه مُضافٌ، والتّقديرُ: مُكافِئُ ما كانُوا يَعمَلُونَ بقرينةِ قولِه: يُجزَونَ؛ لأنَّ الجزاءَ لا يكونُ نَفسَ المَجزيِّ عليه، فإنَّ فِعلَ (جزى) يَتَعَدَّى إلى العِوَضِ المَجعُولِ جَزاءً بنفسِه، ويَتَعَدَّى إلى العملِ المَجزيِّ عَلَيهِ بالباءِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ [الإنسان: 12]، ونَظيرُ هذه الآيَةِ قولُهُ: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: 139][5].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

آثارُ الاعْتِقادِ، تَظهَرُ في أقوالِ المُعتقِدِ وأفعالِه

والمُرادُ بـ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ما كانوا يَعتقدونَ، فَأُطلِقَ فِعلُ (يَعمَلونَ) على التَّكذيبِ بالآياتِ، وبلقاءِ الآخرةِ؛ لأنّ آثارَ الاعتقادِ تَظهَرُ في أقوالِ المُعتَقِدِ وأفعالِه، وهي من أعمالِه[6].

---

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/410، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 459، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/54.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالاحْتِباكِ:

الآيَةُ الكريمةُ مِنَ الاحتباكِ: فإثباتُ الغَفلةِ أوَّلًا يدُلُّ على إرادتِها ثانيًا، واللّقاءُ ثانيًا يدُلُّ على إرادتِهِ أوّلًا[1]، وفي ذلك إِحكامٌ للنَّظمِ إحكامًا يمنعُ عنه الخَلَلَ مع تحسينِ أثرِهِ جمالًا ورونقًا.

إحْكامُ النّظْمِ بما يَمنعُ عنه الخَلَلَ، ويُؤدّي دَلالتَه بدِقّةٍ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبطالُ، والإدْحاضُ، والإحباطُ:

أصلُ الإبطَالِ هو الإهلاكُ، وَمِنهُ سُمِّي الشّجاعُ بطلًا لإهلاكِهِ قَرينَهُ، وأصلُ الإدحاضِ الإزالةُ، فقولُكَ أبطلَهُ يُفِيدُ أنّه أهلكَهُ، وقولُكَ: أدْحضَهُ يُفِيدُ أنّه إزالةٌ. وَمِنهُ: مَكَانٌ دَحض إذا لم تثبتْ عَلَيهِ الأَقدَامُ، وَقد دَحَضَ إذا زَلَّ. أمّا الإحباطُ فهوَ إبطَالُ عملِ البرِّ مِنَ الحَسَنَاتِ بالسّيِّئَاتِ[2]، وهو أنسبُ لسياقِ الآيَةِ الكريمةِ؛ لكونِها إبطالًا لكلِّ أعمالِهِم واستبدالها بالسّيِّئَاتِ.

الإحْباطُ إبطَالُ عمَلِ البرِّ مِنَ الحَسَناتِ بالسّيّئاتِ، وهو المُستعمَلُ في سِياقِ الآيةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 148]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَما تكلَّمَ عن قِصّةِ مُناجاةِ مُوسَى، انْتقلَ إلى ما كانَ مِن ضَلالِ قَومِهِ في فِترةِ المُناجاةِ

عُطِفَ على جملة: ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: 142] عَطفَ قصّةٍ على قصّة، فذَكَرَ فيما تقدَّمَ قصّةَ المُناجاة، وما حَصَلَ فيها مِنَ الآياتِ والعِبرِ، وذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما كانَ مِن قومِ موسى، في مُدَّةِ مَغيبِهِ في المُناجاةِ، مِنَ الإشراكِ[1]، لمّا كانَ رسّخَ في قلوبِهم مِن فخامةِ مَظاهرِ الوثنيّةِ الفرعونيّةِ في مِصرَ، ذُكِرَت هذه القصّةُ هنا مَعطوفةً على ما قبلَها مِن خبرِ المُناجاةِ وألواحِ الشَّرِيْعَةِ لِمَا بينَ السّياقَين مِنَ العلاقةِ والاشتراكِ في الزّمنِ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّخَذَ﴾: الهَمزَةُ والخَاءُ والذَّالُ أَصلٌ وَاحِدٌ تَتَفَرَّعُ مِنهُ فُرُوعٌ مُتَقَارِبَةٌ في المَعنَى. والأَصلُ حَوزُ الشَّيءِ وَجَبْيُهُ وَجمعُهُ[3]. الأخذُ: حوزُ الشَّيءِ وتحصيلُهُ، وذلك تارةً بالتّناولِ، وتارةً بالقهرِ، والاتِّخاذُ افتِعالٌ منه؛ بمعنى: كَسَبْتُهُ، أُلزِمَتِ التَّاءُ كأنَّها أصليَّةٌ. ويُعَدَّى إلى مَفعُولَين، ويَجري مَجرَى الجَعْلِ[4]. ومعنى: ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ: وصَاغَ وعَمِلَ[5]، فَضلًا عن معنى الجعلِ والتّصييرِ الّذي بيّن بهما المُفسِّرونَ معنى اللّفظة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الخليل، العين: (أخذ)، والرّاغب، المفردات: (أخذ).
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/63.

2) ﴿حُلِيِّهِمْ﴾: الحَاءُ وَاللَّامُ وَمَا بَعْدَهَا مُعْتَلٌّ، ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: فَالأَوَّلُ طِيبُ الشَّيْءِ فِي مَيْلٍ مِنَ النَّفْسِ إِلَيْه، وَالثَّانِي تَحْسِينُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ - وَهُوَ مَهْمُوزٌ -: تَنْحِيَةُ الشَّيْءِ، فمنَ الثَّاني: حُلِيُّ المَرْأَة[1]، والحَلْيُ: كلُّ حِليَةٍ حَلَيت به بها امرأةً أو سيفًا أو ونحوَهُ، والجميعُ: حُلِيٌّ، فهو اسمٌ لِما يُحَسَّنُ بهِ مِنَ الذّهبِ والفِضّةِ[2]. ومعنى الحُليّ في الآيَةِ الكريمةِ ما يُزيَّنُ بهِ مِن مَصُوغِ الحجارةِ والمعدنيّاتِ وما إلى ذلك[3].

3) ﴿عِجْلًا﴾: العَينُ والجيمُ واللَّامُ أَصلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الإِسرَاعِ، والآخَرُ عَلَى بَعضِ الحَيَوَانِ[4]، وهو العِجْلُ: وَلَدُ البَقَرَةِ؛ وسُمِّي بذلكَ لِتصَوُّرِ عَجَلَتِها الّتي تَعدِمُ منه إذا صارَ ثورًا[5]، أو لولادتِهِ قبلَ بُلوغِ الوقتِ الّذي أَلِفُوا أن تَلِدَ النّوقُ بعدَهُ، وهو اثنا عشرَ إلى خمسةَ عشرَ شهرًا، والبقرُ تَلِدُ لتسعةِ أشهرٍ[6]، وقِيلَ: العِجْلُ: ولدُ البَقَرَةِ الأَهلِيَّةِ خَاصَّةً، وَلَا يُقَالُ لولدِ الوحشيّةِ عِجلٌ[7]، وكلُّ عِجلٍ في القرآنِ الكريمِ فالمُرادُ به ولدُ البقرةِ.

4) ﴿جَسَدًا﴾: الجيمُ والسِّينُ والدَّالُ يدُلُّ عَلَى تَجَمُّعِ الشَّيءِ أيضًا واشتِدَادِهِ. من ذَلِكَ جَسَدُ الإِنسَانِ[8]. ولا يُقالُ لغيرِ الإنسانِ جَسَدٌ من خلقِ الأرضِ. وكلُّ خلقٍ لا يأكلُ ولا يَشربُ مِن نحوِ الملائكةِ والجنِّ ممّا يَعقِلُ فهو جَسَدٌ[9]. والجَسَدُ: البدنُ[10]، وهو كالجسمِ لكنّه أخصُّ[11]. وكان عِجلُ بني إسرائيلَ جَسَدًا لا يأكلُ ولا يَشربُ ويصيحُ[12]؛ أي: كتلةٌ لا روحَ فيها[13].

---

(1) الخليل، العين: (حلي)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلو).
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/377.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلو - حلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).
(5) الرّاغب، المفردات: (عجل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عجل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جسد).
(9) الخليل، العين: (جسد).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (جسد).
(11) الرّاغب، المفردات: (جسد).
(12) الخليل، العين: (جسد).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جسد).

5) ﴿خُوَارٌۚ﴾: الخَاءُ والوَاوُ والرَّاءُ أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا يدُلُّ على صَوتٍ، ومنهُ قَولُهُم خَارَ الثَّورُ يَخُورُ، وذَلِكَ صَوتُهُ. فالخُوارُ: ما اشتدَّ من صوتِ البقرةِ والعِجلِ، وصياحِه[1]. والخُوَارُ: صوتُ البهائمِ. وذَكَرَ الرّاغبُ أنّه مُختَصٌّ بالبقرِ، ثمّ تَوَسَّعُوا فِيهِ، فأَطلقُوهُ على صِياحِ جَمِيعِ البَهَائِمَ[2]. كصَوتِ البعيرِ والغَنَمِ والظِّبَاءِ والسِّهَامِ[3]. وقولُهُم: خارَ السّهمُ، تشبيهٌ بخُوارِ البقرِ والثّورِ في إحداثِ الصّوتِ. أمّا الخُوارُ من أصواتِ البقرِ والغنمِ والظّباءِ فهي تُنبِئُ عن فراغٍ كبيرٍ أو تخلخلٍ في البناءِ تمرُّ فيه الرّيحُ[4]، وهي حِيلَةُ السّامريِّ في العِجّلِ الّذي صاغَهُ؛ لتحويلِ الرّيحِ الدّاخلةِ جوفَهُ إلى صوتٍ أشبهَ بخُوارِ البقرِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مُنْتهَى الضّلالِ والزَّيغِ عنِ الحقِّ، اتّخاذُ العِجلِ منَ الحَليِّ الذّهبيِّ إلهًا

بعدَ ما فارقَهُم مُوسى عليه السلام مَاضيًا إلى مناجاةِ ربِّه، ووفاءً للوعدِ الّذي كانَ ربُّهُ وعدَهُ اتّخذَ بنو إسرائيلَ: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾، على هيئةِ ولدِ البقرةِ، له صوتٌ يشبهُ صوتَهُ ممّا تُفنِّنَ فيه من سرِّ الصّناعةِ بإمرارِ الرّيحِ فيه؛ لِيحدثَ هذا الصّوتُ، وعكفوا عليه يعبدونَهُ، جهلًا منهم وجحودًا، وذلكم مُنتهى الضّلال؛ لأنّ الرّبَّ جل جلاله الّذي له مُلكُ السّمواتِ والأرضِ، ومُدبِّرُ تصريفِ الكونِ، لا يَجوزُ أن يكونَ جسدًا له خوارٌ، لا يكلِّمُ أحدًا ولا يُرشِدُ إلى خيرٍ، بل صفتُه أنّه يُكلِّمُ أنبياءَهُ ورسلَهُ، ويُرشِدُ خلقَهُ إلى سبيلِ الخيرِ، ويَنهاهُم عن سبيلِ المَهالِكِ والرّدَى[5].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى صحّةِ الحِجاجِ في الدّينِ، وأنّهُ تعالى

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (خور).
(2) الرّاغب، المفردات: (خوار).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خور).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خور).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/117 - 118.

دَلَّهُم، في بُطلانِ اتّخاذِ العِجْلِ إلهًا، بأنَّه لا يَتَكلَّمُ ولا يَهدِي، وإنّما ذَكَرَ الكَلامَ؛ لأنَّ الخُوارَ تَنفَدُ فيهِ الحِيلةُ، ولا تَنفَدُ في الكَلام، وتدُلُّ على أنّ إزالةَ الشُّبَهِ في الدِّينِ وَاجبٌ، كما أزالَها اللّهُ تعالى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّةُ العُدولِ مِنَ الفصْلِ إلى الوصْلِ:

سِياقًا طَلبِ القَومِ جعْلَ إلهٍ، وطلَبِهم اتّخاذَ العِجْلِ، مُشتركان في الغايةِ

عُطِفَ على جملة: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: 142] عَطفَ قِصَّةٍ على قِصّةٍ، فذُكِرَ فيما تقدَّمَ قِصّةُ المُناجاةِ، وما حَصَلَ فيها مِنَ الآياتِ والعِبرِ، وذُكِرَ في هذه الآيَةِ ما كانَ مِن قومِ مُوسى، في مُدّةِ مَغيبِه في المُناجاةِ، مِنَ الإشراكِ[2]. ولمَّا كانَ رسَّخَ في قلوبِهم مِن فخامةِ مظاهرِ الوثنيّةِ الفرعونيّةِ في مِصرَ، ذُكِرَت هذه القصّةُ هنا معطوفةً على ما قبلَها مِن خبرِ المُناجاةِ وألواحِ الشَّريعَةِ لَما بينَ السّياقين مِنَ العلاقةِ والاشتراكِ في الزّمنِ[3].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الاتّخاذِ:

في الفِعلِ معنَى المُشاركةِ، والتَّصنُّعِ على خِلافِ الحقِّ

﴿وَٱتَّخَذَ﴾ أصلُهُ (اِيتَخَذَ)، على وزن (افتَعَلَ) مِن: (تَخِذَ)، ويَخرجُ لمعانٍ منها: المُشارَكة، وهو المعنى المُناسبُ علّةً لاختيارِه بأمارةِ إضافتِهِ إلى قومِ مُوسى، وتعقيبِهِ بما يدُلُّ على المشاركةِ بإسهامِهِم في الصّناعةِ بحُليِّهم، فَضلًا عن إمكانِ تضمُّنِ أصلَيْ معاني (افتعل)؛ وهما: المطاوعةُ، والاتّخاذُ الّذي يعني هنا التَّصنُّعَ على خِلافِ الحقِّ، أو طبيعةِ الأمرِ السَّويِّ.

بَلاغةُ المَجازِ العَقليّ، في نِسبةِ الاتّخاذِ إلى قومِ مُوسَى:

مِن مجازِ الصُّورةِ في (اتّخَذُوا عِجلًا)، بمعنى صُورةَ عِجلٍ

نَسَبَ الاتّخاذَ إلى قومِ موسى كلِّهِم على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ لأنّهُم الآمِرونَ باتّخاذِهِ والحَريصون عليهِ، والمُرِيدُونَ لاتّخاذِه،

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/173.

الرّاضونَ بهِ، والمُشارِكونَ في صناعتِهِ، فكأنَّهُم بإجماعِهم على ذلك: فَعَلُوهُ. وهذا مَجازٌ شائعٌ في كلامِ العَربِ، ومعنى اتّخَذُوا عِجَلًا صُورة عِجلٍ، وهَذا مِن مَجازِ الصّورةِ، وهُو شائعٌ في الكَلامِ[1]، ونَسَبَ الفعلَ إليهم؛ لأنّ رجُلًا منهُم باشرَهُ، ووُجِدَ فيما بينَ ظهرانيهِم، كما يُقالُ: بنو فلانٍ قالُوا كذا، وفعَلُوا كذا، والقائلُ والفاعلُ واحِدٌ مِنهُم[2]. ويَجوزُ أن يكونَ المُرادُ بالاتّخاذِ تصييرَهُم إيّاهُ إلهًا مَعبُودًا لا صُنعَهُ وإحداثَهُ[3]، ويصحّحُ ذلك نسبةُ الاتّخاذِ إلى القوم، ولا تَجوُّزَ حينئذٍ في الكلامِ؛ لأنَّ العبادةَ لهُ وقعَت منهم جميعًا إلّا هارونَ[4].

سِرُّ العُدولِ عن لفْظِ الإخراجِ، في سُورةِ طَه:

وورودُ لفْظِ الإخْراجِ في سِياقِ التَّبرّي مِن أن يكونَ إخراجُ العِجْلِ لأجْلِهِم

لمّا كانَ الحديثُ هنا في سِياقِ ذمِّ المُتكبِّرينَ، والمُكذّبينَ، والجاحِدينَ لآياتِ اللّهِ ناسَبَ التّذكيرَ باتّخاذِ قومِ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِجلًا ليعبدُوهُ من دونِ اللّهِ بعدَ ذهابِهِ إلى مُناجاةِ ربِّهِ، وناسبَ ذلك المعنى اختيارَ الفعلِ ﴿وَٱتَّخَذَ﴾. ولمّا كانَ الحديثُ في سورةِ [طه: 86] عن غضبِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأسفِهِ ممّا فعلُوهُ، وعتبِهِ لَهُم على سُوءِ صنيعِهم بقولِهِ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾، وكان سياقُ الحديثِ حوارًا بينَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وبينَ المُتَكَلِّمينَ معهُ، وكونُهم ممّن لم يَعتقدْ بإلهيّةِ العِجلِ، ولكنَّهم صانِعُوا دهماءَ القومِ، كان من تمامِ المَعذرةِ الّتي اعتذرَ بها المُجيبون لمُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّعبيرُ بلفظِ الإخراجِ، بقولهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ [طه: 87 - 88]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/390، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، والآلوسي، روح المعاني: 9/64.

ويكون ضَميرُ ﴿فَأَخۡرَجَ﴾ [طه: 88] لهم التِفاتًا قصدَ القائلون به التّبرّي مِن أن يكونَ إخراجُ العِجلِ لأجلِهم؛ أي: أخرجَهُ لِمَن رَغِبُوا في ذلك، فالتَّعبيرُ بالإخراجِ - وهو إظهارُ ما كانَ مَحجُوبًا - إشارةٌ إلى أنّه صَنَعَهُ بحيلةٍ مَستورةٍ عنهم حتّى أتمَّهُ[1].

نُكتةُ تعْريفِ القومِ بالإضافةِ:

بيانٌ بتجْهيلِهم، بإنْكارِهِم فضلَ موسَى عليه السلام، ورِسالتِه

وعرَّفَ القومَ بالإضافةِ إلى مُوسى عليه السلام تجهيلًا لهم، بكونِهم قومَ النَّبيِّ الّذي أخرجَهُم مِنَ الضّلالِ إلى عبادةِ اللّهِ الوَاحدِ، وأنقذَهُم مِن ذُلِّ فِرعونَ ومَلَئِه، وكُفْرُهم - ما إنْ غابَ عنهُم - غايةٌ في التَّنكُّرِ له، والجحُودِ بفضلِه.

فائِدةُ التَّعْبيرِ بـ﴿مِنۢ﴾، في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

مُفادُ البَعديّةِ، أنّ الاتّخاذَ تمَّ مِن أوّلِ زمانِ المُغادرةِ

معنى ﴿مِنۢ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ لابتداءِ الغايةِ، وفائدةُ ذكرِهَا الإشارةُ إلى أنّهُم اتّخذُوا العِجلَ مِن أوّلِ زمانِ مُغادرةِ مُوسى عليه السلام، وهو دليلُ إسراعِهم، ورغبتِهم، وهي حالةٌ غريبةٌ؛ لأنَّ شأنَ التّغيُّرِ عنِ العهدِ أنْ يكونَ بعدَ طولِ المَغيبِ على أنَّه ضعفٌ في العهدِ، كما قالَ الحارثُ بن كِلدَةَ:

فَما أَدري أغَيَّـــرَهمُ تنــاءٍ *** وطُولُ العَهدِ أم مالٌ أصابُوا[2]

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالبَعديّةِ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

التّعريضُ بهم وتَوبيخُهُم، لنُكوصِهِم على أعقابِهِم، بمجرّدِ غَيْبَةِ نَبيِّهم

والضَّميرُ في ﴿بَعۡدِهِۦ﴾ عائدٌ على مُوسى؛ أي: بعدَ مُضيِّهِ إلى المُناجاةِ[3] في قولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وفي قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف: 142]، وفي التَّعبيرِ بـ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ تَعريضٌ بقِلّةِ وفائِهِم في حفظِ عهدِ مُوسى عليه السلام[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/285 - 286.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/499 - 500.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454 - 455.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/500.

وفي الجُملَةِ زيادةُ تقريعِهِم، والتَّشنيعِ بهم بأنَّهم كانُوا جَديرينَ بانتظارِهِم التَّوْراةَ الّتي ذَهَبَ مُوسى ﷺ لِمُلاقاةِ ربِّهِ ومُناجاتِهِ مِن أجلِها، والّتي ستزيدُهُم هدًى لا بالنّكوصِ على أعقابِهِم عمّا كانُوا عليهِ مِنَ التَّوحيدِ والانغماسِ في نعمِ اللّه تعالى، وبأنّهُم كانُوا جَديرينَ بالوفاءِ لنبيِّهم فلا يَنقَلِبوا على مَا دَعاهُم إليهِ مِنَ التّوحيدِ، ولا يُحدِثُوا ما أحدَثُوهُ في مَغيبِهِ بعدَ أنْ رأَوا مُعجزَاتِهِ، وبعدَ أنْ نَهاهُم عن عبادةِ غيرِ اللّهِ.

عُبِّرَ بالحُليِّ عن اسمِ الذّاتِ، لتوكيدِ المبالغةِ في السِّياقِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بلفْظِ الحُلِيِّ:

والحُلِيُّ بضمِّ الحاءِ وكسرِ اللّامِ وتشديدِ الياءِ جمعُ حَلْيٍ، بفتحِ الحاءِ وسُكُونِ اللّامِ وتخفيفِ الياءِ، ووَزنُ هذا الجَمعِ فُعُولٌ[1]. وحَلْيٌ وزنُهُ: فَعْلٌ، مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ لِلمُبالغةِ؛ أي: ما يُحلَّى به، فعلُه: حُلِيَ، عُبِّرَ به عن اسمِ الذّاتِ لتوكيدِ المُبالغةِ[2].

تنوُّعُ معنَى (مِنْ)، دليلُ بَلاغةِ السِّياقِ، وانْفِساحِهِ لمعانٍ شتَّى

دَلالةُ ﴿مِنۡ﴾، في قولِهِ: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾:

(من) لِلتّبعيضِ؛ والمعنى: مِن بعضِ الحُلِيِّ، أو: للابتداءِ؛ أي: ابتدؤُوها بِحُلِيِّهِم[3]، أو لِلبيانِ[4]؛ يعني: أنّ الصّورةَ كانَت مادّتُها والأجزاءُ الّتي صُنِعَت منها مِنَ الحُلِيِّ، كما أنّ القصورَ مادّتُها من سُهولِ الأرضِ[5].

الحُلِيُّ كانَتْ في أيديهِم، أو ملكُوها بعدَ هلاكِ قومِ فِرعونَ

سِرُّ إضَافةِ الحُلِيِّ إلى القومِ:

وقالَ: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾، فأضافَها إليهم، ولم تكنْ لَهُم؛ لأنّها كانَت مُستعارةً في أيديهم. والإضافةُ تكونُ بأدنى مُلابسةٍ، وكفى بها مُلابسةً - على أنّهُم قد مَلَكُوها بعدَ المُهلَكينَ كما مَلَكُوا غيرَها من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.
(2) الجلالان، المفصّل، ص: 601.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/62.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/332.

أملاكِهِم - كونُها مُستعارةً في أيديهم؛ لقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشّعراء: 57 - 59][1]. وتَحتمِلُ إضافةُ الحُليِّ إلى بني إسرائيلَ مِن حيثُ تَصرَّفَت أيديهم فيها بعدَ غزوِ آلِ فِرعونَ[2]. فإضافتُها إليهم؛ لأنَّها كانَت في أيديهِم أو مَلكُوها بعدَ هلاكِ قومِ فِرعونَ[3].

الْمَلمَحُ البيانيُّ في الإضافةِ، في: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾:

التّصريحُ بالمجرورِ، ضَرْبٌ مِن أضْرُبِ تسفيهِهِم

إيثارُ ذكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ ضربٌ مِن أضْرُبِ تسفيهِهِم، وتحميقِهِم، وتجهيلِهِم؛ إذِ اتّخذُوا إلهًا صنعُوهُ من مادّةٍ مَاثلةٍ بينَ أيديهِم، فهو إلهٌ مُحدَثٌ هُمُ الّذين صنعُوهُ، فكيفَ يتقرَّبونَ إليهِ ويَعبدونَهُ، ويَلتمسونَ عندَهُ جَلبَ المَنافِعِ، ودفعَ المَضارِّ؟![4].

سِرُّ تقديمِ شِبْهِ الجُملَةِ على المفعولِ:

صَنيعُهُم مَحطُّ العِنايةِ، ومَدْعاةُ التّعجيبِ

قدَّمَ شِبْهَي الجُملَةِ: ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ﴾، و﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ على العِجلِ؛ لترسيخِ ما تقدَّمَ مِن معاني التّعجيلِ باتّخاذِ العِجلِ بعدَ غيابِ مُوسى مُباشرةً، وبيانِ شدّةِ رغبتِهِم في ذلك سُرعةً وتَشارُكًا في الاتّخاذِ مِن خلالِ الإسهامِ في عملِهِ، وهذا الصّنيعُ هو مَحلُّ العنايةِ، ومَحطُّ التّعجيبِ؛ لِمَا يتضمَّنُهُ مِن جَهلٍ، وسَفاهةٍ، وحُمقٍ، وجُحودٍ؛ ولذلكَ قُدِّمَ لِتَبرُزَ هذه المعاني.

بَلاغةُ الاحتراسِ، في إتْباعِ (العِجْلِ) بلفْظِ (الجسَدِ):

دفْعُ تَوهُّمِ غيرِ المُرادِ، من بليغِ البيانِ المُستفادِ

والجَسدُ هو الّذي لا يَعقِلُ ولا يُمَيِّزُ، إنَّما مَعنى (الجَسَدُ) معنى (الجُثَّةُ) فَقَط[5]؛ أي: أخرجَ لَهُم صورةَ عِجلٍ مُجسَّدةً بشكلِهِ وقوائمِهِ وجوانبِهِ، وليسَ مُجرَّدَ صورةٍ مَنقوشةٍ على طَبَقٍ مِن فضّةٍ أو ذَهَبٍ[6].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/455.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/406.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/377.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/286.

وفي إعراب ﴿جَسَدًا﴾ ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أنّه نعتٌ. الثّاني: أنّهُ عطفُ بيانٍ. الثّالث: أنّهُ بَدَلٌ، وإنّما قال: ﴿جَسَدًا﴾ لِئلّا يُتَوَهَّمَ أنّه كانَ مَخطوطًا أو مَرْقومًا في حائطٍ أو حَجَرٍ أو غيرِ ذلك، كالتّماثيلِ المُصوَّرَةِ بالرَّقمِ والخَطِّ والدِّهانِ والنَّقشِ، فَبَيَّنَ تعالى أنّهُ ذُو جَسَدٍ[1]. فهو احتراسٌ رائعٌ لِدفعِ تَوهُّمِ غيرِ المُرادِ[2]. فلمّا كانَ العِجلُ اسمًا لولدِ البقرِ بيَّنَ أنّه إنّما يُشبهُ صورتَهُ فقط، فقالَ مُبدِلًا منه، أو وَاصِفًا: ﴿جَسَدًا﴾، ثمّ إنّ إتّباعَ لفظِ ﴿عِجۡلًا﴾ بلفظِ ﴿جَسَدًا﴾ نوعٌ مِن تسفيهِهِم؛ فالعَجَبُ كلُّ العَجبِ من كونِ العِجلِ المُنكَّسِ التّكوينِ إلهًا لمَن كرّمَهُ اللّهُ تعالى خَلْقًا، وصوَّرَهُ في أحسنِ تقويمٍ، وأودعَ فيه عقلًا يميّزُ بهِ بينَ الصّوابِ والخطأِ، والحقِّ والباطلِ، والحقيقةِ والوَهمِ؟[3].

دَلالةُ قولِه: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾، وأثَرُها في السِّياقِ:

وَصْفُ العِجْلِ بأنّ له خُوارًا، تَرسيخٌ لفَرْطِ جَهالَتِهم

لَمّا كانَ الإخبارُ بالجَسدِ مُفهمًا أنّهُ خالٍ، ممّا يُشبهُ النّاشِئَ عنِ الأرحامِ، قال: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾؛ أي: صَوتٌ كصوتِ البقرِ؛ والمعنى: أنّهُ لا أضَلَّ ولا أعمى من قومٍ كانَ مَعَهم حُليٌّ أخذُوها ممّن كانُوا يَستَعبِدُونَهُم ويُؤذُونَهُم، وهُم مَعَ ذَلِكَ أكفَرُ الكَفَرَةِ فكانَ جَديرًا بالبُغضِ؛ لكونِهِ مِن آثارِ الظّالمينَ الأعداءِ فاعتَقَدُوا أنَّهُ بالصَّوغِ صارَ إلَهًا، وبَالَغُوا في حبِّهِ والعُبُوديَّةِ لهُ، وهو جَسَدٌ يَرونَهُ ويَلمسُونَهُ، ونَبيُّهُمُ الّذي هَداهُمُ اللّهُ بِهِ واصطَفاهُ لِكلامِهِ يَسألُ رُؤيةَ اللّهِ فلا يَصِلُ إليها[4]، والخوار بالخاءِ المُعجمةِ صوتُ البقرِ، وقرأَ عَليٌّ رضي الله عنه، وأبو السَّمَّالِ وغيرُهُم (جُؤَار)[5] بالجيمِ والهَمزِ مِن جَأَرَ إذا صاحَ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/460.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113.

(5) هي قراءةٌ شاذّةٌ، يُنظر: ابن خالويه، المختصر، ص: 46، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/577.

وهو الصّوتُ الشّديدُ[1]، وإنَّما أضافَ الصّوتَ إليه؛ لأنَّه كانَ مَحَلَّهُ عِندَ دُخُولِ الرّيحِ جَوفَهُ[2]، فقد جوَّفُوهُ لِيمرَّ الهواءُ فيه. وفي العبارةِ ترسيخٌ لفرطِ جهالتِهم بأن أَحدَثوا في العِجلِ آلةَ صوتٍ لا فائدةَ منها؛ إذ لا تُكلِّمُهم إلّا بإحداثِ صوتِ خُوارٍ، أو جُؤارٍ مُصطَنعٍ بحِيلةٍ أوجدُوها فيه. ولفظُ ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ يدفعُ كونَ العِجلِ قد بُعِثَ فيه الدّمُ واللّحمُ؛ إذ لو صَحَّ لكانَ الخُوارُ لازمًا لهُ، ولا يَحتاجُ إلى ذِكرٍ.

بَلاغةُ العُدولِ إلى الفصْلِ:

اسْتِئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ، لبيانِ فسَادِ اعْتِقادِهم

جملةُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ لبيانِ فسادِ نظرِهم في اعتقادِهم، ولتقريعِهم وتشنيعِهم وتركيكِ عقولِهم وتسفيهِهم فيما أقدَمُوا عليهِ مِنَ المُنكَرِ، الّذي هو اتِّخاذُهُ إلهًا؛ أي: ألم يرَوا أنّهُ ليسَ فيه شَيءٌ من أحكامِ الألوهيّةِ حيثُ لا يُكَلِّمُهُم[3]. فالصّامتُ الجمادُ لا يتَّصِفُ بالإلهيَّةِ، والّذي لا يُرشِدُ إلى خيرٍ، ولا يَكشِفُ غَمًّا كذلِكَ[4].

تَوْجِيهُ الاسْتِفهامِ فِي قولِهِ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

إنْكارُ الإلهِ المُصطَنَعِ، الّذي لا يُكلّمُ عابِدِيه، ولا يَهْدِيهم سَبيلًا

الاستفهامُ لتقريرِ فسادِ اعتقادِهم، ولِلتّعجيبِ من حالِهم، ولِذلكَ جُعِلَ الاستفهامُ عن نَفيِ الرُّؤيةِ؛ لأنّ نَفيَ الرُّؤيةِ هو غيرُ الواقِعِ مِن حالِهم في نفسِ الأمرِ، ولكنّ حالَهُم يُشبِهُ حالَ مَن لا يَرونَ عدمَ تَكليمِه، فَوَقَعَ الاستفهامُ عنهُ لعلَّهُم لم يَرَوا ذلك، مُبالَغةً، وهو للتّعجيبِ، وليسَ للإنكارِ، إذ لا يُنكَرُ ما ليسَ بِموجودٍ، وبهذا يُعلَمُ أنّ مَعنى كَونِهِ في هذا المَقامِ بِمَنزِلَةِ النّفيِ لِلنَّفيِ إنّما نَشَأَ مِن تنزيلِ المَسئُولِ عنهُم مَنزِلَةَ مَن لا يَرى، وقد تَقدَّمَ بيانُ ذلكَ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: 243][5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/7، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/390.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/184.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/110.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/455.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/110.

والاستفهامُ تكريرٌ لضروبِ التَّسفيهِ، والتّحميقِ، والتّقريعِ لهم على فَرطِ ضلالِهِم وإخلالِهِم بالنّظرِ؛ أي: ألَم يَروا أنّه لا يَقدِرُ على ما يَقدِرُ عليهِ آحادُ البشرِ مِنَ الكلامِ وإرشادِ السّبيلِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، فهو جمادٌ لا يَنفعُ ولا يَضرُّ، ولا يَردُّ عليهم إذا دَعَوهُ، ولا يَهديهم إذا استهدُوهُ، فكيفَ عَدَلُوهُ بخالقِ الأجسامِ، والقُوى، والأقدارِ؟[1].

تجليّ بَلاغة المَذهبِ الكَلامِيِّ بالاحْتِجاجِ النّظريِّ:

انْتِفاءُ وصْفَيِ العلْمِ والقُدرةِ، عـنِ الإلـهِ الـعِـجْـلِ، يَستلْزمان انْتِفاءَ باقِي الأوصَافِ

وهذا استِفهامُ إنكارٍ؛ حيثُ عَبَدُوا جمادًا أو حيوانًا عاجزًا، عليه آثارُ الصَّنعةِ، لا يُمكنُ أن يَتكلَّمَ ولا يَهدِيَ، وقد رَكَزَ في العُقولِ أنّ مَن كانَ بهذهِ المَثابةِ، استَحالَ أن يكونَ إلهًا، وهذا نَوعٌ من أنواعِ البلاغةِ، يُسمّى الاحتجاجَ النّظريَّ، وبعضُهم يُسمِّيهِ المَذهبَ الكَلامِيَّ، والظّاهرُ أنّ يَرَوا بمعنى: يَعلَموا، وسَلَبَ تعالى عنهُ هَذينِ الوَصفَينِ: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ﴾ دُونَ باقي أوصافِ الإلهيّةِ؛ لأنّ انتفاءَ التّكليمِ يستلزمُ انتفاءَ العلْمِ وانتفاءَ الهدايةِ إلى سبيلٍ يستلزمُ انتفاءَ القدرةِ، وانتِفاءُ هَذَينِ الوَصفَينِ؛ وهُما العِلمُ والقُدرةُ يَستَلزِمانِ باقيَ الأوصافِ، فَلِذلكَ خُصَّ هذانِ الوَصفانِ بانتِفائِهِما[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعْلِ الرُّؤيةِ ﴿يَرَوۡاْ﴾:

عـدَمُ تكْليمِ العِجْلِ إيّاهُم مُشَاهَدٌ لَهُم

قالَ السّمينُ: "و﴿يَرَوۡاْ﴾ يجوزُ أن تكونَ العِلميَّةَ، وهو الظّاهرُ، وأن تكونَ البصَريّةَ، وهو بعيدٌ"[3]، وذَهَبَ ابنُ عاشور إلى أنّ الرُّؤيةَ بصريّةٌ؛ لأنّ عَدَمَ تكليمِ العِجلِ إيّاهُم مُشاهَدٌ لَهم؛ لأنّ عدمَ الكلامِ يُرَى مِن حالِ الشَّيءِ الّذي لا يَتَكَلَّمُ، بانعدامِ آلةِ التَّكَلُّمِ، وهو الفَمُ الصّالحُ للكلامِ، وبتكَرُّرِ دعائِهِم إيّاهُ، وهو لا يُجيبُ. وقد سَفِهَ رأيُ الّذين اتَّخذُوا العِجلَ إلهًا، بأنّهم يُشاهِدُون أنّهُ لا يُكلِّمُهم ولا يَهديهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/64، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/460.

سَبيلًا، ووجهُ الاستدلالِ بِذلكَ على سَفَهِ رَأيِهِم هو أنّهُم لا شُبهةَ لَهم في اتِّخاذِهِ إلهًا بأنَّ خَصائِصَهُ خَصائِصُ العَجماواتِ، فَجِسمُهُ جِسمُ عِجلٍ، وهو مِن نوعٍ ليسَ أرقى أنواعِ المَوجُوداتِ المَعروفةِ، وصَوتُهُ صَوتُ البَقَرِ، وهو صَوتٌ لا يُفيدُ سَامِعَهُ، ولا يُبيِّنُ خطابًا، وليسَ هوَ بالّذي يَهديهِم إلى أمرٍ يَتَّبِعُونَهُ حَتّى تُغنِيَ هِدايَتُهُم عن كلامِهِ، فهُوَ مِنَ المَوجوداتِ المُنحَطَّةِ عَنهُم، وهذا كَقولِ إبراهيمَ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 63]، فماذا رَأوا مِنهُ ممّا يَستأهِلُ الإلهيَّةَ، فَضلًا عن أن تَرتقيَ بِهِم إلى الصّفاتِ الّتي يَستَحِقُّها الإلَهُ الحَقُّ، والّذين عَبَدُوهُ أشرَفُ منهُ حالًا وأهدى، وليسَ المَقصُودُ مِن هذا الاستدلالَ على الأُلوهيَّةِ بالتَّكليمِ والهِدايةِ، وإلّا لَلَزِمَ إثباتُ الإلهيّةِ لِحُكَماءِ البَشَرِ(1).

مناسبةُ التَّعْبيرِ بـ(أنّ) الثّقيلةِ والخفيفةِ بينَ آياتَي الأعرافِ، وطهَ:

مُراعاةُ الفرقِ بينَ سِياقِ الآيتَيْن، ولِتناسُبِ مَقامِ التّبكيتِ في الأعْرافِ

جاءَ هنا في الأعرافِ بأنّ الثّقيلةِ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ﴾، وجاءَ في [طه: 89] بأنْ الخفيفةِ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾؛ وذلك لِتبايُنِ السّياقَين. فآياتُ الأعرافِ تَذكُرُ قصّةَ بني إسرائيلَ، وعِصيانَهم ربَّهُم، ومخالفتَهُم موسى عليه السلام، بخلافِ سورةِ طه، فسياقُ آياتِها في نَجاةِ بني إسرائيلَ مِن فِرعونَ؛ لذا جاءَت (أنّ) ثقيلةً في الأعرافِ، وخفيفةً في طه؛ لِتناسُبِ ذلك مع مَقامِ التّبكيتِ في الأعرافِ(2).

نُكتةُ تَكرارِ فعْلِ الاتّخاذِ، على طريقِ الفصْلِ:

إفادةُ التّوكيدِ، وما يترتَّبُ عليه، في ثنايَا السِّياقِ

ولَمَّا كانَ هذا أمرًا عظيمًا جِدًّا، مُستَبعَدَ الوقوعِ، ولا سيّما مِن قَومٍ نَبيُّهُم بينَهُم، ولاسيَّما وقَد أراهُم مِنَ النِّعَمِ والآياتِ ما مَلَأت أنوارُهُ الآفاقَ، كان جَديرًا بالتّأكيدِ، فقالَ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾؛ أي: بِغايةِ الجِدِّ، والنّشاطِ، والشَّهوَةِ(3).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/110، 9/111.

(2) هبيان، من روائع البيان: 5/199 - 200.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113.

وجملةُ: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ مُؤكِّدَةٌ لِجملةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾، فَلِذلكَ فُصِلَت؛ والغرضُ مِنَ التّوكيدِ في مِثلِ هذا المَقامِ، هو التَّكريرُ لأجلِ التّعجيبِ والذّمِّ، كما يُقالُ: نَعَم اتَّخَذُوهُ، أو اتَّخذوهُ إلهًا، ولِتُبنَى عليه جُملةُ ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، فَيَظهرُ أنَّها مُتعلِّقَةٌ باتِّخاذِ العِجلِ، وذَلِك لِبُعدِ جُملةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾، بما وليَها مِنَ الجُملَةِ، وهَذا كقولِه: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ إلى قولِه: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ [البقرة: 282]، أُعِيدَ ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ لِتُبنَى عليه جُملةُ: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: 282]، وهذا التّكريرُ يُفيدُ مَعَ ذَلك التّوكيدَ، وما يَترتَّبُ على التّوكيدِ[1]، وهو استئنافٌ للانتقالِ مِن تجهيلِهم باتّخاذِ العِجلَ إلهًا إلى تجهيلِهم بما ظلمُوا به أنفسَهُم مِن قبلُ، وإعلامٌ بأنّ هذا الاتّخاذَ ليسَ أوّلَ حماقاتِهم، فهُم غارقونَ فيها مِن قبلُ، ومِن بعدُ[2]، وتَعالُقُ ضروبِ التّجهيلِ، وتَكرارُها مُتنوّعةَ العبارةِ والصّوغِ يُناسبُ استئنافَ التّجهيلِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾:

الاتّخاذُ في هذه الجُملة، مَحلُّ ذمٍّ واستِنكارٍ وشَجْبٍ

وتَكرارُ ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تكرارٌ لجميعِ ما سَلَفَ مِنَ الاتِّخاذِ، على الوجهِ المَخصوصِ المُشتمِلِ على الذّمِّ، وهو مِن بابِ الكنايةِ على أسلوبِ: أنْ يَرى مُبصِرٌ ويَسمَعَ واعٍ؛ أي: أقدَمُوا على ما أقدَمُوا عليهِ مِنَ الأمرِ المُنكَرِ[3].

وُجُوهُ التَّعبيرِ بجُملةِ: ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾:

تَـراوحُ الجُملةُ بين الاسْتِئناف، أوِ الاعْـتِراضِ الـتّـذْيِـيـليِّ، أوِ الـحـالـيّـةِ أوِ التّشبيهِ

وجملةُ: ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: واضِعينَ الأشياءَ في غيرِ مَواضِعِها. والجُملَةُ إمّا استئنافيّةٌ، وإمّا اعتراضٌ تذييليٌّ؛ للإخبارِ بأنّ ذلكَ دَأْبُهُم وعادَتُهم قبلَ ذلكَ، ودَيْدَنُهُم وشأنُهُم في كلِّ شيءٍ؛ أي: في جميعِ أحوالِهم ماضيًا وحاضرًا ومُستقبَلًا، فلا يُنكَرُ منهم

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/111.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/64.

اتِّخاذُهُم العِجلَ؛ لأنّه من جملةِ ذلك، أو حاليّةٌ؛ أي: اتّخذُوهُ في هذهِ الحالةِ المُستقِرَّةِ لَهُم[1]، والوجهُ الأوّلُ أبلغُ في الذّمِّ، وهو الإخبارُ عن وصفِهم بالظّلم، وأنّ شأنَهُم ذَلِكَ، فلا يَتَقَيَّدُ ظُلمُهُم بهذِهِ الفِعلَةِ الفاضِحةِ[2]، ويُعزِّزُهُ التَّعبيرُ بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ الدّالِّ على ترسيخِ كونِ الظّلمِ مِن عاداتِهِم المُتجذِّرةِ بهم، وحالًا مُستقِرَّةً لهم. وقد يُرادُ بها التّشبيهُ، حيث شبّهَ حالَهُم بقولِهِ: ﴿ظَٰلِمِينَ﴾، بحالِ مَن يَمشي في الظّلام، أو أنَّ المَقصودَ - كما أُشِيرَ - أنَّ الظّلمَ وصفٌ لهم لازمٌ، فلا بِدعَ إذا فَعَلُوا أمثالَ ذَلِكَ[3].

الغَرَضُ مِن اسْتِحضارِ فعْلِ الكَيْنونةِ الماضِي: ﴿وَكَانُواْ﴾:

الإشعارُ بأنّ الظّلمَ دَأْبُ القومِ، وعادتُهُم، ودَيدَنُهُم

وفي التَّعبيرِ عن ظلْمِهم بلفظِ ﴿وَكَانُواْ﴾ المفيدِ للدّوامِ والاستمرارِ، إشعارٌ بأنّ هذا الظّلمَ جِبلّةٌ لهم، وطبعٌ، وهو دأْبُهُم، وعادتُهُم قبلَ هذا الاتّخاذِ، وأنَّ ما صَدَرَ عنهُم ليسَ بدَعًا منهم، ولا أوّلَ ما أحدثوُهُ مِنَ المناكيرِ، فقَد سَبَقَ لهم أن قالوا لنبيِّهم بمُجرَّدِ أن أتَوا على قومٍ يَعكفونَ على أصنامٍ لَهُم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾[4]، فلَم يكُنْ هذا أوّلَ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ، ويرسّخُهُ تكريرُ اتّخذوهُ لِتَثنيةِ التّشنيعِ وتَرتيبِ الاعتراضِ عليهِ[5].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجسدُ، والجسمُ، والبدنُ:

الجسدُ ما لا رُوحَ له، وهو خَلْقُ الله، وحياتُه في سَرَيانِ الرُّوحِ فيه

الجَسدُ كالجسمِ لكنّه أخصُّ. وخصَّصَهُ الخليلُ بالإنسانِ، وبكلِّ خَلقٍ لا يأكلُ ولا يَشربُ من نحوِ الملائكةِ والجنِّ ممّا يَعقِلُ، وأطلَقَهُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/455، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/461، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/185.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/380.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.

على الدّم اليابسِ[1]، وكأنّه أرادَ بيَبَسِ الدّم أنّهُ تِمثالٌ جامِدٌ، وهو فَهمٌ شاعَ في التّراثِ الخَالِفِ لَهُ؛ فـالجَسدُ "تَجَمُّعُ الشَّيءِ أيضًا واشتِدَادُهُ، والجَسَدُ مِنَ الدَّم: مَا يَبِسَ"[2]. ونَقَلَ ابنُ الجوزيِّ عن ابنِ الأنباريِّ أنَّ ذِكرَ الجسدِ دلالةٌ على عدمِ الرّوحِ منهُ، وأنّ شخصَهُ شَخصٌ مِثالٌ وصُورَةٌ، غَيرُ مُنْضَمٍّ إليهما رُوحٌ ولا نَفسٌ[3]. وذَكَرَ ابنُ عاشور أنّ الجَسدَ هُو الجسمُ الّذي لا حياةَ فيهِ، وهوَ يُرادِفُ الجثّةَ، وعزاه إلى أبي إسحاق الزّجّاج، وعلى هذا التّأويلِ يكونُ المُرادُ بالجَسدِ الصّنمَ؛ لأنَّه صورةٌ بلا رُوحٍ[4].

والجَسدُ ما لهُ لونٌ، والجِسمُ يُقالُ لِمَا لا يَبِينُ له لونٌ، كالمَاءِ والهواءِ[5]. فالجِسمُ: ما لَهُ طُولٌ، وعَرضٌ، وعُمقٌ، ولا تَخرُجُ أجزاءُ الجسمِ عن كونِها أجسامًا، وإنْ قُطِعَ ما قُطِعَ، وجُزِّئَ ما قد جُزِّئَ[6]. فهو مُعتَبَرٌ فيه مُطلَقُ الحدثِ، فيُقالُ: جسُمَ جَسامةً للتّعبيرِ عن عِظَمِ الأجرامِ سواءٌ البدن بأجمعِهِ، أو الأعضاء مِنَ النَّاسِ، والإبلِ، والدّوابِّ[7]. ويُلمَحُ فيه معنى العمومِ.

ومِن هنا ناسبَ اختيارُ لفظِ الجسدِ في سياقِ الآيَةِ حقيقةَ العِجلِ المُتّخَذِ على هيئةِ صنمٍ له لونُ الحُليِّ الّتي صِيغَ منها.

والبَدنُ: الجَسدُ، لكِنِ البدَنُ يُقالُ اعتبارًا بعظَمِ الجثّةِ، وسُمِّيَت البَدَنَةُ بذلِكَ لِسِمَنِهَا، يُقالُ: بَدَنَ إذا سَمِنَ. والجَسدُ يُقالُ اعتبارًا باللّونِ، ومنهُ قِيلَ: ثوبٌ مُجَسَّدٌ[8]. وسِمَنُ العِجْلِ المُتّخَذِ وعِظَمُ جُثّتِهِ لم يكنْ مَقصودًا من بني إسرائيلَ؛ لكونِهِ مَظنّةَ الإسرافِ؛ فمادّةُ عملِهِ الحُليُّ.

---

(1) الخليل، العين: (جسد).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جسد).

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/155.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/19، 23/261، وهو قريبٌ من قولِ الزّجّاج في معاني القرآن وإعرابه: 3/372.

(5) الرّاغب، المفردات: (جسد).

(6) الرّاغب، المفردات: (جسم).

(7) الخليل، العين: (جسم).

(8) الرّاغب، المفردات: (بدن).

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ توقُّعِ هلاكِهِم بسَببِ تكْذيبِهِم، أخْبرَ عن رفْعِ العذابِ عنهُم لِنَدمِهِم

لَمّا كانَ هذا في سياقِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ فأنتجَ أنّ مَن كَذَبَ على هذهِ الصّفةِ أُهلِكَ، فانتَظَرَ السَّامعُ الإخبارَ بتعجيلِ هَلاكِهِم، أخبَرَ بأنّهُ مَنَعَهم من ذَلِكَ، وحَرَمَهُم المُبادرةَ بالتّوبةِ، ولمّا اشتدَّ من تَشَوُّفِ السّامعِ إليه، قَدَّمَهُ على سَبَبِه، وهو رُجوعُ مُوسى عليه السلام إليهم وإنكارُهُ عَليهِم[1]، فحينَ تحقَّقُوا بقُبحِ صنيعِهِم تجرَّعُوا كاساتِ الأسفِ ندمًا، واعترفُوا بأنّهم خَسِرُوا إن لم يتدارَكْهُم مِنَ اللهِ جميلُ لطفِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُقِطَ﴾: السِّينُ والقَافُ والطَّاءُ أَصلٌ واحِدٌ يدُلُّ عَلَى الوُقُوعِ[3]، السُّقوطُ: طَرحُ الشَّيءِ؛ إمّا مِن مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ مُنخفِضٍ كسُقُوطِ الإنسانِ مِنَ السّطحِ، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ يعني: النَّدَمَ[4] والحَيرةَ، وليسَ في القرآنِ مِن هذا التّركيبِ إلّا السّقوطُ المادّيُّ، والمعنويُّ[5].

2) ﴿ضَلُّواْ﴾: الضَّادُ واللَّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على مَعنًى واحِدٍ، وهو ضَيَاعُ الشَّيءِ وذَهَابُهُ في غيرِ حَقِّهِ[6]، وضَلَّ إذا جارَ عنِ القَصدِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113 - 114.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/572.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سقط).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سقط).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلَّ).

وهَلَكَ[1]، والضّلالُ ضدُّ الهُدى، وضلَّ في الأَرضِ ضلالًا إذا لم يهتدِ للسّبيلِ[2]، وضللتَ: إذا أخطأتَ مَوضِعَ الشَّيءِ الثَّابِتِ[3].

والضّلالُ: هو العُدُولُ عَنِ الطريقِ المُستَقيم، ويُضَادُّه الهِدَايةُ، وهو: كُلُّ عُدُولٍ عَنِ المنهجِ والحَقِّ، عَمدًا كانَ أَو سَهوًا، يَسيرًا كانَ أَو كثيرًا، وهو ضَربَانِ: ضَلَالٌ في العُلُومِ النَّظَرِيَّةِ، كالضَّلالِ في معرفَةِ وَحدَانيَّتِه تعالى، ومعرِفَةِ النُّبُوَّةِ، ونحوِهما، وضَلَالٌ في العُلُومِ العَمَلِيَّةِ، كَمعرِفَةِ الأَحكامِ الشَّرعِيَّةِ، الَّتي هِيَ العِبادَاتُ[4]، والضّلالُ في الآيَةِ الكريمةِ مِنَ الضّربِ الأوّلِ؛ لكونِ بني إسرائيلَ اتّخذُوا عِجلًا إلهًا من دونِ اللّهِ.

3) ﴿يَرۡحَمۡنَا﴾: الرَّاءُ والحَاءُ والمِيمُ أَصلٌ وَاحِدٌ يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفَةِ، يُقَالُ مِن ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ علَيهِ[5]. الرَّحمةُ: رِقَّةٌ تَقتَضِي الإِحسَانَ إِلَى المَرحُومِ، وَقد تُستَعمَلُ تارَةً في الرِّقَّةِ المُجرَّدَةِ وتَارَةً في الإِحسَانِ المُجَرَّدِ عَنِ الرِّقَّةِ، نَحو: رَحِمَ اللَّهُ فُلانًا. وَإِذا وُصِفَ بِهِ البَارِي فَلَيسَ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الإِحسَانُ المُجَرَّدُ دُونَ الرِّقَّةِ، وعَلى هَذَا رُوِيَ أَنّ الرَّحمةَ مِنَ اللهِ إنعامٌ وإفضالٌ، وَمِنَ الآدَميّينَ رِقَّةٌ وتَعَطُّفٌ[6]، وهي مِنَ اللّهِ ﷻ كلُّ ما يناسِبُ البَلالَ والرِّقَّةَ من إحسانٍ ورزقٍ وحَنانٍ ومَغفرةٍ لعبادِه، وهُمْ في حَوزتِهِ تعالى، وجلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ فهو بمعنى الرّحمةِ هذا[7]، ومن هنا فمعنى اللّفظِ في الآيَةِ الكريمةِ ظاهرٌ في دَلالتِهِ على طلبِ الإنعامِ، والتّفضُّلِ، والإحسانِ، والرّأفةِ بحالِهِم.

4) ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾: الغَينُ والفَاءُ والرَّاءُ أصلٌ بمعنى السَّترِ والتَّغطيةِ، وَغفرَ اللّهُ ذنوبَهُ؛ أَي: سَترَهَا، وَلم يَفضَحْهُ بهَا على رُؤُوسِ المَلأ، وكلُّ شَيءٍ سترتَهُ فقد غَفرتَهُ[8]. والغُفرانُ والمَغفِرَةُ مِنَ اللّهِ هو أن يَصُونَ العبدَ من أن يَمَسَّهُ العذابُ[9]. وإلباسُ اللّهِ تعالى العفوَ

(1) الخليل، العين: (ضَلّ)، والجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ضل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رحم).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(9) الرّاغب، المفردات: (غفر).

للمُذْنِبينَ[1]. والغُفرانُ يَقتَضِي إِسقاطَ العقَابِ، وإِسقاطُ العقَابِ هُوَ إِيجَابُ الثَّوَابِ[2]، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ هو مِن مَغفِرَةِ الذُّنُوبِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَبيّنَ القومُ ما فعلُوا من ضلالٍ، وطَلَبُوا الرّحمةَ والغُفرانَ من ذِي الجلالِ

يُخبرُ اللّه تعالى أنّهم لمّا اشتدَّ ندمُهُم وحسرتُهُم على ما فَعلُوه رأوا أنّهم قد ضلُّوا؛ أي: وعَلِمُوا أنّهم قد ضَلُّوا بعبادةِ العِجلِ، أو تبيَّنَ لهم ضلالُهُم به، وتحقَّقَ بما قالَهُ وفعلَهُ موسى ﷺ حتّى كأنّهُم رَأوهُ رأيَ العينِ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾؛ أي: أقسموا إنّه لا يسعُهُم بعدَ هذا الذّنبِ إلّا رحمةُ ربِّهم الّتي وَسِعَت كلَّ شيءٍ، قائلين: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا﴾ بقبولِ توبتِنا والتَّجاوزِ عن جريمتِنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ لسعادةِ الدّنيا؛ وهي الحريَّةُ والاستقلالُ في أرضِ المَوعِدِ، ولسعادةِ الآخرةِ؛ وهي دارُ الكرامةِ والرّضوانِ[4].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنّ الذّنبَ مهما عَظُمَ فإنّ بابَ التّوبةِ مَفتوحٌ، ويدَ اللّهِ ممدودةٌ، فلا ييأسَنَّ أحدٌ مِن ذنبِهِ، ولا يقنطَنَّ من مَعاصيهِ ومُرتَكباتِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّةُ تقْديمِ آيةِ النّدامةِ على آيةِ الرّجوعِ:

تَشوُّقُ السّامِعِ إلى خبرِ عُقوبَتِهم، من دِقّةِ البيانِ ودَلالتِه على مُؤدّاه

كانَ مُقتَضى الظّاهرِ في ترتيبِ حكايةِ الحوادثِ أن يتأخَّرَ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ عنِ الآيَةِ الّتي تليها: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾؛ لأنّهُم ما سَقَطَ في أيديهم إلّا بعدَ أن رَجعَ مُوسى، ورأوا فَرطَ غضبِهِ، وسَمعُوا توبيخَهُ أخاهُ وإيّاهُم، وإنّما

(1) ابن الأثير، النّهاية: (غفر).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).

(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/175.

خُولِفَ مُقتَضى التّرتيب؛ لأنّهُ لمَّا كانَ الكلامُ في سياقِ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾، فأنتَجَ أنَّ مَن كذَّبَ على هذه الصّفةِ أُهلِكَ، فانتظَرَ السَّامِعُ الإخبارَ بتعجيلِ هَلاكِهم، فَأخبَرَ بأنَّه مَنعَهُم من ذلك، وحَرَمَهُم المبادَرَةَ بالتّوبة، ولمَّا اشتدَّ من تَشَوُّفِ السّامِعِ إليهِ، قَدَّمَهُ على سَببِه، وهوَ رُجُوعُ مُوسى عليه السلام إليهم، وإنكارُهُ عليهم[1]. وأُريدَ بتقديمِه عليه أيضًا حِكايةُ ما صَدَرَ عَنهُم مِنَ القَولِ والفِعلِ في مَوضِعٍ واحدٍ[2]، وتعجيلًا بِذكرِ ما كانَ لاتّخاذِهِمُ العِجلَ من عاقبةِ النّدامةِ وتَبيينِ الضّلالةِ مَوعِظةً للسّامِعينَ؛ لِكيلَا يَعجَلُوا في التَّحَوُّلِ عَن سُنَّتِهم، حتّى يَتَبَيَّنُوا عَواقِبَ ما هُم مُتَحوِّلُونَ إليه[3].

الاسْتِعارةِ التّمثيليّةِ، أوِ الكنايةِ، أوِ التّشبيهِ في: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾:

إنَّ الأمرَ المَخُوفَ حَصَلَ في أيديهِم، مِن مَجْنيِّ ثَمَرةِ مَعاصِيهِم

لا خلافَ في أنّ المُرادَ مِن قولِه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أنّهُ اشتدَّ ندمُهُم على عبادةِ العِجلِ، وتحيَّرُوا. واختلفُوا في الوجهِ الّذي لأجلِهِ حَسُنَت[4] هذه الفنونُ البلاغيّةُ: والمعنى: ولمّا سَقَطَ النّدَمُ في أَيديهم، كَما تقولُ للّذي يَحصُلُ على شيءٍ - وإنْ كانَ ممّا لا يكونُ في اليدِ - قَد حَصَلَ في يدِهِ من هذا مَكرُوهٌ، تُشَبِّهُ ما يَحصُلُ في القلبِ، وفي النّفسِ، بما يقعُ في اليدِ[5]. فجَعَلَ ذلكَ مِن بابِ الاستعارةِ التّمثيليّةِ حيث شبّهَ حالَ النّدمِ في النّفسِ بحالِ الشّيءِ في اليدِ في التّحقيقِ والظُّهورِ، ثمّ عبَّرَ عنهُ بالسُّقوطِ في اليدِ[6].

وذَهَبَ الشّريفُ الرّضيُّ إلى أنّ في ﴿سُقِطَ﴾ استعارةً؛ "وذلك عندما يُصيبُ الإنسانَ مِنَ الإبلاسِ لِطروقِ البلاءِ، وغَلبةِ الأعداءِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113 - 114.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273 - 274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/111.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273، وقد أجملها الرّازيّ في ستّةِ وجوهٍ، ينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8 - 9.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/378.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/65.

وربَّما قِيلَ ذلكَ للنّادمِ على فِعلِ الشَّيءِ، إذا وَجَدَ غَبَّ مَضرّتِه، ووخيمَ عاقبتِهِ؛ والمعنى: أنّ الأمرَ المخوفَ حَصَلَ في أيديهم مِن مَجْنيِّ ثمَرَةِ مَعاصيهم فوجدُوهُ وجدانَ مَن هو في يدِهِ إذ كانَت أيديهِم في مَكروهةٍ"[1].

معنَى ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنَ الاسْتِئسارِ:

قيل: إنّ أصلَهُ مِنَ الاستئسارِ، وذلك أن يضربَ الرّجلُ الرّجلَ أو يصرعَهُ، فيرميَ به مِن يديهِ إلى الأرضِ ليأسرَهُ، فيكتفَه. فالمَرميُّ به مَسقوطٌ في يديّ السّاقطِ به. ومنهُ قِيلَ لكلِّ عاجزٍ عن شيءٍ، وضارعٍ لعجزِهِ، مُتندِّمٍ على ما قالَهُ: (سَقَطَ في يديه)، و(أسقط)[2]؛ أي: عدمَ الحيلةِ في دفعِ ما هو بصددِهِ مِن أمرٍ.

كلُّ عديمِ الحيلةِ في دفْعِ ما هو بصدَدِهِ مِن أمرٍ، فقد (أُسْقِطَ في يَديْه)

وَجْهُ الكنايةِ في العاضِّ يدَهُ بفَمِه غمًّا:

أو أنّه يُقالُ لِمَن اشتدَّ ندمُهُ سُقِطَ في يدِهِ؛ لأنَّ من شأنِ مَن اشتدَّ ندمُهُ وحسرتُهُ أن يَعَضَّ يدَهُ غَمًّا، فتصيرَ يدُهُ مَسقوطًا فيها؛ لأنَّ فاهُ قد وَقَعَ فِيها. وجُعِلَ هذا المعنى مِن بابِ الكنايةِ عن شدّةِ النَّدمِ[3] لا المجازِ لعدمِ المانعِ عنِ الحقيقةِ[4]. فاستعمالُ الآيَةِ في معنى النَّدمِ وتبيُّنِ الخطأِ لَهُم، فالمعنى: أنَّهُم تبيَّنَ لَهُم خَطَؤُهُم وسُوءُ مُعامَلَتِهِم ربَّهُم ونبيَّهُم، فالنَّدامةُ هي مَعنى التّركيبِ كلِّهِ، وأمّا الكنايةُ فهي في بعضِ أجزاءِ المُرَكَّبِ، وهو سُقِطَ في اليدِ[5].

(سُقِطَ في أيْديهِم)، في معنَى ندَمِ قومِ موسَى، وتبيُّنِهم للخطأِ

وَجْهٌ آخرُ للكِنايةِ في سُقُوطِهُم، بسَببِ ثِقَلِ الأغلالِ في أيْدِيهِم:

هي كنايةٌ عن ندمِهِم، وشدّةِ خوفِهِم، ووجهُها أنّ الّذي يسقطُ في أيدي المُجرِمينَ بسرعةٍ وعنفٍ؛ هي الأغلالُ، والأصفادُ، والقيودُ الّتي

نَدمُ بَني إسرائيلَ لِفعْلَتِهم، بعد غَيبةِ موسَى عليه السلام، ولاتَ حينَ مَنْدَمٍ

(1) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 77.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/118 - 119.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/160، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/606.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/444.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/112.

يُساقُونَ بها لمعاقبتِهم، وحينَ تكونُ هذهِ مِنَ الحديدِ الثّقيلِ فإنّها قد تُسْقِطُهُم إلى الأرضِ، فيكونون بذلك نادِمينَ سَاكِنين، لا يَملِكونَ إلّا الاعترافَ بجرمِهم.

دلالة ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾:

يُقالُ للرّجُلِ إذا أخطأَ، كانَ ذلك منهُ سَقْطَةً، كأنّه سقَطَ على الأرضِ

إنّ السُّقُوطَ عِبارةٌ عن نُزُولِ الشَّيءِ مِن أعلى إلى أسفل، ولهذا قالُوا سَقَطَ المطرُ، فمَن أقدَمَ على عَمَلٍ، فهو إنّما يَقدِمُ عليهِ لاعتقادِهِ أنّ ذلك العملَ خيرٌ وصوابٌ، وأنّ ذلك العملَ يُورِثُهُ شَرَفًا ورفعةً، فإذا بانَ لهُ أنّ ذلك العملَ كانَ باطِلاً فاسِدًا، فكأنّه قدِ انحطَّ مِنَ الأعلى إلى الأسفلِ، وسَقَطَ من فوقٍ إلى تحتٍ؛ فلهذا السّببِ يُقالُ للرّجُلِ إذا أخطأَ: كانَ ذلك منهُ سَقطَةً، شَبَّهُوا ذَلكَ بالسَّقطَةِ على الأرضِ[1]. ومِن هُنا قِيلَ هو مِنَ السِّقاطِ؛ أي: كَثرةُ الخطأ، والخاطِئُ يَندمُ على فِعلِهِ[2]، أو هو مَأخوذٌ مِنَ السَّقيطِ، وهوَ ما يُغَشّي الأرضَ مِنَ الجَليدِ: وهو يُشبِهُ الثَّلجَ. يُقالُ منهُ: سَقَطَتِ الأرضُ، كما يُقَالُ مِنَ الثّلجِ: ثَلَجَت، والسَّقْطُ والسَّقِيطُ يذُوبُ بأدْنَى حَرارةٍ ولا يَبقى. ومَنْ وَقَعَ في يدِهِ السَّقِيطُ لَمْ يَحصُلْ من بغيتِهِ على طائلٍ قَطُّ. فَصارَ هذا مَثَلًا لكلِّ مَن خَسِرَ في عاقبتِهِ، ولم يَحصُلْ مِن سَعيِهِ على طائلٍ، وكانَتِ النّدامةُ آخِرَ أمرِهِ[3].

جواز أن يكون ﴿فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بمعنًى: (على أيدِيهِم):

لِلمُتحيِّرِ العاجزِ وصفًا، أو تصويرًا تمثيليّا

يُقالُ لهُ: سُقِطَ في يدِهِ؛ لأنّه يَتَحَيَّرُ في أمرِهِ، ويَعجَزُ عن أعمالِهِ، والآلةُ الأصليّةُ في الأعمالِ في أكثرِ الأمرِ هِيَ اليدُ، والعَاجِزُ في حُكمِ السَّاقِطِ، فَلمّا قُرِنَ السُّقوطُ بالأيدي عُلِمَ أنّ السُّقُوطَ في اليَدِ إنّما حَصَلَ بِسَبَبِ العَجزِ التّامِّ، ويُقالُ في العُرفِ لِمَن لا يَهتَدي

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.

لِما يَصنَعُ: ضَلَّت يدُهُ ورجلُه، وهو يؤولُ إلى الرّأيِ الثّاني[1]. ثمّ إنّ مِنْ عادةِ النّادمِ أن يُطَأطِئَ رأسَهُ، ويضعَ ذَقَنَهُ على يدِهِ مُعتمِدًا عليها، ويصيرَ على هيئةٍ لو نُزِعَت يدُهُ لَسَقَطَ على وجهِه، فكأنّ اليدَ مَسقُوطٌ فيها؛ لِتَمَكُّنِ السُّقُوطِ فيها، ويكونُ قولُهُ: سُقِطَ في أيديهِم؛ بمعنى: سُقِطَ على أيديهِم، كقولِه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: 71]؛ أي: عليها[2].

فائِدةُ ذِكْرِ اليدِ في الآيَةِ:

اليـدُ تُبـاشِـرُ الأعـمـالَ، وبها يُـعَـبَّرُ عن صُـوَرِ النّدامةِ والحَيرَةِ

الفائدةُ في ذكرِ اليدِ، والنّدمُ يكونُ في القلبِ؛ وذلك لِوجهين:

الوجهُ الأوّلُ: لأنّ اليدَ هي الآلةُ الّتي بها يَقدِرُ الإنسانُ على الأخذِ، والضّبطِ، والحِفظِ. فالنّادمُ كأنّهُ يَتدارَكُ الحالةَ الّتي لأجلِها حَصَلَ لَهُ النّدمُ، ويَشتَغِلُ بِتَلافِيها، فكأنّهُ قد سَقَطَ في يدِ نفسِهِ من حيثُ إنّهُ بعدَ حُصُولِ ذلكَ النّدمِ اشتَغَلَ بالتّدارُكِ والتّلافي[3]. وخُصَّتِ اليدُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ مباشرةَ الأشياءِ والذّنوبِ في الغالِبِ تكونُ بها، فاللّائِمَةُ تَرجِعُ عليها؛ لأنّها هي الجارحةُ العُظمى، فيُسنَدُ إليها ما لم تُباشِرْ، كقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: 10]، وكثيرٌ مِنَ الذّنوبِ لم تقدِّمْهُ اليدُ.

الوجهُ الثّاني: أنَّ النّدمَ حَدَثٌ يحصُلُ في القلبِ، وأثرُهُ يَظهَرُ في اليدِ؛ لأنّ النّادِمَ يَعَضُّ يدَهُ، ويَضرِبُ إحدى يديهِ على الأخرى، كقولِه: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ [الكهف: 42]، فتَقليبُ الكَفِّ عبارةٌ عَنِ النّدمِ، وكقولِه: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان: 27]. فلمَّا كانَ أثرُ النَّدمِ يحصُلُ في اليدِ مِنَ الوجهِ الّذي ذكرْنَاهُ أُضيفَ سُقُوطُ النّدمِ إلى اليدِ؛ لأنّ الّذي يَظهَرُ للعيونِ من فِعلِ النّادمِ هو تقليبُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/118 - 119، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/9.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.

الكفِّ وعَضُّ الأناملِ واليدِ، كما أنّ السُّرورَ معنى في القلبِ يَستشعرُهُ الإنسانُ، والّذي يَظهَرُ مِن حالةِ الاهتزازِ والحركةِ والضّحكِ، وما يجري مَجرَاهُ(1).

بَلاغةُ الكِنايةِ والاسْتِعارةِ، في التَّعْبِيرِ باليدِ:

اليدُ مَناطُ القُوّةِ، وآلةُ القُدْرةِ لدَى الإنسانِ

اليدُ تُستعارُ للقوّةِ والنُّصرَةِ؛ إذ بها يُضرَبُ بالسّيفِ والرُّمحِ، ولِذلِكَ حينَ يَدعُونَ على أنفسِهِم بالسُّوءِ يَقُولُونَ: (شُلَّت مِن يديَّ الأناملُ)، وهي آلةُ القُدرةِ، قالَ تعالى: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: 17]، ويُقالُ: ما لي بِذلكَ يَدٌ، أو مَا لي بذلكَ يَدانِ؛ أي: لا أستَطِيعُهُ، والمَرءُ إذا حَصَلَ لَهُ شَلَلٌ في عَضُدٍ، ولم يَستَطِعْ تَحرِيكَهُ، يَحسُنُ أن يُقالَ: سُقِطَ في يدِهِ ساقِطٌ؛ أي: نَزَلَ بِهِ نَازِلٌ(2).

بَراعةُ التَّعْبِيرِ بالفعْلِ المبنيِّ للمَجهولِ ﴿سُقِطَ﴾:

في اللّفْظِ إيجازٌ بالحذْفِ، وكنايةٌ عـنِ المفاجأة، أو كنايةٌ عن الخوفِ والعجْزِ

الفعل ﴿سُقِطَ﴾ مَبنيٌّ للمَجهولِ، وهو كَلِمةٌ أجراها القُرآنُ مَجرى المَثَلِ إذِ انتظمَت على إيجازٍ بديعٍ، وكنايةٍ، تحريرُهما: أنّه لمّا كانَ ذِكرُ فاعِلِ السُّقُوطِ المَجهولِ لا يَزيدُ على كونِهِ مُشتَقًّا من فِعلِهِ، سَاغَ أن يُبنَى فِعلُهُ للمَجهولِ؛ فمعنى: (سُقِطَ في يدِهِ): (سَقَطَ في يدِهِ سَاقِطٌ؛ فأبطَلَ حَرَكَةَ يدِهِ)؛ إذِ المقصودُ أنّ حركةَ يدِهِ تعطّلَت بِسَبَبٍ غيرِ مَعلوم، إلّا بأنّهُ شَيءٌ دَخَلَ في يدِهِ، فَصَيَّرَها عاجِزةً عَنِ العملِ، وذَلِكَ كنايةٌ عن كونِهِ قد فَاجأَهُ ما أوجَبَ حَيرَتَهُ في أمرِهِ، كما يُقالُ: فَتَّ في ساعِدِهِ(3). ويُلمَحُ فيه أيضًا كأنّ السُّقُوطَ بغيرِ اختيارٍ مِنهُم لِما غَلَبَ فيهِ مِنَ الوَجْدِ والأسَفِ الّذي أزالَ تأمُّلَهُم، ولِذلِكَ بَناهُ للمَفعولِ(4). وفيها أيضًا وجهُ كنايةٍ عن شدّةِ خوفِهِم، وأصلُ هذه الكنايةِ أنّ المُجرِمَ إذا أدرَكَهُ الجنودُ أسرعوا، فأسقَطُوا بِعُنُفٍ

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/463.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/111 - 112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/112.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.

في يَدَيهِ القَيدَ الحديديَّ حتَّى لا يَفِرَّ، فإذا فعلُوا بهِ ذلكَ ارتخَت أعصابُهُ، ووهَنَتْ عزائمُهُ، وأيقَنَ أنّهُ مَسُوقٌ للعقابِ، وهؤلاءِ الّذين اتّخذُوا العِجلَ الذّهبيَّ الّذي عَبَدُوهُ أحسُّوا بمثلِ هذا لمَّا رَأَوْا مِن بعيدٍ مُوسَى عليه السلام راجعًا إليهم ومعهُ الأَلواحُ، كأنّه قد حَصَلَ سُقوطُ قيدٍ حَدِيديٍّ في أيديهِم، وسَيُلاقُونَ عقابَهُم، هذه الكنايةُ أُريدَ منها لاَزِمُها؛ وهو الشّعورُ بالخوفِ مِنَ العقابِ مع العَجزِ عنِ الفرارِ، فَضْلًا عنِ النّدمِ، وهي كنايةٌ ذاتُ إبداعٍ فنّيٍّ رائعٍ، وهي مِنَ الكناياتِ الخفيّةِ مع عدمِ وجودِ وسائطَ بينَ المُكنَّى به والمُكنَّى عنه.

الغَرَضُ مِنَ الإيجازِ هنا، والإسْهابِ في سُورةِ طه:

فـائِـدةُ الإيـجـازِ لِيُبنَى عليهِ أنَّ ضـلالَـهُـم، لم يَلبَثْ أنِ انْكشَفَ لَهُم

وفصّلَ في سورةِ طه، فَذَكَرَ رجوعَ مُوسى إليهم وتهديدَهُ إيّاهُم وإحراقَهُ العِجْلَ، وأُوجِزَ هنا إذ مِنَ المعلومِ أنّهُم ما سَقَطَ في أيديهِم، ورَأَوا أنّهُم ضَلُّوا بعدَ تَصميمِهِم وتَصَلُّبِهِم في عبادةِ العِجلِ، وقَولِهِم: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91]، إلّا بسببِ حادثٍ حَدَثَ يَنكَشِفُ لَهُم بِسَبَبِهِ ضلالُهم، فَطَيُّ ذَلكَ مِن قبيلِ الإيجازِ لِيُبنَى عليهِ أنّ ضلالَهُم لم يَلبَثْ أنِ انكَشَفَ لَهُم، ولِذلِكَ قُرِنَ بِهَذَا حِكايةُ اتِّخاذِهِمُ العِجلَ لِلمُبادَرَةِ بِبيَانِ انكِشافِ ضلالِهِم تَنهِيَةً لِقصَّةِ ضَلالِهِم، وكأنّهُ قِيلَ: فَسُقِطَ في أيدِيهِم، ورَأَوا أنّهُم قد ضَلُّوا، ثمّ قِيلَ: ولَمّا سُقِطَ أيديهم قَالُوا[1].

عِلّةُ تقْديمِ النّدَمِ على الرُّؤيةِ:

تـقـديمُ الـنّـدمِ لِـلمُسارَعةِ إلى بيانِهِ، والإشعارِ بِذَلكَ

﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ باتّخاذِ العِجلِ؛ أي: تبيَّنُوا بحيثُ تَيَقَّنُوا بذلِكَ حتّى كأنّهُم رَأَوْهُ بأعينِهم، وتقديمُ ذكرِ ندمِهم على هذه الرُّؤيةِ مَعَ كونِهِ مُتَأَخِّرًا عنهَا لِلمُسارَعَةِ إلى بَيانِهِ والإشعارِ بغايةِ سُرعَتِهِ، كأنّهُ سابِقٌ على الرُّؤيَةِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/112 - 113.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273، والآلوسي، روح المعاني: 9/65.

نُكتةُ تقْديمِ النّدَمِ على تبيُّنِ الضّلالِ:

الانْتِقالُ مِنَ الجزْمِ بأحَقّيّةِ الأمْرِ، إلى استِبانةِ الجزْمِ بنقيضِهِ، لا يكونُ دُفعةً واحدةً

قَدَّمَ النّدمَ في الذّكرِ على تبيُّنِ الضّلالةِ، مع أنّ المَعروفَ في العادةِ أن يَندَمَ الإنسانُ على ما عَلِمَ مِن ذنبِهِ؛ لأنّ الانتقالَ مِنَ الجزمِ بأنَّ هذا الأمرَ حقٌّ إلى استبانةِ الجزمِ بضدِّهِ أو نقيضِهِ لا يكونُ دُفعةً واحدةً في الأغلبِ، بلِ الأغلبُ أنَّهُ يَنتقِلُ مِنَ الجزمِ بصحّتِهِ أو حقيقتِهِ إلى الشَّكِّ فيها، ثمَّ إلى الظّنِّ بالضّدِّ أو النّقيضِ، ثمّ إلى الجزمِ بهِ، ثمّ إلى تبيُّنِهِ، واليقينِ فيهِ الّذي يُعبَّرُ عنهُ بالرُّؤيةِ، والقومُ كانُوا جَازِمينَ بأنّ ما فَعَلُوهُ صَوابٌ، والنَّدمُ عليهِ رُبَّما وَقَعَ لَهُم حالَ الشّكِّ فيهِ؛ فيكونُ تبيُّنُ الضّلالِ مُتأخِّرًا عنِ النّدمِ[1].

كانَ ندمُهُم من رَهبةِ مُوسَى، لا عن يَقِينهم بضَلالِهم:

عِلمُهمُ القطعيُّ بضَلالِهِم، حَصَلَ بعدَ تحريقِ مُوسَى العِجْلَ، ونسْفِهِ في اليمِّ

عندَ تصريحِ مُوسى بأنَّهم ضلُّوا، ورؤيتِهم ما كانَ مِن غضبِهِ وإلقائِهِ بالألواحِ حتّى تكسَّرَت، وأخذِهِ برأسِ أخيهِ هارونَ ولحيتِهِ، وجرِّهِ إليهِ، نَدِمُوا على ما فَعَلُوا، فإن كانَ هذا النّدمُ عن تقليدٍ وطاعةٍ لِمُوسى لا عن علمٍ يقينيٍّ بأنَّ عملَهُم ضلالٌ، فالرّاجحُ أن يكونَ العِلمُ القطعيُّ المُعبَّرُ عنهُ بقولِهِ: ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ قد حَصَلَ بعدَ تحريقِ مُوسى لِلعجلِ، ونسْفِهِ في اليمِّ[2].

تَقْديمُ النّدَمِ لِلمُبالغةِ في اسْتِشعارِهِمِ اسْتِحقاقَ العِقابِ:

مَنْ رأى أنّه قد ضَلَّ، ولم يَتداركْ شأنَه، فقد عرَّضَ نفسَه للهلاكِ

إنّ مِن قواعدِ علمِ المعاني أنّ ما لا يجبُ التّرتيبُ فيه بزمانٍ ولا رُتبةٍ أن يُقدَّمَ في سردِهِ، وفي نسقِهِ الأهمِّ، فإن لم يكنْ تقديمُ النّدمِ هنا لسبقِهِ في الزّمنِ، فالأظهرُ أنَّهُ لِلمُبالغةِ في استشعارِهِم استحقاقَ العقابِ، كأنَّهُ يقولُ: إنَّهم على ندمِهم وتوبتِهِم الّتي مِن شأنِها مَحوُ الذّنبِ وتركُ العقابِ، وعلى كونِهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/65، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/176.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176.

صارُوا على علمٍ يقينيٍّ ببُطلانِ عبادةِ العِجلِ، ووجوبِ تخصيصِ الرَّبِّ بالعبادةِ[1].

دَلالةُ أُسلوبِ الشّرْطِ في ربْطِ الخُسرانِ بعد ضمِّ الغُفرانِ:

العِلمُ بالضَّلالِ، لا يقتضِي العَفوَ والمَغفرةَ، ما لم تَصْحَبْه التّوبةُ

قالوا ذَلِكَ القَولَ الدَّالَّ على أنَّ مجموعَ الأمرينِ لا يكفي لاستحقاقِ المغفرةِ إلّا برحمةِ اللّهِ تعالى، ومِنَ المعلومِ أنّ العِلمَ بالضّلالِ وحدَهُ لا يقتضي العفوَ والمغفرةَ إلَّا إذا ترتَّبَ عليه العملُ بمقتضاه وهو التّوبةُ، والرّجوعُ إلى اللّهِ تعالى بالعملِ، فإنَّ الّذين ضَلُّوا على علم ولم يتوبوا أشدُّ النَّاسِ عِقابًا، فَعَلِمَ بذلك أنَّ تقديمَ النّدمِ أهمُّ مِنَ العلم بالضّلالِ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرُ بالفعلَيْن الماضيَيْن ﴿وَرَأَوۡاْ﴾، و﴿ضَلُّواْ﴾:

المُـضيُّ تحقُّقٌ لِوقوعِ الأفعالِ، وظَـرْفٌ لـورودِه بيقينٍ

يُرَسِّخُ هذا الوقوعَ، وحتميَّةَ تحقُّقِه، توسُّطُ حرفِ التّوكيدِ المَصدَريِّ (أنّ)، واقترانُ أحدِهما، وهو الضّلالُ بـ﴿قَدۡ﴾ الدّالَّة على التّحقيقِ، فَضلًا عن مجيئِه مُؤوَّلًا بالمَصدَرِ؛ أي: رَأوا ضلالَهُم. والتَّعبيرُ بالمصدَرِ المُنسبِكِ أقوى في الدّلالةِ على الحَدَثِ مِنَ الفعلِ.

بَلاغةُ حَشْدِ المُؤَكّداتِ في الآيةِ:

شِدّةُ طلَبِهم للرّحمةِ والمغفرةِ، وخَشْيتِهم مِنَ الخُسرانِ، سبيلٌ لرحمةِ الرّحمنِ

قولُهُم: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ تَوبَةٌ وإنَابَةٌ، وقَد عَلِمُوا أنَّهم أخطَؤُوا خَطِيئَةً عَظيمَةً، ولِذلكَ أكَّدُوا التّعليقَ الشّرطِيَّ بِالقَسَمِ الّذي وطّأته اللّامُ[3]، مُبالغةً في طلبِ الرّحمةِ، والمَغفرةِ، مُعزِّزينَ ذلك بالتَّعبيرِ بأسلوبِ الجزم، والتّوكيدِ بالنّونِ الثّقيلةِ.

غرَضُ صَوْغِ فِعلَي الرّحمةِ والمغفرةِ بالمضارعِ المَنفيِّ:

قولُهُم: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾، أدّى التَّعبيرُ عن فعلَي

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

الدّلالةُ على إرادةِ تحقُّقِ الفعلَيْن مِنَ الزّمنِ الماضي

(الرّحمةِ، والمغفرةِ) بصيغةِ المضارعِ المجزومِ بـ(لم) معنى طَلَبِهِم تحقُّقَ هذين الفعلَين في الزّمنِ الماضي المُطلَقِ لِفداحةِ صنيعِهِم؛ أي: إنْ لم ترحمْنا على ما فعلْناهُ، وتغفرْهُ لنا لَنكُونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ.

سِرُّ الإتْيانِ باللّفظَيْن ﴿رَبُّنَا﴾، و﴿لَنَا﴾:

إظهارُ الخضُوعِ، وتَخصيصُ المغفرةِ والرّحمةِ بِهِم

أُورِدَ بلفظِ (الرّبّ) مُضافًا إلى ضَميرِهِ المُشارِكِينَ (نا) المُتضمِّنِ معنى المُرَبِّي لإصلاحِهِ رعيتَه، والّذي يُناسِبُ مَقامَ طَلَبِهِم الرّحمةَ والمغفرةَ، وفي ذلك إظهارٌ للتَّودُّدِ، والخضوعِ، ومزيدِ اللُّجوءِ إليهِ. أمّا شبهُ الجُملَةِ ﴿لَنَا﴾ ففيهِ تخصيصٌ لِلمَغفرةِ بهِم، وتأكيدٌ لِتخصيصِ الرّحمةِ بِهِم مِن قبلُ بإضافتِهِ إلى ضَميرِ المُتَكَلِّمينَ (نا).

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بـ﴿مِنَ﴾، على طريقِ الكِنايةِ:

إثباتُ الخسارةِ بالإفادةِ بأنّهُمْ خاسِرونَ، بطريقةٍ تُشبهُ الاستدلالَ

مَجيءُ خَبَرِ كانَ مُقترِنًا بحرفِ ﴿مِنَ﴾ التّبعيضيّةِ؛ لأنّ ذلكَ أقوى في إثباتِ الخَسارةِ مِن (لَنَكُونَنَّ خاسِرينَ)، كما تَقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [الأنعام: 56][1]؛ لأنّ المقصودَ نفيُ الجُملَةِ الّتي خبرُها ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، فإنّ التّعريفَ في (الخاسرين) تعريفُ الجنسِ، فإخبارُ المُتَكَلِّمينَ عن أنفسِهِم بأنّهُم مِنَ الخاسِرينَ يُفيدُ أنّهُم فِئةٌ مِنَ المَعروفِينَ عندَ النَّاسِ بالخاسِرينَ، فَأَفادُوا بأنّهُم خاسرونَ إفادةً بطريقةٍ تُشبهُ طريقةَ الاستدلالِ، فهو من قبيلِ الكنايةِ الّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِهِ، وهي أبلغُ مِنَ التّصريحِ. وقد جاءَ في (الكشّاف) في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشّعراء: 168]: قولُكَ: فلانٌ مِنَ العلماءِ أبلغُ من قولِكَ: فلانٌ عالمٌ، لأنّكَ تَشهَدُ لهُ بكونِهِ مَعدُودًا في زمرتِهِم، ومعروفةً مُساهمتُهُ لَهُم في العلمِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/331، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263.

كـلامُ التّـائِبين إقــرارٌ بـيـقـينٍ، لطَلَبِ العَفْوِ من ربِّ العالمينَ

تَوجِيهُ قراءةِ تاءِ الخطابِ (ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا):

وقَرَأَهُ الجمهورُ ﴿يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ بياءِ الغيبةِ، في أوَّلِ الفعلَين، وبرفعِ كلمةِ ﴿رَبُّنَا﴾، وقَرَأَ حَمزةُ والكِسائيُّ وَخَلَفٌ وغيرُهُم: (ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا) بتاءِ الخطابِ في أوّلِ الفعلَين، ونصبِ كلمة (ربَّنا)[1] على أنَّهُ مُنادى، وهذا كلامُ التّائِبينَ، كما قالَ آدمُ وحواءُ عليهما السلام: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا﴾ [الأعراف: 23][2]. ويجوزُ أن يكونَ هذا الكلامُ صَدَرَ مِن جميعِهِم على التَّعاقُبِ، أو هذا مِن طائفةٍ وهذا مِن طائفةٍ، فَمَنْ غَلَبَ عليه الخوفُ، وقَوِيَ على المُواجهةِ، خَاطَبَ مُستَقيلًا مِن ذنبِهِ، ومَنْ غَلَبَ عليه الحياءُ أخرجَ كلامَهُ مُخْرَجَ المُستَحيي مِنَ الخطابِ، فأَسنَدَ الفعلَ إلى الغائبِ[3]. وفيه معنى الاستِغاثةِ والتَّضرُّعِ والابتهالِ في السّؤالِ والدُّعاءِ، وهو أيضًا أبلغُ في الدُّعاءِ والخضوعِ. فالقراءةُ بالتّاءِ والدّعاء أبلغُ في الاستكانةِ والتَّضرُّعِ[4].

المُـسـارَعـةُ إلى المـقـصـودِ الأصْـليِّ، وحُصولِ الرّحمةِ مُـفْـضٍ إلى حُصولِ المغفرة

عِلَّةُ تَقْديمِ الرّحمةِ على المغفرةِ:

وتقديمُ الرّحمةِ على المغفرةِ في قولِه: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ - مع أنّ التّخليةَ حقُّها أن تُقدَّمَ على التّحليَةِ - إمّا لِلمُسارعةِ إلى ما هو المَقصُودُ الأصليُّ، وإمّا لأنّ المُرادَ بالرّحمةِ مُطلَقُ إرادةِ الخيرِ بِهِم، وهو مبدأٌ لإنزالِ التّوبةِ المُكفِّرَةِ لِذنوبِهِم[5]. ووجهُ تقديمِ ذكرِ الرّحمةِ على ذكرِ المغفرةِ، وهو أنّها سببُها، فإنَّ التّوبةَ ومَعرفةَ الحقِّ لا يَكفيانِ لِلمَغفرةِ بدونِها، ولا غروَ فقد وَرَدَ في الصّحيحين عن أبي هُريرةَ قال: سمعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «لن يُدخلَ أحدًا عملُهُ الجنَّةَ. قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللّهِ؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمَّدَني

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 294، وابن الجزريّ، النّشر: 2/272.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/160.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/465.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/286.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.

اللّهُ بفضلٍ ورحمةٍ فسَدِّدُوا وقارِبُوا»[1]. فقدّمُوا الرّحمةَ على المغفرةِ؛ لأنّها سببُها؛ فإنَّ التَّوبَةَ ومَعرِفَةَ الحَقِّ لا يَكفِيَانِ لِلمَغفرَةِ بِدُونِهَا[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّحمةُ، والغفرانُ، والعفوُ، والصّفحُ:

الغُفرانُ إسْقاطٌ لـلـعِـقـابِ، مع إيجابِ الثّوابِ، ويكونُ منَ الله للعِبادِ

تقدَّمَ أنّ الرَّحمةَ رِقَّةٌ تَقتَضِي الإِحسَانَ إِلى المَرحُوم، وهذا ظاهر في دلالتِه على طلبِ الإنعام، والتَّفضُّلِ، والإحسانِ، والرّأفة بحالِهم. أمّا غفرانُ الذّنوبِ فسَتْرُها وعدمُ الفضيحةِ على رُؤُوسِ المَلأِ. وكلُّ شَيءٍ سترتَهُ فقد غفرتَهُ، فالغفرانُ يَقتَضِي إِسقاطَ العقَابِ، وإِسقَاطُ العقَابِ هُو إِيجَابُ الثَّوَابِ فَلَا يستَحِقُّ الغفرانَ إِلَّا المُؤمِنُ المُستَحِقُّ للثَّوابِ، وَالعَفوُ يَقتَضِي إِزَالَةَ شَيءٍ عَنهُ، وإِسقَاطَ اللَّومِ والذّمِّ، ولَا يَقتَضِي إِيجَابَ الثَّوَابِ، فالغفرانُ أخصُّ، وهُوَ يَقتَضِي إِيجَابَ الثَّوَابِ. والصّفحُ التّجاوزُ عَنِ الذَّنبِ، وَقِيلَ: هُوَ تركُ مُؤَاخذَةِ المُذنِبِ[3].

ولِذلِكَ فالجمعُ بينَ الرّحمةِ والغفرانِ في خطابِ بني إسرائيلَ في الآيَةِ الكريمةِ جنوحٌ نحوَ حتْميّةِ القَبولِ، والرّغبةِ في التَّوبةِ بطَلبِ الإحسانِ بِهِم، والرّأفةِ أوّلًا، ثمَّ سَتْرِ ذنوبِهم بإسقاطِ العقابِ، وإيجابِ الثّوابِ، وذلك أنسبُ اعتذارٍ لفداحةِ صنِيعِهِم؛ باتّخاذِهِم صنمًا عِجلًا مَعبودًا من دونِ اللّهِ، مِنَ الاقتصارِ على أحدِ الفعلَين، أو اختيارِ غيرِهما.

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176. والحديث أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، بَابُ: تَمَنِّي المَرِيضِ المَوْتَ، الحديث رقم: (5673).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235 - 236.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حالةُ مُوسى عندَ مُشاهَدتِهِ عبادةَ قومِهِ العِجْلَ، وغضبُه من هارونَ أخيه

لمّا كانَ السِّياقُ في سَردِ رجوعِ مُوسى عليه السلام إلى قومِه، وإنكاره عليهِم، وذكرِ إسراعِهم في الفِسقِ؛ لم يذكُرْ قَبولَ تَوبتِهم، كما في سورة البقرة؛ ولأنّ مِنَ المعلُومِ أنّهم تبيَّنَ لهُم عَن قُربٍ سُوءُ مُرتَكَبِهم؛ لكونِ نبيِّهم فيهِم عبَّرَ بما كانَ مِن ذَلِكَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَجَعَ﴾: الرَّاءُ وَالجِيمُ وَالعَينُ أَصلٌ كَبِيرٌ مُطَّرِدٌ مُنقَاسٌ، يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وَتَكرَارٍ. ورَجَعَ بمعنى عَادَ[2]. والرُّجوعُ: العَودُ إلى ما كانَ منه البَدءُ، أو تقديرُ البدءِ مَكانًا كانَ أو فِعلًا، أو قَولًا، وبذاتِه كانَ رُجُوعُهُ، أو بجُزءٍ مِن أجزائِه، أو بفعلٍ مِن أفعالِه[3]. وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ اللّفظِ فهو بمعنى الرُّجُوعِ والعَوْدِ مع اختلافِ الصّورِ أحيانًا[4]. ومنهُ اللّفظةُ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿غَضْبَٰنَ﴾: الغَينُ والضَّادُ والبَاءُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ. يُقَالُ: إِنَّ الغَضْبَةَ: الصَّخرَةُ الصُّلبَةُ. قَالُوا: ومِنهُ اشتُقَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(3) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجع).

الغَضَبُ؛ لأَنَّهُ اشتِدَادُ السُّخطِ[1]. وثَورانُ دَمِ القلبِ إرادةَ الانتِقام، وغليانُهُ بسببِ حُصولِ ما يؤلِمُ[2]، فهو انفِعالٌ ينشأُ عنهُ كراهيةُ المغضُوبِ عليه، وإبعادُه، وإضرارُه[3]. وامتلاءُ النَّفسِ بالحِدَّةِ والجَفاءِ له، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ؛ فهو مِنَ الغَضَبِ بهذا المعنى[4]. ومنهُ مَحمودٌ ومَذمُومٌ، فالمَحمُودُ ما كانَ في جانبِ الدِّينِ والحَقِّ، والمَذمُومُ ما كانَ في خلافِهِ[5]. ومِنَ الأوّلِ صنيعُ مُوسى عليه السلام.

3) ﴿أَسِفًا﴾: الأَسَفُ: أشدُّ الحزنِ، وأشدُّ الغضبِ والتَّغيُّظِ، أو هو مَنزِلَةٌ وراءَ الغضبِ[6]؛ لكونِهِ حُزنًا في حالٍ، وغَضَبًا في حالٍ، فإذا جاءَكَ أمرٌ ممَّنْ هو دونَكَ؛ فأنت أَسِفٌ، أي: غضبان، وإذا جاءَكَ ممّن فوقَكَ، أو من مثلِكَ؛ فأنتَ أَسِفٌ، أي: حزينٌ[7]. فالأسفُ: الحُزنُ والغَضبُ معًا، وقد يُقالُ لكلِّ واحدٍ منهما على الانفرادِ[8]. ومعنى الأسفِ في الآيةِ الكريمةِ تراتَبَ فيه الغضبُ الشَّديدُ والحُزنُ[9].

4) ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾: العَينُ والجيمُ واللَّامُ أَصلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على الإسرَاعِ، وهو العَجَلَةُ في الأمرِ[10]، وهي: طلبُ الشَّيءِ وتحرّيه قبلَ أوانِهِ، وهو من مُقتضَى الشَّهوةِ، فلِذَلِكَ صارَت مَذمومةً في عامّةِ القرآنِ، ووَرَدَ في الحديثِ: «العَجَلَةُ مِنَ الشّيطانِ»[11]؛ وهي: السُّرعةُ خِلَافُ البُطءِ[12]، والسَّبقُ إلى تحصيلِ الشّيءِ قبلَ وقتِهِ[13]. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ: أَسَبَقتُم أمرَ ربِّكُم[14].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غضب).
(2) الرّاغب، المفردات: (غضب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/210.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غضب).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (غضب).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/120، والجوهريّ، الصّحاح: (أسف).
(7) الخليل، العين: (أسف).
(8) الرّاغب، المفردات: (أسف).
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/456.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).
(11) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (2012)، والبيهقيّ، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (20270)؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، برقم: (12652)، وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.
(12) ابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(14) زاده، حاشية محيي الدّين شيخ زاده: 4/300.

5) ﴿يَجُرُّهُۥٓ﴾: الجيمُ والرَّاءُ أَصلٌ وَاحِدٌ، وهوَ مَدُّ الشَّيءِ وَسَحبُهُ. يُقَالُ: جَرَرتُ الحَبلَ وَغيرَهُ[1]، والجَرُّ: الجَذبُ، وانجَرَّ الشَّيءُ: انجَذَبَ[2]. والمعنى المحوريُّ له: سَحبُ الجِرمِ المُتجمِّعِ باسترسالٍ وامتدادٍ. ومعنى ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: يسحبُهُ خلفَهُ[3].

6) ﴿تُشۡمِتۡ﴾: الشِّينُ والميمُ والتَّاءُ أَصلٌ صَحِيحٌ، من شَمِتَ يَشمَتُ، والشَّماتَةُ: وهي فَرحُ العدُوِّ بِبَلِيَّةٍ تَنزِلُ بمُعاديه[4]، وسُرُورُ النّفسِ بما يُصيبُ غيرَها مِنَ الأضرارِ، وإنّما تَحصُلُ مِنَ العداوةِ والحَسَدِ[5]. وشماتةُ الأعداءِ: فَرَحُهم ببليّةٍ تُصيبُ أعداءَهُم، وبمَكروهٍ يُصيبُهُم مع سلامتِهِم هُمْ مِن تلكَ البَلِيَّةِ، فهوَ إحساسٌ بالقوّةِ خفيٌّ لإصابةِ الأعداءِ مع سلامتِهِم هُم[6]. وهو معنى قولِ هارونَ لأخيهِ مُوسى عليهما السلام: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ﴾، أي: لا تجعلْهُم يُسَرُّونَ بصنيعِكَ معي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

رُجوعُ مُوسَى غاضبًا أسِفًا، وتقريعُه لهارونَ لعدمِ تَصدِّيه للضّلالِ بحزْمٍ

لمّا رَجَعَ مُوسى مِنَ الطُّورِ إلى قومِهِ غضبانَ على أخيهِ هارون؛ إذ رأى أنَّه ضَعُفَ في سياستِهِ لَهم، ولم يكُنْ ذا عزيمةٍ في خلافتِهِ فيهِم، حزينًا على ما وَقَعَ مِن قومِهِ من كفرِ الشّرك، وإغضابِ اللّهِ عز وجل، وقد أخبرَهُ اللّهُ أنّهُ قد فتَنَ قومَهُ، وأنّ السّامريَّ قد أضلَّهُم، قالَ لَهم: بئسَ خلافة خلَفْتُمُونيها من بعد ذَهابي عنكُم إلى مناجاةِ اللّهِ تعالى، من بعدِ ما كانَ من شأني معكُم أنْ لقَّنْتُكم التَّوحيدَ، وكَفَفْتُكم عنِ الشِّركِ، وبيّنتُ لكم فَسَادَهُ وبطلانَهُ، وسُوءَ عاقبةِ أمرِهِ، حين رأيتُم القومَ الّذينَ يَعكفونَ على أصنامٍ لهم، فكانَ الواجبُ عليكم أنْ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرّ).
(2) ابن سيده، المحكم: (جرّ)، وابن منظور، لسان العرب: (جرر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرر).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شمت).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117 - 118.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل، ومجموعة باحثين، المعجم الوسيط: (شمت).

تخلُفُوني باقتِفاءِ سِيرتي، ولكنَّكُم خَلفتُموني بضدِّها؛ إذ صنعتُم لكم صنمًا كأصنام أولئكَ، أعجِلْتُم أَمْرَ ربِّكُم؟ أي: استعجلْتُم مَجيئي إليكُم، وهُوَ مُقدَّرٌ مِنَ اللّهِ تعالى؟ وألقى مُوسى ألواحَ التّوراةِ غضبًا على قومِهِ الّذين عَبَدُوا العِجلَ، وغضبًا على أخيهِ هارونَ، وأمسكَ برأسِ أخيهِ يجرُّهُ إليهِ، قالَ هارونُ مُستعطِفًا: يابنَ أمِّي: إنَّ القومَ استذلُّوني، وعدُّوني ضعيفًا، وقاربُوا أن يقتلُوني، فلا تَسُرَّ الأعداءَ بما تفعلُ بي، ولا تجعلْني في غضبِكَ مع القومِ الّذين خَالَفوا أمرَكَ، وعبدُوا العجلَ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الخطأَ في الاجتهادِ مع وُضُوحِ الأدلّةِ غيرُ مَعذُورٍ فيهِ صاحِبُهُ في إجراءِ الأحكامِ عليهِ، وهُوَ ما يُسَمِّيهِ الفُقهاءُ بالتّأويلِ البَعيدِ، فلا يُظَنُّ بأنَّ مُوسى عَاقَبَ هارُونَ قبلَ تحقُّقِ التَّقصيرِ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ الإخبارِ عنِ الرّجوعِ بالأسلُوبِ المُبِيْن:

الــغــضــبُ والأسفُ مُقْترنان بالرُّجوعِ

جُعِلَ رُجُوعُ مُوسى عليه السلام إلى قومِهِ غضبانَ كالأمرِ الّذي وقَعَ الإخبارُ عنه مِن قَبلُ على الأسلوبِ المُبيَّنِ في قولِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وقولِهِ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: 149]. فَرُجُوعُ مُوسى مَعلُومٌ مِن تَحَقُّقِ انقضاءِ المُدّةِ المَوعُودِ بها، وكَونُهُ رَجَعَ في حالةِ غَضَبٍ مُشعِرٌ بأنّ اللّهَ أوحَى إليهِ، فأعلَمَهُ بما صَنَعَ قومُهُ في مَغيبِهِ، وقد صرَّحَ بذلكَ في سورةِ طه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: 85]، فـ﴿غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾ حالان مِن مُوسى، فهما قَيدانِ لـ﴿رَجَعَ﴾، فَعُلِمَ أنَّ الغضبَ والأسفَ مُقارِنان لِلرُّجُوعِ[3].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/178، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التّفسير الميّسر، ص: 169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بِصِيغةِ المُبالَغةِ:

بيانُ الحُدوثِ والامتلاءِ، بالوَصْفِ إلى الحدِّ الأقصَى

صيغة (غضبان) مِن صفاتِ المُبالَغةِ(1)، ويدُلُّ هذا البِناءُ على الحدوثِ والامتلاءِ بالوصفِ إلى الحدِّ الأقصى، وحرارةِ الباطنِ؛ لأنَّ الغضبَ حرارةٌ تكونُ في جوفِهِ، وعلى مُبالَغةٍ في كثرةِ الشّيءِ مع عدمِ الدَّوامِ، وبُطءِ الزَّوالِ، فالغضبانُ هو المُمتلئُ غَضَبًا، مع حرارةِ جوفِهِ واندفاعٍ كأنَّ في جوفِهِ مرجَلًا يؤزُّهُ، ولِذلكَ لمّا وَصَفَ هدوءَ غضبِهِ؛ قال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ [الأعراف: 154] كأنَّ الغضبَ كان له أزيزٌ، ويصيحُ بمُوسى ويهيِّجُهُ ويُلْهِبُهُ(2).

عِلّةُ المُبالَغةِ في ﴿غَضۡبَٰنَ﴾:

شِدّةُ الغضبِ، تدلُّ على حدّةِ طبْعِ موسَى، وسُرعةِ انْفعالِهِ

نقلَ ابنُ القيّمِ عنِ السّهيليّ: أنَّ غضبانَ مِن أبنيةِ المُبالغةِ، وإنّما دخَلَهُ معنى المُبالغةِ من حيث كانَ في آخرِهِ ألفٌ ونونٌ كالتّثنيةِ، فإنّ التّثنيةَ في الحَقيقةِ تَضعيفٌ، فكذلكَ هذه الصِّفة، فكأنَّ غضبانَ حاملٌ لِضعفَينِ مِنَ الغضبِ، فكانَ اللّفظُ مُضارِعًا للفظِ التّثنيةِ؛ لأنّ التّثنيةَ ضِعفانِ في الحَقيقةِ(3).

دَلالةُ صِيغةِ المبالغةِ ﴿أَسِفٗا﴾:

حُزنُ موسَى عليه السلام لضياعِ مَعالمِ الدِّينِ، والانْسلاخِ من هَدْيِهِ المُبِينِ

والأَسِفُ بدونِ مَدٍّ صيغةُ مُبالَغةٍ لِلآسِفِ بِالمَدِّ الّذي هو اسمُ فاعلٍ للّذي حلَّ بهِ الأَسَفُ، وهو الحُزنُ الشَّديدُ؛ أي: رَجَعَ غضبانَ مِن عِصيانِ قومِهِ، حَزينًا على فَسادِ أحوالِهِم، ممّا يدُلُّ على أنَّ الحُزنَ قدِ اشتدَّ عليه، وتمكَّنَ منهُ(4). وتدُلُّ الصِّيغةُ على أنّه كَثُرَ منهُ الفعلُ مَصحوبًا بهيجانٍ، وخفّةٍ، واندفاعٍ، وشدَّةٍ حتّى صارَ لهُ الفعلُ كالعادةِ، مع كونِ مَعناهُ عارِضًا للذّاتِ غير راسِخٍ ولا مُستقرٍّ فيها(5).

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/392.

(2) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 89 - 94.

(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/23.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/114، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4364.

(5) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 81 - 82 - 117.

عِلّةُ تقديمِ الغضَبِ على الأسَفِ:

ما اقترفَهُ قومُ مُوسَى مِن صُدودٍ، كانَ مُوغلًا في الكُفرِ بلا حدودٍ

قُدِّمَ الغضبُ؛ لأنّهُ رَسُولٌ له منهجُهُ، ولا يكفي في مثلِ هذا الأمرِ الحُزن فقط، بل لابدَّ أن يكونَ هناك الغضبُ نتيجةَ هياجِ الجَوارحِ[1]. وهياجُ الجَوارحِ ما لا يملِكُ زمامَهُ المرءُ ولذلك يَسبِقُ، وذِكرُ صفةِ الغضبِ مُقدَّمةً أنسبُ لِمَقامِ الغيرةِ على الدِّينِ، ومَسِّ وحدانيّةِ اللّهِ تعالى، ولزومِ عبادتِهِ مِن غيرِ شريكٍ، فهي أدعى إلى ردَّةِ الفعلِ المُناسبةِ؛ لجَسامةِ الحدثِ مِنَ الحُزنِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الذَّمِّ ﴿بِئۡسَمَا﴾:

ذَمَّهُمُ اللهُ لخيانةِ نَبيِّهم في الاسْتِخلافِ، وما وقَعَ مع هارونَ من خلافٍ

و﴿بِئۡسَمَا﴾ فِعلُ ذمٍّ ضِدُّ نِعمَّا، وقولُهُ: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾ اعتراضٌ ناشئٌ عن قولِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف: 142][2]. والفاعلُ مُضمَرٌ يُفسِّرُهُ قولُهُ: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾، والمَخصوصُ بالذّمِّ مَحذوفٌ تقديرُهُ: بِئسَ خِلافةً خَلَفتُمُونِيها مِن بَعدِي خِلافتكم[3]، و(مَا) نَكِرَةٌ مَوصُوفَةٌ مُفسِّرَةٌ لفاعلِ (بِئسَ) المُستكِنِّ فيه[4]. والذَّمُّ فيما إذا كانَ الخِطابُ لهارونَ عليه السلام ومَن معَهُ مِنَ المُؤمنينَ، ليسَ للخلافةِ نفسِها، بل لِعَدَمِ الجَرِي على مُقتَضاها، وأمَّا إذا كانَ للسّامريِّ وأشياعِهِ؛ فالأمرُ ظاهرٌ ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾؛ أي: أعَجِلتُم عمّا أمَرَكُم بِهِ رَبُّكم، وهو: انتِظارُ مُوسى عليه السلام حالَ كونِهِم حَافِظِينَ لِعهدِهِ، وما وصَّاهُم بِهِ، فَبَنَيتُم الأمرَ على أنَّ المِيعادَ قد بَلَغَ آخِرَهُ، ولَم أرجِعْ إلَيكُم، فَحَدَّثتُم أنفسَكُم بِمَوتِي، فَغيَّرتُم[5].

اسْتِعمالُ فعْلِ الاسْتِخلافِ بينَ الحَقيقةِ والمَجازِ:

المَعْنِيّونَ بالخطابِ هُم هارونُ وسَراةُ القَومِ، أو هُم القومُ قاطبةً

وهذا خِطابٌ لِهارونَ ووجوهِ القومِ؛ لأنّهم خلفاءُ مُوسى عليه السلام في قومِهِم، فيكون قولُهُ: ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ مُستعمَلًا في حقيقتِهِ، كما يُنبئُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/611، 9/114.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/66.

عنه قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: 92 - 93]. ويجوزُ أن يعمَّ الخِطابُ جميعَ القوم، فيكونُ التّوبيخُ عامًّا، وفيه تَعرُّضٌ خاصٌّ بهارونَ عليه السلام؛ لأنّهُ جعلَهُ خليفتَهُ فيهم كما تَقدَّمَ، فلم يُحسنِ الخِلافةَ بسياسةِ الأُمّةِ كما كانَ يَسُوسُها مُوسى، وأمّا القومُ؛ فَلأنّهُم عَبَدُوا العِجلَ بعدَ غَيبةِ مُوسى، ومِن لَوازمِ الخِلافةِ فِعلُ ما كانَ يَفعلُهُ المخلوفُ عنه، فهُم لمّا تَركُوا ما كانَ يَفعَلُهُ مُوسى مِن عبادةِ اللّهِ، وصارُوا إلى عِبادةِ العِجلِ، فقدِ انحَرَفُوا عن سيرتِه، فَلَم يَخلُفُوهُ في سِيرتِه، وإطلاقُ الخلافةِ على هذا المَعنى مَجازٌ، فَيكونُ فِعلُ ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ مُستَعمَلًا في حقيقتِهِ ومَجازِه(1).

بَلاغةُ الإطنابِ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾:

تصويرُ فظاعةِ التّزييفِ، وشُؤْمِ التّحريفِ، في المُسْتخلَفِين من قومِ موسَى

زيادةُ ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ عَقِبَ ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ إطنابٌ بزيادةِ الجارِّ والمجرورِ؛ لِلتّذكيرِ بالبَونِ الشّاسعِ بينَ حالِ الخَلَفِ وحالِ المَخلُوفِ عنهُ؛ تصويرًا لِفَظاعةِ ما خَلَفُوهُ به؛ أي: بعدَ ما سَمِعتُم مِنّي التَّحذيرَ مِنَ الإشراكِ وزَجرِكُم عن تقليدِ المُشركينَ حِينَ قُلتُم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: 138]، فَيَكونُ قيدُ ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لِلكشفِ، وتَصويرِ الحالةِ، والتّأكيدِ مِن بابِ: (رأيتُه بعيني)؛ وفائدتُهُ: تصويرُ نيابةِ المُستخلَفِ ومزاولةِ سيرتِهِ، وسلوكِ هديِهِ، كما أنَّ هنالكَ تصويرًا للرّؤيةِ، وما يتّصِلُ بها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النّحل: 26]، ومَعلومٌ أنّ السّقفَ لا يكونُ إلّا مِن فوق، ولكنّهُ ذُكرَ لتصويرِ حالةِ الخرورِ وتَهويلِها(2).

الإطنابُ رَفعٌ لِتَوهُّمِ أنّ فعْلَهُم قد يكونُ بحُضورِه:

غيابُ الرّسولِ المُوحَى إليه، لا يُسَوِّغُ التّصرّفَ بما يخالفُ المَنهَجَ الإلهيَّ

ولمّا كانَ هذا رُبَّما أَوهَمَ أنّهُم فَعَلُوا ما فَعَلُوهُ مِنِ اتِّخاذٍ لِلعِجلِ مِن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/274، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/507 - 508، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/114.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/586، والآلوسي، روح المعاني: 9/66، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/114، والمستغانميّ، تصريف القول، ص: 62.

ورائِهِ وهو حاضرٌ، قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾؛ أي: مِن بعدِ مُضيي[1]. وفي الإطناب إشارةٌ إلى أنَّ قيادةَ مُوسى عليه السلام لَهُم وهو بينَهُم قد كانَت هي السَّببَ في ضبطِهم عنِ الانحرافِ والتّغييرِ في الدِّين، وهذا يدُلُّ على أنّهُم لَم يَصِلوا بعدُ إلى مُستوى تركِهم لأنفسِهم يُقيمونَ دينَ اللّهِ، فالإيمانُ الحَقُّ لمَّا يَدخُلْ في قلوبِهم، إنّما هُمْ كقطيعٍ يَتبعُ راعيًا ضابطًا حازِمًا قويًّا يَرهَبُونَهُ.

دَلالةُ الاسْتِفهامِ:

لا يخلو الاستفهامُ للأقوامِ من إنكارٍ وتَوبيخٍ وتسْفيهٍ

لمّا كانَ موسى عليه السلام قد أمرَهُمُ بألَّا يُحدِثُوا بعدَهُ حَدَثًا حتّى يَعُودَ إليهم؛ أنكرَ عَلَيهِم عَدَمَ انتِظارِهِ بقولِهِ: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾[2]، فالاستفهامُ هنا للإنكارِ أصالةً، وتتولَّدُ عنه مَعانٍ أُخرى يَستدعيها المَقامُ كالتَّوبيخِ، والتَّقريعِ، والتَّسفيهِ[3].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بفعْلِ التّعْجيلِ على طريقِ التّضْمين:

يَتضمَّنُ السَّبقُ معنَى التّغْيير، بما يُفيدُهُ التّعْبيرُ

أصلُ العبارةِ: (أعجلتُم عن أمرِ ربِّكُم) إلّا أنّه أسقطَ الخافضَ، وعدَّى الفعلَ بنفسِهِ على سبيلِ الاتّساعِ، وتضمينِ الفعلِ مَعنى ما يتعدَّى بنفسِه. كأنّه قِيلَ: أسبقتُم أمرَ ربِّكُم غيرَ مُتمِّي إيّاهُ بأنْ فعلتُم ما بَدَا لَكُم[4]؛ والمعنى: أعجلتُم عن أمرِ ربِّكُم، وهو انتِظارُ مُوسى حَافِظِينَ لعهدِهِ وما وصَّاكُم به، فَبَنَيْتُم الأمرَ على أنَّ الميعادَ قد بَلَغَ آخِرَهُ، ولم أرجِعْ إليكُم، فحدَّثتُم أنفسَكُم بِمَوتي، فَغَيَّرْتُم، كما غيّرت الأمم بعدَ أنبيائِهِم[5].

بَلاغةُ الكِنايةِ، فيما تضمَّنَه السّبْقُ من معنَى التَّركِ:

قد يكونُ معنَى العَجَلِ التّرْكَ على الحقيقةِ، من غيرِ لُجوءٍ إلى التّضْمينِ

ومعنى: عَجِلَ عنِ الأمرِ؛ إذا تركَهُ غيرَ تامٍّ، ونَقيضُهُ تمَّ عَليهِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/408.
(4) زاده، حاشية محي الدّين شيخ زاده: 4/300.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161.

وأعجَلَهُ عنهُ غيرُهُ. وضمَّنُوهُ هُنا مَعنى السّبق، وهوَ كِناية عَن التَّركِ، فَتَعَدَّى تَعدِيَتَهُ، ولَم يُضمَّن ابتداءً مَعنى التَّرك؛ لِخفاءِ المُناسبةِ بينَهُما وعَدَمِ حُسنِها، وقِيلَ: إنّ السَّبقَ مَعنًى حقيقيٌّ لهُ مِن غيرِ تَضمين[1].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في وجْهِ التَّعْبيرِ عن تعجِيلِهِمُ الأمرَ:

تشبيهُ الهَرَعِ إلَى أَسبَابِ الغَضَبِ وَالسُّخْطِ، بِسَبْقِ السَّابقِ المَسبُوق

"الأمرُ يكونُ بمعنى التّكليفِ، وهوَ ما أمرَهُمُ اللّهُ بِهِ مِنَ المُحافظة على الشّريعةِ، وانتظارِ رُجوعِه، فَلَم يُتمُّوا ذَلك، واستَعجَلُوا، فَبَدَّلُوا وغَيَّرُوا، ويَجوزُ أن يكونَ بمعنى سَبَقَ؛ أي: بادَرْتُم، فَيَكونُ الأمرُ بمعنى الشّأنِ؛ أي: الغضبِ والسُّخطِ، كقولِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، وقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، فَالأَمرُ هُوَ الوَعيدُ، فَإنَّ اللّهَ حَذَّرَهُم مِن عِبَادَةِ الأَصنَام، وتَوَعَّدَهُم، فَكَانَ الظَّنُّ بِهِم إنْ وَقَعَ مِنهُم ذَلكَ أَن يَقَعَ بعدَ طُولِ المُدَّة، فَلَمَّا فَعَلُوا ما نُهُوا عَنهُ بِحِدثَانِ عَهدِ النَّهي؛ جُعِلُوا سَابِقِينَ لَهُ عَلَى طَرِيقَةِ الاستِعارة: شُبِّهُوا في مُبَادَرَتِهِم إلَى أَسبَابِ الغَضَبِ وَالسُّخطِ بِسَبقِ السَّابقِ المَسبُوقَ، وهذا هو المَعنَى الأَوضَحُ، ويُوَضِّحُهُ قَولُهُ، في نَظِيرِ هَذِهِ القِصَّة في سورة طه، حِكايةً عَن مُوسَى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾ [طه: 86]"[2].

بَلاغةُ العُدولِ مِنَ التَّعريفِ بـ(أل) إلى التَّعريفِ بالإضافةِ:

بالتّمادِي استحقَّ قومُ موسَى التّشنيعَ على جُحودِهِم

في إضافةِ ﴿أَمۡرَ﴾ إلى ﴿رَبِّكُمۡۖ﴾، مُضافًا إلى (الكاف)، ضميرِ المُخاطَبِينَ زيادةُ تَشنيعٍ، وتقريعٍ عليهم بالجحودِ، وكفرِ النِّعمةِ مع كفرِهِم بالمُنعِمِ بها[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/66.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/115.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.

سِرُّ العُدولِ إلى اسْتِعمالِ فعْلِ الإلقاءِ ﴿وَأَلۡقَى﴾:

في الإلقاءِ معنَى الطَّرْحِ، حيث تُرَى وتُؤْخَذُ، وهو أنسبُ في السّياقِ

واستُعمِلَ فعلُ الإلقاءِ مع الألواحِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأفعالِ كالرَّمي، والطَّرحِ، والنَّبذِ وغيرِها؛ لأنَّ الإلقاءَ أنْ تطْرحَ الشَّيءَ حيثُ تراهُ، وتلقاهُ، لتأْخُذَهُ[1]، وهو أنسَبُ لتمسُّكِهِ بها، والدَّليلُ: أنَّهُ عندما سكتَ عنهُ الغضبُ عادَ لِيأخذَها، فضلًا عمّا فيه مِن دلالةِ شدّةِ غضبِ مُوسى عليه السلام مِن ارتدادِ قومِهِ، وبَلادَةِ طبعِهِم[2].

عَلّةُ التَّعْبيرِ بإلقاءِ الألواحِ:

إظْهارُ الغضَبِ أثَرٌ مِن آثارِ فَوَرانِهِ وانْفِعالِهِ العاصِفِ

وإلقاؤُهُ الألواحَ يُؤذِنُ بأنَّه لمّا نَزَلَ مِنَ المُناجاةِ؛ كانَتِ الألواحُ في يدِهِ، ثمّ إنَّ إلقاءَهُ إيّاها إنّما كانَ إظهارًا لِلغضبِ، أو أثرًا مِن آثارِ فَوَرَانِ الغضبِ لَمّا شاهَدَهُم على تلكَ الحَالةِ، ومَا ذَكَرَ القرآنُ ذَلكَ الإلقاءَ إلّا للدّلالةِ على هذا المعنى؛ إذ ليسَ فيهِ مِن فَوائِدِ العِبرَةِ في القِصّةِ إلّا ذَلِك، فلا يَستَقيمُ قَولُ مَن فَسَّرَها بأنَّ الإلقاءَ لأجلِ إشغالِ يدِهِ بجرِّ رأسِ أخيهِ؛ لأنّ ذِكرَ ذَلكَ لا جُرُورَ فيهِ، ولأنّهُ لو كانَ كَذَلِكَ؛ لَعُطِفَ ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ بالفاءِ[3].

نُكتةُ تَنْزيلِ الإلقاءِ مَنزِلةَ الإلقاءِ الاختياريِّ:

إلقاءُ الألواحِ تَشنيعٌ لصَنيعِ قومِهِ، وليس تأديبًا لَهُم

قِيلَ: إنّهُ عليه السلام لِفَرطِ حميَّتِهِ الدِّينيّةِ وشدّةِ غضبِهِ للّهِ تعالى لَم يَتَمالَكْ، ولَم يَتَماسَكْ أنْ وقَعَتِ الألواحُ من يدِهِ بدونِ اختيارٍ، فَنُزِّلَ ذَلكَ مَنزِلَةَ الإلقاءِ الاختياريِّ، فَعُبِّرَ بهِ تَغليظًا عليه السلام[4]. وقد رُوِيَ أنَّ مُوسى عليه السلام كانَ في خُلُقِهِ ضيقٌ، وكانَ شديدًا عندَ الغضبِ؛ ولِفظاعةِ الفعلِ الّذي شاهدَهُ مِن قومِهِ، ألقى الألواحَ تَفظيعًا لِفعلِ قومِهِ، وتشنيعًا عليهم، وليسَ تَأديبًا لَهُم؛ لأنّهُ لا يكونُ تَأديبُهُم بإلقاءِ ألواحِ

(1) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/115.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/67.

كُتِبَ فيها مَا يُصلِحُهُم، ولأنّ ذَلِكَ لا يُناسِبُ تَصَرُّفَ النُّبوَّةِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى شدّةِ غَيرتِه مِنَ الشّرك بربِّ العالَمِينَ وفَرطِ حميَّتِه على الدِّينِ، وليسَ في ذلِكَ ما يُتَوَهَّمُ منهُ نوعُ إهانةٍ لكتابِ اللّهِ تعالى بِوجهٍ مِنَ الوجوهِ[2].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالمَجَازِ المُرسَلِ عن أخْذِ الرَّأسِ:

تأنيبُ هارُونَ على عَدَمِ صرامَتِه مع عَبَدَةِ العِجْلِ المُفسِدين

وأَخْذُهُ برأسِ أخيهِ هارونَ يجُرُّهُ إليهِ؛ أي: إمساكُهُ بشعرِ رأسِه، وهو مَجازٌ مُرسَلٌ علاقتُهُ الكليّةُ، حيث أطلَقَ الكلَّ وهو الرّأسُ، وأرادَ الجزءَ وهو شعرُ الرّأسِ، وذلك يُؤلِمُهُ، فذَلِكَ تأنيبٌ لِهارُونَ على عَدَمِ أخذِهِ بالشِّدَّةِ عَلى عَبَدَةِ العِجلِ، واقتِصارِهِ على تَغييرِ ذلك عليهم بالقَولِ، وذَلِكَ دَليلٌ على أنّهُ غَيرُ مَعذُورٍ في اجتهادِهِ الّذي أَفصَحَ عنهُ بقولِه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94][3].

بَلاغةُ التّعْبِيرِ بالكِنايةِ عنِ اشْتِدادِ غضَبِهِ:

رَسْمُ صُورةِ الغَضَبِ والانْفِعالِ، بأوضحِ لفظٍ، وأفصحِ مَقالٍ

فقد رسمَت عبارةُ: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ صورةً حيّةً لآثارِ غضبِ مُوسى عليه السلام، وجسَّدَت تشديدَ قبضتِه على أخيهِ هارونَ عليه السلام، وهو يسحبُهُ على الأرضِ، وهارون يَسترحِمُهُ، ويَستعطِفُهُ[4].

سِرُّ الاسْتِعارةِ التّبعيّةِ في الفعْلِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

الأخذُ الإزالةُ عنِ المكانِ، ومُؤدّاهُ التَّعْبيرُ عنِ السّحْبِ بطريقَيْنِ

في ﴿وَأَخَذَ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ؛ حيث شبّهَ الإمساكَ بالأخذِ، وسِرُّها أنّ المُمسِكَ بشيءٍ قد يبقيهِ في مكانِه، أمَّا الآخذُ بهِ؛ فقَد يزيلُهُ عن مكانِهِ، وهو الّذي حَدَثَ هنا، فقد أمسكَ مُوسى برأسِ أخيهِ سَاحِبًا له على الأرضِ، وبهذا تظهَرُ بلاغةُ الاستعارةِ على المعنى الحَقيقيِّ لو قِيلَ: (وأمسكَ برأسِ أخيهِ). "وقد يُظنُّ أنَّ المَقامَ مُستَغنٍ عنِ الفعلِ ﴿وَأَخَذَ﴾؛ لأنَّ النّقلَ من مكانٍ إلى مكانٍ مفهومٌ مِنَ الفعلِ ﴿يَجُرُّهُۥٓ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/115.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/67.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.

(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.

﴿إِلَيۡهِۚ﴾، فالجوابُ: لو لم يُستَعَرْ ﴿وَأَخَذَ﴾ للإمساكِ؛ لَكانَ السَّحبُ مَدلولًا عليه بـ﴿يَجُرُّهُۥٓ﴾ مرّةً واحدةً، ولكنْ لمّا استُعِيرَ ﴿وَأَخَذَ﴾ لأَمسكَ؛ صارَ السَّحبُ مَدلولًا عليهِ بطريقين، وهذا أبلغُ ممّا لو دُلَّ عليهِ بطريقٍ واحدةٍ"[1].

سِرُّ العُدولِ بلفْظِ الأُخوَّةِ عن لفْظِ العَلَمِيّةِ:

في لفظِ الأُخـوَّةِ اقتضاءٌ لِلرّأفةِ، وهـو ما يَقتضِي قـيـامَ هــارونَ بواجبِه كاملًا

في إيثارِ الصّفةِ ﴿أَخِيهِ﴾ على العلميّةِ (هارون) إظهارٌ لقوّةِ الغضبِ وشدّتِه الّتي سيطرَت على موسى عليه السلام؛ غَيْرَةً على الدِّينِ حتّى كادَ يَبْطشُ بـ﴿أَخِيهِ﴾، والأخوةُ تقتضي الرّأفةَ والرِّفقَ. ولو قِيلَ: (هارون) بدلَ ﴿أَخِيهِ﴾؛ لَفاتَ هذا المعنى[2]. كما أنَّ التّعبيرَ بلفظِ الأخوةِ يقتضي قيامَ هارونَ عليه السلام بحقِّ الاستخلافِ حقَّ القيامِ؛ لكونِه أخًا شقيقًا لموسى، ووزيرًا ورِدءًا مُناصِرًا يشدُّ أزرَهُ، وقائمًا مَقامَهُ في غيبتِه.

نُكتَةُ التَّعْبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

إفـــادةُ طُــولِ الـجـرِّ، وتَـكـرارِ حُدوثِهِ، لغلبةِ الغـضَـبِ الّـذي يُشبهُ الإغلاقَ

في ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ إيثارٌ لصيغةِ المضارعِ على الماضي تصويرًا للمَشهَدِ، وكأنّهُ يَحدثُ الآنَ، ويَتجدَّدُ، ولإفادةِ طولِ (الجرِّ)، وحدوثِهِ مُكرَّرًا مرّةً بعدَ مرّةٍ. ولو قِيلَ: (فجرّه)؛ لأُفهِمَ أنّ الجرَّ حَدَثَ مرَّةً واحدةً[3].

بَلاغةُ الفصْلِ في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

الآيـةُ اسْـتِرفـاقٌ من هارونَ عليه السلام، واسترحامٌ لأخيه الصّائلِ عليه

فُصِلَت جملةُ ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾؛ لِوقوعِها جوابًا لحوارٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُهُ: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾؛ لأنّ الشّأنَ أنّ ذَلِكَ لا يقعُ إلّا مع كلامِ تَوبيخٍ، وهُوَ ما حُكِيَ في سورةِ طه بقولِه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ﴾ [طه: 92 - 93] على عادةِ القرآنِ في

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.

توزيعِ القِصَّةِ، واقتِصارًا على مَوقِعِ العِبرَةِ؛ لِيُخالِفَ أُسلُوبُ قَصَصِهِ الّذي قُصِدَ مِنهُ المَوعِظةُ أساليبَ القَصّاصِينَ الّذين يَقصِدُونَ الخَبَرَ بكلِّ ما حَدَثَ(1). وفي قولِ هارونَ عليه السلام: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ استِلطافٌ لِلخطابِ، واسترحامٌ، وطَلَبٌ لِلرّفقِ، يريدُ بهذا أنّه قد تَوالَتِ المِحَنُ عليهِ، فطَلَبَ أنْ يذرهُ وما هُوَ فيه، ولا يَزِدْ في بلائِه، ولسانُ حالِه عليه السلام: قد خلفتُكَ فيهِم، فلَم يَستنصحوني، وتلك عليَّ شديدةٌ، ولَقيتُ في عتابي وجرِّ رأسي، وكنتُ أودُّ منكَ تَسليتي وتعزِيَتي؛ فَرِفقًا بي، ولا تُشمِتْ بي الأعداءَ، ولا تُضاعِفْ عليَّ البلاءَ(2).

سِرُّ حذْفِ حرفِ النّداءِ والياءِ في: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾:

في الحذْفِ إظهارٌ لـخَـوْفِ هـارونَ عليه السلام وارتِباكِهِ

خُفِّفَ بحذفِ أداةِ النّداءِ وياءِ الإضافةِ(3)؛ لِمَا يَقتَضِيهِ الحالُ مِنَ الإيجازِ(4). فـ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ مُنادى بحذفِ حرفِ النّداءِ، والنّداءُ بهذا الوصفِ للتّرقيقِ والاستِشفاعِ، وحُذِفَ حرفُ النّداءِ لإظهارِ ما صاحَبَ هَارونُ مِنَ الرُّعبِ والاضطرابِ، أو لأنّ كلامَهُ هذا وَقَعَ بعدَ كلامٍ سَبَقَهُ فيه حرفُ النّداءِ، وهو المَحكيُّ في سورة [طه: 94] أنْ ﴿يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي﴾(5).

سِرُّ الحذفُ في ﴿أُمَّ﴾:

إضافةُ (ابْنَ أُمِّ)، وجهُ إيجازٍ يُعزِّزُ مَذهَبَ التَّعجُّلِ في الكلامِ

قَرَأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وأبو بكرٍ عن عاصمٍ ﴿ٱبۡنَ أُمِّ﴾ بكسرِ الميمِ(6)، وفي (طه) مِثلُهُ على تقديرِ: أُمِّي، فَحَذَفَ ياءَ الإضافةِ؛ لأنّ مَبنَى النّداءِ على الحَذفِ، وبَقِيَ الكَسرُ على الميمِ لِيدُلَّ على الإضافةِ، كقولِه: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾ [الزّمر: 17]. وقرَأَ البَاقونَ بفتحِ الميمِ في السُّورتَينِ، وفيه قَولانِ: أَحَدُهُما: أنّهما جُعِلا اسمًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/188.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/115.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.
(6) ابن الجزريّ، النّشر: 2/307.

واحدًا، وبُنِي لكثرةِ مُصاحبةِ هَذَينِ الحَرفَينِ، فَصارَ بِمَنزِلَةِ اسم وَاحدٍ، نَحوَ: حَضرَمَوتَ، وخَمسَةَ عَشَرَ. وثانيهما: أنّهُ على حَذفِ الألفِ المُبدَلَةِ مِن ياءِ الإضافةِ، وأصلُهُ: يا ابنَ أُمَّا[1]. والحذفُ في كلتا القراءتَين ترسيخٌ لشدّةِ انفعال هارونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الإضافةِ وجهُ إيجازٍ يُعزِّزُ مَذهَبَ الاضطرابِ والتَّعجُّل في الكلامِ.

سِرُّ العُدولِ إلى التَّعْبيرِ بإضافةِ بدَلِ العَلَميّةِ:

آصرةُ قرابةِ الأمِّ قويّةٌ، والتَّذكيرُ بها له تأثيرٌ في حالتَي الغضبِ والرِّضَا

إنَّ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا أَخَذَ برأسِ أخيهِ يجرُّهُ إليهِ؛ استلطفَهُ هَارونُ في الخطابِ، قالَ: يا ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾، واختيارُ التَّعريفِ بالإضافةِ لِتضمُّنِ المُضافِ إليهِ مَعنى التَّذكيرِ بصلةِ الرَّحمِ؛ لأنّ إخوَةَ الأمِّ أشدُّ أواصِرِ القَرَابَةِ؛ لاشتراكِ الأخَوينِ في الإلْفِ مِن وقتِ الصِّبا والرَّضاعِ، فذكَرَ الأمَّ هنا لِلاسترفاقِ والاسترحامِ[2].

دَلالةُ ذكْرِ لفْظِ (الأمّ):

إبـــرازُ إيـمـانِ الأمِّ، ومُعاناتِها وتذكيرُهُ بحقِّها

وفيهِ إشارةٌ إلى أنّهما مِن بَطنٍ وَاحدٍ، وفي ذلك استلطافٌ بِرحمِ الأمِّ؛ إذ هَو ألصَقُ القَرابَاتِ، وذلك أعظمُ للحقِّ الوَاجب، فضلًا عنِ العطفِ والرِّقّةِ؛ ولأنَّ الأمَّ كانَت مُؤمِنةً فاعتدَّ بنسبِها، ولأنّها هي الّتي قاسَت فيهِ المَخاوفَ والشّدائدَ، فذكَّرَهُ بحقِّها[3].

سِرُّ التّكامُلِ بين حِدّةِ موسَى، ورِقّةِ هارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

طـبْـعُ هـــارونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يَلْهجَ بعباراتِ الرَّحمَةِ

إنَّ هَارونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَت آثارُ الجَمالِ والرَّحمَةِ فيهِ ظاهرَة، كما يُنبئُ عنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم: 53]، وكانَ مَورِدُهُ ومَصدَرُهُ ذلك؛ ولذا كانَ يَلهَجُ بِذِكرِ ما يدُلُّ على الرَّحمَةِ، ألَا تَرى كيفَ تلطَّفَ بالقومِ لَمّا قَدِمُوا على ما قَدِمُوا، فقالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: 90] ومِن هُنا ذَكَرَ الأمَّ،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/11.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/457.

ونَسَبَ إليها؛ لأنّ الرَّحمَةَ فيها أتَمُّ، ولَولَاها ما قَدَرَت على تَربيةِ الوَلَدِ وتَحَمُّلِ المَشاقِّ فيها(1).

سِرُّ العُدولِ مِن عِبارةِ (ابن أب) إلى عبارةِ: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾:

طُوِيَ ذكرُ أبي مُوسى وهارونَ عليهما السلام، ولم يَظهرْ عنه أيُّ خبرٍ، والعلمُ جاءَنا عن أمِّه؛ لأنّها هي الّتي قابلَتِ المَشقّاتِ في أمرِ حياتِه، لِذلكَ جاءَ لنا بالقدرِ المُشتركِ البارزِ في حياتِهما، ولأنّ الأمومةَ مُستقرُّ الأرحامِ؛ ولأنّ في أخوَةِ الأمِّ حنانًا ظاهرًا، ويَقلُ الحنانُ بينَ الأخوةِ مِنَ الأبِ. وجاءَ الحَقُّ هنا بالقَدرِ المُشتركِ بينهما، وهو أخوةُ الأمِّ، وله وُجودٌ مُستحضَرٌ في تاريخِهم، أمّا الأبُ؛ فلا يُعرَفُ عنه شيءٌ، وكلُّ الآياتِ الّتي جاءَت عن مُوسى مُتعلِّقةٌ بأمِّهِ، لذلك نجدُهُ يُكلِّمُهُ بالأسلوبِ الّذي يُحنِّنُهُ(2).

ففي أُخـوَّةِ الأمِّ حـنـانٌ ظـاهـرٌ، يَقِلُّ بين الأُخوَّةِ لأب

عِلّةُ تأكيدِ الخبرِ بـ﴿إِنَّ﴾:

تَأكِيدُ الخَبَرِ بـ﴿إِنَّ﴾ وإيرادُ الجملةِ الاسميّةِ؛ لتَحقيقِه لَدَى مُوسَى عليه السلام(3). وفيه إزالةٌ لِمَا عساهُ أن يكونَ قد عَلِقَ بمشاعرِ مُوسى عليه السلام من تواطُؤِ أخيهِ مع قومِه، أو تراخيهِ في زجرِهم والإنكارِ عليهِم.

تـأكـيـدُ تـحـقُّـقِ الـخـبرِ بـوصْـفِـهِ مُحتملًا للتَّردُّدِ

سِرُّ تعْبيرِ هارونَ بـ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

وفيه أنّ سببَ تعبيرِ هارونَ بقولِ: ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾، ولم يقُلْ: (قومي) في ردِّهِ على مُوسى، يدُلُّ على بُعدِ المسافةِ والبراءةِ الّتي يَشعرُ بها هارونُ من قومِه الّذين ارتكبُوا الشِّركَ والضَّلالةَ، ولا يريدُ أن ينسِبَ نفسَهُ إلى هؤلاءِ المُفسدِينَ، كما يدُلُّ على التّحذيرِ والتّخويفِ الّذي يريدُ أن يبيّنَهُ لأخيه مُوسى من خطورةِ حالِ قومِه، وأنّهُ لم يَستطعْ أن يصلحَهُم، أو يثبّتَهُم على

الإشـارةُ إلى الـبراءةِ الّـتي يَشعرُ بها هارونُ من قومِهِ الّذين ارتكبُوا الشِّركَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/68.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/394، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4364 - 4365.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.

دينِ الحقِّ. أمّا التّعبيرُ بـ(قومي)؛ فيدُلُّ على المَودَّةِ والانتسابِ لهم الّتي لا تتناسبُ مع حالِ هَارونَ في ذلكَ المَوقِفِ، فإنّهُ لا يودُّ أن يكونَ مِن قومٍ ضلُّوا عن سبيلِ اللّهِ، ولا يحبُّ أن يُظهرَ لأخيهِ مَحبّةً لهؤلاءِ المُشرِكين.

كما أنَّ استخدامَ هَارونَ للفظِ (القوم) يُوافِقُ السِّياقَ القرآنيَّ الّذي يَصِفُ حالَ قومِ مُوسى بعدَ عبادةِ العِجلِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، حيثُ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: 152]، فهنا نرى أنَّ اللّه تعالى ينسِبُ عبادةَ العِجلِ إلى قومِ مُوسى، بعبارةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المُوحيةِ بالوصفِ غيرِ المُحبَّبِ، ويَعِدُهم بالغضبِ والذِّلّةِ في الدّنيا، ويصفُهم بأنّهم مُفترينَ على اللّهِ، فالتّعبيرُ بـ (القوم) يَتناسَبُ مع هذا المعنى، ويُعبِّرُ عن حالةِ بُعدِ المسافةِ والبراءةِ الّتي يَشعرُ بها هارونُ مِن قومِهِ.

فائدةُ تقديمِ فعْلِ الاسْتِضعافِ على إرادةِ القتْلِ:

الاسْتِضعافُ مُقدِّمةٌ لسلْبِ الإرادةِ في الدِّفاعِ عنِ النّفسِ

في قولِهِ: ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾، قَدَّمَ الاستضعافَ على إرادةِ القتلِ؛ لأنَّ الاستضعافَ مُقدِّمةٌ لسلبِ الإرادةِ في الدِّفاعِ عنِ النّفسِ، فضلًا عن كونِها مِن تقديمِ الأسبابِ على مُسبِّباتِها[1].

نُكتَةُ الزّيادةِ في ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾:

التّمالُؤُ على عبادةِ العِجلِ باستِضعافِ هَارونَ، قِلّةُ مُروءةٍ

السّينُ والتّاءُ في ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ لِلجعلِ ولِلحُسبانِ؛ أي: جعلُوني، وحَسِبُوني ضَعيفًا لا نَاصرَ لي، واعتقدوا ذلك؛ لأنّهم تَمالؤوا على عبادةِ العِجلِ، ولم يُخالِفْهم إلّا هارونُ في شِرذِمَةٍ قَليلَةٍ، فالاستفعالُ هنا بمعنى الإفعالِ[2].

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ (كاد):

أثبتوا شِدّةَ المُعارضةِ، ومدَى التَّجرُّؤ على فعْلِ ما لا يَنبغي

وقولُهُ: ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ يدُلُّ على مُعارَضَةِ هَارونَ لهم مُعارَضَةً شَدِيدَةً، وأنّه لم يألُ جهدًا في كفِّهم بالوعظِ والإنذارِ، وبما بلغتَهُ طاقتُهُ البشريّةُ مِن بذلِ القوّةِ في مُضادتِهم حتّى قَهرُوهُ واستضعفوهُ، ولم يبقَ لَهُم إلّا أن يقتلُوهُ، وقاربُوا مِن ذَلِك، ولم يَفعلُوا[1]، ويدُلُّ على مَدَى تجرّئِهم على باطلِهم، وتماديهم في غيِّهم، وقناعتِهم بوجهتِهم.

نُكتةُ تخفيفِ فعْلِ الشّماتةِ في قوله: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ﴾:

لم يكنْ موسَى عليه السلام قاصِدًا أدنَى الشَّماتةِ في لَوْمِه وغضَبِه

في إيثارِ هارونَ عليه السلام المُخفَّف مِنَ الفعل ﴿تُشۡمِتۡ﴾ على المُشدّدِ (لا تُشمِّتْ)، قَصْدٌ إلى تجنيبِه عليه السلام أدنى مَقاديرِ الشّماتةِ فضلًا عن أغلظِها وأشدِّها[2].

دلالةُ تعديةِ فعْلِ الشّماتةِ بالباءِ، والتَّعْبيرِ بهِ على طريقِ المَثَلِ:

في لفظِ الشَّماتةِ بيانٌ لِمَا لحِقَ بهارونَ مِن حَرَجٍ وأذاةٍ

قولُهُ: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ﴾، مِنَ الشَّماتةِ؛ وهي: سُرُورُ النّفسِ بما يُصِيبُ غيرَها مِنَ الأضرارِ، وإنّما تَحصُلُ هذه الحالةُ النّفسيّةُ مِنَ العَداوةِ والحَسدِ. وفِعلُها قاصرٌ كَفَرِحَ، ومَصدرُهَا مُخالِفٌ لِلقياسِ، ويَتعدَّى الفِعلُ إلى المَفعولِ بالباءِ، يُقالُ: شَمِت به؛ أي: كانَ شامِتًا بِسَبَبِه، وأشمَتَهُ بِه جَعَلَهُ شَامِتًا به، وأرادَ بالأعداءِ الّذين دَعَوا إلى عبادةِ العِجلِ؛ لأنّ هَارونَ أنكرَهُ عليهم، فَكَرِهُوهُ لِذلِكَ، ويَجوزُ أن تكونَ شَماتَةُ الأعداءِ كَلِمَةً جَرَت مَجرَى المَثَلِ في الشّيءِ الّذي يُلحِقُ بالمَرءِ سُوءًا شَدِيدًا، سَوَاءٌ كانَ لِلمرءِ أعداءٌ أو لم يَكونوا، جَريًا على غالِبِ العُرفِ[3].

بَلاغةُ الكِنايةِ في قولِه: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ﴾:

في الكِنايةِ طلَبُ الإعراضِ عن عقوبَتِه

قولُهُ: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ﴾ كنايةٌ عن نهي سببُهُ المُؤدّي إليه، إذِ الظّاهرُ أنَّ مَعنى (لا تُشمت): لا تجعلِ الأعداءَ شُمَّاتًا بي، ولا قدرةَ لنا

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117 - 118.

بالكفِّ عن سببِهِ[1]. والفاءُ للتّفريعِ، وللسّببيّةِ فيما بعدَها، والتّفريعُ فيه تفريعٌ على تَبَيُّنِ عُذرِهِ في إقرارِهم على ذلك، فَطَلَبَ إلى أخيهِ الكَفَّ عن عقابِهِ الّذي يَشمَتُ بِهِ الأعداءُ لأجلِهِ، ويَجعلُهُ مَعَ عِدادِ الظّالمينَ، فَطَلَبُ ذلك كنايةٌ عن طَلَبِ الإعراضِ عنِ العِقابِ[2]، ولو قِيلَ: معنى (لا تُشمت): لا تفعلْ ما يكونُ سببًا للشّماتةِ مِن غيرِ كنايةٍ؛ لا يبعد[3].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ على غيرِه:

لَفظُ العَداوةِ مُسفرٌ عن سُوءِ العلاقةِ بين المُبلِّغِ والمُبلَّغِ

وفي إيثارِ لفظِ ﴿ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ على الاسمِ الصّريحِ (بني إسرائيلَ)؛ للنَّصِّ على علّةِ النَّهي صراحةً، ولإفادةِ العُمومِ في معنى العَداوةِ أيًّا كانَت[4].

نُكتةُ تَقْديمِ فعلِ النَّهْيِ عنِ الشّماتةِ على فعلِ التَّركِ:

في الطّلَبِ مِنَ الأدنَى الخاصِّ إلى العامِّ، تدرُّجٌ وتلطُّفٌ

النّهيُ في ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ﴾ و﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي﴾ لِلالتماسِ، وتقديمُ فعلِ تركِ الشَّماتةِ على فِعلِ تركِ الجعلِ مع القومِ الظّالمينَ تدرُّجٌ وتلطُّفٌ في الطّلبِ مِنَ الأدنى الخاصِّ (الشّماتة) إلى العامِّ (الجعل مع الظّالمين): ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5]. وهو من تمامِ أدبِ خطابِ الأنبياءِ عليهم السلام.

وُجوهُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ (جَعَلَ):

احتمالُ دَلالةِ الظّنِّ، أو دَلالةِ الفعْلِ الحَقيقيِّ

معنى قولِه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لا تَحسَبنِي واحدًا مِنهُم، فـ (جَعَلَ) بِمعنى ظنَّ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزّخرف: 19]. والقومُ الظّالمونَ هُم الّذينَ أشرَكُوا باللّهِ عبادَةَ العِجلِ، ويَجوزُ أن يكونَ المعنى: ولا تَجعلنِي في العُقُوبَةِ

(1) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/509.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.
(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/509.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.

مَعَهم؛ لأنَّ مُوسى قَد أمَرَ بقتلِ الّذين عَبَدُوا العِجلَ، فـ(جَعَلَ) على أصلِها[1]، وكأنَّه يقولُ لِمُوسى ﷺ: إنّك إنْ آخذتَني هذه المُؤاخذةَ في حالةِ غضبِكَ، ربَّما ظُنَّ بي أنّني كنتُ معَهُم، أو سلكتُ مَسلَكَهُم في اتّخاذِ العِجل وعبادتِه[2]. وقالَ ابنُ عرفة: "هذا نفيٌ أعمٌّ، ولو قال: مِنَ القوم الظّالِمين؛ لكان نفيًا أخصّ"[3].

عِلّةُ تعريفِ القومِ ووصْفِهِم بالظّالِمين:

صِفةُ الظُّلمِ ثابتةٌ ودائمةٌ في المَوْصُوفِين

(أل) في القوم عهديّةٌ ذهنيّةٌ، ووَصفُهم بالظّالمين عبرَ صيغةِ اسم الفاعلِ مَجموعًا جمعَ مُذكّرٍ سالمًا؛ لِلدّلالةِ على ثبوتِ صفةِ الظّلم فيهم، ودوامِها في المَوصُوفِينَ بها، بوصفِ أمرِ الظُّلم بمَنزلَةِ الحاصِلِ الثّابتِ المُستقرِّ، وهو أدعى لِتجنُّبِه، واستبعادِ الوقوعِ فيه من مثلِه، ولِزيادةِ استعطافِ مُوسى ﷺ من أنْ يَرتضي لأخيهِ ووزيرِه ومُساندِه هذا المآلَ.

بَلاغةُ كنايةٍ اقترنَ فيها الدّليلُ بالدّعْوَى في السِّياقِ:

تعيينُ الظّالمين منهم دون غيرِهم، وتبشيعُ الظّلمِ على العُموم

وإيثارُ جملةِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاصلةً للآيةِ المُباركةِ على جملةِ (بني إسرائيلَ) "كنايةٌ اقترَنَ فيها الدَّليلُ بالدَّعوى؛ أي: لا تجعلْني في عدادِ الظّالِمين الّذين اتّخذوا العِجلَ، ولهذه الكنايةِ نُكتَةٌ أخرى، هي الاحترازُ مِنَ العزلِ عمَّن هو صالحٌ مِن بني إسرائيلَ، وإدخالُ مَن هو ظالِمٌ من غيرِ بني إسرائيلَ"[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجُوعُ والإيابُ:

الرُّجوعُ العَوْدُ إلى ما كان منهُ البَدءُ، والأَوْبُ ضربٌ منه، والرُّجوعُ أَعمُّ

الرُّجُوعُ: "العَودُ إِلَى ما كانَ مِنهُ البدءُ مَكَانًا أَو صفةً أَو حَالًا"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4365.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/257.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.
(5) الرّاغب، المفردات: (رجع)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 478.

والأوبُ: ضربٌ مِنَ الرُّجوعِ، وذلكَ أنّهُ لا يُقالُ إلّا في الحَيَوانِ الّذي له إرادةٌ، والرُّجُوعُ يُقالُ فيه، وفي غيرِه، فالرُّجُوعُ أعمُّ[1]. والإيَابُ: هُو الرُّجُوعُ إلى مُنتَهى المَقصَدِ، والرُّجُوعُ يكونُ لذَلِكَ ولغيرِه، أَلَا ترى أنّهُ يُقَالُ: رَجَعَ إلَى بعضِ الطَّرِيقِ، ولَا يُقالُ: آبَ إلى بعضِ الطَّرِيقِ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنّ القِيامَةَ مُنتَهى قصدِهِم؛ لأنّهُم لَا مَنزِلَةَ بعدَهَا. الرُّجُوعُ هو المصيرُ إلى المَوضِعِ الَّذي قد كانَ فِيهِ قبلُ[2]. ومن هنا فدلالةُ الرُّجوعِ تناسبُ سياقَ الآيةِ بوصفِ رجوعِ مُوسى عليه السلام عودٌ إلى مكانِه بعدَ أن غادرَ قومَهُ للمُناجاةِ، وليس رجوعهُ هذا مُنتهَى قصدِهِ عليه السلام، فلا يصلحُ أن يُطلَقَ عليه إيابًا.

الأسفُ، والغضبُ، والحزنُ:

الحُزنِ، والحُزنُ مِنَ الغَضَبِ، والأَسَفُ الحُزنُ والغَضَبُ معًا

الأَسَفُ: الحُزنُ والغَضبُ معًا، وقد يُقالُ لكلِّ واحدٍ منهما على الانفرادِ، فالقَولان مُتقاربان؛ لأنّ الغَضَبَ مِنَ الحُزنِ، والحُزنَ مِنَ الغَضَبِ، فإذا جاءَكَ ما تكرَهُ ممَّن هو دُونَكَ؛ غَضِبتَ، وإذا جاءَكَ ممّن هو فَوقَكَ؛ حَزِنتَ. فَتُسَمَّى إحدى هاتَينِ الحالَتينِ حُزنًا والأخرى غَضَبًا[3]. والأَسَفُ: هو الحُزنُ لفعلٍ يُخالِفُهُ مع عدمِ القُدرةِ على الانتقامِ، والغضبُ: ممَّن يَقدرُ عليه[4]. والأَسَفُ: حسرةٌ معهَا غَضبٌ أو غَيظٌ، والآسِفُ: الغضبانُ المُتلَهِّفُ على الشَّيءِ[5]. والفرقُ بينَ اللّفظَينِ ظاهرٌ، واجتماعُهما في سياقٍ واحدٍ بيانٌ لحالِ مُوسى عليه السلام باجتماعِ شدّةِ الغضبِ عليه، والحُزنِ، والغيظِ، وقُدرةٍ على المُحاسبةِ، وتلهُّفٍ لها، وصبرٍ وتريّثٍ فيها، وما كان للّفظِ واحدٌ دونَ رسيلتِها من أن تُؤدّي هذا المعنى، فضلًا عن دلالةِ صِيغتيهما اللّتينِ وُضِّحَتا في الشّرحِ البلاغيِّ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أوب)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 208.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.

(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أسف)، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/371.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/75.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 267.

العَجلةُ والسُّرعةُ:

ذكرَ الواحديُّ: أنَّ معنى العَجَلَةِ التَّقدُّمُ بالشَّيءِ قبلَ وقتِه؛ ولِذلكَ صارَت مَذمُومَةً، والسُّرعةُ غير مَذمومةٍ؛ لأنَّ معناها عملُ الشَّيءِ في أوّلِ أوقاتِه[1]. فالعَجلةُ: السَّبقُ إلى تحصيلِ الشّيءِ قبلَ وقتِه[2]. وكذلك كان أمرُ القومِ بفعلِ ما بدا لَهُم مِنِ اتّخاذِ العِجل قبلَ أن يَعوا حقيقةَ الإيمانِ والتّوحيدِ، أو ينتظروا عودةَ نبيِّهِم مِن مِيقاتِهِ، وقد غادرَهُم لأخذِ الألواحِ الّتي فيها هُداهُم ونَفعُهُم.

العَجلةُ التَّقدُّمُ بالشَّيءِ قبلَ وقتِهِ، والسُّرعةُ عملُ الشَّيءِ في أوّلِ أوقاتِهِ

(1) الواحديّ، البسيط: 9/368، وابن عادل، اللّباب: 9/323.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف: 151]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين غضْبةِ موسَى، وبراءةِ ساحةِ هارونَ مِنَ التّقْصيرِ

لَمّا اعتذَرَ إليهِ أخوهُ استَغفرَ لِنفسِهِ ولَهُ على ما أغلظَ عليهِ مِن قولٍ وفعلٍ؛ فقولُهُ أثرٌ مِن آثارِ الاستعطافِ في قلبِ مُوسى عليه السلام[1]؛ لأنّهُ تبيّنَ لِمُوسى ما هو اللّائقُ بِمَنصبِ أخيهِ الشَّريفِ مِن أنّهُ لم يُقَصِّرْ في دُعائِهِ إلى اللّهِ، ولم يتوانَ في نهيِهِم عنِ الضّلالِ، ورأى أنّ مَا ظَهَرَ مِنَ الغضبِ مُرهِبٌ لِقومِهِ، وَازِعٌ لهم عمّا ارتكَبُوا، دُعاءٌ لهُ ولنفسِهِ مع الاعترافِ بالعَجزِ، وأنّهُ لا يَسَعُ أحدًا إلّا العَفوُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾: الدَّالُ والخَاءُ واللَّامُ أَصلٌ مُطَّرِدٌ مُنقَاسٌ، وَهُوَ الوُلُوجُ[3]. والدّخولُ: نَقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ في المكانِ، والزّمانِ، والأعمالِ[4]. وهو: وُلوجُ الشّيءِ، أو تغلغلُهُ في أثناءِ شيءٍ، وداخلُ كلِّ شيءٍ: باطنُهُ. وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الدّخولِ المذكورِ عدا ما في [النّساء: 23][5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قبولُ اعتذارِ هارونَ عليه السلام، والجأْرُ إلى الله بطلَبِ المغفرة

قالَ مُوسى عليه السلام - لمّا تبيّنَ لهُ عذرُ أخيهِ، وعَلِمَ أنّهُ لم يُفرِّطْ في الواجبِ الّذي كانَ عليهِ مِن أمرِ اللّهِ في ارتكابِ مَا فعلَهُ الجَهلةُ مِن عَبَدَةِ العِجلِ -: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾، مُستغفرًا من فعلِهِ بأخيهِ، ولأخيه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/180.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/115.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل).
(4) الرّاغب، المفردات: (دخل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دخل).

مِن سالفٍ سلفَ له بينَهُ وبينَ اللّهِ، وطَلَبَ أن يَدخُلا في رحمتِهِ الواسعةِ بوصفِهِ أرحمَ بعبادِهِ مِن كلِّ مَن رَحِمَ شيئًا[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى وُجوبِ الاستغفارِ على العبدِ في عمومِ الأحوالِ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الخطابُ جوابٌ عن كلامِ هارونَ

﴿قَالَ﴾ استِئنافٌ مَبنِيٌّ على سؤالٍ نشأَ مِن حكايةِ الاعتذارِ، كأنّهُ قِيلَ: فماذا قالَ مُوسى ﷺ عندَ اعتذارِ أخيه؟ فقيلَ: قالَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ ما فعلتُ بأخي قبلَ جَليَّةِ الحالِ - فحسناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المُقرَّبينَ - ﴿وَلِأَخِي﴾ إن كانَ اتّصَفَ بما يُعَدُّ ذَنبًا[3]. فجملةُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ جوابٌ عن كلامِ هَارونَ عليه السلام، فلِذلِكَ فُصِلَت[4]. وقولُهُ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ أمرٌ يُرادُ به الدّعاءُ[5].

سِرُّ تقديمِ مَغفرتِهِ على مَغفرةِ أخيهِ:

التّأدُّبُ مع اللهِ سبحانَهُ، خُلُقُ الأنبياءِ قاطِبةً

ابتدأَ مُوسى دعاءَهُ فَطَلَبَ المَغفِرةَ لِنفسِهِ تأدُّبًا مَعَ اللّهِ فيما ظَهَرَ عَلَيهِ مِنَ الغَضَبِ، ثمّ طَلَبَ المَغفرةَ لأخيهِ فِيما عَسى أن يَكونَ قد ظَهَرَ منهُ مِن تَفريطٍ أو تَساهُلٍ في رَدعِ عَبَدَةِ العِجلِ عَن ذَلِكَ[6]، أو لِيُرضيَ أخاه، ويُظهِرَ للشّامِتينَ رِضاهُ عنهُ؛ لِئلّا تَتِمَّ شَماتَتُهم بِهارونَ[7].

سِرُّ تقديمِ (المَغفرةِ) على (الرَّحمَةِ):

تأخيرُ الرَّحمَةِ لِلمُطابقةِ، يُفيدُ الدّعاءَ بها مرّتَيْنِ

قَدَّمَ المَغفرةَ على الرَّحمَةِ، مع أنَّ الرَّحمَةَ سَببٌ في المَغفرةِ؛ لأنَّ تقديمَ الرَّحمَةِ باللُّزومِ وتأخيرَها بالمُطابَقةِ؛ فيفيدُ الدّعاء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/133.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/68.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.
(5) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/427.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/69.

بها مرّتين[1]. فلمّا دعا بمَحوِ التّقصيرِ أتبعَهُ طلبُ الإكرام، فقالَ: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾؛ أي: أنا وأخي، وكلُّ مَنِ انتظَمَ مَعَنا: ﴿فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾؛ لِتكونَ غامِرةً لنا مُحِيطَةً بنا[2].

دَلالةُ ذكْرِ هارونَ عليه السلام بلفْظِ الأُخوّةِ:

في لفْظِ الأُخوّةِ زيادةُ الاسْتِعطافِ والاسْتِرحامِ

ضمَّ مُوسى أخاه هارونَ عليهما السلام إلى نفسِهِ في الاستغفارِ؛ تَرضيةً له ودَفعًا للشّماتةِ عنهُ بإظهارِ رِضاه[3]. وذِكرُ وصفِ الإخوةِ هُناكَ زيادةٌ في الاستِعطافِ عَسى اللّهُ أن يُكرِمَ رسولَهُ بِالمَغفرةِ لأخيهِ، كقولِ نُوحٍ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: 45][4].

جَمالُ التَّعْبيرِ بفعْلِ الإدخالِ ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾:

الثّناءُ دالٌّ على مَزيدِ الثِّقةِ في الرَّجاءِ

وقولُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾؛ أي: جميعًا في رحمتِكَ الّتي وسعَت كلَّ شيءٍ بمزيدِ الإنعامِ علينا بجعلِها شاملةً لنا، واجعلْنا مَغمُورينَ فيها، وهو أبلغُ مِن أن يَقولَ: (وارحمْنا وأنت أرحمُ الرَّاحِمين)، إذ دعاؤُهُ هذا ثناءٌ؛ يدُلُّ على مَزيدِ الثّقةِ في الرّجاءِ، والدّعاءُ في جملتِهِ أقوى في استعتابِ هَارونَ مِنَ الاعتذارِ لهُ، وأدلُّ على تخييبِ أملِ الأعداءِ في شيءٍ ممّا يثيرُ حفيظتَهُم بالشّماتةِ[5].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الآيةِ الكريمةِ:

في الدّخولِ شُمولٌ للرَّحمَةِ لهما في جميعِ الأحوالِ

وقولُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾ دالٌّ على أنَّ الإدخالَ في الرَّحمَةِ استعارةٌ لشمولِ الرَّحمَةِ لهما في سائرِ أحوالِهما، بِحيثُ يَكونانِ مِن رحمةِ اللّهِ، كالمُستَقرِّ في بَيتٍ أو نَحوِهِ ممَّا يَحوِي، فالإدخالُ استعارةٌ أصليّةٌ، وحَرفُ ﴿فِي﴾ استِعارةٌ تَبَعِيَّةٌ، أَوقَعَ حَرفُهُ الظّرفيّةَ مَوقِعَ باءِ المُلابسةِ[6].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/258.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/115.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35 - 36، والآلوسي، روح المعاني: 9/69.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/69، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/180.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.

تنويعُ الأساليبِ، من كمالِ نظْمِ القرآنِ وبراعَتِه

بَلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ:

مِن براعةِ النّظمِ في قولِه: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ، حيث وافقَت لفظةُ ﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ - وهي آخرُ كلمةٍ في الكلامِ - آخرَ لفظٍ في صدرِهِ؛ وهي لفظةُ ﴿رَحۡمَتِكَۖ﴾[1].

تقريرُ مَضْمونِ طلَبِ الإدخالِ في الرَّحمَةِ

التَّعبيرُ بجُملةِ الاعْتراضِ التّذييليِّ في السِّياقِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، جملةُ اعتراضٍ تذييليٍّ مُقرِّرٍ لِمَضمونِ ما قبلَهُ مِن طَلَبِ الإدخالِ في رحمتِهِ جلَّ في عُلاهُ، والمعنى: فلا غَروَ في انتظامِنا في سِلكِ رحمتِكَ الواسِعَةِ في الدّنيا والآخرةِ[2]. والواو لِلحالِ أو اعتِراضيّةٌ، ومعنى ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الأشدُّ رَحمةً مِن كلِّ رَاحمٍ[3].

(1) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/428.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/69.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُناسبةُ بين استِغفار موسَى له ولأخيه، وغضَبِ الله على عَبَدةِ العِجْلِ

ولمّا صحَّت براءةُ خليفةِ مُوسى، وأُشيرَ إلى أنّهُ مع ذلك فقيرٌ إلى المَغفرَة؛ التفَتت النَّفسُ إلى حالِ المُفسدِينَ، فقالَ مُخبرًا عن ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾[1]. وهذا القولُ إلى قولِه: ﴿ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ من تَمَام كَلام مُوسَى، فَبَعدَ أن دَعَا لِأَخيه بالمَغفرَةِ أخبَرَ أَنَّ اللَّهَ غَضِبَ على الَّذِينَ عَبَدُوا العِجلَ، وأَنَّهُ سَيُظهرُ أثرَ غَضَبِه عليهم، وسَتَنالُهم ذِلَّةٌ في الدُّنيا، وذَلِك بوَحيٍ تَلَقَّاهُ[2]، وفي ذلك إجابةٌ عن أسئلةٍ قد تُطرَحُ مفادُها: إلى ماذا يصيرُ أمرُ القوم وتوبتُهم واستغفارُ نبيِّ اللهِ تعالى؟ وهل قَبِلَ اللّهُ تعالى توبتَهُم[3]؟

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾: النُّونُ والوَاوُ واللَّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على إعطَاءٍ. ونَوَّلتُه: أَعطَيتُه. والنَّوَالُ: العَطَاءُ[4]. ومن هذا الأصلِ جاءَ النَّيْلُ بمعنى الإصابةِ، فالنَّيْلُ: ما يَنالُهُ الإنسانُ بيدِه[5]. ونالَ الشّيءَ: إذا أصابَهُ[6]؛ أي: حازَهُ وأخذَ منهُ. وسائرُ ما في القرآنِ من التّركيبِ فهو بمعنى حوزِ شيءٍ؛ أي: إصابتُه، وتحصيلُهُ خيرًا أو شرًّا[7]. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ الإصابةُ في الشّرِّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118 - 119.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/69.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نول).
(5) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (نيل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نول - نيل).

2) ﴿وَذِلَّةٌ﴾: الذَّالُ وَاللَّامُ في التَّضعِيفِ والمُطَابَقَةِ أَصلٌ وَاحِدٌ يدُلُّ عَلَى الخُضُوعِ، والاستِكَانَةِ، وَاللِّينِ. فالذُّلّ: ضِدُّ العِزِّ[1]. وهو مَصدرُ الذَّلُولِ؛ أي: المُنقادُ مِنَ الدّوابِّ[2]. ومِن أسماءِ اللّهِ تعالى (المُذِلّ)، وهو الّذي يُلحِقُ الذُّلَّ بمَن يشاءُ مِن عبادِهِ، وينفي عنهُ أنواعَ العزِّ جميعها[3]. وقد يأتي الذُّلّ بضدِّ الصُّعوبة: بمعنى الرِّفقِ، والرَّحمَةِ، وخفضِ الجناحِ، ولينِ الجانبِ. فإنْ كانَ عن عجزٍ، ووقوعٍ تحتَ قَهرٍ لا فَكاك منه، فهو ذَهابُ الشُّموخِ، وهو ضَعفٌ، وذُلٌّ انخفاضٍ، وعجزٌ عنِ التَّماسُكِ. وضدُّهُ العِزُّ. وسائرُ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ فهو بهذا المعنى الأخير[4]. فالذِّلَّةُ: خُضُوعٌ فِي النَّفسِ وَاستِكَانَةٌ مِن جَرَّاءِ العَجزِ عَنِ الدَّفعِ[5].

3) ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: الحَاءُ واليَاءُ والحَرفُ المُعتَلُّ أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا خِلَافُ المَوتِ، وهو الحَياةُ والحَيَوانُ[6]، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الحياةِ ضدّ الموتِ عدا التّحيّة والحَياء[7]. وقد تَقدَّمَ تفسيرُ اللّفظةِ.

4) ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: الدَّالُ والنُّونُ والحَرفُ المُعتَلُّ أَصلٌ وَاحِدٌ يُقَاسُ بَعضُهُ عَلَى بَعضٍ، وهُوَ القُربُ[8]. والدُّنيا فُعْلَى مَنَ الدُّنوِّ، وهي اسمٌ لهذهِ الحَياةِ لبُعدِ الآخرةِ عنها؛ أي: دَنَتْ وتأخَّرَتِ الآخِرةُ. والسَّماءُ الدُّنيا؛ لقُربِها من ساكني الأرضِ[9]. والدُّنوُّ: القُربُ بالذّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ، والزَّمانِ، والمَنزِلَةِ[10]. وكلمةُ (الدُّنيا) مِن أشيعِ مُفرداتِ القرآنِ، وكلُّ ما فيه مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الدُّنوِّ: القُرْبِ، لكن هناك صُوَر خاصَّة له[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذلَّ).
(2) الخليل، العين: (ذلَّ).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (ذلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذلل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حَيَّ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنى).
(9) الخليل، العين: (دنأ، دنو)، وابن الأثير، النّهاية: (دنا).
(10) الرّاغب، المفردات: (دنا).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دنو).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّوعُّدُ بالغضَبِ والذِّلَّةِ في الدّنيا، وهو جزاءُ كلِّ مُفترٍ على الله

يُخبِرُ اللّهُ تعالى مُبيِّنًا حالَ أهلِ العِجلِ الّذين عَبدُوهُ: أنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجلَ سَيَنالُهُم غَضَبٌ، وهو ما أمَرَهُم من قَتلِ أنفُسِهم، أو الطّاعون الّذي سُلِّطَ عليهم، وَذِلَّةٌ في الحَياةِ الدُّنيا؛ وهي ضَربُ الجِزيةِ والهَوانِ إلى يوم القيامة، وكَذلِكَ نَجزي المُفتَرينَ على اللّه، ولا فرية أعظمُ مِن فريتِهم، فَقالُوا: هذا إِلهُكم وَإِلهُ مُوسى، ولعلَّه لم يفترِ أحدٌ مثلها قبلَهُم؛ حيث جَعَلُوا البَقَرَ إلهَهُم وإلهَ رسولِهم، نسألُ اللّه الحِفظَ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنّه لا ينبغي لِمَن يُذنب، ثمّ لا يُؤاخَذُ في الحَالِ أن يَغترَّ بالإمهالِ[2]. وما مِن مُبتَدِعٍ إلّا وتجِدُ فوقَ رأسِه ذِلَّةً[3]، ويُؤخَذُ مِن هذهِ الآيةِ الكريمةِ أيضًا أنَّ الكَذّابَ يُرمَى بِالمَذَلَّةِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ التّوكيدِ في مُفتتَحِ الآيةِ:

تَرسيخُ حتميّةِ العذابِ لانْحرافِ القومِ عنِ الصّوابِ

افتُتِحَت الآيةُ الكريمةُ بـ﴿إِنَّ﴾ المُؤكِّدةِ المُرسِّخة لدلالةِ حتميّةِ تحقُّقِ ما سينالُهُم مِن عذابٍ، وعزَّزَ ذلك تَكرارُ الفعلِ بصيغةِ الافتعالِ الدّالّةِ - بحسب ما مرَّ آنفًا - على التَّصنُّعِ على خلافِ الحَقِّ، أو طبيعةِ الأمرِ السَّويِّ، والإصرار على الفعلِ مِن خلالِ سعةِ المُشارَكةِ في إنجازِه.

دَلالةُ الاسْتِئنافِ البيانيِّ في الآيةِ:

خطابٌ مِنَ اللهِ تعالى، لبيانِ ما استحقَّهُ القومُ مِنَ الجزاءِ الوِفاقِ

في هذهِ الآيةِ وجهان؛ أحدُهُما: أنّها كلامٌ مُستأنَفٌ لبيانِ ما استحقَّهُ القومُ مِنَ الجزاءِ على اتّخاذِ العِجلِ، قَفَّى بهِ على ما كانَ مِن شأنِ مُوسى مع هارونَ عليهما السلام في أمرِهِم؛ لأنَّ مَن سَمِعَ ذاك أو

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/263.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/292.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.

قَرَأَهُ؛ تستشرفُ نفسُهُ لمعرفةِ هذا، فهو إذًا[1] خِطَابٌ مِنَ اللّهِ لِمُوسَى إخبارًا عمَّا يَنالُ عُبّادَ العِجلِ، وجَوَابًا عَن دُعَائِهِ لأَخيهِ بالمَغفِرَةِ بتَقديرِ فِعلِ قَولٍ مَحذُوفٍ؛ أَي: قُلنَا: إنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجلَ إلى آخِرِهِ، مِثلُ مَا حَكَى اللّهُ تعالى عَن إبرَاهِيمَ ﵇ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا﴾ [البقرة: 126][2]. والآخر: هُو مِن تَمَامِ كَلامِ مُوسَى، فَبَعدَ أَن دَعَا لأَخيهِ بالمَغفِرَةِ أَخبَرَ أَنَّ اللّهَ غَضِبَ على الَّذِينَ عَبَدُوا العِجلَ، وأَنَّهُ سَيُظهِرُ أَثَرَ غضبِهِ عليهم، وسَتَنَالُهُم ذِلَّةٌ في الدُّنيَا، وذَلِكَ بِوَحيٍ تَلَقَّاهُ، وانتَهَى كَلَامُ مُوسَى عِندَ قَولِه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾. والأوّلُ أظهرُ، ودليلُهُ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾؛ ليجريَ الكلامُ على نَسَقٍ وَاحِدٍ مع الكلامِ قبلَهُ[3].

دَلالةُ الاعتراضِ في الآيةِ:

خطابٌ لرسُولِنا ﷺ؛ لإنـذارِ مُـجـاوِريـهِ مِـن يهودِ المدينةِ

وهو الوجهُ الثّاني: بأنَّه كلامٌ مُعترِضٌ في القصّةِ، خاطبَ اللّهُ به خاتمَ رُسلِهِ؛ لإنذارِ المُجاورينَ لهُ مِن يهودِ المدينةِ ما سيكونُ مِن سوءِ عاقبتِهِم في افترائِهِم على اللّهِ وعداوتِهِم لرسولِهِ، وإنكارِهِم ما في كتبِهِم مِنَ البِشارةِ به، ووصفِهِم باتّخاذِ العِجلِ لِشبهِهِم بهِم وكونِهِم خَلفًا لَهُم في افتراءِ كلٍّ منهما على اللّهِ في عهدِ ظهورِ حُجّتِهِ على لسانِ رسولِهِ، كما عيَّرَهُم في آياتٍ أُخرى بِقَتلِ النّبيّينَ بغيرِ الحَقِّ وغيرِ ذلك مِن جرائمِ سَلفِهِم، فالمُرادُ سينالُ أولادُ الّذين عَبَدُوا العِجلَ، وهُم الّذين كانوا على عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ فإنَّ العَربَ تُعيِّرُ الأبناءَ بقبائحِ أفعالِ الآباءِ كما تَفعَلُ ذلك في المَناقِبِ، يَقولُونَ للأبناءِ: فَعَلتُم كذا وكذا، وإنَّما فَعَلَ ذلك

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/182.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118 - 119.

أسلافَهُم، أو سَيَنالُ أولادُ الّذين باشرُوا فِعلَ الاتّخاذِ، ثمّ حَذَفَ المُضافَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ[1].

بَراعةُ التَّعريفِ بالمَوصوليّةِ بلفْظِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

وتَعريفُهُم بِطَريقِ المَوصُوليَّة بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأَنَّها أَخصَرُ طَريقٍ في استِحضَارِهِم بِصِفَةٍ عُرِفُوا بِها، ولأَنَّهُ يُؤذِنُ بِسَبَبِيَّةِ ما نَالَهُم مِنَ العِقَابِ[2].

أوْجـزُ طُـرقِ اسْتِحضارِ صِفةِ المُتّخذين العِجْلَ الذّهبيَّ

سِرُّ حذْفِ المفعولِ الثّاني مِنَ الفعْلِ (اتّخذَ):

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ المعنى: اتَّخذُوا العِجلَ إلهًا[3]، حُذِفَ المفعولُ الثّاني لِعلمِ السّامعِ[4]؛ لأَنَّ الاتِّخاذَ دليلٌ عليهِ[5]، أو حُذِفَ اختِصارًا[6].

الإيـجـازُ بالحذْفِ؛ لعلْمِ السّامعِ به من فصيحِ البيانِ

عِلّةُ التَّعْبيرِ بسينِ الاسْتقبالِ ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾:

السّينُ في ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ حرفُ تسويفٍ يفيدُ توكيدَ حدوثِ الفعلِ في المُستقبَلِ، و﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾ في مُستقبَلِ أحوالِهم جزاءُ أعمالِهم، ومَن لا يضرُّهُ عصيانُ العاصِينَ؛ لا يبالي بتأخيرِ العقوبةِ عنِ الحالِ، وفرقٌ بينَ الإمهالِ والإهمالِ، والحَقُّ سُبحانَهُ يُمهِلُ، ولكنّهُ لا يُهمِلُ[7].

توكيدُ حُدوثِ الفعلِ في المُستقبَلِ على سبيلِ الوعيدِ

دَلالةُ السّينِ لِتغليبِ المُجاوِرينَ للنّبيِّ ﷺ من يهودِ المدينةِ:

ودلالةُ السّينِ في قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾ لِتغليبِ مُعاصِري النُّبوَّةِ ومَن بعدَهُم على أجدادِهِم المَاضين كما مرَّ ذكرُهُ[8]، أو المرادُ:

توعّدُ اليهودِ بسُوءِ المصيرِ، مُستمِرٌّ بتجدُّدِ ظُلْمِهِم وافْتِرائِهِم

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/12، وابن عادل، اللّباب: 9/328، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/183.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/379.

(4) النّحّاس، معاني القرآن: 3/84.

(5) ابن سيده، المحكم: (تخذ).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119، والمستغانميّ، تصريف القول، ص: 49.

(7) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573، وقباوة، المفصّل، ص: 604.

(8) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/12، وقباوة، المفصّل، ص: 604.

سينالُهُم غضبٌ في الآخرةِ وذِلَّةٌ في الحياةِ الدّنيا، فعذابُ الآخرةِ مُقدَّرٌ في الكلامِ، دلَّ عليه ذكرُ الدّنيا، على ما عَلِمَ مِنِ اطّرادِهِ بنصوصٍ أخرى[1].

سِرُّ النّعْتِ المَحذوفِ، والتّنوينِ في لفْظِ ﴿غَضَبٌ﴾:

تأكيدُ الغضبِ بيقينِ كونِهِ وَاقِعًا فِي الآخِرَةِ

قولُهُ: ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: مَالِكِهِم، مُتَعَلِّقٌ بمَحذوفٍ تقديرُهُ (كائنٌ) هو نعتٌ لغَضبٍ مُؤكِّدٌ لِمَا أفادَهُ التّنوينُ مِنَ الفَخامَةِ الذّاتيَّةِ بالفَخامَةِ الإضافيَّةِ؛ أي: كائنٌ مِن ربِّهِم[2]، فعذابُ الآخرةِ مُقدَّرٌ في الكلامِ دلَّ عليه - فضلًا عنِ المَحذوفِ - ذكرُ الدّنيا، على ما عُلِمَ مِنِ اطِّرادِهِ بنصوصٍ أُخرى[3].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في: ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾:

النَّيلُ إصابةٌ وتلبُّسٌ، لا مفرَّ منه، ولا مَناصَ عنه

قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ "النَّولُ وَالنَّيلُ: الأَخذُ وهُوَ هُنا استِعارَةٌ للإِصَابَةِ والتَّلَبُّسِ، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ [الأعراف: 37] في هذِهِ السُّورَةِ"[4].

نُكتَةُ تَنكِيرِ (الغَضبِ) و(الذِّلَّةِ):

إعمالُ المعنَى، وتعدُّدُ احتِمالاتِ دَلالةِ الغضبِ والذِّلَّةِ

في قوله تعالى: ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٌ﴾ المُرَادُ بالغَضَبِ ظُهُورُ أَثَرِهِ مِنَ الخِذلَانِ ومَنعِ العِنَايَةِ، وأَمَّا نَفسُ الغَضَبِ؛ فهو حَاصِلٌ في الحَالِ. وَغَضَبُ اللهِ تعالى إِرَادَتُهُ السُّوءَ بِعَبدِهِ وعِقَابُهُ في الدُّنيَا والآخِرَةِ أَو في إِحدَاهُمَا[5]، أو هو ما أمرَهُم بِهِ مِن قتلِ أنفسِهِم. والذِّلَّةُ في الحياةِ الدّنيا هي خروجُهُم مِن ديارِهِم؛ لأنّ ذلَّ الغُربةِ مَثلٌ مَضروبٌ، ليعيشوا ذِلَّةَ الاغترَابِ والمَسكنةِ؛ إذ حَرَمَهُمُ اللهُ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/183.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/275.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/183.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

مُلكَ الأَرضِ المُقَدَّسَةِ، فَكانُوا بِلا وَطَنٍ طَوالَ حَياتِهم حتَّى انقَرَضَ ذَلِكَ الجيلُ كُلُّهُ، وقِيل: الجزية، أو ما يَشعرُونَ بهِ مِن هَوانِهم على النّاسِ وظَنِّهم عندَ لقاءِ كلِّ أحدٍ أنّهُ يَتذكَّرُ برؤيتِهم ما كانَ مِنهُم، فيحتقرهم، أو يَكُون بتَسليطِ العَدُوِّ عَليهم، أو بِسَلبِ الشّجَاعَةِ من نُفُوسِهم، بِحَيثُ يَكُونُونَ خَائِفِينَ العَدُوَّ، ولَو لَم يُسَلَّطْ عَلَيهم، أو أنَّ هذه الذِّلّةَ خاصّةٌ بالسّامريِّ، وهي ما حَكَمَ به مُوسى عليهِ مِنَ الانفرادِ عنِ النّاسِ، مِنَ القَطيعةِ عنهُم واجتنابِهم بقولِ مُوسى عليه السلام له: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه: 97]، أي: لا أَمسُّ أحدًا، ولا يمسُّني أحدٌ[1].

سِرُّ التّقديمِ والتّأخيرِ:

في التّقديم مَوطِنُ عِنايةٍ بما قُدّمَ في السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ مَواضِعُ للتّقديمِ والتّأخيرِ؛ أوّلُها: تأخيرُ الفاعلِ (الغضب) على مفعولِه (هم) في قولِه: ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾؛ وذلك لأنّهم مناطُ العناية بوصفِهم المُعذَّبينَ، والعَربُ إنّما يُقدِّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أَعْنى، وإن كانا جميعًا يُهمَّانهم، ويعنيانهم، كما يقولُ سيبويه[2].

نُكتةُ قَصْرِ (الغضبِ) على الله دونَ (الذِّلَّة):

تقديمُ الغضبِ على الذِّلّةِ، لِعظمِه وحُصولِه في الآخرةِ

ثمّ قدَّمَ الغضبَ على الذِّلّةِ لكونِه غضبًا عظيمًا لا يُقادَرُ قَدرُهُ، مُستَتبِعٌ لِفُنُونِ العُقُوباتِ، لِما أنَّ جَريمتَهُم أعظَمُ الجَرائمِ وأقبَحُ الجَرائِرِ[3]، ولأنَّ المُرادَ أنّهُم سَينالُهُم غضبٌ في الآخرةِ، وذِلّةٌ في الحياةِ الدّنيا؛ قَصَرَ تعالى الغضبَ عليهِ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، ولم يقيّدِ الذِّلَّةَ بهذا القيدِ؛ لِكونِ الشّأنِ في الآخرةِ مُقتَصِرًا عليهِ، لا يشارِكُهُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/36، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/182 - 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/34.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/275.

فيهِ أحدٌ إلّا مَن يأذن تعالى له، أمَّا في الدّنيا؛ فإنّ الإذلالَ قد يكونُ مِنَ اللّهِ، وقد يَصدرُ مِنَ البشرِ، وإن كان بعلمِ اللّهِ، ودرايتِهِ، وإرادتِهِ.

سِرُّ الجمْعِ بينَ لفْظَي: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ و﴿ٱلدُّنْيَاۚ﴾:

تـصـويـرُ مصيرِ مُتّخذِي العِجْلِ في هـذه الدّنيا الغَرُورِ

فرَّقَ القرآنُ الكريمُ بينَ كلمةِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ عندما تردُ وحدَها، وبينَ كلمةِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾، فـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ عندما تَردُ وحدَها تقابلُ في السّياقِ القرآنيِّ كلمةَ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾، وتَردُ مِنَ الحديثِ عنِ الدّنيا فقط، ولا يَتعرّضُ لعملِ الإنسانِ وصفاتِهِ وآثارِهِ ونتائجِهِ، وهذا يدُلُّ على أنّ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ بهذا الاستعمالِ هي عَلَمٌ على هذه الحياةِ الّتي نحياها قبلَ المَوتِ. أمّا تعبيرُ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ فيَردُ عندما يريدُ اللّهُ ﷻ أن يصوِّرَ استغراقَ الإنسانِ في هذهِ الحياةِ، وعدمَ اهتمامِهِ بما بعدَها، واغترارَهُ بأهوائِها وشهواتِها؛ ظنًّا منهُ بأنَّها هي الحياةُ المُطلَقةُ، ولا حياةَ حقّةً فُضلَى بعدَها، ويدُلُّ على ذلك وصفُها بكونِها مَتاعَ الغرورِ، وأنَّ الّذي يغترُّ بها هالكٌ[1]، ولا فعلَ أشنعُ مِنِ اتّخاذِ إلهٍ غيرِ اللّهِ مَعبُودًا يُصوِّرُ استغراقَ القومِ في هذهِ الحياةِ، واغترارَهُم بمَلَذاتِها.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بفعْلِ الافْتِراءِ:

الافـتـراءُ افـتـعـالٌ لِمَـا لا يَـصِـحُّ أن يكونَ

الافتراءُ هو اختلاقُ ما لا حقيقةَ لهُ[2]، وافتعالُ واختلاقُ ما لا يَصِحُّ أن يكونَ[3]. بذا فالافتراءُ يُناسبُ سياقَ الآيةِ؛ لأنَّ المُرَادَ بِالِافتِرَاءِ الاختِلَاقُ في أُصُولِ الدِّين بِوَضعِ عَقَائِدَ لَا تَستَنِدُ إلى دَليلٍ صَحيحٍ من دَلَالَةِ العَقلِ أَو من دَلَالَةِ الوَحيِ، فإنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ حَذَّرَهُم من عِبادَةِ الأَصنَامِ - في الآياتِ الثَّلَاثِ المُتَقَدِّمَةِ آنِفًا [الأعراف: 138 - 140] - فَجَعَلَ اللّهُ جَزَاءَهُم على الافتِرَاءِ الغَضَبَ والذِّلَّةَ[4].

(1) أبو عودة، التّطور الدّلاليّ بين لغة الشّعر الجاهليّ ولغة القرآن، ص: 349 - 350.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154 - 710.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.

بَلاغةُ الاعتراضِ والتّذييلِ في الآيةِ:

في الاعتراض إخبارٌ عن كيفيّةِ مُجازاةِ المُفتري

فالجُملَةُ خِطَابٌ مِن جَانِبِ اللهِ في القرآنِ، فهي اعتِرَاضٌ، والوَاوُ اعترَاضِيَّةٌ ذَيَّلَ اللهُ بِهذا الاعتِرَاضِ حِكايَةَ كَلامِ مُوسَى، فَأَخبَرَ بِأَنَّهُ يُجَازِي كُلَّ مُفتَرٍ بِمِثلِ ما أَخبَرَ بِهِ مُوسَى عَن مُفتَرِي قَومِهِ[1].

سِرُّ تأخيرِ المُشَارِ إِلَيهِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

التّأخيرُ استِعمالٌ بَليغٌ في مَقامِ التّشويقِ

والقَولُ في اسمِ الإِشارَةِ: إِنَّ المُشارَ إِلَيهِ مأخُوذٌ مِن كَلامٍ مُتَأَخِّرٍ عَنِ اسمِ الإِشارَةِ، وتأخِيرُ المُشَارِ إِلَيهِ عَنِ الإِشارَةِ استِعمالٌ بَلِيغٌ في مَقامِ التَّشوِيقِ، أو مِن كَلامٍ مُتَقَدِّمٍ عَنِ اسمِ الإِشارَةِ؛ أَي: وَمِثلَ ذَلِكَ الجَزَاءِ العَظِيمِ نَجزِي المُفتَرِينَ[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾:

تَكرارُ الجزاءِ، وشُمولُ عُمومِ المُفترينَ

فالمعنى: أنَّ كلَّ مُفتَرٍ في دينِ اللهِ فَجَزاؤُهُ غَضَبُ اللهِ والذِّلَّةُ في الدّنيا[3]، فـ﴿ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ مُفتَرٍ[4] إلى يوم الدِّين، فهو جَزاءٌ مُتكرِّرٌ كلّما تكرّرَت جريمةُ الافتراءِ على اللهِ، ويُرسِّخُ هذا المعنى صيغةُ المُضارِعِ ﴿نَجۡزِي﴾ الدّالِّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117 - 120.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/13.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/396.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ [الأعراف: 153]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعـلاقـةُ بين عقابِ مُتَّخِذِي العجْلِ، وفَتْحِ بابِ القَبولِ مِنَ الغفورِ الرّحيمِ

الآيةُ الكريمةُ جَرَتْ على عادَةِ القُرآنِ من تَعقِيبِ التَّهدِيدِ بالتَّرغيبِ، والمَغفِرَةُ تَرجِعُ إلى عَدَمِ مُؤاخَذَتِهم بِذُنُوبِهم في عِقابِ الآخِرَةِ، وإِلى ارتِفاعِ غَضَبِ اللّهِ عَنهُم في المُستَقبَلِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَغَفُورٞ﴾: أَصلُ الغَفْرِ: السَّترُ والتّغطيةُ، وَغَفَرَ اللّهُ ذنوبَهُ؛ أَي: سَتَرَها، وَلم يَفضَحْهُ بهَا على رُؤُوسِ المَلأ. وكلُّ شَيءٍ سترتَهُ بقصدِ الحمايةِ وما إليها فقد غفرتَهُ[2]. والغَفرُ: إلباسُ ما يَصونُهُ عنِ الدّنَسِ، والغُفرَانُ والمَغفرةُ مِنَ اللّهِ هو أن يَصُونَ العَبدَ مِن أن يمسَّهُ العَذابُ[3]. والغفورُ، والغفّار: مِن صِفَاتِهِ جلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدّسَت أسماؤُهُ[4]. وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِن مَغفرةِ الذّنوبِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وَعْدُ اللهِ للتّائبِ مِنَ السَّيِّئاتِ أنْ يَغفرَ له ما فَرّطَ من عَثَراتٍ

هذا خبرٌ مِنَ اللّهِ تعالى بأنّهُ قابلٌ مِن كلِّ تائبٍ إليهِ مِن ذنبٍ أتاهُ، صغيرةً كانت معصيتُهُ أو كبيرةً، كفرًا كانت أو غيرَ كُفرٍ، كما قَبِلَ مِن عَبَدَةِ العِجلِ توبتَهُم بعدَ كُفرِهِم بِهِ بعبادتِهِم العِجلَ وارتدادِهم عن دينِهم. فمَن عملَ سيّئةً، ثمّ رجعَ إلى طلبِ رِضَا اللّهِ بإنابتِهِ إلى ما يُحِبُّ ممّا يكرهُ، وإلى ما يَرضَى ممّا يَسخطُ، من بعدِ سيِّءِ أعمالِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن سيده، المحكم: (غفر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).

وصدَّقَ بأنَّ اللّه قابلٌ توبةَ المُذنبينَ، وتائبٌ على المُنيبينَ، بإخلاصِ قلبِه، ويقينٍ منهُ بذلك، لغفور لهم، ساتر عليهم أعمالَهُم السَّيّئةَ، وغير فاضِحِهم بها، رحيم بهِم، وبكلِّ مَن كانَ مثلَهم مِنَ التّائبينَ(1).

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ العبدَ ينبغي ألَّا يقنطَ مِن ذنبٍ ارتكبَهُ، ولا ييأسَ مِن خطيئةٍ اقترفَها، فرحمةُ اللّهِ لا يَسعُها حدٌّ، ولا يُحيطُ بها مَدٌّ، فإنَّ الذّنوبَ وإنْ جلَّت وعَظُمَت؛ فإنَّ عفوَهُ وكرمَهُ أعظمُ وأجلُّ، ولكن لا بُدَّ مِن حِفظِ الشّريطةِ، وهي وجوبُ التَّوبةِ والإنابةِ(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ التَّعبيرِ بجُملةِ الاعتراضِ:

تكتملُ الفائدةُ بتعقيبِ التّهديدِ بالتّرغيبِ

المُرادُ بالسَّيِّئَاتِ: مَا يَشمَلُ الكُفرَ، وهوَ أَعظَمُ السَّيِّئَاتِ. والتَّوبَةُ منهُ هِيَ الإيمَانُ. وقَولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ﴾ اعتِرَاضٌ بأَنَّهُم إن تَابُوا وآمَنُوا يَغفِرِ اللّهُ لَهُم، على عادَةِ القُرآنِ مِن تَعقِيبِ التَّهدِيدِ بالتَّرغيبِ، والمَغفِرَةُ تَرجِعُ إلى عَدَمِ مُؤاخَذَتِهِم بذُنُوبِهِم في عِقَابِ الآخِرَةِ، وإلى ارتِفاعِ غَضَبِ اللّهِ عَنهُم في المُستَقبَلِ(3). وتكون الجُملَةُ إلى نهايتِها تَكمِلَةً لِلفائِدَةِ بِبَيانِ حَالَةِ أَضدادِ المُتَحَدَّثِ عَنهُم وعَن أَمثَالِهِم(4).

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّعبيرِ بعبارةِ (والّذين أساؤوا):

التَّـعـبـيرُ بـالأخـصِّ، يَستلزمُ الأعمَّ

وعُدِلَ بالتَّعبيرِ بـ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عن أن يُقالَ مثلًا: (والّذين أساؤوا)، كما قالَ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فُصّلت: 46، الجاثية: 15]، أو كأن يقول: (مَن عَمِلَ صالحًا فلنفسِهِ ومَن عَمِلَ سيّئًا فعَلَيها)؛ لأنّ التّقبيحَ تارةً يرجِعُ إلى المَفعولِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/136 - 137.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/184.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

كما تقولُ: تأكلُ مالَ اليتيم ظُلمًا، وتارةً يَرجعُ إلى الفعلِ، كما تقولُ: كيف تأكلُ بشمالِكَ؟ وتقبيحُ المَفعولِ يَستلزمُ تقبيحَ الفعلِ، ولا يَنعَكِسُ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلت: 6] تعيينُ الأعمِّ، فيتناول الأخصَّ من بابٍ أحرَى؛ لأنّه إذا كانَ عليها مُطلَقُ إساءةٍ؛ فأحرى ما فوقَها، وهنا عبَّرَ بالأخصِّ، فيستلزمُ الأعمَّ؛ لأنّه إذا كان غفورًا رحيمًا لِمَن ماتَ بعدَ اتّصافِهِ بأخصِّ القبيحِ؛ فأحرى أن يَغفرَ لِمَن تابَ بعدَ اتّصافِهِ بما دونَهُ في القبيحِ[1].

دَلالةُ ﴿مِنۢ﴾ ونُكتَةُ الحذْفِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

الحذفُ لظُهورِ المَعنى شائعٌ في كلامِ العربِ

وفَائِدَةُ ذِكرِ ﴿مِنۢ﴾ للإشارَةِ إلى أنّ الاتِّخاذَ ابتدَأ من أَوَّلِ أزمانِ التّوبةِ. وفي قَولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ في المَوضِعَينِ حَذفُ مُضافٍ قَبلَ مَا أُضيفَت إلَيهِ (بَعدُ) - وَقَد شَاعَ حَذفُهُ - دَلَّ علَيهِ ﴿عَمِلُواْ﴾؛ أَي: مِن بَعدِ عَمَلِهَا؛ أي: (عمل التّوبةِ). وحذفُ المُضافِ، وتَقديرُهُ مَعَ (بَعدِ) المُضافِ إلى اسمِ المُتَحَدَّثِ عَنهُ شائِعٌ في كَلامِ العَرَبِ لِظُهُورِهِ بِحَسَبِ المَقامِ[2].

جَمالُ التَّعبيرِ بحرفِ العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

امـتـدادُ زمـنِ قَبولِ التّوبةِ

وَحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ هَنَا مُفيدٌ للتَّرَاخِي، وذَلِكَ إلجاءٌ إلى قَبُولِ التَّوبَةِ، ولو بَعدَ زَمانٍ طَويلٍ مَملوءٍ بِفِعلِ السَّيِّئَاتِ[3].

سِرُّ التّوكيدِ اللَّفظيِّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

تـعـريـضٌ لـلـمُـشـركـين بـالـغـفران، إنْ بادرُوا بالإيمانِ

وقَولُهُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ تَأكِيدٌ لِمَفادِ المُهلَةِ الَّتي أَفَادَها حَرفُ ﴿ثُمَّ﴾، وهذا تَعرِيضٌ لِلمُشرِكِينَ، بِأَنَّهُم إنْ آمَنُوا يُغْفَرْ لَهُم، ولَو طَالَ أَمَدُ الشِّركِ علَيهِم[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/258.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/499 - 500 و9/120.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

تحقيقَ الأمرِ، ورَفْعَ المَجازِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

فائدةُ التَّعْبيرِ وصفُهم بأخصِّ المَغفرة

وحقَّق بقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ الأمرَ، ونَفَى المَجازَ، ورفعَهُ؛ لأنّه يحتملُ أن يكونَ تابوا بعدَما عملُوا، أو سَعَوا وهَمُّوا بفعلِها[1]. وأفادَ التَّعبيرُ اتّصافَهُم بأخصِّ المَغفرةِ، كقولِكَ: فلانٌ يَتَنَفَّلُ إذا عَسعَسَ اللّيلُ، فإنّه أخصُّ مِن قولِك: فلانٌ يَتَنَفَّلُ[2].

تَوجِيهُ عَوْدِ الضّميرِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

في عَوْدِ الضَّميرِ مُبَالَغَةٌ في الامتِنَانِ بِقَبُولِ تَوبَتِهِم

يحتملُ أن يكونَ الضّميرُ عائدًا على التّوبة؛ أي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ مِن بعدِ توبتِهم، فيعودُ على المَصدرِ المَفهومِ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾، وهو أولَى مِن عودتِه على ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للاحتياجِ إلى حَذفِ مُضافٍ وحَذفِ مَعطوفٍ؛ إذ يَصيرُ التّقديرُ: مِن بعدِ عَمَلِ السّيّئاتِ والتَّوبةِ منها، وخبرُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وما بعدَهُ، والرّابطُ مَحذوفٌ؛ أي: لَغفورٌ رَحيمٌ لَهُم[3]. وضَميرُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ الثَّاني مُبَالَغَةٌ في الامتِنَانِ بِقَبُولِ تَوبَتِهِم بَعدَ التَّمَلِّي مِنَ السَّيِّئَاتِ[4].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالماضِي والجمْعِ:

تحقُّقُ وقوعِ الفعْلِ بالمُضيّ، والدّلالةُ على واسعِ قُدْرةِ الله بالجمْع

ولأنّ فعلي التّوبة والإيمان لازِمُهُمَا العزمُ، والثَّباتُ عليهما، عبَّرَ عنهما بصيغةِ الماضي للدَّلالةِ على وقوعِهما، وحتميَّةِ تحقُّقِهما. وجَمَعَ في فِعلي التّوبة والإيمان؛ إعلامًا بأنّه لا يَتعاظَمُهُ ذَنبٌ، وإن عَظُمَ وكَثُرَ، وإن طالَ زمانُهُ، ولِذلكَ عَطَفَ بأداةِ البُعدِ، فقالَ: ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾[5].

براعةُ عطْفِ (الإيمانِ) على (التّوبةِ):

الإيمانُ أَصلُ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ، والتّوبةُ مُنجِيَةٌ لِمَن تمسّكَ بها

وعُطِفَ الإيمانُ على التَّوبةِ، مَعَ أَنَّ التَّوبَةَ تَشمَلُهُ مِن حَيثُ إنَّ الإيمانَ تَوبَةٌ مِنَ الكُفرِ، للاهتِمَامِ بِهِ؛ لأَنَّهُ أَصلُ الاعتِدَادِ بالأَعمَالِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/258، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/259.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/396.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.

الصَّالِحَةِ عِندَ اللّهِ تعالى كَقَولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى قَولِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: 12- 17]، ولِئَلَّا يُظَنَّ أَنَّ الإِشرَاكَ لِخُطُورَتِهِ لَا تُنجي مِنهُ التَّوبَةُ[1]. ورَتَّبَ الإيمانَ بعدَ التّوبة؛ لإرادةِ معنى: أنَّهُم آمنوا أنَّ التّوبةَ نافعةٌ لَهُم مُنجِيَةٌ، فتمَسَّكوا بها، فهذا إيمانٌ خاصٌّ بعدَ الإيمانِ على الإطلاقِ، ويُحتمَلُ أن يُريدَ بقولِهِ: ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: وعَمِلُوا عَمَلَ المُؤمنينَ حتّى وافَوا على ذَلِكَ، ويُحتمَلُ أن يُريدَ التّأكيدَ، فَذَكَرَ التّوبةَ والإيمانَ إذ هُما مُتلازِمَانِ، إلّا أنَّ التّوبةَ على هذا تَكُونُ من كُفرٍ، ولابُدَّ فَيَجِيءُ (تابُوا وآمَنُوا) بمعنًى واحدٍ، وهذا لا يَترَتَّبُ في تَوبَةِ المَعاصِي، فإنَّ الإيمانَ مُتقدِّمٌ لِتلكَ، ولابُدَّ، وهو وتَوبةُ الكفرِ مُتلَازِمانِ[2].

كمالُ التَّعريفِ بالإضافةِ، والوصْفِ بالرُّبوبيّةِ:

تــوسُّــلٌ إلى تشريفِ المُضافِ إليه

والخِطَابُ في قَولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لمُحمّدٍ ﷺ على الوَجهِ الأَظهَرِ، أَو لمُوسَى عليه السلام على جَعلِ قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ مَقُولًا مِنَ اللّهِ لمُوسَى عليه السلام. وفي تَعرِيفِ المُسنَدِ إِلَيهِ بالإِضَافَةِ تَوَسُّلٌ إلى تَشريفِ المُضَافِ إِلَيهِ بأَنَّهُ مَربُوبٌ للّهِ تعالى، وفي ذِكرِ وَصفِ الرُّبُوبِيَّةِ هُنَا تَمهِيدٌ لِوَصفِ الرَّحمَةِ[3]؛ بما يتضمَّنُهُ اللّفظُ من معنى التّربية، والرّعايةِ، والإحسانِ.

بَلاغةُ التّوكيدِ بحشْدِ المُؤَكِّداتِ:

زيـادةُ الاهتمامِ والـتّرغـيـبِ للعُصاةِ بالتّوبةِ

وتَأكِيدُ الخَبَرِ بـ﴿إِنَّ﴾ ولَامِ التَّوكِيدِ وصِيغَتَي المُبالَغَةِ في ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لِمَزِيدِ الاهتِمَامِ بِهِ تَرغِيبٌ لِلعُصَاةِ في التَّوبَةِ، وطَردًا لِلقُنُوطِ من نُفُوسِهِم، وإِنْ عَظُمَت ذُنُوبُهُم، فَلا يَحسَبُوا تَحدِيدَ التَّوبَةِ بِحَدٍّ إِذَا تَجَاوَزَتهُ الذُّنُوبُ بِالكَثرَةِ أَوِ العِظَمِ لَم تُقبَلْ مِنهُ تَوبَةٌ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/458.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

صفاتُ الله دَالّةٌ على كمالِ قَيّوميّتِه ورحْمتِه في مَلكُوتِه

دَلالةُ التَّعْبير بصِيغتَي المبُالَغةِ (فَعُولٌ)، و(فَعِيلٌ):

وأَردفَ التّوبة والإيمان تعظيم رحمتِه؛ ليعلمَ أنَّ الذُّنوبَ وإنْ جلَّت وعَظُمَت فإنّ عفوَهُ، وكرمَهُ، ورحمتَهُ أعظمُ وأجلُّ، ولكن لا بدَّ من حفظِ الشّريطةِ: وهي وُجوبُ التّوبةِ، والإنابةِ[1]. وعَزَّزَ هذا المعنى التَّعبيرَ باللّفظِ (غَفُور) على وزنِ (فَعولٌ) الدَّالِّ على مَنْ كانَ قويًّا على الفعلِ، قادرًا، دائبًا عليه؛ أي: مُداومًا على امحاءِ ذُنوبِ التّائبينَ عينًا وأثرًا، وإن عَظُمَتْ وكثُرَتْ. و(رحيم) على وزنِ (فَعيل) الدَّالِّ على ثبوتِ الوصفِ في صاحبِه طبيعةً وسجيّةً؛ أي: فاعِلٌ بِهِم فِعلَ الرَّحيمِ مِنَ البرِّ والإكرامِ واللُّطفِ والإنعامِ[2].

ظهورُ المعنَى في السِّياقِ الحكيمِ

حذْفُ مُتعلِّقِ الجارِّ والمجرورِ:

وحَذفُ مُتَعَلِّقِ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِظُهُورِهِ مِنَ السِّياقِ، والتَّقدِيرُ: لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُم، أو لِكُلِّ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً، وتَابَ مِنهَا[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/162.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ [الأعراف: 154]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين توبة الله وغُفرانِه، وصنيع مُوسَى بعدَ أنْ هدأَ غضبُه

الآيةُ الكريمةُ شروعٌ في بيانِ بقيّةِ الحكايةِ إثرَ ما بيَّنَ من تحزُّبِ القَومِ إلى مُصِرٍّ وتائبٍ، والإشارةُ إلى مآلِ كُلٍّ مِنهُما إجمالًا[1]، بإهلاكِ المُصرِّ وتوبةِ الباقي، وظُهورِ براءةِ أخيه، وبقائِه على رتبتِه مِنَ الأمرِ بالمَعروف، والنّهي عنِ المُنكَرِ، والاجتهادِ في أمرِ اللّه، زال مُوجِبُ الغضبِ، فأخبرَ سبحانَهُ عمّا يَعقُبُهُ، فقالَ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكَتَ﴾: السِّينُ والكافُ والتَّاءُ أصلٌ يدُلُّ على خِلَافِ الكَلامِ والنُّطقِ[3]. وسَكَتَ عنه الغضب سُكُوتًا، وسَكَنَ بمعناه؛ إذا رأيته صَمتَ، لا ينطِقُ، ولا يتكلَّمُ[4]. فالسُّكوتُ مُختَصٌّ بتركِ الكَلامِ[5]، إلّا أنّهُ استُعمِلَ في هذه الآيةِ مَجازًا بِمَعْنَى السّكونِ وذهابِ فَوْرةِ الغضبِ[6].

2) ﴿نُسۡخَتِهَا﴾: النُّونُ والسِّينُ وَالخَاءُ أَصلٌ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّهُ مُختَلَفٌ في قِيَاسِهِ، ومنه: أَنْ تُحَوَّلَ مَا في الـخَلِيَّـةِ مِنَ العَسَلِ وَالنَّحلِ في أُخرَى. ومِنهُ نَسخُ الكِتَابِ[7]؛ أي: نقلُ صُورتِهِ المُجرَّدةِ إلى كتابٍ آخرَ، واكتتابك كتابًا عن كتابٍ حرفًا بحرفٍ. وذلك لا يقتضي إزالةَ الصّورةِ الأولى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/117.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (سكت).
(4) الخليل، العين: (سكت).
(5) الرّاغب، المفردات: (سكت).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سكت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسخ).

بل يقتضي إثباتَ مثلها في مادَّةٍ أخرى، كاتِّخاذ نقشِ الخَاتمِ في شُمُوعٍ كثيرةٍ[1]. وَمَعْنَى الآيةِ: وفِيما كُتِبَ لَهُ فِيها هُدًى ورَحمَةٌ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُكونُ فَورةِ غضبِ مُوسَى، وأَخْذُ الألواحِ

يخبرُ اللّهُ أنَّه لمّا سَكَنَ غضبُ مُوسى باعتذارِ أخيه، ولجوئِه إلى دعاءِ ربِّه بالرّحمة والمَغفرة، عادَ إلى الألواحِ الّتي ألقاها فَأَخذَها، وفيما نُسِخَ وكُتِبَ منها هدًى وإرشادٌ مِنَ الخالقِ سبحانَهُ للّذين يَخافُونَ ربَّهُم، ويَخشَونَ عقابَهُ بالفعلِ، أو بالاستِعدادِ، أو يَخافونَ ربَّهُم مِنَ الشِّركِ والمَعاصِي[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ الإنسانَ أو المُؤمِنَ لابدَّ مِن أنْ يَستحضِرَ رهبتَهُ لربِّه وخوفَهُ منه سبحانَهُ؛ ليكونَ المنهجُ هدًى ورحمةً لهُ، ويكونَ مِنَ الّذين يَرهبونَ ربَّهُم[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

عــطْــفٌ عـلى الرّجوعِ، وأخذٌ لـلألـواحِ بعدَ إلقائِها من قبلُ

هَذِهِ الجُملَةُ عَطفٌ عَلَى جُملَةِ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾[4]. ونَظمُها مِثلُ نَظم قَولِه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف: 149]، وقولِه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾؛ أَي: ثُمَّ سَكَتَ عَن مُوسَى الغَضَبُ، ولَمَّا سَكَتَ عَنهُ؛ أَخَذَ الأَلْواحَ[5].

وَجهُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿سَكَتَ﴾ على طريقِ التّضْمينِ:

إعـطـاءُ معانٍ مُـتـعـدّدةٍ، خيرٌ من إعطاءِ معنًى واحدٍ

تضمَّنَ الفِعلُ الماضي ﴿سَكَتَ﴾ مَعْنَى: انفكَّ أو كفَّ أو انصرفَ؛ لكونِ جميعها تتعدَّى بـ﴿عَن﴾[6]، فيرادُ جِماعُ المعاني، فاستعمالُ

---

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسخ).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/185.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4372.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.
(6) الإندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/482.

الفعلِ ﴿سَكَتَ﴾ في هذا المَوضِعِ فيه قَصدٌ إلى معنًى مُعيَّنٍ لا يَتأتَّى مِن دونِ ذكرِه، إلّا أنَّ تعديتَهُ بغيرِ الحرفِ المُستعمَلِ معهُ عادةً فيه ضربٌ مِنَ التَّوسُّعِ في المعنى مع غايةِ الإيجازِ، ومُؤدَّاهُ أنَّ لِلفعلِ دلالةَ أصلِ مَعناه، وباستِعمالِ حرفِ الجرِّ الّذي يَتطلَّبُ فِعلًا آخرَ يُصبحُ لِلمُعادلةِ وَجهان مُتكامِلَان؛ إذ يؤدّي الفعلُ أصلَ مَعناهُ بالتّصريحِ بهِ، ويَقتَضي حرف الجرِّ مَعْنَى الفعلِ الّذي يطلبُهُ بالتّضمينِ، فيكونُ المَعْنَى: انفكَّ، أو كفَّ، أو انصرَفَ ساكِتًا.

كمالُ الاسْتِعاراتِ وتنوُّعُها في لفْظةِ (السّكوتِ):

اجـتـمـاعُ اسْـتِـعـارَتـين تصريحيّةٍ مُقارَنةٍ بالتّخييليّةِ من فصيحِ البيانِ

وَالسُّكُوتُ مُستَعَارٌ لِذَهَابِ الغَضَبِ عَنهُ، وهذه مِن جليّاتِ الاستعارةِ؛ لأنّ الغضبَ لا يُوصَفُ بالسُّكوتِ، وإنّما المعنى لمّا فَتَرَ عن مُوسى الغضبُ، وخَبَتْ جمرتُهُ، وإنّما قِيلَ: سَكَتَ؛ لأنّ الغضبانَ أبدًا يَكثُرُ خصامُهُ، ويعلو كلامُهُ، وإذا سَكَنَ غضبُهُ؛ زالَ عنهُ كلُّ ذاك[1]؛ أي: شُبِّهَ ثَوَرَانُ الغَضَبِ في نَفسِ مُوسَى المُنشِئُ خَوَاطِرَ العُقُوبَةِ لأَخِيهِ ولِقَومِهِ، وإلقَاءُ الأَلوَاحِ حَتَّى انكَسَرَت، بِكَلَامِ شَخصٍ يُغرِيهِ بِذَلِكَ، وَحَسَّنَ هَذَا التَّشبِيهَ أَنَّ الغَضبَانَ يَجِيشُ في نَفسِهِ حَدِيثٌ لِلنَّفسِ يَدفَعُهُ إِلى أَفعَالٍ يُطفِئُ بها ثَوَرَانَ غَضَبِهِ، فَإِذَا سَكَنَ غَضَبُهُ، وَهَدَأَتْ نَفسُهُ، كَانَ ذَلِكَ بِمَنزِلَةِ سُكُوتِ المُغرِي، فَلِذَلِكَ أُطلِقَ عَلَيهِ السُّكُوتُ، وهذا يَستَلزِمُ تَشبِيهَ الغَضَبِ بِالنَّاطِقِ المُغرِي عَلَى طَرِيقَةِ المَكنِيَّةِ، فَاجتَمَعَ استِعَارَتَانِ: مَكنيّةٌ مُقارنة بالتّخييليّةِ[2]، فكأنّ الغضبَ كانَ يُقَوِّيهِ على ما فَعَلَ، ويُغريهِ، ويَقولُ لهُ: قُلْ: لِقومِكَ كذا وكذا، وألقِ الألواحَ، وخُذْ برأسِ أخيكَ إليكَ، فلمَّا زالَ الغضبُ؛ قَطَعَ الإغراءَ، وتَرَكَ الكلامَ، فَسَكَتَ[3]. وقيلَ: الغضبُ استعارةٌ بالكنايةِ

---

(1) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 77، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/459.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/595، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/13.

عنِ الشَّخصِ النَّاطقِ، والسّكوتُ استِعارةٌ تصريحيَّةٌ لِسكونِ هيجانِه وغليانِه، فيكونُ في الكلامِ مَكنيَّةٌ، قَرينَتُها تَصريحيَّةٌ لا تَخييليَّةٌ، وأيًا مَا كانَ فَفي الكلامِ مُبالَغةٌ وبَلاغةٌ لا يَخفى عُلُوُّ شأنِهما[1]. أو هي استِعَارَةٌ تَمثيلِيَّةٌ مَكنِيَّةٌ؛ لأَنَّهُ لَم تُذكرِ الهَيئَةُ المُشَبَّهُ بِهَا، ورُمِزَ إليها بِذِكرِ شَيءٍ مِن رَوَادِفِهَا وَهُوَ السُّكُوتُ، وفي هذا ما يُؤَيِّدُ أنَّ إلقاءَ الألواحِ كانَ أثرًا لِلغَضَبِ[2].

أو أنّ السُّكُوتَ هنا استِعارةٌ تبعيَّةٌ

وقِيلَ: إنَّ فيه استعارةً تبعيّةً، حيث شبَّهَ سُكونَ الغضبِ وذهابَ حدَّتِهِ بسُكونِ الآمرِ النّاهي، والغضبُ قرينتُها[3].

أو أنّ السُّكُوتَ استِعارةٌ على مَعنَى القَلْبِ

وقِيلَ: إنَّ في المعنى قَلبًا، والمُرادُ: (ولمّا سَكَتَ مُوسى عَنِ الغَضبِ) فهُوَ مِن بابِ أدخَلتُ فَمِي في الحَجَرِ، وأدخَلتُ القَلَنسُوَةَ في رَأسِي، وفي هذا أيضًا استِعارةٌ، إذِ الغَضبُ ليسَ يَتَكَلَّمُ فَيُوصَفُ بالسُّكُوتِ[4]، فهو مِن نمطِ قلبِ الحَقيقةِ إلى المَجازِ؛ اتّكالًا على أنَّ فِطنةَ السّامعِ ستردُّ كلَّ شيءٍ إلى أصلِه، كما في خَرَقَ الثَّوبَ المِسمارُ. ووُجوهُ الاستعارةِ الأولى أشرفُ وأفصحُ من هذا الوَجهِ؛ لِمَا فيها مِنَ المَعنى البليغِ، وهو أنَّ الغَضبَ كانَ مُتمَكِّنًا من مُوسى، حتّى كأنّهُ كانَ يَصرِفُهُ في أوامرِهِ. ومِثلُ هذهِ النُّكتَةِ الحَسناءِ، لا تُلفَى في (خَرَقَ الثّوبَ المِسمارُ)[5].

أو أنّ السُّكُوتَ فيها وجهُ كِنايةٍ

بوَصفِ كلمةِ ﴿سَكَتَ﴾ كنايةً عن أنّ الغضبَ زالَ وانتهى[6].

براعةُ الاسْتِعاراتِ على اختلافِ أنْواعِها:

إفصاحٌ عن مُبالَغةٍ يَعظُمُ شأنُ بلاغتِها

في سكونِ غضبِ مُوسى عليه السلام باعتذارِ هارونَ أو بتوبتِهم مُبالَغةٌ وبَلاغةٌ من حيثُ إنَّه جعلَ الغضبَ الحاملَ له على ما فَعَلَ، كالآمرِ به

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(3) زاده، حاشية محي الدّين شيخ زاده: 4/303، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/378.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/459.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/190، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4370.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4370.

والمُغري عليهِ حتّى عبَّرَ عن سُكونِهِ بالسُّكوتِ[1]؛ لأنَّ السُّكوتَ فيه دلالةُ القَطعِ والحَسمِ بوصفِهِ تركًا للكلامِ، وإنهاءً لهُ على خلافِ السُّكونِ والخمودِ اللّذين يَقتضيان دلالةَ التَّدرُّجِ في الاستقرارِ. ودَيدنُ أهلِ الحَقِّ، حين يتبيّنُ لَهُم وجهُهُ، وتُزالُ عنهُم شبهتُهُ، المُسارعةُ إليهِ، والقَطعُ بلزومِه.

تَوجِيهُ القِراءاتِ فِي لفْظَةِ ﴿سَكَتَ﴾:

تَطلَّبَت تهدِئةُ مُوسَى قوّةً خارجةً تُمكِّنُهُ مِن إخمادِ فَوْرتِهِ

قراءةُ جمهورِ القُرّاءِ ﴿سَكَتَ﴾ بصيغةِ الماضي الثّلاثيِّ، وهي القراءةُ المُتواترةُ، وقَرَأَ سعيدُ بنُ جبيرٍ ويَحْيَى بن يَعمَر وعاصمُ الجحدريُّ: (ولمّا سُكِّتَ) بالتّشديد، وقُرِئَ: (أُسكت)؛ أي: أسكَتَهُ اللّهُ، أو أخوهُ باعتذارِهِ إليه وتنصُّلِهِ؛ والمعنى: ولمّا طُفِئَ غَضَبُهُ أَخَذَ الأَلواحَ الّتي أَلقَاهَا[2]. فَلشدّةِ غضبِهِ، وحميّتِهِ على دينِ اللّهِ تطلَّبتِ التَّهدِئَةُ قوّةً خارجةً تُمكِّنُهُ من إخمادِ فَورتِهِ.

دَلالةُ (أل) التَّعريفِ فِي لفْظِ ﴿ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾:

الألواحُ هيَ الصُّحفُ الّتي ألقَاها موسَى عليه السلام، عندَ الغضَبِ

والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ لِلعَهدِ؛ أَي: الأَلوَاحَ الَّتِي أَلقَاهَا، وإنَّمَا أَخَذَهَا حِفظًا لَها للعَمَلِ بها؛ لأَنَّ انكسارَها لا يُضِيعُ ما فِيها مِنَ الكِتابَةِ[3].

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عن نُسخةِ ﴿ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ على طريقِ الإيجازِ:

إشارةٌ إلَى أنَّ اللّوحَينِ الأصلِيَّينِ، عُوِّضَا بِنُسخةٍ لَهُمَا

(النّسخةُ) فُعلَةٌ بمعنى مَفعُولٍ[4]. فالنُّسخَةُ بِمَعنَى المَنسُوخِ، والنَّسخُ هُوَ نَقلُ مِثلِ المَكتُوبِ في لَوحٍ أَو صَحِيفَةٍ أُخرَى؛ أي: أُخِذَ مِنَ الأصلِ إلى الصُّورةِ. وهَذَا يَقتَضِي أنَّ هَذِهِ الأَلوَاحَ أُخِذَتْ مِنهَا نُسخَةٌ؛ لأَنَّ النُّسخَةَ أُضِيفَت إلى ضَمِيرِ الأَلوَاحِ، وهَذَا مِنَ الإيجازِ، إذِ التَّقديرُ: أَخَذَ الأَلوَاحَ، فَجُعِلَتْ مِنهَا نُسخَةٌ، وفِي نُسختِهَا هُدًى

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/36.
(2) وهما قراءتان شاذّتان، وابن خالويه، المُختصر، ص: 46، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/379، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/163، وأبو حيّان، والبحر المحيط: 4/396.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/189.

وَرَحمَةٌ، والإضافةُ في ﴿نُسْخَتِهَا﴾ بيانيّةٌ، أو بمعنى (في). فَوَصفُ النُّسخَةِ بِأَنَّ فِيهَا هُدًى ورَحمَةً يَستَلزِمُ الأَصلَ المُنتَسَخَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ ما في النُّسخَةِ نَظِيرُ ما في الأَصلِ، وإنَّما ذُكِرَ لَفظُ النُّسخَةِ هُنا إشارَةً إلى أَنّ اللَّوحَينِ الأَصليَّينِ عُوِّضَا بِنُسخَةٍ لَهُمَا[1].

وفي معنى: ﴿نُسْخَتِهَا﴾ ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوّلُ: أي فِيما نُسِخَ مِنَ الألواحِ المُتَكَسِّرَةِ، ونُقِلَ إلى الألواحِ الجَدِيدَةِ هُدًى ورَحمَةٌ. الثّاني: وفِيما نُسِخَ لَهُ منها؛ أي: مِنَ اللَّوحِ المَحفُوظِ. الثّالث: وفِيما كُتِبَ لَهُ فِيها هُدًى ورَحمَةٌ، فَلا يَحتاجُ إلى أصلٍ يُنقَلُ عَنهُ، وهَذا كما يُقالُ: انسَخْ ما يَقُولُ فُلانٌ؛ أي: أَثبِتْهُ في كِتابِكَ، والنُّسخَةُ فُعلَةٌ، بِمَعنى مَفعُولَةٍ كالخُطبَةِ[2].

النّسْخُ بينَ الحَقيقةِ والمَجازِ:

اسـتِـعـارةٌ باعتبارِ الأصلِ، وحقيقةٌ بحسَبِ الاصْطلاحِ

أصلُ النَّسخِ النّقلُ والتَّحويلُ؛ فإذا كَتَبَ كتابٌ عن كتابٍ حرفًا بعدَ حرفٍ، قِيلَ: نُسِخَ ذلك الكتابُ بنقلِ ما في الأصلِ إلى الكتابِ الثّاني. فإطلاقُ النَّسخِ على الكتابةِ استعارةٌ باعتبارِ الأصلِ وحقيقةٌ بحسبِ الاصطلاحِ[3].

بَلاغةُ التّضْمينِ في فاصلةِ الآيةِ:

الفاصِلةُ تُضفي على المعنَى دلالةً، وعلى الإيقاعِ الصّوتيِّ هالةً

في قولِه: ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ ضَمَّنَ الرَّهبةَ مَعنَى الخُضُوعِ؛ ولِهذا عدّاها باللّامِ[4].

دَلالةُ اللّامَيْنِ في الآيةِ:

اللّامُ في ﴿لِّلَّذِينَ﴾ مُتعلِّقةٌ بِمَحذوفٍ هو صِفَةٌ لرحمةٍ؛ أي: كائنَةٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/158، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/293، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/285.

(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/512.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/478.

لَهُم، أو هي لامُ التّعليلِ؛ أي: هدًى ورحمةٌ لِأجلِهم[1]. واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ لَامُ التَّقوِيَةِ؛ أي: تقويةٌ لوصولِ الفعلِ إلى مَفعولِه المُتقدِّم، دَخَلَتْ على المَفعُولِ لِضَعفِ العَامِلِ[2]؛ وذلك لِتقدُّمِ المَفعولِ؛ لأنَّ تأخُّرَ الفعلِ عن مَفعولِه يكسِبُهُ ضَعفًا؛ يعني: أنّها دخلَت جابرةً للضّعفِ العَارضِ لِلفعلِ بسببِ تأخُّرِه عن مَفعولِه، ونحوه قوله: ﴿لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ۝٤٣﴾ [يوسف: 43]، وتقولُ: لكَ ضربتُ[3]. وبذا فهي زِيدَتْ للتّوكيد، كقولِه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: 72]، وقد يُزادُ حرفُ الجرِّ تَوكيدًا، وإنْ كانَ مُستغنًى عنهُ، يُقالُ: ألقى يدَهُ، وبيدِه[4]. وفيها أوجهٌ[5]؛ أحدُها: الفعلُ مَحمُولٌ على المَصدرِ؛ أي: لربِّهم رهبتُهُم. والثّاني: لَمّا تَقدَّمَ المفعولُ؛ ضَعُفَ عملُ الفعلِ، فعُدِّيَ باللّام. والثَّالث: أي: لأجلِ ربِّهم، والمفعولُ مَحذوفٌ[6]، فهي لامُ العلّةِ أو التّعليلِ، والتّقدير: يَرهبونَ مَعاصي اللّهِ لربِّهم لا للرِّياءِ والسُّمعَةِ[7].

لَامَا التّعليلِ والتَّقوِيَةِ زِيدتا للتّوكيدِ، ولكلٍّ منهما أثرٌ

سِرُّ تقديمِ (الهُدَى) على (الرَّحمَةِ):

هِدايةُ النّاسِ ابتداءً، ودخولُهم تحتَ أنوارِ آياتِه تعالى، وظلالِ شرائطِ هداياتِه، سببُ إنزالِ فيوضاتِ رحماتِه، ومدادِ بركاتِه، كما أنَّ الإنكارَ والجُحودَ سَببٌ في مَنعِ الرَّحمَةِ، فضلًا عن أنَّ الأصلَ في تبليغِ الأديانِ تقديمُ أحكامِها، وقوانينِها، وسُننِها، ونواميسِها؛ ليكونَ النّاسُ على بيّنةٍ، فيهتدُوا أو يضلُّوا.

الـهُـدَى بـيـانُ الـحَـقِّ في الاعـتـقـادِ، والرَّحمَةُ الإرشادُ إلى الخيرِ مِنَ الأعمالِ

الرَّحمَةُ مَجازٌ في الإرشادِ بطريقِ ذكرِ اسمِ المُسبِّبِ وإرادةِ السَّببِ؛ إذِ الإرشادُ سَبَبٌ لِنَجاةِ الخَلقِ عن ظُلماتِ الجهلِ والضّلالِ إلى نورِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/163، والآلوسي، روح البيان: 3/249.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/414.
(5) ضعّفَ أبو حيّان الوجهَ الأوّلَ؛ لأنّ فيه حذفَ المصدرِ وإبقاءَ معمولِه، وهو لا يجوزُ عندَ البصريّين إلاّ في الشّعر. وأيضًا فهذا التّقديرُ يُخرجُ الكلامَ عنِ الفصاحةِ. ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 4/396.
(6) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/424.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/36، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.

العلم والإيمانِ. وبذا يَحملُ الهُدَى على بيانِ الحَقِّ في الاعتقاداتِ، والرَّحمَة على الإرشادِ إلى الخيرِ مِنَ العملياتِ[1]. وبيانُ حقِّ الاعتقاداتِ مُقدَّمٌ على خيراتِ الأعمالِ؛ لكونِها دليلها، وسبيل سَلامةِ سُلوكِها.

نُكتَةُ تقديمِ المفعولِ في: ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾:

اختصاصُ الرّهْبةِ منهُ تعالى وحدَهُ؛ لأنّه لا ضارَّ ولا نافعَ إلّا هو

وتقديمُ المفعولِ في ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾، يحملُ مَعْنَى الاختصاصِ والقَصرِ مثلَما قالَ الحَقُّ في فاتحةِ الكتابِ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]؛ أي: خَصَصناكَ بالعبادةِ، وقَصَرناها عليكَ سُبحانَكَ، فلا تتعدَّى إلى غيرِكَ. فالتَّخصيصُ في الآيةِ يدُلُّ على أنَّ العبدَ لا يَرْهبُ أحدًا غيرَ اللّهِ، وأنَّ الرَّهبةَ خالِصةٌ للّهِ، وليسَت رياءً، ولا سُمعةً، ولا لقصدِ الثَّناءِ[2].

فائدةُ الضّميرِ ﴿هُمۡ﴾ في قولِه: ﴿هُمۡ لِرَبِّهِمۡ﴾:

وأفادَ الضَّميرُ ﴿هُمۡ﴾ دلالةَ قَصرِ الرَّهبةِ عليهِم في الآيةِ، فَضلًا عَن مَلمَحِ التَّوكيدِ الّذي خَرَجَ إليهِ، وأفَادَهُ.

عِلّةُ تخْصيصِ أهلِ الرّهْبةِ بالذّكرِ، والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ:

يُقصدُ بأهلِ الرّهْبةِ المُنْتَفعونَ بآياتِ الكتابِ

وإنّما خُصَّ أهلُ الرَّهبةِ بالذِّكرِ؛ لأنّهُم هُمُ المُنتَفِعونَ بآياتِ الكتابِ، فالعبدُ إذا رَغبَ إلى اللّهِ بصدقِ الطَّلبِ، وإلى الجَنّةِ بحُسنِ العملِ، ورَهَبَ مِن أليمِ عذابِ فرقتِهِ والانقطاعِ ومِن دخولِ النّارِ؛ فقد أخذَ بالخوفِ والرّجاءِ ووَصَلَ بهما إلى ما هوى، فالخشيةُ إنّما تنشأُ عنِ العلمِ بصفاتِ الحَقِّ سبحانَهُ، وعَلامَةُ خشيةِ اللّهِ تعالى تركُ الدُّنيا، والخَلقِ، ومُحاربةُ النَّفسِ والشَّيطانِ. قالوا: رهبوتٌ خيرٌ مِن رحموتٍ؛ أي: لأَن تُرهَبَ خيرٌ مِن أنْ تُرحَمَ؛ وذلك لأنَّ التّخليةَ قبلَ التّحليةِ[3]. وعبَّرَ عنهُم بصيغةِ المُضارعِ للدّلالةِ على تجدُّدِ فِعلِ الرَّهبةِ منهُم لِربِّهِم، واستمرارِهِم عليها.

---

(1) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/512.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4372.

(3) الآلوسي، روح البيان: 3/249.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين أخْذِ الألواح، واخْتِيارِ النّقباءِ، ثمّ الاختماءِ منَ الرّجْفةِ بالتّوبةِ

الآيةُ المُبارَكةُ تَتمَّةٌ لِشرحِ أحوالِ بني إسرائيلَ، وهي شُرُوعٌ في بيانِ كيفيَّةِ استدعاءِ التَّوبةِ، وكيفيّةِ وُقُوعِها[1]. فلمّا فَرَغَ سُبحانَهُ من ذكرِ الوَعدِ بالميقاتِ المَقصُودِ به سَعيُ الكَليمِ عليه السلام فيما يَهديهم إلى صراطِ اللّهِ، وذَكَرَ سَعيَهُم فيما أضَلَّهم عنِ الطّريقِ باتّخاذِهم العِجلَ، وكانَ خِتامُ ذلكَ مَا بَدَا من مُوسى عليه السلام مِنَ الشَّفقةِ على أخيه، ثمّ على الكافَّةِ بأخذِ الألواحِ عندَ الفراغِ ممّا يَجبُ مِنَ الغضبِ للّهِ، رَدَّ الكَلامَ على ذِكرِ شيءٍ فَعَلَهُ في الميقاتِ، مُرادٌ بهِ عِصمتهُم في صراطِ اللّهِ بنَقلِهم من علمِ اليَقينِ إلى عَينِ اليَقينِ، بل حَقِّ اليقينِ شَفَقَةً عَليهم وَرَحمَةً لَهُم؛ لِيكونَ إخبارُهُم عمَّا رَأوا مُؤَيِّدًا لِمَا يُخبِرُ به، فَيَكونُ ذَلكَ سَببًا لِحفظِهم من مِثلِ مَا وَقَعُوا فيهِ من عِبادَةِ العِجْلِ[2].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡتَارَ﴾: الخاءُ واليَاءُ والرَّاءُ، أَصلُهُ العَطفُ والمَيلُ، ثمَّ يُحمَلُ عَليه. فَالخَيرُ: خِلافُ الشَّرِّ؛ لأَنَّ كُلَّ واحدٍ يَميلُ إِليه، وَيَعطفُ على صَاحِبِه[3]. والخَيرُ: ما يَرغَبُ فيهِ الكلُّ، مِنَ الشّيءِ النّافعِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276، والآلوسي، روح المعاني: 9/71.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/120.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).

وضِدُّهُ: الشَّرُّ. والاختيارُ أخذُ ما يُرَى أنّه خيرٌ[1]؛ بوصفِهِ تَمييزًا للمَرغُوبِ مِن بَينِ ما هُوَ مَخلُوطٌ، مِن مَرغُوبٍ وضِدِّهِ[2]. وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: السِّينُ والفَاءُ والهَاءُ، أَصلٌ واحِدٌ، يدُلُّ عَلَى خِفَّةٍ، وحَرَكة، وسَخَافَة، ونَزَقٍ، واضطرابٍ، وخُسرانٍ، وجَهلٍ، وطَيشٍ، وعدمِ استقامةٍ. وهو قِيَاسٌ مُطَّرِدٌ. يُقَالُ: ثَوبٌ سَفِيهٌ؛ أَي: رَدِيءُ النَّسجِ. ويُقَالُ: تَسَفَّهَتِ الرِّيحُ؛ إِذَا مَالَتْ[3]. ومعنى السَّفيه: الخفيفُ العَقل. فالسَّفَهُ: نقيضُ الحِلم، وهو: أَن تَجهَلَ الحَقَّ، فلا تَرَاهُ حَقًّا، وسَفِهَ حلمُهُ، ورأيُهُ، ونفسُهُ؛ إذا حملَهَا على أمرٍ خَطَأً[4]، ويُستَعمَلُ في خِفَّةِ النّفسِ بسببِ نُقصَانِ العَقلِ، وفي الأمورِ الدُّنيويّةِ والأخرويّةِ[5]. وليسَ في القرآنِ مِنَ التّركيبِ إلَّا مَا هو بمعنى خفّةِ العقلِ أو ضعفِهِ[6]. وخفّةُ العقلِ وَصفٌ شَاملٌ لكلِّ ما وَرَدَ في أصلِ مَعْنَى اللّفظةِ.

3) ﴿فِتۡنَتُكَ﴾: الفَاءُ والتَّاءُ والنُّونُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على الابتلاءِ، والامتِحَانِ، والاختِبَارِ، وهو جِمَاعُ مَعْنَى الفتنَةِ في كَلامِ العَرَب. وأَصلهَا مأخُوذٌ مِن قَولِكَ: فَتَنْتُ الفضّةَ والذَّهَبَ إِذا أذبتَهُما بالنَّار؛ ليتميَّزَ الرَّدِيءُ مِنَ الجَيِّد، ولِتنظرَ مَا جودتُهُ[7]. واستُعمِلَ في إدخالِ الإنسانِ النَّارَ. فَأُطلِقَ تارةً على ما يحصُلُ عنهُ العَذابُ فَيُستَعملُ فيه، وتارةً في الاختبارِ، وجُعِلَتِ الفتنةُ كالبَلاءِ في أنّهما يُستَعمَلانِ فيما يُدفَعُ إليهِ الإنسانُ من شِدَّةٍ ورَخاءٍ، وهُما في الشِّدَّةِ أظهَرُ مَعنًى، وأكثَرُ استِعمالًا[8]. ومِن هُنا فمعنى ﴿فِتۡنَتُكَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: اختبارُكَ وابتلاؤُكَ[9].

المَعْنى الإجماليّ:

يُخبرُ اللّهُ في الآيةِ أَنَّ مُوسى عليه السلام اختارَ مِن خيارِ قومِهِ سَبعينَ رَجُلًا؛ لِيَذهَبَ بهم إلى مَوضِعِ عبادةٍ وابتهالٍ ودُعاءٍ، فيكون منهُ ومنهُم اعتِذارٌ إلى اللّهِ سبحانَهُ من خطأِ

(1) الرّاغب، المفردات: (خير).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سفه).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سفه).
(5) الرّاغب، المفردات: (سفه).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(8) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(9) الواحديّ، الوسيط: 2/415.

اعـتـذارُ مـوسَى والـنُّـقـبـاءِ إلى اللهِ تعالى، عمَّا فعلَهُ السّفهاءُ، وطـلـبُ أمـانِـه وغُفرانِه

بني إسرائيلَ في عبادةِ العِجلِ، وهناك أخذَتهُم الرّجفةُ؛ لأنَّهُم لم يُفارِقوا قومَهُم حينَها، ولم ينهوهُم عن هذا المُنكَرِ، أو لأنّهُم قالُوا: يا مُوسى، أَرِنَا اللّهَ جَهرَةً، فَتَجرؤوا على اللّهِ جراءَةً كبيرةً، وأساؤوا الأدبَ معَهُ، ولمّا رأى مُوسى عليه السلام ذلك دعا ربَّهُ استعطافًا أن يكونَ إهلاكُهُم قبلَ ذلك؛ لكي لا يُتَّهمَ في قتلِهِم، وألَّا يُهلِكَهُم بفعلِ الجهّالِ خفيفي العَقلِ. فما محنةُ عَبَدَةِ العِجلِ إلّا فتنةٌ منكَ تُضِلُّ بها مَن سَلَكُوا طريقَ الشّرِّ، وتَهدي مَن شاءَ هِدايتَهُ، أنت وليُّنا وناصرُنا، فاغفِرْ ذنوبَنا، وارحمْنا برحمتِكَ، وأنتَ خيرُ مَن صَفَحَ عَن جُرْمٍ، وسَتَرَ عَن ذَنبٍ[1].

مَوضِعُ العِبرَةِ في هذهِ القِصَّةِ هُوَ التَّوَقِّي مِن غَضَبِ اللّهِ، وخَوفُ بَطشِهِ، وبيانُ مَقَامِ الرُّسُلِ مِنَ الخَشيَةِ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ كلَّ سلوكٍ يُنافي الشّرعَ فهو مِنَ السَّفهِ المَذموم، وصاحبُهُ يُوصَفُ بأنّهُ سَفيهٌ، وأنَّ الهِدايةَ والإضلالَ كليهما بيدِ اللّهِ تعالى، فَعَلَى العبدِ أن يَطلبَ الهِدايةَ مِنَ اللّهِ تعالى، ويسألَهُ ألّا يُضلَّهُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

العُدولُ إلى الوصلِ في الآيةِ الكريمةِ:

عَـطْـفُ قِـصَّـةِ المَوعظةِ والعِبرةِ على مَثيلَتِها

عُطِفَتْ جُملَةُ: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ﴾، على جُملَةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: 148] عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ لأَنَّ هذه القِصَّةَ أيضًا من مَوَاقِعِ المَوعِظَةِ والعِبرَةِ بَينَ العِبَرِ المَأخُوذَةِ من قِصَّةِ مُوسَى مع بني إسرائيلَ، فإنَّ في هذه عِبرَةً بِعَظَمَةِ اللّهِ تعالى ورَحمَتِه، ودُعَاءُ مُوسَى بما فيهِ جُمَّاعُ الخَيرَاتِ، والبِشارةُ بِمُحَمّدٍ صلى الله عليه وسلم ومِلَاكُ شَرِيعَتِه[3].

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسّان: 3/81، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب مِنَ التّفسير، ص: 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.

بناءُ الافْتِعالِ للتَّمييزِ، وماضِيه يُفيدُ وقوعَه وتحقُّقَه

دَلالةُ فعْلِ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ في الآيةِ:

(اختارَ) هو زِنَةُ افتعَل، صيغةُ تَكلُّفٍ مِن لفظِ الخَيرِ؛ أي: اجتَهدَ في أخذِ الخيارِ. يُقالُ: اختارَ الشّيءَ؛ أي: أخذَ خيرَهُ، وخيارَهُ، وعليهِ يكونُ بناءُ الافتعالِ في مُفتَتَحِ الآيةِ الكريمةِ للتّمييزِ كانتخبَ، واصطَفى[1]. والتَّعبيرُ عنهُ بصيغةِ الماضي دلالةٌ على وقوعِهِ وتحقُّقِه.

إعطاءُ مَعنَى إخراجِ الشّيءِ مِنَ الشّيءِ، كأنَّهُ نَخلَ قومَهُ ومَيّزَهُم

بَلاغةُ التّضْمينِ في الفعْلِ: ﴿وَٱخۡتَارَ﴾:

الفعلُ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ أصلُهُ أن يَتعدَّى بحرفِ الجرِّ؛ لأنّهُ يتضمَّنُ إخراجَ شيءٍ مِن شيءٍ، وجاءَ مَحذوفًا في هذهِ الآيةِ الكريمةِ؛ لِتضمُّنِ الفعلِ مَعنى فعلٍ غيرِ مُتعدٍّ، كأنّهُ نَخَلَ قومَهُ، وميَّزَهُم، وسَبَرَهُم، فمِن هَهُنا أسقطَ حرفَ الجرِّ كما سَقَطَ مِن: "أمرتُكَ الخيرَ"؛ أي: ألزمتُكَ، وكلَّفتُكَ؛ لأنّ الأمرَ إلزامٌ وتكليفٌ. ومنه: تَمرونَ الدّيّارَ؛ أي: تَعدُونها، وتُجاوزونها. ومنه: رَحِبَتْكَ الدِّيارُ؛ أي: وَسِعَتكَ[2].

في تَعديةِ (اختارَ) بالحرفِ مَجازٌ بنقلِ حُكمِ القومِ الأصليِّ إلى حُكمٍ ليسَ لَها

دَلالةُ التّعْديةِ للفعلِ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ إلى مفعولَيْن:

يَتَعَدَّى الفعلُ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ إلى مَفعولَين؛ أوّلُهُما: ﴿سَبۡعِينَ﴾، وثانيهما: المجرورُ بـ"مِن"، المَحذوفةِ هنا في الآيةِ، وأَوصَلَ الفعلَ بالمَفعولِ الثّاني دونَ حرفِ الجرِّ؛ والأصلُ: "مِن قومِهِ"[3]، وهو مَجازٌ؛ حيث نُقِلَ حُكمُ كلمةِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ الّذي كانَ لها، وهو الجَرُّ، إلى حُكمٍ ليسَت هي بحقيقةٍ فيهِ. فالأصلُ: واختارَ مُوسى مِن قومِه، فالحُكمُ الّذي يَجِبُ لِقومِهِ في الأصلِ هوَ الجَرُّ، والنَّصبُ فيه مَجازٌ[4].

السَّبعونَ رَجُلًا، كانُوا بِمَنزِلَةِ القومِ أجْمعِهِم

سِرُّ حذْفِ حرفِ الجرِّ في السِّياقِ:

نُصِبَ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ على حَذفِ حَرفِ الجَرِّ، والتَّقديرُ: واختَارَ مِن

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/14، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/121، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/513، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/185، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291، والإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/429.

(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/513، والآلوسي، روح المعاني: 9/71.

(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/429.

قَومِه، وحَذفُ الجارِّ مِنَ المُتَعَلِّقِ الَّذي هو في رُتبَةِ المَفعُولِ الثَّاني شَائِعٌ في ثلاثةِ أفعالٍ؛ هي: اختَارَ، واستَغفَرَ، وأَمَرَ، ومنهُ: أَمَرتُكَ الخَيرَ. ويَجوزُ إعرابُ ﴿سَبۡعِينَ﴾ بدلًا من ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[1]. ويجوزُ أن يكونَ التّقديرُ: واختارَ مُوسى قومَهُ لِميقاتِنا، وأرادَ بـ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ السّبعينَ المُعتَبرِينَ مِنهُم؛ إطلاقًا لاسم الجِنسِ على ما هُو المَقصودُ منهُم، وقولُهُ: ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ عَطفُ بَيانٍ[2]؛ أي: إنَّ السَّبعينَ رَجلًا إنّما كانُوا مُمثِّلِينَ لِقومِ مُوسى ﷺ، فكانُوا بمَنزِلَةِ القومِ أجمعِهِم، ويَجوزُ على هذا أنْ يكونَ ﴿سَبۡعِينَ﴾ بدلَ اشتِمالٍ[3]، مع لحاظِ أنَّ وجهَ البدليّةِ ضعّفَهُ عددٌ مِنَ العلماءِ.

عِلَّةُ طرْحِ حرفِ الجرِّ جوازُ الإضافةِ مع بقاءِ المَعنى:

حذْفُ حرفِ الجرِّ فيه دليلٌ على مَزيدِ مُبالَغةٍ

يرى الأزهريُّ أنَّ (مِنْ) طُرِحَتْ؛ لأنَّهُ مَأخوذٌ مِن قَولِكَ: هَؤُلَاءِ خَيرُ القَومِ، وخَيرٌ مِنَ القَومِ. فلمَّا جازَتِ الإضَافَةُ مَكانَ (مِنْ)، ولم يتغَيَّرِ المعنَى، استجَازُوا أَن يَقُولُوا: اختَرتُكُم رَجُلًا، واختَرتُ مِنكُم رَجُلًا[4]. وذَكَرَ الزَّركشيُّ أنَّ حذفَ (مِن) إنّما يَحسُنُ إذا كانَ فيهِ زيادةُ مُبالَغةٍ. والمَحذوفاتُ في القرآنِ على هذا النَّمَطِ[5]، وكأنَّهُ باختيارِهِ السَّبعينَ رَجُلًا اختارَ قومَهُ كلَّهُم.

فائِدةُ تقديمِ المجرورِ، وتأخيرِ المَفعولِ:

دفْـعُ تَـوهُّـمِ كـونِ المَجـرورِ في مَـوضِـعِ النّـعتِ للسَّبعينَ

قَدَّمَ المجرورَ أصلًا ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ: ﴿سَبۡعِينَ﴾؛ لأنّ الاختيارَ في بابِ فعلِ الاختيارِ تقديمُ المجرورِ، وتأخيرُ المفعولِ المُجرَّدِ عن حرفِ الجرِّ، فتقول: (اخترتُ مِنَ الرِّجالِ زيدًا)، ويَجوزُ فيه التّأخيرُ، فإذا أسقطتَ الحرفَ لَم يحسنْ تأخيرُ ما كانَ مَجرورًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/15، وابن عادل، اللّباب: 9/332.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خور - خير).
(5) الزّركشّي، البرهان: 2/274.

بِهِ في الأصلِ، فيقبح أن تقولَ: (اخترتُ زيدًا الرِّجال)، و(اخترتُ سبعينَ الرِّجال)؛ أي: مِنَ الرِّجالِ؛ لِما يُوهِمُ مِن كونِ المَجرورِ في مَوضِعِ النَّعتِ لِلسّبعينَ، وأنّهُ ليسَ في مَوضِعِ المفعولِ الثّاني[1].

قُدِّمَ المَجرورُ المُعرَّفُ بالإضافةِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ أيضًا لِلاهتمامِ بهِ، بوصفِهِ المُخبر عنهُ، كما لَزِمَ في تقديمِ المجرورِ الّذي هو خبرٌ عنِ النّكرةِ من قولِكَ: في الدّارِ رَجلٌ؛ لِكونِ المَجرورِ مَعرفة، وكأنّه المُخبرُ عنهُ، فإذا حذفتَ حرفَ الجرِّ لم يكنْ بدٌّ مِنَ التّقديمِ للاسمِ الّذي كانَ مَجرُورًا، نحو: اخترتُ الرِّجالَ عشرةً؛ والحكمةُ في ذلكَ: أنَّ المَعْنَى الدَّاعي الّذي مِن أجلِهِ حُذِفَ حرفُ الجرِّ هو مَعنى غير لفظٍ، فلم يَقوَ على حذفِ حرفِ الجرِّ إلّا مع اتّصالِهِ بهِ وقُرْبِهِ منهُ[2].

ولأنّ القليلَ الّذي اختِيرَ مِنَ الكثيرِ إذا كانَ ممّا يُتَبَعَّضُ، ثمّ وَلِيَ الفعلَ الّذي هو اخترتُ، تُوهِّمَ أنّهُ مُختارٌ منهُ أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ما يُتَبَعّضُ يَجوزُ فيه أن يُختارَ وأن يُختارَ منهُ، فألزمُوهُ التّأخيرَ، وقدَّمُوا الاسمَ المُختارَ منهُ، وكانَ أولى بذلِكَ لِمَا سَبَقَ مِنَ القولِ، فإنْ كانَ ممّا لا يُتَبَعّضُ، نحو: زيد وعمرو، فربَّما جازَ على قلّةٍ في الكلامِ[3].

دَلالةُ الحذْفُ الّذي اقتَضَاهُ حَالُ الإيجازِ في الحِكايَةِ:

الاقْـتِـصـارُ على ما يُفيدُ ويُغني عـن غـيرِه، مـن مـقـاصـدِ الأُسـلـوبِ القرآنيِّ

بِنَاءُ نَظمِ الكَلامِ على ذِكرِ المَفعولِ الثّاني (القَوم) ابتِداءً دُونَ الاقتِصارِ على المَفعولِ الأوّلِ: ﴿سَبۡعِينَ﴾ اقتَضَاهُ حَالُ الإيجازِ في الحِكايَةِ، وهو من مَقاصِدِ القُرآنِ[4]؛ بتأخيرِ المَفعولِ الأوّلِ إيجازًا لطولِ ذيلِهِ؛ أي: ﴿رَجُلٗا﴾، فضلًا عَنِ الاعتناءِ بالمَفعولِ الثّاني المُقدَّمِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾، والاهتمامِ بهِ كما ذُكِرَ، والتّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[5].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291.
(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291 - 292.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/513.

الغايةُ مِنَ التَّعْبيرِ بلفْظِ (الِميقَاتِ)، والفَرقُ بينَهُ وبينَ (الوقتِ):

و﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وزنُهُ مِفعَال مَصدرٌ ميميٌّ، عُبِّرَ بِهِ عن اسم الذّاتِ للمُبالَغةِ[1]، ومعناهُ في الآيةِ: ما وقَّتَهُ لهُ مِنَ الوَقتِ وضَرَبَهُ لهُ[2]. وقد مَضَى الحديثُ في [الأعراف: 143] عن لفظِ المِيقَاتِ، والفرقُ بينَهُ وبينَ الوَقتِ مع كونِهما مِن جنسٍ واحدٍ، وخلاصتُهُ: أنَّ المِيقَاتَ ما قُدِّرَ لِعملٍ، والوَقتُ قد لا يَتقدَّرُ لِعملٍ[3]. فالمِيقَاتُ أخصُّ مِنَ الوَقتِ[4]؛ لأنّهُ يَتضمَّنُ الزّمانَ مُقدَّرًا بعملٍ، أو مُقرِّرًا لهُ، مُتضمِّنًا المكانَ.

قُصِدَ إلى اختيارِ المِيقاتِ المُبالَغةِ، ولِكونِهِ أخصَّ مِنَ الوقتِ

تَوجِيهُ معنى اللّامِ في قَولِهِ: ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾:

مَضَى الحديثُ عن معنى اللّامِ في قَولِهِ: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، ودلالةُ ورودِهِ هناك تُشابِهُ دلالَتَهُ هنا، فَمَعْنَى اللّامِ يَحتملُ الاختصاصَ، فكأنّهُ قِيلَ: واختصَّ اختيارُهُ لِميقاتِنا، أو اختارَهُم مُخصِّصًا بهم المِيقاتَ، كقولِكَ: اختيرَ لكَ هذا. ويجوزُ أن تكونَ بمعنى عند؛ والمعنى: فلمَّا اختارَ مُوسى سَبعينَ رجُلًا اختيارًا خاصًّا بالمِيقَاتِ؛ أي: حاصِلًا عندَهُ لا تأخيرَ فيهِ، ويَجوزُ جَعلُ اللّامِ للأَجلِ والعلَّةِ؛ أي: جاءَ لأجلِ مِيقاتِنا[5].

اللّامُ للاختصاصِ، أو بمعنى عندَ، أو التّعليلِ

عِلّةُ العُدولِ مِنَ الوصْلِ إلى الفصْلِ:

عَدَلَ إلى الفصلِ في قَولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ جوابًا لـ ﴿فَلَمَّآ﴾ لوقوعِهِ في طريقِ المُحاورةِ، وجوابُهُ في الآيةِ [156]: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾.

مَجِيءُ الكلامِ على طريقِ المُحاوَرةِ، يُثْري السّياقَ، ويُرقّي الدّلالةَ

بَلاغةُ النّظْمِ في: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾:

صِيغَ نَظمُ الكلامِ فيها على نَحوِ ما صِيغَ عليهِ قَولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ

(1) قباوة، المفصّل، ص: 605.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/257.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/475.

لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وقولُه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف: 149]، وقولُه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف: 150]؛ إذ جَعَلَ أَخْذَهُمُ الرّجفةَ كالأمرِ الّذي وَقَعَ الإخبارُ عنه على طريقِ الأسلوبِ المُبين[1].

التّعبيرُ عنِ الرّجْفةِ على طريقِ الأُسلوبِ المُبِينِ

بَلاغةُ المَجازِ اللُّغويِّ والعقليّ في: ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾:

فالأَخْذُ مَجَازٌ لغويٌّ في الإصابَةِ الشَّديدَةِ المُتَمَكِّنَة تَمَكُّنَ الآخِذِ مِنَ المَأْخُوذِ؛ أي: أَخْذَ قَهرٍ وغَلَبةٍ[2]؛ حيثُ استُعيرَ الأخذُ للإصابةِ الشّديدةِ، أو الإهلاكِ، والجامعُ الاستيلاءُ، فآخِذُ الشّيءِ يُسيطرُ عليه، ويُواريهِ عنِ الأنظارِ، فلا يُرَى له وُجُودٌ[3].

الآخِذُ هو اللهُ حقيقةً، والرَّجفةُ سَببٌ يقضِي به الله إذا شاءَ

وهو مَجازٌ عقليٌّ بإسنادِ الأخذِ - بِمَعْنى الإهلاكِ - إلى الرَّجفةِ بعلاقةِ السَّببيَّةِ؛ لأنّ الآخذَ هو اللّهُ حقيقةً، والرَّجفةُ سَببٌ، والغايةُ تهويلُ شأنِ الرّجفةِ وتعظيمِها حتّى لكأنّها هي الّتي بَطَشَت بِهِم[4].

وعَبَّرَ الشّريفُ الرّضيُّ عن هذا المَجازِ بالاستعارةِ، قالَ: "والمُرادُ استعارةُ إهلاكِهم بالرّجفة، كما يُقالُ: (أخذَهُ اللّهُ من مَأمنِه)؛ بمعنى: عاقبَهُ اللّهُ وأهلكَهُ؛ وذلك أنَّ المُعاقَبَ في الشّاهدِ يكونُ مَأخوذًا مُدفعًا، ومُزلَزلًا مُتعْتَعًا"[5].

دَلالةُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾:

الضَّميرُ عائِدٌ للسّبعينَ، والمُرادُ حِكايَةُ حَالِ مِيقَاتِ المُناجاةِ الثَّانِيَةِ

الضَّميرُ في: ﴿أَخَذَتۡهُمُ﴾ للسَّبعِين. فالظَّاهِرُ أَنَّ المُرادَ في هذه الآيَةِ هو حكايَةُ حَالِ ميقَاتِ المُنَاجَاةِ الثَّانيةِ الَّتي وَقَعَ فيها الاستِغفَارُ لِقَومِه، وأَنَّ الرَّجفَةَ المَحكِيَّةَ هنَا رَجفَةٌ أَخَذَتهُم مِثلُ الرَّجفَةِ الّتي أَخَذَتهُم في المُنَاجاةِ الأُولَى؛ لأَنَّ الرَّجفَةَ تَكُونُ من تَجَلِّي أَثَرٍ عَظِيمٍ من آثَارِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، فإنَّ قولَ مُوسى: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113 - 125.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416.
(5) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 74.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ يُؤْذِنُ بأَنَّهُ يَعني بِهِ عِبادَتَهُمُ العِجلَ، وحُضُورَهُم ذَلِكَ، وسُكُوتَهُم، وَهِي المَعنيُّ بقولِه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾، وقد خَشِيَ مُوسَى أَنَّ تلكَ الرَّجفَةَ مُقَدِّمَةُ عَذَابٍ، كَما كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَخشَى الرِّيحَ أن يَكُونَ مَبدَأَ عَذَابٍ[1]. ويَجوزُ أن يَكونَ ذَلِكَ في المُناجاةِ الأُولَى: وأَنَّ قَولَهُ: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ يَعنِي بِهِ ما صَدَرَ مِن بني إسرائيلَ مِنَ التَّصَلُّبِ قَبلَ المُنَاجاةِ، كَقَولِهِم: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ [البقرة: 61]، وسُؤَالِهِم رُؤيَةَ اللهِ تعالى، لكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ مثلَ ذَلِكَ لا يُطلَقُ عليه (فَعَلَ)[2] في قَولِهِ: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ الرّبِّ في السِّياقِ:

في صِفةِ الرُّبوبيّةِ معاني التّربيةِ والإنعامِ، وتنْزيهُه أن يُؤمَرَ كما يُؤمرُ الأنامُ

وقَصَدَ إلى لفظِ ﴿رَبِّ﴾ للدّلالةِ على أنّهُ المُحسِنُ إليهِ بأنواعِ الإحسانِ، المُتفضِّلُ عليهِ بأنواعِ الامتِنانِ[4]، المُنعِمُ عليهِ بلُطفِ الرّعايةِ اصطفاءً وتكليمًا، وغيرِ ذلك، وهو ما يَقتضيهِ مَقامُ التّضرُّعِ والاستعطافِ، طَمَعًا في المَغفرةِ والرَّحمَةِ[5]. وقال الكَرمانيُّ: "كَثُرَ حذفُ (يا) في القرآنِ مِنَ الرَّبِّ تَنزيهًا وتَعظيمًا؛ لأنّ في النّداءِ طَرَفًا مِنَ الأمرِ، إذا قلتَ: يا زيدُ افعَلْ واصنَعْ"[6].

بَلاغةُ الحذْفِ في لَفْظَةِ ﴿رَبِّ﴾:

إشارةٌ إلى لَهْفةِ مُوسَى إلى غُفرانِ اللهِ ورحمتِهِ

وحذَفَ حرفَ النِّداءِ (يا) الدّالّ على القُربِ، وحذفُهُ دلالةٌ على مَدى شعورِ مُوسى عليه السلام من قربِ اللهِ تعالى منهُ، فحذفُ أداةِ النِّداءِ إشارةٌ إلى غايةِ القُربِ بالإحسانِ[7]. وحذَفَ الياءَ أيضًا من (ربّ) تخفيفًا، وفيه إشارةٌ إلى لَهفةِ مُوسى إلى غفرانِ ربِّهِ ورحمتِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/124.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/108.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/417.
(6) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/400، والسّيوطيّ، الإتقان: 3/212.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/108.

تَوجِيهُ ﴿لَوۡ﴾ ومعانِيها في الآيةِ الكريمةِ:

(لَـوْ) تُستعمَلُ مَـجـازًا في التَّمَنِّي، أو على أصلِـها حـرفَ امتناعٍ لامتناعٍ

﴿لَوۡ﴾ في قَولِه: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم﴾ يَجُوزُ أَن تَكونَ مُستعمَلَةً في التَّمَنِّي، وهو مَعنًى مَجازيٌّ ناشِئٌ مِن مَعنَى الامتِنَاعِ الَّذي هُوَ مَعنَى ﴿لَوۡ﴾ الأصليُّ، ومِنهُ قَولُ المَثَلِ: (لَو ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتنِي)، إذ تَقديرُ الجَوابِ: لَو لَطَمَتنِي لكانَ أَهوَنَ عليَّ، وقد صُرِّحَ بالجَوابِ في الآيةِ؛ وهو: ﴿شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم﴾؛ أي: لَيتَكَ أَرَدتَ إهلاكَهُم؛ أي: السَّبعِينَ الَّذينَ معَهُ. فَجُملَةُ ﴿أَهۡلَكۡتَهُم﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملَةِ ﴿شِئۡتَ﴾ من قَبلِ خَطِيئَةِ القَومِ الَّتي تَسَبَّبَ عَنها الرُّجوعُ إلى المُناجاةِ. وعلى هذا التَّقديرِ في ﴿لَوۡ﴾ لا يَكونُ في قَولِه: ﴿أَهۡلَكۡتَهُم﴾ حَذفُ اللَّامِ الَّتي مِن شَأنِهَا أَن تَقتَرِنَ بجوابِ ﴿لَوۡ﴾[1]. ويَجوزُ أَن يَكُونَ حَرفُ ﴿لَوۡ﴾ مُستَعمَلًا في مَعنَاهُ الأَصلِيِّ: مِنَ امتِنَاعِ جَوَابِه لامتِنَاعِ شَرطِه[2]. وفي كلا التَّوجيهَين يبرزُ في قولِه: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ مَلمَحُ شدَّةِ اللّجوءِ إلى اللّهِ من هولِ مَا حَصَلَ، فضلًا عَنِ التَّجرُّدِ من حولِ مُوسى عليه السلام وقوَّتِه إلى حَولِ اللّهِ وقُوَّتِه، وتمهيد لِمَعرفةِ حكمةِ اللّهِ فيما حَدَثَ لِلسّبعينَ المُختارِينَ[3].

مُوجِبُ حَذْفِ اللَّامِ مِن جَوابِ ﴿لَوۡ﴾:

الإهــلاكُ مِـن فِعْلِ اللّهِ وَحدَهُ، ومُؤدَّاهُ الاعترافُ بـالـعـفـوِ، والـتّـعـريـضُ بالطّلبِ

فلَم يَقُل: (لَأَهْلَكتَهُم) باللّامِ، مع أَنَّ الغالِبَ في جَوابِها الماضي المُثبَتِ أَن يَقتَرِنَ باللّامِ، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣﴾ [البقرة: 103]، فَحَذفُ اللّامِ هُنا لِنُكتَةِ أَنَّ التَّلازُمَ بَينَ شَرطِ لَو وجَوَابِها هُنا قَويٌّ لِظُهُورِ أَنَّ الإهلاكَ من فعلِ اللّهِ وَحدَهُ، فهو كقولِه تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ [الواقعة: 70]. ويَكونُ المَعنَى اعترافًا بِمنّةِ العَفوِ عَنهُم فيمَا سَبَقَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416.

وتَمهيدًا لِلتَّعريضِ بِطَلَبِ العَفوِ عَنهُمُ الآنَ، وهو المَقصودُ مِن قَولِه: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي: إنَّكَ لَم تَشَأْ إهلاكَهُم حِينَ تَلَبَّسُوا بِعبَادَةِ العِجلِ، فَلا تُهلِكهُمُ الآنَ[1].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بـ﴿مِن﴾ و﴿قَبۡلُ﴾:

اسْتِحقاقُهمُ الإهلاكَ، لكثرةِ مُخالفاتِهِم، فيما سَبَقَ، وإصْرارِهِم فيما لَحِقَ

و﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ الزّمانيّةِ حرفُ جرٍّ، و﴿قَبۡلُ﴾ ظرفٌ مَقطوعٌ عنِ الإضافةِ؛ ولِذلِكَ بُنِيَ على الضّمِّ. ومعنى ﴿مِّن قَبۡلُ﴾؛ أي: قبلَ الاختيارِ، وأخذِ الرَّجفةِ[2]. ويبدو - واللهُ أعلم - أنَّ القَصدَ مِن قطعِهِ عنِ الإضافةِ، وحَذفِ مُتعلّقِه، كثرةُ مُخالفاتِهِم فيما سَبَقَ، وإصرارِهِم عليها، وكلُّها تَستحِقُّ الإهلاكَ. مع أنّ أغلبَ المُفسِّرينَ حَصَرَ الأمرَ باتّخاذِ العِجلِ، كما مرَّ ذِكرُهُ.

سِرُّ تفريقِ مُوسَى عليه السلام في الإهلاكِ بينَهُ وبينَهُم:

التَّفرِقةُ بينَ الإهلاكَينِ باختِلافِ الفِعلَيْنِ

وإنَّما قالَ: ﴿أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾، ولَم يَقُل: (أهلَكتَنا)؛ لأنَّ مَقصودَهُ عليه السلام التَّنصيصُ على هلاكِ كُلٍّ على حِدَتِه تعظيمًا لِلأمرِ، ففرَّقَ بينَ الإهلاكَينِ، وأيضًا فإنَّ مُوسى لم يَتعاطَ ما يَقتضي إهلاكَهُ بخلافِ قومِه، فإنَّ إهلاكَ السَّبعينَ لِأَجلِ سُكُوتِهِم على عِبادَةِ العِجلِ، وإهلاكَهُ عليه السلام حينَ طَلَبَ منهُ تعالى الرّؤيةَ، أو قد يَكُونُ لِأجلِ أَلَّا يَشهَدَ هَلَاكَ القَومِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾ [هود: 58] وَنَظَائِرُهَا كثيرَةٌ، وإنّما قالَ ذَلِكَ تَسليمًا منهُ لربِّه، فعطَفَ ضميرَهُ تنبيهًا على ذَلِكَ[3].

وهو مِن بابِ التّذكيرِ بالعَفْوِ السّابقِ، لاسْتِجلابِ العَفوِ اللّاحِقِ

أرادَ به عليه السلام التّذكيرَ بالعفوِ السّابقِ لاستجلابِ العفوِ اللّاحقِ؛ فإنَّ الاعترافَ بالذّنبِ والشُّكرَ على النِّعمةِ ممّا يَربطُ العَتيدَ، ويَستَجلِبُ المَزيدَ؛ يعني: إنْ كنّا مُستَحِقّينَ لِلإهلاكِ، ولم يكُنْ من مَوانعِه إلّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.

(2) ابن عادل، اللّباب: 9/335.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/475، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.

عَدَمُ مَشيئَتِكَ إيّاهُ، فَحَيثُ لَطَفْتَ بنا، وعَفَوتَ عنّا تِلكَ المُخالَفاتِ، فلا غروَ في أنْ تعفُوَ عنّا هذهِ المُخالَفةَ أيضًا(1).

وفيه تَنبيهٌ على أنَّ ذكرَهُ نفسهُ ﷺ إلى جنبِ إهلاكِهم لِتسليتِهم، ولِلمبالَغةِ في وُقوعِ إهلاكِهم لو سَبَقَ المَشيئةَ لَهُم، بخلافِ التَّمنِّي، فإنَّ تمنّيَ إهلاكِهِ قبلَ أن يَرى ما رَأى فلهُ وَجهٌ؛ ولِذلِكَ ذكرَهُ في صورةِ الحَملِ على التَّمنِّي(2).

وهو لِتسلِيتِهم، ولِلمبالَغةِ في وُقوعِ إهلاكِهم

وقولُهُ: ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿أَهۡلَكۡتَهُم﴾، وقد قالَ مُوسى ذلك تَسليمًا منهُ لأمرِ اللّهِ وقضائِه، وتَواضُعًا، وإنْ كانَ لم يَسبِقْ منهُ ما يُوجِبُ هلاكَهُ، بل الّذي سَبَقَ منه إنّما هوَ الطّاعةُ الكاملةُ للّهِ ربِّ العالَمينَ(3).

وهو تسليمٌ منهُ ﷺ لأمرِ اللهِ وقضائِهِ

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾:

نَقَلَ الواحديُّ عَنِ المُبرِّدِ أنّ الهمزةَ في قَولِهِ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ لِلاستِعطافِ؛ أي: الدّعاء، والمعنى: لا تهلكْنا(4). ونَقَلَ عنِ ابنِ الأنبارِيِّ أنّهُ استفهامٌ على تأويلِ الجحدِ (النّفي)، أرادَ: لستَ تفعلُ ذلك؛ أي: لا تهلكْنا بمَا فَعَلَ عبدةُ العِجلِ(5)، وقولُهُ يَحتملُ أيضا مَعنى الاستعطافِ، وإنْ كانَ بِمَعْنَى النّفي؛ أي: ألجأُ إليكَ يا مَولانا، ألّا تُهلِكَنا بذنْبِ غيرِنا(6). ونَقَلَ العماديُّ عنِ المُبرِّدِ ما تقدَّمَ بتمامِهِ، ونَقَلَ عنِ ابنِ الأنبارِيِّ: أنَّ الهمزةَ لإنكارِ وُقُوعِ الإهلاكِ ثِقَةً بِلُطفِ

اسْتِفهَامٌ للاستِعطافِ، أو على تأويلِ النَّفْيِ والاسْتبعادِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/514.
(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/514.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/74، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/388.
(4) نَقَلَ القرطبيُّ عنِ المُبرِّدِ: أنّ المُرادَ بالاستفهامِ استفهامُ (استعظامٍ)، كأنّه يقولُ: لا تهلكْنا، وقد عَلِمَ مُوسى أنَّ اللهَ لا يُهلكُ أحدًا بذنبِ غيرِهِ، ولكنّه كقولِ عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة: 118]. يُنظر: القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/295.
ويبدو أنّه وَهْمٌ وَقَعَ فيه المُحقّقُ الفاضلُ، فأبدلَ الاستعطافَ بالاستعظامِ؛ لأنّ مَبنَى طلبِ عيسى على الاستعطاف وطلبِ المغفرة لهم بمنتهى التّأدُّبِ في خطابِ اللهِ تعالى، ودليلُ ذلك تتمَّتُها: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فضلًا عن إجماعِ النّقلِ عنه في كتبِ التّفسيرِ بلفظِ: (الاستعطاف).
(5) الواحديّ، الوسيط: 2/415.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/388.

اللّهِ (1)ﷻ، واستِبعادًا مِن أنْ يأخُذَ اللّهُ البريءَ بإثمِ الآثمِ(2). وَذَكَرَ أبو حيّان: أنّهُ استفهامٌ على سبيلِ الإدلاءِ بالحُجّةِ في صيغةِ استعطافٍ وتذلُّلٍ(3)، وهو رَاجِعٌ إلى قولِ المُبرِّدِ.

اسْتَفهمَ لإظهارِ معنَى التَّفَجُّعِ

وهو مُستعمَلٌ في التَّفَجُّعِ؛ أَي: خشيةَ أَن يَشمَلَ عَذَابُ اللّهِ مع القَومِ الّذين استَحَقُّوا العَذَابَ مَن كَانَ مَعَ القَومِ المُستَحِقّينَ، وإنْ لَم يُشَارِكْهُم في سَبَبِ العَذَابِ، كَما قالَ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: 25]، وقَد خَشِيَ مُوسَى سُوءَ الظِّنَّةِ لِنَفسِهِ ولأَخيهِ ولِلبراءِ مِن قَومِهِ أَن يَظُنَّهُمُ الأُمَمُ الَّتي يَبلُغُها خَبَرُهُم أَنَّهُم مُجرِمُونَ(4).

وهـو اسْتِفهامُ استـعـلامٍ عـنِ الجَوازِ الحُكْمِيِّ

الاستفهامُ هنا: استعلامٌ أَتْبَعَ إهلاكَ المُختارِينَ، وهُم خيرُ بني إسرائيلَ، بما فَعَلَ غيرُهُم؛ إذ مِنَ الجائزِ في العقلِ ذلك، ألا ترى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: 25]، وقولِهِ ﷺ، وقد قِيلَ لهُ: «أنهلِكُ وفينا الصّالِحونَ؟ قالَ: نَعم، إذا كَثُرَ الخَبثُ»(5). ويُؤكِّدُهُ ابنُ عرفة بقولِهِ: "ليسَ هناك استفهامٌ عنِ الإهلاكِ؛ لأنّهُ قد وَقَعَ، والوَاقِعُ لا يُسألُ عنهُ؛ وإنَّما هو استفهامٌ عنِ الجَوازِ الحُكميِّ؛ معناه: أيَجوزُ في حكمِكَ أن تُهلكَ البريءَ بما فَعَلَ العاصي؟ وهذا جائزٌ عندَ أهلِ السُّنَّةِ، فإنّهُ يجوزُ عندَهُم أن يُعذِّبَ اللّهُ الطّائعَ، ويُعذِّبَ العاصي، وأفعالُ اللّهِ غيرُ مُعلَّلةٍ، وكلُّها بالنّسبةِ إليه حَسَنٌ"(6).

بيانُ جمْعِ الضَّمِيرِ في: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾:

اخْتلافُ أسبابِ الإهلاكِ

لأَنَّ هذا الإِهلاكَ هُوَ الإِهلاكُ المُتَوَقَّعُ مِنِ استِمرَارِ الرَّجفَةِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/399.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(5) البخاريّ، الجامع الصّحيح، برقم: (7059)، ومُسلم، الصحيح، برقم: (2880)، وغيرهما.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/259.

وتَوَقُّعُهُ واحِدٌ في زَمَنٍ واحِدٍ، بِخِلافِ الإهلاكِ المُتَقَدِّمِ ذِكرُهُ، فَسَبَبُهُ مُختَلِفٌ، فَناسَبَ تَوزِيعَ مَفعُولِه[1].

دَلالةُ الاسْتِئنافِ في: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾:

تصويرُ كلامِ الحزينِ، الوَجِلِ، الطّامِعِ بالاسْتجابةِ

جُملَةُ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ مُستَأنَفَةٌ على طَرِيقَةِ تَقطِيعِ كَلامِ الحَزِينِ، الخَائِفِ، الوَجِلِ، السَّائِلِ؛ طَمَعًا بالاستجابةِ، وكَذلِكَ الحالُ في جُملَتي: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ و﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[2].

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾، والتَّعْبيرُ به:

الطّالبُ في تخصيصِ الإهلاكِ بالسُّفهاءِ؛ إظهارًا لخِسَّةِ عُقولِهِم

وقد خَشِيَ مُوسَى أَنَّ اللَّه يُهلِكُ جَمِيعَ القَومِ بِتِلكَ الرَّجفَةِ؛ لأَنَّ سَائِرَ القَومِ أَجدَرُ بالإهلاكِ مِنَ السَّبعِينَ، وقد خَشِيَ مُوسَى أَن تَكُونَ تِلكَ الرَّجفَةُ أَمَارَةَ غَضَبٍ ومُقَدِّمَةَ إهلاكٍ، عُقُوبَةً على عِبادَتِهِمُ العِجلَ، فلِذَلِكَ قالَ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾، فالسُّفَهاءُ هُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا العِجلَ، وسُمِّيَ شِركُهُم سَفَهًا؛ لأَنَّهُ شِركٌ مَشُوبٌ بِخِسَّةِ عَقلٍ؛ إذ جَعَلُوا صُورَةً صَنَعوها بأَنفُسِهِم إلهًا لَهُم[3].

بيانُ عَوْدِ الضّميرِ ﴿هِيَ﴾:

الضّميرُ رَاجِعٌ إلى ما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَ الفِتنةِ

وضَمِيرُ ﴿إِنۡ هِيَ﴾ راجِعٌ إلى ما فَعَلَ السُّفَهَاءُ؛ لأَنَّ مَا صَدَقَ من فعلِ السُّفَهاءِ هُو الفِتنَةُ، والتّقديرُ: لَيسَتِ الفِتنَةُ الحَاصِلَةُ بِعِبادَةِ العِجلِ إلَّا فِتنَةً منكَ؛ أَي: مِن تَقدِيرِكَ، وخَلقِ أَسبَابِ حُدُوثِها، مِثلَ: سَخافَةِ عُقُولِ القَومِ، وإعجَابِهِم بأصنامِ الكَنعانيِّينَ، وطلبِهِم مَثِيلَهُ، وغَيبَةِ مُوسى، ولِينِ هارونَ عليه السلام، وغَيرِ ذَلِكَ ممَّا يَعلَمُهُ اللّهُ، وأَيقَنَ مُوسى بِهِ إِيقانًا إجماليًّا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/17، وابن عادل، اللّباب: 9/326، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126، والمستغانميّ، تصريف القول، ص: 147.

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ والاعْتِذارِ في جُملةِ الاسْتئنافِ:

تقريرُ ما قبلَها، والاعتذارُ عن صنيعِهِم

في جُملة: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَهُ، واعتذارٌ عمّا صنعُوا ببيانِ مَنشأ غَلَطِهم؛ أي: ما الفتنةُ الّتي وَقَعَ فيها السُّفهاءُ مِنَ القوم، وقالُوا بسببِها ما قالُوا، إلّا فِتنَتُك، ومِحنَتُك، وابتِلاؤُك؛ حيثُ أسمَعتَهُم كَلامَكَ، فافتَتَنُوا بذلِك، ولَم يَتَثَبَّتُوا؛ فَطَمِعُوا فيما فَوقَ ذَلِكَ تَابِعِينَ لِلقياسِ الفَاسِدِ[1].

بَلاغةُ القَصْرِ باسْتِعمالِ الخبرِ والتَّعْبير بِهِ:

في الخبرِ تمجيدٌ بِسَعَةِ العِلْمِ والقُدرَةِ، وتعريضٌ بطلبِ هدايتِهم

والخَبَرُ في قَولِه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ مُستَعمَلٌ في إنشاءِ التَّمجيد بِسَعَةِ العلم والقُدرَة، والتَّعريض بِطَلَب استِبقائِهم وهِدايَتِهم، ولَيسَ مُستَعمَلًا في الاعتِذارِ لِقَومه بِقَرِينَة قَولِه: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ الَّذي هُوَ في مَوضِعِ الحَالِ من ﴿فِتْنَتُكَ﴾، فالإِضلالُ بها حالٌ من أحوَالِها[2].

في الخبرِ قَصْرٌ حقيقيٌّ على كونِهِ اختبارًا مِنَ اللهِ

وفيها قَصرٌ بأداةِ النّفي ﴿إِنْ﴾ والاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾[3]، حيثُ قَصَرَ مُوسى عليه السلام الواقعةَ الّتي حصلَت لِلسّبعينَ المُختارِينَ من قومِهِ على كونِهِ اختِبارًا، وامتِحانًا، وابتِلاءً (فتنة) مِنَ اللّهِ تعالى، وهو قَصرٌ حَقيقيٌّ[4].

نُكتَةُ التّعريضِ بطلَبِ الهِدايةِ لَهُم:

بيانُ أدبِ خطابِ الأنبياءِ، مع ربِّهم جل وعلا

عَرَّضَ بِطَلَبِ الهِدَايَةِ لَهُم بِقَولِهِ: ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[5]، وهو من أدبِ الخطابِ القرآنيِّ في كلامِ الأنبياءِ عندَ مُخاطبتِهم ربَّهُم، فإنَّ "الأدبَ مَعَ اللّهِ حسنُ الصّحبةِ معهُ بإيقاعِ الحركاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ على مُقتَضى التّعظيمِ والإجلالِ والحَياءِ"[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126 - 127.
(3) المستغانميّ، تصريف القول، ص: 147.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416، والحسناويّ محمّد جليل، الموسوعة البلاغيّة للقرآن الكريم: 4/500.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(6) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 2/377.

الفِتنَةُ لا تَكُونُ سَبَبَ هِدَايَةٍ

فائِدةُ التَّعبيرِ بالباءِ:

والمَجرُورُ في قَولِه: ﴿بِهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِفعلِ (تُضِلُّ) وَحدَهُ، ولا يَتَنَازَعُهُ معهُ فِعلُ ﴿وَتَهۡدِي﴾؛ لأَنَّ الفِتنَةَ لا تكونُ سَبَبَ هِدايَةٍ بقَرينَةِ تَسميَتِهَا فِتنَةً. والباءُ: إمَّا للمُلَابَسَةِ؛ أي: تُضِلُّ مَن تَشَاءُ مُلَابِسًا لَها، وإمَّا للسَّبَبِيَّةِ؛ أي: تُضِلُّ بِسَبَبِ تِلكَ الفِتنَةِ، فَهِيَ مِن جِهَةٍ فِتنَةٌ، ومِن جِهَةٍ سَبَبُ ضَلالٍ[1].

إفصاحٌ عن دَلالةِ الرّبْطِ في الآيَةِ الكريمةِ

بَلاغةُ الطِّباقِ في ﴿تُضِلُّ﴾، ﴿وَتَهۡدِي﴾:

وفي هذا الطِّباقِ إفصاحٌ عن دلالةِ الرّبطِ في الآيةِ الكريمةِ المُؤدِّي إلى مَزيدِ إيضاحٍ للمَعنى وبيانِه، وترسيخ دلالةِ مَبناهُ؛ بما يُسبِّبُهُ من شدٍّ وجَذبٍ على النّفسِ المُتلقِّيةِ له قراءةً وتدبُّرًا. وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفةِ الإبلاغيّةِ للطّباقِ بالوظيفةِ التّأثيريّةِ الّتي يترسَّخُ من خلالِها المَنهجُ الفطريُّ السّليمُ للنّفسِ البشريّةِ باتّباعِ الهدايةِ، ونَبذِ الضّلالِ.

الاعتِرَافُ بالانقِطاعِ لِلعِبَادَةِ، تَمهيدٌ لِمَطلَبِ المَغفِرَةِ والرَّحمَةِ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بجُملةِ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾:

والقَصدُ مِنَ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاعترافُ بالانقِطاعِ لِعِبَادَةِ اللّهِ تعالى؛ تَمهيدًا لِمَطلَبِ المَغفِرَةِ والرَّحمَةِ؛ لأَنَّ شَأنَ الوَلِيِّ أَنْ يَرحَمَ مَولاهُ، ويَنصُرَهُ[2]، فهو ثناءٌ، وتَضرُّعٌ استعملَ فيهما الأسلوبَ الخبريَّ على سبيلِ المَجازِ المُرسَلِ[3].

اقْتِضاؤُهُ عَدَمَ الانتِصَارِ بغَيرِ اللّهِ

بَلاغةُ القصْرِ والتّقديمِ في: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾:

وقولُهُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يفيدُ الحَصرَ والقَصرَ؛ أي: لا وَليَّ لنا، ولا نَاصرَ، ولا هاديَ إلَّا أنتَ، وهذا مِن تمامِ ما تقدَّمَ مِن قولِه: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾[4]. فالولايةُ غيرُ قابلةٍ لِلتَّعدُّدِ؛ لأَنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416.
(4) ابن عادل، اللّباب: 9/336.

المَرءَ لا يَتولَّى غيرَ مَواليه، لِذلِكَ كانَ قولُهُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مُقتَضيًا عَدَمَ الانتِصارِ بغيرِ اللّهِ، وفي صَريحِه صِيغَةُ قَصرٍ[1]، وتقديمُهُ تَوطئَةٌ بعدَ الإقرارِ بالولايةِ لِطلَبِ المَغفرةِ والرَّحمَةِ[2].

دَلالةُ التّفريعِ في: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾:

في التّفريعِ نفيُ تعيُّنِ الغُفرانِ

والتَّفريعُ عَنِ الوِلايَةِ في قَولِه: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ تَفريعُ كلامٍ على كلامٍ، ولَيسَ المُرادُ أنَّ الوَليَّ يَتَعَيَّنُ عليهِ الغُفرَانُ[3].

عِلّةُ تقديمِ (المَغفِرَةِ) على (الرَّحمَةِ):

تَكريرُ الدُّعاءِ، ولأنَّ المَغفِرَةَ سَبَبٌ لِرَحَماتٍ كَثيرَةٍ

قَدَّمَ المَغفِرَةَ على الرَّحمَةِ مع أنَّ الرَّحمَةَ سَبَبٌ في المَغفِرَةِ؛ لأنَّ المُرادَ تكريرُ الدُّعاءِ بها؛ لِتكونَ المَغفِرةُ مُتقدِّمَةً ومُتأخِّرَةً[4]، ولأنَّ المَغفِرَةَ سَبَبٌ لِرَحَماتٍ كَثيرَةٍ، وألطَافٍ عَميمةٍ؛ فإنَّ المَغفِرَةَ تَنهيةٌ لِغَضَبِ اللّهِ المُتَرَتِّبِ على الذَّنبِ، فإذا انتَهَى الغَضَبُ تَسَنَّى أن يَخلُفَهُ الرِّضا، والرِّضا يَقتَضِي الإحسَانَ[5].

دَرءُ المَفاسِدِ، مُقدَّمٌ على جَلْبِ المَصالِحِ

ولمّا أثبتَ جلَّ في عُلاهُ أنَّهُ الفعَّالُ لِمَا يَشاءُ، وأنّهُ لا وَلِيَّ لَهُم غَيرُهُ، وكانَ من شأنِ الوَليِّ جَلبُ النَّفعِ ودَفعُ الضُّرِّ، ابتدَأَ بِدفعِ الضَّرَرِ: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: امحُ ذُنوبَنا، ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾؛ أي: ارفَعْنا[6]. فالأصلُ تقديمُ درءِ المَفسدَةِ أوّلًا؛ لأنّ دَرأَها مُقدَّمٌ على جَلبِ المَصلَحةِ، فقَدَّمَ مُوسى عليه السلام طلبَ مَغفرةِ الذّنبِ، ثمّ دعا ربَّهُ أن يرحمَهُم، وهذا جَلبُ مَنفعَةٍ. ومِثلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 185]، وهو دَرءُ مَفسَدةٍ بالإبعادِ عنِ النّارِ، أَعقَبَهُ بـ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [آل عمران: 185]، وهو جَلبُ مَنفعةٍ ومَصلَحةٍ[7]. وهو

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/259.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.

(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/122.

(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4377.

أيضًا مِن بابِ تقديم التّخليةِ (محو الذُّنوبِ) على التّحليةِ (حلول رحمةِ اللّهِ) بالدَّاعِينَ[1].

العَطْفُ للتَّوسُّطِ بينَ الكَمالَيْنِ

وُصِلَت جملةُ ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ بالواو عَطفًا على جُملةِ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾؛ لِمَا بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين؛ لاتِّفاقِهما في الإنشائيّةِ لفظًا ومعنًى[2].

دَلالةُ الخطابِ بضميرِ الجمْعِ (نا):

إدخالُ موسَى عليه السلام نفسَهُ مع قومِهِ مِن بابِ الاسْتِعطافِ

سَأَلَ مُوسى ربَّهُ الغُفرانَ لهُ ولَهُم والرَّحمَةَ؛ لِمَا كانَ قَد اندَرَجَ قومُهُ في قولِهِ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، وفي سُؤالِ المَغفرةِ والرَّحمَةِ لهُ ولهُم. والدَّعاءُ هنا لنفسِهِ مع قومِهِ بضميرِ الجمعِ (نا) قد اقتضاهُ مَقامُ المُناجاةِ والمَعرفةِ الكاملةِ، ومَن كانَ أعرف باللّهِ وأكمل استِحضارًا لعظمتِهِ، كانَ أشدّ شعورًا بالحاجةِ إلى مَغفرتِهِ ورَحمتِهِ، وإن كانَ ما يَستغفرُ منهُ تقصيرًا صغيرًا بالنّسبةِ إلى ذُنوبِ الغافِلينَ والجاهلِينَ، أو مِن بابِ (حَسناتُ الأبرارِ سَيّئاتُ المُقرَّبين)، فإدخالُ نفسِهِ معَهُم مِن بابِ الاستعطافِ؛ إذ لم يُنقَلْ عنهُ ما يُعَدُّ مِن ذُنوبِ الأنبياءِ عليهم السلام، لكنَّ قومَه كانُوا أصحابَ ذُنوبٍ وخَطايا، ولِذلِكَ انتظَمَ معَهُم في الدُّعاءِ مُؤكِّدًا استِعطافَ ربِّهِ تعالى في غُفرانِ تلك الذُّنوبِ، ومُنبِّهًا بقولِهِ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾[3].

سِرُّ قولِ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾:

الخبرُ طَلَبُ المَغفِرَةِ، والزِّيادَةُ في المَغفِرَةِ مِن آثارِ الرَّحمَةِ

عَطفَ جُملَةَ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾؛ لأَنَّه خَبَرٌ في مَعنَى طَلبِ المَغفرَةِ العَظيمَةِ، فَعُطِفَ على الدُّعاءِ، كأَنَّهُ قِيلَ: فَاغْفِرْ لَنا، وارْحَمْنا، واغْفِرْ لَنا جَميعَ ذُنُوبِنا؛ لأَنَّ الزِّيادَةَ في المَغفِرَةِ مِن آثارِ الرَّحمةِ[4]، وعزَّزَهُ فاءُ ترتيبِ الدُّعاءِ على مَا قبلَهُ مِنَ الولايةِ، كأنّهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/75، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416 - 417.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/399، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/190 - 189.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.

قِيلَ: مِن شأنِ مَن يَلِي الأمورَ، ويقومُ بها، دفعُ الضُّرِّ وجَلبُ النّفعِ بالمَغفرةِ والرَّحمَةِ(1).

بَلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ في الفاصلةِ:

ربطُ الكلامِ بعضِه ببعضٍ من جميلِ البيانِ وأزْقاه

فَقَد وَافقَت لفظةُ: ﴿ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ - وهي آخرُ كلمةٍ في الجُملة - أوَّلَ لفظةٍ في صدرِهَا؛ وهي ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾(2)، وفي ذلك تَرسيخٌ لِطلبِ عظيمِ المَغفرة، وواسعِهَا.

بَراعَةُ الاكتفاءِ بذكْرِ المَغفِرةِ في ختْمِ الآيةِ:

اكتفى بذكرِ المَغفرةِ؛ لأنّها الأهمُّ، دون الرَّحمَةِ؛ لأنّها أعمُّ

وَ ﴿خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ الَّذي يَغفِرُ كَثيرًا(3). والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لَمَا قبلَهُ مِنَ الدّعاءِ، وتَخصِيصُ المَغفِرَةِ بالذِّكرِ؛ لأنّها الأهمُّ، ومَوطِنُ العنايةِ بِحَسَبِ المَقامِ(4). ولِذلِكَ حَذَفَ ذِكرَ الرَّحمَةِ استغناءً عنهُ بذكرِ المَغفِرَة، فإنّ ترتيبَ التّذييلِ في الثّناءِ عليهِ تعالى على طَلَبِ مَغفرتِهِ ورحمتِهِ معًا يَقتضي أن يكونَ هذا الثّناءُ بهما معًا، لكنّه اكتفى بذكرِ المَغفرةِ لدلالتِها على الرَّحمَةِ قَطعًا، فهو مِنَ الإيجازِ المُسمَّى في علمِ البديعِ بالاكتفاءِ؛ إذِ اكتفى بذكرِ المَغفرةِ؛ لأنّها الأهمُّ، ولم يكتفِ بذكرِ الرَّحمَةِ؛ لأنّها أعمُّ، ولأنّها قد تَستلزِمُ المَغفرةَ دونَ العكسِ، فإنّ مَعنَى المَغفرةِ سَلبيٌّ؛ وهو عدمُ المُؤاخذةِ على الذّنبِ، والرَّحمةُ فوقَ ذَلِكَ، فهي إحسانٌ إلى المُذنِبِ، مُقدَّمَة على التّحليةِ(5).

تَوجِيهُ الاختلافِ بينَ فاصلَتَيِ الآيتَيْن: [151] و[155]:

المُحدِّدُ وجودُ الذَّنْبِ من عَدمِهِ

في الآيةِ [151] جَعَلَ خاتمةَ الآيةِ رحمةً، فقالَ: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وفي الآيةِ [155] جَعَلَ خاتمةَ الآيةِ مَغفِرةً، فقالَ:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277، والآلوسي، روح المعاني: 9/75.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/429.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.
(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/189.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾؛ وذلك أنّهُ إذا ذَكَرَ ذنبًا؛ عقَّبَ بالمَغفرةِ، وإذا لم يَذْكُرْ ذنبًا؛ عقَّبَ بالرَّحمَةِ[1].

وأيضًا في الآيةِ الأولى: فإنَّ مُوسى عليه السلام طَلَبَ إلى ربِّهِ أن يُدخلَهُ وأخاه في رحمتِهِ، وأن يَجعلَ رحمتَهُ تُحيطُ بهما مِن كلِّ جانبٍ، فإنّها حِصنٌ حَصينٌ، مِن جميعِ الشّرورِ، وذلكَ بعدَ ندمِهِ ممَّا اسْتَعْجَلَ، وصُنعِهِ بأخيه مِن جرِّ رأسِهِ قبلَ أن يعلمَ براءتَهُ، ممَّا ظنَّهُ فيهِ مِنَ التّقصيرِ، فأجابَهُ اللّهُ بأنّهُ أرحمُ الرّاحمينَ، وهذا يشيرُ إلى قبولِ دعائِهِ وإجابةِ طلبِهِ.

أمَّا الآيةُ الثّانيةُ: فكانَ مُوسى عليه السلام قدِ اختارَ مِن قومِهِ سبعينَ رَجُلًا لِيلقَى بهم ربَّهُ، فَطَلَبَ إلى ربِّهِ أن يغفرَ لهُ ولقومِهِ ما فعلُوا مِن سفاهةٍ في طلبِ رؤيةِ اللّهِ جَهرةً، فأخذَتهُمُ الرّجفةُ، فطَلَبَ مِن ربِّهِ أن يَغفرَ لَهُم ذنبَهُم، ويُزيلَ عنهُم عقوبتَهُ.

وبذا يَظهَرُ تناسبُ خَتْمِ كلٍّ مِنَ الآيتين بصفةِ الرَّحمة والمَغفرة وإبداعُهما.

---

(1) هبيان، من روائع البيان: 5/210 - 211.

﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف: 156]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جـمْـعُ مـوسَى والـنّـقـبـاءِ بين دُعاءِ العُبوديَّةِ، ودُعاءِ المَسألةِ

لَمَّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ بعضَ دُعاءِ موسى ﷺ بِدفعِ الضُّرِّ عند مشاهدةِ الرَّجْفَةِ[1]، حيثُ بدأَ دُعاءَهُ ﷺ بإقرارِ الولايةِ للّهِ بقولِه: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، ثمَّ أتبعَهُ في هذهِ الآيةِ برجاءِ تحصيلِ المنافعِ بقولِه: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، لِيكونَ دعاؤُهُ جامِعًا مُشتمِلًا على ثَناءِ العبوديَّةِ، ثمَّ السُّؤالِ بدفعِ الشَّرِّ وقِسْمةِ الخيرِ، فجَمَعَ بين دُعاءِ العُبوديَّةِ بالثَّناءِ عَلَى اللّهِ، ودُعاءِ المسألةِ بعرضِ الحاجةِ وابتغاءِ العطاءِ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱكۡتُبۡ﴾: مِنَ الكَتْبِ والكِتابَةِ، وأصلُهُ: إِلصاقٌ بدِقَّةٍ وقُوَّةٍ، ومِن ذَلِكَ: الإلصاقُ الحاصِلُ بالإلزامِ والفَرْضِ[2]، كقولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، والمرادُ هنا: اقضِ، وأوجِبْ، واقسِمْ لنا نَصيبًا ثابتًا مستمرًّا كالشَّيءِ المكتوبِ الَّذي يستقِرُّ، ويستمِرُّ بكِتابتِهِ.

2) ﴿هُدۡنَآ﴾: مِنَ الهَوْد، وهو: الرُّجوعُ بِرِفقٍ، ومنه: الهَوَادَةُ: الحالُ تُرجَى معها السَّلَامَةُ، واليَهودُ مِن هَادَ يَهُودُ؛ إذا تاب هَوْدًا،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/378.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).

وسُمُّوا به؛ لأنَّهم تابوا عن عبادةِ العِجلِ[1]، والمرادُ بـ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، أي: تُبْنَا؛ إذ في التَّوبةِ هَوَادَةٌ حالٍ وسلامةٌ، والهُودُ جمعُ هائِدٍ، وهو التَّائِب[2].

3) ﴿أُصِيبُ﴾: يُقال: صَابَهُ وأصابَهُ، وجُعِلَ الصَّوبُ لنزولِ المطرِ؛ إذا كان بقدَرِ ما ينفعُ، وإلى هذا القدَرِ منَ المطرِ أشارَ بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: 18]، وأصابَ السَّهمُ؛ إذا وصل إلى المَرمَى بالصَّواب، والمصيبةُ: أصلُها في الرَّميةِ، ثمَّ اختُصَّت بالنَّائبة، نحو: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: 166]، وأصابَ: جاءَ في الخيرِ والشَّرِّ[3].

4) ﴿وَرَحْمَتِي﴾: الرَّحمَةُ رقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ، وقد تُستعمَل تارةً في الرِّقَّةِ المجرَّدةِ، وتارةً في الإحسانِ المجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ، نحو: رحِمَ اللّٰهُ فلانًا، وإذا وُصِفَ بِهِ الباري - ﷻ - فليس يُرادُ بِهِ إلَّا الإحسانُ المجرَّدُ دون الرِّقَّةِ[4]، وعلى هذا؛ فالرَّحمةُ مِنَ اللّٰه إنعامٌ وإفضالٌ، ومنَ الآدميِّين رِقَّةٌ وتعطُّفٌ.

5) ﴿وَسِعَتْ﴾: السَّعةُ تُقال في الأمكنةِ، وفي الحالِ، وفي الفعلِ، كالقُدرةِ والجودِ، ونحو ذلك، والوُسعُ مِنَ القدرةِ ما يفضلُ عن قدَرِ المُكَلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، ومعناهُ: يكلِّفه ما يُثمِرُ له السَّعةَ، أي: الجنَّةَ ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133]، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ [طه: 98] وصفٌ له سبحانه كما قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 130] والمرادُ: سَعةُ قدرتِهِ وعلمِهِ ورحمتِه وإفضالِه[5].

---

(1) تعددت أسباب تسمية اليهود بهذا الاسم؛ فقيل في ذلك أقوال منها؛ أولاً: أنهم سمُّوا يهودًا نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل الذين بعث فيهم موسى ﵇ فقلبت العرب الذال دالًا. ثانيًا: نسبة إلى الهَوَد: وهو التوبة، والرجوع، وذلك نسبة إلى قول موسى ﵇ لربه: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، أي: تبنا ورجعنا إليك يا ربنا. قال ابن منظور: الهود: التوبة، هادَ يهود هودًا، وتهوَّد: تاب ورجع إلى الحقِّ؛ فهو هائدٌ، وقومٌ هُوْد مثل حائك وحُوك، وبازل وبُزْل. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (هود). ثالثًا: نسبة إلى التقرُّب والعمل الصالح، قال زهير بن أبي سلمى:

سوى رَبَعٍ لم يأتِ فيه مخافةً *** ولا رهقًا من عابد متهوِّد

فالمتهوِّد: المتقرب، والتهوُّد: العمل الصالح. رابعًا: من الهوادة، وهي المودّة، فكأنَّهم سمُّوا بذلك؛ لمودَّة بعضهم بعضًا. يُنظر: محمد الحمد، رسائل في الأديان والفرق، ص: 63، 64.

(2) ابن دريد، الجمهرة: 2/689، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هود)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/264.

(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رحم).

(5) الرّاغب، المفردات: (وسع).

المَعنى الإجْماليُّ:

بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ موسى عليه السلام واصلَ دُعاءَهُ، فقال: واقسِمْ لنا - ياربُّ - في الدُّنيا ما يَحسُنُ منَ الأحوالِ والأعمالِ والعواقبِ، وفي الآخرةِ المثوبةَ الحسنى بالجنَّةِ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ، إنَّا رَجَعْنا تائِبين إليكَ، قال اللّهُ تعالى لموسى: عَذابي أُصيبُ به مَن أشاءُ مِن خَلقي، كَما أصبْتُ هؤلاءِ الَّذين أصبْتُهم من قَومِك، ورَحْمتي وسِعتْ خَلقي كُلَّهم، فَسأكتُبُها للذين يخافُونَ اللّه، ويخشونَ عِقابَهُ، فيؤدُّونَ فَرائضَهُ، ويجتَنِبونَ معاصيَهُ، والَّذين هم بدلائلِ التَّوحيدِ وبراهينِه يصدِّقونَ[1].

دُعاءُ موسى وابتهالُهُ، وإجابةُ رَبِّهِ لَه بما يَرْدَعُ العاصِين، ويَنْفَعُ الطَّائعين

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾:

الواو عاطفةٌ مدخولَها على أوَّلِ الدُّعاءِ قبلَها؛ استتمامًا لهُ، ونسَقٌ عليه، ودلالتُها هاهنا: الجَمْعُ بينَ آحادِ الحوائجِ المسؤولَةِ في الإجابةِ والحصولِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ أحدَها لا يَتِمُّ مِن غيرِ الآخَرِ، فهي لوازمُ لا تَنفَصِمُ، وكلُّ حاجةٍ منها يُسلِمُ لتحقيقِ ما بعدَها، وفائدةُ الجَمْعِ المذكورِ: إيقاعُ الأدعيةِ على نحوٍ جامعٍ في المباني والمعاني والمقاصد، وفيهِ أيضًا: أنَّ المخلوقَ لا يَسعدُ إلَّا باجتماعِ الأحوالِ التَّامَّةِ له في الدُّنيا والآخرة.

الجَمْعُ بَينَ الثَّناءِ على اللهِ، وسُؤالِ الحاجاتِ اللَّازمةِ

سِرُّ عدَمِ ذكْرِ لفْظِ (ربَّنا) والاكتفاءِ بالمدْعُوِّ به فقط:

السُّؤالُ هنا من موسى عليه السلام وقد ذكرَ قبل ذلك قولَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾، فجاء قوله: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عقيبَ وعيدٍ وجنايةٍ في قوله: ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: 155]، وقوله: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾

عدَمُ توقيرِ قومِهِ رُبوبيَّةَ اللهِ وإحسانَهُ، هلاكٌ وخَيْبةٌ

(1) مجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 231، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسّر، ص: 170.

[الأعراف: 155]، وقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف: 155]، فالمقامُ مقامُ ترهيبٍ لا ترغيبٍ، ومقامُ استغفارٍ واعتذارٍ، ولذا توسَّلَ بالعملِ اعتذارًا، فقال: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، ولم يذكرْ لفظَ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لأنَّ قومَه لم يوقِّروا ربوبيَّةَ اللّهِ عليهم بإحسانِه السَّابقِ عليهم، فأخذتْهُم الرَّجفةُ.

دَلالةُ الطَّلَبِ، في قولِهِ: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾:

إثباتُ المطلوبِ وتحقيقُهُ، مَقصودٌ في السِّياقِ

قولُهُ: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ أي: عَيِّنْ لنا، وقيل: أوجِبْ وحقِّقْ وأثبِتْ[1]، فهو يدلُّ على الطَّمَعِ وحُسْنِ الرَّجاءِ بعدَ الاستغاثَةِ والإشفاقِ الوَارِدَينِ في قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، وحُسْنُ الرَّجاءِ باشتِمالِ الدُّعاءِ على سؤالِ الحُسْنى، فهوَ أدبٌ حسَنٌ، وفِقهٌ في المقاصِدِ بعيدٌ، وفي الطَّلبِ إشفاقٌ من عاقبةِ مفهومِهِ المُقابلِ، أي: إن لم تكتبْ لنا الحسنى؛ ضِعْنا في الدُّنيا، وخَسِرْنا في الآخِرَةِ، فاجتَمعَ في التَّركيبِ حُسْنُ الرَّجاءِ مع الخوفِ الشَّديدِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكِتابةِ دونَ الإيتاءِ:

لَفظُ الكِتابةِ مُستعارٌ لمعنَى العطاءِ المُحقَّقِ حصُولُهُ، المُجَدَّدِ مرَّةً بعد مرَّةٍ

اصطفاءُ لفظِ الكتابةِ في قوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ هو تعبيرٌ بلفظٍ يفيدُ الضَّمانَ والوثوقيَّةَ، والتَّعبيرُ بالكتابةِ كنايةٌ عنِ الإجابَةِ أو كَيْفيَّتِها؛ لأنَّه متى أجابَ؛ فقد كَتَبَها، لكنَّ الكتابةَ تفيدُ معنًى زائدًا عنِ الإجابةِ، وهي أن يقعَ هذا الجوابُ على كَيْفيَّةِ الشَّيءِ المكتوبِ منَ الثُّبوتِ وعدمِ الانقطاعِ، وسببُ هذا الاصطفاءِ خوفُ الفواتِ، أو ظنُّ عدمِ الاستحقاقِ، وكلاهما حاصلٌ من عِلمِ موسى بمقدارِ قومِهِ. وفي هذا المعنى يقولُ ابن عاشور: "﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ مُستعارٌ لمعنى العطاءِ المُحقَّقِ حصُولُهُ، المُجَدَّدِ مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لأنَّ الَّذي يريدُ تحقيقَ عقدٍ أو عِدَةٍ أو عطاءٍ وتجَدُّدَهُ في المستقبل، يكتبُه في صَحيفةٍ، وفيه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

إشارةٌ إلى حصولِه مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لأنَّه لو كان لمرَّةٍ واحدةٍ لا يحتاجُ إلى الكتابَةِ[1]".

دَلالةُ تقديمِ ﴿لَنَا﴾، في قولِه: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الغرضُ مِنَ الدُّعاءِ نفعُ النَّفْسِ، ودَرْءُ الضَّررِ عَنها

تقديمُ ﴿لَنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ، وذلك أنَّ موسى عليه السلام طلبَ الغُفرانَ والرَّحْمَةَ والحَسَنَةَ في الدَّارين لِنَفْسِه ولأمَّتِه خاصَّةً بقولِه: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾[2].كما أنَّ في التَّقديم دلالَةً على الاهتمامِ وإظهارِ العنايةِ بذاتِ المدعُوِّ؛ لأنَّه محلُّ الانتفاعِ بالدُّعاءِ دونَ النَّظرِ إلى ظرف الإجابةِ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ، ولذا فالتَّقييدُ بالظَّرفِ: ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ليس مقصودًا أصالةً في الدُّعاء، بل هو جارٍ مَجْرَى العادةِ في ارتباط الأحداث بظروفِها المُتعدِّدَة، فيُذكرُ كلُّ ظرفٍ منها على جهةٍ بألَّا تتباينَ أحوالُهُ فيهما بتبايُنِها، وغرضُ الاهتمام مُطابِقٌ للحالِ؛ لأنَّ الدَّاعي قد أهمَّتْهُ نفسُهُ، فلا جرمَ أنِ اهتمَّ بها في التَّقديم، وتقديمُ ضميرِ الذَّواتِ على المفعولِ ﴿حَسَنَةٗ﴾؛ لتأخُّرِ الأعراضِ عن جواهرِ الذَّواتِ وجودًا، فلا جرمَ تَأخُّرُها عنها في لفظِ المسألةِ، ولأنَّ الذَّواتَ آلةُ اكتسابِ الحسناتِ، فلا جرمَ قدَّمَ مَن لهُ السَّبقُ في الكَون.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بنُونِ الجماعَةِ ﴿لَنَا﴾:

نيابةُ الأنبياءِ عن أقوامِهم في الدُّعاءِ والاستِغفارِ، بركَةٌ وقَبولٌ

التَّعبيرُ بنونِ الجماعةِ في قولِه: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ دالٌّ على سببِه، وهو أنَّ النَّبيَّ إمامُ قومِه، فكما كان إمامَهُم في الاختيارِ منهم: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: 155]، فهو أيضًا إمامُهُم في الاستغفارِ عَنهم، ولذا اطَّرَدَ ضميرُ المتكلِّمين في كافَّةِ دُعائِه: ﴿وَلِيُّنَا﴾ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ ﴿إِنَّا هُدۡنَآ﴾، وهو دالٌّ على أنَّ الأنبياءَ أرحمُ النَّاسِ بالنَّاس، وفيه: أنَّهم شفعاءُ الأممِ عندَ اللّٰهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 128/9.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 6/604.

الظَّرفيَّةُ مجازيَّةٌ، والأداةُ (في)، لها معانٍ شتَّى

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالظَّرفيَّةِ: ﴿فِي﴾:

ظرفيَّةُ (في) هنا مَجازيَّةٌ، ومعناها: يدلُّ على الوعاءِ والاشتِمالِ، ويفيدُ التَّمكُّنَ وشدَّةَ الالتصاقِ، والإغراقَ، والمبالغةَ في التَّعمُّق، والمقصودُ: أن تكونَ الحسنةُ الَّتي سألها موسى ﷺ مُتمكِّنةً في الدُّنيا، مشمولةً فيها، حتَّى يُغرِقَها حُسْنُ الحسنةِ، وتتعمَّقَ في جوانبها جميعًا؛ لتنصلِحَ لهم بها، فكأنَّ دنياهم وعاءٌ قد أُغلِق على الحسنةِ الَّتي سألوها، فلازَمتها، ولم تنفكَّ عنها، وهم مُتلبِّسون بها، مُتَّصِفونَ بحُسْنِها[1].

الإشارةُ للتَّهوين منها، والنَّعْي عليها

سِرُّ الإشارةِ بـ ﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾:

(أل) إذا وقعَتْ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ فَهي للعَهدِ الحضوريِّ، واسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ مُستعمَلٌ في المؤنَّثِ القريب، والإشارةُ إمَّا تفيدُ المدحَ وما في معناه، أو تفيدُ الذَّمَّ وما في معناه، فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] للتَّنويه بقُرب هدايتِه مع تعظيمِه، وقد تُستعمَلُ بغرضِ الذَّمِّ أو التَّقليلِ من ذاتِ الشَّيءِ كقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41]، و﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ من هذا القبيلِ، فقد أشارَ إليها بـ(هذه) للقريب، ودخلت عليها (أل) الَّتي أفادتِ العهدَ الحضوريَّ، مع استحضارِ معنى وصفِها بالدُّنيا[2]، فأفادتِ الإشارةَ إلى التَّهوين منها والنَّعي عليها، فالإشارةُ إليها إشارةُ القريبِ، مع تضمُّنِها وصفًا نازلًا في الرُّتبةِ، وهو الدُّنوُّ، مع إفادة (الـ) فيها إلى حضورِها قرائِنَ متماسِكةً على أنَّ الإشارةَ لغرض استحضارِ زوالِها وسرعةِ انقلابِها بأهلِها، أي: هذه الدُّنيا الَّتي هي أدنى وأقربُ للفَوْتِ والتَّلاشي[3].

---

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 124.
(2) فلفظُ الدُّنيا باقٍ على الوصفيَّة، فهو اسمُ جنسٍ مقرونٌ بأل المعرفة، وإن جُعِلَ علمًا على الأوقات أو على المرحلةِ المؤقَّتةِ، فأل فيه لِلَمْحِ الأصل.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/104.

سِرُّ الاكْتِفاءِ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ ذِكْرِ (الحياة الدُّنيا):

يُؤتَى بالمركّب الإضافيّ: (الحياة الدُّنيا) حينما تكونُ على مراد النَّاسِ منها، وأمَّا مرادُ اللهِ فيها، فيُعبَّرُ بلفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فقط، ولذا تجيءُ في تراكيبِ الدُّعاءِ مُجرَّدةً عنِ الحياة؛ لأنَّ الدُّعاءَ موصولٌ بمرادِ اللّه، وكأنَّ الدُّنيا لّما كانَت عاجلةً ومتاعَ غرورٍ ودارَ ابتلاءٍ لم تكن حياتُها حياةً حقيقيَّةً، ولذلك فقولهُ تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد: 20]، فسمَّاها حياةً بحسبِ مرادِ النَّاسِ منها، ثمَّ أخبرهم أنَّها ليست حياةً، بل هي اللَّعِبُ واللَّهوُ والزِّينةُ والتَّفاخرُ والتَّكاثرُ ومتاعُ الغرور، وحين يقولُ مؤمنُ آلِ فرعونَ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ [غافر: 39] فوصفَها بالحياة، ليقرِّرَ مرادَهم وظنَّهم فيها، ثمَّ يدفعُه بوصفِها متاعًا زائلًا، بطريق القصرِ والتَّحقيق، فبهذا التَّأسيسِ تُخرَّجُ الآياتُ الَّتي جُرِّدَت فيها الدُّنيا عنِ الحياة، أو اقترنَت بها، مع مُراعاةِ كلِّ سياقٍ، ولَمْحِ هذا الأصلِ فيه.

تَجيءُ (الدُّنيا) في سياقِ الدُّعاءِ، مُجرَّدةً عن وصفِ (الحياة)

ويضافُ إلى ذلك، أنَّ وصفَ الحياةِ الدُّنيا يأتي غالبًا في سياق الذَّمِّ، والآياتُ الشَّاهدةُ على هذا كثيرةٌ، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمد: 36]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 212] بخلاف لفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، فيأتي غالبًا في سياق أهلِ الإيمانِ الَّذين يعرفون حقيقتَها، فلا يعطونها أكثرَ من قدرِها، يؤكِّد ذلك ما وردَ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201].

سِرُّ تَقْديمِ الدُّنيَا على الآخِرَة:

الأصلُ الغالبُ أنَّ الدُّنيا مُقدَّمةٌ على الآخرةِ وجودًا وذِكرًا، والثَّاني لازمٌ عنِ الأوَّل، والأصلُ في الخطاب أن يقعَ ترتيبُه بحسب الحاضرِ ثمَّ المستقبل، فمجيءُ الخطاب وَفْقَ زمانِ الملابسةِ هو ضرورةٌ تقتضيها مراعاةُ مُقْتَضَى الأحوال، وأمَّا مجيئُها بعدَ الآخرة، كقوله:

مَجيءُ الخطابِ وَفْقَ زمانِ الملابسةِ، ضَرورةٌ تقتضِيها مراعاةُ مُقتَضَى الأحوالِ

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشّورى: 20]؛ فالمقدَّمُ على الحقيقة هو المُريدُ، وليس المرادَ، فالاعتبارُ في التّقديم والتّأخير لمُريدِهما أصالةً، وهما مقصودان تبَعًا، ولذا جاء الكلامُ على الاستعارة التّصريحيَّة في تشبيه عملِ العاملِ، وما يرتجيه من عائدِه وثمرته، بالحرثِ، حَذَفَ المشبَّهَ: وهو العملُ، وأبْقَى المشبَّهَ به: وهو الحرثُ، بجامع ابتغاءِ العائدِ والجزاءِ في كلٍّ، فالآيةُ مَسوقةٌ للمقابلة في الجزاءات والعوائدِ، ولذا جاءَت بصيغة الشَّرطِ والجزاء، والمقابلةُ في الجزاء تكونُ لغرض المفاضلةِ وممايزةِ الجزاءِ الأعلى على الأدنى، ولذا كان منَ البديهيِّ أن يتقدَّمَ مُريدُ الآخرةِ وعملُه وجزاؤُهُ على مريدِ الدُّنيا وعملِه وجزائِه[1].

سِرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دونَ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾:

الدُّنيا تأتي مع الآخِرة على اعتبارَيْن للمقابلةِ المُطلَقةِ، أو للتَّقابُل التَّفاضُليِّ

الضَّابطُ: أنَّ الدُّنيا تأتي على اعتبارين، الاعتبارُ الأوَّلُ: مقابلتُها مع الآخرةِ لمُطلَقِ اقترانهما جريًا على عادة اقتران النَّظيرين المتقابلين المتلازِمَين، وهذا سياقُه سياقُ قصدِ الإخبارِ عنهما في حيِّزهما الوارِدَين فيه من غير اعتبارِ مدحٍ ولا ذمٍّ. الثَّاني: الاقترانُ بقصدِ التَّقابلِ التَّفاضليِّ في الحقيقة والجزاء، فحينما يُرادُ بالدُّنيا الأوَّلُ: تأتي بلفظ الدُّنيا لغرض المرورِ عليها كمرحلةٍ مُوجزةٍ، وتُوضعُ الآخرةُ في مقابِلِها لمجرَّدِ استحضارها كمرحلةٍ باقيةٍ، وهذا هو الحاصلُ هنا، فالغرضُ هو إرادةُ أن تكونَ الدُّنيا والآخرةُ بالنِّسبة للدَّاعي محلَّيْن سالمَين له، وسالمًا فيهما، فالمقامُ يقتضي إيرادَهما بالوصف الَّذي غلبَتْ تسمِيَتُهما به، لا بالأوصاف الفرعيَّة الَّتي تُساق لغرض المفاضلةِ في الحقيقةِ والجزاءِ، ويُلمَحُ فيها وفي سياقها قصدُ لوازمها الدِّلاليَّة منَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والمدحِ والذَّمِّ، والتَّهوين

(1) أجاز مجمع اللغة العربية بقاء الياء في النسب إلى (فَعِيلَة).

والتَّهويلِ، والتَّقليلِ والتَّكثيرِ، وكافَّة الأضداد الَّتي تجري عليهما معًا، ومن هذا: التَّعبيرُ بالعاجلة، ولم يردِ الوصفُ بها إلَّا في ثلاثةِ مواضعَ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: 18]، ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: 27]، ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ [القيامة: 20]، والسِّياقُ شديدُ الظُّهورِ في ذمِّ من يجعلها محلَّ الهِمَّةِ والمحبَّةِ، ثمَّ بالغ في توبيخ هذا المريد المُحِبِّ، بأن وصفَها بالعاجلة، وهو نعيٌ على عقلِ مَن يتعلَّقُ بعاجلٍ لا يستمرُّ، ولا يستقرُّ، أنَّى له أن يفعلَ ذلك، وهو عاقلٌ!

سِرُّ الإفرادِ في لفظِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

عــدَمُ جـمْـعِ (الـدُّنـيـا) مع صحَّـتِـه لُـغـةً، لاعتبارِ حقيقتِها المـوحَّـدةِ لا الموزَّعةِ

الدُّنيا (فُعلى) تأنيثُ أفعلَ (أدنى)، وجمعها (فُعَل)، ككُبرى كُبَر[1]، وعدمُ جمعِها مع صحَّتِه لغةً، لاعتبار حقيقتها الموحَّدةِ لا الموزَّعةِ، والحقيقةُ الموحَّدة بحسب تكوينها الموحَّدِ، وبحسَب كلِّ واحدٍ بذاته، فهي دنيا واحدةٌ، ومرحلةٌ واحدةٌ بالنِّسبةِ لخالقها - جلَّ وعلا - مهما تمتدُّ، ولذلك لم تُجمَعْ لفظةُ ﴿حَيَوٰةٍ﴾ في القرآن، لاعتبار أصلها التَّكوينيِّ والحقيقيِّ بالنِّسبة لله، وإن تعدَّدَت مُتعلَّقاتُها وتوزَّعَت، ولذلك قال الله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، وليسَت تُجمَع باعتبار توزُّعِها وإضافتِها المُتعدِّدةِ للأفراد.

دَلالةُ صِيغةِ وزنِ (فُعلى) للدُّنيا:

معاني الآفاتِ والنَّقصِ، والمكروهِ والتَّوجُّعِ، لَصِيقةٌ بالدُّنيا

الدُّنيا بضمِّ الدَّالِ على وزن (فُعلى) مؤنَّثُ الأدنى، بِمَعْنَى الأقربِ، وهي اسمٌ لهذه الحياة، لِبُعدها عنِ الآخرة، ودنيا: انقلبتِ الواو فيها ياءً؛ لأنَّ (فُعلى) إذا كانت اسمًا من ذواتِ الياء؛ انقلبَت واوها ياءً، كما أُبدِلَتِ الواوُ مكانَ الياء في (فُعلى)، وَوِزانُ (فُعلى) دالٌّ على الآفاتِ والنَّقصِ والمكروهِ والتَّوجُّعِ[2]، وهذه الدِّلالاتُ لَصيقةٌ بتلك الدَّار، بل نصَّ عليها القرآنُ، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (دنو)، وابن منظور، لسان العرب: (دنا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دنا)، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية العربيّة، ص: 140.

مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ [البقرة: 155]، ﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ [الكهف: 45]، وارتبطَ بها الفناءُ والهلاكُ، فقال: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾ [الرّحمن: 26] ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88].

سِرُّ اخْتِيارِ الدُّعاءِ بـ﴿حَسَنَةٗ﴾ دونَ غيرِها:

دَلالـةُ الحُسْنِ علـى الإطــلاقِ، فكـانتْ أحْسنَ مـا يُـصطَـفَى للدُّعاءِ

قوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، نجد مادَّةَ (حسن) تحملُ مَعْنَى المبالغةِ في إظهارِ حُسنِ الشَّيءِ، فهو حُسنٌ ظاهرٌ وباطنٌ[1]، وقد استُعمِلَت هذه المادَّةُ ومشتقَّاتُها في نطاقٍ واسعٍ جدًّا، فشمَلَتِ القولَ والعملَ والجزاءَ والجنَّةَ، ومنها المرتبةُ العليا في المعاملةِ مع اللّهِ: وهي الإحسانُ، وهو بابٌ يطولُ في تشريح مواقعِها ودلالتِها.

والخلاصةُ: أنَّ الدُّعاء بـ﴿حَسَنَةٗ﴾ أُوثِرَ هاهنا لأمورٍ: **أولها:** لدلالتها في ذاتها، وأصلُ صيغتِها على أحسن ما يكونُ في كلِّ شيءٍ، والأحسنُ يُؤثَر، ولايُؤثَر عليه، **ثانيها:** لدلالتها على مُطلَقِ الصِّفةِ، فهي لا تُستعمَلُ فيما هو نسبيٌّ، فدلالتُها مُطلَقةٌ لا نسبيَّةٌ، ولذا تعلَّقَت بتركيبِ الدُّعاءِ للدَّلالة على هذا العمومِ والإطلاقِ، فلو قال مثلًا: واكتبْ لنا في الدُّنيا خيرًا، لم يدلَّ على العموم بمادَّته؛ لأنَّ الخيرَ وصفٌ نسبيٌّ قد لا يعبِّرُ عنِ الحقيقة المُطلَقةِ، ولذلك جاءَ في سياق الذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: 8]، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: 19]، ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [ص: 32]، وأمَّا الْحُسْنُ؛ فهو مُطلَقٌ، فكان أحسنَ ما يُصطَفَى في مَواقع الدُّعاء؛ لأنَّه مقامُ التماسِ الأحسنِ، وهو مقامٌ يُبتغَى فيه المُطلَقُ العامُّ، لا النِّسبيُّ المُحتمَلُ[2].

(1) كلُّ ما جاء في القرآن من هذا التَّركيب فأصلُه مِنَ الْتِقاء الظَّاهريِّ والباطنيّ، ويُفسَّرُ بالطَّيِّب المستحلي أو المستحب صورةً كان أو مُقامًا أو قولًا أو عملًا أو أداءً أو تصرُّفًا ومعاملةً مع النَّاس. يُنظر: جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسن).

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 235 - 300، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 259.

ويُضاف إلى ذلك في سرِّ التَّعبيرِ بها: أنَّها تجمعُ خيرَي الدُّنيا والآخرة، فالمرادُ بها الحالةُ الحسنةُ، وهي مُرضِيَةٌ للنَّاس في الدُّنيا، وفي الآخرة حالةُ كمال[1].

دَلالةُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿حَسَنَةً﴾:

التَّنكيرُ يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سياق الدُّعاءِ تعمُّ[2]، والمرادُ استغراقُ كلِّ حالةٍ حسنةٍ، فهو جمعٌ بين خيرَي الدُّنيا والدِّين والعاجل والآجل.

النَّكِرةُ في سِياقِ الدُّعاءِ تَعمُّ، ولهذا تُؤثَرُ في الدّعاءِ العامِّ غالبًا

دَلالةُ عدَمِ ذكْرِ الفعْلِ ﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ مع ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

لم يُذكرْ لِعدمِ موجبِه، فحذْفُه في الثَّاني مدلولٌ عليه بذِكرِه الأوَّل، ولذلك عُطِفَا؛ لأنَّ العطفَ يُغني عن إعادةِ ذِكْرِ العاملِ، وأيضًا: تكرارُ الفعلِ يدلُّ على قصديَّةِ استقلالِه بالعناية أو المغايرة، بمعنى: أنَّ القائِلَ يقصدُ التَّنبيهَ على مزيد عنايتِه بالآخرة، أو يقصِدُ مطلوبًا في الآخرة ليس من جنس مطلوبِه الأوَّلِ في الدُّنيا، ولذا يُكرِّرُ العاملَ لإرادة التَّباينِ وعدم التَّشريكِ في القصد والحكم، وتلك القصديَّةُ في التَّفريق غيرُ مُرادةٍ في دعاء الدَّاعي؛ لأنَّ الدُّنيا جزءٌ منَ الآخرة، ولا انفصالَ بين العملِ والجزاءِ عليه، فإرادةُ الكَتْبِ حاصلةٌ على السَّواء فيهما، وإعادةُ فِعلِه إخلالٌ بِمُقتَضى الإيجازِ وداعيهِ في النَّظم، ويؤكِّدعدَمَ بلاغةِ التَّكرارِ هنا حذْفُ المفعولِ ﴿حَسَنَةً﴾ منَ الآخرة.

العَطْفُ يُغني عن إعادة ذِكْرِ العاملِ

دَلالةُ (الواو) في: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الواو تدلُّ على الجمعِ وقَصْدِ التَّشريكِ في مضمون الطَّلبِ، أي: اجمعْ لنا حسنةَ الدُّنيا مع حسنةِ الآخرة كذلك، واجعلْهما معًا في كتابةِ ذلك وثبوتِه.

الجمْعُ بين حَسَنةِ الدُّنيا وحَسَنةِ الآخرة، جمْعٌ بين الحسنَتَيْن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.

رفع توهّم اختصاص الدُّنيا بالظَّرفيَّة دون الآخرة

سِرُّ تَكرارِ الظَّرفيَّةِ بـ﴿فِي﴾ مع الآخرة:

كُرِّرَتِ الظَّرفيَّةُ لإثبات أنَّ الحسنةَ مطلوبةٌ في كلِّ الأحوال، فلو زال الحرفُ (في) مع لفظ الآخرة؛ لاحتملَ اختصاصُ الدُّنيا بمعنى الظَّرفيَّة المذكورِ دونَ الآخرة، ولأنَّ حصولَ مَعْنى الظَّرفيَّة في الدُّنيا لا يلزمُ عنه حصولُه في الآخرة، فثبتَ - ضرورةً - لحوقُ حرفِ الوعاءِ بالآخرةِ، بلْ وأولويَّةُ لُحُوقِهِ؛ لِأَنَّ دخولَه في مقامِ الجزاءِ أولى وأجدَرُ.

طَوى الحسنة الأُخرى في الذِّكر، كما هي مَطويّةٌ في الغيبِ

سِرُّ عدَمِ تَكرارِ لفْظِ ﴿حَسَنَةً﴾ مع الآخِرةِ:

اكتفى بحسنَةِ الدُّنيا اكتفاءً منهم بوسيلة العملِ، وأمَّا الجزاءُ عليه؛ فمطويٌّ عنهم فطُوِيَ في كلامهم: لدلالة الحسنةِ الأولى عليها ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾ اكتفاءً بدلالة السَّابق، وللإيذان باختلاف نوعَي الحسنتَين[1]، فحسنةُ الدُّنيا غيرُ حسنةِ الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: 21]، ولأنَّ حسنةَ الآخرة ليسَتْ عملًا، بل هي جزاءٌ على حسنةِ الدُّنيا، فاكتفى بالحسنة المشهودةِ، وَطوىَ الحسنةَ الأخرى في الذِّكرِ، كما هي مَطويَّةٌ في الغيب، وإنَّما طُويَتْ في هذا الموضع؛ لأنَّهم توسَّلوا بالعمل، وجعلُوه عِلَّةً للدُّعاء في قوله: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، فاكتفى بحسنةِ الدُّنيا؛ لمناسبتها وسيلةَ العملِ والحالِ المذكورة، ويصِحُّ أنَّ حذْفَ المعمولِ مع ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لاحتمالِ عدَمِ توفُّرِ عنايةِ الدَّاعي به عنايتَه بحسنة الدُّنيا؛ لقوَّة حضورِ سببِ الأخير ومعاينته بحدوث الرَّجفةِ، فسألَ حصولَ ما يندفعُ به البلاءُ الحاضرُ الَّذي أحوجَهُ للانشغال والهمِّ به من غيره، ولكون حصولِ حسنةِ الدُّنيا بعد هذا الموقف أمارةً على حصول حسنةِ الآخرةِ، فاكتفى بذكْرِ حصولِ الملزومِ (الأمارة) عن حصول لازمِها (حسنة الآخرة)، أو أنَّ ضِيقَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.

المقام أحوجَ الدَّاعيَ موسى ﵇ لحذْف المعمولِ مِنْ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِكونِ دُعائه بعد توجُّعٍ وتفجُّعٍ.

سِرُّ الاكْتِفاءِ بالصِّفةِ دونَ الموصوفِ:

رعايةُ حُسْنِ المقابَلةِ من مَواقعِ البديعِ

في قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ اكتفى بالصِّفة دون الموصوف، فلم يقُل: (الدَّار الآخرة) رعايةً لِحُسنِ المقابلةِ، فكما اكتفى بالدُّنيا، ولم يقُل: الحياة الدُّنيا، اكتفى بها عنِ الموصوف كذلك، وأيضًا: التَّعبيرُ بالموصوف (الدَّار) يأتي في سياقات التَّنبيه على المفاضلةِ بينها وبين الدُّنيا، ولتقرير أنَّها القرارُ، وهو ما ليس مقصودًا في هذا الموضع.

سِرُّ تأْخِيرِ طلَبِ كتابةِ الحَسنةِ في الدُّعاءِ:

دَرْءُ الضَّررِ، مُقدَّمٌ على تحصيلِ المنفعةِ

بدأ دعاءَهُ ﵇ بإقرار الولايةِ لله بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، والوليُّ النَّاصرُ المُعينُ المؤمَّلُ في دفْعِ الضَّررِ وتحقيقِ المنفعةِ، ودرْءُ الضَّرر مُقدَّمٌ؛ فلذلك ثنَّى بقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، ثمَّ أتبعَهُ برجاءِ تحصيلِ المنافعِ، فثلَّثَ بقوله: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾؛ ليكونَ دعاؤُه جامِعًا مُشتمِلًا على ثناء العبوديَّة، ثمَّ السُّؤال بدفع الشَّرِّ وقِسمةِ الخيرِ، وهو سِرُّ تأخيرِ طلَبِ كتابة الحسنةِ في الدُّعاء.

القِيمةُ البلاغيَّةُ للمقابَلةِ بين الدُّنيا والآخِرة:

المقابَلةُ تقعُ في المعانِي والمبانِي معًا

تظهرُ قيمةُ المقابلةِ في التَّسوية بين دارِ العملِ ودارِ الجزاءِ في رجائِهما معًا، إذِ اللَّازمُ لا ينفكُّ عن ملزومه، ولا يكونُ إلَّا به، وفيه: الإلفاتُ إلى أنَّ حسنةَ الدُّنيا ليسَت مطلوبةً لذاتِها، بل هي تتقابلُ مع جزائِها في الآخرة، وفي المقابلة إيذانٌ بأنَّ صلاحَ الدُّنيا صلاحٌ للآخرة، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ المقابلةَ في أصلها تقعُ على المعاني والألفاظ؛ إذ لو وقعَت على اللَّفظ فقط لم يحصلِ الإيجازُ في أحد طرفيها بناءً على ذِكره في مُقابله السَّابق عليه.

دَلالةُ فصْلِ قولِه: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ عمَّا قبْلَه:

فُصِلَتْ هذه الجملةُ؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ واقعةٌ موقعَ التَّعليل لِمَا

إرادةُ الاسْتِئنافِ وقصْدُ التَّعليلِ، يُغنِيانِ عنِ الرَّبْطِ بالعطْفِ

قبلَها منَ الدُّعاء والاستجابة، وأيضًا: لوقوعِ حرفِ التَّأكيدِ في أوَّلها موقعَ الاهتمامِ، فيفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ، ويغني عن فاء السَّببيَّةِ، وورودِ العاطف(1).

دَلالةُ التَّأكيدِ بقولِهِ: ﴿إِنَّا﴾:

إظهارُ كمالِ إقبالِهم، وتحقُّقِ عزمِهم في التَّوبةِ

دلَّ التَّأكيدُ بـ(إنَّ) على إظهار كمالِ إقبالِهم، وتحقُّقِ عزمِهم في التَّوبة، وحرصِهم على استنزالِ التَّوبةِ منَ اللّه لهم، والمعنى: "إنَّا تُبنا، ورجعنا عمَّا صنَعنَا منَ المعصيةِ العظيمةِ الَّتي جئناك للاعتذار عنها، وعمَّا وقعَ ههنا من طلب الرُّؤيةِ، فبعيدٌ من لطفِك وفضلِكَ ألَّا تَقْبلَ توبةَ التَّائبين"(2).

سِرُّ التَّعْبيرِ بنُون الجمْعِ في: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ﴾:

إمامةُ موسَى عليه السلام في الدُّعاء لقَومِه، بابُ القَبولِ لهم

الدُّعاءُ واردٌ من موسى عليه السلام على سبيل النِّيابةِ عن جماعةٍ، وهم قومُه، فجمع الضَّميرَ، باعتبار أنَّ النَّبيَّ إمامُ قومِه، فكما كان إمامَهُم في الاختيار منهم ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾، فهو أيضا إمامُهم في الاستغفار عنهم، ولذا اطَّردَ ضميرُ المتكلِّمين في كافَّة دعائهِ: ﴿وَلِيُّنَا﴾ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ ﴿إِنَّا هُدۡنَآ﴾، وهو دالٌّ على أنَّ الأنبياءَ أرحمُ النَّاسِ بالنَّاس، وفيه أنَّهم شفعاءُ الأممِ عندَ اللّهِ، وهو دالٌّ على الاختصاص أيضًا، أي: اكتب لنا خاصَّةً؛ لأنَّه كان يدعو لنفسِهِ ولأمَّته فقط.

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِهِ: ﴿هُدۡنَآ﴾، دونَ غيره:

التَّعْبِيرُ بهذا اللَّفْظِ يُناسِبُ حالةَ العِصيانِ الَّتي اقْترفُوها

التَّعبيرُ عنِ التَّوبة بلفظ ﴿هُدۡنَآ﴾ مِنَ الهَوْد، وهو رجوعُ الباطن عمَّا بَدَر في الظَّاهرِ برفْقٍ وتُؤَدَة، فهو رجوعٌ خاصٌّ، يتعيَّنُ في الباطن ويشملُه، والتَّعبيرُ بهذا اللَّفظ يناسبُ، ويقابلُ حالةَ العصيان الجهريَّة والجماعيَّةَ الَّتي اقترفوها، فكأنَّهم يقولون: إذا كنَّا عصيناك جهرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

بطلب ما لا يليقُ بك - سبحانَك - منَ الرُّؤية، فبواطنُنا قد تشرَّبتْ بالتَّوبة، وامتلأَتْ بالضَّراعة، "فعبَّر بهذا اللَّفظ أو ما يدلُّ على معناه؛ تنبيهًا لهم على أنَّ اسمَهم يدلُّ على التَّوبةِ والرُّجوع إلى الحقِّ والصَّيرورةِ إلى الصَّلاحِ واللِّينِ والضَّعفِ في الصَّوتِ والاستكانةِ في الكلامِ والسُّكوتِ عمَّا لا يليقُ، وأنَّ يَهودَا الَّذي أُخِذَ اسمُه من ذلك، إنَّما سُمُّوا به، ونُسِبوا إليه تفاؤلًا لهم؛ ليتبادروا إلى التَّوبة"[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالماضِي ﴿هُدۡنَآ﴾:

التَّعْبيرُ بالماضِي لإفادةِ التَّحقُّقِ، ومُباشَرةِ التَّلبُّس بالفعلِ، فوْرَ حُصولِ مُوجِبهِ

عبَّرَ بالفعل الماضي ﴿هُدۡنَآ﴾ لإفادةِ التَّحقُّقِ منَ التَّوبةِ، وأنَّهم لم يُناجوه بالاستغفار والدُّعاء إلَّا وهم مُتلبِّسون بصلاح الباطنِ، ولإفادةِ الفوريَّةِ، بمعنى: أنَّهم بمُجرَّدِ تورُّطِهم في العصيان سارعوا بالتَّوبة، ولم يتمهَّلوا فيها، أي: تُبنا فوْرَ معصيتِنا، ومن قَبلِ توجُّهِنا بالدُّعاء إليك.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿إِلَيۡكَۚ﴾ دونَ (لك)، في قوله: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾:

تَحديدُ الغايةِ في مَقامِ العُبوديَّةِ، هـو سَبيلُ الوُصولِ إلى المعبودِ

الفعلُ المُعَدَّى بالحروفِ المُتعدِّدةِ، لَه مع كلِّ حرفٍ مَعْنًى زائدٌ[2]، فإذا تَعَدّىَ الفِعل بـ(إلى) أفادَ النَّصَّ على الغايةِ في الكلام؛ لأنَّ (إلى) حرفُ انتهاءِ الغاية، والسِّياقُ في مقامِ الدُّعاءِ، والفعلُ ﴿هُدۡنَآ﴾ فِعلُ التَّوبةِ، فهو مَقامُ عبوديَّةٍ، فنَاسَبَ أن يقولَ: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾؛ لِيُحدِّدَ الغايةَ في مقامِ عبوديَّتِه؛ لأنَّ القَصدَ القلبِيَّ والتَّوجُّهَ في هذا المقامِ مرتبطٌ بهذه الغايةِ الَّتي هي اللَّهُ ﷻ فعبَّر بحرفِ الانتهاءِ؛ ليدلَّ على مَعْنَى السَّعيِ المتواصِلِ في طلَبِ الغايةِ، أي: الاستمرارُ على فِعلِ التَّوبةِ حتَّى تَتَحقَّقَ الغايةُ، وينتهي الفِعلُ إلى آخرِ وقتِه، والتَّعبيرُ بـ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ يُفيدُ انتظارَهم للقبولِ وعدمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/104.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/20، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 104، والخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 263.

ضمانتِهم له، واستمرارَهم على خُلُقِ التَّوبة، فتَعدِيةُ الفعلِ بحرفِ الانتهاءِ أَلْيَقُ في هذا السِّياقِ، وأبلَغُ في التَّأدُّبِ مع اللّه ﷻ إذ كانَ الدُّعاءُ واردًا على لسانِ موسى ﵇ بعدَ جناياتِ قومِه المُتتابعة، ولذا لم يُناسِبْ أن يقولَ: (هُدْنَا لَك)؛ لأنَّ اللَّامَ حرفُ اختصاصٍ وتعليلٍ وتَعدِيَة، فيكونُ معناهُ جَعْلَ الفِعْلِ مُختَصًّا بالمعمول وخالِصًا له، وهو لا يُناسِبُ المقامَ هنا أبدًا، فأينَ تلك الخصوصيَّةُ، وهذا الخُلُوص بعدَ ارتكابِ الجناياتِ الَّتي تقتضِي الاستغراقَ في مُزاوَلَةِ التَّوبةِ في إشفاقٍ ورهبَة؟ فيكون التَّعبيرُ حينئذٍ بـ(هُدْنَا لَك) فيه تَقريبٌ منَ التَّوفيق والقبولِ بغيرِ مَا يَقتَضِيه الموقفُ والحال، فيكونُ نُزولًا في رُتبَةِ التَّخشُّعِ بينَ يدي اللّه، وهو ما يَتَنَزَّهُ عنه فِقهُ الأنبياءِ ﵈ بمواقِعِ الكلامِ ومناسَبَاتِ المقام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإضْمارِ في ﴿إِلَيْكَۚ﴾:

الدُّعاءُ مَحلُّ خطابِ الرَّبِّ، والخطابُ أَلْيقُ بحالِ النَّجْوَى بينَه وبين عبْدِه

الإضمارُ بكافِ الخطابِ مراعاةٌ لمقامِ الدُّعاء، فالدُّعاءُ محلُّ خطابِ الرَّبِّ، والخطابُ أليقُ بحالِ النَّجوى بين العبد وربِّه، ولو قال: (إنَّا هدنا إلى اللّه)؛ لكانَ خروجًا عن هذا المقام، وفصلًا للوسيلةِ عن بدايةِ المطلَبِ؛ لأنَّه ساقَ دعاءَه بالخطابِ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، والوسيلةُ ختْمٌ لدعائِه، فيجري الختْمُ على أسلوبِ البدْءِ؛ ليتطابقَ المطلعُ والختامُ.

دَلالةُ تأْخِيرِ: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ عن طلَبِ الدُّعاءِ:

تَقدُّمُ الوسيلةِ على السُّؤالِ، نزولٌ في رُتْبةِ الأدَبِ

دلَّ تأخيرُ جملةِ: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ عن طلبِ الدُّعاءِ على جوازِ الاستعطافِ بالوسيلة بعدَ الدُّعاء؛ لأنَّ الجملةَ تعليليَّةٌ لمَا قبلَها، والوسائلُ تلحقُ المطلوبَ، ولا تتقدَّمُ عليه؛ لأنَّ تقدُّمَ الوسيلةِ على السُّؤالِ نزولٌ في رتبةِ الأدبِ من جهة كونِه احتجاجًا على المسؤول بها قبلَ السُّؤالِ، فتأخيرُها هو الأدبُ العالي؛ لأنَّ فيه اعتبارَ مقامِ الكريمِ وآثارَ صفاتِه الحسنى مِن بسطِ العطاءِ وسبقِ الرَّحمةِ، قبلَ

اعتبارِ كسْبِ الدَّاعي مِنَ العمل، واعتبارُ مقام المَلِك أولى في المقام مِن اعتبارِ مقام العبدِ، فقُدِّمَ ما للّه، وأُخِّرَ ما للعبدِ، "وإنَّما ذكرَ هذا السَّببَ أيضًا؛ لأنَّ السَّببَ الَّذي يقتضي حُسنَ طلَبِ هذه الأشياء ليس إلَّا مجموعَ هذين الأمرين: كونه إلهًا وربًّا ووليًّا، وقد توسَّلَ به في قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، وكوننا عبيدًا له تائبين خاضعين خاشعين، فالأوَّلُ: عهدُ عِزَّةِ الرُّبوبيَّةِ. والثَّاني: عهدُ ذِلَّةِ العبوديَّةِ، فإذا حصلَا، واجتمعَا، فلا سببَ أقوى منهما"[1].

دَلالةُ فصْلِ قولِه: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾ عمَّا قبلَه:

إيجادُ حُكمٍ عامٍّ، يقعُ على النَّاسِ جميعًا

فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها في موقعِ الاستئنافِ البيانيِّ، كأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى له بعدَ دُعائِه؟ فقيل: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾[2]، ودلالةُ الفصل بالاستئناف: إنشاءُ حكم عامٍّ يقعُ على النَّاس جميعًا، ولا يتعلَّقُ بخصوص الدُّعاءِ الَّذي دعا به موسى ربَّه[3]، ففيه التفاتٌ عنِ الخاصِّ بتقرير العامِّ الَّذي يقعُ تحتَ حكمِه، فوكَلَ شأنَهم الخاصَّ لحكمِه العامِّ.

وفيه إيذانٌ بقَبول توبتِهم بحسب الحكمِ العامِّ لا بحسب تخصيصِهم بالتَّوبة، وممَّا يُذكرُ في سبب الفصلِ: جريانُ السِّياق على طريقة المحاورة[4]، وهذا واضحٌ في سياق الآياتِ الواردةِ في هذا المشهدِ، بَدْءًا من قوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ﴾ الآيات.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعذابِ في ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾، دونَ الهَلاكِ:

هنالك فرقٌ بين قَصْدِ التّخْويفِ والتّأْديبِ، وبين قَصْدِ الإزالةِ

عبَّرَ بالعذابِ دونَ الهلاكِ؛ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالهلاكُ فناءٌ عامٌّ في العقوبةِ وغيرِ العقوبةِ، في الإنسانِ والحيوانِ والجماد، ويفيدُ زوالَ الشَّيءِ وقطْعَ أثرِه، فليس شرطًا أن يأتيَ في العقوبة، وأمَّا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/379.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/72.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 5/492.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.

العذابُ؛ فإيجاعُ الشَّيءِ وإيلامُه حتَّى تزولَ عنه عذوبةُ العصيان والهوى، ولا يأتي إلَّا في العقوبة، ويقعُ في الدُّنيا والآخرة، ولم يُستعمَلِ الهلاكُ في القرآن في الآخرة، وقد لا يُقصَدُ بالعذاب الاستئصالُ والفناءُ، وعبَّر هنا بالعذاب لقصْدِ تخويفهِم وتأديبهم لا زوالهم.

والفائدةُ هاهنا جعْلُ العذابِ محاذاةَ الإهلاكِ الَّذي فهِمَه موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾، فجاءَت تلك الجملةُ في حكمِ الجوابِ عليها، وهي قوله: ﴿عَذَابِيٓ﴾، أي: ذلك عذابٌ، وليس إهلاكًا، وهو كأسلوبِ الحكيم في الجواب.

دَلالةُ الإضَافةِ في قولِه: ﴿عَذَابِيٓ﴾:

تهويلُ العذابِ والتَّخويفُ منه، مَنهجٌ لِعلاجِ البَشَرِ

الإضافةُ إلى ضمير الجلالةِ تفيدُ تعريفَ العذابِ وتعيينَه، والتَّعريفُ للعهد، أي: عذابُ اللّه الكائنُ منه وحدَه، فإنَّ الإضافةَ للمعرفة تُفيدُ التَّعريفَ، والإضافةَ للنَّكرة تفيدُ التَّخصيصَ، والقصدُ في التَّعريف إفادةُ العهدِ أو الجنس، والقصدُ في التَّخصيص تقليلُ الاشتراكِ[1]، أي: هو عذابٌ منَ اللّه وحدَه لا يشتركُ في إحداث مثلِه أو إحداثِه أحدٌ سواه، ففي إضافة العذابِ للّه تهويلٌ للعذاب وتفجيعٌ منه، وتحضيضٌ على أن يُنسبَ العذابُ الواقعُ له سبحانه لئلَّا يُغفَلَ عن كونه منهُ، فيغفُلُوا عن مسارعةِ التَّوبةِ إليه، وفي إضافةِ العذابِ للّهِ تقريرٌ بأنَّ العذابَ حقٌّ لا ظلمٌ؛ لأنَّه منَ اللّه الحقِّ، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإصابةِ، في قولِه: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ التَّعذيبَ واقعٌ بحقٍّ وعدْلٍ

التَّعبيرُ بالإصابةِ في قوله: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾ دونَ التَّعذيبِ؛ ليدلَّ على أنَّه واقعٌ بحقٍّ وعدلٍ لا جَوْرَ فيه، لاشتمالِ الإصابةِ على مَعْنَى القصدِ[2]؛ الَّذي لا يتعدَّى لغير الجاني، ولا يزيدُ على ما ارتكبَه الجاني، فنَفَى عن عذابِه بهذا التَّعبير شيئَين: الخطأَ والظُّلمَ، وفي

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/134.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).

التَّعبير بالإصابةِ مَلمَحٌ آخر: وهو إيقاعُ العذابِ على جهةِ التَّخفيفِ مشمولًا بلطفِه وعِظَتِه، ولو قال: أعذِّبُ به مَن أشاء؛ لدلَّ على شِدَّة الملابسةِ وإطباق العقوبةِ وإحاطة العذابِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ لفظَ الإصابة ليس مُتمحِّضًا في العذابِ، فهو يأتي في الخيرِ والشَّرِّ بخلاف العذابِ، فهو مُتمحِّضٌ في إيقاع العذابِ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارع، في قوله: ﴿أُصِيبُ﴾:

العذابُ حاصلٌ بمُقتضَى عِصيانِ الخَلْقِ، لا بمُقتضَى رُبوبيَّتِه

التَّعبيرُ بالمضارع ﴿أُصِيبُ﴾؛ ليدلَّ على حصوله بمقتضاه الحادثِ، وهو تجدُّدُ المعاصي منَ الخلقِ، وليفيدَ أنَّ العذابَ ليس أصلًا في الإرادة، بل هو يحدثُ بحدوثِ سببِه، وليس صفةً من صفاتِ اللّهِ الأزليَّةِ كالرَّحمة، بل من أفعالِه المتَرَتِّبةِ على صفة العدلِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى تخويفِ العاصين، وذلك بتجدُّدِ العذابِ كلَّما تجدَّدتِ المعاصي.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالإضْمار ﴿بِهِۦ﴾:

في الإضْمارِ طَيٌّ لِذِكْرِ العذابِ، إعْراضًا عن تَكرار لَفْظِه

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾، ولم يقُل: (بالعذاب)؛ للاستغناء عنه بالظَّاهر السَّابقِ، ولاسيَّما وهو قريبٌ، وليس بينهما فاصلٌ يقتضي الإظهارَ، وفي الإضمار طَيٌّ لِذِكرِ العذابِ إعراضًا عن تكرار لفظه؛ ليُعرِضَ العبادُ عنِ اقترافِ أسبابِه، وفيه أنَّ العذابَ غيرُ مرغوبٍ فيه ذِكرًا وواقِعًا.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿مَنْ﴾ الموصولةِ، في قولِه: ﴿مَنْ أَشَآءُۖ﴾:

رحمةُ اللهِ سَبقَت غضبَه، ووسِعَتْ كلَّ شيءٍ

عبَّرَ هنا بـ﴿مَنْ﴾ الَّتي تفيدُ عمومَ الأفرادِ بخلاف (الَّذي)؛ فهو موصولٌ خاصٌّ[2]؛ من حيثُ الاستعمالُ، ومن حيث الدَّلالةُ، فهو يفيدُ الإظهارَ والتَّحديدَ، وأمَّا ﴿مَنْ﴾؛ فموصولٌ مُشتركٌ في الاستعمال والدَّلالة، فيفيد السِّترَ والإبهامَ، وكأنَّ اللّه لا يريدُ التَّشنيعَ على مَن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/192.
(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/123.

يعصي تشنيعًا يخلو منَ الإعذارِ وسبقِ المرحمةِ، بل يريدُ له السَّترَ الَّذي يجعلُه في مُهلةٍ من أمره.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمشيئةِ دونَ الإرادةِ، في قولِه: ﴿مَنۡ أَشَآءُۖ﴾:

الإرادةُ احتِماليَّةٌ، والمشيئةُ قطعيَّةٌ، واللهُ يفعلُ ما يشاءُ ويريدُ

الإرادةُ أعمُّ منَ المشيئةِ من حيثُ التَّحقُّقُ والنَّفاذُ، فالإرادةُ قد يُرَادُ بها التَّحقُّقُ فيجب أن تقعَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرّعد: 11]، وقد يُرادُ بها الإنشاءُ مع احتمالِ عدم وقوعِها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النساء: 28]، فهي إرادةٌ ناشئةٌ، لكن لا يلزمُ إنفاذُها، وأمَّا المشيئةُ؛ فهي أخصُّ، وهي جاريةٌ في الواقع النَّافذِ، ولذا عُلِّقَتْ عليها مشيئاتُ الخلقِ، قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]، وقولُه ﷺ: «ماشاء اللهُ كان»، أي: وقعَ وحصلَ وجوبًا، وعليه: فإنَّ التَّعبيرَ الأنسبَ هاهنا المشيئةُ دونَ الإرادة؛ لأنَّ الإرادةَ احتماليَّةٌ، والمشيئةَ قطعيَّةٌ، ولو قال هنا: عذابي أُصيبُ به مَن أريد؛ لكان غيرَ مناسبٍ لقوله: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإصابةَ هي وقوعُ العذابِ، فعلَّقه على ما يفيدُ الوقوعَ قطعًا، وهي فِعلُ المشيئةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مَنۡ أَشَآءُۖ﴾:

تعليقُ العذابِ بالمشيئةِ دونَ الأعمالِ، مُسامحةٌ وعفوٌ من ذي الجلالِ

علَّقَ العذابَ على مشيئتِه لا على إساءة العبدِ، فقال: أشاءُ، لا: أساء[1]، أوَّلًا: لِيُفهَمَ أنَّ المغفرةَ جائزةٌ عقلًا، ولو من غير توبةٍ؛ للتَّعليق على مشيئةِ الخالقِ لا عملِ المخلوقِ. وثانيًا: ليكون استدراكًا على قوله: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، أي: عذابي ورحمتي تعلَّقَا بمشيئتي لا بكسبِ الأعمال[2]. ثالثًا - وهو النُّكتةُ هاهنا -: أنَّ تعليقَ العذابِ بالمشيئة إيذانٌ بِقُربِ المسامحةِ والعفوِ منَ العذاب؛ لأنَّ مشيئةَ اللهِ أنهضُ على العفو، وأفسحُ للتَّجاوز من أعمال الخَلقِ الَّتي قد تضيقُ عنهم.

---

(1) وهي قراءةٌ لا تصحّ. يُنظر: ابن جنيّ، المحتسب: 1/261.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/576.

سِرُّ عدَمِ التَّصريحِ بالمشيئةِ مع الرَّحمةِ:

تعظيمُ أمرِ الرَّحمةِ، دليلٌ على عِظَمِ شأنِها، وجَلالةِ نفْعِها

طوى ذِكرَ المشيئةِ في الرَّحمة تعظيمًا لأمرها، وفي عدم تقييدها بالمشيئة نكتةٌ بديعةٌ: وهو أنَّ وسْعَ الرَّحمةِ المذكورَ وتعلُّقَه بـ﴿كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ يدلُّ على أنَّ المرادَ هو الرَّحمةُ العامَّةُ - بدليل العموم - وتلك الرَّحمةُ تسعُ كلَّ شيءٍ قطعًا، وملازمةُ المشيئةِ لذلك أمرٌ أزليٌّ قد فُرِغ منه، فلا حاجةَ لتقديره، بخلاف العذابِ والإصابةِ به، فغيرُ مُتحقَّقٍ فيه هذا اللُّزوم، ولعلَّ هذا ما أراد أن يرمي إليه القشيريُّ بقوله: "لمّا انتهى إلى الرَّحمة لم يعلِّقْها بالمشيئة؛ لأنَّها نفسُ المشيئة، ولأنَّها قديمةٌ، والإرادةُ لا تتعلَّقُ بالقديم، فلمَّا كان العذابُ من صفات الفعلِ علَّقَه بالمشيئة، بعكس الرَّحمة؛ لأنَّها من صفات الذَّات"[1].

وممَّا يُذكَرُ في ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقوله: "والمشيئةُ مُعتبَرَةٌ في جانب الرَّحمةِ - أيضًا. وعدمُ التَّصريحِ بها للإشعار بغاية الظُّهورِ، يؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾، أي: أُثبتُها وأعيِّنُها، فإنَّه مُتفرِّعٌ على اعتبار المشيئةِ، كأنَّه قيل: فإذا كان الأمرُ كذلك، أي: كما ذُكِرَ من إصابةِ عذابي وسَعَةِ رحمتي لكلِّ مَن أشاءُ، فسأكتبُها كَتْبَةً كائنةً، كما دعوْتَ بقولك: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾"[2].

دَلالةُ حَذْفِ مفعولِ المشيئةِ للفعْلِ ﴿أَشَآءُۖ﴾:

مَلْمحُ الإعْظامِ والإجلالِ لذاتِ اللهِ

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ؛ لأنَّه معلومٌ مِنَ السِّياق قبلَهُ، أي: أشاء إصابتَه أو تعذيبَه، أو أشاء إيَّاه، وفيه دلالةٌ معنويَّةٌ، مفادُها عدمُ العنايةِ بالمفعول، لا من حيثُ إرادةُ إهمالِه أو النَّعيُ عليه، بل من حيث قصديَّةُ عدم الإطنابِ في ذِكرِ مُتعلِّقاتِ العذابِ والتَّفصيلِ فيها وإظهارِها، وأيضًا في تجريدِ المشيئةِ عنِ اقترانِ مفعولِ التَّعذيبِ بها إعظامٌ وإجلالٌ لذاتِ اللّهِ، ولاسيَّما في هذا السِّياقِ الَّذي هو

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/576.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

جوابٌ على دعاءِ كليمِ اللّهِ ومصطفاه ﷺ فَطَيُّ المفعولِ في الذِّكر بابٌ من إكرامِ اللّهِ لنجوى نبيِّه معهُ، وفيه إشعارٌ بأنَّ مبدأَ العذابِ عارضٌ مُوجَزٌ، فلا ينبغي التَّعرُّضُ لأسبابِه والخوضُ فيها بالتَّعمُّقِ والزَّللِ، وقد "جاء الكلامُ على طريقةٍ مُجملَةٍ شأنَ كلامِ مَن لا يُسألُ عمَّا يَفْعَلُ"[1].

دَلالةُ تَقْديمِ ذِكْرِ العذابِ على الرَّحمةِ:

التَّخويفُ بالعذابِ بابٌ من أبوابِ النَّجاةِ

قوله تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، قدَّمَ اللّهُ تعالى ذكرَ العذابِ على الرَّحمة؛ لأنَّه يكون لمخالفِ الفطرةِ السَّليمةِ، وللتَّحذيرِ من فعلِ الشَّرِّ؛ ليختارَ المُكلَّفُ فعلَ الخيرِ[2].وممَّا يُذكَر في هذا قول الآلوسيِّ: "ولعلَّ تقديمَ وصفِ العذابِ دونَ وصفِ الرَّحمةِ؛ ليفرُغَ ذهنُ موسى ﷺ ممَّا يخافُ منه، مع أنَّ في عكسِ هذا التَّرتيبِ ما يُوجبُ انتشارَ النَّظمِ الكريمِ، ووصْفُ أخلاقِ بني إسرائيلَ بما وُصِفوا به لاستنهاضِ هِمَمِهم إلى الاتِّصافِ بما يمكن اتِّصافُهم به منه أو إلى الثَّباتِ عليه"[3].

دَلالةُ الإتْيانِ بجُملةِ: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾ عقِبَ: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾:

تقريرُ عُمومِ رحمةِ اللّهِ، بعدَ تقريرِ خُصوصِ العذَابِ

أتى بهذه الجملةِ عقبَ ما قبلَها للدَّلالةِ على عمومِ رحمةِ اللّهِ بعدَ تقريرِ خصوصِ عذابِه، فالرَّحمةُ تعمُّ، والعذابُ يخصُّ، ولو كان العذابُ عامًّا ما ترَكَ على ظهرِها من دابَّةٍ.

وأيضًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ معطوفٌ على جملةِ مقولِ القولِ[4]: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾.

دَلالةُ الواوِ، في قولِهِ: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾:

الجمْعُ بين التَّرهيبِ والتَّرغيبِ في السِّياقِ

دلَّتِ الواوُ على الجمْعِ بين التَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ لأنَّ في العطف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2966.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/78.
(4) محمود الصّافي، الجدول: 9/93.

محاذاةً ومقابلةً مع "قول موسى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، وهو وعدُ تعريضٍ بحصول الرَّحمةِ المسؤولةِ له، ولِمَن معه منَ المختارين"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالرَّحمة دونَ الحسنةِ:

الرَّحمةُ في هذا السِّياق أعمُّ، والحسنةُ آثَرُ منها وأتَمُّ

قوله تعالى: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾، الرَّحمةُ فيه صفةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ للذَّات العليَّةِ، والحسنةُ ما هي إلَّا أثرٌ من آثار تلك الرَّحمة، وفردٌ من أفرادها، فلو قال: (وحسَنَتِي وَسِعَت كلَّ شيءٍ) لم يصحَّ؛ لأنَّ الحسنةَ أثرُ وُسْعِ الرَّحمة، وليست هي الَّتي وسِعَتْ، ولو عبَّرَ بالحسنةِ؛ لاقتضى عدمَ العمومِ المقصودِ من وسعِ الرَّحمة، ولكانَت خاصَّةً مثل العذابِ المذكورِ، ولو كان ذلك كذلك؛ لحاذَتِ المغفرةُ العذابَ؛ لأنَّه لا غلبةَ، ولا سبقَ للحسنةِ على العذابِ كما سبقَتْ رحمتُه، وغلَبَتْ، فضلًا عنِ التَّعبير بالحسنة - كما طلبوا في سؤالهم - لا يصحُّ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ المقصودَ بالحسنةِ في سؤالهم العملُ والجزاءُ عليه، وهو مُنفكٌّ عنِ المَعْنَى المقصود من: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ﴾، ولا يشمَلُه، بل هو مشمولٌ في تعبير الرَّحمة.

دَلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾:

تعريفُ الرَّحمةِ وتعظيمُها، في التّناوُلِ القرآنيّ

الإضافةُ إلى ضمير الجلالةِ تُفيدُ تعريفَ الرَّحمةِ وتعظيمَها، والتَّعريفُ للعهد، أي: رحمةُ اللهِ الكائنةُ منَ الواحدِ المتعالِ، وإضافتُها لضمير الذَّاتِ العليَّةِ مع قرينةِ وصفها بالوسعِ والشُّموليَّةِ يفيدُ ذاتيَّتها، وأنَّها أصلٌ في الإرادة والمشيئةِ وسابقةٌ فيهما.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَسِعَتۡ﴾:

رحمةُ الله عمَّت كلَّ شيءٍ، وشملَت كلَّ الوُجود بلا حُدودٍ

التَّعبيرُ بالوسع؛ لعدم غائيَّةِ الإحاطةِ فيه، فلا يُلمَحُ فيه الحدودُ، ولذا قرنَهُ بالعموم بعدَهُ، فهو لفظٌ "مُستعمَلٌ مجازًا في الإحاطة بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ الواسعَ يكون أكثرَ إحاطةً"[2]، ولسَعةِ هذا اللَّفظ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/11.

مصاديقهِ، فهو يُقال في "الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل"[1]، وهو لفظٌ واسعٌ كذلك في أدائه الصَّوتيِّ، وهو يدلُّ على انفتاحٍ وانشراحٍ حسِّيٍّ ومعنويٍّ، وفيه بشارةٌ لموسى ومَن معه بقَبول دعاءِ اللّهِ منهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَسِعَتۡ﴾:

مَلمحُ المفاضَلةِ بين الرَّحمةِ والعذابِ، بدلالةِ الإسنادِ إلى مُتغايرَيْن في الصِّيغةِ

عبَّر بالماضي ﴿وَسِعَتۡ﴾ للدَّلالة على أنَّ سعةَ رحمةِ اللّهِ أمرٌ مُقدَّرٌ أزليٌّ، وفيه إيذانٌ بأنَّ الرَّحمةَ مُقتضى ذاتِ اللّهِ سبحانه[2]؛ وفي ذلك إيماءٌ إلى المفاضلة والمفارقة بينها وبين العذاب الَّذي عبَّر عنه بالمضارع ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾، وقد سبقَ في مَوضِعه.

دَلالةُ اخْتيارِ ﴿كُلَّ﴾ دونَ (جميع):

دَلالةُ (كلّ) على الاسْتِغراقِ الحصْريِّ، و(جميع) على العُمومِ الإحاطيِّ

قوله تعالى: ﴿وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، آثرَ التَّعبيرَ فيه بـ﴿كُلَّ﴾ دون (جميع)؛ لدلالة ﴿كُلَّ﴾ على الاستغراقِ الفرديِّ أو التَّفصيليِّ، ودلالةِ (جميع) على الاستغراقِ الجمعيِّ أو التَّوزيعيِّ.

فـ(كلُّ) [3] "تدلُّ على كلِّ فردٍ بطريق النُّصوصيَّة، بخلاف (جميع) فإنَّه يدلُّ على (جميع) الأفرادِ، وهو الَّذي يُرادُ من قولهم، وإنَّ (جميع) للعموم الإحاطيِّ"[4]، فلو قال: وَسِعَتْ رحمتي جميعَ الأشياء؛ لكانتِ الرَّحمةُ مُستغرِقةً لمجموعهم مُوزَّعةً على مجموعهم بانقسامها عليهم، فلو قال مثلًا أميرٌ لجنده: (كلُّ مَن دخلَ هذا الحصنَ أوَّلًا؛ فله ألفُ دينارٍ)، فدخله واحدٌ؛ استحقَّ الألفَ، وإن دخلوه جميعًا؛ استحقَّ كلُّ واحدٍ منهم ألفًا. وإذا قال لهم: (جميعُ مَن دخلَ هذا الحصنَ أوَّلًا؛ فله

(1) الرّاغب، المفردات: (وسع).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

(3) كلمة (كلّ) إذا دخلَت على النّكرة أوجبَت عمومَ أفرادها على سبيل الشّمول دون التّكرار، وأمّا كلمةُ (الجميع)؛ فإنّه مُتعرِّضٌ لصفة الاجتماع، فـ(كلّ) عامٌّ بمعناها دونَ صيغتها فتحيط على سبيل الإفرادِ، و(جميع) منَ العامِّ معنًى، فتوجب إحاطةَ الأفرادِ على سبيل الاجتماعِ دون الانفراد. يُنظر: الكفويّ، الكلّيّات: 1/600.

(4) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/145.

ألفُ دينار)، فدخله واحدٌ؛ استحقَّ الألفَ، وإن دخلَهُ جماعةٌ؛ استحقُّوا ألفًا، فقُسِّم بينهم[1].

دَلالةُ التَّعْبير بـ﴿شَيۡءٖ﴾:

وُسعُ الرَّحمةِ وعُمومُها، دالٌّ على أنَّها استغرقَتِ الذَّرَّاتِ، كما استغرقَتِ المجرَّاتِ

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿شَيۡءٖ﴾؛ ليشمَلَ الأشياءَ والأشخاصَ، فيكون عامًّا في الذَّواتِ والأعراضِ والجماداتِ والحيواناتِ، فـ﴿شَيۡءٖ﴾ نكرةٌ منوَّنةٌ تفيدُ العمومَ، أي: شيءٌ مِنَ الأشياء[2]، فاصطفاءُ اللَّفظِ يفيدُ عمومَ الرَّحمةِ على الأشياء والأشخاص حتَّى استغرقَتِ الذَّرَّاتِ، كما استغرقَتِ المجَرَّاتِ.

دَلالةُ الإفرادِ في قولِه: ﴿شَيۡءٖ﴾:

تصويرُ وُسْعِ الرَّحمةِ، قائمٌ بكلِّ شيءٍ على حِدَتِهِ، من غيرِ تقييدِهِ باجْتِماعِهِم

عبَّر بالمفرد دونَ الجمعِ (أشياء)؛ لإفادة التَّنصيصِ على مَعْنَى استقلالِ كلِّ فردٍ بنصيبِهِ الثَّابت في الرَّحمة، ولو قال: (وَسِعَتْ كلَّ الأشياء)؛ لاَقْتَضى العمومَ مع إفادة الإخبارِ بالاجتماع في الحدث، وأمَّا الإفرادُ؛ فمعناه أنَّ كلَّ واحدٍ قامَ به على انفراد[3]، وهذا أبلغُ؛ لتصوير وِسْعِ الرَّحمةِ قائمًا بكلِّ شيءٍ على حِدَةٍ من غير تقييده باجتماعهم، وثمرةُ هذا التَّعبير: إفادةُ الدَّلالة على الرَّحمة الخاصَّةِ والعامَّة، والدَّلالةِ على أنَّ كلَّ فردٍ قامَ به وسعُ الرَّحمةِ كاملًا.

دَلالةُ الجمْعِ بين ﴿كُلَّ﴾ و﴿شَيۡءٖ﴾ في الآيةِ:

إفادةُ تمامِ الاسْتِغراقِ، وكمالِ سَعةِ الرَّحمةِ، لكلِّ الأجناسِ

﴿كُلَّ﴾ تدلُّ على العموم الشُّموليِّ، و﴿شَيۡءٖ﴾: "اسمٌ مُتوغِّلٌ في التَّنكير دالٌّ على نوعٍ ما يصلحُ له سياقُ الكلام"[4]، وهو هنا نكرةٌ في سياق الإثباتِ، والمقامُ مقامُ امتنانٍ[5]، وهي تدلُّ على العموم البدليِّ الَّذي يفيدُ الشُّيوعَ من غيرِ تعيينٍ، ولكنَّ مجيئَها بعد كلٍّ جعلَها

---

(1) البزدويّ، كنز الوصول: 2/9.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2966.

(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/215.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.

(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 601.

صادقةً على جميع أفرادها بالتَّعيينِ والاستغراقِ، وهذا الاقترانُ بين العمومين (الاستغراقيِّ والإطلاقيِّ) يفيدُ تمامَ الاستغراقِ وكمالَهُ لغرض المبالغةِ في استحواذِ سَعةِ الرَّحمةِ على كلِّ الأجناسِ بأفرادِها المتعيِّنة، فلا يخرجُ منها شيءٌ.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾:

التَّفريعُ على سَعةِ الرَّحمةِ، لتخصيصِ ما يُكتبُ منها في المستقبَلِ

دلالةُ تلك الفاءِ التَّفريعُ على سَعةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّها لمّا وسعَت كلَّ شيءٍ، خُصَّ منها ما يُكتَب، أي: يُعطَى في المستقبل[1]، وهي عاطفةٌ لِرَبط المُسبَّب بالسَّبب[2]، فهي فاءُ التَّسبيب، أو هي استئنافيَّةٌ مَسوقةٌ للتَّعريض بقوم موسى[3].

سِرُّ اخْتِيارِ السِّين دونَ (سوف)، في قولِه: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾:

السِّينُ أسرعُ من سَوْفَ، وتدلُّ على اسْتِيفاءِ الاسْتحقاقِ، فورَ تحقُّقِ شَرطِهِ

آثرَ اختيارَ السِّينِ؛ للدَّلالة على التَّعجيلِ بفعل الكتابةِ، وأنَّه قريبٌ منَ المُتحقِّقِ بشرطِهِ قربَ الرَّحمة ممَّن استحقَّها باقترابِهِ منَ المُتَّصفِ بها ﷻ فالسِّينُ أسرعُ في الاستقبال من سوف، وهي دلالةٌ على استيفاء الاستحقاقِ فورَ تحقُّقِ شرطِهِ، هذا والسِّينُ قد تكون للتَّوكيد وليس للاستقبال[4]، أي: (فأكتبها) على جهةِ الوعد المؤكَّدِ، و(سوف) لا تحتملُ توكيدًا، بل هي للاستقبال فحسْبُ، فأتى بالسِّين ليكونَ جاريًا على المعنيَين.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكتابة دونَ الإعطاءِ أوِ المَنْح:

أهميّةُ تقاطُعِ الجوابِ مع السُّؤالِ، في مضمونِهِ ومنْطوقِهِ

ليكونَ الجوابُ من جنس السُّؤالِ في المحاذاة والاقتباس، فمِنَ البلاغة أن يتقاطعَ الجوابُ مع السُّؤال في مضمونِهِ ومنطوقه، فتُجيبَ منَ السُّؤال على السُّؤال، وهذا من حُسن الجوابِ، فلمَّا قال موسى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾؛ كان الجوابُ مُرَاعىً فيه قصدُ السَّائلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/130.
(2) صافي، الجدول: 9/93.
(3) درويش، إعراب القرآن: 3/468.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/75.

ومرادُه، فأخذ مرادَه من لفظِه، وأجابَ به عليه، يؤكِّد ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقولِه: "فسأكتبها كتبةً كائنةً كما دعوتَ بقولك: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾"[1].

دَلالةُ عدَمِ ذكْرِ فاعلِ كتابةِ الرَّحمةِ:

اطِّرادُ الكلامِ على أسلوبِ التَّكلُّمِ، أبْلغُ مِنَ الالْتفاتِ للغيبةِ

الكلامُ جارٍ على أسلوب التَّكلُّم: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾.. ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾، فلم يكن يصحُّ ذكرُ الفاعلِ إلَّا على وجه الالتفاتِ للغَيبة فسيكتبُها اللّٰهُ، مع عدَمِ لزومِه أيضا إذا أُضمِر؛ لأنَّه مقامُ إضمارٍ، واطِّرادُ الكلام على أسلوب التَّكلُّم أبلغُ منَ الالتفات للغيبةِ؛ لأنَّ كتابةَ الشَّيء فرعٌ عن مقامِه، فإذا كان الشَّيءُ شريفًا كانت كتابتُه شريفةً، فكذلك هنا: لمّا أضاف الرَّحمةَ لنفسه تعظيمًا وإجلالًا، فقال: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾ بضمير المتكلِّم، ولم يقُل: ورحمتُه، اقتضى ذلك أنْ يُسنِدَ الكتابةَ أيضا لضمير المتكلِّم، فقال: سأكتبُها؛ لأنَّ الكتابةَ تأخذُ مقامَ المكتوبِ ورتبَتَه.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ كتابةِ الرَّحمةِ بالإضمارِ، دونَ الإظْهارِ:

إعادةُ الرَّحمةِ بلفْظِها دونَ ضميرِها، خلافُ الأصلِ، لِعدَمِ ما يقتضي الإظهارَ

عبَّرَ عنِ الرَّحمة بالضَّمير في قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾؛ لدلالةِ السَّابقِ عليه بما يُغني عن إعادته بلفظه؛ لأنَّ في إعادة الرَّحمة بلفظها دونَ ضميرها خلافًا للأصلِ لعدم ما يقتضي الإظهارَ، ولأنَّه قد لا يُقصَدُ جنسُ الرَّحمةِ، بل يَكتب قسطًا منها أو فردًا منها، لجواز عود الضَّميرِ على بعضِ مرجِعِه.

دَلالةُ اخْتيارِ اسْمِ الموصولِ ﴿لِلَّذِينَ﴾ دونَ (مَنْ):

دَلالةُ الموصولِ الخاصِّ على النَّصِّ، والاخْتِصاصِ بالشَّأنِ والمقامِ

مَن كُتِبَت له الرَّحمةُ؛ فهو حقيقٌ بالنَّصِّ والاختصاصِ والتَّنبيهِ على الشَّأن والمقام، وهذا مقابلُ استعمال ﴿مَنۡ﴾ في ﴿مَنۡ أَشَآءُ﴾، وليس المرادُ تعيينَ ذواتهم، بل تعيينَهم بالصِّفة، كأنَّما أنزَلَهُم مَنزلةَ المتَعَيَّن.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالتَّقوَى، في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾:

التَّـقـوَى غـايةُ العملِ، ورحمةُ الله غايةُ الأمَلِ

لأنَّ مقاصدَ الشَّرعِ مُتعيِّنةٌ في التَّخلُّقِ بها حتَّى جعلَها اللهُ غايةَ الغايات، فالعبادةُ هي غايةُ الخلقِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، والتَّقوى هي غايةُ العبادة: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21]، فإذا كانت هي غايةَ العملِ؛ فإنَّ رحمةَ اللهِ هي غايةُ الجزاء، فجعل الرَّحمةَ مشروطةً بالتَّقوى.

وممَّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبيرِ بالتَّقوى أنَّها تشيرُ إلى اتِّقاء الكفر والمعاصي، إمَّا ابتداءً أو بعدَ مُلابستِهما، وفيه تعريضٌ بقوم موسى، كأنَّه قيل له عليه السلام: لا لقومِك؛ لأنَّهم غيرُ مُتَّقِين، فيكفيهم ما قُدِّرَ لهم منَ الرَّحمةِ وإن كانت مُقارِنَةً للعذابِ الدُّنيويِّ[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ: ﴿يَتَّقُونَ﴾:

كـثرةُ وُقـوعِ الفعْلِ منهم، وإفـادةُ صَـلاحِ الظَّاهِرِ

في التَّعبيرِ بالمضارعِ المُتَجَدِّدِ إفادةُ كَثْرةِ وقوعِ الفعلِ مِنهم، وإفادةُ صلاحِ الظَّاهرِ وحُسْنِ السَّمْتِ بالتَّقوى؛ لأنَّ معنى تجديدِ الفعلِ وحدوثِهِ تصويرٌ لِتَكرارِ فعلِ التَّقوى منهم، فهو يقعُ مرَّةً بعد مرَّةٍ، وللدَّلالة على أنَّ التَّقوى تتحقَّقُ بتجديدِ العملِ وعدمِ التَّواني في شأنِ اعتيادِه بالتَّكرارِ والإعادة.

دَلالةُ (الواوِ)، في: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

تَرتيبُ (الزَّكاةِ) بعدَ (التَّقوَى)، يـدلُّ عـلى أنَّ الـتَّـزكـيـةَ لا تـحـصُـلُ إلَّا بالاتِّقاءِ والتَّرْكِ

الجملةُ نَسَقٌ على ما قبلَها، وهو قولُه: ﴿يَتَّقُونَ﴾، أي: سأكتبُ الرَّحمةَ للموصوفينَ بهذين الفِعلينِ: ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ﴾، وفي الجمعِ بينهما دون غيرِهما تعريضٌ بقومِ موسى عليه السلام فالتَّقوى دواءٌ لِقسوةِ قلوبِهم وعدمِ تَناهيهم عنِ المنكرات، وإيتاءُ الزَّكاة علاجٌ لِجمودِهم على المادَّة وإطلاقِ أيديهم بالحرامِ فيها، وإمساكِهم لها عن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

الإقراض الحسنِ وبذلِ المعروفِ وأخْذِ المالِ بحقِّه، وإنفاقه بحقِّه، وكلُّ ذلك دواؤهُ الانقيادُ للهِ في الظَّاهر والباطنِ؛ لأنَّ التَّزكيةَ لا تحصلُ إلَّا بالاتِّقاءِ والتَّرك.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ في الزَّكاة:

الإيتاءُ لم يُسنَدْ إلَّا للشَّيءِ العظيمِ، ذي الشَّأنِ الفَخيم

وردَ الإيتاءُ في الزَّكاة دون الإعطاءِ لثلاثة اعتباراتٍ: الأوَّل: يتعلَّقُ بالفاعل (المؤتِي)، فهو يدفعُ الزَّكاةَ عن طيب نفسٍ لا عن إكراهٍ، ولو قال: (يُعطُون)؛ لاحتملَ كُرْهَ النَّفسِ، كما قال في الجزية: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التَّوبة: 29]، فجعلَ الإعطاءَ فيما كان عن غلبةٍ وقهرٍ، والثَّاني: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى)، وهو الشَّيءُ المبذولُ، فإنَّ الإيتاءَ يكونُ في الشَّيءِ عزيزَ القيمةِ كثيرَ المَنفَعَةِ عظيمَ القدرِ، ولو قال: (يُعطون) لاحتملَ إعطاءَ البخْسِ والقليلِ، كما أسندَ العطاءَ للقليل في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النَّجم: 34]، وأمَّا الإيتاءُ؛ فلم يُسنَد إلَّا للعظيم والكثير: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [ص: 20] ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99] ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النِّساء: 54]، فإسنادُ الإتيانِ للزَّكاة إعظامٌ لشأن الفريضةِ وإجلالٌ لمكانها في الشَّرع، فالإيتاءُ للكثير، والإعطاءُ للكثير والقليل بحسب قرينةِ السِّياق، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتقَلُ عنه إلى ما هو أعلى منه، ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: 1]؛ لانتقاله منَ الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنَّةُ ومزايا النَّعيم الأحسن[1]، والثَّالث: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى إليه)، وهو آخذُ الزَّكاة، من حيثُ إنَّ إيتاءَه الزَّكاة لا يتوقَّفُ على قبولِه وموافقته، فهو حقيقٌ بها من غير اعتبار موقفِه، ولذا كان فعلُ الإيتاء أقوى منَ الإعطاء، ومن ثَمَّ كان فِعلُ الإيتاءِ لا مُطاوعَ له من لفظِه، كما في الإعطاءِ، "يُقال: آتاني فأخذْتُه، وفي الإعطاء يُقال: أعطاني فعطوْتُ، وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثبات

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.

مفعولِهِ ممَّا لا مطاوِعَ له"[1]، ولو قال: (ويُعطون الزَّكاة)؛ لاحتملَ توقُّفَهُ على القَبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التَّوبة: 29]، فإنَّ عطاءَهم الجِزية مُتوقِّفٌ على القَبول مِنَّا، ودلالةُ ذلك هنا: التَّنبيهُ على كون الزَّكاةِ حقًّا للّه خالصًا، والغنيُّ والفقيرُ ما هما إلَّا وكِيلان في مُداولَة هذا الحقِّ بينهما، فلا الغنيُّ يستكثرُ على الفقيرِ، فيمُنُّ بزكاتِه، ولا الفقيرُ يستنكرُ على الغنيِّ، فيُعرِضُ، أو يرفضُ، أو يتحرَّج.

دَلالةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾:

المواظبةُ على إيتاءِ الزَّكاة، من أسبابِ السُّموِّ والتَّراحُمِ

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ على المواظبةِ وتكرارِ الفعل، كلَّما حضرَ وقتُ أداءِ الزَّكاة وتحقَّق شرطُه، فصيغةُ المضارع لنفي المَرَّة ولثبوت التَّكرار.

سِرُّ انفِرادِ إيتاءِ الزَّكاة عنِ الصَّلاة:

التَّقوَى جِماعُ كلِّ خيْرٍ، ومَوئِلُ كلِّ مَبرَّةٍ وعِصمةٍ

أفردَ الحديث عن إيتاء الزَّكاةِ دون الصَّلاةِ؛ لأنَّها داخلةٌ في أفعال التَّقوى؛ إذِ التَّقوى تُروكٌ وأفعالٌ، ولم يُفصح عنها باستقلالٍ لغرض التَّنبيهِ على ما يُناسِبُ ما تمكَّنوا فيه منَ المحاذير، فاحتاجوا لبيانِ ما هو خلاصةُ دَوَاهم بأنسب سببٍ لمقتضى حالهم، و"لأنَّ فتنةَ حبِّ المالِ تقتضي بنظر العقلِ والاختبارِ بالفعل أن يكونَ المانعون للزَّكاة أكثرَ منَ التَّاركين لغيرها منَ الفرائض، وفيه إشارةٌ إلى شدَّة حبِّ اليهود للدُّنيا، وافتتانهم بجمع المالِ، ومنْع بذلِه في سبيل اللّه"[2]، ولعلَّ الصَّلاةَ إنَّما لم تُذكَر مع إنافتها على سائر العبادات، وكونِها عمادَ الدِّين، اكتفاءً منها بالاتِّقاء الَّذي هو عبارةٌ عن فعل الواجباتِ بأسرها، وترك المنهيَّاتِ عن آخرها[3].

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/73.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالزَّكاة دونَ الصَّدقة:

الـزَّكـاةُ من شريعـةِ بنـي إسـرائـيـلَ، ومـأمـورٌ كـلِّ الـشَّـرائـعِ السّماويّةِ

قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، عبَّرَ فيه بالزَّكاة دونَ الصَّدقة؛ للدَّلالة على أنَّها من تشريعِ اللهِ لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام وهذا ظاهرٌ في آياتٍ كثيرةٍ منَ القرآن، ولا يُقال: إنَّ الزَّكاةَ هي زكاةُ النُّفوسِ بسببِ مكِّيَّةِ السُّورة؛ لأنَّ زكاةَ النُّفوسِ لا يُعبَّرُ عنها بِفعلِ الإيتاء، ولانفكاك الجهةِ بين المكِّيَّةِ وإيتاءِ الزَّكاة هنا؛ إذِ الكلامُ واردٌ في حيِّزِ الجوابِ على دعاءِ موسى عليه السلام وقد كانتِ الزَّكاةُ شرعًا لهم قبل بعثةِ الرَّسولِ محمَّد ﷺ فالكلامُ جارٍ على ما كان لهم قبلَ البَعثَة.

سِرُّ البَدْءِ بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾:

الـتَّـقـوَى هـي اضْـطِـلاعٌ بـالـتَّـكـلـيـف، والـتَّـكـلـيـفُ تحقيقُ التَّقوَى

بدأ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، قبلَ قوله: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنَّ التَّقوى هي أصلُ قَبولِ التَّكاليفِ منَ اللهِ، وأصلُ الاستعدادِ لها منَ العبد، فلا يقبَلُ اللهُ إلَّا منَ المتَّقين: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]، ولا يأتمرُ العبدُ للتَّكليفِ من غير نيَّةِ التَّقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد: 17] ليتقوَّوا بها على امتثال التَّكاليف.

دَلالةُ (الواوِ) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تقريرُ الفرْقِ بين مفهومِ التَّقوَى، وإيتاءِ الزَّكاة، ومفهومِ الإيمانِ

العطْفُ للمغايرة بين ما في حيِّزِ الموصولين مِنَ الصِّلة، فالَّذين يتَّقون ويؤتونَ الزَّكاةَ غير الَّذين هم بآيتنا يؤمنون، مغايرةً في الصِّفاتِ لا في الذَّوات، للتَّنبيهِ على الفرقِ بين مفهوم التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة ومفهومِ الإيمان.

سِرُّ إعادةِ اسْمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

إعـادةُ الموصولِ قـد يُـفـيـدُ المغايَرةَ، بين ما في حيِّزِهما مِنَ الصِّلةِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فـ"نكتةُ إعادة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مع الضَّمير ﴿هُم﴾؛ إمَّا جَعْلُ الموصول الأوَّل عامًّا لقومه الَّذين دعا لهم، ممَّن استمرُّوا على التزام التَّقوى وأداء الزَّكاة منهم، وجعْلُ الثَّاني خاصًّا بمَن يدركون بعثةَ خاتمِ الرُّسلِ عليه السلام ويتَّبعونه - كما يُعلَمُ ممَّا بعده، وإمَّا لبيان الفصلِ بين مفهوم

الإسلامِ ومفهومِ الإيمانِ، والتَّعريضِ بأنَّ الَّذين طلبوا من موسى أن يجعلَ لهم آلهةً والَّذين عبدوا العجل، والَّذين قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: 55] لم يكونوا مؤمنين بآياتِ اللهِ العامَّة ولا الخاصَّة الَّتي جاء بها نبيُّهم.

وممَّا يؤكِّد ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقوله: "وتكريرُ الموصولِ مع أنَّ المرادَ به عينُ ما أُريد بالموصول الأوَّل، دون أن يُقال: (ويؤمنون بآياتنا) عطفًا على ﴿يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، كما عُطِف (هو) على (يتَّقون) لمّا أُشير إليه منَ القصْرِ بتقديم الجارِّ والمجرور، أي: هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضِها دونَ بعضٍ[1].

دَلالةُ الإتْيانِ بضَميرِ الفَصْلِ ﴿هُم﴾:

ضَميرُ الفصْلِ يُفيدُ الحصْرَ والتَّوكيدَ، وفصْلَ الخبرِ عنِ الصِّفةِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾، يتضمّن ضمير الفصل، وفائدةُ ضميرِ الفصلِ: الحصرُ والتَّوكيدُ، وفصلُ الخبر عنِ الصِّفة بتعيُّن الخبرِ، أي: سأكتبُ الرَّحمةَ للمؤمنين لا لغيرهم قصرًا عليهم واختصاصًا بهم، والقصرُ هنا حقيقيٌّ، ويفيدُ التَّوكيدَ، أي: الَّذين هم يؤمنون حقًّا وقطعًا مؤكَّدًا، فالتَّوكيد لإفادةِ الكمالِ، ويفيدُ أنَّ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرٌ للموصول لا صفةٌ. وفيه إشارةٌ للتَّعظيم من شأن المؤمنين وشأنِ الآياتِ وشأن الإيمانِ، وهو مُتوجِّهٌ (أصالةً) لأصحاب الضَّمير، (وتَبَعًا) لموضوعِ الإيمان (الآيات)، وفعلِ الإيمان ذاته.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالآياتِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

التَّعبيرُ بالجمْعِ (بآياتنا) دونَ الإفْرادِ، مُبيِّنٌ للغايةِ والمُرادِ

لإفادة عموم المُسمَّى، لتنتظمَ فيها الآياتُ المتلوَّةُ والآياتُ المشهودةُ. وقد عبَّرَ بالجمعِ لإفادةِ الشُّمولِ؛ للإيمان بجميع الآياتِ، ولو أفردَ؛ لساغ الإيمانُ بآحادِ الآياتِ دون مجموعِها، وهذا غيرُ مرادٍ.

دَلالةُ الإضافةِ إلى نونِ العظمةِ، في: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الإضافةُ إلى نون العظمةِ التفاتٌ منَ التَّكلُّم الإفراديِّ إلى

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.

الجمعيِّ، والإسنادُ لضميرِ العظمةِ جارٍ على أسلوب المُتكلّم في ﴿عَذَابِيٓ﴾، ﴿وَرَحۡمَتِي﴾، ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾، فكما أُسنِدَ فيها للضَّمير؛ أُسنِدت الآياتُ للضَّمير، وجاءَ بالنُّون تعظيمًا لآياته، ونونُ العظمةِ أعرفُ منَ الإسنادِ لظاهرٍ، والمقامُ مقامُ ترهيبٍ وترغيبٍ، فناسَبَ تعريفَ الآياتِ بأعرفِ المعارف.

الإضافةُ إشارةٌ إلى عِظَمِ الآيات ومَنزلتِها، وزيادةُ ترغيبٍ وترهيبٍ

دَلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

وتقديمُ الجارِّ والمجرور يفيدُ الحصرَ، أي: بكلِّ آياتنا، وفي هذا تعريضٌ ببني إسرائيلَ في عدم إيمانِهم بالنَّبيِّ ﷺ وما أُنزِلَ عليه منَ الآيات.

تبريزُ الآياتِ، تعريضٌ بكُفرِ أهلِ الكتابِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِه: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

لأنَّ المقصودَ الحقيقةُ الشَّرعيَّةُ للإيمان اعتقادًا وقولًا وعملًا، ولو قال: (يصدِّقون)؛ لكان أخصَّ، ولا يستلزمُ مقتضياتِ الإيمانِ منَ الإذعانِ والقبول، فقد يصدِّقُ، ولا يعملُ، وقد يصدِّقُ، ولا يَنْقادُ، والإيمانُ جامعٌ لتلك الشَّرائط جميعًا.

الإيمانُ أعمُّ مِنَ الصِّدقِ، لاقتضائِه عَمَلَ الباطنِ والظَّاهرِ معًا

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارع: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

يدلُّ على توقُّعِ الإيمانِ وتكراره وتمامِ الجاهزيَّة له، فكلَّما ظهرَت آيةٌ؛ حدثَ لها إيمان، وكلَّما جدَّتْ عزيمةٌ؛ أحدثوا لها إيمانًا، والصِّيغةُ إشارةٌ إلى الاستمرار على عهد الإيمانِ من غير إخلالٍ به.

صِيغةُ المضارعِ تُفيدُ المُطاوعةَ، والانْفِعالَ المتَكرِّرَ

بَلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ في الآيَةِ:

استهلالُ الآيةِ بالدُّعاء: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾، وختْمُها بالإيمان ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هو ختامٌ لُوحِظ فيه مَطلَعُه، فالختْمُ مردودٌ على المَطْلَع ردَّ النَّتيجةِ على المقدِّمة بأنسبِ صيغةٍ لفظًا ومعنًى، فكأنَّه قيل: شرطُ استجابةِ الدُّعاء الإيمانُ، فمَن يؤمِنْ؛ يُستَجبْ له، وتعليقُ الإيمانِ بالآيات له موقعُه أيضًا، في البَدْءِ، فإنَّ الاستجابةَ هي إراءةُ الدَّاعي آياتِ تحقيقِ سؤالِه، فكأنَّه قيل: لن تشهدوا آياتِ تحقيق

فاصلةُ الآيةِ، ودَورُها في الإبانةِ عنِ المُرادِ في السِّباقِ

الدُّعاءِ، حتَّى تؤمنوا بآياتي الَّتي أوحيتُها لرسلي، فهذا من ذاك، فاستجيبوا له؛ يُستجَبْ لكم.

سِرُّ خِتامِ الآيةِ بِصِفةِ الإيمانِ:

الإيمانُ أعمُّ مِنَ التَّقوَى، واستعمالُ كلٍّ منهما في موْضعِه، من فصيحِ البيانِ

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعد قوله: ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، من بابِ ذِكرِ العامِّ بعد الخاصِّ، وهو وجْهٌ من وجوه الإطنابِ، فالإيمانُ أعمُّ مِنَ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة، وفائدةُ ذلك التَّنصيصُ على شرطِ صِحَّةِ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة، وأنَّها لا تَصِحُّ إلَّا بالإيمان، ليستوفيَ بذكره جميعَ أنواعِ التَّكليفاتِ الظَّاهرةِ والباطنة، فـ﴿يَتَّقُونَ﴾ عبارةٌ عنِ (التُّروك)، وهو ما يَجِبُ على الإنسانِ تركُه، و﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عبارةٌ عنِ (الأفعالِ الَّتي تتوجَّه للآخرين بإخراج المالِ)، و﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ عبارةٌ عنِ (الأفعالِ الَّتي تتوجَّه للنَّفس، وتجِبُ عليها) اعتقادًا ومعرفةً بالقلبِ، وعمَلًا باللِّسانِ والأركان[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذابُ والعقابُ:

العقابُ لا يكون إلَّا بسببٍ، ولا يُشترطُ فيه الإيلامُ

العذابُ والعقابُ كلاهما مُستعمَلٌ في المجازاة، إلَّا أنَّ العذابَ يكون بسببٍ أو من غير سببٍ، والعقابُ لا يكونُ إلَّا بسببٍ؛ لأنَّه يأتي عَقِبَ ذنبٍ أو سببٍ يوجبهُ، وفارقٌ دقيقٌ أيضًا بينهما: هو أنَّ العذابَ مُشتمِلٌ على الإيجاعِ والإيلامِ، والعقابُ لا يلزمُ فيه وجعٌ وألمٌ، ولأجلِ هذا لم يجئِ العذابُ في القرآن مضافًا لياء الملكيَّة غيرَ اللّٰهِ، كقوله هنا: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: 7]، ﴿عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: 50]، وأمَّا العقابُ؛ فأُضيفَ لفاعلٍ غيرِ اللّٰه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النَّحل: 126]، وتلك الآياتُ شاهِدَةٌ كذلك على أنَّ العقابَ لا يُشترطُ فيه الألمُ والإيجاعُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/379.

خلاف العذاب، ومن شواهد أنَّ العذابَ يكون بغير سببٍ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 49]، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: 47]، فلم يكن ذلك عنِ استحقاقٍ(1).

وعليه: فبينَ العذابِ والعقابِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فالعذابُ أعمُّ من جهةِ السَّببيَّةِ والاستحقاقِ: فهو يكونُ بسببٍ أو من غير سببٍ، والعقابُ لا يكونُ إلَّا بسببٍ واستحقاقٍ، ومن جهة الأثرِ والكيفِ: فالعقابُ أعمُّ مِنَ العذاب؛ إذِ العقابُ يكون يسيرًا أو عظيمًا، ويكون مُوجِعًا مُؤْلِمًا، وقد لا يكون كذلك، وأمَّا العذابُ؛ فهو إزالةُ عذوبةِ البدنِ والنَّفسِ بالإيجاعِ والألمِ الشَّديدَين، فهو أخصُّ.

ونكتةُ استعمالِ العذابِ هنا في الآية، فقال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾، ولم يقُل: (عقابي)؛ لقصد التَّرهيب، فإنَّ التَّرهيبَ في العذاب أشدُّ، وبسببِ أنَّه علَّقَ العذابَ على المشيئة، ولم يعلِّقْهُ على الأسباب والأعمال، فناسبَ العذابَ دونَ العقابِ، ولاستحضار الجانبِ الحِسِّيِّ في العذاب الَّذي يناسبُ طبيعةَ بني إسرائيلَ المادِّيَّةَ الَّتي حملتْهم على العصيان الحسِّيِّ بطلبهم رؤيةَ اللّهِ جهرةً عيانًا، فرهَّبهم بما هو جنسٌ من معصيتهم، وهو العذابُ الَّذي يوجعُهم، ويفسدُ حواسَّهم بالألم والإتلاف.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: 157]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أهليَّةِ أمَّةِ الإسلامِ الخاتمِ، لرحمة الله، بعد عَرْضِ صفاتِ مَن تُكتبُ له الرَّحمةُ

لمّا بيَّن اللهُ تعالى في الآية السَّابقةِ صفةَ مَنْ تُكتَبُ له الرَّحمة في الدُّنيا والآخرة، همُ الموصوفون بالتَّقوى وإيتاءِ الزَّكاةِ والإيمانِ بالآيات[1]؛ أعقبَ ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ ليُبيِّنَ أنَّ الَّذين وَعَد موسى ﷺ أن يَكتب لهم الرَّحمةَ الَّتي وصفَها جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، هم أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه لا يُعلَم للّهِ رسولٌ وُصِفَ بهذه الصِّفة "الأمِّيّ" غيرُ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّبِعُونَ﴾: من الجذرِ اللُّغوي: (تبع)، وَهُوَ التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَالُ: تَبِعْتُ فُلَانًا؛ إِذَا تَلَوْتُهُ، وَأَتْبَعْتُهُ إِذَا لَحِقْتُهُ، وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ[3]، وهو: "لحُوق الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصل مع رقَّةٍ ولينٍ"[4]، ومعنى يتَّبعون: يقتدون به تعبُّدًا.

2) ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾: مِن الجذر اللُّغوي: (أمم)، وأصله من الأمِّ،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/380.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/161.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).

و"الأُمِّيُّ: الذي لا يكتب "نسبوه إلى "ما عليه جَبَلَتْهُ أمُّه "يقصدون النِّسبة إلى الأمِّ، والدقيق أن يُنسَب إلى عِلَّة تسميةِ الأم: أنَّها الأصل الجامع، أي: هو على أصلِ فطرتهِ، كما أنَّه يمكن أن يُلحَظَ في الأمِّيِّ الذي لا يَكتُبُ أنَّه مجُتمِعُ القلبِ، لم تَغزُ قلبَه (أي: لم تَشْقُقْهُ وتَدخلْهُ) رموزُ الكتابة وغيرها من العلوم - التي تُكتَسب بالتعلُّم المتعارف، كما لم تتوزَّع قلبَه المذاهبُ المختلفة، فبقيت نفسُه ملتئمةَ الشَّمل، وبهذا يكون صفةَ كمالٍ، نظرًا لاجتماع النَّفس وكمال الفطرة وصفائها ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾[1] والمرادُ به الرَّسولُ ﷺ ووصفُه بالأمِّيَّة فضيلةٌ له؛ لاستغنائهِ بِحِفْظِه واعتمادهِ على ضمانِ اللّٰه له بقولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: 6][2].

3) ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغوي (خبث)، يدلُّ على خِلَافِ الطَّيِّب، يُقَالُ: خَبِيثٌ، أَيْ: لَيْسَ بِطَيِّبٍ[3]، ما يُستخبثُ حِسًّا، كالدَّم، والميتةِ، ولحم الخنزير، أو ما يُستخبَثُ حُكمًا، كالرِّبا، والرَّشوة، ونحوهما[4].

4) ﴿وَيَضَعُ﴾: من الجذر اللُّغوي (وضع)، وهو أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ[5]، يُزيل، ويُسقِط، ويُبطِل، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ يحطُّ عنهم أثقالَ التَّكليف[6].

5) ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغوي (أصر)، وهو أَصْلٌ وَاحِدٌ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ أَشْيَاءُ مُتَقَارِبَةٌ، فَالْأَصْرُ الْحَبْسُ وَالْعَطْفُ وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا، والإصرُ: العهدُ المؤكَّدُ الَّذي يُثَبِّطُ ناقضه عنِ الخيراتِ والثَّواب[7]، ويُعَبَّرُ به عنِ الثِّقْل الَّذي يأصِرُ صاحبَه، أي: يحبِسُه عنِ الحراك لِثقلِه، والمرادُ: التَّكاليفُ الصَّعبةُ، كقتْلِ النَّفسِ في توبتِهم[8].

6) ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾: جمع غُلٍّ - بضم الغين - وهو إطارٌ من حديد، من الجذر اللُّغوي (غلل)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وَثَبَاتِ شَيْءٍ، كَالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (أمم).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبث).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/610.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/94.
(7) الرّاغب، المفردات: (أصر).
(8) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/610.

الْعَرَب: غَلَلْتُ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ؛ إِذَا أَثْبَتُّهُ فِيهِ[1]، ومنه الغُلُّ يُجعَلُ في رقبة الأسيرِ والجاني، ويُمسكُ بسيرٍ من جلدٍ أو سلسلةٍ من حديد بيدِ المُوكَلِ بحراسة الأسيرِ، ويُستعارُ الغلُّ للتَّكليف والعمل الَّذي يؤلِمُ، ولا يُطاق[2].

7) ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: من الجذر اللُّغوي (عزر)، الْعَيْنُ وَالزَّاءُ وَالرَّاءُ كَلِمَتَانِ: إِحْدَاهُمَا التَّعْظِيمُ وَالنَّصْرُ، وَالْكَلِمَةُ الْأُخْرَى جِنْسٌ مِنَ الضَّرْبِ، فَالْأُولَى: النَّصْرُ وَالتَّوْقِيرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ [الفتح: 9]، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ التَّعْزِيرُ، وَهُوَ الضَّرْبُ دُونَ الْحَدِّ[3]، ويمكن ردُّه إلى الأصل الأوَّل؛ حيث إنَّه نَصْرٌ للدِّين وتعظيمٌ لأمره[4]، والتَّعزيرُ: النُّصرةُ مع التَّعظيم.

8) ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: من الجذر اللُّغوي (نصر)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ[5]، ومنه النَّواصرُ: مجاري الماء إلى الأَوْدية، والنَّاصِرُ يجيءُ من مكان بعيدٍ - مِيلٍ أو نحوه - ثم تَمُجُّ النَّواصرُ في التِّلاع (مجامع المياه)[6]، "والنَّصر والنُّصرة: الإعانةُ والمنعةُ"[7]، ومعنى ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: أعانوهُ على نَيل الظَّفَرِ والغلبةِ والتَّمكينِ، ومنعوهُ من أن يُنالَ من عدوِّه.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

اتِّباعُ الرَّسولِ ﷺ، سبيلُ رحمةِ الله وهدايته، والفلاحِ في الدُّنيا والآخرةِ

بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآية بقيَّةَ صفاتِ الَّذين وسعَتهم الرَّحمةُ، وهم الَّذين يتَّبعون الرَّسولَ النَّبيَّ الأمِّيَّ الَّذي لا يقرأ، ولا يكتبُ، وهو محمَّد ﷺ الَّذي يجدون وصفَه مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيلِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلّ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/137.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (عزر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/183.

يأمرُهم بكلِّ خيرٍ، وينهاهم عن كلِّ شرٍّ، ويحلُّ لهم الأشياءَ الَّتي يستطيبُها الطَّبعُ منَ المطاعم والمشارب والمناكحِ، ويُحرِّمُ عليهم الأشياءَ الَّتي يستخبثُها الطَّبعُ كالدَّم والميتة، ويزيلُ عنهم الأثقالَ والشَّدائدَ الَّتي كانت عليهم، فالَّذين صدَّقوا برسالتِه، وآزروهُ، وأيَّدوه، ونصروه على أعدائه، واتَّبعوا القرآنَ الَّذي أُنزِلَ معه هم الفائزون دونَ غيرِهم ممَّن لم يؤمنوا بهِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذه الآيةِ عمَّا قبْلَها:

كمالُ الاتِّصالِ بين مَطْلعِ الآيةِ، والفاصِلةِ قبْلَه

فُصِلَ الاسمُ الموصولُ هنا؛ لأنَّه بيانٌ مُستأنفٌ للموصول الأخير أو للموصولين اللَّذين قبلَه معًا، وهم الَّذين يتَّقون، ويؤتون الزَّكاةَ، والَّذين يؤمنون بالآيات"[1]، ولو وصلَهُ بالعطفِ؛ لكان مغايرًا لهما في المصادقِ لا في المفهوم، فَمَعْنَى الفصلِ اتِّحادُ الموصولاتِ الثَّلاثةِ في المفهوم والمصادَق جميعًا.

وممَّا يؤكِّدُ ذلك أنَّ بين قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾، وما قبلَهُ، كمالَ اتِّصالٍ؛ إذ هو نعتٌ له أو بدلٌ منه كلٌّ أو بعضٌ على حذفِ العائدِ، أي: الَّذين يتَّبعون منهم، أو مفعولٌ لعامل محذوفٍ على المدحِ.

سِرُّ تَكرارِ اسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تَكرارُ الموصولِ، زيـــادةُ تـقـريـر وإيضاحٍ، وإفادةً لـلاسْـتِـقـلالِ في الوصْفِ

تكرارُ الموصول لإفادةِ أمرين: زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وإفادةِ الاستقلال في الوصف، ذلك أنَّ قولَه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تعلَّقَ بعملِ بني إسرائيل بتكاليف الشَّرعِ زمنَ موسى عليه السلام وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أفادَ عملَ بني إسرائيل بآياتِ الوحي كافَّةً، فلا يؤمنون ببعض الكتابِ، ويكفرون ببعضٍ، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ واردٌ فيما يجبُ على بني إسرائيلَ مِنِ اتِّباعِ الرُّسل

(1) محمد رضا، المنار: 9/193.

كافَّةً، فلا يفرِّقون بين أحدٍ مِن رسلِه، فمَن أدركَ بعثةَ الرَّسول مِنَ اليهود والنَّصارى؛ وجبَ عليه الإيمانُ بهِ واتِّباعُه، لكون اتِّباعِه مُقتضى إيمانِهم بكتابِهم الَّذي بَشَّر بهِ، فاتِّباعُه فرعٌ عنِ اتِّباعهم لكتابِهم والعكسُ، ومَن لم يدركْه اعتقدَ الإيمانَ به لورود الخبرِ بمجيئِه.

سِرُّ اخْتِيارِ الفعْلِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

الإيمانُ القلبيُّ لا بدَّ من تأيِيْدِهِ بالإيمانِ العَمليِّ

أوثرَ لفظُ الاتِّباعِ هنا، وفي غيرِه الطاعةِ؛ لما في الاتِّباع من مَعْنى الطَّاعة وزيادة، فهو لحُوق الشيءِ بمتقدِّمٍ أو سابق بلا فصلٍ (مع رقَّة ولين)[1]، ففيه دلالةٌ على مدْحِ التَّابع والمتبوع معًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ القلبيَّ لا بدَّ من تأيِيدِهِ بالإيمان العمليِّ، فلا يكفي الاعتقادُ المجرَّدُ، ولو قال: يطيعون، فلا يَلزم منه المحاكاةُ والمحاذاةُ للرَّسول تعبُّدًا؛ لأنَّ الاتِّباع يشتركُ مع الطَّاعة في إفادةِ الانقيادِ، ويزيدُ عليها في أنَّه ينفي اتِّباعَ الهوى مع الطَّاعة، والطَّاعةُ لا يلزمُ عنها ذلك، ولو قال: (يصدِّقون)؛ لكان نصًّا في الدَّلالة على فِعل القلبِ مِنَ التَّصديق، وهذا لا يلزمُ منه إفادةُ الاتِّباعِ والطَّاعة.

سِرُّ البَدْءِ بوصْفِ الرَّسولِ، بالرّسالةِ والنّبوّةِ والأميّةِ:

البَدْءُ بوصفِ الاتِّباعِ، تصديقٌ لـه وتثبيتٌ، وتعريضٌ بأهْلِ الكتابِ

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، وفيه أنَّ البَدءَ بذلك هو بَدءٌ بالوصف الأخصِّ؛ لإفادة استقلالِ الرَّسول ﷺ بكتابٍ مُرسَلٍ يَنسخُ ما قبلَهُ، ويُصدِّقُ عليه، وتسجيلٌ على أهل الكتابِ بالتَّحريف، حيث حذفوا هذا الوصفَ؛ ليصيرَ كلامُ التَّوراةِ صادقًا بمَن أتى بعدَ موسى من أنبياءِ بني إسرائيل[2].

ويُضاف إلى ذلك في سرِّ تقديمِ وصفِ الرَّسول، أنَّه قُدِّم لشرفهِ ولتقديم إرسالِ اللّهِ له على تبليغه.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (تبع).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/133.

سِرُّ الجمْعِ بين وصْفَي ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

تعليلُ اتِّباعِ الرَّسولِ بأجمْعِ الأسبابِ، وأدْعَى المُقْتَضَياتِ إليه

الجمعُ بين وصفي الرَّسول والنَّبيِّ لِغَرَضَين: الأوَّل: ليقعَ الاتِّباعُ المذكورُ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ منوطًا بأجمعِ الأسبابِ وأَدْعَى المقتضيات إليه، بالجمْعِ بين الملزومِ ولازِمِه، والتَّنصيصِ عليهما معًا، وعدم الاكتفاء بأحدهما، فَاسْتَوْفَى الأوصافَ ليقطع الرِّيبةَ والظَّنَّ في شأن اتِّباعه، فيكون اتِّباعًا مقطوعًا به محمولًا على دواعيه الوافية وأسبابه الكاملة[1].

الثَّاني: لِتَتَحقَّقَ به الوُصْلَةُ بين اللّهِ والخلْق، فـ"﴿ٱلرَّسُولَ﴾ هو الَّذي أرسلَهُ اللّهُ تعالى لِتبليغِ الأحكام، و﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ هو الَّذي أَنْبَأَ الخلْقَ عنِ اللّهِ، فالأوَّل تُعتبَر فيهِ الإضافةُ إلى اللّهِ، والثَّاني تُعتبَرُ فيه الإضافةُ إلى الخلْقِ، وقدَّمَ الأوَّلَ عليه لشَرَفِه، ولِتَقَدُّمِ إرسالِ اللّهِ له على تَبليغِه"[2].

وممَّا يُذكَرُ في سرِّ الجمعِ بينهما أنَّ كلَّ لفظٍ منهما لهُ دلالتُهُ: فالنَّبيُّ هو الَّذي يُنَبِّئُ الخلقَ عنِ اللّه تعالى والرَّسولُ هو الَّذي أرسلَهُ اللّهُ لتبليغ الأحكام؛ فالنُّبوَّةُ تُعتبَرُ فيها الإضافةُ إلى الخلق، والرِّسالةُ تُعتبَرُ فيها الإضافةُ إلى اللّه تعالى[3] ومنه أيضًا الرَّدُّ على اليهود الَّذين بدَّلوا وصفَ الرَّسول، وعبَّروا عنه بالنَّبيِّ لِيصدُقَ على أنبياءِ بني إسرائيل[4].

سِرُّ الوصْفِ بلفْظِ: ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾:

الوصْفُ بالأمِّيِّ شاهِدٌ على صِحَّةِ رِسالتِه ونُبوَّتِه

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، الوصفُ فيه بالأمِّيِّ مَسوقٌ مساقَ الحجَّةِ لِلوَصفَينِ قبلَهُ، أي: مَنْ يرتابُ في كونِهِ رسولًا نبيًّا،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/75، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/194.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/75.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/79.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/132.

فشأنُ أمِّيَّته ثابتٌ واقِعًا وخبرًا في كتاب بني إسرائيلَ، فلا يمتارون فيه، ومَن كان أمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، فأنَّى له بآياتٍ يسوقُها، وقرآنٍ يتلوه إلَّا أن يكونَ رسولًا نبيًّا يُوحَى إليه[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كمالَ علمِهِ مع أمِّيَّته إحدى معجزاتِهِ؛ لأنَّ الأُمِّيَّةَ بالنِّسبة للرَّسول ﷺ صفةُ مدحٍ، ولغيرِهِ صفةُ ذمٍّ؛ كصفة التَّكبُّرِ للّٰهِ مدحٌ ولغيره ذمٌّ[2].

وممَّا يؤكِّدُ ذلك أيضًا ما ذكره ابنُ عاشورٍ بقوله: "والأمِّيَّةُ وصفٌ خصَّ اللّٰهُ به مِن رُسله محمَّدًا ﷺ إتمامًا للإعجاز العلميِّ العقليِّ الَّذي أيَّدَه اللّٰهُ به؛ فجعلَ الأمِّيَّةَ وصفًا ذاتيًّا له؛ ليتمَّ بها وصفَهُ الذَّاتيَّ، وهو الرِّسالةُ، ليظهرَ أنَّ كمالَه النَّفسانيَّ كمالٌ لدنيٌّ إلهيٌّ لا واسطةَ فيه للأسبابِ المتعارفةِ للكمالات[3].

الأمِّيَّةُ في النّبيِّ آيـةٌ مُـعـجِـزَةٌ، وفي سائرِ البشرِ مَذمّةٌ ومَنقصةٌ

دَلالةُ تأخيرِ وصْفِ ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ على الرِّسالةِ والنُّبوَّة:

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، وفيه أخَّر الوصفَ بـ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ لتعلُّقِ الاتِّباع بكونه رسولًا نبيًّا، لا بكونه أمِّيًّا، وهو تعقيبٌ بما يدفعُ الوهمَ، فقد يُقال: إنَّ وصفَ الرِّسالةِ والنُّبوَّة حاصلٌ له من كسبٍ ذاتيٍّ، فعقَّب بوصفِ الأمِّيِّ ليدلَّ على أنَّهما محضُ مدَدٍ سماويٍّ، وأنَّ اجتماعَهما له مع الأمِّيَّة من خوارقِ العاداتِ، كالجمْعِ بين الضِّدَّين[4].

وفيه إشارةٌ إلى بقاءِ صفةِ الأمِّيَّةِ في حقِّهِ ﷺ وأنَّها لم تتغيَّر، وفي ذلك ردٌّ على الَّذين يقولون بزوال الأمِّيَّة عنه ﷺ لأنَّ الأمِّيَّةَ فيه آيةٌ مُعجِزَةٌ.

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/577.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/133.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/329.

سِرُّ الاقْتِصارِ على هذه الصِّفات، دونَ غيرِها:

شُهرةُ الرَّسولِ عند أهلِ الكتابِ بهذه النُّعوتِ

ذِكْرُ النَّبيِّ ﷺ بهذه الأوصاف الثَّلاثة: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ - ولم تجتمِعْ هذه الصِّفاتُ في القرآن إلَّا في تلك الآية والَّتي بعدها - مع قوله بعده: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ تدلُّ على أنَّه - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - كان مذكورًا فيهما مشهورًا عندَهم بهذه الأوصافِ الثَّلاثةِ، ولولا أنَّ الغرضَ من توصيفِه بهذه الثَّلاثةِ هو تعريفُه بما كانوا يعرفونَهُ به منَ النُّعوت المذكورةِ له في التَّوراة والإنجيل؛ لَمَا كان لِذِكر الثَّلاثة: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ فائدةٌ.

ويُذكَرُ في ذلك أيضا أنَّه لم يُرسِل نبيًّا أُمِّيًّا إلَّا نبيَّنا ﷺ فصار الجمعُ بين النُّبوَّة والأُمِّيَّة كاللَّقبِ له اشتُهِرَ بها.

دَلالةُ ذكْرِ اسْمِ الموصولِ، في قولِه: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾:

دَلالـةُ الموصولِ على التَّشْخيصِ والتَّعْيينِ

التَّصريحُ بالموصول فيه إيماءٌ إلى العِلَّة الباعثةِ لهم على اتِّباعه، أي: يتَّبعونَه؛ لأنَّه الَّذي يجدونه مكتوبًا.. والموصولُ يفيدُ "وصفه لهم مُشخَّصًا، وحين يَصِفُه مُشخَّصًا، فهذا أوضحُ منَ الخبر عنه بكلام"[1]، ليجتمعَ بذكرِ الموصولِ الوصفُ بما يفيدُ حضورَهُ بشخصه ذاتًا وحضورَه بوصفهِ خبرًا.

دَلالةُ اصْطِفاءِ الفعْلِ ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾:

التَّعبيرُ عن أقومِ البشاراتِ، بأنْسَبِ العِباراتِ

أصلُ مادَّةِ (وجد): إصابةُ ذاتِ الشَّيءِ، والعثورُ عليه في الحيِّز[2]، فالتَّعبيرُ بـ(وَجَدَ) يدلُّ على ثلاثة أشياء: العثورُ والتَّحصُّلُ، الحَيِّزُ، شيءٌ ذو بالٍ، فالأوَّلُ: الحدَثُ، والثَّاني: الظَّرف، والثَّالث: المفعولُ، ومعاني هذا التَّركيب مُتحقِّقةٌ في هذا السِّياق، فأهلُ الكتاب يتحصَّلون، ويعثرون على النَّبيِّ ﷺ بوصفهِ المطابق - وهو شيءٌ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4382.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجد).

ذو بالٍ وشأن - في توراتهم وإنجيلهم اللّذين هما حيِّزٌ وحرزٌ لتلك البشارةِ به، فعبَّرَ عن أقومِ البشاراتِ بأنسبِ العباراتِ.

وممَّا يُذكَرُ أيضًا، أنَّ الفعلَ ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ يؤدِّي وظيفةً لا يؤدِّيها غيرُه، وذلك لأنَّه يتعلَّقُ بوجدان صفاتِه ونعوتِه الَّتي لا يشبَهُهُ فيها غيرُهُ، والموجودُ هو النَّعتُ والصِّفةُ ﴿مَكْتُوبًا﴾، فإنَّ الذَّاتَ لا تُكتب[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ باسْمِ المفعولِ: ﴿مَكْتُوبًا﴾:

صِيغةُ المفعولِ تَدلُّ على تَزامُنِ الثُّبوتِ مع الحُدوثِ

لإفادةِ الثُّبوت بعدَ الحدوثِ، أي: الوصفُ المذكورُ ثابتٌ مُتحقِّقٌ لازمٌ، لا ينفكُّ عن كونهِ مكتوبًا مُستقرًّا، وجاريًا مُستَمِرًّا، فالتَّعبيرُ بصيغةِ المفعول يفيدُ الحدوثَ في الماضي، والثُّبوتَ في الحاضر، والاستمرارَ في المستقبل[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ صفاتِه ونعوتَه ﷺ كتبها ربُّ العزَّةِ في اللَّوحِ المحفوظِ.

دَلالةُ الفصْلِ بجُملِة: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾:

ليس المُباشِرُ المُعايِنُ، كالمُخبَرِ السَّامِعِ

الفصلُ غرضُه التَّسجيلُ عليهم بإسنادِ ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ إليهم، وهو ما يقتضي مُباشرتَهم لسببِ المعرفةِ واليقينِ بذواتِهم، وليس من طريق غيرِهم، أي: هم يباشرون معرفةَ ذلك، ويجدونه بأنفسِهم. وممَّا يُذكَرُ أيضًا في دلالةِ الفصلِ الرَّدُّ على أهل الكتابِ في محاولةِ طمسِ الحقيقةِ، وتغييرِ المكتوبِ، فكأنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ المقصودُ به أهل الكتاب دون غيرهم منَ العربِ الَّذين لا علمَ لهم بنبوَّتِه ﷺ سابقًا.

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ، في قولِه: ﴿عِندَهُمْ﴾ دونَ (فيه):

إقامةُ تَسْجيلِ الحجَّةِ عليهم، مِن مقاصِدِ السِّياقِ وبيانِه

التَّعبيرُ بالظَّرفيَّةِ يفيدُ الحضورَ والاستقرارَ وعدمَ الغيابِ والبعدِ[3]، وهو بناءٌ على قولِه: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾؛ لتأكيدِ مَعْنَى المباشرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/132.

(2) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 52.

(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 206.

المفهومِ منهُ، أي: يجدونه بأنفسِهم حالَ كونِهِ حاضرًا ومُستقرًّا عندهم، ملتصقًا بهم، والعنديَّةُ هنا محسوسةٌ ومعقولةٌ؛ لأنَّ الكتابةَ مشهودةٌ بحروفها، معقولةٌ بمعانيها، فتحقَّقَ فيها العينُ والمعنى.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالضَّمير (هم) عن أهْلِ الكتابِ:

دَلالـةُ الإتْـيـانِ بـالـتَّـوراةِ والإنـجيلِ، ولم يَكْتفِ بالكلامِ على أتْباعِهما

عبَّرَ بالضَّميرِ (هم) عن أهلِ الكتابِ في قوله تعالى: ﴿عِندَهُمۡ﴾، ولم يقُل عند أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم بتحريفِهم لصفاته ﷺ المذكورةِ عندهم في كتابِهم لا يستحقُّون أن يوصفوا بأنَّهم أهلُ كتابٍ، لذا عبَّرَ عنهم بضمير الغَيبة لتغييبهم حقيقةَ نبوَّته ﷺ فكان التَّعبيرُ بضمير الغَيبة جزاءً وفاقًا على ما فعلوا. كما أنّه ذكر التَّوراة والإنجيل، ولم يكتفِ بالكلام على أتباعِهما في قوله تعالى: ﴿عِندَهُمۡ﴾؛ بل قال: ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾:

تعيينًا لمتعلَّقِ العنديَّةِ وموضِعِها، ونصًّا على حيِّزِ المكتوبِ وَمكانِه.

دَلالةُ الجمْعِ بين التَّوراةِ والإنجيلِ:

تـقـريـرُ الـبُرهـانِ الـعـقـلـيِّ، على إمْكانيَّةِ الوحْيِ وحُدوثِهِ

جريًا على عادة البشيرِ في تنزيل الإخبارِ بالبُشرى الَّتي لم تقع منزلةَ الواقعِ الحاصلِ، لجزْمِه المُتحقِّقِ زمنَ الإخبارِ بها، فنزَّل الجزْمَ بها منزلةَ وقوعِها، فالإنجيلُ هو بُشرى التَّوراة، كما أنَّ القرآنَ والرُّسولَ هما بُشرى التَّوراة والإنجيل، ولتقريرِ أنَّ الإنجيلَ كما يكون مُصدِّقًا لَمَا بين يديه منَ التَّوراة، ومكمِّلًا لها، ويحصُلُ قَبولُهم بذلك، فليس بِدعًا أن يأتي الرُّسولُ النَّبيُّ الأمِّيُّ مُبشَّرًا به فيهما، ومُصدِّقًا ومُكمِّلًا لهما، فليس غريبًا في مُقْتَضَى العدلِ والحكمةِ أن يأتيَ الوحيُ يُصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويبشِّرَ بعضُه ببعضٍ، ويتلو بعضُه بعضًا، وفيهِ تعريضٌ بانفصامِهم في المعيار، وغلوِّهم في الظَّنِّ والتَّناقضِ، والبغي والاستكبار.

ومن دلالاتِ الجمعِ بين التَّوراةِ والإنجيلِ مع الاقتصارِ عليهما

ذِكرُ ما " يَعتدُّ بهما بنو إسرائيل سابقًا ولاحقًا، وكأنَّه لهذا المعنى اقتصر عليهما، وإلَّا فهو - صلَّى اللّه تعالى عليه وسلَّم - مكتوبٌ في الزَّبور أيضًا"[1].

وفيه إشارةٌ إلى وحدةِ الدِّين السَّماويِّ في الإخبار عن نبوَّتِه ﷺ وأنَّ ما وقع منَ اليهودِ والنَّصارى هو من بابِ تحريفِ القولِ عن مواضعِه.

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّعبيرِ بأهْلِ الكتابِ، إلى ذِكْرِ الكتابِ:

الكتابُ أشدُّ وَثاقةً من صاحبِه؛ لأنَّه وحيُ الله المنزَّلُ إلى كافّةِ البشرِ

لم يذكرْ أهلَ الكتابِ، وذكرَ كتابيهما: ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾؛ لأنَّ الكتابَ هو محلُّ الكتابةِ المقصودةِ، ولأنَّ الكتابَ أكثرُ وثاقةً من أهله؛ لأنَّهم إذا كتموا، ولم يبيِّنوا؛ ظلَّ الكتابُ مُشتمِلًا على البيان بالمكتوب فيه، ولأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ في حيِّزِ الجوابِ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولمَّا يرثوا علمَ التَّوراة، فضلًا عن أنَّ الإنجيلَ لم يكن بعدُ، فلم يكن وصفُ أهلِ الكتاب حاصلًا لهم، فرُوعِي المقامُ في ذلك، ورُوعِي القصدُ من ذكر الكتابِ لكونِه موضعَ الكتابةِ، وليس أهلُ الكتاب بموضعٍ لها.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ علماءِ أهلِ الكتابِ ليسوا أُمناءَ على كتابِ اللّهِ المقدَّسِ، لَمَا وقعَ منهم من تحريفٍ وتبديلٍ وإنكارٍ، أمَّا شأنُ الكتبِ السَّماويَّةِ؛ فهي على براءتِها الأصليَّةِ من إثباتِ نبوَّتِه ﷺ.

دَلالةُ فصلِ جُملةِ: ﴿يَأۡمُرُهُم﴾ عمَّا قبْلَها:

بَلاغةُ النَّظْمِ في تحوُّلاتِه، ودَلالةُ عناصرِه على مُؤدّاهُ العامِّ

الانتقال في قولِه: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ جاء للدَّلالةِ على الرَّسول ﷺ بشريعتِه، بعد ما دلَّ سبحانه عليه ﷺ بأوصافه في نفسه وفي الكتب الإلهيَّة[2]، أو الفصل " لتفصيل بعض أحكامِ الرَّحمةِ الَّتي وعد فيما سبق بكتْبِها إجمالًا"[3]، "فالكلامُ مُستأنفٌ لا محلَّ له من الإعراب"[4]، ويصحُّ أن تكونَ الجملةُ تفسيرًا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/76.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/117.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/76.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.

وبيانًا للمكتوب في قوله: مكتوبًا، أي: ماكُتِب كذا وكذا، فالَّذي "يجدونه مكتوبًا عندهم؛ أنَّه يأمرُهم بالمعروف"[1].

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ:

في قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عدلَ عن الاسميَّة إلى الفعليَّة لأمور:

الـدَّلالـةُ على الخيْرِ، والتَّحذيرُ مِنَ الـشَّرِّ، أمرٌ مُتجدِّدٌ باطِّرادٍ

أوَّلًا: الأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عنِ المنكر صِفةُ مزاولةٍ بحسب المقتضى، والحالُ الأصليَّةُ للإنسان أنَّه منفكٌّ عن ملابسةِ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عنِ المنكر، فمزاولةُ الأمرِ والنَّهي طارئةٌ يُحدِثُها الإنسانُ بسببٍ عارضٍ ومقتضًى، وهو وصفٌ مُتعدٍّ للآخر، ولآخرُ متباينٌ ومُتنوِّعٌ، فهي صفةٌ منْتَقِلةٌ ومتباينةٌ بحسب تباينِ مُتعلَّقِها ودواعيها، وهذا يقتضي التَّجدُّدَ والحدوثَ، فكان الأنسبُ الفعلَ دون الاسم.

ثانيًا: مُحدِّداتُ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عنِ المنكَر مُتحقِّقةٌ بالوحي والتَّنزيل، وإعلامُ الوحي بذلك مُتجدِّدٌ يحصلُ شيئًا فشيئًا، ومرَّةً بعدَ مرَّةٍ، فكان التَّعبيرُ بالفعل أليقَ؛ إذ كيف يكونُ معنى الوصف ثابتًا له في كلِّ حالٍ وزمانٍ، وهو لا يأمرُ، ولا ينهى إلَّا بعد إعلام الوحي له بما يأمرُ، وينهى، وما ينطقُ عنِ الهوى إن هو إلَّا وحيٌ يُوحى؟ فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يكون ذلك وصفًا ثابتًا، وهو مرتبطٌ بطروءِ الوحي إليه؟ واسم الفاعل وإن كان يدلُّ على الاستقبال كالفعل المضارع المستعمل هنا، إلَّا أنَّ "الفرقَ بينه وبين استعمالِ المضارعِ هو أنَّ الأمرَ في اسم الفاعل كأنَّه قد تمَّ، وثبَتَ وصفًا لصاحبِه"[2].

ثالثًا: النَّبيُّ ﷺ في موضع القدوةِ لقومهِ الموصوفين في أوَّلِ الآيةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/381.
(2) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 45.

باتِّباعه، ومن ذلك أن يتَّبعوه في الأمر بالمعروفِ، والنَّهي عنِ المنكَر، وليس مرادًا منهم أن يكونَ الوصفُ قائمًا بهم راسخًا فيهم، ولو مدَّةً منَ الزَّمن، بل المقصود أن يكونَ الوصفُ صادرًا عنهم، ولو لم يتحقَّقوا بحقيقتِه، ليحصلَ القدرُ الضَّروريُّ الواجبُ في التَّناصح والدَّلالةِ على الخير والتَّحذيرِ منَ الشَّرِّ، ولو عبَّرَ بالاسميَّة هاهنا؛ لَمَا صحَّ لأحدٍ من أتباع الرَّسولِ أن يزاولَ الأمرَ بالمعروف والنَّهي عنِ المنكَرِ إلَّا أن يكونَ مُتحقِّقًا بما يأمر، أو ينهى قبلَ مزاولتِه ظاهرًا.

قالَ الرَّازيُّ: "الاسمُ له دلالةٌ على الحقيقةِ دونَ زمانِهَا، فإذا قلت: زيدٌ مُنطلِقٌ، لم يُفِدْ إلَّا إسنادَ الانطلاقِ إلى زيدٍ، وأمَّا الفعلُ؛ فله دلالةٌ على الحقيقةِ وزمانها، فإذا قلت: انطلقَ زيدٌ؛ أفادَ ثبوتَ الانطلاق في زمان معيَّنٍ لزيد، وكلُّ ما كان زمانيًّا؛ فهو مُتغيِّرٌ، والتَّغيُّرُ مُشعِرٌ بالتَّجدُّدِ، فإذًا الإخبارُ بالفعلِ وراءَ أصل الثُّبوتِ كونَ الثَّابتِ في التَّجدُّدِ، والاسمُ لا يفيدُ ذلك"[1].

سِرُّ اخْتِيارِ قولِه: ﴿يَأۡمُرُهُم﴾ دون (يدعوهم):

الإشارةُ إلى وُجوبِ الأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عنِ المنكَرِ

أوثِرَ استعمالُ لفظِ الأمرِ للدَّلالة صراحةً على وجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، ولبيان مكانتهِ في هذه الأمَّة، حيث إنَّه من خصائصِها ومميِّزاتها.

ولم يُستعمل لفظُ الدَّعوة هنا لدَفْع توهُّم التَّخييرِ أو الإباحةِ في شأن المعروفِ والمنكَر، ولتعيين الإيجابِ والحظرِ في تعاطي كُلٍّ، فاستعمالُ لفظِ الدَّعوةِ أجنبيٌّ بدلالته العامَّةِ أن يقترنَ بالمعروف؛ لأنَّ الدَّعوةَ في أصلها لا تقتضي إيجابًا إلَّا بقرينةٍ، بل أصلُها مُستعمَلٌ للنَّدب والتَّحضيض من غير إلزام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفعلَيْن: ﴿يَأۡمُرُهُم﴾ و﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ﴾:

يدلُّ على دخول أهلِ الكتابِ في موقع خطابِ الرَّسولِ ودعوتِه،

(1) الفخر الرّازيّ، نهاية الإيجاز، ص: 80.

دُخولُ أهلِ الكتابِ في مواقِعِ خِطابِ القرآن، ودلالَتِه

فهو وإن كان مبعوثًا للنَّاس كافَّةً إلَّا أنَّهم مقصودون بدعوتِه ﷺ باعتبارهم أهلَ الكتابِ الَّذي بشَّرَ به، وجاءَ هو مُصدِّقًا له.

سِرُّ اخْتِيار لفْظِ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

لفظُ المعروفِ أعمُّ منَ العُرْفِ، وأنْسبُ في مقابَلةِ المُنكَر

المعروفُ أعمُّ منَ العُرف، من حيث إنَّ الأخيرَ دالٌّ على الحالة الظَّاهرةِ والجليَّةِ في الوصف، وأمَّا المعروفُ؛ فليس كلُّه كذلك، بل قد يكتنفُ المعروفَ وجهٌ من وجوهِ الخفاءِ، فلا يدركُهُ كلُّ أحد استقلالًا، بخلاف العُرف، ولذا جاءَ الأمرُ بالمعروف مقترنًا بالنَّهي عن المنكرِ في كلِّ القرآن: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾؛ لأنَّ الأمرَ بالمعروف مُتعلِّقٌ بالتَّفصيل والتَّشريع والدَّلالة على الأحكام، وهذا ممَّا يكتنفُه الإبهامُ والخفاءُ في بعض أفرادهِ وآحادهِ، ولذا قد يقعُ الخلافُ في تقريرِ فروعِه، ويفتقرُ إلى بيانهِ وتجديدِ الأمرِ والتَّواصي به؛ لأنَّه قد يُنسَى، ويُختلطُ أمرُه، ولو كان كلُّ معروفٍ ظاهرًا بحيثُ لا يلتبِسُ في شيءٍ من وجوهِه ومجالاته؛ لَمَا كان لكثرةِ ذكرِه في القرآنِ فائدةٌ، فما أكثرَ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عنِ المنكَرِ في القرآن! وتلك هي النُّكتةُ من ذكرِ الأمرِ ﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾ مرَّةً واحدةً، وذِكرِ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ كثيرًا؛ لأنَّ العُرفَ لمّا كان في الظَّاهر الَّذي لا يلتبِسُ في شيءٍ من أفراده، لم يذكره إلَّا مرَّةً واحدةً، وأكثَرَ مِن المعروف وتكريرِه في الذِّكرِ؛ لحاجتِه إلى التَّكرار في مزاولته والتَّواصي به، للتَّفاوت المذكورِ بينه وبين العُرف[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بقولِه: ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ﴾:

عِصْيانُ النَّهي، يَستوجِبُ العقابَ عليه

والتَّعبيرُ بالنَّهي هو الأنسبُ، لمناسبتِه وظيفةَ البلاغ، فهو طلبٌ بالكفِّ عنِ الشَّيء؛ لأنَّه إخبارٌ بنهايةِ الحدِّ أو الموضعِ الَّذي ينتهي

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف)، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/370، والآلوسي، روح المعاني: 5/145، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 59 - 64.

المُكلَّفُ عن تناولِه وتَعاطِيه، ولأنَّ النَّهيَ هو إسنادُ الانتهاءِ ونهايةِ الشَّيءِ إلى اختيارِ المُكلَّفِ وعمَلِه، ولأنَّ النَّهيَ عنِ المنكَرِ ليس مُعتبَرًا فيه شخصُ الرَّسولِ ﷺ وحدَه، بل أتباعُه، فلو أسندَ الزَّجرَ والمنعَ إلى المُنكرِ؛ لساغَ لأتباعِه أن يمنعوا، ويزجروا كذلك، ولأنَّ النَّهيَ بيانٌ عن عدم الفعلِ بالاختيار، وأمَّا الزَّجرُ؛ فبيانٌ عن عدم الفعلِ بالقهرِ، ولأنَّ الزَّجرَ والمنعَ مُشتملانِ على مَعْنَى النُّكْرِ والكراهيةِ، فإسنادُهما لقصدِ إزالةِ المنكَرِ تناقضٌ، وفيه دفعُ الشَّيءِ بمثلِه، أي: إنكارُ المنكَر بالمنكِر، ففيه إخلالٌ بمجموعِ المقاصدِ والمحامدِ[1]، ولأنَّ المنعَ والزَّجرَ هو أثرُ النَّهيِ المُترتِّبِ عليه شرعًا، فالنَّهيُ للامتناع، وعصيانُ النَّهي يستوجبُ الزَّجرَ عليه، والتَّكليفُ يحصلُ بالشَّيءِ لا بأثرِه، وأيضًا: لو قال: يزجرُهم؛ لكان النَّبيُّ ﷺ زاجِرًا، والزَّجرُ لا يليقُ به ﷺ لأنَّ الزَّجرَ انتهارٌ وعنفٌ وقسوةٌ.

دَلالةُ الفعلِ المضارِعِ: ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ﴾:

الحِفاظُ على الأخلاقِ، يَدومُ بدَوامِ النَّهْيِ عنِ المنكَرِ

عبَّرَ بالفعل المضارع الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ للدِّلالة على أنَّ النَّفسَ البشريَّةَ تحتاج دائمًا إلى صيانتها وتطهيرها بالبُعد عنِ ارتكاب الرَّذائلِ، ولا يتأتَّى ذلك إلَّا بمداومة النَّهي عن تفشِّي المنكَرِ في المجتمع، وهذا ظاهرٌ في تعبيرِ القرآنِ الكريم بالفعل المضارع الَّذي يحرسُ الفطرةَ البشريَّةَ مِن استمراءِ الوقوعِ في المنكَر.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإضْمارِ عن أهلِ الكتابِ:

العُدولُ عن وصْفِ أهلِ الكتابِ، لتَرْكِهم الأمرَ بالمعروف، والنَّهيَ عنِ المنكَرِ

قَولُه تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، عبَّرَ بالضَّمير عن أهل الكتابِ في الأمر بالمعروف، والنَّهي عنِ المنكَرِ في قوله: ﴿يَأۡمُرُهُم﴾، ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ﴾ دون أن يصرِّحَ بهم؛ لأنَّهم تمرَّدوا على الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المنكَر؛ فما عادوا يأمرونَ بمعروفٍ، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 101، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زجر).

ينهونَ عن منكَرٍ، وهذا مخالفٌ لوصفهِم بأهل الكتاب الَّذي ينبغي أن يكونَ زاجِرًا لهم في ارتكابِ المنكَرِ، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمنكَرِ، في قولِه: ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾:

الإخبارُ بالأجناسِ، أوفى وأجمَعُ وأمنَعُ من غيرِه

المنكَرُ: اسمٌ عامٌّ منَ الأجناس العاليةِ ذاتِ العموم الكثير، فهو شاملٌ لكلِّ ما يتعلَّقُ به الإنكارُ والكراهيةُ وعدمُ القَبول، في الأديانِ والأبدانِ والعاداتِ والأدبيَّاتِ، وكافَّة المحاذيرِ والمكروهاتِ، شمولًا مُستغرِقًا، والتَّعريفُ فيه لإرادة العموم، ولذا عبَّرَ به دونَ غيره، والإخبارُ بالأجناس أوفى وأجمعُ وأمنعُ من غيرِه، وسرُّ التَّعبير به دَفْعُ إيهامِ التَّفريطِ في بلاغ الرَّسول أو الوحي، فلم يَفُتْهُ شيءٌ منَ المعروفِ أو شيءٌ منَ المنكَرِ، والإيذانُ بكمالِ الأخلاقِ والتَّشريع، وفيه أنَّ رسالةَ الرَّسولِ تنسخُ الرِّسالاتِ قبلَها، وتكمِّلُها بما لم يكنْ فيها، ولا ينسخُها غيرُها لكمالِ عمومِها وتمامِها(1).

بَلاغةُ المقابلةِ في الآيةِ:

أثَرُ ألوانِ البديعِ، في تَرسيَةِ المعنَى وجَمالِه، أكيدٌ وبيِّنٌ

من صورِ البلاغةِ في هذه الآيةِ المقابلةُ بين قولهِ تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، وهو منَ المحسِّناتِ البديعيَّة.

سِرُّ الإتْيانِ بالتّحليلِ والتّحريمِ، مقابِلَ الأمْرِ بالمعروفِ، والنّهْيِ عن المنكَرِ:

الامْتِنانُ ببعضِ وظَائفِ الرَّسولِ الإبلاغيَّةِ والتَّشريعيَّةِ على النَّاسِ

لَمّا أخبرَ عن وصفِ الرَّسولِ بقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ تلاهُ ببيانِ مقتضاهُ من وظيفة البلاغ ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، ثمَّ تلاهُ بمقتضى بلاغِه، وهو التَّشريعُ بقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، ودَمَجَهُ بمعنى الامتنانِ عليهم في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ لبيان

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نكر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 804، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نكر).

موضعِ المِنَّةِ في تشريعِه[1]. ودلالةُ الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ﴾ تفريعٌ على ما قبلَها، وتفصيلٌ لإجماله، وهي للدَّلالة على جمْعِ الرَّسولِ النَّبيِّ بين تلك الوظائف المذكورة.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ: ﴿وَيُحِلُّ﴾:

(الإباحةُ و(الإذْنُ) لا يلزمُ عنهما دَلالةٌ على سَبْقِ التَّحريمِ

التَّعبيرُ بالحِلِّ لاقتضاءِ سبْقِ الحرمَةِ؛ لأنَّ الحِلَّ معناه: فكُّ عُقدةِ الحظْرِ، وقبلَ الحِلِّ كان مُحرَّمًا عليهم في التَّوراة لحومُ الإبلِ وشحومُ الأنعام، وأمَّا الإباحةُ والإذنُ؛ فلا يلزمُ عنهما دلالةٌ على سبْقِ التَّحريم، فالإباحةُ مُطلَقُ الوُسْعِ في تناولِ الشَّيء، والإذْنُ مُطلَقُ العِلمِ بالشَّيءِ[2].

سِرُّ تقديمِ ﴿لَهُمُ﴾، في قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

ما أحلَّهُ الله تعالى، هو في مَصلحةِ الإنسانِ ونَفْعِه

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ لإفادةِ تخصيصِهم بالفعلِ؛ لأنَّهم المقصودونَ بالتَّشريع.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ عنِ الحلالِ:

إيقاعُ الفعْلِ على مفعولٍ من لفْظِهِ، تَكرارٌ وعدمُ فائدةٍ

إيقاعُ الفعلِ على مفعولٍ من لفظهِ تكرارٌ وعدمُ فائدة، فلو قال: (ويحلُّ لهم الحلالَ)؛ لكان كمَن قال: قام القائمُ، وقعد القاعدُ، فيكون خاليًا منَ المعنى المفيد، وإنَّما عبَّرَ بالطَّيِّبات؛ ليفيدَ أنَّ الحلالَ كان طيِّبًا قبلَ حِلِّه، وأنَّ الخبيثَ كان خبيثًا قبلَ تحريمِه، ولم يكنِ التَّحليلُ والتَّحريمُ سببًا في أن يصبحَ الشَّيءُ طيِّبًا أو خبيثًا، فلو كان وصفُ الطيِّبِ والخبيثِ مُستَفادًا منَ التَّحريمِ والتَّحليل لم يكن في ذلك دليلٌ، فإنَّه بمنزلة أن يُقال: يُحِلُّ لهم ما يَحِلُّ، ويُحَرِّمُ عليهم ما يَحرُم، وهذا باطلٌ؛ لانعدامِ الفائدةِ منه، فثبتَ أنَّه أحلَّ ما هو طيِّبٌ في نفسِه قبلَ الحِلِّ، فَكَسَاهُ بإحلالِه طِيبًا آخر، فصار منشأُ طِيبِه منَ الوجهين معًا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/117.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/77، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن - بوح).

(3) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 289.

دَلالةُ التَّعْبير بالجمْعِ في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

(المفرَدُ) أضْعفُ في عُمومِه منَ (الجَمْع)

إفادةُ الكثرةِ والعددِ، ولو قال: (الطَّيِّب)؛ لكان في عمومِه أضعفُ منَ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لأنَّ (الـ) الجنسيَّةَ إذا دخلَت على المفرد؛ أفادَت الحقيقةَ والعمومَ، وأمَّا إذا دخلَت على الجمع؛ دلَّت على الحقيقةِ والعموم والكثرةِ العدديَّةِ، وفي التَّعبير بالجمع دون المفرد إيذانٌ بأنَّ مُتعلِّقاتِ التَّحليل والتَّحريم منَ الطَّيِّبات والخبائث كثيرةُ الأنواع مُتعدِّدةُ الأبواب، وأنَّ في كثرةِ الطَّيِّب ما يُغني عن تعاطي الخبائث[1].

سِرُّ تَقديمِ الحِلِّ للطَّيِّبات، على تحريمِ الخبائثِ:

مُباشرةُ الحلالِ أعْونُ وأنهضُ، على تَرْكِ المحرَّماتِ

تقديمُ حِلِّ الطَّيِّبات إيناسًا للنُّفوسِ بابتدائِها بسَعةِ المباحاتِ قبل تقييدِها بالمحرَّمات، وافتتاحًا افتتاحٌ للتَّشريع بالحلال، حتَّى لا تستوحشَ الحرام، وإيذانًا إيذانٌ بأنَّ مباشرةَ الحلال أعونُ وأنهضُ على ترك المحرَّمات.

سِرُّ الوصْفِ بلفْظِ ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، دونَ غيرِه:

زيادةُ التَّنْفيرِ منَ الخُبْثِ واجتنابِه؛ فالخُبثُ واقعٌ في ذاتِهِ قبلَ تحريمِهِ

﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾: جمعُ خبيثةٍ، مؤنَّثُ خبيثٍ (فَعِيل) صفةٌ مشبَّهةٌ من فَعُلَ (خَبُثَ)[2]، وهذا البناءُ يدلُّ على الطَّبائع وعلى التَّحوُّل في الصِّفات، أي: ما كانت صِفةُ الخُبثِ لازِمَةً فيه، أو كان الشَّيءُ قد تَحوَّل إلى الخُبْثِ بما يُقاربُ الغريزةَ والخِلْقةَ، فهو دالٌّ على التَّمكُّنِ والإغراقِ في الصِّفة، وهذا يفيدُ ما سبق تأكيدُه؛ مِنْ أنَّ الخبيثَ لم يكتسِبْ وصْفَهُ منَ التَّحريمِ الشَّرعيِّ، بل هو خبيثٌ بطبْعِه وذاتِه من قبل التَّحريم، فأجدرُ أن يكونَ تحريمُه أنهضَ على اجتنابِه؛ لاجتماعِ عِلَّةِ الأصلِ، وعِلَّةِ الشَّرعِ في نَفيِهِ وإنكارِه[3].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 336.

(2) صافي، الجدول: 9/96.

(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/88، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 84.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالغَيبةِ ﴿وَيُحِلُّ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُ﴾ دونَ الخطابِ:

الأصلُ في النَّظْمِ أن يَطَّرِدَ أسلوبُه، وَفْقَ جَريانِهِ السَّابِقِ في السِّياقِ

قولُه تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، نجد السِّياق جارٍ في الحديث عن قومِ موسى من بني إسرائيلَ، ومخاطَبٌ به مَن أدركَ البَعثةَ من بني إسرائيل كذلك، ولو جرى على الخطاب؛ لاحتَمَلَ إحْدى الطَّائفتين دون الأخرى، بل الطائفةِ المعاصِرَةِ منهما وقتَ النُّزول، فضلًا عن أنَّ الكلامَ جارٍ منَ البدايةِ على طريقةِ الغيبةِ، فاطِّرادُهُ على هذا النَّحوِ هو الأصل.

سِرُّ الإتْيانِ بجُملةِ: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾، بعدَ الجُملةِ السَّابقةِ:

اقْتِرانُ التَّكليفِ بـمـا يـقـتـضِي التَّخفيفَ دَأْبُ السِّياقِ القرآنيِّ

التَّعقيبُ بجملة: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ موصولةً بالواو مع ما قبلَها؛ لاستتمامِ صفاتِ الرَّسول العمليَّةِ بعد البلاغِ العامِّ بقوله: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، والتَّشريعِ الخاصِّ بقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، فلمَّا كان ذلك مُشتمِلًا على معنى التَّكليف؛ أتبعَهُ بما يفيدُ التَّخفيفَ، فقال: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾، بُغيةَ أن تزولَ عنهم مشقَّةُ التَّكليفِ بلذَّةِ التَّخفيفِ، وختَمَ به مهمَّاتِ الرَّسول، ليكونَ آخرُ عهدِ المُخاطَبِ منَ الكلامِ رِفْقًا ومَرحَمَةً، فيستعينَ بالتَّخفيف على عزائم التَّكاليفِ إغراءً له وتنشيطًا عليه.

دَلالةُ اخْتيارِ الواوِ، في قولِه: ﴿وَيَضَعُ﴾:

جـمَـعَ الـلـه للرّسولِ وظائفَ شتَّى، وأخلاقًا جمّةً

عُطِفَ قولُه: ﴿وَيَضَعُ﴾ بالواو على ما قبلَه، إيذانًا بأنَّه منه، ومضمومٌ إليه، وداخِلٌ في حيِّز تعديدِ ما اجتمعَ للرَّسولِ من وظائفَ وأعمالٍ.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ، في قولِه: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ﴾:

حقيقةُ الوضعِ الحطُّ من علوٍّ إلى سُفْل، وهو هنا مجازٌ في إبطال التَّكليفِ بالأعمال الشَّاقَّة، وهو في الأصل يتعدَّى إلى المفعول الثَّاني

بـ(في) الظَّرفيَّة، فإذا تَعدَّى إليه بـ(عن) دلَّ على النَّقْل والتَّحوُّل (وضعتُ الشَّيءَ عنه: إذا نقلتُه وحوَّلتُه)، وإذا عُدِّيَ بـ (على) دلَّ على الحطِّ (وضعتُ الشَّيءَ على الشَّيءِ: حطَطتُه عليه)، فاستُعير ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ﴾ هنا إلى إزالة التَّكليفات الَّتِي هي كالإصرِ والأغلال، فَيَشمَلُ الوضعُ معنى النَّسخِ وغيرَهُ، أو تكونُ جملة ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ تَمثيليَّةً، بتشبيهِ حالِ المُزالِ عَنهُ ما يُحرِجُهُ مِنَ التَّكاليفِ بِحالِ مَن كان مُحَمَّلًا بِثِقَلٍ، فَأُزيلَ عَن ظَهرِهِ ثِقَلُهُ، كما في قوله تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 31]، وإنْ لم يَكُنْ كذلك؛ كان الإصرُ استِعارَةً مَكنيَّةً، و(يَضَعُ) تَخييلًا، وهو أيضًا استِعارَةٌ تَبَعِيَّةٌ للإزالَةِ[1].

لفتُ الانتباهِ إلى عظَمةِ الشَّريعةِ، في إبْطالِ التَّكليفِ بالأعمالِ الشَّاقَّةِ

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارِعِ، في قولِه: ﴿وَيَضَعُ﴾:

شَرْعُ اللهِ مُتَّسِمٌ بالتَّخفيفِ والتَّيسيرِ عنِ الإنسانِ

عبَّرَ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ سمةَ اليُسرِ والتَّيسيرِ في شرعِ اللهِ مُتجدِّدةٌ ومُستمرَّةٌ، فكلَّما حلَّ بالأمَّة أمرٌ فيه مشقَّةٌ وصعوبةٌ في الأداء؛ كان شرعُ الله مُتَّجهًا إلى التَّخفيف والتَّيسير عن كاهل الإنسان عمومًا، والمسلم خصوصًا.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ دونَ (لهم):

البراعةُ في اصْطِفاءِ حروفِ المعانِي، يَنفِي الاحتمالَ والالتباسَ في النَّظْمِ

قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ﴾، آثرَ التَّعبيرَ فيه بلفظ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ لإفادة وضعِ الإصرِ، وتحوُّلِه عنهم وتحوُّلِهم عنه، ولو قال: (ويضع لهم)؛ لأدخلَ الاحتمالَ في مَعْنى الوضع أن يكون تثبيتًا لا إزالةً، فإنَّ (وضع) يأتي في المعنى الموجب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾ [الرّحمن: 10]، أي: جعلَها وثبَّتها لهم، ولَخَلَا عن معنى الانتقالِ المذكورِ.

دَلالةُ الضَّميرِ، في قولِه: ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾:

الضَّميرُ المجرورُ المُقدَّمُ يفيدُ اختصاصَهم بالتَّخفيفِ، أي: يضعُ

---
(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/136.

عنهم وضعًا مُختصًّا بهم، ولذا لم يقُل: ويضعُ إصرَهم عنهم، والضَّمير الثَّاني، وهو المضافُ إليه (الإصر) يفيدُ إزالةَ عموم المشَقَّاتِ الَّتي كانَت عليهم؛ لأنَّ النَّكرة المضافةَ للمعرفة ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾ في سياق الامتنانِ تفيدُ العمومَ.

النَّكرةُ المُضافةُ للمعرفةِ، في سِياقِ الامْتنانِ، تُفيدُ العمومَ

سِرُّ التَّعْبيرِ باللّفْظِ ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾ بَدلًا منَ (الوزر):

الإِصرُ: هو الثِّقْلُ الحاصلُ بتقييدٍ خارجيٍّ، والوِزرُ هو الثِّقلُ الحاصلُ بقيدٍ ذاتيٍّ، ولذا لم يُستَعْمَلِ الوزرُ في القرآن إلَّا في الجنايات والسَّيِّئات الَّتي يقترفُها الإنسانُ، فهو خارجٌ منه، وأمَّا الإصرُ؛ فتقييدٌ بما يُثقِل، ويُقعِد، فالقيدُ إليه لا منه، ولذا استعَملَ الإصرَ في المواثيق المعقودةِ على التَّكاليفِ الشَّاقَّة لثقل الإلزام فيها[1].

دَلالـةُ (الإصْـرِ) عـلى الـثِّـقْـلِ الحاصلِ، بسبب قيْدٍ خارجيٍّ

دَلالةُ الإفرادِ والجمْعِ، في القراءةِ المتواترةِ: ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾:

قَرَأ ابنُ عامرٍ (آصارَهُمۡ) بفتح الهمزة والمدّ والصّادِ وألِفٍ بعدَها على الجَمعِ، وقَرَأ الباقونَ بكَسرِ الهَمزَةِ والقَصرِ، وإسكانِ الصّادِ مِن غيرِ ألِفٍ على الإفرادِ[2]، وقراءة الجمع فيها إفادةُ الكثرةِ بالعددِ المفهومِ من لفظِ الجمعِ، وهو مُؤذِنٌ بتأكيدِ المِنَّة عليهم بجمعِ مُتعلَّقِها، أي: خلَّصناهم من جميعِ أنواعِ المشقَّاتِ، ومَن أفردَ؛ فلأنَّه اسمُ جنسٍ يندرجُ تحتَهُ أنواعٌ كثيرةٌ[3].

قــراءةُ الجمْعِ تُفيدُ المبالغةَ في الامْتنانِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾:

التَّعبيرُ بالأغلالِ مُفعَمٌ بمظاهر القهرِ والإذلالِ، فاصطفاءُ هذه المفردة يُصوِّرُ المقابلةَ بين حالهم مع مشقَّة التَّكليفِ، وحالهم بعدَ التَّخفيف، تصويرًا حسِّيًّا يُجلّي في المقام معنى الإشفاق والتَّعزية من حالِ الأسيرِ؛ إذا أتاهُ نبأُ التَّحريرِ، فقرَّبَ بتلك اللَّفظةِ ذلك

اصْطِفاءُ مُفردةِ (والأَغْــلالِ) تصويرٌ المقابَلةِ بـين حـالَـيْنِ، تصويرًا حسِّيًّا

(1) وضِعَ الوِزرُ للقوَّة؛ لأنَّه منَ الإزار، وهو ما يُقوِّي الإنسانَ، ومنه الوزير، لكنْ غلَبَ استعمالُه لِعَمَلِ الشَّرِّ باعتبارِ أنَّ صاحبَ الوِزرِ يَتقوَّى ولا يَلِينُ للحقِّ. ينظر: الكفويّ، الكلّيّات، ص: 40 - 131.

(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 295، وابن الجزريّ، النّشر: 2/272.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/481.

الشُّعورَ الأسيفَ منَ النُّفوسِ والأفئدةِ، إيذانًا بأنَّ رفْعَ ذلك عنهم لم يكن نِعمةً عامَّةً جاريةً على عادةِ سائرِ النِّعم، بل نعمةً خاصَّةً عظيمةً بِمنزلَةِ تخليصٍ وتحريرٍ، كما يُحرَّرُ الأسيرُ من حَبْسِه وأغلالِه.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ، في قولِه: ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾:

الوَضعُ والإصْرُ والأغلالُ كلٌّ منها اسْتِعارةٌ للتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ

الأغلالُ مُستعَارةٌ للتَّكليفِ والعملِ الَّذي يُؤلِم، ولا يُطاقُ تشبيهًا للمعقولِ بالمحسوسِ، ويصحُّ أن يكونَ التَّعبيرُ بـ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ تمثيلًا بتشبيهِ حالِ المحرَّرِ منَ الذُّلِّ والإهانةِ بحالِ مَن أُطلِقَ منَ الأسرِ، أو بتشبيهِ أحكامِ التَّوراةِ بما يُغَلُّ به الإنسانُ، فلا يقدِرُ على العملِ لِثِقَلِها.

ومناسبةُ استعارةِ الأغلالِ للذِّلَّةِ أوضحُ؛ لأنَّ الأغلالَ من شعارِ الإذلالِ في الأسرِ والقَودِ ونحوِهما، والأحسنُ: أن يكونَ الوضعُ والإصرُ والأغلالُ في كلٍّ منها استعارةً للتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ، ويصحُّ جعلُ بعضِها استعارةً والآخَرِ ترشيحًا، والمجموعُ استعارةٌ تمثيليَّةٌ[1]، وقيل: كانَت بنو إسرائيل إذا قامَتْ إلى الصَّلاةِ؛ لبِسوا المُسُوحَ، وغَلُّوا أيديَهم إلى أعناقِهم تواضعًا للّٰه تعالى فعلى هذا القولِ؛ فالأغلالُ غيرُ مُستعارةٍ[2].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾:

إيقاعُ الوَصْفِ بالمجازِ على أخصِّ أحوالِ الموصُوفِ، من فَصيحِ البيانِ

قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، ورد هذان الوصفانِ الإصرُ والأغلالُ لهما مزيدُ اختصاصٍ باليهود، المتحدَّثِ عنهم في خطابِ اللّٰه تعالى لموسى، ولا يتحقَّقان في غيرِهم ممَّن آمنَ بمحمَّد ﷺ؛ لأنَّ اليهودَ قد كان لهم شرعٌ، وكان فيه تكاليفُ شاقَّةٌ، بخلافِ غيرِ اليهودِ منَ العربِ والفرسِ وغيرِهم، ولذلك أضافَ اللّٰهُ الإصرَ إلى ضميرِهم، ووصَفَ الأغلالَ بما فيه ضميرُهم[3].

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/608، والشِّهاب، حاشيه الشِّهاب: 4/225، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/519، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/137.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/382.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/137.

دَلالةُ (كان) في قولهِ: ﴿ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

التَّعبيرُ بالكَونِ الماضِي، يُفيدُ طُولَ الأمَدِ في الوصْفِ

التَّعبيرُ بالكونِ الماضي بعد موصولِ الأغلالِ، يفيدُ عراقتَهم في هذا البلاءِ الشَّاقِّ، وطُولَ أمَدِهم فيه، حتَّى كأنَّه صارَ ببشرى مَبعثِ الرَّسول كَوْنًا ماضيًا وحدثًا مُنقضيًا، فكأنَّه زالَ بمجرَّدِ البُشرى والإخبار، فكيفَ إذ هم آمنوا بخبَرِهِ غَيْبًا؟ وكيف لو أدركوه واستجابوا؟ وفيه إغراءٌ لهم على الإيمان، وإعلاءٌ مِن شأنهِ ﷺ في الإخبارِ عنه فضلًا عن معاينتِه وإدراكِ ذاتِه الشَّريفةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دونَ (فوقهم):

إفـادةُ الحـرفِ (عـلى) أنّهـم ظـالمـونَ لا مظلومونَ

عبَّرَ بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دونَ فوقِهم - مع اشتراكِهم في العلوِّ - لإفادة الثِّقل الناتج عن استعلاء الأغلالِ على نفوسِهم، كما أنَّ (على) تشيرُ إلى أنَّ هذه الأغلالَ كانت بسبب معصيتِهم ممَّا أدَّى إلى وجودِ تكاليفَ شاقَّةٍ عليهم، مصدرُها تشريعٌ سماويٌّ، شدَّدَ اللهُ بها عليهم لقمعِهم عنِ الشَّهوات، وعدلَ عن الفوقيَّةِ، لما فيها من معنى القهرِ والغلبةِ؛ حتَّى لايظنَّ بأنَّهم مظلومون، بل هم الظَّالمون لأنفسِهم بمعاصيهم وجرائمِهم.

دَلالةُ الفاءِ، في قولهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾:

الفاءُ الفصيحة تَعْطِفُ مَدْخولَها علـى مـحذوفٍ مُقدَّرٍ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ فصيحةٌ تَعْطِفُ مَدخولَها على محذوفٍ مُقَدَّرٍ قبلها، والتَّقدير: إذا كان هذا النَّبيُّ الأمِّيُّ سببًا في رَفْعِ الآصارِ والأغلالِ عنكم؛ فعزِّروه، أي: فوقِّروه وأيِّدوه، وانصُروه على مَن يعادونَهُ؛ لأنَّكم تعْلَمونه من بشَارةِ التَّوراة والإنجيلِ بصِفَتِه وصِفةِ شَرعِه[1].

سِرُّ تَكرارِ ﴿فَٱلَّذِينَ﴾، في سِياقِ الآيةِ:

قَولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾، فيه تكرارُ الاسمِ الموصولِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/273.

لإدخالِ أوصافٍ جديدةٍ في حيِّز الصِّلةِ؛ لاستيعابِ أصنافِ المؤمنين وتكميلِ نعوتِهم، وترتيبِ اللَّاحق منها على السَّابق، ولتجديدِ عهدِهم بالإيمانِ بتكرارِ الوصفِ المحمودِ، ولإفادة قوَّةِ تعلُّقِ صفةِ الإيمانِ بالمذكورين على جوازِ أنَّ المقصودين واحدٌ.

تَكرارُ الموصولِ يُضيفُ مَعنىً جديدًا في حيِّزِ الصِّلَةِ

دَلالةُ الإضْمارِ في قولِه: ﴿بِهِۦ﴾، بَدلًا منَ الإظهارِ:

عبَّرَ بالضَّمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ لاستغنائهِ عنِ الإظهارِ؛ لعراقتِه في العرفان، فلا يزيدُ الإظهارُ في تعريفهِ شيئًا، فكان الإيجازُ أولى وأخصرَ.

عَراقةُ الموصُوفِ في العِرفانِ والاشتِهارِ، من مُقتضيَاتِ إضْمارِه في الكلامِ

سِرُّ اصْطِفاءِ التَّعْبيرِ بالفعْلِ: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ بَدلًا من (وأيَّدوه):

قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: التَّعزيرُ في القرآنِ لم يردْ إلَّا في حقِّ الأتباعِ تجاه الرُّسلِ، ذلك أنَّه مشتمِلٌ على معنى التَّعظيمِ الَّذي يُوجِبُ المؤازرةَ والنُّصرةَ والشِّدَّة في الحقِّ، فهو واردٌ منَ الأدنى للأعلى، وأمَّا التَّأييدُ؛ فلم يردْ في القرآنِ إلَّا منَ اللهِ على أنبيائه وأصفيائه، فهو واردٌ منَ الأعلى للأدنى، ولا يُقال: إنَّ التَّأييد اقترنَ بالمؤمنين في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال: 62]؛ لأنَّ فعلَ التَّأييدِ هنا صادرٌ منَ اللهِ بهم، وليس صادرًا منهم، فمعناهُ: أيَّدكَ بالمؤمنين فيعزِّروك؛ ذلك أنَّ التَّأييدَ مُشتمِلٌ على معنى الحفظِ والقوَّة، وهما حاصلان بالفوقيَّةِ والقهر، وحقيقةُ ذلك لا تكون إلَّا من عزيزٍ غالبٍ على أمرِه، فاستُعمِل هنا التَّعزيرُ؛ لأنَّه بالمخلوقِ أليقُ[1].

التَّعْزيرُ يكونُ مِنَ الأدنَى للأعلَى، والتَّأييدُ يكونُ منَ الأعلَى للأدنَى

سِرُّ التَّرتيبِ في أوصافِ: الإيمانِ والتَّعزيرِ والنَّصْرِ واتِّباعِ التَّنْزيلِ:

التَّرتيب في أوصاف: ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، ﴿وَنَصَرُوهُ﴾، ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ﴾، نجد تَقديمَ الإيمانِ والوصفِ به ظاهرٌ، إذْ هو مناطُ الخطابِ أصلًا، والتَّثنيةُ بالتَّعزير؛ لأنَّه تعظيمٌ لمناط الإيمانِ،

مَعونةُ النَّصْرِ حاصلةٌ بشدَّةِ التَّعزيرِ، والتَّعزيرُ تعظيمٌ لمَناطِ الإيمانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عزر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزر - أيد).

وهو مقامُ اللّهِ ورسلهِ، ففيهِ تعبُّدٌ، والتَّعبُّدُ تعظيمٌ، وهو أثرُ الإيمانِ بالعمل والفعل، وثلَّث بالنَّصر؛ لأنَّه من قبيلِ جلبِ المصالحِ بعدَ دَرْءِ المفاسدِ، ولأنَّ معونةَ النَّصرِ حاصلةٌ بشدَّة التَّعزيرِ؛ ليكونَ النَّصرُ مُثمِرًا للغلبة، والختمُ باتِّباع التَّنزيل: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾؛ ليكونَ الاتِّباعُ شاملًا حياتَه ﷺ وبعد حياتِه، فذَكَرَ واجبَهم معه في حياتِه بالإيمان به وتعزيرِه، ونصرِه، وواجبَهم معه بعدَ انتقالِه ﷺ بأن يَستمرُّوا على اتِّباع كتابه.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلنُّورَ﴾، عنِ القرآنِ:

أبلَغُ التَّمْثيلِ ما كان صالحًا لاعتبارِ التَّشبيهاتِ المفردَةِ في أجْزائِه

تشبيهُ القرآنِ بالنُّورِ استعارةٌ؛ لأنَّ حقيقةَ النُّورِ ما كان ظاهرًا بنفسِه مُظهِرًا لغيرِه، والقرآنُ ظاهِرٌ بنفسِه لإعجازِه، ومُظهِرٌ لغيره منَ العقائدِ والأحكامِ، ويَهدي مِنَ الضَّلال المعنويِّ، كما أنَّ النُّورَ يهدي منَ الضَّلال الحسِّيِّ، واتِّباعُ النُّورِ تمثيلٌ للاقتداء بما جاء بِه القرآن، بتشبيهِ حالِ المقتدِي بالقرآنِ بحالِ الماشي في الظَّلام، إذا رأى نورًا يَلوحُ له اتَّبعَه، فأجزاءُ هذا التَّركيب استعاراتٌ، فالاتِّباعُ يَصلحُ مُستعارًا للاقتداء، وهو مجازٌ شائعٌ فيه، والنُّورُ يَصلحُ مُستعارًا للقرآنِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الَّذي يُعلِّمُ الحقَّ والرُّشدَ يُشبَّهُ بالنُّور، وأحسنُ التَّمثيلِ ما كان صالحًا لاعتبارِ التَّشبيهاتِ المفردَةِ في أجزائه[1].

دَلالةُ الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾:

تَسميَةُ القرآنِ بالنُّورِ، مُشعِرَةٌ بِعِلَّةِ اتِّباعِه

التَّنويهُ بمقامِ القرآنِ في محلِّ الاتِّباع، بزيادةِ تعيينِه بالوصفِ بالموصولِ، بعدتسميَتِهِ بالنُّورِ، والإخبارُ عنه في جملةِ الصِّلةِ بلفظِ الإنزالِ إيذانٌ بعلِّيَّةِ اتِّباعِه.

(1) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/225، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/90، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/138.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإنزالِ، في قولِه: ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾:

اقْـتِرانُ الـقرآنِ بِفِعْلِ (الإنزالِ)، يَـنـفـي بـلازمِ مَعناهُ، أن يكونَ مُفتَرًى على اللهِ

التَّعبيرُ بالإنزالِ يفيدُ أمرين: الأوَّل: التَّنبيهُ على عصمةِ مصدرِه، وأنَّه من لدنْ حكيم عليم، فالمتَّبِعون له على حقٍّ ونورٍ، الثَّاني: نفيُ التُّهمةِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنْ يكونَ مُتقوِّلًا فيهِ بشيء، فالإنزالُ يَنفِي بلازمِ معناهُ أن يكونَ مُفْتَرًى على اللّه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمعيَّةِ في ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾:

اقْـتِرانُ الـقرآنِ بمعيَّةِ الرَّسولِ، شـهـادةٌ لـه ﷺ بحُسْنِ صُحبَتِه للوحْيِ والتَّنْزيلِ

الكلامُ على تقديرِ حذفِ مُضافٍ، أي: النُّورُ الَّذي أُنزِلَ مع نبوَّتِه؛ لأنَّ نُبُوَّتَه كانت مصحوبةً بالقرآن مشفوعةً بها، فالمعيَّةُ لتعيينِ زمانِ إرسالِه الحاصلِ فيه التَّنزيلُ، والمعيَّةُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾، أو المعيَّةُ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾، أي: اتَّبَعوا النُّورَ مَعَه، أي: شارَكوا النَّبيَّ في اتِّباعِ النُّور، أو التَّقديرُ: اتَّبَعوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ مع اتِّباعِ النَّبيِّ، ففيه: إلزامٌ باتِّباعِ سُنَّتِه ﷺ(1).

سِرُّ اختِلافِ التَّعبيرِ بالاتِّباعِ، في أمرِ الرَّسولِ ﷺ؛ وفي أمرِ القرآنِ:

طلَـبُ الـبُرهـانِ على ادِّعـاءِ ما لا تَظهرُ صِحَّتُه إلَّا بإقامةِ الدَّليلِ عليه

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، من باب طلبِ البرهانِ على ادِّعاء ما لا تَظهرُ صحَّتُه إلَّا بإقامةِ الدَّليلِ عليه، فالإيمانُ مُستعمَلٌ في الاعتقاد في رسوليَّته، والاتِّباعُ مُستعمَلٌ في إقامة ذلك عملًا في الظَّاهر، فضلًا عن أنَّ النَّبيَّ ﷺ مشمولٌ أيضًا في الاتِّباع، بقرينةِ قولِه: ﴿مَعَهُۥٓ﴾.

بَلاغةُ التَّركيبِ، في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

الوصْفُ بالفلاحِ يـدلُّ عـلى بقاءِ العاقِبةِ، وعدَمِ التَّحوُّلِ عنها

الإشارةُ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنويهِ بشأنِهم، إيذانًا بأنَّ المشارَ إليهم صاروا بتلك الأعمالِ أحِقَّاءَ بما يُخبَر به عنهم بعد اسم الإشارة، وفي الإشارةِ إشارةٌ إلى عِلِّيَّةِ تلك الصِّفاتِ للفلاحِ المُستَحَقِّ، وكافُ البُعد للإيذان ببُعدِ المنزلةِ وعلوِّ الدَّرجةِ في الفضل والشَّرفِ،

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/482، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/225.

وضميرُ الفصل ﴿هُمُ﴾ لتأكيدِ اختصاصِهم بالفلاح، واصطفاءُ لفظ (الفلاح)؛ لِيدلَّ على أنَّ ظَفَرَهم للفوزِ، ودَرَكَهم للمنازِلِ كان بالأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي شَقُّوا بها طريقَهم للوصول، واستَبَقوا بها عاقبةَ الظَّفَر، ولذا ختَمَ الأعمالَ المذكورةَ بالفلاح لدلالته عليها، ولاقتضائه للبقاءِ وعدمِ التَّحوُّل(1).

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالفلاحِ ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ (الفلاحَ) دون النَّجاح، وإن كان بينهما قربٌ في المعنى، إلَّا أنَّ الفلاحَ يختلفُ عنِ النَّجاح في الدلالة، فالفلاحُ يُستعمَلُ في الفوزِ والنَّجاةِ والخيرِ والبقاء، بخلافِ النَّجاحِ فإنَّه يختصُّ بإدراكِ الأشياءِ، وهو يُستعمَلُ في النَّجاحِ الدُّنيويِّ، أمَّا الفلاحُ يجمعُ بين الظَّفرِ بأمورِ الدُّنيا والآخرة؛ فهو ثمرةٌ للنَّجاحِ في الدُّنيا، ولذلك استخدمَه القرآنُ الكريمُ في مواطنَ عديدةٍ بعدَ بذلِ الجهدِ للوصول إليه، وهذا واضحٌ في الآياتِ الأولى في صدرِ سورةِ البقرةِ الَّتي تحدَّثَت عن صفاتِ المتَّقين، وانتهى أمرُ التزامِهم وتقواهم إلى الفلاح بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، وهذا ما ينطبقُ على سياقِ الآياتِ الَّتي معنا بَدءًا من قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

النَّجاحُ يُستعمَلُ في الظَّفرِ الدُّنيويِّ، والفلاحُ يَجمعُ بين الظَّفَرِ بأمورِ الدُّنيا والآخِرةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوضْعُ والحطُّ:

الَّذي أعانَ على هذا التَّوجيهِ الدَّلالةُ المعنويَّةُ والصَّوتيَّةُ للَفظِ (الحطِّ)، فهو "انضغاطُ الجرمِ بثِقَلٍ إلى أسفلَ أو إلى الدَّاخلِ، فلا يَنْتَبِر" - يرتفع - وصوتيًّا: "الحاءُ تُعبِّرُ عنِ احتكاكٍ بِعَرضٍ

الوضْعُ يقتضِي خفْضَ الشَّيءِ بتعطُّفٍ ورِفْقٍ، والحطُّ يَقتضِي خفْضَهُ بعجَلَةٍ وحِدَّةٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/78، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/138، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 697، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 211.

وجَفافٍ، و(الطَّاء) تُعبِّرُ عنِ الضَّغْط العريضِ مع الغِلَظ، والفصْل منهما يعبِّرُ عن ضغطٍ بقوَّةٍ إلى أسفلَ، كما في حطِّ الجلد"، والحَطُّ: وضْع الأحمالِ عنِ الدَّوابِّ ونحو ذلك، إذ هو إهباطٌ لارتفاعِها بنقلِ جِرمِها مِن أعلى إلى أسفل مطاوعةً لضَغطِ ثِقَلِها(1)، وأمَّا الوضْعُ؛ فهو أعمُّ مِنَ الحطِّ، وإذا تعدَّى بـ(على) كان بمعنى التَّحميل، وإذا تعدَّى بـ(عن) كان بِمَعْنَى الإزَالة، ويُقال ذلك في الحَملِ والحِمل(2)، وحَيثيَّةُ عمومِه: أنَّه كـ(الحَطِّ) في الهُوِيِّ بالشَّيء إلى مقرٍّ منخفضٍ يَثبُتُ فيه (عن حيِّزٍ عالٍ كان فيه)(3)، لكنَّ الوضعَ يتناولُ المنبوذَ، فيُزال، وغيرَ المنبوذِ، فيُثبَّت، بخلافِ الحطِّ فهو في غير المَرضِيِّ، فمِنَ المَنْبُوذِ في الوضع: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾، ومِنَ غير المنبوذِ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الكهف: 49]، ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]، وأمَّا الحَطُّ؛ فهو في غيرِ المرضِيّ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: 58]، فإن قيل: حَطُّ الرِّحالِ أحمالَها، كيف يكون غيرَ مَرضِيٍّ؟ فالجواب: أنَّ الأحمالَ الَّتي تُحَطُّ مِن على الرَّحلِ مُستَثقَلَةٌ غيرُ مَرضيَّةٍ في عِبئِها؛ ولذلك تُحطُّ(4)، ويُستعمَل كلاهما في المحسوساتِ والمعقولات، والحقيقةِ والمجاز.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حطط - حطحط).

(2) الرّاغب، المفردات: (وضع)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 934، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 5/230.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وضع).

(4) الخليل، العين: 3/18، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 611.

﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: 158]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَحقيقُ الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ إلى الخلْقِ بالكلِّيَّة، بعدَ بيانِ حُصولِ رحمةِ اللهِ لمن اتَّبع رسولَه

لمَّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه سيكتبُ رحمتَه للَّذين يتَّقون، ويؤتون الزَّكاةَ، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ من شرطِ حصولِ الرَّحمة لأولئك المتّقين، كونهم مُتَّبعين للرَّسول الأمِّيِّ، حقَّقَ في هذه الآية رسالَته إلى الخلقِ بالكلِّيَّة بقوله: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[1].

ومن أوجهِ المناسبةِ أن يُقال: لمَّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ لموسى عليه السلام صفةَ سيِّدِنا محمَّد ﷺ وأخبرَ أنَّ مَن أدركه، وآمنَ به أفلحَ، أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ في هذه الآية بإشهارِ دعوتِه ورسالتِه إلى النَّاس كافَّةً، والدُّعاء إلى الإيمانِ باللّهِ ورسولِه وكلماتِه.

لمَّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآية السَّابقةِ مَن وُصفوا بالفلاح من أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ، أتَى بهذه الآيةِ دفْعًا لِمَا يُتوهَّمُ أنَّ الفلاحَ مخصوصٌ بمن تَبِعَه منهم، فأفاد أنَّ هذا الوعدَ ليس قاصِرًا عليهم، بل هو عامٌّ في كلِّ النَّاسِ[2]، فالآيةُ عامٌّ بعدَ خاصٍّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾: الكلِمات: جمع كَلِمَة، وجذرها (كلم) يَدُلُّ عَلَى نُطقٍ مُفهِمٍ، وهي اللَّفظَةُ الواحِدَةُ المُفهِمَة، وتأتي بمعنى الجمْعِ:

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/27.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/90.

(الكَلامُ) والكلامُ يقع على الألفاظِ المنظومةِ، وعلى المعاني الَّتي تحتها مجموعةٌ، وعند النَّحويِّين يقعُ على الجزء منه، اسمًا كان أو فعلًا أو أداةً، وعند كثيرٍ منَ المُتكلِّمين لا يقعُ إلَّا على الجمل المُركَّبةِ المفيدةِ، وهو أخصُّ منَ القول، والمرادُ هنا: كلامُ اللّه بمعنى كُتُبِه المُنزَّلَة، أو معجزاتِه الحاصلةِ بكلمةِ (كُنْ)(1).

2) ﴿تَهۡتَدُونَ﴾: مضارعٌ منَ الجذر اللُّغوي (هدي) وأصل الهداية: دلالَةٌ وإرشادٌ بِلُطفٍ، لكنَّها تتصرَّف على أربعة وُجوهٍ، الأوَّل: الهدايةُ الَّتي عمَّ بجنسها كلَّ مُكلَّفٍ منَ العقلِ والفطنةِ والمعارفِ الضَّروريَّة، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50].

الثَّاني: الهدايةُ الَّتي جعل للنَّاس بدعائِه إيَّاهم على ألسنة الأنبياءِ وإنزالِ القرآنِ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [السجدة: 24].

الثَّالث: التَّوفيقُ الَّذي يختصُّ به منِ اهتدى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17].

الرَّابع: الهدايةُ في الآخرة إلى الجنَّة، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]، وهذه الهداياتُ مُترتِّبةٌ على بعضها(2).

المَعنى الإجماليُّ:

أمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بنشْرِ دعْوتِه للنَّاس كافَّةً، بتوحيدِه تعالى

قل - أيُّها الرَّسولُ ﷺ - للنَّاسِ كلِّهم: إنِّي رسولُ اللّهِ إليكم جميعًا لا إلى بعضِكم دون بعضٍ، الَّذي له ملكُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، لا ينبغي أن تكونَ الألوهيَّةُ والعبادةُ إلَّا له جلَّ ثناؤه، القادرُ على إيجادِ الخلْقِ وإفنائِه وبعثِه، فصدِّقوا باللّهِ، وأقِرُّوا بوحدانيَّتِه، وصدِّقوا برسوله محمَّد ﷺ النَّبيِّ الأمِّيِّ الَّذي يؤمنُ باللّهِ، وما أُنزل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).

إليهِ من ربِّهِ، وما أُنزل على النَّبيِّين مِن قبلِه، واتَّبِعوا هذا الرَّسولَ، والتزِموا العملَ بما أمركم به من طاعةِ اللّهِ؛ رجاءَ أن توفَّقُوا إلى الطَّريقِ المستقيم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ ﴿قُلۡ﴾ في قولِه: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

افْـتِـتـاحُ الـخَـبَـرِ بـ(قُـل)، بـرهانٌ صـريـحٌ على وَثـاقَـةِ الـنَّـصِّ القرآنيِّ

دلالةُ التَّصدير بـ﴿قُلۡ﴾ برهنةٌ على ما سبق من صفاتِ الرَّسولِ النَّبيِّ مِن جهةِ كونِهِ ﷺ يُخبِرُ عن مصدرٍ، ولا يُخبِرُ مِنْ عِندِه؛ إذ مَنْ يُخبِر من عند نفسِهِ لا يجعلُ في كلامِه ما يدلُّ على أنَّه مأمورٌ بقولِ ما يقول، وفي التَّصدير بفعل القولِ دلالةٌ زائدةٌ على ما سبقَ، وهو كونُهُ ﷺ يُخبِرُ بالخبرِ عنِ اللّهِ من غير تَصرُّفٍ فيه لا بزيادة ولا نقصان.وفيه إشارةٌ للرَّسول ﷺ، أن يُصرِّحَ بما تقدَّمَ التَّلويحُ به، ويصرِّحَ بما أُخذَ ميثاقُ الرُّسلِ عليه؛ تحقيقًا لعموم رسالتهِ وشمول دعوته، فقال: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[2].

دَلالةُ جُملةِ النِّداءِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

إفـادةُ عُـمـومِ المـنـادَى المُعلَّلِ بعُمومِ رسالتِه ﷺ

دلَّت جملةُ النِّداءِ على لفتِ انتباه المَدْعوّين إلى ما يقولُه الدَّاعي وإيقاظِهم منَ الغفلةِ الَّتي تراكمَت على بني إسرائيلَ خصوصًا، والنَّاس عمومًا في عدم الوفاءِ بالعهد المأخوذِ عليهم بالإيمان بالرِّسالةِ المحمَّديَّةِ الخاتمة.

دَلالةُ لفْظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾، دونَ (يا أيُّها الَّذين آمنوا):

عُـمـومُ البـلاغِ، شـامِلٌ للبشرِ كلِّهم، باعتبارِه رسـالـةَ الـلـه للعالَمين

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دون (يا أيُّها الَّذين آمنوا)؛ لإفادةِ عموم المنادى المُعلَّل بعموم رسالتِه ﷺ وشمولِ بلاغِه، ليدخلَ فيه أهلُ الكتابِ والأمِّيُّون مِنَ العربِ وغيرِهم.

---

(1) مجموعة من العلماء، الميسّر في التفسير: 170/1.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/134.

سِرُّ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دونَ (البَشَرِ):

اعتبارًا لمعنى الإنسانيَّةِ في مَقامِ الخطابِ، وهو وجودُ العقلِ والذِّكرِ وسائرِ القُوى المنوطِ بها التَّكليف، أي: كلُّ مَن وُجِد فيه معنى الإنسانيَّةِ المُقْتَضِي لأهليَّةِ التَّكليفِ والخطاب، أيَّ إنسانٍ كان، ولذا عبَّر بالنَّاسِ لقصد النَّصِّ على هذا المعنى[1]، وسيأتي لاحقًا في الفروقِ الدَّلاليَّة ما يفيدُ عدمَ مناسبةِ التَّعبيرِ هنا بغيرِ لَفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾.

معنَى الإنسانيَّةِ يقتضِي أهليَّةَ التَّكليفِ، والخطابِ بالشَّرعِ

دَلالةُ التَّأكيدِ بـ﴿إِنِّي﴾ في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

تأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ) باعتبار أنَّ في جملةِ المخاطَبين مُنكِرين ومُترَدِّدين، فجاء التَّأكيدُ بـ(إنَّ) للدَّلالة على الاستقصاء في إبلاغ الدَّعوة إليهم[2].

دخولُ المؤكِّدِ على الخبَرِ، يُفيدُ المبالغةَ في تحقيقِ مضمُونِه واستِقصائِه

اخْتِيارُ التَّعْبيرِ، بقولِه: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، دونَ (نبيِّ الله):

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بوصفِ الرِّسالةِ دونَ النُّبوَّة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لإيجابِ اتِّباع الرَّسول ﷺ في كلِّ تشريعاتِه الَّتي أنزلها اللّهُ تعالى على رسولِه ﷺ سواءٌ كانت ناسخةً للشَّرائع السَّابقة، أو بتعديلها وتصويبها، أو كان بشرعٍ جديدٍ لم يكن من قبلُ؛ فعَلَى الجميع الامتثالُ، ولا سيَّما أهلُ الكتاب.

المبالغةُ في إيجابِ الامْتثالِ، من مَهامِّ البلاغِ والإرسالِ

سِرُّ الاكْتفاءِ بوصْفِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، دونَ بقيَّةِ الصِّفاتِ:

قوله: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، فيه موافقَة لغرضِ الإيذانِ بماهيَّةِ الرَّسولِ اللَّازمةِ في الاعتقاد - وهي كونُه رسولًا - وإغناءَ هذا الوصفِ عن غيرِه في مقامِ الاعتقاد دون قيامِ غيرِه عنه؛ أنبأَ بما هو كافٍ وشاملٌ في الغرضِ المقصود.

مِنَ البلاغةِ، حكايةُ الغرَضِ المقصودِ، بجوامِعِ الكَلِم

دَلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

أُضيفَ لفظُ ﴿رَسُولُ﴾ إلى الذَّاتِ الإلهيَّةِ الَّتي جمعَت كلَّ صفاتِ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نوس).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/139.

الكمالِ والجلالِ، وهي دالَّةٌ على عموم دعوتِه وشمولِ رسالتِه لجميع الخلقِ؛ لأنَّه الإلهُ الواحدُ الَّذي لا يعارِضُه معارضٌ.

إرســـالُ اللـه للرّسولِ تَكرمةٌ وتـفـضـيـلٌ وخُصوصيّةٌ

دَلالةُ اخْتيارِ ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾، دونَ (لكم):

آثرَ التَّعبيرَ بقوله: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ دون (لكم)؛ لوجود فرقٍ بينهما في المعنى: فاللَّام تفيدُ الاستحقاقَ والاختصاصَ، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ هنا؛ بخلاف (إلى) الَّتي تفيدُ انتهاءَ الغاية، وهي هدفٌ مقصودٌ يسعى إليه كلُّ الأنبياءِ والرُّسل في دعوةِ الخَلقِ لتوحيدِ اللّهِ تعالى ورسولُنا ﷺ إمامُ الأنبياءِ والرُّسلِ في ذلك.

دعـوةُ الخـلْقِ غـايـةُ الـرُّسُـلِ جميعًا عليهم السلام

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾:

قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾، تأكيدُ ضميرِ المُخاطَبين بوصفِ ﴿جَمِيعًا﴾ الدَّالِّ نصًّا على العموم؛ لرفع احتمالِ تخصيصِ رسالتِه بغيرِ بني إسرائيل، فإنَّ مِنَ اليهود فريقًا كانوا يزعمون أنَّ محمَّدًا ﷺ نبيُّ العربِ خاصَّةً؛ لِأنَّ اليهودَ فريقان: فريقٌ يزعمون: أنَّ شريعةَ موسى لا تُنسَخ بغيرها، وفريقٌ يزعمون: أنَّها لا تُنْسَخ عن بني إسرائيل، ويجوزُ أن يُبْعثَ رسولٌ لغيرِ بني إسرائيل، فَدَفَع بوصفِ ﴿جَمِيعًا﴾ هذا الزَّعمَ والإيهامَ تنصِيصًا على العموم[1].

لـفْظُ (جميعًا) مِنَ الصِّيَغِ الَّتي تُفيدُ العُمومَ بذاتِها

ويُضاف إلى ذلك؛ الإشارةُ إلى أنَّه لا فرقَ في أمر الدَّعوةِ والإيمانِ بالرَّسول بمَن أدركَ زمنَهُ، ومَن تأخَّرَ عنه إلى يوم القيامة، فهو رسولُهم، مطالبون بالإيمانِ به.

سِرُّ اخْتِصاصِ سورة الأعرافِ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾:

لَمَّا كانَت سورةُ الأعرافِ مكِّيَّةً، ويتوهَّم بعضُ أهلِ الكتابِ أنَّ الخطابَ للعرب فقط، جاء هذا التَّعبيرُ في هذه السُّورة بهذا الأسلوب، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾، ليقولَ

مُـنـاسـبـةُ لـفْـظِ (جميعًا) الفترةَ المكيَّةَ، وفي سورة الـصَّـفِّ (بـنـي إسرائيل) الفترةَ المدنيَّةَ

(1) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/225، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/139.

لبني إسرائيلَ: إنِّي رسولُ اللهِ إليكم جميعًا يا بني إسرائيل، وسياقُ الآياتِ يؤكِّد ذلك؛ لأنَّ الجماعةَ إذا كانَت محصورةً بمقامِ الخطابِ وبالعلَميَّة الَّتي تفيدُ تَسميَةَ قومٍ معيَّنِين بـ(بني إسرائيل)؛ فلا حاجةَ للتَّنصيصِ على قصدِ استغراقِهم بصيغِ العمومِ لعدمِ الالتباسِ في إرادةِ غيرهم معهم.

عَلاقةُ قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بما قبْلَه:

الـدَّلالـةُ عَلى الثَّناءِ وإظْهارِ التَّمجيدِ لله

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ في الآيةِ السَّابقة بأن يقولَ للنَّاس كلِّهم: إنِّي رسولُ اللّه إليكم؛ أردفَه بما يدلُّ على صحَّة هذه الدَّعوة، وذلك من خلال إثباتِ أنَّ للعالم إلهًا حيًّا قادرًا، وهذا المعنى دلَّ عليه قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1].

دَلالةُ ذِكرِ اسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾، في هذه الجُملةِ:

تعليلُ الرِّسالةِ، بكونِها موهِبَةَ اللـهِ، وطَلاقَةَ قُدرتِه، وسَعَةَ مُلْكِه

تعظيمُ الذَّاتِ الإلهيَّةِ بما هو في حيِّز الموصول من جملةِ الصِّلة؛ استحضارًا لجلالها وسُلطانها، وإيرادُه بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ في حكم العِلَّةِ للخبر، أي: رسولُ اللّهِ إليكم بِهِبَةِ مالكِ السَّمواتِ والأرض.

سِرُّ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

تَـوارُدُ القصْرِ الإضافيِّ والحقيقيِّ، على التَّركيبِ الواحدِ، بحسَبِ التَّوجيهِ

قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فيه تقديمُ المجرورِ للقصر، أي: مُلْكُ السَّمواتِ والأرض كائنٌ له، لا لغيرِه ممَّا يعبدُه المشركون، وعليه: فالقصرُ إضافيٌّ بالنِّسبةِ لِما يَدَّعيهِ المشركون، فَسِيقَ ردًّا عليهم، وجملةُ لا إله إلا هو: حالٌ مِن اسم الجلالةِ في قوَّةِ مَعنى: مُتَفَرِّدًا بالألوهيَّةِ، وهذا قصرٌ حقيقيٌّ؛ لتحقيقِ صفةِ الوحدانيَّة، لا لقصدِ الرَّدِّ على المشركين[2].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/29.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

سِرُّ اخْتِصاصِ هذا الموضعِ، بإثْباتِ ملكيَّةِ السَّمواتِ والأرض:

إعلانُ الرِّسالةِ للنَّاس جميعًا، تعريضٌ بأهْلِ الكتابِ، وتوبيخٌ للمشركين

قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وفيه اختصَّ هذا الموضعُ بإثبات ملكيَّةِ السَّموات والأرض على خلاف بعضِ المواطنِ الأخرى الَّتي يكون الأسلوبُ فيها ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ ليكونَ مناسبًا للسِّياق في أمرِ إعلانِ الرِّسالةِ للنَّاس جميعًا، فهذا الوصفُ يقتضي الإذعانَ والانقيادَ لِمَن أرسلَهُ اللّهُ للنَّاس جميعًا؛ لأنَّه المالكُ؛ فهو المُتصرِّفُ بما يريد، وفي هذا تعريضٌ بأهل الكتابِ الَّذين لم يؤمنوا، وتوبيخٌ للمشركين في عبادتهم للأصنام الَّتي لا تملكُ موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

دلالةُ تقديمِ مِلْكيَّةِ السَّمواتِ، على مِلْكيَّة الأرض:

المالكُ في الكون للأعظمِ، قادِرٌ على مُلْكِ العظيمِ

قدَّمَ ملكيَّةَ السَّموات على ملكيَّة الأرضِ؛ لاتِّساعها، ولعظيم قدرةِ اللّهِ فيها، ولشرف سكَّانها؛ فالمالكُ للأعظم قادرٌ على ملك العظيم؛ فإذا كان اللّهُ مالكًا للسَّموات وما فيها، فمن بابٍ أولى يملكُ الأرضَ وما تحتها.

دَلالةُ موقعِ جملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، ممَّا قبلَها:

مَن مَلَكَ العالَمَ، كان هو الإلهُ لا غيرُه

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ بيانٌ لِما قَبْلَهُ، وهو في حكْمِ التَّعليلِ له، فإنَّ مَنْ مَلَكَ العالَمَ كان هو الإله لا غيرُهُ[1].

ويُضاف إلى ذلك: أنَّ جملةَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ تدلُّ على حصْرِ الألوهيَّةِ له ﷻ ونفي الشُّركاء عنه؛ لأنَّ مَن كان مالكًا للسَّموات والأرض لا يمكنُ أن يشاركَهُ أحدٌ من خلقِهِ، فهو المُتفرِّدُ بالألوهيَّةِ.

سِرُّ الإتْيانِ بِصفةِ الإحياءِ والإماتةِ:

اختِصاصُ اللهِ بالإحياءِ والإماتةِ، دونَ غيرِه

في قوله: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ اختُصَّ ﷻ بالإحياءِ والإماتة؛ لأنَّهما من أفعالهِ ﷻ فلا يقدرُ عليهما غيره، وفيه إشارةٌ إلى قدرته المُطلَقة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/281.

في إيجاد الأشياءِ وفي إفنائها، ولذلك جاءَت هذه الجملة بعد قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الَّتي تدلُّ على اختصاصِه بالألوهيَّة، ومن لوازمها أنَّه لا يقدرُ على الإحياءِ والإماتة غيره.

وفيه إشارةٌ أيضا إلى أنَّه ﷻ يحيي شريعةً ويميت أخرى، وإحياءُ الشَّريعة إيجادُها بعد أن لم تكن؛ لأنَّ الإحياءَ حقيقتُه إيجادُ الحياةِ في الموجودِ، ثمَّ يحصلُ من هذه الصِّفات إبطالُ عقيدةِ المشركين في إنكار الحشرِ[1].

سِرُّ تَرتيبِ صفاتِ الجلال في الآية:

مَـنِ اسْـتـحـقَّ صفاتِ العظَمَةِ والـجـلالِ، قَـضَى بما شاءَ مـنَ التَّـشـريـعِ والحُكْمِ

الغرضُ مِن تَعديدِ صفاتِ الجلالِ في الجُمَلِ الثَّلاثِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، بعدَ تقريرِ عموم رسالةِ الرَّسول: إزالةُ الوَحشَةِ والاستغراب مِن نَفسِ مَن يَستَبعِدُ عمومَ رسالتِه ﷺ للنَّاسِ كافَّة، وأنَّها حاكِمَةٌ على ما قبلَها منَ الرِّسالات، والتَّسجيلُ على بني إسرائيل بما يَدحضُ عدمَ اعترافِهم بعموم رسالتِه المُقتضِي لعدم إلزامِهم بالاعتقادِ فيها، ومَحلُّ ذلك: أنَّ الَّذي له مُلك السَّموات والأرضِ، هو الواحدُ الأحد، الَّذي لا يُنازِعه في ألوهيَّته أحدٌ، ويتصرَّفُ بما يشاءُ فيما لا يَقدِرُ عليه إلَّا هو منَ الإيجادِ والإماتةِ والإحياءِ والإعادةِ، فمَن كان له كلُّ ذلك، فكيف يُستَهْجَنُ عليه أن يُوحِيَ للَّذي يشاء، يَختَصُّهُ بالكتابِ المُهيمِن، والنُّبوَّةِ الخاتمَة، وأن يجعلَ الإيمانَ به شرطًا لازِمًا في صِحَّةِ إيمانِ النَّاسِ جميعًا وأعمالِهم، فمَنْ كان له ذلك منَ الصِّفات العظيمة؛ فهو يَسيرٌ عليهِ أن يَقضِيَ بما أرادَ منَ التَّكليفاتِ والإلزامات، "ثمَّ يحصُل من هذه الصِّفاتِ إبطالُ عقيدةِ المشركين بتعدُّدِ الآلهةِ وبإنكار الحشرِ"[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/140.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

النُّكتةُ في تَخصيصِ تلك الصِّفاتِ بالذِّكرِ:

إدمَاجُ دَعْوى الرِّسالةِ، في أركانِ الدِّينِ وأصولِ العقيدةِ

خصَّ القرآنُ هذه الصِّفاتِ بالذِّكر؛ لاشتمالِ تلك الجُمَل في مضمونِها، على أصولِ العقائدِ المُقرَّرةِ في الأديانِ جميعًا، فقوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ اشتَمَلَ على مفهومِ التَّوحيدِ بقسمَيه: توحيدِ الرُّبوبيَّةِ بالإيمان، وتوحيدِ الألوهيَّةِ بالإيمانِ والعملِ، أي: عبادةُ اللّه وحدَه، وهما أصلُ الدِّينِ أساسُهُ، والرُّكنُ الأوَّلُ لعقائدِه، وقد اقترنَ برسالةِ الرَّسول ﷺ ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ وهي الرُّكنُ الثَّاني، وأمَّا وصفُهُ تعالى بالإحياءِ والإماتةِ، وهو بعضُ تصرُّفِ الرَّبِّ في خلقِه، فيتضمَّنُ عقيدةَ البعثِ بعد الموتِ الَّتي هي الرُّكنُ الثَّالثُ من أركانِ الإيمان، فقد أُدمِجَت في دَعْوى الرِّسالةِ أركانُ الدِّينِ الثلاثةُ، وهو من إيجازِ القرآنِ وبيانِهِ العالي العجيب[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ في قوله: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

الفِعليَّةُ تُفيدُ التَّجدُّدَ والحُدوثَ

آثرَ التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ لأنَّهما من صفاتِ الأفعالِ؛ بخلاف الاسميَّة فهي من صفات الذَّاتِ، والمقامُ هنا يناسبُه التَعْبيرُ بالفعليَّة للتَّدليل على وحدانيَّته سبحانه ولأنَّ الأمرَ يتعلَّقُ ببني إسرائيل، وفيهم أجرى اللّهُ أمرَ الإحياء والإماتة، والشَّواهدُ على ذلك في القرآنِ كثيرةٌ.

دَلالةُ الفاءِ، في قولِه: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾:

تَوفُّرُ النَّظْمِ على العِنايةِ بمقامِ النُّبوَّةِ، فأقرَّها ثمَّ كلَّفَ بإقرارِها

قولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ جاءتِ الفاءُ للتَّفريعِ على الأصولِ والأركانِ المُقرَّرةِ قبلَها، أي: إذا كان ذلك كذلِك ممَّا عَلِمْتُم، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾، والمقصودُ طلبُ الإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ؛ لأنَّه الَّذي سِيقَ الكلامُ لأجلِه[2].

---

(1) محمد رضا، المنار: 9/256.

(2) محمد رضا، المنار: 9/257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

سِرُّ ذِكْرِ الإيمانِ بالله أوَّلًا:

الإيمـــانُ بالرَّسول، إنَّما هو لأجْلِ الإيمانِ بالله

في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ ذكرَ الإيمانَ باللّهِ أوَّلًا مع أنَّ المقامَ هنا لطلب الإيمانِ بالرَّسول؛ لأنَّ الإيمانَ باللّهِ هو الأصلُ، ويتفرَّعُ عنه الإيمانُ بالرَّسول ﷺ.

دَلالةُ الجمْعِ بين الإيمانِ باللهِ، والإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ:

تَوجيهُ الخطابِ للجميعِ، والتَّعريضُ بمَن يُفرِّقون بين اللهِ ورسُلِه

في قولِه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ جاء الجَمعُ بين الإيمانِ باللّه والإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ في طلبٍ واحدٍ، ليكونَ هذا الطَّلبُ مُتوجِّهًا للفِرَقِ كلِّها، لِيجمعوا في إيمانِهم بين الإيمانِ باللّه والنَّبيِّ الأمِّيِّ، مع قضاءِ حقِّ التَّأدُّبِ مع اللّهِ بجعلِ الإيمانِ به مُقدَّمًا على طلَبِ الإيمانِ بالرَّسول ﷺ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ إنَّما هو لأجلِ الإيمانِ باللّه، وهذا الأسلوبُ من بابِ تعليلِ المطلوبِ بذِكرِ أصلِه، فمعرفةُ أصلِ الشَّيءِ ومصدرِه تُعينُ على القيامِ به كما ينبغي، مع اشتمالِه على التَّعريضِ بمَن يُفرِّقون بين اللّهِ ورسلِه، وقد رُوعِيَتْ نظائرُ هذا الأسلوب في غيرِ مَوضِعٍ[1].

سِرُّ الالْتفاتِ في قوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾:

المبالغةُ في إيجابِ الامْتثالِ بأمرِه ﷺ

لم يقُلْ: فآمنوا باللّهِ وبي، بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ لِتَجْرِيَ عليه الصِّفاتُ الَّتي صُرِّح بها، ولِما في الالتفاتِ من مزيَّة البلاغة، ولِيُعلِمَ أنَّ الَّذي قد وجَبَ الإيمانُ به هو هذا الشَّخصُ الموصوفُ بأنَّه النَّبيُّ الأمِّيُّ الَّذي يؤمنُ باللّه وكلماتِه كائنًا مَنْ كان، أنا أو غيري، إظهارًا للنَّصَفَة، وتَنَزُّهًا منَ العصبيَّةِ لنفسِه أن يقول: (آمنوا باللّهِ وبي)، ولِمَا في إظهارِ الصِّفاتِ وإجرائِها عليه - بالعدولِ إلى الغيبةِ - منَ التَّوسُّلِ بذلك إلى الإعانةِ على الإيمانِ به والاتِّباعِ له[2]، ومَن اعتبَر أنَّ المتكلِّمَ اللّهُ، وليسَ الرَّسول، فلا التِفات، على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

(2) البيضاويّ، أسرار التّنزيل: 3/38، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/611.

وجهِ أنَّ الكلامَ مبدوءٌ بـ﴿قُلْ﴾، والآمرُ اللّٰهُ، فيكونُ ما بعدَ ﴿قُلْ﴾ مِن كلامِ الآمرِ لا مِن كلامِ المأمورِ الرَّسولِ ﷺ[1].

وفيه إشارةٌ إلى تنبيههم إلى استحقاقهِ الاتِّباع بما اتَّصف به منَ الصِّفات المذكورةِ والخصائص المتلوَّة[2].

سَرُّ اخْتِيارِ وصْفِ الرِّسالة، في قولِه: ﴿وَرَسُولِهِ﴾:

ربْطُ أعظَمِ المطالِبِ، بأعْظَمِ الصِّفاتِ

لَمَّا قَرَنَ طَلبَ الإيمانِ باللّٰهِ بأعظمِ صفاتِه، وهي الألوهيَّةُ المتضمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّات ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، ربَطَ الإيمانَ بالرَّسولِ بأخصِّ صفاتِه، وهي الرِّسالة، وذلك مَعلومٌ من تعليقِ الإيمانِ بوصفِ الرَّسولِ دون اسمِهِ العَلَم[3]، فربطَ أعظَمَ المطالِبِ بأعظمِ الصِّفات.

سِرُّ إعادةِ وصْفِه ﷺ، بقولِه: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾:

أُعيدَ وصْفُه بالنَّبيِّ الأمِّي، لإعلامِ النَّاس بكمالِ علْمِه، إغراءً على الإيمانِ به

أُعيدَ ذِكرُ الوصفِ مُراعاةً لتقريرِ النَّظيرِ في السِّياقِ الخاصِّ والعامِّ؛ لاتِّحاد السِّياقين في نفسِ الغايةِ، إنْ تبايَنا في الخصوص والعموم، فكَما أوردَهُ في سياق الاحتجاج على بني إسرائيلَ ليُؤمنوا به في قوله: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، ناسَبَ أن يُعيدَه هُنا في الخطابِ العامِّ للنَّاسِ؛ ليُؤمنوا به على الوصفِ الكاملِ التَّامِّ، فكما اتَّحدَ السِّياقانِ في غرضِ تقريرِ نفسِ القضيَّة، اتَّحدا كذلك في استيفاءِ موضوعِها منَ الأوصافِ، لاجتماعِ فائدةِ ذلك فيهما معًا، وهو الإشارةُ إلى كمالِ عِلمِه؛ لأنَّه مع عدمِ مطالعتِه للكتاب، أو مصاحبتِه لمعلِّم، قد جاءَ بالنُّورِ المُعجِز، والتَّنزيلِ الحكيم، وهو إغراءٌ على الإيمانِ وبرهانٌ عليهِ يحتاجُ إليه الخاصُّ والعامُّ[4].

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/484.
(2) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/1060.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/141.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 5/396.

وأُعيدَ ذكرُ الوصف ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ لمدحه ﷺ بهما، ولزيادة تقريرِ أمرهِ وتحقيق أنَّه المكتوبُ في الكتابين[1].

وللإشارة إلى أنَّه على الفطرةِ السَّليمة الَّتي لم يخالطْها هوًى، ولم يدنِّسْها حظٌّ ولا شهوةٌ، بحيث يُقْصَد للاقتداءِ به بما حوى من علوم الدُّنيا والآخرة[2].

دَلالةُ ذكرِ اسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ في الآيةِ:

إفــادةُ الاسْــمِ الموصولِ لِعِلِّيَّةِ الحُكْمِ، مُفيدٌ في إيضاحِ البيان

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ﴾، وفيه إيقاعُ الاسمِ الموصولِ في موقع النَّعتِ للنَّبيِّ الأمِّيِّ؛ للإيماءِ إلى وجهِ الأمرِ وعِلَّته بالإيمانِ بالرَّسول، وأنَّه لا معذرةَ لِمَن لا يؤمنُ به من أهلِ الكتاب؛ لأنَّ هذا الرَّسولَ يؤمنُ باللّٰه وبكلماتِ اللّٰه، فقد اندرجَ في الإيمانِ به الإيمانُ بسائرِ الأديان الإلهيَّةِ الحقَّة، وقد رُوعِيَ نظيرُ ذلك في قوله تعالى في تفضيل المسلمين: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: 119][3]. ويُضاف إلى ذلك الدَّلالةُ على إيمانه ﷺ بما أُنزِل إليه وإلى سائر الرُّسلِ عليهم السلام من كُتُب اللّٰه ووحيِه لحمْلِ أهل الكتابين على الامتثالِ بما أُمروا به[4].

دَلالةُ التَّصريحِ بإيمانِهِ باللهِ، في قولِه: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

كمالُ الإيمانِ، هو مطلوبُ الله مِنَ الرُّسُلِ، ومِنَ النَّاس

صرَّحَ بالإيمانِ باللّٰهِ للتَّنبيه على أنَّ الإيمانَ به سبحانه لا ينفكُّ عنِ الإيمانِ بكلماتِه، ولا يتحقَّق إلَّا به.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ الإيمانِ بالقرآن، بلفْظِ ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

اصْطِفاءُ (الكَلِماتِ)، أفادَ التَّعريضَ والتَّسْجيلَ على المُخالِفين

أُوثِرَ هنا التَّعبيرُ بكلماتِه، دونَ كتُبِه؛ لإفادةِ عموم إيمانِ الرَّسول، فهو يؤمنُ بجميع ما كانَ منَ اللّٰه بكلماته التَّشريعيَّةِ المسطورةِ في كُتُبِه، ويؤمنُ بكلماتِه التَّكوينيَّة الَّتي كانتْ بكلمةِ ﴿كُن﴾ فيدخل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/281.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/136.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/141.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/281.

فيها كلُّ آياتِه ومُعجزاتِه، ويدخلُ فيها دخولًا أوَّليًّا الإيمانُ بكونِ عيسى عليه السلام كَلِمةَ اللهِ ألقاها إلى مريمَ روحًا منه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]، فاقتضَى أنَّ الرَّسولَ ﷺ يؤمنُ بعيسى، وبكونِهِ رسولًا منَ اللهِ، وفيه تعريضٌ يقطَعُ معاذيرَ النَّصارى في التَّرَدُّدِ في الإيمان بمحمَّد ﷺ، مع اقتضائه كونَ الرَّسولِ يؤمنُ بأنَّ عيسى كلمةُ اللهِ، وليس ابنَ اللهِ، وفي ذلك بيانٌ للإيمانِ الحقِّ، وردٌّ على اليهودِ فيما نسبوهُ إليه، وردٌّ على النَّصارى فيما غَلَوا فيه[1]، ففي التَّعبيرِ بالكلماتِ تعريضٌ بهما، وتسجيلٌ للبرهانِ عليهما.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالمضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

تَجديدُ الإيمانِ، بحيث لا تَعتريهِ غفلةٌ، ولا يُخالِطُه سَهْوٌ ولا فتورٌ

عبَّرَ بالمضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾؛ لأجل ما يقتضيه ذاتهُ سبحانه منَ التَّعبُّدِ له لما له منَ العظمةِ، فكلَّما تجدَّدَ له علمٌ من علوم الذَّات بحسب ترقِّيه في رُتَب الكمالِ من رتبةٍ كاملةٍ إلى أكمل منها إلى مالا نهاية له؛ جدَّدَ له إيمانًا بحسبِهِ لا تعتريه غفلةٌ، ولا يخالطه سهوٌ ولا شائبةُ فتورٍ[2].

سِرُّ ذِكْرِ فعْلِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ مع الكلماتِ:

الإيمانُ باللهِ هو أصْلُ الأصولِ، وأساسُ الوُصولِ

قوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ورد لإفادةِ أنَّ الإيمانَ بالكلماتِ راجعٌ للإيمانِ باللهِ، فهو مجموعٌ معهُ انجماعَ الفرعِ إلى أصلِه، ولِكونِه ليس مستقِلًّا عنه لم يَفصِلْهُ عنهُ بإعادةِ العاملِ.

سِرُّ اخْتِيارِ صِيغةِ الجمْعِ ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جمعٌ سالمٌ، والجمعُ السّالمُ يدلُّ على الحدَثِ، فهو يُقرِّبُ الصِّفةَ منَ الفِعليَّة، و(الكلام) اسمُ مصدرٍ، واسمُ المصدر نصٌّ في الاسميَّة المجرَّدةِ عنِ الزَّمن، فهو لا يفيدُ الفِعليَّةَ، فصيغتُه

(1) محمد رضا، المنار: 9/257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/141.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/136.

مَقصودٌ منها استحضارُ المعنى الثَّابتِ للشَّيء، وتتأكَّدُ تلك الدَّلالةُ هنا بإفادة لفظ (الكلام) لِمَعْنى الجنسيَّة الدَّالِّ على الماهِيَّة والحقيقة؛ إذ هو اسمُ جنسٍ يقعُ على القليلِ والكثير[1]، وجمعُ السَّالم مقصودٌ منه استحضارُ صورةِ الحدوثِ في اللَّفظ، والحدوثُ الزَّمنيُّ يدلُّ على التَّبايُن، والتَّجدُّد، والتَّعدُّد، وهنا عبَّر بجمع السَّالم (كلمات)، ولم يقُل: (كلامه)؛ لإرادة الحدَثِ في الوصفِ لا الاسميَّةِ المجرَّدة، ودلالةُ ذلك على أمرين: الأوَّل: أن يدلَّ بتلك الصِّيغةِ على كلَماته التَّكوينيَّة الَّتي تَحدثُ بقوَّةِ القدرةِ على الإيجاد، وهي الحاصلةُ بِفِعل﴿كُن﴾، وهي الحوادثُ المُعجِزةُ الَّتي إذا أرادَ شيئًا منها: ﴿قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]، وهذه الكلماتُ مرتبطةٌ بالحَدَثِ والفِعلِ دومًا، فعبَّر بما يدلُّ على ذلك. الثَّاني: أن يدلَّ بتلك الصِّيغةِ على إمكانيَّةِ الرِّسالَةِ بإنزالِ كتابٍ خاتَم، وهو القرآنُ، وأنَّه لا مانِعَ من تعدُّدِ الكتُبِ؛ لأنَّ تنزيلَها مُتجدِّدٌ ومُتكرِّرٌ، فكما نزَلتِ التَّوراةُ نزَلَ الإنجيلُ، فلا مانِعَ باصطفاء الرَّسولِ بتنزيلِ آخَرَ سِواهما، فهو يشيرُ بتلك الصِّيغة إلى فِعلِ التَّنزيلِ وتَجدُّده، ليجدِّدوا إيمانَهم بكلِّ نازِلٍ، وإرادةُ الفعليَّةِ في وحي الكُتُبِ قد جاءتْ في قول اللّه: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]، وقد أراد ذلك هنا كذلك في: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ لِيُوقِعَ - بمنطوق الصِّيغة - التَّسجيلَ على اليهود والنَّصارى، والتَّعريضَ بهم والاحتجاجَ عليهم من خلال دلالتها على الحدثِ في مَدلولَيها المُرادَين معًا: كلماتِ التَّكوين وكلماتِ التَّنزيل.

اسمُ المصدرِ يُفيدُ الاسميَّةَ المجرَّدةَ عنِ الزَّمنِ، والجمعُ السَّالِمُ يُقرِّبُ الصِّفةَ منَ الفِعليَّةِ

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الاتِّباعِ:

حذْفُ المُتعلَّقِ لغرَضِ التَّعميمِ والاختِصارِ

لم يَقُلْ: وَٱتَّبِعُوهُ في كذا، بتعيينِ المتعلَّق، لِعدمِ تقييدِ اتِّباعِ الرَّسولِ بمتعلَّقٍ، أو حصرِه في مجَالٍ، لِيدلَّ على إرادةِ عمومِ اتِّباعِه، أي:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (كلم)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/423، ودرويش، إعراب القرآن: 1/87، وفاضل، معاني النّحو: 3/164.

اتَّبِعوه في كلِّ شيءٍ ممَّا يأتي، ويذر في أمور الدِّين، فكلَّما اتَّبَعتُموه؛ اهتديتُم، وهذا كما يؤذِن بأفضليَّة الرَّسول ﷺ فهو مُؤذنٌ كذلك بأفضليَّةِ أمَّته الَّذين هم أتباعهُ؛ لأنَّ اتِّباعَهم له على هذا النَّحوِ من غير قَيْدٍ حُجَّةٌ على الأُمَمِ الَّتي جادلَتْ أنبياءها، وشاقَقَتْ رسُلَها، وأقربُهم في هذا السِّياقِ قومُ موسى عليه السلام خاصَّةً، وبنو إسرائيل عامَّةً، ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الأمَّةَ الَّتي تتَّبعُ نبيَّها ﷺ من غير شرطٍ ولاقيد هي أمَّةٌ مرحومةٌ من غير حسابٍ ولا قَيد، فكان في هذا وجهٌ آخر لأفضليَّتِها المُفْصحَ عنها حذْفُ مُتعلَّق الاتِّباع.

طريقُ الهدايةِ مَشروطٌ، باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ

بَلاغةُ موقعِ فاصلةِ الآيةِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾:

في الفاصلةِ ترتيبُ رجاءِ الاهتداءِ على ما قبلَهُ، تنبيهًا على أنَّ مَن صدَّقه، ولم يتابِعْه بالتزام شرعِه؛ فهو يُعَدُّ في خُطَطِ الضَّلالةِ، مُنتظِمٌ في سِلكِ أهلِها، ومعزولٌ عن سبيل الهُدى والرَّشاد[1].

آفةُ المُخالِفين في اتِّباعِ الهوَى وعدَمِ الهُدَى

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿تَهۡتَدُونَ﴾:

في التَّعبيرِ بفعلِ الهدايةِ تسجيلٌ على بني إسرائيلَ، وتعريضٌ بهم بضدِّه، وهو كونُ مُعضِلَتِهم في اتِّباع الهوى والضَّلال وعدم الهدى، فكأنَّ الهدايةَ لم تتعلَّقْ بمحلِّ الرَّجاءِ المجازيِّ في ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ إلَّا لكونهم ضَلُّوا، وأضلُّوا، فكانوا أوْلَى مَن يُرجَى له الهدى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّاسُ والبشرُ والأنامُ:

النَّاسُ اسمٌ يدلُّ على النِّسيانِ والأُنس، والبَشرُ على الانتِشارِ، والأنامُ أعمُّ منهما

النَّاس: لفظُ النَّاسِ في أصلِه يدلُّ على شيئَين: الأوَّل: الحركةُ والاضطرابُ والتَّذبذُب، على اعتبارِ أنَّ اشتقاقَه من (نَاسَ يَنُوس نَوْسًا) إذا اضطرب. الثَّاني: النِّسيانُ على اعتبارِ أنَّه قُلِبَ من نَسِيَ، وأصله: إنْسِيانٌ على إفْعِلان، وبين المعنيين تلازمٌ، فإنَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/38.

النِّسيانَ يورِثُ الاضطرابَ وعدمَ الثَّباتِ، والنَّاس هم الإِنسُ خَاصَّة[1]، وقد يكون من (الأُنس)، وهو اسم جمع للإنسانِ كقوم ورهطٍ، وأصلُه: (أُناسٌ) حُذِفت همزتُه بعد دخولِ (الـ) عليها لكثرة الاستعمال، ثم استمرَّ الحذفُ بعد حذف (الـ)، و(الأُنْس والأُلفة) كونُ الشَّيء في وَسَطٍ مجانسٍ أو مُشاكِلٍ له (يظهر منه): كإنسان العينِ في وَسَطها يُرَى[2].

والتَّعبيرُ بالنَّاس هو الأصلُ في مقام الخطابَاتِ العامِّ والخاصِّ، سواءٌ الخطابُ بالتَّكاليف والتَّشريع، وما يتفرَّعُ عنهما منَ التَّرغيب والتَّرهيب أو بغير ذلك، وخطاباتُ الوحي ارتبطتْ لِما فيها من تَذكيرٍ يُعالِجُ في النَّاسِ وازِعَ النِّسيان، ولما فيها من هُدًى يُعالجُ فيهم وازِعَ الاضطرابِ والتَّذبذبِ بالتَّثبيت والاطمئنان، ولذا عبَّر بالنَّاس هنا دون غيره في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ونظائرُه كثيرةٌ جدًّا.

البشرُ: مادَّة (بشر) أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ مَعَ حُسنٍ وجَمالٍ، فَالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلدِ الإِنسانِ، وعند الرَّاغب أنَّه سُمِّي كذلك "لظهورِ جلدهِ - أي: خلوُّهُ - منَ الشَّعر، بخلاف الحيوانات الَّتي عليها الصُّوف أو الشَّعر أو الوَبر"[3]. وخصَّ في القرآن كلَّ موضعٍ اعتُبِرَ منَ الإنسانِ جثَّتُه وظاهرُه بلفظ البَشر، فالتَّعبير بالبشَر، يُقصَد منه الدِّلالةُ على حُسنِ الهيئةِ أو ظهورِ الشَّأن[4].

والبَشرُ اسمُ جنسٍ[5]، يُذْكر للدِّلالة على انتشارٍ واسعٍ على ظاهرِ الشَّيء[6]؛ لأنَّه سلالةٌ انبثَّت من آدمَ وانتشروا، حتى صاروا أكثرَ ما على الأرض أو من أكثر ما عليها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: 20].

الأنامُ: كلُّ ما ظهرَ على الأرضِ مِن جميع الخلق: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: 10]، وتركيبُ الأنامِ يعبِّرُ عن كلِّ ما يَنمو من إنسانٍ، وجانٍّ، وحيوانٍ، ونبات، ولكنَّه ينطبقُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نوس)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 274.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (أنس).
(3) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بشر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276.
(5) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 10/348.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (بشر).

أكثرَ على الإنسانِ، والجانِّ، والحيوانِ؛ لزيادةِ الحركةِ، وظهورِ الامتدادِ والنُّموِّ، ثمَّ يقتضي الخطابُ تخصيصَ مَنْ يَتأتَّى خطابُه، أي: الإنسُ والجِنُّ[1]، وعليه: فالأنامُ عامٌّ في المخلوقاتِ النَّاميةِ جميعًا، وهو أعمُّ من لفظَي (النَّاس)، و(البَشر) اللَّذينِ يختصَّان بالآدمِيِّين.

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنم).

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: 159]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أجابَ اللّهُ سؤالَ موسى عليه السلام في كتابةِ الحسنةِ لقومهِ بكتابتها لأمَّةِ سيِّدنا محمَّد ﷺ وأثنى عليهم، جبَرَ ما فاتَهُ منَ الجواب المُرضيِّ له بالثَّناء على قومهِ بأنَّ منهم هداةً للحقِّ وعدولًا[1]. ولمَّا ذَكَرَ الَّذين تَزلْزَلُوا مِن قومِ موسى عليه السلام في الدِّينِ، وارتابوا، ذكَر أنَّ منهم أمَّةً مُوقنين ثابتين يَهدون النَّاسَ بكلمةِ الحقِّ، ويدلُّونهم على الاستقامةِ، ويرشدونهم[2]، بعد أن وسَّطَ بينَ هؤلاءِ وهؤلاءِ صِفاتِ أهلِ الإيمان والاتِّباع؛ لِتكونَ حدًّا فاصِلًا بين السُّفهاء والعقلاء في الذِّكرِ والحقيقة.

الـثَّـنـاءُ على فريقٍ من قومِ موسى، بعدَ ذكْرِ المرتابين، وما كان منهم تُجاهَ نَبيِّهم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٞ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغوي (أمم)، والأَمُّ: القَصْدُ، والأمَّةُ: الجماعةُ مِنَ النَّاسِ يجمعُهم أمرٌ ما، دينٌ أو زمانٌ أو مكانٌ واحدٌ، سَواءٌ كانَ ذَلِكَ الأَمرُ الجامِعُ تَسخيرًا أوِ اختيارًا، والجمعُ أُمَمٌ، وعُبِّر عنِ الجماعةِ بالأمَّةِ؛ لأنَّهم يَجتمعون على قَصدِ شيءٍ واحدٍ، فرُوعِيَ معنى القصدِ، وتُطلَقُ الأمَّةُ على الجماعة الَّذين يتخيَّرون العلمَ والعملَ الصَّالحَ؛ ليكونوا أسوةً لغيرهم[3].

2) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغوي (عدل)، والعَدْل: لفظٌ يقتضي معنى المساواة، وأصلهُ يدلُّ على: مُوازنةِ ثِقْلٍ في جانبٍ بثِقْلٍ في جانبٍ آخر حتَّى يتَّزِنا، والمرادُ هنا: يَعدِلُونَ بَينَهم في الحُكمِ لا يَجورُونَ[4].

(1) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/1060.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/198.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أمم)، والرّاغب، المفردات: (أم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدل)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/611.

والعَدلُ والعِدلُ يتقاربان؛ لكنَّ العَدلَ يُستعمَلُ فيما يُدرَكُ بالبصيرةِ كالأحكام، والعِدلُ والعديل فيما يُدرَكُ بالحاسَّة، كالموزونات والمعدودات والمكيلات، وعلى ذلك فالعَدْلُ هو المساواةُ في المكافأةِ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ[1].

المَعنى الإجْماليّ:

بعضُ قومِ موسَى هداةٌ صالحونَ، ومؤمنونَ صادقونَ

بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّ مِن قوم موسى جماعةً عظيمةً يهدون النَّاسَ بالحقِّ الَّذي جاءَهم به من عندِ الله، وبالحقِّ أيضا يسيرون في أحكامهم، فلا يجورون، ولا يرتشون، وإنَّما يعدلون في كلِّ شؤونِهم، فهم جماعةٌ على خيرٍ وصلاحٍ في عهد موسى عليه السلام مخالفين لأولئك السُّفهاء من قومِه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ، في قولِه: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾:

ورودُ الاسْتِئنافِ النَّحويِّ، لِغَرضِ الاحْتِراسِ

استئنافٌ نحويٌّ غرضُه دفْعُ ما قد يُوهِمُه تخصيصُ كَتْبِ الرَّحمةِ بمتَّبِعي رسولِ الله ﷺ بحرمانِ قوم موسى من ذلك، ببيانِ أنَّ كلَّهم ليسوا كما حُكِيَتْ أحوالُهم منَ المثالبِ بلْ مِنهم: ﴿أُمَّةٞ يَهۡدُونَ﴾[3]، فقُصِدَ منه الاحتراسُ من دخول قومِه جميعًا في عموم الحرمانِ، وللتَّنبيه على دفعِ هذا التَّوهُّمِ قدَّم: ﴿وَمِن قَوۡمِ﴾ على مُتعلَّقه، أو الواو عاطفةٌ ذلك على ضدِّه، وهو قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ [الأعراف: 148] تَخصيصًا لِظاهِرِ العُمومِ فيه، ولذا صدَّر الكلامَ بـ﴿وَمِن﴾ التَّبعيضيَّة[4].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالحرفِ (مِن) التَّبعيضيَّة:

إنصافُ القرآنِ لقومِ موسَى عليه السلام، لكوْنِ القرآنِ مُنَزَّلًا من الله

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بـ﴿وَمِن﴾ التَّبعيضيَّة في قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ

(1) الرّاغب، المفردات: (عدل).
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/396.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/281.
(4) السّيوطيّ، قطف الأزهار، ص: 1060، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142.

مُوسَىٰٓ﴾؛ لإنصاف جماعةٍ منهم يسيرون على النَّهجِ الصَّحيحِ في الهداية بالحقِّ وإقامةِ العدلِ، وليس هذا مبدأً عامًّا في قوم موسى؛ فهمُ الَّذين خرجوا على المنهج بالظُّلمِ والجورِ وقتلِ الأنبياءِ، ومنهجُ القرآن الإنصافُ ولو كان مع خصومه.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بـ﴿قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾، دونَ (بني إسرائيل)، أو (أهل الكتابِ):

(قَومُ موسى) إطلاقٌ على أتباعِه قبلَ بلُوغِ الإسلامِ

لِيدلَّ به على أنَّ المقصودَ بهم أتباعُ موسى عليه السلام قبل بعثةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فمَن بقي متمسِّكًا بدين موسى، بعدَ بلوغِ دعوةِ الإسلام، فليس من قوم موسى، ولكن يُقال: هو من بني إسرائيلَ أو منَ اليهود؛ لأنَّ الإضافةَ في ﴿قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾ تؤذِنُ بأنَّهم مُتَّبِعو دينِه الَّذي من جملةِ أصولِه ترقُّبُ مجيءِ الرَّسول الأمِّيِّ صلى الله عليه وسلم[1].

سِرُّ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿أُمَّةٞ﴾، دونَ (طائفةٍ) أو (جماعةٍ):

لفظُ (الأمَّة)، يدلُّ على المكانةِ العظيمةِ، وعلى اتِّحادِ القَصْدِ

لِمُراعاةِ معنى القصْدِ، والائتمام، فهم جماعةٌ اتَّفقوا على قصدِ أمرٍ واحدٍ، وهو الاهتداءُ بالحقِّ والحكم به، فهم يأتمُّون بموسى عليه السلام ويأتمُّ بهم غيرُهم في مسلكِهم وسبيلهم، فالتَّعبيرُ عنهم بلفظ الأمَّةِ دالٌّ على مكانتِهم وتَمَكُّنِهم، وينفي عنهم ما قد يُتَوَهَّم عنهم أنَّهم ضعفاءُ أو مُهمَلُون.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿يَهۡدُونَ﴾ دونَ (يدعون):

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ القيامِ بالبلاغِ، بِفِعْلِ الهدايةِ

قوله تعالى: ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾، فيه تأكيدٌ على مدلول التَّعبير عنهم بلفظ ﴿أُمَّةٞ﴾ السَّابق، ومحلُّ التَّأكيد: أنَّهم يُزاوِلُونَ الهدايةَ بين النَّاس في البلاغِ، فعبَّر عن تبليغِهم الحقَّ بِفِعلِ غايتِه، وهي الهدايةُ، وفيه إلفاتٌ إلى تمكُّنِهم منَ الهُدى في أنفسِهم حتَّى ظهر في أفعالهم، كما تظهرُ السَّجايا والطَّبائعُ على أفعال النَّاس.

---
(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿يَهْدُونَ﴾:

القيامُ بالهدايةِ، صفةُ مدْحٍ لفاعلِها

عبَّرَ بالفعل المضارع الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ في الهدايةِ بالحقِّ وإقامةِ العدلِ؛ لبيان أنَّ هذه الطَّائفةَ من قوم موسى يحرصون على ذلك كلَّما وجدوا الفرصةَ سانحةً لهداية الضَّآلِّين وإقامةِ العدلِ بين المتخاصمين.

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿يَهْدُونَ﴾:

حذْفُ المعمول لعدَمِ الاكتراثِ به، من فصيحِ الإبانةِ عنِ المُرادِ

في حذْفِ المُتعلَّقِ نُكتةٌ نافِعَةٌ، وهي عدمُ الاكتراثِ بمفعولِ البلاغِ (المُبَلَّغ)، فهم يَهدونَ بالحقِّ غيرَ مُكترثِينَ بِرُدُودِ أفعالِ الخلقِ، أقبَلوا عليهم أم أدبروا عنهم، فهم يَهدون غيرَهم بالحقِّ إيمانًا واحتسابًا، فالمُتعلَّقُ عندهم غيرُ مَلحوظٍ، فأخفاهُ منَ الكلام.

سِرُّ تَكرارِ الجارِّ والمجرور ﴿وَبِهِۦ﴾ في السِّياقِ:

غرَضُ حرْفِ الجرِّ في إزالةِ الإيهامِ، وتَثْبيتِ المعنَى في النَّظْمِ

لتأكيد أنَّ الحقَّ عُدَّتهم في كلا الأمرين: الهدى والعدل، فأفادَ بإعادةِ الجارِّ مُلابسَةَ الحقِّ لهم، وهم يَعدِلُون، كما تلَبَّسوا بهم، وهم يَهدون، فالباءُ للملابسة، ولو قال: (يهدون بالحقِّ ويعدلون)؛ لاحتمَلَ أنَّ إصابَةَ الحقِّ قد تفوتُهم في بعض أحكامهم، فلمَّا قال: (وبه يعدلون) أفاد عدمَ الفواتِ المذكور، ودلَّ على التزامِهم الحقَّ والعِلْمَ في كلِّ ما يحكمون فيه.

سِرُّ خِتامِ الآيةِ بالعدْلِ، في قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾:

الخَتْمُ بصِفةِ العدَالة، مُؤْذِنٌ بإقامَتِه في شَهادَتِهم على نُبوَّةِ الرَّسولِ في التَّوراةِ والإنجيلِ

في ختامِ الآيةِ بالعدلِ نُكتةٌ بديعةٌ تَلتَحِمُ مع السِّياقِ السَّابِقِ عليه، وتشهدُ له، ففي الختم بالعدلِ، وإجرائِه عليهم بصيغة المضارع المؤذِنة بكثرةِ مُزاولتِهم له، وتجدُّده منهم، بما يدلُّ على أنَّه صار دَيْدَنَهم وعادةً لهم، وفي الخَتمِ بهذه الصِّفة تعريضٌ بالسُّفهاء من قومِ موسى الَّذين كتمُوا الحقَّ، وألبسوا الحقَّ بالباطل، وحرَّفوا الكلِمَ عن مواضعه، ولم يحكموا بما أنزلَ الله، وأكلوا أموالَ النَّاسِ

بالباطل، وجاروا، ولم يَعدلوا فطَمَسُوا صفةَ الرَّسولِ النَّبيِّ الأمِّيِّ من كُتُبهم الَّتي شَهِدتْ به، فَلم يحكموا بالعدل، ولم يقوموا بالقسط، فاحتِيجَ أن يَختِمَ لهولاء المُهتدين من قوم موسى بما هو كالفُرقانِ بينهم وبينَ نظرائهم السُّفهاء من قوم موسى، وهي صفةُ القيام بالعدل، فأخبرَ بأنَّهم على خلافٍ منهم في ذلك، وقرَّرَ كونَهَم عُدولًا مُقسطين في عقائدهم وأعمالهم، وهو مُؤذِنٌ بقيامِهم بالعدل على ما شهِدتْ به التَّوراة منَ البشارة بالنَّبيِّ ﷺ.

التّشابُهُ اللّفظِيُّ:

سِرُّ اختِلافِ البَدْءِ في الآيتين مع الاتِّفاقِ في الفاصلةِ

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 159] وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 181]، اختلفَ صدرُ الآية الأُولى عن صدر الآيةِ الثَّانيةِ؛ لأنَّها وردَت في ثنايا الحديث عن قصَّةِ موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، والصِّفاتُ المذكورةُ في ختام الآيةِ لم تتحقَّق إلَّا في بعضٍ من قوم موسى، لذلك ناسبَ التَّبعيضَ بقوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾، أمَّا الآيةُ الأخرى؛ فقد وردَت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأعراف: 179]، ولمّا كانتِ الآيةُ إشارةً إلى خلق الجنِّ والإنس؛ ناسبهُ قوله: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]، وفي هذا تفضيلٌ لمؤمني أمَّةِ الرَّسولِ ﷺ بإسناد الفعلِ (خَلَقَ) إلى ضمير العظمة (نا) بقوله: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ [الأعراف: 181]، وذلك ما لم يردْ مثلُه في الآية الأولى.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمَّةُ، والجماعةُ، والطَّائفةُ، والفريقُ:

الأمَّةُ هي الجماعةُ القاصِدَةُ لأمرٍ واحدٍ، يَشتركون فيه، وهي المُؤْثَرةُ في هذه الآيةِ

الكلماتُ الأربعُ تشتركُ في أصلِ دلالتها على معنى الجَمعيَّة، وتختصُّ كلٌّ منها بمزيَّةٍ تَفرِقُها عن أختِها، فالأمَّة: هي الجماعةُ القاصِدَةُ لأمرٍ واحدٍ يشتركون فيه، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾، فقد قصَدوا الدِّينَ الحقَّ، واجتمعوا عليه.

والجماعةُ: همُ الكَثْرةُ المُجتَمِعة، فهي تدلُّ على مجرَّدِ تَضَامِّ النَّاسِ بعضِهم لبعض، ومنها: يوم الجُمُعةِ لقيامِ النَّاسِ فيها جماعة. والطَّائفة: هي في الأَصلِ الجَمَاعَةُ الَّتي من شَأنها الطَّوفُ في البِلاد للسَّفر، وهي القطعةُ منَ الشَّيء، كأنَّها جانبٌ من حواشِيه أو ممَّا يحيطُ به، فهي جماعةٌ مُقتَطَعةٌ من جَمْعٍ آخر، فصارَتْ كالحلقَةِ الدَّائرةِ في انفصالها، فكُثْرَ بذلك طوافُها ودورانُها حول مُرادِها، ولذا فهي تدلُّ على الجماعةِ الَّتي تَتَحَلَّقُ حول موقِفٍ أو مناسبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: 2]، فقد تُصُوِّرَ فيهم تَحَلُّقُهم ودورانُهم حول الموقِفِ المذكور، فعبَّر عنهم بالطَّائفة. والفريق: الجماعةُ المتفرِّقةُ عن آخرين، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المُتفرِّدةِ منَ النَّاس، فالفريق هو الجماعةُ الَّتي تفرَّقتْ، وانفصلتْ عن غيرِها لسببٍ دَعَا لانفرادها[1]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ [المؤمنون: 109]، فعبَّر عنهم بالفريقِ؛ لانفصالهم بالإيمان وانفرادهم عن غيرِهم بالعبوديَّة للّٰهِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع)، والرّاغب، المفردات، ص: 632، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوف - طيف).

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين هدايةِ قومِ موسَى، وما أُوتِيَ ظَلَمَتُهم، مِـن مُـعـجـزاتٍ وطيّباتٍ

بعد أن أثنى عليهم بقوله جلّ شأنه: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾، "شرع يذكّرهم شيئًا ممّا أسبغ عليهم منَ النِّعم لأجل هؤلاء المهتدين منَ التّكثير بعد القلّة، والإعزاز بعد الذّلّة بجعلهم ممّن يُؤَمّ؛ استعطافًا لغيرهم، ويذكرُ بعضَ عقوباتهم ترهيبًا فقال: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾: "(قطع) قطعتُه قطعًا، ومقطعًا، فانقطع، وقطعتُ النّهرَ قطوعًا. والطّيرُ تقطعُ في طيرانها قُطوعًا، وهنّ قَواطِعُ؛ أي: ذواهبُ ورواجِعُ. وقطع بفلان: انقطع رجاؤه"[2]. وأصل (قطع) يدلُّ على صَرْم وإبانةِ شيءٍ من شيء، القَطْعُ: إبانةُ بَعضِ أَجزاء الجِرْم من بعضٍ فَصْلًا، وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾؛ أي: قسَّمناهم وفرَّقْناهم وصاروا أحزابًا وفِرَقًا مختلفةً[3].

2) ﴿أَسۡبَاطًا﴾: (سبط) أصلٌ يدلُّ عَلَى امتداد شيءٍ، وانبساطٍ في سهولة. رجل سَبْطُ الكفّين: ممتدّهما، والسِّبْطُ واحدُ الأَسباط:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/132.
(2) الخليل بن أحمد، العين: (قطع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قطع).

وَلد الوَلَد، كأنّه امتدادُ الفروع، ويكون وَلَدَ الابنِ والابنَة. قال تعالى: ﴿وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ أي: قبائل كلِّ قبيلة من نِسَل رجلٍ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل منَ العرب[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، هم القبائلُ، وكانوا اثنتي عشرةَ قبيلةً من اثني عشرَ ولدًا من ولدِ يعقوبَ عليه السلام، وكانَ كلُّ سِبطٍ أمةً عظيمةً، والسِّبْطُ في ولدِ إسحاقَ كالقبيلةِ في ولدِ إسماعيل[2].

3) ﴿أُمَمٗاۚ﴾: (أمم) الأمّ: الأَصلُ والمَرجِعُ والجَماعةُ والدِّينُ، كلُّ شيءٍ يَضمُّ إليه سائرَ ما يليه، فإنّ العربَ تُسمِّي ذلك الشَّيءَ أُمًّا، ومِن ذلكَ أُمُّ الرَّأسِ وهو الدِّماغُ. وأُمّ النّجوم: المَجَرّة؛ لأنّها مُجتَمَعُ النّجوم. والأُمّة: كلُّ جماعة يجمعُهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، وجمعها: أُمَم[3].

4) ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾: (سقى، سقي)، أصلٌ يدلُّ على إشراب الشّيءِ الماءَ وما أشبهَهُ، والاستِسقاءُ: طلبُ السَّقْيِ، واستَسقَيتُ فُلَانًا إذا طَلَبتَ منه أَن يَسقِيَك، قال تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ﴾[4]. والاستسقاءُ استفعالٌ من طلب السُّقيا؛ أي: إنزالُ الغيث عَلَى البلاد والعباد، يُقال: استسقى، وَسقَى اللّه عبادَه الغيثَ وأسقاهم، والاسم السُّقيا بالضّمّ[5]، وشرعًا: طلبُ إنزالِ المطرِ منَ اللّه تعالى، عند حول حُلولِ الجَدْبِ على وجهٍ مخصوصٍ،[6]. و(أسقاه) سقَاهُ، وفي التَّنزِيل العَزِيز: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ [المرسلات: 27]، وجعل لَهُ مَاءً أَو سقيا[7]، قال الشّاعر لَبيد بن ربيعة العامريّ:

سَقَى قَومِي بَنِي مَجدٍ وأَسقَى *** نُمَيرًا والقَبائِلَ مِن هِلالِ[8]

5) ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾: (بجس) أصلٌ يدلُّ على تفتُّح الشّيءِ بالماء خاصّة. البَجْسُ: انشِقَاقٌ في قِربةٍ أو حَجَرٍ أو أَرض يَنبُعُ مِنهُ الماءُ، فإن لَم يَنبُعْ فليسَ بانبِجاسٍ، يُقال: بَجَسَ الماء

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبط).
(2) العليميّ، فتح الرّحمن: 3/47.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمّ - أمم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سقى - سقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سقى - سقي).
(6) سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهيّ: (سقى).
(7) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (سقى).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (سقى).

وانبَجَسَ: انفجر، لكنّ الانبجاسَ أكثر ما يُقال فيما يخرجُ من شيءٍ ضيّقٍ، والانفجارُ يُستعملُ فيه، وفيما يخرجُ من شيءٍ واسعٍ(1).

6) ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾: الشُّربُ: تناولُ كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيرَه، والمَشرَبُ المصدرُ، واسمُ زمان الشُّرب، ومكانُه، قال تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾(2)، ويتعيّنُ في الآية كونه اسمَ مكان، بدليل تقسيمه إلى اثنتي عشرةَ عينًا، ولو كانت عينًا واحدًا لكان اسمَ زمان؛ أي: عرفوا زمانَ شُربهم، أمّا في الآية فالمرادُ مكانُ الشّرب.

7) ﴿ٱلۡغَمَامَ﴾: (غمّ، غمم) أَصلٌ يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ وإطبَاقٍ. والغَمُّ: سَتْرُ الشّيء، ومنه: الغَمَامُ؛ لكونه ساترًا لضوء الشّمس، والغَمامة: السَّحَابَةُ، والجَمعُ غَمام وغَمائم، والغَمام الغَيم الأَبيض، وإنّما سُمِّي غمامًا؛ لأنّه يَغُمُّ السّماء؛ أي: يسترها.

والغَمامُ وردَ على ثلاثة أَوجه: الأَوّل: غَمامُ النّعمةِ: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ﴾ [البقرة: 57]، والثّاني: غمامُ المحنةِ والعقوبةِ: ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، والثّالث: غمامُ العظمةِ والهيبةِ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25](3).

8) ﴿ٱلۡمَنَّ﴾: (منّ، منن) أَصلٌ يَدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ، مَنَّ يَمُنُّ مَنًّا، إذا صَنَعَ صُنعًا جميلًا، ومَعْنَى المَنّ: ما مَنّ اللهُ به على الإنسان من غيرِ تَعَبٍ منه. والمنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾: شيءٌ كالطّلّ فيه حلاوة، ينزلُ على شَجَرٍ أو حجرٍ، ويَنعَقِدُ عَسَلًا، ويَجِفُّ جَفافَ الصَّمغِ، كان يَسقطُ على بَنِي إسرائيل منَ السّماء، إذ هم في التِّيه، وسمَّاهُ مَنًّا، بحيث إنّه امتنَّ به عليهم(4).

9) ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾: (سلا، سلو) أَصلٌ يَدُلُّ على خَفْضٍ وطِيبِ عَيْشٍ. والسَّلْوى أصلُها ما يُسَلِّي الإنسانَ، ومنه: السُّلْوَانُ والتَّسَلِّي. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾: طائرٌ يشبهُ السُّمَانَى، ولا واحد له، وسمّاهُ سلوى من حيث إنّه كان لهم به التّسلّي(5)، وقيل:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بجس).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (غم، غمم).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس: (منّ، منن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (سلا، سلو، سَلْوَى).

طائر مثل السُّمَانَى، وقيل: هو السُّمَانَى، واحدُه وجمعُه سواء[1]. وسُئِلَ ابن عبَّاس عَنِ السّلوى، فَقَالَ: "هُوَ الْمُرَعَةُ"؛ وهو طَائِرٌ أَبيض، حسنُ اللَّون، طويلُ الرِّجلين، بِقَدْرِ السُّمَانَى، يقعُ في المطر منَ السّماء[2].

10) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلاف الخبيث، وهو وأصلُ الطَّيِّبِ: ما تَستلِذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفسُ، يُقال: أرضٌ طيّبةٌ للّتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليِّنةً ليسَت بشديدة؛ وطُعمةٌ طيّبةٌ: إذا كانت حلالًا، والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: ما كان متناوَلًا من حيث ما يجوز، ومنَ المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا، وعلى ذلك قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ مَظاهِرِ الإنْعامِ والإغْداقِ على قومِ موسَى، وتَوزيعُهم أسْباطًا

يخبرُ اللّهُ تعالى في هذه الآية عن إنعامه على بني إسرائيل، يقول: لَمَّا أخرجناهم من أرض مصرَ، وأدخلناهم البرَّ، جعلناهم اثنتي عشرةَ قبيلةً؛ ليكون أمرُ كلِّ سبطٍ متصرِّفًا من جهةِ رئيسهم، فيخفَّ الأمرُ على موسى، فيما يحتاجُ إليه من تعريف أحوالهم، ويَسهلُ عليه جمعُهم، إذا أراد جمعَهم، ويَعلمُ كلُّ فريقٍ مرجعَهم في أمورهم. وأنّه لمّا استسقوا موسى ضربَ الحجرَ، فانبجسَ منه اثنتا عشرة عينًا، بقَدْرِ عددِ الأسباطِ، وأنّه ظلَّلَ عليهم السّحابَ، وأنزلَ عليهم المنَّ والسّلوى، فكَرِهوا ذلك ومَلُّوه، من طول المداومةِ عليه، وقالوا: لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ، وطلبوا استبدالَ الّذي هو أدنى بالّذي هو خير. وما ظلمونا حين لم يشكروا للّه، ولم يقوموا بما أوجب اللّهُ عليهم، ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون[4].

(1) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (السَّلوَى).
(2) ابن الجوزيّ، غريب الحديث: 2/352، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (مرع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/88، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التّفسير الميسّر: 1/171.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ العطْفِ في الآيةِ، ومناسبتُه لما تقدّمَ:

الإنْعامُ بالتّفريقِ أسْباطًا، وقعَ للأمّةِ الهادِيةِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]؛ للدّلالة على أنّ الإنعامَ بالتّقطيع المذكور "وقع في الأمّة الّذين يهدون بالحقّ"(1)، وليس المرادُ أنّ التّقطيعَ واقعٌ بالمهديّين وحسب، بل بالقوم كلِّهم، "ذلك أنّ بني إسرائيل قطعةٌ جماعيّةٌ واحدةٌ، فَرَّقها اللّهُ تعالى أقسامًا، ليُعنى كلُّ قسم بنفسه، ويندمج من بعد ذلك في المجموع بالتّأليف، فإنّ الجماعاتِ لا تصلحُ بمجموعها ابتداء، إنّما تصلحُ بأجزائها أوّلًا، ثمّ تنضمُّ الجماعاتُ الصّغيرةُ أو الأجزاءُ بعضها إلى بعض، وتتآلفُ صالحةً متعاونةً عَلَى البرّ والتّقوى"(2).

نُكتةُ المجازِ في قولِه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾:

غَرَضُ التّقْسيمِ والتّمْييزِ إلى قبائلَ، تَنظيمًا لهم وإنْعامًا عليهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، ذَكَرَ الإنعامَ على بني إسرائيل بتقطيعهم إلى اثنتي عشرة قبيلةً، والتّقطيعُ شدّةٌ في القطع، وهو التّفريق، والمرادُ به التّقسيم، فَشَبَّه التّقسيمَ بالتّقطيع بجامع التّفريق على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وليس منَ التّقطيع العقابُ؛ لأنّ ذلك التّقطيعَ مِنّةٌ منَ اللّه، فالانقسامُ إلى اثنتي عشرة أمّةً وقعَ قبلَ الاستسقاء، حتّى لا يقعُ منَ التّزاحم على الماء، ما يفضي إلى الضّرّ بهم"(3).

دَلالةُ عَوْدِ ضميرِ ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾:

التّقطيعُ شاملٌ لكلِّ القَوْمِ، لا للأمّةِ المهديّةِ وحسْبُ

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، يعودُ الضّميرُ إلى قوم موسى جميعًا؛ "أي: قوم موسى عليه السلام لا الأمّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2980.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142 - 143.

المذكورة كما يوهمه القُرب"[1]. في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159] فالّذين قُطِّعوا ليس الأمّةَ المهديّةَ وحَسْب، بلِ القومُ كلُّهُمْ".

دَلالةُ التّأنيثِ في العددِ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾، جاء العددُ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ مؤنّثًا، والمعدودُ ﴿أَسْبَاطًا﴾ مذكّرٌ؛ لأنّ السِّبطَ هنا "بمعنى الفِرقةِ أو الأمّةِ، كما قال: ثلاثةُ أنفُسٍ؛ يعني رجالًا وعَشَرَ أبطنٍ بالنّظر إلى القبيلة"[2]؛ وإنّما كان حملُ الأسباط هنا على مَعْنى الأمّة؛ لأنّه قال بعده: ﴿أُمَمًاۚ﴾؛ وذلك لبيان أنّ تلك الأمم تعودُ للأسباط الاثني عشر[3].

الأَسْباطُ لفْظُهُ مُذكّرٌ، ولكن يُحمَلُ على معنَى الأمّةِ والقبيلةِ

دَلالةُ التّعبيرِ عن فُروعِهم بلفْظِ (الأسباط):

في قوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ عبّر عن قبائلهم بالأسباط، دون لفظ القبائل؛ لما في ذلك من إشعارٍ بالمدح والتّفضيل؛ "لأنّ الأسباطَ أسباطُ إسحاق بن إبراهيم عليه السلام"[4]، ففي ذكرهم بكونهم من ذلك الأصل تمييزٌ لهم، وهو مناسبٌ لمقام الإنعام الّذي تدلُّ عليه الآية.

ذِكْرُهُم بِمَزيَّةِ عُلوِّ النّسبِ في سِياقِ تقسيمِهم: هو حِفظٌ لهذا التّفضيلِ

دَلالةُ الموقعِ النَّحويِّ لقولِه: ﴿أَسْبَاطًا﴾:

اختلف أئمّةُ التّفسيرِ في موضع ﴿أَسْبَاطًا﴾ الإعرابيِّ، ولكنّهم متّفقون، على أنّه ليس تمييزًا للعدد؛ إذ "لا يجوزُ أن يكون ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزًا؛ لأنّ التّمييزَ لا يكون إلّا مُفردًا نكرةً"[5]، فجائزٌ أن يكون بدلًا

حذفُ التّمييزِ الّذي يُبيّنُ العددَ، بتقديرِ (وَقَطَّعْناهُمُ اثنتي عشرةَ فرقةً)

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/82، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/199.
(3) الواحديّ، البسيط: 9/404، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2981.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/465.

عن ﴿ٱثۡنَتَيۡ﴾، والتّمييزُ الّذي يبيّنُ العددَ محذوفٌ، تقديره: قِطعة أو فِرقة، والتّقدير: قطّعناهم اثنتي عشرةَ فِرقةً أسباطًا؛ لأنّ الأسباطَ معلومٌ أنّهم اثنا عشرَ[1]؛ والمعنى: أنّا قطّعنا هؤلاء القوم إلى اثنتي عشرةَ فرقةً على أصول قبائلهم.

وجائز أن يكون حالًا، والتّقدير: "وقطّعناهم أسباطًا أممًا، اثنتي عشرة قطعةً، و(قطعةً) مُضمَرةٌ"[2]، فكان التّقطيعُ في حالة كونهم قبائلَ متميّزةً بعضها عن بعض، نظرًا لكونهم من نَسْلِ الأسباط الاثني عشر.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أَسۡبَاطًا﴾:

التّلميحُ إلى تفضيلِ الأُممِ الأَسْباطِ، بعُلوِّ نَسَبِ الأَسْباطِ

في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، ذكرَ الأسباطَ بصيغة التّنكير؛ تعظيمًا لذِكْرهم، وتفخيمًا لشأنهم، والتّعظيمُ مناسبٌ لِذِكْرِهم في سياق الإنعام على ذراريِّهم بالتّقسيم إلى قبائل، " والمرادُ بالأسباط هنا همُ الذريَّةُ الّتي وُلِدَت لأبناء يعقوب الاثني عشر، الّذين دخلوا مصرَ في عهد أخيهم يوسف، والّذين كان منهم بنو إسرائيل، الّذين أخرجهم موسى من مصر"[3].

الموقعُ النّحويُّ لقوله ﴿أُمَمٗاۚ﴾:

بيانُ نَوْعِ العددِ الّذي قُطّعُوا إليه، ودلالتُه في السِّياقِ

في قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ نُصِب ﴿أُمَمٗاۚ﴾؛ لأنّه بدلٌ من ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾، أو من ﴿أَسۡبَاطًا﴾، "بمعنى: وقطّعناهم أممًا؛ لأنّ كلَّ أسباطٍ كانَت أمّةً عظيمةً وجماعةً كثيفةَ العددِ، وكلَّ واحدةٍ كانت تؤُمُّ خلافَ ما تؤُمُّهُ الأخرى"[4]. ولم يكن (الأسباط، والأمم) تمييزًا للعدد المذكور؛ "تنبيهًا على قصد المِنَّة بكونهم أممًا من آباءٍ إخوةٍ، وأنّ كلَّ سبطٍ مِن أولئك قد صار أمّةً"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/465.
(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 7/36.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143.

معنَى أممٍ: أنّها عظيمةٌ، كثيرةُ الانْتِشارِ والتّأثيرِ

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَمًاۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًاۚ﴾، دلّ التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿أُمَمًاۚ﴾ على التّكثير؛ وذلك لبيان عَظَمتِهم، وكثرةِ انتشارِهم وتَشعُّبِهم، فهم أهلٌ لأن يَقْصِدَهمُ النّاسُ؛ لما لهم منَ الكثرةِ والقوّةِ والدّين[1]. والمعنى: "وفرَّقْنا قومَ موسى الّذين كان منهم أمّة، يهدون بالحقّ، وبه يعدلون، ومنهم الظّالمون والفاسقون، فجعلناهم اثنتي عشرة فرقةً، تُسمّى أسباطًا؛ أي: أممًا وجماعات، يمتاز كلٌّ منهم بنظامٍ خاصٍّ، فى معيشته وبعض شؤونه"[2].

معنى عطفِ نِعْمةِ الرّزقِ، على نِعمةِ التّكثيرِ في السِّياقِ

دَلالةُ العطْفِ بالواوِ في: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًاۚ﴾، فلمّا وصفهم بالكثرة بالتّقسيم عطف عليه "مظهَرًا من مظاهر حكمةِ تقسيمهم إلَى اثني عشر سبطًا، ولم يعطف هذا الخبر بالفاء لإفادة أنّه منّةٌ مستقلّةٌ"[3].

إظهارُ النِّعمةِ وقْتَ الحاجةِ إليها، أدْعَى لمعرفةِ حقِّ المُنْعِمِ

دَلالةُ دُخولِ (إذ) ومعناها، في قوله: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾:

إذِ الظّرفيّةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على زمان الوحي بضَرْبِ الحجر، فهو كان في وقت عطشِهم وحاجتِهم للماء، والتّقدير: "حين استولى عليهم العطشُ في التِّيهِ الّذي وقعوا فيه بسوء صنيعِهم"[4]، فجعل سُقياهم مُتعلِّقًا بوقت طلبهم الماء؛ لأنّ اللّه تعالى أرادَ "أن يبرزَ لهم نِعَمَه وقت الحاجة، فقد تركهم إلى أن عَطِشوا لِيَسْتسقوا وليشعروا بنعمة الرَّيّ"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/132.

(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/88.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4391.

فائِدةُ دُخولِ: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾ بين فعْلِ الإيحاءِ ومضْمونِه:

الله تعالى يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه، ويكشفُ كُربتَه

جاءَت جملةُ الاستسقاء في قَوْلِهِ جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ بين الوحي والموحَى به؛ للدّلالة على أنّ الوحيَ بضرب الحجر، جاء عقبَ سؤالهم إيّاه بعد استيلاءِ العطشِ عليهم، إشارةً إلى أنّ اللّه تعالى يلبّي حاجةَ عباده إذا سألوه، ولجؤُوا إليه، ولو قال: (وأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعصاك الحجر) لما فُهِمَ الدّاعي إلى ذلك.

مَعْنى ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾:

دَلالةُ الاسْتِسقاءِ على طلَبِ السُّقْيَا، ودواعِي الحاجةِ إلى ذلك

فعلُ الاستسقاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، يدلُّ عَلَى طلب السُّقيا؛ ويدلُّ ذلك على أنّهم عطشوا، واشتدّت حاجتُهم إِلَى الماء[1]، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يستسقي لهم؛ لأنّ زيادةَ الأحرف الثّلاثة (است)، تدلُّ عَلَى الطّلب، وهذا من براعة بنية الألفاظ في العربيّة لَمَا تحقّقه مِن إيجازٍ في التّعبير.

نُكتةُ حذْفِ مَفعولِ ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾ الثّاني:

إيجازُ العِبارةِ بحذْفِ المعلومِ بالضّرورةِ

حذف المفعولَ به في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، إذ لم يبيّن ماذا طلبوا، اعتمادًا عَلَى العلم به وشهرته؛ لأنّ الإسقاءَ هو التَّعرُّضُ للماء[2]، فلا يخفى أنّهم طلبوا أن يَسقِيَهم ماءً، ودلّ على ذلك الحالُ والسّياقُ، وكذلك دلالةُ لفظِ السُّقيا، مع ما في ذلك من إيجازٍ في التّعبير. والإنعامُ بالسُّقيا "جامعٌ لنِعَم الدّنيا والدّين: أمّا في الدّنيا فلأنّه أزالَ عنهم الحاجةَ الشّديدةَ إِلَى الماء، ولولاه لهلكوا في التِّيهِ، وهذا أبلغُ منَ الماء المعتاد في الإنعام؛ لأنّهم في مفازةٍ منقطعةٍ. وأمّا في الدّين فلأنّه من أظهرِ الدّلائل على وجودِ

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/194، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/353.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/194.

الصّانع وقدرتِه وعلمِه، وعلى صدق موسى ﷺ. والاستسقاءُ طلبُ الماء، عند عدمه وقلّته"[1].

نُكتةُ تَقْديمِ المفعولِ على الفاعلِ في ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾:

علّة تقديم المسؤول وتأخير السّائلِ؛ تفاديًا لعودةِ الضّمير على المتأخِّر

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، جاء المفعولُ به مُقدَّمًا، وهو الضّميرُ العائدُ على موسى ﷺ، وأخّر الفاعلَ وهو ﴿قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ لئلّا يعودَ الضّميرُ العائدُ على متأخّرٍ لفظًا ورتبةً، ولإبراز مدى حاجتهم إلى نبيّهم، في كلّ شؤونهم، فقدّمَ المسؤولَ وأخّرَ السّائلَ.

فائدةُ إضافةِ القَوْمِ إلى الضّميرِ العائدِ ﴿قَوۡمُهُۥٓ﴾:

نِسبةُ القومِ إلى موسَى ﷺ، والنِّسبةُ إلى الشّريفِ تَشريفٌ للمَنسوبِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، أضافَ القومَ إلى الضّمير العائد على موسى ﷺ، إشارةً إلى أنّ سببَ إكرامهم لأنّهم قومُ موسى ﷺ وليس لذاتهم. كما أنّ فيه دلالةً على تشريفهم بنسبتهم إليه، فإنّ تعريفَ قومٍ بواحدٍ منهم، فيه دليل على علوّ منزلته، كما أنّه يُرادُ إفادتهم من تلك المنزلة الرّفيعة بتشريفهم، فضلًا عن دلالته على حرصه على قومه، حتّى بات منسوبًا إليهم.

إيثارُ التّعْبيرِ بلفْظِ ﴿قَوۡمُهُۥٓ﴾:

كان حَريًّا بهم الصّبرُ تأسّيًا بموسَى، ولكنّهم قومٌ يَستعْجِلون

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، وفيه عبّر عنهم بـ (قوم)؛ تنويهًا بكونهم جماعةً شديدةَ الشّكيمة، فهم يقومون قومةً واحدةً، فالتّعبيرُ" بالقوم إشارةٌ إلى تبكيتِهم، بكونهم أهلَ قُوّةٍ، ولم يتأسّوا بموسى ﷺ في الصّبرِ إلى أن يأتيَ اللّهُ الّذي أمرَهم بهذا المَسيرِ بالفَرَجِ، بل طلبُوا منه ذلك على الوجهِ المذكورِ في البقرة من إظهارِ القلقِ والدّمدَمةِ"[2]. ويُضاف إلى ذلك أنّ طلبَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/365.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.

السُّقيا كان من جميعهم؛ لأنّ حاجتَهم للماء لم تكن لفردٍ واحدٍ، بل عَطِشوا جميعًا، وفي ذلك إظهارٌ لعِظَم تلك النّعمة عليهم.

دَلالةُ الجُملةِ الواقعةِ تفسيرًا للفعْلِ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

جاء قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ تفسيرًا لفعل الإيحاء، في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ لأنّ (أنِ) تفسيريّةٌ؛ بمعنى: (أي)[1]، فالجملة جاءَت مفسِّرةً للإيحاء؛ لأنّ في فعل الإيحاء معنى القول دون حروفه[2]، ويجوز أن تكونَ مصدريّةً، "و﴿بِّعَصَاكَ﴾ جارّ ومجرور، مُتعلِّقان بـ﴿ٱضۡرِب﴾، و﴿ٱلۡحَجَرَۖ﴾ مفعول به"[3].

الأمرُ بالضّربِ بالعصَا، وَحْيُ اللهِ ومُعجزةُ السّماءِ

معنَى الباء، في قوله: ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾، دخل حرفُ الباء على (العصا)؛ للدّلالة على أنّ العصا هي آلةُ الضّرب، فالباءُ للاستعانة.

العصَا آلةُ الضّربِ الّتي ضَربَ بها الحَجرَ، بأَمْرِ ربِّ البَشرِ

فائِدةُ إضافةِ العصَا إلى الضّميرِ، بقولِه: ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

أضاف العصا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ إلى ضمير موسى عليه السلام، إشارةً إلى أنّها العصا ذاتها "الّتي جعلناها لك آيةً، وضربتَ بها البحرَ فانفلق"[4]، وهي الّتي سأله عنها، بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 17].

العصَا ذاتُها كانَتْ بها المعجزةُ، من قبلُ ومن بعدُ

سِرُّ تَقْديم شِبْه الجُملةِ على المفعول به:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾، جاء المفعولُ به مؤخَّرًا، وقُدِّم عليه شبهُ الجملة، وأصلُ الكلام: (اضرب الحجرَ بعصاك)، إشارةً إلى أنّ المعجزةَ كائنةٌ في العصا دون الحجر، كما أنّ فلقَ البحر حدث بها وهي أيضًا آيةُ إبْطالِ سِحَرِ

المعجزةُ كائنةٌ في العصَا لا في الحجَر، وذلك سِرُّ المؤثِّرِ لا الأثَرِ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/82، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.

(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/474، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/487.

(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/475.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.

السَّحَرَةِ، وإيمانهم برسالة موسى عليه السلام، فهي آلةُ ظهورِ المعجزاتِ بإذن اللّه تعالى.

معنَى (ال) الجنس في: ﴿ٱلۡحَجَرَۖ﴾:

لا فَرْقَ بين الأحجارِ، في إظهارِ آياتِ الله الكِبارِ

المرادُ بالحَجَر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ جنسُ الحجر، فـ(ال) لتعريف الجنس، فلم "يكن حجرًا معيَّنًا، بل أيُّ حجرٍ ضُرِبَ انْفَجَر منه الماء، وهذا أبلغُ في الإعجاز"[1]؛ أي: اضرِبْ أيَّ حجرٍ من جنس الأحجار، فآياتُ اللّهِ تعالى لا تتعلَّقُ بشيءٍ بعينه، فليس هناك فرقٌ بين حجرٍ وحجرٍ، ولكنّ الفرقَ يحدثُ بتسليط الضّربِ بالعصا عليه، ولذا كان قد قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِّعَصَاكَ﴾؛ لأنّ آلةَ الإعجازِ العصا، وليس الحجر.

معنَى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

أفْصَحتِ الفاءُ عنِ الفعلِ المعطوفِ عليه المحذوفِ

الفاءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، هي الفاءُ الفصيحةُ الّتي تُفصِحُ عن محذوفٍ، قال الشّهاب: "هذه الفاءُ فصيحةٌ، وحذفُ المعطوفِ عليه لعدم الإلباس، وللإشارة إلى سرعةِ الامتثالِ، حتّى كأنّ الإيحاءَ وضربَه أمرٌ واحدٌ، وأنّ الانبجاسَ وهو انفجارُ الماء بأمر اللّه، حتّى كأنّ فعلَ موسى صلى الله عليه وسلم، لا دخل له فيه"[2].

وفائدةُ العطفِ بالفاء دون الواو أيضا لما تدلُّ عليه الفاءُ منَ التّعقيب؛ للدّلالة على سرعةِ امتثالِ موسى عليه السلام، وسرعةِ الإنعامِ عليهم منَ اللّه تعالى عليهم بظهور الماء.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

الانْتِقالُ منَ الأمرِ بالضّربِ إلى أثَرِه، إيجازًا لذِكْرِ الضَّربِ

في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ إيجازٌ بالحذف؛ إذِ التّقدير: ضربَ فانبجسَت، "ونكتةُ الحذف الدّلالةُ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/366.

(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227، والطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/623، والآلوسي، روح المعاني: 5/83.

سرعة الامتثال، وظهور الأثر في الحال، وعلى أنّ المقصودَ بالأمر أثرُ الضّربِ، لا الضّربُ نفسُه، والإشارةُ إلى أنّ ترتُّبَ الانبجاسِ وإن كان في الظّاهر على ضرب موسى عليه السلام، ولكنّه في الحقيقة على أمر اللّه تعالى، وبتعليقه عليه"[1].

كما أنّ فيه مبالغةً على شدّة الامتثال لدى موسى عليه السلام؛ إذ هو "لم يتوقّف عنِ اتّباع الأمر، وأنّه مِن انتفاء الشّكّ عنه بحيث لا حاجةَ إلى الإفصاح به"[2].

بَلاغةُ التّعْبيرِ في ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

لفظُ (انْبَجس) بمعنى سالَ الماءُ قليلًا، ثمّ انْفَجرَ بقوّةٍ

الانبجاسُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ يدلُّ على الانفجار، غير أنّه أخفُّ، فهو يخرجُ كالعَرَقِ ثمّ يسيل[3]، فالانبجاسُ هو خروجُ الماء بقلّة[4]، ومجيئُه على صيغة الانفعال للدّلالة على المطاوعة - فالعيون الاثنتا عشرةَ كلُّها سالَت استجابةً للضّرب الّذي وقع على الحجر بتلك العصا.

معنَى (مِن)، في قولِه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ﴾:

خُروجُ الماءِ منَ الحَجَرِ الّذي ضُرِبَ، لا من مكانٍ غيرِه

ذَكَر أنّ الانبجاسَ في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ وقعَ منَ الحجر، "و(مِن) هنا لابتداء الغاية، والضّميرُ عائدٌ على الحجر المضروب، فانفجارُ الماء كان منَ الحجر لا منَ المكان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [البقرة: 74]"[5]؛ وذلك للدّلالة على أنّ خروجَ الماءِ كان منَ الحجر الّذي ضُرب، لا منَ الأرض، وهذا أبلغُ في الإعجاز، إذ إنّ "خروجَ الماء منَ الأرض السّهلةِ كثيرٌ معهود، ولكنّ خروجَه منَ الحجر هو أمرٌ خارقٌ للعادة"[6].

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/195.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466، وابن عادل، اللّباب: 9/352.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/369.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2981.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْه الجُملةِ على الفاعلِ:

بُدِئَ بخروجِ الماءِ مِنَ الحجر؛ لأنّه أخطرُ شأنًا من عددِ العُيونِ

قُدِّمَ شبهُ الجملة ﴿مِنۡهُ﴾ على الفاعل ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، ولم يقُل: (انبجست اثنتا عشرةَ عينًا منه)، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّنَ ضميرَ الحجرِ على العيون؛ لأنّ شأنَ الإعجاز هو في خروج الماء مِنَ الحجر، لا في كون العيون اثنتي عشرةَ عينًا.

الموقعُ النّحويُّ للفْظِ ﴿عَيۡنٗاۖ﴾:

العُيونُ الغُزَرُ، بيانٌ لِما تفجّرَ وانْبَجسَ منَ الحَجرِ

في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، نُصِبَت ﴿عَيۡنٗاۖ﴾ على التّمييز؛ لبيان العدد المذكور، فالّذي انبجسَ من ذلك الحجر كان عيونًا، فقيَّدها بكونها كذلك؛ للدّلالة على أنّها لم تكن مختلطةً، ولا ماءً واحدًا، "فإن قيل: إذا كانتِ العينُ لفظًا مشتركًا بين حقائقَ، فكيف وقعَت هنا تمييزًا؟ فالجواب: أنّ قولَه: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ﴾، وقولَه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، وقولَه: ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ دليلٌ على إرادة عين الماء، فاللّفظُ مع القرينة مميِّزٌ، والعَينُ منَ الماء شبيهةٌ بالعين مِنَ الحيوان؛ لخروج الماءِ منها، كخروج الدَّمع من عينِ الحيوان"[1].

الموقعُ البَيانيُّ لجُملة: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾:

فصْلُ الجملةِ عن سابقتِها، استئنافٌ بيانيٌّ بليغٌ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾، جاءَت لبيانِ شدّة تمايُزِ تلك العيون[2]، فهي "جملةُ استئنافٍ تدلُّ على أنّ كلَّ سبطٍ منهم قد صار له مشربٌ يعرفُه، فلا يتعدّاه لمشربِ غيره، وكأنّه تفسيرٌ لحكمة الانقسام إلى اثنتي عشرةَ عينًا، وتنبيهٌ عليها"[3]. وفصلُ الجملة عن سابقتها؛ لأنّها جاءَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّر: (هل عَلِمَ كلُّ قوم مشربَهم من هذه العيون؟)، فهي استئنافٌ بيانيٌّ أو ما يُسمّى بشبهِ كَمَالِ الاتّصال.

(1) ابن عادل، اللّباب: 2/108.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/370 - 371.

فائِدةُ دُخولِ ﴿قَدْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، افتتح الجملةَ بـ (قد) الدّالّة على التحقيق؛ للدّلالة على تحقّق العلم بمكان الشُّربِ، وأنّ معرفتَهم بمشربهم كانت سابقةً لانبجاسه، وذلك رحمة بهم؛ حتّى لا يقع بينهم منَ التّعدّي والتّباغضِ، مع "ما فيه منِ استقرار أمورِهم، واطمئنان نفوسِهم، وعدم تعدِّي بعضهم على بعض"[1].

مَكانُ شُرْبِ كلِّ قبيلةٍ منهم معروفٌ لدَيْهم ابْتِداءً

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُنَاسٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، جاء لفظ (أُناسٍ) نكرةً، إفادةً للتّكثير، والمرادُ بهم الأسباط، والتّعبيرُ عنهم بذلك "إيذانًا بكثرة كلّ واحدٍ منَ الأسباط"[2]، ويَؤولُ ذلك إلى عظيم الإنعام عليهم، بتقطيعِهم وتقسيمِهم على حسب الأسباط، فهم - على كثرتهم - لا يختلِطُ عليهم مكانُ شُربِهم، ولا يتدافعون دونه.

كلُّ سِبْطٍ منهم كان أمّةً كبيرةً، كثيرةَ العددِ، ممّا يُوحي به التّنكيرُ

معنَى ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ وبناؤُها الصّرفيُّ:

قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ جاء قوله: ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ على وزن (مَفعَل) منَ الشّراب، وهذا الوزنُ يَصلحُ أن يكونَ للمصدر والزّمان والمكان[3]، وفي هذا الموضع يُرادُ به اسمُ المكان بمعنى "موضع الشّرب، والعلمُ بموضع الشّرب كنايةٌ عن عدم التّجاوزِ عنه، كما يُقال: فلانٌ يعرفُ حدَّه؛ أي: لا يتجاوز عنه، ففي الكلام إيجازٌ بليغٌ؛ حيث دلَّ على سبق التّعيين والتّخصيص"[4].

عُيِّنَ لكلِّ سِبْطٍ منهم مكانٌ لشُرْبِهم، فلا يتجاوزُه لغيره

فائِدةُ إضافةِ المشرَبِ إليهم:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، أضاف المَشرب

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/399.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/624.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/354.

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/196.

غَرَضُ اختصاصِ كلِّ قبيلةٍ بمَشرَبٍ خاصٍّ بهم

إليهم؛ دلالةً على أنّهم علموا عينَهم الخاصّةَ بهم[1]، فلمّا "أباحَ لكلّ سبطٍ منَ الأسباط ذلك الماء الّذي ظهر من ذلك الشّقّ الّذي يليه، صار ذلك كالمِلْكِ لهم، وجازت إضافتُه إليهم"[2]، وفي هذا دلالةٌ على مدى إنعام اللّه تعالى عليهم.

دَلالةُ عطْفِ ﴿وَظَلَّلۡنَا﴾ على ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

معنَى الإنعامِ عليهم بالظِّلالِ، بعدَ الإنْعامِ عليهم بسُقْيا الماءِ

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ عطفَ الإنعامَ عليهم بالتّظليل بالغمام على انبجاس الماء، إذ عَطِشوا وطلبوا السُّقيا من موسى عليه السلام، فلمّا ذكرَ "تبريدَ الأكبادِ بالماء، أتبعَهُ تبريدَها بالظِّلِّ فقال: ﴿وَظَلَّلۡنَا﴾؛ أي: في التِّيهِ، ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾؛ أي: لئلّا يتأذَّوا بالشّمس"[3].

فائِدةُ تَعْديةِ الفعْلِ ﴿وَظَلَّلۡنَا﴾ بـ(على):

الـغَـمـامُ لا يتعلّقُ بالمكان، بـل يـتـعـلّـقُ بـهـم، يـتـحـرّكُ بـحـركـتِـهـم، كمُعجزةٍ ظاهرةٍ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾، جاء فعلُ التّظليل متعدّيًا بالحرف (على)؛ ليدلَّ على التّمكُّنِ في الاستعلاء عليهم؛ "أي: جعلنا ذلك بحيث يُلقِي عليهم ظِلَّهُ لِيقيَهم من حرِّ الشّمسِ، وكان يسيرُ بسَيْرِهم، ويسكُنُ بإقامتهم"[4]، فهو ظلٌّ مستقرٌّ عليهم، جُعِلَ فوقهم لا يفارقهم، فالغمامُ لا يتعلّقُ بالمكان، بل تعلّقَ بهم، يتحرّكُ بحركتهم. ويمكن أن يكون الفعلُ ﴿وَظَلَّلۡنَا﴾ مُضَمَّنًا الفعلَ (أنعمنا) الّذي يتعدّى بـ(على)، فتكون بلاغةُ التّضمين في قوّة الفعلَيْن؛ أي: أنعمنا عليهم الغمامَ مُظَلِّلًا لهم.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُملةِ على المفعولِ:

كونُ الغمامِ الّذي يُظلّلُهم، نِعمةً اختَصّهمُ الله تعالى بها

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ على المفعول به، ولم يَقُلْ: (وظلّلنا الغمام عليهم)؛ اهتمامًا بشأنهم،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/530.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/83.

وتخصيصًا لهذا الغمام بهم، فهو عليهم وحَسْب، ولا يصلُ إلى غيرهم، وفي هذا تسجيلٌ عليهم بالامتنان.

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡغَمَامَ﴾:

غَرَضُ جعْلِ جِنْسِ الغمامِ ظِلًّا لهم في السِّياقِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَامَ﴾، دخلتِ اللّامُ على الغمام للدّلالة على جنس الغمام، فليس المرادُ أنّ ما ظلّلهُم هو غَمامةٌ معهودةٌ، بل نوعُ الغمام وجنسُه، صار ظلًّا لهم، فكأنّ وظيفةَ الغمام تغيّرَت، وأُضِيفَ إليها أن يكون ظلًّا لهؤلاء القوم، وهذا يُسْفِرُ عن عظيم آلاء اللّه تعالى عليهم؛ إذ جَعلَ الغمامَ ظِلًّا لهم، والأصل به أن يأتي بالسُّقيا! وجعلَ الحَجرَ المُصْمَتَ مصدرًا لرِيِّهم وسَقْيِهم، والأصلُ أن يُبنَى منه ما يُظِلُّهم، ولم يجعلِ الغمامَ هو ما يأتيهم بالماء؛ لأنّ المطرَ لم يكن ليسقيهم؛ ثَمّ إذ لا تمسكه الرّمال.

فائِدةُ العطْفِ بالواو، في: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾:

جمَعَ لهم منَ النِّعَمِ ما يَحفظُ وُجودَهم، وقايةً منَ الشّمسِ، ووفْرةً للزّادِ

عطفَ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰٓ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَامَ﴾، فَعطَفَ الإنعامَ عليهم بالطّعام، على الإنعام عليهم بتظليلِهم بالغَمام؛ إذ كلاهما منَ النِّعمِ العظيمةِ الّتي لولاها لهلك بنو إسرائيل في تلك الأرض، ولم يَعطف بالفاء؛ لأنّ ترتيبَ إيجادِ النّعم ليس مرادًا هنا، بل مُطلَق ذِكْرِها وجمعِها.

نُكتةُ تَعْدِيةِ فعْلِ ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ بـ(على):

أنْعمَ عليهم بالمنِّ والسّلْوَى، على وجهِ الوَفْرةِ والكِفايةِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰٓ﴾، جعل فعلَ الإنزال متعدّيًا بـ (على)، ولم يقُل: (أنزلنا لهم)؛ للدّلالة على الإنعام بذلك التّنزيل، فكأنّه تضمّن معنى (أنعمنا). كما أنّه يدلُّ على تمكّن هذه النّعمة منهم، بحيث إنّها وافرةٌ كافيةٌ.

بَلاغةُ تَقْديم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المفعول:

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ

﴿وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ على المفعول به، وهو قوله: ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، ولم يقُل: (وأنزلنا المنّ والسّلوى عليهم)؛ لأنّ هذا الطّعامَ كان خاصًّا بهم، دون غيرهم، واهتمامًا بشأنهم.

اختصّهمُ الله تعالى بهذا الغِذاء المتميِّز؛ وهو (المنُّ والسّلْوَى)

نُكتةُ تَقْديمِ ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ على ﴿ٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، قُدّم ذكرُ المنّ على السّلوى؛ لأنّ الامتنانَ به أكثرُ منَ السّلوى؛ لِما أنّه ينزلُ منَ السّماء، ويجدونه صالحًا للأكل بلا عملٍ منهم لإنضاجه، والسّلوى طائرٌ يحوجُهم العملُ لإنضاجه.

المِنّةُ بالمَنّ أظْهرُ، فكان بالتّقديم أجْدرَ

دَلالةُ فعْلِ الأمْرِ ﴿كُلُواْ﴾ في الآيةِ:

جاء فعلُ الأمر في قوله جلّ شأنُه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ دالًّا على الإباحة والإذن[1]. ويُضاف إلى ذلك أنّ الأكلَ منَ الضّروريّات، فلا يحتاجُ فيه إلى الإذن والإباحة، ولكن جاء فعلُ الأمرِ الدّالّ على الإباحة؛ للإشعار بهذه النّعمة والتّذكير بها، وإظهار الامتنان عليهم.

إباحةُ الأكلِ وهو مُباحٌ؛ للإشعارِ بالنِّعمةِ في الغُدوِّ والرَّواحِ

معنَى (مِن) في: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾، جاءَت (مِن) للدّلالة على التّبعيض؛ لأنّ المنَّ والسّلوى مِن بعض الطّيّبات[2]، ويجوز أن تكونَ بيانيّةً، والمعنى "كُلُوا طيّبات ما رزقناكم، والمغزى وصفُها، بأنّها طيّبةٌ كلّها، و(مِن) البيانيّة دالّة على كمال طيبها، وكمال الإنعام بها"[3].

المباحُ لهم أكْلُه، هو ما كان منَ الطّيّباتِ

معنَى ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ ودلالةُ جمْعِها وإضافَتِها:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ وصف ما أباحه لهم أكله

نِعَمُ الله جمْعًا وإفرادًا، لا نهايةَ لعطائِه بها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/346.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/347.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2982.

بأنّه طيّبٌ؛ أي: المستلذّ منَ الأكل[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الحرامَ ليس طيّبًا. وجَمَعَها للدّلالة على أنّ الحالَ الطّيّبَ كثيرٌ وفيرٌ، وأنّ فيه غِنًى، وأضافها إلى الرّزق إشارة إلى أنّ الطّيّبَ يُشترطُ أن يكون حلالًا ممّا رزقكم اللّه، وليس ممّا يُؤخَذُ بالتّعدّي والسّرقة والغصب.

معنَى (ما)، في: ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾:

كلُّ رِزْقٍ منَ الطّيّباتِ مأمورٌ بأكْلِه في كلِّ الحالاتِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾: يَحْتَمِلُ أن تكونَ (ما) مصدريّةً، بمعنى: طيّبات رزقكم، ويَحتمِلُ أن تكونَ موصولةً، بمعنى: من طيّبات الّذي رُزقتم به، وهي في كلتا الحالين تدلُّ على المنِّ والسَّلوى[2]، والتّعبيرُ عن ذلك بهذا الأسلوب دون أن يقولَ: (كلوا منه) تصريحًا بكونه رزقًا منَ اللّه تعالى.

سِرُّ التّعْبيرِ بِصِيغةِ التّعظيمِ، في: ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾:

اللّهُ وحدَهُ رَزَقَهم ذلك الرِّزقَ العظيمَ؛ لأنّه خارجٌ عنِ المعْهودِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾، أسند الرّزقَ إلى ضمير الجمع الدّالّ على التّعظيم؛ أي: رزقناكم إيّاه "بصفة العظمةِ القاهرةِ، لَمَا نريد ممّا لم تعالجوه نوع معالجة"[3].

والتّعبيرُ عن ذلك بهذا الأسلوب دون أن يقولَ: (كلوا ممّا رُزقتم)؛ تصريحًا بكونه رزقًا منَ اللّه تعالى أتاكم، بما لنا منَ العظمة، فهو رزقٌ عظيمُ الشّأن، وكان كذلك، لأنّهم لم يبذلوا عليه جهدًا، فهو رزقٌ عظيمٌ.

بَلاغةُ تَرتيبِ ذكْرِ النِّعَمِ:

رُتِّبتِ النِّعمُ المذكورةُ حسبَ الأهميّةِ والأولويّةِ في حياةِ النّاسِ

جاءتِ النّعمُ مذكورةً بهذا التّرتيب: فذَكر أوّلًا نعمةَ الماء؛ لتعلُّقها بما جاء في أوّل الآيةِ منَ التّقطيع المذكور، فمن فوائد التّقسيم أن لا يقعَ بينهم خلافٌ؛ لأنّ الماءَ يأخذونه من مكانٍ محدّدٍ، بخلاف المنّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.

والسّلوى فهو لا يتعلَّقُ بحجرٍ، ثمّ ذكر تبريدَهم من حرارة الشّمس؛ لتعلّقه بالماء والحرّ، ثمّ أتبعه بالطّعام، وهو يأتي بعدَ العطش، في قدرة الإنسانِ على البقاء حيًّا أطول زمان دونه.

دَلالةُ واوِ العطْفِ، في: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾:

كُفرانُ النِّعمةِ ظُلْمٌ يَعودُ على صاحبِه، ولا يَطالُ المُنْعِمَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، عَطفَ بالواو الفصيحة؛ الّتي تُفصحُ عن وجودِ محذوفٍ، فالمعطوفُ عليه مُقدَّرٌ؛ "أي: فظَلَموا بِكُفْرانهم هذه النِّعم، وما ظلمونا، فالواو فصيحة"[1]. ويمكن أن تكون واوًا للحال على معنى: فَظَلَموا بِكُفْرانهم هذه النّعم أنفسَهم فقط، والحال أنّهم ما ظلمونا.

دَلالةُ (ما) على ضميرِ العظَمةِ، ونفْيِ وُقوعِ الظّلْمِ:

عَظَمةُ الله أعلَى وأجلُّ من ظلْمِ الظّالمين

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، عُبِّرَ بـ (ما) النّافية؛ للدّلالة على أنّهم لم يظلموا المتّصفَ بالعظمة، والتّعبيرُ بصيغة التّعظيم في النّفي يدلُّ على انتفاء قدرتِهم على إيقاع الظّلم على العظيم ﷻ، فإنّ عظمتَه لا يمكن أن يَضرَّها شيءٌ من ظُلمِكم، كما أنّ أعمالَ الصّالحين لا تنفعُه ﷻ، فهو الغنيُّ عن عباده.

معنَى الواوِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الغَرَضُ من عطْفِ حُكمٍ مُثبَتٍ، على حُكْمٍ مَنفيٍّ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾[2]، فعطفَت الآيةُ حكمًا مثبتًا على حكم منفيٍّ؛ وذلك لأنّ الواو جاءَت مع (لكن) الاستدراكيّة، الّتي تقع بين نقيضين. ويمكن أيضًا أن تكونَ واوًا للحال كما تقدّم.

معنَى الحرفِ ﴿وَلَٰكِن﴾، في الآيةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، جاءَت هذه الجملةُ بعد الجملة الّتي نفى فيها وقوعَ الظّلم، فَتَشَوَّفَتِ النّفسُ إلى

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/189.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/437.

ذكر مَن وقع به الظّلم، واتّصل به ضررُه، فاستدرك على الجملة المنفيّةِ، بإثبات وقوع الظّلم على أنفسهم[1]، فوقعَت (لكن) هنا موقعًا على أحسن ما يكون؛ "لأنّه تقدّم قبلها نفيٌ، وجاء بعدها إيجابٌ.. لأنّ الاستدراكَ الحاصلَ بها، إنّما يكون يدلُّ عليه ما قبلها بوجهٍ ما، وذلك أنّه لمّا تقرّر أنّه قد وقع منهم ظلمٌ، فلمّا نُفي ذلك الظّلم أن يصلَ إلى الله تعالى، بقيتِ النّفسُ متشوِّفةً ومتطلِّعةً إلى ذِكر مَن وقع به الظّلم، فاستدرك بأنّ ذلك الظّلمَ الحاصلَ منهم، إنّما كان واقعًا بهم"[2].

إثبـاتُ وُقـوعِ الـظّـلـمِ على الجهةِ الّتي صَدرَ منها الظّلْمُ

نُكتةُ دُخولِ ﴿كَانُوٓاْ﴾، في الآيةِ:

عبّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ عن ظُلمِهِمْ أنفسَهم مصدَّرًا بالفعل (كان)؛ للدّلالة على رسوخ ذلك الظّلم فيهم، فهو جِبِلّةٌ وطبعٌ فيهم[3]، فقوله: ﴿كَانُوٓاْ﴾ مُشعِرٌ "بأنّ ذلك من شأنهم ومن طريقتهم، ولأنّها أيضًا تكون في كثير مِنَ المواضع تُستعمَلُ حيث يكون المسنَدُ لا ينقطعُ عنِ المسنَدِ إليه، نحو قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: 40]؛ فكان المعنى: ولكن لم يزالوا ظالمي أنفسِهم بكثرة ما يصدرُ منهم مِنَ المخالفات"[4].

الـظُّـلـمُ جِـبِـلَّـةٌ فـيـهـم، وطـبـعٌ لايُفارِقُهم، رَغْمَ نِعَمِ الله عليهم

فائِدةُ تَقديمِ المفعولِ على عامِلِه:

قدَّم المفعولَ به في قوله جلّ شأنه: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، ولم يَقُل: (وكانُوا يظلمُونَ أنفُسَهُم)؛ لأنّ أثرَ ظُلْمِهِم لا يتخطّاهم[5]، فتقديمُ المفعولِ به هنا أفادَ تخصيصَ الظّلم بأنفسِهم، ومعنى الآية: "وما رَجَعَ إلينا ضَررُ ظُلمِهم بِكُفْرانِهِمُ النِّعَمَ، ولكن كانوا يَضرُّون

مَن ظَلَمَ بكُفْرانِ نِعَمِ الله لديه، رَجَعَ وَبالُ ظُلْمِهِ عليه

---

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/189.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/348.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/348.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227.

أنفسَهم، ويرجِعُ وبالُ ظُلْمِهم إليهم"[1]. وفيه اهتمامٌ بمَن وقع عليه أثرُ الظّلم، ولا سيّما وقد سبق ذِكرُ الظّلمِ في الآية.

فائدةُ مجيءِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

سِرُّ التّعبيرِ بالظّلمِ دَلالةٌ على الإصْرارِ، وعلى الاستمْرارِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، عبَّر بالظّلم الّذي هو أصلٌ لكلّ الذّنوب صغيرِها وكبيرِها، وجَمَعَ بين الفعل الماضي والفعل المضارع "للدّلالة على تماديهم فيما هم فيه منَ الظلم والكفر"[2]. فالظّلمُ خُلُقٌ مستقرٌّ فيهم. وفيه إشارةٌ على إصرارهم على المعاصي، ومع الدّلالة على الاستمرار، فإنّ فيه دلالةً على حكاية الحال الماضية، تصويرًا لِظُلْمِهم.

بَلاغةُ المتشابِهِ اللّفظيِّ بين آيةِ الأعرافِ: (160) وآيتَي البقرةِ: (57)، و(60):

التّعبيرُ بالانبجاس هنا وبالانْفِجارِ هناك، والاختِلافُ بِضَميرَي الغَيْبَةِ والخِطابِ

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ يشابه الآيتين في سورة البقرة: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]، إلّا أنّ بينهما اختلافين:

الأوّل: عبَّر بالانبجاس هنا، وفي البقرة بالانفجار: فالانفجارُ الانشقاقُ، والانبجاسُ اسمٌ للشَّقّ الضَّيِّق، فهما مختلفان اختلافَ العامِّ والخاصِّ، ولعلّه انبجس أوّلًا، ثمّ انفجر ثانيًا، وكذا العيون:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

يظهر الماءُ منها قليلًا، ثمّ يكثرُ لدوام خروجه[1]. وعبّر بالانفجار في سورة البقرة لأنّه في سياق الذّمّ والتّوبيخ، فكان ذكرُ الإنعامِ المبالَغِ أوقعَ مع التّوبيخ، وقد يكون في كلّ سورةٍ تصويرٌ لمرحلةٍ منَ المراحل، فالأمر بدأ أوّلًا بالانبجاس، ثمّ الانفجار.

والثّاني: الاختلافُ بِضَميرَي الغَيْبَة والخِطاب، فقد جاء بضمير الغَيْبةِ في الأعراف: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ﴾، وضمير الخطابِ في البقرة: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ﴾ [البقرة: 57]؛ لأنّ ما في سورة البقرة، قصد به التَّوبيخَ، فكان الخطابُ أليقَ به[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

قطّعْناهُم ومزّقنَاهُم:

التّمزيقُ أَدلُّ على العقوبةِ؛ لأنّه لا يُؤدّي إلّا إلى التّفْتيتِ والتّخرّقِ

القَطعُ: إبانةُ بَعضِ أجزاء الجِرْم مِن بعضٍ فَصْلًا، أمّا التّمزيق فهو من (مَزَقَ)، وأصلُه يدلُّ على تَخَرُّقٍ في شَيءٍ. فالتّمزيقُ أدلُّ على العقوبة؛ لأنّه لا يؤدّي إلى التّنظيم، بل إلى التّفتيت والتَّخرُّق، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: 19]؛ أي: قطّعناهُم ومزّقناهُم في البلاد بعد اجتماعهم، فتمزيقُهم يدلُّ على تَفَرُّقِهِمْ وتَشَتُّتِهِمْ، وزَوالِ مُلكِهِم، وقَطعِ دَابِرِهِم[3].

وقد وردَ التّمزيقُ في القرآن الكريم أربعَ مرّاتٍ في آيتين، وهما قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: 7]، وقولُه جلّ شأنه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: 19]، أمّا التّقطيعُ في الآية فهو نعمةٌ أنعمها اللّهُ تعالى عليهم؛ إذ يُسهِّلُ رعايةَ أمرِهم بتقسيمِهم إلى قبائلَ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/529.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/144.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مزق).

انْبَجست وانْفَجرت:

يُقال: بَجَسَ الماء وانبَجَسَ: انفجر، لكنّ الانبجاسَ أكثرُ ما يُقال فيما يخرجُ من شيءٍ ضَيّقٍ، والانفجارُ يُستعملُ في الضَّيِّق والواسع، فالانبجاسُ أخفُّ مِنَ الانفجار[1]، فكلُّ انبجاسٍ انفجارٌ من غير عكس[2]. فالانبجاس: خروجُ الماء الجاري بقلّةٍ، والانفجارُ: خروجُه بكثرة، والجمعُ بينهما أنّ الماءَ ابتدأ بالخروج قليلًا، ثمَّ صار كثيرًا[3].

الانْبِجاسُ أَخفُّ مِنَ الانْفجارِ، فكلُّ انْبِجاسٍ انفجارٌ، لا العكسُ

ولذلك ورد قولُه تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًاۖ﴾، وفي البقرة ورد قولُه جلّ شأنه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: 60]، فعبّر في سورة الأعراف بالانبجاس؛ لأنّه كافٍ في تعنيفهم وذَمِّهم على كُفْرِهم بعد المنّ به، أمّا في سورة البقرة فعبّر بالانفجار؛ لأنّ السّياقَ في بيان إسراعهم في المُرُوقِ، والانفجارُ أنسبُ له، ليكون التّعنيفُ حينئذٍ أشدَّ[4].

الغَمامُ والسَّحابُ:

الغَمامُ من (غمّ، أو غمم)، وأَصلُه يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ، والغَمُّ: سَتْرُ الشّيء، ومنه: الغَمامُ لكونه ساترًا لضوء الشّمس[5].

يُلاحَظُ في الغَيْمِ السَّترُ، وفي السّحابِ الحركةُ وانْسِحابُه بالهواءِ

أمّا السّحابُ فهو منَ الجذر (سَحَبَ)، وأصلُه يدلُّ على جَرِّ شَيءٍ مَبسوطٍ ومَدِّهِ، تقولُ: سَحَبْتُ ذَيلِي بالأَرض سَحبًا. وسُمِّي السَّحابُ سَحابًا؛ إمّا لجرِّ الرّيح له، أو لجرّه الماء، أو لانجراره في مَرِّه[6]، فَيُلاحَظ في الغيم السّترُ، وفي السّحاب الحركةُ وانسحابُه بالهواء.

ولا شكَّ أنّ بني إسرائيل إذ كانوا في التِّيهِ، فإنّهم أحوجُ للسَّتْرِ، فكان الغمامُ نعمةً في حقّهم لا السّحاب.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/352.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غم، غمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحب).

وقد ورد الغمامُ في القرآن أربعَ مرّات، وهي قولُه تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: 57]، وقولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، وقولُه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ [الأعراف: 160]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، فيُلاحظُ أنّه في ثلاثٍ منها اقترن بالظِّلِّ، فالغمامُ والظّلُّ مترابطان، والرّابعة في سياق تشقّق السّماء يوم القيامة، ولا يناسبُه ذكر النّعمة بالسّحاب.

الأولادُ والأسباطُ:

يُفيدُ اسْتِعمالُ السِّبْطِ الدّلالةَ على الامْـتِـدادِ؛ واستُـعـمِـلَ في أولادِ يعقوبَ

قال العسكريّ: "الفرق بين السِّبط والوَلد: أنّ أكثرَ ما يُستعمَلُ السِّبطُ في ولد البنتِ، ومنه قيل للحسن والحسين رضي الله عنهما سِبْطا رسولِ اللّه ﷺ، وقد يُقال للولد سبطٌ، إلّا أنّه يفيدُ خلافَ ما يفيده؛ لأنّ قولَنا: سِبطٌ يفيدُ أنّه يمتدُّ ويطولُ. وأصلُ الكلمة منَ السُّبوط، وهو الطّولُ والامتدادُ، ومنه قيل: السَّاباط لامتداده بين الدّارين، والسَّبَطانة، ما يُرمى فيها البُنْدُق من ذلك، والسّبطُ شجرٌ سُمِّي بذلك لامتداده وطوله"[1].

فالسِّبْط كولد الولد؛ إلّا أنّه استُعمِلَ في اللّغة للدّلالة على ولد البنت عُرْفًا[2]، ويفيدُ استعمالُ السّبط الدّلالةَ على الامتداد؛ ولذا استُعمِلَ في الآية للدّلالة على أولاد يعقوبَ من إسحقَ عليهما السلام.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 271.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/174.

﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ [الأعراف: 161 - 162]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

تَبديلُ بني إسرائيلَ وظُلْمُهُمْ، رَغمَ الإنعامِ في تيهِ القَفارِ، وما في القريةِ من قرارٍ

مناسبةُ هذه الآية لَمَا قبلها أنّها قصّةٌ بعدَ قصّةٍ من قصص بني إسرائيل الّتي تبيّن إنعامَ اللّه تعالى عليهم، فلمّا "ذكر ما حَباهُم في القفَار، أتبعَه إنعامَه عليهم عندَ الوصول إلى الدّار"[1]، فقال: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، فبعد أن أنعمَ عليهم بالزّاد الوفير في التّيه، أنعمَ عليهم بالإيواء إلى قرية فيها السَّكَنُ مع الزّاد والماء، تفضّلًا منه، وتمهيدًا لحكايةِ جنايةٍ أخرى من جناياتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾: "القرية معروفة، والجمع القُرى على غير قياس؛ لأنّ ما كان على فَعلة بفتح الفاء منَ المعتلّ فجمعه ممدود، مثل ركوة وركاء، وظبية وظباء. وجاء القرى مخالفًا لبابه لا يُقاس عليه. ويُقال: قرية لغة يمانيّة"[2]. و(قرى، قري) أَصلٌ يدُلُّ على جُمَعٍ واجتِماعٍ. يُقال: قَرَيتُ الماء في الحوض؛ أي: جمعتُه، مِن ذَلِكَ القَريَةُ المِصْرُ الجامع، وكلُّ موضع يجتمعُ فيه ناس، والنّاس المجتمعون أيضًا، سُمِّيَت قَريَةً لاجتِماعِ النَّاسِ فِيها[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (قرا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (قرى، قري).

2) ﴿حِطَّةٌ﴾: (حطّ، حطط) أَصلٌ يدلُّ على إِنزَالِ الشَّيءِ مِن عُلُوٍّ، الحَطُّ: الوَضعُ، حطَّه يَحُطُّه حَطًّا فانحَطَّ، وهو وضعُ الأَحمالِ عَنِ الدَّوابِّ. وحطَّ اللّهُ عنهُ وِزرَه، في الدُّعاءِ: وضَعَه، مَثَلٌ بِذَلِكَ؛ أي: خفَّفَ اللّهُ عَن ظَهرِكَ ما أَثقلَه مِنَ الوِزْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ كلمةٌ أُمِرَ بها بنو إسرائيل، ومعناه: اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا أَوزارَنا[1]، "وقال الفرّاء: في قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: 58]، يُقال: وقولوا ما أُمرتم به: حطّة؛ أي: هي حطّة، فخالَفوا إلى كلام بالنّبطيّة، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59]"[2].

3) ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْۚ﴾: (خطأ) أصلٌ يدلُّ على تَعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهَابِ عنه، يُقالُ خَطَوتُ أَخطُو خُطوَةً، والخَطَأ مِن هَذا؛ لأَنَّهُ مُجاوَزَةُ حَدِّ الصَّوَابِ، يُقالُ أَخطَأَ إِذا تَعَدَّى الصَّوَابَ، وخَطِئَ يَخطَأُ، إذا أَذنَبَ؛ لأَنَّهُ يَترُكُ الوَجهَ الخَيرَ. والخطيئة: الإثم، وهو ضدّ الصّواب، وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمدّ وهو قليلٌ[3].

4) ﴿فَبَدَّلَ﴾: (بدل) أصلٌ يدلُّ على قيام الشّيء مقامَ الشّيءِ الذّاهبِ. يُقالُ: هذا بَدَلُ الشّيءِ وبَديلُه، بِدْل الشَّيءِ وبَدَله وبَديلُه: الخَلَف منه، الإبدالُ والتّبديلُ: جعلُ شيءٍ مكانَ آخر، والأَصلُ في التَّبدِيل تَغييرُ الشَّيءِ عَن حَالِه، والأَصلُ في الإبدال جَعلُ شَيءٍ مَكانَ شَيءٍ آخَرَ[4]، و"البَدَلُ: خَلَفٌ مِنَ الشّيء، والتّبديل: التّغيير، واستبدلتُ ثوبًا مكانَ ثوب، وأخًا مكان أخ، ونحو ذلك المبادلة"[5].

5) ﴿رِجۡزًا﴾: (رَجَز) أَصلٌ يدُلُّ على اضطِرابٍ. الرَّجَزُ: دَاءٌ يُصِيبُ الإبلَ في أَعجازِها؛ بأن تَضطَرِبَ رِجلُ البَعِيرِ أو فَخِذَاهُ إذا أراد القِيامَ أو ثارَ ساعَةً ثُمَّ تَنبَسِطَ. الرِّجْزُ: القَذَرُ، مثل الرِّجْسِ. والرِّجْزُ: العَذَابُ[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزًا﴾؛ "والرِّجْزُ إنّما يُطلَقُ على العذاب الموجبِ للاضطراب، يُقال ارتجز إذا ارتعش"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حطّ، حطط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حط).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (خطأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بدل).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (بدل).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خطأ).
(7) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

وقيل: "إنّ معاذًا أصابه الطّاعون، فقال عمرو بن العاص: لا أراه إلّا رِجْزًا أو طُوفانًا، فقال معاذ: ليس بِرِجْزٍ ولا طُوفانٍ. قد جاء ذكرُ الرّجْزِ مكرّرًا في غير مَوضِع، وهو بكسر الرّاء: العذاب والإثم والذّنْب. ورِجْزُ الشّيطان: وَساوِسُه"[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

الأمرُ بسُكنَى إيليَا والتّمتُّع والسُّجودِ، وما نـزلَ من رِجْـزٍ بسببِ تبديل العهودِ

يخبرُ اللّهُ تعالى عن قِصّةٍ من قَصص بني إسرائيل، إذ قال اللّهُ لهم: ادخلوا هذه القريةَ الّتي قيل: إنّها (إيلياء)، وهي قريةٌ كثيرةُ الأشجار، غزيرةُ الثّمار، رغيدةُ العيش، وكلوا من ثمارها من أيِّ مكانٍ، وفي أيِّ وقتٍ شئتم، وقولوا: يا ربَّنا، حُطَّ عنا خطايانا، وادخلوا البابَ خاضعين لربّكم، مستكينين لعزّته، شاكرين لنعمته. فأمرهم بالخضوع، وسؤالِ المغفرة، ووَعَدَهُم على ذلك مغفرةَ ذنوبهم، والثّوابَ العاجلَ والآجلَ، فلم يمتثلوا هذا الأمرَ الإلهيَّ، بل عَصَوا اللّه، واستهانوا بأمره، فغَيَّر الظالمون منهم القولَ الّذي أُمِرُوا به، فقالوا: حَبَّة في شعيرة، عِوَضًا عمّا أُمِرُوا به من طلب المغفرةِ، وغيّروا الفعلَ الّذي أُمِرُوا به، فدخلوا يزحفون على أدبارهم بدلًا منَ الدّخول خاضعين للّه، فأرسلنا عليهم عذابًا منَ السّماء، وما ظلمهم اللّه بعقابه؛ إنّما كان ذلك بسبب خروجهم من طاعة اللّه إلى معصيته، من غير ضرورةٍ ألجأتهم، ولا داعٍ دعاهم سوى الخُبث والشّرّ الّذي كان كامنًا في نفوسهم[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾:

غَـرَضُ (الـواو) في الآيةِ، عطْفُ الـقِـصّـةِ على القِصّةِ

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾: افتتح بالواو

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 2/200.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 306، وجماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/171.

الاستئنافيّة[1]؛ للشّروع في قصّةٍ جديدةٍ عن أسلافهم، فلمّا ذكرَ إنعامَه عليهم، وهم في البَرِّ والقَفَارِ، أتبعَه بإنعامه عليهم بِدُخولهِمُ الحواضرَ؛ ليكون دليلًا على صدقِه، إذ يخبرُهم بما لم يكن حاضرَهُ ولا أخذَه عنهم[2]، فهو "تذكيرٌ بنعمةٍ أخرى مُكّنوا منها، فما أَحسنوا قَبولَها ولا رَعَوْها حَقَّ رِعايتها"[3]، فهذه الواو هي من باب عطفِ القصّةِ على القصّة.

معنَى (إذْ) وموقِعُها الإعرابيُّ، في قوله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾:

الزَّمنُ في القِصّةِ القُرآنيّةِ تتعلّقُ بـه الأحـداث، وحـركـةُ الشَّخصيّاتِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، عبّر عن زمان القصّة بالظّرف (إذْ) الدّالِّ على الزّمان الماضي، وهو منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، خُوطب به النّبيُّ ﷺ؛ أي: اذكُر لهم وقتَ قولِه تعالى لأسلافهم اسكنوا[4]؛ المعنى: واذكر "إذ قيل لهم"[5].

نُكتةُ بناءِ الفعْلِ ﴿قِيلَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

غَـرَضُ السِّياقِ بيـانُ الـسُّقوطِ في الـكُـفْـرِ، والإعـراضِ عـنِ الشُّكْرِ

جاء الفعلُ ﴿قِيلَ﴾، في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ﴾، مبنيًّا للمفعول، وحُذِفَ الفاعلُ، فلم يقُل: (قلنا)، كما في سورة البقرة؛ لأنّ الفاعلَ معلومٌ[6]، فأوجزَ العبارةَ بحذفه. وإيراد الفعل "مبنيًّا للمفعول جَرْيًا على سَنَنِ الكبرياء، مع الإيذان بأنّ الفاعلَ غنيٌّ عنِ التّصريح"[7].كما أنّ فيه إعراضًا عن إكرامهم بخطاب اللّهِ تعالى لهم؛ لأنّ "السّياقَ للغضبِ عليهم تساقطهم في الكفر، وإعراضهم عنِ الشّكر، من أيّ قائلٍ كان، وبأيِّ صيغةٍ وردَ القولُ، وعلى أيِّ حالةٍ كان"[8].

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 3/648.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/512.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/210.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(6) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 5/83.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.

غَرَضُ السِّياقِ تَحديدُ الجِهةِ المقصودةِ بالأمْرِ في الآيةِ الكريمةِ

معنَى اللّامِ في ﴿لَهُمُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، جاء الفعلُ (قال) مُتعلِّقًا باللّام؛ للدّلالة على التّعليل في إيصال القولِ لهم؛ لبيان أنّهم هم المقصودُون بالقول، وأنّه قولٌ اختصَّهم به، فأفادتِ اللّامُ أنّ القولَ هذا مُخصّصٌ لجهةٍ معيّنةٍ، كما أنّه مُشعِرٌ بتأكيد مضمونِ المقولِ.

المُتحَدَّثُ عنهم أسلافُ اليهودِ الّذين شَهِدُوا التِّيهَ

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ ﴿لَهُمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، وفيه أنّ المرادَ بالضّمير الغائب في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾، اليهودُ الّذين عاشوا في التّيه، وهم أسلافُ المعاصرين للنّبيّ ﷺ؛ "أي: اذكر لهم وقتَ قولنا لأسلافهم"[1].

التَّصريحُ بأنّ القولَ قد وُجِّهَ إليهم، وقد بلَغهم، فكان حُجّةً عليهم

فائِدةُ التّصْريحِ بالمَقُولِ له:

في قوله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ صرّح بالمقول له، ولم يقُل: (وإذ قيل اسكنوا هذه القرية)؛ تأكيدًا لوصول القول إليهم، وأنّهم قد سمعوا القولَ، فانتفَت أسبابُ عدم استجابتِهم، كما أنّه يدلُّ على أنّهم هم المقصودُ بالمقول، وأنّ القائلَ قد واجههم بهذا المقول، وفيه إشارةٌ إلى أنّ مثلَ هذا القول، لم يُقَلْ لغيرهم، وهو التّصريحُ لهم بالإذن في السّكن في القرية.

أمرُهُم بالاستِقرارِ في القَريةِ، هو رِفقٌ منَ الله، وتَلطُّفٌ بهم

فائِدةُ التّعْبيرِ بفعْلِ الأمْرِ ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾:

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ﴾ عن أمرهم بالدّخول إلى الأرض المقدّسةِ بفعل الأمر الدّالّ على الوجوب﴿ٱسۡكُنُواْ﴾؛ للدّلالة على أنّ المطلوبَ منهم ليس مجرّدَ الدّخول، بل الإقامةَ في هذه الأرض، واتّخاذها سكنًا؛ "أي: ادخلوا مُطمئنِّينَ على وجه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/83.

الإقامة، ولا يُسمّى ساكنًا إلّا بعد التّوطُّنِ، بخلاف الدّخول، فإنّه يكون بمجرّد الولوجِ في الشّيء على أيّ وجهٍ كان"[1].

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ المؤنّثِ القريب ﴿هَٰذِهِ﴾:

الإشـارةُ دَلالـةٌ عـلى الـقُـرْبِ والـتّـعـظـيـمِ، والقُدسُ جديرةٌ بذلك

جاء اسمُ الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، بصيغة المؤنّث القريب؛ للدّلالة على أنّ القريةَ كانت قريبةً منهم، وضمن قدرتهم لدخولها، والقريةُ المشارُ إليها هنا بيتُ المَقدِسِ[2].

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾:

الأمـرُ بسُكنَى القريةِ، دَعـوةٌ لـلـتّـحـضُّـرِ والتّطوُّرِ

جاء في الآية لفظُ ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ معرَّفًا بالألف واللّام، والمرادُ بها قريةٌ معروفةٌ لهم، حاضرةٌ في أذهانهم، "وهي بيتُ المقدِسِ، وقيل: أريحا، وهي قريةُ الجبّارين"[3]، فهي لام العهد، والمعنى: أنّه "دعاهم اللّهُ سبحانه أن يدخلوا القريةَ، وأن يسكنوها، حتّى ينتقلوا منَ الصّحراء الجديب، إلى حياة الاستقرار والسّكن، وأن يَنْعَموا بما تُخرجُ أرضُها من جنّاتٍ وزروعٍ"[4].

دَلالةُ العطْفِ في فعْلِ الأمْرِ، من: ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾ ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾:

الأكْلُ والسُّكنَى مُقترنانِ في زمنٍ واحـدٍ، للتّلازمِ بينَهما عادةً

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾؛ لاشتراكهما في زمانٍ واحدٍ، وإنّما عطف "(كلوا) على (اسكنوا) بالواو؛ لمقارنتهما زمانًا، بخلاف الدّخولِ، فإنّه مُقدَّمٌ على الأكل"[5]. والسَّكَنُ هو الاستقرارُ والمكوثُ في المكان بنيَّة العُمْران، ممّا يقتضي الأكلَ من ثمرات المكانِ، وجهد الإنسانِ، وعطاء الرّحمنِ، وبالتّالي فإنّ العطفَ بين الأمر بالسّكن،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/501.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

والأمر بالأكل، ممّا تتطلّبه الفطرةُ، ومستلزماتُ الحياة، وضروراتُ الواقع المعيش.

صرّحَ بالإذْنِ إرضاءً لنفوسِهم، الّتي تَتوقُ إلى هذا الأمرِ

دَلالةُ الأمْرِ، في قوله: ﴿وَكُلُواْ﴾:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، جاء الفعلُ بصيغة الأمر للإباحة؛ أي: "أبحنا لكم، ووسّعنا عليكم"[1]؛ لأنّ الإنعامَ بالشّيء على وجه الإباحةِ أقربُ إلى رضى النّفس، ومتى تحوّل إلى كونه واجبًا، كان على النّفس ثقيلًا، وشيكًا أن يؤولَ إلى الملل.

معنَى (من) في قولِه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾:

التّنبيهُ على عِظَمِ الإنْعامِ، بكوْنِ المأكولِ منها، وليس مَجلوبًا إليها

جاء حرفُ الجرّ (مِنْ)، في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، صالحًا لأن يكونَ دالًّا على التّبعيض أو البيان؛ أي: كلوا "مِن مطاعمِها وثمارِها، على أنّ (من) تبعيضيَّةٌ، أو (منها) على أنّها ابتدائيَّةٌ"[2]، وفي شبه الجملة ﴿مِنۡهَا﴾ تنبيهٌ على عِظم الإنعام؛ فهذه القريةُ ليست صالحةً للسّكن وحسب، بل فيها وفرةٌ منَ الطّعام والغذاء بما يكفي، ولو قال: (اسكُنُوا هذه القريةَ وكُلُوا حيثُ شئْتُم) لم يكن هناك دليلٌ على أنّ المأكولَ كائنٌ منها، ولو قال: (كُلُوا فِيهَا) لدلّ على أنّ المأكولَ ليس من ثمارها، وكلُّ ذلك إشارةٌ إلى جودةِ هذه القرية، ووفرةِ الخير فيها.

فائِدةُ الإظْهارِ في مَوضعِ الإضْمارِ:

اخْتيارُ الله لمكانِ السّكنِ، فيه مطلَقُ النِّعمةِ والهناءةِ

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، ذكر القريةَ مرتين، وذلك بإعادة ذكر الضمير في شبه الجملة، ولو قال: (وكُلُوا حَيثُ شِئتُم) لصحَّ المعنى؛ ولكنّه أراد التّصريحَ بأنّ القريةَ فيها منَ الخير الوفير ما يكفيهم، فالمأكولُ فيه هو القريةُ، والمأكولُ منه هو القريةُ ذاتُها، وهي نفسُها مكان سكناهم، فدلّ ذلك على عظيم النّعمة بهذا المكان الّذي أُذِنَ لهم بأن يسكنوا فيه.

---

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/190.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

فائِدةُ تَقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿مِنۡهَا﴾:

الخيرُ في القريةِ نِعمةٌ، مُقدَّمةٌ على الأَكْلِ، تَقدُّمَ السّببِ على النّتيجةِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، قَدَّم شبهَ الجملة ﴿مِنۡهَا﴾؛ اهتمامًا بكون المأكول ناشئًا في هذه القرية، فقدَّمَه اهتمامًا به، إشارة إلى حُسن هذه القريةِ وجودتها؛ لاحتوائها على الغذاء الوافي لساكنها، وهذا مُشعِرٌ بعِظَمِ الإنعامِ فقدّمه على قوله: ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، المُشعِرِ بالرَّغَد والراحة؛ لأنّه مِن أسبابه؛ إذ لن يتحقّقَ الأكلُ حيث شاؤوا ما لم تتحقّقِ الوفرة.

معنَى قولِه: ﴿حَيۡثُ﴾:

كلُّ مكانٍ في القريةِ مُتاحٌ لكم، والمشيئةُ مَفتوحةٌ على الاخْتِيارِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، عبّر عن تمكينهم من هذه القرية بإباحة الأكل منها أوّلًا، ثمّ بإباحة الاختيار بالأكل في كلّ مكان فيها؛ والمعنى: "أيّ مكانٍ للنّبت شئتم، ممّا تُنبتُ الأرضُ، من طعامٍ مختلف ألوانُه"[1]، فـ (حيث) تدلُّ على المكان، فيكون المباحُ لهم جميعَ أماكن القرية، وفي ذلك إشعارٌ بمزيدِ الإكرامِ، وعظيمِ الإنعامِ.

فائِدةُ قولِه: ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، دَلالةً وغايةً:

إباحةُ المكانِ على حسبِ مَشيئتِهم، فيه تَنبيهٌ لهم على جليلِ هذه النِّعَمِ

أفادَ التّعبيرُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ الدّلالةَ على سعة الإباحة؛ أي: هي ونِعَمُها مباحةٌ لكم[2]، "من غير أن يزاحمَكم فيها أحدٌ؛ فإنّ الأكلَ المستمرَّ على هذا الوجه، لا يكون إلّا رغدًا واسعًا"[3]، فإباحةُ الأكل بتعليقه بمشيئتهم، وإنْ كان مثلُ ذلك لا يحتاجُ إلى إذنٍ، هو من قبيل التّنبيهِ لهم على هذه النّعم الجليلة.

دَلالةُ العطْفِ، في قولِه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾:

شُكرُ النِّعمةِ، يَبدأُ بطلَبِ المغفرةِ مِنَ المُنعِمِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ معطوفٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2983.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

على قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[1]، فعطف الدّعاءَ بالمغفرة على إباحة السّكن والأكل؛ لأنّه أوّلُ مراتبِ الشّكرِ لهذه النّعم.

دَلالةُ الأمرِ في: ﴿وَقُولُواْ﴾:

أوجبَ عليهمُ الاستغفارَ؛ إشعارًا بأنّ إنْعامَه ليس اسْتِحقاقًا لهم

جاء فعلُ الأمر في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا﴾، دالًّا على الوجوب؛ لكونه مُتعلِّقًا بأمر العبادة والشّكر، فطلبُ المغفرة واجبٌ، على كلّ مؤمنٍ، فَدَلَّ الفعلُ على وجوب أن يقولوا ما لقَّنهم به، وإنّما ذكره دون غيره منَ الأوامر الّتي أوجبها عليهم؛ لأنّه يعدّدُ عليهم ما عصوا اللّه تعالى به، وهو المنعمُ عليهم بتلك النّعم الجليلة، وليس السّياقُ في استقراء كلِّ ما أمرهم به، وما أوجبه عليهم، بل هو تذكيرٌ لمعاصري النّبيّ ﷺ، بما فعل أسلافُهم.

نُكتةُ حذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾:

مَقولُ القَوْلِ تَضمّنَ الدّعاءَ بالمغفرة، وهو لا يُوجَّهُ إلّا لله

في قولِهِ جلّ شأنه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ جاء فعلُ القول مُطلَقًا، لا أن يكون موجّهًا لمقولٍ له؛ لأنّه ظاهرٌ منَ السّياق أنّ المقولَ له هو اللّه تعالى، إذ تضمّنَ مقولُ القولِ الدّعاءَ بمغفرة الذّنوب، ولا يكون ذلك إلّا للّه تعالى، فالقولُ هنا تلقينٌ لهم، بأن يقولوا مضمونَه في دعائهم؛ تعليمًا لهم، ووقفًا لهم على وجوب الامتثال، وترويضًا لهم، فالحذفُ للإيجاز.

بَلاغةُ التّعْبيرِ بـ﴿حِطَّةٌ﴾:

في لفظِ (حطّة) دَلالـةٌ على ثِقلِ الذّنوبِ وعِبئِها

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، عبّر عنِ الاستغفار بقوله: ﴿حِطَّةٌ﴾، وهي على وزن "فِعلة منَ الحَطّ كالجِلسة"[2]، والمعنى: "حُطَّ ذنوبَنا وامْحُها بعفوك عنّا"[3]، وفي التّعبير بالحِطَّة إشعارٌ بأنّ الذّنوبَ تُثْقِل صاحبَها، والتّوجهُ إلى اللّه تعالى، بأن يحطَّ هذه الذّنوب، هو إقرارٌ بها أوّلًا، ثمّ بيانٌ للنّدم ثانيًا؛ إذ ثقلُها دليلٌ على

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/211.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/191.

لوم النّفس على المعاصي، واعترافٌ بعظمةِ اللّه تعالى وإعلانُ الخوفِ منه، فجاءَت هذه اللّفظةُ غاية في البلاغة.

دَلالةُ إعرابِ لَفْظِ ﴿حِطَّةٌ﴾:

الإيجازُ بذِكْرِ اللّفظِ مكانَ الجُملةِ، من آثَرِ البلاغةِ وأرْوَعِها

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، يدلُّ على أنّ مقولَ القول لفظةٌ واحدةٌ، وهي في تقدير جملةٍ اسميّةٍ، حُذفَ منها المسندُ إليه، فهي "خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: مسألتُنا حطّة"[1]، وفي ذلك منَ الإيجازِ البليغِ ما لا يخفى.

بَلاغةُ الإيجازِ في قولِه: ﴿حِطَّةٌ﴾:

طلَبُ الحِطّةِ إيجازٌ بليغٌ، في الاسْتِغفارِ المُناسِبِ لمقامِ التّعليمِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿حِطَّةٌ﴾ تعبيرٌ عن جملةٍ اسميّةٍ، ومهما كان التّقديرُ فإنّ في التّعبير عن ذلك بلفظةٍ واحدةٍ براعةً في الإيجاز، والإيجازُ في هذا السّياق حسنُ الموقعِ؛ إذ إنّه جاء في مقام الدّعاءِ بالاستغفار، تعبيرًا عنِ السّرعة في الطّلب، وتركيزًا على المعنى المرادِ منَ الاستغفار، وهو حطّ الذّنوبِ، وناسب ذلك؛ لأنّه جاء تعليمًا لهم، فَدَلَّهم على الغاية الأساس منَ الاستغفار.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿حِطَّةٌ﴾:

اللهُ تعالى، لا تختلفُ عليه اللّغاتُ، ويَقبلُ من عبادِه كلَّ العباراتِ

قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، جاءَ التّعبيرُ فيه عن طلب المغفرةِ بقوله جلّ شأنه: ﴿حِطَّةٌ﴾ منكَّرةً؛ للدّلالة على التّكثير أو التّعظيم، فهم يريدون الإكثارَ مِن حطّ الذّنوب عنهم مهما بلغت، على أنهم كُلِّفوا أن يقولوا لفظةً ما معناها: حطّة، أو أنّهم كُلِّفوا أن يقولوا قولًا حسنًا، يتضمّنُ الإيمانَ وشكرَ اللّه؛ ليكونَ حِطَّةً لذنوبهم[2]، وفي ذلك توسيعٌ عليهم بأن يقولوا أيَّ لفظ يدلُّ على طلبهم حطَّ الذّنوب عنهم، بما يُحسنون منَ التّعبير، وكلٌّ على قدرتِه ومعرفتِه.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/211.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.

أوامرُ اللهِ عُبوديّةٌ وحِكمةٌ، وإن غابَتْ عنِ الأمورِ العلّةُ

دَلالةُ العطْفِ، في قولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾:

جاءَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، معطوفًا على قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[1]، لكونهما فعلَيْ أمرٍ لمخاطَبٍ بعينه، فطلب منهم السّكنَ في هذه القرية، ثمّ طلب منهم الدّخولَ بكيفيّةٍ معيّنةٍ.

وُجوبُ دخولِ القريةِ مُقترِنًا بالشُّكران، تَعبيرًا عن عوارفِ الإيمانِ

دَلالةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾:

دلّ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾ على الوجوب؛ لأنّه دخولٌ مقترنٌ بالسّجود، فهو أمرٌ بالعبادة والشّكر على هذه النّعمة، ولمّا كان دخولُهم هذه القرية أوّلَ مرّةٍ ولن يتكرّر؛ دلَّ ذلك على وجوبه فورًا عليهم.

نُكتةُ إردافِ القَولِ بالعملِ، في ترتيبِ الفعلِ، بعد قولِه (قُولُوا)

نُكتةُ تأخِيرِ الدُّخولِ على لفْظِ ﴿حِطَّةٞ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، بعد قوله عزّ مقامُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾؛ لأنّهم "لمّا أُمروا بالحِطَّة قولًا، أُمروا أن يَشفعوها بفعل؛ لِتُحَطَّ عنهم ذنوبُهم"[2]، فالدّخولُ المقترنُ بالسّجود ذُكِرَ عقبَ تعليمهمُ الاستغفارَ، تعليمًا لهم ماذا يقولون أثناء دخولِهم وخشوعِهم، وهو أن يطلبوا أن يمحو اللّهُ تعالى عنهم تقصيرَهم، إعلانًا بأنّهم دون استحقاق هذه النّعم على الوجوب، بل على محضِ الإكرام والتّفضّل منه ﷻ.

الدّلالةُ ضِمْنًا على دُخولِ البابِ، بدخولِ القريةِ، والمرادُ بابُها

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلۡبَابَ﴾:

جاءُ البابُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾، مُعرَّفًا بالألف واللّام؛ لأنّ البابَ مدلولٌ عليه ضمنًا عن ذكر القرية، فعُلِم أنّ المرادَ هو بابُ القرية، فهو منَ العهدِ الذِّكْرِيِّ باعتبار أنّ البابَ جزءٌ منَ القرية.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/211.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.

بَلاغةُ التّعْبير بـ﴿سُجَّدًا﴾، ودلالتُها على الحالِ:

دلالـةُ الدُّخولِ سُـجَّـدًا، على الإخباتِ والخشوعِ، أو على السُّجودِ الحقيقيِّ

قيّدَ الدّخول في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا﴾ بالسّجود؛ للدّلالة على إقران دخولِهم بالإخبات والخشوع والشّكر[1]، فأُمِروا "بالسّجود عندَ الانتهاءِ إلى الباب شكرًا لله تعالى وتواضعًا، وقيل: أُمِرُوا بالدّخول بخشوعٍ وإخباتٍ"[2]، فيَحتمِلُ أنّه أراد السّجودَ بمعناه الاصطلاحيّ فيسجدون عند الدّخول، أو بمعناه اللّغويّ فيدخلون خاشعين متواضعين.

وعلى اعتبار أنّ دخولَهم، يجب أن يكون في حالة السّجود، فقوله جلّ شأنه: ﴿سُجَّدًا﴾ حالٌ؛ أي: ادخلوا "بابَ بيت المقدِسِ حالَ كونكم ﴿سُجَّدًا﴾"[3]، وهذه الحالُ مفارقةٌ ليسَت لازمةً.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾:

دَلالــةُ المغفرة بعدَ السّجود، على أنّها وعدٌ مَجزومٌ بوقوعِه جوابًا للطَّلَبِ

لمّا أمرهم تعالى بالدّخول في حالة السّجود، في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أعقب ذلك بالجواب عنِ الأمر بما يتعلّقُ به، فقال جلّ شأنُه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾، فهو "جوابُ الأمر، مترتّبٌ على دخول البابِ بقيد السّجود"[4]، فجاء ذكرُ المغفرة بعد السّجود على أنّه وعدٌ بها، فهو مجزومٌ لوقوعه جوابًا للطّلب المعبَّرِ عنه بفعل الأمر.

نُكتةُ مجيء المضارعِ، في قوله: ﴿نَّغۡفِرۡ﴾:

قـابلَ السِّياقُ الحكيمُ دوامَ ذُنوبِ العاصِين، بدَوامِ مغفرته

جاءَ الفعلُ في جواب الطّلب، في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾ مضارعًا؛ للدّلالة على تجدّدِ مغفرته واستمرارِها، وذلك يناسبُ النّاسَ لما جُبلوا عليه مِن ارتكاب الخطأ، واجتراحِ الذّنوب، فقابلَ دوامَ ذنوبِهم بدوام مغفرته جل جلاله.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/190.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/191، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2984.

معنَى (اللّام) في قولِه: ﴿لَكُمۡ﴾:

الوعْدُ بالمغفرة المعيَّنة، إذْ جعَلَ لهم مَغفرةً خاصّةً بهم

قوله جلّ شأنه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾، اللّام هنا للتّعليل، والمعنى: نغفرُ لأجلكم؛ فهم مقصودون بهذه المغفرة، وهذا التّعبيرُ أبلغُ في العفو عنهم والمغفرة لهم، منَ التّعبير بالمغفرة المُطلَقة.

فائدةُ تَقديم ﴿لَكُمۡ﴾ على المفعولِ به:

تأخِيرُ الخطايَا في مَقامِ الاسْتِغفار أبلَغُ؛ لِدَلالتِه علَى الإهْمالِ والتّغاضِي

في قوله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾، قدّم شبهَ الجملة على المفعول به، فلم يقُل: (نَغفِرْ ذُنُوبَكُم لَكُم)؛ اهتمامًا بهم، وإشارةً إلى أنّ المغفرةَ تتعلَّقُ بهم، وفيه دلالةٌ على مزيدٍ منَ الإكرام للمستغفر والتّائب لربّه، كما أنّ تأخيرَ الذّنوبِ في مقام الاستغفار والوعد بالمغفرة أبلغُ من تقديمها، لما يدلّ عليه التّأخيرُ منَ الإهمال والتّغاضي.

نُكتةُ جمْعِ لفْظِ ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾:

وَسعَتْ رحمةُ الله السّمواتِ والأرضَ؛ فإن يَغفرْ فإنّه يَغفرُ جَمًّا

جاء لفظُ الخطيئةِ في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾، مجموعًا دالًّا على الكثرة، "إشارةً إلى أنّها قليلٌ في جنب عفوه تعالى"[1]، والتّعبيرُ عن كثرة الذّنوبِ في سياق الوعدِ بالمغفرة، من حُسنِ البلاغةِ، لَمَا فيه منَ المبالغة بسعةِ عفوه، وعظيمِ مِنَّتِه على عباده؛ إذ يتجاوزُ عنِ الكثير، بمجرّدِ التّوجّهِ له بحطِّ هذه الذّنوب.

بَلاغةُ تَوجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ، في ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾:

اختِلافُ القراءةِ سَعةٌ في المعنَى، وتلوُّنٌ في الدّلالةِ

قرأ ابنُ كثير، وعاصم، وحمزة، والكسّائيّ، وقرأ أبو عمرو: ﴿نَّغۡفِرۡ﴾، وقرأ نافع: (تُغْفَر)، فمَن قرأ بالنّون، فكأنّه قيل: ادخلوا نغفر؛ أي: إن دخلتُم غفرْنا، أمّا قراءةُ نافع بالتّاء فلأنّه أسند إليها ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾ وهو مؤنّث، فأنّث الفعلَ بالتّاء، وأمّا بناؤه للمجهول في قراءة نافع فبالنّظر لما قبله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾ بالبناء للمجهول، فناسب أن يأتي به مبنيًّا للمجهول هنا[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.

(2) الفارسّي، الحجّة: 3/65 - 66.

بَلاغةُ تَوجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ، في لفْظِ ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾ - من حيث أنواع الجمع والإفراد - على ثلاثة وجوه: بجمع الكثرة (خطيئاتكم)، وبجمع التكسير (خطاياكم)، والإفراد (خطيئتكم)، أمّا القراءةُ بجمع الكثرة، فلمّا كان السّياقُ لبيان إسراعهم في الكفر، ناسبَ ذلك جمعُ الكثرة؛ إشعارًا بكثرة ذنوبهم، أمّا القراءةُ بصيغة الإفراد، وجمع القلّة، فللإشارة إلى أنّ ذنوبَهم قليلةٌ، في جنب عفوه ﷻ[1]، ويمكن أن تكونَ قراءةُ الإفراد، على اعتبار أنّ الخطيئة اسمُ جنس، تشملُ الخطايا كلَّها، "قال الشّيرازيّ: إنّ فائدةَ الاختلافِ بين قراءتي الإفراد والجمع للخطيئة؛ أنّ هذه الذّنوبَ تُغفَرُ لهم إذا فعلوا ما أُمِرُوا به من قولٍ وفعلٍ، سواء كانت قليلةً كواحدة أو كثيرةً"[2].

التّعبيرُ عنِ الخطايَا بالكثْرة يُناسبُ ذمَّهم، وتَقْليلُها يُناسبُ ذِكْرَ المغفرة

نُكتةُ تَرْكِ العطْفِ، في قوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

جاءَ قولُه جلّ شأنه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بلا عطفٍ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّه "استئنافٌ مرتَّبٌ على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيدُ المحسنين"[3]، فلمّا أخبرَ بالمغفرة بعد الاستغفار نشأ سؤالٌ، كأنّه قيل: وماذا لهم بعد ذلك؟ فجاء الجوابُ بالوعد؛ بأنّ اللّه تعالى سيزيدُ المحسنين ممّا يشاء، وأفاد الاستئنافُ أنّ هذا الوعدَ "تفضّلٌ محضٌ، ليس في مقابلة ما أُمِروا به"[4].

وَعدَ اللهُ تعالى عبادَه المحسنين، بمزيدٍ منْ إحسانِه وتفضُّلِه

فائِدةُ دُخولِ حرفِ التّنفيسِ في ﴿سَنَزِيدُ﴾:

اقترن الفعلُ المضارع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالسّين الدّالّة على المستقبل، للدّلالة على أنّه وعدٌ منجَزٌ عن قريب، وهو وعدٌ مؤكَّدٌ لا يُخلف[5]، وقوله: "﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: عِدَةٌ

وَعْدُ الله تعالى مُنجَزٌ مُؤكَّدٌ، لا يَتطرّقُ إليه خُلْفٌ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/314.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/170، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/146.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2984.

بشيئين، بالمغفرة وبالزّيادة، وطرحُ الواو هاهنا لا يُخِلُّ بذلك؛ لأنّه استئنافٌ مُرَتَّبٌ على تقدير سؤالٍ، نشأ منَ الإخبار بالغفران، كأنّه قيلَ: فماذا لهم بعد الغفرانِ؟ فقيل: ﴿سَنَزِيدُ﴾"[1].

فائِدةُ صِيغةِ المضارِعِ، في قولِه: ﴿سَنَزِيدُ﴾:

تَفضُّلُه بالزّيادةِ مُستمِرٌّ لا يَنقطِعُ، ودائِمٌ لا يَزولُ

جاءَ التّعبيرُ عنِ الوعد بالزّيادة في قوله عزّ ذِكرُه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ تفضّلَه بزيادة الخير والجزاء لا تنقطع، فعطاءُ الكريم لا يليقُ به، إلّا أن يكون دائمًا مستمرًّا.

بَلاغةُ حذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿سَنَزِيدُ﴾:

الزّيادةُ شاملةٌ لكلِّ ما يُتوَقَّعُ، مِن ربٍّ غفورٍ رحيمٍ لعبادِه أجْمَعَ

جاءَ التّعبيرُ عنِ الزّيادة في قوله جلّ شأنُه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مطلَقًا؛ من غير أن يبيّنَ نوعَ الزّيادة، فالمفعول به في "﴿سَنَزِيدُ﴾ محذوفٌ، تقديره: ثوابًا"[2]، فالزّيادة أُطلقَت منَ القيود إشعارًا بالتّعميم، فتشمل الزّيادةُ كلَّ ما ينتظره المحسنُ من ربّه ﷻ، وتفخيمًا لتلك الزّيادة بإيرادها مبهَمَةً، فعُلِم بذلك أنّ تَرْكَ القيدِ هنا أبلغُ منَ التّعبير بنوع الزّيادة.

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

مَن عُهِدَ منهم الإحسانُ، فهمُ المحسِنون عندَ الله والنّاسِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، جاء لفظُ (المُحسنين) مُعرَّفًا بالألف واللّام؛ للدّلالة على قوّة الصّفة بهم، فهم منَ الفئة الّتي عُرِفَت وشُهِرَت بكونها مُحسِنةً، فصار لفظُ (المُحسنين) عَلَمًا عليهم، فلفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ "أي: العريقين في هذا الوصف"[3]، فهي جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، تشملُ كلَّ مَن وُصِفَ بالإحسان.

بَلاغةُ تَرتيبِ الأوامِرِ:

في الآية جاءتِ الأوامرُ لهم بهذا التّرتيب: ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾، ﴿وَكُلُواْ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 3/283.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/191.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾ ﴿سُجَّدًا﴾؛ وهذا ترتيبٌ يتطابقُ مع الواقع، فالأمرُ بالسّكن يتوجّهُ للقرية تمهيدًا للأمر بدخولها، فبدأ به، والأكلُ متعلّقٌ بالسّكن، فذَكَرهُ بعده، والأمرُ بالاستغفار تعليمٌ لما سيقولون في عبادتهم، وشكرُهم للّه تعالى النِّعمَ المذكورةَ والأمرُ بالدّخول جاء تاليًا لتلك الممهِّدات، ولكونه أثقلَ ما كُلِّفُوا به، فجاء به آخرًا تفخيمًا لشأنه، وإيماءً لشدّته عليهم.

كلُّ حُكْمٍ قضاه اللهُ، مَوضوعٌ في مَوضِعِه؛ ليُؤدّيَ فحْواه

معنَى (الفاء) في قولِ: ﴿فَبَدَّلَ﴾:

عُطِفَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ بالفاء؛ للدّلالة على سرعة معصيتِهم، وأنّ هذا التّبديلَ وقع عَقِبَ أمرِهم بالاستغفار، حيث لم يكونوا قد نَسوا الأمر، أو غَفَلوا عنه سهوًا، إشارةً إلى سوء طويَّتِهم.

التَّبْديلُ أعقبَ الأمرَ، ولم يكُنْ بينَهما زمانٌ طويلٌ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ ﴿فَبَدَّلَ﴾:

عبّر القُرآنُ عن معصيتهم بامتناع بعضِهم عن أداء القولِ الّذي أُمِرُوا به، فقال ﷻ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾، فأعرضوا عمّا أُمِرُوا به، ووضعوا موضعَه قولًا آخر[1]. والإشارةُ بالقول إلى قول بني إسرائيلَ: حبّةٌ في شَعرَةٍ أو حِنطَةٌ في شَعِيرَةٍ"[2]، فجاؤوا بلفظٍ مشابهٍ لَمَا أُمِرُوا به، ولا يدلُّ على المراد منهم؛ حيث "بَدّلُوا بما أُمِروا به مِنَ التّوبة والاستغفار، طلبَ ما يشتهون من أغراض الدّنيا"[3].

مَن بدّلَ أوامرَ اللهِ ووَحْيَه، نالَهُ غضبُ الله وسَخَطُه

فائِدةُ مجيءِ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، عبّر عنهم بالموصول دون الضّمير، فلم يقُل: (فبدّلوا)؛ إظهارًا لعلّةِ فعلهم ذلك، بما

سَببُ المُسارعةِ إلى التّبْديل، ما فيهم من ظُلْمٍ قلَّ له مثيلٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227.

عبّرت عنه صلةُ الموصول، فوضعَ " المُظهَرَ موضعَ المُضمَرِ؛ ليدلَّ على أنّ التّبديلَ ظلمٌ، أو مسبَّبٌ عن ظلمهم وعادتهم في وضع الأشياء غيرَ مواضعها، وأنّ المبدِّلين بعضُهم لا كلُّهم"[1]؛ إذ لو قال: (فبَدَّلوا) لَدَلَّ على أنّ التّبديلَ وقع مِنْهُم كلِّهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّهم "كانوا صنفين؛ ظالمًا وعادلًا، فبدّل الظّالمُ، ولم يبدِّلِ العادلُ"[2].

نُكتةُ مجيءِ جُملةِ صِلةِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

الظّلمُ طبْعٌ راسخٌ فيهم، وقد صارَ مميِّزًا لهم عن سِواهُم

جاءَت صلةُ الموصول في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالفعل الماضي؛ إشارةً إلى رسوخ صفة الظّلم فيهم، فهم قومٌ قد سبق منهم الظّلم، واشتُهروا به، فلا عجبَ أن يتجاوزُوا حدَّهُم مرّةً أخرى، بالتّعدّي على أمر اللّه تعالى، كما أنّه يدلُّ على أنّ ما قاموا به من تبديل المقولِ، إنّما كان ظلمًا بوضع الأمورِ في غير مَواضِعِها.

معنَى (مِنْ) في قولِه: ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

القُرآنُ مُنصِفٌ في عَدَمِ التّعْميمِ، حيث خصَّ منهم مَنْ بدّلَ

جاء في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ قيدٌ بشبه الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ المبدِّلين كانوا بعضًا منهم، لا كلّهم[3]، وهذا يجري على عادة القرآنِ الثّابتة في الإنصاف؛ حيث لم يعمّمِ الوصفَ السَّيِّئَ على غير مَن قام به، عدالةً وإنصافًا وحفظًا للحقوق.

عَوْدُ الضَّميرِ في شِبْهِ الجُملة: ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

الإشـارةُ إلى سَـببِ نِـسْـبـةِ الظّلْمِ إليهم، بتَبْديلِ القَولِ عن عِلْمٍ وإصرارٍ

يعود الضّميرُ في شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، على الّذين أُمِروا بدخول القرية، وما بعده منَ الأوامر؛ "لزيادة البيان؛ أي: بدّل الّذي ظلموا من هؤلاء"[4]، وفي هذا الضّمير إحالةٌ على مَن تلقَّوا تلك النِّعمَ والأوامرَ؛ إعلامًا بأنّ الّذين بدّلوا كانوا قد عَلِموا تلك النِّعمَ، وسمعوا ما طُلِبَ منهم، فإذا لم يأتوا بما

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2985.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/84.

طُلِبَ منهم، فإنّهم جديرون بأن يُوصَفوا بالظّلم، فالضّميرُ يشيرُ إلى سبب نسبةِ الظّلمِ إليهم؛ حيث إنّهم كان ينبغي أن يقابلوا تلك النّعمَ بالشّكر، من خلال طاعتِهم واستجابتِهم، ولكنّهم أعرضوا، وبدّلوا ما طُلِبَ منهم.

سِرُّ مجيءِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ وتقديمِها على المفعول:

عِـلّـةُ تـأْخِـيرِ الفاعلِ تَرتبطُ بمُراعاةِ البيانِ، وتَـلافِي اخْـتِلالِ المعنَى

قيّد الظّالمين في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بشبه الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾: "لئلّا يُتوهَّم أنّهم منَ الدّخلاء فيهم"[1]، ففي ذلك زيادةُ بيانٍ وإيضاحٍ.

وقدّم شبهَ الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾ لتعلُّقِها بالفاعل، فأوفى الفاعلَ مُتعلِّقاته وأوصافَه، ليأتي البيانُ على أتمِّهِ وأفصحِهِ، كما أنّه لو أخّره وجاء بعدَ المفعول به؛ لاختلّ المعنى، وصار التّركيبُ ركيكًا بعيدًا عنِ الفصاحة.

نُكتةُ تَنكيرِ لفْظِ ﴿قَوۡلًا﴾:

ما قالوُه عِوَضًا عمّا أُمِـرُوا به، مَـقـولٌ لا خَـيْرَ فيه، ولا قِيمةَ له

عَبَّرَ عنِ القول بصيغة التّنكير: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾؛ تحقيرًا وتقليلًا لشأن مقولِهم، حيث أعرضوا عمّا أُمِرُوا به، "ووضعوا موضعَه قولًا آخر ممّا لا خيرَ فيه"[2]، فالتّنكيرُ دلّ على أنّ ماجاؤوا به إنّما هو قولٌ لا يُؤْبَهُ له تحقيرًا له.

مَوقعُ ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ منَ البلاغةِ والإعرابِ:

ما قالُوه مُغايِرٌ لِـمـا سَـمِـعُـوه البتّةَ، لكونِهم بَـدّلُـوه، وهـم ظالمِونَ

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ صفةٌ لـ﴿قَوۡلًا﴾، وصرّح بهذه الصّفة مع أنّ التّبديلَ يدلُّ على التّغيير؛ إذ لو اكتفى بقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ لَدلَّ على أنّهم جاؤوا بلفظٍ آخرَ مغايرٍ، فإنّما صرّح بالمغايرة: "تحقيقًا للمخالفة، وتنصيصًا على المغايرة من كلّ وجهٍ"[3]. ويُضافُ إلى ذلك أنّه نصَّ على أنّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284، والآلوسي، روح المعاني: 5/84.

التّغييرَ وَقَعَ بالقول، وفيه إشارةٌ إلى أنّ مَن جَرُؤَ على الإعراض عن أداء قولٍ لا يُكلِّفُ جُهدًا، كان أَجْرَأَ على الإعراضِ عن سائرِ الأفعال والعبادات الأخرى.

فائدةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلَتِه، في: ﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾:

حين أعرضُوا عمّا قيل لهم، كانوا مُصِرّين غيرَ جاهلين

في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾، عَبَّر بالاسم الموصول (الّذي) مع صلتِه المتضمِّنة فعلَ القول؛ للدّلالة على مقولٍ معهودٍ، وللإشارة إلى قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾؛ إعلامًا بأنّهم غيرُ جاهلين لما طُلِبَ منهم، فهو قولٌ يعرفونه، ويَكشفُ هذا إصرارَهم على اجتراح هذا المنكَرِ.

نُكتةُ مجيء ﴿قِيلَ﴾ مَبنيَّةً لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

لمّا عُلِمَ القائلُ اسْتغنَى عن ذكرِه للإيجازِ في التّعْبيرِ

جاء الفعلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾، مبنيًّا للمجهول للعلم بالفاعل؛ إذ إنّه "من المعلوم أنّ القائلَ مَن لهُ إلزامُهُم"[1]. كما أنّ فيه إيجازًا بليغًا، إذ لو جاء مبنيًّا للمعلوم لَقالَ: (غير الّذي قاله اللّٰه لهم).

معنَى اللّامِ في قولِه: ﴿لَهُمۡ﴾:

القولُ قد بَلَغهم، وقيل لهم، مُواجَهةً ومُشافَهةً

عَبَّر عنِ القول بأنّه قد وَصَلَهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾، فاللّام للتّعليل، وجاءَت تأكيدًا لمعرفتهم بهذا القول، فهو قد بلغهم، وأنّهم كانوا مقصودين به، وهذا يدلُّ على تأكيد مضمونِ القولِ، إذ إنّه قيل لمعيّن قصدًا لإبلاغه به، وليس قولًا عَرَضًا ولا عامًّا، قد اختصّهم بأن يقولَه لهم، دلالةً على أهميَّته، وتأكيدًا لبلوغه لهم.

معنَى (الفاء) في قولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

جاءَهُمُ العذابُ بعْدَ ارْتِكابِ المعاصِي، سَريعًا بلا مُهلةٍ

عُطِفَ قولُه جلّ شأنه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمۡ﴾ بالفاء؛ للدّلالة على أنهم قد أُرسِلَ الرِّجْزُ عليهم "إثرَ ما فعلُوا من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.

غير تأخيرٍ"[1]، فكما أنّهم أسرعوا فبَدَّلوا القولَ إثرَ ما قيل لهم، فكذلك جاءهم العقابُ سريعًا إثرَ عصيانِهم.

سِرُّ التّعْبيرِ بضَميرِ الجمْعِ (نا)، في قولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾:

العذابُ المُرسَلُ إليهم مُهلِكٌ؛ لأنّه صادِرٌ منَ الله العظيمِ جَلَّ جَلَالُهُ

جاء الفعلُ (أرسل) في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مُسْنَدًا إلى ضمير الجمع؛ تعظيمًا لذلك الإرسال؛ أي: أرسلنا عليهم ذلك العذاب، بما لنا منَ العظمة؛ تفخيمًا للعذاب، وتهويلًا له.

نُكتةُ تَعْدِيةِ الإرسالِ بـ(على):

الرِّجْزُ نزلَ عليهم مِن حيث لا يَحتسبون، فأذاقَهُم عَذابَ الهُونِ

جاءَ الفعلُ (أرسل) في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، متعدّيًا بالحرف (على)؛ لأنّ إرسالَ العذابِ منَ الأعلى، و"الإرسالُ مِن فوقُ، فَيَكُونُ كالإنزالِ"[2]، فالإرسالُ تضمّنَ الإنزالَ؛ لأنّ الرّجزَ نزل عليهم منَ السّماء، ففي التّضمين تظهرُ قوّةُ الفعلَيْنِ: الإرسال والإنزال.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنهم بالضَّميرِ، في قولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

تهويلُ العَذابِ، بجعلِه مُحْتَمِلًا للعُمومِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، عبّر عنهم بالضّمير، من غير أن يكرّرَ الموصولَ، فلم يقُل: (فأرسلنا على الّذين ظلموا منهم) إيجازًا، ولأنّ الضّميرَ يحتملُ أن يُرادَ به القومُ جميعًا، وهذا الاحتمالُ يدلُّ على عموم العذابِ، وفي ذلك تهويلٌ لِمَا نزل بهم منَ الرِّجْزِ[3].

غَرَضُ تَقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، على المفعولِ:

الرِّجْزُ أُنزلَ عليهم على وجْهِ الخُصوص لا يَتعَدّاهُم

قدّمَ شبهَ الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول به، فلم يقُل: (فأرسلنا رجزًا عليهم)؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/84.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.

تخصيصًا لهم بهذا الرّجزِ، فهو عذابٌ خاصٌّ بهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم.

نُكتةُ تَنْكِيرِ ﴿رِجۡزٗا﴾، في: ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الـرِّجْـزُ الّـذي أنزله اللهُ تعالى عـليـهـم رِجْــزٌ عظيمٌ

في قوله عزّ ذِكرُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، جاء لفظُ الرِّجْزِ نكرةً؛ تهويلًا له، وتفخيمًا لشأنه، فإنّ الإبهامَ يدلُّ على تعظيمِ الأمرِ وتفخيمِه، والتّنكيرُ الدّالُّ على التّهويلِ والتّفخيمِ مناسِبٌ للتّعظيمِ المعبَّر عنه بضميرِ الجمعِ في (أرسلنا)، والآيةُ بُنِيَت كلُّها على التّعظيمِ والتّفخيم.

معنَى (مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الـرِّجْـزُ عظيمٌ، لأنّه نـزلَ عليهم وارِدًا مِنَ السّماءِ

أفادَ الحرفُ (مِن) في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، على ابتداءِ ورودِ هذا العذابِ، فهو واردٌ منَ السّماءِ، وهذا يدلُّ على مزيدٍ منَ التّفخيمِ والتّهويلِ، فما كان واردًا منَ السّماءِ، فإنّه يأتي بالعظمةِ والعلوّ والقوّةِ، والمُنزَلِ: ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عذابًا شديدًا، إمّا الطّاعون وإمّا غيره منَ العقوباتِ السّماويّة.

فائدةُ مجيءِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ما كان وارِدًا مِنَ الـسّـمـاءِ، فهو جـلـيـلُ الـشّـأْنِ، حَتْمِيُّ الوُقوعِ

وُصِفَ الرِّجْزُ بأنّه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: أنّه عذابٌ "في غاية الاشتداد، خارجًا عن حدّ المعتادِ، فإنّ النّسبةَ إلى السّماءِ للإشارة إلى هذا المعنى"[1]، ووصفُه بذلك تصريحٌ بأنّه لا يُرَدّ، وأنّه واقعٌ بهم على الحَتْم.

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

مـا يَـنـزِلُ مِـنَ الـسّـمـاءِ إلّا مُعجِزٌ مُدْهِشٌ

عرّفَ السّماءَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالألف واللّام الدّالّة على العهد، زيادةً في بيان جهةِ نزولِ العذابِ، فهو نازلٌ منَ السّماءِ الّتي لا يأتي منها إلّا شيءٌ يتّصفُ بالغرابةِ والعظمةِ.

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

معنَى الباء، في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾:

الرِّجْزُ إنّما نَزلَ عليهم بسبَبِ ظُلمِهم، وما كان اللهُ لِيَظلِمَهم

عقّب على إرسال الرِّجْزِ عليهم، بقوله جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، مُصدَّرًا بالباء الدّالّة على السّببيّة؛ للدّلالة على أنّ ما نالهم إنّما كان بسبب ظلمِهم، وأنّ اللّه تعالى لا يعذّبُ أحدًا من عباده، إلّا بموجِبٍ يستحقُّ به ذلك العذاب.

معنَى (ما) بين المصدريّةِ والموصوليّةِ:

إنّ اللهَ ليُمْلِي للظّالمِ، حتّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، عبّر بـ (ما) المصدريّة في الجملة المسوقةِ لتعليل العذابِ الّذي نزل عليهم؛ أي: "بسبب ظلمهم المستمرِّ السّابق"[1]؛ تقويّةً لمضمون الجملة، فإنّ التّعبيرَ بالمصدر المؤوَّل باسم، يدلُّ على ثباتِ المعنى وتأكيده. ويمكن أن تكون موصولةً بمعنى: (بالّذي كانوا يظلمون أنفسَهم فيه).

سِرُّ وُجودِ (كانوا) مع الخبَرِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾:

الظُّلمُ طبعٌ راسخٌ فيهم، وهم لا يَنفَكّون عنه بَتاتًا

أدخل (كان) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، ولم يقُل: (بما يظلمون)؛ إشارةً إلى أنّهم عريقون بالظّلم، متّصفون به، بحيث لا يَنفكّون عنه، فهو دائمٌ بهم، كما أنّ فيه دلالةً على الإصرار عليه.

بَلاغةُ التّعْبيرِ بلفْظِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾:

الظّلْمُ مُتجدّدٌ مُستمرٌّ، راسخٌ في طبْعِهم، وفسادِ أهوائِهم

عَبَّر عن ظلمهم بالفعل المضارع، فقال جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: بسبب "ظلمهم المستمرِّ السّابقِ واللّاحقِ حسبما يفيدُه الجمعُ، بينَ صيغتي الماضِي والمستقبلِ، لا بسبب التّبديلِ فقط"[2]، فهم يزاولون الظّلمَ، ولا ينفكّون عنه، يجدّدونه كلَّ حين.

بَلاغةُ المتشابِهِ اللّفظيِّ بين آيتَي الأعراف (161 - 162)، وآيتي البقرة (58 - 59):

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.

بين الآيات المتشابهةِ فُروقٌ في التّعبير، اقْتَضَتْها مُناسبةُ السِّياقِ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 161 - 162] يشابهُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 58 - 59].

ويلاحظ أنّ بينهما تفاوتًا من وجوهٍ:

الأوّل: أنَّه عيَّن القائلَ في سورة البقرة، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، وهنا أبهمه فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾؛ فعبّر بالمبنيّ للمجهول؛ "إعلامًا للسَّامع بأنّ هذا القائلَ هو ذاك"[(1)]، فحذف الفاعلَ للعلم به؛ لأنّ هذا القولَ لا يصدرُ إلّا منَ اللّه تعالى[(2)].

الثّاني: قال في سورة البقرة: ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، وقال هنا: ﴿ٱسْكُنُواْ﴾؛ والسّكنى تأتي بعدَ الدّخول، "فأُمِرُوا هناك بالمبدأ وهنا بما تسبَّب عنه"[(3)]، وكلا القولين قِيلا لهم، "ففرَّق ذلك على القصّتين على عادة القرآن في تغيير أسلوبِ القَصصِ؛ استجدادًا لنشاط السّامع"[(4)].

والثّالث: قال في سورة البقرة: ﴿فَكُلُواْ﴾ بالفاء، وههنا: ﴿وَكُلُواْ﴾ بالواو، "فجاء العطفُ هناك بالفاء؛ لأنّ بَدْءَ الأكل يكون عقبَ الدّخول، كأكل الثّمرات والفواكه الّتي تكون في كلّ ناحيةٍ منَ القرية، أمّا السّكنى فأمرٌ ممتدٌّ يكون الأكلُ في أثنائه لا عقبه"[(5)]، وتعجيلُ

(1) ابن عادل، اللّباب: 9/354.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/144.

(3) تفسير ابن كمال باشا: 4/173، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/144.

(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91، والطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/626، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.

الانتفاعِ الدّالّ عليه العطفُ بالفاء، يدلُّ على شدّة الامتنان، وهذا أنسبُ للقصّة في سورة البقرة؛ لأنّها جاءَت للتّوبيخ[1].

والرّابع: قال في البقرة: ﴿رَغَدًا﴾، ولم يذكرها هنا؛ لأنّ الأمرَ في البقرة كان بالدّخول لا بالسّكن، فأثبت ﴿رَغَدًا﴾ "بعدَ الأمر بالدّخول؛ لأنّها حالةُ قدوم، فالأكلُ فيها ألذُّ، بخلاف السّكنى المذكور هنا، فإنّها حالةُ استقرارٍ واطمئنانٍ، فليسَ الأكلُ فيها كالأكل عند الدّخول"[2]، وفي ذلك مزيدٌ منَ الامتنان، وهو أنسبُ في التّوبيخ هناك[3].

والخامس: قَدَّم في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، وفي الأعراف على العكس؛ ولا تفاوتَ في ذلك؛ لأنّ العطفَ بينهما جاء بحرف الواو الدّالّة على الجمع دون التّرتيب[4]، "فالاختلافُ في التّعبير دالٌّ على عدم الفرقِ بين تقديمِ هذا وتأخيرِ ذاك، وبين عكسه، إذ لا فارقَ بين أن يدعوا بقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾. في حال التّلبّس بالتّواضع والخضوع، وتنكيس الرّؤوس، شكرًا لله على نعمه، عند دخول القرية - وبين أن يبدؤُوا بتنكيسِ الرّؤوسِ والخضوع والتّواضع، ثمّ يدعوا بقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾"[5].

والسّادس: قال في البقرة: ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾[البقرة: 58]، وهنا قال: ﴿خَطِيٓـَٰتِكُمْ﴾؛ وذلك إشارةٌ "إلى أنّ هذه الذّنوبَ سواءٌ كانت قليلةً أو كثيرةً؛ فهي مغفورةٌ عند الإتيانِ بهذا الدّعاء والتّضرع"[6].

والسّابع: قال في البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 58] بالواو، وفي الأعراف بحذفها؛ فأخرج العبارةَ في الأعراف "مخرجَ الاستئناف؛ للدّلالة على أنّه تفضّلٌ محضٌ، ليس في مقابلةِ ما أُمِرُوا به"[7]، فتركُ الواو يدلُّ على أنّ الزّيادةَ مِنَّةٌ منَ الله تعالى، وليست سببًا لما سبق ذِكرُه منَ الخضوعِ والسّجودِ والاستغفارِ[8].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/146.
(4) العُليميّ، فتح الرّحمن: 3/48، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/390، والآلوسي، روح المعاني: 5/83.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/39، وابن عادل، اللّباب: 9/355.
(8) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91.

والثّامن: قال في البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا﴾ [البقرة: 59]، وهنا قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا﴾ بزيادة ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ للتّصريح بأنّ "تبديلَ القول لم يصدرْ من جميعِهم، وأَجْمَلَ ذلك في سورة البقرة؛ لأنّ آيةَ البقرة لمّا سِيقَت مَساقَ التّوبيخ ناسبَ إرهابُهم بما يُوهِمُ أنّ الّذين فعلُوا ذلك هم جميعُ القومِ؛ لأنّ تبعاتِ بعضِ القبيلةِ تُحمَلُ على جماعتها"[1].

والتّاسع: قال في البقرة: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾ [البقرة: 59]، وهنا قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾؛ وذلك لأنّ "الإنزالَ لا يُشعرُ بالكثرة، والإرسالَ يُشعِرُ بها، فكأنّه تعالى بدأ بإنزالِ العذابِ القليلِ، ثمّ جعلَه كثيرًا"[2].

والعاشر: في البقرة أعاد الموصولَ: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [البقرة: 59]، وهنا بالضّمير ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ "لأنّ القصدَ في آية البقرة بيانُ سببِ إنزالِ العذابِ عليهم مرّتين، أُشيرَ إلى أولاهُما بما يُومِئُ إليه المَوصولُ من علّةِ الحُكم، وإلى الثّانيةِ بحرف السّببيّة، واقتصرَ هنا على الثّاني"[3]، فقال: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾.

والحادي عشر: قال في البقرة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: 59]، وقال هنا: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾؛ "لأنّه لمّا اقتضى الحالُ في القِصّتين تأكيدَ وصفهم بالظّلم، وأُدِّيَ ذلك في البقرة بقوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [البقرة: 59]، استُثْقِلَتْ إعادةُ لفظِ الظّلم هُنالكَ ثالثةً، فَعُدِلَ عنهُ إلى ما يُفيدُ مَفادَهُ، وهو الفِسقُ، وهو أيضًا أعمُّ، فهو أنسبُ بتذييلِ التّوبيخ، وجِيءَ هنا بلفظِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ لئلّا يفُوتَ تسجيلُ الظّلم عليهم مرّةً ثالثةً، فكانَ تذييلُ آيةِ البقرةِ أنسبَ بالتّغليط في ذمِّهم؛ لأنّ مقامَ التّوبيخِ يَقتضِيهِ"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخطايَا والذُّنوبُ والآثامُ:

الخطيئةُ من (خطأ)، وأصلُه يدلُّ على تَعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهَابِ عَنهُ. والخَطأُ مُجاوَزَةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/390.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.

حَدِّ الصَّوابِ. يُقالُ أَخطَأَ إذا تَعَدَّى الصَّوابَ، وخَطِئَ يَخطَأُ، إذا أَذنَبَ؛ لأَنَّهُ يَترُكُ الوَجهَ الخَيرَ. وهو ضدُّ الصّواب[1].

والإثمُ من (أَثِمَ)، وأصلُه يدلُّ على البُطءِ والتَّأَخُّرِ، يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ؛ أَي: مُتَأَخِّرَةٌ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذَلِكَ، لأَنَّ ذا الإِثم بَطِيءٌ عَنِ الخيرِ، مُتَأَخِّرٌ عنه. فالإثمُ: الذَّنْبُ، وهو اسمٌ للأفعالِ البطيئةِ عنِ الخيراتِ لتضمُّنِه معنى البطءِ[2].

والذّنبُ من (ذنب)، وأصله يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ، ومنه ذَنَبُ الدّابّة، ويعبَّرُ به عنِ المتأخِّر والرَّذْلِ، والذَّنْبُ في الأصل: الأَخْذُ بِذَنَبِ الشّيءِ، وسُمِّي الذَّنْبُ اعتبارًا لما يَحْصُلُ من عاقبتِهِ[3].

الخطيئةُ تدلُّ على التّعدِّي والتّجاوُزِ على الحدِّ الموضوعِ، وفيها قصدٌ وإرادةٌ

فيُلاحظُ أنّ فرقَ الخطيئةِ؛ أنّها تدلُّ على التّعدي والتّجاوز على الحدّ الموضوع، وفيها قصدٌ وإرادةٌ، لَمَا في الجذر من دلالةٍ على الامتداد والاندفاع، منَ التّأخّر والتّثاقل، عن فعلِ الطّاعةِ. والذّنْبُ الفعلُ السَّيِّئُ باعتبارِ مآلِه وعاقبتِه، فإنّ الخطيئةَ منَ التّقدُّم والتَّجاوُز، وهي الإثمُ الّذي فيه مجاوزة الصّواب، وتعدّي الحدّ.

وفي قوله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾ يناسب ذكرَ المغفرة، فهي تشمل حتّى الأفعال الّتي وقعت منهم، وفيها مجاوزةُ الحدّ والتّعدّي.

أرسلْنا وبعثْنا:

إرسالُ العَذابِ يكونُ منَ الأعلَى، ويتضمّنُ معنَى الإنْزالِ عادةً

البعثُ أعمُّ منَ الإرسال؛ لأنّه "يجوز أن يبعثَ الرّجل إلى الآخر؛ لحاجةٍ تخصّه دونَك ودون المبعوث إليه، كالصّبي تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثْتُه، ولا تقول: أرسلتُه؛ لأنّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"[4]. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (خطأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (أثم).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذنب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ آثر التّعبيرَ بالإرسال؛ لأنّه يتضمّنُ العذابَ المعبَّرَ عنه بالرِّجْز، ولذا جاء مُتعدِّيًا بالحرف (على)؛ لأنّ إرسالَ العذاب منَ الأعلى، و"الإرسالُ مِن فَوقُ، فيكُونُ كالإنزال"[1]، فالإرسالُ تضمّنَ الإنزالَ؛ لأنّ الرِّجْزَ نزلَ عليهم منَ السّماء.

الظّلمُ والفِسقُ:

عـبّرَ بـالـظّـلْـم لأنّـهـم بـدّلُـوا الـقـولَ، فتركُوا الأمـرَ ووضَـعُـوا قــوْلَــهــم في موضِعِه

الفِسْقُ من (فسق)، وأصله من قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرج عن قشره، وهو الخُروجُ عَنِ الطَّاعَة. فَسَقَ فلانٌ: خَرج عن حَجْرِ الشّرعِ، وهو أعمُّ منَ الكفر، والفِسقُ يقعُ بالقليل منَ الذّنوب وبالكثير، لكن تُعُورِف فيما كان كثيرًا.وأكثرُ ما يُقال الفَاسِقُ لَمَن التزم حكمَ الشّرع، وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسق[2].

أمّا الظّلمُ فهو وَضعُ الشّيءِ في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه، ومن هذا يُقال: ظَلَمتُ السِّقَاءَ: إذا تناولتَه في غير وقته[3]. وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ عبّر بالظّلم؛ لأنّهم بدّلوا القولَ، فتركوا ما أُمِرُوا به، ووضعوا قولًا آخرَ في موضعه.

الرِّجزُ والصّاعقةُ:

عبَّرَ عن عذابِهم بالرِّجْزِ؛ إذ لم يكنْ عذابُ أهْلِ القريةِ بصَوْتٍ أو صَيْحةٍ

الرّجزُ من (رَجَزَ)، وأَصله يَدُلُّ على اضطِرابٍ، وهو داءٌ يُصِيبُ الإبلَ في أَعجازها، بأن تَضطَرِبَ رِجلُ البَعِير أو فَخِذاهُ، إذا أَراد القِيامَ، أو ثارَ ساعَةً، ثُمَّ تَنْبَسِطَ. والرِّجزُ: القَذَرُ، مثل الرِّجسِ. والرِّجزُ: العَذَابُ[4]، ويُطلَقُ على العذابِ الموجبِ للاضطراب[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فسق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خطأ).
(5) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

والصّاعقةُ من (صعق)، وأصلهُ يدلُّ على شدّةِ صوتٍ، من ذلك الصّعق، وهو الصّوتُ الشّديدُ، يُقال: حمارٌ صَعِقُ الصّوتِ إذا كان شديدَهُ، ومنه الصّاعقة، وهي الوقعُ الشّديدُ منَ الرّعد، ثمّ يكون منها نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وهي في ذاتها شيءٌ واحدٌ، وهذه الأشياءُ تأثيراتٌ منها.

فمنِ استعمالها بمعنى العذاب، قوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصّلت: 13]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عَبَّر عن عذابهم بالرِّجْزِ؛ إذ لم يكن عذابُ أهلِ القريةِ بصوتٍ أو صيحةٍ، فعبّر عنه بما يدلُّ على العذاب الموجبِ للاضطراب، وهو عذابٌ شديدُ الفظاعةِ والوقعِ؛ بأن مَسَخَهم.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف: 163]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انْتِقالٌ من الحديثِ عن قريةٍ ظالمةٍ، إلى أُخرَى، كانت تعدُو في السّبْتِ

مناسبةُ الآيةِ لما قبلها أنّه انتقلَ من قصّةِ قريةٍ من قرى بني إسرائيل إلى الحديث عن قريةٍ أخرى[1]، فلمّا "فرغَ من هَتكِ أستارِهم فيما عملُوه أيّام موسى عليه السلام وما يليها، أتبعه خِزيًا آخرَ أشدَّ ممّا قبلَه"[2]، ولمّا أخبر أنّه أباحَ لهم ما شاء منَ الطَّيِّبات بقوله جلّ ذكره: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾، ودَلَّ على أنّهم قابلوا الإحسانَ بالظّلم، بَيَّن أنّهم عَدَلوا عنِ الطّيّباتِ المأذونِ فيها، وأكلوا ممّا حُرِّمَ عليهم بالاصطياد يوم السّبت[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَاضِرَةَ﴾: (حَضَرَ) أصلٌ، هو إيرَادُ الشَّيءِ، ووُرودُهُ ومُشاهَدَتُهُ. وحَضرةُ الرّجل: قُربه وفِناؤه، ويُقال: كَلَّمتُه بَحَضرَةِ فلانٍ وبِمَحْضَرٍ من فلان؛ أي: بمشهدٍ منه. الحُضورُ: نَقيضُ المَغيب والغَيبةِ، والحاضِرةُ: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والرّيف. وقال تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: 30]؛ أي: مُشاهَدًا مُعايَنًا في حكم الحاضر عنده[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/147.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).

وقوله ﷺ: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾؛ أي: قُرْبَه، قريبةً منه راكبةً لشاطئه(1).

2) ﴿يَعۡدُونَ﴾: (عَدَوَ) أصلٌ يَدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتَقَدُّمٍ لِمَا يَنبَغِي أَن يُقتَصَرَ عليه. والاعتداء والتّعدّي والعُدْوان: خروجٌ عمّا حُدَّ ورُسِمَ، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾؛ أي: ولا مُتجاوِزٍ ما حُدَّ له(2). والتّعدّي: مجاوزةُ الشّيءِ إلى غيره، يُقال: عدَّيْتُه فتَعَدّى؛ أي: تجاوَزَ. وقوله: ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: 229]؛ أي: لا تُجاوِزوها إلى غيرها، وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطّلاق: 1]؛ أي: يُجاوِزها. وقوله ﷺ: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 7]؛ أي: المجاوزون ما حُدَّ لهم وأُمِرُوا به(3). وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾؛ أي: أنّهم "يتعدَّوْنَ حَدَّ الشّرعِ في دينهم، مِن تَرْكِ الاصطيادِ في يوم السّبتِ"(4).

3) ﴿ٱلسَّبۡتِ﴾: (سَبَتَ) أَصلٌ يدلُّ على راحةٍ وسكونٍ. أصلُ السَّبت: القَطْعُ، والسُّباتُ: النَّومُ، وأَصلُه الرّاحةُ، تقولُ منه: سَبَتَ يَسبُتُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾؛ فكأنّه إذا نامَ، فَقَدِ انقطَعَ عَنِ النَّاسِ. ومن سَبَتَ السَّيْرَ: قَطعَهُ. وسَبَتَ شعرَه: حَلَقَه. والسَّبتُ: مِن أَيّام الأُسبوع، وإنّما سُمِّيَ السّابعُ مِن أيّام الأَسبوع سَبْتًا؛ لأَنّ اللّه تعالى ابتدأَ الخَلقَ فيه، وقَطَعَ فيه بعضَ خَلقِ الأَرضِ، وأَمَرَ بَني إسرائيلَ بِقَطْعِ الأعمالِ وتَرْكِها فيهِ، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ﴾؛ أي: يوم قَطْعِهم للعمل(5).

4) ﴿حِيتَانُهُمۡ﴾: الحوتُ: معروفٌ وهو ما عَظُمَ منَ السّمك، والجمعُ حيتانٌ وأحواتٌ، وقال قومٌ: بل السّمكُ كلُّه حيتان(6)، وهو مذكّر، وفي التّنزيل ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾ [الصّافّات: 142](7). ولفظ (حوت) أَصلٌ وهو مِنَ الاضطِرابِ والرَّوَغانِ، حاوتَك فلانٌ إذا راوَغَك. والمُحاوَتةُ: المُراوَغة. وحاتَ الطّائرُ على الشَّيءِ يَحُوتُ؛ أي: حامَ حَوله. والحوتُ:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/170.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/39.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبت).
(6) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (حوت).
(7) الفيّوميّ، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير: (حوت).

العَظِيمُ مِنَ السَّمَكِ، وهو مُضطَرِبٌ أَبَدًا غيرُ مُستَقِرٍّ، والجَمعُ أَحواتٌ، وحِيتانٌ[1].

5) ﴿شُرَّعًا﴾: (شَرَعَ) أَصلٌ، وهو شَيءٌ يُفتَحُ في امتِدَادٍ يَكونُ فيهِ. شرع: شَرَعَ الوارِدُ يَشرَعُ شرعًا وشُروعًا: تَنَاوَلَ الماءَ بفيه. وشَرَعَتِ الدّوابُّ في المَاءِ: دَخلَتْ. وحِيتانٌ شُرُوعٌ: رافعةٌ رُؤُوسَها. وقَولُهُ تعالى: ﴿تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾، جمعُ شارعٍ؛ أي: باديةً خراطيمَها لكلّ أحدٍ، وذلك أنّ اللّه تعالى ابتَلى اليهودَ بتحريم الصّيد يومَ السّبتِ وبإلهام السّمكة بذلك، فكانَت تظهرُ إلى أن يكاد الإنسانُ يقبضُها[2]؛ أي: قريبةً مشرفةً لهم ظاهرةً على وجه الماء بكثرةٍ، فكانت تدنو منَ القرية بحيث يُمكنُهم صيدُها[3].

6) ﴿يَسۡبِتُونَ﴾: (سبت)، وقد سَبَتُوا يَسبِتُون ويَسبُتون، وأَسبَتُوا: دخَلُوا في السَّبتِ. وسَبَتَ فلانٌ: صارَ في السّبت. والإسباتُ: الدّخولُ في السَّبتِ. والسَّبتُ: قيامُ اليَهُودِ بأَمر سُنَّتِها. قَالَ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ﴾؛ أي: لا يَقْطَعون الشّغلَ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ قِصّةِ القريةِ البَحريّةِ الّتي امتُحِنَت بحيتانٍ تأتي شُرَّعًا يومَ السّبتِ دونَ سِواه

يخبرُ اللّهُ تعالى عن قِصّةٍ أخرى من قَصص بني إسرائيل، وقد ذُكِرَت هذه القصّة في سورة البقرة إجمالًا، وهاهنا ذُكرت تفصيلًا، فيُخاطِبُ اللّهُ تعالى النبيَّ ﷺ أن يسألَ معاصريه، من بني إسرائيل، عمّا فعل أسلافُهم منَ الّذين كانوا في القرية الّتي كانت

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حوت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (شرع).
(3) الواحديّ، البسيط: 9/410، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبت).
(5) العليميّ، فتح الرّحمن: 3/50.

على ساحل البحر، حالَ تعدّيهم، وعقابِ اللّهِ إيّاهم، فقد أمرهم اللّهُ تعالى أن يُعظِّموا يومَ السّبت بانقطاعهم للعبادة، وتركِ العمل، ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم اللّه وامتَحَنَهم، فكانتِ الحيتانُ تأتيهم ﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾ كثيرةً طافيةً على وجه البحر، وإذا ذهبَ يومُ السّبت تذهبُ الحيتانُ في البحر، فلا يرون منها شيئًا، ابتلاءً لهم بذلك، حيث إنّ فسقَهم هو الّذي أَوۡجَبَ أن يَبتلِيَهم اللّهُ، وأن تكونَ لهم هذه المحنةُ، وإلّا فلو لم يَفۡسُقوا لعافاهم اللّه، ولَمَا عَرَّضَهُم للبلاءِ والشّرِّ[1].

والمرادُ من هذه القصّة تقريرُ ما كانوا قد أقدموا عليه منَ الاعتداء والفِسۡق في الماضي، ليُعۡلَم أنّ لهم سابقةً في ذلك، وليس كفرُهم بمحمّد ﷺ أوّلَ مناكيرهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ العطۡفِ ومعناه، في قولِه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾:

عَطۡفُ قِصّةِ أصۡحابِ السّبۡتِ، على قِصّةِ أصحابِ القريةِ

عطف الفعل ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ على الفعل المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، وتقديره: وذَكِّرۡهم، فهي عاطفةٌ قصّةً على قصّةٍ[3]، فالآيةُ تتناولُ قصّةً أخرى من قَصص أسلاف بني إسرائيل.

سِرُّ العُدولِ منَ الإخۡبارِ إلى السّؤالِ:

السُّؤالُ أوۡقعُ في التّقريعِ منَ الإخبارِ، وأبۡلَغُ في الدّلالةِ عن المُرادِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، عَدَلَ عنِ الإخبار إلى السّؤال، فلم يقُل: (وإذ تعدو القرية الّتي..)؛ لأنّ السّؤالَ يدلُّ على التّقريع، ولأنّه أبلغُ في التّوبيخ، كما أنّ فيه إشارةً إلى شدّة كراهتهم

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 306، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/93.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/337.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/628، والهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/212.

للاطّلاعِ على هذه الفضيحةِ، أشدَّ ممّا مضى[1]؛ لأنّ السّؤالَ يجعلُ المخاطَبَ يشاركُ في فضح نفسه، إمّا بالتّقرير وإمّا بالإفحام، واضطراره أن يكون مشاركًا في تأكيد الحكاية.

دَلالةُ عَوْدِ الضّمائرِ في قولِه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾:

فَضْحُ يهودِ المدينةِ بسَوابقِ أسلافِهم، بيانٌ لرُسوخِهم في الفِسْقِ

الضّميرُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ لليهود الّذين هم بحضرة النبيّ ﷺ، والّذين هم من نسل أصحابِ القِصّةِ[2]، والخطاب "للنّبيّ ﷺ مأمورًا بأن يسألَ اليهودَ الّذين عاصروه ﷺ عمّا كان من أسلافهم"[3]، وفي ذلك فَضْحٌ لهم بسوابق أسلافهم، ودفعٌ للتّعجب مِن كُفْرِهم بالإسلام بذِكْرِ جرائمِ أجدادِهم؛ لبيان أنّهم قومٌ راسخون في الفِسْقِ والظّلم.

الدّلالةُ على الأمْرِ، في قولِه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾:

غَرَضُ سُؤالِهم التّوبيخُ والتّقريعُ لهم، بما فعَلَ أسْلافُهم

دَلَّ السّؤالُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ دلالةً مجازيّةً على التّعريض بالمعاصرين منهم للنبيِّ ﷺ، من خلال التّذكير بمعاصي أجدادهم، إذ ليس المرادُ استخبارَهم عن تلك القرية؛ فإنّ النّبيّ ﷺ قد عَلِمَها عن طريقِ الوحي، وتوجيهُ السّؤالِ إليهم إنّما هو توبيخٌ لهم[4]؛ أي: اسألهم مُوبِّخًا لهم، عمّا كان من أجدادهم في أمر القرية مِنَ الخطيئة. والسّؤالُ قد يكون للتّقرير والتّوبيخ، كما أنّ همزةَ الاستفهام تأتي للتّقرير، كقولك: أعدوتُم في السّبت، فكما أنّ معنى الهمزة هنا التّقريرُ والتّقريعُ، كذلك السّؤال[5].

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/628، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2986.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467.
(5) الواحديّ، البسيط: 9/407، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/627.

بَلاغةُ حذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾:

جاء الأمرُ بالسّؤال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ مطلقًا، فحَذَفَ مُتعلَّقَ المسؤول عنه، والقريةُ ليست هي المقصود بالسّؤال، بل عنِ الحدث الّذي وقع بها؛ أي: اسأَلْهم عن حالِها وخبرِها وما جرى على أهلها[1]، وعدمُ التّصريح بذلك تشويقٌ للسّامع، فيتطلَّعُ إلى سماعِ هذا الخبر الّذي يدلُّ أسلوبُ إيراده على أنّه من خطورة الشّأن بمكان.

حَذْفُ المسؤولِ عنه، يُشوِّقُ السّامِعَ لمعرفةِ الخبَرِ

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، والمُرادُ بها:

في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، جاء لفظُ القرية معرَّفًا بالألف واللّام الدّالّة على العهد، فالمرادُ سؤالُهم عن قرية بعينها، لا عَنْ جنس القُرى، والقريةُ هنا "(أيلةُ) وهي المسمّاةُ اليومَ (العَقَبَة)، وهي مدينةٌ على ساحل البحرِ الأحمرِ قُربَ شبهِ جزيرةِ طُورِ سينا، وهي مبدأُ أرضِ الشّام من جهةِ مصرَ، وكانت من مملكةِ إسرائيلَ في زمانِ داودَ عليه السلام"[2].

القَريةُ المُرادةُ خلَّدَها القرآنُ، بذِكْرِ قِصَّتِها في كتابِه الخالِدِ

بَلاغةُ التّعْبيرِ في السّؤال، في قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾:

افتتح القُرآنُ القصّةَ عن هذه القرية بقوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، فطَلَبَ منَ النّبيّ ﷺ أن يسألَهم عنها، ولم يأتِ ذلك عن طريق الإخبار، لِمَا في السّؤال من تقريرٍ وتقريعٍ، وهذا أبلغُ من طريقة الإخبار، " هذه القصّة ليست ممّا كُتِبَ في توراةِ اليهودِ ولا في كتبِ أنبيائِهم، ولكنّها ممّا كانَ مرويًّا عن أحبارِهم، ولذلك افتُتِحَتْ بالأمرِ بسؤالِهم عنها؛ لإشعارِ يهودِ العصرِ النّبويِّ بأنّ اللّه أَطْلَعَ نبيَّهُ ﷺ عليها، وهم كانوا يكتُمونها"[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى عراقتِهم في المعاصي، فكُفْرُهم بك ليس ممّا يُستغربُ منهم.

قِدَمُ هذه القِصّةِ، دليلٌ على عَراقةِ اليهودِ في المعاصِي

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/39، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/147. والعَقَبَةُ الآن: إحدى مُدُنِ الأُردنّ.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/146.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

غَرَضُ السُّؤالِ عن قِصّةِ القريةِ وعن أهْلِها

في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ السّؤالُ جاء عنِ القرية، ولكنّ المرادَ أن يسألَ "أهلَها، كأنّه قيل: واسألهم عن أهلِ القريةِ وقتَ عدوانهم في السّبت، وهو من بدل الاشتمال"[1]. فالقريةُ مشتمِلةٌ عليهم، فهو في علم البيان مجازٌ مُرسَلٌ؛ لأنّه أَطْلَقَ المحلَّ، وأرادَ الحالَّ فيه[2]، فحَذَفَ المضافَ، وأقامَ المضافَ إليه مقامَهُ.

سِرُّ وصْفِ القريةِ بأنّها ﴿حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾:

القريةُ قريبةٌ مِنَ البحْرِ، حيث كانت تأتي حِيتانُهم شُرَّعًا

وصفَ الخِطَابُ القريةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾، بأنّها حاضرةُ البحر، والمرادُ من ذلك أنّها قريبةٌ منَ البحر[3]، فالحضورُ "نقيضُ الغَيبة؛ أي: الّتي هي مجاورة البحر، وبقربه، وعلى شاطئه، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 196]"[4]، وإنّما ذكر هذه الصّفةَ دون غيرها منَ الصّفات تمهيدًا للقصّة، إذ إنّ القصّةَ المرويّةَ عنها مُتعلّقةٌ بالبحر، فذكر البحرَ في وصفها تهيئةً وتمهيدًا لما سيأتي.

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

تأكيدُ ارْتِباطِ القريةِ بالبَحْرِ، وأنّ الامْتحانَ كان في حِيتانِه

(ال) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾، تَدلُّ على الجنس، فالمرادُ الإخبارُ عن هذه القرية، أنّها كائنةٌ على البحر، من غير بيانِ أيِّ بحرٍ كان؛ لأنّ المرادَ أنّهم كانوا يعيشون على خيرات البحر، وفي ذلك وَقَعَ الابتلاءُ، وهو يقعُ بأيّ بحرٍ كان، وعند مَن يرى أنّ القريةَ هي أيلة، فـ(أل) عهديّة، والمرادُ بها البحر الأحمر.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/171.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/224.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/228.
(4) الواحديّ، البسيط: 9/408، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/170.

نُكتةُ التّعْبِيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلتِه:

في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾، عَبَّر عن وصفها بالموصول؛ للدّلالة على الزّمن الماضي المعبَّرِ عنه في الصّلة، إشارةً إلى أنّها اليوم ليست حاضرةً؛ إذ إنّها قد فَنِيَتْ وانمَّحى خبرُها، وكَتَمَه اليهودُ؛ فلذا كان السّؤالُ عنها إظهارًا لليهود بأنّ النّبيَّ ﷺ، إنّما علمَ بِذلك عن طريق الوحي.

كانتِ القريةُ في الماضِي حاضِرةً، وانْمحَى خَبرُها عنِ النّاسِ، فكَشَفَهُ الوحْيُ

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لجُملةِ: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾:

لَمّا قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ كان السّامعُ ينتظرُ أن يبيّنَ عن أيّ شيءٍ يسألهم، فبيّنَ أنّ السّؤالَ عن اعتدائهم، فقال جلّ شأنه: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، ومحلُّ هذه العبارة "مجرورٌ بدلًا عنِ القرية، بدل الاشتمال؛ أي: واسألهم عن وقت عدوانهم"[1]؛ لأنّ المقصودَ بالسّؤال هو الاعتداء، وتقديرُ الكلام: واسألهم إذ يعدو أهلُ القرية في السّبت[2]، فترك العطفَ على هذا لكمال الاتّصال، وقد يكون للاستئناف البيانيّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: ما شأنهم؟ أو ماذا فعلوا؟.

تَقريرُ اعْتِدائِهم هو المقصودُ بالسُّؤالِ

معنَى﴿إِذۡ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

افتتح قوله جلّ شأنُه: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ بـ(إذْ)، وهو "اسمُ زمانٍ للماضي، وليست ظرفًا"[3]، فـ(إذْ) مسؤولٌ عنه، وليس مسؤولًا فيه، فهو ليس ظرفًا للسّؤال، والمقصودُ به وقتُ العدوان[4].

اسمُ الزّمانِ يُحدّدُ أوانَ العُدْوانِ في السّبْتِ

سِرُّ التّعْبِيرِ بالفعْلِ المضارعِ: ﴿يَعۡدُونَ﴾:

عبّر ﷻ عنِ ارتكابهم المحرّم في شريعتهم بالاعتداء، فقال جلّ شأنه: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، والعدوانُ هو التّجاوزُ عنِ الحدّ، فلمّا

كلُّ انْتِهاكٍ لِما حرّمَ اللهُ، عُدوانٌ على شَرْعِه وهُداه

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/337.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/337.

خالفوا الحقَّ، وانتهكوا ما حُرِّمَ عليهم؛ كان ذلك منهم عدوانًا، وهو اشتغالُهم بصيد الحيتان يومَ السّبت، وعبّر عن ذلك بالفعل المضارع؛ للدّلالة على تكرّر ذلك منهم[1]، أو لاستحضار صورتِهم أمام القارئ والسّامع، ولا مانعَ هنا مِن اجتماع الغرضين.

معنَى ﴿ٱلسَّبۡتِ﴾ ودَلالةُ الحرفِ ﴿فِي﴾:

تَعظيمُ الله للزّمنِ، يَجعلُ له حُرْمةً وقَداسةً

في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، السّبت هو اسمُ اليوم الّذي بعدَ يوم الجمعة، ولمَّا كان الاعتداءُ معبَّرًا عنه بالفعل المضارع الدّالّ على التّجدّد، دَلَّ ذلك على تَكْرارِ الاعتداءِ كلَّ سبتٍ، ودلالة ﴿فِي﴾ الظّرفيّة، تنصّ على أنّ ذلك الاعتداءَ وقعَ في شأن نقصِ حرمةِ السّبت[2].

دَلالةُ تَقييدِ قولِه: ﴿يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾:

حِيلَتُهم بنَصْبِ الشِّباك قبْلَ السّبتِ، اعْتِداءٌ على تحريم العمَلِ في السّبْتِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، قيّد اعتداءَهم بأنّه كائنٌ يوم السّبت، وفائدةُ هذا التّقييد الإشارةُ إلى مَزِيَّةٍ يختصُّ بها يومُ السّبت؛ إذ إنّ "ذِكْرَ وقت العدوان لا يتعلّقُ به غرضُ البليغِ، ما لم يكنْ لذلك الوقتِ مزيدُ اختصاصٍ بالفعل، فيُعلَمُ أنّ الاعتداءَ كان مَنُوطًا بحقٍّ خاصٍّ بيوم السّبتِ، وذلك هو حقُّ عدمِ العملِ فيه؛ إذ ليسَ لِيوم السّبتِ حقٌّ في شريعة موسى، سوى أنّه يَحْرُمُ العملُ فيه، وهذا العملُ هو الصّيدُ، كما تدُلُّ عليه بقيَّةُ القصَّة"[3].

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لإتْيانِ الحيتانِ:

وقتُ اعْتِدائِهم هو وقتُ مجيءِ الحيتانِ يومَ السّبْتِ

جاء قولُه تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾؛ لبيانِ وقتِ اعتدائهم؛ أي: اسألهم عن اعتدائهم وقتَ الإتيان[4]، وأجاز أئمّةُ التّفسيرِ أن يكون ظرفًا لـ﴿يَعۡدُونَ﴾، أو أن يكون بدلًا عن ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ﴾، وكونه ظرفًا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(4) الواحديّ، البسيط: 9/409.

أرجح للمعنى؛ "لأنّ السّؤالَ عن عداوتهم أدخلُ في التّقريع"[1]، ويمكن أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سؤالٍ: كيف عَدَوا في السّبت؟

نُكتةُ إضِافةِ الحيتانِ إليهم:

مِنْ كَرمِ اللهِ أنّه تعالى يَخلُقُ، ويَنسِبُ إلى عبادِه

جاء لفظُ الحيتان في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾ مضافةً إليهم، إشارةً إلى أنّ "المرادَ الحيتانُ الكائنةُ في تلك النّاحية الّتي هم فيها"[2]، وفيه تبكيتٌ لهم باعتدائهم؛ إذ إنّها "مخلوقةٌ لهم، فلو صبروا نالوها، وهم مطيعون"[3].

دَلالةُ إضَافةِ السّبْتِ إليهم:

الحيتانُ تأتِيهم يومَ حُرمةِ الصّيدِ عليهم، وانْصرافِهم للعبادةِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ﴾، أضاف السّبت إليهم، وهو يومٌ لكلّ النّاس، لا يختصُّ بأحدٍ ما، ولكنّ اليهودَ اختُصّوا بأحكامٍ في شريعتهم في هذا اليوم؛ لما للسّبت من مكانةٍ وقدسيّةٍ لدى اليهود، فهم يعظّمونه بترك العملِ فيه[4]، فجعله ظرفًا لمجيء الحيتان ابتغاءَ فتنتهم وابتلائهم، فأضافهم إلى السّبت؛ للدّلالة على مجيء الحيتان في اليوم الّذي ينقطعون فيه للعبادة، ويحرُمُ فيه العمل عليهم، والمعنى: "إنّهم إذا حفظوا حرمةَ السّبت، فأمسكوا عنِ الصّيد في يوم السّبت، جاءتِ الحيتانُ يومئذٍ شُرّعًا آمنةً، وإذا بعثهم الطّمعُ في وفرة الصّيد، فأعدّوا له آلاته، وعزموا على الصّيد لم تأتهم"[5].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بـ﴿شُرَّعٗا﴾:

الحيتانُ تأتي يومَ السّبْتِ وافرةً مُكتظّةً قريبةً مِنَ التّناوُلِ

عبّر عن كيفيّة مجيءِ الحيتانِ إليهم يومَ السّبت بقوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾، فهي تجيءُ مقبلةً إليهم،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/84.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/92.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/149.

مصطفّةً؛ للدّلالة على القُرْب والكثرة، مع ظهورها على سطح الماء[1]، و"ذلك وصفٌ مِن: شرعَتِ الإبلُ نحو الماء؛ أي: دخلَت لتشرَبَ، وهي إذا رعاها الرُّعاةُ تسابقَت إلى الماءِ، فاكتظَّت، وتراكمَت، ورُبَّما دخلَت فيهِ، فمُثِّلَت هيئةُ الحيتان، في كثرتها في الماء بالنَّعَمِ الشّارعَةِ إلى الماء، وحَسَّنَ ذلك وجودُ الماءِ في الحالتين"[2].

بَلاغةُ الكِنايةِ، في قولِه: ﴿شُرَّعَا﴾:

لفظُ (شُرَّعًا)، يعني كثيرةً ظاهرةً، سَهلةَ التّناوُلِ

بَيَّنَ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعَا﴾ حالَ مجيء الحيتان إليهم يوم السّبت، فهي تأتي ظاهرةً قريبةً منَ الشّاطئ، وكانت تدنو منَ القرية، بحيث يسهلُ تناولُها باليد وصيدُها، وفي ذلك كنايةٌ عن كونها كثيرة، في ورودها يوم السّبت[3].

معنَى الواوِ، في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ﴾:

اختبارُ القومِ بوَفرةِ الحيتانِ يومَ المنْعِ، قياسٌ للإيمانِ والامْتِثالِ

افتتحَ قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف؛ لأنّ "الإخبارَ بإتيانها يوم سبتهم، مَظِنّةُ أن يُقال: فماذا حالهم يوم لا يسبتون؟ فقيل: يوم لا يسبتُون لا تأتِيهم[4].

دَلالاتُ قولِه: ﴿لَا يَسۡبِتُونَ﴾:

اتّساعُ الدَّلالةِ يُعطِي بَدائلَ في المعنَى، تُثْري دَلالةَ التّركيبِ

جاء النّظمُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ﴾، متّسعَ الدّلالة، فذكر أئمّةُ التّفسير أنّه يَحتمِلُ أن يُرادَ بها الأيامُ السّتّةُ غير السّبت، ويحتملُ أن يُرادَ بها أيّامُ السّبت الّتي انتهكوا فيها حرمتَه، وفي ذلك جاءَ في التّحرير والتّنوير: "يجوز في قوله: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ﴾ أن يكونَ المعنى: والأيّامُ الّتي لا يَحرُمُ العملُ فيها، أي: أيّامَ الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتانُ. وأن يكونَ المعنى: وأيّامَ السُّبُوتِ الّتي استحلُّوها فلم يكُفُّوا عنِ الصّيدِ فيها؛ ينقطعُ فيها إتيانُ الحيتانِ. ولا يخفى أنّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148 - 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/391.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/285.

لإيثار هذا الأسلوبِ في التّعبير عنِ السّبت؛ خُصوصِيَّةً بلاغِيَّةً ترمي إلى إرادةِ كلا المعنَيين"[1]. وعلى إرادة المعنى الثّاني، وهو أيّامُ السّبت الّتي استحلُّوها، يكون انتفاءُ مجيء الحيتان شاملًا أيّامَ الأسبوع كلّها، مع السّبت الّذي استحلّوه، ويكون المعنى أنّهم ارتكبوا معصيةَ الاستحلالِ بلا فائدة. وفيه إشارةٌ إلى إصرارهم؛ إذ لمّا انقطعَت عنهم في أيّام السّبت الّذي ينتهكون حرمتَه، فكان ينبغي عليهم أن ينبذوا هذه المعصيةَ، ويثوبوا إلى ربّهم، ولكنّهم أصرّوا على ذلك.

نُكتةُ إضَافةِ لفْظِ (اليوم)، إلى ﴿لَا يَسۡبِتُونَ﴾:

السِّرُّ في تَعظيمِ ما عظَّمَ الله، واجْتِنابِ ما حرّمَه وأبَاه

أضاف النّظمُ الكريمُ لفظَ (اليوم)، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ﴾ إلى الجملة الفعليّة المنفيّة؛ للدّلالة على أنّ انتفاءَ مجيء الحيتان كائنٌ في كلّ يوم ليس سبتًا، والمعنى: "والأيّام الّتي لا يَحْرُمُ العملُ فيها، أي: أيّامَ الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتانُ"[2]. أو يكون المعنى على الاحتمال الثّاني: كلّ يوم لا ينقطعون فيه للعبادة، "ولعلّه عبّر بهذا إشارةً إلى أنّهم لو عظّموا الأحدَ، على أنّه سبتٌ جاءتهم فيه، وهو من: سبتتِ اليهود، إذا عظّمت سبتها"[3]، فيكون مجيءُ الحيتان إليهم متعلّقًا بعبادتهم.

دَلالةُ التّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَسۡبِتُونَ﴾:

معنَى (يَسْبِتُونَ) يَدخُلونَ السّبْتَ، ويَنقطِعونَ عنِ الاشْتغالِ بغيرِ العبادةِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾، عبّر عن كينونتهم خارجَ يوم السّبت بقوله: ﴿لَا يَسۡبِتُونَ﴾؛ أي: "لا يكون سبت"[4]، وإنّما عبّر عن ذلك بالفعل المضارع؛ للدّلالة على استمرار ذلك زمانًا تجدّدَ فيه هذا الحدث، ودخل النّفيُ على المضارع؛ للدّلالة على استمرار النّفي، لا نفي الاستمرار، والمعنى: تَكرارُ الأيّام الّتي لا ينقطعون فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/149.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

للعبادة وتجدّدها؛ تمهيدًا للتّعبير عن نفي مجيئها بتلك الأيّام على وجه الاستمرار. ولا يخفى أنّ التّعبيرَ بالأفعال المضارعة عنِ الأخبارِ الماضويّةِ، فيه استحضارٌ للصّورة أمام القارئ والسّامع.

مَوقعُ قولِه: ﴿لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾، ومعنَى النّفْيِ في هذا السِّياقِ:

الدَّلالةُ على أنّ مجيءَ الحيتان مُرْتبِطٌ بسبْتِهم وُجودًا وعدَمًا

أصلُ النّظمِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾ أن يقولَ: (تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم، ولا تأتيهم يوم لا يسبتون)، ولكنّه غيّر النّظمَ بتقديم الظّرف: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ﴾؛ لأنّ "الإتيانَ يومَ سبتِهم مَظِنّةٌ، كَما قِيل لأن يُقالَ: فماذا حالُها يومَ لا يَسبِتُون؟ فِقيلَ: يومَ لا يَسبِتُونَ لا تأتِيهم"[1]. كما أنّ فيه اهتمامًا بعلّة عدم مجيءِ الحيتان، فهو إشارةٌ إلى أنّ انتفاءَ المجيء، إنّما هو بسببِ أنّهم لا يسبتون؛ أي: يوم لا ينقطعون للعبادة لا تأتي الحيتان.

ونفيُ الإتيانِ بصيغة الفعل المضارع؛ للدّلالة على استمرار النّفي، والمعنى: أنّها لا تأتي في أيّام الأسبوع كلّها إلّا يومَ السّبتِ، فانقطاعها عنِ المجيء مُتكرّرٌ في كلّ أسبوع.

الموقعُ البيانيُّ لجُملة: ﴿نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾:

الاسْتِئْنافُ إشارةٌ إلى عِلّةِ ذلك الابتلاءِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ استئنافيّةٌ، وقعَت جوابًا لسؤالٍ عن القصّةِ، كأنّه يقول: "ما فائدةُ هذه الآية، مع علم الله بأنّهم لا يَرْعَوُونَ عنِ انتهاك حرمةِ السّبتِ"[2]؟ أي: أنّ الابتلاءَ المشارَ إليه جاءَ تعليلًا لأحداث تلك القصّة، فامتناعُ الحيتان عنِ المجيء كان اختبارًا شديدًا لهم.

معنَى (الكاف) في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ودَلالتُها على التّشْبيه:

شبَّهَ اللهُ ابْتِلاءَهم بأمْرِ الحيتانِ، بالابْتِلاءِ العظيمِ الّذي يَبتَلِي به عِبادَه

افتتحَ الجملةَ الاستئنافيّةَ بكاف التّشبيه، في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾؛ لتشبيه ما وقع لهم بما جرَت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.

به عادةُ المولى ﷻ، في ابتلاء عبادِه اختبارًا أو عقابًا لهم، "أي: مثلَ هذا الابتلاءِ العظيم نبلُوهم"[1].

دَلالةُ التّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

جاء اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾ دالًّا على البعد؛ إشارةً إلى عِظم البلاءِ وشدّته، أي: "مثلَ ذلك البلاءِ العجيبِ الفظيعِ"[2]، وأشدُّ ما يقع للنّاس منَ البلاء ما تعلَّقَ بأمنهم وقُوّتهم.

كانَ ذلك البلاءُ عظيمًا شَديدًا، جَديرًا بأن يُشارَ له بالبُعْدِ

سِرُّ التّعْبيرِ بالمضارعِ: ﴿نَبۡلُوهُم﴾:

عَبَّر عنِ الابتلاء في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾، بصيغة الفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّد والاستمرار؛ إعلامًا بتجدّد الاختبار؛ لأنّه كان مُتكرِّرًا كلَّ سبت، كما أنّ في التّعبير بالمضارع يحكي "الحالَ الماضيةَ لاستحضارِ صورتِها والتّعجيبِ منها"[3]، فيحيلُ تلك القصّةَ إلى مشهدٍ متخيَّلٍ في ذهن السّامع.

الابْتِلاءُ مُتَجدِّدٌ يَتكرّرُ كلَّ سبْتٍ، ولا يَنقطِعُ

معنَى الباءِ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾:

دلّتِ الباءُ في قوله جلّ شأنه: ﴿نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ على السّببيّة؛ أي: بسبب فِسقهم ابتليناهم ذلك الابتلاءَ العجيبَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ اللّه تعالى لا يظلمُ أحدًا من عباده؛ لئلّا يتطرّقَ الوهمُ لأحدٍ أنّ اللّه تعالى إنّما قصدَ إهلاكَهم، بل هم كانوا فاسقين خارجين عنِ اتّباع ما أُوحِي إليهم.

تَـقَـرّرَ ذلـك الابْـتِـلاءُ عليهم وتَـكَـرَّرَ، بسبَبِ فِسْقِهم المُتَكرِّرِ

دَلالةُ (ما) على المصدريّةِ:

دلّ قولُه جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ على سبب ابتلائهم، وذلك بسبب فسقهم، فـ (ما) مصدريّة؛ أي: نبلوهم بسبب فسقِهم، فَتوغُّلُهم في العصيان أضرَّهم على الزّيادةِ منهُ[4]. ولا يصلح أن

الـفِـسْـقُ هو الـسّـبَـبُ في ابْـتِـلائِـهـم ذلك الابْتِلاءَ العظيمَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/85.

(4) ابن عادل، اللّباب: 9/359.

تكون موصولةً بمعنى (الّذي)؛ لتكلُّفِ حذفِ العائد، وما كان بلا تأويلِ محذوفٍ فهو أولى[1].

سِرُّ دُخولِ لفْظِ (كانوا)، في جُملةِ الوصْفِ بالفِسْقِ:

الفِسْقُ خُلُقٌ راسِخٌ فيهم، دَأَبُوا عليه واعْتادُوه

قوله تعالى: ﴿نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾؛ دخل الفعلُ (كان) في جملة الوصف بالفسق للتّعبير عن عَراقتِهم بالفسق ورسوخِهم فيه، وأنّهم قد دأبوا عليه زمانًا طويلًا، وأنّ فِسْقَهم ليس حادثًا مع هذه القصّة، بل هو نهجٌ قديمٌ لهم.

نُكتةُ التَّعْبِيرِ بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿يَفۡسُقُونَ﴾:

اعْتِيادُ الفِسْقِ يَصيرُ لهم سَجِيّةً، لا فِكاكَ لهم عنه

عَبَّر عن فِسْقِهم في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ الدّالّ على خروجهم عن تعاليم اللّه تعالى، وانتهاكِهم المحرّماتِ بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ فسقَهم مستمرٌّ متجدِّدٌ، والجمع بين الفعل الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والمضارع ﴿يَفۡسُقُونَ﴾؛ للدّلالة على إصرارهم على الفسق. ودلّ هذا التّجدُّدُ والاستمرارُ على أنّ الفسقَ لا يكون سببًا للبلوى، بل بسبب كونهم اعتادوا الخروجَ عنِ الطّاعة في كلِّ أفعالهم[2].

عِلّةُ الفَرْقِ بين الفاصلَتَيْن، وتَخصيصُ كلِّ فاصلةٍ بما ذُكِرَ فيها:

تناسُبُ مُفرداتِ السِّياقِ، بالمقابَلةِ بين الرِّجْزِ والظُّلْمِ، والابتلاءِ والفِسْقِ

جاءتِ الفاصلةُ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ مختومةً بالظّلم، والفاصلةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ مختومةً بالفسق؛ لأنّ العذابَ بالرّجز أشدُّ منَ الابتلاء؛ فتكون علّتُه أشدَّ من علّة الابتلاء، ومعلومٌ أنّ الظّلمَ أشدُّ منَ الفسق، "ولفظُ الظّلم في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ بما يقتضيه مِن أنّهم لا ينفكّون عنِ الكون في الظّلم،

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 9/359، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

إمّا مطلقًا، وإمّا مع تجديد فعلِ مَن هو فيه أهولُ من لفظ الفسق، المقتضي لتجديد الخروجِ، ممّا ينبغي الاستقرار فيه"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَدْوُ والبغيُ والظُّلمُ:

الاعتداء: أصلُه يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتَقَدُّم لِمَا يَنبَغِي أن يُقتَصَرَ عليه، وهو خروجٌ عمّا حُدَّ ورُسِمَ[2]. والعَداوَةُ: "إرادَةُ السُّوءِ لِمَا تُعاديه، وأَصلُهُ المَيلُ، ومِنهُ عُدْوَةُ الوادِي، وهي جانِبُهُ، ويَجوزُ أَن يَكونَ أَصلُهُ البُعدَ، ومِنهُ عُدَواءُ الدَّارِ؛ أَي: بُعدُهَا، وعَدا الشَّيءَ يَعدُوهُ إذا تَجاوَزَهُ، كأَنَّهُ بَعُدَ عَنِ التَّوَسُّطِ"[3]. "العَدْوُ هو التَّعَدِّي في الأُمورِ، وتَجاوُزُ ما يَنبَغِي يُقْتَصَرَ عليه"[4]. والبَغيُ: "شدَّةُ الطّلب لما لَيسَ بِحَقٍّ، وبَغَى الجُرْحُ يَبغِي: إذا ترامى إلى فَسَادٍ. يرجعُ إلى ذَلِك البغاء وهو الزِّنَا"[5].

العَـدْوُ تَعْبيرٌ دقيقٌ عن تجاوُزِ حَـدِّ الـشّـرعِ، دونَ غيرِها مِنَ الألفاظِ

والظّلم: أصلُه نقصان الحقِّ، ونقيضُ الظُّلمِ الإنصافُ، وهو إعطاءُ الحقِّ على التّمام[6].

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾؛ أي: أنّهم "يتعدَّون حدَّ الشّرع في دينهم، مِن تركِ الاصطيادِ في يوم السّبت"[7]، فعبّر عن جريمتهم بالاعتداء؛ لأنّهم تجاوزوا حدَّ الشّرع، فانتهَكوا الممنوعَ، وهذا منَ الاعتداء، لا منَ الظّلم ولا البغي.

البلاءُ والفتنةُ والمحنةُ:

البلاءُ في الأَصل: التّكليفُ بالأمر الشّاق، ولا يكون إلَّا بتَحْمِيل

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 131.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/193.
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 232.
(6) العسكريّ، الفروق، ص: 172.
(7) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/39.

آثَرَ السِّياقُ لفْظَ البلاءِ؛ لأنّه ليسَ فيه معنَى التّعذيبِ، ولا الاضْطِرابِ

المكاره[1]، والفتنةُ ما يتَبَيَّنُ بهَا حَالُ الإنسانِ منَ الخَير والشَّرِّ، يُقال: فَتنتُ الذَّهَب بالنَّار، لتعلمَ أنّه خَالصٌ أَو مشوبٌ، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنّها مشتقّةٌ منَ الحرق بالنّار[2]. والمِحنَةُ: واحدة المِحَنِ الّتي يُمتَحَنُ بها الإنسانُ من بليَّةٍ. ومَحَنتُهُ وامتَحَنْتُهُ؛ أي: اختبرته، والاسم المِحنَةُ، مَحَنَهُ سَوطًا: ضَرَبَهُ[3].

وإنّما آثرَ أن يعبّرَ عنِ الاختبار بالابتلاء في هذا الموضِع؛ لأنّه ليس فيه معنى التّعذيب، ولا يؤدّي إلى الاضطراب، بل المرادُ منه التّشديدُ، وهو مقتضى الابتلاء دون الفتنة، فإذا كانتِ الفتنةُ منَ الحرق، فإنّ الامتحانَ منَ الضّرب، والغايةُ منه الكشفُ.وأمّا الابتلاءُ فالمرادُ منه الشّدّةُ والتّشديدُ والمشقّةُ، وهي الّتي تناسبُ الآيةَ ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾؛ إذ إنّ الابتلاءَ بالمعاش، بامتناع مجيءِ الحيتان إليهم، مشقّةٌ وشدّةٌ في العيش.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 216، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 217، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (محن).

المحتويات